

دولة الإسلام في الأندلس

تأليف

محمد عبد الله غنيان

العصر الأول - القسم الأول

من الفتح إلى بداية عهد الناصر



الناشر مكتبة الخانجي بالقاهرة

حقوق الطبع محفوظة للناشر

الطبعة الرابعة

١٤١٧ هـ = ١٩٩٧ م

رقم الإيداع : 90/8988

الترقيم الدولي : 977-505-082-4

مطبعة المكنى
المؤسسة السعودية بجمع
٦٨ شارع العباسية - القاهرة . ت : ٤٨٣٧٨٥١

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

تصدر اليوم الطبعة الرابعة من كتاب « دولة الإسلام في الأندلس » ، وقد أتيج لنا بعون الله وتوفيقه ، أن نكمل تاريخ الأندلس منذ بدايته إلى نهايته ، وأن تظهر عصوره الأربعة على النحو الآتي :

العصر الأول - ويشمل تاريخ فتوح إفريقية والأندلس ، وعصر الولاة ، ثم تاريخ الدولة الأموية الأندلسية منذ قيامها في ظل الإمارة ، ثم قيام الخلافة الأموية ، وانحلالها على يد الدولة العامرية ، ثم انهيارها وسقوطها ، وبدء قيام دول الطوائف الأندلسية : ٢٢ - ٤٥٠ هـ (٦٤٣ - ١٠٥٨ م) .

وهذا العصر ، هو الذى تقدمه اليوم إلى القارئ في طبعته الجديدة .

العصر الثانى - « دول الطوائف » ، ويشمل تاريخ الأندلس منذ قيام دول الطوائف الأندلسية ، فى أوائل القرن الخامس الهجرى ، حتى سقوطها على يد المرابطين فى أواخر هذا القرن : ٤٢٥ - ٥٠٢ هـ (١٠٣٣ - ١١٠٨ م) .

العصر الثالث - « عصر المرابطين والموحدين فى المغرب والأندلس » ويشمل تاريخ هاتين الدولتين المغربيتين العظيمتين ، منذ بدايته حتى نهايته ، وتاريخ الأندلس الكبرى فى ظلهم ، ثم انهيارها عقب انهيار سلطان الموحدين فى الأندلس ، فى أوائل القرن السابع الهجرى : ٥٠٠ - ٦٦٨ هـ (١١٠٦ - ١٢٦٩ م) .

العصر الرابع - « نهاية الأندلس وتاريخ انحراب المنتصرين » ، ويشمل تاريخ مملكة غرناطة آخر دول الإسلام فى الأندلس ، منذ قيامها حتى سقوطها ، ثم تاريخ الأمة الأندلسية المغلوبة تحت نير اسبانيا النصرانية ، بعد أن غدت طائفة الموريسكيين أو العرب المنتصرين ، وما نزل بها من محن التنصير المغصوب ، ومختلف ضروب الاضطهاد المفجعة ، حتى إخراجها نهائياً من

الأراضي الإسبانية ، وذلك في بداية القرن السابع عشر الميلادي : ٦٣٥ -
١٠١٩ هـ (١٢٣٧ - ١٦١٠ م) .

وقد أتيج لنا إلى جانب هذه العصور الأربعة من تاريخ الأندلس ، أن
نصدر في نفس الوقت مؤلفاً خاصاً عن الآثار والنقوش الأندلسية الباقية ، في
شبه الجزيرة الأندلسية ، وذلك بعنوان « الآثار الأندلسية الباقية ، في اسبانيا
والبرتغال » .

وتشغل هذه العصور الأربعة تسعة قرون من حياة الأمة الأندلسية ، زاخرة
بالأحداث والعبر والمآسي المشجية ، لم نأل جهداً في سردها ، وتحليلها ،
وإسنادها إلى مصادرها الوثيقة .

وقد أنفقت في كتابة هذه العصور الأربعة ، من تاريخ الأمة الأندلسية ،
خمسة وعشرين عاماً ، قمت خلالها بست عشرة رحلة في اسبانيا والمغرب ،
لم أدخر خلالها وسعاً في البحث والتنقيب ، وتقصى مختلف المصادر والوثائق ،
ودراسة المخطوطات العربية ، والوثائق القشتالية ، في مختلف مواطنها .

ولقد كان لهذا التجوال المتكرر ، في ربوع الأندلس القديمة ، والزيارات
المتعددة للقواعد الأندلسية الداهية ، ولاسيما القواعد الكبرى مثل قرطبة وإشبيلية ،
وبلنسية ، وشاطبة ، ومرسية ، وسرقسطة ، وطليطلة ، وبطليوس ، وماردة ، وأشبونة ،
وباجة وغرناطة ، وألمرية ، ومالقة ، وغيرها ، وهذه الدراسات المستفيضة
لآثارها ونقوشها الأندلسية الباقية ، وهذه المشاهدات لطبائع الإقليم ، والبقاع ،
والأوساط التي حلت فيها الأمة الأندلسية ، وعاشت عدة قرون ، ووضعت أسس
حضارتها العظيمة - كان لذلك كله في نفسى أعمق الآثار ، وقد أمدنى بكثير من
الحقائق والفكر الجديدة .

وأود أن أنوه هنا ، بأنه فضلاً عن استيعاب المصادر القشتالية واللاتينية
القديمة ، والمصادر الغربية الحديثة ، إلى جانب المصادر العربية المختلفة العامة
والخاصة ، قد أتيج لي أن أنفع بكثير من المصادر المخطوطة الهامة ، مما عثرت
عليه خلال بحوثي في المجموعات الإسبانية (ولاسيما مجموعة الإسكوريال ومجموعة
أكاديمية التاريخ) ، والمجموعات المغربية في الرباط وفاس ، وأن أنفع في
هذا القسم من تاريخ الأندلس ، بوجه خاص ، بثلاث قطع مخطوطة نادرة

من مؤلف ابن حيان القيم في تاريخ الأندلس ، وهو كتاب «المقتبس في تاريخ رجال الأندلس» أو «المقتبس في أخبار أهل الأندلس» .

القطعة الأولى - وتشمل حوادث سنى ١٨٠-٢٣٢ هـ ، أعنى عصرى الحكم ابن هشام وعبد الرحمن بن الحكم ، وتقع فى نحو مائة صفحة (ص ٨٨ - ١٨٩) من القطع الكبير ، وهى عبارة عن بداية السفر الثانى من كتاب «المقتبس» ، ويرجع الفضل فى انتفاعى بهذا القسم ، إلى صديقى العلامة المرحوم الأستاذ لىثى بروفنسال ، وكان قد عثر عليه فى مكتبة جامع القرويين بفاس ، وقد اختفى الآن هذا القسم ولا نعرف مكان وجوده .

القطعة الثانية - وهى تأتى مباشرة بعد القطعة الأولى ، وتشمل حوادث سنى ٢٣٣ - ٢٦٧ هـ ، أعنى بقية عصر عبد الرحمن بن الحكم ، ومعظم عهد ولده الأمير محمد ، والبوادر الأولى للثورة الكبرى ، وتقع فى ٩٥ لوحة أعنى مائة وتسعين صفحة من القطع الكبير ، وهى عتيقة بالية كثيرة الخروم ، متساقطة الحوافى ، مكتوبة بخط أندلسى قديم ، وقد كتب فى نهايتها «كمل السفر الثانى بحمد الله تعالى ، يتلوه الثالث ، مبتدأ نجوم عمر بن حفصون كبير الثوار بالأندلس» . وهى تحتوى على تفاصيل ومعلومات هامة عن بلاط قرطبة وأحواله فى هذا العصر ، وعن الصقالية والوزراء والعمال . وقد عثرت على هذه القطعة فى مكتبة جامع القرويين بفاس ، وحصلت منها على صورة فتوغرافية ، وانتفعت بها منذ الطبعة الثالثة من الكتاب انتفاعاً عظيماً ، وذلك بالرغم من صعوبة المراجعة فى هذه المخطوطة البالية^(١) .

ويتلو هذا القسم المخطوط الذى يشتمل على السفر الثانى من «المقتبس» ، السفر الثالث ، الذى قام بنشره المستشرق الإسبانى الأب الأوغسطينى ملشور أنتونيا عن مخطوطة المكتبة البودلية بأكسفورد (باريس سنة ١٩٣٧) ، وهو يشتمل على عهد الأمير عبد الله بن محمد ، وحوادث الفتنة الكبرى من سنة ٢٧٥ إلى سنة ٢٩٨ هـ ، قبيل عهد الناصر بعامين .

القطعة الثالثة - وهى تتعلق بأعظم اكتشاف من نوعه من كتاب «المقتبس» ،

(١) وقد قام صديقى الدكتور محمود على مكى أخيراً بتحقيق هذه القطعة ونشرها ، وسوف تظهر قريباً .

وهو العثور على « السفر الخامس » منه المتعلق بعهد عبد الرحمن الناصر .

إن هذا الاكتشاف يتعلق بأعظم قطعة مخطوطة عثر بها البحث حتى اليوم من هذا المؤلف الكبير . وقد تم العثور عليها منذ أعوام قلائل بين موجودات الخزانة الملكية بالرباط ، وقد كان من حسن الطالع أن أتيج لنا الاطلاع عليها ودراسة محتوياتها دراسة وافية .

وهي عبارة عن جزء ضخيم من كتاب « المقتبس » يقع في مائة وخمسة وثمانين ورقة كبيرة تضم ٣٧٠ صفحة ، ولا يحمل المخطوط عنواناً لأنه ناقص من أوله . ولكن لا يصعب على من يعرف منهج ابن حيان التاريخي وأسلوبه النقدي ، ومصادره التي يقتبس منها ، أن يدرك لأول وهلة أنه أمام جزء كبير من المقتبس . ومن جهة أخرى ، فإنه مما يقطع بصحة هذا الاستنتاج ، ما قرأناه في حوادث سنة ٣٢٧ هـ ، عن موقعة الخندق ، من قول المؤلف خلال حديثه عن قتل من المسلمين في الموقعة « وفشا القتل فيمن سواهم من المستنفرين والحشودة ، فافترطنا فيهم إلى جدنا حيان الأملل طريقة أبا سعد مروان بن محمد بن حيان رحمه الله » .

ويضم هذا المجلد الضخم السفر الخامس من كتاب « المقتبس » ، وذلك حسباً ورد في ختامة . وهو يتعلق جميعه بعصر عبد الرحمن الناصر . ومن ثم كانت أهميته البالغة ، بيد أنه مع ضخامته لا يشمل عصر الناصر كله ، وهو يبدأ من سنة ٣٠٠ هـ وينتهي في سنة ٣٥٠ هـ . بل تنقص هذا السفر الخامس من « المقتبس » في البداية نحو ستين صفحة ، وهو يبدأ بحوادث سنة « سبع وثلاثمائة » ، وينتهي بحوادث سنة ٣٣٠ هـ وإن كان يتناول أحياناً بعض الحوادث التي وقعت قبل ذلك أو بعد ذلك حتى سنة ٣٤٠ هـ .

والمخطوط قديم ، ومكتوب بخط أندلسي جميل ، ولكنه لا يحمل تاريخ كتابته (١) .

وقد قضينا في دراسة هذا المخطوط والنقل منه فترات طويلة ، وانفتحنا

(١) هذا وقد كتبت عن هذا الاكتشاف بحثاً مفصلاً ، نشر بمجلة معهد الدراسات الإسلامية بمدريد في المجلد الثالث عشر (سنة ١٩٦٥ - ١٩٦٦) . ثم ألفت بعد ذلك عنه محاضرة بالإنجليزية بمدرة الدراسات الشرقية والإفريقية بجامعة لندن في ربيع سنة ١٩٦٧

بمحتوياته أعظم انتفاع ، في هذه الطبعة الرابعة من كتابنا ، وما نقلناه منه يرى الضياء لأول مرة .

وتوجد إلى جانب ذلك قطعة مخطوطة أخرى من تاريخ ابن حيان في مكتبة أكاديمية التاريخ بمدريد (مجموعة كوديرا) ، تقع في ١٣٦ صفحة صغيرة ، وتشتمل على حوادث سني ٣٦١ - ٣٦٤ هـ ، وهي أواخر عهد الخليفة الحكم المستنصر بالله ، وتحتوي على معلومات هامة عن الشؤون المالية والإدارية في هذا العصر .

فإذا ذكرنا بعد ذلك كله ، ما نقله الكتاب والمؤرخون اللاحقون مثل ابن بسام صاحب الذخيرة ، وابن عذارى صاحب البيان المغرب ، وابن الخطيب ، في الإحاطة ، وأعمال الأعلام ، والمقرى في نفع الطيب ، من الفصول والشذور العديدة ، من تاريخ ابن حيان ، أدركنا أننا قد ظفرنا في الواقع بقدر كبير ، وربما معظم محتويات هذا التاريخ العظيم الجامع ، الذي يعتبر بحق من أقيم مصادر التاريخ الأندلسي ، وأكثرها اتزاناً ، وأقواها من حيث الروح التحليلية والنقدية ، ولا سيما فيما يتعلق بحوادث سقوط الخلافة الأموية ، وأوائل عهد الطوائف ، وهو العصر الذي أدركه ابن حيان وعاش فيه ، وشهد أحداثه المثيرة ، وترك لنا عنها أبدع الصور وأقواها .

ونكتفي بهذه الإشارة إلى المصادر المخطوطة ، وهي عديدة ذكرت في مواضعها ، وكذلك المصادر الأخرى من عربية وقشتالية وغيرها ، فقد ذكرت كذلك في مواضعها ، وسوف نثبتها جميعاً في نهاية الكتاب في ثبت خاص .

وأما المصادر والنصوص والوثائق اللاتينية والقشتالية ، فقد راجعت معظمها في مدريد ، في المكتبة الوطنية ، وقسم المحفوظات التاريخية ، وكذلك في مكتبة معهدنا المصري بمدريد ، وهي تضم مجموعة نفيسة من مصادر التاريخ الأندلسي .

* * *

ولا بد لي أن أكرر هنا ما سبق أن ذكرته في مقدمة الطبعة الأولى ، وهو أنني بذلت في كتابة هذا المؤلف الذي يمزج فيه تاريخ الشرق والغرب ، والإسلام والنصرانية ، جهداً خاصاً لتمحيص الروايات والنصوص العربية والإنجليزية ، واستخراج الرواية الراجحة ، وتكوين الرأي المستقل مهما يكن هذا الرأي

ومما تجدر ملاحظته أن تاريخ الأندلس كتاريخ الحروب الصليبية ، يمتاز في كثير من الأحيان بتباين واضح بين الرواية الإسلامية والرواية النصرانية ، وقد تتأثر هذه الرواية أو تلك ، بالموثرات القومية أو الدينية ؛ ولكن الرواية الإسلامية فيما يتعلق بتاريخ الأندلس ، تبدو على العموم أقل تحاملاً ، وأكثر دقة واعتدالاً . وأما الرواية النصرانية فكثيراً ما يشوبها الإغراق والتحامل ، وينقصها الإنصاف والدقة . ويرجع ذلك إلى أن الروايات النصرانية الأولى ، التي كتبت عن تاريخ اسبانيا المسلمة ، كانت من تصنيف بعض الأخبار المتعصبين ، وإلى أن مؤرخي اسبانيا المحدثين ، لبثوا حتى أواخر القرن الثامن عشر يكتبون تاريخ اسبانيا من ناحية واحدة ، ويرجعون إلى المصادر النصرانية دون غيرها ، ويجهلون كل بحث أو تنقيب في المصادر العربية ، وذلك بالرغم من أن تاريخ اسبانيا المسلمة يشغل أعظم مكانة في تاريخ اسبانيا في العصور الوسطى ، ويكون صفحة من أمجد صفحاته . وقد نعى النقد الإسباني الحديث نفسه هذا المسلك على مؤرخي اسبانيا النصرانية ، فثلاً يقول العلامة المستشرق الإسباني جاينجوس في مقدمة ترجمته لكتاب نفع الطيب : « إن ماريانا وأكابر المؤرخين الإسبانين تحذوهم عاطفة بغض قومي عميق ، أو نزعة تعصب ديني ، أبدوا دائماً أبلغ الإحتقار لمؤلفات العرب .. فكانوا يرفضون وسائل البحث التي تقدمها لهم الوثائق التاريخية العربية الكثيرة ، ويهملون المزايا التي قد تترتب على المقارنة بين الروايات النصرانية والإسلامية ، ويؤثرون أن يكتبوا تواريخهم من جانب واحد . وقد ترتب على هذا الروح الضيق الذي يطبع كتاباتهم أثر واضح . ذلك أن تاريخ اسبانيا في العصور الوسطى ، ما يزال بالرغم من كل ما أفاض عليه النقدة المحدثون ، معتركا من الخرافة والمتناقضات » .

وقد أرسل العلامة جاينجوس هذه الصيحة منذ نحو قرن . ومع ذلك فإن فريقاً من المؤرخين والمفكرين الإسبان ، ما زال حتى عصرنا يعتبر تاريخ الأمة الأندلسية صفحة بغيضة من التاريخ القومي ، وأن القضاء على الأمة الأندلسية وعلى حضارتها إنما هونصر قومي باهر ، وأن مطاردات ديوان التحقيق المروعة لبقايا الأمة المغلوبة ، إنما هي عمل إنقاذ وسلام . وينسى هذا الفريق أو يتناسى كل المزايا ، وكل الجهود الإنتاجية ، وكل التراث الحضاري ، وكل التقدم الإنساني الذي

حققه المسلمون في اسبانيا ؛ بل نجد في العصر الحديث عالماً إسبانياً مثل المستشرق سيمونيت ، يبرر ، بل ويمجد العمل الوندلي الذي ارتكبه الكردينال خمينس مطران طليطلة ، بجمع الكتب العربية من المسلمين بعد سقوط غرناطة بقليل ، وقد بلغت زهاء مائة ألف أو تزيد ، والاحتفال بإحراقها أكداً في ميادين غرناطة ، لكي تحرم الأمة المغلوبة بذلك من غذائها الروحي والفكري .

على أن البحث الغربي الحديث ، استطاع أن يستدرك كثيراً من شوائب هذا النقص ، الذي يكتنف تاريخ اسبانيا في العصور الوسطى ، فدرست الكتب والوثائق العربية منذ أوائل القرن الماضي ، وتبوأ المصادر الإسلامية مكانها إلى جانب المصادر النصرانية ، وترجم البعض منها إلى اللغات الأوربية ، وظهرت طائفة كبيرة من الكتب والبحوث النقدية بمختلف اللغات الأوربية ومنها الإسبانية ، تكشف للغرب عن كثير من الحقائق المتعلقة بتاريخ الأندلس ، وأحوال المجتمع الإسلامي في اسبانيا ، وتكشف بالأخص عن القسط البارز ، الذي ساهمت به المدينة الإسلامية بالأندلس ، في بناء الحضارة الإسبانية الحديثة ، وحضارة عصر الإحياء الأوربي .

هذا وقد راعيت في سائر فصول هذه القصة الأندلسية المشجية ، أن أسلك سبيل التبسط المعتدل ، بعيداً عن الإيجاز المخل ، بعيداً في الوقت نفسه عن الإسهاب والتفاصيل الكثيرة ، لإمادعت إليه المناسبات الهامة أو المواقع الحاسمة ، حريصاً خلال ذلك كله على أن أبرز الحوادث والشخصيات والصور في إطارها النقدي ، الذي تدعّمه الوثائق والنصوص والقرائن ، بعيداً كل البعد عن التأثر بالعاطفة أو الأهواء أو الانجهاات القومية أو الدينية من أي نوع ، وإني لأرجو أن أكون قد وفقت في ذلك ، إلى تأدية رسالة الحق والصدق والاعتدال ، في كتابة هذه الصفحات المشرقة المؤسسية معاً من تاريخ الأمة الأندلسية .

وقد حرصت إلى جانب تاريخ اسبانيا المسلمة ، أن أكتب في نفس الوقت تاريخ اسبانيا النصرانية ، فاستعرضت منذ البداية نشأة المملكة النصرانية الأولى ، ثم تاريخ الممالك النصرانية اللاحقة ، ثم تناولت تاريخها تباعاً في عصورها المتعاقبة ، وعנית بعد ذلك بتتبع أحداث المعركة الأبدية المضطربة ، التي نشبت بين الأندلس المسلمة ، وبين هاته الممالك النصرانية ، وهي التي غدت فيما بعد محور التاريخ الأندلسي

كله ، ثم تحولت من جانب اسبانيا النصرانية إلى ما يسميه المؤرخون الإسبان « معركة الاسترداد » La Reconquista ، وانتهت إلى نتیجتها الطبيعية المحتومة ، أعنى إلى القضاء على دولة الإسلام فى اسبانيا .

وهذه الطبعة الجديدة من « دولة الإسلام فى الأندلس » تتضمن بعض الإضافات والنصوص الجديدة ، التى استطعنا أن نقتبسها بالأخص من « السفر الخامس » من تاريخ ابن حبان ، وهو الذى يتضمنه مخطوط المكتبة الملكية الذى سبق ذكره ، وقد كنا لحسن الطالع ، أول من وفق إلى مراجعته والانتفاع به . وقد نقلنا منه كثيراً من النصوص والوثائق الهامة ، ولا سيما كتاب الناصر عن فتنة ابن مسرة ، وكتابه عن موقعة الخندق ، وغيرها من الوثائق الرسمية التى ترى الضياء لأول مرة فى البحوث الأندلسية . كما تتضمن هذه الطبعة فصلين جديين ينشران لأول مرة ، الأول عن نظم الحكم والأوضاع السياسية والعسكرية والاقتصادية فى عصر الإمارة والخلافة ، والثانى عن الحركة الفكرية الأندلسية .

هذا إلى ما تتضمنه هذه الطبعة أيضاً من النصوص والتعليقات الكثيرة ، المستمدة من المصادر النصرانية والقشتالية ، وهو أثر من آثار المراجعة المستمرة التى عكفت عليها فى مدريد ، خلال رحلاتى المتوالية إلى شبه الجزيرة الإسبانية .

ولقد تمنيت فى ختام مقدمة الطبعة الأولى لهذا الكتاب ، أن يكون صدوره « بداية مشجعة تبعث إلى اهتمام الباحثين بهذه الصفحة المحيطة من تاريخ الإسلام فى الغرب » . وإنه لما يدعو إلى الغبطة ، ما يلاحظ من تقدم الدراسات الأندلسية وانتعاشها فى العهد الأخير ، وذلك سواء فى ميدان الكتابة والتصنيف ، أو ميدان نشر الآثار الأندلسية المخطوطة ، وهو نشاط تساهم القاهرة فى قسميه بأوفى نصيب .

محمد عبد المنان

القاهرة فى المحرم سنة ١٣٨٩
الموافق مارس سنة ١٩٦٩

الكتاب الأول

فتوح العرب

في إفريقية والأندلس وغاليس

وعصر الولاة في الأندلس

٢٢ - ١٣٨ هـ : ٦٤٣ - ٧٥٥ م

الفصل الأول

فتوح العرب في إفريقية

الصراع بين الدولتين الإسلامية والرومانية . اتجاه الفتوح الإسلامية نحو الغرب . غزو برقة . جرجير حاكم إفريقية الروماني . موقعة سببلة وهزيمة الروم . فتح سببلة عقد الصلح . إفريقية وقت الفتح الإسلامي . أحوالها في ظل الحكم الروماني . انتقالها إلى الدولة الشرقية . فتحها على يد الوندال . كلمة بربر مدلولها . إستعادة الدولة الشرقية لإفريقية . ضعفها وانحلالها . وقف الفتوح العربية واستئنافها على يد الدولة الأموية . موقعة حصن الأجم . إفتتاح سوسة وحصن جالولاه . ولاية عقبة بن نافع الفهري لإفريقية . إفتتاحه لأقطار المغرب . بناؤه لمدينة القيروان . ولاية أبي المهاجر الأنصاري . ولاية عقبة الثانية . مسيره ثانية إلى المغرب . ثورة البربر وقيام كسيلة بن لمزم . هزيمته للمسلمين واستيلائه على القيروان . ولاية زهير البلوي . زحفه على القيروان . مقتل كسيلة وإفتتاح القيروان . هجوم الروم من البحر على برقة . هزيمة العرب ومقتل زهير . مسير حسان بن النعمان إلى إفريقية . غزو العرب لقرطاجنة واستيلائهم عليها . فقتلهم إياها ثم استرداهم لها . ثورة البربر وقيام للكاهنة . القتال بين العرب والبربر . هزيمة العرب إرتدادهم إلى برقة . عود حسان إلى غزو المغرب . انصراف البربر عن الكاهنة وهزيمتها . تنظيم حكومة إفريقية وتجديد القيروان . عزل حسان وولاية موسى بن نصير . نشأة موسى وحياته الأولى . الخلاف على تاريخ توليته لإفريقية . عود البربر إلى الثورة . هزيمتهم وسحق ثورتهم . فتح موسى لطنجة . لاية طارق بن زياد لها . إنشاء موسى للأستول . غزو العرب لجزائر البليار وصقلية وسردانية .

كان الصراع الذي نشب بين الدولة الإسلامية الناشئة ، وبين الدولة الرومانية الشرقية ، يضطرم حينما تبسط الدولة الشرقية سلطانها . وكانت بسائط الشام مهاد المعارك الأولى بين الدولتين ، وكانت أول قطر غنمته الخلافة من أراضي الدولة الرومانية ؛ ثم إفتتح العرب مصر بعد الشام ، وهي أيضاً ولاية رومانية ، وكان إفتتاحها في خلافة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ، على يد عمرو بن العاص ، وذلك في المحرم سنة عشرين من الهجرة (ديسمبر سنة ٦٤٠ م) . ولما كانت مصر تتصل من الغرب بأملاك أخرى للدولة الرومانية هي الولايات الإفريقية ، فقد كان من الطبيعي أن يتخذ العرب مصر قاعدة لإفتتاح إفريقية ، توطيداً لسلطانهم في مصر

والشام ، وإتماماً لسلسلة الفتوحات الغربية . غير أن تقدمهم نحو الغرب كان محفوفاً بمشاق وصعاب لم يألفوها في فتوحهم الأولى ، فقضوا زهاء نصف قرن في معارك عنيفة مع الروم (الرومان) والبربر ، وأصيبوا إلى جانب انتصاراتهم ، بأكثر من هزيمة شديدة ، وواجهوا عدة ثورات محلية عنيفة ، وانهار سلطانهم الفتي غير مرة ، قبل أن يستقر نهائياً في إفريقية :

وبدأ العرب فتوحهم في إفريقية عقب افتتاحهم لمصر مباشرة . ففي سنة اثنتين وعشرين من الهجرة ، أعنى بعد افتتاح مصر بنحو عامين ، سار عمرو ابن العاص غرباً إلى برقة ، فافتتحها وصالح أهلها على الجزية ، ثم افتتح طرابلس (أو إطرابلس) بعد أن حاصرها شهراً ولجأ سكانها إلى سفنهم في البحر ، ولكنه تركها بعد اغتنام ما فيها^(١) . وفي خلافة عثمان توغل العرب في قفار إفريقية . وفي سنة سبع وعشرين (٦٤٧ م)^(٢) سار عبد الله بن سعد بن أبي سرح الذي خلف عمرأ في ولاية مصر إلى إفريقية في نحو عشرين ألف مقاتل^(٣) ، وسارت معه حامية برقة بقيادة عقبة بن نافع ، وكان عمرو قد ولاه على تلك الأنحاء^(٤) . وقصد الغزاة بادئ بدء إلى طرابلس وهي يومئذ أعنى وأمنع ثغور إفريقية^(٥) .

فتوح

(١) فتوح مصر وأخبارها لابن عبد الحكم (طبعة لجنة ذكرى جب) ص ١٧١ ، وأبو الفداء (مصر) ج ١ ص ١٦٤ ، وابن الأثير (مصر) ج ٣ ص ١٠ .
(٢) هذه هي رواية ابن عبد الحكم (ص ١٨٧) وهي أقدم رواية . ويوافقة البلاذري ، وهو معاصر له تقريباً ، ولكنه يضيف إلى ذلك أن هناك رواية بوقوع هذه الغزوة سنة ٢٨ هـ ، وثالثة بوقوعها سنة ٢٩ (فتوح البلدان - مصر - ص ٢٢٦) . ويضع الطبري تاريخ هذه الغزوة في سنة ٢٧ هـ متفقاً مع ابن عبد الحكم والبلاذري (مصر ج ٥ ص ٤٨ و ٤٩) . ولكن ابن الأثير يضع تاريخها في سنة ٢٦ هـ (ج ٣ ص ٣٣) .

(٣) فتوح مصر ص ١٨٤ .

(٤) فتوح البلدان ص ٢٢٤ .

(٥) يطلق العرب اسم إفريقية على الأقطار الواقعة شمال هذه القارة دون مصر . وذكر ياقوت في معجمه أن حد إفريقية من برقة شرقاً إلى طنجة الخضراء غرباً ، وعرضها من البحر إلى الرمال التي في أول السودان (معجم البلدان في مقال إفريقية) . وتنقسم إلى ثلاثة أقسام : الأول ، إفريقية ويمتد من حدود مصر الغربية إلى شرق الجزائر ، والثاني المغرب الأدنى ويشمل قطر الجزائر تقريباً ، والثالث المغرب الأقصى ممتداً من غرب الجزائر إلى المحيط ، ويشمل إقليم مراکش وطنجة . وكانت كلمة إفريقية تطلق أيضاً في العصور الوسطى بمعنى أخص على إقليم تونس وما يليه .

ولكن الروم تقدموا إلى لقاء المسلمين في مائة وعشرين ألف مقاتل^(١) بقيادة جريجوريوس أو جرجير حاكم إفريقية الروماني^(٢). وتختلف الرواية الإسلامية في أمر جرجير هذا ، ويقول البعض إنه كان من الفرنج ، وليس من الروم ، وإنه كان ملك الفرنجة في إفريقية ما بين طرابلس وطنجة ، وإن سيطله كانت دار ملكه . والحقيقة أن إفريقية كانت في ذلك الحين ولاية رومانية ، تخضع لقيصر (إمبراطور) قسطنطينية ، وكان جرجير أو جريجوريوس حاكمها من قبل الإمبراطور . على أن حاكم إفريقية الروماني ، كان يتمتع وقتئذ بكثير من الإستقلال ، نظراً لضعف السلطة المركزية في عاصمة الدولة الشرقية . وهكذا كان شأن جرجير ، فقد كان حاكماً يأمره في ولايته . ولما علم العرب بتحرك جرجير ، تركوا حصار طرابلس وساروا إلى لقاء الروم ، ونشبت بين الجيشين مدى أيام معارك شديدة في ظاهر سبيلة (سوقيتولا) بالقرب من أطلال قرطاجنة القديمة ، وهي عاصمة إفريقية يومئذ ، فهزم الروم هزيمة شديدة . وقتل قائدهم جريجوريوس ، وأسرت إينته (٢٨ هـ - ٦٤٨ م)^(٣) . ثم حاصر عبد الله سبيلة ، وافتتحها وخربها ، وبث جيوشه في تلك الأنحاء حتى قفصة . ثم عقد الصلح مع أهلها على أن يؤدوا الجزية . وقضى في تلك الغزوات خمسة عشر شهراً . ولكنه لم ينشئ في البلاد المفتوحة حكومة جديدة . ولم يتخذ بها قاعدة إسلامية . ثم عاد إلى مصر بعد أن أنشأ حامية في برقة وأخرى في زويلة^(٤) .

ويجب قبل أن نمضي في الكلام على افتتاح إفريقية أن نذكر كلمة عما كانت عليه أحوالها وظروفها وقت الفتح الإسلامي . كانت إفريقية منذ زوال قرطاجنة القديمة ، في أوائل القرن الثاني قبل الميلاد إلى أوائل القرن الخامس بعده ، ولاية رومانية تخضع لسلطة رومة أولاً ، ثم بعد سقوطها لسلطة قسطنطينية أو الدولة

(١) ابن الأثير ج ٣ ص ٢٤ - Gibbon : Roman Empire, Ch. LI,

(٢) ابن خلدون - كتاب العبر - ج ٦ ص ١٠٧ .

(٣) روى ابن عبد الحكم أن ابنة جريجوريوس وقتت بعد أسرها في نصيب رجل من الأنصار ، ولكنها انتحرت أثناء الطريق (فتح مصر ص ١٨٥) .

(٤) ابن عبد الحكم ص ١٨٣ .

الرومانية الشرقية ؛ ولما غزت القبائل الجرمانية رومة واستولت على معظم أقطار الدولة الرومانية الغربية ، نفذ الوندال إلى غاليا أو غاليس (جنوبي فرنسا) ثم إلى اسبانيا ، واستقر الوندال حينئذ في جنوبي إسبانيا في ولايات الأندلس ، التي سميت يومئذ باسمهم « فانداليتا » Vandalita أو فاندلوسيا Vandalusia أى بلد الوندال (١) .

وكان البربر أو سكان إفريقية ، قبل الفتح الروماني ، يدينون بالوثنية ، ولكن رومة استطاعت منذ أوائل القرن الرابع ، أن تفرض النصرانية على معظم القبائل . ويقول لنا ابن خلدون من جهة أخرى ، إن القبائل البربرية كانت وقت الفتح الإسلامي تدين باليهودية ، وإنهم تلقوها منذ أقدم العصور عن بنى إسرائيل عند استفحال ملكهم لقرب الشام وسلطانه منهم ، وكان من هؤلاء قبائل جبل أوراس وملكهم الكاهنة (٢) . وكان الفتح الروماني شديد الوطأة على القبائل المغلوبة ، وكانت النظم الإدارية والمالية التي فرضتها عليهم رومة غاية في التعسف والشطط ، مع ما يقترن بها من اقتضاء الضرائب والمغارم الفادحة ؛ فكان البربر يتوقون إلى التخلص من نيرها ، وقد نزعوا فعلا إلى الثورة في عهد الإمبراطور تيودوسيوس في أواخر القرن الرابع ، ونادوا بأحد زعمائهم ملكاً عليهم ، ولكن الثورة أخفقت وأخذت . ولما انتقلت إفريقية إلى سلطان قسطنطينية بعد سقوط رومة ، كانت قد اضمحلّت ثروتها ، واضطربت نظمها ، ومزقتها الخلافات الدينية ، وضعف سلطان الدولة عليها ، وكثر الخوارج من الحكام والزعماء المحليين . وفي أوائل القرن الخامس ، عبر الوندال البحر من اسبانيا إلى إفريقية ، بقيادة ملكهم جنسريك ، وافتتحوها في سنة ٤٢٩ م ، وعاونهم البربر (٣) جياً في التخلص من نير رومة . ولكن الوندال عاثوا في إفريقية أهما عيث ، وخرّبوا المدن والمنشآت

(١) سوف نفصل في حاشية لاحقة أصول هذه التسمية وفقاً لمختلف الروايات .

(٢) ابن خلدون ج ٦ ص ١٠٧ .

(٣) يطلق العرب كلمة « البربر » على سكان « إفريقية » أعنى من برقة إلى المحيط ، وأصل التسمية . هول . ولكن المحقق أنها كانت موجودة قبل الفتح الإسلامي بمصور بعيدة . وترجمها الرواية اللاتينية إلى أقدم العصور . فكان يطلقها اليونانيون القدماء على الأمم ذات اللغات واللهجات المعقدة بوجه عام وحيثما وجدت ، وعلى الأمم الغربية عن لغة اليونانيين وحضارتهم . وكان يطلقها الرومان على شعوب الإمبراطورية خلا إيطاليا وولاياتها ، ثم انتهوا إلى تحديد معنى الكلمة بإطلاقها على القبائل =

الرومانية ، واستقروا سادة في البلاد المفتوحة مدى قرن ، عانى البربر فيه أمر ضروب العسف والطغيان . وفي سنة ٥٣٤ م بعث يوستنيان ، إمبراطور (قيصر) الدولة الشرقية قائده الشهير بليزار يوس إلى إفريقية على رأس جيش ضخم فافتتحها وحطم سلطان الوندال وأجلاهم عنها ؛ ومن ذلك الحين عادت إفريقية إلى سلطان الدولة الشرقية ، وظلت كذلك حتى الفتح الإسلامي .

وكانت إفريقية يومئذ في حال يرثى لها من الانحلال والتفكك ، يسود الاضطراب نظمها وإدارتها ، وتمزقها الأهواء والمطامع والفتن ؛ وكانت عصور من الطغيان والحدود والمصادرة قد عصفت بمواردها ، ولكن الثروات كانت مع ذلك تتكدس في بعض الثغور والمدن ؛ وكانت الدولة الشرقية قلما تعنى بإصلاح هذه الأقطار أو إعداد وسائل الدفاع عنها ، وإنما كانت ترى فيها قبل كل شيء مورداً للكسب على نحو ما قدمنا ، فكان البربر على استعداد للتخلص من هذا النير المرهق ، ومعاونة الفاتحين الجدد .

ولكن العرب شغلوا حيناً عن متابعة الفتح حينما عصفت ريح التفرق بالخلافة الإسلامية ، ونشب الخلاف بين علي بن أبي طالب ، الذي ولى الخلافة على أثر مقتل عثمان ، في مستهل سنة ٣٥ هـ (٦٥٥ م) ، وبين خصمه ومنافسه القوي معاوية بن أبي سفيان وإلى الشام ، واضطربت ثورة الحوارج التي كادت أن تززع أسس الدولة الإسلامية الناشئة ، وشغلت الجزيرة العربية بضعة أعوام ، بتلك الحوادث والفتن الداخلية . وكان مقتل أمير المؤمنين علي بن أبي طالب في رمضان سنة ٤٠ هـ خاتمة هذا النضال المؤلم ، فألت الخلافة إلى معاوية ، وقامت الدولة الأموية في الشام لتفتتح في تاريخ الإسلام عصرًا جديدًا .

وكانت الدولة الأموية ، تتشح إلى جانب ثوبها الخلافي ، بأثواب الملك

= المتوحشة أو المعادية خارج الإمبراطورية بأسرها . ثم حرفها العرب عند الفتح عن اللاتينية وأطلقوها على الأمم والقبائل التي تسكن إفريقية (خلاص مصر) راجع (Gibbon. ibid, Chap. LI (note) ويقول ابن خلدون في أصل هذه التسمية ، إن أحد ملوك التبابعة العرب لما غزا المغرب وإفريقية ، ورأى هذا الجبل من الأعاجم ، وسمع رطانتهم تعجب من ذلك وقال ما أكثر بربركم فسماوا بالبربر . والبربرة بلسان العرب هي اختلاط الأصوات غير المفهومة ، ومنه يقال بربر الأسد إذا زأر بأصوات غير مفهومة (كتاب العبر ج ٦ ص ٨٩) .

الإمبراطورى ، وهكذا قدر لها أن تكون منشئة الإمبراطورية الإسلامية الكبرى . وما كادت تستقر الأمور الداخلية ، حتى نشطت سياسة الفتح مرة أخرى . وكانت الخلافة فى نفس الوقت الذى تسير فيه جيوشها نحو الشمال وتقرب من عاصمة الدولة الشرقية ، تتجه ببصرها نحو الغرب ، حيث كانت فتوحها فى إفريقيا ما تزال بحاجة إلى التوسع والتوطد . وهكذا وجه معاوية عناية إلى إتمام فتح إفريقيا . وكان الروم قد عادوا إلى الأرض المفتوحة عقب انسحاب العرب ، فعاد إليها الجور والإرهاق ، وأثقل كاهل البربر بما فرض عليهم من الأعباء والمغرم الجديدة ، فاتصل زعمائهم بالعرب واستحثوهم إلى العود واستئناف الفتح . فى سنة ٤٥ هـ (٦٦٥ م) سار معاوية بن حديج التجيبى (١) إلى إفريقيا وهزم الروم عند حصن الأجم ، وتفرق الغزاة فى مختلف الأنحاء ، فسار عبد الله ابن الزبير إلى سوسة وافتتحها ، وافتتح عبد الله بن مروان حصن جالولاء ، وافتتحت عدة أخرى من البلاد والحصون .

وفى سنة خمسين (٦٧٠ م) (٢) قام العرب بأعظم فتح فى إفريقيا بقيادة عقبة ابن نافع الفهري . وكان عقبة جندياً عظيماً ، خبيراً بتلك الأنحاء والمسالك ، وكان يتولى قيادة حامية برقة منذ فتحها ، فاختره الخليفة (معاوية) لولاية إفريقيا ، وبعث إليه بعشرة آلاف مقاتل ليتم فتحها . فجاز عقبة وهاد برقة ، وتوغل غرباً حتى المغرب الأقصى ، وافتتح جميع العواصم والثغور الإفريقية تباعاً ، وهزم جيوش الروم والبربر فى مواقع عديدة ، وتوغل فى مفاوز المغرب الأقصى ، ثم

(١) وذكر بعض المؤرخين أن معاوية بن حديج كان فى ذلك الحين والياً على إفريقيا (ابن الأثير ج ٣ ص ١٨٤) ، وذكر البلاذرى أنه وفى بعد ذلك على مصر سنة ٥٠ هـ ، وأنه هو الذى بعث عقبة بن نافع إلى إفريقيا (ص ٣٢٧) ، وذكر الطبرى أن معاوية بن حديج ولى مصر وعزله معاوية عنها سنة ٥٠ هـ (ج ٦ ص ١٣٤) . ويضع ابن الأثير تاريخ ولاية ابن حديج لمصر فى سنة ٤٧ هـ . على أن صاحب النجوم الزاهرة الذى عنى عناية خاصة بتعداد ولاية مصر يقول : إن حاكم مصر من سنة ٤٥ - ٤٨ هـ هو عقبة بن عامر الجهنى (النجوم الزاهرة ج ١ ص ١٣٠) ، وإن الذى لهما بعده هو مسلمة بن مخلد الأنصارى ، واستمر فى ولايتها حتى سنة ٦٢ هـ ، وفى ولايته وقع فتح إفريقيا الكبير .

(٢) هذه هى الرواية الراجحة ، ولكن ابن عبد الحكم يضع تاريخ هذه الغزوة فى سنة ٤٦ هـ .

أنشأ مدينة القيروان لتكون عاصمة للولاية الإسلامية الجديدة ، وحصناً للدفاع عنها ، وقاعدة لرد الروم والبربر .

ولم يمض قليل على قيام عقبة بذلك الفتح الكبير ، حتى عزله والى مصر مسلمة بن مخلد الذى جمع له معاوية بين حكم مصر والمغرب (١) ، وولى مكانه على إفريقية أبا المهاجر الأنصارى ، فلبث فى ولايتها عدة أعوام لم تقع فيها حوادث تذكر . ثم عزل أبو المهاجر وأعيد عقبة سنة ٦٢ هـ فى بدء خلافة يزيد بن معاوية . وكانت البلاد المفتوحة ما تزال تضطرم بعوامل الخروج والثورة . وكان الروم والبربر كلاهما يترقب الفرص ، ولكن عقبة شغل عن توطيد الدولة الفتية بفتوحات جديدة ، وعاد فاخترق المغرب إلى أقصاه ، ووصل إلى ساحل المحيط هذه المرة . وهنا تقول الرواية العربية ، إن عقبة لما انتهى إلى المحيط دفع فرسه إلى الماء حتى بلغ نحوه ، ، ثم قال : « اللهم إني أشهدك أن لا مجاز ، ولو وجدت مجزاً لجزت » (٢) .

فى ذلك الحين ثار البربر بقيادة زعيم لهم يدعى كسيلة بن لمزم (٣) كان قد اعتنق الإسلام وحالف العرب ثم تغير عليهم ، وانضمت إليه جموع كثيرة من الروم والبربر ، وانتهز فرصة تفرق المسلمين فى مختلف الأنحاء ، وانقض بجموعه على جيش عقبة ، ووقعت بين الفريقين معارك شديدة هزم فيها المسلمون ، وقتل عقبة وجماعة من القادة (سنة ٦٢ هـ) وزحف كسيلة على القيروان واستولى عليها ، وارتند حاكمها زهير بن قيس البلوى بقواته القليلة إلى برقة ، وكادت بذلك تذهب دولة العرب فى إفريقية .

ولما تولى الخلافة عبد الملك بن مروان (سنة ٦٥ هـ) اعتزم أن يعمل لاستعادة إفريقية ، فولى عليها زهير بن قيس البلوى ، وكان منذ سقوط القيروان يتولى الدفاع عن برقة ، وأمدّه بجيش ضخم ، فزحف زهير على القيروان سنة ٦٩ هـ (٦٨٨ م) والتقى على مقربة منها بجيش كسيلة ، فهزم البربر بعد معركة شديدة

(١) ويضع ابن عبد الحكم تاريخ هذا العزل فى سنة ٥١ هـ ، ويقول الطبر إنه وقع فى سنة ٥٠ هـ (ج ٦ ص ١٣٤) .

(٢) ابن عبد الحكم ص ١٩٩ ، وابن الأثير ج ٤ ص ٤٢ .

(٣) هذه هى تسمية ابن عبد الحكم (ص ٢٠٠) وابن خلدون (ج ٦ ص ١٠٨) ولكن ابن الأثير يسميه كسيلة ابن كرم .

قتل فيها كسيلة وكثير من أصحابه ، ودخل زهير القيروان وترك فيها حامية للدفاع عنها ، وفرق جنده لإخضاع الثوار في مختلف الأنحاء . ولكن الروم انتهزوا فرصة توغل المسلمين غرباً ، وأمدهم قيصر قسطنطينية^(١) بأسطول من صقلية ، فنزلوا في قرطاجنة ثم زحفوا على برقة في جموع عظيمة ، وعلم زهير بتلك المفاجأة ، فارتد للدفاع عن برقة ، ونشبت بين الفريقين معركة هائلة هزم فيها المسلمون ، وقتل زهير ومعظم ضباطه ، وذهب المغرب من قبضة المسلمين مرة أخرى .

وكان وقع هذا الخطب شديداً في حكومة دمشق ، وكانت تشغل يومئذ بمحاربة ابن الزبير وصحبه الخوارج عليها ، فضت أعوام أخرى قبل أن تتمكن من العناية بشئون إفريقية ، فلما انتهت الثورة وقتل ابن الزبير ، وجه عبد الملك عنايته إلى استعادة إفريقية ، فولى عليها حسان بن النعمان الغساني سنة ٧٣ هـ^(٢) (٦٩٢ م) وسيره إليها في جيش ضخم كان أعظم قوة سيرتها الخلافة إلى إفريقية ، فاخترق حسان برقة وقصد قرطاجنة عاصمة إفريقية الرومانية ، وكانت لاتزال في يد الروم ولم يغزها المسلمون بعد لحصانتها واتصالها بالبحر ، وقربها من صقلية حيث كانت ترسل إليها الأمداد بسرعة ، فحاصرها بشدة ثم اقتحمها واستولى عليها ، ولكن الإمبراطور سير إليها جيشاً بقيادة حاكمها يوحنا ، يعاونه أسطول من صقلية ، وقوة من القوط أرسلها ملك اسبانيا القوطي الذي أزعجه اقتراب العرب من بلاده ، فانسحب العرب وارتدوا إلى القيروان ، حتى إذا جاءتهم الأمداد أعادوا الكرة على قرطاجنة ، وهزموا الروم والقوط هزيمة شديدة ، ففروا إلى سفنهم ، وخربت قرطاجنة وهدمت حصونها القوية . ثم سار حسان غرباً وهزم الروم والبربر في عدة مواقع ، واستعاد الإسلام سلطانه فيما بين برقة والمحيط^(٣) .

وعاد حسان إلى القيروان لينظم جيشه . وكان البربر والقبائل الحبلية قد

(١) كان إمبراطور قسطنطينية في ذلك الحين يوستينيان الثاني ، ٦٨٥ - ٦٩٥ م .

(٢) ابن عبد الحكم ص ٢٠٠ ؛ ولكن ابن الأثير يضع تاريخ توليته في سنة ٧٤ هـ .

(٣) ابن الأثير ج ٤ ص ١٤٣ ، ومعجم ياقوت تحت كلمة قرطاجنة ، وكذلك : Gibbon :

اجتمعوا منذ مقتل زعيمهم كسيلة ، في مفاوز المغرب الأقصى ، تحت لواء امرأة من قبيلة جراوة يعتقدون فيها السحر والكهانة وتعرف بالكاهنة^(١) ، وكانت تقيم ملكها في جبل أوراس . فسار حسان لقتالها وخرجت إليه بجموعها ، فالتقيا عند نهر نينى ، ونشبت بينهما موقعة هائلة هزم فيها العرب هزيمة شديدة ، وقتل منهم جمع كبير ، وارتد حسان إلى برقة . وسارت الكاهنة شرقاً حتى قابس واستولت على كثير من البلاد والحصون ، وبسطت سلطانها على معظم إفريقيا مدى خمسة أعوام . ولبت حسان في برقة حتى أمده عبد الملك بالجنيد ، فزحف على المغرب ثانية سنة ٧٩ هـ (٦٩٨ م) ، ولم تر الكاهنة وسيلة لوقفه إلا أن تحول البلاد إلى خراب بلقع ، فهدمت جميع المدن والحصون ، وأحرقت جميع القرى والضياح الواقعة في طريق المسلمين ، ولكن ذلك لم يثن حساناً عن عزمه ، فتابع سيره حتى أقاصى المغرب في وهاد ومفاوز صعبة . وكان البربر قد سثموا نير الكاهنة وعسفها ، فهرع الكثير منهم إلى حسان يطلبون حمايته ، وتفرقت جموع الكاهنة ، وأدركها المسلمون بجبل أوراس فزقت جموعها وقتلت . واستأمن البربر على الإسلام والطاعة ، وأن يمدوا المسلمين باثني عشر ألف مقاتل . وولى حسان جبل أوراس ابن الكاهنة بعد أن استوثق من طاعته ، ثم عاد إلى القيروان بعد أن سحق كل مقاومة وقضى على كل نزعاً إلى الخروج والثورة^(٢) .

ولبت حسان بن النعمان بإفريقية حيناً ، ينظم شؤونها العسكرية والإدارية والمالية ، وينشئ الدواوين ويرتب الخراج والحزبة ، ويوطد سلطان الحكم الحديد في الثغور والنواحي . ثم جدد مدينة القيروان وأنشأ بها المسجد الجامع^(٣) ، ولبت

(١) ويسميا ابن خلدون دهيا بنت ماتية بن تيفان (ج ٦ ص ١٠٩) ويسميا بعض المؤرخين الأوربيين دامايا ؛ راجع *Aschbach : Geschichte der Omajjaden in Spanien. B. 1.21*

(٢) ابن الأثير ج ٤ ص ١٤٤ ، وابن خلدون ج ٦ ص ١٠٩ . وفي روايته من حيث التاريخ شيء من التناقض ، فهو يورخ غزوة حسان الأولى وفتح قرطاجنة بسنة ٧٩ هـ ثم يورخ حرب الكاهنة للمرة الثانية بعد أن يذكر أنها لبثت تحكيم إفريقية خمسة أعوام بسنة ٧٤ هـ - ولعل هذا تحريف في النقل أو الطبع ، إذ يقتضى ان يكون هذا التاريخ طبقاً لرواية ابن خلدون هو سنة ٨٤ هـ . ولكن ابن عبد الحكم وهو أقدم رواية وثيقة يورخ غزوة حسان الأولى بسنة ٧٣ هـ ويورخها ابن الأثير بسنة ٧٤ هـ - وينقض رواية ابن عبد الحكم عن مقتل الكاهنة تاريخ هذه الواقعة (ص ٢٠١) .

(٣) ابن خلدون ج ٦ ص ١١٠ ، وابن عبد الحكم ص ٢٠١ .

في منصبه حتى توفي عبد الملك بن مروان سنة ٨٦ هـ (٧٠٥ م) فخلفه ابنه الوليد بعهد منه ، وولى عمه عبد الله بن مروان على مصر ، فعزل حساناً عن ولاية إفريقية ، واختار لولايتها موسى بن نصير اللخمي ، وكانت إفريقية تابعة لمصر في شؤون الحكم والولاية كما بينا . وكانت ولاية موسى بن نصير لإفريقية سنة ٨٩ هـ (٧٠٨ م) .

ويجب قبل أن نمضي في الكلام عن حوادث إفريقية ، أن نقول كلمة عن الرجل الذي قدر أن يجوز الإسلام على يديه لأول مرة إلى القارة الأوروبية ، وأن يكتب فيها صفحة من أعجده صفحاته . كان موسى بن نصير من أعظم الزعماء والقادة الذين وجهتهم الخلافة إلى الغرب . ومع أن الرواية الإسلامية تتبع حياته بإفاضة منذ ولايته لحكم إفريقية ، فإنها لا تقدم إلينا عن نشأته وحياته الأولى تفاصيل شافية ، شأنها نحو كثير من زعماء الإسلام في القرن الأول من الهجرة . بيد أننا نعرف مع ذلك أنه من التابعين ، وأنه ولد سنة ١٩ هـ في خلافة أمير المؤمنين عمر ، في قرية من قرى الجزيرة ، أو بوادي القرى في شمالي الحجاز على قول آخر . وأما عن نسبه ، فتقول الرواية إنه ينتسب إلى بكر بن وائل ، وإن أباه نصيراً كان ممن سباهم خالد بن الوليد في موقعة عين التمر (سنة ١٢ هـ) (١) . وقيل إنه ينتسب بطريق الولاء إلى بني لحم ، وإن أباه نصيراً كان على حرس معاوية بن أبي سفيان . ثم كان وصيفاً لعبد العزيز بن مروان فأعتقه (٢) .

وأما عن حياة موسى الأولى فلا تذكر الرواية سوى القليل . وكل ما نعرفه منها أنه تقلب في بعض المناصب الحربية والإدارية الهامة ، قبل أن يعهد إليه بحكم إفريقية ، وأنه قاد بعض الحملات البحرية في عصر معاوية بن أبي سفيان ، وغزا قبرس وغيرها من الجزر القريبة (٣) . وفي بعض الروايات أن عبد الملك بن مروان حينما ولى أخاه بشراً على البصرة في سنة ٧٣ هـ ، وكان يتولى قيادة الجند

(١) الطبري ج ٤ ص ٢٢ ، و « أخبار مجموعة في فتح الأندلس » ص ٣ ، وأبو المحاسن في النجوم الزاهرة (مصر) ج ١ ص ٢٣٥ .

(٢) ابن خلكان ج ٢ ص ١٧٦ ، وابن الأثير ج ٤ ص ٢٠٩ ، والبلاذري في فتوح البلدان ص ٢٣٢ .

(٣) النجوم الزاهرة ج ١ ص ٢٢٥ .

بمصر ، ندب موسى بن نصير لمعاونته ، وكان يومئذ بمصر في خدمة أميرها عبد العزيز بن مروان صديقه وحاميه ، وأن موسى لبث وزيراً ومستشاراً لبشر أيام ولايته للبصرة . فلما وليّ الحجاج حكم العراق في سنة ٧٥ هـ ، أتهم موسى باختلاس أموال البصرة ، ولم ينقذه من بطش الحجاج سوى تدخل عبد العزيز ابن مروان ، وكان قد وفد يومئذ على الشام بأموال مصر ، وهرع إليه موسى مستجيراً به . ثم عاد موسى إلى مصر مع عبد العزيز بن مروان ، ولبث بها يتبوأً لديه أسمى مراتب النفوذ والثقة حتى عين حاكماً لإفريقية^(١) .

وتختلف الرواية في تاريخ ولاية موسى بن نصير لإفريقية اختلافاً بيناً ، فالبعض يقول إنها كانت في سنة ٧٨ أو ٧٩ هـ في عهد عبد الملك ، ويقول البعض الآخر إنها كانت في سنة ٨٦ أو سنة ٨٩ هـ في عهد ابنه الوليد^(٢) ؛ ونحن نؤثر الأخذ بالقول الثاني لأنه أكثر اتفاقاً مع سير الحوادث في إفريقية ، ولأن معظم الروايات تجمع على أن حسان بن النعمان والى إفريقية لبث على ولايتها حتى وفاة عبد الملك ، وقد توفي عبد الملك في شوال سنة ٨٦ هـ . وكان عبد العزيز بن مروان أمير مصر قد توفي قبل ذلك سنة ٨٥ هـ ، وندب عبد الملك ولده عبدالله أميراً

(١) وردت هذه التفاصيل في كتاب « الإمامة والسياسة » المنسوب لابن قتيبة . ومع أن هذه النسبة يحيط بها كثير من الشك ، فإن الكتاب يتضمن كثيراً من الأخبار والتفاصيل المفيدة عن رجالات الإسلام في عصر الخلفاء الراشدين والدولة الأموية (راجع الكتاب المشار إليه - طبع مصر - ج ٢ ص ٦٠ وما بعدها) . وقد اعتبره المستشرق الإسباني جاينجوس *Gayangos* قديماً وصحيحاً ، وإن كان يشك في نسبه لابن قتيبة لعدة أسباب وجيهة ؛ وانفتح به المستشرق الألماني فايل *Weil* ، والمستشرق الإيطالي أماري *Amari* . ويرى دوزي أن الكتاب غير قديم وغير صحيح ، وأنه يحتوي على أخطاء تاريخية وروايات خيالية غير معقولة ، وعلى ذلك فلا يمكن أن يكون ابن قتيبة صاحب هذا التصنيف الضعيف ؛ ويرى المستشرق هاماكرو ويوافقه دوزي أن هذا الكتاب وأمثاله من الكتب التاريخية الحماسية (مثل الكتب التي نسبت للواقدي) ، قد ألفت أيام الحروب الصليبية لبث الحماس في نفوس المسلمين ، وتذكيرهم بمجد أسلافهم ويطه أتهم الخارقة . راجع دوزي :

Recherches sur l'Histoire et Littérature de l'Espagne au moyen âge ; V.I. p.21

(٢) يقول بالرواية الأولى ابن عبد الحكم (ص ٢٠٣) ، ويقبئه صاحب كتاب الإمامة والسياسة (ج ٢ ص ٦٢) ، وابن الأبار في الحلة السيراء (إيدن ص ٧٠) ، والحميدي في جذوة المقتيس (مصر ص ٣١٧) ، والنجوم الزاهرة (ج ١ ص ١٨٨) ، ويقول بالثانية ابن الأثير (ج ٤ ص ١٤٤ و ٢٠٦) ، وابن خلكان (ج ٢ ص ١٧٦) . وابن عذارى في البيان المغرب (ج ١ ص ٢٣)

على مصر ، فدخلها في جمادى الآخرة سنة ٨٦ هـ قبيل وفاة أبيه بأشهر قلائل . وعزل عبد الله ، حسان بن النعمان عن ولاية إفريقية ، واختار لولايتها موسى بن نصير . وكانت ولاية موسى لإفريقية على أرجح الأقوال في سنة ٨٩ هـ (٧٠٨ م) .

وكان موسى بن نصير قد اختبر مفاوز إفريقية من قبل ، وسيره عبد العزيز ابن مروان في سنة ٨٤ هـ إلى برقة ، فافتتح درنة وسبي من أهلها جموعاً غفيرة . وكان البربر لا يزالون على اضطرابهم وتمردهم ، يتحينون الفرصة للثورة كلما سنحت . فما كاد موسى يلى الحكم حتى نزعوا إلى الثورة شأنهم عند كل تغيير في الحكم ، ولكنهم أخطأوا تقدير عزم الحاكم الجديد وصرامته . وسرعان ما سمحت الثورة في كل ناحية ، ومزق موسى جموع الثوار بيد من حديد ، ودوخ هوارة وزتانة وكتامة وصنهاجة وغيرها من القبائل البربرية القوية ، ثم سار إلى طنجة وهي آخر معقل اعتصم به الثوار ، ولم يكن غزاها العرب بعد ، فافتتحها ، وولى عليها جندياً عظيماً هو طارق بن زياد اللبني ، وأثنى في مفاوز المغرب الأقصى ، وطهرها من العصاة والمتأمرين ، وأحرز في تلك الغزوات من الغنائم والسبي ما لا يحصى ، واستمال إليه وجوه القبائل ، وحشد في جيشه آلافاً من البربر المسلمين ، واهتم بنشر الإسلام بين البربر اهتماماً عظيماً ، فأقبلوا على اعتناقه وذاع بينهم ذبوعاً كبيراً ، وهبت ريح من الأمن والسكينة على البلاد المفتوحة .

وكان الروم (الرومان) بعد أن أخفقوا في الحرب البرية ، ويئسوا من استرداد إفريقية ، قد لجأوا إلى غزو الثغور ونهبها ، فابتنى موسى داراً عظيمة للصناعة (بناء السفن) على مقربة من أطلال قرطاجنة ، وأنشأ أسطولاً ضخماً لحماية الثغور . وكان العرب قد بدأوا غزواتهم البحرية الأولى في تلك المياه قبل ذلك بعدة أعوام ، وسير موسى ابنه عبد الله في السفن إلى الجزر القبرية فغزا جزائر البليار (الجزائر الشرقية) وكانت يومئذ من أملاك ملك اسبانيا القوطي ، وافتتح مَيُورقة ومِنُورقة (٧١٠ م) ولكنه لم يكن فتحاً مستقراً^(١) . وسارت

(١) تعرف هذه الغزوة بغزوة الأشراف لكثرة من اشترك فيها من أكابر المسلمين . وورد في كتاب « الإمامة والسياسة » أن هذه الغزوة التي قادها عبد الله بن موسى كانت خاصة بصقلية لا بميورقة (ج ٢ ص ٧٢) .

حملات بحرية أخرى إلى صقلية وسردانية وعاثت في ثغورها ، وعادت مثقلة بالسبي والغنائم . وهكذا بسط العرب سلطانهم على شمالي إفريقيا كله في البر والبحر ، ولم يبق من ثغوره بيد النصارى بعد افتتاح طنجة سوى ثغر سبتة^(١) الواقع في نهاية البحر الأبيض المتوسط شرق طنجة ، وكانت يومئذ من أملاك اسبانيا ، ويحكمها زعيم من القوط أو الفرنج يدعى الكونت يوليان . وكانت سبتة قد استطاعت لمنعتها الطبيعية ويقظة حاكمها ، أن ترد هجمات العرب ، رغم مجاورتهم لها من الجنوب والغرب ، وكان موسى يتوق إلى افتتاح هذا المعقل الحصين . على أن مشاريعه في الفتح لم تكن تقف عند سبتة بل كانت تتجاوزها إلى ما وراء ذلك البحر الشاسع ، الذي عرف العرب كثيراً عن شواطئه الشرقية والجنوبية ، ولكنهم لم يعرفوا بعد شيئاً أو لم يعرفوا سوى القليل عن شواطئه الشمالية والغربية : أجل ، كان موسى يتوق إلى افتتاح ما وراء ذلك البحر من الممالك والأمم المجهولة .

(١) ومقابلها الإفريقي هو Ceuta

الفصل الثاني

إسبانيا قبل الفتح الإسلامي

أصل القوط . نزوحهم من الشمال إلى الجنوب . عبورهم نهر الدانوب . يهزمون الإمبراطور ديسيوس . هزيمتهم على يد الإمبراطور قسطنطين ثم الإمبراطور فالنس . زحف الهذن على القوط . دخولهم في طاعة الإمبراطور . ثورة القوط في عهد هونوريوس . زعيم القوط أاريك . عقدهم الصلح مع الإمبراطور واندماجهم في الجيش الروماني ، استقرارهم في غاليس . قاليا أول ملوكهم . تيودريك الأول يعاون الدولة في محاربة آتيلا . تيودريك الثاني يفتح إسبانيا من يد الوندال . قيام ملكة القوط في إسبانيا . اعتناقهم للنصرانية . إسبانيا وقت الفتح الإسلامي . المجتمع الإسباني . استئثار القوط بالسيادة والثراء . نفوذ رجال الدين . بوأس الشعب وانحلال الجيش . ركون القوط إلى الرفاهة والدعة . يهود إسبانيا . اضطهاد الكنيسة لهم وإرغامهم على التنصير . محاولتهم للثورة والمبالغة في إرهابهم . ملك القوط وتيزا والحوارج عليه . تفرق المملكة ونشوب الثورة . مقدم العرب إلى شواطئ الجزيرة . محاصرة العرب لسبته . زعيم الثورة ردريك . الحرب بينه وبين وتيزا . مقتل وتيزا واستيلاء ردريك على الملك . الكونت يوليان حاكم سبته والخلاف في شأنه . الاتفاق بينه وبين وتيزا على الاستنجاد بالعرب . قصة فلورندا ابنة الكونت يوليان . أقوال الرواية الإسلامية في شأنها . إنكار الرواية الإسبانية لصحتها . ما يرجحها في نظر التاريخ .

كانت إسبانيا^(١) في الوقت الذي امتد فيه سلطان العرب إلى الشواطئ القريبة منها ، وإلى الجزر المحاورة لها ، خاضعة لئير القوط . وكانت قبل ذلك بنحو ثلاثة قرون كإفريقية ، ولاية رومانية تخضع لسلطان رومة . فلما اضمحل سلطان رومة ، وغزتها القبائل البربرية الجرمانية في أوائل القرن الخامس الميلادي ،

(١) لا يستعمل العرب اسم « إسبانيا » للإشارة إلى شبه الجزيرة المعروفة بهذا الاسم ، وإنما يطلق العرب اسم « الأندلس » على شبه الجزيرة كلها (راجع الروض المعطار - مصر - ص ١) . وفي بعض الروايات العربية أن التسمية نسبة لملك من الرومان اسمه إشبان بن طيطش غلب الأفارقة على ملك الأندلس ، وباسمه سميت إشبانية . وذكر بعضهم أن اسمه أصهبان فحرف وأنه هو الذي بنى إشبيلية ، وأن « إشبانية » كانت تطلق على إشبيلية التي كان ينزلها إشبان هذا . ثم غلب الاسم بمدته على الأندلس كله ، فالعجم يسمونه إشبانية (نفع الطيب عن الرازي ج ١ ص ٦٧) ؛ وذكر ابن حيان أن الإشبانيين ينسبون إلى إشبان وفسر منشأهم بخرافة دينية (نفع الطيب ج ١ ص ٦٩) . ولم تنفرد الرواية الإسلامية بذكر « إشبان Espan » هذا ولكن تذكره أيضاً رواية ألفونسو العاشر القشتالية ، فتقول لنا انه ابن أخ للملك هرقل ، وأنه هو الذي عمر جزيرة قانس واتخذها مقراً له . راجع :

اقتسمت هذه القبائل أملاك رومة الغربية ، واستولت على إيطاليا وفرنسا واسبانيا وكانت اسبانيا من نصيب القوط .

والقوط هم إحدى هذه القبائل أو الشعوب البربرية . التي هبطت من شمال أوروبا ، وقوضت صروح الإمبراطورية الرومانية . وتقول الأساطير القديمة إنهم نزحوا من اسكندناوة ، وهي رواية يؤيدها كثير من القرائن والشواهد . ويذكر المؤرخ تاسيتوس أنهم كانوا منذ ظهور النصرانية إلى أواخر القرن الثاني ، يسكنون شواطئ البلطيق الجنوبية ، وأن قبائل عديدة من الوندال كانت تسكن على ضفاف نهر «أودر» . وهناك من المشابهات بين القوط والوندال ، في الدين والعادات والأخلاق والتقاليد ، ما يدل على أنهما يرجعان في الأصل إلى شعب أو جنس عظيم واحد . وفي عهد الإمبراطور اسكندر سيقروس (٢٢٢ - ٢٣٥ م) ظهرت طلائع القوط في ولاية «داسيا»^(١) الرومانية ، وأغارت على بعض مدنها ، وكان هذا نزوحهم الثاني حيث استقروا عندئذ في إقليم «اليوكرين» . وفي عهد الإمبراطور ديسيوس عبروا نهر الدانوب وخرّبوا ولاية ميزيا^(٢) الرومانية ، ثم تقدموا إلى قلب البلقان ، فسار ديسيوس لقتالهم ولكنه هزم ومزق جيشه (٢٥٠ م) وسار القوط إلى اليونان فعاثوا فيها وخرّبوها . ولم ينقطع عيهم حتى نشط الإمبراطور قسطنطين الكبير لقتالهم ورد عدوانهم ، فحاربهم في عدة مواقع وهزمهم هزيمة شديدة ، وردهم إلى أقاصى داسيا (سنة ٣٢٢ م) وفرض عليهم شروطاً فادحة . ثم حاربهم الإمبراطور فالينس قيصر قسطنطينية وهزمهم في سنة ٣٦٩ م . وفي سنة ٣٧٥ م زحف الهون من المشرق على القوط ومزقوهم ، ففروا إلى ضفاف الدانوب واستغاثوا بالإمبراطور وطلبوا الدخول في طاعته ، فأجابهم إلى ذلك ، واستقروا حيناً في ولاية تراقية ، ولكنهم ثاروا مراراً من جراء قسوة الحكام الرومانيين وعسفهم^(٣) .

وفي عهد الإمبراطور هونوريوس ، قام القوط بثورة أعظم وأبعد أثراً بقيادة زعيمهم «ألاريك» ، وخرّبوا تراقية واليونان ، ثم عبروا إلى إيطاليا

(١) كانت ولاية داسيا تقع في شرق حوض الدانوب وتشغل مكان رومانيا والمجر .

(٢) كانت ولاية ميزيا تقع في وسط البلقان وتشغل مكان بلغاريا الحديثة .

(٣) Gibbon, ibid. Chap X, XIV & XXV

وافتحوا رومة ونهبوها (سنة ٤١٠ م). ولكن زعيمهم الأريك توفى في نفس هذا العام فارتدوا إلى الشمال. ثم عقدوا الصلح مع الإمبراطور، واندمجوا في الجيش الإمبراطوري، وقاموا بقمع الثورات المحلية في غاليا أو غاليس^(١) (جنوب فرنسا) وشمال إسبانيا، ثم استقروا في أواسط فرنسا وجنوبها، فيما بين نهري اللوار والهارون، واتخذوا تولوز (تولوشة) عاصمة لهم. وأقطع الإمبراطور ملكهم «فاليا» حكم هذا القطر، وقامت بذلك مملكة قوطية تابعة للدولة الرومانية. وعاون القوط الدولة على محاربة الوندال والآلان والسوايين^(٢)، وعاونها بالأخص ملكهم تيودريك الأول ولد الأريك، على هزيمة آتيلا التتري وبرابته الهون في موقعة شالون (سنة ٤٥١ م). ثم عبر خلفه وأخوه تيودريك الثاني إلى اسبانيا، لانزاعها من الوندال والسوايين المتغلبين عليها، مشترطاً على الدولة أن يحتفظ بما يفتحه من اسبانيا لنفسه ولعقبه. وحارب الوندال والسوايين وهزمهم (سنة ٤٥٦ م)، وافتتح اسبانيا ما عدا ركنها الشمالي الغربي (جليقية)، الذي استعصم به الوندال حيناً. ولم تأت نهاية القرن الخامس حتى ملك القوط شبه الجزيرة كلها، وامتد ملكهم من اللوار إلى شاطئ اسبانيا الجنوبي. ولكن الفرنج غزوه من الشمال، وأجلوهم عن فرنسا في أعوام قلائل، فاستقروا في اسبانيا، واتخذوا طليطلة دار ملكهم، ووضعوا لمملكهم الحديدية نظاماً وقوانين خاصة، تتأثر بروح الحضارة والأنظمة الرومانية؛ وكانوا أيضاً قد اعتنقوا النصرانية منذ أواخر القرن الرابع، كما اعتنقها الوندال وغيرهم من الشعوب البربرية، التي تقاسمت تراث رومة وأملاكها. ولبت القوط زهاء قرنين سادة لإسبانيا حتى الفتح الإسلامي^(٣).

(١) هكذا يسميها ابن الأثير. ويسمىها البكري، «بلاد غاليس» وهو اسمها الروماني :

La Gaule

(٢) ويبدى ابن خلدون دقة في تسمية هؤلاء البربر، فيسميهم «القندلس والآبيون والشوابيون»

(ج ٢ ص ٢٣٥).

(٣) يقدم المؤرخون المسلمون عن تاريخ اسبانيا قبل الفتح الإسلامي روايات غامضة أكثرها خرافاً. ولكن بعضها يقترب من التاريخ. فابن الأثير مثلاً يشير في روايته عن القوط إلى غزوهم لمقدونية ومحاربة قسطنطين الأكبر لهم. ثم يذكر زعيمهم «أريق» (الأريك) وكيف غزا رومة، وكيف استقر القوط أولاً في غاليس (أى غاليا) ثم انتقلوا إلى اسبانيا. غير أنه يذكر ثبت ملوكهم -

ولنعرض بعد ذلك إلى حالة اسبانيا وقت الفتح . كانت المملكة القوطية تجوز دور انحلالها قبل ذلك بأمد طويل ، وكان المجتمع الإسباني يعاني صنوف الشقاء والبؤس ، وقد مزقته عصور طويلة من الظلم والإرهاق والإيثار . ولم يكن القوط في الحقيقة أمة بمعنى الكلمة ، فإنهم لم يمتزجوا بسكان الجزيرة ، ذلك الامتزاج الذي يجعل الغالب والمغلوب ، والحاكم والمحكوم ، أمة واحدة . بل كان القوط يستأثرون بمزايا الغلبة والسيادة ، وينعمون بإحراز الإقطاعات والضيايع الواسعة ، ومنهم وحدهم الحكام والسادة والأشراف . أما سواد الشعب الأعظم ، فقوامه طبقة متوسطة رقيقة الحال ، وزراع شبه أرقاء يلحقون بالضيايع ، وأرقاء للسيد عليهم حق الحياة والموت . وإلى جانب السادة والأشراف ، يتمتع رجال الدين بأعظم قسط من السلطان والنفوذ ؛ ذلك أن القوط كانوا أتقياء مؤمنين رغم خشونتهم ، وكان للأحبار عليهم أيما تأثير ، وقد استطاعوا أن يوجهوا القوانين والنظم ، وأن يصوغوا الحياة العقلية والاجتماعية ، وفقاً لمثل الكنيسة وغاياتها . ثم استغلوا هذا النفوذ في إحراز الضيايع وتكديس الثروات ، واقتناء الزراع والأرقاء . وهكذا كانت ثروات البلاد كلها تجمع في أيدي فئة قليلة ممتازة من الأشراف ورجال الدين ، اختصت بترف العيش ومتاع الحياة ، وكل نعم الحرية والكرامة والاعتبار .

أما الشعب فقد كان في حالة يرثى لها من الحرمان والبؤس ، يعاني أمر ضروب الظلم والعسف والإرهاق ، ويُخصّص وحده دون الطبقات الممتازة ، بأعباء المغارم والضرائب الفادحة ، ومشاق العمل ، والسخرة في ضيايع الأشراف والأحبار ، وتسلبه فروض العبودية والرق ، كل شعور بالعزة والكرامة . ولم يكن الشعب كما قدمنا سوى كتلة مهيشة من طبقة فقيرة وسطى ، ومن جمهرة من الزراع شبه الأرقاء والأرقاء ، ومع ذلك فقد كان يقع عليه إلى جانب هذه الفروض والمغارم

في كثير من التحريف والخلط (ج ٤ ص ٢١٢ و ٢١٣) . وقال ابن حيان بعد أن ذكر أصل اسم اسبانيا « وغلّب على هؤلاء الإشبانيين من عجم رومة أمة يدعون البشتولقات (الوندال) وملكهم طلويس بن بيطة وذلك من بمث المسيح . ثم دخلت عليهم أمة القروط » (نقله المقرئ في فتح الطيب ج ١ ص ٦٩) . وأقرب الروايات إلى الصحة هي رواية ابن خلدون ، فهو يقول متفقاً مع الرواية اللاتينية : « إن القوط قد امتلكوا القطر الأندلسي لمعين من السنين قبل الإسلام . بعد حروب كانت لهم مع اللطنيين ، حاصروا فيها رومة ثم عقدوا معهم السلم على أن تنصرف القوط إلى الأندلس » (ج ٤ ص ١١٦) .

الفادحة ، عبء الحرب والدفاع عن الوطن . وكما أن الجيوش الرومانية كانت وقت ظهور الإسلام ، قد فقدت وحدتها وروحها القومية وقوتها المعنوية ، لتكوينها من الرعايا الأجانب والمرزقة ، فكذلك كان الجيش الإسباني منذ العهد الروماني ، قوامه الزراع شبه الأرقاء واليهود . فلما حل القوط في اسبانيا وذاقوا نعم السلم ، بعد مشاق التجوال والغزو ، وتبوأوا مراكز الغلبة والسيادة ، اعتمدوا في الدفاع عن ملكهم الحديد على هذا الجيش ، الذي تموج صفوفه بمجماعات مضطهدة ناقمة على سادتها . « ولاريب أن شبه الأرقاء كانوا في الجيش أكثر بكثير من الأحرار ، وهذا ما يعنى أن الدفاع عن الدولة كان يعهد به إلى أولئك الذين يوثرون ممالأة العدو على الذود عن ظالمهم»^(١) . أما القوط أنفسهم فقد فقدوا منذ بعيد خلالهم الحربية القوية ، وركنوا إلى حياة النعاع والدعة ، وفتت في عزائمهم وشجاعتهم نعومة الجحوظ وترف العيش ، ولم يعودوا بعد أولئك الغزاة الأشداء الذين أخضعوا رومة ، وتوغلوا فيما بين الدانوب والمحيط ، « بل كان خلفاء الأريك يحتجبون بصخور البرنيه غارقين في سبات السلم ، لا يعنون بتحسين مدينة ، ولا يعبأ شبابهم بتجريد سيف»^(٢) .

وكان يهود الجزيرة كتلة كبيرة عاملة ، ولكنهم كانوا موضع البغض والتعصب والتحامل ، يعانون أشنع ألوان الجحوظ والاضطهاد . وكانت الكنيسة منذ اشتد مساعدتها ونفوذها تحاول تنصير اليهود، وتتوسل إلى تحقيق غايتها بالعنف والمطاردة . ففي عصر الملك سيزبوت^(٣) فرض التنصر على اليهود أو النفي أو المصادرة ، فاعتنق النصرانية كثير منهم كرها ورياء (سنة ٦١٦ م) . ثم توالى عليهم مع ذلك صنوف الاضطهاد والحن ، فركنوا إلى التآمر وتدبير الثورة ، وتفاهموا مع إخوانهم يهود المغرب على المؤازرة والتعاون . ولكن المؤامرة اكتشفت قبل نضجها (٦٩٤م) . وكان ذلك في عهد الملك إچيكا ؛ فقرر أن يشتد في معاقبتهم ، واجتمع مؤتمر الأبحار في طليطلة للنظر في ذلك ، وأجاب الملك إلى ما طلبه ، وقرر معاقبة اليهود باعتبارهم حوارج على الدولة يأتمرون بسلامتها ، ولأنهم ارتدوا

(١) Dozy: Histoire des Musulmans de L'Espagne (1932) Vol. I. p. 269

(٢) Gibbon, ibid, Chap. L1.

(٣) ويسميه ابن الأثير ، سيفوط (ج ٤ ص ٢١٣) .

عن النصرانية التي اعتنقوها من قبل ؛ وقرر أن ينزع أملاكهم في سائر الولايات الإسبانية ، وأن تحول إلى جانب العرش ، وأن يشردوا ويقضى عليهم بالرق الأبدي للنصارى ، وأن يهبهم الملك عبيداً لمن شاء ، وألا يسمح لهم باسترداد حرياتهم ما بقوا على اليهودية ، وأن يحرر أرقاؤهم من النصارى ويمنحون بعض أملاكهم ، وأن ينزع أبناؤهم منذ السابعة ويربون على دين النصرانية ، وألا يتزوج عبد يهودى إلا بجارية نصرانية ، ولا تتزوج يهودية إلا بنصرانى (١) . وهكذا عصفت يد البطش والمطاردة باليهود أما عصف ، فكانوا قبيل الفتح الإسلامى ضحية ظلم لا يطاق ، وكانوا كباقي طوائف الشعب المهيمضة يتوقون إلى الخلاص من هذا النير الجائر ، ويرون في أولئك الفاتحين الذين يتركون لهم حرية الضمائر والشعائر مقابل جزية ضئيلة ملائكة منقذين (٢) .

هكذا كانت حال اسبانيا حينما افتتح العرب إفريقية واقربوا من شواطئ الأندلس . وكان على عرش اسبانيا يومئذ الملك وتيزا (٣) خلف الملك إجيكا وولده . وكان يحكم مملكة مزقها الخلاف وشعباً أضناه العسف . وتحمل بعض الروايات الإسبانية القديمة على وتيزا ، وتصفه بأنه كان ملكاً خليعاً فاجراً ، مغرقاً في شهوته ، وأنه كان على رأس بلاط منحل وضعيع الخلال . ويقول البعض الآخر إنه كان بالعكس ملكاً فاضلاً حسن السيرة ، وافر الحكمة والعدالة ، وإنه عمل على رد المظالم وإقامة العدل (٤) . والمرجح المتداول ، أنه أحسن السيرة في بداية عهده ، ورد إلى اليهود سابق حقوقهم وامتيازاتهم ، ولكنه حاول أن يحد من سلطة الأشراف والأجبار ، وأن يجمع السلطة في يد العرش ، فسخط عليه الأشراف ورجال الدين ، ودبروا لإسقاطه ثورة بعد ثورة ؛ ولكنه أخذها

(١) راجع كتاب « تاريخ لانجدوك » *Histoire de Languedoc* ، تأليف الراهب *Dom Vissette* (الطبعة الجديدة ج ١ ص ٧٥٠ و ٧٥١) ، وهذا المؤلف موسوعة ضخمة من ستة عشر مجلداً ، ويشتمل على وثائق وتفصيل هامة عن تاريخ اسبانيا قبل الفتح الإسلامى ، وغزوات العرب الأولى لإسبانيا وفرنسا .

(٢) *Dozy : Hist. : V. I. p. 268*

(٣) ويسميه العرب « غيطشة » .

(٤) يقول بالرواية الأولى سيستيان السلمنى ورددريك الطليلى ، ويقول بالرواية الثانية إيزيدور الباجى ؛ ويوافقه في هذا ابن عذارى المراكشى (البيان المغرب ج ٢ ص ٤) . وراجع :

Dozy : Recherches, V.1 p. 16.

جميعاً ، وهدم جميع المعقل والحصون الداخلية لكي يحطم سلطان خصومه ويجردهم من وسائل الدفاع والمقاومة ، فلم يزدحم البطش والهزيمة إلا ظمناً إلى الخروج والثورة . وكان في مقدمة خصومه الذين يخشى بأسهم دوق تيودوفريد الذي نفاه أبوه الملك إچيكا إلى قرطبة ، فزاد على ذلك أن سمل عينيه مبالغة في النكاية به ، وحاول أن يفعل ذلك مع بلاجيوس ولد فاقيلادوق كانتاريا ، ولكنه استطاع الفرار من نقمته^(١) . وكان الشعب من جهة أخرى يروح أبدأً تحت نير الجور والإرهاق ، فكان عرش القوط يرتجف فوق بركان مضطرم من السخط ، وتقول الرواية النصرانية إن الزعماء الناقمين انتهبوا فرصة اقتراب أسطول إسلامي من جنوب اسبانيا ورفعوا لواء الثورة ، وإن وتيزا استطاع أن يرد هذا الأسطول وإن تيودومير قائد الأسطول القوطي هزم المسلمين في معركة بحرية كبيرة وذلك في سنة ٧٠٨ م^(٢) . وكان العرب كما قدمنا قد طوقوا أسوار سبتة معقل القوط في الضفة المقابلة من البحر ، وأمد وتيزاً حاكمها الكونت يوليان بأشجع جنده ، فانتهب خصومه فرصة ضعفه في الداخل ليدبروا الثورة مرة أخرى . وقاد الثورة عندئذ زعيم جرىء هو رُدريك ابن دوق تيودوفريد الذي سمل وتيزاً عينى أبيه ، فكان يحفزه باعث الانتقام أيضاً ، وكان يتزعم حزباً قوياً ، والتف حوله رجال الدين والأشراف والأسر الرومانية ، فجمع جيشاً كبيراً ونادى بنفسه ملكاً . ووقعت بين الفريقين حرب أهلية شديدة . وهنا تختلف الرواية فيقال إن وتيزا قتل في هذا النضال وخلص الملك لمنافسه ، وفي رواية أخرى أن رُدريك ظفر به وسمل عينيه انتقاماً لأبيه ، ويقال أيضاً إنه ارتد إلى إحدى الولايات الشمالية وامتنع بها حتى وفاته . ويختلف المؤرخون كذلك في تاريخ ولاية رُدريك الملك ، فيقول البعض ، ومنهم رُدريك الطليطلي ، إنه تولى سنة ٧١١ م ، وحكم مع وتيزا قسماً من اسبانيا ، وإنه لما توفى وتيزا في سنة ٧١٣ م ، استأثر بالحكم مدى

(١) Dom Vissette : ibid, V. 1. p. 756

(٢) أورد هذه الرواية إيزيدور الباجي Isidorus Pacensis ونقلها المؤرخ الألماني يوسف أشباخ في كتابه *Geschichte der Omajaden in Spanien* (ج ١ ص ٢٦) . والظاهر أن المقصود هنا هو الحملة البحرية التي جهزها موسى بن نصير بقيادة ابنه عبد الله سنة ٨٩ هـ (٧٠٨ م) وهي المعروفة بغزوة الأشراف . ولكن المسلمين لم يهزموا عندئذ في أية موقعة بحرية ، وقد غزوا جزائر البليار كما قدمنا .

عام آخر حتى فتح اسبانيا ، ويقول إيزيدور الباجي ، إن ردرريك ظفر بالعرش في أواخر سنة ٧١١ م وأنه لم يحكم قبل الفتح سوى عام واحد^(١) ؛ وفي الروايتين تحريف ظاهر ، ولا بد أن ردرريك ولي الملك قبل سنة ٧١١ ، إذ كان فتح العرب لاسبانيا في صيف هذا العام نفسه . وعلى أي حال فإن المعركة استمرت مدى حين بين ردرريك وولدي وتيزا ، وهما إيفا ومسيزبوت يعاونهما عمهما أوباس^(٢) أسقف طليطلة وإشبيلية ورأس الكنيسة ، والتفت حولهما رجال الدين وكل أنصار الحكم القديم . وكان ردرريك قوى الجانب وافر الشجاعة والعزم ، فاستطاع أن يخذم الثورة في كل ناحية ، واستتب له الأمر حيناً ، ومع ذلك فقد بقي عرش القوط مضطرباً بهز في يد القدر ، وكان الخطر يجم في ناحية أخرى :

ذلك أن خصوم ردرريك اتجهوا بأبصارهم إلى خارج الجزيرة . وكان الكونت يوليان حاكم سبته والمضيق ، محط أنظارهم ومساعدتهم . وقد اختلف في أمر الكونت يوليان اختلافاً بيناً ، فالروايات العربية القديمة كلها تشيد بذكره ، وبالذور العظيم الذي أداه في الفتح ، وينكر وجوده بعض أكابر المؤرخين الإسبان مثل ماسدي وغيره ، لأن ذكره لم يرد لأول مرة إلا في روايات القرن الثاني عشر . على أنه مما يعزز إجماع الرواية العربية ، إشارة إيزيدور الباجي ، صاحب أقدم رواية إسبانية عن الفتح ، إلى شريف نصراني كان يصحب موسى في كل غزواته . كذلك تختلف الرواية في صفة الكونت ، فيقال إنه لم يكن تابعاً لملك القوط ، وإن سبته كانت في ذلك الحين ما تزال تابعة لقيصر الدولة الشرقية ، ولكن حاكمها الكونت رأى لبعدها وعزلتها أن يستظل بحماية اسبانيا^(٣) . على أنه يبدو من أقوال الرواية العربية ، وهي في نظرنا أقوى وأرجح ، أن الكونت يوليان كان قوطياً إسبانياً ، وأنه كان يرتبط ببلاط طليطلة بصلات وثيقة . وتؤيد الرواية العربية

Rodericus Toletanus وذلك نقلا عن Dom Visette : *ibid*, V. 1. p. 756 (١)

Isidorus Pacensis , *Chronicon*

(٢) يسمى ابن القوطية أولاد وتيزا كما يأتي : المند . ورملة . ثم أرطباس . ولعل أرطباس هو أوباس . ولكن صاحب « أخبار مجموعة في فتح الأندلس » أصح وأدق فهو يسميها شيرت وأبة باعتبار أنهما اثنان فقط (ص ٨) .

Dozy : *Recherches* : V. 1. p. 60-65, Hiet : V. 1. p. 270 (٣)

بعض التواريخ النصرانية المتأخرة ، فيقول لنا ردرىك الطليطلى ، ولوقا التطيلي ، إن الكونت يوليان كان حاكماً لسبته ، وهى يومئذ من أملاك العرش القوطى ، وإنه كان رجلاً شجاعاً ، ولكنه كان مغامراً منتقماً ، وإنه كان من أقارب الملك فامبا (١) . ويقول لنا ألفونسو العاشر فى تاريخه العام إن الكونت يوليان كان من أكابر الأشراف الذين يرجع أصلهم إلى القوط ، وإنه كان قريباً للملك وتيزا (٢) . ولما نشب الخلاف الداخلى حول العرش ، انضم الكونت إلى أنصار الحكم القديم وأنصار الملك وتيزا . وكان غنياً شديد البأس ، كثير الأتباع والجند ، يعتصم بالبحر ، بعيداً عن سلطة العرش ، ويقبض على مفتاح اسبانيا بحكمه لسبته والمضيق . وكان من خصوم الحكم الحديدى يخشى عواقبه على مركزه وسلطانه . فاتصل به إينا وتيزا وباقى الزعماء الخوارج ، واستقر الرأى على الاستنجد بالعرب جيران الكونت ، وهذا هو التعليل التاريخى للتحالف الذى عقد بين يوليان وموسى ابن نصير وانتهى بفتح العرب لإسبانيا . ولكن الرواية - والرواية الإسلامية بنوع خاص - تقدم إلينا تعليلاً آخر ، فتقول لنا إن يوليان كان يعمل بدافع الانتقام الشخصى أيضاً . فقد كانت له إبنة رائعة الحسن تدعى فلورندا أو كايا ، أرسلها إلى بلاط طليطلة جريباً على رسوم ذلك العصر ، لتلقى ما يليق بها من التربية بين كرائم العقائل والفرسان ، فاستهوى جمالها الفتان قلب ردرىك فاغتصبها وانتهك عفافها . وعلم الكونت بذلك فاستقدم ابنته إليه وأقسم بالانتقام ، ونزع ردرىك ذلك العرش الذى اغتصبه . فلما نشبت الحرب الأهلية بين ردرىك وخصومه ، والتجأ هؤلاء الخصوم إليه ، رأى الفرصة سانحة للعمل ، ولم يرخيراً من الاستنصار بالعرب ومعاونتهم على فتح اسبانيا .

والرواية الإسلامية تجمع على قبول هذه القصة والأخذ بها ، مع أخذها فى الوقت نفسه بالعوامل السياسية التى ذكرناها (٣) . ولكن الرواية النصرانية تتردد

(١) Camille Julian : Histoire de la Gaule p. 727

(٢) Pr. Crónica General (Ed. Pidal) Vol. I. p. 307

(٣) يتناقل المؤرخون المسلمون هذه القصة منذ أقدم العصور ، فقرأها فى رواية ابن عبيد الحكم الذى كتب تاريخ فتح الأندلس بعد وقوعه بنحو قرن فقط (أخبار مصر وفتوحها ص ٢٠٥) . وذكرها ابن حيان مؤرخ الأندلس (نقله فتح الطيب ج ١ ص ١٠٩) ، وابن القوطية القوطى فى « افتتاح الأندلس » (ص ٨) - وهو يصف يوليان بأنه كان تاجراً من تجار العجم لا حاكماً لسبته ، ويعمل =

في قبولها ، وتنكرها معظم الروايات الإسبانية الحديثة ، وتعتبرها أسطورة صاغتها الأغاني والقصص القديمة . وهكذا نجد ماريانا وماسدى أعظم مؤرخي اسبانيا في مقدمة المنكرين لصحتها . ويذهب البعض الآخر مثل مونتيخار وغيره إلى أبعد من ذلك ، فينكر شخصية الكونت يوليان ذاته ، ويعتبرها شخصية خيالية ، ويعتبر القصة كلها خرافة وأسطورة فقط^(١) . ويقول كوندى إن اسم كابا (فلورندا) ووصيفتها أليشا وكل أشخاص هذه الرواية تدل على أن القصة كلها إنما هي خرافة موريسكية^(٢) اشتقت من الأساطير والأغاني العامية التي كانت ذائعة بين المسلمين والنصارى^(٣) .

وإنكار الرواية الإسبانية لمثل هذه القصة معقول ظاهر الحكمة ، فهي تأتي الاعتراف بواقعة تسجل خيانة الوطن على نفر من زعماء اسبانيا الأوائل ، وهي خيانة كان من أثرها أن أفتح العرب اسبانيا وحكمها الإسلام قروناً طويلة . على أننا لا نجد في القصة ما يبعث إلى إنكارها ، فوقعها ممكن معقول في مثل الظروف التي كانت تجوزها اسبانيا يومئذ ، من خلاف في الرأي ، وتنازع على السلطة ، وانحلال أخلاقي واجتماعي . ولسنا من جهة أخرى نلمس في الرواية الإسلامية أثر الاختراع . فليس ثمة ما يدعو إليه . وليس من المعقول أن تخترع الرواية الإسلامية قصة مفادها أن المسلمين لقوا في فتح اسبانيا معاونة لم يتوقعوها ، وأن هذه المعاونة سهلت لهم سبل الفتح ، ولعلمهم لم يقدموا بدونها على الاضطلاع به ، أو لعلمهم كانوا يتعرضون للإخفاق والفشل . هذا إلى أن بعض الروايات الإسبانية القديمة ، ومنها ما هو قريب من الفتح ، يشترك مع الرواية العربية في سرد قصة فلورندا والأخذ بها .

= وقوع الفتح بخروج أولاد وتيزا وخيانتهم . وكذا صاحب أخبار مجموعة (ص ٥) . وابن الأثير (ج ٤ ص ٢١٣) . وابن خلدون (ج ٢ ص ٢٣٦ وج ٤ ص ١١٧) . وعبد الواحد المراكشي في «المعجب» (ص ٦) . وابن عذار المراكشي في «البيان المغرب» (ج ٢ ص ٨) . وصاحب الروض المعطار في «وصف جزيرة الأندلس» المنشور بالقاهرة ١٩٢٧ (ص ٧) .

(١) راجع الهامش في : Aschbach : ibid, I. p. 28

(٢) نسبة إلى الموريسكيين Moriscos أو العرب المنتصرين ، وهم بقية الأمة الأندلسية المغلوبة بعد سقوط غرناطة (١٤٩٢ م) وانتهاء دولة الإسلام في الأندلس .

(٣) Historia de la Dominación de los Arabes en Espana (٢)

فن ذلك ما ورد في رواية إيزيدور الباجي الذي عاش في أوائل القرن الثامن ، وما ذكره رديك الطليطلي في روايته ، من أن الكونت يوليان ثار لاعتداء رديك على ابنته أو زوجه ، واعتزم أن ينتقم لنفسه بدعوة العرب إلى فتح اسبانيا ، وهي قصة ردها أيضاً التاريخ العام الذي وضع بأمر الملك ألفونسو العالم في أواخر القرن الثالث عشر^(١). ففي هذه الروايات الإسبانية النصرانية كلها تأييد لهذه القصة الشهيرة . كذلك يختلف النقد الأوربي الحديث في أمر هذه القصة ، ف يرى البعض أنها أسطورة لا يصح الأخذ بها ، ويرى البعض الآخر أنها معقولة لا أمر للاختراع فيها^(٢) . ونحن مع هذا الفريق نرى قصة فلورندا حاداً طبيعياً معقولا ، ونرى في إجماع الرواية الإسلامية على تدوينها دليلاً خيراً على صحتها . ومهما كان من أمر يوليان ، ومهما كان من بواعث غضبه ونقمته على ملكه ، فقد كان تدخله أكبر عامل في تذليل فتح المسلمين لشبه الجزيرة الإسبانية ، والقضاء على مملكة القوط .

Pr. Crónica General ; Vol. I. p. 807, C. Julian, *ibid*, p, 757 — (١)

Gibbon, *ibid*. Chap. LI (Note)

(٢) قال الفيلسوف جيبون في تعليقه على تلك القصة : « طالما كانت أهواء الملوك يطعمها الجذوح والبعث . ولكن هذه القصة المعروفة ، وإن كانت روائية في ذاتها ، لم تؤيدها الأدلة الكافية ، وتاريخ اسبانيا يقدم من بواعث المصلحة والسياسة ما هو أليق بتفكير السامى القديم (يريد الكونت يوليان) Gibbon, *ibid*, LI . ويسخر قولتير في تاريخه العام من القصة ويقول : « إن الاغتصاب صعب التنفيذ صعب التدليل ، فهل يتحالف الأخبار من أجل فتاة » . ولكن المؤرخ المستشرق دوز يروى القصة ويأخذ بها في شرح حوادث الفتح Dozy : *Histoire V.l.p.271* وكذا يرويها ويأخذ بها المستشرق كاردون في كتابه : *Histoire de l'Afrique et de l'Espagne p. 65* .

الفصل الثالث

فتح اسبانيا

المفاوضة بين موسى بن نصير والكونت يوليان . استنكذان موسى للوليد في الفتح . فكرة يوليان وأصحابه في استدعاء العرب . حملة تمهيدية إلى الجزيرة الخضراء . حملة الفتح . طارق بن زياد . عبوره إلى الأندلس واختراقه الجزيرة الخضراء . تأهب ردرريك ملك القوط لملاقاة العرب . مكان اللقاء بينهما . موقعة شدونة أو وادي لكة . تفرق الجيش القوطي . هزيمة القوط ومقتل ردرريك . الخطاب الذي ينسب إلى طارق والشك في صحته . هل أحرق طارق سفن الحملة . اللقاء الثاني بين القوط والعرب في إستجة . هزيمة القوط الثانية . زحف طارق على طليطلة . إفتتاح قرطبة وغرناطة ومالقة . معاونة اليهود للمسلمين . إفتتاح تدمير وعقد الصلح مع أميرها . طارق يحترق الأندلس . كلمة أندلس وأصلها . استيلاء طارق على طليطلة . اختراقه قشتالة وليون وجبال أستورية . عوده إلى طليطلة . موسى وموقفه من الفتح . أوامره لطارق . يقود حملة جديدة إلى اسانيا . استيلاؤه على شدونة وقرمونة وإشبيلية . حصاره لماردة وإفتتاحها . غضبه على طارق ثم عفو عنه . سيرهما إلى الشمال وإفتتاحهما لسرقسطة وطركونة وبرشلونة . سير طارق إلى جليقية . موسى يحترق البرنيه ويفزوسبانيا . إفتتاحه لأربونة وقرقشونة ووادي الرن . مشروعه في اختراق الأمم النصرانية شرقاً إلى مقر الخلافة . إعتراض حكومة دمشق . سيره لإخضاع جليقية . استدعاؤه وطارق إلى دمشق . بواعث هذا الاستدعاء . إفتتاح عهد العزيز بن موسى لبلنسية ولبلة . معاهدته مع تيودمير . إشبيلية عاصمة الأندلس . إستخلاف موسى لولده عبد العزيز . سفره وطارق إلى المشرق . ما أصاب المسلمون من غنم الأندلس . مصير موسى واختلاف الرواية في شأنه . وفاته وخلالها . مصير طارق . مصير الكونت يوليان والأمراء المحالفين للعرب . سارة القوطية وحفيدها المؤرخ .

في الوقت الذي كانت شبه الجزيرة الإسبانية تجوز فيه هذه الحوادث والأزمات الخطيرة ، كان العرب قد أتموا فتح المغرب الأقصى ، واستولوا على ثغر طنجة ، وأشرفوا على شواطئ الأندلس من الضفة الأخرى من البحر ، ولم يبق لإتمام فتح إفريقيا سوى ثغر سبتة الذي يقع مقابل طنجة في الطرف الآخر من اللسان المغربي . وكانت سبتة قد استطاعت لمنعتها وسهر حاكمها الكونت يوليان ، أن تحبط كل محاولة لأخذها . وكان موسى بن نصير يتوق إلى إفتتاح هذا الثغر المنيع ، وتطهير إفريقيا من البقية الباقية من العدو . وبينما هو يرقب الفرص لتحقيق هذه الأمنية ، إذ جاءته رسالة من الكونت يوليان نفسه يعرض فيها

تسليم معقله ، ويدعوه إلى فتح اسبانيا، وجرت بينهما المفاوضة في هذا المشروع الخطير . وتختلف الرواية في أمر هذا الاتصال ، فيقال إن موسى ويوليان اتصلا بالمراسلة ، وقيل إنهما اتصلا بالمقابلة الشخصية ، وإن الكونت استدعى موسى إلى سبته ، وهناك وقعت المفاوضة بينهما . وقيل أخيراً إنهما اجتمعا في سفينة في البحر^(١) . وعلى أى حال فقد استجاب موسى لدعوة الكونت ، واهتم بمشروعه أعظم اهتمام ، وكان قد وقف على أحوال اسبانيا وخصبها وغناها ، واستطاع أن يقدر أهمية مثل هذا الفتح ، وجليل مغائمه ومزاياه ، فلما علم من يوليان وحلفائه ما تعانيه اسبانيا من الخلاف والشقاق ، وما يسودها من الانحلال والضعف ، ورأى مما يعرضه يوليان من تسليم سبته وباقي معقله ، وتقديم سفنه لنقل المسلمين في البحر ، ومعاونته بجنده وإرشاده ، أن الفوز ميسور محقق ، كتب إلى الوليد بن عبد الملك يخبره بأمر المشروع ، فكتب إليه الوليد أن يختبره بالسرايا ، أعنى بالحملات الصغيرة بادية بدء ، والأيزج بالمسلمين إلى أهوال البحر ، بيد أن المسلمين كانوا قد خاضوا قبل ذلك غمر المعارك البحرية في هذه المياه ، وغزوا صقلية وسردانية ، ثم غزوا جزائر البليار (الجزائر الشرقية) كما قدمنا ، وكان البحر الذى يفصل بين إفريقية والأندلس مجازاً ضيقاً سهل العبور .

ولبت موسى حيناً بطنجة يهتئ عُدّة الفتح . والظاهر أن يوليان وحلفائه لم يقصدا بدعوة موسى أن يمتلك العرب اسبانيا ، وأن يحكموها ، بل كان مشروعهم أن يستعينوا بالعرب على محاربة المعتصب وإسقاطه ، واستخلاص الملك لأنفسهم . وكان اعتقادهم أن العرب متى امتلأت أيديهم بالأسلاب والغنائم ، قفلوا إلى إفريقية . وهو فرض معقول يؤيده سير الحوادث في اسبانيا ، فقد كان الخوارج على ردريك يقصدون إلى انتزاع الملك من يده . وتحقيق أطماعهم بالحلول مكانه . أما الفرض الآخر - وهو أنهم كانوا يقصدون بالفعل تسليم وطنهم إلى العرب - فعناهم أنهم كانوا يعملون للقضاء بأنفسهم على مشاريعهم وأطاعهم ، وهو مما يصعب قبوله وتعليله^(٢) ، والظاهر أن موسى بن نصير كان من جانبه

(١) راجع ابن الأثير ج ٤ ص ٢١٢ ، والبيان المغرب ج ٢ ص ٦ .

(٢) قدم ابن الأثير في روايته ما يفيد صحة الفرض الأول (ج ٤ ص ٢١٤) . وكذا صاحب =

يؤكد ليوليان أنه لا يقصد بالغزو سوى مجد الفتح وكسب الغنائم ، وأنه لا ينوي إنشاء دولة مسلمة فيما وراء البحر . ونزل موسى على نصح الخليفة في اختبار الفتح الحديد بالسرايا ، وبدأ مشروعه بمحاولة صغيرة ، فجهز خمسمائة مقاتل بينهم مائة فارس ، بقيادة ضابط من البربر يدعى طريف بن مالك ، فعبروا البحر من سبتة في أربع سفن قدمها يوليان ، إلى البقعة المقابلة التي سميت جزيرة طريف باسم قائد الحملة ، وذلك في رمضان سنة إحدى وتسعين (يولييه سنة ٧١٠ م) . وجاست الحملة خلال الجزيرة الخضراء بإرشاد يوليان ، فأصابت كثيراً من الغنائم ، وقوبلت بالإكرام والترحيب ، وشهدت كثيراً من دلائل خصب الجزيرة وغناها ، ثم عادت في أمن وسلام ، وقص قائدها على موسى نتائج رحلته ، فاستبشر بالفوز ، وجد في أهبة الفتح .

وفي شهر رجب سنة اثنتين وتسعين (إبريل سنة ٧١١ م) جهز موسى جيشاً من العرب والبربر يبلغ سبعة آلاف مقاتل بقيادة طارق بن زياد الليثي ، وكان يومئذ حاكماً لطنجة كما قدمنا^(١) . ومن الغريب أن الرواية الإسلامية لا تحدثنا عن فاتح الأندلس بشيء قبل ولايته لطنجة ، بل إنها تختلف في أصله ونسبته ، فقيل هو فارسي من همدان ، كان مولى لموسى بن نصير ، وقيل إنه من سبي البربر ، وقيل أخيراً إنه بربري من بطن من بطون نفزة ، وهذه فيما يظن أرجح رواية ، وهي رواية يؤيدها صاحب البيان المغرب ، بإيراد نسبة طارق مفصلة . ويبدو منها أن طارقاً تلقى الإسلام عن أبيه زياد عن جده عبد الله ، وهو أول اسم عربي إسلامي في نسبه ، ثم ينحدر مساق النسبة بعد ذلك خلال أسماء بربرية محضة حتى ينتهي إلى نفزة ، وهي القبيلة التي ينتمي إليها^(٢) .

= « أخبار مجموعة » (ص ٨) ، والمقرى (ج ١ ص ١٢٠) . ومن جهة أخرى فإن البحث الحديث يؤيده ويرجح . راجع دوزي : *Dozy : Hist, V. I. p. 272* ، وأيضاً جيبون حيث يقول : « يظهر أن الكوفت لا يستحق وصيات الحيانة والخسة والندرة المطلقة ، فإن التاريخ لم يثبت أنه كان يريد تسليم بلاده للعرب . وإنما كان مشروعه أن يستعين بهم على قلب الحكومة وإسقاط ردرليك حتى يكون له في حكومة هو منشؤها مكانة أسمى » *Gibbon : ibid. Chap. LI. (note)*

(١) يقول صاحب البيان المغرب إن ولاية طارق لطنجة كانت في سنة ٨٥ هـ (ج ٢ ص ٢٨) ، ولكن الظاهر أنه وليها بعد ذلك ببضعة أعوام .

(٢) راجع البيان المغرب (ج ٢ ص ٦) وفيه ترد نسبة طارق هكذا : - طارق بن زياد ابن عبد الله بن ولغو بن ورفجوم بن نيرغاس بن ولهاص بن يطومث بن نفزا ؛ وراجع أيضاً نزهة =

وتقدم إلينا الرواية الإسلامية التي يسوقها إلينا صاحب كتاب «الإمامة والسياسة» وصفاً لشخص طارق خلاصته أنه كان «رجلاً طويلاً أشقر ، بعينه قبل أى حول وببده شلل»^(١) . فإذا صححت هذه الرواية ، فإنها يمكن أن تقدم إلينا دليلاً آخر على انتهاء طارق إلى الجنس البربرى . فالبربر حسبنا شهدنا من التجوال فى بعض ربوعهم بالمغرب ، يكثر بينهم الطول والشقرة ؛ وكان طارق جندياً عظيماً ظهر فى غزوات المغرب بفائق شجاعته وبراعته ، وقدر موسى مواهبه ومقدرته واختاره لحكم طنجة وما يليها ، وهى يومئذ أخطر بقاع المغرب الأقصى وأشدها اضطراباً ، ثم اختاره لفتح الأندلس . فعبر البحر من سبتة بجيشه تبعاً فى سفن يوليان القليلة ، ونزل بالبقعة الصخرية المقابلة التى ما زالت تحمل اسمه إلى اليوم أعنى جبل طارق ، وذلك فى يوم الإثنين الخامس من رجب سنة ٩٢ هـ (٢٧ إبريل سنة ٧١١ م)^(٢) . واخترق طارق المنطقة المحاورة غرباً بمعاونة يوليان وإرشاده ، وزحف على ولاية الجزيرة التى كان يحكمها تيودومير القوطى عامل ردرىك واحتل قلاعها ، بعد أن هزم شرادم من القوط تصدت لوقفه . وبادر حكام الولايات المحاورة بإخطار بلاط طليطلة بالخطر الدايم . وكان ردرىك يشتغل يومئذ بمحاربة بعض الخوارج فى الولايات الشمالية ، فهرع إلى طليطلة شاعراً بفداحة الخطر المحيق بعرضه وأمته ، وبعث قائده إديكو لرد العدو حتى يستكمل أهبته . ولكن طارقاً هزمه ثم اخترق بسائط «الفرننيره»^(٣) معتزماً السير صوب عاصمة القوط .

وكان رُدرىك أو رذريق أو لذريق كما يسميه العرب^(٤) أميراً شجاعاً وافر المقدرة والعزم ، ولكنه كان طاغية يثير بقسوته وصرامته حوله كثيراً من البغضاء

= المشتاق للشرىف الإدريسى حيث يقول إنه بربرى من زناته (طبع رومة ص ١٧٩) ، وكذلك ابن خلدون (ج ٤ ص ١١٧) ، والمقرى (نفح الطيب ج ١ ص ١١٩) .

(١) الإمامة والسياسة ج ٢ ص ٧٤ . ونقل إلينا المقرى ما يفيد أن طارقاً كان ضمن الهامة ، وفى كتفه الأيسر شامة (ج ١ ص ١٠٧) .

(٢) المقرى (ج ١ ص ١١٩) ، والبيان المغرب ؛ وهناك خلاف على الشهر الذى جبر فيه طارق .

(٣) الفرننيره La Frontera ، هى المنطقة الوسطى والغربية فى الثلث الإيبانى .

(٤) ويسميه الواقى باسم آخر هو «الأدرينوق» ؛ راجع الطبر ج ٨ ص ٨٢ .

والسخط^(١) . وكان عرشه يرتجف فوق بركان من الخلاف ، وكانت إسبانيا قد مزقت شيعاً وأحزاباً ، يتطلع كل منها إلى انتزاع السلطان والملك ، وكان أهم هذه الأحزاب وأقواها حزب العرش القديم الذى يلتف حول ولدى وتيزا (غيطشة) . ومع ذلك فقد اعتصم القوط حين الخطر الداهم بنوع من الاتحاد ، واستطاع ردريك أن يجمع حوله معظم الأمراء والأشراف والأساقفة ، وحشد هؤلاء رجالهم وأتباعهم ، فاجتمع للقوط يومئذ جيش ضخم تقدره بعض الروايات بمائة ألف^(٢) ، ويقدره مؤرخ أندلسى متأخر بتسعين ألف^(٣) . وسار ردريك نحو الجنوب للقاء المسلمين ، وكان طارق قد وقف على أمر هذه الأبهة العظيمة ، فكتب إلى موسى يستنجد به ، فأمدته بخمسة آلاف مقاتل ، فبلغ المسلمون اثني عشر ألفاً ، وانضم إليهم يوليان في قوة صغيرة من صحبه وأتباعه .

كان القوط أضعاف المسلمين ، وكان المسلمون يقاتلون في أرض العدو في هضاب ومفاوز شاقة ، ولكن قائدهم الحرىء تقدم إلى الموقعة الحاسمة بعزم . فكان اللقاء بين الحيشين في سهل الفرنتره Frontera على ضفاف نهر وادى لكه أو وادى بكه . وقد اختلف البحث الحديث في تحديد المكان والنهر الذى يحمل هذا الاسم الذى تورده الرواية العربية . فذكر البعض أنه هو نهر «جواداليتى» Guadalete (وادى لكه) الذى يصب في خليج قادس على مقربة من مدينة شريش ، وأن اللقاء حدث على ضفته الجنوبية شمالي مدينة شذونة . وذكر البعض الآخر ، وهى الرواية الراجحة فيما يزي البحث الحديث ، أن اللقاء قد حدث جنوبي بحيرة « ختدة » Janda الصغيرة المتصلة بنهر بارباتى Barbate الصغير

Cardonne : ibid. p. 62 (١)

(٢) راجع ابن الأثير ج ٤ ص ٢١٤ ؛ والمقرئ ج ١ ص ١٢٠ . ويقدره في مكان آخر بسبعين ألف (ص ١١٢) . ويأخذ جييون بهذه الرواية فيقدر جيش القوط بتسعين ألف أو مائة ألف (الفصل الحادى والخمسون) . ولكن ابن خلدون يقدره بأربعين ألف فقط ، وهو في نظرفا أقرب إلى المعقول (ج ٤ ص ١١٧) .

(٣) هذه هى رواية على بن عبد الرحمن بن هذيل صاحب كتاب « تحفة الأنفس و شمار أهل الأندلس » وهو من كتاب القرن الرابع عشر الميلادى (مخطوط بالإسكوريال رقم ١٦٥٢ دير نبور - لوحة ٤٨) وهو مؤلف فريد في بابيه يتحدث عن الجهاد والمغازى وللصوائف والقروسية وأحوالها وفروطها . وبه نبت تاريخية مفيدة . وقد نشره المستشرق مرسية .

الذى يصب في المحيط على مقربة من رأس « طرف الغاز »^(١) وأن الرواية العربية تقصد هذا النهر بما تورده من إسم وادى لكة أو وادى بكة . ففي هذا السهل الصغير الذى تحده من الجنوب سلسلة من التلال العالية ، وعلى ضفاف بحيرة خنده ونهر « بارباتى » تلاقى العرب والقوط ، والإسلام والنصرانية ، وذلك فى الثامن والعشرين من شهر رمضان سنة ٩٢ (١٧ يولييه سنة ٧١١ م)^(٢) . و فرق النهر بين الجيشين مدى أيام ثلاثة شغلت بالمعارك البسيطة . وفى اليوم الرابع التحم الجيشان ونشبت بينهما معركة عامة . وظهر ردرىك وسط الميدان فى حلل ملوكية فوق عرش تجره الخليل المطهمة ، وهو منظر يثير سخرية الفيلسوف جيبون ولاذع تمكمه إذ يقول : « ولقد ينجل الأريك (مؤسس دولة القوط) عند رؤية خلفه (ردرىك) متوجاً باللالىء ، متشحاً بالحرير والذهب ، مضجعاً فى هودج من العاج »^(٣) . واستمرت المعركة هائلة مضطربة بين القوى النصرانية الضخمة ، وبين القوة المسلمة المتواضعة نحو أربعة أيام^(٤) . ولكن الجيش القوطى كان رغم كثرته مختل النظام منحل العرى ، وكان يقود جناحيه إيقا وسيزبوت خصما ردرىك^(٥) ،

(١) يقول دوزى إن هذا النهر يحمل اليوم اسم سلاو Salado (ج ١ ص ٢٧٣ هاشم) وهو خطأ لأن هذا الإسم يطلق على نهر آخر يقع شمالى نهر بارباتى . ويسميه ابن القوطية « وادى بكة » (ص ٧) . وراجع : الأستاذ لى بروئيسال : *Histoire de l'Espagne Musulmane* : (١٩٤٤) p. 15 & 16 . والهامش .

(٢) تجمع الرواية الإسلامية تقريباً على أن الموقعة كانت فى ذلك التاريخ . ولكن ابن حيان مؤرخ الأندلس يقول إنها كانت فى السابع من ربيع الأول سنة ٩٢ هـ (المقرئ عن ابن حيان ج ١١٦) ولعله ينفرد بهذا الخلاف .

(٣) تشير معظم الروايات الإسلامية إلى هذا المنظر ؛ فيقول الطبرى نقلا عن الواقدى : « فزحف الأدرينوق فى سرير الملك ، وعلى الأدرينوق تاجه وفتازه وجميع الحلة التى كان يلبسها الملوك » (ج ٨ ص ٨٢) ، والمقرئ (ج ١ ص ١١٢) ، وابن الأثير (ج ٤ ص ٢١٢) ، وابن عثارى (ج ٢ ص ٩) .

(٤) قال الرازى : « كانت الملاقاة يوم الأحد للبتين بقيتا من شهر رمضان ، فاتصلت الحرب بينهما إلى يوم الأحد لخمس خلون من شوال . ثم هزم الله المشركين فقتل منهم خلق عظيم أقامت عظامهم بعد ذلك بدهر طويل ملبسة بتلك الأرض ، قالوا : وحاز المسلمون من عسكرهم ما يجعل قدره ، فكانوا يعرفون كبار العجم وملوكهم بخواتم الذهب يجدرنها فى أصابعهم ، ويعرفون من دونهم بخواتم الفضة ، ويميزون عبيدهم بخواتم النحاس » (المقرئ ج ١ ص ١٢١) .

(٥) أخبار مجموعة (ص ٨) .

وتتكون صفوفه من أتباعهما وأتباع حلفائهما من الأمراء والزعماء الناقمين ، الذين تظاهروا بالإخلاص وقت الخطر ، وكلهم يتحين الفرصة للإيقاع بالملك المعتصب^(١) ، فكانت الحيانة تمزق جيش القوط شرمزق . واستمال يوليان والأسقف أوباس وهما في صف المسلمين كثيراً من جند القوط ، وبثا بدعائيهما في الصفوف الموالية لردريك كثيراً من عوامل الشقاق والتفرق ، فأخذ كل أمير يسعى في سلامة نفسه . وتمكن الجيش الإسلامي على ضالة عدده ، بجلده وثباته واتحاد كلمته ، من جيش القوط ، فلم يأت اليوم السابع من اللقاء حتى تم النصر لطارق وجنده ، وهزم القوط شرمزيمة ، وشتتوا ألوفاً في كل صوب .

أما ردرريك آخر ملوك القوط ، فقد اختفى عقب الموقعة ، ولم يعثر له بأثر . ويقول إيزويدور الباجي إنه بقي في ميدان الحرب حتى قتل مدافعاً عن عرشه وأمه . وتقول بعض الروايات النصرانية الأخرى إنه فر عقب الهزيمة على ظهر جواده ، ولكنه غرق في مياه النهر . وتميل التواريخ الإسلامية إلى تأييد هذه الرواية ، وتقول لنا إن ملك القوط مات غربيقاً ، وإنهم عثروا على جواده وسرجه الذهبي ، ولم يعثر إنسان بجثته . وتزعم بعض الروايات النصرانية أيضاً أن ردرريك استطاع أن يلوذ بالفرار ، ولكنه قتل بعد ذلك ، أو أنه فر إلى بعض الأديار في البرتغال وترهب ، وعاش متنكراً حيناً من الدهر . وينفرد صاحب كتاب الإمامة والسياسة بين المشاركة برواية أخرى ، وهي أن طارقاً ظفر بجثة ردرريك ، فاحتر رأسه وبعث بها إلى موسى بن نصير ، وبعث بها موسى إلى الخليفة ، ويتابعه في هذه الرواية كاتب أندلسي هو صاحب كتاب تحفة الأنفس الذي تقدم ذكره^(٢) . هذا إلى روايات كثيرة أخرى . ولكن المرجح في هذه الروايات كلها هو أن ردرريك فقد حياته في الموقعة التي فقد فيها ملكه ، وأنه مات قتيلاً أو غربيقاً على الأثر^(٣) .

(١) ابن الأثير (ج ٤ ص ٢١٤) والمقرئ (ج ١ ص ١٢١) ودوزي (ج ١ ص ٢٧٢) .
(٢) راجع كتاب الإمامة والسياسة ج ٢ ص ٧٥ و ٧٦ . ووردت هذه الرواية في كتاب تحفة الأنفس في المخطوط المتقدم ذكره (لوحه ٤٨) .

(٣) راجع في نصير ردرريك، C. Julian: Histoire de la Gaule p.750-Gibbon, *ibid*, Chap.LI. & notes ، وراجع من المصادر الإسلامية : ابن الأثير حيث يقول إنه غرق في نهاية الموقعة (ج ٤ ص ٢١٤) . والمقرئ حيث يقول إنه رمى بنفسه مختاراً إلى النهر ، وقد ثقفته الجراح (نفع الطيب =

هكذا كانت موقعة شدونة التي دالت فيها دولة القوط ، بعد أن لبثت زهاء ثلاثمائة عام منذ قيامها في غاليس ، وغنم الإسلام فيها ملك إسبانيا . وتحيط الرواية الإسلامية حوادث الفتح بطائفة كبيرة من الأساطير والقصص التي لا يستطيع المؤرخ أن يقف بها (١) . بيد أنه يجدر بنا في هذا المقام أن نذكر ما تعرضه الرواية من أن طارقاً خطب جنده قبيل نشوب المعركة الحاسمة ؛ كما أنه يجدر بنا أن نورد نص هذا الخطاب الشهير الذي ينسب لفتاح الأندلس ، والذي يعتبر نموذجاً بديعاً من الفصاحة والحماسة الحربية وهو :

« أيها الناس : أين المفر ؟ البحر من ورائكم والعدو أمامكم . وليس لكم والله إلا الصدق والصبر ، واعلموا أنكم في هذه الجزيرة أضيع من الأيتام في مأدبة اللثام ، وقد استقبلكم عدوكم بجيوشه وأسلحته ، وأقواته موفورة ، وأنتم لا وزر لكم إلا سيوفكم ، ولا أقوات لكم إلا ما تستخلصونه من أيدي عدوكم . وإن امتدت بكم الأيام على افتقاركم ولم تنجزوا لكم أمراً ، ذهبت ريحكم وتعوضت القلوب عن رعبها منكم الجرأة عليكم ؛ فادفعوا عن أنفسكم خذلان هذه العاقبة من أمركم ، بمناجزة هذا الطاغية ، فقد ألفت به إليكم مدينته الحصينة ؛ وإن انتهاز الفرصة فيه لممكن إن سمحتم لأنفسكم بالموت . وإنى لم أحذركم أمراً أنا عنه بنجوة ، ولا حملتكم على خطة أرخص متاعاً فيها للنفوس ، أبدأ بنفسى ، واعلموا أنكم إن صبرتم على الأشق قليلاً استمتعتم بالأرفه الألد طويلاً ، فلا ترغبوا بأنفسكم عن نفسى ، فاحظكم فيه بأوفى من حظى . وقد بلغكم ما أنشأت هذه الجزيرة من الحور الحسان من بنات اليونان ، الرافلات في الدر والمرجان .

= ج ١ ص ١٢١) . وقال ابن الأبار في الحلة السيرة إنهم عثروا على جواد ردرىك وسرجه من ذهب وزبرجد وإحدى نعليه وغاب شخصه ، فما وجد حياً ولا ميتاً (إيدن ص ٣١) . وهذه هي أيضاً رواية صاحب « أخبار مجموعة » (ص ٦) . وقال ابن عذارى إن ردرىك اختفى ولم يعرف له موضع ولا وجدت له جثة ، وإنما وجد له خف مفضض ، فقالوا إنه فرق وقالوا إنه قتل (ج ٢ ص ١٠) ؛ وتردد بعض التواريخ الغربية هذه الرواية (كأى جوليان في تاريخ « غاليس » ص ٧٥٨) . ونقول بعض الروايات الإسبانية إنه فر إلى مغار ناسك ، والبعض الآخر إنه أتى حياً إلى بئر ملأى بالأقاصى حيث صاح : « وإنما تلهم الجزء الذي ثقلته بالخطايا » (جيبون الهامش في الفصل الحادى والخمسين) . (١) راجع رواية ابن عبد الحكم عن فتح الأندلس (ص ٣٠٤ وما بعدها) فقد تخلفها بعض هذه الأساطير ، ولكن المقرئ يستوعب الكثير منها نقلًا عن مختلف الروايات (فتح الطيب ج ٦ ص ١١٤ وما بعدها) .

والحلل المنسوجة بالعقيان ، المقصورات في قصور الملوك ذوى التيجان ، وقد انتخبكم الوليد بن عبد الملك أمير المؤمنين من الأبطال عرباناً ، ورضيكم للملوك هذه الجزيرة أصهاراً وأختاناً ، ثقة منه بارتياحكم للطعان ، واستياحكم بمجالدة الأبطال والفرسان ، ليكون حظهم منكم ثواب الله على إعلاء كلمته ، وإظهار دينه بهذه الجزيرة ، وليكون مغنمها خالصة لكم من دونه ، ومن دون المؤمنين سواكم . والله تعالى ولى إيجادكم على ما يكون لكم ذكراً في الدارين . أيها الناس : ما فعلت من شيء فافعلوا مثله ، إن حملت فاحملوا ، وإن وقفت فقفوا ، ثم كونوا كهيئة رجل واحد في القتال ، وإني عامد إلى طاغيتهم بحيث لا أنيبه حتى أخالطه وأمثل دونه ، فإن قتلت فلا تنهوا ولا تحزنوا ولا تنازعوا ، فتفشلوا وتذهب ريحكم ، وتولوا الدبر لعدوكم فتبدوا بين قتيل وأسير . وإياكم إياكم أن ترضوا بالدنية ، ولا تعطوا بأيديكم ، وارغبوا فيما عجل لكم من الكرامة ، والراحة من المهنة والذلة ، وما قد أحل لكم من ثواب الشهادة ، فإنكم إن تفعلوا ، والله معكم ومفيدكم ، تبوءوا بالخسران المبين ، وسوء الحديث غداً بين من عرفكم من المسلمين ، وهأنذا حامل حتى أغشاه فاحملوا بحملي » (١) .

ويشير صاحب كتاب تحفة الأنفس إلى خطبة طارق في قوله : « لما التقى العرب والقوط ، فاقتتلوا ثلاثة أيام أشد قتال ، فرأى طارق ما الناس فيه من الشدة ، فقام يعظهم ويحضهم على الصبر ويرغبهم في الشهادة ، وبسط في آمالهم » ، ثم يورد نص الخطبة (٢) .

ثم تنوه الرواية الإسلامية بما كان لهذا الخطاب من أثر فعال في إذكاء همم المسلمين وشجاعتهم وثقتهم ، ودفعتهم إلى طريق النصر والظفر .

على أنه يسوغ لنا أن نرتاب في نسبة هذه الخطبة إلى طارق ؛ فإن معظم المؤرخين المسلمين ، ولاسيما المتقدمين منهم لا يشير إليها ، ولم يذكرها ابن عبد الحكم

(١) هذا ، وما ينسب لطارق أيضاً من قصيدة قالها في الفتح :

ركبنا سفينةً بالبحاز قصيرا	عسى أن يكون الله منا قد اشترى
فنفوساً وأموالاً وأهلاً بجنة	إذا ما اشتبهنا الشيء فيها تيسرا
ولسنا نبالى كيف سالت نفوسنا	إذا نحن أدركنا الذي كان أجدرنا

(٢) كتاب تحفة الأنفس وشارح أهل الأندلس ؛ المخطوط المتقدم ذكره لوصحة ٤٨ .

ولا البلاذرى ، وهما أقدم رواة الفتوحات الإسلامية ؛ ولم تشر إليها المصادر الأندلسية الأولى ، ولم يشر إليها ابن الأثير وابن خلدون ، ونقلها المقرئ عن مؤرخ لم يذكر اسمه ؛ وهى على العموم أكثر ظهوراً فى كتب المؤرخين والأدباء المتأخرين . وليس بعيداً أن يكون طارق قد خطب جنده قبل الموقعة ، فنحن نعرف أن كثيراً من قادة الغزوات الإسلامية الأولى ، كانوا يخطبون جندهم فى الميدان ؛ ولكن فى لغة هذه الخطبة ، وروعة أسلوبها وعباراتها ، ما يحمل على الشك فى نسبتها إلى طارق ، وهو بربرى لم يكن عريقاً فى الإسلام والعروبة . والظاهر أنها من إنشاء بعض المتأخرين ، صاغها على لسان طارق مع مراعاة ظروف المكان والزمان .

وتشير الرواية الإسلامية فى هذا الموطن إلى واقعة أخرى جديدة بالتأمل والبحث ؛ وهى واقعة قد يغلب عليها لون الأسطورة ، وإن كانت مع ذلك تعرض علينا فى ثوب التاريخ الحقى ؛ تلك هى واقعة إحراق السفن التى نقل عليها طارق جيشه من الشاطيء الإفريقى إلى شاطيء الأندلس . ونحن نعرف مما تقدم أن الكونت يوليان هو الذى قدم السفن التى ركبها العرب إلى الأندلس فى بعثتهم الاستكشافية الأولى بقيادة طريف بن مالك ، ثم فى حملتهم الغازية بقيادة طارق . وهنا تذكر الرواية أن طارقاً ما كاد يعبر بجيشه إلى الشاطيء الأندلسى ، حتى أمر بإحراق السفن التى عبر عليها جيشه ، وذلك لكى يدفع جنده إلى الاستبسال والموت ، أو النصر المحقق ، ويقطع عليهم بذلك كل تفكير فى التخاذل والارتداد . فما مبلغ هذه الرواية من الصحة ؟ إن جميع الروايات الإسلامية التى تحدثنا عن فتح الأندلس لا تذكر شيئاً عن هذه الواقعة ، ولا تذكرها الرواية الإسلامية إلا فى موطن واحد ؛ فقد ذكر الشريف الإدريسى فى معجمه الجغرافى « نزهة المشتاق » عند الكلام على جغرافية الأندلس ، أن طارقاً أحرق سفنه بعد العبور بجيشه إلى الأندلس^(١) ، وقد نقلت بعض التواريخ النصرانية المتأخرة هذه الرواية عن الإدريسى فيما يرجح ؛ وفيما عدا ذلك فإن جميع الروايات الإسلامية تمر عليها بالصمت المطلق .

وقد يقال إن فى الخطاب المنسوب إلى طارق ما يؤيد صحة هذه الرواية ،

(١) نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق (المختصر) ، طبع رومة ، ص ١٧٨ .

فطارق يستهله بقوله : « أيها الناس ، أين المفر ؟ البحر من ورائكم ، والعدو أمامكم ، وليس لكم والله إلا الصدق والصبر ... » ، وفي ذلك ما يمكن أن يحمل على أن الجيش الفاتح قد جرد من وسائل الارتداد والرجعة إلى الشاطئ الإفريقي ، أو بعبارة أخرى قد جرد من السفن التي حملته في عرض البحر إلى اسبانيا ؛ ولكننا رأينا أن هذا الخطاب لا يمكن الاعتماد عليه من الوجهة التاريخية ، كوثيقة بعيدة عن شوائب الريب . ولو صح أن طارقاً ألقى في جنده مثل ذلك الخطاب ، فقد نجد تفسيراً لأقوال طارق في أن السفن كانت ملكاً للكونت يوليان ، وفي أنها لم تكن تحت تصرف الغزاة في جميع الأوقات .

ومع ذلك كله فإن رواية الشريف الإدريسي عن واقعة إحراق طارق للسفن ليست من الأمور المستحيلة ؛ وهي عمل بطولة يتفق مع بطولة فاتح الأندلس ، على أنها تبقى عرضة لكثير من الريب ، فقد دوت لأول مرة في القرن الخامس الهجري . أعني بعد فتح الأندلس بأكثر من ثلاثة قرون ، ولم تؤيدها أية رواية إسلامية أخرى (١) .

وعلى أثر الواقعة الحاسمة التي غلب فيها الجيش القوطي ومزق ، ساد الرعب على القوط ، فامتنعوا بالحصون والجبال ، وقصدوا إلى الهضاب والسهول . وذاعت أنباء النصر في طنجة وسبتة وما جاورهما من أراضي العدو ، فعبّر إلى الجيش الفاتح سيل من المجاهدين والمغامرين من العرب والبربر . وزحف طارق بجيشه شمالاً . وكانت بقية الجيش القوطي قد اجتمعت عند إستجة لتحاول رد الجيش الفاتح ، فالتقى الجيشان هناك ثانية ، وهزم القوط مرة أخرى ، ولم يبق إلا أن يستولى الفاتحون على المدن والقواعد الحصينة واحدة بعد الأخرى .

وكان يوليان وأصحابه إلى جانب المسلمين ، يُعاونهم بالنصح والإرشاد كما قدمنا ، ففي إستجة وضعت خطة السير ، وتقرر أن يسير طارق بنفسه إلى طليطلة عاصمة المملكة القوطية ؛ وأرسل طارق مغنياً الرومي مولى الوليد بن

(١) يقدم لنا التاريخ الحديث مثلاً بديماً للفاتح الذي يحرق السفن التي عبر عليها جيشه لكي يقطع على جنده كل تفكير في الرجعة والارتداد ، هو مثل المكتشف الإسباني هرناندو كورتيث فاتح المكسيك . فقد أمر هذا الفاتح الشهير ، حينما أشرف على شواطئ المكسيك مستكشفاً فاتحاً في سنة ١٥١٩ م . بإحراق سفنه التي قدم عليها جيشه من اسبانيا . ومن الغريب أن يكون بطل هذا الحادث إسبانياً ، وهو ما يحملنا على الظن بأنه قد تأثر في عمله بالمثل الذي يفسب لطارق فاتح الأندلس .

عبد الملك إلى قرطبة في سبعمائة فارس ، فافتحم أسوارها الحصينة واستولى عليها دون مشقة ، وأرسل حملات أخرى إلى غرناطة وإلبيرة ومالقة ، فافتحت مالقة وفر سكانها إلى الجبال ، ثم لحق جيشها بالجيش المتجه إلى إلبيرة وغرناطة ، فحوصرت غرناطة قليلا وفتحت ، ثم فتحت إلبيرة . وكان اليهود يعاونون المسلمين في كل هذه الفتوح ، فكان المسلمون يضمون إليهم في كل مدينة من المدائن المفتوحة حامية صغيرة لحفظها . ثم سار المسلمون بعد ذلك شرقاً نحو ولاية مرسية ، وكانت تسمى يومئذ تيودمير (أوتدمير) باسم أميرها ، وقاعدتها مدينة أوريولة ؛ وكان تيودمير جندياً كبيراً ، وافر العزم والبأس ، فالتقى بالمسلمين ونشبت بينه وبينهم معارك شديدة هلك فيها معظم رجاله ، فارتد إلى أوريولة ، وامتنع بها ، وعرض النساء ، حسبما تقول الرواية ، على الأسوار في اثواب الرجال إيهاماً بكثرة جنده ، واستطاع بثباته وجلده ، أن يعقد الصلح مع المسلمين بشروط حسنة أنقذت بها مدينته من السبي والحزبية (١) .

وسار طارق في بقية الجيش إلى طليطلة محترقاً هضاب الأندلس (٢) وجبال

(١) ابن الأثير (ج ٤ ص ٢١٥) . والبيان المغرب (ج ٢ ص ١٣) . وسنورد فيما بعد نص

هذه المعاهدة .

(٢) يطلق المؤرخون والجغرافيون العرب كلمة « الأندلس » على شبه جزيرة إيبيريا المكونة من إسبانيا والبرتغال (ياقوت في معجم البلدان تحت كلمة لأندلس . والروض المطار ص ١) . وتطلق في الرواية العربية أيضاً على إسبانيا المسلمة ، التي كانت عقب الفتح تشمل كل إسبانيا ما عدا جلفقية وولايات الأندلس الواقعة في جنوبي إسبانيا بين نهر الوادي الكبير والبحر ، وبين ولاية مرسية وإشبيلية ؛ وما زالت « الأندلس » *Andalucia* تحتل في تقسيم إسبانيا الإداري الحاضر نفس هذه المنطقة . والرواية العربية تملل هذه التسمية بصور مختلفة فعقول . مثلاً إنها سميت أندلس باسم أول من سكنها من قديم الزمان وهم قوم من الأحاجم يقال لهم أندلوش (نفع الطيب ج ١ ص ٦٧) . ويقول ابن الأثير إن النصراني يسمون الأندلس إشبانية باسم اشبانس أحد ملوكها ، وهذا هو اسمها عند بطليموس (ج ٤ ص ٢١٢) . ولكن ابن خلدون يقدم لنا تعليماً أدق فيقول إنها سميت « الأندلس » باسم « قندلس » ولعلها قندلس ، ومن الواضح أنه يقصد القندال أي الوندال (ج ٢ ص ٢٣٥ في تاريخ القوط) . ويقدم لنا اليكبرى خلاصة دقيقة لهذه التسميات الجغرافية التاريخية فيقول في وصفه لجزيرة الأندلس ، « إن اسمها في القديم إباريه *Iberia* من وادي إيريه ، ثم سميت بعد ذلك باطقة *Baetica* ، من وادي بيطى وهو نهر قرطبة . ثم سميت إشبانية من اسم رجل ملكها في القديم كان اسمه إشبان . وقيل سميت بالإشبان سكود في أول الزمان على جرية النهر وما والا . وقال قوم إن اسمها هو في الحقيقة إشبانية *Hesperia* =

سيراً مورينا (جبل الشارات) التي تفصل بين الأندلس وقشتالة ، بإرشاد يوليان وأصحابه . وكان القوط قد فروا منها نحو الشمال بأموالهم وآثار قديسيهم . ولم يبق بها سوى اليهود وقليل من النصرارى ، فاستولى طارق عليها ، وأبقى على من بقى من سكانها ، وترك لأهلها عدة كنائس ، وترك لأجبارها حرية إقامة الشعائر الدينية ، وأباح للنصارى من القوط والرومان اتباع شرائعهم وتقاليدهم ، واختار لحكمها وإدارتها أوباس مطرانها السابق وأخا الملك وتيزا . وتابع طارق زحفه شمالاً ، فاخترق قشتالة ثم ليون في وهاذ ومفاوز صعبة ، وطارد فلول القوط حتى أسترقة ؛ فلجأت إلى قاصية جليقية واعتصمت بجبالها الشاخنة . وعبر طارق جبال أستوريش (أستورياس)^(١) واستمر في سيره حتى أشرف على ثغر خيخون الواقع على خليج بسكونية (غسقونية) فكان خاتمة زحفه ونهاية فتوحاته ، ورده عباب المحيط عن التقدم فعاد إلى طليطلة حيث تلقى أوامر موسى بوقف الفتح . وكان ذلك لعام فقط من عبوره إلى اسبانيا .

وقد اختلف المؤرخون في تعليل البواعث التي حملت موسى على أن يصدر أوامره إلى طارق بوقف الفتح ؛ فقيل إن موسى لم يكن يتوقع كل هذا الفوز لقائده ومبعوثه ، فلما وقف على مبلغ فوزه وتقدمه ، تحول إعجابه به إلى حسد وغيره ، وخشى أن ينسب ذلك الفتح العظيم إليه دونه ، فكتب إليه ألا يتقدم

من إشرش وهو الكوكب المعروف بالأحمر . وسميت بعد ذلك بالأندلس من أسماء الأندليش من الذين سكنوها . والأندليش هم الوندال **Vandals** . (أبو عبيد البكرى فى جغرافية بلاد افريقية والمغرب طبعة دى سلان) . وهذا هو التعليل الذى يأخذ به دانفيل **Danville** إذ يقول إن الاشتقاق مأخوذ من كلمة فاندالوسيا **Vandalusia** أى بلد الوندال ، (نقله جييون عن كتاب مالك أوربا فى هامش الفصل الحادى والخمسين) . وهذا ما يقرره الغزيرى أيضاً فى معجم مخطوطات الإسكوريال

(Bibliotheca Arabico - Hispana Escorialensis II, p. 237)

(١) وهنا تذكر الرواية العربية أن طارقاً انتهى إلى مدينة المائدة خلف جبال أستوريه فاستولى على مائدة سليمان بن دا د ، وهى خضراء من زبرجد حافاتها منها وأرجلها ثلثمائة وخمسة وستون . ويقال إن هذه المائدة عنمها الرومان من المشرق أو بيت المقدس فى بعض غزواتهم ثم نقلوها إلى رومة ، فنشما القوط حين افتتحوا رومة ، ثم أحرزها العرب عند فتح اسبانيا . وذكر ابن الأثير أن أحد ملوك اسبانيا فى عهد الوندال غزا بيت المقدس وأحرز المائدة (ج ٤ ص ٢١٢) . وذكر صاحب الروض المطار ، كما ذكر بعض مؤرخى الإفرنج ، أن هذه المائدة هى من نفائس ملوك القوط ، وأن العرب عشروا بها فى كنيسة طليطلة وهو أقرب إلى المعقول . (الروض المطار ص ٥) .

حتى يلحق به ، ويتوعده بالعقاب إذ توغل بعد بغير إذنه^(١) . ولكن البعض يعلل غضب موسى على طارق ولحاقه به ، بأن طارقاً خالف الأوامر الصادرة إليه بألا يجاوز قرطبة أو حيث تقع هزيمة القوط^(٢) . وهذا تعليل حسن يتفق وما أثر عن موسى من الحيطة والحذر ، فقد ينكب المسلمون إذا توغلوا في أراض ومسالك مجهولة . على أن ذلك لا يمنع من أن يكون للغيرة أثرها أيضاً في نفس موسى وفي تصرفه . وعلى أي حال فقد عبر موسى البحر إلى اسبانيا في عشرة آلاف من العرب وثمانية آلاف من البربر ، في سفن صنعها خصيصاً لذلك ، بحفزه شغف الفتح بالرغم من شيخوخته ، ونزل بولاية الجزيرة حيث استقبله الكونت يوليان ، وذلك في رمضان سنة ثلاث وتسعين (يونيه سنة ٧١٢ م) . وبدأ موسى زحفه بالاستيلاء على مدينة شدونة^(٣) ، ثم سار إلى قرمونة وهي يومئذ من أمنع معاقل الأندلس ، فاستولى عليها بمعاونة يوليان وأصحابه . وقصد بعدئذ إلى إشبيلية أعظم قواعد الأندلس . فافتتحها بعد أن حاصرها شهراً . ثم سار إلى ماردة وحاصرها مدة ، وقتل تحت أسوارها جماعة كبيرة من المسلمين في كمين دره النصرى . وانتهت بالتسليم في رمضان أو شوال سنة أربع وتسعين ، على أن تكون أموال الغائبين والكنائس ، غنيمة للمسلمين دية لمن قتل منهم . وقصد موسى بعدئذ إلى طليطلة فالتقى بطارق على مقربة منها وكان قد سار إلى استقباله . فأنبهه وبالغ في إهانته ، وزجه مصفداً إلى ظلام السجن بتهمة الخروج والعصيان ، وقيل بل هم بقتله أيضاً^(٤) . ولكنه ما لبث أن عفا عنه وورده إلى منصبه^(٥) .

(١) هذه هي رواية ابن عبد الحكم (ص ٢٠٧) ، وصاحب أخبار مجموعة (ص ١٥) ، وابن القوطية (ص ٩) ، وابن الأثير (ج ٤ ص ٢١٥) ، وابن خلدون (ج ٤ ص ١١٧) ، وابن حيان مؤرخ الأندلس (نفع الطيب ج ١ ص ١٢٦) ، وبغية الملتبس للضبى (ص ١١) ، والحميدى في جذوة المقتبس (طبع مصر) ص ٥ .

(٢) البيان المغرب (ج ٢ ص ١٥ و ١٨) .

(٣) Medina Sedonia ، ويسميا ابن الأثير مدينة السليم (ج ٤ ص ٢١٥) . ولكن شدونة أو شدونة تسمية أكثر ذبوعاً .

(٤) ابن عبد الحكم (ص ٢٠٨) ، وابن الأثير (ج ٤ ص ٢١٥) ، والمقرئ في نفع الطيب (ج ١ ص ١٢٧) ، والحميدى في جذوة المقتبس (ص ٦) .

(٥) ينفرد ابن عبد الحكم برواية عن إطلاق سراح طارق ، هي أن طارقاً استجار بمنيث الرومي وكان عائداً من الأندلس إلى المشرق، ووعدته بمائة عبد إذا هو أبغ أمره إلى الوليد بن عبد الملك ، فقام منيث بالرسالة وبادر الوليد بالكتابة إلى موسى أن يطلق سراح طارق ويتوعدده إذا أساء إليه =

ووضع الإثنان خطة لافتح ما بقي من إسبانيا . ثم زحفا نحو الشمال الشرقي واخترقا ولاية أراجون (الثغر الأعلى) وافتتحا سرقسطة وطركونة وبرشلونة وغيرها من المدائن والمعقل . ثم افترق الفاتحان ، فسار طارق نحو الغرب ليغزو جليقية ، وليتم القضاء على فلول القوط . وسار موسى شمالا فاخترق جبال البرنيه (جبال البرت أو البرتات أو الممرات)^(١) ، وغزا ولاية لانجدوك أو سبانيا التي كانت تابعة إذ ذاك للملوك القوط ، واستولى على قرقشونة (كاركاسون) وأربونة (ناربون) . ثم نفذ إلى مملكة الفرنج وغزا وادي الرون (ردونة) حتى مدينة لوطون أولوذون (ليون) ، فاضطرب أمراء الفرنج وأخذوا في الأهبة لرد الغزاة ؛ ويقال إن المعارك الأولى بين العرب والفرنج وقعت في تلك السهول على مقربة من أربونة^(٢) .

وهنا فكر القائد الحريء في أن يخترق جميع أوربا غازياً فاتحاً ، وأن يصل إلى الشام من طريق قسطنطينية ، وأن يفتح في طريقه أمم النصرانية والفرنجية كلها . وهو ما يجمله ابن خلدون في تلك العبارة القوية : « وجمع أن يأتي المشرق على القسطنطينية ، ويتجاوز إلى الشام ودروب الأندلس ، ويخوض ما بينها من بلاد الأعاجم أمم النصرانية مجاهداً فيهم ، مستلحماً لهم إلى أن يلحق بدار الخلافة »^(٣) . وكان موسى يقدر تنفيذ مشروعه العظيم بجيش ضخم يقتحم البرنيه ، يؤيده من البحر أسطول قوى ، فيبدأ بافتتاح مملكة الفرنج ثم يقصد إلى مملكة اللومبارد^(٤) في شمالي إيطاليا ، فيخترقها فاتحاً إلى رومة قاعدة النصرانية ، فيفتتحها ويقضى فيها على كرسي النصرانية . ويتابع سيره بعدئذ شرقاً إلى سهول الدانواب ،

= وحمل منيف هذا الكتاب إلى الأندلس ، فأفرج موسى عن طارق ورده إلى منصبه (ص ٢١٠) . وذكر الطبري أن طارقاً ترضى موسى فرضى عنه وقبل منه عذره (ج ٨ ص ٩٠) .

(١) البرت أو البرتات محرفة عن الإسبانية **Puerta** ، ومعناها الباب . وسميت الجبال بهذا الاسم لأنها تحتوي على خمسة أبواب أو ممرات طويلة كانت تستعمل للعبور والغزو . وسنعود إلى تفصيل ذلك . أما تسميتها بجبال البرانس فهو خطأ جغرافياً حسبما نوضح بعد .

(٢) ابن حيان مؤرخ الأندلس (نقله المقرئ في فتح الطيب ج ١ ص ١٢٨) ، والبيان المغرب (ج ٢ ص ١٤) . ومعظم الروايات على أن موسى وقف في زحفه عند أربونة .

(٣) ابن خلدون ج ٤ ص ١١٧ ، ونفح الطيب ج ١ ص ١٣٠ .

(٤) في الجغرافية العربية بلاد اللبرد أو أنكبردية .

مشخناً في القبائل الجرمانية التي تسيطر على ضفافه ، ثم يحترق أراضي الدولة البيزنطية حتى قسطنطينية فيستولى عليها ، ثم يعبر إلى آسيا الصغرى قاصداً إلى دمشق فيصل بذلك أملاك الخلافة الإسلامية فيما بين المشرق والمغرب من طريق الشمال ، كما اتصلت من طريق الجنوب^(١) .

ولم يك ثمة ما يحول دون تنفيذ هذا المشروع الضخم ؛ فقد كان الإسلام يومئذ في ذروة الفتوة والقوة والبأس ، وكانت جيوشه تفتحم أرجاء العالم القديم ظافرة أيما حلت . وكانت أمم الغرب من جهة أخرى يسودها الضعف والانحلال ، وكانت مملكة الفرنج وهي أضخمها وأقواها يمزقها الخلاف والتفرق ، وقد بدأ العرب غزوها بالفعل . ولم تستطع النصرانية أن توحد جهودها لرد الإسلام ، ولم تقم فيها زعامة قوية تجمع كلمتها وتنظم قواها في جبهة دفاعية موحدة . ولم تكن أوروبا في ذلك الحين سوى مزيج مضطرب من الأمم والقبائل المتنافرة ، تمزقها المطامع والأهواء المختلفة . فكان الإسلام يستطيع غزوها وفتحها . ولم يكن حليماً وإغراقاً ما تصوره موسى بن نصير واعترمه . ولكن سياسة الإحجام والتردد التي اتبعها بلاط دمشق نحو الفتوح الغربية ، والتي كادت تحول دون فتح اسبانيا ، أودت بذلك المشروع البديع ، وكتب الوليد بن عبد الملك إلى موسى يحذره من التوغل بالمسلمين في دروب مجهولة ، ويأمره بالعود ، فارتد موسى مرغماً أسفاً ؛ ولكنه تمهل في العود حتى يتم إخضاع معاقل جليقية التي اعتصمت بها فلول القوط ، ويظهر اسبانيا بأسرها من كل خروج ومقاومة ، فاخترق جليقية واستولى على معظم معاقلها ، ومزق كل قوة تصدت لمقاومته ، ولم يبق من النصارى سوى شراذم يسيرة اجتمعت حول زعيم يدعى بلاجيوس أو بلايو ، ولجأت إلى قاصية جليقية ؛ وبينما كان موسى يتأهب للحاق بها وسحقها ، إذ وصله كتاب آخر من دمشق يستدعيه وطارقاً ، ويأمرهما بتعجيل العود : ولعل أقوى البواعث التي حملت الوليد على هذا الاستدعاء ما نمي إليه من خلاف موسى وطارق ، وخوفه أن ينتهي هذا الخلاف ، بتفرق كلمة المسلمين ونكبتهم في تلك الأقطار

(١) Cardonne : *ibid.* V.I.p. 96—97 . ويقول الفيلسوف جيون تعليماً على هذا المشروع إنه تمكن مقارنته بخطة شراديتيس ليفتح ما بين القرم ورومة ، أو خطة قيصر ليفتح المشرق ثم يعود من طريق الشمال . ويفوق هذه المشاريع جميعاً مشروع هاتيبال الذي نفذ بنجاح عظيم (الفصل الحادي والخمسون) .

الحديده المجهولة التي افتتحوها^(١) . أو لعله خوف الوليد أن يفكر موسى بما عرف من طمعه ودهائه ، في الاستقلال بذلك الملك الحديد النائي ، وهو أفضل تعليل يقبله النقد الحديث ويرجحه . وربما كان من هذه البواعث أيضاً ما بلغ الوليد عن وفرة الأموال والتحف التي اغتنمت من الأندلس ، وخوفه أن تمتد إليها يد التبيد . ومهما كانت العوامل التي دفعت الوليد إلى استدعاء فاتحي الأندلس ، فلا ريب أنه كان خطراً على مستقبل الإسلام في اسبانيا . ذلك أن هذه الشرازم النصرانية الصغيرة التي نجت من المطاردة واعتصمت بصخور جليقية ، لم تلبث أن نمت وقويت ، وكانت منشأ المملكة النصرانية التي قامت في الشمال ، ولبثت قروناً تكافح دولة الإسلام في اسبانيا حتى انتهت بالقضاء عليها .

وفي ذلك الحين كان عبد العزيز بن موسى قد افتتح منطقة الساحل الواقعة بين مالقة وبلنسية ، وأخذ الثورة في إشبيلية وباجة ، وافتتح لبله وغيرها من المعاقل والحصون ، وأبدى في معاملة البلاد المفتوحة كثيراً من الرفق والتسامح ، والاعتدال في تطبيق الأحكام وفرض الضرائب . ولنا في معاهدته مع تيودمير خير شاهد باعتدال السياسة الإسلامية ولينها وتسامحها . وإليك نص هذه المعاهدة ، حسبما نقله إلينا الغزيري في معجمه ، نوره نموذجاً للوثائق السياسية الإسلامية في عصر الفتح :

« نسخة كتاب الصلح الذي كتبه عبد العزيز بن موسى لتدبير عبدوش -
يسم الله الرحمن الرحيم ، من عبد العزيز إلى تدمير ، أنه نزل على الصلح ، وأنه
له عهد الله وذمته أن لا ينزع عنه ملكه ، ولا أحد من النصاري عن أملاكه .
وأنهم لا يقتلون ولا يسبون ، أولادهم ولا نساؤهم ، ولا يكرهون على دينهم ،
ولا تحرق كنائسهم ما تعبد ونصح ، وأن الذي اشترط عليه أنه صالح على سبع
مدائن ، أوريوالة وبلتلة ولقنت ومولة وبقسرة وأنه ولورقة . وأنه لا يأوى
لنا عدواً ، ولا يخون لنا أمناً ولا يكتم خبراً علمه . وأنه عليه وعلى أصحابه ديناراً

(١) لم توضح الرواية الإسلامية أسباب هذا الاستدعاء . ولكن الغزيري نقل في معجمه عن بعض أوراق مخطوطة في الإسكوريال في سبب الاستدعاء هذه الفقرة : « ولما علم الوليد بن عبد الملك ما حدث لطارق بن زياد وموسى بن نصير من الخلاف بعث فيهما فانصرفا إلى المشرق » . ويعتقد الغزيري أن الأوراق التي عثر بها ونقل منها هذه الفقرة إنما هي من تاريخ الرازي لقرائن ذكرها .

كل سنة ، وأربعة أمداد قمح وأربعة أمداد شعير ، وأربعة أقساط طلا ، وأربعة أقساط خل ، وقسطى عسل ، وقسطى زيت ، وعلى العبد نصف ذلك . كتب في أربع من رجب سنة أربع وتسعين من الهجرة . شهد على ذلك .. الخ » (١) . واتخذ موسى بن نصير أهبته للعود إلى دمشق نزولا على أوامر الخليفة . فنظم حكومة الأندلس قبل رحيله ما استطاع ، وجعل حاضرتها إشبيلية (٢) لاتصالها بالبحر وكانت حاضرتها أيام الرومان ، واختار لولايتها ولده عبدالعزيز ، واستخلف على المغرب الأقصى ولده عبد الملك ، كما استخلف على إفريقية عبد الله أكبر أولاده . وفي شهر ذى الحجة سنة خمس وتسعين (أغسطس ٧١٥ م) قفل راجعاً إلى المشرق وطارق معه ، وفي ركبه من نفيس التحف والغنائم ما لا يقدر ولا يوصف ، ومن أشرف السبي عدد عظيم (٣) .

(١) نقل الغزيرى هذا النص في معجمه عن بعض مخطوطات الإسكوريال ، وقرنه بترجمة

لاتينية (Casiri : ibld. V II. p. 105)

هذا وقد أورد لنا العذرى نصاً آخر لهذا الأمان في كتابه « ترصيع الأخبار وتنويع الآثار » على نفس المدن السبعة ، جاءت شروطه على النحو الآتي : « ألا يقدم ولا يؤخر لأحد من أصحابه بسوء ، وأن لا يسبون ، ولا يفرق بينهم وبين نسائهم وأولادهم ، ولا يقتلون ولا تحرق كنائسهم ، ولا يكرهون على دينهم ؛ وأنه لا يدع حفظ العهد ، ولا يحمل ما انعقد ، ويصح الذ . فرضناه عليه ، وألزمناه أمره ، ولا يكتمنا خبراً علمه ، وأن عليه وعلى أصحابه غرم الجزية من ذلك على كل حر دينار .. الخ » ثم يلي ذلك شهود هذا الأمان » (راجع « نصوص عن الأندلس » وهى صبارة عن أوراق منقولة من كتاب « ترصيع الأخبار » ومنشورة بعناية الدكتور عبد العزيز الأهواني ، وصادرة عن معهد الدراسات الإسلامية بمدريد - ص ٤ و ٥) .

(٢) اقتبس العرب اسم « إشبيلية » من اسمها اللاتينى « Hispali » ، ثم حرف الإسبان هذا الاسم إلى « سبيليا » Sevilla ، وهو الذى يطلق عليها فى الجغرافية الحديثة .

(٣) تفيض الرواية الإسلامية فى وصف ما أصابه المسلمون فى الأندلس من الغنائم الجليلة والسبى الذى لا يحصى . وتقول إن موسى بن نصير حمل إلى دمشق من التحف والذخائر من الذهب والدر والياقوت والزبرجد ما لا يقدر ؛ منها مائة سليمان السالفة الذكر ؛ وأما السبايا فيقال إنه حمل منها ثلاثين ألفاً ، بينهم مئات من أشرف القوط واله صفاء المختارين ، من ذو الشباب الغض والجمال الباهر ذكوراً وإناثاً . وذكر ابن القوطية أن موسى بن نصير عاد ومعه من أبناء الملوك والعجم أربعمائة ، على رؤسهم تيجان الذهب وفى أوساطهم مناطق الذهب (ص ١٠) . ونقل المقرئ عن بعض المؤرخين أن العرب وجدوا فى طليطلة حين فتحوها من الذخائر والأموال ما لا يحصى ، فن ذلك مائة وسبعون تاجاً من الذهب الأحمر مرصعة بالدر وأصناف الحجارة الكريمة ، ووجد فيها ألف سيف ملوكى ، ومن الدر والياقوت أكبال ، ومن أواني الذهب والفضة ما لا يحيط به وصف (نفع الطيب ج ١ ص ١٣٥ و ١٣٦ و ١٣٦) .

وقد اختلفت الرواية العربية في مصير موسى بن نصير ، واختلفت الرواة في أمر لقاءه بالخليفة ؛ فقبيل إنه وصل إلى دمشق قبل وفاة الوليد بن عبد الملك ، وقدم إليه الأعمش والغنائم ، فأكرمه وأحسن إجازته ، وقيل بل وصل عقب وفاة الوليد وارتقاء سليمان بن عبد الملك أخيه عرش الخلافة ، وأن سليمان غضب عليه ونكبه (١) . على أنه يمكن التوفيق بين القولين أعني وفود موسى على الوليد ابن عبد الملك ثم نكبه على يد سليمان . وهناك ما يرجح لدينا أنه لحق بالوليد قبيل وفاته ، فإن ابن عبد الحكم وهو أقدم رواة فتوح الأندلس ، يقول لنا إن موسى بن نصير مر بمدينة القسطنطينية في أواخر شهر ربيع الأول سنة ست وتسعين في طريقة إلى دمشق (٢) . وقد توفي الوليد في منتصف جمادى الآخرة من هذا العام أعني بعد وصول موسى إلى مصر بأكثر من شهرين ونصف . ولما كانت مسافة السفر بين القسطنطينية ودمشق لا تتجاوز في هذا العصر بضعة أسابيع ، فإن الوقت كان يكفي لمقدم موسى على الوليد قبل وفاته بأسابيع . على أن الرواية من جهة أخرى تكاد تجمع على أن سليمان سخط على فاتح الأندلس ونكبه . ذلك أن موسى وصل إلى الشام والوليد في مرض موته ، فكتب إليه سليمان ولي العهد أن يتمهل في السير ، رجاء أن يموت الوليد بسرعة ، فيقدم عليه في صدر خلافته بما يحمل من التحف والغنائم الكثيرة ، فأبى موسى وجد في السير حتى قدم والوليد حي فسلم إليه الأعمش والغنائم . ثم توفي الوليد بعد ذلك بقليل مستخلفاً أخاه سليمان على كرسي الخلافة . فغضب سليمان على موسى ، وزاد في حقه عليه ، ما قدمه في حقه طارق ومغيث من مختلف التهم (٣) . وفي الحال أمر ، بعزله واتهمه وبنيه باختلاس مقادير عظيمة من المال والتحف ، وقضى عليه بردها ، وبالغ في إهانته وتعذيبه ، ثم ألقاه إلى ظلام السجن . واستجار موسى بصديقه يزيد بن المهلب من نعمة سليمان ، وكان من أخصائه وذوى النفوذ عنده ، فيروى أن يزيداً

(١) يقول بالرواية الأولى ابن عبد الحكم (فتوح مصر ص ٢١١) ، وصاحب كتاب الإمامة والسياسة (ج ٢ ص ٩٣ و ٩٤) ، وابن خلكان (ج ٢ ص ١٨١) . ويقول بالرواية الثانية ابن الأثير (ج ٤ ص ٢١٦) ، والحيمدي في جنوة المقتبس (ص ٦) ، وابن خلدون (ج ٤ ص ١١٨) .

(٢) فتوح مصر ص ٢١١ .

(٣) أخبار مجموعة ص ٢٩ .

قال له : « لم أزل أسمع عنك أنك من أعقل الناس وأعرفهم بمكائدهم الحروب ومداراة الدنيا . فقل لي كيف حصلت في يد هذا الرجل بعد ما ملكت الأندلس ، وألقيت بينك وبين هؤلاء القوم البحر الزخار ، وتيقنت بعد المرام واستصعابه ، واستخلفت بلاداً أنت اخترعتها ، وحصل في يدك من الذخائر والأموال والمعاقل ما لو أظهرت به الامتناع ما ألقيت عنقك في يد من لا رحمك . ثم إنك علمت أن سليمان ولي عهد وأنه الولي بعد أخيه . وقد أشرف على الهلاك لاحتماله ، وبعد ذلك خالفته وألقيت بيدك إلى التهلكة ، وأحقدت ماللك ومملوكك » . وما زال يزيد بسليمان حتى عفا عن موسى ، وأعفاه من الغرامة الفادحة التي قضى بها عليه ، ويقال بل عفا عن حياته ، ولم يعفه من الغرامة ، وإن موسى استطاع أن يفتدى نفسه ببعض ما فرض عليه ، وإن سليمان عفا عنه بعد ذلك^(١) . وأقر ابنه عبد الله على إفريقية وابنه عبد العزيز على الأندلس . وتبالغ بعض الروايات فتقول إن سليمان أصر على معاقبة موسى وتغريمه . حتى كان يطوف أحياء العرب مع حراسه ليسأل بعض المال ليفتدى نفسه ، وإنه لبث على تلك الحال حتى توفي في منتهى البؤس والذلة بوادي القرى في شمال الحجاز حيث ينسب مولده ، وذلك سنة سبع وتسعين^(٢) .

بيد أنه لا يوجد ما يبرر الأخذ بمثل هذه الرواية المغرقة . والصحيح المعول عليه أن سليمان عفا عن موسى ، وأقاله من محنته ، وتوفي موسى بعد ذلك بقليل في سنة سبع وتسعين (وقيل في سنة تسع وتسعين) وهو في طريقه إلى الحج مع سليمان ، وقد جاوز الثمانين من عمره .

(١) هذه هي رواية ابن عبد الحكم (فتوح مصر ص ٢١٣) . وهي رواية يؤيدها البلاذري (فتوح البلدان ص ٢٣٠) .

(٢) يراجع في مصير موسى بن نصير : فتوح مصر (ص ٢١١) ، وأخبار مجموعة (ص ٢٩ و ٣٠) ، وابن القوطية (ص ١٠-١١) ، وابن الأثير (ج ٤ ص ٢١٦) ، والمقري عن ابن حيان وابن يشكوال والحجاري ، (نفع الطيب ج ١ ص ١٣٤ و ١٣٥) ، وابن خلكان (ج ٢ ص ١٨١) ، وكذلك كتاب الإمامة والسياسة (ج ٢ ص ٨٦ ، ٨٩ ، ٩٣ و ٩٦) . هذا ويبيد المستشرق دوزي ريبه في صحة الروايات والقصص التي قيلت عن مصير موسى بن نصير ، ويقول إنه لا يوجد ثمة ما يبررها ، لأن موسى كان يتمتع بحماية يزيد بن المهلب صديق سليمان وصاحب النفوذ لديه ، ويستشهد برواية البلاذري التي أشرنا إليها ، وأيضاً برواية مؤرخ نصراني معاصر هـ إيزيدور الباجي (Dozy, Hist. V. I. p. 134-135)

هذا ما تردده الرواية الإسلامية عن مصير موسى بن نصير . ومهما كان من الأمر ، فإن فاتح الأندلس لم يلق الجزاء الحق ، بل نغمط حقه وفضله أشنع نغمط ، وأبدت الخلافة بهذا الجحود والنكران ، أنها لم تقدر البطولة في هذا الوطن قدرها ، ولم تقدر عظمة الفتح الباهر الذي غنمته على يد رجلها وقائدها . وكان موسى بن نصير من أعظم رجال الحرب والإدارة المسلمين في القرن الأول للهجرة . وقد ظهرت براعته الإدارية في جميع المناصب التي تقلدها ، كما ظهرت براعته الحربية في جميع الحملات البرية والبحرية التي قادها . على أن هذه المواهب تبدو بنوع خاص في حكمه لإفريقية ، حيث كانت الحكومة الإسلامية تواجه شعباً شديداً المراس ، يضطرم بعوامل الانتقاص والفتنة ، وإذا كان موسى قد أبدى في معالجة الموقف وإخماد الفتنة كثيراً من الحزم والشدة ، فقد أبدى في الوقت نفسه خبرة فائقة بنفسية الشعوب ، وبراعة في سياستها وقيادتها . وكان موسى فوق مواهبه الإدارية والعسكرية ، غزير العلم والأدب ، متمكناً من الحديث والفقه ، عالماً بالفلك ، مجيداً للنثر والنظم . غير أن هذه المواهب والحلال البديعة كانت تشوبها نزعة قوية إلى الطغيان والبطش ، وشهوة الحقد والحسد^(١) .

وإلى موسى بن نصير يرجع الفضل الأول في عبور الإسلام إلى أوربا من الغرب وقيام دولته فيها ، بعد أن اخفقت محاولته في العبور إليها من المشرق عن طريق قسطنطينية . ومع أن سيل الفتح الإسلامي رد غير بعيد في سهول بلاط الشهداء ، فإن الإسلام استطاع مع ذلك أن يستقر في إسبانيا قروناً ، يهر بضوء مدينته الزاهرة جميع الأمم الأوربية في العصور الوسطى .

* * *

هذا ما كان من شأن موسى ومصيره ، فإذا كان مصير طارق ؟ هذا ما تمر عليه الرواية الإسلامية بالصمت . وكل ما هنالك أنها تشير إلى ما كان من نية سليمان بن عبد الملك في تعيينه والياً للأندلس مكان موسى ، وكيف عدل عن ذلك حينما وقف من مغيب الرومي فاتح قرطبة ، على ما كان يتمتع به طارق في الأندلس من عظيم الهيبة والنفوذ ، وذلك توجساً مما قد يجيش به من أطماع ومشاريع نحو ذلك

(١) نفع الطيب (ج ١ ص ١٣٣ و ١٣٤) .

القطر النائي من أقطار الخلافة^(١) . وقد كان مغيباً يحقد على موسى وطارق منذ الفتح ويسعى إلى منافستهما والإيقاع بهما ، وكان لوقيعته ومساغبه ضدتهما أكبر الأثر في استدعائهما إلى دمشق . وإذا كانت هذه الرواية لا تاقى ضوءاً كافياً على مصير طارق ، فإنها قد تسمح لنا مع ذلك أن نعتقد أن طارقاً لم يلق مثل المصير الحزن الذي لقيه موسى ، وأنه بالعكس قد استقبل في بلاط دمشق استقبالا حسناً ، وربما أحسن الخليفة فوق ذلك إثابته ، بدليل أنه فكر في تعيينه والياً للقطر الذي ساهم في افتتاحه بأعظم قسط .

ولكن الرواية الإسلامية لا تحدثنا بعد ذلك عن طارق بشيء ، ولا تذكر لنا أين ومتى توفي ، بل تسدل على نهايته حجاباً عميقاً من الصمت^(٢) . وليس في وسعنا إزاء هذا الغموض الذي يحيط بسيرة طارق أن نتحدث عن صفاته وخلاله ، وكل ما نستطيعه في هذا الموطن هو أن ننوه بخلاله العسكرية الباهرة ، التي ظهرت بوضوح في حروب المغرب وفتح الأندلس ، وهو بهذه الخلال يتبوأ مكانته بين أعظم الفاتحين المسلمين .

أما مصير الكونت يوليان الذي مهد لفتح الأندلس ، فلم تشر إليه الرواية الإسلامية . وفي بعض الروايات أنه عاد بعد الفتح إلى سبته وأقطع ما حولها من الأراضي ، وقلد إمارتها جزءاً خداماته . ولكنه بقي نصرانياً هو وبنوه الأقربون ، ثم دخل عقبه في الإسلام بعد ذلك . وتقول الرواية الكنسية الإسبانية إنه قتل بيد مواطنيه في معركة نشبت بينه وبينهم ، أو أنه قتل بعد ذلك بأعوام في ولاية الحر الثقفي بيد العرب لرية في ولايته . وتقول هذه الرواية أيضاً إن العرب أعدموا ابني وتيزا وأفراد أسرته مثل هذا السبب^(٣) . وهذا ما تنفيه الرواية الإسلامية وتؤكد عكسه . فالمصادر الإسلامية تجمع كلها على أن العرب أحسنوا معاملة إيضا (أو إيبا) وسيزبوت ابني وتيزا وعمهما أوباس ؛ فأما أوباس فقد عين كما تقدم مطراناً لطليطلة ، وأقطع إيضا وسيزبوت ما كان لأبيهما من الضياع .

(١) راجع نفع الطيب ج ٢ ص ٥٥ .

(٢) ولا نعرف مصدرنا لما يقوله السيد أمير علي من أن طارقاً لقي نفس المصير التمس الذي

قبل إن موسى لقيه وأنه مات في فقر وضعة : History of the Saracens p. 122

(٣) Crónica General ; Vol. II. p. 324. Cardonne : ibid.. V. I. p. 85 —

Gibbon, ibid. Ch. LI — Scott : Moorish Empire, V. I. p. 259

ثم توفي إيثا أكبر الأخوين بعد ذلك بأعوام عن إبنة تدعى سارة وولدين صغيرين ، فاغتصب سيزبوت ميراثه وضياعه ، فبادرت سارة بالسفر مع أخويها إلى دمشق ، وشكت عمها إلى الخليفة هشام بن عبد الملك ، فأنصفها وقضى لها بر ميراث أبيها ، وبعث بذلك إلى والي الأندلس أبي الخطار الكلبي . وتزوجت سارة في دمشق من سيد عربي يدعى عيسى بن مزاحم ، ورزقت منه بولدين هما إبراهيم وإسحاق . ثم عادت مع زوجها إلى الأندلس ، وأحرز ولداها مكانة ممتازة . وإليها ينتمى نسب ابن القوطية القرطبي المؤرخ ، نسبة إلى لقبها العربي وهو سارة « القوطية » (١) .

(١) تضطرب معظم الروايات العربية في ذكر أبناء وتيزا ، فتقول إنه ترك ثلاثة بنين وتسميهم المنذ ورملة وارطباس . والظاهر أن الخطأ في اعتبارها أوباس (ولعله هو أرطباس) ابنا لوتيزا . والمنذ هو إيثا ورملة هو سيزبوت . (راجع فتح الأندلس لابن القوطية ص ٥ و ٦) . والمقرى (ج ١ ص ١٢٥) ، ولكن صاحب « أخبار مجموعة » يقرر أنهما اثنان . ويسميها ششرت وأبة ، وهو تعريب حسن للاسمين (ص ٨) ، وكذا ابن الأثير (ج ٤ ص ٢١٣) .

الفصل الرابع

إسبانيا بعد الفتح الإسلامي

(١) آثار الفتح الإسلامي . سياسة العدل والتسامح . أدوال النقد الغربي الحديث في ذلك . الحرية الدينية . المجتمع الإسلامي الجديد . عناصر الضعف فيه . العرب والبربر والمولدون . الخصومة بين اليمنية والمضرية . أسباب هذه الخصومة . رأى ابن خلدون في تحليلها . الخصومة بين العرب والبربر . أثر دعوة الخوارج في إذكائها . (٢) الأقاليم الأندلسية الجديدة . تفرق القبائل في المدن المختلفة . منازل البربر في شبه الجزيرة . ولاية عبد العزيز بن موسى . تنظيمه للحكومة الجديدة . زواجه بأرملة رديك . التوجس من سياسته . مقتله . بواعث هذه الجريمة . ولاية أيوب ابن حبيب اللخمي . نقل قاعدة الحكم إلى قرطبة . ولاية الحر الثقي . قمعه للمنازعات والفتن . غزوه لسبانيا وافتتاحه لقواعدها . محاربه لشوار الشمال . الإضطراب في قرطبة . ولاية السمع بن مالك . فصل حكومة الأندلس عن إفريقية . فكرة عمر بن عبد العزيز في جلاء المسلمين عن الأندلس . إصلاحات السمع ومنشأته . غزوه لسبانيا . زحفه على تولوثة .

- ١ -

كان فتح الإسلام لإسبانيا فاتحة عصر جديد ، وبدأ تطور عظيم في حياتها العامة وفي نظمها الاجتماعية . وقد كانت لعهد الفتح كما رأينا تروح في عمر مرهقة من الجور والعسف ، وكانت أقلية باغية من الأمراء والنبلاء تسود شعباً بأسره وتستغله أشنع استغلال ، وتفرض عليه رسوم الرق والعبودية ، وتستبيح منه كل الحريات والحرم . فجاء الإسلام ليقضي على ذلك كله ، وليحمل نعم العدل والحرية والمساواة إلى الناس جميعاً ، وليعطي كل ذي حق حقه ، وليقمع البغي والظلم . وبالرغم من أن العرب شغلوا حيناً بتوطيد الفتح الجديد وتوسيعه ، فإنهم استطاعوا في أعوام قلائل أن يقيموا عناصر الشر والفوضى ، وأن ينظموا إدارة البلاد المفتوحة ، وأن يبثوا في الجزيرة روحاً جديداً من العزم والأمل ، فنشطت الزراعة والصناعة والتجارة بعد ركودها ، وهبت ريح من الرخاء والدعة ، على مجتمع أضناه العسف والفاقة مدى عصور .

قضى الفتح على سلطان الطبقات الممتازة ، فتنفس الشعب الصعداء ، وخف عن كاهله ما كان ينوء به من الأعباء والمغارم . وفرض المسلمون الضرائب

بالمساواة والاعتدال والعدل ، بعد أن كان يفرضها حكم الهوى والحشع ، وأمن الناس على حياتهم وحررياتهم وأموالهم . وترك الفاتحون لرعاياهم الجدد حق اتباع قوانينهم وتقاليدهم ، والخضوع لقضائهم وقضائهم ، واختاروا في معظم الأحوال لهم حكماً من أبناء جنسهم ، يعهد إليهم بسن الضرائب المطلوبة ، والإشراف على النظام والسكينة . أما في شأن الدين وحرية العقائد والضائر ، فقد كانت السياسة الإسلامية مثلاً أعلى للتسامح . فلم يظلم أحد أو يرهق بسبب الدين أو الاعتقاد ، وكان أداء الجزية هو كل ما يفرض على الذميين من النصراري أو اليهود ، لقاء الاحتفاظ بدينهم وحرية عقائدهم وشعائرهم ، ومن دخل الإسلام منهم سقطت عنه الجزية ، وأصبح كالمسلم سواء بسواء في جميع الحقوق والواجبات . ونرى في هذا الموطن أن تقدم طائفة من الأقوال والآراء التي يعلق بها المؤرخون والنقّدة الغربيون ، على سياسة الفتح الإسلامي وآثاره في اسبانيا . يقول العلامة المستشرق رينهارت دوزي :

« لم تكن حال النصراري في ظل الحكم الإسلامي مما يدعو إلى كثير من الشكوى بالنسبة لما كانت عليه من قبل . أضف إلى ذلك أن العرب كانوا يتحلون بكثير من التسامح . فلم يرهقوا أحداً في شئون الدين . ولم تكن الحكومة - إذا لم تكن مغرقة في الدين - لتشجع إسلام النصراري ، إذ كانت خزانة الدولة تخسر بإسلامهم كثيراً . ولم يغمط النصراري للعرب هذا الفضل ، بل حمدوا للفتاحين تسامحهم وعدلهم ، وآثروا حكمهم على حكم الجرمان والفرنجة ، وانقضى القرن الثامن كله في سكينته ، وقلما نشبت فيه ثورة . كذلك لم يبد رجال الدين في العصور الأولى كثيراً من التذمر ، وإن كانت لديهم أكثر البواعث لذلك . وهذا ما تؤيده روح الرواية اللاتينية التي كتبت سنة ٧٥٤ في قرطبة ، والتي تنسب لإيزيدور الباجي ، فإن كاتبها رغم كونه من رجال الدين ، يبدي نحو المسلمين من العطف ، ما لم يبديه أي كاتب إسباني آخر قبل القرن الرابع عشر . » ويقول دوزي عن آثار الفتح الاجتماعية : « كان الفتح العربي من بعض الوجوه نعمة لإسبانيا . فقد أحدث فيها ثورة إجتماعية هامة ، وقضى على كثير من الأدواء التي كانت تعانيها البلاد منذ قرون .. وحطمت سلطة الأشراف والطبقات الممتازة أو كادت تمحى ، ووزعت الأراضي توزيعاً كبيراً ، فكان ذلك حسنة سابعة ، وعاملاً في ازدهار الزراعة ، إبان الحكم العربي . ثم كان الفتح عاملاً في تحسين أحوال الطبقات المستعبدة ،

إذ كان الإسلام أكثر تعصيماً لتحرير الرقيق من النصرانية ، كما فهمها أحرار المملكة القوطية . وكذا حسنت أحوال أرقاء الضياع ، إذ غدوا من الزراع تقريباً ، وتمتعوا بشيء من الاستقلال والحرية » (١) .

ويقول الأستاذ لاين بول : « أنشأ العرب حكومة قرطبة التي كانت أعجوبة العصور الوسطى ، بينما كانت أوروبا تتخبط في ظلمات الجهل ، فلم يكن سوى المسلمين من أقام بها منائر العلم والمدنية » .

« ما كان المسلمون كالبرابرة من القوط أو الوندال ، يتركون وراءهم الخراب والموت . حاشا ، فإن الأندلس لم تشهد قط عدل وأصلح من حكمهم . ومن الصعب أن نقول أنى اكتسب العرب تلك الخبرة الفائقة بالشئون الإدارية ، فقد خرجوا من الصحراء إلى الغزو ، ولم يفسح لهم تيار الفتح مجالا يدرسون فيه إدارة الأمم المفتوحة » (٢) .

ويقول المستشرق الإسباني جاينجوس : « لقد سطعت في أسبانيا (الأندلس) أول أشعة لهذه المدنية ، التي نثرت ضوءها فيما بعد على جميع الأمم النصرانية . وفي مدارس قرطبة وطليلة العربية ، جمعت الخدوات الأخيرة للعلوم اليونانية بعد أن أشرفت على الانطفاء ، وحفظت بعناية . وإلى حكمة العرب ، وذكاؤهم ، ونشاطهم ، يرجع الفضل في كثير من أهم المخترعات الحديثة وأنفعها » (٣) .

وقال المؤرخ الأمريكي سكوت : « في أقل من أربعة عشر شهراً ، قضى

(١) Dozy : Histoire, V, II, p. 277—278 . ويذكر دوز من جهة آخر أن الفتح أعقبته فترة من الفوضى نهب فيها المسلمون عدة أماكن ، وأحرقوا عدة مدن وشنقوا بعض الأشراف ، وقتلوا الأطفال بالخناجر ، ولكن الحكومة العربية قمت في الحال هذه الفظائع (ج ٢ ص ٢٧٥) . ويندد من جهة أخرى بقضاء العرب على حرية الكنيسة ، واستئثارهم بتكوين المجالس الدينية ، وتعيين الأساقفة وعزلهم . ثم يقول إن العرب بعد أن توطد سلطانهم ، كانوا أقل احتراماً للمعاهدات المعقودة (ج ٢ ص ٢٨١) . ونقول نحن إن دوزي لم يعتمد في سرد هذه الفظائع إلا على الرواية النصرانية وهي متحاملة مفرضة تحمل طابع المبالغة ، خصوصاً فيما يتعلق بقتل الأطفال . أما تنديده بقضاء العرب على سلطة الكنيسة فليس مما يمكن تبريره ، لأن سياسة الفتح المستنيرة ، وبواعث توطيد دعائم الدولة الجديدة ، تقضى بأن يأخذ الغالب بزمام كل السلطات في البلد المفتوح .

Lane - Poole : The Moors in Spain, Ch. I (٢)

P. Gayangos : History of the Mohammedan Dynasties in Spain V. I. (٣)

p. VII & VIII

على مملكة القوط قضاء تاماً ، وفي عامين فقط وطدت سلطة المسلمين فيما بين البحر الأبيض المتوسط وجبال البرنيه . ولا يقدم لنا التاريخ مثلاً آخر اجتمعت فيه السرعة والكمال والرسوخ بمثل ما اجتمعت في هذا الفتح... وقد كان المظنون في البداية أن الغزو إنما هو أمر مؤقت فقط . ولم يتوقع أحد أن يكون احتلال البلاد دائماً . فلما استقرت الجماعات المستعمرة ، وفتحت الثغور لتجارة المشرق ، وأقيمت المساجد ، أدرك القوط فداحة الخطب الذي نزل بهم . ولكن اعتدال حكاهمهم الحدد خفف من ألم الهزيمة . وكان دفع الجزية يضمن الحماية لأقل الناس ، وكان يسمح للورع المتعصب أن يزاول شعائره دون تدخل ، كما يسمح للملحد أن يجاهر بأرائه دون خشية المطاردة ، والأخبار يزاولون شئونهم في سلام : أما أقوال الكتاب النصرارى التي ينسبون فيها للعرب أفظع المثالب ، فهي محض مبالغة أو افتراء» (١) .

أجل ، لم يك ثمة ما يدعو لأن يعتبر الفتح الإسلامى لاسبانيا كارثة قومية يفرغ لها الشعب ويأسو ، بل كان كل ما هنالك بالعكس يدعو إلى اعتباره نذير الخلاص والأمل . ألم يكن شعار الفاتحين التسامح والعدل والمساواة ؟ لقد كان تسامح الإسلام نبراساً يشع بضوئه المنقذ في هاتيك المجتمعات التي أضناها الإرهاق الدينى ، ولم ير الإسلام بأساً من أن يستقبل النصرارى واليهود إلى جانب المسلمين في مجتمع واحد ، يسوى فيه بينهم في جميع الحقوق والواجبات ، ولم ير بأساً من أن تقوم الكنائس والبيع إلى جانب المساجد ، ألم يكن ذلك أبداع وأروع ما في سياسة الفتح الإسلامى ؟ لقد كانت حرية الضمائر والعقائد والفكر ، وما زالت منذ أقدم العصور ، أضمن ما تحرص عليه الشعوب الكريمة وتدود عنه .

فإذا ذكرنا أن هذا التسامح الذي أبداه الإسلام نحو الأمم المغلوبة ، وهذا الاحترام لضمائر الناس وعقائدهم ، وهذه الحرية التي تركها لهم في إقامة شعائهم ، إنما جاءت بعد عصور طويلة من الاضطهاد الدينى ، اتخذت فيها مطاردة الضمائر والعقائد أشنع الأساليب والصور ، استطعنا أن نقدر ما كان لذلك الانقلاب من

(١) Scott : *ibid.*, V. I. p. 260 & 264 . وينوه باحث أمريكى حديث آخر هو الدكتور Lea بتسامح العرب والمسلمين خلال العصور الوسطى ، وترفعهم عن الخصومات الدينية ، ويفض الأجناس أو التفرقة بينها . راجع : *History of the Inquisition in Spain V. I. p. 356* .

أثر عميق في نفسية الشعوب المغلوبة وعواطفها ، وما كانت تحبو به حكم الإسلام من التأييد والرضى .

ويدي كثير من العلماء الإسبان أنفسهم مثل هذا التقدير ، والإشادة باعتدال السياسة الإسلامية وآثار مسلكها المستنير . ذلك أن العرب تركوا الشعب المغلوب دون مضايقة ، بحيا حياته الخاصة في نظمه وتقاليده . وهذا ما يسلم به المستشرق سيمونيت ، بالرغم من كونه من أشد العلماء الإسبان تحاملا ، فهو يقول لنا « إنه فيما يتعلق بالقوانين المدنية والسياسية ، فإن النصارى الإسبان احتفظوا في ظل الحكم الإسلامي بنوع من الحكومة الخاصة ، واحتفظ الناس بأحوالهم القديمة دون تغيير كبير ، وفيما يتعلق بالتشريع ، فإنهم قد احتفظوا في باب النظم الكهنوتية بقوانين الكنيسة الإسبانية القديمة ، واحتفظوا في الناحية المدنية بالقوانين القوطية أو قانون التقاضى "Fuero Juzgo" ، يخضعون لها في كل ما له علاقة بحكومتهم . وهي حكومة بلدية محلية ، وما لم يكن يتعارض مع القوانين والسياسة الإسلامية » (١) . وفيما يتعلق بالناحية النظامية يقول العلامة ألتاميرا ، إن أغلبية الشعب الإسباني الروماني والقوطي بقيت في ظل حكم المسلمين محتفظة بروسائها (وهم الأقط أو الكونتات Condes) وقضاها وأساقفتها وكنائسها ، وبالجملة بقيت محتفظة بما يشبه استقلالها المدني الكامل . وقنع الولاة بأن يفرضوا على النصارى المحكومين الضرائب الشرعية » (٢) .

ويقول المستشرق كارديناس : « إن الفضل يرجع إلى تسامح الولاة والأمراء الأوائل ، في أنه خلال العصور الأولى من الحكم الإسلامي ، كان الشعبان - المسلمون والمستعربون (النصارى) - يعيشان جنباً إلى جنب عيشة حرة » . « واستطاع المستعربون في ظل الحكم الإسلامي أن يحتفظوا باستقلالهم ، ولغتهم وعاداتهم وقوانينهم ، وأحياناً بأساقفتهم وكونتاتهم ، وأن يسهروا على صيانة الفنون القوطية التي كان العرب أنفسهم يقتبسون من أساليبها » (٣) .

D. Francisco J. Simonet : Historia de los Mozarabes de Espana (١)

(Madrid 1897) V. I. p. 106.

R. Altamira y Crevea : Historia de Espana y de la Civilizacion (٢)

Espanola (Barcelona 1900) T. I. p. 217.

O. Almagro y Cardenas: La Cultura Arabigo-Sevillana (Sevilla 1894) (٣)

ونكتفى بما تقدم من أقوال المؤرخين والمفكرين الغربيين في الإشادة باعتدال السياسة الإسلامية وتسامحها . وفي أقوالهم أبلغ رد على ما ينسبه بعض الأخبار والعلماء المتعصبين لحكم المسلمين ، من ضرور التعصب والطغيان المدني والديني .

غير أن هذه الدولة الجديدة التي أنشأها الإسلام في اسبانيا ، كانت تحمل منذ البداية جرثومة الخلاف الخطر . وكان هذا المجتمع الجديد الذي جمع الإسلام شمله ومزج بين عناصره ، يجيش بمختلف الأهواء والنزعات ، وتمزقه فوارق الجنس والعصبية . كانت القبائل العربية ماتزال تضطرم بمنافساتها القديمة الخالدة ، وكان البربر الذين يتألف منهم معظم الجيش ، يبغضون قاداتهم وروساءهم العرب ، وينقمون عليهم استئثارهم بالسلطة والمغانم الكبيرة ، واحتلالهم لمعظم القواعد والوديان الحصية ، وكثيراً ما رفعوا لواء العصيان والثورة . وكان المسلمون الإسبان وهم « المولدون أو البلديون »^(١) محدثين في الإسلام ، يشعرون دائماً بأنهم رغم إسلامهم ، أخط من الوجهة الاجتماعية ، من ساداتهم العرب . ذلك أن العرب رغم كون الإسلام يسوى بين جميع المسلمين في الحقوق والواجبات ، ويمحو كل فوارق الجنس والطبقات ، كانوا يشكون في ولاء المسلمين الحدد ، ويضنون عليهم بمناصب الثقة والنفوذ ، هذا إلى أن العربي في الأقطار القاصية التي افتتحها بالسيف ، لم يستطع أن يتنازل عن كبرياء الجنس ، التي كانت دائماً من خواص طبيعته ، فكان مثل الإنكليزي السكسوني يعد نفسه أشرف الخليقة^(٢) . على أن الخلاف بين العرب أنفسهم كان أخطر ما في هذا المجتمع الجديد من عوامل التفكك والانحلال ، فقد كانت عصبية القبائل والبطون ، ما تزال قوية حية في الصدور ، وكان التنافس على السلطان والرياسة بين الزعماء والقادة ، يمزق الصفوف ويجعلها شيعاً وأحزاباً ، وكانت عوامل الغيرة والحسد تعمل عملها في نفوس القبائل والبطون المختلفة . وأشد ما كانت تستعر نار ذلك الخلاف والتنافس بين اليمنية والمضرية ، وذلك لأسباب عديدة ترجع إلى ما قبل الإسلام . منها أن الرياسة كانت لعصور طويلة قبل الإسلام في حمير وتبَع ، أعظم القبائل اليمنية ، وكانت لهم دول ومنعة وحضارة زاهرة ، بينما كانت مضربدواً متأخرين يخضعون لحمير ويؤدون

(١) ابن القوطية - افتتاح الأندلس - ص ٣٠ .

(٢) Ameer Ali : Ibid., p. 118

الجزية لهم . وكان بينهما خصومات وحروب مستعرة طويلة الأمد ، إذ كانت حمر تعمل للاحتفاظ برياستها وسلطانها ، وتجاهد مضر في سبيل استقلالها وحريتها . ولنا في « أيام » العرب ووقائعها المشهورة ، أمثلة رائعة من هذا التضال . قال ابن خلدون : « واستمرت الرياسة والملك في هذه الطبقة اليمانية أزمنة وآماداً ، بما كانت صبغتها لهم من قبل ، وأحياء مضر وربيعة تبعاً لهم — فكان الملك بالحيرة للخم في بني المنذر ، وبالشام لغسان في بني جفنة ، ويثرب كذلك في الأوس والخزرج . وما سوى هؤلاء من العرب فكانوا ظواعن بادية وأحياء ناجعة . وكانت في بعضهم رياسة بدوية وراجعة في الغالب إلى أحد هؤلاء . ثم نبضت عروق الملك ، وظهرت قريش على مكة ونواحي الحجاز ، أزمنة عرفت فيها منهم ودانت الدول بتعظيمهم . ثم صبغ الإسلام أهل هذا الخيل ، فاستحالت صبغة الملك إليهم وعادت الدول لمضر من بينهم ، واختصت كرامة الله بالنبوة بهم ، فكانت فيهم الدول الإسلامية كلها ، إلا بعضاً من دولها قام بها العجم اقتداء بالملة وتمهيداً للدعوة^(١) . وهكذا أسفر النضال لظهور الإسلام عن تحول في الرياسة ، إذ انتهت إلى قريش زعيمة المضرية ، بعد أن لبثت عصوراً طويلة في اليمانية ، وانقلبت الآية ، فأصبحت المضرية تعمل على الاحتفاظ برياستها ، واليمانية تتجاهد في انتزاعها منها . وكانت مسألة اللغة أيضاً من أسباب ذلك الخلاف . ذلك أن لسان حمر ، كان أصل اللغة العربية التي اعتنقها مضر ، وأسبغت عليها آيات باهرة من الفصاحة والبيان ، ونزل بها القرآن الكريم على النبي القرشي المضرى ، فكانت اللغة من مفاخر مضر ، تغار عليها وتحافظ على سلامتها ونقاؤها ، بينما فسدت لهجات القبائل الأخرى بالاختلاط وضعف بيانها . وفي ذلك يقول ابن خلدون : « ولهذا كانت لغة قريش أفصح اللغات العربية وأصرحها ، لبعدهم عن بلاد العجم من جميع جهاتهم ، ثم من اكتنفهم من ثقيف وهذيل وخزاعة وبنى كنانة وغطفان وبنى أسد وتميم . وأما من بعد عنهم من ربيعة ولخم وجذام وغسان وأباد وقضاعة وعرب اليمن المجاورين لأمم الفرس والروم والحبشة ، فلم تكن لغتهم تامة الملكة بمخالطة الأعاجم^(٢) . أضف إلى هذا وذاك ما كان بين الفريقين من تباين شديد

(١) ابن خلدون ج ٢ ص ٢٣٩ و ٢٤٠ .

(٢) ابن خلدون ج ١ (المقدمة) ص ٤٨٧ .

في الطبائع والخلال ، مما كان يذكى بينها أسباب النفور والتباعد . وقد كان الإسلام مدى حين عاملاً قوياً في جمع الكلمة ، وتوطيد الصفوف ، وتلطيف أسباب الخصومة ، ولاسيما في شبه الجزيرة العربية . ولكن ما كاد يتقضى العصر الأول ، حتى هبت كوامن الخصومة والنضال من مرقدتها ، وعادت تعصف بوحدة المجتمع الإسلامي ، وكان هذا الخلاف أخطر وأشد في الأقطار القاصية التي افتتحها الإسلام ، ففتحت أمام القبائل والأجناس المختلفة ، التي تعمل معاً تحت لوائه ، مجالاً واسعاً للتنافس والتطاحن . وكان هذا هو بالأخص شأن المجتمع الإسلامي المضطرم المتنافر ، الذي قام عقب الفتح في اسبانيا .

وكانت إفريقية وهي أقرب قطر إسلامي لإسبانيا ، وتبعتها حكومة الأندلس من الوجهة الإدارية ، تفيض أيضاً بعناصر اضطراب خطيرة . فقد نزع إليها الدعاة الخوارج منذ أواخر القرن الأول ، وذاعت مبادئ الخوارج الثورية بين البربر بسرعة ، لحدائثة عهدهم بالإسلام ، وتعددت نحلهم وطوائفهم ، واشتد الخلاف والجدل فيما بينهم ، وفسد من جهة أخرى ما بينهم وبين العرب من علائق الإخاء والمودة ، وكثر نزوعهم إلى الثورة . وهذا ما يصفه ابن خلدون في قوله : « ثم نبضت فيهم (أى البربر) عروق الخارجية ، فدانوا بها ، ولقنوها من العرب الناقلة ممن سمعها بالعراق ، وتعددت طوائفهم ، وتشعبت طرقها من الإباضية والصفيرية . وفشت هذه البدعة ، وعقدتها رؤوس النفاق من العرب ، وجرت إليهم الفتنة من البربر ذريعة الانتزاع على الأمر ، فاختلّفوا في كل جهة ، ودعوا إلى قائدتهم طعام البربر ، تتلون عليهم مذاهب كفرها ، ويلبسون الحق بالباطل فيها ، إلى أن رسخت فيهم عروق من غرائسها . ثم تطاول البربر إلى الفتك بأمر العرب » (١) . واشتد تحريض الخوارج على حكومة الأمويين في إفريقية ، بعد أن أخفقوا في مقاومتها في العراق ، وتوالت الثورات والحروب الأهلية حيناً . وكان لذلك كله صداه في اسبانيا ، وخصوصاً بين البربر الذين يتألف منهم معظم الجيش ، فاضطرب أمر الحكم والنظام في الأندلس ، وذكا الخلاف بين الزعماء والقادة على نحو ما قدمنا ، وليثت حكومة اسبانيا العسكرية مدى حين عرضة للخروج والثورة ، وذهب ضحية الفتنة جماعة من الحكام والزعماء كما نفصل بعد .

(١) ابن خلدون ج ٦ ص ١١٠ .

عنى الفاتحون عقب الفتح بتنظيم شئون الحكم والإدارة ، فقسمت اسبانيا على ضوء تقسيمها القديم أيام الرومان والقوط ، فى المبدأ ، إلى أربع ولايات كبيرة على رأس كل منها حاكم محلى يعينه الحاكم العام ، ويُسئل أمامه مباشرة عن أعماله وشئون إدارته . أما حاكم الأندلس أو واليها العام ، فكان تعيينه فى المبدأ راجعاً إلى حاكم إفريقية يختاره بموافقة الخليفة .

وكانت الولاية الأولى تشمل إقليم الأندلس ، الممتد بين البحر المتوسط ونهر الوادى الكبير ، وما يلى هذا النهر حتى نهر وادى أنة أو وادى يانة ، وأشهر مدنها قرطبة ، وإشبيلية ، ومالقة ، وإستجة ، وجيان . وتشمل الثانية جميع اسبانيا الوسطى ، من البحر المتوسط شرقاً إلى حدود البرتغال غرباً (لوزيتانيا) ، ثم إلى نهر دويره (دورو) شمالاً ، وأشهر قواعدها طليطلة ، على نهر تاجه ، وقونقة وشقوبية ، وبلنسية ، ودانية ، ولقنت ، وقرطاجنة ، ومرسية ، ولورقة ، وبسطة . وتشمل الثالثة جليقية ولوزيتانيا (البرتغال القديمة) ، وأشهر قواعدها ماردة ، ويابرة ، وباجة ، وأشبونة ، وقلمرية ، ولك ، وأسترة ، وشلمنقة وغيرها . وتمتد الرابعة من نهر دويره إلى جبال البرنيه (جبال البرت أو الممرات) على ضفتى نهر إبره (إيبرو) ، وغرباً إلى جليقية . وأشهر قواعدها سرقسطة ، وطرطوشة ، وطركونة ، وبرشلونة ، وأرقلة (أرجل) ، وبلد الوليد ، ووشقة ، وبيشتر وغيرها . ولما اتسع نطاق الفتوح الإسلامية شمالاً ، أنشئت ولاية خامسة شمالى جبال البرنيه شاملة لأربونة ، ونيمة (أونومشو) ، وقرقشونة ، وبزيبه ، وأجده ، وماجويلون (أومقلون) ، ولوديف^(١) .

فى هذه الولايات والقواعد الجديدة تفرقت القبائل والعشائر المختلفة ، فنزلت قبائل دمشق بكورة قرطبة ، وحصص بإشبيلية ولبلة وأنخائها ، وقنسرين بجيان وأنخائها ، وفلسطين بشنونة والجزيرة وريه ومالقة وأنخائها ، وقبائل اليمن بطليطلة وأراضها ، ونزل الفرس بشريش وأحوازاها ، والعراقيون ، بكورة إلبيرة (غرناطة) .

(١) يقدم لنا أبو عبيدة البكر فى وصفه للأندلس تفصيلاً لهذا التقسيم ، ويسميه تقسيم قسطنطين . وهو يقوم على تقسيم اسبانيا إلى ست وحدات إدارية ، تقترّب فى أوضاعها ما ذكر . (راجع الروض المطّار - الترجمة الفرنسية ص ٢٤٦) .

والمصريون بتدمير وماردة وأشبونة وأراضها ، واستقر الحجازيون بالقواعد الداخلية^(١) .

وأما البربر فقد نزل أغلبهم بالأطراف الغربية في نواحي ماردة وبطليوس وأراضي البرتغال ، ونواحي الثغر الأوسط شمالي طليطلة فيما وراء نهر التاجه ، وفي بعض أنحاء الثغر الأعلى ، وفي قطاع قونقة والسهلة ، ونزلت أقليات منهم بين القبائل العربية ، بنواحي شاطبة ولقنت ، وفي أحواز شنونة وأراضي الفرنتيرة^(٢) .

ويلاحظ من الناحية الإقليمية ، أن القبائل العربية قد احتلت معظم البقاع والوديان الحصبة في شبه الجزيرة ، وأن البربر نزلوا أو بعبارة أخرى أنزلوا بالعكس في معظم الأقاليم والهضاب القاحلة ، ولم يحتلوا من البقاع الحصبة سوى القليل . وقد كان هذا التقسيم المحجف للأقاليم المفتوحة عاملاً آخر في ازدياد الشقاق بين العنصرين الفاتحين - العرب والبربر - . وسرى فيما بعد كيف كان استقرار البربر في تلك الأطراف الوعرة النائية ، من العوامل التي شجعتهم على تحدى السلطة المركزية ، ورفع لواء الثورة من آن لآخر .

وقد ذكرنا أن موسى بن نصير قبل رحيله إلى المشرق في شهر ذى الحجة سنة ٩٥ ، اختار ولده عبد العزيز لولاية الأندلس ، فكان أول ولايتها من المسلمين ، وأنه استخلف ولده عبدالله في ولاية إفريقية ، وأن سليمان بن عبد الملك أقر هذا الاختيار . ففضى عبد العزيز بن موسى في ولايته زهاء عامين غنى فيهما بتحسين الثغور ، وقمع الخروج والعصيان ، وافتتح عدة أماكن وحصون ، وأبدى همة في تنظيم الحكومة الجديدة وإدارتها ، وأنشأ ديواناً لتطبيق الأحكام الشرعية وتنسيقها ، لتوافق مشارب الرعايا الجدد ، ولتجمع حولها كلمة المسلمين من مختلف القبائل ، وشجع الزواج بين العرب والإسبان ، وتزوج هو بالملكة إيجولونا^(٣) أرملة رديك ملك القوط ، واختار في إشبيلية عاصمة ، الأندلس

(١) ابن خلدون ج ٤ ص ١١٩ .

(٢) يقدم لنا ابن حزم في كتاب « الجمهرة » بياناً مفصلاً عن القبائل والبطون البربرية التي نزلت في شبه الجزيرة ، والنواحي التي نزلت بها . راجع « جمهرة أنساب العرب » (للقاهرة) ص ٤٦٤ ، ٤٦٥ .

(٣) ويسمى العرب « إيلة » أرام عاصم . وقال الواقدي ، ونقله ابن عبد الحكم ، إنها كانت ابنة رديك لا زوجته (أخبار مصر ص ٢١٢) ، وكذا ورد في البيان المغرب (ج ٢ ص ٢٢) .

الحديدة ، دير « سانتا روفينا » ليكون مقاماً له ولزوجه ، وفيه أجريت أول تعديلات على الطراز العربي ، ووفد عليه المهاجرون من مصر والشام والعراق وفارس ، فأحبوا بالجزيرة سبل الزراعة والصناعة والتجارة . ولكنه لم يستطع أن يوفق بين مختلف القبائل ، ولا أن يهدئ من فورة الجند . هذا إلى ما ثار من ريب حول مقاصده ونياته ، بانقياده إلى زوجه ، واتخاذة نوعاً من رسوم الملك ، حتى قيل إنه تنصر ، وقيل إنه كان يبغى الملك ويسعى إليه بتحريض زوجه ، ويعمل للاستقلال بإسبانيا^(١) .

وهذا ما يراه المستشرق سيمونيت ، إذ يقول إن عبد العزيز بن موسى كان يدبر مشروعاً يرمي إلى الاستقلال بإسبانيا ، وإلى أن يؤسس مملكة أو إمارة مستقلة فوق أنقاض المملكة القوطية ، وقد كان مما يدفعه إلى هذا العزم ، فضلاً عن طموحه الشخصي ، تحريض زوجه إيجلونا ، التي كانت تضطرم رغبة في استرداد تاجها القديم ، وأسباب أخرى تتعلق بالسياسة العليا . ولم يكن يخفى عليه أن سلطان خلفاء المشرق ، غداً قاصراً عن أن يسيطر على هذا القطر الغربي ، الذي كان سكانه الوطنيون أقل انحطاطاً من الأمم الأخرى التي فتحها المسلمون ، والذي كان يقدم إلى الفاتحين بعده وحضارته مزية عظيمة^(٢) . وبالرغم من أنه ليست لدينا أدلة حاسمة على مشروع عبد العزيز بن موسى في الاستقلال بإسبانيا ، فإنه يبدو ممكناً ومعقولاً في الظروف التي كانت تجوزها إسبانيا يومئذ . وعلى أي حال ، فإن خصومه شنوا عليه وعلى تصرفاته دعاية قوية انتهت بالثورة ، فوثب به جماعه من الجند على رأسهم وزيره حبيب بن أبي عبدة الفهرى ، وقتلوه أثناء صلاته بأحد مساجد إشبيلية ، وذلك في رجب سنة ٩٧ (يناير ٧١٦م) ، وبعثوا برأسه إلى دمشق . ومن المرجح أن يد الخلافة لم تكن بعيدة عن هذه المؤامرة ، وأن سليمان بن عبد الملك هو روحها والمحرض عليها ، فن المعقول أن يتوجس سليمان ريبة من عبد العزيز ومقاصده ، بعد الذي أنزله بأبيه موسى ، وأن يرى التخلص منه وسيلة لتأمين الخلافة على سلطانها في ذلك القطر الجديد . وفي اهتمام

(١) ابن الأثير ، ج ٥ ص ٨ . وراجع C. Julian : *ibid*, p. 778

(٢) F. J. Simonet : *Historia de los Mozarabes de Espana*, Vol. I, p. 147

الحناة بإرسال رأس القتييل إلى دمشق اتهام واضح للخليفة . وقد عزل سليمان ، عبد الله بن موسى بن نصير عن إفريقية ، في نفس الوقت الذي قتل فيه عبد العزيز ، وهو ما يؤيد هذا الفرض أيضاً . والواقع أن أكثر من رواية إسلامية وثيقة يلقى تبعه هذه الجريمة على سليمان ، ويتهمة البعض صراحة بأنه مدبرها ، بل لقد ذهب بعضهم إلى القول بأن سليمان لم يكتف بأن حمل الحناة إليه رأس عبد العزيز ، وأنه عرضها على أبيه موسى زيادة في إيلامه والتشفي منه^(١) ، على أن سليمان لم يعلم من الرواة من يرثه من ارتكاب هذه الجريمة ، فقد ذكر لنا صاحب « أخبار مجموعة » أن سليمان أسف لمقتل عبد العزيز ، أو بعبارة أخرى أنه برىء من تبعه مقتله ، وهي الرواية الوحيدة من نوعها ، وهي رواية ظاهرة الضعف^(٢) .

وعلى أثر مقتل عبد العزيز ، اتفق الزعماء في إشبيلية على تولية أيوب بن حبيب اللخمي ، وهو ابن أخت موسى بن نصير ، وكان عاقلاً صالحاً ، فهذأت الخوارج نوعاً ، ولبت في ولايته ستة أشهر نقلت خلالها قاعدة الحكم من إشبيلية إلى قرطبة باتفاق الجماعة^(٣) . ثم أقاله محمد بن يزيد الذي خلف عبد الله بن موسى في ولاية إفريقية ، وعين لولاية الأندلس الحر بن عبد الرحمن الثقفي ، فقدمها في ذي الحجة سنة ٩٧ في جماعة كبيرة من وجوه إفريقية . وأنفق الحر صدر ولايته في قمع الفتن والمنازعات التي كانت قائمة بين العرب والبربر ، وإصلاح الجيش ، ومطاردة الخوارج والمعتدين من الجند ، وتنظيم الإدارة وتوطيد الأمن ، وكان صارماً جأراً شديد الوطأة . ثم سار نحو الشمال في جيش ضخم ليستعيد المدن والحصون الشمالية التي غزاها المسلمون من قبل ، فعبّر جبال البرنيه واخترق ولاية سبمانيا^(٤) أو لانجدوك في ربيع سنة ٧١٨ (٨٩٩ هـ) ، وكانت مدن سبمانيا قرقشونة

(١) راجع ابن عبد الحكم ص ٢١٢ و ٢١٣ ؛ والبيان المغرب ج ٢ ص ٢٢ و ٢٣ ؛ وابن الأثير ج ٥ ص ٨ ، وابن القوطية (ص ٤١) وهو صريح في أن سليمان هو الذي دبر الجريمة وعهد بتنفيذها إلى جماعة معينة من الجند ، وابن خلدون وهو صريح أيضاً في أن الجريمة تمت بتحريض سليمان (ج ٤ ص ١١٨) .

(٢) راجع أخبار مجموعة ص ٢٢ .

(٣) وهناك رواية أخرى في أن الذي نقل قاعدة الحكم إلى قرطبة هو الحر الثقفي . راجع البيان المغرب ج ٢ ص ٢٤ و ٢٥ ؛ ونفح الطيب ج ٢ ص ٥٦ .

(٤) سميت كذلك لاحتوائها على المدن السبعة أربونة وقرقشونة وأجدة وبزييه ولوديف وقيمة وماجويلون .

وأربونة وبزيبه ونيمة تابعة لمملكة القوط ، وكانت تخلفت عن الطاعة بعد أن غزاها المسلمون لأول مرة بقيادة موسى بن نصير على نحو ما قدمنا . فافتتحها الحر واستولى عليها ، وتابع زحفه حتى ضفاف نهر الجارون . ولكنه اضطر أن يعود أدراجه ، إذ علم أن النصارى في منطقة ناغار الجبلية (نبره أو بلاد البشكنس) ، قد نظموا حركة مقاومة خطيرة ، وأن الأمور قد اضطربت في قرطبة . وكان النظام قد اختل ، وعادت المنازعات واللسائس تعمل عملها ، في تفويض الأمن والسكينة ، فأنفق الحر حيناً آخر في قمع الفتنة ، حتى عزله أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز ، في منتصف سنة مائة لقسوته وصرامته ، واضطراب النظام في عهده ، فكانت ولايته سنتان وثمانية أشهر ، سادت فيها القلاقل والفتن .

واختار عمر بن عبد العزيز لولاية الأندلس السَّمْح بن مالك الخولاني . وقرر أن تكون الأندلس ولاية مستقلة عن إفريقية تابعة للخلافة مباشرة ، لما رآه من أهميتها واتساع شئونها ، وكانت إلى ذلك الحين تابعة لعامل إفريقية وإليه تعيين ولايتها . ويقال إن عمر بن عبد العزيز فكر في إخلاء الأندلس وإجلاء المسلمين قاطبة عنها ، لانقطاعهم بها ، وعزلتهم فيما وراء البحر عن باقي أقطار الخلافة ، فقيل له إن المسلمين قد تكاثروا بها واستقروا ، فعدل عن مشروعه . « قالوا وليت الله تعالى أبقاه حتى يفعل ، فإن مصيرهم مع الكفار إلى بوار إلا أن يستفدّهم الله برحمته »^(١) . وقدم السّمْح إلى الأندلس في رمضان سنة مائة (إبريل سنة ٧١٩) مزوداً بنصح الخليفة في أن يتبع الرفق والعدل ، وأن يقيم كلمة الحق والدين . وكان السّمْح حاكماً وافر الخبرة والحكمة والعقل . فقبض على زمام الأمور بحزم وهمة ، وبادر بقمع المنازعات والفتن ، وإصلاح الإدارة والجيش . وخمس جميع أراضي الأندلس التي فتحت عنوة ، أعنى مسحها وقرر عليها الخراج بنسبة الخمس .

ويقول لنا العلامة ألتامبرا ، فيما يتعلق بتوزيع أراضي الأندلس ما يأتي :

« وقد ترك الفاتحون للإسبان الذين أسلموا أو خضعوا ، سواء أكانوا جنداً

(١) أورد هذه الرواية صاحب البيان المغرب (ج ٢ ص ٢٥) ، ونقلها المقرئ عن ابن حيان مؤرخ الأندلس (ج ٢ ص ٥٦) ، وأشار إليها ابن الأثير أيضاً (ج ٥ ص ١٨٢) .

أم نبلاء - حقوقهم في ملكية أملاكهم كلها أو بعضها ، مع فرض ضريبة عقارية عليهم مشابهة للخراج هي (الجزية) ، على الأراضي المزروعة والأشجار المثمرة ، واتبعت هذه القاعدة نحو بعض الأديار ، كما حدث في الامتياز الذي منح لمدينة « قلُمرية » ، وأبيح لهؤلاء الملاك فوق ذلك حرية التصرف في أملاكهم ، وهو حق كان وفقاً للقوانين الرومانية القديمة مقيداً أيام القوط . وأما ما زاد عن الخمس في الأراضي التي استولى عليها الفاتحون ، فقد وزع بين الرؤساء والهند ، وبين القبائل التي يتألف منها الجيش .

« وقد روعى في توزيع الأراضي أن تخصص الولايات الشمالية ، وهي جليقية وليون والأسترياس للبربر ، وأن تخصص الولايات الجنوبية ، أعنى الأندلس للقبائل العربية . وكان يفرض على العمال الملازمين siervos من القوط ، الذين يشتغلون بزراعة الأرض ، أن يدفعوا للسيد أو القبيلة المالكة ثلثي أو ثلاثة أخماس المحصول . وكان من أثر ذلك أن تحسنت أحوال المزارعين ، كما أنه أدى في نفس الوقت إلى تقسيم الملكية وتمزيق الملكيات الكبيرة . كذلك تحسنت حال العبيد ، لأن المسلمين كانوا يعاملونهم بأفضل مما كان الإسبان الرومان والقوط ، ولأنه كان يكفي أن يدخل العبد في الإسلام ليغدو حراً » (١) .

وأنشأ السمع قنطرة قرطبة الشهيرة ، على نهر الوادي الكبير ، تحقيقاً لرغبة أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز ، وأبدى في جميع أعماله حزمًا ورفقًا وعدلاً ، فالتف الزعماء حوله ، وخبت الفتنة وهدأت الخواطر ، واستقر النظام والأمن .

وكان السمع فوق كفايته الإدارية جندياً جريئاً وقائداً عظيماً . فلما انتهى من مهمة التنظيم والإصلاح ، تاهب لاستئناف الغزو ، وتوطيد سلطان الخلافة في الولايات الجبلية ، والقواعد الشمالية ، التي لم يستطع أن يتم إخضاعها الحر الثقفى . فزحف على لانجدوك (سبانيا) في أواخر سنة ٧١٩ م في جيش ضخم ، وفي جماعة كبيرة من وجوه الزعماء والقادة ، واخترق جبال البرنيه من الشرق من ناحية روسيون ، واستعاد أربونة وقرقشونة ومعظم قواعد سبانيا وحصونها ، وعاث في تلك الأنحاء ، وشتت كل قوة تصدت لمقاومته . ووقعت هذه الغزوة

الشاملة في سنة ٧٢٠ م (١٠١١ هـ) . ويقول إيزيدور الباجي إن العرب اجتاحتها يومئذ غاليس القوطية كلها وجميع قواعد سبانيا^(١) . ثم اتجه السماح بعد ذلك نحو الشرق ليغزو مملكة الفرنج الجنوبية أو أكوتين ، وزحف توأ على قاعدتها تولوشة (تولوز)^(٢) ، وبدأ بذلك النضال بين العرب والفرنج في بسائط غاليس قوياً رائعاً .

(١) Dom Vissette : ibid. V. I. p. 781

(٢) ويسبها ابن حذاري طرسونة (البيان المغرب ج ٢ ص ٢٥) وهو تحريف ظاهر لأن طرسونة كانت من أعمال تطيلة في شمال شرق الأندلس (راجع معجم ياقوت) .

الفصل الخامس

غاليس بين العرب والفرنجة

(١) مملكة الفرنج . نزوحهم من الشمال إلى فرنسا . كلوفيس أول ملوكهم . كلوتير الثاني . داجوبرت . نمو مملكة الفرنج . ضعف سلطان العرش . الزعماء المحليون . محافظ القصر . الأسرة الكارلية . نفوذها وتقدمها في الرياسة . المارك الأهلية . قيام إمارة أكويتين . بين دي هرشتال محافظ القصر . حفيده تودفالد يخلفه . ولده كارل مارتل ينتزع السلطة لنفسه . الدوق أودو أمير أكويتين . السماح يفتزو إمارة . موقعة تولوشة ومقتل السمح . (٢) انتخاب عبد الرحمن الغافقي للرياسة . إخماده للفتنة في الشمال . ولاية عنبة بن سحيم الكلبي . رد الأندلس إلى حكومة إفريقية . سير عنبة إلى الشمال . غزوه لسبانيا . استيلاؤه على قرطشونة . غزوه لوادي الرون . تفاهم أودو مع المسلمين . أقوال إيزيدور الباجي . كين الفرنج لعنبة ومقتله . تتابع للولاة على الأندلس . عزرة بن عبد الله الفهري . يحيى بن سلمة الكلبي . عثمان بن أبي نسمه الخثعمي . حذيفة بن الأحوص القيسي . الهيثم ابن عبيد الكلابي . اضطراب شؤون الأندلس . غزو الفرنج لمواقع المسلمين . اجتماع فلول القوط في جليقية . إصلاحات الهيثم . عبوره إلى سبانيا . غزوه لوادي الرون وهرجونية . ولاية محمد ابن عبد الله الأشجعي . ولاية عبد الرحمن الغافقي الثانية . مواهبه وخلاله . بوادر الثورة في الشمال . منوسة حاكم الولايات الشمالية . نموض شخصيته . أطعامه ومشاريعه . تفاهمه مع أودو دوق أكويتين وتحالفه معه . اقترانه بلامبيجيا ابنة الدوق . ارتياب عبد الرحمن في موقفه وتصرفاته . إرساله جيشاً إلى الشمال . فرار منوسة ومقتله وأسر زوجه . مخاوف أودو . تأهب عبد الرحمن للغزوة الكبرى . سيره إلى الشمال . زحفه على مدينة آرل واستيلاؤه عليها . اختراقه لأكويتين . موقعة الدرودن وهزيمة الفرنج . استيلاء عبد الرحمن على بوردو . سيره ثانية إلى وادي الرون . استيلاؤه على ليون وبيزانصون وصانص . زحفه غرباً نحو ألووار . أقوال الفيلسوف جيبون .

- ١ -

يجدر بنا قبل أن نمضي في تتبع الغزوات الإسلامية لتلك الأنحاء ، أن نقول كلمة عن مملكة الفرنج تمهيداً لما سيحجىء من لقاء العرب والفرنج وتطور العلاقات بينهما . كان الفرنج (أو الفرنك) شعبة من القبائل الجرمانية استقرت منذ أواخر القرن الخامس للميلاد ، بين نهر الرين والبحر في إقليم فلاندر وما إليه (البلجيك الحديثة) ، ثم على ضفاف الرين الوسطى والموزل . وفي نهاية القرن الخامس كان زعيم هذه القبائل أمير شجاع مقدم يدعى كلوفيس بدأ حكمه في مدينة «تورني» .

وفي سنة ٤٨٦ م غزا شمال فرنسا وانتزعه من يد الحاكم الروماني سباجريوس ، وكان قد أقام به دولة مستقلة ، ثم حارب قبائل « الألمانى » القاطنة شرق نهر الرين ، وافتتح أراضيها حتى بافاريا . وفي سنة ٥٠٧ م حارب كلوفيس القوط ، وكانوا قد استقروا كما قدمنا فى القسم الجنوبي من فرنسا المسمى بغاليا (أوغاليس) وقتل ملكهم ألاريك ، واستولى على الأراضى الواقعة ما بين اللوار والبرنيه ، عدا ولاية سبانيا (لانجلوك) التى بقيت فى يد القوط . واعتنق كلوفيس النصرانية وأذاعها بين قبائله الوثنية ، وجعل باريس مقر ملكه الشاسع ، وبذا قامت مملكة الفرنج القوية أصل فرنسا الحديثة . وتابع أبناء كلوفيس وخلفاؤه من بعده سياسة الفتح ، وافتتحوا بروجونية وأواسط ألمانيا وشمالى إيطاليا : ثم وقعت الحرب الأهلية حيناً بين أمراء الفرنج الذين اقتسموا تراث كلوفيس ، حتى جاء كلوتير الثانى سنة ٦١٣ م فبسط سلطانه على غاليس كلها (فرنسا)^(١) ، واستأنف الفتح لإخضاع باقى الإمارات الفرنجية الواقعة شرقى الرين . وسار ولده داجويرت فى أثره ، وجمع كلمة الفرنج تحت لواء واحد ، وغلبت سلطة الفرنج على ألمانيا الغربية ثانية ، وهذبت النصرانية التى جاهد فى إذاعتها الفرنج بين هذه القبائل المتوحشة ، كثيراً من خشونتها ، وقضت على كثير من رسومها الوثنية .

ولكن داجويرت كان آخر ملك من الفرنج المبروفنجية - أسرة كلوفيس^(٢) - استطاع أن يقبض على زمام السلطة المركزية بيد قوية . ذلك أن نظام الإقطاع والعشائر ، كان يسود هذه المماكة الشاسعة ، وكانت جمهرة من الأمراء والدوقات والكونتات تتقاسم السلطة فى مختلف الولايات والأنحاء ، وكلها ضعف سلطان العرش اشتد نفوذ أولئك الزعماء المحليين .

وكان أولئك الزعماء قد استطاعوا خلال العصور المتعاقبة ، أن يحدوا تبعاً من سلطة العرش ، وأن يحرزوا لأنفسهم كثيراً من الامتيازات والسلطات ، فلما جاء كلوفيس استطاع بعزمه وصرامته ، أن يقبض على السلطة المركزية بيد قوية ، وأن يبسط على مملكة الفرنج كلها سلطاناً مطلقاً ، واستطاع بعض خلفائه

(١) تطلق كلمة غاليس فى الرواية الإسلامية على جنوبى فرنسا ، وهى تعريب حسن لكلمة La Gault أو Gaulle (راجع ابن الأثير ج ٤ ص ٢١٣) . وتسمى فرنسا أيضاً فى الجغرافية العربية بالأرض الكبيرة .

(٢) The Merovingians ، نسبة إلى مؤسس أسرته الملك مرفيج جد كلوفيس .

حتى داجوبيرت أن يسيطوا مثل هذا السلطان حيناً . ولكن خلفاء داجوبيرت كانوا رجالاً ضعاف الخلال والعزائم ، ينغمسون في نعيم الترف والملاذ ، وضعف سلطان العرش ، وانهارت السلطة المركزية القوية التي كان يقبض عليها ، واسترد الأشراف والزعماء المحليون استقلالهم وامتيازاتهم . هذا إلى أن ما استطاع العرش أن يحتفظ به من السلطات ، امتدت إليه سلطة جديدة في القصر ذاته ، هي سلطة محافظ القصر . وكان هذا المنصب في المبدأ متواضعاً ، ليست له أية صفة سياسية أو إدارية ، تقتصر مهامه على النظر في شئون القصر المنزلية ، ولكنه غدا منذ أوائل القرن السابع ، أعنى منذ أخذت سلطة العرش في الضعف ، منصباً هاماً ، يتولاه رجال أقوياء يتطلعون إلى السلطان ، وتوازرهم عصبية الأسرة والثروة ، وأصبح يمضى الزمن أهم مناصب الدولة السياسية والإدارية ، يستأثر صاحبه بكل السلطات الحقيقية ، وإليه منتهى الأمر في أخطر شئون الدولة ، يباشرها باسم العرش ومن ورائه ، ولا يباشر الملك إلى جانبه غير رسوم الملك الإسمية ، ويلتف حوله الزعماء والأكابر ، ويباشر في معظم الأحيان سلطة الملك الحقيقية ، خصوصاً إذا كان الملك طفلاً قاصراً ، فهو عندئذ يغدو الملك الحقيقي باسم الوصى أو النائب .

وكانت الأسرة الكارلية^(١) القوية قد اختصت بهذا المنصب الخطير ، منذ عهد الملك داجوبيرت ، وأخذت تهدد بنفوذها وقوتها مصير الأسرة الميروفنجية الملكية . وكانت أقوى بطون الفرنج في أوستراسيا (مملكة الفرنج الغربية) ، تملك ضياعاً شاسعة ما بين نهري الرين والموز وتزعم جماعة النبلاء ، وترعاها الكنيسة لتنفيذها وسلطانها ، ويمنح زعيمها محافظ القصر لقب «دوق الفرنج» ، تنوبها برياسته وسلطانه ، الذي أصبح فوق سلطان العرش . وكان انحلال الأسرة الميروفنجية وانهار سلطانها على هذا النحو ، سبباً في تفرق كلمة الفرنج وانحلال الإمبراطورية الفرنجية الشاسعة ، وتطلع الزعماء إلى الاستقلال والرياسة ، أسوة بما انتهى إليه محافظ القصر ، فاضطرت الحرب الأهلية حيناً بين الفرنج في أوستراسيا والفرنج في نوستريا (الفرنج الشرقية) ، وأسفر هذا الصراع عن استقلال ولاية أكوتين في غاليا الجنوبية ، وكذا استقلال معظم الولايات الألمانية ، برياسة طائفة من

(١) Carolingians أو Carolingians ، نسبة إلى أعظم ملوكها كارل الأكبر أو الإمبراطور شارلمان .

الأمرء الأقوياء . ثم آل منصب المحافظ في أواخر القرن السابع إلى أمير مقدم جرىء من الأسرة الكارلية ، هو بين دي هرشتال ، فحارب الفرنج الخوارج في فريزيا وسكسونيا وبافاريا وأخضعهم ، ولبت محافظاً للقصر بحكم مملكة الفرنج في الشرق والغرب بقوة وعزم ، مدى سبعة وعشرين عاماً ، ثم توفي سنة ٧١٥ م موصياً بمنصبه لحفيده الطفل تودقالد ، ولد ابنه جريمولد الذي قتل قبل وفاته . وكان لبين ولد آخر من زوجته « ألفايدة » ابنة راتبود زعيم فريزيا الوثني ، هو كارل (أو شارل) مارتل ، تركه أبوه قتي قوياً في نحو الثلاثين من عمره ، وكان من الطبيعي أن يكون هو محافظ القصر بعد وفاة أخويه الكبيرين جريمولد ودروجو . ولكن بين تأثر بتحريض زوجه الأولى « بلكترود » وأوصى بالمنصب لحفيده ، فكان محافظ القصر طفلاً هو تودقالد ، بحكم مكان الملك الميروثنجي وهو طفل أيضاً ، بواسطة بلكترود التي عينت وصية على حفيدها . وكان أول ما فعلت بلكترود أن قبضت على كارل مارتل ، وزجته إلى السجن لتأمن شره ومنافسته . ولكن أشرف أوستريا ساءهم أن تتولى الحكم امرأة . فثاروا ونادوا بأحد زعمائهم « راجنفرود » محافظاً للقصر ، ونشبت الحرب بين الفريقين ، وهزم حزب بلكترود ، فارتدت مع حفيدها إلى كلونية ، وقبض راجنفرود على زمام الحكم . وفي تلك الأثناء فر كارل مارتل من سجنه ، والتف حوله جماعة من أنصار أبيه ، وحارب النوستريين ، فاستغاث راجنفرود بالدوق أودو أمير أكويتين القوي ، فلم يغنه ذلك شيئاً ، وانتهى كارل بأن هزمه ومزق قواته ، واضطره إلى التسليم والصلح . أما بلكترود فقد عمدت الصلح أيضاً ، ونزلت عن كل حقوقها . وغداً كارل منذ سنة ٧٢٠ م محافظاً للقصر لا ينازعه منازع ، يحكم جميع الفرنج في أوستراسيا ونوستريا (١) .

هكذا كانت مملكة الفرنج حينما عبر المسلمون إلى غاليا أو غاليس (فرنسا) لثالث مرة بقيادة السمع بن مالك ، وغزوا ولاية سبمانيا القوطية ، واستولوا على قواعدها ، وزحفوا على مدينة تولوشة (تولوز) عاصمة أكويتين . وكان أودو

(١) راجع في تاريخ مملكة الفرنج ونشأتها وعصر الأسرتين الميروثنجية والكارلية :

Hodgkin : Charles the Great, وكذلك Zeller : Histoire de l'Allemagne Ch. VII

حوق أكويتين أحد أعضاء الأسرة المروثنجية ، أقوى أمراء الفرنج في غالبا وأشدهم بأساً . وكان أثناء الاضطراب الذي ساد مملكة الفرنج ، قد استقل بأكويتين وبسط حكمه على جميع غاليس الجنوبية ، من اللوار إلى البرنيه ، والتف حوله القوط والبشكنس (النافاريون) ، وأخذ يطمح إلى انتزاع ملك الفرنج أو ملك أسرته ، ويعد العدة لقتال كارل مارتل المتغلب عليه . ولكنه اضطر أن يشتغل عن مشروعه برد خطر العرب الداهم .

استولى السَّمح على سبانيا وأقام بها حكومة إسلامية ، ووزع الأراضي بين العرب والسكان ، وفرض الحزبية على النصارى ، وترك لهم حرية الاحتكام إلى شرائعهم ، ثم زحف نحو الغرب ليغزو أكويتين كما قدمنا ، فقاومه البشكنس والفسقونيون سكان هذه الأنحاء أشد مقاومة . ولكنه مزق جموعهم وقصد إلى تولوشة . وكان الدوق أودو قد جمع في تلك الأثناء جيشاً ضخماً وسار لرد العرب ، وعلم السَّمح بذلك فارتد عن مهاجمة تولوشة ليلتي جيش الدوق رغم تفوقه على جيشه في العدد . والتقى الفريقان بظاهر تولوشة ، ونشبت بينهما معركة هائلة سالت فيها الدماء غزيرة ، وكثر القتل في الجيشين ، وأبدى المسلمون رغم قتلهم شجاعة خارقة ، وتراوح النصر حيناً بين الفريقين . ولكن السَّمح سقط قتيلاً من فوق جواده ، فاختل نظام الفرسان المسلمين ، ووقع الاضطراب في الجيش كله ، وارتد المسلمون إلى سبانيا بعد أن فقدوا زهرة جندهم ، وسقط منهم عدة من الزعماء الأكارب ، وذلك في التاسع من ذى الحجة سنة اثنتين ومائة (٩ يونيو سنة ٧٢١ م)^(١) .

وعلى أثر مقتل السَّمح اختار الجيش أحد زعمائه ، عبد الرحمن بن عبد الله الغافقي للقيادة العامة ، فارتد عبد الرحمن إلى الجنوب توأ ، وأقرته « الجماعة » والياً للأندلس ، حتى يأتي الحاكم الجديد . فلبث في منصبه فترة وجيزة ، ولكنه استطاع خلالها أن يحمّد بوادر الخروج التي ظهرت في الولايات الجبلية الشمالية ،

(١) يضع كوند وهو ينقل عن مصادر عربية إسبانية لم يبينها ، تاريخ الموقعة في سنة ١٠٣ هـ (Conde : ibid. I. p. 72) . ولكن المصادر العربية التي بين أيدينا تجمع كلها على أن الموقعة كانت سنة ١٠٢ هـ (نقح الطيب عن ابن بشكوال وابن حيان ج ٢ ص ٥٦ ، والبيان المغرب ج ٢ ص ٢٥ ، وابن خلدون ج ٤ ص ١١٨) . ومعظم المصادر الفرنجية هل أن الموقعة كانت سنة ٧٢١ م (١٠٢ هـ) متفقة بذلك مع الرواية الإسلامية . راجع Dom Vissette : ibid ; I. p. 781 & 784

وأن يستبقى الحزبية على أربونة وغيرها من قواعد سبمانيا . ولبت يحمد الفتن ، ويصلح الأمور حتى قدم عنيسة بن سحيم الكلبي ، الذي اختاره بشر بن صفوان الكلبي والى لإفريقية ، والياً للأندلس . وكان الخليفة عمر بن عبد العزيز قد جعل الأندلس ولاية مستقلة كما قدمنا ، تتبع الخلافة مباشرة . ولكن خلفه يزيد بن عبد الملك لم يقر هذا التعديل ، فعادت الأندلس تابعة في إدارتها لإفريقية كما كانت . وقدم عنيسة بن سحيم الكلبي إلى الأندلس في صفر سنة ١٠٣ . وأنفق حيناً في تنظيم الإدارة ، وضبط النواحي ، وإصلاح الجيش ، وإعدادة لغزوات جديدة . وفي أواخر سنة ١٠٥ هـ (أوائل سنة ٧٢٤ م) سار عنيسة في الجيش إلى الشمال غازياً ، وعبر جبال البرنيه^(١) مرة أخرى ، وغزا سبمانيا التي فقد المسلمون كثيراً من معاقلها ، مندهزيمة تولوشة ، واستولى على قرقشونة ونيمة وما بينهما من القواعد ، وارتد القوط عن مخالفة الفرنج إلى مخالفته . وتابع زحفه شمالاً في وادي الرون ونفذ إلى برجونية حتى مدينة أوتون فغزاها وخرّبها (أغسطس سنة ٧٢٥ م) ، ثم غزا مدينة صانص . وخشى أودوق أكوطين أن يهاجمه المسلمون مرة أخرى ، فسعى إلى مفاوضتهم ومهادنتهم . وبسط المسلمون سلطانهم قوياً في شرق جنوبي فرنسا . وفي ذلك يقول إيزيدور الباجي : « كان نجاح عنيسة راجعاً إلى الجرأة والبراعة ، أكثر منه إلى القوة والكثرة . وكان لينه ورفقه وحسن معاملته للسكان ، عاملاً في تقوية سلطان الإسلام في جنوبي فرنسا » . ولكن قضى نكد الطالع أن ينكب المسلمون مرة أخرى . فإن عنيسة حين عوده إلى الجنوب ، داهمته قبل أن يجتمع إليه جميع جيشه ، جموع كبيرة من الفرنج ، فأصيب أثناء الموقعة التي نشبت بجراح بالغة توفي على أثرها ، وذلك في شعبان سنة ١٠٧ هـ (ديسمبر سنة ٧٢٥) ، فارتد الجيش إلى الداخل ، وعاد الاضطراب إلى الجزيرة مرة أخرى .

(١) يحسن بنا أن نشير هنا إلى أن بعض الكتاب والباحثين يسمون جبال البرنيه خطأً بجبال « البرانس » . ذلك لأن جبال البرنيه تسمى في الجغرافية العربية حسبما قدمنا بجبال البرت أو البرتات . أما جبال « البرانس » فهي سلسلة أخرى من الجبال الإسبانية ، تقع شرقي ماردة ، وجنوبي طليطلة ، وهي التي تعرف في الجغرافية الحديثة بجبال الممدن Sierra de Almaden ، لوقوعها على مقربة من مدينة « المعدن » . وسميت في الجغرافية العربية « بالبرانس » نسبة لقبيلة البرانس البربرية ، التي كان ينزلها في الأندلس على مقربة من هذه الجبال (راجع البيان المغرب - ٢ ص ١٤٣ و ١٦٣ حيث يشير إلى الحملات التي جردت لمقاتلة الثوار في منطقة جبال البرانس) .

وتوالى على الأندلس مدى الأعوام الخمسة التي تلت وفاة عنبة ، ستة ولاية أولهم عزرة بن عبد الله الفهري (١) ، الذي تولى قيادة الجيش عقب وفاة عنبة ، فلبث في منصبه شهرين فقط . ثم يحيى بن سلمة الكلابي ، ولاءه بشر بن صفوان عامل إفريقية ، فقدم الأندلس في شوال سنة ١٠٧ ، وامتد حكمه عامين ونصف لم تقع فيهما حوادث أو غزوات تذكر . ثم توفي بشر بن صفوان ، وخلفه في ولاية إفريقية عبيدة بن عبد الرحمن السلمى ، فولى على الأندلس عثمان بن أبي نسعة الخثعمي ، فقدمها في شعبان سنة ١١٠ ، ولبث في منصبه ستة أشهر فقط ثم عزل ، وخلفه حذيفة بن الأحوص القيسي فلم تطل ولايته سوى أشهر أيضاً ، فخلفه الهيثم ابن عبيد الكلابي أو الكنانى ، ولاءه أيضاً عبيدة السلمى عامل إفريقية ، فقدم الأندلس في المحرم سنة ١١١ هـ . وكان تتابع الولاية على هذا النحو سبباً في تفاقم الخلل والاضطراب في شئون الجزيرة ، وتفاقم الخلاف بين الزعماء والقبائل . وكان تخلف المسلمين عن الغزو من جهة أخرى مشجعاً للفرنج على مهاجمة القواعد الشمالية ، مشجعاً للخوارج من القوط والبشكنس على تنظيم قواتهم . وكان أخطر أولئك الخوارج شرادم القوط التي لجأت كما أسلفنا إلى قاصية جليقية ، واجتمعت هناك حول زعيم يدعى بلايو أو بلاى ، ولم يعن الولاية بتبعتها والقضاء عليها ، إما احتقاراً لشأنها أو لوعورة الجبال التي امتنت بها ، ففي أثناء اضطراب الشئون وانشغال الولاية ، كانت هذه الشرادم تنمو وتشتد داخل هضابها النائية ، وكانت هي نواة هذه المملكة النصرانية القوية التي نشأت سرعاً ، واشتد ساعدها ، حتى غدت قبل قرن تنافس الإسلام وتنازعه سيادة اسبانيا .

فلما ولى الهيثم حاول أن يجمع الفوضى ، وأن يرد النظام . وكان الهيثم حازماً قوى العزم ، ولكن صارماً شديد الوطأة ، فطارد الشعب والفوضى بشدة ، واضطهد معظم الزعماء والمخالفين له في الرأي ، وبالأخص اليمنية ، وتبع كثيرين منهم بالسجن والمطاردة ، وقاد حملة ضد « منوسة » وهو حسبنا نوضح بعد زعيم بربرى غامض الشخصية ، كان حاكماً لمنطقة الأسترياس وظهرت منه أعراض التمرد ، ولكنه لم يوفق إلى القضاء عليه . ثم سار في الجيش إلى الشمال ليجمع

(١) يرى بعض المؤرخين أن عزرة لم يكن من ولاية الأندلس ، أو أن ولايته كانت غير رسمية (المقر عن ابن بشكوال ج ٢ ص ٥٧ ؛ والبيان المغرب ج ٢ ص ٢٦) .

أعراض الثورة التي بدأت في الولايات الحبلية ، وليستأنف الغزو ؛ فعبر البرنيه ، واخترق سبتانيا إلى وادي الرون وغزاليون (لودون) وماسون^(١) وشالون الواقعة على نهر الساوون ، واستولى على أوتون وبون ، وعاث في أراضي برجونية الجنوبية . ولكن هذا الفتح الكبير لم يكن ثابت الأثر ، فقد أدى اختلاف القبائل وتمرد البربر إلى تفكك الجيش الفاتح ، وإلى تخلف المدن المفتوحة عن قبضة الفاتحين . فعاد المهيم إلى الجنوب ، ولم يلبث أن توفي بعد أن حكم الأندلس مدى عامين ، فاختارت « الجماعة » مكانه محمد بن عبد الله الأشجعي حتى يعين الوالي الجديد^(٢) ، فلبث في منصبه شهرين ، حتى عين عبد الرحمن بن عبد الله الغافقي والياً للأندلس ، عينه عبيدة بن عبد الرحمن السلمي والى إفريقية بمصادقة الخليفة هشام بن عبد الملك في صفر سنة ١١٣ هـ (إبريل سنة ٧٣١) ^(٣) فكانت ولايته الثانية . وكانت ولايته الأولى سنة ١٠٣ هـ على أثر مقتل السمح كما قدمنا . وكان عبد الرحمن جندياً عظيماً ظهرت مواهبه الحربية في غزوات غالبا ، وحاكماً قديراً بارعاً في شئون الحكم والإدارة ، ومصلحاً كبيراً يضطرم رغبة في الإصلاح ، بل كان بلا ريب أعظم ولاية الأندلس وأقدرهم جميعاً . وتجمع الرواية الإسلامية على تقديره والتنويه برفيع خلاله ، والإشادة بعذله وحلمه وتقواه^(٤) . فرحبت الأندلس قاطبة بتعيينه

(١) لعل ماسون هي التي يسميها ابن عذارى منوسه (راجع البيان المغرب ج ٢ ص ٢٧) .
(٢) يقدم كوندى رواية أخرى عن مصير المهيم ، فيقول إن أمر صفه وجوره نهي إلى الخليفة هشام بن عبد الملك ، فانتدب محمد بن عبد الله الأشجعي للتحقيق معه . فلما تحققت صحة التهم المنسوبة إليه عزله وسجنه وصادر أمواله ، وأطلق الذين اعتقلهم ظلماً . ويقول كوندى أيضاً إن الأشجعي هو الذي اختار عبد الرحمن الغافقي لولاية الأندلس ، لما تحققت من شجاعته وحزمه بتفويض لديه من الخليفة **Conde** **ibid. V.I.p.81** . ويأخذ دوزي هذه الرواية (**Hist.V.I.p.137**) . وكوندى يستق رواية من بعض المصادر العربية الإسبانية ، ولكنه لا يبين هذه المصادر . على أن المصادر العربية التي أماننا تجمع على أن ولاية المهيم اختتمت بوفاته ، وأن الأشجعي خلفه باختيار الجماعة (البيان المغرب ج ٢ ص ٢٧ ، ونفح الطيب ج ٢ ص ٥٨ عن ابن بشكوال ، وابن خلدون ج ٤ ص ١١٩) .

(٣) تختلف الرواية الإسلامية في تاريخ ولاية عبد الرحمن ، فيقول الضبسي إن تعيينه كان في حدود سنة ١١٠ هـ (بغية الملتبس رقم ١٠٢١) ، وكذا ابن بشكوال (نفح الطيب ج ٢ ص ٥٦) . ويقول ابن عذارى إنه كان في صفر سنة ١١٢ (ج ٢ ص ٢٨) ، وابن حيان إنه كان في صفر سنة ١١٣ (نفح ج ٢ ص ٥٦) . وهي أرجح رواية فيما نعتقد وبها أخذنا لاتفاقها مع سير قواربغ الولاة المتقدمين .

(٤) راجع ابن عبد الحكم ص ٢١٦ ، ٢١٧ و بغية الملتبس رقم ١٠٢١ ، والحيمى في جذوة الملتبس ص ٦ و ٢٥٥ .

وأجبه الحند لعدله ورفقه ولينه ، وجمعت هيئته كلمة القبائل ، فراضت مضر وحمير ، وعاد الوثام نوعاً في الإدارة والجيش ، واستقبلت الأندلس عهداً جديداً . وبدأ عبدالرحمن ولايته بزيارة الأقاليم المختلفة فنظم شئونها ، وعهد بإدارتها إلى ذوى الكفاية والعدل ، وقمع الفتن والمظالم ما استطاع ، ورد إلى النصارى كنائسهم وأملاكهم المغصوبة ، وعدل نظام الضرائب وفرضها على الجميع بالعدل والمساواة ، وقضى صدر ولايته في إصلاح الإدارة ، ومعالجة ماسرى إليها في عهد أسلافه من عواغل الاضطراب والخلل . وعنى بإصلاح الجيش وتنظيمه عناية خاصة ، فحشد الصفوف من مختلف الولايات ، وأنشأ فرقاً قوية مختارة من فرسان البربر ، بإشراف نخبة من الضباط العرب ، وحصن القواعد والثغور الشمالية ، وتأهب لإحماد كل نزعة إلى الخروج والثورة (١) .

وكانت الثورة في الواقع توشك أن تنقض في الشمال ، وبطلها في تلك المرة زعيم مسلم هو حاكم الولايات الشمالية . فمن هو ذلك الزعيم الثائر ؟ إن الرواية الإسلامية تلزم الصمت إزاء شخصية هذا الزعيم ، وإزاء الحوادث التي اقترنت باسمه . وكل ما هنالك أن صاحب البيان المغرب يقول لنا في حديثه عن ولاية الهيثم بن عبيد الكنانى « وهو الذى غزا منوسة » (٢) . ثم يردد المقرئ هذه العبارة في قوله مشيراً أيضاً إلى الهيثم « وغزا أرض منوسة فافتتحها » (٣) . ويبدو لأول وهله من استقراء هاتين الإشارتين القصيرتين ، أن « منوسة » تنصرف فيما يرجح إلى المكان ، ومنوسة قد تكون مدينة « ماسون » وهى التى غزاها الهيثم ضمن ، غزواته في أرض فرنسا . ولكن معظم الروايات النصرانية والفرنجية المعاصرة ، تحدثنا في نفس الوقت عن شخصية زعيم مسلم يدعى Munuza « منوزا » أو Munez « مونز » ، وهو كما يبدو مطابق لاسم « منوسة » ، وتسرد لنا سلسلة من الحوادث الهامة التى اقترنت باسمه . وفي موطن واحد فقط تقول الرواية النصرانية إن منوسة كان زعيماً نصرانياً من زعماء منطقة الأسترياس ، وأنه كان حاكماً لمدينة خيخون (٤) . ولنسلم نحن بهذه المطابقة بين الإسمين ،

(١) Conde ; ibid V. I. p. 82 & 83

(٢) البيان المغرب ج ٢ ص ٢٧

(٣) نفع الطيب ج ١ ص ١٠٩ .

(٤) Crónica General : Vol. I. p. 319 & V. II. p. 324

فقول إن منوسة ، كان وفقاً لأقوال هذه الروايات النصرانية والفرنجية ، زعيماً مسلماً يحكم بعض ولايات البرنيه الغربية وسبتانيا فيما وراء البرنيه باسم حكومة الأندلس ، وذلك حوالى سنة ٧٢٥ إلى سنة ٧٣٠ م^(١) . وكان الدوق أودو أمير أكويتين منذ اجتاحت المسلمون أراضيه ، ورأى خطر الفتح الإسلامى يهدد ملكه يسعى إلى مهادنة المسلمين والتقرب من حكومة الأندلس ، ويحاول فى نفس الوقت أن يجمع الحلفاء من حوله لمقاومتها إذا اقتضى الأمر . فلما تولى منوسة حكم الولايات الشمالية . وهى تجاور أكويتين من الشرق والجنوب ، سعى الدوق إلى التفاهم معه . وكان منوسة كما تصفه الرواية النصرانية المعاصرة ، زعيماً قوى المراس ، كثير الأطماع ، نافذ الهيبة فى هاتيك الوهاد ، ولم يكن على اتفاق مع حكومة الأندلس . ذلك أنه كان من أقطاب البربر الذين عبروا الأندلس مع طارق بن زياد^(٢) ؛ وقد سبق أن شرحنا عوامل الخلاف بين العرب والبربر ، وكيف حقق البربر على العرب لاستئثارهم بمغانم الفتح والرياسة . وعلى ضوء هذه التفاصيل ، نعود فتساءل من يكون « منوسة » ؟ هل يكون هو عثمان بن أبى نسعة الخثعمى الذى ولى إمارة الأندلس قبل ذلك بثلاثة أعوام حسبنا قدمنا ، ولم يطل أمد ولايته سوى أشهر قلائل ؟ وهل يكون اسم « منوسة » Munuza تحريفاً نصرانياً للقب « نسعة » العربى ؟ إذا صح أن منوسة كان زعيماً بربرياً كما تصفه الروايات النصرانية المعاصرة ، وهى وحدها مصدر التعريف عنه ، فيكون من المشكوك فيه إذن أن يكون منوسة ، هو عثمان ابن أبى نسعة الخثعمى والى الأندلس^(٣) . ذلك أن عثمان بن أبى نسعة كان زعيماً

(١) ويقول ألتاميرا إن « منوسة » Munuza هو الحاكم البربرى الذى تركه موسى ابن نصير فى خيخون فى منطقة الأسترياس وكان حاكماً لمدينة أوفيدو ، وأنه أى منوسة قد اضطرب عقب فشله فى القضاء على بلايو الزعيم القوطى ، وهزيمته فى موقعة كوفادونجا أن يحل منطقة الأسترياس .
راجع : Altamira : *ibid*, T. I. p. 221—223

(٢) هذه هى رواية إيزيدور الباجى وقد نقلتها بعض الروايات النصرانية المتأخرة ؛ راجع

Dozy: *Histoire*, V.I.p. 160 et notes و Dom Viseette : *ibid*, V.I. p. 794 & II. p.129

(٣) كنت من قبل أعتقد كبعض الباحثين أن « منوزا » (منوسة) هو تحريف لاسم ابن أبى نسعة ؛ وأنها اسمان لشخص واحد . وهذا ما يقوله فى الواقع يوسف كوندى (V. I. p. 80) . ولكنى أصبحت بعد الذى قرأته من مختلف التفاصيل والتعليقات التى أوردتها الروايات النصرانية المعاصرة ، وبعد مقارنتها بأقوال الرواية الإسلامية عن ابن أبى نسعة ، أشك فى صواب هذا الرأى . والمرجح كما يبدو من مختلف الشروح المتقدمة أن منوسة كان فعلاً من زعماء البربر المتمردين على حكومة قرطبة .

عربياً ينتسب إلى خنعم إحدى البطون العربية العريقة^(١) ، ولم يفز بإمارة الأندلس في تلك الفترة سوى زعماء العرب ، ولم تسند إلى أحد من البربر . هذا إلى أن الرواية الإسلامية تقدم إلينا عن مصير عثمان بن أبي نسعة رواية أخرى غير التي تقدمها إلينا الرواية النصرانية عن مصير «منوسة» ، فهي تقول لنا ان ابن ابى نسعة ولى الأندلس في شعبان سنة ١١٠ هـ (٧٢٨م) واستمرت ولايته خمسة أشهر أو ستة ثم عزل ، وانصرف إلى القيروان فمات بها^(٢) . أما «منوسة» فقد مات محارباً ، ومات قتيلًا كما سنرى .

وعلى أى حال فقد تفاهم دوق أكويتين ومنوسة ، وقوت المصاهرة بينهما أواصر الصداقة والتحالف . ذلك أنه كانت للدوق ابنة رائعة الحسن تدعى لامبجيا (أو مينينا أو نوميرانا على قول بعض الروايات) فرآها منوسة أثناء بعض رحلاته في أكويتين أو أنه أسرها في بعض غاراته عليها . تقول الرواية : «وكانت لامبجيا أجمل امرأة في عصرها ، كما كان منوسة أقبح رجل في عصره ، وكانت نصرانية متعصبة ، ولكن أطماع الوالد غلبت على كل شيء ، فارتضى مصاهرة الزعيم المسلم» .

وكما يحيط الغموض بشخصية منوسة ، فكذلك يحيط بشخصية لامبجيا وظروف زواجها من الزعيم المسلم ، فتقول الرواية مثلاً ، إن منوسة بعد أن أسر لامبجيا ، وشغف بها حبا وتزوج بها ، حمل بتأثيرها ونفذها على مخالفة أبيها الدوق ومناوأة حكومة الأندلس ، وتقول أيضاً إن ابنة الدوق أكويتين التي تزوجها منوسة لم تكن لامبجيا التي اشتهرت بفائق حسنها ، بل كانت أختها «مينينا» التي كانت من قبل زوجة لفرويل القوطي أمير أستورية ، كما تورد لنا غير ذلك من الأنباء والتفاصيل التي يقع معظمها في حد الأساطير^(٣) .

وهكذا اجتمعت عوامل الحب والسياسة لتوثيق عرى التحالف بين الزعيم المسلم وبين الدوق أودو . وكان أودو ، فضلاً عما يهدده من خطر الغزو الإسلامي ، مخشى بأس خصمه القوي كارل مارتل زعيم الفرنج ، وكذا كان كارل مارتل

(١) راجع نفتح الطيب ج ١ ص ١٣٩ .

(٢) البيان المغرب ج ٢ ص ٢٨ .

(٣) راجع خلاصة الروايات النصرانية والفرنجية في «سوعة Bayle V. IV والتعليقات .

ينقم على أودو نفوذه واستقلاله بالجنوب ، وقد غزا بالفعل أكوطين غير مرة وهزم أميرها . فكان أودو في الواقع بين نارين ، يخشى الفرنج من الشمال ، والعرب من الجنوب . وكانت جيوش كارل مارتل تهدهد وتعيث في أرضه (سنة ٧٣١) في نفس الوقت الذي سعى فيه منوسة إلى مخالفته ، والاستعانة به على تنفيذ مشروعه في الخروج على حكومة الأندلس ، والاستقلال بحكم الولايات الشمالية . وقد رأى منوسة اكتساباً للوقت وكمثلاً لحقيقة مشروعه ، أن يسبغ على مخالفته مع الدوق صفة هدنة عقدت بينه وبين الفرنج ، ولكن عبد الرحمن أمير الأندلس ارتاب في أمر الثائر ونياته ، وأنى إقرار الهدنة التي عقدها . وعندئذ كشف منوسة القناع ، وأعلن الثورة ، فأرسل عبد الرحمن إلى الشمال حملة قوية بقيادة ابن زيان لتأديب الزعيم الثائر ، والتحوط لسلامة الولايات الشمالية ، فاستعصم منوسة بمواقعه الجبلية ، وتحصن في عاصمة إقليمه « مدينة الباب » (١) ، الواقعة على منحدر جبال البرنيه ، وكان يظن أنه يستطيع أن يتحدى الجيش الإسلامي ، وأن يعتصم بالصخر ، كما اعتصم به الزعيم القوطي « بلاجيوس » (بلايو) ولكنه كان مخطئاً في تقديره ، فقد نفذ ابن زيان بجيشه إلى مدينة الباب ، وحاصر الثائر في عاصمته ، ففر منها إلى شعب الجبال الداخلية ، فطارده ابن زيان من صخرة إلى صخرة ، حتى أخذ وقتل مدافعاً عن نفسه ، وتحطمت أطماعه ومشاريعه (١١٣ هـ - ٧٣١ م) (٢) ، وأسرت زوجه الحسنة لامبجيا ، وأرسلت إلى بلاط دمشق ، فاستمبلها الخليفة (هشام بن عبد الملك) بحفاوة وإكرام ، وزوجت هنالك من أمير مسلم لا تذكر لنا الرواية اسمه (٣) .

(١) واسمها بالعثمانية Ciudad de la Puerta ، وقد كانت تقع على أحد ممرات البرنيه وتسمى أحياناً « بويكاردا » .

(٢) تمبر الرواية الإسلامية على هذه الحوادث كلها بالصمت كما قدنا ، ولا تذكر لنا أي تفصيل أو ملحّة تلقى الضياء على شخصية منوسة ؛ ويوافق دوزي على أن منوسة Munuza هو اسم للزعيم البربري المتقدم الذكر . راجع : Dozy : Histoire V.II. p. 129 & note ؛ وكذلك Lévy-Provençal : Hist. de l'Espagne Musulmane (1944) p. 43 & note.

(٣) Dom Vissette : ibid, I. p. 764 . وتحيط الرواية سيرة لامبجيا وزوجها بكبير من القمص الخيالية الشائقة ، التي اتخذت فيما بعد مستق لخيال بعض الشعراء والكتاب . غير أن معظم هذه القصص لا يخرج عن حد الأساطير .

هذا ، وهناك في شأن «منوسة» وزوجه رواية أخرى ، أوردتها الخبر ماريانا كبير مؤرخى إسبانيا ، فقد ذكر أن منوسة كان زعيماً نصرانياً اختاره المسلمون لحكم المنطقة الواقعة غربي البرنيه ، ولكنه كان صارماً يشدد في معاملة النصارى ، وأنه كانت للدون بلاجيوس زعيم جليقية القوطى أخت بارعة الحسن ، شغف بها منوسة حباً ، ولكن بلاجيوس لم يوافق على زواجها منه ، فاحتال منوسة ، وبعثه في مهمة إلى قرطبة ، وأسر الأميرة أثناء غيبته وتزوج بها قسراً ، فأسر بلاجيوس وأخته هذه الإهانة ، ولبثا رقبان الفرص حتى استطاعت الأميرة فراراً من أسرها وسارت مع أخيها إلى جبال جليقية حيث اعتصم بلاجيوس مع أنصاره ، وأعلن الخروج والثورة ، فأخطر منوسة حكومة قرطبة ، فأرسلت حملة لتأديب الثائر بقيادة «علقمة» . ولكن بلاجيوس استطاع مع أنصاره القلائل ، أن يعتصم بشعب الجبال ، فارتد المسلمون منهزمين ، وقتل علقمة ، وارتاع منوسة لفوز خصمه ، وخشى انتقام مواطنيه ، فحاول الفرار إلى الجنوب ، ولكنه وقع في يد شرذمة من الفلاحين النصارى فقتلوه ، ويضع ماريانا تاريخ هذه الحوادث في سنة ٧١٨ م (١) .

ولكن رواية ماريانا هذه ظاهرة الضعف ، أولاً لأنه ليس بمعقول أن تعهد حكومة الأندلس المسلمة بحكم ولاية من ولاياتها إلى زعيم نصرانى . وثانياً لأن هذه الرواية تخالف في مجموع تفاصيلها كل ما كتبه الروايات المعاصرة عن شخصية منوسة ، وعن مصاهرته لأمرأكوتين . وثالثاً لأن تاريخ هذه الحوادث متأخر عن التاريخ الذى يعينه ماريانا بأكثر من عشرة أعوام .

ولما قتل منوسة ، وانهارت مشاريعه ، ورأى أودو ما حل بحليفه ، واستشعر الخطر الداهم تأهب للدفاع عن مملكته ، وبدأ الفرنج والقوط في الولايات الشمالية بالتحرك لمهاجمة المواقع الإسلامية . وكان عبد الرحمن يتوق إلى الانتقام لمقتل السمح وهزيمة المسلمين عند أسوار تولوشة ، ويتخذ العدة منذ بدء ولايته لاجتياح مملكة الفرنج كلها . فلما رأى الخطر محققاً بالولايات الشمالية ، لم يربدا من السير إلى الشمال ، قبل أن يستكمل كل أهبتة . على أنه استطاع أن يجمع أعظم جيش سيره

(١) Mariana في تاريخ إسبانيا العام - الترجمة الفرنسية ج ٣ ص ٥ وما بعدها .

المسلمون إلى غاليس (فرنسا) منذ الفتح . وفي أوائل سنة ٧٣٢ م (أوائل سنة ١١٤ هـ) سار عبد الرحمن إلى الشمال متخراً ولاية أراجون (الشجر الأعلى) وناقار (بلاد البشكس) وعبر البرنية من طريق بنبلونة ، ودخل فرنسا في ربيع سنة ٧٣٢ م ، وزحف توطاً على مدينة آرل الواقعة على نهر الرون ، لتخلفها عن أداء الجزية ، واستولى عليها بعد معركة عنيفة ، نشبت على ضفاف النهر بينه وبين قوات الدوق أودو . ثم زحف غرباً وعبر نهر الحارون ، وانقض المسلمون كالسيل على ولاية أكويتين^(١) ، يشخون في مدنها وبساتنها ، فحاول أودو أن يقف زحفهم ، والتقى الفريقان على ضفاف نهر الدردون ، فهزم الدوق هزيمة فادحة ، ومزق جيشه شرمزق . قال إيزيدور الباجي : « والله وحده يعلم كم قتل في تلك الموقعة من النصراري » . وطارد عبد الرحمن جيش الدوق حتى عاصمته بوردو (بردال) . واستولى عليها بعد حصار قصير^(٢) ، وفر الدوق في نفر من صحبه إلى الشمال ، وسقطت أكويتين كلها في يد المسلمين . ثم ارتد عبد الرحمن نحو الرون ككرة أخرى واخترق الجيش الإسلامي برجونية واستولى على ليون وبزانسون^(٣) ، ووصلت سرياته حتى صانص ، التي تبعد عن باريس نحو مائة ميل فقط . وارتد عبد الرحمن بعد ذلك غرباً إلى ضفاف اللوار ليتم فتح هذه المنطقة ثم يقصد إلى عاصمة الفرنج^(٤) .

(١) كانت إمارة أكويتين في ذلك الحين تمتد بين نهر الرون شرقاً وخليج غسقونية (بسكونية) غرباً ، وبين نهر اللوار شمالاً ونهر الحارون جنوباً ، وتشمل من مقاطعات فرنسا الحديثة جويان وبيرجور وسانتونيغ وبواتو وفنده وجزءاً من أنجو .

(٢) Dom Vissette : *Ibid*, I. p. 795

(٣) وهي مسقط رأس الشاعر الفرنسي الأشهر فكتور هوغو .

(٤) يقدم المستشرق كاردون شرحاً آخر لسير عبد الرحمن ، فيقول إنه زحف أولاً على آرل وحاصرها فبادر الكونت إلى إنجادها ، فلقبه عبد الرحمن وهزمه وأجلاه إلى الفرار ، ثم عبر عبد الرحمن نهر الحارون واستولى على بوردو . وكان الكونت قد جمع جيشاً جديداً وحاول رده فهزم مرة أخرى ، ثم اخترق عبد الرحمن بيرجور وسانتونيغ وبواتو وهو يشخ في تلك الأنحاء حتى انتهى إلى تور Cardonne : *Hist. de L'Afrique et de L'Espagne-I-129* ولكن عبد الرحمن اقتحم وادي الرون أيضاً كما بينا ، وقد شرحنا سيره طبقاً لجميع الروايات مجتمعة ، وطبقاً للمواقع الجغرافية التي تتعلق بهذه الغزوة . وقد يكون أن عبد الرحمن لم يسر بنفسه شمالاً نحو برجونية ، ولكن الجيش الإسلامي اقتحم هذه الأنحاء بلا ريب .

وتم هذا السير ، وافتتح نصف فرنسا الجنوبي كله من الشرق إلى الغرب ، في بضعة أشهر فقط . قال إدوارد جييون : « وامتد خط الظفر مدى ألف ميل من صحرة طارق إلى ضفاف اللوار . وقد كان اقتحام مثل هذه المسافة يحمل العرب إلى حدود بولونيا وربي اسكتلندا . فليس الرّين بأمنع من النيل أو الفرات ، ولعل أسطولا عربياً كان يصل إلى مصب التيمز دون معركة بحرية ، بل ربما كانت أحكام القرآن تدرس الآن في معاهد أكسفورد ، وربما كانت منابرها تؤيد لمحمد صدق الوحي والرسالة» .

الفصل السادس

بلاط الشهداء

معركة الإسلام والنصرانية . تحول هذه المعركة إلى سهول فرنسا . العرب والفرنجة على أطلال الدولة الرومانية . حلول الفرنج في فرنسا . خواص المجتمع الفرنجي . انحلال عصبته بالاستقرار . تفككه وتناfreه . خطر القبائل الجرمانية الوثنية . الدولة الإسلامية . انتظامها وتماسكها . تفرق الفرنج . سيل الفتح الإسلامي . عبد الرحمن النافق وجيشه . كيف يصوره الشاعر سوفي . اختراق عبد الرحمن لفرنسا . موقف الدوق أودو . كارل مارتل محافظ القصر . تمهله في لقاء العرب . ما تقوله الرواية في ذلك . التجاه أودو إلى كارل . مسير كارل للقاء العرب . اجتياح العرب لأكوتين . أين التقى العرب والفرنج . هجوم المسلمين على مدينة تور . وصول الفرنج إلى اللوار . ارتداد عبد الرحمن إلى ما وراء النهر . حالة الجيش الإسلامي . وفرة غنائه وخطرها على نظامه . بدء القتال . المارك المحلية . المعركة العامة . مهاجمة الفرنج لمعسكر الغنائم . ارتداد الفرسان المسلمين لحمايته . اختلال نظام المسلمين . مقتل عبد الرحمن النافق . الذعر في الجيش الإسلامي . رجحان كفة الفرنج . افتراق الجيشين . الخلاف في القيادة الإسلامية . تقرير الانسحاب . ارتداد المسلمين إلى الجنوب . توجس كارل مارتل . أقوال الرواية الكنسية . مبالغتها في التقدير والتصوير . وصفها لحوادث اللقاء الحامم . صمت الرواية الأندلسية . وصفها لحوادث الغزوة الإسلامية . وصفها للجيش الإسلامي . حديثها عن الموتعة الحاسمة . أقوال المستشرق كاردون . تحفظ الرواية الإسلامية ومنز هذا التحفظ . بلاط الشهداء . لون الموتعة الدينية . أقوال المؤرخين المسلمين عنها . موقف الرواية النصرانية . مبالغتها في تصوير هزيمة المسلمين وتقدير خسائهم . ما يدحض هذا الإغراق . إحجام الفرنج عن مطاردة العرب . خسارة المسلمين بمقتل عبد الرحمن . النقد الحديث وبلاط الشهداء . كيف ينوه بأهميتها في خلاص النصرانية من سلطان الإسلام . تأملات .

أجل ، كان اللقاء الحاسم بين الإسلام والنصرانية ، وبين الشرق والغرب على وشك الوقوع . وكان اجتياح الإسلام للعالم القديم سريعاً مدهشاً ، فإنه لم يمض على وفاة النبي العربي نصف قرن ، حتى سحق العرب دولة الفرس الشاخنة ، واستولوا على معظم أقطار الدولة الرومانية الشرقية ، من الشام إلى أقصى المغرب ، وقامت دولة الخلافة قوية راسخة الدعائم فيما بين السند شرقاً والمحيط غرباً ، وامتدت شمالاً حتى أواسط آسيا الصغرى . وكانت سياسة الفتح الإسلامي مذ توطدت دولة الإسلام ، ترمى إلى غاية أبعد من امتلاك الأقطار ، وبسطة السلطان والملك . فقد كان الإسلام يواجه في الأقطار التي افتتحها من العالم القديم أنظمة

راسخة مدنية واجتماعية ، تقوم على أصول وثنية أو نصرانية . وكانت النصرانية قد سادت أقطار الدولة الرومانية منذ القرن الرابع . فكان على الخلافة أن تهدم هذا الصرح القديم ، وأن تقيم فوق أنقاضه في الأمم المفتوحة ، نظاماً جديدة تستمد روحها من الإسلام ، وأن تذلل النصرانية لصولة الإسلام ، سواء بنشر الإسلام بين الشعوب المفتوحة ، أو بإخضاعها من الوجهتين المدنية والاجتماعية لنفوذ الإسلام وسلطانه . وكان هذا الصراع بين الإسلام والنصرانية قصير الأمد في الشام ومصر وإفريقية ، فلم يمض نصف قرن حتى غمر الإسلام هذه الأمم بسيادته ونفوذه ، وقامت فيها مجتمعات إسلامية قوية شاملة ، وغاضت الأنظمة والأديان القديمة . ثم دفعت الخلافة فتوحها إلى أقاصى الأناضول من المشرق ، وجازت إلى اسبانيا من المغرب . فأما في المشرق فقد حاول الإسلام أن يعبر إلى الغرب عن طريق قسطنطينية ، وبعثت الخلافة جيوشها وأساطيلها الزاخرة إلى عاصمة الدولة الشرقية مرتين ، الأولى في عهد معاوية بن أبي سفيان في سنة ٤٩ هـ (٦٦٩ م) والثانية في عهد سليمان بن عبد الملك سنة ٩٨ هـ (٧١٧ م) ، وكانت قوى الخلافة في كل مرة تبدى في محاصرة قسطنطينية ، غاية الإصرار والعزم والجلد ، ولكنها فشلت في المرتين ، وارتدت عن أسوار قسطنطينية منهوكة بخائرة ، وأخفق مشروع الخلافة في افتتاح الغرب من تلك الناحية ، ولقى الإسلام هزيمته الحاسمة في المشرق أمام أسوار بيزنطية ، وقامت الدولة الشرقية في وجه الإسلام حصناً منيعاً يحمي النصرانية من غزوه وسلطانه . ولكن جيوش الإسلام جازت إلى الغرب عن طريق اسبانيا ، وأشرفت من هضاب البرنيه على باقي أمم أوروبا النصرانية ، ولولا تردد الخلافة وخلاف الزعماء ، لاستطاع موسى بن نصير أن ينفذ مشروعه في اختراق أوروبا من الغرب إلى المشرق ، والوصول إلى دار الخلافة بطريق قسطنطينية ، ولكان من المرجح أن تلقى النصرانية يومئذ ضربتها القاضية ، وأن يسود الإسلام أمم الشمال كما ساد أمم الجنوب ، ولكن الفكرة غاضت في مهدها لتوجس الخلافة وتردها .

على أن الفتوح التي قام بها ولاية الأندلس بعد ذلك في جنوبي فرنسا ، كانت طوراً آخر من أطوار ذلك الصراع بين الإسلام والنصرانية . فقد كانت مملكة الفرنج أعظم ممالك الغرب والشمال يومئذ ، وكانت تقوم في الغرب بحماية النصرانية ،

على نحو ما كانت الدولة الرومانية في الشرق ، بل كانت مهمتها في هذه الحامية أشق وأصعب ، إذ بينما كان الإسلام يهدد النصرانية من الجنوب ، كانت القبائل الوثنية الجرمانية تهددها من الشمال والشرق . وكانت الغزوات الإسلامية تقف في المبدأ عند سبتمانيا ومدنها ، ولكنها امتدت بعدئذ إلى أكويتين وضاف الجارون ، ثم امتدت إلى شمال الرون وولاية بروجونية ، وشملت نصف فرنسا الجنوبي كله ، وهكذا بدا الخطر الإسلامي على مصير الفرنج والنصرانية قوياً ساطعاً ، وبدت طوال ذلك الصراع الحاسم ، الذي يجب أن تتأهب لحوضه أمم الفرنج والنصرانية كلها .

كانت المعركة في سهول فرنسا إذاً بين الإسلام والنصرانية ، بيد أنها كانت من الجانب الآخر بين غزاة الدولة الرومانية ، والمتنافسين في اجتناء ترأثها . كانت بين العرب الذين اجتاحتهم أملاك الدولة الرومانية في المشرق والجنوب . وبين الفرنج الذين حلوا في ألمانيا وغاليس (فرنسا) . والفرنج هم شعبة من القبائل البربرية التي غزت رومة وتقاسمت ترأثها ، من وندال وقوط وآلان وشوايبين . فكان ذلك اللقاء بين العرب والفرنج في سهول فرنسا ، أكثر من نزاع محلي على غزو مدينة أو ولاية بعينها : كان هذا النزاع في الواقع أبعد ما يكون مدى وأثراً ، إذ كان محوره تراث الدولة الرومانية العريض الشاسع ، الذي فاز العرب منه بأكبر غنم ، ثم أرادوا أن ينتزعوا ما بقي منه بأيدي منافسيهم غزاة الدولة الرومانية من الشمال .

وكانت هذه السهول الشمالية ، التي قدر أن تشهد موقعة الفصل بين غزاة الدولة الرومانية ، تضم مجتمعاً متنافراً ، لم تستقر بعد قواعده ونظمه على أسس متينة . ذلك أن القبائل الجرمانية التي عبرت نهر الرين وقضت على سلطان رومة في الأراضي المفتوحة ، كانت مزيجاً مضطرباً من الغزاة الظمأى إلى تراث رومة من الثروة والنعماء . وكان القوط قد اجتاحتها شمالي إيطاليا منذ القرن الخامس ، وحلوا في جنوبي غاليس واسبانيا . ولكن هذه الممالك البربرية لم تكن تحمل عناصر البقاء والاستقرار ، فلم يمض زهاء قرن آخر حتى غزا الفرنج فرنسا ، وانتزعوا نصفها الشمالي من يد حاكمه الروماني المستقل بأمره ، وانتزعوا نصفها الجنوبي من القوط ، وحلت في غاليس سلطة جديدة ومجتمع جديد . وكان الغزاة في كل

مرة يقيمون ملكهم على القوة وحدها ، ويقتسمون السلطة في نوع من الإقطاع ، فلا يمضى وقت طويل حتى تقوم في القطر المفتوح عدة إمارات محلية ، ولم يعن الغزاة بإقامة مجتمع متماسك ذى نظم سياسية واجتماعية ثابتة ، ولم يعنوا بالأخص بأن يندمجوا برعاياهم الحدود . فكان سكان البلاد المفتوحة من الرومان والغاليين ، الذين لبثوا قرونًا يخضعون لسلطان رومة ، ماتزال تسود فيهم لغة رومة وحضارتها ، ولكن القبائل الجرمانية الغازية كانت تستأثر بالحكم والرياسة ، وتكون وحدها مجتمعاً منزلاً ، لبثت تسوده الحشونة والبداءة أحقاباً ، قبل أن يتأثر بمدنية رومة وترائها الفكرى والاجتماعى . وكان اعتناق الفرنج للنصرانية منذ عهد كلوفيس ، أكبر عامل فى تطور هذه القبائل وتهذيب عقليتها الوثنية وتقاليدها الوحشية . ثم كان استقرارها بعد حين فى الأرض المفتوحة ، وتوطد سلطانها وتمتعها بالنعاء والثراء ، بعد طول المغامرة والتجوال ، وشظف العيش ، وحرصها على حياة الدعة والرخاء ، عوامل قوية فى انحلال عصبيتها الحربية وفتور شغفها بالغزو ، وإذكاء رغبتها فى الاستعمار والبقاء . وهكذا كانت القبائل الجرمانية التى عبرت الرين تحت لواء الفرنج واستقرت فى غاليس ، قد تطورت فى أوائل القرن الثامن ، إلى مجتمع مستقر متماسك نوعاً . ولم تكن غاليس قد استحال عندئذ إلى فرنسا ، ولكن جنود فرنسا المستقبلية كانت قد وضعت ، وهيئت الأسباب والعوامل لنشوء الأمة الفرنسية . بيد أن هذا المجتمع رغم تمتعه بنوع من الاستقرار والتماسك ، كان وقت أن نفذ العرب إلى فرنسا ، فريسة الانحلال والتفكك ، وكان الخلاف يمزقه كما قدمنا . وكانت أكويتين وبقى فرنسا الجنوبية ، فى يد جماعة من الأمراء والزعماء المحليين ، الذين انتهزوا ضعف السلطة المركزية ، فاستقلوا بما فى أيديهم من الأقاليم والمدن . ثم كانت القبائل الجرمانية الوثنية ، فيما وراء الرين من جهة أخرى ، تحاول اقتحام النهر من آن لآخر ، وتهدد بالقضاء على مملكة الفرنج . فكان الفرنج يشغلون برد هذه المحاولات ويقتحمون النهر بين آونة وأخرى لدرء هذا الخطر ، ولإرغام القبائل الوثنية على اعتناق النصرانية . فكانت المسألة الدينية أيضاً عاملاً قوياً فى هذا النضال الذى يضطرم بين قبائل وعشائر تجمعها صلة الجنس والنسب . ولم ينقذ مملكة الفرنج من ذلك الخطر ، سوى خلاف القبائل الوثنية وتنافسها وتفرق كلمتها^(١) .

(١) راجع Creasy : Decisive Battles of the World, Ch. VII (النصل السابع) =

هكذا كانت مملكة الفرنج والمجتمع الفرنجي في أوائل القرن الثامن ، أعنى حينما انساب تيار الفتح الإسلامى من اسبانيا إلى جنوبي فرنسا . وكان قد مضى منذ وفاة النبي العربى ، إلى عهد هذا اللقاء الحاسم بين الإسلام والنصرانية (سنة ٧٣٢م) ، مائة عام فقط . ولكن العرب كانوا خلال هذا القرن ، قد افتتحوا جميع الأمم الواقعة بين السند شرقاً والمحيط غرباً ، واكتسحوا العالم القديم ، فى فيض مدهش من الظفر الباهر ، واستولوا على جميع أقطار الدولة الرومانية الجنوبية ، من الشام إلى أقصى المغرب واسبانيا ، وعبروا البرنيه إلى أواسط فرنسا ، هذا بينما أنفقت القبائل الجرمانية الشمالية ، أكثر من ثلاثة قرون فى افتتاح أقطار الدولة الشمالية ، ومحاولة الاستقرار فيها . وبينما قامت الدولة الإسلامية ثابتة وطيدة الدعائم ، وقامت فى جميع أقطار الخلافة حكومات محلية قوية ، ومجتمعات إسلامية مستنيرة ، وجيوش غازية منظمة ، إذا بمعظم القبائل الجرمانية غزاة رومة من الشمال ، ما يزال إذا استئنيانا مملكة الفرنج ، على حاله من البداوة والتجوال والفرق . وكان الفرنج هم قادة القبائل الجرمانية فى هذا الصراع ، الذى نشب فى سهول فرنسا ، وأذن طوره الحاسم بعبور المسلمين إلى فرنسا فى ربيع سنة ٧٣٢ م . وكان سيل الفتح الإسلامى ، ينذر باجتياح فرنسا منذ عشرين عاماً ، أعنى مذ عبر المسلمون جبال البرنيه بقيادة موسى بن نصير لأول مرة واستولوا على سبانيا ، ثم اقتحموا بعد ذلك وادى الرون وأكوتين غير مرة . ولكن مملكة الفرنج كانت يومئذ تشغل بالمعارك الداخلية ، وتقتتل حول السلطان والرياسة ، حتى ظفر كارل مارتل بمنصب محافظ القصر ، وأنفق أعواماً أخرى فى توطيد سلطانه ، بينما كان خصمه ومنافسه أودو أمير أكوتين ، يتلقى وحده ضربات العرب . فلما استفحل خطر الفتح الإسلامى ، وانساب نحو الشمال حتى بروجونية ، فزع الفرنج وهبت القبائل الجرمانية فى أوستراسيا ونوستريا لتندود عن سلطانهما وكيانهما .

وكان الخطر داهماً حقيقياً فى تلك المرة ، لأن المسلمين عبروا البرنيه عندئذ فى أكبر جيش حشد ، وأتم أهبة اتخذت منذ الفتح . وكان على رأس الجيش الإسلامى قائد وافر الهمة والشجاعة والمقدرة هو عيد الرحمن الغافقى ، وهو أعظم

= فقيه استعراض حسن لأحوال المجتمع الجرمانى فى هذا العصر ، وعرض شائق لحوادث موقعة تور .

وراجع أيضاً Zeller : Hist. de l'Allemagne, p. 67

جندى مسلم عبر البرنيه . وكان قد ظهر ببراعته فى القيادة منذ موقعة تولوشة ، حيث استطاع إنقاذ الجيش الإسلامى من المطاردة عقب هزيمته ومقتل قائده السمح ، والارتداد إلى سبانيا . وتبالغ الرواية الفرنجية فى تقدير جيش عبد الرحمن وأهفته ، فتقدره بأربعمائة ألف مقاتل ، هذا غير جموع حاشدة أخرى صحبها لاستعمار الأرض المفتوحة . وهو قول ظاهر المبالغة . وتقدره بعض الروايات العربية بسبعين أو ثمانين ألف مقاتل ، وهو أقرب إلى الحقيقة والمعقول . وقد أثارت هذه الغزوة الإسلامية الشهيرة ، وهذا الجيش الضخم ، خيال الشاعر الأوربى الحديث ، فرى الشاعر الإنجليزى سوذى يقول فى منظومته عن ردرىك آخر ملوك القوط .

« جمع لا يحصى .

« من شأم وبربر وعرب ، وروم خوارج .

« وفرس وقبط وتر عصابة واحدة .

« يجمعها إيمان ، هائم راسخ الفتوة .

« وحمية مضطربة ، وأخوة مروعة .

« ولم يك الزعماء ،

« أقل ثقة بالنصر ، وقد شمشخوا بطول ظفر

« يتهبون بتلك القوة الحارفة ،

« التى أيقنوا أنها كما اندفعت ،

« حينما كانوا بلا منازع ، ستندفع ظافرة إلى الأمام ،

« حتى يصبح الغرب المغلوب كالشرق ،

« بطأطى الرأس لإجلالا لاسم محمد ،

« وينهض الحاج من أقاصى المنجمد ،

« ليطأ بأقدام الإيمان ، الرمال المحرقة ،

« المنتثرة فوق صحراء العرب وأراضى مكة الصلدة» (١) .

ونفذ عبد الرحمن فى جيشه الزاخر إلى فرنسا ، فى ربيع سنة ٧٣٢ م (أوائل سنة ٥١٤هـ) ، واقتحم وادى الرون وولاية أكويتين ، وشتت قوى الدوق أودو ، وأشرف بعد هذا السير الباهر على ضفاف نهر اللوار . وتقول بعض الروايات

Southy : Roderic the last of the Goths (١)

الكنسية ، إن أودو هو الذى استدعى عبد الرحمن إلى فرنسا ، ليعاونه على محاربة خصمه كارل مارتل (١). ولكن هذه الرواية مردودة غير معقولة ، لما قدمنا من أن أودو هو الذى يادر إلى مقاومة عبد الرحمن ورده ، وكانت مملكته وعاصمته أول غم للمسلمين . وكان ملك الفرنج يومئذ تيودوريك الرابع ، ولكن ملوك الفرنج كانوا فى ذلك العصر أشباحاً قائمة فقط . وكان محافظ القصر كارل مارتل هو الملك الحقيقى ، يستأثر بكل سلطة حقيقية ، وعليه يقع عبء الدفاع عن ملكه وأمنه . وكان منذ استفحل خطر الفتح الإسلامى يتخذ أهفته ويحشد قواه . ولكن عبد الرحمن سار إلى قلب فرنسا قبل أن يتحرك للقائه . وترد الرواية الإسلامية هذا التجهل إلى خطة مرسومة مقصودة . فتقول فى هذا الموطن : « فاجتمعت الفرنج إلى ملكها الأعظم قارلة وهذه سمى للموكلهم ، فقالت له ما هذا الحزبى الباقى فى الأعقاب . كنا نسمع بالعرب ونخافهم من جهة مطلع الشمس حتى أتوا من مغربها ، واستولوا على بلاد الأندلس ، وعظيم ما فيها من العدة والعدد ، يجمعهم القليل وقلة عدتهم وكونهم لا دروع لهم . فقال لهم ما معناه : الرأى عندى أن لا تعرضوهم فى خرجتهم هذه ، فإنهم كالسيل يحمل من يصادره ، وهم فى إقبال أمرهم ، ولهم نيات تغنى عن كثرة العدد ، وقلوب تغنى عن حصانة الدروع ، ولكن أمهلوهم حتى تمتلى أيديهم من الغنائم ، ويتخذوا المساكن ، ويتنافسوا فى الرياسة ، ويستعين بعضهم ببعض ، فحينئذ تتمكنون منهم بأيسر أمر » (٢). ونستطيع أيضاً أن نفسر تجهل كارل مارتل بأنه كان يقصد إلى ترك خصمه ومنافسه أودو دون إغاثة ، حتى يقضى المسلمون على ملكه وسلطانه ، فيتخلص بذلك من منافسته ومناواته . وعلى أى حال فإن عبد الرحمن كان قد اقتحم أكويتين وجنوبى فرنسا كله ، حينما تأهب كارل مارتل للسير إلى لقائه . وجاء الدوق أودو بعد ضياع ملكه ، وتمزيق

(١) موسوعة Bouquet : Recueil des Historiens de la Gaule et de la France.

رواية القديس دق Vol. III, p. 310 . وراجع أيضاً موسوعة : Bayle : Dictionnaire Historique et Critique تحت كلمة Abderame

(٢) المقر عن الحجارى فى المصيب (نفع الطيب ج ١ ص ١٢٩) . ويورد الحجارى هذه الرواية بمناسبة عبور موسى بن نصير إلى فرنسا . ولكن ظاهر من أمم قارلة (كارل) أن الأمر يتعلق بالفزوة الكبيرة التى تحدث عنها ؛ وإليها ترجمها الرواية الكنسية اللاتينية . راجع : Gibbon : ibid, Ch. LII حيث يورد نفس هذه الفقرة فى كلامه عن موقعة تور .

قواته يطلب العون والنجدة من خصمه القديم أعنى كارل مارتل^(١). وكان كارل قد حشد جيشاً ضخماً من الفرنج ومختلف العشائر الجرمانية المتوحشة ، والعصابات المرتزقة فيما وراء الرين ، يمتزج فيه المقاتلة من أمم الشمال كلها ، ووجه جند غير نظاميين ، نصف عراة يتشحون بجلود الذئاب ، وتسدل شعورهم الجعدة ، فوق أكثافهم العارية . وسار زعيم الفرنجة في هذا الجيش الحرار نحو الجنوب لملاقاة العرب في حمى الهضاب والربي ، حتى يفاجئ العدو في مراكزه قبل أن يستكمل الأهبة لرده . وكان الجيش الإسلامي قد اجتاح عندئذ جميع أراضي أكويتين ، التي تقابل اليوم من مقاطعات فرنسا الحديثة جويان وبريجور وسانتونيغ وبواتو ، وأشرف بعد سيره المظفر على مروج نهر اللوار الجنوبية ، حيثما يلتقي بثلاثة من فروعه هي « الكريز » و « الفين » و « الكلين » .

ومن الصعب أن نعين بالتحقيق ، مكان ذلك اللقاء الحاسم في تاريخ الشرق والغرب ، والإسلام والنصرانية . ولكن المتفق عليه أنه السهل الواقع بين مدينتي بواتيه وتور ، حول نهري كلين وفين فرعي اللوار ، على مقربة من مدينة تور . والرواية الإسلامية مقلدة موجزة في الكلام عن تلك الموقعة العظيمة ، وليس فيما لدينا من المصادر العربية عنها أي تفصيل شامل ، وإنما وردت تفاصيل للرواية الإسلامية عن الموقعة ، نقلها إلينا المؤرخ الإسباني كوندى سنعود إليها بعد . وتفويض الرواية الفرنجية والكنسية بالعكس في حوادث الموقعة ، وتقدم إلينا عنها تفاصيل شائقة ، ولكن يحفها الريب وتنقصها الدقة التاريخية . وقد رأينا أن نحاول وصف الموقعة أولاً مما لدينا من أقوال الروائين ، ثم نعود بعد ذلك إلى ذكر كل منهما انتهى الجيش الإسلامي في زحفه إلى السهل الممتد بين مدينتي بواتيه وتور كما قدمنا ، واستولى المسلمون على بواتيه ، ونهبوها وأحرقوا كنيستها الشهيرة . ثم هجموا على مدينة تور الواقعة على ضفة اللوار اليسرى ، واستولوا عليها وخربوا كنيستها أيضاً . وفي ذلك الحين كان جيش الفرنج قد انتهى إلى اللوار ، دون أن يشعر المسلمون بمقدمه بادئ بدء ، وأخطأت الطلائع الإسلامية تقدير عدده وعدته . فلما أراد عبد الرحمن أن يقتحم اللوار ، لملاقاة العدو على ضفته اليمنى ، فاجأه كارل مارتل بمجموعه الحرارة . وألنى عبد الرحمن جيش الفرنج يفوقه في

الكثرة ، فارتد من ضفاف النهر ثانية إلى السهل الواقع بين تور وبواتيه . وعبر كارل اللوار غربي تور ، وعسكر بجيشه إلى يسار الجيش الإسلامي بأمبال قليلة ، بين نهري كلين وقيين فرعى اللوار .

وكان الجيش الإسلامي في حال تدعو إلى القلق والتوجس ، فإن الشقاق كان يضطرم بين قبائل البربر التي يتألف منها معظم الجيش ، وكانت تتوق إلى الانسحاب ناجية بغنائمها الكبيرة . وكان المسلمون في الواقع قد استصفوا ثروات فرنسا الجنوبية أثناء سيرهم المظفر ، ونهبوا جميع كنائسها وأديارها الغنية ، وأثقلوا بما لا يقدر ولا يحصى ، من الذخائر والغنائم والسبي ، فكانت هذه الأثقال النفيسة تحدث الخلل في صفوفهم ، وتثير بينهم ضروب الخلاف والنزاع . وقدر عبد الرحمن خطر هذه الغنائم على نظام الجيش وأهبطه ، وخشى مما تثيره في نفوس الجند من الحرص والانشغال ، وحاول عبثاً أن يحملهم على ترك شيء منها . ولكنه لم يشدد في ذلك خيفة التمرد . وكان المسلمون من جهة أخرى ، قد أنهكتهم غزوات أشهر متواصلة ، مذ دخلوا فرنسا ، ونقص عددهم بسبب تخلف حاميات عديدة منهم ، في كثير من القواعد والمدن المفتوحة . ولكن عبد الرحمن تأهب لقتال العدو وخوض المعركة الحاسمة بعزم وثقة .

وبدأ القتال في اليوم الثاني عشر أو الثالث عشر من أكتوبر سنة ٧٣٢ م (أو آخر شعبان سنة ١١٤ هـ) فنشبت بين الجيشين معارك محلية مدى سبعة أيام أو ثمانية ، احتفظ فيها كل معركته . وفي اليوم التاسع نشبت بينهما معركة عامة ، فاقتلوا بشدة وتعادل ، حتى دخول الليل . واستأنفا القتال في اليوم التالي ، وأبدى كلاهما منتهى الشجاعة والجلد ، حتى بدا الإعياء على الفرنج ، ولاح النصر في جانب المسلمين . ولكن حدث عندئذ أن افتتح الفرنج ثغرة إلى معسكر الغنائم الإسلامي ، وخشى عليه من السقوط في أيديهم ، أو حدث كما تقول الرواية أن ارتفعت صيحة مجهول في المراكز الإسلامية ، بأن معسكر الغنائم سوف يقع في يد العدو . فارتدت قوة كبيرة من الفرسان من قلب المعركة إلى ما وراء الصفوف لحماية الغنائم ، وتوالت كاهل من الجند للدفاع عن غنائمهم ، فدب الخلل إلى صفوف المسلمين . وعبثاً حاول عبد الرحمن أن يعيد النظام وأن يهدئ روع الجند ، وبينما هو يتنقل أمام الصفوف يقودها ويجمع شتاتها ، إذ أصابه من جانب الأعداء سهم أودى

بجياته ، فسقط قتيلاً من فوق جواده ، وعم الذعر والاضطراب في الجيش الإسلامي ، واشتدت وطأة الفرنج على المسلمين ، وكثر القتل في صفوفهم . ولكنهم صمدوا للعدو حتى جن الليل ، وافترق الجيشان دون فصل . وكان ذلك في اليوم الحادى والعشرين من أكتوبر سنة ٧٣٢م (أوائل رمضان سنة ١١٤هـ)^(١) . وهنا اضطرم الحدل والنزاع بين قادة الجيش الإسلامي ، واختلف الرأي وهاجت الخواطر ، وسرى التوجس والفرع . ورأى الزعماء أن كل أمل في النصر قد غاض ، فقررُوا الانسحاب على الأثر . وفي الحال غادر المسلمون مراكزهم ، وارتدوا في جوف الليل وتحت جناح الظلام ، جنوباً صوب قواعدهم في سبانيا ، تاركين أثقالهم ومعظم أسلحتهم غنماً للعدو . وفي فجر الغد ، لاحظ كارل وحليفه أودو سكون المعسكرات العربية ، فتقدما منها بحذر وإحجام ، فألفياها خاوية خالية إلا من بعض الحرحى الذين لم يستطيعوا مرافقة الجيش المنسحب ، فذبحوا على الأثر . وخشى كارل الخديعة والكمين فاكتفى بانسحاب العدو ، ولم يجرؤ على مطاردته ، وآثر العود بجيشه إلى الشمال .

هذه هي أصدق صورة لحوادث تلك الموقعة الشهيرة ، طبقاً لمختلف الروايات . والآن نورد ما تقوله الرواية الفرنجية الكنسية ثم الرواية الإسلامية .

أما الرواية الفرنجية الكنسية فيشوبها كثير من المبالغة والتحامل والتعصب ، وهي تصف مصائب فرنسا والنصرانية من جراء غزوة العرب ، في صور مثيرة محزنة ، وتفصل حوادث هذه الغزوة فتقول لإحداها : « لما رأى الدوق أودو أن الأمير شارل (كارل) قد هزمه وأذله ، وأنه لا يستطيع الانتقام ، إذا لم يلق النجدة من إحدى النواحي ، تحالف مع عرب اسبانيا ، ودعاهم إلى معاونته ضد الأمير شارل وضد النصرانية ، وعندئذ خرج العرب وملكهم عبد الرحمن ، من

(١) تجمع معظم الروايات الفرنجية والكنسية على أن الموقعة كانت في أكتوبر سنة ٧٣٢ م . وهذا التاريخ يوافق بالهجرية شعبان سنة ١١٤ . بيد أن الرواية الإسلامية تختلف في تحديد هذا التاريخ ؛ فالبعض يقول إنها كانت سنة ١١٥ هـ (ابن عبد الحكم ص ٣١٧ ، والضبي في بغية الملتمس رقم ١٠٢١ ، وابن عذارى في البيان المغرب ج ١ ص ٣٧ ؛ ولكنه يعود فيذكر أن الموقعة كانت سنة ١١٤ هـ - ج ٢ ص ٢٨) . ولكن ابن الأثير (ج ٥ ص ٧٤) ، وابن خلدون (ج ٤ ص ١١٩) والمقرئ عن ابن حبان (ج ١ ص ١٠٩ و ج ٢ ص ٥٦) متفقون على أنها كانت سنة ١١٤ هـ ؛ ويقول الأخير إن لها كانت في رمضان سنة ١١٤ هـ ، وهو أصح تعيين يتفق مع الرواية الغربية .

اسبانيا ، مع جميع نسايم وأولادهم وعددهم وأقواتهم ، في جموع لا تحصى ولا تقدر ، وحملوا كل ما استطاعوا من الأسلحة والذخائر ، كأنما عولوا على البقاء في أرض فرنسا ، ثم اخترقوا مقاطعة جبروند ، واقتحموا بوردو ، وقتلوا الناس ، ونهبوا الكنائس ، وخرّبوا كل البسائط ، وساروا حتى پواتيو...» (١).

وتقول أخرى : « ولما رأى عبد الرحمن أن السهول قد غصت بمجموعه ، اقتحم الجبال ، ووطئ السهول بسبطها ووعرها ، وتوغل مثنخاً في بلاد الفرنج ، وسحق بسيفه كل شيء ، حتى أن أودو حينما تقدم لقتاله على نهر الجارون وفر منهزماً أمامه ، لم يكن يعرف عدد القتلى سوى الله وحده ، ثم طارد عبد الرحمن الكونت أودو ، وحينما حاول أن ينهب كنيسة تور المقدسة ويحرقها ، التى بكارل أمير فرنج أوستراسيا ، وهو رجل حرب منذ فتوته ، وكان أودو قد بادر بإخطاره . وهناك قضى الفريقان أسبوعاً في التأهب ، واصطفا أخيراً للقتال ، ثم وقفت أم الشمال كسور منبع ، أو منطقة من الثلج لا تحترق ، وأثخنت في العرب بحد السيف . »

« ولما أن استطاع أهل أوستراسيا (الفرنج) ، بقوة أطرافهم الضخمة ، وبأيديهم الحديدية ، التى رسل من الصدر توأ ضرباتها القوية ، أن يجهزوا على جموع كبيرة من العدو ، التقوا أخيراً بالملك (عبد الرحمن) وقضوا على حياته . ثم دخل الليل ففصل بين الجيشين ، والفرنج يلوحون بسيوفهم عالية احتقاراً للعدو . فلما استيقظوا في فجر الغد ، وزأوا خيام العرب الكثيرة كلها مصفوفة أمامهم ، تأهبوا للقتال معتقدين أن جموع العدو جائمة فيها . ولكنهم حينما أرسلوا طلائعهم ، ألفوا جموع المسلمين ، قد فرت صامئة تحت جنح الليل ، مولية شطر بلادها . على أنهم خشوا أن يكون هذا الفرار خديعة يعقبها كمين من جهات أخرى ، فأحاطوا بالمعسكر حذرین دهشين . ولكن الغزاة كانوا قد فروا ، وبعد أن اقتسم الفرنج الغنائم والأسرى فيما بينهم بنظام ، عادوا معتبين إلى ديارهم » (٢) .

(١) هذه هى رواية القديس دنى **Saint Denis** - وردت في موسوعة **Bouquet** . ووردت في هذه الموسوعة أيضاً أقوال آخرين من الرواة الأحيار .

(٢) هذه هى رواية إيزيدور الباجى وهو معاصر للموقعة . راجع **Cressy : ibid , Ch. VI** وكذلك **Hodgkin , Charles the Great ; Ch. III** و **Gibbon : ibid , Ch. LII** فيها تنقل هذه التفاصيل أو تلخص .

وأما الرواية الإسلامية فهي ضئيلة في هذا الموطن كل الضن كما أسلفنا . ويمر معظم المؤرخين المسلمين على تلك الحوادث العظيمة ، بالصمت أو الإشارة الموجزة كما سنرى . غير أن المؤرخ الإسباني كوندى يقدم إلينا خلاصة من أقوال ينسبها إلى الرواية الأندلسية المسلمة^(١) ، عن غزو فرنسا وعن موقعة تور ؛ ونحن ننقلها مترجمة فيما يلي :

« لما علم الفرنج وسكان بلاد الحدود الإسبانية بمقتل عثمان بن أبي نسعة ، وسمعوا بضخامة الجيش الإسلامي الذي سير إليهم ، استعدوا للدفاع جهدهم ، وكتبوا إلى جيرانهم يلبسون الغوث . وجمع الكونت وسيد هذه الأنحاء (يريد أودو) قواته وسار للقاء العرب ، ووقت بينهم معارك سجال . ولكن النصر كان إلى جانب عبد الرحمن بوجه عام ، فاستولى تباعاً على كل مدن الكونت . وكان جنده قد نفخ فيهم حسن طالعهم المستمر ، فلم يكونوا يرغبون إلا في خوض المعارك ، واثقين كل الثقة في شجاعة قائدهم وبراعته .

« وعبر المسلمون نهر الحارون ، وأحرقوا كل المدن الواقعة على ضفافه ، وخرّبوا جميع الضياع ، وسبوا جمعاً لا تحصى ، وانقض هذا الجيش على البلاد كالعاصفة الخربة فاجتاحها ، وأذكى اضطرام الحند ، نجاح غزواتهم ، واستمرار ظفرهم وما أصابوا من الغنائم .

« ولما عبر عبد الرحمن نهر الحارون اعترضه أمير هذه الأنحاء ، ولكنه هزمه ففر أمامه وامتنع بمدينته . فحاصرها المسلمون ولم يلبثوا أن اقتحموها ، وسحقوا بسيفهم الماحقة كل شيء . ومات الكونت مدافعاً عن مدينته ، واحتز الغزاة رأسه^(٢) . ثم ساروا مثقلين بالغنائم في طلب انتصارات أخرى ، وارتجت بلاد

(١) لم نقف في أي المصادر العربية التي بين أيدينا ، على أصل هذه التفاصيل التي يقول كوندى إنه اقتبسها من للرواية العربية ، ولم يذكر هو مصدر اقتباسه . ولعله نقلها عن بعض مخطوطات الإسكوريال أو المجموعات الخاصة وقد فقدت آثارها اليوم ، كما فقدت مخطوطات كثيرة من المجموعة الأندلسية بالإسكوريال . ولعله أيضاً نقل شيئاً منها من شذور لابن حيان وابن بشكوال كانت موجودة في صدره ولم تصل إلينا . ويلوح لنا أن الجباري في كتابه « المسهب » قد تناول هذه الحوادث بالتفصيل حيث نقل المقرئ عنه شذرة تفيد ذلك . (نفتح ج ١ ص ١٢٩) ، ولعل كوندى وقف على شيء منها . حل أننا لم نعر خلال بحثنا في مجموعة الإسكوريال على أثر لمثل هذه المخطوطات أو الأوراق . راجع حديث كوندى عن مصادره : **Conde : ibid., V.I. Prologo, p. 20 & 21.**

(٢) هذا خطأ بين ، لأن الكونت أودو لم يقتل عندئذ ، بل فر إلى الشمال ، وعاد لقتال عبد الرحمن في تور كما قدمنا .

الفرننج كلها رعباً لاقتراب جموع المسلمين ، وهرع الفرننج إلى ملكهم قلدوس في طلب الغوث ، وأخبروه بما يأتيه الفرسان المسلمون من العيث والسفك ، وكأنهم في كل مكان ، وكيف أنهم احتلوا واجتاحوا كل أقاليم أربونة وتولوشة وبردال (١) وقتلوا الكونت . فهدأ الملك روعهم ووعدهم بالغوث العاجل . وفي سنة ١١٤ هـ سار على رأس جموع لاتخصي للقاء المسلمين . وكان المسلمون قد اقربوا عندئذ من مدينة تور ، وهناك علم عبد الرحمن بأمر الجيش العظيم الذي سيلقى . وكان جيشه قد دب إليه الخلل ، لأنه كان مثقلاً بالغنائم من كل ضرب . ورأى عبد الرحمن وأولوا الحزم من زملائه ، أن يحملوا الحند على ترك هذه الأثقال ، والاقتصار على أسلحتهم وخيولهم ، واكنهم خشوا التمرد أو أن يشبطوا عزائم الحند ، واستسلموا لرأى الواثقين المستهترين . واعتمد عبد الرحمن على شجاعة جنده ، وحسن طالعه المستمر . ولكن الاضطراب خطر خالد على سلامة الجيوش . نعم إن الحند يحملهم ظمأ الغم ، قد أتوا جهوداً لم يسمع بها ، فطوقوا مدينة تور ، وقاتلوا حصونها بشدة رائعة ، حتى سقطت في أيديهم أمام أعين الجيش القادم لإنقاذها ، وانقض المسلمون على أهلها كالضواري المفترسة ، وأمعنوا القتل فيهم . قالوا ، ولعل الله أراد أن يعاقب المسلمين على تلك الآثام . وكان طالعههم قد ولى .

« وعلى ضفاف نهر « الأوار » (اللوار) اصطف رجال اللغتين ، والتي المسلمون والنصارى ، وكلاهما جزع من الآخر ، وكان عبد الرحمن ثقة منه بظفره المستمر ، هو البادئ بالهجوم ، فانقض بفرسانه على الفرننج بشدة ، وقابله الفرننج بالمثل . ودامت المعركة ذريعة مروعة طوال اليوم حتى جن الليل . وفرق بين الجيشين . وفي اليوم التالي استؤنف القتال منذ الفجر بشدة ، وشق بعض مقدمي المسلمين طريقهم إلى صفوف العدو وتوغلوا فيها . ولكن عبد الرحمن لاحظ والمعركة في أوج اضطرامها ، أن جماعة كبيرة من فرسانه ، غادرت الميدان بسرعة لحماية الغنائم المكسدة في المعسكر العربي ، لأن العدو أخذ يهددها . فأحدثت هذه الحركة خللاً في صفوف المسلمين ، وخشى عبد الرحمن عاقبة هذا الاضطراب ، فأخذ يثب من صف إلى صف يحث جنوده على القتال ، ولكنه ما لبث أن أدرك أنه يستحيل عليه ضبطهم ، فارتد يحارب مع أشجع جنده حينما استقرت المعركة ،

(١) مدينة بوردو .

حتى سقط قتبلا مع جواده وقد أثنى طعناً . وهنا ساد الخلل في الجيش الإسلامي وارتد المسلمون في كل ناحية ، ولم يعاونهم على الانسحاب من تلك المعركة الهائلة سوى دخول الليل .

« وانتهز النصارى هذه الفرصة فطاردوا الجنود المهزومة أياماً عديدة ، واضطر المسلمون أثناء انسحابهم أن يحمّلوا عدة هجمات ، واستمر الصراع بين مناظر مروعة حتى أربونة .

« وقد وقعت هذه الهزيمة الفادحة بالمسلمين ، وقتل قائدهم الشهير عبد الرحمن سنة ١١٥ هـ . ثم أن ملك فرنسا حاصر مدينة أربونة ، ولكن المسلمين دافعوا عنها بشجاعة فائقة ، حتى أرغم على رفع الحصار ، وارتد إلى داخل بلاده وقد أصابته خسائر كبيرة» (١) .

وأورد المؤرخ كاردون من جهة أخرى في كلامه عن الواقعة ، فقرة ذكر أنه نقلها عن ابن خلكان جاء فيها : « لما استولى العرب على قرقشونة خشي قارله (كارل) أن يتوغلوا في الفتح ، فسار لقتالهم في الأرض الكبيرة (فرنسا) في جيش ضخم ، وعلم العرب بقدمه وهم في لودون (ليون) وأن جيشه يفوقهم بكثرة ، فعملوا على الارتداد . وسار قارله حتى سهل أنيسون دون أن يلقى أحداً إذ احتجب العرب وراء الجبال وامتنعوا بها ، فطوق هذه الجبال دون أن يدرى العرب ، ثم قاتلهم حتى هلك عدد عظيم منهم ، وفر الباقون إلى أربونة . فحاصر قارله أربونة مدة ، ولم يستطيع فتحها فارتد إلى أراضيه ، وأنشأ قلعة وادى رذونة (الرون) ، ووضع فيها حامية قوية لتكون حداً بينه وبين العرب » (٢) .

ونعود بعد ذلك إلى الرواية الإسلامية فنقول إن المؤرخين المسلمين يرون على حوادث هذه الواقعة الشهيرة إما بالصمت أو الإشارة الموجزة . ويجب أن نذكر بادئ بدء أن موقعة تور ، تعرف في التاريخ الإسلامي بواقعة البلاط أو بلاط

Coede : *ibid* , Vol. I, p. 86-88 (١)

(٢) راجع : Cardonne : *ibid* , V.I. p.129-131 . وقد بحثنا طويلاً في كتاب وفيات الأعيان لابن خلكان في مظان وجود هذه التفاصيل فلم نعثرها . ولعل كاردون وقد كتب في أواسط القرن الثامن عشر ، واستعان بمخطوطات عربية في المكتبة الملكية في باريس ، قد نقل عن نسخة لابن خلكان فيها زيادات عن النسخة التي بين أيدينا . ولسنا نعلم من جهة أخرى أن لابن خلكان مؤلفاً تاريخياً آخر يمكن أن يحتوي مثل هذه التفاصيل .

الشهداء ، لكثرة من استشهد فيها من أكابر المسلمين والتابعين . وفي هذه التسمية ذاتها ، وفي تحفظ الرواية الإسلامية ، وفي لهجة العبارات القليلة التي ذكرت بها الواقعة ، ما يدل على أن المؤرخين المسلمين ، يقدرون خطورة هذا اللقاء الحاسم بين الإسلام والنصرانية ، ويقدرون فداحة الخطب الذي نزل بالإسلام في سهول تور . ويدل على لون الواقعة الديني ما تردده الأسطورة الإسلامية ، من أن الأذان لبث عصوراً طويلة يسمع في بلاط الشهداء^(١) . ونستطيع أن نحمل تحفظ المؤرخين المسلمين في هذا المقام ، على أنهم لم يروا أن يبسطوا القول في مصاب جلل نزل بالإسلام ، ولا أن يفيضوا في تفاصيله المؤلمة ، فاكتفوا بالإشارة الموجزة ، ولم يكن ثمة مجال للتعليق أيضاً ، ولا التحدث عن نتائج خطب ، لا ريب أنه كان ضربة للإسلام ولطامع الخلافة ومشاريعها . وإذا استثنينا بعض الروايات الأندلسية التي كتبت عن الواقعة في عصر متأخر ، والتي نقلناها فيما تقدم ، فإن المؤرخين المسلمين يتفقون جميعاً في هذا الصمت والتحفظ . وهذه طائفة من أقوالهم وإشاراتهم الموجزة :

قال ابن عبد الحكم ، وهو من أقدم رواة الفتوح الإسلامية وأقرب من كتب عن فتوح الأندلس ما يأتي : « وكان عبيدة (يريد والى إفريقية) قد ولى عبد الرحمن بن عبد الله العكبي على الأندلس ، وكان رجلاً صالحاً فغزا عبد الرحمن إفريقية ، وهم أقاصى عدو الأندلس ، فغنم غنائم كثيرة وظفر بهم . . . ثم خرج إليهم غازياً فاستشهد وعامة أصحابه ، وكان قتله فيما حدثنا يحيى عن الليث في سنة خمسة عشر ومائة^(٢) . ولم يذكر الواقدي والبلاذري والطبري وهم أيضاً من أقدم رواة الفتوح شيئاً عن الواقعة . وقال ابن الأثير في حوادث سنة ثلاث عشرة ومائة مردداً لرواية ابن عبد الحكم . « ثم إن عبيدة استعمل على الأندلس عبد الرحمن ابن عبد الله ، فغزا إفريقية وتوغل في أرضهم وغنم غنائم كثيرة . ثم خرج غازياً ببلاد الفرنج في هذه السنة (أعنى ١١٣ هـ) ، وقيل سنة أربع عشرة ومائة وهو الصحيح ، فقتل هو ومن معه شهداء^(٣) . وينسب ابن خلدون الواقعة خطأ لابن الجحباب والى مصر وإفريقية فيقول : « وقدم بعده (أى بعد الهيثم) محمد

(١) المقرئ عن ابن حبان (نفع الطيب ج ٢ ص ٥٦) .

(٢) فتوح مصر وأخبارها ص ٢١٦ ٢١٧ .

(٣) ابن الأثير ج ٥ ص ٦٤ .

ابن عبد الله بن الحبحاب صاحب إفريقية فدخلها (أى الأندلس) سنة ثلاث عشرة ، وغزا إفرنجة وكانت له فيهم وقائع ، وأصيب عسكريه في رمضان سنة أربع عشرة فولى سنتين^(١) . ولدنا من الرواية الأندلسية ما قاله صاحب « أخبار مجموعة » عند ذكر ولاية الأندلس وهو : « ثم (أى وليها) عبد الرحمن بن عبد الله الغافقى ، وعلى يده استشهد أهل البلاط الشهداء ، واستشهد معهم واليهم عبد الرحمن »^(٢) . ونقل الضبي في ترجمة عبد الرحمن ما ذكر ابن عبد الحكم عن الواقعة^(٣) . وقال الحميدى وهو مؤرخ الأندلس في حديثه عن عبد الرحمن : « وعبد الرحمن المغافقى هذا من التابعين ... استشهد في قتال الروم بالأندلس سنة خمس عشرة ومائة »^(٤) . وقال ابن عذارى المراكشى : « ثم ولى الأندلس عبد الرحمن بن عبد الله الغافقى ، فغزا الروم واستشهد مع جماعة من عسكريه سنة ١١٥ ، بموضع يعرف ببلاط الشهداء »^(٥) وقال في موضع آخر : « ثم ولى الأندلس عبد الرحمن هذا (أى الغافقى) ثانية وكان جلوسه لها في صفر سنة ١١٢ فأقام والياً سنتين وسبعة أشهر وقيل وثمانية أشهر ، واستشهد في أرض العدو في رمضان سنة ١١٤ »^(٦) . وقال المقرئ فيما نقل : « ثم قدم عبد الرحمن بن عبد الله الغافقى من قبل عبيد الله بن الحبحاب صاحب إفريقية ، فدخلها (أى الأندلس) سنة ثلاث عشرة ، وغزا الإفرنجة وكانت له فيهم وقائع ، وأصيب عسكريه في رمضان سنة أربع عشرة في موضع يعرف ببلاط الشهداء وبه عرفت الغزوة »^(٧) . ونقل في موضع آخر : « وذكر أنه قتل (والإشارة هنا خطأ إلى السمع بن مالك) في الواقعة المشهورة عند أهل الأندلس بوقعة البلاط ، وكانت جنود الإفرنجة قد تكاثرت عليه ، فأحاطت بالمسلمين فلم ينج من المسلمين أحد . قال ابن حيان ،

-
- (١) ابن خلدون ج ٤ ص ١١٩ ، وفي نسبه الواقعة لمحمد بن الحبحاب خطأ بين لأن ابن الحبحاب كان عامل مصر ، ولم يندب لولاية إفريقية سوى ستة عشر ومائة . ولم يل هو أو ولده الأندلس قط (راجع ابن عبد الحكم ص ٢١٧) .
- (٢) أخبار مجموعة في فتح الأندلس ص ٢٥ .
- (٣) بغية الملتصم رقم ١٠٢٤ .
- (٤) جذوة المقتبس (طبع القاهرة) ص ٢٥٦ .
- (٥) البيان المغرب ج ٢ ص ٢٧ .
- (٦) البيان المغرب ج ٢ ص ٢٨ .
- (٧) نفع الطيب ج ١ ص ١٠٩ .

فيقال إن الأذان يسمع بذلك الموضع إلى الآن . ونقل عن ابن حيان : « قال دخل الأندلس (أى عبد الرحمن) حين ولها ولايته الثانية من قبل ابن الجحباب في صفر سنة ثلاث عشرة ومائة ، وغزا الإفرنج فكانت له فيهم وقائع جمّة إلى أن استشهد ، وأصيب عسكره في موضع يعرف ببلاط الشهداء . قال ابن بشكوال وتعرف غزوته هذه بغزوة البلاط » (١) .

هذه الفقرات والإشارات الموجزة ، التي تكاد تتفق جميعاً في اللفظ والمعنى ، هي ما ارتضت الرواية الإسلامية أن تقدمه إلينا في هذا المقام ، وإن كان في تحفظها ذاته ما ييم عن تقديرها لرهبة الحادث وخطورته وبعد آثاره . وإذا كان صمت الرواية الإسلامية تمليه فداحة الخطب الذي أصاب الإسلام في سهول تور ، فإن الرواية النصرانية تفيض بالعكس في تفاصيل الموقعة إفاضة واضحة ، وتشيد بظفر النصرانية ونجاتها من الخطر الإسلامي ، وترفع بطولة كارل مارتل إلى السماكين . وتذهب الرواية النصرانية ، ومعظم كتابها من الأخبار المعاصرين ، في تصوير نكبة المسلمين إلى حد الإغراق ، فتزعم أن القتلى من المسلمين في الموقعة بلغوا ثلاثمائة وخمسة وسبعين ألفاً ، في حين أنه لم يقتل من الفرنج سوى ألف وخمسة . ومنشأ هذه الرواية رسالة أرسلها الدوق أودو إلى البابا جريجوري الثاني ، يصف فيها حوادث الموقعة وينسب النصر لنفسه ، فنقلتها التواريخ النصرانية المعاصرة واللاحقة ، كأنها حقيقة يستطيع العقل أن يسيغها . بيد أنها ليست سوى محض خرافة ، فإن الجيش الإسلامي كله ، لم يبلغ حين دخوله فرنسا على أقصى تقدير ، أكثر من مائة ألف (٢) . والجيش الإسلامي لم يهزم في تور ولم يسحق ، بالمعنى الذي تفهم به الهزيمة الساحقة ، ولكنه ارتد من تلقاء نفسه بعد أن لبث طوال المعركة الفاصلة ، يقاتل حتى المساء محتفظاً بمراكزه أمام العدو ، ولم يرتد أثناء القتال ولم يهزم . ومن المستحيل أن يصل القتل الذريع في جيش يحافظ على ثباته ومواقفه ، إلى هذه النسبة الخيالية . ومن المعقول أن تكون خسائر المسلمين فداحة في مثل هذه المعارك الهائلة ، وهذا ما تسلم به الرواية الإسلامية . ولكن مثل هذه

(١) نفح الطيب ج ٢ ص ٥٦ .

(٢) وهذا التقدير يأخذ به بعض المؤرخين الغربيين أيضاً ، مثال ذلك المؤرخ الفرنسي

Mezerai . راجع التعليلات في موسوعة Bayle ، تحت كلمة Abderame .

الخسائر لا يمكن أن تعدو بضع عشرات الألوف في جيش لم يزد على مائة ألف . وأسطع دليل على ذلك هو حذر الفرنج وإحجامهم عن مطاردة العرب عقب الموقعة ، وتوجسهم أن يكون انسحاب العرب خديعة حربية ، فلو أن الجيش الإسلامي انتهى إلى أنقاض ممزقة ، لبادر الفرنج بمطاردته والإجهاز عليه . ولكنه كان ما يزال من القوة والكثرة إلى حد يخيف العدو ويرده^(١) . على أن خسارة المسلمين كانت بالأخص فادحة في نوعها ، تتمثل في مقتل عبد الرحمن وجمع كبير من زعماء الجيش وقادته . بل كان مقتل عبد الرحمن أفدح ما في هذه الخسارة ، فقد كان خير ولاية الأندلس ، وكان أعظم قائد عرفه الإسلام في الغرب ، وكان الرجل الوحيد الذي استطاع هيبته وقوة خلاله ، أن يجمع كلمة الإسلام في اسبانيا ، فكان لمقتله في هذا المأزق العصيب ، ضربة شديدة لمثل الإسلام ومشاريع الخلافة في افتتاح الغرب^(٢) .

ويعلق النقد الحديث على هذا اللقاء بين الإسلام والنصرانية أهمية كبرى ، وينوه بخطورة آثاره وبعد مداها في تغيير مصائر النصرانية وأمم الغرب ، ومن ثم في تغيير تاريخ العالم كله . وإليك طائفة مما يقوله أكبر مؤرخي الغرب ومفكره في هذا المقام :

قال إدوارد جيبون ، إن حوادث هذه الموقعة « أنقذت آباءنا البريطانيين وجيراننا الغالين (الفرنسيين) من نير القرآن المدنى والدينى ، وحفظت جلال رومة ، وأخرت استعباد قسطنطينيه ، وشدت بأزر النصرانية ، وأوقعت بأعدائها بذور التفرق والفسل »^(٣) . ويعتبر المؤرخ أرنولد الموقعة « إحدى هاته المواقف

(١) قال ادوار جيبون تعليقاً على مزاعم الرواية الفرنجية « ولكن تلك القصة الخرافية يمكن ردها بحذر التناقد الفرنسى (كارل مارتل) إذ توجس من شرارك المطاردة ومفاجأتها ورد حلفاءه الألمان إلى أوطانهم . ان سكون القاتح يثم عن فقد الدماء والقوة ، وأن أشنع تمزيق للعدو لا يقع حين التهام الصفوف ، وإنما حين الانسحاب وتولية الأدبار » .

(٢) راجع موسوعة Bayle تحت كلمة **Abderame** ، ففيها أيضاً إنكار للرواية الفرنجية عن خسائر العرب . وفي هذه الموسوعة تعليقات وملاحظات مفيدة لطائفة من المؤرخين الفرنسيين تجمع كلها على التنديد بمبالغة الرواية الفرنجية . وراجع أيضاً **Dom Wissette: ibid, V.I. p. 797** حيث يدحض مزاعم الروايات النصرانية .

الرهيبة لنجاة الإنسانية وضمان سعادتها مدى قرون»^(١) . ويقول السير إدوار كيريزى : « إن النصر العظيم الذى ناله كارل مارتل على العرب سنة ٧٣٢ وضع حداً حاسماً لفتوح العرب فى غرب أوروبا ، وأنقذ النصرانية من الإسلام ، وحفظ بقايا الحضارة القديمة ، وبذور الحضارة الحديثة ، ورد التفوق القديم للأمم الهندية الأوروبية على الأمم السامية»^(٢) . ويقول فون شليجل فى كلامه عن الإسلام والإمبراطورية العربية : « ما كاد العرب يتمون فتح إسبانيا حتى تطلعوا إلى فتح غاليا وبرجونية . وإيكن النصر الساحق الذى غنمه بطل الفرنج كارل مارتل بين تور وبواتيه وضع لتقدمهم حداً ، وسقط قائدهم عبد الرحمن فى الميدان مع زهرة جنده . وبذا أنقذ كارل مارتل بسيفه أمم الغرب النصرانية من قبضة الإسلام الفتاكة ، الهدامة إلى الذرورة»^(٣) ، ويقول رانكه : « إن فاتحة القرن الثامن من أهم عصور التاريخ ، ففيها كان دين محمد ينذر بامتلاك إيطاليا وغاليا ، وقد وثبت الوثنية كرة أخرى إلى ما وراء الرين . فمضى إزاء ذلك الخطر فقى من عشرة جرمانية هو كارل مارتل ، وأيد هيبه النظم النصرانية المشرفة على الفناء ، بكل ما تقتضيه غريزة البقاء من عزم ، ودفعها إلى بلاد جديدة»^(٤) . ويقول زيلر : « كان هذا الانتصار بالأخص انتصار الفرنج والنصرانية . وقد عاون هذا النصر زعيم الفرنج على توطيد سلطانه ، لا فى غاليا وحدها ولكن فى جرمانيا التى أشركها فى نصره»^(٥) . على أن هناك فريقاً من مؤرخى الغرب لا يذهب إلى هذا الحد فى تقدير نتائج الموقعة وآثارها . ومن هذا الفريق المؤرخان الكبيران سسموندى وميشليه ، فهما لا يعلقان كبير أهمية على ظفر كارل مارتل . ويقول جورج فنى : « إن أثره الكتاب الغاليين قد عظمت من شأن تغلب كارل مارتل على حملة ناهبة من عرب اسبانيا ، وصورته كانتصار باهر ، ونسبت خلاص أوروبا من نير العرب إلى شجاعة الفرنج ، فى حين أن حججاً ألقى على عبقرية ليون الثالث (إمبراطور قسطنطينية) وعزمه ، مع أنه نشأ جندياً يبحث وراء طالعاه ، ولم يكده يجلس على

History of the Roman Commonwealth (١)

Decisive Battles of the World (٢)

Philosophie der Geschichte (٣)

History of the Reformation (٤)

Histoire de L'Allemagne (٥)

العرش حتى أحبط خطط الفتح ، التي أنفق الوليد وسليمان طويلا في تدبيرها «(١) ونحن مع الفريق الأول نكبر شأن بلاط الشهداء أما إكبار ، ونرى أنها كانت أعظم لقاء بين الإسلام والنصرانية ، وبين الشرق والغرب ، ففي سهول تور وبواتيه فقد العرب سيادة العالم بأسره ، وتغررت مصائر العالم القديم كله ، وارتد تيار الفتح الإسلامي أمام الأمم الشمالية ، كما ارتد قبل ذلك بأعوام أمام أسوار قسطنطينية ، وأخفقت بذلك آخر محاولة بذلتها الخلافة لافتتاح أمم الغرب ، واخضاع النصرانية لصولة الإسلام . ولم تنجح للإسلام المتحد فرصة أخرى ، لينفذ إلى قلب أوروبا في مثل كثرته وعزمه واعتزازه ، يوم مسيره إلى بلاط الشهداء . ولكنه أصيب غير بعيد بتفوق الكلمة ، وبينما شغلت إسبانيا المسلمة بمنازعاتها الداخلية ، إذ قامت فيما وراء البرنيه إمبراطورية فرنجية عظيمة موحدة الكلمة ، تهدد الإسلام في الغرب وتنازعه السيادة والنفوذ .

الفصل السابع

الأندلس بين المد والجزر

سدى بلاط الشهداء . اهتمام الخلافة بحوادث الأندلس . تعيين عبد الملك بن قطن والياً للأندلس . مسير ابن قطن إلى الشمال . محاربه لشوار في الثغر الأعلى وبسكونية . غزوه لأكوتين . هزيمته أثناء العودة . صرامته وعزله . ولاية عقبة بن الحجاج . حزم عقبة وإصلاحاته . غزوه لمليقية . تحصينه لقواعد الثغر . غزواته في غاليس . حوادث أكوتين . عبد الرحمن اللخمي فارس الأندلس يفتز آرل . تحالف مورتنوس دوق بروفانس مع العرب . غزو القوات المتحدة لبرجونية . مهاجمة الفرنج لافنيون واستيلائهم عليها . حصار كارل مارتل لأربونة . موقعة بين العرب والفرنج . هزيمة العرب . رفع الحصار عن أربونة . استيلاء كارل على مدن سبانيا وتخريبها . عوده إلى الشمال . مسير عقبة إلى سبانيا . استرداده لآرل . غزو الفرنج واللومبارد لبروفانس . قدوم كارل مارتل . ارتداد المسلمين . هزيمة مورتنوس وتمزيق قواته . مهاجمة البشكنس لعقبة حين عبوره الجبال . وفاة عقبة . ولاية عبد الملك ابن قطن الثانية . حوادث إفريقية . سخط البربر على العرب . ذبوع الدعوة الخارجية بين البربر . موقف البربر في سبانيا . أقوال ابن خلدون في ذلك . أقوال دوزي . اضطرام البربر بمواهل الثورة . إخماد الثورة في المغرب الأقصى . ولاية إسماعيل بن عبيد الله للمغرب . عودة الثورة بزعامة ميسرة المدغرى . استيلاء الثوار على طنجة . الحرب بين العرب والبربر . مصرع ميسرة . موقعة الأشرف . ولاية كلثوم بن عياض لإفريقية . الخلاف بين زعماء العرب . مسير كلثوم إلى المغرب . استئناف الحرب بين العرب والبربر . هزيمة العرب ومقتل كلثوم . امتناع الشاميين بسبته . ولاية حنظلة بن صفوان لإفريقية . الثورة في إفريقية الوسطى . قتال حنظلة للثوار . هزيمة البربر . ومصرع زعمائهم .

كان للخطب الجلل الذي أصاب الإسلام في بلاط الشهداء وقع عظيم في بلاط دمشق . وفي جميع أرجاء العالم الإسلامي ، وكان ارتداد الإسلام أمام أسوار قسطنطينية قد وقع للمرة الثانية قبل ذلك بأربعة عشر عاماً فقط ، فكانت نكبة البلاط ثتمة الفشل المؤلم ، الذي أصاب مشاريع الخلافة في افتتاح أمم الغرب . على أنها لم تكن خاتمة الفتوح الإسلامية في فرنسا .

وأثار هذا الخطب في نفس هشام بن عبد الملك ، أما اهتمام بشتون الأندلس ومصير الإسلام في الغرب ، فاخترار غنبد الملك بن قطن الفهري والياً للأندلس ، وأمره أن يعمل على حماية شبه الجزيرة ، وتوطيد هيبة الإسلام في تلك الأقطار

النائية . فعبر عبد الملك إلى اسبانيا ، في جيش منتخب من جند إفريقية ، في أواخر سنة ١١٤ هـ^(١) . وكان ثوار المقاطعات الشمالية قد انتهزوا فرصة مقتل عبد الرحمن واخلال جيشه ، وحاولوا أن يزعوا عنهم نير الإسلام ، فسار عبد الملك إلى الثغر الأعلى (أراجون) وهزم الثوار في عدة مواقع . ثم عبر البرنيه إلى بسكونية (بلاد البشكنس)^(٢) سنة ١١٥ هـ (٧٣٣ م) ، وكانت دائماً أشد المقاطعات الجبلية مراساً ، وأكثرها خروجاً وانتقاضاً ، فعاث فيها وشتت جندها وألحاهم إلى طلب الصلح^(٣) . ثم سار إلى لانجدوك ، وكان الفرنج منذ موقعة البلاط ، يتطلعون إلى استردادها ، ويكثرون من الإغارة عليها ، فنظم حامياتها ، وحصن قواعدها . ثم أغار على أراضي أكويتين وعاث فيها ، فاعترضه اللوق أودورده ، ولم يخاطر عبد الملك بالتوغل في أرض الفرنج لصغر جيشه ، فارتد إلى الجنوب ، ولكنه أثناء عبوره جبال البرنيه ، هاجمته العصابات الجبلية البسكونية ، وأصابته في قناتها خسارة كبيرة ، فعاد إلى قرطبة دون أن يتمكن من إخضاعها .

ولم يطل عهد عبد الملك بعد عوده ، فقد كان صارماً ، شديد الوطأة ، كثير الظلم والبطش^(٤) . فسخط عليه الزعماء وأولو الرأي ، ودب الخلاف بين القبائل ، وبدأت بوادر الفتنة . هذا إلى أنه لم يوفق إلى إخماد الثورة في الولايات الشمالية ، وتوطيد سلطان الإسلام فيها ، فعزل في رمضان سنة ١١٦ لسنتين من ولايته . واختار عبيد الله بن الحبحاب عامل إفريقية ، مكانه لولاية الأندلس ، عقبه بن الحجاج السلولى . فدخلها في شوال سنة ١١٦ (أواخر سنة ٧٣٤ م) . وكان عقبه من طراز عبد الرحمن الغافقي جندياً عظيماً ، نافذ العزم والهيبة ، محمود الخلال والسيرة ، كثير العدل والتقوى^(٥) ، فأقام النظام والعدل ، ورد المظالم ، وقمع الرشوة

(١) المقر ج ٢ ص ٥٨ ، ابن الأثير ج ٥ ص ٦٤ . ولكن ابن عبد الحكم يقول إن ولاية ابن قطن كانت سنة ١١٥ هـ (ص ٢١٧) . وهذا يرجع إلى أنه يقول كما قدمنا بوقوع بلاط الشهداء سنة ١١٥ .
(٢) بسكونية أو بسكونس أو بلاد البشكنس بالعربية هي *Vasconia* القديمة ، وقد كانت تشمل الرقعة الممتدة في غرب البرنيه بجذاء الشاطئ إلى شرق الأسترياس ، وكانت أهم أجزائها في ذلك العصر ولاية نافار التي يسميها العرب أحياناً نبره ، وكانت عندئذ إمارة مستقلة يحكمها على الأرجح زعيم أو أمير قوطى ، وتشمل من مقاطعات اسبانيا الحديثة نافار وبسكايبة *Vizcaya* .

(٣) المقر ج ٢ ص ٥٨ .

(٤) المقر ج ١ ص ١١٠ ؛ وعن ابن بشكوال ج ٢ ص ٥٨ .

(٥) المقر ج ٢ ص ٥٨ ؛ والبيان المغرب ج ٢ ص ٢٨ .

والاختلاس ، وعزل الحكام الظلمة وألقاهم في غيابة السجن ، وأقام مكانهم جماعة من ذوى الحزم والنزاهة ، وأنشأ كثيراً من المدارس والمساجد . فاستقرت الأحوال وخبث الفتنة ، وتراضت القبائل . واعتزم عقبة في الوقت نفسه أن يعيد عهد الجهاد والفتوح العظيمة ، وأن يوطد سلطان الإسلام في الولايات الشمالية ، وفي غاليس (فرنسا) . فنظم الجيش وزاد في قواته وأهبطه ، وغزا جليقية وتوغل فيها ، واستولى على كثير من مواقعها ، ولكنه لم يستطع أن يسحق بقية النصارى التى اجتمعت حول الزعيم القوطى بلاى (أوبلايو) ، وما زالت معتصمة بأقاصى الجبال في شعب عرفت لمنعتها « بالصخرة » ، متحدية كل أمير وقائد مسلم^(١) . وحصن عقبة جميع المواقع الإسلامية على ضفاف نهر الرون ، واتخذ ثغر أربونة قاعدة للجهاد والغزو ، فحصنها وبعث إليها بالهند والمون والذخائر . وتقول الرواية الإسلامية إن عقبة لبث طوال حكمه الذى امتد خمسة أعوام مثابراً على الجهاد والغزو ، وأنه كان يخرج للغزو كل عام ، حتى عاد نهر الرون رباط المسلمين أو معقل فتوحاتهم^(٢) ، بعد أن كان الفرنج قد استردوا ما بيد المسلمين في تلك الأثناء . ولا تفصل الرواية الإسلامية حوادث هذه الغزوات ، ولكن الروايات الفرنجية المعاصرة تلى عليها شيئاً من الضياء ، وإليك ملخص الغزوات الإسلامية في غاليس في تلك الفترة حسبما تقصه علينا تلك الروايات :

رأى الفرنج على أثر ما أصاب المسلمين في بلاط الشهداء ، أن الفرصة قد سنحت لإخراجهم من فرنسا . ولكن كارل مارتل شغل حيناً بمحاربة القبائل الوثنية فيما وراء الرين ، في فريزيا وسكسونية ، وشغل أودو برد العرب حينما غزوا أكويتين مرة أخرى بقيادة ابن قطن . ثم توفى أودو في العام التالى (سنة ٧٣٥م) ، وتخلص كارل مارتل بذلك من منافسه القوى ، وبأدر إلى غزو أكويتين ودخل بوردو عاصمتها ، وأقام هونالد ولد أودو دوقاً مكان أبيه ، على أن تكون أكويتين تابعة للمملكة الفرنجية . وفي تلك الأثناء ولى الأندلس عقبة بن الحجاج ، وأخذ ينظم الأهبة لاسترداد الثغور الإسلامية الشمالية . وفي سنة ٧٣٥م (١١٧هـ) غزا العرب مدينة آرل للمرة الثانية ، بقيادة عبد الرحمن بن علقمة اللخمي والى

(١) البيان المغرب ج ٢ ص ٢٩ .

(٢) المشرق ج ٢ ص ٥٨ ، والبيان المغرب ج ٢ ص ٢٩ .

أربونة ، الموصوف بأنه « فارس الأندلس قى عصره » تنويهاً بشجاعته الفائقة^(١) ، واستولوا عليها . وكانت الولايات المجاورة لسبثانيا الواقعة حول ضفاف الرون ، وكلها مزيج من القوط والبرجونيين ، تنزع إلى الخروج على كارل مارتل ، وتحاول التخلص من نير الفرنج ، وكان الدوق مورنتوس أو مورنت أمير بروفانس أقوى زعماء هذه المنطقة . يحكم ما بين نهر الرون وجبال الألب ، ويسعى إلى توطيد استقلاله . وتوسيع ملكه على نحو ما كان يفعل أودوفى أكوئين ، فاتصل بالعرب وتحالف معهم . وفي سنة ٧٣٦ م عبر الدوق وعبد الرحمن اللخمي الرون في جيش مشترك ، واستولوا على مدينة أفنيون رغم حصانها^(٢) . واخترق العرب بعد ذلك إقليم دوفينه ، واستولوا على أوسيز ووثقيه وقلانس وقيين وليون وغيرها ، وغزوا برجونية وحصلوا على غنائم لا تحصى^(٣) . وعلم كارل مارتل بذلك أثناء انشغاله بالحرب في سكسونية ، فبعث أخاه شلدراند في جيش ضخم ليصد العرب . ثم لحق به جيش آخر ، وزحف الفرنج على أفنيون في كثرة وهاجموها بشدة حتى سقطت في أيديهم ، وقتلوا حاميتها المسلمة ، وتحصن العرب في أربونة ، فسار إليها كارل مارتل ، وحاصرها فقاومه المسلمون أشد مقاومة . وردوا كل هجماته . وأرسل عقبة في الحال جيشاً لإنقاذ المدينة ، فقصدتها من جهة البحر . وجاز إلى الشاطئ قبل أن يشعر به الفرنج حتى صار على مقربة من أربونة . فلما علم كارل بمقدم هذا الجيش الحديد ، بادر إلى لقائه ونشبت بينه وبين العرب موقعة هائلة ، فيما بين البحر وأربونة ، هزم فيها العرب هزيمة شديدة ، وطاردهم الفرنج حتى الشاطئ ، فلم ينج منهم سوى شراذم قليلة لحأت إلى السفن ، وذلك في ربيع سنة ٧٣٧ م (٥١١٩هـ) . ومع ذلك فلم تسلم أربونة ولم يهن عزمها . فاضطر عندئذ كارل مارتل إلى رفع الحصار عنها ، وارتد إلى مهاجمة المواقع الإسلامية الأخرى ، فاستولى على بزييه وأجده وماجلونة وخرّب قلاعها ومعاهدها ، وأحرق نيمة وآثارها الرومانية الفخمة ، فغدت جميعاً أطلالا دارسة ، بعد أن كانت أيام المسلمين زاهرة باسمة . وحول السهل الواقع غرب سبثانيا وشمالها إلى قفر بلقع ليحول دون تقدم المسلمين . وهنا وصلته الأنباء بوفاة تيودريك الرابع

(١) نفع الطيب ج ٢ ص ٥٩ و ٦٢ .

(٢) وهي في الرواية العربية « صحرة أفنيون » (راجع نفع الطيب ج ١ ص ١٢٨) .

(٣) Dom Vissette : ibid. V.I. p. 803

ملك الفرنج الميروثنجي (سبتمبر سنة ٧٣٧) ، فارتد مسرعاً إلى عاصمة ملكه ليتقى تدابير خصومه ، ولم يقيم ملكاً جديداً على العرش رغم وجود أعضاء من الأسرة الميروثنجية ، بل آثر أن يترك العرش خالياً ، حتى تمهد الظروف له أو لبنيه اعتلاءه ، وتتويج سلطان محافظ القصر الفعلي بألقاب الملك .

وفي ذلك الحين كان عقبه بن الحجاج يتأهب لاستئناف الغزو ، واسترداد ما انتزعه كارل مارتل من قواعد سبانيا . ففي ربيع سنة ٧٣٨ م (١٢٠ هـ) عبر عقبه جبال البرنيه في جيش ضخم ونفذ إلى سبانيا ، وعبر الرون واسترد مدينة آرل للمرة الثالثة أو الرابعة . ثم استولى بمعاونة اللدوق مورتنوس على أفنيون وعدة معاقل أخرى في بروفانس . وكان كارل في ذلك الحين قد عاد إلى محاربة السكسونيين ، فبعث لقتال العرب جيشاً بقيادة أخيه شلدبراند ، واستغاث بصهره وحليفه لوتراند ملك اللومبارد^(١) ، فغزا بروفانس من جهة الشرق ليضيق على قوات اللدوق ، ثم أسرع كارل إلى الرون بجيش ثالث ، وزحفت الجيوش المتحدة على مواقع المسلمين ، فاضطر عقبه إلى إخلاء بروفانس والارتداد إلى ما وراء الرون ، واستولى الفرنج أيضاً على معظم سبانيا ، ولم يبق منها بيد المسلمين سوى أربونة ، ورقعة ضيقة من الأرض على الشاطئ بين أربونة والبرنيه ، ومزقت قوى اللدوق مورتنوس ، وطارده الفرنج في شعب الجبال ، ففر ناجياً بحياته ، واستولى الفرنج على أراضيه ، واصطدم عقبه حين عبوره البرنيه إلى الأندلس بعصابات قوية من البسكونيين والقوط ، حاولت بتحريض الفرنج أن تسد دونه ممرات الجبال ، فتكبد في تمزيقها بعض الخسائر ، ولكنه ارتد بجيشه سالماً إلى قرطبة . وكان هذا اللقاء الأخير بين العرب والفرنج في سهول الرون في سنة ٧٣٩ م (١٢١ هـ)^(١) .

ثم توفي عقبه بن الحجاج بعد ذلك بقليل ، وقدمت الجماعة مكانه عبد الملك ابن قطن ، فولى الأندلس للمرة الثانية . وقيل بل ثار ابن قطن على عقبه في جمع

(١) يسمى العرب لومبارديا أنكبردة ، واللومبارد بالانكبرد ، محرقة عن التسمية القديمة لانجوبارد Langobard (راجع معجم ياقوت الجغرافي ج ١ ص ٢٦٢) ،

(٢) رجعتنا في تفصيل هذه الغزوات والوقائع إلى ما ورد في موسوعة Bonquet من أقوال الرواة والمؤرخين المعاصرين من الأخبار وغيرهم . وراجع أيضاً : Dom Vissette: *ibid* , V.I. :

كبير من أنصاره ، وكان عقبة قد ولاه على أر عزله ، قيادة الجيش في الشمال ، فلبث يتحين الفرص للخروج والثورة . فأسر عقبة وقتل ، أو أسر حتى توفي ، وانتزع ابن قطن ولاية الأندلس لنفسه ، ووقع هذا الانقلاب سنة ١٢٢ هـ (١) ، وقيل بل سنة ١٢٣ . قال الرازي : « ثار أهل الأندلس بأمرهم عقبة في صفر سنة ثلاث وعشرين ، في خلافة هشام بن عبد الملك ، وولوا عليهم عبد الملك بن قطن ولايته الثانية ، وكانت ولاية عقبة ستة أعوام وأربعة أشهر ، وتوفي بقرمونة في صفر سنة ثلاث وعشرين واستقام الأمر لعبد الملك » (٢) . وعلى أي حال فقد كان هذا الانقلاب بالنسبة للأندلس فاتحة عهد من الاضطراب والفن والحرب الأهلية المتصلة كما سرى .

ويجب لكي نعرف عوامل هذا الاضطراب ، أن نعود إلى حوادث إفريقية قبل ذلك بثلاثة أعوام أو أربعة . ففي سنة ١١٦ هـ عُين عبيد الله بن الجحباب عامل مصر والياً لإفريقية ، وقد بينا فيما سلف كيف كان البربر يضطرمون سخطاً على سادتهم العرب ، وشرحنا طرفاً من عوامل هذا السخط ، وبيننا كيف أن دعوة الخوارج ذاعت بين البربر منذ أواخر القرن الأول ، فأقبلوا على اعتناقها لما تضمنت من مبادئ الحرية والديمقراطية ، والحث على مقاتلة الغاصبين للرياسة والحكم . كذلك رأينا كيف استبسل البربر في الدفاع عن حرياتهم ، وانقضوا على القاطنين غير مرة ، وحطموا سلطانهم ، وفتكوا بقادتهم وجيوشهم ، ولم يخضعوا لغير العرب إلا بعد كفاح رائع ، استطال زهاء نصف قرن . ومع أن الأمر استتب للعرب آخر الأمر ، واستطاعوا أن يفرضوا سلطانهم ودينهم على البربر ، وأن يتخذوهم جنداً لجيوش الخلافة في الغرب ، فإن البربر لبثوا يعتبرون العرب أجنباً غاصبين لحرياتهم ، ولبثت القبائل البربرية القاصية ، تضطرم دائماً بنزعات الخروج والثورة . وكانت مثل هذه العواطف تحفز البربر في اسبانيا ، إلى محاصرة العرب والسخط عليهم والتربص بهم ، وخصوصاً لأنهم رغم قيامهم بمعظم أعباء الفتح ، لم يفوزوا بكثير من مغائمه ، واستأثر العرب دونهم بالسلطان والحكم . وفي ذلك يقول ابن خلدون : « ثم نبضت فيهم (أي البربر) عروق الخارجية

(١) البيان المغرب ج ٢ ص ٢٩ .

(٢) المقرئ عن الرازي (فتح الطيب ج ١ ص ١١٠) . راجع أيضاً عن مصير عقبة ،

فتح الطيب ج ٢ ص ٥٨ ، وابن الأثير ج ٥ ص ٩٢ ، وابن خلدون ج ٤ ص ١١٩ .

فدانوا بها ، ولقنوها من العرب الناقلة ممن سمعها بالعراق ، وتعددت طوائفهم ، وتشعبت طرقها من الإباضية والصفيرية . وفشت هذه البدعة وعقدها رؤوس النفاق من العرب ، وجرت إليهم الفتنة من البربر ذريعة الانتزاع على الأمر ، فاختلفوا في كل جهة ، ودعوا إلى قائدهم طعام البربر ، تتلون عليهم مذاهب كفرها ، ويلبسون الحق بالباطل فيها ، إلى أن رسخت فيهم عروق من غرائسها . ثم تطاول البربر إلى الفتك بأمر العرب» (١) .

ويصف دوزي موقف البربر من العرب فيما يأتي : « اعتنق البربر سكان الأكوخ الحقيرة ، كل التعاليم بحجاسة لا توصف ، ولا ريب أنهم لجهالتهم وسذاجتهم ، لم يدركوا شيئاً من تضارب المذاهب ودقائقها ، مما تدركه وتسيغه أذهان مستتيرة ، فن العبث إذاً أن نبحت عن أى الفرق كانوا يفضلون الانضمام إليها ، وعمّا إذا كانوا من الحورورية أو الصفيرية أو الإباضية ، فقد اختلف الرواة في ذلك . ولكنهم كانوا يفقهون من المبادئ . ما يسمح لهم باعتناق المبادئ الثورية والديمقراطية ، ومشاطرة الآمال الخيالية التي يذيعها فقهاؤهم في المساواة العامة ، وما يقنعهم بأن ظالمهم كانوا آثمين نصيبهم النار . ولما كان الخلفاء منذ عثمان جميعاً غاصبين غير مؤمنين . فلم يكن جريمة أن يثوروا على الظالم الذي يسلمهم أراضيهم ونساءهم . فقد كان هذا حقاً بل كان واجباً . ولما كان العرب قد أبعدهم عن السلطة ، ولم يتركوا لهم إلا ما عجزوا عن أخذه منهم ، أعنى حكم القبائل ، فقد اعتقدوا بسهولة أن نظرية سيادة الشعب ، وهي نظرية يعتنقونها في ظل استقلالهم الوحشي منذ غابر العصور ، إنما هي نظرية عريقة في الإسلام عريقة في الإيمان . وأن أقل بربري يمكن رفعه إلى العرش برأى الجماعة . وهكذا كان هذا الشعب الذي بولغ في ظلمه ، يثره متعصبون أنصاف فقهاء وأنصاف جند ، وينزع إلى رفع هذا النير باسم الله وباسم النبي . وباسم هذا الكتاب المقدس (القرآن) الذي اعتمد عليه آخرون في إقامة الطغيان الرائع» (٢) .

فلما ولي عبيد الله بن الحبحاب إفريقية ، كانت القبائل البربرية تضطرم بعوامل الثورة ولا سيما في المغرب الأقصى ، فسير عبيد الله إلى مواطن الثورة في قاصية المغرب جيشاً بقيادة حبيب بن أبي عبيدة الفهري ، فأثنى في هاتيك الأنحاء ومزق

(١) ابن خلدون ج ٦ ص ١١٠ .

(٢) Dozy : Hist. V.I. p. 149 — 150

جموع الثائرين ، وعاد مثقلاً بالغنائم والسبي ، وسادت السكينة حيناً في المغرب الأقصى . وسير ابن الحبحاب حبيباً في معظم قواته في غزوة بحرية إلى سردانية وصقلية ، وعين ولده إسماعيل والياً للمغرب الأقصى . ولكن هذه السكينة كانت ظاهراً خلباً فقط ، فقد كان البربر يتوقفون إلى الانتقام ويرقبون الفرص . وكان إسماعيل يحفزهم ويثيرهم بعسفه وسوء تصرفه ، وذاع فوق ذلك أنه ينوي أن يعتبر مسلمي البربر كالتنصاري فيثأ وغنيمة ، وأن يفرض الأخماس عليهم . فذكا الهياج واستفحل ، وانتهر البربر فرصة غياب الجيش والقادة في صقلية ، فأعلنوا الثورة والتفوا حول داعية من الخوارج الصفرية ، وهو سقاء يدعى ميسرة المدغرى ، وانقضوا على طنجة وهزموا حاميتها ، وقتلوا قائدهم عمر بن عبد الله . واستولوا عليها ودعوا للميسرة بالخلافة . ثم زحفوا على السوس وهزموا إسماعيل بن عبيد الله وقتلوه ، فقويت جموعهم واستفحل شأنهم . وذاعت الدعوة الخارجية في قفار المغرب ذبوعاً كبيراً ، واضطرب سلطان العرب في معظم النواحي . فسير ابن الحبحاب في الحال جيشاً إلى المغرب الأقصى بقيادة خالد بن حبيب ، واستدعى حبيب بن أبي عبيدة وجيشه من صقلية ، ووقعت بين خالد والبربر بقيادة ميسرة معارك شديدة غير حاسمة في ظاهر طنجة ، ثم ارتد ميسرة إلى طنجة حيناً ، واغتاله بعض أنصاره لأمر تقموها منه ، وولوا مكانه خالد بن حميد الزناتي ، وهو من بطون زناتة . فبرز لقتال العرب ثانية ، ونشبت بين الفريقين في مكان يعرف بوادي سلف ، معارك هائلة هزم فيها العرب ، وقتل خالد بن حبيب وجماعة كبيرة من الزعماء والقادة ، وسميت الموقعة لذلك بغزوة الأشراف (أوائل سنة ١٢٣ هـ)^(١) .

فلما رأى هشام بن عبد الملك عجز ابن الحبحاب عن ضبط الأمور ، استدعاه وأقاله ، واعترزم أن يخذل ثورة البربر بأى الوسائل ، فعين لولاية إفريقية كلثوم ابن عياض القشيري^(٢) ، وسيره إليها في جيش ضخم من عرب الشام ، بقيادة ابن أخيه بلنج بن بشر القشيري (جمادى الثانية سنة ١٢٣) واجتمعت إليه أثناء

(١) ابن عبد الحكم ص ٢١٧ و ٢١٨ ؛ وابن الأثير ج ٥ ص ٧٠ ؛ وابن خلدون ج ٦ ص ١١٠

(٢) هكذا يسميه ابن الأثير (ج ٥ ص ٧٠) ، وابن خلدون (ج ٦ ص ١١١) ، والمقرئ

(ج ٢ ص ٥٨) ولكن ابن عبد الحكم يسميه كلثوم بن عياض القبسي (ص ٢١٨) . وكذا بشر

ابن بلج فيسميه القيسى بدلا من القشيري (ص ٢١٩) .

مسيره قوات أخرى من مصر وطراباس ، حتى بلغ جيشه زهاء سبعين ألفاً^(١) . وكان حبيب بن أبي عبيدة قد وقف بجيشه في منتصف الطريق ، متردداً لما رآه من استفحال أمر البربر ، فاستوقفه كلثوم حتى يصل إليه . وكان حبيب وزعماء العرب في إفريقية ، يتوجسون شراً من غلبة الشاميين ، فاستقبلوا كلثوماً وبلجاً بفتور ، وأبدى بلج بالأخص جفاء وخشونة في معاملة أهل القيروان ، وثارَت بينه وبين حبيب مناقشات عاصفة ، وكاد الخلاف يضطرم بين الفريقين ، ويرتد العرب لقتال بعضهم بعضاً لولا أن غلبت الحكمة إزاء الخطر الداهم^(٢) . فسارت القوات المتحدة لقتال البربر ، وسار البربر لقتالهم من طنجة في جموع زاخرة بقيادة خالد بن حميد الزناتي ، ونسبت بين الفريقين على مقربة من طنجة في مكان يعرف بوادي سبسر ، معارك هائلة كان النصر فيها لحليف البربر ، فزق العرب للمرة الثالثة ، وقتل كلثوم وحبيب وكثير من الزعماء والقادة^(٣) . وارتدت فلول العرب إلى القيروان ، وفر بلج بن بشر ونفر من الزعماء ، منهم ثعلبة بن سلامة الحذامي وعبد الرحمن بن حبيب في بقية من جند الشام إلى سبتة ، فامتنعوا بها واستغاثوا بوالى الأندلس عبد الملك بن قطن ، ووقعت هذه النكبة في أواخر سنة ١٢٣ أو أوائل سنة ١٢٤ هـ (٧٤١ م) .

عندئذ سير هشام بن عبد الملك والى مصر ، حنظلة بن صفوان الكلبي والياً لإفريقية ، فقدمها في ربيع الثاني سنة ١٢٤ . وكانت دعوة الخوارج قد سرت أيضاً إلى إفريقية الوسطى ، بعد أن خرج المغرب الأقصى من قبضة الخلافة ، وثار البربر في كثير من النواحي . وخرج منهم في ناحية قابس زعيم يدعى عكاشة الفزاري . وخرج في غرب القيروان زعيم آخر هو عبد الواحد بن يزيد الهواري . فحشد حنظلة كل قواته ، ولقي الفزاري أولاً ، وهزمه بعد معركة عنيفة ومزق جموعه . ثم التقى بجيش عبد الواحد على مقربة من القيروان بمكان يعرف بالأصنام ،

(١) المقرئ عن ابن حيان ج ٢ ص ٥٨

(٢) ابن عبد الحكم (ص ٢١٩) ، وابن الأثير (ج ٥ ص ٧٠) وراجع أيضاً دوزى :

Hist, V.I. p. 245

(٣) يتفق ابن عبد الحكم (ص ٢٢٠) وابن الأثير (ج ٥ ص ٧١) وابن خلدون (ج ٦ ص ١١١) ، على أن كلثوم بن عياض قتل في الموقعة ، ولكن المقرئ يقول نقلاً عن ابن حيان إن فر مع بلج إل سبتة ، وعبر إلى الأندلس حيث توفي (ج ٢ ص ٥٨ - ٥٩) .

ويقال إن جموع البربر بلغت يومئذ ثلاثمائة ألف ، وبلغ العرب أربعين ألفاً فقط^(١) .
ونشب بين الفريقين قتال رائع ثبت فيه العرب ، ومزق البربر وقتلت منهم جموع
عظيمة ، وقتل عبد الواحد وأسر الفزاري وقتل بأمر حنظلة . وكانت هذه الموقعة
الشهيرة سنة ١٢٥ هـ (٨٤٢ م) .

وليس من موضوعنا أن نتبع ما تلا من الحوادث في إفريقية^(٢) ، ويكفي
أن نقول إن ثورة الخوارج لبثت على اضطرامها ، وظهر الثوار والمتغلبون في
كل ناحية ، ولبثت إفريقية عصر آخر فريسة الاضطراب والفوضى ، واضمحلت
سيادة العرب ، ثم زالت غير بعيد لتحل مكانها سيادة المستعربين من البربر
والموالي .

(١) ابن الأثير ج ٥ ص ٧١ .

(٢) يفصل ابن خلدون هذه الحوادث في ج ٦ ص ١١١ وما بعدها ، وكذلك ابن عبد الحكم
في أخبار مصر وفتوحها ص ٢٣٣ وما بعدها .

الفصل الثامن

الحرب الأهلية

صلى حوادث إفريقية في الأندلس . استغاثة الشاميين بأبن قطن ، إعراضه عن دعوتهم ، ثورة البربر في الأندلس . مفاوضة ابن قطن لباج زعيم الشاميين واستعدادهم . سير القوات المتحدة لمحاربة البربر . هزيمة البربر في شذونة وقرطبة . سحق ثورتهم . مطالبة ابن قطن للشاميين بالجلاد . ثورة بلج بن بشر وادعاؤه ولاية الأندلس . مقتل ابن قطن وولاية بلج . ثورة أمية وقطن أبني عبد الملك . الخصومة بين الشاميين والعرب المحليين . لقاء الفريقين في ظاهر قرطبة . مصرع بلج وانتصار الشاميين . ولاية ثعلبة بن سلامة . ضعف حكومة قرطبة . خروج الزعماء في مختلف النواحي . استئناف الحرب بين الشاميين وخصومهم . هزيمة ثعلبة ثم فوزه . مقدم أبي الخطار الوالى الجديد . قبضه على زمام السلطة . تفرقه للشاميين . ضمه لولاية تدمير إلى الأندلس . مطاردته للزعماء الخوارج . سكون الفتنة . تمسب أبي الخطار اليمينية . الصميل بن حاتم زعيم المضرية . ثورة المضرية والخصامية . الحرب بين الفريقين . هزيمة أبي الخطار . ولاية ثوابة بن سلامة . ثورة أبي الخطار . زحفه على قرطبة . فشله وهزيمته . الخلاف بين اليمينية والمضرية . ولاية عبد الرحمن اللخمي لشئون الحكم . الاتفاق على تولية يوسف بن عبد الرحمن الفهري .

كان لهذه الفتنة التي اضطرت في إفريقية بين العرب والبربر . وما اقترن بها من الأحداث الخطيرة ، صداها في شئون الأندلس . وكانت الأندلس تتبع يومئذ إفريقية من الوجهة الإدارية ، فكان لاضطراب الحكم في إفريقية أثره في اضطراب الحكم في الأندلس ، كما كان لثورة البربر في المغرب . أثرها في تحريك البربر في الضفة الأخرى من البحر . وقد سبق أن بينا كيف كان البربر في شبه الجزيرة الإسبانية يجيشون سخطاً على العرب . لما استأثروا به دونهم من مقام السيادة والحكم . وكيف كانت عصبية القبيل تمزق وحدة العرب أنفسهم ، وكيف كانت عوامل التنافس والتنازع ، تضطرم باستمرار بين اليمينية والمضرية . وسرى الآن كيف كان صدى هذه العوامل المختلفة قوياً بارزاً في حوادث الأندلس ، وفي اضطراب شئونها ، وتمزيق وحدتها . وكيف انحدرت الأندلس من جرائها ، إلى معترك خطر من الفتن ، والحروب الأهلية الطاحنة . والفوضى . تولى عبد الملك بن قطن الفهري إمارة الأندلس للمرة الثانية على أثر وفاة عقبة بن الحجاج سنة ١٢٢ أو ١٢٣ هـ ، وثورة البربر يومئذ على أشدها في المغرب

الأقصى . فلما هزم الجيش العربي في مفاوز طنجة للمرة الثالثة ، وقتل كلثوم ابن عياض والى إفريقية ومعظم قواده ، فر بـلـجـ بن بشر في بقية من جند الشام إلى سبتة ، وامتنع بها حسبما أسلفنا ، فطاردهم البربر وشددوا الحصار عليهم حتى جهدوا وأشرفوا على الهلاك . واستغاث بلج وزملاؤه بعبد الملك بن قطن ورجوه أن يعاونهم على العبور إلى الأندلس . وكان عبد الملك مضرراً بشهد موقعة الحرّة (١) قبل ذلك بستين عاماً ، وشهد ما ارتكبه جند يزيد في المدينة من رائع السفك والإثم ، فكان يبغض الشاميين أشد البغض ، وكان فوق ذلك يخشى مطامعهم ومنافستهم ، فأبى إغايتهم بادئ ذي بدء ، وعاقب بالجلد والقتل زعيماً من بني لحم ، أمدهم ببعض المؤن ، ولكنه من جهة أخرى خشى عاقبة تصرفه ، وأن يتهمه الخليفة بالعمل على إهلاك جنده . ولم يمض قليل حتى اضطرت له الحوادث نفسها إلى استدعاء بلج وأصحابه . ذلك أن ثورة البربر كان لها في الأندلس أكبر صدى ، فتحرك البربر في معظم الأقاليم الشمالية . وعصفت بالأندلس ريح ثورة بربرية دينية سياسية ، كتلك التي عصفت بإفريقية ، وإن كانت دونها شدة ، واضطرت الثورة بالأخص في جليقية وماردة وقورية وطليطلة ، وحشد الثوار جمعهم واختاروا لهم إماماً ، واعتزموا الزحف على طليطلة وقرطبة ثم الجزيرة ، ليمهدوا لبربر العدو سبيل القدوم إلى اسبانيا . ومعاونتهم على سحق العرب . واستطاع البربر ، وهم في عنفوان ثورتهم ، أن يهزموا كل الحملات . التي وجهها ابن قطن لإخضاعهم . وهنا ارتاع ابن قطن . وفكر في الحال أن يستعين بجند الشام المحصورين في سبتة . وهم زهاء عشرة آلاف ، فكتب إلى بلج يدعوهم إلى معاونته ، واشترط عليه للعبور إلى الأندلس . أن يغادرها متى صلحت حال جنده ، وانتهت الثورة . فقبل بلج وقدم الرهائن من أصحابه لتنفيذ هذا الميثاق . وعبر بلج وأصحابه إلى الأندلس (سنة ١٢٣ هـ) ، وقدمت إليهم المؤن والثياب . وانضموا إلى قوات ابن قطن بقيادة ولديه أمية وقطن . والتقت القوات المتحدة بالبربر أولاً في شدونة (مدينة سدونيا) فهزم البربر ، وأصاب الشاميون منهم غنائم كثيرة . ثم وقع القتال في ظاهر قرطبة مع جموع البربر الزاحفة عليها ، فهزموا أيضاً بعد مقاومة

(١) هي ضاحية المدينة الشرقية وتعرف بحرة واقم . وكانت موقعة الحرّة سنة ٦٣ هـ ، وفيها هاجم جند يزيد بن معاوية المدينة بقيادة مسلم بن عقبة المرى ، واستباحوها وقتلوا من أهلها جموعاً كبيرة ، ونهبوا الأموال ، وسبوا الذرية ، وهتكوا الأعراض ؛ وكانت من أشنع الوقائع .

شديدة ، ثم هزم البربر للمرة الثالثة ، في وادي سليط على مقربة من طليطلة ، وكانوا قد بدأوا حصارها ، وبذلك سقطت الثورة ، ومزق البربر وطوردوا في كل مكان ، وانتعش بلج وأصحابه وقويت نفوسهم واشتدت شوكتهم^(١) .
وعندئذ طالب ابن قطن بتنفيذ الميثاق وجلاء الشاميين عن الأندلس متوجساً من بقائهم . ولكن بدلًا كانت تحده أطاع أخرى ، فاطل في الجلاء وسوف ، ثم كشف القناع فجأة ، وادعى أنه أمير الأندلس الشرعى بعهد من عمه كلثوم ، وأيده في ذلك ثعلبة بن سلامة وغيره من الزعماء . ثم نادى الشاميون بخلع ابن قطن وتولية بلج ، وانحازت إليه اليمانية ، ووُثب بلج وأصحابه على ابن قطن وهو في قلة من جنده ، فقبضوا عليه بقصره بقرطبة ، وكان شيخاً قد أشرف على التسعين فلم يرحوا شيخوخته بل قتلوه وصلبوه ومثلوا بجثته ، فم الأمر بذلك لبلج بن بشر القشيري ، وتولى إمارة الأندلس في أوائل ذى القعدة سنة ١٢٣ هـ (سبتمبر سنة ٧٤١ م)^(٢) .

ولكن الفتنة لم تنته بعد . فإن أمية وقطن ابني عبد الملك فرا إلى الشمال ، وحشدا جموعهما في سرقسطة ، وأزرهما البلديون (العرب المحليون) والبربر ، وانضم إليهما جماعة من الزعماء ، الذين أنكروا فعلة بلج بعهد الملك ، مثل عبد الرحمن ابن حبيب الفهرى كبير الحند ، وكان من أنصار بلج قبل الانقلاب ، وعبد الرحمن ابن علقمة اللخمي ، حاكم أربونة « فارس الأندلس في عصره » ، وكان قوى البأس كثير الأتباع . وانقسمت الأندلس بذلك إلى معسكرين كبيرين ، معسكر الشاميين^(٣) المتغلبين على الحكم ، ومعسكر العرب والبربر المحليين الذين اعتبروا الشاميين دخلاء غاصبين ، فعظمت الفتنة واشتد الاضطراب ، وسار أمية وقطن وأنصارهما إلى قرطبة لقتال الشاميين في جيش قيل إنه بلغ نحو مائة ألف ، وتأهب بلج وأنصاره للدفاع في نحو عشرين ألفاً ، والتقى الفريقان على مقربة من قرطبة في شوال سنة ١٢٤ (أغسطس سنة ٧٤٢ م) ونشبت بينهما معارك

(١) المقرئ عن ابن حبان ج ٢ ص ٥٩ ، والبيان المغرب ج ٢ ص ٣٠ و ٣١ ، وراجع

أيضاً : Dozy : Hist. V. I. p. 163

(٢) ابن عبد الحكم ص ٢٢٠ ، وابن الأثير ج ٥ ص ٩٢ .

(٣) ويعرف هؤلاء الحند الشاميون أيضاً « بالطالعة البلجية » نسبة إلى زعيمهم بلج (ابن

الأبار في الحلة السراء - ليدن - (ص ٥١) .

شديدة ، وأبدى الشاميون شجاعة وجلداً . ولكن عبد الرحمن اللخمي صمم على قتل بلج ، فحمل بجند أربونة على الشاميين ، وشق بينهم طريقاً إلى مكان بلج ، وأثنه طعناً توفي منها بعد أيام . ومع ذلك فقد انتصر الشاميون على البلديين انتصاراً باهراً فارتدوا منهزمين . وعاد الشاميون ظافرين إلى قرطبة ، وقدموا عليهم ثعلبة بن سلامة العاملي ، وكان من أصحاب بلج الذين عبروا معه إلى الأندلس كما قدمنا . فتولى إمارة الأندلس ، وقيل في إمارته ما قيل في إمارة بلج ، من أنه وليها بعهد من الخليفة ، أو من كلثوم والى إفريقية يليها بعد بلج ، وكانت ولايته في شوال سنة ١٢٤^(١) . فقبض ثعلبة على زمام الأمور بحزم ، وحاول أن يضبط النظام والأمن ، وأبدى كثيراً من اللين والاعتدال ، ولكن سلطان الحكومة المركزية كان قد تضعف ، وانقسمت الأندلس إلى مناطق عديدة للنفوذ ، ولبثت الغلبة في الأقاليم الوسطى والشمالية ، لجماعة من الزعماء الخارجين على حكومة قرطبة ، مثل أمية وقطن ابني عبد الملك ، وعبد الرحمن بن حبيب الفهري ، وعبد الرحمن اللخمي حاكم أربونة ، واستمر يوازر هذا الفريق سواد العرب المحليين والبربر . ولم تمض أشهر قلائل حتى اضطرت الحرب مرة أخرى بين الفريقين المتنازعين ، ونشبت بينهما مواقع عديدة على مقربة من ماردة ، فهزم الشاميون أولاً واعتصم ثعلبة بقلعة ماردة ، ولكنه عاد ففكر على خصومه وهزمهم هزيمة شنيعة ، وأسر وسبي منهم جموعاً كبيرة ، وعاد ظافراً إلى قرطبة ، وقرر إعدام الأسرى ليلقى على خصومه درساً قاسياً . ولكنه قبل أن يتمكن من تنفيذ عزمه ، قدم إلى قرطبة حاكم جديد للأندلس ، هو أبو الخطار حسام بن ضرار الكلبي ، بعثه حنظلة بن صفوان والى إفريقية ، إجابة لجماعة من زعماء الأندلس ، خشوا عواقب الفتنة ، وما قد تؤدي إليه من استظهار نصارى الشمال . وإغارتهم على الأراضي الإسلامية^(٢) ، وقيل إن الذي اختار أبا الخطار لولاية الأندلس ، هو هشام بن عبد الملك^(٣) . اختاره قبيل وفاته بقليل ، إذ توفي في ربيع الثاني سنة ١٢٥ . وقدم أبو الخطار إلى الأندلس

(١) البيان المغرب ج ٢ ص ٣٢ و ٣٣ ؛ ونفح الطيب ج ٢ ص ٥٩ و ٦٠ ؛ وابن الأثير

ج ٥ ص ٩٥ .

(٢) ابن عبد الحكم ص ٢٢١ ؛ وأخبار مجموعة ص ٤٥ ؛ وابن الأبار في الحلة السواء

ص ٤٦ ؛ وكذلك Dozy: Hist, V. I. p. 168

(٣) ابن الأثير ج ٥ ص ١٠٠ ؛ وابن الأبار ص ٤٨ .

في رجب ، ولم يكن مضى على ولاية ثعلبة سوى عشرة أشهر . فقبض في الحال على زمام السلطة . وأفرج عن جموع الأسرى والسبايا ، التي اعتزم أن يزهقها وينكل بها ثعلبة ، واهتم برد السكينة والنظام ، وإخماد شوكة الزعماء الخارجين ، ففرق الشاميين في مختلف الكور تمزيقاً لعصبتهم ، وأنزل جند الشام بإلبيرة (غرناطة) ، وجند حص بإشبيلية ولَبْلَة ، وجند فلسطين بشذونة والحزيرة ، وجند الأردن بريته . وجند قنسرين بجيان ، وجند مصر بعضهم في أكشونة وباجة والبعض في تدمير . ونذكر أن ولاية تدمير (مرسية) كانت قد تركت عند الفتح لصاحبها تيودمير ، وفقاً للمعاهدة التي عقدت بينه وبين عبد العزيز بن موسى^(١) ، ولكن تيودمير كان قد توفي ، وخلفه في حكم الولاية ولده أثنانجلد . واعتبر أبو الخطار أن نص المعاهدة ، كان قاصراً على تيودمير ، وأنه لا يسرى على خلفائه ، وطالب أثنانجلد بتأدية الجزية لحكومة قرطبة ، وأنزل جند مصر قسراً بقواعد تدمير ، وأقطعهم أراضيها ، وبذلك فقد القوط آخر معاقلمهم الحرة في الجنوب ، وضمت تدمير إلى باقي ولايات الأندلس ، تحت سلطان الحكومة المركزية^(٢) . وتبع أبو الخطار الزعماء الخارجين ، فقبض على ثعلبة ونفاه إلى إفريقية مع نفر من زملائه ، وأعلن أمية وقطن ابنا عبد الملك الطاعة ، ونفاهما مع أبي الخطار ، فولاهما الحكم في بعض الولايات الشمالية . أما عبد الرحمن بن حبيب فاستطاع أن يتقى المطاردة وفر إلى تونس ، وهناك أقام حيناً يرقب الحوادث ، حتى سنحت له فرصة الوثوب وانزاع إمارة إفريقية من حنظلة ابن صفوان على ما سيجيء . وأما عبد الرحمن اللخمي فلبث مستقلاً برباط الثغر في أربونة وما جاورها .

وسلك أبو الخطار في البداية سبيل الحزم والاعتدال ، وسوى بين جميع القبائل في المعاملة ، فرضي الجميع واجتمعت الكلمة على تأييده وطاعته ، وسكنت الفتنة واستقر النظام حيناً . ولكن نزعة العصبية ما لبثت أن حملته كما حملت أسلافه من قبل ، فال إلى قومه الجمانية ، وتذكر لخصومهم من المضرية ، واضطربت الأحقاد

(١) أوردنا نص هذه المعاهدة في ص ٥٦ و ٥٥ من هذا الكتاب . وراجع في توزيع القبائل على

الكور ، ابن الأبار في الحلة السيرة ص ٤٦ . وكذلك : Conde : ibid, V.I. p. 112

(٢) Conde:ibid, quot Isodorus, V.I. p. 112 (note) وكذلك Aschbach: ibid.

والمنافسات القديمة . وحدث أن اعتدى أبو الخطار على زعيم من زعماء المضرية بالإهانة والضرب لأنه تدخل لحماية رجل من بني قومه . وهذا الزعيم هو الصمّيل ابن حاتم بن شمر الكلابي ، وجده شمر بن ذى الجوشن من أشرف الكوفة ، وكان قد اشترك في قتل الحسين بن علي في كربلاء ، ثم نزع بأسرته إلى الشام خيفة الانتقام ، فلما ولي كلثوم بن عياض القشيري حكم إفريقية . كان الصمّيل ابن أشرف الشام الذين انتظموا في جيش بلج القشيري ، ثم جازوا معه إلى الأندلس^(١) . وكان الصمّيل فارساً شجاعاً وزعيماً ذا نجدة ، يلتف حوله المضرية وبعض اليمنية ، من خصوم أبي الخطار ومنافسيه مثل جذام ولحم . فلما اعتدى أبو الخطار عليه بعث إلى قومه في مختلف الأنحاء ، وأيدته المضرية وحلفاؤهم في الخروج ، وتفاهم مع باقي الزعماء الناقمين على أبي الخطار ، ومنهم ثوابة بن سلامة الحذامي زعيم جذام . وكان يمينياً ولكنه كان يحقد على أبي الخطار . لأنه عزله عن ولاية إشبيلية . وتكفل ثوابة بمحاربة أبي الخطار ، وقدمته المضرية ، وزحف بمجموعه على قرطبة ، فلقبه أبو الخطار بقواته في شذونة على ضفاف وادي لكه في رجب سنة ١٢٧ . ونشبت بين الفريقين معارك شديدة انتهت بهزيمة أبي الخطار وأسرته ، ودخل ثوابة قرطبة وارتضته المضرية أميراً للأندلس مكان أبي الخطار ، ووافق عبد الرحمن بن حبيب الفهري أمير إفريقية على هذا الاختيار . وكان قد استطاع في تلك الفترة أن ينتزع ولاية إفريقية من حنظلة بن صفوان . ولكن أبا الخطار استطاع أن يفر من سجنه بمعونة نفر من أصدقائه . فذهب إلى باجة وحشد جموعه ، وقصد إلى قرطبة ، فلقبه الصمّيل في المضرية وثوابة في أنصاره من اليمنية ، ووقعت بينهما معركة غير حاسمة . وعندئذ دعا بعض اليمنية من فريق ثوابة إلى وقف القتال ، ونعى على أنصار أبي الخطار أنهم يقاتلون ثوابة ، مع أنه يمني منهم ، وقد عفا عن أبي الخطار وعف عن دمه حين كان في قبضته ، فأحدثت هذه الدعوة أثرها ، وانفض عن أبي الخطار جنده . واضطر أن يعود إلى باجة وهناك لبث ينتظر مجرى الحوادث^(٢) .

ولم يمض سوى قليل حتى توفي ثوابة في أوائل سنة تسع وعشرين ومائة .

(١) ابن الأبار في الحلة السيرة ص ٤٩ ؛ والمقرئ عن ابن حبان في فتح الطيب ج ٢ ص ٦٢ .

(٢) المقرئ ج ٢ ص ٦٠ و ٦١ ، وابن الأثير ج ٥ ص ١٢٦ ، والبيان المغرب ج ٢

بعد أن حكم الأندلس زهاء عام ونصف . وهنا نشب الخلاف بين الزعماء والقبائل
كرة أخرى ، وأصرت العنية على أن يكون الأمير منهم خلفاً لأمرهم المتوفى ، وأصر
الصميل أن يكون الأمير من المضربية ، واشتد النزاع بين الفريقين . ووقعت
بينهما مصادمات ومعارك عديدة ، ولبت الأندلس بضعة أشهر دون أمير رسمي ،
وتولى الأحكام فيها عندئذ عبد الرحمن بن كثير اللخمي باتفاق الفريقين . ولما تفاقم
الخلاف ، وخشى الزعماء عاقبة الفتنة والحرب الأهلية ، اتفقوا على تولية يوسف
ابن عبد الرحمن الفهري أحد زعماء المضربية ، فولى إمارة الأندلس في ربيع الثاني
سنة ١٢٩ (يناير ٧٤٧ م) دون مصادقة أو مراجعة من دمشق أو إفريقية .
وكانت حكومة دمشق قد اضطربت يومئذ شتونها ، وأخذت نذر السوء تبدو
في الأفق ، وشغلت الخلافة الأموية بما يهددها من خطر داهم على سلطانها ،
وضعف إشراف الحكومة المركزية على الولايات النائية ، فاستقلت إفريقية
والأندلس كل بشونها ، حتى يستبين المصير ، وتستقر الأمور :

الفصل التاسع

خاتمة عصر الولاة

أصل يوسف الفهرى . عبد الرحمن بن حبيب واستيلاؤه على إفريقية . استئثار يوسف بالسلطة . تمركز اليمينية . خروج أبي الخطار وابن حريث . التقاء المضرية واليمينية في شقندة . هزيمة اليمينية ومقتل زعمائها . استقرار الأمر ليوسف والصيل . ولاية الصميل لسرقسطة . إصلاحات يوسف الإدارية والمالية . تقسيم اسبانيا الجديد . إصلاحه للجيش . إرساله جيشاً إلى الشمال . ثورة البشكنس والقوط . استيلاء الفرنج على المواقع الإسلامية في سبتانيا . اضطراب أمر الخلافة في المشرق . سحق الزعماء على يوسف والصيل . عبد الرحمن اللخمي فارس الأندلس . محاولته الخروج ومصرعه . الثورة في إشبيلية وسحقها . ثورة عروة بن الوليد في باجة . استيلاؤه على إشبيلية . هزيمته ومصرعه . ثورة المضرية واليمينية بقيادة عامر العبدري . فراره إلى الشمال وتحالفه مع الحباب الزهرى وتميم الفهرى . محاصرة الثوار للصيل في سرقسطة . هزيمة الصميل واستيلاء الثوار على سرقسطة . إعدام عامر لولاية الأندلس . ولاية الصميل لطليلة . سير يوسف إلى سرقسطة واستيلاؤه عليها . أسر زعماء الثورة ومصرعهم . اجتماع يوسف والصيل في طليطلة . الإخطار بمقدم عبد الرحمن الأموى . سيره إلى قرطبة . بين ملك الفرنج وأزيموند أمير القوط يحاصران أربونة . القتال بين بين وأمير أكوطين . مصرع أنزيموند . خيانة النصارى في أربونة . سقوطها في يد الفرنج . انتهاء سيادة الإسلام فيما وراء البرية . نصارى الشمال . امتناعهم بهضاب جليقية . إغارتهم على الأراضى الإسلامية . نمو المملكة النصرانية .

ويجب أن نقف قليلاً عند شخصية يوسف بن عبد الرحمن الفهرى هذا ، الذى اختارته « الجماعة » والياً للأندلس ، واستقل بولايتها زهاء عشرة أعوام ، وكان آخر هذا الثبت من أمرائها ، وعلى يده انتقلت إلى عهد جديد ، ودولة جديدة . فعظم الروايات على أنه ولد عبد الرحمن بن حبيب بن أبي عبيدة بن عقبة بن نافع الفهرى فاتح إفريقية . ويؤيد هذا القول من مؤرخى الأندلس ابن القوطية ، وابن حزم ، والرازى ، وابن الفرضى . ولكن ابن حيان يرتاب في هذه النسبة ويقول لنا لأنه لم يقف على ما يؤيد بنوة يوسف لعبد الرحمن بن حبيب ، أو صلته بهذا الفرع^(١) . بيد أن اتفاق معظم مؤرخى الأندلس ، ولا سيما المتقدمين منهم

(١) نقل ابن الأبار في الحلة السيرة أفعال ابن القوطية وابن حيان وابن حزم في هذه النقطة - الحلة السيرة ص ٥٣ و ٥٤ - وراجع أفعال ابن الفرضى والرازى في نفع الطيب ج ٢ =

على صحة هذه النسبة يجعلها في نظرنا أقوى وأرجح . وإذن فيوسف بن عبد الرحمن خاتمة ولاية الأندلس هو ولد عبد الرحمن بن حبيب ، الذي تتبعنا أخباره فيما تقدم خلال الحروب الأهلية ، التي اضطرت منذ قدوم بلج القشيري إلى شبه الجزيرة . وقد أسلفنا أنه فر إلى تونس اتقاء لنقمة أبي الخطار ، وهناك لبث برقب الحوادث مدى حين ، فلما جاءت الأخبار إلى إفريقية بمقتل الخليفة الوليد بن يزيد بن عبد الملك (في جمادى الآخرة سنة ١٢٦) ، رأى عبد الرحمن الفرصة سانحة للعمل ، فدعا أنصاره وحشد جموعه لقتال حنظلة بن صفوان والى إفريقية ، وزحف على القيروان ، وخشى حنظلة عاقبة الفتنة ، فانسحب مع أصحابه إلى الشام دون قتال ، ودخل عبد الرحمن القيروان (سنة ١٢٧ هـ) وأعلن ولايته لإفريقية ، وأيدته المضرية ، وبعث إلى الثغور عمالاً من أقاربه وأنصاره . ولم يختار يزيد بن الوليد ، الذي ولى الخلافة عقب مقتل أبيه ، والياً لإفريقية نزولاً على حكم الواقع . فلما خلفه مروان بن محمد بعد ذلك بأشهر ، كاتبه عبد الرحمن وهاداه وأظهر له الطاعة فأقره على ولايته^(١) . ولبث عبد الرحمن مستقلاً بحكم إفريقية أكثر من عشرة أعوام ، وفي عهده وقعت بإفريقية ثورات وقلائل كثيرة ، فأخذها جميعاً وغزا صقلية وسردانية . ولما دالت دولة بني أمية أعلن الطاعة لبني العباس ، ودعا لهم بإفريقية . ولكنه لم يلبث أن قتل غيلة في شهر ذى الحجة سنة ١٣٨ (٧٥٥ م) . وأما ابنه يوسف فقد فر منه مغضباً لأمره نقمها عليه ، ودخل الأندلس يبحث وراء طالعه في حوادثها ، وكان مثل أبيه فارساً هماماً وخطيباً مفوهاً^(٢) . فلم يلبث أن ظهر بين أنجاد المضرية وسادتهم ، ولازم الصميل وصادقه حتى عظم نفوذه ، وانتهى بأن ظفر بإمارة الأندلس في ربيع الثاني سنة ١٢٩ ، وهو يومئذ في السابعة والخمسين من عمره .

وكانت مصابيح الخلافة الأموية تهتز يومئذ في يد القدر ، وقد شغلت بما يواجهها من خطر الفناء الداهم عن حوادث الأندلس ، فلم تحاول تدخلا أو اعتراضاً على ما يحدث في ذلك القطر النائي ، ولم يكن يوسف بحاجة إلى مصادقة أو مراجعة .

= ص ٦١ . ويقر ابن عذارى هذه النسبة أيضاً (البيان المغرب ج ٣ ص ١٠٧) وكذلك صاحب أخبار مجموعة (ص ٢١) .

(١) البلاذري في فتوح البلدان ص ٢٢٣ .

(٢) فتح الطيب (عن الرازي) ج ٢ ص ٦١ ، وابن الأبار في الحلة السيرة ص ٥٥ .

وكان المتفق عليه بين اليمنية والمضرية أن يتعاقبا في الولاية فيمكث يوسف عاماً فقط ثم يُرد الأمر إلى اليمنية^(١). ولكن المضرية وعلى رأسهم الصميل مرجع الزعامة والأمر يومئذ، لم يفكروا بلاريب في تمكين اليمنية من الرياسة بأى الصور، وكذلك لا ريب في أن يوسف بن عبد الرحمن لم يفكر بعد أن ظفر بالإمارة أن ينزل عنها طائعاً مختاراً، بل بادر منذ البداية إلى استخلاص جميع السلطات لنفسه، ففزع ولاية ربه من يحيى بن حريث الحذامى أحد الزعماء اليمنية، وكان ينافسه ويعارض إمارته، فأقطع ربه ثمناً لموافقته. فلما نزعته منه ربه ثار قومه من اليمنية والتفوا حوله. وهنا أيضاً ظهر أبو الخطار الأمير المعزول على مسرح الحوادث، وكان يقيم كما قدمنا في باجة، بغرب الأندلس. فلما علم بتولية يوسف وخروج ابن حريث، تحرك للعمل، وفاوضه ابن حريث ولكنهما لم يتفقا، إذ أصر كل منهما على ترشيح نفسه للإمارة، بيد أنهما اجتمعا على قتال يوسف ابن عبد الرحمن، وحشد كل منهما جموعه من الفريق الذى يؤازره، وزحفا على قرطبة. وحشد يوسف والصميل جموع المضرية، وبالغ كل فريق فى الأهبة، والتقى أخيراً فى شقندة بالقرب من قرطبة (سنة ١٣٠ هـ - ٧٤٧ م) ونشبت بينهما موقعة هائلة تبلغ فى روعتها الرواية الأندلسية، إذ تقول لنا: «إنه لم يك بالمشرق ولا بالمغرب، حرب أصدق منها جلاباً ولا أصبر رجلاً، طال صبر بعضهم على بعض إلى أن فى السلاح، وتحاذبوا بالشعور، وتلاطموا بالأيدى، وكل بعضهم عن بعض»^(٢). واستمر القتال حيناً بحالا بين الفريقين، ثم داهمت المضرية ذات يوم جموع اليمنية على غرة، فأوقعت بها، وأسر أبو الخطار وابن حريث وكثير من أصحابهما، وقتلوا جميعاً بأمر الصميل، وجردت اليمنية من زعمائها، واستقر الأمر ليوسف، ولكنه كان يخشى الصميل، لأنه كان بنفوذ وكثرة عصبته، يقبض على ناصية الموقف، فرأى أن يبعده عن قرطبة، وأقطعه ولاية سرقطسة وأعمالها، فسار الصميل إلى سرقطسة واستقل يوسف بالأمر. ونشط يوسف إلى ضبط النظام، وإصلاح الشئون فى ظروف صعبة. وكانت السلطة المركزية قد اضمحلت، وهبت ريح الفتنة من كل صوب.

(١) ابن الأثير ج ٥ ص ١٨٣.

(٢) المقرئ عن ابن حيان ج ٢ ص ٦١.

واستقل كثير من العمال بالنواحي ، وتحرك النصارى فى الولايات الشمالية ، وعصف القحط فوق ذلك بالأندلس سنة ١٣٣ هـ (٧٥٠ م) ، واستطال زهاء عامين ، فأجدبت السهول والوديان ، وأمحلت الزراعة ، وفنك الجوع بالمدن والقرى ، وهبطت عندئذ على شواطئ الأندلس عصابات بحرية ناهبة كثيرة من أمم الشمال ، وعانت فى الشواطئ والثغور والمدن القريبة^(١) . ولكن يوسف أبدى فى مغالبة هذه الصعاب والحن همة فائقة ، فطاف بالأقاليم وعزل الحكام العابثين ، وقمع المظالم والفوضى ما استطاع ، وأصلح الطرق الحربية ، لتكون ممهدة لحملاته حينما اضطر إلى الحرب ، وعدل نظام الضرائب فاقضى ثلث الدخل من كل ولاية ، ولكنه أمر بمراجعة السجلات القديمة ، واستبعاد الأموات منها ، وكانت الضرائب ما تزال تجبي طبقاً للإحصاء القديم ، فكان فى ذلك إرهاباً للسكان ، لأن عددهم تناقص منذ الفتح ، فقرر يوسف أن تجبي الضرائب عن الأحياء فقط ، وأسقطها عن توفوا ، واكتسب بذلك عطف كثير من النصارى^(٢) . وأعاد يوسف أيضاً تنظيم الأقاليم الإدارى ، فقسم اسبانيا إلى خمس ولايات كما كانت أيام القوط ، وكما قسمت عند الفتح مع تعديل فى حدودها ، فأصبحت كما يأتى : ولاية الأندلس وهى ولاية « باطقة » Baetica القديمة ، وتقع بين نهر وادى يانة والبحر الأبيض المتوسط ، وأشهر قواعدها قرطبة ، وقرمونة ، وإستجة ، وإشبيلية ، وشذونة ، ولبلة ، ومالقة ، وإلبيرة ، وجيان . وولاية طليطلة ، وهى ولاية قرطاجنة القديمة ، وتمتد من جبال قرطبة فى شمال شرقى ولاية الأندلس حتى نهر دويره (الدورو) ، وجبال وادى الحجارة شمالاً ، وأشهر قواعدها طليطلة ، ومرسية ، ولورقة ، وأوريولة ، وشاطبة ، ودانية ، ولقنت ، وبلنسية ، وشقوبية ، ووادى الحجارة ، وقونقة . وولاية ماردة وهى ولاية أوجدانيا أو جليقية القديمة ، وتمتد فيما وراء نهر وادى يانة شرقاً حتى المحيط ، وأشهر قواعدها ماردة ، وباجة ، وأشبونة ، وأسترقة ، وسمورة ، وشامنقة . وولاية سرقسطة ، وهى ولاية كانتبريا القديمة ، وتمتد من منابع نهر التاجه شرقاً ، على ضفتى نهر إيبرو حتى

(١) إيزيدور الباجى . راجع : Aschbach : ibid, V.I. p. 102 ، وكذا البيان المغرب

ج ٢ ص ٢٨

(٢) Conde : ibid, V.I. p. 121 - Aschbach, quot. Isidorus, ibid. V.I. p. 101

جبال البرنيه وبلاد البشكنس ، وأشهر قواعدها سرقسطة ، وطركونة ، وجيرنده ،
وبرشلونة ، وأرقلة ، ولارده ، وطرطوشة ، ووشقة . ثم ولاية أربونة وهي
ولاية الثغر ، وتقع شمال شرقي جبال البرنيه حتى البحر ، وتشمل مصب نهر الرون ،
وأشهر قواعدها أربونة ، ونيمة ، وقرفشونة ، وأجدة ، وبزيه ، وماجلونة^(١) .
وعنى يوسف بتنظيم الجيش وإصلاحه أشد عناية ، وحشد قوات جديدة
ليستطيع قمع الثورة في الداخل وحماية الحدود الشمالية ، وسير إلى الشمال جيشاً
بقيادة ولده محمد أبي الأسود ، وسليمان بن شهاب ، والحصين العقيلي . وكان
النصارى قد انتهزوا فرصة الاضطراب الداخلي ، وأغاروا على الأراضى الشمالية ،
واستولوا على كثير من القلاع والحصون ، ووصلوا في تقدمهم حتى ضفاف نهر
دويره (الدورو) . وثار البشكنس والقوط فيا وراء البرنيه واستدعى أميرهم الكونت
آنزيموند ، ملك الفرنج بين الملقب « بالقصير » لمحاربة المسلمين ، وكان آنزيموند
هذا من نبلاء القوط ، فانتهاز فرصة اضطراب الحوادث في اسبانيا ، واستولى
على قواعدها سبانيا المسلمة ، وهي نيمة وأجدة وماجلونة وبزيه وما حولها ، وأنشأ
منها مملكة صغيرة ، والتف حوله السكان النصارى ، واستطاع بموازررة الزعماء
المحليين ، أن يقضى على سلطان المسلمين في تلك الأنحاء . ولكنه رأى أنه لا يستطيع
الاحتفاظ بمملكته الصغيرة ، والعرب على مقربة منه في أربونة أقوىاء يخشى
بأسهم ، وكذلك توجس شراً من جاره أمير أكويتين ، إذ كان يطمح إلى ضم هذه
الأراضى إلى أملاكه ، فلم ير خيراً من الانضواء تحت لواء ملك الفرنج بين ،
واستدعائه لمعاونته^(٢) .

وكان بين قد خلف أباه كارل مارتل كمحافظ للقصر الفرنجى ، ولكنه لم
يلبث أن قبض على مليكه شلدريك الثالث آخر الملوك المير وفنجية ، وزج به إلى
ظلام الدير ، وانزع العرش لنفسه (٧٥١ م) . فلما استدعاه آنزيموند ، استجاب
لدعوته ، ورحب بتلك الفرصة ليم ما بدأه أبوه من إجماء المسلمين عن غاليس ،
وغزا لانجدوك ، وهاجم المواقع الإسلامية مع حليفه آنزيموند ، وفكك بالمسلمين
في تلك الأنحاء (٧٥٣ م) . وقاومته الحميات الإسلامية أشد مقاومة ، ولكنها
لم تثبت طويلاً لعزلتها ، وحرمانها من كل معاونة ومدد ، واستولى الفرنج على تلك

(١) سبق أن أشرنا إلى تقسيم اسبانيا الإدارى الذى أورده البكرى ، راجع الهامش فى ص ٧٠

Dom Vissette : ibid, V. I. p. 822 (٢)

القواعد والمعاقل كلها خلا أربونة ، فإنها لبثت بيد المسلمين أعواماً أخرى . ولم يستطع الجيش الذى سيره يوسف إلى الشمال ، أن يحقق الغاية المنشودة ، بل رد بخسارة فادحة وقتل قائده سليمان بن شهاب ، ونجا الحصين العقيلي وفرسانه بصعوبة^(١) . وترك الشمال لمصيره ، واستغرقت الثورات والحروب الداخلية اهتمام يوسف وكل نشاطه وموارده .

ذلك أن الأحقاد والمنافسات القديمة التى هدأت حيناً بتولية يوسف ، عادت فاضطربت حين استأثر يوسف وحليفه الصميل بكل سلطة وولاية ، وكان المفهوم أن ولاية يوسف لإمارة الأندلس إنما هى حل مؤقت لحالة طارئة حتى يأتى الأمير الشرعى الذى يختاره الخليفة ، ولكن الخلافة الأموية لقيت مصرعها غير بعيد (١٣٢هـ - ٧٥٠م) ، وتفاقم الاضطراب الذى سرى إلى شئون إفريقية والأندلس قبل ذلك بأعوام ، وأصبح تراث الخلافة الأموية نهباً مباحاً لكل طامع ومتغلب . وكان بالأندلس عدة من الزعماء النابهن ذوى الجاه والعصبية ، ينقمون من يوسف والصميل استئثارهما بالسلطة ، ويرى كل منهم أنه أولى بها وأجدر ، وكان يوسف يعمل من جهة أخرى لتوطيد سلطانه فى ذلك القطر البعيد ، الذى رفعه القدر إلى ولايته ورياسته ، والذى يضارع بضخامته وأهميته ملكاً عظيماً . وكان أقوى أولئك الخصوم والزعماء المنافسين ليوسف ، عبد الرحمن بن علقمة اللخمي حاكم ثغر أربونة الملقب «بفارس الأندلس» تنوياً بفائق شجاعته^(٢) . وكان قد اشترك فى الحرب الأهلية قبل ذلك بأعوام حسباً قدمنا . ثم ارتد بجنده إلى أربونة ، واستعصم بها رقب الحوادث والفرص . فلما تولى يوسف إمارة الأندلس ، واضطربت شئون الشمال ، أخذ يدبر العدة لعبور البرنيه ومحاربة يوسف ، ولكن لم يلبث أن اغتاله بعض أصحابه وحملوا رأسه إلى يوسف ، وتمت هذه الحياة بوحى يوسف وتحريضه على الأرجح ، وانهارت تلك المحاولة فى مهدها^(٣) . وخرج على يوسف فى إشبيلية يوسف بن عمرو بن يزيد الأزرق ، وكثر جمعه وقوى أمره ، فرحف إليه يوسف وقاتله حتى هزمه وقتله . وخرج عليه فى باجة عروة بن الوليد

(١) ابن الأبار فى الحلة السيرة ص ٥٨ . وكذا **Conde: ibid, V.I. p. 127** و **Aschbach: ibid, V.I. p. 102** يضع صاحب أخبار مجموعة تاريخ هذه الحملة بعد ذلك بنحو عشرين ص ٧٦ و ٧٧ .

(٢) ابن القوطية ص ٤٣ .

(٣) المقرئ عن ابن حيان ج ٢ ص ٦٢ ، والبيان المغرب ج ٢ ص ٣٩ .

المعروف بالذمي لتحالفه مع أهل الذمة ، والتف حوله النصارى فضلا عن أنصاره من العرب والبربر ، وسار إلى إشبيلية فاستولى عليها ، واتسع نطاق الثورة في تلك الأثناء ، فوجه إليه يوسف جيشاً لقتاله فهزمه عروة ، فسار إليه يوسف بنفسه ، ووقعت بينهما معارك شديدة انتهت بهزيمة عروة وأسرته ، ثم بقتله مع نفر من أصحابه . بيد أن ثورة أخطر وأوسع نطاقاً كانت تدبر عندئذ في الشمال لخلع يوسف والصميل وسحق سلطانهما . وكان روح هذه الثورة ومدبرها زعيم مضرى شديد البأس والجاه ، هو عامر بن عمرو بن وهب العبدري ، وكان عامر عريق الحسب والعصبية ، وافر الجاه والأتباع ، يزعم مضر ويقودها خلال الحوادث ، وكان صديقاً ليوسف الفهرى قبل ظفروه بالإمارة ، يتولى مثله قيادة الجيش ، فلما ولّى يوسف نزعها منه ، وكان كباقي الزعماء ينقم من يوسف والصميل استثثارهما بالسلطة واستبدادهما بالشئون . فلما اضطرت الأندلس بالفتن واتسع نطاق الثورة ، أخذ يدبر وسائل الخروج على يوسف ، وكان يبسط نفوذه على الجزيرة الخضراء ، ثم انتقل إلى قرطبة يرقب الحوادث ، وكاتب الخليفة العباسي أبا جعفر المنصور ، وعرض عليه أن يدعو له بالأندلس ، وأن يحكمها باسمه ، إذا بعث إليه بمرسوم إمارتها . وكان يتوعد فوق ذلك إلى اليمانية ، ويعنى على يوسف والصميل لإسرافهما في سفك دماهم يوم شقنّدة ، فالتفت حوله اليمانية والمضرية . ولم يكن يوسف يجهل حركاته وتدابيره ، فلما هم بمطاردته والقبض عليه ، فر إلى الشمال في كثير من أتباعه . وكان ثمة زعيان قرشيان آخران هما الحباب بن رواحة الزهرى من بني كلاب ، وتميم بن معبد الفهرى ، قدر فعا لواء الثورة في ولاية سرقسطة ، فتفاهم معهما عامر وتحالف ، واجتمع إليه جيش كبير من اليمانية والمضرية والبربر ، وزحف عامر والحباب الزهرى على سرقسطة ، حيث كان الصميل ، وضيقا عليه الحصار . فاستغاث الصميل بحليفه يوسف . ولكن يوسف لم يستطع أو لم يرد إنجاده بغية القضاء على سلطانه^(١) . فاضطر الصميل أن يلقى خصومه في أنصاره وأتباعه القلائل . ونشبت بين الفريقين مدى أشهر معارك عديدة ، انتهت بهزيمة الصميل وانسحابه من سرقسطة في قل أنصاره ، فدخلها عامر وحليفه ، واستوليا عليها (سنة ١٣٦ هـ - ٧٥٣ م) . وعمت الثورة كورة

(١) البيان المغرب ج ٢ ص ٣٨ و ٤٣ .

سرقسطة وما إليها ، ودعا عامر لنفسه بولاية الأندلس ، بمرسوم زعم أنه تلقاه من أبي جعفر المنصور ، وخرج الشمال كله عن قبضة يوسف الفهري .

أما الصميل فارتد إلى طليطلة التي أسند إليه يوسف ولايتها بدلا من سرقسطة ، وكان يوسف قد أنهكت قواه واستنفدت موارده تلك الحروب والثورات المتوالية ، فاضطر أن يلزم السكينة حيناً . وبسط عامر سلطانه زهاء عامين ، على كورة سرقسطة . وفي أواخر سنة ١٣٧ هـ (٧٥٤ م) سار يوسف إلى سرقسطة في جيش كبير ، وحاصرها بشدة حتى ضاق أهلها بالحصار ذرعاً ، ورأوا أن يتقوا مصائب الحصار ، بتسليم عامر وابنه وهب والحجاب الزهري إلى يوسف ، فحملهم يوسف معه في الأصفاد ، وارتد صوب طليطلة ، ثم أمر بهم فقتلوا أثناء الطريق ، وتخلص يوسف بذلك من آخر الزعماء الخوارج عليه (١) . ولكنه لم يقدر أن خطراً آخر سيأتيه من خارج الجزيرة ، وينذر جميع مشاريعه وتدابيره بالانهيار . ذلك أنه ما كاد يجتمع بصديقه وحليفه الصميل في ظاهر طليطلة ، حتى أقبل عليه رسول من قرطبة يحمل كتاباً من ولده عبد الرحمن ، خلاصته أن فتى من بني أمية يدعى عبد الرحمن بن معاوية قد نزل بساحل الأندلس في ثغر المُنكَب *Almuñecar* ، واجتمع إليه أشياخ بني أمية في كورة إلبيرة (غرناطة) ، وانتشرت دعوته في جنوب الأندلس بسرعة . وذاع الخبر في جيش يوسف فأحدث فيه ذعراً واضطراباً ، وتفرق كثير من جنده . وقيل إن نبأ مقدم الأمير الأموي انتهى إلى يوسف أثناء سيره إلى الشمال ليقاتل نصارى جليقية ، بعد أن سحق الثوار في سرقسطة (٢) . وعلى أي حال فقد بادر يوسف والصميل فيمن بقي من الأشياخ والجند بالسير إلى قرطبة ، ليدبرا الخطط لرد هذا الخطر الجديد ، وكان ذلك في أواسط سنة ١٣٨ هـ (أواخر سنة ٧٥٥ م) .

وفي أثناء هذه الفتن والقلاقل المتواصلة ، استولى الفرنج كما قدمنا على جميع القواعد والأراضي الإسلامية في سبانيا ولانجدوك ، وهي التي تكون ولاية الثغر أو رباط الثغر ، ولم يبق منها بيد المسلمين سوى أربونة . وكانت

(١) راجع في تفصيل هذه الحوادث ، ابن الأبار في الحلة السيرة ص ٥٢ ؛ وابن الأثير ج ٥ ص ١٤٠ و ١٨٤ ؛ والبيان المغرب ج ٢ ص ٤٣ و ٤٤ ؛ وكذا في *Dozy: Hist : V.I.p.184 & 185* .
(٢) ابن القوطية ص ٢٠ ؛ وفتح الطيب ج ١ ص ١٥٤ .

أمنع قلاع المسلمين فيما وراء جبال البرنيه ، وقد استطاعت أن ترد غزوات الفرنج أيام كارل مارتل . فلما فقدت أربونة بطلها المدافع عنها أعنى عبد الرحمن اللخمي فارس الأندلس ، وسقطت أراضي الثغر كلها في يد النصارى ، زحف بين ملك الفرنج ومعه حليفه الكونت آنزيموند القوطى أمير سبانيا على أربونة ، وطوقها بقوات كثيفة وضرب حولها الحصار الصارم (سنة ٧٥٥ م) . وكانت أربونة في غاية المنعة والحصانة ، فاعزم المسلمون الدفاع عنها لآخر نسمة ، واضطر بين خلال الحصار أيضاً ، أن يرتد عنها بقسم من جيشه لمحاربة أمير أكوين حفيد الدوق أودو ، وردده عن الأراضي الفرنجية ، وترك آنزيموند لمتابعة الحصار . ولكن آنزيموند قتل أثناء ذلك غيلة تحت أسوار أربونة ، فعاد بين لاستئناف الحصار وهاجم المدينة المحصورة مراراً ، ولكن المسلمين استطاعوا أن يقاوموا الفرنج ، وأن يردوا كل هجماتهم مدى أربعة أعوام ، رغم عزلتهم وانقطاع صلتهم بالأندلس ، وعدم تلقيهم أى مدد من أولى الأمر في قرطبة ، لاشتغالهم بالحرب الأهلية . وكان اتصال المدينة بالبحر يسهل على المسلمين تلقي بعض المؤن ، وتحمل ويلات الحصار . فلما رأى بين أنه لا يستطيع أخذ المدينة بالحرب لحأ إلى الخديعة والحيانة ، وتفاهم مع أهلها القوط ، وقطع لهم عهداً مؤكدة أنهم إذا عاونوه على أخذها ، فإنه يترك لهم حرية التمتع بقوانينهم ، ويمنحهم حقوقاً ومزايا كثيرة ، فعمل القوط على إضرام الثورة داخل المدينة ، ثم انقضوا ذات يوم على حراسها المسلمين وقتلوهم وفتحوا أبوابها ، فدخلها الفرنج وفتكوا بسكانها المسلمين إيما فتك ، وخربوا مساجدها ومعاهدها ودورها وذلك في سنة ٧٥٩ م (١٤٢ هـ)^(١) . وسقطت بذلك آخر المعاقل الإسلامية في غاليس في يد النصارى ، وانهارت سيادة الإسلام فيما وراء جبال البرنيه ، بعد أن استمرت هنالك زهاء نصف قرن ، وعادت قوى النصرانية ، فاحتشدت وراء تلك الآكام تتربص بالإسلام في الأندلس ، بينما كانت قوى الإسلام داخل شبه الجزيرة يمزق بعضها بعضاً .

وحذا نصارى الشمال حذو الفرنج في الاستفادة من تمزق الإسلام بالأندلس ، وزيد بنصارى الشمال تلك البقية الباقية من القوط الذين ارتدوا أمام الفتح الإسلامى

الكتاب الثاني

الدولة الأموية في الأندلس

القسم الأول

عصر الإمارة

من عبد الرحمن الداخل إلى عبد الرحمن بن الحكم

١٣٨ - ٢٣٨ هـ : ٧٥٦ - ٨٥٢ م

الفضل الأول

مصرع الدولة الأموية وقيام الدولة العباسية

اضمحلال الدولة الأموية إبان فتوتها . عوامل هذا الاضمحلال . السياسة الأموية . ما أثارته وسائلها من السخط . إستغلال الشيعة لهذه العاطفة . إضطرام العصبية والخلافات القومية . خلاف العرب والبربر . خلاف العرب فيما بينهم . وهن دعائم الدولة الأموية . العوامل الخفية التي عملت على تقويضها . الخصومة بين بني أمية وآل البيت . تقدم الدعوة الشيعية . ظهور الشيعة في النواحي . أئمة الشيعة بعد الحسين . محمد بن علي ولد العباس . أبو مسلم الخراساني أعظم دعاة الشيعة . إضطرام الدعوة في خراسان . إستيجاد أميرها نصر بن سيار بالخليفة . غزو أبي مسلم الخراساني وفرار أميرها . استيلاء أبي مسلم على خراسان وفارس . وفاة إبراهيم الإمام والدعوة لأخيه عبد الله بن محمد . غزو الشيعة العراق . نزول أبي العباس عبد الله بن محمد بالكوفة . من هو السفاح . مسير مروان الثاني لقتال الشيعة . لقاء الأموية والشيعة على ضفاف الزاب . هزيمة مروان . فراره ومصرعه . ذهاب الدولة الأموية وقيام الدولة العباسية .

كانت الدولة الأموية دولة الإمبراطورية الإسلامية الكبرى ، ففي ظلها امتدت الفتوح الإسلامية شرقاً إلى السند وغرباً إلى المحيط الأطلنطي وإسبانيا ، ووصلت الإمبراطورية الإسلامية إلى ذروة ضخامتها وقوتها ، متمسكة الأجزاء ، وثيقة العرى ، موحدة السلطان والإدارة . ولكن الدولة الأموية لم تنعم طويلاً بطور فتوتها ومنعتها ووحدها ، ولم تأت فاتحة القرن الثاني للهجرة حتى كانت هذه الدولة الشاغحة التي لم تجز بعد طور الفتوة ، قد هرمت سراعاً وأدركها الانحلال والوهن ، وتصدع صرح وحدتها الباذخ . واختتمت ثبت الخلفاء الأقوياء من بني أمية ، بالوليد بن عبد الملك وأخيه سليمان (٨٦-٩٩ هـ) ثم بأخيهما هشام . ومنذ عصر هشام بن عبد الملك ، نجد عوامل الانحلال والتفكك ، تعمل عملها في هذا الصرح العظيم ، فلم يمض طويل حتى اضطرت الأندلس بالفتن وخرجت من حظيرة الإمبراطورية ، ولم يبق للخلافة عليها سوى سلطة إسمية ، واستقل الزعماء المتغلبون بحكم إفريقية ، بعد أن خرجت أطرافها القصبوى عن قبضة الخلافة ، واضطرب سلطان الخلافة في الولايات الشرقية النائية مثل خراسان وفارس ، وأخذ ملك بني أمية يهتز فوق بركان مضطرم من الدعوات الخصمية ، التي لبثت قبل

ذلك بنصف قرن تعمل في الخفاء ، ثم لاح لها أن الفرصة قد آذنت بالانفجار . ولهذا الانحلال الذي سرى إلى الدولة الأموية ، قبل أن تستكمل أطوار نموها وتوطدها ، أسباب خاصة ، ترجع إلى الظروف التي قامت فيها ، وإلى الآثار الدينية والمعنوية ، التي أثارها السياسة الأموية في الجزيرة العربية ، ثم إلى نتائج تلك المعركة الخالدة التي نشبت بين مختلف العناصر والقوى ، التي اشتركت في بناء الإمبراطورية الإسلامية . فقد استطاع بنو أمية أن ينتزعوا الخلافة والملك ، خلال معركة اعتبرها فريق كبير من الأمة العربية ، خروجاً على آل البيت ذوى الحق الشرعى في الخلافة ، وبوسائل لم تكن دائماً نزيهة ولا عادلة . وكان لما ارتكبه بنو أمية خلال هذه المعركة من الأحداث المثيرة ، أسوأ وقع في نفوس الأمة العربية . فقد فتك بنو أمية بآل البيت وشيعتهم أشنع فتك ، وكان مقتل الحسين ابن علي في كربلاء (سنة ٥٦١هـ)^(١) ، ومقتل عدة من أبنائه وأخوته أشهر حوادث الفتك بآل البيت وأروعها . ومع أن مصرع الحسين وآله ، لم يكن سوى نتيجة للصراع السياسى الذى اضطرم بين آل البيت وبين بنى أمية منذ خلافة علي ، فقد كان لهذا الحادث أعظم وقع في العالم الإسلامى ، ولم يمض عامان على تلك المأساة المؤلمة ، حتى أرسل يزيد بن معاوية (سنة ٥٦٣هـ) جنده إلى المدينة بقيادة مسلم بن عقبة المرثى ، لمعاقة أهلها على خروجهم عن طاعة بنى أمية ، فاقتحم الحند الأمويون مدينة الرسول ، وعاثوا فيها واستباحوا الحرم المقدسة ، وارتكبوا أشنع صنوف الكبائر والإثم^(٢) ، ثم ساروا بعد ذلك إلى مكة فحاصروها ، وضربوا البيت الحرام بالمنجنيق والنار . وكان لهذه الحوادث وأمثالها أثر عميق في الأمة الإسلامية ، وألغى الشيعة صحب آل البيت ودعاتهم ، في تلك الأحداث المثيرة ، غذاء للتشهير بالسياسة الأموية وأساليبها ، وأصابت هيبة الخلافة الأموية من هذه الناحية ، بصدع لم تنهض من بعده ، وذكت عوامل السخط عليها .

(١) كان مقتل الحسين بن علي في كربلاء في العاشر من المحرم سنة ٥٦١ هـ ، وهو يوم «عاشوراء» الذى اتخذته الخلافة الفاطمية بمصر يوم حزن وأسى ؛ وكانت تقام في ذلك اليوم بمدينة القاهرة طائفة من المراسم والاحتفالات المؤثرة . (راجع كتابى الحاكم بأمر الله وأسرار الدعوة الفاطمية - الطبعة الثانية - ص ٣٥٤) .

(٢) وتعرف هذه الموقعة الشهيرة بموقعة الحرّة أو حرّة واقم ، وهى ضاحية المدينة الشرقية ، وقد سبقت الإشارة إليها .

واستغل الشيعة هذه العاطفة لبث دعوتهم وتدعيم قضيتهم ، وحشد العناصر الناقمة في صفوفهم . وكان اضطراب العصبية والخلافات القومية من جهة أخرى ، يعمل عمله لتمزيق روابط هذه الإمبراطورية الشاسعة . ففي إفريقية كانت ثورات البربر القومية ، تستنفد قوى الخلافة ومواردها بلا انقطاع ، وكان الخلاف بين العرب والبربر في الأندلس ، يهدد مصير الإسلام والخلافة في ذلك القطر النائي ، ويفت في عضد الزعماء والقادة ، ويبعث الاضطراب والوهن إلى صفوف الغزاة . وكان العرب أنفسهم قدوة سيئة في تفرق الرأي والكلمة . فكانت المعركة الخالدة بين مضر وحير ، وبين مختلف القبائل والبطون ، تمزق أوصال الوحدة العربية ، وتقوض دعائم هذه العصبية القومية ، التي دفعت يوم اتحادها وتماسكها ، سيل الفتوح الإسلامية إلى أقاصى المشرق والمغرب .

كانت الخلافة الأموية تسيطر على دولة عظيمة مترامية الأطراف . ولكن سلطانها الحقيقي كان محدود المدى داخل هذه الإمبراطورية الشاسعة ، وكان فوق ذلك يقوم على دعائم مضطربة . وفي ذلك ما يفسر تلك الظاهرة التي يعرضها سقوط الدولة الأموية . فبينما هي تبدو في أوج قوتها وفتوحها ، إذ بها تنهار فجأة ، وتبدو في الحال مظاهر ضعفها وتفككها ، ويبدو ما كان يحيط بسلطانها الشاسع من عوامل مصطنعة ، وما كان يهدده من عوامل الهدم الخفية ، المعنوية والنفسية . وكانت هذه العوامل الخفية في الواقع أخطر ما يهدد سلطان بني أمية ، فإن تلك الأحقاد المرة التي أثارها السياسة الأموية في نفوس خصومها ، كانت تسرى وتجيش ، وتحيط ملك بني أمية بسياج خطر من الحفيظة والبغض . وكانت هذه الحصومة الخطيرة التي يغذيها ظمأ الانتقام ، هي عماد الدعوة الشيعية التي لبثت تشق طريقها منذ مقتل علي ، ثم مقتل بنيه من بعده . ثم تأملت هذه الحصومة وتوطدت منذ أوائل القرن الثاني من الهجرة . واستطاع الشيعة أن يظهرها في النواحي ، ولاسيما في العراق وخراسان ، وأن يدبروا عدة ثورات محلية خطيرة . وقد أخذت هذه الحركات الأولى في سيل من الدماء . ولكن القمع كان يذكي النضال ، وإراقة الدم تذكي ظمأ الانتقام . ولم تكن المعركة متكافئة من الوجهة المادية ، فلم يك للشيعة جيوش منظمة أو موارد يعتد بها ، ولكن خطر المعركة كان يجثم في نواحيها المعنوية . واشتد هذا الخطر حينما ضعف أمر العمال في

النواحي ، واتسع الأمر على الحكومة المركزية ، وانحل سلطانها في الأنحاء
النائية ، وأضحى عرضة للانتقاص والانهيار .

ولبت دعاة الشيعة زهاء نصف قرن ينظمون دعوتهم ، ويضعون لها الأصول
والقواعد ، ويحشدون لها الصحب والأنصار في سائر النواحي ، وكانت كثيرها
من الدعوات السرية الثورية ، تلى في الخفاء تأييداً كبيراً . وليس من موضوعنا
أن نتحدث عن مبادئ الشيعة ورأيهم في الإمامة ومساقها^(١) . ويكفي أن نقول
إن اختلاف الشيعة فيما بينهم ، على حق الإمامة ومساقها في ولد علي ، لم يحل دون
إجماعهم على خصومة بني أمية ، ولا دون استمرار الدعوة الشيعية وتقديمها .
وكانت إمامة الشيعة قد انتقلت بعد مقتل الحسين إلى أخيه ، محمد بن علي بن
أبي طالب المعروف بابن الحنفية^(٢) . فلما توفي سنة ٨١ هـ ، قام بها ولده أبو هاشم
عبد الله بوصية منه . واستمر أبو هاشم أيام الوليد بن عبد الملك وأخيه سليمان قائماً
بأمر الشيعة ، يقدون عليه ويؤدون له الخراج . ثم توفي مسموماً سنة ٩٨ هـ
بتحريض سليمان بن عبد الملك فيما يقال ، وأوصى بالإمامة إلى ابن عمه محمد
ابن علي بن عبد الله بن العباس كبير علماء الشيعة يومئذ . والعباس هو ابن عبد المطلب
عم النبي . وتقدمت الدعوة الشيعية على يد محمد بن علي تقدماً كبيراً ، وظفرت
في ذلك الحين بأعظم دعاة السياسيين ، ونعى أبا مسلم الخراساني . وقد كان
أبو مسلم شخصية عظيمة ، وكان يتمتع بمقدرة ومواهب فائقة . ولكن الغموض
يحيط مع ذلك بأصله ونشأته ، وتختلف الرواية في أمره اختلافاً كبيراً ، حتى أنها
لتختلف فيما إذا كان من الأحرار أو الموالى . فيقول البعض إنه حر ، يرجع إلى
أصل فارسي رفيع المنبت ، وإنه ولد بأصبهان ونشأ بالكوفة ، واسمه الحقيقي
إبراهيم بن عثمان بن بشار . ويقول البعض إنه من الموالى ، وأصله من أصفهان ،
واسمه إبراهيم . وقيل بل كان عبداً لبكير بن ماهان أحد عمال السند ، وإنه
استصحبه إلى مكة في زيارته لإبراهيم الإمام ، فأعجب إبراهيم بذكائه وفطنته
واشتراه منه . وأما تسميته بأبي مسلم ، فيقال إنه سمي نفسه عبد الرحمن بن مسلم ،

(١) أ رد ابن خلدون في مقدمته شرحاً حسناً لمبادئ الشيعة ومساق الإمامة عند مختلف فرقهم
(المقدمة ص ١٦٤ - ١٦٨) . ويتناولها الشهرستاني في « الملل والنحل » بشيء من التفصيل ؛
وكذلك عبد القاهر البغدادي في كتابه « الفرق بين الفرق » .

(٢) وهو أخو الحسن والحسين من الأب فقط . ويعرف بابن الحنفية نسبة لأمه خولة بنت
جعفر بن قيس المعروف بالحنفية .

واتخذ كنيته أبا مسلم ، وقيل إن إبراهيم الإمام هو الذي سماه بهذا الاسم . ولعل أرجح رواية في شأن هذا الداعية الكبير أنه كان فتي مغموراً ، ولد بمرو في أسرة رقيقة الحال ، ونشأ بأصبهان ، واتصل منذ فتوته ببعض نقباء الشيعة في الكوفة ، فأنسوا فيه ذكاء خارقاً ، وحماسة تضطرم لآل البيت وقضيتهم ، وسار معهم إلى محمد بن علي بن عبد الله بمكة ، فأعجب بذكائه وعزمه ، واختاره داعية للشيعة في خراسان ، موطنه وأصلح ميدان لنشاطه . ولما ظهر أبو مسلم وقوى أمره ، وكثر أنصاره ، ادعى أنه من آل البيت من ولد سليط بن عبد الله بن عباس (١) . ولما توفي محمد بن علي ، وخلفه في الإمامة ولده إبراهيم الملقب بالإمام بعهد منه (سنة ١٢٦ هـ) استمر أبو مسلم في مهمته ، ييث الدعوة ، ويحشد لها الأنصار . وكانت خراسان كما قدمنا أخصب ميدان للدعوة الشيعية لبعدها عن الحكومة المركزية ، وتعاقب الفتن فيها بين المضربة واليمنية . وكان أميرها من قبل بني أمية نصر بن سيار في مأزق صعب ، يستنجد عبثاً بحكومة دمشق ، ويشهد تفاقم الحوادث عاجزاً ، وحركة الشيعة تشتد ، وتحتاج خراسان بسرعة . ويروي أن نصر بن سيار كتب إلى مروان بن محمد الخليفة يومئذ ، هذا الشعر الفياض بالنبوءة والندير يستنجد به ، ويستحثه للدفاع عن عرشه وترات أسرته :

أرى تحت الرماد وميض نار	ويوشك أن يكون لها ضرام
فان النار بالعودين تذكي	وإن الحرب أولها الكلام
فإن لم يطفها عقلاء قوم	يكون وقودها جثث وهام
فقلت من التعجب ليت شعري	أيقاظ أمية أم نيام
فان كانوا حينهم نياماً	فقل قوموا فقد حان القيام
فقرى عن رحالك ثم قولى	على الإسلام والعرب السلام (٢)

وكان أبو مسلم رجل الموقف يدير الخطط بقوة وبراعة ، فلم يمض بعيد حتى ألقى الفرصة سانحة للعمل الحاسم ، فاعتزم أمره ووثب في صحبه على نصر بن سيار

(١) راجع في أصل أبي مسلم وسيرته ، ابن الأثير ج ٥ ص ٩٥ - ٩٧ ، وابن خلكان

ج ١ ص ٣٥٢ - ٣٥٤ ، وابن خلدون ج ٣ ص ١٠٠ و ١١٧ - ١٢٠ .

(٢) تروى هذه الأبيات بصورة أخر . راجع مروج الذهب للمسعودي (بولاق) ج ٢ ص ١٥٩

وقوات بني أمية وهزمهم في عدة معارك (سنة ١٢٩ - ١٣٠ هـ) ، واستولى على مرو وسمرقند وخراسان ونيسابور ، وطرد منها عمال بني أمية ، وفر نصر بن سيار إلى العراق . وبسط أبو مسلم سلطانه على خراسان وفارس ، ورفع فيهما لواء الشيعة الأسود ، ودعا لأبي العباس عبد الله بن محمد بن علي المعروف « بالسفاح » أخى إبراهيم الإمام وخلفه . وكان الخليفة الأموي مروان بن محمد ، قد هاله ما رأى من تغلغل الدعوة الشيعية في النواحي ، فقبض على إبراهيم الإمام ، وهو يومئذ بإحدى قرى الشام ، وزجه إلى السجن حتى مات (سنة ١٣٢ هـ) ، وزعم أخوه عبد الله أبو العباس وأصحابه ، أنه أوصى إليه بالإمامة من بعده . فدعا له أبو مسلم في خراسان وفارس حسبما تقدم . ثم سير أبو مسلم جيشاً إلى العراق فلقبه أميرها ابن هبيرة في قواته ، ووقعت بين الفريقين على ضفاف الفرات معارك شديدة ، هزم فيها ابن هبيرة وفر إلى الشمال . واستولى الشيعة على العراق ، ودعوا لأبي العباس بالخلافة (ربيع الآخر سنة ١٣٢ هـ) ، ونزل أبو العباس عبد الله « السفاح » بالكوفة ، واستقر بها يرقب الحوادث .

وفي ذلك الحين كان مروان بن محمد أو مروان الثاني^(١) ، الذي ولى الخلافة سنة ١٢٧ هـ ، يتأهب للدفاع عن ملك بني أمية ، الذي تصدع صرحه سراعاً . فحشد جيشاً ضخماً ، وسار شرقاً حتى وصل إلى ضفاف نهر الزاب ، وهو فرع من دجلة يتصل به في الضفة الشرقية جنوب شرقى الموصل ، وسار للقائه قائد المسودة (الشيعة) في الشمال ، أبو عون عبد الملك بن يزيد الأزدي ، وأمدّه أبو العباس بجيش آخر بقيادة عمه عبد الله بن علي ، وبلغت قوات الشيعة كلها زهاء عشرين ألفاً ، وبلغت القوات الأموية زهاء مائة وعشرين ألفاً . ولكن حماسة الشيعة كانت تغني عن الكثرة ، وكان تعاقب الظفر يدكي عزائمهم ويضعف قواهم ، وكان الجيش الأموي على ضخامته قد خبت عزائمهم ، واختلت صفوفه وغاضت قواه المعنوية . والتقى الفريقان على ضفة الزاب اليسرى ونشبت بينهما معركة شديدة حاسمة ، انتهت بهزيمة الجيش الأموي وتمزيقه ، وذلك في الحادي عشر من جمادى الثانية سنة ١٣٢ هـ (٢٥ يناير ٧٥٠ م) ، وغرق في النهر آلاف من جند الشام ، وعدة من زعمائه وقادته ، واستولى الشيعة على أسلابه ، وفر

(١) يعرف مروان بن محمد أيضاً بمروان الجعد ، وحمار الجزيرة ، أو مروان الحمار .

مروان في فل من صحبه إلى الشام ، فسار في أثره عبد الله بن علي ، وحاصر دمشق واقتحمها في الخامس من رمضان من نفس العام . وفر مروان إلى فلسطين ثم إلى مصر . فبعث « السفاح » في أثره جيشاً بقيادة عمه صالح بن علي ، فلحق به في مصر ، وظل يطارد من مكان إلى مكان ، حتى ظفر به في قرية بوضير علي مقربة من الحيزة . وهناك مزقت البقية الباقية من أنصار بني أمية ، وقتل مروان آخر الخلفاء الأمويين بالشرق ، وأرسل رأسه إلى « السفاح » وذلك في السابع والعشرين من ذي الحجة سنة ١٣٢ هـ (٦ أغسطس سنة ٧٥٠ م) .

وهكذا انهارت دعائم الدولة الأموية بسرعة مدهشة ، وقامت على أنقاضها دولة بني العباس . ولا ريب أن أكبر الفضل في تحطيم ذلك الصرح الشامخ ، يرجع إلى جهود تلك الشخصية العظيمة ونعني أبا مسلم الخراساني . كان أبو مسلم إحدى هذه العبقريات الشاملة ، التي تتفتح في معترك الانقلابات الحاسمة ، وتقوم على سواعدها الدول العظيمة . وكانت دعوة الشيعة وإمامة آل البيت مبعث هذا الانقلاب وروحه . ولكن بني العباس ما كادوا يتدوون ذلك الملك الباذخ ، حتى غلبت عليهم عصبية الأسرة ، وألفوا في أبي مسلم منافساً تخشى عواقبه ، وفي الدعوة الشيعية خطراً يجب القضاء عليه . فلم تمض أعوام قلائل حتى قتل أبو مسلم (شعبان سنة ١٣٧ هـ) ، قتله أبو جعفر المنصور أخو أبي العباس وخلفه . ثم تتبع زعماء الشيعة وولد علي بن أبي طالب بالقبض والمطاردة ، حتى مزق شملهم وسمح دعوتهم . واستخلص بنو العباس تراث بني أمية لأنفسهم . وقامت تلك الدولة العباسية الزاهرة ، تصل تاريخ الإسلام في المشرق ، وتسير به إلى عصر جديد من العظمة والبهاء .

الفصل الثاني

بعث الدولة الأموية في الأندلس

موقف الأندلس بعد سقوط الدولة الأموية . يوسف الفهري حاكم بأمره . مطاردة بنى العباس لبنى أمية . المذبحة الرائعة . من هو السفاح . نجاة عبد الرحمن بن معاوية . فراره وظروفه المؤثرة . تجوله في برقة وإفريقية . نجاته من قبضة عبد الرحمن بن حبيب . التجاؤء إلى المغرب الأقصى . إرساله ليدر مولاة إلى الأندلس . مفاوضة بدر للزعماء . سعى أبي عثمان وعبد الله بن خالد لتأييد عبد الرحمن . موقف الصميل بن حاتم . عبور عبد الرحمن إلى الأندلس . توجس يوسف الفهر واختلال جيشه . تقدم الدعوة الأموية . الزعماء المؤيدون لعبد الرحمن . عود يوسف والسميل إلى قرطبة . عرض يوسف على عبد الرحمن وكتابه إليه . رفض عبد الرحمن لهذا العرض . مبايعة ربه وشذونة وإشبيلية لعبد الرحمن . زحفه على قرطبة . خروج يوسف والسميل لملاقاته . لقاء الفريقين في موقعة المسارة . هزيمة يوسف والسميل . دخول عبد الرحمن قرطبة ومبايعة بالإمارة . الموقف بعد المسارة . مهمة عبد الرحمن الفادحة . معركة الدولة والإمارات المستقلة . الأخطار التي تحيق بالأندلس . الكفاح المستمر .

بينما كانت حوادث هذا الانقلاب الحاسم في مصابير الإسلام تجرى في المشرق ، كانت حوادث الأندلس تؤذن بانقلاب عظيم آخر في مصابير الإسلام في ذلك القطر النائي . وكانت الفتن والحروب الأهلية المتعاقبة التي فصلنا أخبارها ، تدفع بالأندلس إلى مصير مجهول تخشى عواقبه ، وتعصف تبعاً بمنعة الإسلام في الغرب ، وتشجع الفرنج ونصارى الشمال على اقتطاع الأطراف النائية ، والتوغل في الأراضي الإسلامية . وكان من عناية القدر أن تولى أمر الأندلس في ذلك المأزق العصيب ، رجل قوى حازم هو يوسف بن عبد الرحمن الفهري . ولكن ولاية يوسف لم تكن حلاً نهائياً للأزمة ، لأنه تولى دون مصادقة شرعية من السلطة العليا ، ولأن منافسيه من الزعماء والخوارج لم يقروا بولايته ، ولم يخلدوا إلى السكينة ، وأخيراً لأن السلطة العليا التي يرجع إليها أمر الأندلس ، ونعني خلافة دمشق قد انهارت غير بعيد ، وقامت على أنقاضها دولة وخلافة جديدتان . والحقيقة أن يوسف بن عبد الرحمن الفهري كان حاكماً بأمره في الأندلس ، وكانت الأندلس في ذلك الحين إمارة أو دولة مستقلة ، يتوقف مصيرها ومصير السلطات فيها على سير الظروف والحوادث . وكان للانقلاب الذي وقع في المشرق صدها

في الأندلس ، إذ قام بعض الخوارج على يوسف يدعو لبني العباس ، طمعاً في
الرياسة على نحو ما بينا ، ولكنه كان صدى ضعيفاً لم يحدث أثره ، واستمر يوسف
ثابتاً في مركزه ، يناهض الخارجين عليه بقوة وعزم . ولا ريب أنه كان يحرص
على ذلك السلطان الذي ألقى إليه به القدر ، بل لعله كان يعمل لغاية أتم وأبعد ،
هي أن يؤسس بالأندلس مملكة مستقلة قوية ، يتبوأ عرشها ، وأسرلة ملوكية
جديدة من بنيه وعقبه ، يلقي إليها بهذا التراث الباذخ :

على أن حوادث المشرق كانت تتمخض عن عوامل ومفاجآت أخرى . ذلك
أن بني العباس بعد أن ظفروا بملك بني أمية ومزقوا شمل أسرهم ، أخذوا في
تتبع من بقي من أمراءهم وزعمائهم ، حتى لا تقوم لفلمهم قائمة بعد . وعهد
أبو العباس عبد الله « السفاح » ، إلى عمه عبد الله بن علي وهو بالشام ، تنظيم هذه
المطاردة الدموية^(١) . فتتبع وجوه بني أمية ومواليهم في كل مكان ، وأمعن في
مطاردتهم وسفك دماهم ، وقتل منهم جماعة كبيرة من الأمراء والسادة ، ولم يبق
حتى على النساء والأطفال ، ولما شعر أن كثيرين منهم فروا ولاذوا بالاختفاء ، زعم
أن أبا العباس قد ندم على ما فرط منه في حقهم ، وأنه يشملهم بعفوه وأمانه ،
فخدع كثيرون منهم بهذا الوعد ، ولبوا دعوة عبد الله إلى الظهور ، واستطاع بهذه
الوسيلة أن يقتل منهم نحو سبعين رجلاً آخر . وكانت مأساة هائلة ارتكبت خلالها
ضروب مروعة من القسوة ، ومثل بكثير من الضحايا أشنع تمثيل ، وألقيت
جثثهم للكلاب ، واستخرجت رفات الخلفاء الأمويين من مثواها وبددت ، ولم
ترك جريمة مثيرة ، أو لون من العقاب أو المهانة ، إلا كان فلُّ بني أمية لها
فرائس وضحايا^(٢) .

وهنا يسوغ لنا أن نتساءل ، من هو « السفاح » ؟ أهو أبو العباس عبد الله
ابن محمد أول خلفاء بني العباس ؟ أم هو عمه عبد الله بن علي ؟ هذا ما تختلف

(١) وقد أشار أحد الشعراء من دعاة بني العباس وهو سديف بن ميمون إلى هذه المطاردة في
شعر أنشده بين يدي أبي العباس وفيه يقول :

لا يفرنك ما ترى من رجال إن تحت الضلوع داء دويا

فضع السيف وارفع السوط حق لا ترى فوق ظهرها أمويا

(٢) راجع طرفاً من فظائع هذه المطاردة في ابن خلدون ج ٣ ص ١٣٢ و ١٣٣ ؛ وابن

الأثير ج ١ ص ١٦١ .

الرواية الإسلامية في شأنه . ويتفق معظم المؤرخين المسلمين ، مثل الطبرى ، وابن الأثير ، وابن خلكان ، وابن خلدون^(١) على أن « السفاح » إنما هو لقب أبى العباس عبد الله بن محمد أول الخلفاء العباسيين . ويذكر لنا الطبرى وابن الأثير كيف أن أبى العباس ، هو الذى أطلق على نفسه هذا اللقب حينما أتى خطابه الأول بمسجد الكوفة على أثر مبايعته بالخلافة ، إذ قال للناس فى ختام خطابه : « فاستعدوا فأنا السفاح المبيح ، والثائر المنيح »^(٢) . ولكن هناك روايات أخرى ومنها رواية قديمة هى رواية صاحب « أخبار مجموعة فى فتح الأندلس » تذكر لنا أن لقب « السفاح » لم يطلق على أبى العباس ولكنه أطلق على عمه عبد الله بن على^(٣) . ولهذا الرواية ظاهر من الواجهة فيما ارتكبه عبد الله بن على من الفتك الذريع ببنى أمية ، وتبعهم بالقتل فى سائر الأنحاء دون هوادة . ولكن من الذى يحمل فى الواقع تبعة هذه المطاردة الدموية المروعة ؟ إن الذى أوصى بمطاردة بنى أمية والفتك بهم هو أبو العباس ذاته ، وهو أول من اجتنى ثمار الجريمة ، وتلقى ثراث القتلى ، ولم يكن عمه عبد الله بن على سوى منفذ لإرادته وأمره ، وعلى ذلك فهو أحق بأن يحمل ذلك اللقب الذى يتفق مع تبعاته ونتائج سياسته ، وهو لقب يخصه به جمهرة من الثقة المؤرخين .

ولكن هذه المطاردة الدموية الشاملة لم تحتث الشجرة من أصلها ، وشاء القدر أن تفلت بعض فروعها من يد الجناة ، وأن تزكو لتستعيد أصلها الراسخ فى أرض أخرى . وكان ممن نجا من المذبحة الهائلة فتى من ولد هشام بن عبد الملك هو عبد الرحمن بن معاوية بن هشام . وكان وقت أن حلت النكبة بأسرته يقيم مع أهله وأخوته ، فى قرية تعرف بدير خنان من أعمال قنسرين ؛ وفيها كان مولده قبل ذلك بنحو عشرين عاماً فى سنة ١١٣ من الهجرة (٧٣١ م) ؛ وقيل بل كان مولده بالعليا من أعمال تدمير . وتوفى أبوه معاوية شاباً فى أيام أبيه هشام بن

(١) راجع الطبرى ج ٩ ص ١٢٣ ؛ وابن خلكان فى الوفيات ج ١ ص ٣٥٤ ؛ وابن

الأثير ج ٥ ص ١٤٥ و ١٥٥ ، وابن خلدون ج ٣ ص ١٢٨ و ١٣١ و ١٧٣ .

(٢) الطبرى ج ٩ ص ١٣٢ ؛ وابن الأثير ج ٥ ص ١٥٥ .

(٣) راجع « أخبار مجموعة فى فتح الأندلس » ص ٤٨ ؛ وراجع أيضاً كتاب الإمامة

والسياسة ج ٢ ص ١٤٨ .

عبد الملك في سنة ١١٨ هـ ، فكفله وأخوته جدهم هشام^(١) . ولما انهار صرح الخلافة الأموية ، وأمن الظافر في مطاردة بني أمية ، فر عبد الرحمن بأهله وولده إلى ناحية الفرات ، وحل هناك ببعض القرى واختبأ بها حيناً يدبر أمره ، ولكن جند المسوّد ما لبثت أن حلت بتلك الجهة تستقصي آثار بني أمية ، فبادر عبد الرحمن بالفرار . وتنقل إلينا الرواية على لسانه قصة مؤثرة عن حوادث فراره ، وتصف لنا كيف أدركته خيل المطاردين على ضفة النهر مع أخيه الصبي ، فوثب إلى النهر واستطاع عبد الرحمن أن يقطعه سباحة إلى الضفة الأخرى ، ولكن الغلام عجز عن قطعه وعاد إلى الضفة الأولى ، حيث وعده المطاردون بالأمان ، ولكنه ما كاد يقع في أيديهم حتى انقضوا عليه وقطعوا رأسه أمام عيني أخيه ، وقلبه يتفطر روعة وأسى^(٢) . ولما أن أمن عبد الرحمن خطر مطارديه ، سار مختفياً إلى الجنوب ، قاصداً إلى المغرب . وتقول لنا الرواية أيضاً ، إن المغرب كان مقصده منذ الساعة الأولى ، وإن نفسه كانت تحدّثه بما سيكون له في الأندلس من شأن ، وإن بني أمية كانوا قبل مصرعهم ، يهجسون بمثل هذه النبوءة ويرددونها^(٣) .

واخترق عبد الرحمن فلسطين ومصر ، ولحق به مولياه بدر وسالم ، أنفذتهما إليه أخته أم الأصبح بشيء من المال والجوهر ، ثم جاز إلى برقة والتجأ إلى أخواله بني نفزة ، وهم من بربرة طرابلس ، وكانت أمه بربرية منهم تدعى راح ، وأقام لديهم طويلاً يرقب الفرص . والظاهر أن محاولة الاستيلاء على إفريقية لم تكن بعيدة عن ذلك الذهن الجريء المغامر ، وقد كانت إفريقية في الواقع منذ ربع قرن مطمح الخوارج والمتغلبين . وكان عبد الرحمن بن حبيب الفهرى قد انتزعها لنفسه في سنة ١٢٧ هـ ، ولما دالت دولة بني أمية دعا لبني العباس كما قدمنا ، ولكن الفتي الأموي لم يجد على ما يظهر أية فرصة للعمل في هذا السبيل . وكان عبد الرحمن ابن حبيب يخشى على سلطانه من ظهور بني أمية في إفريقية ، فطارد اللاجئين إليها منهم ، وقتل ولدين للوليد بن يزيد بن عبد الملك ، واعتقل آخرين وصادر أموالهم .

(١) نفتح الطيب ج ١ ص ١٥٦ .

(٢) أورد هذه الرواية صاحب أخبار مجموعة (ص ٥١ - ٥٣) . وكذلك أوردها ابن حيان مؤرخ الأندلس ونقلها المقر (نفتح الطيب ج ٢ ص ٦٢ و ٦٣) .

(٣) أخبار مجموعة ص ٥١ ؛ ونفتح الطيب ج ٢ ص ٦٢ ؛ والبيان المغرب ج ٢ ص ٤٣ ، وابن خلدون ج ٤ ص ١٢١ .

ولما شعر بظهور عبد الرحمن الأموي حاول القبض عليه ، ولكن عبد الرحمن استطاع أن يتجنب المطاردة ، وفر مع صحبه إلى المغرب الأقصى ، وتجول حيناً في تلك الأنحاء ، ولقى كثيراً من الصعاب والخطوب ، وكان يرى الموت والأسر يندرانه في كل خطوة . وأقام حيناً مختفياً عند شيخ من شيوخ البربر يدعى وانسوس ، كانت له فيما بعد لديه حظوة ، ثم نزل عند قوم من زناتة على شاطئ البحر ، ولحق حيناً بمليلة وغيرها ، وكان أثناء تجواله يدرس أحوال الأندلس وأخبارها ، ويرقب فرص العبور إليها .

وفي أواخر سنة ١٣٦هـ (٧٥٣م) لاحت له فرصة العمل ، وقوى أمله ما علمه من اشتداد الخلاف بين المضرية واليمينية ، فبعث بداراً مولاه إلى الأندلس ليسبر غور شئونها ، وليحاول بث دعوته بين أنصار بني أمية وأهل الشام ، فنزل بدر بساحل إليرة (كورة غرناطة) وكانت منزل جند الشام كما أسلفنا ، وفيها تجتمع عصبة بني أمية . وكانت رياسة الأمويين (أو المروانية) والشاميين يومئذ لزعيمين من موالي بني أمية ، هما أبو عثمان عبيد الله بن عثمان وصهره عبد الله ابن خالد . فاجتمع بدر بأبي عثمان وأبلغه رسالة عبد الرحمن ، وناشده العمل لنصرته ، وبث دعوته بين أصدقائه وشيعته ، ولاسيما بين اليمينية ، وهم خصوم يوسف الفهري ومنافسوه^(١) . فاستجاب أبو عثمان لهذه الدعوة ، وكانت بينه وبين الصميل مودة وصداقة ، ففكر في التماس عونه في ذلك المشروع ، وسار إليه مع عبد الله بن خالد في طليطلة ، وكان الصميل قد ارتد إليها منهزماً عن سرقسطة وفي نفسه مرارة من يوسف لأنه قصر في غوثه وإنجاده ، ففاوضاه في أمر عبد الرحمن وطلباً منه العون والتأييد . ولكن الصميل أبدى تردداً وفتوراً ، واقترح أن يتزوج عبد الرحمن من ابنة يوسف ، وأن ينزل آمناً في ظله ، ثم صرفهما ببعض الوعود الغامضة^(٢) . وكان الصميل يحرص في الواقع على أن تبقى السلطة ليوسف ،

(١) يرو لنا ابن حيان قصة اتصال بدر باليمانيين على النحو الآتي : قال لهم ، ما رأيكم في رجل من أهل الخلافة يطلب الدولة بكم ، فيقيم أودكم ، ويدرككم آمالكم ؛ فقالوا : ومن لنا به في هذه الديار . فقال بدر : ما أدناه منكم ، وأنا الكفيل لكم به . ثم ذكر لهم خبر عبد الرحمن ومكان وجوده ، وأنه يقدم نفسه إليهم ، فقالوا : فجيء به أهلاً ، إنا سراع إلى طاعته ، وأرسلوا بدرأ بكتهم يستدعونه (راجع الإحاطة لابن الخطيب (١٩٥٦) ج ١ ص ٤٥٣) .

(٢) البيان المغرب ج ٢ ص ٤٥ ؛ ونفح الطيب ج ٢ ص ٦٤ ؛ وابن القوطية ص ٢٣ .

لأنه متأثر في ظله بالنفوذ والسلطان ، ويشاركه في تدبير الأمر وحكم الأندلس ، فعاد أبو عثمان وزميله إلى البيرة ونشطا إلى بث الدعوة فيها ، وحث اليمينية على القيام للأخذ بالتأثر ، وبثا عمالها في أنحاء الأندلس يدعون إلى تأييد عبد الرحمن الأموي . وعاد بدر إلى عبد الرحمن على مركب خاصة جهزها أبو عثمان ومعه عدة من أنصار الأموية ، وأفضى إليه بنتائج رحلته ، فاستبشر عبد الرحمن ، وعبر البحر معهم إلى الأندلس ، ونزل بساحل البيرة في ثغر المنكب **Almuñecar** (١) ، وذلك في ربيع الآخر سنة ١٣٨ هـ (سبتمبر سنة ٧٥٥ م) ، فاستقبله أبو عثمان وأنزله بمقامه في طرُش **Torrox** ، وهي قرية تقع غربي المنكب على مقربة من البحر ، فاستقر بها ينظم دعوته ويدبر خطته (٢) .

وكان يوسف بن عبد الرحمن الفهري أثناء ذلك في الشمال يعسكر بجيشه تحت أسوار سرقسطة ، وقد استعصم بها عامر العبدري والحباب الزهري . فلما تم له الأمر بالاستيلاء على سرقسطة والقبض على الزعيمين الثائرين وإعدامهما على نحو ما فصلنا ، ارتد بجيشه صوب طليطلة . وبينما هو في الطريق على مقربة منها ، إذ أتاه رسول أوفده على جناح السرعة ولده عبد الرحمن بن يوسف ، الذي استخلفه على قرطبة ، ومعه كتاب ينبئه فيه بمقدم عبد الرحمن الأموي ، وانتشار دعوته في جنوب الأندلس ، فدعر يوسف ، وذاع النبأ في الجيش ، فمضى إليه الخلل ، وتسلت العناصر الناقمة ، ولم يبق منه سوى فلول يسيرة . فهورل يوسف في بقية جنده إلى طليطلة ، ليبحث مع الصميل في خير الوسائل لرد هذا الخطر . وكانت الدعوة الأموية في ذلك الحين قد اجتاحت جنوبي الأندلس ، والتف حول عبد الرحمن عدة من زعماء القبائل والحند ، منهم تمام بن علقمة اللخمي (٣) ، وقد أخذ له بيعة جند فلسطين ، ويوسف بن نحت وقد أخذ له بيعة جند الأردن ، وجدار بن عمرو المذحجي من زعماء ريته ، وحسان بن مالك الكلبي من زعماء

(١) وما تزال المنكب كما كانت ثغراً من ثغور الأندلس الجنوبية . وهي مدينة كبيرة بيضاء تقع على خليجين متجاورين كقوسين في البحر ، وتحميها الجبال من الخلف . وربما كان موقعها الحصين من البر والبحر ، هو الذي حدا بعبد الرحمن إلى اختيارها لانزول في شاطئ الأندلس . فضلا عن قربها لمركز دعوته .

(٢) البيان المغرب ج ٢ ص ٤٦ ؛ ونزه الطيب ج ٢ ص ٦٥ ؛ وأخبار مجموعة ص ٧٦ .

(٣) لعله أخ لعبد الرحمن بن علقمة اللخمي والى أربونة ، المعروف بفارس الأندلس الذي

فصلنا أخباره فيما تقدم .

إشبيلية ، وحشد أبو عثمان وعبد الله بن خالد حوله جمعاً كبيراً من الأموية وأهل الشام . وعاد يوسف والصميل إلى قرطبة ليدبرا الأمر معاً ، وأشار الصميل على يوسف بمصانعة عبد الرحمن وملاطفته وإغرائه بمصاهرته ، فأرسل إليه يوسف وهو ما يزال بطرُش وفدأ يعرض عليه أن يزوجه ابنته ، ويقطعه كورة إلبيرة (غرناظه) أو كورة ريه أو يقطعه ما بينهما ، وبعث إليه هدية وشيئاً من المال ، وكتاباً طويلاً يرغبه فيه بمحالفته . وينقل إلينا منه صاحب البيان المغرب هذه الفقرة : « أما بعد فقد انتهى إلينا نزولك بساحل المنكب ، وتأبش من تأبش إليك ، ونزع نحوك من السراق وأهل الختر والغدر ، ونقض الأيمان المؤكدة التي كذبوا الله فيها وكذبونا ، وبه جل وعلا نستعين عليهم . ولقد كانوا معنا في ذرى كنف ورفاهية عيش ، حتى غمضوا ذلك ، واستبدلوا بالأمن خوفاً ، وجنحوا إلى النقض ، والله من ورائهم محيط . فإن كنت تريد المال وسعة الجناب . فأنا أولى بك ممن لجأت إليه ، أكنفك وأصل رحمك ، وأنزلك معي إن أردت أو بحيث تريد ، ثم لك عهد الله وذمته بي ، ألا أعدرك ولا أمكن منك ابن عمي صاحب إفريقية ولا غيره ... » . ولكن عبد الرحمن لم يجدهم بوعود يوسف وعهده ، فأبى عرضه ورد رسله ، وكان يسمو بأطاعه إلى أبعد من ذلك وأرفع ، وكان سلطان الأندلس كلها مطمح آماله^(١) . وكان قد أنس عندئذ ذبوع دعوته وقوة أنصاره ، فسار في صحبه من طرُش إلى ريه ، فبايعه عاملها عيسى بن مساور ، ثم إلى شنونة فبايعه عاملها علقمة بن غيات اللخمي ، ثم إلى إشبيلية ، فبايعه كبيرها أبو الصباح بن يحيى اليحصبي زعيم اليمنية ، وانضم إليه أثناء تجواله كثير من الأنصار والحند ، واجتمع له في إشبيلية زهاء ثلاثة آلاف فارس ، وذاعت دعوته في غربي الأندلس كله ، وأقبلت إليه المتطوعة من كل صوب ، من المضرية واليمنية وأهل الشام . ولما رأى أنه يستطيع البدء بمناجزة يوسف سار في قواته صوب قرطبة ، وكان ذلك في فاتحة ذي الحجة سنة ١٣٨ هـ (أوائل سنة ٧٥٦ م) .

وفي ذلك الحين كان يوسف والصميل قد حشدا جموعهما ، ومعظمها من الفهرية والقيسية ، وكان جند يوسف قد وهن ، وتفرق معظمه خلال الفتن والغزوات المتوالية ، وجاءت دعوة عبد الرحمن الأموي فزادته تفرقاً وضعفاً .

(١) البيان المغرب ج ٢ ص ٤٧ ؛ وأخبار مجموعة ص ٧٩ و ٨٠ .

وخرج يوسف بقواته إلى المسارّة في ظاهر قرطبة من الغرب ، على ضفة نهر الوادى الكبير ، وكان عبد الرحمن قد أشرف بجيشه على ضفة النهر الجنوبية ، في قرية مقابلة تسمى « بلّة نوبة » (قليا نويفا Villanueva) (١) . وفرق النهر بين الجيشين مدى أيام ثلاثة ، وفي اليوم الرابع وهو يوم الخميس تاسع ذى الحجة ، هبط ماء النهر وانحصر في بعض المواضع ، فتأهب الفريقان للحرب ، ولم تنجح محاولة يوسف في سبيل عقد الصلح ، وصمم عبد الرحمن على القتال في اليوم التالى أعنى يوم الجمعة ، وكان يوم الأضحى ، متيمنا في ذلك بذكرى موقعة مرج راهط الشهيرة ، التى انتصر فيها جده مروان بن الحكم ، على قوات عبد الله ابن الزبير ، التى يقودها الضحاك بن قيس الفهرى ، وذلك في يوم الأضحى - وقد كان الجمعة أيضاً - سنة ٥٦٤ هـ . وفي اليوم التالى دفع عبد الرحمن قواته لاقتحام النهر ، وكان أول من اقتحمه منهم جند بنى أمية ، وكان يوسف يتفوق على خصومه بكثرة فرسانه ، ولكن التفرق كان يسود جنده ، وكانت جموع عبد الرحمن تضطرم على قلبها عزماً وحماسة ، فنشبت بين الفريقين معركة عنيفة ولكن قصيرة ، فلم يأت الضحى حتى مزقت خيل يوسف ، وهزم جيشه هزيمة شديدة ، ونهبت أسلابه ، وقتل كثير من وجوه القيسية والفهرية (٢) . وفر يوسف صوب طليطلة ، حيث كان ولده عبد الرحمن ، وفر الصميل صوب جيان . ودخل عبد الرحمن الأموى وصحبه قرطبة دون معارضة ، وحمل جنده ما استطاع على الاعتدال والقناعة ، وحمل أسر خصومه وحرّمهم وأمواهم من العيث ، وصلى الجمعة في الجامع ، ثم نزل بالقصر ، وبويع في الحال بالإمارة ، وذلك في العاشر من ذى الحجة سنة ١٣٨ هـ (١٣ مايو سنة ٧٥٦ م) (٣) .

كان يوم المسارّة بالنسبة لعبد الرحمن فاتحة الظفر لاغايته ، فقد استطاع بعد أحداث وخطوب جمة أن يجوز إلى الأندلس ، وأن يفتح عاصمتها ، وأن ينتزع إمارتها لنفسه ، ولكنه ظفر بعرش لم يتوطد سلطانه بعد . وكان ثمة بينه وبين مُلْك

(١) ابن القوطية ص ٢٦ .

(٢) ويبالغ البعض في تقدير عدد القتل فيقدره بسبعين ألفاً (ابن القوطية ص ٢٧) .

(٣) يفرد صاحب أخبار مجموعة فصلاً مسهباً لهذه الموقعة ، وكيفية تقسيم الجيشين المتحاربين

وأسماء القادة في كل منها (ص ٨٦ - ٩٠) . وراجع أيضاً ابن القوطية ص ٢٦ - ٢٨ ؛ ونفع

الطيب ج ٢ ص ٦٥ و ٦٦ ؛ والبيان المغرب ج ٢ ص ٤٨ و ٤٩ .

الأندلس الحقيقي مراحل بعيدة ، وكان ملك الأندلس قد غدا منذ انحلال الخلافة الأموية ، كما رأينا ، نهياً مشاعاً يتنازعه الزعماء والمغلوبون ، وكانت الفتن المتوالية قد عصفت بالسلطة العليا ، واقتصت من أطرافها ، واستقل الزعماء الأقوياء بكثير من النواحي ، وقضى يوسف الفهرى معظم ولايته في إخماد الفتنة ، واستخلاص الرياسة ، ولكنه لم يوفق إلى إخماد كل عناصر النزاع والخروج . فلما ظهر الفتي الأموي في الميدان ، كان صرح الأندلس يهتز فوق دعائمه الواهنة ، وكان توطيده يتطلب كثيراً من العزم والعمل القوى .

وكان يوم المسارة حاسماً في مصائر الأندلس ، وكان فاتحة عهد جديد في تاريخها . ولكن المهمة كانت فادحة ، والمعركة شاقة مشعبة النواحي . وكما أن يوم المسارة كان فاتحة الظفر ، فقد كان فاتحة الكفاح أيضاً . ذلك أن الأندلس كانت يومئذ بسيطاً من الفتن المتأججة ، وكانت الثورة تجثم في كل ناحية ، وانحلت عرى العصبية القديمة الشاملة ، وانتثرت فرقاً وشيعاً صغيرة ، فلم تبق الحصومة قاصرة على المضربة واليمينية فقط ، ولكن غدت كل قبيلة وكل بطن تلتف حول زعامتها ومصالحها الخاصة . وكانت هذه القوى المنتثرة المستقلة برأيها وهواها ، تتمسك باستقلالها المحلي ، وتأبى الخضوع لأية سلطة عامة . وكان عبد الرحمن يرمى إلى إحياء دولة الإسلام في الأندلس موحدة متماسكة ، كما كانت قبل أن تمزقها الحرب الأهلية ، فكانت المعركة في الواقع معركة الدولة والإمارات المستقلة ، ومعركة السلطة المركزية والإقطاع المحلي : معركة الرياسة الشاملة ، والعصبية المتناثرة . وكان البربر عنصراً قوياً في الفتنة ، يحتفظون دائماً ببغضهم القديم للعرب ، ويحرصون على ما انتزعه منهم خلال الفتنة من النواحي والضياع . ثم كان هنالك ما هو أشد خطراً على دولة الإسلام في الأندلس ، ونعني اسبانيا النصرانية التي استطاعت أن تخرج سراعاً من غمر الهزيمة والفوضى ، وأن تنتظم إلى مملكة جديدة في الشمال ، وكذلك مملكة الفرنج القوية التي استطاعت أثناء الفتنة أن تنتزع الأراضي الإسلامية فيما واء البرنيه . وكان نصارى الشمال والفرنج يتربصون يومئذ بالأندلس ، ويرون في تفرقها وضعفها فرصة صالحة للعمل ، ويتصلون بكثير من الزعماء والخوارج ، ويمدونهم بالنصح والعون ، ويتخذونهم وسائل لتحقيق مشاريعهم في تمزيق الأندلس وانتزاع أطرافها .

كان عبد الرحمن غداة ظفروه الأول ، يواجه هذه الخطوب والأخطار كلها ، وكان عليه أن يقارعها جميعاً ، لكي يفهم رياسة الأندلس القوية المتحدة . ولكن ذلك الأمير الفتى الذى لم يكن يجاوز السادسة والعشرين يوم ظفروه ، كان رجل الموقف ، قد شحذت من عزمه الخطوب والحن ، وأعدته لحياة النضال والمغامرة . فقضى بقية عمره - اثنين وثلاثين عاماً - فى كفاح مستمر ، لاينتهى من معركة إلا ليخوض أخرى ، ولايقمع ثورة إلا تليها ثورة ، ولا يسحق خارجاً إلا ليعقبه خارج ، ولم تبق بالأندلس ناحية أو مدينة إلا ثارت عليه ، ولا قبيلة إلا نازعته فى الرياسة ، ولم تبق قوة خفية أو ظاهرة إلا عملت لسحقه . فكانت الأندلس طوال عهده بركاناً يتأجج بضرام الحرب والثورة والمؤامرة . ولكنه صمد لتلك الخطوب كلها ، واستطاع بكثير من الذكاء والإقدام والعزم والجلد ، أن يغالب تلك الأخطار والقوى ، وأن يقبض على مصائر الأندلس بيده القوية ، وأن يحيى سلطان أسرته المندثر ، فى ذلك القطر النأى ، ليستقر ويزدهر أكثر من قرنين . وكان تفرق خصومه أهم عامل فى ظفروه ، فلم تك ثمة زعامة شاملة بعد يوسف والصميل ، يجتمع الخصوم حولها ، وكانت القوى الخصيمة منتشرة فى النواحي والمدن ، تعمل كل بمفردها حول زعيمها المحلى ، وكانت فوق ذلك يعارض بعضها بعضاً فى معظم الأحيان ، وقد استطاع عبد الرحمن أن يقدر هذا الظرف وأن يستغله ، فعمد إلى لقاء معارضيه فى الميدان فرادى ، واستطاع أن يخمد ثوراتهم ، وأن يحطم قواهم بالتعاقب ، وهو فى كل مرة يزداد قوة ومنعة ، ويزداد خصومه ضعفاً وتفرقاً ، حتى قضى عليهم جميعاً .

الفصل الثالث

ولاية عبد الرحمن الداخل

- ١ -

بده الممارك الداخلية . القتال بين يوسف والصميل وبين عبد الرحمن . إذعانهما إلى طلب الصلح وعودهما إلى قرطبة . فرار يوسف وسجن الصميل . يوسف يستأنف الحرب . هزيمته وفراره . مصرعه في طليطلة ومقتل ولده عبد الرحمن . فرار واده محمد إلى طليطلة . هزيمته وأسرره . مصرع الصميل . تأملات عن يوسف والصميل . ثورة للتمام بن يوسف في الجزيرة الخضراء . استيلاؤه على إشبيلية . مهاجمة عبد الرحمن لإشبيلية . هزيمة للتمام وأسرره . ثورة عبد الغافر اليماني في إشبيلية وإخادها . استئنافها على يد حيوة بن ملامس . عبد الرحمن يقاتله ويهزمه . ثورة هشام بن عزرة الفهري بطليطلة وامتناعه بها . ظهور العلاء بن مغيث واضطراب الثورة في باجة . شهر الدعوة العباسية واتساع نطاق الثورة . مسير عبد الرحمن لمقاتلة العلاء وحلفائه . لتاؤهما في قرمونة . هزيمة الثوار ومصرعهم . إرسال رؤوسهم إلى إفريقية ومكة . استئناف حصار طليطلة . تسليمها ومصرع زعمائها . ثورة المطرى بلبله . هزيمته ومقتله . ثورة أبي الصباح في إشبيلية . استدراجه إلى قرطبة ومقتله . ظهور الفاطمي البربر ودعوته . ثورته في غرب الأندلس . هزيمته لقوات عبد الرحمن . مسير عبد الرحمن لقتاله . التجاؤه إلى الجبال . خطة عبد الرحمن لتفريق جموعه . عود الثورة إلى إشبيلية وبلبله . مسير عبد الرحمن لقتال الثوار . تفرق الثوار وهزيمتهم . عود عبد الرحمن لقتال الفاطمي . التجاؤه إلى شنت برية . اغتياله وانهيار دعوته .

وكان أول ما عني به عبد الرحمن من أدوار ذلك النضال بعد يوم المسارة ، هو أن يتعقب يوسف والصميل أقوى خصومه وأخطرهم . وكان يوسف قد فر عقب الموقعة صوب طليطلة ، وفر الصميل إلى جيان معقل قومه . وحشد يوسف في طليطلة ونواحيها ما استطاع من أنصاره ، بمعاونة عامله عليها هشام بن عزرة الفهري ، ووافاه الصميل بمن حشد من المضربة . ثم سارا في قواتهما إلى جيان ثم إلى البيرة (غرناطة) ، واجتمع أهل هذه الأنحاء حول يوسف ، ونزل يوسف بالبيرة يتأهب لمحاربة عبد الرحمن . ولكنه ما كان يستقر في البيرة ، حتى بادر عبد الرحمن بالسير إليه ، وترك حماية قرطبة لحليفه وقائده أبي عثمان . ولما علم يوسف بمسيره إليه ، بعث ابنه عبد الرحمن في بعض قواته إلى قرطبة ، فاقتحمها وأسر أبا عثمان ونفراً من أهل عبد الرحمن وحرимه ، ثم غادرها في الحال خشية

المفاجأة . ولكن عبد الرحمن الأموي لم يلو في طريقه على شيء ، وقصد إلى البيرة
توأ ، وحاصر يوسف والصميل . فلما شعرا بأن المقاومة عبث ، فواضاه في الصلح
والتسليم بالأمر له ، ونبذ كل دعوى في الولاية والسلطة ، على أن يؤمنهما في النفس
والمال والأهل ، وأن يؤمن حلفاؤهم وأصدقاؤهم جميعاً ، وأن يُسمح لهما بسكنى
قرطبة تحت رعايته ورقابته ، فأجابهما عبد الرحمن إلى الصلح على ذلك ، وعلى أن
يقدم يوسف ولديه عبد الرحمن ومحمداً أبا الأسود رهينة لديه ، يعتقلهما في قصر
قرطبة برفق وإكرام ، حتى تطمئن النفوس وتستقر الأمور ، وتم عقد الصلح بين
الفرقيين في صفر سنة ١٣٩ هـ ، وأفرج عن أبي عثمان وباقي الأسرى الذين أسرهم
ولد يوسف ، وتصافى الفرقيان ، وقفل يوسف والصميل مع عبد الرحمن إلى
قرطبة ، وانفض جندهما^(١) . ونزل يوسف بشرقي قرطبة في قصر الحر الثقفى
أحد الولاة السابقين ، ونزل الصميل بداره بالربض (الضاحية) ، وأبدى
عبد الرحمن نحوهما عطفاً وليناً ، وهو مع ذلك يشدد عليهما الرقابة ، ويحرص على
تجريدتهما من كل سلطة وقوة . وكان في قرطبة فل من عصابة يوسف وأنصاره
السابقين ، الذين نالوا على يديه جاهاً وحظوة ، يتطلعون إلى العهد السابق ،
ويلومون يوسف على تسليمه واستكانته ، ويحرضونه على استعادة مركزه وسلطانه ،
وكان يوسف من جهة أخرى يشعر أنه في شبه اعتقال ، وأن عبد الرحمن يضيق
الحناق عليه ، ويؤلب عليه صنائعه ، ينازغونه في أملاكه وأمواله لدى القضاء ،
والقضاء يميل إلى غبنه وإعنائه ، حتى ذهب معظم أملاكه ، وهو يشعر أن
عبد الرحمن من وراء ذلك الاضطهاد^(٢) . عندئذ عول على الفرار ، وكتب
أنصاره في ماردة وطليلة ، ثم فر إلى ماردة ، وكان بها معظم أهله وأصحابه
(سنة ١٤١ هـ) ، وهناك حشد أنصاره من العرب والبربر ، حتى اجتمع له زهاء
عشرين ألفاً ، وتحلف الصميل ولم يوافق ، فقبض عليه عبد الرحمن وألقاه في غيابة
السجن بتهمة التحريض والتآمر . وبينما كان عبد الرحمن يحشد جنوده ، سار يوسف
بقواته إلى إشبيلية ، وعليها عبد الملك بن عمر بن مروان المعروف بالمرواني ،
فحاصره في إشبيلية حتى أتاه ولده عبد الله بالمدد ، ثم وقعت بينهما معارك شديدة

(١) راجع نفع الطيب ج ٢ ص ٦٦ ؛ وأخبار مجموعة ص ٩٣ و ٩٤ ؛ والبيان المغرب

ج ٢ ص ٥٠ .

(٢) المقرئ عن ابن حبان (نفع الطيب ج ٢ ص ٦٦) ، وأخبار مجموعة ص ٩٥ .

قتل فيها كثير من الفريقين ، وارتد يوسف منهزماً بفلوله . وكان عبد الرحمن الأموي يربط عندئذ بقواته في حصن المدور ، الواقع على مقربة من غربى قرطبة ، على نهر الوادى الكبير ، فوافته الأخبار بهزيمة يوسف وفراره ، فتوقف عن مطاردته ، وسار يوسف إلى طليطلة ، ولبت يتردد في أنحاءها مدى أشهر ، وهو يحاول أن ينظم قواته مرة أخرى ، ولكن بعض الخونة من أنصاره أو مواليه انتمروا به ، واغتالوه ذات يوم على مقربة من طليطلة ، وحملوا رأسه إلى عبد الرحمن في قرطبة (سنة ١٤٢ هـ) . والظاهر أن هذه الجريمة لم تكن بعيدة عن وحى عبد الرحمن . وانتهت بذلك حياة يوسف الحافلة المضطربة ، وأمن عبد الرحمن شره وخطره ، وقتل ابنه عبد الرحمن المعتقل لديه ، ورفع رأسهما فوق الرماح أمام القصر ليلتى الرعب في قلوب الخوارج والمخالفين^(١) . أما ولد يوسف الآخر وهو محمد أبو الأسود ، فقد استطاع أن يفر من سجنه ، وقصد توأ إلى طليطلة معقل عصابة أبيه وتحصن بها ، فبعث عبد الرحمن في أثره جيشاً بقيادة تمام بن علقمة وعينه والياً لطيطة ، فحاصرها حتى سلمت ، وأسر محمد بن يوسف ثانية وجرى به إلى قرطبة ، واستولت جنود عبد الرحمن على طليطلة (ذى الحجة سنة ١٤٢) ، وسحق بذلك وكر الثورة الفهرية . وزج محمد إلى السجن ثانية وأدعى العمى حتى استطاع الفرار بعد محنة طويلة ، وعاد يرفع علم الثورة كما سياتى . واستطاع أخوه الأصغر القاسم بن يوسف أن يفر من طليطلة متنكراً قبل سقوطها . وأما الصميل ، فلبث بسف في سجنه مدى أسابيع أخرى حتى دس عليه عبد الرحمن من قتله داخل السجن خنقاً (أواخر سنة ١٤٢ هـ)^(٢) .

وهكذا انتهت بذهاب يوسف والصميل مرحلة خطيرة من الإضطراب والقلقل . كان يوسف شخصية قوية وزعيماً ممتازاً ، وقد استطاع أن يحكم الأندلس زهاء عشرة أعوام في ظروف عصيبة ، وأن يسهر على وحدتها وسلامتها بقوة

(١) البيان المغرب ج ٢ ص ٥١ ؛ وأخبار مجموعة ص ١٠٠ . ولكن كوندى يورد عن مصرع عبد الرحمن بن يوسف رواية أخرى هي أنه كان عند مقتل أبيه حراً طليقاً ، وقتل في معركة دموية نشبت بينه وبين جنود تمام بن علقمة والى طليطلة (Conde : ibid., V.I. p. 174) وهى رواية ظاهرة الضعف .

(٢) نفع الطيب ج ٢ ص ٦٧ ؛ وابن الأبار في الحلة السراء ص ٥٠ ؛ والبيان المغرب ج ٢ ص ٥١ ، وأخبار مجموعة ص ١٠١ .

وذكاء ، وأن يدرأ عنها خطر نصارى الشمال والفرنج ، ولما فقد يوسف رياسة الأندلس فى يوم المسارة ، لبث مع ذلك أخطر قوة تهدد طالع عبد الرحمن الأموى وسلطانه ، ولبث روح الثورة والمعارضة مدى أعوام أخرى . وكان الصميل زعيماً قوى العصبية ، نافذ الرأى والكلمة ، وافر الدهاء والمكر ، يخشى بأسه ووجهه . فكان ذهابهما من الميدان فوزاً لعبد الرحمن ، وخطوة كبيرة فى سبيل استقرار رياسته وتوطدها .

وقطع عبد الرحمن أعوامه التالية فى كفاح مستمر ، يتلقى وثبات الخوارج عليه من كل صوب . وكان أول الخوارج عليه بعد مصرع يوسف والصميل ، القاسم ابن يوسف وحليفه رزق بن النعمان الغسانى . وكان القاسم حينما فر من طليطلة كما قدمنا ، قد سار إلى الجزيرة الخضراء ، والتجأ إلى شيخها رزق بن النعمان صديق أبيه ، وحشد حوله جمعاً من الأنصار والمرترقة ، واستولى بمعونته حليفه على شذونة ، ثم سار فى قواتهما إلى إشبيلية ، ولم تكن بها قوة تدافع عنها ، فاستوليا عليها دون مشقة ، فبادر عبد الرحمن الأموى فى قواته إلى إشبيلية ، ونشبت بينه وبين الخوارج معركة عنيفة ، قتل فيها رزق بن النعمان ومزق جنده ، ودخل عبد الرحمن إشبيلية ظافراً ، وذلك فى أواخر سنة ١٤٣ هـ . أما القاسم فالتجأ بقواته إلى شذونة ، وبعث عبد الرحمن فى أثره تماماً وإلى طليطلة ، فطارده حتى أسره ومزق قواته (١) .

ولبث عبد الرحمن بإشبيلية بضعة أشهر ، ولكنه ما كاد يغادرها إلى قرطبة حتى نشبت فيها ثورة أخرى ، بقيادة عبد الغافر اليمانى زعيم اليمانية ، واستولى عبد الغافر على ما جاور قرطبة من الأنحاء ، وكثرت جموعه ولا سيما من البربر ، وأصبح يهدد قرطبة . فخرج عبد الرحمن لقتاله ، والتقى بوادى قيس على مقربة من قرطبة ، فاستمال عبد الرحمن حلفاء عبد الغافر من البربر وانفض عنه جندهم ، واقتتل الفريقان فهزم عبد الغافر هزيمة شديدة ، وفر إلى لَقَسْت ، وطارد عبد الرحمن جنده حتى قتل منهم ألوفاً عديدة (سنة ١٤٤ هـ) .

ورفع لواء الثورة من بعده فى إشبيلية أيضاً ، حيوة بن ملامس الحضرمى

(١) Conde : ibid., V. I. p. 178 ، وأخبار مجموعة ص ١٠١ .

كبير زعمائها ، وتغلب على إشبيلية وإستجة وكثير من نواحي الغرب^(١) ، والتف حوله أهل هذه الأنحاء واستفحل أمره . فسار إليه عبد الرحمن ، ونشبت بينهما معارك عنيفة مدى أيام ، ودافع الثوار عن أنفسهم بمنتهى البسالة ، حتى كادت الدائرة تدور على عبد الرحمن ، ولكن التفرق دب أخيراً إلى صفوف الثوار ، ولحقهم الإعياء والملل ، فوعدت عليهم الهزيمة ، وفر زعيمهم حيوة ، وكتب إلى عبد الرحمن يلتمس منه العفو والأمان (سنة ١٤٤ هـ - ٧٦١ م)^(٢) .

وعلى أثر ذلك نشبت الثورة في طليطلة . وكان عبد الرحمن قد اختار لولايتها تمام بن علقمة ، ثم عينه لحجابه فكان أول حجابه ، وخلفه في ولاية طليطلة حبيب بن عبد الملك . وكانت المدينة ماتزال تضطرم بعناصر الثورة وفيها كثير من أنصار الفهرية ، فلم يلبث أن قام زعيمهم هشام بن عزرة الفهرى ، ولد عزرة أمير الأندلس السابق ، وأعلن الثورة واعتصم بالمدينة . فسار إليه عبد الرحمن وحاصره مدى أشهر ، حتى اضطر إلى طلب الصلح ، وقدم ولده رهينة بحسن طاعته ، فأجابه عبد الرحمن إلى طلبه ، وآثر أن يهادنه مؤقتاً . ولكنه ما كاد يصل إلى قرطبة حتى عاد هشام إلى الثورة ، فارتد إليه عبد الرحمن ليعاقبه على نكته ، وحاصره ثانية وقتل ابنه ، وأطلق رأسه بالمنجنيق داخل الأسوار ، ولكنه لم يظفر بحمل الثائر على التسليم ، فعاد إلى قرطبة ليضاعف أهباته ، بيد أنه لم يستطع أن يعود توأ إلى طليطلة ، إذ نعى إليه عندئذ خبر حادث داهم الخطر يتطلب كل جهوده وقواه .

ذلك أن داعية من خصوم بنى أمية هو العلاء بن مغيث اليحصبي^(٣) ، وكان من وجوه باجة وله بها رياسة وعصبة ، كاتب أبا جعفر المنصور ، واتصل برسله

(١) كورد « الغرب » كانت تقع غربي إشبيلية ، حتى جنوبي البرتغال ما بين لبله وولبة والمحيط ، وقد حرقت في الإفريقية إلى كلمة **Algarve** .

(٢) البيان المغرب ج ٢ ص ٥٣ ، والمقرى ج ٢ ص ٧٣ . ويذكر كوندى أن حيوة من ملابس كان بالمكس صديقاً حميماً لعبد الرحمن ، وبالغ في الاحتفاء به يوم نزوله بإشبيلية ، وأنه توفي بعد ذلك بقليل فرثاه عبد الرحمن بأبيات مؤثرة (Conde: ibid., V.I.p. 179) ، ولكن كوندى يخلط هنا في الوقائع . والحقيقة أن حيوة بن ملابس كان من أصدقاء عبد الرحمن لأول مقدمه وكانت له لديه منزلة ، وينقل إلينا ابن الأبار بيتين ينسب قولهما إلى عبد الرحمن في امتداح حيوة وجوده ووفائه (الرحلة السيرة ص ٣٣ و ٣٤) . ولكنه غداً بعد من ألد خصومه ومنافسيه . وله أخبار أخرى ستجيء .

(٣) وقيل الحضرمي (أخبار مجموعة ص ١٠٧) . والجذامى (البيان المغرب ج ٢ ص ٥٣) .

في إفريقية ، واستصدر منه سجلاً بولايته للأندلس ، ثم ارتد إلى الأندلس ، وعاد إلى باجة في قوة كبيرة ، ودعا لبني العباس ، ورفع العلم الأسود ، وأعلن أنه قد عين أميراً للأندلس من قبل المنصور^(١) (سنة ١٤٦هـ) . وكان الخليفة العباسي يحاول بهذه الدعوة ، أن يحطم مشاريع بني أمية فيما وراء البحر ، وأن يبسط سلطانه الإسمي على الأندلس . وقد رأينا أن عبد الرحمن بن حبيب المتغلب على إفريقية ، دعا لبني العباس حينما انهار سلطان بني أمية ، وكاتب الخليفة العباسي فأقره على حكم إفريقية ، فكانت إفريقية تابعة لبني العباس من الوجهة النظرية ، وهكذا كان شأن العلاء بن مغيث ، فقد رأى أن يستظل في ثورته بالدعوة العباسية ، لكي يسبغ عليها لوناً من الشرعية ، ولم يكن للخليفة العباسي اعتراض على محاولة لا يتحمل تبعاتها من الوجهة المادية ، وإن كان يعضدها من الناحية المعنوية ، وقد أرسل بالفعل سجلاً إلى الثائر بما طلب . وكان بعض الزعماء الخوارج على يوسف ابن عبد الرحمن ، قد استظلوا بالدعوة العباسية كما قدمنا . وسرى كيف يشهر الخوارج على عبد الرحمن الأموي هذه الدعوة في حوادث وخطوب أخرى^(٢) .

واضطربت باجة وما حولها بنار الثورة ، وهرعت القبائل والأحزاب المختلفة إلى الانضواء تحت اللواء الأسود ، ولاسيما الفهريّة واليمينية وجند مصر ، واستفحل أمر العلاء وكثر جمعه ، وانضم إليه أمية بن قطن وأصحابه . وأعلن غياث ابن علقمة الثورة في شذونة محالفاً للعلاء . فخرج عبد الرحمن من قرطبة في جميع قواته ، وبعث بداراً مولاه في بعضها إلى شذونة ، فحاصرها حتى أذعن غياث لطلب الصلح . وسار عبد الرحمن إلى قرمونة ما بين قرطبة وإشبيلية نظراً لمناعتها ، واتخذ موقف الدفاع ، فسار إليه العلاء في جموعه ، وهاجم قرمونة مراراً ، وحاصرها مدى أسابيع حتى وهنت قوى جنده ، وعندئذ انقلب عبد الرحمن من الدفاع إلى الهجوم ، وداهم العلاء في صفوفه جنده ، ونشبت بين الفريقين معارك شديدة مدى أيام ، حتى هزم العلاء ومزق جنده ، وقتل منهم آلاف عديدة ، وكان العلاء نفسه بين القتلى ؛ وأسر ابن قطن . وجمع عبد الرحمن رؤوس الزعماء والقادة من خصومه وراقمها بأسمائهم . وحملها بعض رسله إلى القيروان ، فألقيت في أسواقها سرّاً ، وأثارت هناك دهشة وارتباعاً ، ووضعت رأس العلاء في سفظ ،

(١) البيان المغرب ج ٢ ص ٥٤ .

(٢) راجع ابن القوطية ص ٣٢ ؛ وابن الأثير ج ٥ ص ٢١٣ ؛ وابن خلدون ج ٤ ص ١٢٢ .

ومعها اللواء الأسود وسجل المنصور للعلاء ، وحمله بعض التجار الثقةا إلى مكة ، حيث كان المنصور يؤدي فريضة الحج في العام التالي (سنة ١٤٧ هـ) . وألقى أمام سرادق المنصور ، وحمل إليه فارتاع لرؤيته ، وقال ما معناه : « ما في هذا الشيطان مطمح ، فالحمد لله الذي جعل بيننا وبينه البحر »^(١) .

وهكذا استطاع عبد الرحمن أن يسحق هذه الدعوة الخطرة ، وكان أخطر ما فيها أنها لم تكن دعوة حزب أو قبيلة ، وإنما كانت دعوة عامة تدعمها الصبغة الشرعية ، ولم يك أصلح منها لجمع خصوم عبد الرحمن من سائر الأحزاب والقبائل تحت لواء واحد^(٢) . ولما عاد عبد الرحمن إلى قرطبة كانت الثورة التي يثير ضرامها هشام الفهري في طليطلة ، قد استفحلت واتسع نطاقها . فأرسل عبد الرحمن قائديه بدرأ وتمام بن علقمة في جيش كبير إلى طليطلة ، فطوقها وشدد الحصار عليها حتى ضاق أهلها ذرعاً ، واضطروا إلى طلب الصلح ، على أن يسلموا الزعماء الثائرين ، وقبضوا على هشام وعدة من أصحابه ، فأخذوا إلى قرطبة مصفدين معذبين ، ثم صلبوا بأمر عبد الرحمن ، وتم بذلك سحق الثورة في طليطلة إلى حين (سنة ١٤٧ هـ - ٧٦٤ م) .

وفي أوائل سنة ١٤٩ هـ - ٧٦٦ م ، خرج سعيد اليحصبي المعروف بالمطري بمدينة لبلة ، مطالباً بثأر الأمانية الذين قتلوا مع العلاء ، فهرعت إليه الأمانية وقوى جمعه . ثم سار إلى إشبيلية فاستولى عليها ، وارتد عنها واليها عبد الملك بن عمر المرواني لقله جنده ، ولبت ينتظر المدد . وكانت إشبيلية مطمح كل نائر لقربها من قرطبة ، ولأنها لبثت مدى أعوام من أهم مراكز الثورة في الأندلس . وخرج في الوقت نفسه غياث بن علقمة المخمي بمدينة شنونة ناكثاً لعهدده . فسار عبد الرحمن أولاً إلى إشبيلية ، وانقلب المطري إلى قلعة رعواق القريبة وامتنع بها ، فحاصره عبد الرحمن وقطع علائقه مع بقية أنصاره ، فلما ضاق الثائر بالحصار ذرعاً ، حاول الخروج ليشق له طريقاً بين الحش المحاصر ، ووقعت بين الفريقين معركة شديدة قتل فيها المطري ، وارتدت فلولة إلى القلعة ، وقدموا عليهم خليفة بن مروان ،

(١) البيان المغرب ج ٢ ص ٥٤ ؛ والمقرى ج ١ ص ١٥٦ وج ٢ ص ٦٧ ؛ وأخبار مجموعة ص ١٠٢ و ١٠٣ ؛ وابن القوطية ص ٣٣ .

فاستمر عبد الرحمن في محاصرة الخوارج ، حتى أذعنوا لطلب الصلح ، وسلموا إليه قائدهم فقتله ، واستولى على القلعة وهدمها ، ثم سار إلى شذونة فحاصرها حتى أذعن أهلها لطلب الأمان .

وفي العام التالي عادت الثورة فاضطرت في إشبيلية ، ومدبرها وزعيمها في تلك المرة أبو الصباح بن يحيى اليحصبي ، صديق عبد الرحمن وحليفه ، وكان أبو الصباح زعيم اليمنية في إشبيلية يوم قدوم عبد الرحمن إلى الأندلس ، فكان في طليعة من هرعوا يومئذ لتأييده ونصرته ، وقاتل معه يوم المسارة ، وغدا إلى جانب أبي عثمان وعبد الله بن خالد ، من خاصة أعوانه وأركان دولته . ولكن عبد الرحمن كان يحقد عليه ويتوجس منه ، لحديث نقل عنه يوم المسارة بوجوب التخلص من عبد الرحمن بعد التخلص من يوسف الفهري ورد الأمر إلى اليمنية (١) . وكان عبد الرحمن قد ولاه إشبيلية ، ثم عزله عنها لما ظهر من عجزه عن قمع الفتنة ، فغضب أبو الصباح وأظهر الخلاف ، واجتمع إليه أنصاره ، ورأى عبد الرحمن أن يأخذه بالحيلة والملاطفة ، فبعث إليه تمام بن علقمة يدعو إلى قرطبة للتفاهم ، ويبدل له ما شاء من الوعود ، فسار أبو الصباح إلى قرطبة في أربعمئة من رجاله ، واستقبله عبد الرحمن بالقصر ، وعاتبه على ما كان منه ، فأغلظ أبو الصباح في الجواب ، ولامه على النكث بوعوده له ، فأمر الفتيان بقتله ، فقتل طعنًا بالخناجر وانفض جمعه (سنة ١٥٠ هـ) .

ولم يمض قليل على ذلك حتى نشبت فتنة خطيرة من نوع جديد ، شغلت عبد الرحمن مدى الأعوام التالية ، وكان نشوبها في شمال شرقي الأندلس بين البربر ، وزعيمها ومثير ضرامها ، داعية بربري خطر يدعى شقنا أو شقيا بن عبد الواحد ، وأصله من بربر مكناسة ، وكان فقيهاً يعلم الصبيان ، فزعم ذات يوم أنه سليل النبي ومن ولد فاطمة والحسين ، وتسمى بعبد الله بن محمد . فذاعت دعوته بين البربر في تلك المنطقة ، وكانوا أكثرية بها . والحصومة بين العرب والبربر قديمة مؤتلة كما بينا ، وقد كان البربر دائماً على قدم الأهبة للثورة ضد العرب . ولما آنس الدعي الفاطمي قوة جمعه ، سار إلى شنت بريّة (٢) . فاستولى عليها وجعلها مركزه

(١) نصح الطيب ج ٢ ص ٦٦ ؛ وابن القوطية ص ٣٠ .

(٢) شنت بريّة وبالإسبانية Santaver من الكور الأندلسية القديمة التي اندثرت ، وكان موقعها يشغل مقاطعة قونقة اليوم ، وقاعدتها شنت بريّة تقع شرقي وادي الحجارة . وسيت كذلك عن اسمها القديم Santebria .

العام ، ثم سار في جموعه غرباً واستولى على ماردة وقورية ومدلين ، وعلى جميع المنطقة الواقعة حولها بين نهري التاجه ووادي يانة ، فقويت دعوته وعظم أمره ، واشتد بغيه وعيئه في تلك الأنحاء ، وأخذت العناصر المخالفة لعبد الرحمن من العرب في التحرك أيضاً . فعهد عبد الرحمن إلى والي طليطلة أن يجمع ثورة الدعى ، فبعث إلى شنت برية جيشاً بقيادة سليمان بن عثمان ، فخرج إليه الفاطمى في قواته ، فهزمه هزيمة شديدة ، وأسرقائه سليمان وقتله ، وزاد هذا الظفر في سلطانه وبغيه . فسار إليه عبد الرحمن بنفسه في العام التالى (سنة ١٥٢ هـ) ، واقتحم منطقة الثورة ، ونشبت بينه وبين البربر وقائع عديدة ثبت فيها البربر ، وامتنع الثائر بالجبال ، ولم يجد عبد الرحمن سبيلاً إلى مطاردته . فارتد إلى قرطبة ، وبعث إلى شنت برية مولاه بدرأ ليتابع القتال ، فاستمر الفاطمى ممتنعاً بصحبه في الجبال ، محاذراً لقاء الجيش المهاجم . وعاد عبد الرحمن لقتاله بنفسه في العام التالى (سنة ١٥٤ هـ) ، وشدد في محاصرته ومطاردته ، ولكنه لم يفلح أيضاً في حمله على مغادرة مواعه ، ثم بعث لقتاله في العام التالى مولاه عبيد الله بن عثمان ، فخرج الفاطمى للقائه واستمال جنده البربر ، وبث الخلاف إلى صفوفه ، فانحل عسكره وأنخن فيه الفاطمى ، ففر عبيد الله واستولى الثائر على معسكره وأسلاب جيشه ، وقتل جماعة كبيرة من وجهاء جنده (سنة ١٥٥ هـ) (١) .

وهكذا فشلت الحملات المتوالية لإخماد الثورة في تلك المنطقة الوعرة ، فعاد عبد الرحمن بجيش جديد إلى شنت برية ، ولكنه لجأ عندئذ إلى وسيلة جديدة لتمزيق شمل الثوار ، فاستقدم إليه كبير البربر في شرقي الأندلس واسمه هلال الميديونى ، وأقره على ما بيده من الأنحاء ، وأصدر له عهداً بولاية الأنحاء التى غلب عليها الفاطمى ، وفوض إليه أمر استخلاصها منه ، وكان لتلك الحيلة أثرها في بث الخلاف إلى صفوف البربر ، فانفض عن الفاطمى كثير من أنصاره ، واضطر أن ينسحب من شنت برية إلى الشمال ليعتصم بالجبال مرة أخرى ، وبيننا عبد الرحمن يجد في مطاردته ويقتحم معاقله وضياعه ، وينكل بأنصاره حيناً وجدوا ، إذ بلغه نشوب الثورة في إشبيلية ولبلة وباجة ، وقوامها اليمنية من عصابة أبى الصباح

(١) البيان المغرب ج ٢ ص ٥٦ و ٥٧ ؛ وابن الأثير ج ٥ ص ٢٢٤ ؛ وابن خلدون

وأنصاره . وكان على رأس الثورة في إشبيلية زعيمها القديم حيوة بن ملامس الحضرمي ، وفي باجة عبد الغافر اليحصبي ، وفي لبلبة عمر بن طالوت ، وهما من أبناء عمومة أبي الصباح ، وانضم إليهم كثير من البربر ، فحشد الثلاثة جموعهم واعتزموا السير إلى قرطبة في غيبة عبد الرحمن ، وكان قد استخلف عليها مولاه بدرأ (١) . فعاد عبد الرحمن إلى قرطبة مسرعاً ، ثم غادرها تَوَّأ إلى لقاء الثوار ، فالتقى بهم في وادي منبس على نهر «مبزار» أحد فروع الوادي الكبير ، ونشبت بين الفريقين في المبدأ عدة معارك محلية . ثم لجأ عبد الرحمن إلى الحيلة والخديعة ، فعهد إلى جماعة من وجهاء البربر من جنده ، أن يتصلوا بزعمائهم البربر من جند العدو ، وأن يقنعوهم بخطأ تصرفهم في نصره الثمينة ، وأنه إذا تغلب عليه العرب ، كانت العاقبة وبالاً عليهم أيضاً ، فانسَل الرسل إلى معسكر العدو تحت جنح الظلام ، وخاطبوا أبناء جنسهم بما تقدم ، وأخذوا عليهم العهود والمواثيق . وفي اليوم التالي نشبت بين الفريقين موقعة عامة . فنكث البربر وتقاعدوا عن القتال ، فهزم الثوار شر هزيمة ، وكثر القتل في جموعهم حتى قتل منهم زهاء ثلاثين ألفاً (٢) . وهلك معظم الزعماء الثأرين ، وفر عبد الغافر وركب البحر إلى المشرق ، وقرن عبد الرحمن ظفره بأجراء دموى آخر ، إذ قبض على ثلاثين من وجهاء إشبيلية ممن كانوا في جيشه وأمر بهم فأعدموا (سنة ١٥٧ - ١٥٨ هـ) .

وفي العام التالي عاد عبد الرحمن إلى مطاردة الفاطمي ، فالتجأ الثائر إلى الجبال كعادته ، ولم يجد عبد الرحمن سبيلاً إلى اللحاق به ، فغزا قورية وأنخن في تلك الأنحاء ، وكان أمر الفاطمي قد ضعف خلال هذه الأعوام وتضاءل جمعه ، ولكنه لبث يسيطر على شنت برية وماردة ، ولبث دعوته خطراً يهدد سلام الأندلس . فوجه عبد الرحمن لقتاله في العام التالي حملة قوية أخرى بقيادة تمام ابن علقمة وعبيد الله بن عثمان ، فلقبهما الفاطمي ووقعت بينهما معارك شديدة ، رجحت فيها كفته ، ثم التجأ إلى حصن شبطران بقرب شنت برية ، فحاصره تمام وعبيد الله مدى أشهر ، ولم يظفرا منه بطائل ، فعادا إلى قرطبة ، وخرج الفاطمي على أثر عودهما إلى شنت برية ، ونزل بقريه من أعمالها تسمى قرية العيون ،

(١) ويقول ابن الأثير إنه كان يستخلف عليها ولده سليمان (ج ٦ ص ٣) .

(٢) ابن القوطية ص ٣١ و ٣٢ .

وهناك ائتمر به اثنان من أصحابه هما أبو معن داود بن هلال وكنانة بن سعيد ، وانقضا عليه ذات يوم وقتلاه ، واحتزا رأسه وحملها إلى عبد الرحمن في قرطبة ، وبذلك انقضت جموعه ، وخبت ثورته ، بعد أن لبثت زهاء عشرة أعوام تحمل الدمار والسفك إلى شرقي الأندلس وغربها ، وتهدد سلطان عبد الرحمن بشر العواقب ، وحققت الخيانة في لحظة واحدة ما لم تحققه الحملات والبعوث المتعاقبة في أعوام طويلة . ولعل هذه الضربة الناجعة لم تكن بعيدة عن أصبع عبد الرحمن أو وحيه ، وقد كانت الخيانة والجريمة من بعض أسلحته في مقارعة خصومه ، وكاننا تحققان له في بعض الأحيان من الظفر ما لا تحققه أى الوسائل . وكان مصرع الفاطمي وانتهاء ثورة سنة ١٦٠ هـ (٧٧٦ م) (١) .

(١) أخبار مجموعة ص ١١١ ؛ وابن الأثير ج ٦ ص ١٧ .

الفصل الرابع

موقعة رونسقال أو باب شزروا

الثورة في الشمال . تحالف ابن يقظان والى برشلونة والحسين الأنصارى والى سرقسطة . هزيمة جيش عبد الرحمن وأسر قائده . سعى ابن يقظان لدى ملك الفرنج واستدعاؤه لغزو اسبانيا . تلبية شارلمان للدعوة . اتصال الزعماء الخوارج بالفرنج . سياسة الفرنج في تشجيع الثورة في الأندلس . صلة الخلافة العباسية بهذه السياسة . الصراع بين الأندلس والفرنج . اللون الدينى لهذا الصراع . أقوال الروايات اللاتينية في تأييد هذه الخاصة . مسير شارلمان إلى اسبانيا . اختراقه لناقار وحصاره لبنيماونة . مقاومة البشكنس . سقوط المدينة في يد الفرنج . مقدم سليمان وتسليمه للرهبان . زحف شارلمان على سرقسطة . مقدم بقية الجيش الفرنجى . تطور الحوادث . تحول الحسين وامتناعه بسرقسطة . فشل شارلمان في أخذها . اعتقاله لسليمان وارتداده . بواعث هذا الارتداد الفجائى . عود شارلمان إلى مهاجمة بنبلونة وتخريبها . بدء المسير للعود . عيشون ومطروح ولدا سليمان . تحالفهما مع الحسين الأنصار . سيرهما في قواتهما في أثر الفرنج . مسير شارلمان إلى البرنيه . أبواب البرنيه . رونسقال أو باب شزروا . مفاجأة الجيش الفرنجى وفصل مؤخرته . من هم الذين هاجموا . المسلمون أم البشكنس . المسلمون هم الذين دبروا الهجوم . معاونة البشكنس . وصف الرواية اللاتينية للهجوم . تزييق مؤخره الجيش الفرنجى . مصرع الفرسان والسادة الفرنج . أنشودة رولان وبعدها عن التاريخ الحق . مكانتها في أدب الفروسه . لماذا لم ينتقم شارلمان لهزيمته . مقارنة بين الروايتين العربية واللاتينية .

في ذلك الحين كانت ثمة حوادث هامة أخرى تقع في شمال الأندلس . وقد تتبعنا ثورة الفاطمى والبربر إلى نهايتها حرصاً على صلة الحديث . ونعود الآن بضع سنين إلى الوراء . ففي سنة ١٥٧ هـ (٧٧٤ م) ثار سليمان بن يقظان الكلبي (أو الأعرابي) والى برشلونة (أوبرشنونة)^(١) وجيرونه (جيرنده) ، والحسين ابن يحيى الأنصارى والى سرقسطة ، وهو من ولد سعد بن عبادة ، وتحالفا على قتال عبد الرحمن وخلعه . وكان استمرار الثورة في الجنوب ، وانشغال عبد الرحمن الدائم بقمعها ، وطبيعة الشمال الجبلية ومنعته ، مما يذكى عوامل الثورة في الولايات الشمالية ، ويشجع مشاريع الزعماء الخوارج . وكان عبد الرحمن يشغل يومئذ بمقاتلة الفاطمى ، فأرسل إلى الشمال جيشاً بقيادة ثعلبة بن عبيد الجذامى ، فهزمه

سليمان وأسرهم وتفرق جيشه (١٥٨ هـ - ٧٧٥ م) (١). واستفحل أمر الثورة في الشمال ، ولكن زعماء الثورة وعلى رأسهم سليمان بن يقطان لم يطمثوا إلى ذلك النصر المؤقت لما يعلمونه من عزم عبد الرحمن وبأسه وروعة انتقامه ، فكفروا في الاستنصار بملك الفرنج . وسار سليمان (وتسميه الرواية اللاتينية ابن الأعرابي) مع نفر من صحبه الخوارج ، إلى لقاء شارلمان أو كارل الأكبر في ربيع سنة ٧٧٧ م (١٦٠ هـ) ؛ وكان يومئذ يقيم بلاطه في مدينة بادربورن من أعمال وستفاليا (شمال غربي ألمانيا) ، ويعقد الجمعية الكبرى ، حيث كانت جموع السكسونيين المغلوبة تعمد للنصرانية ، بعد أن شنت شارلمان شملهم وفر زعيمهم فيد وكنت ؛ فهنا وقد عليه سليمان وصحبه ، وعرض عليه المحالفة على قتال عبد الرحمن ، واقترح عليه غزو الولايات الأندلسية الشمالية ، وتعهد بمعاونته ، وبأن يسلمه المدن التي يحكمها هو وصحبه من قبل أمير قرطبة ولاسيا سرقسطة ، وأخيراً بأن يسلمه أسيره القائد ثعلبة بن عبيد . وتضيف الرواية اللاتينية إلى ذلك أنه كان مع ابن الأعرابي ولد ليوسف الفهرى حاكم الأندلس السابق جاء ومعه صهره ليسعيا كذلك إلى خلع عبد الرحمن ، وتقول الرواية الإسبانية النصرانية ، إن الذي دعا شارلمان إلى غزو اسبانيا هو ألفونسو أمير إمارة ليون النصرانية (جليقية) . ولكن الروايتين العربية والفرنجية (اللاتينية) كلتاهما صريحة في أن الدعو جاءت من سليمان بن يقطان (الأعرابي) وحلفائه . والرواية العربية تقول لنا بمنتهى الوضوح ، إن سليمان استدعى قارله (كارل أو شارلمان) ملك الفرنج إلى بلاد المسلمين ، ووعده بتسليم برشلونة أو سرقسطة (٢) . وتوافق الرواية اللاتينية على ذلك ، وتزيد أن سليمان

(١) ويقدم إلينا الرازي بعض تفصيل عن ذلك . فيقول لنا إن سليمان بن يقطان الكلبي (وهو الأعرابي) كان من زعماء سرقسطة ، فلما ولي الثنز بدر مولى عبد الرحمن الداخل نقله إلى قرطبة ، فحرضه البعض على القيام بثار قومه اليمانية فخرج من قرطبة إلى سرقسطة ودخلها . وخرج لمحاربة ثعلبة بن عبيد سنة أربع وستين ومائة ، ونزل مدينة طرسونة ، ووالى حربه ، واضطرب على باب سرقسطة بمسكروه ، فافترس سليمان بن يقطان غفلكه ، وانتراق أهل الجيش ، فهجم عليه وأسر ثعلبة بن عبيد ، وبعث به إلى ملك الفرنج . وأهم مفارقة في رواية الرازي هو التاريخ المتأخر الذي يقدمه إلينا عن هذه الموقعة ، وذلك حسبما يتضح بعد من سير الحوادث (وقد نقل إلينا هذه الرواية المنذرى في كتابه ترصيع الأخبار الذي سبقته الإشارة إليه ص ١٢٥) .

(٢) أخبار مجموعة ص ١١٢ و ١١٣ ، وابن الأثير ج ٦ ص ٥ و ٢١ ، وابن خلدون

وحلفاءه أعلنوا خضوعهم لملك الفرنج وانضواءهم تحت حمايته^(١).
ولبي ملك الفرنج دعوة الثوار المسلمين ووافق على عروضهم . وبعث إليه سليمان بأسيره ثعلبة بن عبيد قائد عبد الرحمن ، عنواناً للثقة والتحالف ، فسجن في إحدى القلاع الفرنسية . وفي رواية أخرى أنه سلمه إليه عقب مقدمه إلى اسبانيا . وعلى أي حال فقد كان حصول هذا الأسير ، وهو من خاصة عبد الرحمن وأكابر وزرائه في يد ملك الفرنج ، ضربة لعبد الرحمن ، ورهينة قيمة يمكن استغلالها . وكان سليمان زعيم أولئك الخوارج يعمل مستقلاً لنفسه ، ويرى قبل كل شيء إلى تحطيم سيادة قرطبة ، وإلى الاستقلال بما في يده تحت حماية ملك الفرنج . ولكن ملك الفرنج كانت له مشاريع أخرى . وكانت السياسة الفرنجية ترمي إلى تعضيد روح الثورة والحلاف في إسبانيا المسلمة ، ولاسيما منذ انهيارت سيادة الإسلام في جنوبي فرنسا وارتد المسلمون إلى ما وراء البرنيه . وبدأ تطبيق هذه السياسة منذ عهد بين أبي شارلمان . وكان سليمان بن يقظان زعيم الثورة في الشمال يتصل بملك الفرنج منذ سنة ٧٦٠ م ، أعنى منذ استيلائه على أربونة واتصال الحدود الفرنجية بحدود اسبانيا المسلمة ، ويسعى بهذا التحالف إلى تأييد استقلاله . وهكذا بدأت العلاقات تنتظم بين الزعماء المسلمين ، الخوارج على حكومة قرطبة ، وبين الفرنج المتربصين بدولة الإسلام في الأندلس ، فكان الزعماء الخوارج كلما حاولوا الثورة والاستقلال بحكم مدينة أو ولاية ، اتجهوا إلى الفرنج يستمدون عونهم ومناصرتهم ، وكان الفرنج يسارعون إلى تلبية هذه الدعوات ، ويتخذونها ذريعة للتدخل في شئون اسبانيا المسلمة ، وإذكاء روح التفرق فيها ، وسرى كيف استطاع ملوك الفرنج تنفيذ هذه السياسة في فرص عديدة متعاقبة . والظاهر أن الخلافة العباسية في المشرق لم تكن بعيدة عن تأييد هذه السياسة في المغرب ، والتوسل بذلك إلى مناوأة بني أمية الذين استطاعوا أن ينتزعوا هذا القطر النائي من أقطار الخلافة ، ويقيموا فيه دولتهم الداهية على دعائم جديدة ، فإن الرواية الفرنجية تحدثنا عن

(١) تراجع أفعال الرواية اللاتينية في مؤلف العلامة الأستاذ بيدال : **Ramón Menendez**

Pidal: La Chanson de Roland y el Neotradicionalismo (España-Calpe, Madrid

p. 179-180 (1959) وهو مؤلف ضمن جامع، وأحدث ما أخرجه العلامة الإسباني، وهو يتناول حوادث

موقعة باب الشزرى بإفاضة شافية وتحليل ممتع . وراجع أيضاً موسوعة بوكيه **Bouquet. Vol. V.**

Reinaud : Invasions des Sarrazins, en France, p. 94 وكذلك p. 14, 40 & 142

علائق المنصور وبيبين وتقول لنا ، إن بيبين بعث في سنة ٧٦٥ م سفارة إلى بغداد ، ورد المنصور بإرسال سفراء إلى ملك الفرنج وفدوا عليه بعد ذلك بثلاثة أعوام ، وقضوا حيناً في البلاط الفرنجي في مدينة مترز^(١) . وسار شارلمان ولد بيبين على سياسة أبيه ، فكان بينه وبين الرشيد فيما بعد تلك المكاتبات والسفارات الشهيرة التي فصلتها الرواية الفرنجية أيضاً ، والتي نعود إليها في مقامها المناسب . وسرى فيما بعد ، أنه في الوقت الذي كان فيه يعقد هذا التحالف بين ثوار الشمال وبين ملك الفرنج ، كانت ثمة محاولات تبذل لنشر الدعوة العباسية في الأندلس حيث نزل عبد الرحمن بن حبيب الفهري المعروف بالصقلبي في تدمير يدعو للخلافة العباسية على نحو ما تفصل بعد .

وكانت إسبانيا المسلمة تجوز إزاء هذا الخطر الأجنبي الذي يربص بها ظرفاً من أدق ظروفها ، فقد كانت مصايرها تهتز في يد القدر ، وكان الإسلام يجوز فيها معركة الحياة والموت ، بعد أن كان قبل ذلك بحقبة يسيرة يتدفق إلى ما وراء البرنيه بقوة ، ويسود معظم أنحاء فرنسا الجنوبية . وكانت مملكة الفرنج بالعكس قد توطدت دعائمها ، وانزعت من الإسلام كل معاقلة في فرنسا ، بعد أن لبث مدى حين يزعجها ويهدد وجودها . وبينما اجتمعت كلمة الفرنج بزعامة الأسرة القارية القوية ، إذا بالإسلام في إسبانيا تعصف به رياح التفرق من كل صوب وتمزقه شر ممزق ، وإذا بالأندلس تغدو بركاناً من القلاقل والحروب الأهلية . وكان كارل الأكبر (شارلمان) مذ ولي العرش (سنة ٧٦٨ م) يشغل عن التدخل في إسبانيا المسلمة ، بمحاربة القبائل الوثنية السكسونية فيما وراء الرين ليرد خطر اعتدائها على مملكته ، وليخضعها إلى سلطانه . وكانت غزوات الأسرة القارية تتخذ فيما وراء الرين منذ عهد كارل مارتل ، جد كارل الأكبر ، لوناً دينياً عميقاً كالذي تتخذه حروب الفرنج مع العرب في غاليس . ذلك أن حروب الفرنج فيما وراء الرين كانت تتخذ مظهر حماية النصرانية ، من خطر الوثنية المتدفق من المشرق ، وكانت حروبهم في غاليس تتخذ مظهر حماية النصرانية ، من وثبات الإسلام المتدفق من الجنوب . وكانت الكنيسة روح هذه المعارك توحى بها وتذكىها ، إلى جانب شهوة الظفر والفتح . فلما ظفر الفرنج برد تيار الإسلام إلى ما وراء البرنيه ، واستولوا

على جميع ثغوره ومعاقله في فرنسا ، وفترت تلك النزعة الدينية العميقة ، التي جعلت غاليس مدى نصف قرن مسرحاً لصراع العرب والفرنج ، بقيت الأطماع والبواعث السياسية ، تحفز الفرنج إلى قتال الإسلام ومطاردته ، وانتزاع اسبانيا أو على الأقل ولاياتها وثغورها الشمالية من قبضته ، لتكون معقلاً لدرء فورانه ووثباته من الجنوب .

وتشير الروايات اللاتينية إلى غايات السياسة الفرنجية من التدخل في شئون اسبانيا المسلمة ، وتحديثنا عن هذا المزج بين الغايات الدينية والدينيوية . فأما عن الناحية السياسية فإن إجنهارت مؤرخ شارلمان يقول لنا إن الحملة التي نظمها الملك الفرنجي إلى اسبانيا كان يقصد بها مهاجمة قرطبة . وإنه ل يبدو من ضخامة الجيش الذي حشده شارلمان ، أن الأمر لم يكن متعلقاً فقط بالاستيلاء على المدن التي وعد سليمان بن يقظان بتسليمها ، وأن شارلمان كان يرمي بالعكس إلى السيطرة على اسبانيا كلها ، أو على الأقل نصفها الشمالي . ويقول لنا «أبدآل» وهو مؤرخ حملة شارلمان الإسبانية ، إن الأمر لم يكن متعلقاً بغاية دينية قوامها تحطيم دولة «كافرة» ولكن الحملة كانت ترمي إلى غاية سياسية قوامها أن يوضع حد لأخطار الغزوات الإسلامية لفرنسا . ويرى الأستاذ بيدال أن شارلمان لم تكن له غاية دينية خالصة في أية حملة من حملاته ، وأن الباعث كان دائماً سياسياً ، ولكنه يظن في ثنيته الغاية الدينية . ذلك لأن المشكل الوحيد لإخضاع شعب «كافر» هو حمله على اعتناق النصرانية ، وهذا ما وقع بالنسبة لحملة شارلمان ضد «الأفار»^(١) ، وضد «السكسونيين» .

ومن ثم فقد كان مسير شارلمان إلى اسبانيا يظن الغاية الدينية إلى جانب الغاية السياسية ، وهذا ما تؤيده الرواية اللاتينية *Anales Mettenses* ، التي كتبت في حياة شارلمان ، وفيها «أن كارلوس قد هزته شكاوى النصراري الإسبان الذين نكل بهم المسلمون فسار بجيشه إلى هنالك» . ويضيف الأستاذ بيدال إلى ذلك «انه وإن كان الإسلام يتسم حقاً بالتسامح ، إلا أن النصراري واليهود في اسبانيا كانوا يعانون ضغطاً وإرهاقاً في ظل الحكومة الإسلامية ، ومن ثم فقد كان للنصراري المستعربين

(١) الأفار أو الأفاريين *Avars* هم مجموعة من القبائل القوية كانت تسكن حوض نهر الدانوب الأوسط . وقد حطمهم شارلمان وانتهى الأمر بتبصيرهم (٧٩١ - ٧٩٥ م) .

أن يستقبلوا شارلمان كمحرر لهم . وتؤيد هذه النزعة الدينية للحملة ، روايات لاتينية كثيرة أخرى معاصرة ولاحتمة . بيد أن أقطع دليل على روح الحملة الدينية هو أن شارلمان قد أبلغ البابا هادريان بأمرها قبل أن يضطلع بها ، وأن البابا بارك عزيمته ووعده بإقامة الصلوات ، لكي يعود ظافراً إلى مملكته^(١).

وكان كارل حينما استدعاه الخوارج المسلمون لغزو اسبانيا ، قد انتهى من الحرب في سكسونية ، وهزم القبائل الوثنية الجرمانية ، وأخضع زعيمها القوى «فيدوكنت» وألجأه إلى الفرار ، فجاءت الدعوة إليه في وقت ملائم . وانتظر كارل حتى مضى الشتاء ، ثم سار إلى الجنوب وقضى أعياد الفصح في أكويتين على مقربة من بوردو . وفي فاتحة ربيع سنة ٧٧٨ م ، جمع قواته المؤلفه من فرنج نوستريا ومن الجرمان واللونبارد وفرق من بريتانيا وأكويتين ، واخترق ولاية أكويتين ، وقرر أن يفتح الغزوة الإسبانية توا حتى لا يفاجئه الشتاء ، وقسم جيشه الضخم إلى قسمين ، عبر أحدهما جبال البرنيه من الناحية الشرقية ، وعبرها القسم الثاني بقيادة كارل نفسه من الناحية الغربية ، من الطريق الروماني القديم فوق آكام «جان دي لاپور» الشاهقة التي تشرف على مفاوز رونسفال الوعرة ، على أن يجتمع الجيشان على ضفاف نهر الإيبرو أمام سرقسطة حيث يلتقي شارلمان بحلفائه المسلمين . وكان عبوره لجبال البرنيه من «باب الشزرى» في شهر أبريل على الأرجح . واخترق شارلمان بلاد البشكنس أوناغار الحديثة ، وحاصر عاصمتها بنبلونة ، وهي قلعة الناغارين ، واستولى عليها بعد قليل . وقد كان أولئك الناغاريون دائماً شعبة خاصة من «البشكنس» ، وكانت بنبلونة دائماً مدينة البشكنس منذ أيام سترابون^(٢). وقد كان البشكنس دائماً يحاولون الاحتفاظ باستقلالهم منذ أيام القوط ، وكثيراً ما لجأوا في سبيل ذلك إلى الخروج والعصيان ، والامتناع بهضابهم وجبالهم الشاهقة ، وكان هذا شأنهم حينما وفد شارلمان بقواته الضخمة ، فقد كانوا يحرصون على هذا الاستقلال ، ولا يودون الخضوع لأية جهة ، لا إلى الفرنج ، ولا إلى مملكة (جليقية) ، ولا إلى إمارة قرطبة الإسلامية . ومن ثم فقد اضطر شارلمان إلى محاصرة بنبلونة وأخذها بالعنف . وهنا تبرز هذه الحقيقة ، وهي

(١) راجع : R.M. Pidal : *ibid.*, p. 141, 182, 183 & 184.

(٢) R. M. Pidal : *ibid.*, p. 186

أن شارلمان بغزو بلاد البشكنس ، كان يحارب أمة من النصارى ، وهو في ذلك لم تكن تحدوه سوى بواعث السياسة والفتح . ولم تكن الزعة الدينية خاصة بارزة في تلك الغزوة . أما الجيش الفرنجي الذي اخترق شرق البرنيه ، فقد كان يسير في منطقة يسيطر عليها الفرنج ، مذ تقلص عنها سلطان المسلمين ، منذ أيام بين والد شارلمان ، ومن ثم فقد كان يخترق بلاداً صديقة ، يرحب أهلها بمقدمه ، أملاً في عونته وحمايته .

وتقول لنا بعض الروايات اللاتينية^(١) إن سليمان بن يقطان (ابن الأعرابي) ، كان يتردد عندئذ بانتظام على بنبلونة ، وإنه وفقاً لتعهداته سلم الرهائن إلى شارلمان ، وإنه قد وفد كذلك على بنبلونة أبو ثور بن قسي حاكم وشقه ، وقدم أخاه وولده رهينة ، وقد بقيت هذه الرهائن في معسكر شارلمان حتى وقعت النكبة . بيد أنه توجد روايات أخرى مفادها أن الرهائن سلمت فيما بعد ، حين وفود شارلمان على سرقسطة . وعلى أي حال ، فقد سار شارلمان بعد استيلائه على بنبلونة ومعه سليمان إلى سرقسطة^(٢) ، وهي معقد المشروع كله حسبما اتفق عليه في بادربورن ؛ وكان القسم الآخر من الجيش ، قد اخترق في تلك الآونة منطقة جيرندة (جيرة) و برشلونة ، واتجه غرباً إلى سرقسطة حيث انضم إلى القوات التي يقودها شارلمان ، وكان شارلمان ، يعتقد حينئذ سار إلى سرقسطة أنه سيلقى هناك حلفاءه المسلمين على أهبة لمعاونته وتحقيق رغباته في الاستيلاء على المدينة الكبرى . ولكن الحوادث كانت تطورت عندئذ ، ودب الخلاف بين الخوارج المسلمين . وكان الحسين بن يحيى الأنصارى والى سرقسطة حليف سليمان منذ البداية ، وكان عضده في مشروعه لاستدعاء الفرنج . وبالرغم من أنه لم يذهب إلى بادربورن ، ولا إلى بنبلونة ، فقد كان موافقاً على الحلف الذي عقده سليمان مع شارلمان ، وعلى العهد التي قطعها له . والظاهر أن الحسين نقم على سليمان موقف الصدارة والزعامة الذي اتشح به إزاء الفرنج ، فنشبت بينهما الخصومة ، أو أنه خشي عاقبة التورط في حلف الفرنج . فعدل موقفه في آخر لحظة حينما شعر بمسير الفرنج إلى مدينته والظاهر أيضاً أنه لم يكن في سرقسطة حينما أقبل إليها الجيش الفرنجي ؛ إذ تقول

R. M. Pidal : Ibid., cit. Anales Breves. p. 187 (١)

(٢) ابن الأثير ج ٦ ص ٥ .

لنا الرواية الإسلامية ، إنه سبق إليها سليمان ، وتحصن بها ، فلما أشرف شارلمان مع حليفه سليمان على سرقسطة ، رفض الحسين أن يستقبله ، وألنى المدينة محصنة متأهبة للدفاع والمقاومة ، فعبر نهر الإيبرو إلى الضفة الأخرى ، وقدم إليه سليمان رهائن عدة من الأعيان والأكابر ، وفي مقدمتهم ثعلبة بن عبيد قائد عبد الرحمن وكان أسيراً لديه حسبما تقدم . ولكنه لم يستطع أن يفعل شيئاً لإقناع الحسين ففتح أبواب سرقسطة ، ولم يستطع شارلمان من جهة أخرى الاستيلاء عليها ، وردت المدينة المحصورة كل هجمات بشدة^(١) ، وعجز سليمان أن يحقق شيئاً من وعوده في تسليم المدن والحصون الواقعة في تلك المنطقة . ولم يشأ ملك الفرنج أن يخوض في تلك الوهاد والهضاب الصعبة معارك لم يتأهب لخوضها ، وارتاب من جهة أخرى في نية سليمان وموقفه ، فقبض عليه^(٢) ، وارتد بجيشه نحو الشمال الشرقي في طريق العودة . وكان ذلك في شهر يولييه سنة ٧٧٨ م (شوال سنة ١٦١ هـ) .

بيد أن هذه الوقائع ينقصها شيء من الوضوح . ذلك أنه لم تقع بين الفريقين معارك ذات شأن . فهل ارتد ملك الفرنج من تلقاء نفسه ، أم اضطر مرغماً إلى الارتداد لبواعث وأسباب لا نعلمها ؟ .

يقول الأستاذ بيدال « إن الانسحاب لا شك فيه . ولكن فشل حملة الملك الفرنجي لا تفسرها لنا هجمات المحصورين . إذ كيف يرتد هذان الجيشان الفرنجيان اللذان يضمن هذه الجموع من جند بريتانيا ونوستريا وبافاريا ولومبارديا ؟ وكيف يرتد كارل وهو في عنفوان قوته بهذه السهولة ؟ كيف يرتد هذا العاهل القوي وجيشه العظيم ما يزال سليماً لم يمسه ، دون أن يخضع الحسين ، ودون أن يفتتح أواسط إسبانيا ؟ »^(٣) .

إن الروايات اللاتينية تحاول أن تلقى الضوء على ذلك الغموض ؛ فيقول لنا «أبدال» السالف الذكر ، إن شارلمان قدر أنه قد يجد نفسه وحيداً في قلب شعب معاد ، مع صعوبة التموين لجيشه العظيم . بيد أنه يوجد تعليل آخر أقوى وأوضح ، تقدمه إلينا رواية لاتينية أخرى في نصها الآتي : « إن السكسون المارقين حينما

(١) أخبار مجموعة ص ١١٣ .

(٢) ابن الأثير ج ٦ ص ٥ .

(٣) R.M. Pidal : Ibid. ; p 188

علموا أن الملك كارلوس في منطقة سرقسطة، قد شقوا الطاعة ، وخرّبوا وأحرقوا الأراضي حتى ضفاف الرين . ونمى ذلك إلى كارلوس وهو في اسبانيا ، فلما وقف عليه عاد مسرعاً إلى فرنسا^(١) . وربما كان في ذلك خير تفسير لانسحاب شارلمان ، وتركه سرقسطة لمصيرها .

ارتد شارلمان على رأس قواته المجتمعة وفي ركبه سليمان أسيره وعدد من الرهائن وسار شمالاً نحو بلاد البشكنس . وكان الناغاربيون في تلك الأثناء قد جمعوا فلولهم ، واعتزموا الدفاع عن حاضرتهم بنبلونة وعن حرياتهم التالدة ، خصوصاً وقد شجعتهم وقفة سرقسطة وصاحبها الحسين ضد الملك الفرنجي ، وانضم إليهم كثير من المسلمين من أبناء الأنحاء المجاورة، للتعاون في دفع العدو المشترك ؛ ولكن شارلمان هاجم بنبلونة بعنف ، ولم تجد بسالة الناغاربيين وحلفائهم المسلمين شيئاً ، فتركوا المدينة ، وتفرقوا في مختلف الأنحاء ؛ واستولى شارلمان على بنبلونة للمرة الثانية ، وهدم حصونها وأسوارها حتى لا تعود إلى المقاومة إذا عاد إلى تلك الأنحاء ، ولكي يمهد لحيشه طريق العود المأمون إلى فرنسا .

وغادر شارلمان بنبلونة متجهاً إلى جبال البرنيه من طريق هضاب رونسقال المؤدية إلى باب الشزرى . فما الذي حدث عندئذ ؟ تقول الرواية العربية إن شارلمان « لما أبعد من بلاد المسلمين واطمأن ، هجم مطروح وعيشون ابنا سليمان في أصحابهما ، فاستنقذا أباهما ورجعا به إلى سرقسطة »^(٢) . وفي هذه الكلمات القليلة تشير الرواية العربية إلى النكبة الهائلة التي أصابت الجيش الفرنجي أمام باب الشزرى والتي تقدم إلينا الروايات اللاتينية اللاحقة تفاصيلها .

والظاهر أيضاً من الرواية العربية أن ولدى سليمان ، حينما قبض شارلمان على أبيهما ، عادا إلى الاتفاق مع الحسين بن يحيى على مقاومة الفرنج ، وجمعا في الحال قوات أبيهما وأتباعه، وسارا بجيشهما في أثر ملك الفرنج يحاولان مهاجمته وإنقاذ أبيهما من أسره . وكان شارلمان في ذلك الحين قد غادر بنبلونة بعد تخريبها متجهاً صوب جبال البرنيه ، ليعبرها كرة أخرى إلى فرنسا ، وكان عبوره من نفس الطريق التي أتى منها ، أعنى من مفاوز رونسقال . ويقع ممر رونسقال Roncesvalles ،

(١) R. M. Pidal : ibid ; cit. Chronicon Moissiacense ; p. 189

(٢) ابن الأثير ج ٦ ص ٥ .

الذى يسمى بالعربية «باب شيزروا»^(١)، أو باب الشزرى ، فى طرف البرنية الغربى شمال شرقى بنبلونة ، وعلى قيد عشرين كيلومتر منها ، وهو أحد ممرات عدة كانت تستعمل منذ عهد الرومان لاختراق البرنيه من الشمال أو الجنوب . وهى نفس الممرات أو الأبواب التى كان يستعملها العرب للعبور إلى غاليس^(٢) . وقد لبثت هذه الجبال الوعرة الشاهقة على ممر القرون حاجزاً منيعاً يفصل بين شبه الجزيرة الإسبانية وبين غاليس ، ولا يتأتى للغزاة ، عبوره إلا خلال هذه الممرات الشهيرة . فى مفاوز رونسفال الوعرة ، وتجاه ممر البرنيه المسمى بهذا الاسم أعنى باب شيزروا ، وقعت المفاجأة الهائلة . ذلك أن الجيش الفرنجى ما كاد يبدأ عبور الجبال ، حتى أشرف المسلمون بقيادة عيشون ومطروح على مؤخرته ، وهاجموه بشدة رائعة ، وفصلوا عنه مؤخرته ، وانزعوا منها الأسلاب والأسرى ، وفهم سليمان بن يقظان . والرواية العربية صريحة فى أن المسلمين هم الذين دبروا هذا الهجوم الفجائى ، على مؤخرة الجيش الفرنسى ، ولكن بعض الروايات اللاتينية التى تتحدث عن الموقعة ، تقول لنا إن الذين

(١) هذه هى تسمية الشريف الإدريسي ، وهى مشتقة من الاسم الرومانى القديم **Portus Ciserei**

أو **Portus Sizarac**

(٢) يقدم لنا الشريف الإدريسي وصفاً دقيقاً لجبال البرنيه التى تسمى فى الجغرافية العربية بجبال البرت أو البرتات كما قدمنا ، وللأبواب الرومانية التى كانت بها يقول : « وطول هذا الجبل من الشمال إلى الجنوب مع سير تقويس سبعة أيام ، وهو جبل عال جداً صعب الصعود ، وفيه أربعة أبواب فيها مضايق يدخلها الفارس بعد الفارس . وهذه الأبواب عراض لما مسافات وهى منحرفة الطرق . وأحد هذه الأبواب الباب الذى فى ناحية برشلونة ويسمى « برت جاقا » (چاكا) ؟ والباب الثانى الذى يليه يسمى « برت أشبرة » ؟ والباب الثالث منها يسمى « برت شيزروا » **Roncesvalles** وطوله فى عرض الجبل خمسة وثلاثون ميلاً ، والباب الرابع منها يسمى « برت بيونة » . ويتصل بكل برت منها مدن فى الجهتين ، فإيل برت شيزروا مدينة بنبلونة ؟ والياب المسمى جاقا عليه مدينة جاقا . (راجع نزهة المشتاق للشريف الإدريسي ؛ وكذا وصف الإدريسي لجغرافية الأندلس ص ٦٥ من طبعة **Saavedra**) وظاهر أن كلمة برت تعنى الباب أو الممر ، وأصلها من الإسبانية **Puerta** ، وقد سميت جبال البرنيه بالعربية البرتات نسبة إلى الأبواب والممرات المذكورة . والجغرافية الحديثة لا تختلف كثيراً عما تقدم ، وفيها أن هذه الأبواب والممرات خمسة : (١) ممر برينيان ، بين برشلونة وأربونة (٢) ممر بوكيردا الموصل إلى شرطانية (٣) الممر بين بنبلونة وسان چان دى بيبيدور (ويسمى الإدريسي شنت جوان) وهو باب شيزروا (٤) ممر تولوز (طلووشة) إلى بيونة (ه) ممر چاكا . وكانت هذه الأبواب أو الممرات تستعمل لاختراق الجبال حين الغزو إلى فرنسا ومنها فى طريق العودة .

هاجموا مؤخره شارلمان حين ارتداده ، هم البشكنس النصارى انتقاماً لما أنزله الفرنج ببلادهم وعاصمتهم بنبلوته من العيث والتخريب . وإليك ما تقوله هذه الرواية : « إن شارلمان عاد من سرقسطة إلى بنبلوته ، وهدم أسوار هذه المدينة من أساسها لكي لا تستطيع الثورة عليه وقرر العودة ، وبدأ يجوز شعب البرنيه . وهنا ، وفي أرفع نقطة هجم البشكنس ، وقد كانوا يكمنون في المؤخرة ، وأوقعوا الخلل في الجيش كله ، فساده أما اضطراب وجلبه ، وبالرغم من أن الفرنج أبدوا تفوقهم على البشكنس ، سواء في السلاح أو الروح المعنوية ، فقد بقوا هم الأضعف بسبب رداءة الموقع وعدم التكافؤ في وضع المعركة » (١) .

وهنا يحق لنا أن نسأل إزاء هذا التناقض بين الروایتين ، من هم الذين دبروا هذا الهجوم على مؤخره الجيش الفرنجي ؛ أم هم المسلمون وحدهم حسبما تقرر الرواية العربية ، أم هم البشكنس وحدهم حسبما تقرر الرواية الفرنجية ؟ يقول الأستاذ بيدال ، إنه لمن غير المعقول ، بل ومن المستحيل أن يقوم البشكنس وحدهم بمهاجمة مؤخره جيش عظيم كجيش شارلمان ، والأكثر احتمالاً هو أنهم يبحثون عن العون ضد المعتدى الخارجي ، وإنه لذلك من غير المعقول أن يستطيع إبننا سليمان وحدهما انتزاع الأسرى من الجيش الفرنجي ، وذلك في الأرض المكشوفة ما بين سرقسطة وبنبلوته ، وإنه لا يمكن الاعتقاد بأى حال بأن يسمح جيش شارلمان لنفسه أن يُفاجأ مرتين في أيام قليلة ، وإذا فلا بد أن البشكنس والمسلمين معاً قد فاجأوه في شعب البرنيه : البشكنس الذين أثارهم تخريب بنبلوته ، والمسلمون الذين يحاولون استنقاذ ابن الأعرابي والرهائن (٢) .

ثم يقول العلامة الإسباني « إنه باستعراض سائر الروايات يبدو أن هناك حقيقة تاريخية ، وهي أن المسلمين تعاونوا مع البشكنس في موقعة باب الشزرى ؛ وأن أنشودة رولان ، وهي مستمدة من أناشيد معاصرة للنكبة ، هي أصح من الرواية اللاتينية *Anales Regios* . ونقول نحن إن هذا الاستعراض لمختلف الروايات يدل على أن المسلمين هم الذين دبروا الهجوم على مؤخره الجيش الفرنجي ، وإنه

(١) *Anales Regios* hasta 829; cit. por R.M. Pidal : *ibid* ; p. 191 & 192

(٢) *Conde* : *ibid.*, V.I. p.201 وراجع أيضاً R. M. Pidal : *ibid* ; p. 193&194

و *Dozy* : *Hist.* V. I. p. 243 & notes . وهل أدل على أن العرب هم الذين مزقوا مؤخره الفرنج من أنشودة رولان الشهيرة ، التي نتحدث عنها بعد .

فما يرجح قد اشتركت معهم جموع كبيرة من البشكنس في هذا الهجوم ، وإن مضمون أنشودة رولان حسبما تقدمه بعد ، يؤكد هذا الاستنتاج في إسناد الدور الرئيسي في الواقعة إلى المسلمين .

وقد وصفت لنا إحدى هذه الروايات اللاتينية ، تعاون المسلمين والبشكنس في الهجوم ، وفيها «أن جيش شارلمان كان يتكون من خمسة آلاف فارس من ذوى الأسلحة الثقيلة وعدد مماثل من المشاة ، وأن المؤخرة كانت تتكون من ألف فارس ومعها دواب الحمل ، وأن الكمين وقع في الأماكن الصاعدة من الطريق المعبد . وقد تعاون بشكنس بنبلونة والمسلمون ولاسيما مطروح وعيشون ولدى ابن الأعرابي ، وكان هذا التحالف ضرورياً ، لأن المسلمين كانوا في حاجة إلى المعرفة الدقيقة لهذه الوهاد وهو ما يتقنه البشكنس ، وكان البشكنس بحاجة إلى مقدرة المسلمين في التنظيم العسكري ، وهما معاً قد استطاعا أن يسحقا مؤخرة هذه الصفوف التي ارتجت لها سائر إسبانيا»^(١) .

وقع هذا الهجوم الفجائي من المسلمين على مؤخرة الجيش الفرنجي بمعاونة البشكنس ، فأسفر عن أروع نتيجة يمكن تصورها . ذلك أن الفرنج لم يحسنوا الدفاع عن أنفسهم في تلك الشعاب الضيقة المنحدرة . وقد فصلت مؤخرة الجيش الفرنجي ، وانزعت منها الأسلاب والأمتعة وفي مقدمتها الخزانة الملكية ، وكذلك الرهائن ، وفي مقدمتهم سليمان ، ومزقت المؤخرة نفسها شرمزق ، وهلك خلال المعركة الهائلة عدد عظيم من سادة الجيش الفرنجي وفرسانه ، ولم تسمح المفاجأة المذهلة بأى عمل أو محاولة منظمة لإنقاذ الفرق المنكوبة . وكانت نكبة مروعة لبث صداها يتردد مدى عصور في أمم الغرب والنصرانية .

وتضع الرواية الفرنجية تاريخ الواقعة في ١٨ أغسطس سنة ٧٧٨ (ذى القعدة سنة ١٦١ هـ)^(٢) . وقد رأينا فيما تقدم كيف تقنع الرواية العربية بالإشارة إليها في

Anales Regios, cit. por R. M. Pidal: ibid. p. 197 (١)

(٢) ولكن الرواية العربية تقدم تاريخها عن ذلك فتضمها في سنة ١٥٧ هـ (٧٧٤ م) وهي رواية ابن الأثير (ج ٦ ص ٥) والمقرئ في نفح الطيب (ج ٢ ص ٧٣) . والظاهر من نص الرواية العربية أنها تنصرف هنا إلى بداية الحوادث لا إلى الواقعة ذاتها ، وقد وقعت فيما بعد ، وهو ما يفسر التباين بين التاريخين . ولا ريب أن الرواية الفرنجية أقرب إلى الصحة والتحقيق لأنها معاصرة قريبة من الحوادث .

عبارات موجزة ، وإن كانت مع إيجازها في منتهى الدقة ، وكيف أن الرواية اللاتينية الفرنجية والكنسية تفيض بالعكس في تفاصيلها إفاضة واضحة ، وقد أشرنا فيما تقدم إلى بعض هذه الروايات التي اقتبسنا بعض نصوصها ؛ وربما كانت رواية إجنهارت (أينهارت) مؤرخ شارلمان ، عن الموقعة ، هي أدق هذه الروايات وأوثقها ، فقد كتبت في سنة ٨٢٩ م بعد وفاة شارلمان بقليل ، واعتمد فيها على كثير من أقوال المعاصرين وشهود العيان . وهو يفصل لنا حوادثها ويذكر من هلك فيها من الأمراء والسادة ، ومنهم إيجهارد رئيس الخاص ، وأنسلم محافظ القصر ، وهردولاند حاكم القصر البريتاني ، وكثير من الرؤساء ورجال الخاص والحاشية . وهردولاند ، هو رولان Roland بطل الأنشودة الشهيرة ، التي نظمت فيها بعد عن هذه الموقعة ، واستمدت من أناشيد معاصرة لها ، والتي ما زالت أترأ خالداً لقريض الفروسية في العصور الوسطى . بيد أن أنشودة رولان تنحرف في كثير من مناحيها إلى الأسطورة . وقد اتخذت الأسطورة من حوادث الموقعة موضوعاً لقصة حربية حماسية حرفت فيها الوقائع الأصلية أما تحريف ، ولكنها تستبق مكان الموقعة ، وبعض أشخاص التاريخ . وقد رأينا أن نورد فيما يلي خلاصة هذه القصة أو الأنشودة الشهيرة :

« غزا شارلمان إسبانيا ، ولبت يحارب فيها سبعة أعوام ، حتى افتتح ثغورها ومدنها ، ما عدا سرقسطة ، وهي معقل الملك العربي مارسيل . وكان يعسكر بجيشه بجوار قرطبة ، حين جاءته رسل مارسيل يعرض عليه الطاعة ، بشرط أن يجلو الفرنج عن إسبانيا ، فعقد شارلمان مجلساً من البارونات ومنهم رولان ابن أخيه . وكان رولان يرى أن تستمر الحرب ، ولكن فريقاً آخر من السادة برآسة جانلون كونت ماينانس ، كان يرى الصلح والمهادنة ، فغلب رأى هذا الفريق ، لأن الفرنج سئموا الحرب والقتال ، وأرسل جانلون إلى الملك مارسيل ليعقد معه شروط الهدنة . فأغراه مارسيل واستماله بالتحف والذخائر ، واتفق معه على الغدر برولان وفريقه . ثم عاد إلى شارلمان وزعم أن مارسيل قبل شروط الفرنج ، وبذا قرر شارلمان الإنسحاب . وتولى رولان قيادة المؤخرة . وكان معه الأمراء الإثنا عشر ، وزهرة الفروسية الفرنجية . ولما وصل الجيش إلى قمة الممرات الجبلية رأى أوليفر أحد الأمراء ، جيشاً من العرب ، يبلغ أربعمائة ألف مقاتل .

فتصرع إلى رولان أن ينفخ في بوقه ليدعو شارلمان إلى نجده ، فأبى رولان ، وانقض الجيش الهاجم على مؤخرة الفرنج ، ونشبت بينهما عدة معارك هائلة . واستمر رولان يأبى طلب النجدة حتى مزق جيشه ولم يبق منه سوى ستين رجلاً ، وعندئذ نفخ في بوقه يدعو شارلمان : ثم قتل بقية أصحابه ، ولم يبق سوى رولان وأوليفر واثني آخرين . ولما شعر العرب أن شارلمان سيرتد بجيشه لقتالهم ، قرروا الانسحاب . وكان زملاء رولان الثلاثة قد قتلوا ، وأئخن رولان نفسه جراحاً حتى أشرف على الموت . ولكنه استطاع أن ينفخ في بوقه مرة أخرى قبل أن يموت ، وأن يسمع صرخة شارلمان الحربية ، وسمع شارلمان صوت البوق على بعد مراحل عديدة . فعاد مسرعاً وطارد جيش العدو وسحقه . ودفن الفرنج قتلاهم ، وعوقب جانلون الخائن أروع عقاب . وتوفيت ألدته ، خطيبة رولان حينما علمت بموته .

هذه هي خلاصة القصة التي ترددها أنشودة رولان الشهيرة . وهي أبعد ما يكون عن وقائع التاريخ الحق . بيد أنها تتخذ مادتها من بعض هذه الوقائع ، ومن الذكريات والروايات الشفوية المتناقلة ، والأناشيد الحربية المعاصرة . وهي نورمانية الأصل ، ظهرت لأول مرة في القرن الحادى عشر ، أعنى بعد الموقعة بنحو ثلاثة قرون ، ودونت أولاً في بعض القصص اللاتينية ، ثم دونت بالنظم في ملحمة طويلة تبلغ أربعة آلاف بيت بعنوان «أنشودة رولان» *Chanson de Roland* ولبثت تعتبر مدى عصور من أعظم الآثار الأدبية ، ومن روائع القريض الحربى . وكانت حوادث هذه الموقعة الشهيرة مستقى خصباً لكثير من الكتاب والشعراء ، وكانت بالأخص مستقى لقصص الفروسية والملاحم الحاسية المعرقة ، التي تملأ فراغاً كبيراً في الأدب الفرنجى في العصور الوسطى (١) .

ومما يلفت النظر في حوادث الموقعة أن شارلمان ، لم يحاول بعد أن أفاق من الصدمة الأولى ، أن يعجل بالانتقام لنكبة جيشه ومقتل فرسانه ، وأن يعود فيطارده تلك العصابات التي تحدته واجترأت عليه سواء من المسلمين أو البشكنس .

(١) راجع حوادث هذه الموقعة الشهيرة في أخبار مجموعة ص ١١٢ و ١١٣ ، وابن الأثير ج ٦ ص ٥ و ٢١ ، وابن خلدون ج ٤ ص ١٢٤ ، وراجع أيضاً Bouquet ; Vol. V. R.M. Pidal : La Chanson de Rolad. Cap. VI. p. 171 — 215; p. 14, 26, 42. & 208 Hodgkin : Charles the Great p. 141—152 و Reinaud: ibid ; p. 95, 96 و

وتعليل ذلك هو أن شارلمان شغل قبل كل شيء بخطورة الأبناء التي وصلته عن تحرك السكسونيين ، وهم ألد أعداء الفرنج وأخطرهم ، فارتد أدراجه مسرعاً ليخوض معهم حرباً جديدة استطالت زهاء سبع سنين ، حتى تمت هزيمة زعيمهم فنكنت (أو فيدو كنت) نهائياً ، وأرغم على التنصير في سنة ٧٨٥ م (١) .

ولم يبق بيد شارلمان ، بعد استنقاذ المسلمين للرهائن ، سوى ثعلبة بن عبيد قائد عبد الرحمن ، وقد لبث فترة أخرى معتقلاً بفرنسا ، حتى تمت المفاوضات بشأنه ، وأطلق سراحه لقاء فدية كبيرة .

وهكذا اختتمت محاولة شارلمان غزو اسبانيا المسلمة والتدخل في شئونها ، بنكته والقضاء على زهرة جنده ، وقد أسبلت هذه النكبة مدى حين سحابة على مجده الحربي . بيد أنها لم تكن كما سنرى آخر محاولة من نوعها لعاهل الفرنج ، فإن السياسة الفرنجية لبثت بالرغم من هذه الصدمة المؤلمة ، ترقب سير الحوادث في الأندلس لتجد فيها ثغرة تتخذها وسيلة لتحقيق غاياتها .

* * *

ونستطيع بعد أن استعرضنا أدوار هذه الموقعة الشهيرة التي تركت في عصرها أعظم صدى في الروايات الفرنجية (اللاتينية) والكنسية المعاصرة واللاحقة ، وبعد أن سجلنا مهادتها وحوادثها تفصيلاً . أن نعود فنلقى نظرة مقارنة على موقف الروايات العربية واللاتينية إزاء الموقعة ، وكيف تعاملها كل منها .

وأول ما تلفت النظر هو حسباً قدمنا ، إيجاز الروايات العربية ، في الوقت الذي تميل فيه الروايات اللاتينية إلى الإفاضة الواضحة . وقد كان خليقاً بالرواية العربية أن تبسط القول في حوادث موقعة لها من الخطورة البالغة ما لموقعة « باب الشزرى » خصوصاً وقد كان التفوق فيها للجانب الإسلامي . ولكن الرواية العربية لم تنظر إلى الموقعة إلا من حيث ارتباطها بحوادث الأندلس ، ومن جهة أخرى فإنها لم تكن على علم تام بما يدور في الناحية الأخرى من جبال البرنيه ، في مملكة الفرنج الشاسعة ، ولم تقف على آثار الصدى الهائل الذي أحدثته تمزيق جيش شارلمان داخل مملكة الفرنج ، وفي سائر الأمم المتصلة بها ، ولا سيما القبائل السكسونية ألد أعداء الفرنج يومئذ .

وثمة فرق واضح آخر بين الروايتين العربية واللاتينية ، هو أن الأولى تنوه بأن شارلمان قاد حملته إلى اسبانيا استجابة لدعوة الخوارج المسلمين ليعمل معهم ضد إمارة قرطبة ، وأن الثانية تنوه بأن حملة شارلمان إنما كانت موجهة إلى إخضاع البشكنس .

ومع ذلك فإن الرواية العربية على إنجازها تقدم إلينا مميزات الموقعة وعناصرها الأساسية بمنتهى الدقة ، بل إن العلامة المؤرخ الأستاذ بيدال ، وهو آخر من تناول حوادث هذه الموقعة من النقدة المحدثين بإفاضة ، وبأسلوبه النقدي الرائع ، يقرر لنا أن الرواية العربية هنا ، هي أرقى بكثير من الرواية اللاتينية ، وأنها فيما يتعلق بغزوة شارلمان لإسبانيا ، أبعد من أن تنحدر إلى الغموض والتناقض ، وأنها بالعكس تقدم إلينا بعض أنباء في منتهى الأهمية والجدارة .

ويدفع الأستاذ بيدال ما يرمى به بعض الباحثين مثل باسيه وغيره ، الرواية العربية من أخطاء وسابقات تاريخية ، ويؤكد بالعكس أنه لاتناقض بين النصوص العربية واللاتينية ، وكل ما هنالك أن كلامهما يركز اهتمامه في نقط معينة ، وكلتاهما تتفق مع الأخرى في الحوادث الرئيسية^(١) .

الفصل الخامس

ولاية عبد الرحمن الداخل

- ٢ -

عبد الرحمن وحوادث الشمال . ظهور الصقلي في شرق الأندلس . استئنافه للدعوة العباسية . تحالفه مع ابن يقظان ثم خلافه معه . مسير عبد الرحمن إلى قتال الصقلي . النجاح إلى بلنسية . مصرعه وانهيار دعوته . ثورات محلية تلتها . حوادث الشمال . مصرع ابن يقظان . مسير عبد الرحمن إلى مرسطة وحصارها . خضوع الحسين الأنصاري . عبد الرحمن ينزو ناقار وشرطانية . قتله لميشون ابن سليمان . عود الحسين إلى اثورة . إرسال عبد الرحمن حملة لقتاله . حصار مرسطة وثبات الحسين . مسير عبد الرحمن إلى قتاله . هزيمته ومصرعه . تفاهم عبد الرحمن مع شارلمان وسعيه إلى مصاهرته . ائثار الوافدين من الأموية بعبد الرحمن . صرامته في إخماد هذه المؤامرات . حديث ينسب إليه عنها . فرار محمد بن يوسف الفهري وثورته في طليطلة . مسير عبد الرحمن لقتاله . موقعة قسطلونة . هزيمة محمد وفراره . استئنافه للثورة في قورية . هزيمته ووفاته . أخوه أبو القاسم . خروجه ثم خضوعه . انتهاء الثورة . خاتمة الكفاح الرائع .

بينما كانت هذه الحوادث الخطيرة تجري في الشمال ، كان عبد الرحمن الأموي في الجنوب يكافح الثورة في مختلف الأنحاء . وكانت ثورة البربر قد شغلته واستنفدت معظم قواه أعواماً متوالية . بيد أنه ما كاد يفرغ من سحقها حتى ظهر في شرق الأندلس خطر جديد قوامه الدعوة العباسية . ذلك أن عبد الرحمن بن حبيب الفهري أحد زعماء الفهرية ، وهو المعروف بالصقلي نظراً لطوله وشقرته وزرقة عينيه ، عبر البحر من إفريقية إلى الأندلس في قوة كبيرة ، ونزل بساحل تدمير (مرسية) في شرق الأندلس ، ودعا للخليفة العباسي (سنة ١٦١ هـ) . ويجب أن نذكر أن عبد الرحمن بن حبيب هذا هو غير سميه عبد الرحمن بن حبيب المتغلب على إفريقية الذي فصلنا أخباره من قبل ، فقد قتل هذا المتغلب على إفريقية منذ سنة ١٤٠ هـ ، بعد أن خرج على طاعة بني العباس^(١) . ولا نعرف علاقة الصقلي

(١) ابن خلدون ج ٦ ص ١١١ .

بيوسف بن عبد الرحمن الفهري ، وربما كان من أبناء عمومته (١) . بيد أنه كان من زعماء الفهرية وزعماء الثورة على بنى أمية . وكانت حركة الصقلبي في تدمير ، كحركة العلاء بن مغيث من قبل في باجة ، ولكنها كانت أشد خطراً ، لأن الصقلبي سعى إلى التفاهم مع زعيم الثورة في الشمال سليمان بن يقظان وتحالف معه (٢) . والظاهر أن هذا التحالف كان بعد عبور الفرنج إلى إسبانيا وموقعة باب شيزروا . ولكن ابن يقظان لم يف بوعده في إمداده لقتال عبد الرحمن الأموي ، فغضب منه وسار لقتاله ، فهزمه ابن يقظان في ظاهر برشلونة . فعاد إلى تدمير ولبت مدى أشهر ينظم قواته وأهبته ، ولكن عبد الرحمن لم ينتظر حتى يهاجمه ، بل سار بنفسه ، وهاجمه بشدة ، وأحرق سفنه الراسية بالساحل ، حتى لا يجد سبيلا إلى الفرار ، فارتد الصقلبي بفلوله إلى جبال بلنسية واستصم بها ، وهنا بلحأ عبد الرحمن إلى سلاح الاغتيال مرة أخرى ، فدس على الصقلبي بعض أصدقائه فاغتاله وحمل رأسه إليه ، وانهارت بذلك دعوته وثورته (سنة ١٦٢ و ١٦٣ هـ : ٧٧٨ - ٧٧٩ م) .

ووقعت بعد ذلك عدة ثورات محلية عنى عبد الرحمن بقمعها قبل أن يسير إلى الشمال ، فقد ثار دحية الغساني ببعض حصون إلبيرة (غرناطة) ، وكان دحية من أصدقاء عبد الرحمن ومن قاداته ، ولكنه نكث بعهده ولحق بالفاطمي ، فلما هلك الفاطمي ، فر إلى إلبيرة وأعلن بها الثورة ، فأرسل عبد الرحمن إليه جيشاً ضيق عليه الحصار حتى أخذ وقتل . وثار إبراهيم بن شجرة بحصن مورور ،

(١) يقول دوزي إنه كان صهراً ليوسف الفهري متزوجاً بإحدى بناته (ج ١ ص ٢٤٢) ولكنه لم يبين مصدراً لقوله ، ولم نجد في المراجع العربية ما يؤيده .

(٢) يقدم إلينا دوزي ثورة ابن يقظان وحلفائه وعلاقة الصقلبي به في صورة أخرى ، فيقول لنا ، إن هذا التحالف كان يضم ابن يقظان والحسين بن يحيى والصقلبي ومحمد بن يوسف الفهري ، وأنهم اتفقوا جميعاً على استدعاء الفرنج إلى إسبانيا ، وساروا جميعاً إلى لقاء شارلمان في بادربورن ، واتفق على أن يقوم ابن يقظان بمعاونة شارلمان في غزوته بينما يقوم الصقلبي بحشد البربر في إفريقية ثم يعبر بهم إلى تدمير ليشغل عبد الرحمن بحركته (دوزي ج ١ ص ٢٤٠ - ٢٤١) . ولكننا لا نوافق دوزي على هذا التصوير أولاً لأن المصادر العربية لا تشير إلى مثل هذا التحالف الرباعي ، وتنفق جميعاً في اعتبار حركة الصقلبي حركة مستقلة لا علاقة لها بغزوة الفرنج ، ومن جهة أخرى فإنه لا يوجد في الروايات اللاتينية المتعلقة بغزوة شارلمان لإسبانيا ما يشير إلى هذا التحالف ، وثانياً لأن محمد بن يوسف الفهري أحد أركان هذا التحالف لم يفر من سجنه كما سنرى إلا بعد ذلك ببضعة أعوام . راجع : ابن الأبار في الحلة السيرة ص ٥٧ ، والبيان المغرب ج ٢ ص ٥٨ ، وابن الأثير ج ٦ ص ٢٦ .

فبعث إليه عبد الرحمن مولاه بدرآ ، فهاجمه وقتله . وثار في طليطلة القائد السلمى ، وكان من خاصة عبد الرحمن ، ثم فر من قرطبة خشية بطشه به لأمر نقمها منه ، والتفت حوله العناصر الخارجة في تلك الأنحاء ، فسار إليه عبد الرحمن جيشاً قوياً بقيادة حبيب بن عبد الملك ، فحاصره حيناً ثم قتل . وثار في الجزيرة الخضراء والبا الرماحس بن عبد العزيز الكنانى ، فسار إليه عبد الرحمن بنفسه ، وداهمه قبل أن يستكمل أهفته ، ففر الرماحس وعبر البحر إلى المشرق (سنة ١٦٣-١٦٤) (١) .

وفي العام التالى تأهب عبد الرحمن لقمع الثورة في الشمال . وكان الخلاف قد وقع بين زعيمى الثورة بعد تفاهمهما على أثر نكبة الجيش الفرنجى في موقعة باب الشزرى ، وتربص الحسين بن يحيى الأنصارى بزميله سليمان بن يقظان ، ودس عليه ذات يوم من قتله بالمسجد الجامع ، وانفرد بالأمر في سرقسطة وما حولها (٢) .

فسار عبد الرحمن إلى سرقسطة في جيش ضخم وضيق الحصار عليها (سنة ١٦٥ هـ - ٧٨١ م) . ووفد عليه عندئذ عيشون بن سليمان ، وكان قد فر عقب مقتل أبيه إلى أربونة ، وانضم إليه بمن معه في مقاتلة الحسين ، فلما اشتد الحصار بالحسين طلب الصلح ، وقدم ابنه سعيداً رهينة ، فأجابه عبد الرحمن إلى ملتسمه ، وأقره والياً على سرقسطة . ثم تحول عن سرقسطة إلى الشمال الشرقى ، واخترق بلاد البشكنس (نافار) ليعاقب أهلها على عيتم وعدوانهم ، وغزا عاصمتها بنبلونة ، وأثنخ فيها وخرّب قلاعها ، وغزا قلهرة وبقيرة (فكيرا) ، واجتاح ولاية شرطانية (٣) ، وأرغم أميرها على تقديم الطاعة وأداء الجزية (٤) . ثم عاد إلى قرطبة ظافراً بعد أن وطد هبة الحكومة المركزية في الشمال نوعاً ، وألقى على النصارى درساً يذكرهم بأن الإسلام قد استرد منعتة وسلطانه في اسبانيا . وكان سعيد بن الحسين قد فر من معسكر الأمير أثناء الطريق ، ولما حل عبد الرحمن بقرطبة توجس شراً من عيشون بن سليمان ، وكان قد عاد في ركابه ، فأمر به

(١) أخبار مجموعة ص ١١٢ ، وابن الأثير ج ٦ ص ٢٠ ، والبيان المغرب ج ٢ ص ٥٨ .

(٢) يقول لنا العذرى نقلاً عن الرازى أن قتل الحسين لسليمان كان بتحريض من حكومة

قرطبة ، وذلك على أن يولى سرقسطة (في كتابه ترصيع الأخبار الذى سبقت الإشارة إليه ص ٢٦) .

(٣) شرطانية بالإنجليزية Cerdagne وبالإسبانية Cerdana ، وهى ولاية صغيرة في شمال

شرق إسبانيا .

(٤) أخبار مجموعة ص ١١٤ ، وابن الأثير ج ٦ ص ٢٢ .

فقتل . ولما رأى الحسين بن يحيى أن عبد الرحمن قد ارتد عنه ، وعاد إليه ولده سالماً ، نكث بعهدة وعاد إلى الثورة ، وعاث فساداً في سرقسطة وأعمالها ، فاعترم عبد الرحمن أن يعود إلى قتاله ، وأن ينكل به وبأنصاره في تلك المرة . فبعث إلى الشمال جيشاً كثيفاً بقيادة غالب بن تمام بن علقمة ، فخرج الحسين إلى لقائه ، ووقعت بينهما معارك شديدة هزم فيها الحسين ، وأسر ولده يحيى وعدة من صحبه ، فأرسلوا إلى قرطبة حيث أمر عبد الرحمن بإعدامهم ، وامتنع الحسين بالمدينة واستمر غالب في حصاره . وفي العام التالي (سنة ١٦٧ هـ - ٧٨٣ م) سار عبد الرحمن بنفسه إلى سرقسطة وحاصرها بشدة ، وضربها بالخانق ضرباً عنيفاً حتى هدم أسوارها ، واقتحمها عنوة ، وقبض على الحسين وجماعة من صحبه ، وقتلهم جميعاً ، وشرّد كثيراً من أهلها ، وفر سعيد ولد الحسين ، وعين عبد الرحمن قائده ثعلبة بن عبيد والياً لسرقسطة ، وكان قد افتداه من أسر الفرنج حسبما تقدم . وركدت بذلك ريح الثورة في الشمال مدى حين (١) .

وشغل عاهل الفرنج شارلمان مدى حين عن شئون إسبانيا ، لأن القبائل السكسونية عادت فنكثت طاعته ، وعاد لقتاله خصمه القوى فيدوكننت ، واستمرت الحرب بينهما زهاء سبعة أعوام وانتهت بهزيمة السكسونيين ، وخضوع زعيمهم وإرغامه على التنصير (سنة ٧٨٥ م) . بيد أن عبد الرحمن رأى أن يتفاهم مع زعيم الفرنجة ، وأن يوثّر صداقته ومدارته على خصومته ، فبعث إليه يطلب عقد الصداقة معه ، ويكاشفه برغبته في مصاهرته ، فأجابته شارلمان إلى السلم ولم تتم المصاهرة (٢) . وفي بعض الروايات أن شارلمان هو الذي عرض على عبد الرحمن أن يزوجه ابنته فاعتذر عبد الرحمن باعتلال صحته (٣) . واستمر السلام معقوداً بين الزعيمين حتى وفاة عبد الرحمن .

(١) ابن الأثير ج ٦ ص ٢٢ ، والبيان المغرب ج ٢ ص ٥٩ .

(٢) المقرئ عن ابن حبان (ج ١ ص ١٥٥) . ولا تقدم الرواية لنا تفصيلاً عن مشروع المصاهرة هذا ، ولكن الظاهر أن عبد الرحمن طلب الاقتران بإحدى بنات شارلمان ، والمرجح أنها « هروتروده » كبرى بناته ، وكانت وحدها تصلح للزواج في ذلك الحين . ويرى رينو أن المقصود بهذه الإشارة إنما هو عبد الرحمن الثاني أو عبد الرحمن الأوسط حفيد عبد الرحمن الداخل ، فقد كانت علاقته بملك الفرنج (شارل الأصغر) على ما يرام ، وكان هذا الاتصال بين الأمراء الفرنج والمسلمين دائماً (Reinaud : ibid , p. 98)

(٣) راجع : Scott : Moorish Empire , V.I. p. 40

ولما عاد عبد الرحمن إلى قرطبة نعى إليه خبر مؤامرة خطيرة دبرت لسحقه ،
بزعامة ابن أخيه المغيرة بن الوليد بن معاوية ، وهذيل ولد الصميل بن حاتم . ولم
تكن هذه أول مؤامرة من نوعها ، فقد دبرت قبل ذلك ببضعة أعوام سنة ١٦٣ هـ
مؤامرة أخرى ، وعلى رأسها أيضاً اثنان من أقطاب بني أمية ، الذين وفدوا على
الأندلس حينما تألق طالع عبد الرحمن ، هما عبد السلام بن يزيد بن هشام المعروف
باليزيدي ، وهو ابن عم عبد الرحمن ، وعبيد الله بن أبان بن معاوية وهو ابن أخيه ،
وذلك بمعاونة أبي عثمان كبير الدولة . وكان عبد الرحمن مذتم له الأمر ، يسعى إلى
استقدام فل بن بني أمية من المنفى ، ويدعوهم إليه ليكونوا له عوناً وعصبة ، ويظلمهم
برعايته ، ويغدق عليهم من نعمه ، ويختارهم لمختلف المناصب . ولكن روحاً سيئاً
من الحقد والحسد ، كان يحفز أولئك الأقارب لناوأة ذلك الذي هيأت له الأقدار
أن يفوز دونهم ، بتراث بني أمية في الأندلس . فاثتمروا به غير مرة ، وشجعهم
على ذلك بعض الخوارج الناقمين والمنافسين الطامعين ، ولكن عبد الرحمن كان
يكتشف الخطر قبل وقوعه ، ويسحقه بكل ما أوتي من شدة وصرامة ، فلم يحجم
حينما وقف على المؤامرة الأولى ، عن قتل ابن عمه عبد السلام اليزيدي وعبيد الله
ابن أخيه أبان ، وعفا عن أبي عثمان لمكانته وسابق صنيعه . ولم يحجم حينما وقف
على المؤامرة الثانية ، عن قتل المغيرة بن أخيه الوليد ، وزميله هذيل بن الصميل
ومن معهما ، وننى أخاه الوليد وأسرتة إلى المغرب . وقد نقل إلينا مؤرخ أندلسي
عن بعض موالى عبد الرحمن ، أنه دخل عليه أثناء قتله المغيرة ، ابن أخيه ، وهو
مطرق شديد الغم فرفع رأسه وقال : « ما عجبني إلا من هؤلاء القوم . سعيينا فيما
يضعهم في مهاد الأمن والنعمة وخاطرنا بحياتنا ، حتى إذا بلغنا منه إلى مطلوبنا
ويسر الله تعالى أسبابه ، أقبلوا علينا بالسيوف . ولما آويناهم وشاركناهم فيما أفردنا
الله تعالى به ، حتى آمنوا وردت عليهم أخلاف النعم ، هزوا أعطافهم ، وشمخوا
بأنافهم ، وسموا إلى العظمى ، فنازعونا فيما منحه الله تعالى ، فخذلم الله بكفرهم
النعم ، إذ أطلعنا على عوراتهم ، فعاجلناهم قبل أن يعاجلونا ، وأدى ذلك إلى أن
ساء ظننا في البرىء منهم ، وساء أيضاً ظنه فينا ، وصار يتوقع من تغيرنا عليه
ما نتوقع نحن منه » (١) .

(١) الحجارى فى كتابه « المسهب » ؛ ونقله المقر فى نفع الطيب (ج ٢ ص ٧٢ و ٧٣) .

وفى ذلك الحين فر أبو الأسود محمد بن يوسف الفهرى من سجنه ، ورفع لواء الثورة فى طليطلة . وكان محمد سجيناً فى قرطبة منذ مقتل أبيه ، ثم فراره وأسره ثانية فى حوادث طليطلة سنة ١٤٢ هـ كما قدمنا . وتظاهر محمد عندئذ بالعمى ، وأتقن حيلته حتى جازت على جميع الموكلين بسجنه ، وأشفق عبد الرحمن عليه فأبقاه ولم يقتله كأخيه ، وأنفق محمد فى أسره أعواماً طويلة حتى أهمل شأنه ، ولم يعد يكثر أحد به ، وعرف بالأعمى . ثم سنحت له فرصة الفرار على يد بعض مواليه المتصلين به ، ففر من سجنه الواقع على النهر الكبير ، وجاز النهر سباحة ، ولحق بطليطلة سنة ١٦٨ هـ وأعلن الثورة . والتفت حوله جموع كبيرة من الفهرية والقيسية ، ومن إليهم من عناصر الخروج والثورة ، وسار فى قواته صوب جيان ، فخرج عبد الرحمن إلى قتاله ، ووقعت بينهما معارك عديدة ، كان النصر فيها لعبد الرحمن . ولكن أبا الأسود لبث حيناً محتفظاً بمراكزه وقواته . ثم نشبت بينهما على مقربة من قسطلونة فى الوادى الأحمر ، بمكان يعرف بمخاضة الفتح ، معركة شديدة حاسمة ، ولجأ عبد الرحمن إلى الخديعة ، فاتفق مع بعض قادة أبى الأسود على التقاعد والغدر ، فهزم أبو الأسود هزيمة شديدة ، وقتل من جنده عدة آلاف ، وغرق عدد كبير فى النهر ، وطارده عبد الرحمن حتى قلعة رباح ، ومزق جيشه كل ممزق (ربيع الأول سنة ١٦٨ هـ - ٧٨٤ م) (١) . ولكن محمداً لم يخضع ولم يهن عزمه ، فارتد إلى جهة الغرب ونزل بقورية ، وعاد بحشد قواته لاستئناف القتال ، وقوى أمره وبسط سلطانه على تلك الأنحاء ، فسار عبد الرحمن لقتاله ثانية ، وهاجم قورية ومزق شمل قواته (سنة ١٦٩ هـ - ٧٨٥ م) ، ففر فى نفر من صحبه إلى بعض قرى طليلية ، وهناك توفى لأشهر قلائل (سنة ١٧٠ هـ) . فقام مكانه أخوه أبو القاسم بن يوسف ، واقترن بزوجته ، وعاد ينظم الثورة فى طليطلة . فسار عبد الرحمن لقتاله قبل أن يستفحل أمره ، ولم ير أبو القاسم بدأ من الخضوع والتماس الصلح والعفو ، فأجابه الأمير إلى ملتصمه ، وصحبه معه إلى قرطبة ، ورد إليه بعض أموال أسرته (٢) ، وطويت بذلك آخر مرحلة فى ثورة

(١) يضع الرازى تاريخ هذه الموقعة فى أول ربيع الأول سنة ١٦٨ (ابن الأبار فى الحلة السيرة ص ٥٧) . ويتبعه فى ذلك ابن الأثير فيضع تاريخها سنة ١٦٨ هـ . ولكن صاحب البيان المغرب يجعل تاريخها فى سنة ١٦٩ هـ (ج ٢ ص ٥٩) .

(٢) ابن الأبار ص ٥٦ و ٥٧ ؛ والبيان المغرب ج ٢ ص ٥٢ و ٥٩ و ٦٠ ، ويروى ابن الأثير أن عبد الرحمن لم يبق على أبى القاسم بل قتله (ج ٦ ص ٢٦) .

الفهرية ، بل كانت آخر ثورة قام بقمعها عبد الرحمن ، ولم يعيش بعدها سوى عدة أشهر .

وهكذا أنفق عبد الرحمن جميع حكمه - ثلاثة وثلاثين عاماً - في كفاح مستمر . وكانت مهمة عظيمة دونها خطوب فادحة . أن يطمح قتي شريد ، يعمل القتل الذريع في أسرته وعصبته ، وحيد ليس له أنصار ولا صحب ، إلى افتتاح قطر عظيم زاخر بالقادة والجند ، وأن يخضع ذلك القطر في حروب لا يخمد أوارها ، وسيول من الدماء لاتقطع ، وأن يقيم ملكاً على بركان يضطرم من الثورة والمؤامرة والحصومة : تلك هي قصة عبد الرحمن الأموي ، وهي قصة عجيبة ليست من حوادث التاريخ العادية ، ولا يقدم إلينا التاريخ كثيراً من أمثالها . ولكن عبد الرحمن كان رجل الموقف ، وكانت حوادث الجزيرة (إسبانيا) وظروفها ، وتمزق شملها ، وتطلعها إلى زعامة قوية توحد كلمتها وقواها ، وتسير بها نحو السلام والأمن ، تفسح مجال الطموح والعمل لذهن جرىء مغامر كذهن عبد الرحمن . وكان عبد الرحمن يجمع إلى فيض جرأته ، كثيراً من الذكاء والدهاء والعزم ، ولم يكن عليه أن يخاطر بأكثر من تلك الحياة التي كادت تزهر غير مرة ، وكان يحملها في كفه أمام مطارديه خلال القفر الشاسع . ولكن الغنم كان عظيماً : كان ملكاً بأسره ، وكان بعث أسرة هَوّت ومجد عريض دثر . وسنعرض في الفصل القادم طرفاً من خلال تلك الشخصية الباهرة ، التي تتبوأ مكانها بين أسطع شخصيات التاريخ الإسلامي .

الفصل السادس

خلال عبد الرحمن وما أثره

(١) وفاة عبد الرحمن الداخل . شخصيته . أساليبه . إقدامه وجرأته وقسوته . بطشه بآله وأصدقائه . نزعه الميكافيلية . تعليقات دوزى على سياسته . خلاله الباهرة . وصفه بصقر قریش .
(٢) نوع رياسته . قطعه الدعاء لبني العباس . إحجامه عن التلقب بالخلافة . أقوال ابن خلدون في ذلك . نظام الحكومة في عهده . حجابيه وأعوانه . استرايته بالعرب بعد الثقة فيهم . اصطناعه للموال والبربر . سياسته نحو النصارى . مقدته الإدارية . عنايته بالجيش والأسطول . تفكيره في غزو الشام . منشأته بقرطبة . الرصافة . السور الكبير . المسجد الجامع . (٣) كرمه وتواضعه . نقش خاتمه . خلاله الأدبية . نثره وشعره . (٤) عناصر المجتمع الأندلسي . العرب والبربر والمولدون . النصارى المعاهدون واليهود .

- ١ -

توفي عبد الرحمن الأموي في الرابع والعشرين من ربيع الآخر سنة ١٧٢ هـ (٢ أكتوبر سنة ٧٨٧ م)^(١) وهو في نحو الثامنة والخمسين من عمره ، بعد أن حكم الأندلس ثلاثة وثلاثين عاماً ملوئها الخطوب والفتن . فخلفه ولده هشام بعهد منه لأيام قلائل من وفاته . وانتظم بذلك سلك الدولة الأموية بالأندلس بعد أن تصرم بالمشرق ، واستؤنفت حياة تلك الدولة الزاهرة ، التي بلغ الإسلام على يدها ذروة الفتح والظفر ، والتي ذهبت سراعاً كالحلم في عنفوان قوتها .

(١) يختلف المؤرخون في تاريخ وفاة عبد الرحمن . ويستفاد من أقوال صاحب أخبار مجموعة أنها وقعت في أوائل سنة ١٧٢ هـ (ص ١١٦) . ويوافق ابن عبد ربه صاحب العقد الفريد على ذلك ، فيقول إنها وقعت في ١٢ جمادى الأولى سنة ١٧٢ هـ (العقد الفريد ج ٣ ص ٢٠١) . ولكن ابن حيان مؤرخ الأندلس يضمها في ٢٤ ربيع الآخر سنة ١٧١ (المقرى ج ٢ ص ٧٢) . وهذه أيضاً رواية ابن الأبار (الرحلة ص ٣٧) . على إننا نرجح الرواية الأولى لقدمها ، وهي أيضاً رواية ابن عذارى حيث يضع وفاة عبد الرحمن في ٢٤ ربيع الآخر سنة ١٧٢ هـ (البيان المغرب ج ٢ ص ٦٠) . ويضعها كل من ابن خلدون (ج ٤ ص ١٢٤) ، والمراكشي (المعجب ص ٩) في سنة ١٧٢ هـ دون تعيين للشهر . ويضعها ابن الأثير في ربيع الآخر سنة ١٧١ ، ولكنه يرجح وقوعها سنة ١٧٢ هـ (ج ٦ ص ٢٧) .

كان سقوط الدولة الأموية بالمشرق مأساة من أروع مآسي التاريخ الإسلامي ، وكانت تلك الشخصية التي قامت على كاهلها دعائم الدولة الحديدية ، من أعظم شخصيات الحرب والسياسة . كان عبد الرحمن الأموي يتمتع بعبقرية ممتازة وخلال نادرة . وكان قرين جده العظيم معاوية بن أبي سفيان ، ينشئ مثله دولة ، ولكن في ظروف أسوأ من ظروفه ، وهزم الخطوب والحوادث ، ويسحق خصومه في كل ميدان ، ويؤثر مثل السياسة العملية على كل اعتبار ، ويذهب ترواً إلى الغاية بأى الوسائل . وكانت المحنة المروعة التي نزلت بأسرته ، والظروف العصبية التي يواجهها ، والخصومات والأحقاد المستعرة التي تحيط به ، تحمل خلاله القوة إلى ذروة التطرف ، وتدفعه إلى التذرع بأشد الوسائل . فزراه يقرب وافر العزم بفيض من الجرأة والمغامرة واحتقار الخطر ، ويقرب وافر الدهاء بنزوع إلى الحياة والغدر والفتك ، ويقرب وافر الحزم والصرامة بنزوع إلى القمع الذريع ، ويذهب في الانتقام إلى حدود مروعة من القسوة . ومع ذلك فقد كان عبد الرحمن وفيّاً يحفظ العهد والصنيعة لمن أخلص له ، وإن لم يحجم لأقل ريب أو بادرة عن الفتك بأعز أصدقائه وأقرب الناس إليه . وقد رأينا هذه الخلال واضحة بارزة ، في كثير مما تقدم من حوادث حياته ونضاله ، فرأيناه مراراً يلجأ إلى الغدر والاغتيال للتخلص من خصومه ، ورأيناه في مواطن كثيرة يزهق دون تردد ، كل من وقع في يده من أولئك الخصوم أو من ولدهم وصحبهم الأبرياء . وذهب عبد الرحمن في صرامته وقسوته إلى البطش بكثير من أصدقائه ، الذين آزره يوم مقدمه ، شريداً لاعصبة له ، وقاتلوا معه وقادوه إلى الظفر والحكم ، وكان قد أولاهم في المبدأ ثقته وجعلهم عماد دولته . ومن هؤلاء بدر مولاة الذي جاب معه القفر وخاض الغمار ، وكان مثالا للشجاعة والدهاء وبعد النظر ، فإنه قدر في البداية خلاله وكفايته وولاه القيادة واختصه بأسمى المناصب والمهام ، ولكنه تغير عليه في أواخر عهده ، لما أبداه من التدمير وعدم الرضى ، ولما وجهه إليه من عتاب خشن تجاوز فيه حد اللياقة ، فنكبه وجرده من مناصبه وأمواله ، وشرده عن قرطبة إلى قاصية الثغر ، ولم يستمع إلى تضرعه حتى مات في فقر وضعة^(١) . ومنهم أبو عثمان رأس أنصاره ،

(١) راجع نفع الطيب ج ٢ ص ٦٩ و ٧١ ، حيث يورد طرفاً من الرسائل التي تبادلها عبد الرحمن وبدر ، والتي انتهت بنكبة بدر . وراجع الإحاطة لابن الخطيب (١٩٥٦) ج ١ ص ٤٥٣ .

وأول من تلقاه وآواه يوم مقدمه ؛ فإنه جعله كبير دولته ، فلما توطد أمره جرده من نفوذه ، ولما وقعت المؤامرة التي دبرها بعض الوافدين من بني أمية ، واتهم أبو عثمان بالاشتراك في تدبيرها استراب به ، ولم ينقذه من بطشه إلا عظم صنيعه لديه . ولما ثار ابن أخت أبي عثمان في بعض حصون إلبيرة ، لم يتردد عبد الرحمن في قتله حين ظفر به . وكذا تغير عبد الرحمن على عبد الله بن خالد ، صهر أبي عثمان وزميله في مؤازرة عبد الرحمن ونصبرته ، وكان من وزرائه ، ثم اعتزل المنصب ، وتوارى لما رأى من غدر عبد الرحمن بزعيم اليمينية أبي الصباح ، وكان أبو الصباح هو الذي جمع كلمة اليمينية في إشبيلية حول عبد الرحمن وقاتل معه بصحبه ، ثم انحرف عنه لأموار نعمها منه ، فاستدرجه عبد الرحمن إلى قرطبة وفتك به في نفس مجلسه بالقصر ، ناكثاً لعهوده كما قدمنا^(١) . بل لم يحجم عبد الرحمن عن الفتك بذويه وخاصة أسرته ، حينما نمت إليه أنهم يأتمرون به ، فقتل ابني أخيه عبيد الله بن أبان والمغيرة بن الوليد ، وابن عمه عبد السلام اليزيدي حسماً فصلنا . والخلاصة أن عبد الرحمن كان ياجأ في تحقيق غاياته إلى أروع الأساليب والوسائل ، وكان طاغية مسرفاً في البطش والسفك ، مكيا فيليبيا^(٢) بكل معاني الكلمة . ولكن تلك الخلال المثيرة التي كان يحفرها ويذكيها الخطر الداهم ، كانت عنوان قوته ووسيلة ظفوره . يقول دوزي : « لقد دفع عبد الرحمن ثمن ظفوره غاليا ، ذلك الطاغية الغادر الصارم المنتقم ، الذي لاتأخذه رافة . ولم يبق زعيم عربي أو بربري ، يجرؤ على مواجهته صراحة ، ولكن الجميع كانوا يلعنونه خفية . ولم يك ثمة رجل يرغب في خدمته » . ثم يقول : « كان هم عبد الرحمن الدائم أن يذل العرب والبربر إلى الطاعة ، وأن يرغهم على التعود على النظام والسلام ، وقد لجأ في تحقيق هذه الغاية إلى جميع الوسائل ، التي لجأ إليها ملوك القرن الخامس عشر لسحق الإقطاع . بيد أنه كان مصيراً محزناً ذلك الذي دفع القدر إليه اسبانيا ، وكانت مهمة محزنة تلك التي كان على خلفاء عبد الرحمن أن يضطلعوا بها . ذلك أن الطريق الذي رسمه لهم مؤسس الأسرة ، كان طريق الطغيان يوثده السيف . ولكن من الحق أن نقول إن ملكاً لا يستطيع أن يحكم العرب والبربر

(١) نفع الطيب ج ٢ ص ٦٧ و ٧١ .

(٢) نسبة إلى مكيا فيلبي صاحب المذهب السياسي المشهور ، وخلصته أن للأثير أن يتذرع في تحقيق الغاية بأى الوسائل ، ومنها القدر والحياة والسفك وكل ما إليها .

بغير هذه الوسيلة ، وإذا كان العنف والطغيان ثمة في ناحية ، ففي الناحية الأخرى يوجد الاضطراب والفوضى» (١) .

على أن عبد الرحمن كان إلى جانب هذه الصفات المثيرة ، يتمتع بكثير من الخلال الباهرة . وقد أجمل ابن حيان مؤرخ الأندلس خلاله في تلك العبارات القوية ، قال : « كان عبد الرحمن راجح الحلم ، فاسح العلم ، ثاقب الفهم ، كثير الحزم ، نافذ العزم ، بريئاً من العجز ، سريع النهضة في طلب الخارجين عليه ، متصل الحركة ، لا يخلد إلى راحة ، ولا يسكن إلى دعة ، ولا يكل الأمور إلى غيره ، ثم لا ينفرد في إبرامها برأيه ، شجاعاً مقداماً ، بعيد الغور ، شديد الخذر قليل الطمأنينة ، بليغاً ، مفوهاً ، شاعراً ، محسناً ، سمحاً ، سخياً ، طلق اللسان» (٢) وهذا التصوير الرائع الذي يقدمه لنا ابن حيان عن خلال تلك الشخصية الممتازة ، إنما هو صورة بارزة من صور العظمة والبطولة ، توضحها في جملتها وفي تفاصيلها حياة عبد الرحمن في جميع أدوارها .

ويشبهه ابن حيان أيضاً بأبي جعفر المنصور في قوة الشكيمة ، ومضاء العزم ، وفي القسوة والصرامة والاجترأ على الكبائر (٣) .

وإذا كانت هذه الصفات والخلال القوية المثيرة معاً ، لا تحمل على الحب ، فإنها تحمل على الإعجاب بلا ريب . بل إن التأمل ليشعر بعطف خاص نحو هذه الشخصية الفريدة ، ويرجع ذلك بلا ريب إلى تلك الحياة المؤثرة ، التي خاض عبد الرحمن غمارها ، وتلك المحن الأليمة التي نزلت بأسرته ، وتلك الجهود الفادحة التي بذلها لاسترداد حقه وحق أسرته في الحياة والرياسة . وكانت هذه الحياة المؤثرة وما انتهت إليه من النتائج الباهرة ، تحمل ألد خصوم عبد الرحمن على احترامه والإعجاب به ، حتى لقد سماه أبو جعفر المنصور « صقر قريش » في حديث طريف تنقله إلينا الرواية ، وهو أن المنصور قال يوماً لبعض أصحابه ، « من صقر قريش من الملوك ؟ » قالوا : أمير المؤمنين الذي راض الملك وسكن الزلازل وحسم الأدواء . قال ما صنعتم شيئاً . قالوا فعاوية ، قال ولا هذا . قالوا

(١) Dozy : Hist. V. I. p. 245, 248

(٢) نقله نفع الطيب ج ٢ ص ٦٧ .

(٣) نفع الطيب ج ١ ص ١٥٦ .

فبعد الملك بن مروان ، قال لا . قالوا فن يا أمير المؤمنين؟ قال : صقر قريش
عبد الرحمن بن معاوية ، الذي تخلص بكيده عن سنن الأسنة وظباة السيوف ، يعبر
القفر ، ويركب البحر ، حتى دخل بلداً أعجيباً منفرداً بنفسه ، فصر الأمصار ،
وجند الأجناد ، ودون اللواوين ، وأقام ملكاً عظيماً بعد انقطاعه ، بحسن تديبه وشدة
شكيمته . إن معاوية نهض بمركب حمله عليه عمر وعثمان وذل له صعبه ، وعبد الملك
بيعة أبرم عقدها ، وأمير المؤمنين بطلب عزته واجتماع شيعته . وعبد الرحمن
منفرد بنفسه ، مؤيد برأيه ، مستصحب لغزمه ، وطد الخلافة بالأندلس ،
وافتح الثغور وقتل المارقين ، وأذل الجبارة الثأرين^(١) .

هذا وأما عن شخصه ، فقد وُصف عبد الرحمن ، بأنه كان مديد القامة ،
نحيف القوام ، أعور ، أخشم^(٢) ، له صغيرتان ، أصهب^(٣) ، خفيف العارضين ،
له خال في وجهه^(٤) .

كانت الأندلس حتى ولاية يوسف بن عبد الرحمن الفهري ، ولاية من ولايات
الخلافة الأموية . فلما انهار سلطان بني أمية ، انفرد يوسف بالأمر ، وغدت
الأندلس في عهده إمارة مستقلة . وتلقى عبد الرحمن الأموي تراث الإمارة
كما خلفه يوسف ، ولم ينشئ رغم كونه سليل بني أمية ، لنفسه شيئاً جديداً من
رسوم الملك . وتلقبه الرواية الإسلامية أحياناً بالأمير ، وأحياناً بالإمام^(٥) ، ويلقب
أيضاً بصاحب الأندلس^(٦) . ويعرف بعبد الرحمن الداخل لأنه أول من دخل
لأندلس من أمراء بني أمية وحكمها ، ويعرف أيضاً بعبد الرحمن الأول ، لأنه أول
أمراء ثلاثة من بني أمية بهذا الاسم حكموا الأندلس ، هم عبد الرحمن الداخل ،

(١) راجع أخبار مجموعة ص ١١٨ و ١١٩ ؛ والبيان المغرب ج ٢ ص ٦١ و ٦٢ ،
وبين الروایتين اختلاف يسير في الألفاظ .

(٢) هو الذي فقد حاسة الشم .

(٣) من الصحة والصوبة وهي احمرار الشعر .

(٤) نفح الطيب ج ١ ص ١٥٦ ؛ وابن الأثير ج ٦ ص ٣٧ .

(٥) راجع أخبار مجموعة ص ١٠٠ - ١٠٤ حتى نهاية الحديث عن عبد الرحمن ، وابن خلدون

ج ٤ ص ١٢٢ ، والبيان المغرب ج ٢ ص ٥١ وما بعدها ، وص ٦٠ ، حيث ينمت عبد الرحمن
بالإمام ، وكذلك نفح الطيب ج ٢ ص ٧٤ ، والروض المطار (القاهرة ١٩٣٧) ص ١٨٦ .

(٦) ابن الأثير ج ٦ ص ٣٧ ، والبيان المغرب ج ٢ ص ٥٠ .

وحفيده عبد الرحمن الأوسط (ابن الحكم) ، ثم عبد الرحمن الناصر .
وكانت الدعوة العباسية قد انتهت إلى الأندلس حين مقدم عبد الرحمن ، وذاعت
في منابرها ، ودعى في الخطبة لبني العباس في كثير من النواحي ، ثم دعى لهم في
قرطبة ذاتها ، ودعى عبد الرحمن الداخل نفسه لأبي جعفر المنصور مدى أشهر ،
وكان ذلك رغم غرابته وتناقضه ، عملاً من أعمال السياسة . ولكن جماعة من بني
أمية الذين وفدوا على الأندلس ، وعلى رأسهم عبد الملك المرواني ، اعترضوا على
هذا التصرف ، ونوهوا بما أثم به بنو العباس في حق بني أمية ، وما زالوا بعبد الرحمن
حتى قرر قطع ذكر بني العباس من الخطبة (١٣٩ هـ) ، فقطعت من سائر منابر
الأندلس^(١) . ولكن عبد الرحمن لم يحاول أن يتخذ سمة الخلافة قط ، رغم كونه
سليل أقيالها . ويرجع ذلك إلى اعتبارات دينية وسياسية ، يحملها ابن خلدون في
قوله ، إن بني أمية بالأندلس « تلقبوا كسلفهم مع ما علموه من أنفسهم من
القصور عن ذلك ، بالقصور عن ملك الحجاز أصل العرب والملة ، والبعد عن
دار الخلافة التي هي مركز العصبية ، وأنهم إنما منعوا بإمارة القاصية أنفسهم عن
مهالك بني العباس »^(٢) . ويقول لنا في موضع آخر إن عبد الرحمن لم يتخذ سمة
الخلافة تأديباً منه في حق الخلافة بمقر الإسلام ومنتدى العرب^(٣) . ويقول المسعودي
إن الخلافة لم يكن يستحقها عند بني أمية إلا من كان مالكا للحرمين ، ولذلك
سموا بالخلائف ، حتى بعد أن سمو بالخلافة ولم يخاطبوا بالخلفاء^(٤) . وعلى أي
حال فإن بواعث السياسة العملية ، هي التي حملت عبد الرحمن على سلوك هذا
المسلك ، والحرص على عدم التورط في رسوم لم يمن الوقت لاتخاذها ، والدخول
بذلك مع الخلافة العباسية القوية في منافسة لا تؤمن عواقبها .

وأما عن نظام الحكومة ، فقد اتبع عبد الرحمن الداخل سنة أسلافه بالمشرق
في تبسيط الرسوم والنظم ، وأنشأ منصب الحجابة ، ولكنه لم ينشئ مناصب
الوزارة ، بل استعاض عنها بأعوان وأشياخ يعاونونه في القيام بمهام الحكم ، وليست
لهم سمة الوزارة ، وإنما هم أقرب إلى الخاصة وأهل الشورى . واختار أعوانه في

(١) نفع الطيب ج ٢ ص ٧٨ ، وابن الأبار في الحلة السيرة (ليدن) ص ٣٣ .

(٢) المقدمة ص ١٩٠ .

(٣) ابن خلدون ج ٤ ص ١٢٢ .

(٤) المسعودي في مروج الذهب (بولاق) ج ١ ص ٧٨ .

البداية من أصدقائه ، الذين استقبلوه يوم مقدمه ، وآزره وقاتلوا معه ، فولى حجابته تمام بن علقمة ، ثم ولاها من بعده ليوسف بن نخت الفارسي مولى عبد الملك ابن مروان ، ثم عبد الكريم بن مهران الغساني ، ثم عبد الرحمن بن مغيث ولد مغيث فاتح قرطبة ، وولاها في آخر أيامه لمنصور الحصى ، فلم يزل في حجابته حتى توفى . وعين لمشورته أبا عثمان عبيد الله بن عثمان كبير أنصاره ، وصهره عبد الله بن خالد ، فكانا مدى حين دعامة حكومته . وكان من أعوان حكومته أيضاً جدار بن عمرو ، وأبو عبدة حسان بن مالك زعيم إشبيلية ، وشهيد بن عيسى ابن شهيد ، وعبد السلام بن بسيل الرومي ، وهما من موالي بني أمية ، وثعلبة ابن عبيد الخداعي الذي ولاه سرقسطة فيما بعد ، وعاصم بن مسلم الثقفي وهو من خاصة أنصاره يوم المسارة . وولى قيادة عسكره مولاة بدرأ ، وتمام بن علقمة ، وعبد الملك المرواني ، وثعلبة بن عبيد ، وغيرهم من خاصة عصبته ، وقد كان عبد الرحمن يتولى بنفسه قيادة الجيش ، في معظم الوقائع والحروب التي نشبت بينه وبين خصومه كما رأينا . وولى عبد الرحمن على الكور والثغور جماعة مختارة من أصدقائه ، وذوى رحمة الوافدين عليه حسبما فصلنا في مواضعه . وعلى الحملة فقد كانت حكومة عبد الرحمن الداخل تقوم في البداية بالأخص على العصبية والموالة ، وكانت عربية في بنائها وروحها ، ولكن الحصومة المستعرة التي شهرها زعماء القبائل والبطون المختلفة على عبد الرحمن ، والثورات المستمرة التي عملوا على إضرارها من حوله ، ونكثهم المتكرر بعهودهم ، حمله على الاسترابة بالعرب والحذر منهم ، فمال عنهم إلى اصطناع الموالي والبربر ، ولاسيما بربر العُدوة (المغرب) وحشد حوله من الموالي والبربر والرقيق آلافاً مؤلفة ، لتكون له وقت الحاجة عوناً يركن إليه ويثق به . وكان ذلك قاعدة للسياسة التي سار عليها خلفاء عبد الرحمن الداخل من بعده ، والتي بلغت ذروتها في عهد عبد الرحمن الناصر ، كما تفصل في موضعه (١) .

وأما عن سياسة عبد الرحمن نحو رعاياه النصارى (المستعربين) ، ونحو نصارى الشمال ، فقد كانت سياسة اعتدال ومهادنة . وكان من الواضح أنه نظراً لاشتغاله المستمر بأمر الثورات الداخلية ، لم يفكر في غزو أرض النصارى ، وأنه

(١) راجع نفع الطيب ج ١ ص ١٥٦ ، وج ٢ ص ٦٧ .

كان يرحب بعقد السلم والمهادنة معهم . وهذا الأمان الذى يقال إن عبد الرحمن أصدره لجيرانه نصارى قشتالة يؤيد هذه السياسة وهذا نصه :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، كتاب أمان الملك العظيم عبد الرحمن ، للبطارقة والرهبان والأعيان والنصارى والأندلسيين أهل قشتالة ، ومن تبعهم من سائر البلدان . كتاب أمان وسلام ، وشهد على نفسه أن عهده لا ينسخ ما أقاموا على تأدية عشرة آلاف أوقية من الذهب وعشرة آلاف رطل من الفضة ، وعشرة آلاف رأس من خيار الخيل ، ومثلها من البغال ، مع ألف درع وألف بيضة ومثلها من الرماح ، فى كل عام إلى خمس سنين ، كتب بمدينة قرطبة ثلاث صفر عام اثنين وأربعين ومائة (٧٥٩ م) » (١) .

وكان عبد الرحمن الداخلى يتمتع بمواهب إدارية باهرة ، فاستطاع خلال الاضطراب الشامل أن يوطد دعائم الحكم والإدارة ، وأن يجمع كثيراً من ضروب الفساد والبغى ، وأن يؤيد هيئة القانون والنظام . ولما توطد سلطانه وخبا ضرام الثورة نوعاً ، استطاعت الأندلس أن تتمتع فى ظل حكومته بأمن وطمانينه ورخاء لم تعرفها منذ بعيد ، ولو لم يُشغل عبد الرحمن طوال عهده بقمع الثورة والفتن الداخلية ، لاستطاع كأسلافه الفاتحين الأوائل ، أن يبعث الأندلس خلقاً جديداً ، وأن يجعل منها حديقة يانعة . على أنه ذلل الصعب ومهد الطريق لعقبة ، واستطاع أن يضع دعائم تلك المملكة ، التى غدت على يد بنيه أعجوبة العصور الوسطى . وينوه ابن حيان مؤرخ الأندلس بمقدرة الداخلى وكفاياته الإدارية فيقول إنه «دون الدواوين ، ورفع الأواوين ، وفرض الأعطية ، وعقد الألوية ، وجند الأجناد ، ورفع العباد ، وأوثق الأوتاد ، فأقام للملك آلهته ، وأخذ للسلطان عدته » (٢) .

وعنى عبد الرحمن بالجيش عناية خاصة ، فحشد المتطوعة والمرترقة من كل صوب ، وبلغت قواته مائة ألف مقاتل (٣) ، هذا عدا حرسه الخاص الذى أنشأه

(١) أورد ابن الخطيب فى كتاب الإحاطة (مخطوط الإسكوريال) نص هذا الكتاب ونقله عنه الغزيرى فى فهرسه . راجع Casiri : Bibliotheca Arabico-Hispana Escurialenses Vol. II. p. 104 . بيد أننا نرتاب على الأقل فى صحة الأرقام التى وردت به لضخامتها بالنسبة لموارد النصارى فى هذا العصر .

(٢) نقله نفع الطيب ج ١ ص ١٥٥ .

(٣) نفع الطيب ج ٢ ص ٧٤ .

من الموالي والبربر والرقيق حسباً قدمنا ويبلغ زهاء أربعين ألفاً^(١) . كذلك عني عبد الرحمن في أواخر عهده بأمر القوات البحرية ، فأنشأ عدة قواعد لبناء السفن في بعض الثغور النهرية والبحرية ، مثل طركونة وطرطوشة وقرطاجنة وإشبيلية وغيرها^(٢) . ويقال إن عبد الرحمن الداخل لما توطد ملكه ، وكثرت قواته وعدته ، فكر في استرداد ملك بني أمية بالشام ، والرحيل إلى المشرق ببعض قواته ، واستخلاف ولده سليمان على الأندلس ، وأيده في ذلك خاصة أسرته ومواليه . وكان ذلك في سنة ١٦٣ هـ . ولكن اضطراب الثورة في سرقسطة حال بينه وبين ذلك العزم ، وتوفي قبل أن تسنح فرصة لتنفيذه^(٣) . وقد تكون هذه أمنية جالت بذهن عبد الرحمن ، ولكننا لانجد في ظروف حياته التي انقضت كلها في إخماد الفتن والثورات المحلية ، ما يسمح باعتبار مثل هذه الأمنية مشروعاً جدياً تتخذ العدة لتنفيذه .

واستطاع الداخل أيضاً أن يعنى بالحاضرة الأموية الحديدية أعنى قرطبة ، فحصنها وزينها بالمنشآت الفخمة والرياض اليبانة . وكان أول ما أنشأها في عهده منية الرصافة وقصرها المنيف . وكان قصر الإمارة بناء قديماً ساذجاً يرجع إلى عهد القوط ، فرأى عبد الرحمن أن ينشئ ضاحية ملوكية جديدة ، تليق بحاضرة ملكه ، وتعيد ذكرى بهاء بني أمية بالمشرق ، فأنشأ في شمال غربي قرطبة قصرأ فخماً تحيط به حدائق زاهرة ، وجلب إليها مختلف الغروس والبذور والنوى من الشام وإفريقية ، وسمى تلك الضاحية الحديدية بالرصافة تخليداً لذكرى الرصافة التي أنشأها جده هشام بالشام ، واتخذها مقاماً ومنزها ومركزاً للإمارة ، وكانت حدائق الرصافة أما حدائق الأندلس ، ومنها انتشرت بالأندلس غروس الشام وإفريقية^(٤) . وفي سنة ١٥٠ هـ بدأ عبد الرحمن بإنشاء سور قرطبة الكبير ، واستمر العمل فيه مدى أعوام^(٥) . وأنشأ عبد الرحمن في قرطبة وفي باقي مدن الأندلس مساجد محلية عديدة ، وبدأ في أواخر أيامه (سنة ١٧٠ هـ - ٧٨٦م) بإنشاء المسجد

(١) نفع الطيب ج ٢ ص ٦٧ .

(٢) Reinaud : ibid , p. 120

(٣) نفع الطيب ج ١ ص ١٥٦ ، وج ٢ ص ٧٦ .

(٤) نفع الطيب ج ١ ص ٢١٧ .

(٥) ابن خلدون ج ٤ ص ١٢٣ .

الأموي الجامع بقرطبة ، وكان موضعه كنيسة قوطية قديمة ، وجلب إليه الأعمدة الفخمة والرخام المنقوش بالذهب واللازورد . ولكنه توفي قبل إتمامه ، فأتمه ولده هشام ، وزاد فيه من بعده ملوك بني أمية ، حتى غدا أعظم مساجد الأندلس ، وبلغ ما أنفق عليه الداخل وحده زهاء مائة ألف دينار^(١) . وأنشأ عبد الرحمن أيضاً في قرطبة داراً للسكة ، تضرب فيها النقود على نحو ما كانت تضرب في دمشق أيام بني أمية وزناً ونقشاً .

- ٣ -

وكان عبد الرحمن الأموي جواداً ، جم البساطة والتواضع ، يؤثر لبس البياض ويعتم به ، يصلي بالناس أيام الجمع والأعياد ، ويحضر الجنازات ويصلي عليها ، ويعود المرضى ، ويزور الناس ويحاطبهم ، ولم ينحرف عن هذه الديمقراطية إلا في أواخر عهده ، حينما نصحه بعض خاصته بالترفع ، استبقاء لهيبة الملك ، والحذر من بوادر العامة وشر المتآمرين^(٢) . وقد كان في نقش خاتمه « عبد الرحمن بقضاء الله راض » و « وبالله يثق عبد الرحمن وبه يعتصم » ما ينم عن ذلك التواضع الجرم^(٣) ، حيث لم يتخذ لقب المظفر أو الناصر أو المنصور وما إليها .

بقي أن نتحدث عن ناحية أخرى من خلال عبد الرحمن البديعة ، هي الناحية الأدبية . كان عبد الرحمن شاعراً جيد النظم ، ناثراً فصيح البيان ، قوى الترسل ، عالماً بالشريعة ، وكان يعتبر من أعظم بني مروان مكانة في البلاغة والأدب^(٤) . وقد انتهت إلينا بعض رسائله وفيها تبدو قوة بيانه وفيض بلاغته . ومن ذلك رسالة موجزة وجهها إلى سليمان بن يقظان حين خروجه عليه : « أما بعد ، فدعني من معارض المعاذير ، والتعسف عن جادة الطريق ، لتمد يدك إلى الطاعة ، والاعتصام بمجبل الجماعة ، أو لألقين بناتها على رصف المعصية ، نكالا بما قدمت يدك ، وما الله بظلام للعبيد » . ومنها رسائله إلى بدر مولاة ، يزجره عن تمرده وانحرافه وقد كتب إليه حين ألحف في طلب العفو والمنة : « لتعلم أنك لم تزل بمقتك حتى

(١) نفع الطيب ج ١ ص ١٥٥ ، والبيان المغرب ج ٢ ص ٦٠ .

(٢) نفع الطيب ج ٢ ص ٦٧ .

(٣) البيان المغرب ج ٢ ص ٥٠ ، ونفع الطيب ج ٢ ص ٧٦ .

(٤) البيان المغرب ج ٢ ص ٦٠ و ٦٢ ؛ ونفع الطيب ج ٢ ص ٦٩ ؛ والمراكشي في

ثقلت على العين طلعتك ، ثم زدت إلى أن ثقل على السمع كلامك ، ثم زدت إلى أن ثقل على النفس جوارك ، وقد أمرنا بإقصائك إلى أقصى الثغر ومن أقواله لأصحابه يوم المسارة يشحذ همهم للقتال : « هذا اليوم هو أس ما بيني عليه ، إما ذل الدهر وإما عز الدهر ، فاصبروا ساعة فيما لا تشتهون ، ترحبوا بها بقية أعماركم فيما تشتهون » (١) .

وانتهى إلينا من نظم عبدالرحمن ما يدل على قوة شاعريته ورقة خياله . فن ذلك قوله حين بلغه أن بعض أصدقائه بمن عليه ، ويزعم أنه لولاه لما صار الملك إليه :

سعدى وحزمى والمهند والقنا ومقادير بلغت وحال حائل
إن الملوك مع الزمان كواكب نجم يطالعنا ونجم آفل
والخزم كل الخزم أن لا يغفلوا أروم تدبير البرية غافل
ويقول قوم سعده لا عقله خير السعادة ما حماها العاقل

وأشاد بعضهم أمامه بموقف الغمر بن يزيد بن عبد الملك في مجلس عبد الله ابن علي جلاد بنى أمية ، ونبه عليه إثمه في حقهم وسفكه لدمائهم ، وفقده لحياته ثمناً لجرأته ، فأنشد عبد الرحمن :

شتان من قام ذا امتعاص (٢)
ومن غدا مصلتنا لعزم (٣)
فجباب قفراً وشق بجرأ
فبز ملكاً وشاد عزراً
وجند الخند حين أودى
ثم دعا أهله جميعاً
فشال ما قال واضمحلا
مجرداً للعداة نصلا
ولم يكن في الأنام كلاً
ومنبراً للخطاب فصلا
ومصر المصر حين أجلى
حيث انتأوا أن هلم أهلاً (٤)

ومن قوله في التشوق إلى ربوع الشام ، وهو رقيق مؤثر :
أيها الركب الميمم أرضي أقر من بعضى السلام لبعضي
إن جسمي كما علمت بأرض وفؤادي ومالكه بأرض

(١) راجع نفع الطيب ج ٢ ص ٦٨ - ٧٠ ، حيث يورد عدة من رسائل عبد الرحمن وأقواله .

(٢) يريد الغمر بن يزيد بن عبد الملك .

(٣) يريد نفسه أي عبد الرحمن الداخل .

(٤) هكذا يوردها المقرئ (نفع الطيب ج ٢ ص ٦٨) ؛ ولكن صاحب البيان المغرب

يوردها بصورة أخرى ج ٢ ص ٦١) .

قدر البين بيننا فافترقنا وطوى البين عن جفوني غمضى
قد قضى الله بالفراق علينا فعمسى باجماعنا سوف يقضى
ورأى روض الرصافة وهى الضاحية الجديدة التى أنشأها ، نخلة منفردة ،
فأثار منظرها فى نفسه ذكرى وشجناً وأنشد (١) :

تبدت لنا وسط الرصافة نخلة تناءت بأرض الغرب عن بلد النخل
فقلت شيبى فى التغرب والنوى وطول التناى عن بنى وعن أهلى
نشأت بأرض أنت فيها غريبة فثلك فى الإقصاء والمتناى مثلى
مقتك غوادى المزن من صوبها الذى يسح ويستمىء السماكين بالويل (٢)

- ٤ -

هذا ويجب أن نستعرض هنا ، وقبل اختتام الكلام على عصر عبد الرحمن
الداخل ، عناصر المجتمع الأندلسى ، الذى كان خلال هذه الأحداث والخطوب
التى توالى عليه منذ أيام الفتح ، قد استقر ، وأخذت جذوره فى التوطد والرسوخ ،
وأخذت عناصره المختلفة ، يؤدى كل منها دوره فى عمرة الحوادث ، مستهدياً
بعواطفه وأمانيه ومثله الخاصة .

وقد سبق أن أشرنا بإيجاز إلى أن المجتمع الإسلامى الذى قام فى شبه الجزيرة
عقب الفتح ، كان يتألف من عناصر رئيسية ثلاثة ، هى العرب ، والبربر ،
والموللون . كما أشرنا إلى عناصر الشقاق والتفرق التى كانت تعمل فى صفوف
هذا المجتمع الإسلامى الجديد .

كانت البطون العربية التى اشتركت فى الفتح ، واستقرت فى شبه الجزيرة
تضطرم منذ البداية بروحها القبلى المتأصل ، ولم تستطع قط أن تتحرر من هذا

(١) وينسب هذا الشعر أيضاً لعبد الملك بن بشر بن عبد الملك بن مروان ، وكان من الداخلين
إلى الأندلس (راجع الحلة السيرة ص ٣٤) .

(٢) يورد ابن الأبار فى هذا الموطن رواية يفهم منها أن هذه النخلة هى أول نخلة غرست
بالأندلس ، ومنها تولد جميع النخل بالأندلس فيما بعد ، وإذاً فيكون عبد الرحمن الداخل هو أول
من نقل غراس النخيل بالأندلس فيما نقل من غراس الشام إلى الرصافة (الحلة السيرة ص ٣٥) .
ولكن يحق لنا أن نلاحظ أن العرب فتحوا الأندلس قبل ذلك بنحو ثمانين عاماً ، ومن قبلها فتحوا
إفريقية ؛ ومن المعقول أن يكون النخل قد قتل إليها فيما نقلوا من غراس بلادهم ؛ وقد نقلوه قبل ذلك
إلى مصر منذ الفتح . وإذا كان النخيل قد غرس بإفريقية عقب افتتاحها ، أفلا يكون من المرجح
أنه قد نقل منها إلى الأندلس عقب افتتاحها أيضاً ؟ وقد كان أول ما عنى به العرب فى الأندلس تنظيم
للزراعة وخرس الهذاني .

الروح النكد ، الذى أشاع فيما بينها عوامل الشقاق والتنايد ، وأثار فيما بينها غير مرة ضرام الحرب الأهلية . وقد رأينا كيف عانت الأندلس فى أواخر عهد الولاة من هذه الحرب الأهلية ، التى اضطرت بين المضربة واليمنية وبين البلديين والشاميين ، وكيف كادت تودى بسلامة الأندلس ومنعتها . ثم رأينا كيف قضى عبد الرحمن الداخل معظم عهده فى مكافحة الثورات المتعاقبة التى شورها فى وجهه زعماء القبائل والبطون فى سبيل الاحتفاظ بسطانهم المحلى . وهكذا كانت القبائل العربية فى الأندلس منقسمة على نفسها ، وإن كانت الرياسة قد بقيت فيها على يد الدولة الأموية الجديدة التى قامت فى شبه الجزيرة . بيد أن العرب لم يكونوا بين كتلة الأمة الأندلسية أغلبية ، بل كانوا بالعكس أقلية تتمثل بالأخص فى الأرستقراطية العربية التى استأثرت بمعظم مغامير الفتح ، واستولت حيناً على أزمة الحكم ، واحتلت فى شبه الجزيرة معظم البقاع الحصية . وقد ذكر لنا ابن غالب فى « فرحة الأنفس » ، كثيراً من البطون العربية التى استقرت بالأندلس ، وبعض من كان ينتمى إليها من الأسر الأندلسية الناهية ، وذكر لنا من منازلها ، بلنسية وأوريولة وإشبيلية وغرناطة ووادي آش^(١) . وكانت الأرستقراطية العربية تستقر بالأخص فى القواعد والمدن الكبيرة ، ولا سيما فى قرطبة ، وترك العمل فى ضياعها الشاسعة للموالى والبربر ، وكان أمراء بنى أمية منذ عهد عبد الرحمن الداخل يعملون على مقارعة هذه الأرستقراطية القوية وإخضاعها ، حتى جاء عبد الرحمن الناصر ، فقضى على سلطانها السياسى والاجتماعى ، ورفع إلى مكانها الموالى والصفالبة ، ثم جاء المنصور بن أبى عامر ، فعمل على تمزيقها وتشتيتها ، وخلق أرستقراطية جديدة من البربر تقوم مكانها ، ومن ذلك الحين تغيض الأصول العربية فى شبه الجزيرة تباعاً ، وتضمحل مكانتها وأهميتها .

ويرجع انكماش العنصر العربى فى الأمة الأندلسية ، أولاً إلى كونه يمثل الطبقة الممتازة وهى تكون الأقلية دائماً ، وثانياً إلى أن الهجرة العربية إلى شبه الجزيرة لم تكن هجرة غزيرة ، وقد توقفت تقريباً منذ القرن الثالث الهجرى ، ولم يكن ما ينسب للأمراء والكبراء من كثرة النسل ، لامتلاء قصورهم بالحوارى ، كما يعرض هذا النقص العنصرى .

وإلى جانب الأقلية العربية الأرستقراطية ، يجب أن نذكر طائفة الموالى التى

(١) نقله المقرئ فى نفع الطيب ج ١ ص ١٢٦ و ١٢٧ .

كانت تنتمي إليها أولاً وتشد بأزرها، ثم انقلبت عليها فيما بعد حينما تمكنت واشتد نفوذها . وقد نمت هذه الطائفة بمر الأيام ، وظهر منها كثير من القادة والزعماء النابيين ، الذين شغلوا أعظم المناصب في الدولة وفي الجيش ، مل بنى شهيد ، وبنى مغيث وبنى عبدة ، وبنى جهور ، وبنى بسيل ، وهم الذين شغلوا مناصب القيادة والحجابه أجيالا . وإلى جانب هؤلاء ، يجب أن نذكر طائفة الصقالبة الأجانب التي ظهرت أهميتها منذ أيام عبد الرحمن الداخل ، وبلغت ذروة تضخمها ونفوذها أيام عبد الرحمن الناصر . وقد كان بنو أمية يوثرون اصطناع هؤلاء الموالي والإفاده من عونهم وتأييدهم .

وأما العنصر الثاني الذي كانت تتكون منه الأمة الأندلسية فهو عنصر البربر . وقد قام البربر حسبنا رأينا بأكبر قسط في فتح الأندلس ، وفي الغزوات التي اضطلعت بها الجيوش الإسلامية فيما وراء البريه ، وكانوا في معظم الأحيان أغلبية في تلك الجيوش ، وإن كانت القيادة قد لبثت على الأغلب في أيدي القادة والضباط العرب . وكانت هجرة القبائل البربرية إلى شبه الجزيرة أسرع وأشد كثافة من هجرة العرب ، أولاً لقرب منازلهم في العدوة من شبه الجزيرة ، وثانياً لشعورهم بما كان لهم من فضل في أعمال الفتح ، وثالثاً لما كان يحفزهم من آمال في البحث وراء طالعهم في هذا القطر الحديد ، الذي كانت وديانه الحضراء تجذبهم من بواديهم المقفرة . وقد استمرت هجرة البربر على هذا المنوال أجيالا ، بينما كانت هجرة العرب من منازلهم البعيدة في شبه الجزيرة العربية وفي الشام بطيئة محدودة أضف إلى ذلك ما عمد إليه أمراء بنى أمية ، منذ عهد عبد الرحمن الداخل من اصطناع البربر إلى جانب الموالي والصقالبة ، والاستعانة بهم في تدعيم سلطانهم ، لاسترابتهم بالقبائل العربية . وقد بلغت هذه السياسة كما سنرى فيما بعد ذروتها في عهد المنصور بن أبي عامر ، حيث انثالت القبائل البربرية على شبه الجزيرة ، واحتل زعمائها معظم المناصب الكبيرة ، وأضحى سواد الجيش مؤلفاً منها . وقد كانت معظم البطون البربرية المهاجرة تنتمي بالأخص إلى زنانة ومصمودة ومكناسة ونفزة والبرانس ، واشتهرت من هذه البطون بالأخص ، مدغرة ومديونة ومكناسة وهوارة . ومنها خرج فيما بعد أمراء كثير من القواعد والثغور ، وقامت من بينها ممالك من دول الطوائف . وقد كان البربر أكثرية في الشمال الغربي ، وفي وسط الأندلس في منطقة جبال المعدن (أو جبال البرانس) ، وفي أراضي السهلة

ووادى الحجارة ، ومنطقة شرقي إشبيلية والقرنطرة ، وهى مناطق تمتاز على الأغلب بهضابها الوعرة ، وهو ما كان يشجع البربر فى أحيان كثيرة على الثورة ومقاومة الحكومة المركزية للمحافظة على استقلالهم المحلي (١) .

والعنصر الثالث الذى كانت تتكون منه الأمة الأندلسية هو عنصر المولدين ، وهم القوط والإسبان الذين أسلموا منذ الفتح ، ودخلوا حظيرة المجتمع الإسلامى إلى جانب زملائهم العرب والبربر ، مؤثرين أن يتمتعوا فى ظل الإسلام بمزايا المساواة والثقة ، والتحرر من القيود والأعباء التى تلاحق الذميين . ويعرف أولئك المولدون فى الإسبانية بالخوارج أو المرتدين *Renegados* ، أى الذين ارتدوا عن دينهم القديم ، وهو النصرانية ، ويسمون أحياناً بالمسألة أو بالأسالة ، أو أسالة أهل الذمة ، متى كان إسلامهم حديثاً . وكان المولدون يكونون بين السكان كتلة كبيرة ربما كانت الأغلبية ، وقد كان إسلامهم سريعاً ، ولم يأت جيل أو اثنان حتى أستطاعوا الاندماج فى المجتمع الإسلامى ، وأضحى من الصعب تمييزهم من المسلمين الأصليين ، وغدوا بمضى الزمن عنصراً من أهم عناصر السكان إن لم يكن أهمها جميعاً ، سواء من حيث الكثرة أو المستوى الاجتماعى والحضارى .

وإلى جانب هذه العناصر الأساسية الثلاثة ؛ التى كانت تتكون منها الأمة الأندلسية ، كان ثمة عنصران آخران هما المستعربون أو النصارى المعاهدون *Mozárabes* وهم النصارى الذين آثروا الاحتفاظ بدينهم القديم ، ولبثوا يعيشون فى المدن والأراضى المفتوحة تحت الحكم الإسلامى ، وقد كانت منهم ثمة أقليات كبيرة فى بعض المدن مثل طليطلة وقرطبة . واليهود ، وقد رأينا كيف ساعدوا الفاتحين المسلمين وقت الفتح ، وتعاونوا معهم فى حفظ المدن المفتوحة وإدارتها ، وقد كانت منهم أقليات فى معظم المدن الأندلسية ، تتمتع بحماية الحكومات الإسلامية ورعايتها . وقد ازدهرت هذه الأقليات اليهودية فيما بعد ، وظهرت منها شخصيات بارزة تولت مناصب كبيرة فى الدولة ، وغلب نفوذها فى بعض المناطق ، كما حدث فى مملكة غرناطة البربرية ، وظهرت كذلك فى ميدان العلوم والآداب ، ونبغ منها علماء ناهون مثل ابن ميمون وغيره .

تلك هى العناصر المختلفة التى كانت تتألف منها الأمة الأندلسية . وسوف نعود من آن لآخر إلى التحدث عن هذه العناصر فى مختلف المواطن والمناسبات .

(١) يحدثننا ابن حزم تفصيلاً عن منازل البربر فى الأندلس . راجع جبهة أنساب العرب

الفصل السابع

المملكة النصرانية الشمالية

منذ قيامها إلى ولاية ألفونسو الثاني

بمَث المملكة النصرانية في اشمال . اجتماع فلول النصرارى في الهضاب الشمالية . للدوق بتروس وبلاجيوس . نشوء المملكة للنصرانية . صمت إيزيدرو الباجى عن ذكرها . أقوال الرواية الإسلامية . إمارة جليقية والصخرة . رأى لابن خلدون في شأها . إغفال الفاتحين لأمرها . حملات المسلمين عليها . ارتدادهم عن تلك الهضاب . اجتماع النصرارى حول بلاجيوس . حملة ابن أبى نسمة على جليقية . إغارة النصرارى على الأراضى الإسلامية . غزو عقبة بن الحجاج لجليقية . نمو المملكة النصرانية . وفاة بلاجيوس . ولده فاقبلا . إمارة كانتابريا . تحالفها مع جليقية . اتحادها تحت ولاية ألفونسو الأول . ألفونسو الأول أو الكاثوليكى . اجتياحه للأراضى الإسلامية . استيلاؤه على أسترة . أخوه فرويلا أمير كانيابريا . استيلاء ألفونسو على مدينة لك . حملة يوسف الفهري لإنقاذ أربونة . القتال بينه وبين البشكنس . عبور ألفونسو لنهر دويرة . وفاة فرويلا . وفاة ألفونسو . فرويلا الأول . استيلاؤه على شلمنقة وشقوبية ومجورة وقشتالة . اختلاف الرواية الإسلامية في تاريخ هذه الغزوة . خطر المملكة النصرانية . عبد الرحمن الأموى يرسل حملة إلى جليقية . غزو أبة والتلاع . ما تقوله الرواية النصرانية عن موقعة بونثومو . ثورات النصرارى على فرويلا . غزوه لنافار . بطشه وسفكه . إنشاؤه لمدينة أوبييدو . وفاته . انقسام المملكة . ولاية أورليوس للولايات اشرقية . ولاية سيلو للولايات الغربية . وفاة أورليوس . ولاية سيلو على المملكة كلها . الصالح بينه وبين المسلمين . وفاة سيلو . اضطراب المملكة . قيام مورجات ولد ألفونسو الأول . فرار ألفونسو ابن فرويلا إلى أبة . تحالف مورجات مع المسامين . أقوال الرواية الإسلامية . وفاة مورجات . ولاية برمنه الأول لجليقية . تحالفه مع ألفونسو . تحلل برمند وولاية ألفونسو على المملكة كلها . أسطورة القديس يعقوب وقيام مدينة شنت ياقب . عزلة المملكة الشمالية . خواص مجتمعا .

نقف الآن قليلا في تتبع أخبار دولة الإسلام في الأندلس ، لنأتى على أخبار دولة متواضعة أخرى ، قامت في اسبانيا إلى جانب الدولة الإسلامية في نوع من الخفاء والصمت ، ولم يشعر المسلمون بمولدها ولا نموها في أعوامها الأول ، ولم يقدرها أهميتها حين شعروا وجودها ، ولم يعنوا بأمرها إلا حينما نمت وانتظمت إلى قوة تستطيع العدوان والمقاومة : تلك هى المملكة الإسبانية النصرانية التى يجب أن تأخذ منذ الآن مكانها في تاريخ شبه الجزيرة ، إلى جانب دولة الإسلام فيها . ولم يكن قيام هذه المملكة الناشئة ، سوى طور جديد في حياة تلك المملكة

القوطية التي سحقها العرب عند فتح الأندلس (٩٢ هـ - ٧١١ م) ، والتي قامت بعد ذلك تستأنف حياتها ضئيلة متواضعة ، في قاصية اسبانيا الشمالية الغربية وفيما وراء الصخر ، ثم لبثت تنمو بطيئة ولكن ثابتة ، حتى رسخت دعائمها في هاتيك الهضاب ، وبدأت بعد ذلك معركة الحياة والموت ، مع تلك المملكة الإسلامية التي قامت في الجنوب ، على أنقاض مملكة القوط القديمة ، وهي معركة تشغل منذ الآن حيزاً كبيراً في تاريخ الإسلام في اسبانيا .

وقد نشأت المملكة الإسبانية النصرانية في ظروف كالأساطير ، ونشأت في نفس الوقت الذي افتتح فيه العرب اسبانيا ، وسحقوا دولة القوط القديمة . ففي موقعة شريش التي مزق فيها جيش القوط وقتل آخر ملوكهم ردريك (لذريق) (٩٢ هـ) ، فرت شرادم قليلة من الجيش المنهزم إلى الشمال ، واختفت فيما وراء تلك الجبال الشمالية ، التي وقف عندها تيار الفتح الإسلامي ، واجتمعت بالأخص في هضاب كانتابريا (نافار وبسكونية) في الشرق ، وفي هضاب أستوريش^(١) في الغرب ، واجتمع فل النصرارى في الهضاب الشرقية تحت لواء زعيم يدعى الدوق پتروس ، واجتمع فلتهم في الهضاب الغربية في جليقية تحت لواء زعيم يدعى پلاجيوس أو پلايو . وكان پتروس ينتمى إلى أحد الأصول الملكية ، وكان من قادة الجيش في عهد وتيزا ملك القوط ، ثم في عهد خلفه ومغتصب ملكه ردريك . أما پلاجيوس أو پلايو فيحيط الغموض بأصله ونشأته ، ولكن يبدو مما تنسبه إليه الرواية من ألوان الوطنية والبسالة والبطولة ، أنه كان رفيع المنبت والنشأة ، وتقول بعض الروايات إنه ولد للزعيم فاقيل^(٢) الذي قتل الملك وتيزا في هضاب جليقية ، وإنه كان لذلك من خاصة الملك ردريك وقادته . وهذا ما يردده سيمونيت إذ يقول في أصل پلاجيوس ما يأتي ؛ « وكان الحزب المتمسك بدينه ووطنه ، المنكر لحيانة أولاد وتيزا ، قد اختار له رئيساً رفيع المواهب هو الدون پلايو بن فاقيل ، من سلالة القوط الملكية . ويقول البعض إنه ولد من يدعى فرميندو ، وحفيد للملك ردريك ، وقد حارب إلى جانب ردريك . ثم رأى فيه الأبحار والأكابر الذين التفوا حوله ، أنه جدير بالعمل على إحياء مملكة

(١) في الجغرافية الحديثة « أستورية » Asturias

(٢) ابن خلدون ج ٤ ص ١٧٦ ، حيث يقول « وملكوا عليهم (أى الجلالقة) بلاى ابن فافلة »

القوط»^(١). وتعرف الرواية الإسلامية بلايو وتحدثنا عنه وتسميه (بلاى) ،
وتصفه أحياناً بأنه أمير أو ملك ، وتنعته غالباً بأنه «علاج من علوج النصارى»^(٢)
وتتبع أخباره مع المسلمين ، ولكنها لا تلتقى ضياءً كثيراً على أصله أو أحوال
مملكته الصغيرة . ذلك لأن المسلمين لم ينفذوا قط إلى ما وراء الهضاب الوعرة ،
التي امتنع بها هذا الزعيم وفله ، والتي نشأت فيها جذور المملكة النصرانية
الشمالية ، التي غدت غير بعيد خطراً على دولة الإسلام في اسبانيا . ومن الغريب
أن رواية نصرانياً كبيراً معاصراً هو إيزيدور الباجي ، وهو حبر عاصر الفتح
الإسلامي ، وكتب روايته منذ منتصف القرن السابع ، ووصل في كتابتها حتى سنة
٧٥٤ م^(٣) ، لم يذكر لنا في روايته شيئاً عن قيام تلك المملكة النصرانية الصغيرة في
الشمال ، ولا عن زعيمها أو ملكها بلايو ، ولا عن غزوات المسلمين لها ، مع أن
إيزيدور يتتبع أخبار الغزوات الإسلامية كلها ، منذ الفتح حتى منتصف القرن
الثامن ، سواء في اسبانيا أو في مملكة الفرنج ، ويقدم إلينا عنها كثيراً من
التفاصيل والملاحظات الهامة . وقد يرجع ذلك إلى أن إيزيدور وهو يقيم في
الجنوب في مدينة باجة ، كان مجهل قصة هذه المملكة النصرانية الناشئة ، ولكن
ما نراه من عنايته بتدوين أخبار الغزوات الإسلامية في فرنسا ، وأخبار مملكة
أكوتين ، يحملنا على الاعتقاد بأنه لم يكن مجهل أخبار مملكة جليقية النصرانية ،
وهي أقرب إليه من فرنسا ، وأن أسباباً أخرى لعلها ترجع إلى انتماء أميرها بلايو
إلى حزب ردريك الذي كان يبغضه المؤرخ ، هي التي حملته على إغفال أخبارها^(٤) .
وعلى أي حال فإن الرواية الإسلامية ، تذكر لنا كيف نشأت المملكة النصرانية

(١) P. J. Simonet cit. Saavedra ; *Historia de los Mozarabes de Espana*, (١)
Vol. I. p. 148. ويقول المؤرخ المستشرق كاردون إن بلاجيوس يفتنى إلى أصل ملكي ، وأنه
الأمير الوحيد الذي نجا من فتك العرب (راجع Cardonne : *ibid*, I. p. 105.) ، بيد أن كاردون
لا يقول لنا من أين استقى هذه الرواية .

(٢) راجع أخبار مجموعة ص ٢٨ ، ونفع الطيب ج ١ ص ١١٠ .

(٣) وقد كتبت باللاتينية بعنوان *Isidorus Pacensis Chronicon* . ونشرت ضمن المجموعة
التاريخية الكنسية الإسبانية الكبيرة المسماة *Espana Sagrada* تصنيف الأب P. Enrique
Florez . الجزء الثامن . ونشر دوزي منها مقتطفات في كتابه : *Recherches* : V.I. p. 4-14
مع تعليقات .

(٤) راجع : Aschbach : *ibid*, I. p. 142 .

الإسبانية في الهضاب الشمالية ، بعد أن سقطت في موقعة شريش فقد لجأت
شراذم قليلة من القوط عقب الفتح إلى الجبال الشمالية ، وامتنعت في مفاوز جبال
أشتوريش (أستورية) ، وقامت إمارتان نصرانيتان صغيرتان في كانتاريا
وجليقية . وكانت إمارة كانتاريا التي أسسها الدوق پتروس ، لوقوعها في الطرف
الغربي من جبال البرنيه في سهول نافارو وبسكونية ، عرضة لافتحام الفاتحين لها حين
سيرهم إلى فرنسا وحين عودهم منها . ولكن إمارة جليقية Galicia ، كانت تقع
في أعماق جبال أشتوريش الوعرة ، بعيداً عن غزوات الفاتحين ، وسميت جليقية
لأنها قامت على حدود الولاية الرومانية القديمة التي كانت تسمى بهذا الاسم .
ففي هذه الهضاب النائية المنيعه اجتمع پلايو وصحبه ، وعددهم لا يتجاوز بضعة
مئات حسبما تقول الرواية ، ولجأوا إلى مغار عظيم في آكام كوفانجا ، تحيط به
وديان سميقة خطيرة ، ويعرف في الرواية الإسلامية باسم (الصخرة)^(١) .
ويقول لنا ابن خلدون في الفصل الذي يخصصه (ملوك الخلافة) ، إن هذه
الإمارة الصغيرة التي كانت مهد المملكة النصرانية ، لا تمت بصلة إلى القوط ،
وإن ملوك الخلافة ليسوا من القوط ، لأن أمة القوط كانت قد بادت ودرثت
لعهد الفتح الإسلامي^(٢) . بيد أنه يصعب علينا أن نقبل هذا الرأي على إطلاقه ،
فنن المحقق أن فلول النصراري التي لجأت إلى الشمال كانت مزيجاً من القوط والإسبان
المحليين ، ولكن الظاهر مما انتهى إلينا من أقوال الروائين المسلمة والنصرانية ،
أن الزعماء ولاسيما پلاجيوس كانوا من القوط ، وأن ملوك الخلافة يمتون إلى
القوط بأكبر الصلات .

ولم يعن المسلمون لأول عهد الفتح بأمر هذه الشراذم الممزقة عناية كافية .
وكان فاتحا الأندلس موسى وطارق ، قد قاد كل منهما حملة إلى جليقية لسحق
البقية الباقية من قل القوط ، ولكنهما لم يتمكنوا من تحقيق غايتهم لاستدعائهما إلى
دمشق كما أسلفنا . وكان إغفال أمر هذه الفلول الباقية بعد ذلك من أعظم أخطاء
الفاتحين . بيد أنه لما كثرت ثورات النصراري في الشمال ، وبالأخص في بسكونية
(أو بلاد البشكنس) ، اهتم ولاة الأندلس بقمعها وتأمين الولايات الشمالية ،

(١) فتح الطيب ج ٢ ص ٥٧ .

(٢) ابن خلدون ج ٤ ص ١٧٩ ، وهو يعارض هنا رأى ابن حيان في أن المملكة النصرانية
يرجع أصلها إلى القوط .

وسير الحرث بن عبد الرحمن الثقفي والى الأندلس في سنة ٩٨ هـ (٧١٨ م) جيشاً إلى الشمال لإخضاع النصارى ، فاجتاح المسلمون بلاد البشكنس وهضاب أستوريش ، وأوفدوا حليفهم الأسقف أوباس وهو أخو الملك وتيزا إلى بلايو ليقنعه بالتسليم وبعث المقاومة ، فأبى بلايو ولجأ إلى كهوفه المنيعه في صخرة كوفاندنجا ، ونفذ المسلمون إلى أعماق الجبال وحاولوا عبثاً أن يستولوا على مراكز العدو ، وحالت بينهم وبينه الوديان السحيقة والآكام الرفيعة ، وحوصر بلايو وأصحابه في « الصخرة » مدى حين ، وقطعت عنهم المؤن ، وتساقطوا تبعاً من الجوع ، حتى لم يبق منهم على قول الرواية سوى ثلاثين رجلاً وعشر نساء^(١). وتزعم بعض الروايات النصرانية أن بلايو كر على المسلمين ، وأنهم هزموا هزيمة شديدة وفقدوا ألوفاً كثيرة ، ووقع أوباس في أيدي مواطنيه فعاقبوه على خيانه بالموت^(٢).

وقد أتبع لنا أن نزور هذه المنطقة الوعرة - منطقة كوفاندنجا - وأن نشهد الصخرة المنيعه ، التي تقول الرواية إن بلايو وأصحابه امتنعوا في مغارها ، والتي تثوى في جانب منها إلى اليوم رفات بلايو . والحق أننا شهدنا من الوادى الذى تشرف عليه الصخرة ، والذي يقال إن المسلمين رابطوا فيه لمحاصرة النصارى ، أروع منظر يمكن تصوره من الصخور الوعرة ، والآكام الرفيعة المدببة ، وأدركنا كيف عجز المسلمون عن اقتحام مثل هذا المعقل المنيع . ولما رأى المسلمون وعورة الهضاب وقسوة الطبيعة ، ارتدوا عن جليقية محتقرين شأن هذه الشرذمة الممزقة الخائفة . فقويت لذلك نفس بلايو وأصحابه ، وانضم إليهم كثير من النصارى في كاتاريا وسهول جليقية ، واختاروه ملكاً عليهم لما رأوا من بسالته وبراعته وقوة عزمه ، وأبى بلايو الفرصة سانحة لتوطيد سلطانه وتوسيع أملاكه ، فأخذ يغير على الأراضى الإسلامية الشمالية ، وبدا لحكومة الأندلس خطر هذه العصابات الجبلية التي أخذت تنتظم إلى قوة يحشى بأسها . ولكن اضطراب الشؤون الداخلية حال مدى حين دون مطاردتها وغزوها . وفي سنة ١١٢ هـ (٧٣٠ م) فى عهد أمير الأندلس الهيثم بن عبيد ، بعث حاكم ولاية البرنيه وهو يومئذ الزعيم المسلم الذى تعرفه الرواية النصرانية باسم

(١) أخبار مجموعة ص ٢٨ ؛ وكذلك Dozy : Hist , II. p.129

(٢) Cardonne : ibid , I. p. 109, Aschbach : ibid; I. p. 145

منوسة أو مونس - جيشاً إلى جبال أستوريش لغزو جليقية وسمح أميرها
بلايو . ولكن بلايو استطاع أن يصمد للمسلمين كرة أخرى ، وأن يهزمهم
هزيمة شنيعة . ولما رأى بلايو منعة معقله وقوة عصبته ، اخترق بسكونية وهاجم
قوات المسلمين في الوقت الذي كانت تنأهب فيه للسير إليه ، ومزق بعض
وحداتها ، ثم ارتد إلى هضابه فاستعصم بها . ولما اضطرت شؤون الأندلس
بعد مقتل أميرها عبد الرحمن العافق وارتداد جيشه في بلاط الشهداء (١١٤ هـ -
٧٣٢ م) ، وشغل الولاة برد جيوش الفرنج ، عن الأراضي الإسلامية في
سبانيا ، كثرت غارات العصابات الحليقية على الأراضي الإسلامية في شمال
نهر دويرة (دورو) وفي منطقة أسترقه ، وعانى المسلمون في تلك الأنحاء كثيراً
من عيث النصارى . ولما تولى عقبة بن الحجاج حكومة الأندلس في سنة ١١٦ هـ
(٧٣٤ م) ، ورأى خطر العصابات الحليقية وشدة عيها في الأراضي الإسلامية ،
سار إلى جليقية وغزاها مرة أخرى في سنة ٧٣٥ أو ٧٣٦ م (١١٨ هـ) واستولى
على بعض مواقعها ، ولكن النصارى امتنعوا كعادتهم في الجبال ولم يبلغ عقبة منهم
أمراً . ولما اضطرت الأندلس بالفتن ونشبت الحرب الأهلية ، بين مختلف الزعماء
والقبائل ، ازداد النصارى جرأة وتحرشاً بالمسلمين وغيثاً في أراضيهم ، ولم تستطع
حكومة قرطبة أن تسعفهم بالعون والمدد لاشتغالها بالشئون الداخلية . وكانت
سلطة الحكومة المركزية ضعيفة في تلك الأنحاء النائية ، وكان سكانها ومعظمهم
من البربر ، يكترون من الخروج والثورة سخطاً على العرب ، واستثارهم بالحكم
والسيادة . وكان النصارى من رعايا حكومة قرطبة ، يدسون الدسائس ويرتكبون
شتى الخيانات ، ويشجعون بذلك بلايو وعصبته على الإغارة والعيث في أراضي
المسلمين ، وكانت الإمارة النصرانية الناشئة تنمو خلال ذلك ويشدد ساعدها ،
ويهرع النصارى إلى لواء بلايو من مختلف الأنحاء .

ويقول العلامة ألتاميرا : « كان كفاح بلايو وزملائه الأشراف ، يرجع
إلى الرغبة في استرداد جزء من الأراضي المفقودة ، ومن جهة أخرى فإن احترام
الفاحين لدين المغلوبين وعاداتهم ، لم يجعل في البداية للمعركة لوناً دينياً أو عنصرياً ،
بل كان مدارها من جانب الأشراف ورجال الدين ، استرداد الأملاك وشيء
من هبة الملك » (١) .

واستمر بلايو في حكم إمارة جليقية زهاء تسعة عشر عاماً ، وتوفي سنة ٧٣٧ م . ولكن بعض الروايات النصرانية تضع تاريخ وفاته بعد ذلك ، فتقول إنه لبث حتى ولاية عبد الرحمن بن يوسف الفهرى للأندلس (١٢٧ - ١٣٧ هـ) (٧٤٥ - ٧٥٥ م) ، وأن الواقعة التي نشبت بين منوسة وبلايو كانت بين سنتي ٧٤٦ و ٧٥١^(١) ، وهي رواية ظاهرة الضعف ، لأن منوسة قتل في سنة ١١٤ هـ (٧٣٢ م) كما قدمنا ، والرواية الإسلامية واضحة دقيقة في ترتيب الوقائع والتواريخ في هذا الموطن . وخلف بلايو ولده فاقيل ، ولكنه توفي بعد حكم لم يطل أمده سوى عامين (سنة ٧٣٩ م) . وكان الدوق پتروس أمير كانتاريا قد توفي في ذلك الحين أيضاً ، وخلفه ولده ألفونسو دوق كانتاريا ، ونمت هذه الإمارة النصرانية الصغيرة أيضاً واشتد ساعدها ، وقويت أواصر التحالف بينها وبين جليقية بزواج أميرها ألفونسو من ابنة بلايو واسمها أرموزندة أو هرمزندة . فلما توفي فاقيل ولد بلايو ، اختار الخلافة ألفونسو دوق كانتاريا ملكاً عليهم ، واتحدت الإمارات ، وقامت منهما مملكة نصرانية واحدة ، هي مملكة ليون النصرانية أو مملكة جليقية في الرواية الإسلامية ، وتمتد من بلاد البشكنس شرقاً إلى شاطئ المحيط غرباً ، ومن خليج بسكونية شمالاً إلى نهر دويرة جنوباً ، وتشمل مناطق شاسعة من القفر والهضاب الوعرة ، وتحتجب وراء الجبال بعيدة عن سلطان المسلمين وغزواتهم^(٢) .

ويعتبر ألفونسو دوق كانتاريا ، أو ألفونسو الأول الملقب بالكاثوليكي مؤسس المملكة النصرانية الشمالية ، وأصل ذلك الثبت الحافل من ملوك قشتالة^(٣) ، الذين لبثوا قروناً يدفعون حدودهم إلى الجنوب تبعاً في قلب المملكة الإسلامية ، ثم انتهوا بالقضاء عليها والاستيلاء على غرناطة آخر معاقلها (١٤٩٢ م) . وحكم ألفونسو في ظروف حسنة ، فقد كانت الحرب الأهلية تمزق الأندلس ، وكان أمر الولايات الشمالية فوضى ، والضعف يسود المسلمين في تلك الأنحاء ، وكان ثمة منطقة عظيمة من القفر والحراب تفصل بين جليقية وبين الأراضي الإسلامية ، فاجتاحها ألفونسو بجموعه ، وقتل من بها من المسلمين القلائل ، ودفع النصراني

(١) Aschbach : ibid , I. p. 148—149

(٢) Dozy : Hsit., V. II. p. 130 , Aschbach : ibid , I. p. 152

(٣) ابن خلدون ج ٤ ص ١٧٩ .

إلى الشمال . ولما حل القحط بالأندلس (سنة ١٣٣ هـ - ٧٥٠ م) واشتد عصفه بالولايات الشمالية الغربية ، جلا كثير من المسلمين عن تلك الأنحاء ، واشتد ساعد النصارى فيها ، ورفعوا لواء الثورة ، وفتكوا بالمسلمين ، ونادوا بالفونسو ملكاً عليهم^(١) ، وانتهز ألفونسو الفرصة فغزا أستُرقة واستولى عليها من يد المسلمين ، واستولى على كثير من البلاد والضياح المجاورة ، وضمها لأملاكه (١٣٦ هـ - ٧٥٣ م) . وهكذا نمت تلك المملكة النصرانية التي نشأت في ظروف كالأساطير واتسعت حدودها ، واشتد بأسها بسرعة مذهشة ، ولم يأت منتصف القرن الثامن حتى بدأت تناهض الإسلام في الأندلس وتغالبه ، وتغير على معاقله وأراضيه . وعهد ألفونسو بإمارة كانتاريا وهي القسم الشرقي من مملكته ، إلى أخيه فرويلا (أو فرويلة) ، فكان يغير أيضاً على الأراضي الإسلامية المجاورة ، ويعيث فيها قتلاً ونهباً وسبياً ، ثم يعود مسرعاً إلى الجبال خشية أن يلحق به المسلمون . بيد أن المسلمين كانوا يومئذ في شغل شاغل من الفتنة والحروب الداخلية ، وكان يوسف بن عبد الرحمن الفهري أمير الأندلس يعنى يومئذ بقمع الثورة في الشمال ، فانهز ألفونسو تلك الفرصة وغزا مدينة لُك (لوجو) الحصينة وهي أقصى معاقل المسلمين في الشمال الغربي وافتتحها (سنة ١٣٧ هـ - ٧٥٤ م) ، وكان يوسف قد انتهى من إخضاع الثورة في الشمال ، وأراد إنجاز المدينة المحصورة ، فجاءته الأبناء بمقدم عبد الرحمن الأموي ، فهول إلى الجنوب وترك لُك لمصيرها . وكان أيضاً قد أرسل قبل أن يغادر الشمال قوة من جنده بقيادة الحصين بن الدجن وسليمان بن شهاب لإنجاد ثغر أربونة ، الذي كان يحاصره الفرنج يومئذ ، ففاجأها النصارى قبل أن تعبر البرنيه ، ونشبت بين الفريقين معركة مزق فيها المسلمون وقتل قائدهم سليمان بن شهاب ، وارتد فلهم إلى الجنوب (سنة ٧٥٦ م)^(٢) . والظاهر أن الذي هاجم المسلمين في تلك الموقعة هو فرويلا وحلفاؤه أو رعاياه البشكنس . وعبر ألفونسو نهر دويرة (دورو) غير مرة ، وعاث في أراضي المسلمين مراراً ، وكان يقتل كل من وقع في يده من المسلمين ، ويسوق النصارى معه إلى الشمال . ولبث مع أخيه فرويلا كلُّ يعمل من جانبه على توسيع المملكة

(١) أخبار مجموعة ص ٦١ و ٦٢ .

(٢) راجع ابن الأبار في الحلة السيرة ص ٥٨ ؛ وكذلك Aschbach : I. ibid ; I.p. 155

النصرانية ، حتى توفي فرويلا سنة ٧٦٤ م (١٤٦ هـ) ، وتولى أخوه ألفونسو من بعده حكم المملكة كلها ، ولكنه لم يعيش طويلا ، وتوفي في العام التالي (٧٦٥ م) (١) فخلفه ابنه فرويلا الأول . وكان عبد الرحمن الأموي يكرس كل جهوده وقواه لقمع الثورة الخطيرة التي نظمها العلاء بن مغيث باسم الدعوة العباسية ، فرأى فرويلا الفرصة سانحة لغزو الأراضي الإسلامية (٢) فعبر نهر دويرة في جيش ضخم وغزا لك وبرتقال وشلمنقة وشقوبية وآبله وسمورة وقشتالة (٣) ، واستولى عليها من المسلمين ، وعاث في تلك المنطقة سفكاً وتخريباً وضمها إلى أملاكه ، فصارت جزءاً من مملكة جليقية ، حتى استعادها المسلمون بعد ذلك بنحو قرنين في عهد الحاجب المنصور . وتختلف الرواية الإسلامية في تعيين تاريخ هذه الغزوة فيضعها ابن الأثير قبل ذلك بأعوام في حوادث سنة ١٤٠ هـ (٧٥٨ م) ويقول إن الذي قام بها هو تدويلية (تدقيليا) ابن أذفنش (ألفونسو) ، ولكن ألفونسو توفي بعد ذلك كما رأينا (٤) ، ويضعها ابن خلدون بعد سنة ١٤٢ هـ وهي التي يعينها تاريخاً لوفاة ألفونسو ، في عهد فرويلا ، وقد تولى فرويلا الملك بعد وفاة أبيه حسباً تقول الرواية النصرانية في سنة ٧٦٥ م (١٤٧ هـ) (٥) . وعلى أي حال فقد كانت هذه الغزوة أعظم فتح قام به النصارى يومئذ في الأراضي الإسلامية ، بعد افتتاح الفرنج لسبمانيا واستيلائهم على أربونة أمنع مواقع ولاية « الثغر » قبل ذلك بأعوام قلائل .

وهنا ظهر خطر المملكة النصرانية واضحاً جلياً . ولم يكن عبد الرحمن الأموي بغافل عن ذلك الخطر ، وكان رغم اشتغاله المتواصل بقمع الثورة والفتن الداخلية ، يتحين الفرص لدرثه ، ففي سنة ١٤٨ هـ (٧٦٦ م) أرسل بعض قواده إلى

(١) يضع ابن خلدون (ج ٤ ص ١٨٠) وفاة ألفونسو (أذفنش) في سنة ١٤٢ هـ (٧٦٠ م) .
(٢) ينسب أشباح هذه الغزوة لفرويلا الكبير (ج ١ ص ١٥٦) معتمداً على رواية رديك الطليطل ، ولكن الرواية الإسلامية وهي أقدم من ذلك ، تجمع على أنها وقعت بعد ذلك في عهد فرويلا ابن الفونسو .

(٣) تراجع الأسماء الفرنجية لهذه الأماكن في جدول الأعلام التاريخية والجغرافية الملحق بنهاية الكتاب .

(٤) ابن الأثير ج ٥ ص ١٨٦ .

(٥) ابن خلدون ج ٤ ص ١٢٢ و ١٨٠ ؛ وكذلك المقرئ عن ابن حبان في نفع الطيب

الشمال على رأس قوة كبيرة ، فسارت حتى حدود جليقية ، واشتبكت مع النصارى والعصاة في عدة مواقع ، وعادت مثقلة بالغنائم والأسرى^(١). وفي سنة ١٥٠ هـ (٧٦٧ م) بعث عبد الرحمن جيشاً بقيادة موله بدر إلى ألبه والقلاع^(٢) ، وهي المنطقة الواقعة بين بلاد البشكنس وجبال كانتاريا ، على ضفاف نهر إيبرو في الطرف الشرقي من مملكة جليقية ، فغزاها وتوغل فيها وأرغمها على أداء الجزية ، وقبض على كثير من العصاة في تلك الأنحاء^(٣). وتقص الرواية النصرانية علينا بعد ذلك نبأ موقعة كبيرة وقعت بين المسلمين والنصارى في بونتومو من أعمال جليقية ، وتقول لنا إن عبد الرحمن أرسل في سنة ٧٧٣ م (١٥٧ هـ) جيشاً كبيراً إلى الشمال بقيادة حاجبه عامر ، أو تمام بن علقمة على يظهر ، فلقبه النصارى بقيادة فرويلا في بونتومو ، ونشبت بين الفريقين موقعة هائلة ، هزم فيها المسلمون وقتل منهم عدد عظيم تقدره الرواية بأربعة وخسين ألفاً وأسر قائدهم^(٤). ولم تشر الرواية المسلمة إلى أن موقعة هذه الخطورة نشبت بين المسلمين والنصارى ، ولاسيا في هذا التاريخ ، الذي كان عبد الرحمن مشتبكا فيه مع الدعي الفاطمي في معارك تقتضي كل جهوده وموارده ، والرواية النصرانية تبدى كعادتها في هذا الموطن مبالغة تسبغ عليها كبير ريب .

وكان فرويلا طاغية شديد البطش ، ولم يكن حكمه موقفاً ، فقد اضطرت في جليقية الغربية نار ثورة كبيرة أيدها المسلمون فيما يظهر ، وأخذها فرويلا بعد جهد ، ولكنه فقد كثيراً من أرضه التي افتتحها في تلك الأنحاء ، وعادت إلى

(١) Conde : *ibid* , I. p. 207

(٢) تطلق الرواية الإسلامية اسم «ألبه والقلاع» على ولايتي قشتالة القديمة *Castile* وآلغا *Alava* معربة عن اللاتينية القديمة *Alava et Castella Vetula*. وكانت «ألبه والقلاع» تشمل في العصور الوسطى ، جميع المنطقة الواقعة بين نهر دويرة جنوباً والبحر شمالاً ، وبين نافار (بلاد البشكنس) وأراجون (الشر الأعل) شرقاً ومملكة ليون غرباً ؛ وألبه هي في الواقع إحدى ولايات بلاد البشكنس ، وتمتد غرباً حتى «برغش» وشمالاً حتى خليج بسكونية ، وجنوباً حتى نهر إيبرو. وأما «القلاع» أو قشتالة *Castella* أو *Castile* فقد كانت تشمل باقي المنطقة من برغش شمالاً إلى ما بعد نهر دويرة (الدورو) وجبال واد الرملة *Quadarrama* جنوباً ، وحتى موقع مدينة مدريد عاصمة إسبانيا الحديثة .

(٣) البيان المغرب ج ٢ ص ٥٦ ؛ ونفح الطيب ج ١ ص ١٥٦ .

(٤) *Aschbach: ibid* ; I, p. 159 والمواش

المسلمين ، ونشبت ضده في ناغار في الشرق ثورة أخرى ، فأخذها بشدة ، واجتاح ناغار وأخضعها ، وكان من أسراه في تلك المعارك فتاة حسناء من أسرة كريمة تدعى مونيا فأحبها وتزوجها ، ورزق منها بولده ألفونسو ، الذي تولى العرش فيما بعد ، وكان مسرفاً في الانتقام والسفك ، قتل كثيراً من أفراد أسرته وقتل أخاه بيده ، وكان الشعب يبغضه ويلتف حول «أورليوس» ابن عمه فرويلا . وأنشأ فرويلا مدينة أوبييلو التي غدت فيما بعد حاضرة جليقية ، ولكنه لم يتخذها قاعدة للحكم ، ولبت في مدينة كانجاس حاضرتها الأولى ، حتى هلك قتيلاً في ثورة جديدة نشبت سنة ٧٧٥ م (١) .

ولما توفي فرويلا كان ولده من مونيا ألفونسو طفلاً ، فاقرقت كلمة الشعب ، وانحازت منه أغلبية كبيرة إلى أورليوس أو أورالي (٢) ولد فرويلا أخى ألفونسو الأول واختارته للملك ، ولكنه لم يحكم إلا في الولايات الشرقية في ناغار وبسكونية ، حيث كان يحكم أبوه من قبل ، وانحازت جليقية الغربية إلى سيلو أو شيلون (٣) زوج أروزندا ابنة ألفونسو الأول ، وانقسمت المملكة بذلك إلى إمارتين . ولكنهما تهادنتا ولم تقع بينهما حرب ولا منافسة . وفي سنة ٧٧٨ م غزا شارلمان بلاد البشكنس في طريقه إلى سرقسطة حسبما قدمنا ، فاضطر أورليوس أن يسعى إلى محالفة المسلمين . ولم تقع في ذلك الحين فيما يظهر حروب بين المسلمين ومملكة جليقية ، لاشتغال كل منهما بشئونه الخاصة . وتوفي أورليوس سنة ٧٨١ م ، فاختار البشكنس مكانه سيلو لأن ألفونسو ولد فرويلا كان لا يزال طفلاً ، واتحدت المملكة مرة أخرى . ولبت سيلو ملكاً على جليقية المتحدة ثلاثة أعوام أخرى ، وفي عهده عقد الصلح بين المسلمين والنصارى . ولكن نشبت بعض ثورات محلية في جليقية نجح في إخمادها ، وتوفي بعدئذ بقليل سنة ٧٨٤ م (٤) . وتوفي سيلودون عقب ، ولكنه أوصى بالملك لألفونسو ولد فرويلا الطفل

(١) يضع ابن خلدون وفاة فرويلا في سنة ١٥٨ (٧٧٥ م) متفقاً بذلك مع الرواية النصرانية (ج ٤ ص ١٨٠) .

(٢) هكذا تسميه الرواية العربية وهي تعتبره ملكاً جليقية كلها (راجع ابن الأثير ج ٦ ص ١٢)

(٣) وهو اسمه في الرواية العربية . ويعتبره ابن خلدون خطأً ولد فرويلا الكبير

(ج ٤ ص ١٨٠) .

(٤) يضع ابن خلدون وفاة سيلو أو شيلون سنة ١٦٨ هـ (٧٨٤ م) متفقاً أيضاً مع الرواية

النصرانية (ج ٤ ص ١٨٠) . وكذا ابن الأثير (ج ٦ ص ٢٢) .

وبالوصاية عليه لزوجه أروزندا . ولكن الأشراف لم يرضوا عن حكم طفل وامرأة ، وانضم إليهم فريق من الشعب ، ولم تلبث جليقية أن اضطرت بثورة قوية على رأسها زعيم يدعى مورجات - وفي الرواية العربية مورقاط - وهو ولد غير شرعي لألفونسو الأول من جارية عربية ، فاستولى على جليقية الغربية ، وانضم إليه كثير من الأشراف والزعماء الذين اشتركوا في محاربة فرويلا خشية أن يستقر الملك لابنه فيبطش بهم فيما بعد ، ففر ألفونسو إلى ألبه حيث عصبة أمه وعشيرتها ، وقد كانت بسكونية حسبا تقدم . ورأى مورجات أن يوظف مركزه وسلطانه بالتحالف مع المسلمين ، وتحالف حزب ألفونسو مع الفرنج أعداء المسلمين ، واتخذ مورجات قاعدة حكمه في مدينة براكيا في قاصية جليقية . وكان رجال الدين ومن إليهم من النصارى والمتعصبين يبغضونه ويثرون الشعب عليه ، لأنه بالغ في التودد إلى المسلمين والتقرب إليهم ، ولأنه يمت إليهم بصلة الدم بواسطة أمه العربية . ولكنه استطاع مع ذلك أن يحكم مملكته الصغيرة حتى وفاته في سنة ٧٨٩ م (١) .

وتشير الرواية العربية إلى طرف من هذه الحوادث ، وتقول لنا إن مورقاط (مورجات) وثب على أذفنش (ألفونسو) فقتله ، ولكن ألفونسو لم يقتل كما قدمنا . وسرى أنه يتولى الملك ويخوض مع المسلمين في الأعوام التالية كثيراً من الوقائع . وتقول الرواية العربية أيضاً ، إن المسلمين انتهزوا فرصة الاضطراب الذى وقع في جليقية ، من جراء هذه الحوادث ، فسار إليها وإلى طليطلة وغزاها وأثنى فيها (٢) ، وهذا ما لا تشير إليه الرواية النصرانية . والظاهر أن المسلمين أغاروا على ألبه والقلاع ، لأنهم كانوا على وئام وتحالف مع مورقاط أمير جليقية . ووقعت هذه الغزوة حسبا تشير الرواية العربية حوالى سنة ١٦٩ هـ (٧٨٦ م) أعنى في أواخر عهد عبد الرحمن الداخل .

وكان طبيعياً بعد أن توفى مورجات عميد الثورة ومغتصب الملك ، أن يعود العرش إلى صاحبه الشرعى ، أعنى ألفونسو ولد فرويلا . ولكن الأشراف لبثوا

(١) Aschbach : ibid , I. p. 165-166

(٢) راجع ابن الأثير ح ٦ ص ٢٢ ؛ وابن خلدون ج ٤ ص ١٨٠ ، ويسمى مورقاط هنا بسمول قاط وهو تحريف نسخ أو خطأ مطبعى على ما يظهر .

في توجسهم من نقمة ألفونسو، واختاروا للملك برمند (أو برمودو) ، وهو ولد لفروبيلا وأخ لأرولويوس ، الذي تولى إمارة البشكنس من قبل . وكان قد هجر الحياة الدنيا إلى عزلة الدير ، فتولى الملك على غضاضة منه ، ولكنه لم يحكم على ما يظهر إلا في غربي جليقية ، حينما كان يسود نفوذ مورجات ، ولبت ألفونسو أميراً على الأنحاء الشرقية . وفي ذلك الحين كان أمير الأندلس هشام بن عبد الرحمن يتأهب لغزو الشمال ، فخشى برمند خطر الإنقسام على مستقبل المملكة ، وعقد الصلح مع ألفونسو وولاه قيادة الجيش ، ولم تمض ثلاثة أعوام حتى ضاق ذرعاً بمهام الملك فتنازل عن العرش مختاراً لألفونسو ، وارتد إلى حياة الدير والعزلة ، وتولى ألفونسو الملك في أواخر سنة ٧٩١ م (١٧٥ هـ) ^(١) باسم ألفونسو الثاني . وبذلك عادت المملكة النصرانية إلى اتحادها مرة أخرى .

وفي أواخر عهد ألفونسو الثاني ، الملقب « بالعفيف » el Casto ، وقع حدث ديني كان له فيما بعد أثر عميق في توجيه مصائر المملكة النصرانية ، هو اكتشاف قبر القديس ياقب ، وهو القديس يعقوب أو يعقوب الحواري . وتذكر الأسطورة أنه لما قتل بأمر هيرود الثاني ملك بيت المقدس ، حمل تلاميذه جثته في مركب جاز به البحر المتوسط إلى المحيط ، ثم حملتهم الرياح شمالاً حتى انتهوا إلى موضع في قاصية جليقية ، ودفنوا جثمان القديس في سفح تلال هنالك . ومضت العصور ، وغاض القبر ولم يعلم مكانه ، حتى كانت سنة ٨٣٥ م ، حيث زعم القس تيودمير أسقف إيريا أنه اكتشف القبر ، هداه إليه ضوء نجم ، وحل النبا في الحال إلى الملك ، فأمر أن يبنى فوق هذه البقعة كنيسة ، وذاعت الأسطورة في جميع الأنحاء ، وصدقها المؤمنون دون تردد ، وهرعوا يحجون إلى البقعة المقدسة ، وقامت حول المزار المزعوم مدينة نمت بسرعة ، وغدت مدينة شنت ياقب Santiago de Compostela المقدسة ، وأنشئت فيما بعد فوق القبر مكان الكنيسة الساذجة كنيسة جامعة (كتدرائية) ، غدت من أعظم كنائس اسبانيا ضخامة وروعة وفخامة . وكان لقيام هذه المدينة المقدسة أثر كبير في إذكاء الحفاصة الدينية والعاطفية القومية في إسبانيا ، وغدا القديس ياقب

(١) ابن الأثير ج ٦ ص ٤٠ ، وهو يتفق هنا مع الرواية النصرانية في الوقائع والتواريخ

«حامي» اسبانيا كلها ، وغدا قبره من أشهر المزارات النصرانية في أوروبا .
وينوه الأستاذ ألتاميرا بأهمية هذا الحدث الديني ، وأثره في حضارة هذه
المنطقة من اسبانيا ، فيقول : « وقد بعث هذا الاكتشاف في النصراري أيماسرور ،
وانتظمت وفود عظيمة ، جاءت لتحتج إلى القبر ، لا من الأراضي الإسبانية
وحدها ، ولكن من الخارج أيضاً ؛ وهكذا بدأ تيار من الزيارات والمؤثرات
الأوروبية في جليقية ، وكان لها أعظم تأثير في العادات والآداب » (١) .

وقد أتبع لنا أن نزور مدينة شنت ياقب ، وهي من أعجب وأجمل المدن
الإسبانية ، ذات طابع خاص بها ، وهي أشد المدن الإسبانية احتفاظاً بهذا الطابع
الخاص . وطابعها القدم المشع بالجلال والوقار ، وهي تبدو بشوارعها المعقودة ،
ومبانيها التي تغص بالصروح التاريخية ، مدينة قديمة عريقة حقاً . وأروع
ما تقع عليه العين كنيستها العظمى ، التي تهيم في وسطها ، وتبدو بواجهاتها الفخمة
وصرحها الشامخ ، وبرجها العظيم ، أثراً من أعظم الآثار الدينية .

وقد نشأت هذه المملكة النصرانية الشمالية ، مستقلة في ظروفها وفي خواصها ،
وابتث آماداً طويلة بعيدة عن الإنصال بالأمم النصرانية الأخرى ، ولم تنشأ
بينها وبين جيرانها المسلمين علائق سياسية أو اجتماعية قوية تؤثر في نظمها وخواصها ،
فاستمرت تحتجب بوعر الجبال وعباب المحيط ، تسود فيها روح المملكة القوطية
القدمية ونظمها ، واستمر الحلالقة دهرأ ينتسبون إلى القوط ، ويسمون أنفسهم
قوطاً ، وتسير حكوماتهم على سنن السياسة القوطية ونظمها ، فالعرش مطلق
يقبض على زمام السلطتين التشريعية والتنفيذية ، ولا يستطيع الأشراف الحد من
سلطانه إلا بالثورة ، أو باستعمال حقهم في الانتخاب ، واستمرت خواص المجتمع
القديم كما كانت أيام القوط : أقلية غنية قوية تستأثر بنعم الثروة والجاه ، وأكثرية
فقيرة مستعبدة ترزخ تحت جور العرش ، واستغلال الأشراف والسادة ، بيد أن
هذه الأكثرية استطاعت أن تشق طريقها إلى الحرية ، حينما اشتدت معركة الحياة
والموت بين الإسلام والنصرانية في اسبانيا ، واضطرت المملكة أن تلجأ إلى
الأكثرية للذود عن حدودها وحياتها ، وانقلب الرقيق القديم جنداً يثور ضد

(١) R. Altamira: Hist. de Espana; Vol. I. p. 239

وتعرف الرواية الإسلامية هذه الأسطورة وتشير إليها . راجع الروض المطار (صفة جزيرة

الأندلس) ص ١١٥ .

سأده ، وبرغمهم على احترامه ومصانعةه . هكذا نشأت المملكة النصرانية الشمالية ، وتمت واتسعت حدودها فيما بين الجبال والقفر ، حتى أصبحت تمتد من بلاد البشكنس شرقاً إلى المحيط غرباً ، ومن المحيط شمالاً إلى ما بعد ضفاف نهر دويرة جنوباً ، وتشمل عدة مناطق وقواعد ، كانت قبل ذلك بفترة يسيرة في قبضة الإسلام .

وهنا نقف في تتبع أخبار المملكة النصرانية عند هذا الحد ، لنستأنفه في مواطنه فيما سيأتى .

الفصل الثامن

هشام بن عبد الرحمن والحكم بن هشام

(١) ولاية العهد . هشام يخاف أباه عبد الرحمن . خلاله . خروج أخويه سليمان وعبد الله . خضوع عبد الله . مطاردة سليمان وعبوره إلى المغرب . الثورة في الشمال . إخمادها . عدوان النصارى . غزو جليقية وهزيمة النصارى . غزو المسلمين للشعر الفرنجى . موقف حكام الشمال وانحرافهم إلى الفرنج . الاستيلاء على جرنندة ومحاصرة أربونة . موقعة قبل دنى بين المسلمين والفرنج . غزو جليقية ثانية . هزيمة الخلافة . وفاة هشام . حزمه وتقواه . منشأته بقرطبة . شغفه بالجهاد . إعزازه للغة العربية . نفوذ الفقهاء في عهده . انتشار مذهب مالك بالأندلس . (٢) الحكم بن هشام وخلاله . محاربه لنفوذ الفقهاء وسخطهم عليه . غزوة ألبه والقلاع . الثورة في سرقسطة . عود سليمان وعبد الله عمى الحكم إلى الثورة . استنصار عبد الله بشارلمان . غزو الفرنج للشعر الأعلى ثم انسحابهم . هدوء الثورة في الشمال . الحرب بين الحكم وعمه سليمان . هزيمة سليمان وإعدامه . خضوع عبد الله . سياسة الفرنج نحو اسبانيا المسلمة . تحرشهم بالمملكة الإسلامية . موقف الخلافة العباسية من هذه السياسة . اتحاد الغاية بينها وبين الفرنج . إنتهاز الفرنج لاضطراب الحوادث الداخلية . غزوم للشعر الأعلى ومحاصرتهم لبرشلونة . دفاع المسلمين الباسل عنها . سقوطها في أيدي الفرنج . إنشاء الفرنج للشعر القوطى . انتماء الفقهاء والأعيان بالحكم . اكتشاف المؤامرة وسحقها . الثورة في ماردة . الثورة في طليطلة تعيين عمروسى ابن يوسف حاكماً لها . واقعة الحفرة . حصار الفرنج لطرطوشة . تحرك نصارى الشمال . عيشهم في أراضى المسلمين . سير الحكم لمحاربتهم . غزو المسلمين لقطلونوية . عقد الهدنة بين الحكم وشارلمان . بواعث هذا الصلح . الثورات المحلية . التحط في الأندلس . غزو المسلمين لجليقية . سخط أهل قرطبة على الحكم . تحريض الفقهاء . تحرك العامة وزحفهم على القصر . واقعة الربض . إخماد الثورة وتمزيق الثوار . معاقبة أهل الربض ونفيهم . سير الأندلسيين إلى الإسكندرية وافتتاحهم لإقريطس . بلاغ الحكم عن الثورة وشمره فيها . تحوطاته بعد إخمادها . مرض الحكم ووفاته . وصيته لولده عهد الرحمن . أخلاق الحكم وصفاته . توطيده لطيبة الملك . إعطائه للصقالية . أهته وفخامته . شعره . رجال دولته . الحاجب عبد الكريم . قوس أهل الذمة . ازدهار العلوم والآداب . عباس بن فرناس ويحيى الغزال .

خلف عبد الرحمن الداخل ولده هشام بعهد منه ، ولم يكن أكبر ولده ، بل كان أكبرهم سليمان والى طليطلة ، ولم يك يومئذ ثمة نظام خاص لولاية العهد ، بل كانت ولاية العهد كما هو مأثور ، حقاً مفوضاً للأمير أو الإمام ، يجريه وفقاً

للمصلحة العامة^(١)، ولم يكن انحصاره في ولد الأمر أو أسرته ، سوى تقليد من تقاليد السياسة والعصبية ، سارت عليه الدولة الأموية ، فوضعت بذلك في الدول الإسلامية أسس الأسر المملوكية ، والعروش المتوارثة . وكان من الطبيعي بعد أن ظفر عبد الرحمن الأموي ، بإحياء تراث أسرته المندر في المشرق ، أن يصل ما انقطع ، وأن تقوم من هذا الفرع الأموي ، أسرة ملوكية جديدة تتعاقب في العرش ، وتعيد بالأندلس مجد الدولة الأموية الذاهب .

وهكذا اختار عبد الرحمن لولاية العهد من بين بنيه الأحد عشر ، ولده هشاماً ، وآثره بهذه الاختيار لما توسمه فيه من المزايا والمواهب الخاصة . وكان مولده بقرطبة في سنة ١٣٩هـ - ٧٥٦م^(٢) . وكانت أمه - وهي « أم ولد »^(٣) بارعة في الحسن تدعى « حليل »^(٤) - أحب نساء عبد الرحمن إليه ، وأكثرهم نفوذاً لديه ، وكان هشام حينما توفي أبوه مقياً بماردة مقر ولايته ، فأخذ البيعة له أخوه عبد الله المعروف بالبلنسي ، ولكن على غضاضة منه ، لأنه مثل أخيه سليمان ، كان يرى نفسه أحق بولاية العهد من أخيه الأصغر . ودخل هشام قرطبة لأيام قلائل من وفاة أبيه ، وبويع في مستهل جمادى الأولى سنة ١٧٢هـ (٧٨٨ م) ، وكان حينما ولي العرش في الثالثة والثلاثين من عمره ، بيد أنه كان عاقلاً حازماً وافر الشجاعة والعزم ، كثير العدل والتقوى ، جم التواضع والرفق . وتشيد الرواية الإسلامية بمجمل خلاله ، وتنوه بالأخص بورعه ، وتواضعه ، وحبه للخير ، فيقول لنا ابن عبد ربه صاحب العقد الفريد إنه « كان أحسن الناس وجهاً ، وأشرفهم نفساً ، الكامل المروءة ، الحاكم بالكتاب والسنة ، الذي أخذ الزكاة على حلها ، ووضعها في حقها ، لم يعرف عنه هفوة في حدائته ، ولا زلة في أيام صباه » . وقيل بلغ من تواضعه أن كان يطوف شوارع قرطبة مختلطاً بالرعية يسمع المظالم بنفسه ، ويعود المرضى ، ويشهد الجنائز ، وربما كان يخرج في الليالي المظلمة الممطرة ، فيلقى بضرر المال في المساجد لمن وجد فيها بغية تعميرها بالمصلين ،

(١) يقصد ابن خلدون في مقدمته ، فصلاً عن ولاية المهدي في الأمة الإسلامية ، (ص ١٧٥ وما بعدها) .

(٢) البيان المغرب ج ٢ ص ٦٢ ؛ وابن الأبار في الحلة السيرة ص ٣٧ .

(٣) هي الجارية إذا زرقت من سيدها بولد ، وعندئذ لا يجوز بيعها ولا هبتها .

(٤) وفي رواية « حوراء » . وفي رواية أخرى « جمال » .

ويسعى إلى غوث البائس والمسكين بمختلف الوسائل^(١). وكان يذهب مذهب عمر بن عبد العزيز ، في تحرى الحق والعدالة ، فكان يبعث إلى الكور بقوم من ثقافته ، للتحرى عن مسلك العمال وسيرهم بين الرعية ، فإذا انتهى إليه حيف من أحدهم أسقطه واشتد في عقابه^(٢).

وكانت ولاية هشام نذير فوره جديدة من الثورات المحلية . ذلك أن سليمان أكبر أخوته لم يقر إمارته ، ودعا لنفسه في طليطلة وما جاورها ، وكذلك أخوه عبد الله البلنسى لم يخلد إلى الرضى ، بالرغم مما بذله هشام لاسترضائه ، ولم يلبث أن لحق بأخيه سليمان في طليطلة ، وتحالفا على العصيان والثورة ، وسار سليمان خفية إلى قرطبة ليحاول إضرام الثورة ضد أخيه ، فلم يظفر بشيء ، وطارده الحند ، ففر إلى ماردة وحاول أن يعتصم بها ، ولكن رده عاملها . وكان هشام قد بعث جيشاً لحصار طليطلة وإخضاعها ، ففر سليمان إلى جبال بلنسية ، ولجأ إلى بعض ثغور تدمير . ولما رأى عبد الله البلنسى ما حل بأخيه من الفشل والهزيمة ، خشى عاقبة الخروج ، وارتد إلى قرطبة يلتمس الصفح من أخيه ، فعفا عنه هشام وأكرم مثواه ، وبعث جيشاً بقيادة ولده معاوية لمطاردة سليمان وصحبه ، فتوغل في أنحاء تدمير (مرسية) واضطر سليمان إلى طلب الأمان والعفو ، فأجابه هشام إلى طلبه ، على أن يعبر بأهله وولده إلى المغرب ، وأعطاه ستين ألف دينار صلحاً على تركه أبيه . وسار معه أخوه عبد الله ، وأقاما بعدوة المغرب ، وانتهت بذلك ثورة الأخوين (سنة ١٧٤ هـ - ٧٩٠ م)^(٣).

واعتقد ثوار الشمال في نفس الوقت أن الفرصة قد سنحت بوفاة عبد الرحمن لإضرام نار الثورة ككرة أخرى ، فخرج بطرطوشة سعيد بن الحسين الأنصارى ، وكان قد التجأ إليها منذ مصرع أبيه ، والتف حوله اليمنية ، وأخرج عاملها من قبل هشام ، يوسف العيسى ، فعارضه موسى بن فرقوق في المضرية ودعا لهشام^(٤) ،

(١) راجع في التنويه بخلال هشام وصفاته ، أخبار مجموعة ص ١٢٠ و ١٢١ ؛ وابن الأثير ج ٦ ص ٣٧ ؛ والمعقد الفريد (مصر سنة ١٩٢٨) ج ٣ ص ٢٠٢ ؛ والمعجب لعبد الواحد المراكشى ص ١٠ .

(٢) البيان المغرب ج ٢ ص ٦٧ ، وأخبار المجموعة ص ١٢٧ .

(٣) البيان المغرب ج ٢ ص ٦٤ و ٦٥ .

(٤) ابن خلدون ج ٤ ص ١٢٤ .

وخرج أيضاً مطروح بن سليمان بن يقظان بشعر برشلونة ، والتفت حوله جموع كبيرة ، واستولى على سرقسطة ووشقة ، وقوى أمره ، وبسط سلطانه على الولاية كلها ، فسير إليه هشام جيشاً كبيراً بقيادة عبيد الله بن عثمان ، فسار إلى طرطوشة وانتزعها من يد الثوار ، وحاصر سرقسطة وفيها مطروح وصحبه ، وضيق عليها الحناق حتى ضاق أهلها ذرعاً بالحصار ، وفي ذات يوم اغتال مطروحاً بعض أصحابه واحتزوا رأسه ، وقدموها إلى ابن عثمان ، فبعث بها إلى هشام ، ودخل سرقسطة ظافراً (سنة ١٧٥ هـ) (١) ، وقضى بذلك على الثورة في تلك الأنحاء .

وكان نصارى الشمال ، منذ اشدت ساعدهم ، يكثرون من الإغارة على البلاد الإسلامية والعيث فيها ، ويشدد هذا العيث والعدوان كلما اضطرت الأندلس بالفتن الداخلية ، وشغلت حكومة قرطبة عن حماية الأطراف النائية . وكان الفرنج جرياً على سياستهم المأثورة ، يشجعون النصارى من البشكنس والحلالقة على مواصلة التحرش بالملكة الإسلامية ، وكان هشام كأبيه يقدر خطورة هذه الدسائس الفرنجية ، وتحذره من جهة أخرى نزعة قوية إلى الجهاد والغزو ، فما كاد ينتهي من القضاء على الثورة الداخلية ، حتى سرى إلى الشمال جيشاً قوياً من أربعين ألف مقاتل بقيادة عبيد الله بن عثمان ، فاخترق ألبه والقلاع (قشتالة القديمة) ، واجتاح جليقية ، وهزم الحلالقة بقيادة ملكهم برمودو (أو برمند) وحلفاءهم البشكنس ، ومزق جموعهم (سنة ١٧٥ هـ - ٧٩١ م) ، وعاد إلى قرطبة مثقلاً بالغنائم والسبي . ولم يمض قليل على ذلك حتى سارت إلى جليقية حملة أخرى بقيادة يوسف بن بخت ، وهزم برمودو مرة أخرى ، وقتلت جموع كبيرة من النصارى ، وعلى أثر ذلك تنازل برمودو عن العرش لألفونسو الثانى ولد فرويلا ، وأمير جليقية الشرقية ، ولجأ إلى عزلة الدير .

وفي العام التالى أعنى في سنة ١٧٦ هـ (٧٩٢ م) تأهب هشام لمحاربة الفرنج ، واستثناف عهد الجهاد والغزو ، فسير إلى الشمال جيشاً كثيفاً . بقيادة حاجبه عبد الملك بن عبد الواحد بن مغيث (٢) . فعبّر البرنيه من ناحية قطلونية ، وأستولى

(١) العنزى فى كتاب « ترصيع الأخبار » (ص ٢٦ و ٢٩) .

(٢) وهو حفيد مغيث الرومى فاتح قرطبة .

أثناء سيره على مدينة جيرونة (جرندة) الحصينة في قاصية شمال شرقي إسبانيا ، وكان الفرنج قد استولوا عليها منذ سنة ٧٨٥ م من يد مطروح بن سليمان . وكان حكام هذه الأنحاء التي لبثت تضطرم بالثورة على حكومة قرطبة ، منذ غزوة شارلمان الأولى لإسبانيا ، قد استقلوا بما في أيديهم من المدن ، وجنحوا إلى محالفة الفرنج جيرانهم من الشمال ، والتماس حمايتهم . ومن ذلك أن أبا ثور صاحب مدينة وشقة ، الذي سبق ذكره في حوادث باب الشزرى ، بعث رسله إلى تولوشة عاصمة أكوتين يطلب التحالف من ملكها الدوق لويس ابن شارلمان (٧٩٠م) (١) . واستولى الحاجب عبد الملك بعد ذلك على عدد آخر من المعاقل والحصون ، ثم نفذ إلى سبانيا ، وزحف على أربونة قاعدة الثغر الإسلامي القديم . وتقول الرواية الإسلامية إن المسلمين افتتحوا خلال تلك الغزوة أربونة (٢) ، ولكن الروايات الفرنجية المعاصرة لاتذكر شيئاً عن ذلك الفتح ، وتذكر أن المسلمين أرتدوا عن أربونة لمناعتها إلى قرقشونة . وكان شارلمان (أو كارل الأكبر) ملك الفرنج يشغل يومئذ بمحاربة خصومه السكسونيين بعيداً عن فرنسا ، فتأهب ولده لويس أمير أكوتين لصد العرب ، وأوفد لمحاربتهم جيشاً بقيادة جيوم كونت دى تولوز ، فالتقى الفريقان في مكان يسمى «قيل دنى» على ضفاف نهر أورينا بين أربونة وقرقشونة ، ونشبت بينهما موقعة غير حاسمة ، ارتد المسلمون على أثرها إلى الجنوب مثقلين بالغنائم والسبي ، وقدرت أخماس السبي وحدها بخمسة وأربعين ألفاً من الذهب ، وأرغم الأسرى النصرارى على حمل أو جر أحمال من الأحجار والتراب من سور أربونة حتى قرطبة ، وأمر هشام أن يُبنى منها جناح جديد للمسجد الجامع تخليداً لتلك الغزوة الشهيرة .

وكانت منطقة رندة ، المعروفة بإقليم «تاكرتنا» ، أو «تاكرتنى» (٣) ، وفيها يحتشد البربر ، مهد الفتن والقتال المتوالية . ففي سنة ١٧٨ هـ (٧٩٤ م) أثار البربر هنالك ضرام الفتنة مرة أخرى ، وخلعوا الطاعة وعاثوا في تلك الأنحاء ، فسير إليهم هشام حملة بقيادة عبد القادر بن أبان بن عبد الله ، فأخذ الثورة دون رافة ، وأباد جموع البربر ، وخرّب بلادهم وضياعهم ، وفرقهم في الأنحاء

(١) راجع R.M. Pidal : ibid, p. 203

(٢) ابن الأثير ج ٦ ص ٤٥ ؛ والبيان المغرب ج ٢ ص ٦٤ ، ونفع الطيب ج ١ ص ١٥٨

(٣) راجع معجم البلدان لياقوت ج ٢ ص ٣٥٣ .

والتبائل تمزيقاً لعصبتهم ، وبقيت هذه المنطقة عدة أعوام فقراً خراباً .

وفي ربيع سنة ١٧٩ هـ (٧٩٥ م) سير هشام إلى جليقية حملة أخرى بقيادة عبد الكريم بن عبد الواحد بن مغيث ، أخى الحاجب ، فاخترق المسلمون مفاوز جليقية حتى أستُرقة ، ففر السكان النصارى إلى رووس الجبال ، وتأهب ألفونسو ملك جليقية للقاء المسلمين ، على رأس جيش من الجلالقة وحلفائهم البشكنس ، ونشب القتال بين الفريقين في قاصية جليقية ، في المكان المعروف بالصخرة ، وانتصر الجلالقة في البداية في بعض الوقائع المحلية ، وقتل جماعة من المسلمين في كمين دبر لهم ، ولكن النصارى هزموا في النهاية ، وعاث المسلمون في جليقية ، وأصابوا كثيراً من الغنائم ، ثم ارتدوا إلى الجنوب بعد أن مزقت قوى الجلالقة وسكنوا إلى حين ، وساد الأمن في الولايات الشمالية^(١).

وكانت هذه آخر غزوة سيرها هشام ، إذ توفي عقب ذلك بقليل في الثالث من صفر سنة ١٨٠ هـ (١٨ أبريل سنة ٧٩٦ م) في نحو الأربعين من عمره ، بعد أن حكم نحو ثمانية أعوام . وكان أبيض ، أشهل ، مشرباً بالحمرة ، وبعينيه حول ، وكنيته أبو الوليد ويلقب بالرضا^(٢) . وفي عهده ساد الأمن والاستقرار ربوع الأندلس بالرغم مما وقع خلاله من الثورات المحلية . وكان هشام إلى جانب رفقته وتواضعه ، حازماً ، صارماً في الحق ، حريصاً على توطيد النظام والعدالة ، فلم يتردد في القبض على ابنة الأكبر عبد الملك وزجه إلى السجن لما ثبت لديه من اثماره به ، فبقي في سجنه أعواماً طويلة حتى توفي بعد وفاة أبيه^(٣) . وكان فوق شغفه بالجهاد والغزو ، محباً للإصلاح والإنشاء ، فعنى بإتمام مسجد قرطبة الجامع الذي بدأ بإنشائه أبوه وتوفي قبل إتمامه ، وأنشأ عدة مساجد أخرى ، وزين قرطبة بكثير من الأبنية والحدائق الفخمة ، وجدد قنطرة قرطبة الشهيرة التي بناها السمع بن مالك على النهر الكبير ، وأنفق في تجديدها أموالاً عظيمة ، وكان

(١) البيان المغرب ج ٢ ص ٦٦ ، وابن الأبار في الحلة السيرة ص ٧٢ . ويقول ابن الأثير إن الذي قاد هذه الحملة هو عبد الملك بن عبد الواحد بن مغيث (ج ٦ ص ٤٨) . وراجع ابن خلدون ج ٤ ص ١٢٥ .

(٢) ابن الأثير ج ٦ ص ٤٦ ، وابن الأبار ص ٣٧ ، والبيان المغرب ج ٢ ص ٦٢ .

(٣) ابن الأثير ج ٦ ص ٤١ .

يشرف على إصلاحها بنفسه^(١)، وعلى الحملة فقد كان عهده زاهراً ، وافر الأمن والرخاء .

وكان هشام شديد الورع والتقوى ، وكان شغفه بالجهاد وإعلاء كلمة الدين . من أخص مظاهر تقواه ، وكان ينبثق الأموال الطائلة في أفناء أسرى المسلمين ، حتى لم يبق في عهده منهم في قبضة العدو أحد ، ويرتب في ديوانه أرزاقاً لأسر الحند المتوفين في الجهاد^(٢) . وفي عصره اتخذت السياسة الأموية إجراء يشهد بعيد نظرها ، إذ جعلت العربية لغة التدريس في معاهد النصارى واليهود . وكان لذلك الإجراء بالرغم من بساطته ، أثر عميق في التقريب بين أصحاب المذاهب المختلفة ، وفي بث روح التفاهم والوثام بينها ، ولاسيما بين المسلمين والنصارى ، وكان من أراه أيضاً أن كثر اعتناق النصارى للإسلام بعد أن وقفوا على أصوله وتفصيله ، وقربت مسافة الخلف بينهم وبين الفاتحين ، ولم يكن ذلك بعيداً في الواقع عن غاية السياسة الأموية^(٣) .

وكان هشام يؤثر مجالس العلم والأدب ولاسيما الحديث والفقه على غيرها . وفي عصره ذاع مذهب مالك^(٤) . وكان الإمام مالك ، وهو معاصر لهشام ، يعجب بسيرته وخلاله ، ويشيد بعدله وتقواه ، وكانت تجمع بين الرجلين على بعد المزار عاطفة مشتركة هي بغض بنى العباس ، وكان قد رحل إلى المشرق عدة من فقهاء الأندلس ، منذ أيام عبد الرحمن الداخل ، وفي مقدمتهم زياد بن عبد الرحمن ، وعيسى بن دينار ، وسعيد بن أبي هند ، ويحيى بن يحيى اللبثي ، فدرسوا على مالك بالمدينة ، واستقوا من علمه واجتهاده ، ونقلوا عنه كتابه «الموطأ» ، وذاع مذهب مالك على يدهم في الأندلس في عصر هشام . وكان هشام كثير الإجلال لمالك ومذهبه ، فزاد ذلك في ذبوعه وتوطده ، وغدا مذهب أهل الأندلس الغالب ، وكانوا قبل ذلك يعملون بمذهب الأوزاعي إمام

(١) البيان المغرب ج ٢ ص ٦٨ ، وابن الأثير ج ٦ ص ٤٩ . وما تزال هذه القنطرة العربية قائمة حتى اليوم على نهر الوادي الكبير خلف الجامع الأموي ، محتفظة بمقودها القديمة ، بالرغم مما توالى عليها من ضروب الإصلاح والتجديد .

(٢) أخبار مجموعة ص ١٢٠ .

(٣) راجع Scott : *ibid*, I. p. 433 .

(٤) الإمام مالك بن أنس ، أبو عبد الله ، أحد أصحاب المذاهب الأربعة الشهيرة (٩٥ -

١٧٩ هـ) وترجمته في ابن خلكان ج ١ ص ٥٥٥ - ٥٧ .

أهل الشام^(١). وفي عصر هشام قوى نفوذ الفقهاء ورجال الدين ، وترجعوا في أهم المناصب ، وكثر تدخلهم في شئون الدولة ، خلافاً لما كان عليه عبد الرحمن الداخل من إقصائهم والتحرز من تدخلهم ونفوذهم ، وكان لذلك أثر غير محمود ترتب عليه فيما بعد نتائج سياسية واجتماعية خطيرة .

- ٢ -

وخلف هشاماً ولده الحكم بعهد منه ، وبويع عقب وفاة أبيه بأيام قلائل في الثامن من صفر سنة ١٨٠ هـ (أبريل ٧٩٦ م) ، وهو في السادسة والعشرين من عمره ، وكان مولده بقرطبة سنة ١٥٤ هـ (٧٧١ م) ، وأمه أم ولد تدعى زخرف ، وكان طاغية ، حازماً ، شجاعاً ، شديد الوطأة على خصومه والخارجين عليه ، وكانت تحدوه مع ذلك نزعة إلى الإنصاف والعدالة^(٢) . وهو أول من أظهر فخامة الملك بالأندلس ، وأسرف في تأييد هيئته ، وجدد عهد أجداده بالمشرق بيذخه وروعته ، واستكثر من الممالك والبطانة . وكان ميالاً إلى اللهو ، مولعاً بالصيد ، يؤثر مجالس الندماء والشعراء ، على مجالس الفقهاء والعلماء . وآس الفقهاء تصدع مركزهم الذي سما في عهد أبيه هشام ، وكانت سياسة الحكم ترمي إلى الحد من نفوذهم ، وإبعادهم عن التدخل في شئون الدولة ، وكانوا بالعكس يرمون إلى انتزاع السلطة السياسية ليحكموا الأمة من وراء العرش بواسطة جمهورية دينية ، فجاءت سياسة الحكم ضربة قاضية على أمانهم ، وثار نفوسهم سخطاً على الأمير الفتى ، وأخذوا يلوحون بسبه والتعريض به من فوق المنابر ، ويوغرون عليه صدور العامة بالدس والوقيعه ، ويسبغون على دعايتهم ثوب الوعظ والإرشاد ، والحض على التمسك بأحكام الدين . وكان الحكم بإسرافه في مجالى اللهو والبذخ ، يسبغ على أقوالهم قوة ، وكانت دعايتهم قوية بالأخص بن البربر والمولدين (أو مسلمى الإسبان) ، إذ كان هؤلاء يبغضون العرب لكبرياتهم واستئثارهم بالمناصب والنفوذ ، وكانوا دائماً على أهبة الخروج والعصيان كلما سنحت الفرصة . وكان لتعريض الفقهاء وسعايتهم كما سنرى آثار بعيدة المدى^(٣) .

(١) أخبار مجموعة ص ١٢٠ ؛ والاستقصاء ج ١ ص ٦١ ، ونفح الطيب ج ٢ ص ١٥٨ ؛

وراجع أيضاً Dozy : Hist. , I. p. 286 & 287

(٢) أخبار مجموعة ص ١٢٥ .

(٣) راجع المعجب ص ١١ ؛ ونفح الطيب ج ١ ص ١٥٩ ، وكذلك Dozy : Hist, I. p. 238

والتاليرا Hiat. de Espana, Vol. I. p. 227

وفي بداية عهد الحكم ، في صيف سنة ١٨٠ هـ (٧٩٦ م) سار الحاجب عبد الكريم بن عبد الواحد بن مغيث غازياً بالصائفة إلى ألبنة والقلاع ، (قشتالة القديمة) واستولى على قلعة قلهرة الواقعة على نهر إيبرو ، وأثنى في بلاد البشكنس (نافار) ، وعاد مثقلاً بالغنائم والسبي . ولكن سرعان ما اضطر الحكم إلى ترك الجهاد والغزو ، ليعنى بمقاومة بوادر الخروج والثورة التي أخذت تتفتح حوله من كل صوب . وكان الثغر الأعلى (أراجون) موطن الخطر في تلك المرة ، وكانت تؤازره وتدعيه عوامل خارجية في منتهى الخطورة . ذلك أن الحكم ما كاد يجلس على عرش أبيه ، حتى عول عمه سليمان وعبد الله على التحرك مرة أخرى . وكانا يقيمان في عدوة المغرب منذ أيام أخيها هشام ، يرقبان الفرص . واتصل عبد الله بابن الأغلب صاحب إفريقية وخاطبه في مشروعهما ، ولكنه لم يلق على ما يظهر منه تأييداً ، فاتجه الأخوان وجهة أخرى . وكانت مدائن الثغر الأعلى (١) وفي مقدمتها سرقسطة ما زالت ، منذ أيام عبد الرحمن الداخل تفيض بعوامل الفتنة ، ففي سنة ١٨١ هـ (٧٩٧ م) ثار بالثغر الأعلى بهلول بن مروان المعروف بأبي الحجاج ودخل سرقسطة ، وثار حاكم مدينة وشقة في نفس الوقت . فعبّر سليمان وعبد الله سرّاً إلى الأندلس ، وسار عبد الله إلى الثغر الأعلى يؤلب البلاد ، ويحشد الأنصار لمقاتلة الحكم ، ثم عبر جبال البرنيه إلى بلاد الفرنج ، وسعى إلى مقابلة شارلمان (كارل الأكبر) في مدينة إيكسلا شاييل حيث كان يعقد بلاطه يومئذ ، والتمس إليه العون والموازرة ، فأكرم ملك الفرنج وفادته ، واستجاب إلى دعوته ، وألنى الفرصة سانحة للتدخل في شؤون الأندلس ، وتحقيق مطامعه القديمة . وسير شارلمان جيشاً مع ولده لويس أمير أكويتين ، فعبّر البرنيه واستولى على مدينة جبرونة (جيرنادة) ، ثم توغل في ولاية الثغر الأعلى ، بممالة بعض الزعماء الخوارج ، وقيل إن الأخوين عبد الملك وعبد الكريم ابني عبد الواحد

(١) قال ياقوت في معجمه الجغرافي « الثغر » ، كل موضع قريب من أرض العدو يسمى ثغراً ، كأنه مأخوذ عن الثغرة ، وهي الفرجة في الخائط . وكان رباط الثغر أيام فتح الأندلس يشمل أربونة وما حوّلها ، باعتبارها أقصى ولاية في اسبانيا المسلمة ، مما يلي أرض الفرنج ، فلما سقطت أربونة في يد النصارى ارتد « ثغر » الأندلس إلى ما وراء جبال البرنيه ؛ فأصبح « الثغر » يطلق على ولاية سرقسطة وما جاورها حتى برشلونة والبحر شرقاً ، وهذا هو « الثغر الأعلى » ، ويشمل عدا سرقسطة لاردة ، وتطيلة ، ووشقة ، وطرطوشة ، وطركونة وغيرها ؛ ويقابل « أراجون » من ولايات اسبانيا الحديثة . وسميت تطيلة وأعمالها « بالثغر الأوسط » لمجاورتها لمملكة ليون النصرانية (جليقية) .

ابن مغيث انضما يومئذ إلى عبدالله في ثورته ، وأنهما سارا إلى سرقسطة ، ولكن أبا صفوان حاكمها من قبل الحكم ، استطاع أن يهزم الخوارج ، وأن يأسر زعيمهم عبد الكريم ، وأن الأخوين عادا بعد ذلك إلى الطاعة واستأمنا في أوائل سنة ١٨٦ هـ فأمنهما الحكم ، ووفدا على قرطبة وقدا خضوعهما وإخلاصهما^(١) . وقد نجد ما يؤيد هذه الرواية في أنه لم يرد للأخوين ذكر خلال هذه الأعوام الخمسة ، مع أنهما كانا دائماً في الطليعة في قيادة مختلف الحملات والغزوات . وعلى أي حال فقد بادر الحكم بالسير إلى الشمال لرد هذا الخطر الجديد . والظاهر أن الفرنج لم يلقوا الحوادث ممهدة في ذلك الجزء المضطرب من الأندلس ، وخشوا من جهة أخرى من نكث حلفائهم المسلمين ، وتكرار مأساة باب الشزرى ، فارتدوا إلى الشمال بعد أن حاصروا مدينة وشقة حيناً (٧٩٧ م) ، تاركين الأمور لمصيرها ، ولما رأى الزعماء الخوارج عبث المقاومة ، عادوا إلى الطاعة ، واسترد الحكم سلطانه على سرقسطة ووشقة ولاردة وغيرها .

(١) وردت هذه الرواية منسوبة إلى الرازي مؤرخ الأندلس ، في أوراق مخطوطة عن تاريخ الأندلس من سنة ١٨٠ إلى سنة ٢٣٢ هـ عثر بها صدوق العلامة المرحوم الأستاذ « ليث بروفسال » عميد كلية الجزائر والأستاذ بجامعة باريس سابقاً . وقد تفضل بإطلاعي عليها ونقلت عنها . ولم تكن تعرف وقتئذ بالتحقيق من هو مؤلف هذا المخطوط ؟ ولكن تبين فيما بعد من مقارنة الروايات التي يوردها عن مؤرخي الأندلس السابقين مثل الرازي وابن القوطية وابن الفرضي ، ثم ابن حزم وأحمد ابن خالد ، كما تبين منه ما تتمم به كتاباته وتمليقاته من الرزاة والدقة ، أن هذه الأوراق المخطوطة ، إنما هي قطعة من مؤلف مؤرخ الأندلس الكبير ابن حيان ، وهو المسمى « المقتبس في تاريخ رجال الأندلس » . وتحتوي هذه القطعة على كثير من المعومات والتفاصيل الحسنة عن حوادث العصر الذي نتحدث عنه وعن شخصياته . وقد حصلت بعد ذلك بأعوام من مكتبة القرويين بفاس ، على نسخة مصورة من قطعة كبيرة مخطوطة من تاريخ ابن حيان المشار إليه تبين أنها تنتم للجزء المتقدم ، إذ تبدأ حوادثها من سنة ٢٣٣ هـ وتنتهي في سنة ٢٦٧ هـ ، وهي عبارة عن جزء كبير يقع في مائة وتسعين صفحة كبيرة . وهي قديمة بالية متآكلة الحوافي . وقد انتفعت بها منذ الطبعة الثالثة من الكتاب انتفاعاً عظيماً حسبما يرى القارئ بعد هذا . ثم ظهرت أخيراً قطعة كبيرة من « المقتبس » تتعلق بعصر الناصر وتحفظ بالمكتبة الملكية بالرباط ، وقد أشرنا إليها وإلى محتوياتها في مقدمة الكتاب . وقد انتفعتنا بها في هذه الطبعة الجديدة أعظم انتفاع حسبما يرى القارئ بعد . وقد نشرت من قبل قطعة أخرى من تاريخ ابن حيان بعنوان المستشرق الإسباني أنتونيا ، وهي تتعلق بالأخص بحوادث عصر الفتنة الكبرى (٢٥٠ - ٣٥٠ هـ) . وتوجد قطعة صغيرة مخطوطة أخرى من تاريخ ابن حيان بمكتبة أكاديمية التاريخ بمدريد ، وهي تتعلق بأحوال الخلافة وحوادث الأندلس في سن ٣٦٢ - ٣٦٥ هـ أيام الحكم المستنصر .

وفي ذلك الحين كان سليمان بن عبد الرحمن قد استطاع أن يحشد أنصاره ولاسيما من البربر ، وهرع إليه أخوه عبد الله البلنسي بعد فشله في الشمال ، وسار الخوارج إلى قرطبة يحاولون الإغارة عليها ، فالتقوا بجند الحكم على مقربة منها في مكان يسمى « فنجيط » وذلك في شوال سنة ١٨٢ هـ ، فهزم سليمان . ثم التقى الجمعان ثانية بالقرب من إستجة في صفر سنة ١٨٣ ، فهزم سليمان مرة أخرى بعد قتال عنيف ، وفر في أصحابه متجهاً إلى ماردة ، فبعث الحكم الجند في أثره ، فطارده حتى قبض عليه . وجيء به إلى الحكم ، فأمر بإعدامه ، وأعدم معه عدة من زعماء الفتنة ، وأرسلت رؤوسهم إلى قرطبة حيث طيف بها (سنة ١٨٤ هـ - ٨٠٠ م) . وفر أخوه عبد الله إلى بلنسية فاختفى بها ، ولكنه لم ير في النهاية مناصباً من طلب العفو ، فعفا عنه الحكم وأصدر له أماناً خاصاً ، وذلك على أن يبقى في بلنسية وتجري عليه أرزاقه ، وبعث عبد الله إلى الحكم بابنه عبيد الله فأكرمه الحكم وزوجه إحدى أخواته ، وركن عبد الله إلى السكينة طوال عهد الحكم (١) .

وهكذا انتهت المرحلة الأولى من الحوادث التي اقترنت بثورة سليمان وأخيه عبد الله ، ولم يحن الفرنج منها كبير غم ، ولكن ذلك لم يثن شارلمان عاهل الفرنج عن عزمه ومشاريعه . ذلك أن سياسة التدخل في شئون إسبانيا المسلمة ، كانت أصلاً من أصول السياسة الفرنجية ، وكان الفرنج ينظرون بعين التوجس ، إلى قيام هذه الإمارة الإسلامية الجديدة فيما وراء البرنيه ، وإلى توطدها ونموها ، ويخشون بالأخص أن يضطرم الإسلام بفقرة جديدة من الجهاد والغزو ، فينساب تيار الفتح الإسلامي إلى غاليس ككرة أخرى ، وقد حاول شارلمان ضربته الأولى في عهد عبد الرحمن الداخل فباء بالهزيمة والفشل ، ونكب في مفاوز رونشغال (باب الشزرى) . ولما عبر المسلمون جبال البرنيه في عهد هشام وغزوا سبانيا ، تجددت مخاوف الفرنج وتجددت مشاريعهم لتأمين حدودهم الخنوبية ، وكانوا يلتمسون الفرصة كلما اضطربت الأندلس بالثورة . وهنا يجدر بنا أن نتساءل ، هل كان لسياسة الخلافة العباسية أثر في صوغ هذه السياسة الفرنجية نحو الأندلس أو الإيحاء بها ؟ لقد رأينا كيف كانت الخلافة العباسية تحاول بث دعوتها في الأندلس على يد بعض الزعماء الخوارج ، وكيف كانت هذه الدعوة تحدث أثرها في إضرام نار

(١) مخطوط ابن حيان المشار إليه لوحة ٩٠ .

الفتنة . على أن الخلافة العباسية ، كانت من جهة أخرى تتصل بالمملكة الفرنجية بصلات سياسية . وترجع الرواية الفرنجية هذه الصلة إلى عهد المنصور ، وتقول لنا إن بين ملك الفرنج أرسل إلى المنصور سفارة رد عليها المنصور بمثلها ، وتضيف الرواية الفرنجية إلى ذلك أنه كانت ثمة بعدئذ مكاتبات وسفارات بين الرشيد وبين شارلمان ولد بين ، ومع أن الرواية الإسلامية لا تذكر شيئاً عن هذه العلاقات بين ملك الفرنج والخليفة العباسي ، فإن في تفاصيل الرواية الفرنجية ، وفي طبيعة الحوادث التي كان يجوزها الشرق والغرب يومئذ ، ما يحملنا على الاعتقاد في صحتها^(١) . وهذه العلاقات ذاتها تلتى ضوءاً على موقف السياسة العباسية ، من حوادث الأندلس في ذلك الحين . فقد كانت الخلافة العباسية ترى في قيام إمارة قرطبة الأموية في الغرب منافساً لها في سيادة العالم الإسلامي ، ولم يكن يسوءها أن تتعثر هذه الإمارة الفتية في معترك من الصعاب والفتن ، وأن تشغل بمقارعة أعدائها في الداخل والخارج . وإذاً فقد كانت الخلافة العباسية تشاطر السياسة الفرنجية نفس الغاية التي ترمى إليها بالنسبة لإمارة قرطبة ، وهي العمل على إضعافها وتحطيمها إن أمكن ، ولما كانت الدولة العباسية لا تستطيع أن تعمل لتحقيق هذه الغاية بطريق مباشر ، فقد كان في وسعها على الأقل أن تعمل لتأييدها بطريق الدعوة والتحريض . ولم يكن بعيداً أن يجد الخليفة العباسي ، وهو يبسط حكمه على ملايين من النصارى ، وفي أرضه يقع القبر المقدس ، وسيلة للتفاهم مع إمبراطور الفرنج وحامي النصرانية ، وأن يجد عاهل الفرنج ما يشجعه على إذكاء تحرشه بإمارة قرطبة ، في رفق الخليفة برعاياه النصارى ، هذا فضلاً عن أن السياسة الفرنجية تعمل بذلك على تحقيق غايتها الأصلية من مناوأة الإسلام في اسبانيا وإضعاف سيادته ونفوذه ، وحماية حدود مملكة الفرنج الجنوبية . وإذاً فمن المحتمل أن يكون لهذه السفارات والمراسلات السياسية ، التي تقول الرواية الفرنجية بوقوعها بين الرشيد وشارلمان ، صلة بهذه المرحلة من تدخل الفرنج في شؤون اسبانيا المسلمة ، واعتدائهم المتكرر على أراضيها . وقد وقع الغزو الفرنجي لشمال اسبانيا في عهد الحكم بين سنتي ١٨١ و ١٨٥ هـ ، أعنى في أواسط عهد الرشيد

(١) تناولت موضوع العلاقات بين الرشيد وشارلمان في فصل خاص في كتابي « مواقف حاسمة

في تاريخ الإسلام » (الطبعة الرابعة ص ٢١٨ - ٢٢٤) .

(١٧٠ - ١٩٣ هـ) . والواقع أن في اتحاد المصلحة والغاية بين الخليفة العباسي وعاهل الفرنج ، ما يسبغ على هذا الفرض تأييداً .

ولما كانت السياسة الفرنجية ترمى قبل كل شيء إلى تأمين غاليس (جنوب فرنسا) من خطر الغزو الإسلامي ، فقد رأت أن تنشئ في قاصية اسبانيا الشمالية الشرقية مما يلي جبال الرنيه ، ولاية فرنجية جديدة تكون سداً بين الغزاة وبين مملكة الفرنج ، وأنشئت هذه الولاية التي سميت « بالثغر القوطي » أو الثغر الإسباني في البداية ، من مدن جيرونة (جيرندة) وأوزونة وسولسونة ، وما حولها مما اقتطعه الفرنج من أراضي اسبانيا المسلمة ، التي كانت تابعة لرباط الثغر الإسلامي القديم . ولما عاد الاضطراب إلى الثغر الأعلى ، وشغلت حكومة قرطبة بأمر الثورات الداخلية المتوالية ، ألقي الفرنج الفرصة سانحة لدفع غزواتهم نحو الجنوب ، وكان شارلمان يطمح بالأخص إلى افتتاح ثغر برشلونة المنيع ليكون معقلاً لحماية أملاكه الجنوبية ، وحلقة اتصال بحرى سهل بينها وبين فرنسا . وعمد شارلمان قبل البدء في تنفيذ مشروعه إلى عقد محالفة بينه وبين أمير جليقية ألفونسو الثاني (سنة ٧٩٨ م) ، لكي يكتسب ولاء البشكنس ومعاونتهم . وفي سنة ٨٠١ م (١٨٥ هـ) سير شارلمان إلى اسبانيا جيشاً ضخماً لافتتاح برشلونة بقيادة ولده لويس أمير أكوتين ، وانقسم هذا الجيش إلى قسمين ، سار أحدهما بقيادة حاكم جيرونة لمحاصرة برشلونة ، وسار الآخر بقيادة جيوم كونت دي تولوز ليرابط جنوب غربي برشلونة بين لاردة وطركونة ، ليحول دون وصول أي مدد إلى المدينة المحصورة . وكان الحكم يشغل يومئذ بمطاردة الخوارج عليه وفي مقدمتهم عمه عبد الله ، وكان والي برشلونة ، سعدون الرعيني ، في مأزق حرج ، يتطلع عبثاً إلى قدوم المدد ، وهو في ثغره القاصي بعيداً عن كل عون ومساعدة ، ولم يكن له ما يؤمل من معاونته زملائه ولاة الثغر الأعلى ، ومعظمهم يضمم الخروج على حكومة قرطبة ، ويرى في اضطراب الأمور ملاذاً . ومع ذلك فقد صمدت برشلونة ، وصمم واليها الشجاع على المقاومة ، ولبثت حيناً تعاني أمر ضروب الحرمان والجوع ، دون أن يأتيها المدد المنشود . ثم تفاقم الأمر وجاء جيش جديد من الفرنج بقيادة لويس ليشدد الحصار على المدينة ، فرأى سعدون الرعيني أن يحاول التماس المدد بنفسه من قرطبة ، وغادر برشلونة تحت جنح الظلام ،

وحاول أن يخترق خطوط العدو ، ولكنه ضبط وأسر ، ولم تستطع برشلونة ثباتاً بعد أن هلك ألوف من أهلها ، وفتحت ثغرات عديدة في أسوارها ، فاضطرت إلى التسليم بعد أن ذاقت ويلات الحصار سبعة أشهر . واتخذ الفرنج من برشلونة مكان جبرندة ، قاعدة للثغر القوطي الذي نما فيما بعد ، وكان الفرنج يعينون حكامه من الكونتات الذين ينتمون إلى أصل قوطي أوفرنجي . ولم يلبث أولئك الحكام ، حينما شعروا بقوتهم وبعدهم عن سلطان مملكة الفرنج ، أن أعلنوا استقلالهم ، وغدا الثغر الفرنجي إمارة نصرانية هي إمارة قطلونية ، التي اندمجت فيما بعد في مملكة أراجون القوية ، وخسر الإسلام بفقد برشلونة أمنغ ثغوره في قاصية اسبانيا ، وارتدت حدود الأندلس إلى الثغر الأعلى ، بعد أن كانت تجاوز جبال البرنيه (١).

وفي سنة ١٨٩ هـ (٨٠٥ م) اكتشف الحكم مؤامرة خطيرة دبرت لخلعه ، وكان من ورأئها رهط الفقهاء الذين قضى الحكم على نفوذهم ، مثل يحيى بن يحيى اللبثي ، وعيسى بن دينار ، وطالوت الفقيه ، وغيرهم من زعماء المالكية . وقد رأينا كيف سخط الفقهاء على الحكم لتصدع نفوذهم القديم ، وأثاروا عليه وعلى خلاله دعاية قوية ، وآتموه من فوق المنابر بالقسوة والخروج على أحكام الدين ، وكيف كان الحكم ، بمرحه وبدخه ، وشغفه باللهو والشراب ، يسبغ على دعايتهم قوة . وكان ثمة فريق آخر من أعيان قرطبة ينقم على الحكم صرامته وطغيانه . وكان هؤلاء وهؤلاء يتربصون بالحكم ويلتمسون الفرصة للإيقاع به ، وكان في موقف الشعب القرطبي ، ما يشجعهم على تدبير مشاريعهم ، إذ كان الشعب متأثراً بدعاية الفقهاء في حق الحكم ، وبما كان يبيده الحكم من ترفع عن الشعب ، فكان أهل قرطبة يبغضون الحكم وبلاطه . وهكذا اثمر الفقهاء والأعيان بالحكم واتفقوا على خلعه ، وكان في مقدمة المتآمرين مالك بن يزيد بن يحيى التجيبي ، وموسى بن سالم الخولاني ، وأبو كعب بن عبد البر وأخوه عيسى ، ويحيى ابن مضر القيسي الفقيه وغيرهم ، وكان بينهم بعض المروانية من أقارب الحكم ، ومنهم محمد بن القاسم المرواني الذي اختاره المتآمرون لرياستهم ، ووعدوه بأن

(١) تضع الرواية الإسلامية تاريخ سقوط برشلونة في سنة ١٨٥ هـ (٨٠١ م) متفقة بذلك مع الرواية الفرنجية ، وقد وردت عنه نبذة حسنة في مخطوط ابن حيان الذي أشرنا إليه (ص ٩٠) .
وراجع ابن الأثير ج ٦ ص ٥٥ ؛ وكذلك ؛ Scott : ibid , V. I. p. 448-452 . و : Altamira
Hist. de Espana : Vol. I. p. 241

يكون خلف الحكم في الإمارة^(١) ، ولكنه خشي العاقبة وبادر بإبلاغ الحكم ، واكتشفت المؤامرة قبل نضجها ، وقبض الحكم على عدد كبير من المتآمرين . واستطاع بعضهم الفرار ، مثل يحيى بن يحيى ، وعيسى بن دينار . وأعدم الحكم منهم اثنين وسبعين رجلاً ، وأبدى في إعدامهم قسوة ظاهرة ، إذ صلبهم على شاطئ النهر تجاه مشارف القصر ، وكان من بين القتلى عماء مسلمة المشهور بكليب ، وأميرة ، ابنا عبد الرحمن بن معاوية ، قتلها لارتياحه في سلوكهما ، فأثار هذا الإجراء الدموي في قرطبة أيما ارتياح ، وأسبغ على خلال الحكم ريباً ، وأذكى الحفيظة على الأمير في نفوس الخاصة والعامة معاً . وشعر الحكم بخطورة هذا الأثر ، فحصن قرطبة ورم أسوارها ، واحتفر الخنادق حولها ، وفرض على الشعب حكم إرهاب يزيد في حفيظته . ولم تمض أشهر على ذلك حتى اضطرت في قرطبة فورة من السخط ، وثار العامة في الربض (الضاحية) بزعامه رجل منهم يقال له ديبيل ، وكان الحكم غائباً يشرف على محاصرة الثوار في ماردة ، فعاد مسرعاً إلى قرطبة ، وقبض على زعيم الفتنة وعدة كبيرة من أنصاره ، وصلبوا جميعاً ومثل بهم ، وسحق الهياج دون رأفة ، وهدأت العاصمة إلى حين^(٢) .

وفي العام التالي ، سنة ١٩٠ هـ (٨٠٦ م) ، نشبت الثورة في ماردة بقيادة زعيمها أصبغ بن عبد الله بن وانسوس ، فسار الحكم إلى قتاله ، ولكنه ارتد عنه حينما وقف على نأب الهياج في قرطبة . وترددت الحملات والبعوث بعد ذلك إلى ماردة لإخماد الثورة ، واستمر زعيمها أصبغ على مقاومته بضعة أعوام ، وكان ذا وجهة وبأس ، يلتف حوله مواطنوه البربر ، وهم كثرة في ماردة وما حولها ، ولكنه اضطر أخيراً إزاء حزم الحكم وصرامته إلى طلب الأمان والصلح ، فاجابه الحكم إلى طلبه ، وعادت ماردة إلى الطاعة^(٣) .

وكانت طليطلة حاضرة القوط القديمة ، وقاعدة «الثغر الأوسط»^(٤) ما تزال

(١) راجع البيان المغرب ج ٢ ص ٧٣ ؛ وابن الأثير ج ٦ ص ٦٦ ؛ ولكن ابن القوطية يذكر أن المتآمرين بايعوا شخصاً آخر من أبناء عمومة الحكم .

(٢) البيان المغرب ج ٢ ص ٧٣ ؛ وابن الأثير ج ٦ ص ٨٦ ، ومخطوط ابن حيان المشار إليه ص ٩٨ .

(٣) البيان المغرب ج ٢ ص ٧٤ ، ومخطوط ابن حيان المشار إليه ص ٩٩ .

(٤) تسمى طليطلة وأعمالها في الجغرافية الأندلسية « بالثغر بالأوسط » حسبما تقدم .

منذ الفتح تفيض بعوامل الهياج والثورة ، وكان بين أهلها كثرة من المولدين أو النصارى الذين دخلوا في الإسلام ، والمستعربين أو النصارى المعاهدين . وقد سبق أن عينا بالتعريف بهذين العنصرين ، اللذين اضلعا بأدوار خطيرة في تاريخ اسبانيا المسلمة ، وأوضحنا أن العرب والبربر ، وهما العنصران اللذان تعاونا في فتح اسبانيا ، لم يكونا أغلبية بين الشعب الأندلسي الذي تكون بعد الفتح بمضى الزمن ، وكان العرب بالأخص أقلية في معظم المدن الكبيرة ، لكن هذه الأقلية العربية كانت تستأثر بالحكم ، وخصوصاً في الأقاليم الوسطى والجنوبية القريبة من قرطبة مركز الإمارة والسيادة . وكان البربر من جانبهم أغلبية في بعض المناطق الغربية والشمالية ، وكانوا حينما غلبت كثرتهم وسلطتهم ، يتحدون في معظم الأحيان مع المولدين ، وأحياناً مع النصارى المعاهدين أنفسهم ، على مناوأة حكومة قرطبة . أما «المولدون» فكان معظمهم حسبنا أسلفنا من الإسبان والقوط الذين اعتنقوا الإسلام منذ الفتح تبعاً ، واندججوا في المجتمع الإسلامي ، وقد كانوا كثرة في بعض المدن القوطية العريقة مثل طليطلة وبعض مدن الثغر الأعلى ، وقد برزت منهم بعض الأسر القوية ذات السلطان والبأس ، مثل بنى قسى زعماء الثغر الأعلى وبنو حفصون زعماء ريه ، ويصفهم المستشرق سيمونيت بأنهم كانوا بعد اندماجهم في المجتمع الإسلامي أشد تعصباً ضد النصارى من المسلمين الخالص أنفسهم (١) .

وأما النصارى المعاهدون أو المستعربون كما يسمون بالإسبانية Mozárabes ، فهم حسبنا أشرنا من قبل النصارى الإسبان الذين آثروا الاحتفاظ بدينهم ، وبقوا في المدن الأندلسية المفتوحة تحت الحكم الإسلامي . وبالرغم مما كانت تسبغه الحكومة الإسلامية عليهم من أسباب الرعاية ، وما كان لهم في كثير من الأحيان من الخطوة والتمتع بثقة الأمراء ، وتولى كثير من الوظائف الهامة ، فقد كانوا على العموم عنصراً قليل الولاء للحكومة الإسلامية ، وكانوا في المدن البعيدة في كثير من الأحيان ، يحالفون الثوار من المسلمين والبربر والمولدين ، ويمالئونهم ، ويعملون على عقد الصلات بينهم وبين الملوك النصارى ، سعياً إلى مناوأة حكومة قرطبة وخلق الصعاب في وجهها . وسرى أى دور خطير يلعبه أولئك النصارى المعاهدون في قرطبة في عهد عبد الرحمن بن الحكم ، لإثارة الفتن والاضطراب في المملكة الإسلامية .

هذا ، فضلاً عما كان للمولدين والنصارى المعاهدين من كثرة ظاهرة في مدينة طليطلة ، فإن أهل طليطلة على وجه العموم ، لم ينسوا سالف عزهم ومجدهم أيام أن كانت مدينتهم دار ملك القوط ، وكانوا يعززون بكثرتهم وثروتهم وحصانة مدينتهم^(١) ، وتحذوهم روح من التمرد والخروج المستمر على حكومة قرطبة . وقد رأينا كيف كانت طليطلة مركز الثورة ، وملاذ الزعماء الخوارج منذ عهد عبد الرحمن الداخل . وفي عهد الحكم عادت طليطلة إلى سابق سيرتها ، وثار فيها في سنة ١٨١ هـ (٧٩٧ م) عبيدة بن حميد ، فوجه الحكم قائده عمرو بن يوسف لمحاربته ، وكان يقود الجيش في طليطلة ، فالتقى بالثوار في عدة وقائع ، ولما رأى ثبات الثوار لجأ إلى سلاح الغيلة ، واستمال إليه بعض وجهاء المدينة بالمنح والوعود ، ودفعهم إلى اغتيال عبيدة بن حميد ، وبذا أخذت الثورة إلى حين ، وأذعت المدينة الثائرة لسلطان الحكم . ولكن هذا الهدوء المؤقت لم يطل أمده ، ولم تمض بضعة أعوام حتى عادت طليطلة إلى الثورة ، ولم ير الحكم وسيلة لإخضاعها سوى تعيين عمرو بن يوسف حاكماً لها . وكان عمرو بن «مولداً» من أهل وشقة ، ذا وجهة وبأس ، وكان قد ظهر في الثغر الأعلى ، وأظهر طاعة الحكم ودعاه ، خلافاً لكثير من زعماء اشعر الخوارج ، فسر الحكم بمسلكه ودعاه إلى خدمته ، واختاره للقيادة ، ثم اختاره لولاية طليطلة ليعالج المدينة الثائرة ، ويعمل على إخضاعها ، ولوحظ في هذا الاختيار أن عمرو بن مولد ، وأن معظم أهل طليطلة من المولدين . وكتب الحكم إلى أهل طليطلة يقول : «إني قد اخترت لكم فلاناً وهو منكم لتطمئن قلوبكم إليه ، وأعفيتكم ممن تكرهون من عمالنا وموالينا ، ولتعرفوا جميل رأينا فيكم» . ودخل عمرو بن طليطلة ، فأنس به أهلها ، وتظاهر أمامهم ببغض بني أمية والموافقة على خلع طاعتهم ، واستمالهم برفقه ولينه ، ثم أنشأ بموافقتهم في ظاهر طليطلة قلعة حصينة بحجة إيواء الحند والموظفين فيها بعيداً عن أهل المدينة وحرصاً على راحتهم ، وبعث إلى الحكم يستقدم إليه الحند سراً ، فسير الحكم جيشاً بقيادة ولده عبد الرحمن لمقاتلة نصارى الشمال في الظاهر ، ثم عرج هذا الجيش حين العودة على طليطلة ، وخرج عمرو بن مولد لملاقاة الأمير

(١) إن إلقاء نظرة على موقع طليطلة فوق المنحدر الصخري الوعر المشرف على منحني نهر التاجه ، والنهر يحيط بها من كل نواحيها تقريباً ، وبقية الأسوار الهائلة التي كانت تحيط بها ، كل ذلك يدل على ما كانت عليه هذه المدينة الثالثة من الحصانة في تلك العصور .

وتحيته ، ومعه وجوه المدينة ، فأكرمهم عبد الرحمن ولاطفهم . وهنا دبرت المؤامرة التي هلك فيها وجوه طليطلة وأعيانها ، وفي بعض الروايات أن الذي دبرها وأوعز بتنفيذها هو الحكم ، في خطاب أرسله سراً إلى عمروس مع ولده عبد الرحمن ، وفي البعض الآخر أن الذي دبر الكمين هو عمروس . وعلى أى حال فقد نفذت المؤامرة بأن أقام عمروس في القلعة الحديدية ، وليمة حافلة دعا إليها ألوفاً من الكبراء والأعيان ، ورتب الدخول من باب والخروج من باب آخر ، منعاً للزحام ، وجعل الخدم يقتادون المدعويين إلى غرف الطعام عشرة عشرة ، وكلما دخل منهم فوج أخذوا إلى ناحية معينة ، وضربت أعناقهم ، وألقيت جثثهم إلى حفرة عظيمة ، حفرت خصيصاً في مؤخرة القصر ، وأصوات الطبول والمزامير تحول دون سماع استغاثتهم ، ولم يفتن أحد إلى الحقيقة المروعة إلا بعد أن تعالى النهار ، ولم يبد للدخلين أثر في الخروج ، ولم يسمع لهم ضجيج ، فعندئذ فطن البعض إلى الكمين ، وتصايح القادمون ونكصوا على أعقابهم ، وهلك في تلك المذبحة التي تعرف بواقعة « الحفرة » عدد كبير من وجوه طليطلة وأعيانها ، يقدره البعض ببضع مئتين والبعض الآخر ببضعة آلاف ، وكانت ضربة شديدة للمدينة الثائرة جردتها من زعامتها ، وأضعفت من شأنها ، وقضت مدى حين على روح الثورة فيها ، وكانت وقعة الحفرة في سنة ١٩١ هـ (٨٠٧ م) (١) .

وفي ذلك الحين غزا الفرنج بقيادة لويس ولد شارلمان (٢) ، ولاية الثغر الأعلى مرة أخرى ، وساءروا مدينة طرطوشة (سنة ١٩٢ هـ) ، فبعث الحكم جيشاً إلى الشمال بقيادة ولده عبد الرحمن ، فارتد الفرنج إلى أراضيهم ، ثم عادوا إلى حصار طرطوشة في العام التالي بقيادة لويس أيضاً ، وعاد المسلمون إلى قتالهم بقيادة عبد الرحمن ، ومعه في تلك المرة عمروس عامل الثغر الأوسط ،

(١) راجع ابن الأثير ج ٦ ص ٦٥ ، وابن خلدون ج ٤ ص ١٢٦ و ١٢٧ ، والبيان المغرب ج ٢ ص ٧١ و ٧٢ ، وفيه أن من هلك في مذبحة الحفرة ، بلغ زهاء سبعمائة فقط . وجاء في مخطوط ابن حيان السابق ذكره ، رواية عيسى بن أحمد الرازي ، أن الذي دبر الكمين هو الأمير عبد الرحمن بن الحكم ، وأنه هو الذي أولم الرويمة ، وأنه هلك في المذبحة زهاء خمسة آلاف (ص ٩٣) .

وراجع أيضاً Dozy : Hist., I. p. 291—294.

(٢) وتسميه الرواية العربية خطأً برذريق أو لذريق بن قارله (ابن الأثير ج ٦ ص ٩٦ والبيان المغرب ج ٢ ص ٧٤) .

وعبدون عامل الثغر الأعلى ، في قواتهما ، ونشبت بين المسلمين والفرنج عدة وقائع انتهت بهزيمة الفرنج وإنقاذ طرطوشة ، وذلك في سنة ١٩٣ هـ (٨٠٩ م) . وعمد نصارى الشمال كعادتهم إلى انتهاز كل فرصة سانحة للإغارة على أراضي المسلمين ، وشجعهم انشغال حكومة قرطبة بقمع الثورات المختلفة ، وكان ملك جليقية يومئذ ألفونسو الثاني ، الملقب بالعميق ، أميراً شديداً التعصب لدينه ووطنه ، وكانت حملاته المتوالية إلى أراضي المسلمين يطبعها لون ديني عميق ، وعبر ألفونسو نهر دويرة (دورو) إلى أراضي المسلمين غير مرة ، وعاث فيها قتلاً ونهباً وسبياً ، وكانت حملاته تتجه بالأخص إلى أطراف الثغر الأدنى ، وإلى المنطقة الواقعة بين نهرى دويرة والتّاجه ، لبعدها عن حكومة قرطبة ، وضعف وسائل الدفاع فيها ، وتوغل ألفونسو في حملاته حتى قلُمُرية (قلنبرية) وأشبونة ، وعانى المسلمون في تلك الأنحاء كثيراً من جراء غزوات النصارى ، وترامت إلى الحكم آلامهم واستغاثتهم ، ورفع إليه شاعره عباس بن ناصح الجزيرى قصيدة يصف فيها آلام أهل الثغر ومصائبهم . ففي صيف سنة ١٩٤ هـ (٨١٠ م) (١) ، سار الحكم غازياً بنفسه إلى أراضي ألبة والقلاع ، وتوغل فيها مما يلي وادى الحجارة غرباً ، وأثنى في تلك الأنحاء ، وهزم النصارى في عدة وقائع ، وقتل وسبى منهم جموعاً كثيرة ، واطمأنت نفوس المسلمين في الثغر بزجر النصارى وردهم إلى داخل أراضيهم .

وسير الحكم في العام التالى جيشاً إلى الثغر الأعلى بقيادة عمه عبد الله البلنسى ، فغزا قطلونية ، وهاجم مدينة برشلونة ، وهزم الفرنج ، ولكنه لم يحرز فتوحاً ثابتة . وشعر الفرنج ، كما شعر المسلمون بعمق هذه الحملات المخربة ، وآثر الفريقان التفاهم والمهادنة ، ويقول لنا ابن حيان إنه كان ثمة باعث آخر على التعجيل بعقد السلم بين العاهلين ، هو استفحال أمر إدريس بن إدريس بن عبد الله الحسنى بأرض العدو (المغرب) ، وتقاطر الوفود من إفريقية والأندلس إلى بيعته ، وتوجس الحكم من مصائر هذه الحركة الجديدة بالمغرب (٢) . وهكذا عقد

(١) هذه رواية صاحب البيان المغرب (ج ٢ ص ٧٥) ويضع ابن الأثير تاريخ هذه الغزوة في سنة ١٩٦ هـ .

(٢) مخطوط ابن حيان المشار إليه ص ١٠٠ . ويسمى ابن حيان هنا ملك الفرنج باسمه الصحيح « قارله بن بيزن » . وراجع الاستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى ج ١ ص ٧١ و ٧٢ .

السلم بين شارلمان والحكم ، واستمر معقوداً حتى وفاة شارلمان بعد ذلك بأعوام
قلائل في سنة ٨١٤ م .

ووقعت في تلك الأثناء عدة ثورات محلية ، فثار حزم بن وهب في باجة ،
وامتد سلطانه حتى أشبونة ، فسير إليه الحكم ولده هشاماً ، فقاتل الثوار حتى
أذعنوا لطلب الأمان . وعادت طليطلة إلى الثورة في سنة ١٩٧ هـ لأعوام قلائل
من واقعة الحفرة ، فرأى الحكم أن يسير إليها بنفسه ، فسار في قواته من طريق
منحرفة كأنه يقصد الشمال ، ثم تحول إليها فجأة ، ولم تكن الثورة يومئذ ، في
مثل عنفها القديم ، فلم يجد الحكم مشقة في دخول المدينة الثائرة وإخضاعها
(سنة ١٩٩ هـ) . وثارت بعد ذلك ماردة بقيادة زعيمها مروان بن يونس
الجليقي ، فبعث الحكم إليها ولده عبد الرحمن في الحند فأخضعها .

وفي سنة ١٩٧ هـ (٨١٢ م) عصفت بالولايات الشمالية قحط شديد ، وعانى
المسلمون في تلك الأنحاء كثيراً من ضروب الحرمان والبؤس ، ومات منهم خلق
كثير ، وعبر البحر إلى العدو الكثير منهم ، فبادر الحكم إلى إغاثتهم ومعاونة
المنكوبين منهم ، وتخفيف الويل عنهم ، وفرق الصدقات الواسعة والأموال الكثيرة
في الضعفاء والمساكين ، وأبناء السبيل ، وفي ذلك يمتدحه شاعره عباس بن ناصح
الجزيري بقوله :

نكد الزمان فآمنت أيامه من أن يكون بعصره عسر

طلع الزمان بأزمة فجلت له تلك الكريمة جوده الغمر

وكانت آخر غزوة قام بها الحكم في الشمال في سنة ٢٠٠ هـ (٨١٥ م) إذ سير
الحاجب عبد الكريم بن عبد الواحد بن مغيث إلى جليقية في جيش ضخم ، وكان
الحلقة وحلفاؤهم البشكنس ما يزالون على عدوانهم وعيهم بالأراضي الإسلامية
المجاورة ، فتوغل المسلمون في أراضي جليقية ، وأنشؤا فيها ، ونشبت بينهم
وبين النصارى موقعة شديدة على ضفاف نهر أرون استمرت عدة أيام ، وانتهت
بهزيمة النصارى ، وقتل منهم عدد كبير ، ووقع في الأسر جماعة من أمراءهم
وأكابرهم ، وارتد النصارى إلى الداخل ، واعتصموا بالوهاد والرني ، وعاد
الحاجب إلى قرطبة ظافراً^(١) .

(١) نفتح الطيب ج ١ ص ١٥٩ ؛ والبيان المغرب ج ٢ ص ٧٧ .

وفي أواخر عهد الحكم اضطرت بقرطبة ثورة خطيرة كادت أن تززع عرشه ، وكان الشعب القرطبي ينقم على الأمير طغيانه وصرامته وكبريائه ، وكان بين أهل قرطبة كثير من « المولدين » الذين يبغضون السلطة الحاكمة ، لشعورهم بنقص في مركزهم الإجتماعي وفي حقوقهم العامة ، وكان الفقهاء من جهة أخرى ، وفي مقدمتهم جماعة من المحرضين البارعين مثل طالوت المعافى وغيره ، يعملون على إذكاء سخط العامة على الحكم وبلاطه ، بما يرمون به الحكم من جنوح إلى المعاصي ، واقتراف للإثم ، وانهماك في اللهو والشراب ، فكانت بين الأمير وبين أهل قرطبة وحشة تشتد على ممر الأيام ، وزاد في سخط العامة ما فرضه الحكم على المواد الغذائية ، من عشور مرهقة ، وكان العامة يجاهرون بدم الأمير والخوض في سيرته ، ويجتمعون في المساجد ليلاً لتجريحه والظعن عليه ، ووصلت بهم الجرأة إلى أن كانوا يتعرضون له في الطريق ، وينعتونه علناً « بالمحمور » . وحدث ذات يوم أن خرج الأمير إلى الصيد ، وشق سوق « الربض » فتعرضوا له بالقول ، وصفقوا عليه بالأكف ، فأمر بالقبض على عشرة من زعمائهم وصلبهم . ويقول لنا ابن القوطية ، إن أولئك الذين قبض عليهم وصلبوا كانوا من زعماء مؤامرة دبرت ضد الحكم ، وكان منهم بعض أعلام القوم ، مثل يحيى بن نصر اليحصبي ، وموسى بن سالم الخولاني وولده^(١) . وهنا ازداد الهياج ، وبدأت أعراض الثورة ، وتحفز العامة للوثوب ، وأكثروا من التعرض لجنود الأمير وحرصه والاعتداء عليهم ، وشعر الحكم بخطورة الموقف ، فحصن القصر واتخذ أهبطه . وفي ذات يوم اضطرت نار الثورة فجأة ، وذلك على أثر شادة وقعت بين أحد مماليك الحكم وبين صيقل عهد إليه بصقل سيفه ، فتباطأ الصيقل ، فقتله المملوك ، فثار العامة في الحال ، وهرعوا إلى السلاح ، وكان أشدهم تحفزاً وهياجاً أهل « الربض » الجنوبي في الضفة الأخرى من النهر ، وهي ضاحية قرطبة الجنوبية المسماة « شقنودة » ، وكانت كثرتهم من الأوغاد والسفلة ، وكان ذلك في اليوم الثالث عشر من رمضان سنة ٢٠٢ هـ (٢٥ مارس ٨١٨ م)^(٢) ، وزحفت

(١) ابن القوطية في « افتتاح الأندلس » ص ٥٠ و ٥١ .

(٢) تختلف الرواية الإسلامية في تاريخ هذه الواقعة اختلافاً بينا ، فتضع معظم الروايات الأندلسية تاريخها في سنة ٢٠٢ هـ ؛ ويعين ابن الأبار اليوم والشهر الذي وقعت فيه فيقول إنها وقعت =

جموع الثوار إلى القصر من كل ناحية ، وتأهب الحكم في حرسه وغلماه لردّها ،
وبعث ابن عمه عبيد الله البلنسى صاحب الصوائف ، والحاجب عبد الكريم ، في
قوة من الفرسان والمشاة ، فاستقبلت الجموع الزاحفة ، وردتها إلى الوراء بعد
أن نفذت إلى فناء القصر ، ثم شقت طريقها إلى النهر واقتحمته إلى الضاحية
الثائرة ، وأضرمت النار في عدة من أمحائها ، ونجحت هذه الوسيلة في تفرقة
شمل الثوار ، إذ ما كادت ألسنة اللهب تبدو ، حتى هرع الكثير منهم إلى دورهم
يحاولون إطفاء النار وإنقاذ الأهل والولد . وهنا احتاط الخند بالثوار من كل ناحية
وأمنعوا فيهم قتلا حتى أفنوا منهم خلقاً كثيراً ، وطاردوهم في كل مكان ، ونهبت
دورهم ، وأسر منهم عدد كبير ، وفر من استطاع ، ومنهم بعض الفقهاء
والمحرضين مثل طالوت وغيره ، والتجأ البعض إلى طليطلة ، واستمر القتل والنهب
ثلاثة أيام حتى مزقوا كل ممزق ، وصلب الحكم تجاه قصره على شاطئ النهر
ثلاثمائة رجل من الثوار ، صفوفاً منكسة ، إرهاباً لأهل قرطبة . ثم كف الخند
عنهم ، ونودى بالأمان وهدأت الفتنة ، وأمر الحكم بديار الثوار فهدمت عن
آخرها ، ولا سيما «الرَبَض» القبلي الذي كان مهد الفتنة ، وقام على الهدم ربيع
القومس عامل أهل الذمة وقائد الغلمان الخاصة ، فسح أحياء الثوار مسحاً ، وغدت
ألوف كثيرة منهم دون مأوى ، وأمر الحكم بخروجهم من قرطبة في الحال ، وأن

في يوم الأربعاء ١٣ رمضان سنة ٢٠٢ (الحلة السيرة ص ٣٩) ؛ ويوافق ابن عذارى فيضع تاريخها
في نفس العام (ج ٢ ص ٨٧) ؛ وتؤيد هذا التاريخ عدة روايات وردت في مخطوط ابن حبان
الذي بين أيدينا ، ومنها رواية الرازي (ص ١٠٣ و ١٠٤) . ولكن ابن الأثير يضع تاريخ واقعة
الربض في سنة ١٩٨ هـ ، وإن كان يشير أيضاً إلى ما قيل من وقوعها في سنة ٢٠٢ هـ (ج ٦ ص ١٠١
و ١٠٢) ؛ وبأخذ المشاركة بهذه الرواية ؛ فنرى المقرئ مثلاً يضع مقدم الأندلسيين الذين نزحوا
على أثر الواقعة إلى الإسكندرية في سنة ١٩٩ هـ ، ويشير إلى اشتراكهم في الحرب الأهلية التي كانت
تضطرم يومئذ بها في سنتي ٢٠٠ و ٢٠١ هـ (راجع خطط المقرئ - مصر - ج ١ ص ٢٧٨-٢٨٠)
وذلك مما قد يعزز رواية ابن الأثير في حدوث الواقعة سنة ١٩٨ هـ ؛ ويعمل دوزي أيضاً إلى الأخذ
بهذه الرواية (ج ١ ص ٢٩٦-٢٩٧) ، ويستشهد بما يرويه المقرئ من الوقائع المادية . على أننا
نميل من جانبنا إلى الأخذ بالرواية الأندلسية ، لقدمها واتفاقها ، وكونها أقرب إلى ميدان الحوادث
وأقرب إلى التحقيق . وأما رواية المقرئ ، فقد يحمل ما ورد فيها إلى اضطراب في ذكر الحوادث ،
خصوصاً وأن الحرب الأهلية المصرية التي يشير إلى اشتراك الأندلسيين فيها قد استمرت من سنة
١٩٩ إلى سنة ٢٠٥ هـ ، مما يمكنه أن يوفق بين أقواله وبين حدوث واقعة الربض في سنة ٢٠٢ هـ
(راجع النجوم الزاهرة ج ٢ ص ١٦٩ و ١٧٨) .

لا أمان لمن لديه تخلف منهم . وبدأ رحيلهم في العشرين من رمضان (٢٠٢ هـ) فنفروا في الثغور والكور ، ولجأت جموع منهم إلى طليطلة لمخالفة أهلها على الحكم يومئذ ، وعبر البحر كثير منهم إلى عدوة المغرب ، واتجهت جماعة كبيرة منهم قوامها زهاء خمسة عشر ألفاً إلى المشرق في عدة من السفن ، ورس في مياه الإسكندرية ، وكانت مصر تضطرم يومئذ بنار الحرب الأهلية التي نشبت بين السرى بن الحكم وبين خصومه حول ولايتها ، فنزل الأندلسيون إلى الثغر واستقروا فيه ، واشتركوا في الحرب الأهلية ، واستمرت الفتنة بمصر ، والأندلسيون بالإسكندرية ، حتى قدم عبد الله بن طاهر إلى مصر أميراً عليها من قبل الخليفة المأمون ، فسار إلى الإسكندرية وحاصرها ، واضطر الأندلسيون إلى الإذعان والصلح ، وغادروا الإسكندرية في سفنهم ، وساروا إلى جزيرة إقريطش (كريت) ، بقيادة زعيمهم أبي حفص عمر بن عيسى البلوطي ، وافتتحوها ، ونزلوا بها (٢١٢ هـ - ٨٢٧ م) ، وأسبسوا بها دولة صغيرة زاهرة استمرت زهاء قرن وثلث ، حتى استعاد البيزنطيون الجزيرة من المسلمين سنة ٣٥٠ هـ (٩٦١ م) .

هكذا كانت ثورة « الربض » التي كادت أن تحمل الحكم وعرشه ، وكانت ثورة شعبية بمعنى الكلمة ، ولكنها كانت دون تنظيم ودون زعامة ، وقد أدرك الحكم خطورتها ، ولم تأخذ في إخمادها هوادة ولا رافة ، وأصدر عقب إخمادها كتاباً إلى الكور يشرح فيه الواقعة وظروفها . وقد رأينا أن ننقل نصه فيما يلي كوثيقة سياسية وديوانية هامة من وثائق العصر :

« بسم الله الرحمن الرحيم ؛ أما بعد فإن الله ذو الفضل والمنن ، والطول والعدل ، إذا أراد لإتمام أمر وتهميه ، لمن جعله أهله وكفيه ، سدده وأعزه ، وأنفذ قضاءه بفلحه ، ولم يجعل لأحد من خلقه قوة على عناده ودفاعه ، حتى يمضي فيه حكمه له وعليه كما شاء ، وختم في أم الكتاب لا مبدل لكلماته عز وجل ، وإنه لما كان يوم الأربعاء لثلاث عشرة من شهر رمضان ، تداعى فسقة أهل قرطبة وسفلتهم ، وأذنبتهم من الشرطانيين ، ألد الفئنة ، الملعوجى شراً وبطراً ، عن غير مكروه سيرة ، ولا قبيح أثر ، ولا نكر حادثة ، كان منا فيهم ، فأظهروا السلاح ، وتلبنوا للكفاح ، وهتفوا بالخلعان ، وتأنقوا بالخلاف ، ومدوا عنقاً إلى ما لم يجعله الله له أهلاً من التأمير على خلقه ، والتسور في حكمه . فلما رأيت ذلك من

غدرهم وعدوانهم ، أمرت بشد جدار المدينة ، فشد بالرجال والأسلحة ، ثم أنهضت الأجناد خيلاً ورجالا ، إلى من تداعى من الفسقة في أرباضها ، فأقحموا الخيل في شوارعهم وأزقتهم ، وأخذوا بفوهاها عليهم ، ثم صدقوهم الحملات ، وكورهم بالسدات المتواليات ، فما صبر العبدان أن كشفوا السوءات ، ومنحوا أكتافهم المتواليات ، وأمكن الله منهم ذوى البصائر المؤيدات ، فأسلمهم الله بجريرتهم ، وصدعهم ببيغيم ، وأخذهم بنكثهم ، فقتلوا تقتيلاً ، وعموا تدميراً ، وعروا تشويهاً وتمثيلاً ، جزاء عاجلاً على الذى نكثوه من بيعتنا ، ودفعوه من طاعتنا ، ولعذاب الآخرة أجزى وأشد تنكيلاً . فلما قتلهم الله بجرمهم فيها ، وأحسن العون عليهم لنا ، أمسكت عن نهب الأموال ، وسبي الذرية والعيال ، وعن قتل من لا ذنب له من أهل البراءة والاعتزال ، ازدلجاً إلى رضى الله ناصرى عليهم ذى العزة والحلال ، تهنأت صلحه وفلحه ، واستورعت خده وشكره ، فاحمدوا الله ذا الآلاء والقمع ، معشرة الأولياء والرعية ، الذى أتاح لنا ولجميع المسلمين فى قتلهم وإذلالهم ، وقمعهم وإهلاكهم ، مما أعظم به علينا المنة ، وخصنا فيه بالكفاية ، وتمم علينا وعليكم به النعمة ، فقد كانوا أهل جرأة مقدم ، وذعرة ضلالة ، واستخفاف بالأئمة ، وظهير إلى المشركين ، وحطوط إليهم ، وتخن لدولتهم ، فله الحمد المكرور ، والاعتراف المذخور ، على قطع دابرهم ، وحسم شرهم ، أحببت إعلامك بالذى كان من صنع الله عليهم لولاك بنا ، ومكانك منا ، لمشاركتنا فى نصرته ، وتحمد الله ومن قبلك من شيعتنا ومعتقدى طاعتنا ، على جميل صنعه فيه ، وتشيعوا شكره عليه إنشاء الله» (١) .

ومن نظم الحكم فى واقعة الربض قوله :

رأيت صدوع الأرض بالسيف واقعاً وقدا لأمت الشعب مذ كنت يافعا
فسائل ثغورى هل بها اليوم ثغرة أبادرها مستنضى السيف دارعا

(١) نقلنا هذه الوثيقة عن مخطوط ابن حيان المشار إليه (ص ١٠٣ و ١٠٤) . وتراجع حوادث واقعة الربض فى ابن الأبار (الحلة السيرة ص ٣٩ و ٤٠) ، والبيان المغرب (ج ٢ ص ٧٧ و ٧٨) ، والمعجب للمراكشى (ص ١١) ، وابن الأثير (ج ٦ ص ١٠١ و ١٠٢) ، وابن القوطية ص ٥١ و ٥٢ . ويورد ابن خلدون والمقرئ عن الواقعة روايات محرفة متداخلة فى حوادث سابقة (راجع ابن خلدون ج ٤ ص ١٢٦ ، ونفح الطيب ج ١ ص ١٥٦) . ووردت فى مخطوط ابن حيان عنها تفاصيل كثيرة منسوبة إلى الرازى وغيره (ص ١٠٢ - ١١٠) .

تنبئك أنى لم أكن فى قراعتهم •
وهل زدت أن وفيتهم صاع قرصهم
فهذى بلادى إننى قد تركتها
وإنى إذ أجادر أجراً عن الردى
بوان وقد ما كنت بالسيف قارعا
فوافوا منايا قدرت بمصارعا
مهاداً ولم أترك عليها منازعا
فما كنت ذا جيد عن الموت جارعا

خرج الحكم ظافراً من تلك الثورة الشعبية بعد أن سخطها سخطاً . ومع ذلك فقد لبث أهل قرطبة على تحديهم له ، ولبثوا يتغامزون عليه ، ويقدحون فى سيرته . وقد وصف لنا كاتب قريب من العصر ، موقوف أهل قرطبة بعد الواقعة من الحكم فى قوله : « فأكثروا الخوض ، وأطالوا المهمة ، وفرع رؤوسهم إلى السم فى مساجدهم بالليل ، مستخفين من السلطان ، مدبرين عليه ، وقد كان خائفاً من ثورتهم ، متهماً لدخلتهم ، حذراً منهم ، مستعداً لهم ، مرتقباً لو ثبتهم ، مرتبطاً الخيل على باب قصره ، نوباً بين غلمانة ... » . ثم إنه استكثر من العبيد والسلاح ، وعززهم بالأحرار ، يرابطون دائماً حول القصر ، واستشعر الناس من ذلك الهيبة والخوف ، وركنوا إلى السكينة ، وفرض الحكم العشور على جميع الناس بقرطبة وبالكور ، فزاد فى نفورهم منه ، وبغضهم له (١) .

وأثارت حوادث الرضى ، واستكانة الشعب ، من جهة أخرى ، قريض الشعراء الأحرار ، من خصوم الحكم ، والناقمين على عسفه وطغيانه ، وصدرت فى ذلك قصائد كثيرة تنعى مسلك أهل قرطبة واستكانتهم ، ومن ذلك قول الشاعر غريب بن عبد الله من قصيدة طويلة :

يا أهل قرطبة الذين تواكلوا	جد الدفاع من التواكل أفضل
جد الدفاع لو انكم دافعتم	يوم الهياج لكم أعز وأجمل
إن التواكل وهنة ومذلة	والحد فيه الصنع والتمهل
صرتم أحاديث العباد وكنتم	عوناً لهم فى كل هم ينزل
أمسى عبيدكم الذين ملكتم	ملكوا عليكم والأمور تحول

ومرض عبد الرحمن بعد ذلك واستطالت به العلة ، فاستناب عنه فى أواخر عهده عبد الرحمن أكبر أولاده لتدبير الأمور (٢) ، واختاره لولاية عهده ، وأخذ له البيعة

(١) مخطوط ابن حيان المشار إليه ص ١٠٥ و ١١٠

(٢) ابن الأبار فى الحلة السيرة ص ٤١ .

بالفعل ، واختار أخاه المغيرة ليخلفه من بعده ، ولكن المغيرة تنازل فيما بعد عن حقه في ولاية العهد . وكان الحكم أول أمير من أمراء بني أمية بالأندلس أخذ البيعة في حياته لولى عهده ، وذلك خشية وقوع الخلاف بعد موته . ثم توفي الحكم في السادس والعشرين من ذى الحجة سنة ٢٠٦ هـ (٢٢ مايو سنة ٨٢٢ م) ، وقد بلغ الثانية والخمسين من عمره ، ودفن مع آبائه في مقبرة القصر المعروفة بالروضة . وترك من الولد تسعة عشر من الذكور واثنين وثلاثين من الإناث . وقيل إن الحكم أبدى حين مرض موته أسفه وندمه ، لما أوقعه بأهل الربض من بالغ النكال والشدة ، وصرح بأنه كان خيراً لو لم يفعل ما فعله (١) .

ولما شعر الحكم بدنو أجله استدعى ولده عبد الرحمن ، وألقى إليه وصيته ، وفيها يقول : « إني وطدت لك الدنيا ، وذللت لك الأعداء ، وأقمت أود الخلافة ، وأمنت عليك الخلاف والمنازعة ، فاجر على ما نهجت لك من الطريقة ، واعلم أن أولى الأمور بك ، وأوجبها عليك ، حفظ أهلك ، ثم عشيرتك ، ثم الذين يلونهم من مواليك وشيعتك ، فهم أنصارك وأهل دعوتك ، ومشاركوك في حلوك ومرتك ، فهم أنزل ثقتك ، وإياهم واس من نعمتك ، وعصابتهم استشعر دون المتوثبين إلى مراتبهم من عوام رعيتك ، الذين لا يزالون ناقلين على الملوك أفعالهم ، مستقلين لأعبائهم ، فاحسم عليهم ببسط العدل لكافهم ، واحسام أولى الفضل والسداد لأحكامهم وعمالاتهم ، دون أن ترفع عنهم ثقل الهيبة ، وإن رأيت فيمن يرتقى من صنائعك رجلاً لم تنهض به سابقة ، ويشف بخصلة ، وتطمح نفسه وهمته ، فأعنه واختبره ، وقدمه واصطنعه ، ولا يرينك خمول أوله ، فإن أول كل شرف خارجيته ، ولا تدعن مجازاة المحسن بإحسانه ، ومعاقبة المسيء بإساءته ، فإن عند التزامك لهذين ، ووضعك لهما مواضعهما ، يرغب فيك ، ويرهب منك . وملاك أمرك كله بالمال ، وحفظه ، بأخذه من حله ، وصرفه في حقه ، فإنه روح الملك المدبر بجثمانه ، فلا تجعل بينك وبينه أحداً ، في الإشراف على اجتنائه وادخاره ، والثقيف لإنفاقه وعطائه . وختام وصيتي إياك بإحكامك في أحكامك ، فاتق الله ما استطعت ، وإلى الله أكلك ، وإياه استحفظك ، فقد هان على الموت إذ خلفني مثلك » (٢) .

(١) ابن القوطية ص ٥٥

(٢) نقلنا نص هذه الوصية عن مخطوط ابن حيان . وقد وردت فيه برواية الرازي ومعاوية هشام الشيبسي في نصين تالفين حاولنا أن نفسق بينهما .

وكان الحكم أميراً قوى النفس ، وافر العزم ، فطناً ، حسن التدبير ، واسع الخيلة ، نافذ الرأي والحزم ، صارماً يؤثر وسائل الطغيان المطلق ، شديد الاستثثار بسلطانه ، حريصاً على حمايته من كل تدخل أو نفوذ . وكان مثل جده عبد الرحمن الداخل يلتمس الغاية بأى الوسائل ، ويذهب فى صرامته وطغيانه إلى حد القسوة والقمع الذريع ، ولم يكن يحجم مثله عن اللجوء إلى وسائل لا تقرها المبادئ الأخلاقية القويمة . وكان شغوفاً بأهبة الملك ، مسرفاً فى مظاهر البذخ الطائل ، كثير الترفع عن العامة ، ولم يكن كأبيه وجده محبباً إلى الشعب ، بل كان بالعكس مكروهاً من الكافة ، وكان الفقهاء يبثون هذا البغض فى نفوسهم بوسائلهم الخاصة ، لما عمد إليه الحكم من سحق سلطانهم ونفوذهم . ومع ذلك فقد كان الحكم بالرغم من عسفه وطغيانه ، أميراً مستنيراً ، يؤثر العدل ، ويحرص على إقامته ، ويختار لقضائه أفضل الناس ، وأكثرهم نزاهة وورعاً ، وكان يسلط قضائه على نفسه ، وعلى ولده وخاصته . وكان قاضيه محمد بن بشير من أعظم القضاة نزاهة واستقلالاً فى الرأي والحكم (١) .

وقد أشرنا فيما تقدم إلى أن الحكم كان أول من أظهر فخامة الملك بالأندلس ، والواقع أنه أول من أنشأ بالأندلس بلاطاً إسلامياً ملوكياً بكل معانى الكلمة ، ورتب نظمه ورسومه ، وأقام له بطانة ملوكية فخمة ، فاستكثر من الموالى والحشم ، وأنشأ الحرس الخاص ، وفى عهده ظهر الصقالبة لأول مرة فى البلاط بكثرة ، وكان جده عبد الرحمن الداخل أول من وضع سياسة اصطفاء الموالى لاستراسته بالعرب كما قدمنا ، وتوسع حفيده الحكم فى تطبيق هذه السياسة ، فاستكثر من الموالى والصقالبة ، وعهد إليهم بمعظم شئون القصر والخاص . وكان هؤلاء الصقالبة (٢) على الأغلب من الرقيق والحصيان ، الذين يوتى بهم بالأخص من بلاد الفرنج وحوض الدانوب وبلاد اللونبارد ومختلف ثغور البحر الأبيض النصرانية ، وكان يوتى بهم أطفالاً من الجنسين ويربون تربية إسلامية ، ثم يدربون على أعمال البطانة وشئون القصر ، وقد سما شأنهم فيما بعد ، وتولوا مناصب الرياسة والقيادة ،

(١) أخبار مجموعة ص ١٢٤ ؛ والبيان المغرب ج ٢ ص ٨٥ ؛ والمعجب ص ١١ .

(٢) يرى للبعض أن كلمة صقالبة قد اشتقت فى الأصل من كلمة **Esclave** الإنفنجية .

ومعناها الرقيق أو الأسير . راجع **Reinaud** : *ibid* , p. 237

وبلغ عددهم في عهد الحكم زهاء خمسة آلاف^(١). وكان للحكم فرقة من الحرس الخاص معظمهم من فيء أربونة ورثهم عن والده هشام ، وقد أبلوا في الدفاع عنه يوم الربض أحسن البلاء ، فأعتقهم جميعاً ، وأغدق عليهم صلته^(٢). وكان الحكم فارساً مجيداً ، يعشق الفروسية والصيد ، وكانت له ألفا فرس من الجياد الصافنات مرتبطة على شاطئ النهر تجاه القصر ، يشرف عليها جماعة من العرفاء البارعين^(٣). وكانت له شرطة قوية منظمة ، وله عيون يطالعونه بأحوال الناس . وعلى الحملة فقد كان الحكم أميراً عظيم السلطان والهبة ، يسطع بلاطه ، كما تسطع خلاله ، ويثير من حوله بهاء الملك وروعته ، وقد شبه بعضهم بأبي جعفر المنصور في قوة الملك ، وتوطيد الدولة ، وقمع الأعداء^(٤).

وكان الحكم فوق ذلك خطيباً مفوهاً ، وشاعراً مجيداً ، نظم الشعر في مختلف المناسبات ، من أحداث الحرب والسياسة ، والفخر والغزل وغيرها . وقد أوردنا فيما تقدم شيئاً من نظمه في واقعة الربض ، ومن قوله في الفخر :

غناء صليل البيض أشهى إلى الأذن
إذا اختلفت زرق الأسنان والقنا
بها يهتدى السارى وينكشف الدجى
وإن تجد الأبطال حصناً ومعقلا
قدفت بهم في فضا الأرض فانزوت
ومن قوله في الغزل :

قضب من البان ماست فوق كثنان
ناشدتهن بحتى فاعتزمن على الـ
ملكنتى ملكاً ذلت عزائمهم
من لى بمغتصبات الروح من بدنى
ولئن عنى وقد أزمعن هجرانى
عصيان لما خلا منهن عصيانى
للحب ذل أثير موثق عانى
يغصبنى فى الهوى عزى وسلطانى

(١) المسالك والممالك لابن حوقل ص ٧٥ ؛ وفتح الطيب ج ١ ص ١٥٩ و ١٦٠ ؛ وابن الأثير ج ٦ ص ١٢٨ .
(٢) مخطوط ابن حيان المشار إليه (ص ١٠٦) .
(٣) أخبار مجموعة ص ١٢٩ ، والبيان المغرب ج ٢ ص ٨١ .
(٤) ابن خلدون ج ٤ ص ١٢٧ ؛ وابن الأثير ج ٦ ص ١٢٨ ؛ وفتح الطيب ج ١ ص ١٥٩ .

على أن هذه الخلال الباهرة التي كان يتمتع بها الحكم ، لم تكن دون نواح قائمة هي دائماً مما يغلب لدى الطغاة الأقوياء ، وقد ذكر لنا ابن حزم أنه كان من المجاهرين بالمعاصي السفاكين للدماء . ويزيد ابن حزم على ذلك أن الحكم كان يخصى من أشهر بالجمال من أبناء رعيته ، ليدخلهم إلى قصره ويصيرهم من خدمه ، ومن هؤلاء طرفة بن لقيط ، وهو من أسرة ناهية تصرف أبنائها في الولايات الرفيعة ، ومنهم نصر صاحب منية نصر ، وهو الذي غدا في عهد ولده عبد الرحمن من أعظم رجالات الدولة مكانة ونفوذاً (١) .

وكان الحكم مديد القامة ، أسمر ، نحيفاً ، وكان يلقب بالحكم المنتصر ، وبالحكم الربضي ، نسبة إلى ما حدث منه في واقعة الربض .

* * *

وكانت حكومة الحكم تضم طائفة من الشخصيات البارزة في تاريخ الأندلس في ذلك العصر ، فتولى حجابته (رياسة الوزارة) عبد الكريم بن عبد الواحد ابن مغيث قائد أبيه من قبل ، وكان جندياً عظيماً ، قاد عدة غزوات مظفرة إلى بلاد النصراري ، وكان أيضاً كاتباً بليغاً وشاعراً مجيداً (٢) . وخلفه في الحجابة عبد العزيز بن أبي عبدة ، وكان قائداً كبيراً وسياسياً بارعاً . وكان بين قواده ووزرائه أيضاً ، إسحاق بن المنذر ، والعباس بن عبد الله . وفي عهد الحكم أنشئ بالدولة منصب خاص لإدارة شئون أهل الذمة (النصراري واليهود) ينعت صاحبه بالقومس (٣) ، وعين فيه ربيع بن تدلف القومس ، قائد الغلمان الخاصة وامتولى قهرمة الأمير الحكم وشثونه الخاصة ، وكان طاغية ظلوماً يبغضه الجميع ، وقد أمر الحكم بقتله قبيل وفاته ، فنفذ فيه الحكم ولي العهد عبد الرحمن ، وتم إعدامه وسط الاغتباط العام . وذكر البعض أن هذا المنصب أنشئ في عهد

(١) مخطوط ابن حيان السالف الذكر ص ١٢٨ . وراجع رسالة ابن حزم المملاة «نقط العروس» المنشورة بناية الدكتور شوق ضيف في مجلة كلية الآداب (ديسمبر سنة ١٩٥١) ، ص ٧٣ . وكذلك نفع الطيب ج ١ ص ١٦٠ .

(٢) ابن الأبار في الحلة السراء ص ٧٢ .

(٣) مخطوط ابن حيان . والقومس تعريب للكلمة اللاتينية Comes ، وتعرب أحياناً بكلمة

«قط» ، أعني «الكونت» Comte باللغة الحديثة .

عبد الرحمن الداخل^(١). ولكن الظاهر أنه لم يرتب بصورة ثابتة وتحدد اختصاصاته إلا في عهد الحكم .

وكان عصر الحكم ، بالرغم مما غشيه من الاضطرابات والفتن ، عصرآ ازدهرت فيه الآداب والعلوم ، وظهر فيه عدد جم من أكابر الكتاب والشعراء والعلماء . وكان في مقدمتهم شاعر الحكم الأثير لديه ، وقطب الشعر في عصره ، عباس بن ناصح الثقفى الجزيرى ؛ وكان فضلاً عن براعته في الشعر والأدب ، بارعاً في علوم اللغة ، وفي الهندسة والفلسفة والفلك ، وكانت له منزلة خاصة عند الحكم ، وله في مديحه أشعار كثيرة . وقد ولاه الحكم قضاء الجزيره ببلده ومسقط رأسه ، ثم وليه من بعده ولده عبد الوهاب بن عباس ، وكان مثله شاعراً نابهاً ، وتوفى أو آخر عهد الحكم^(٢) .

وكان من أعلام عصر الحكم أبو القاسم عباس بن فرناس ، وهو فيلسوف وعلامة رياضى من نوع فذ ، وقد ولد في مقاطعة تاكرنا من أصل بربرى ، وبرع منذ فتوته في الفلسفة والفلك والكيمياء الصناعية ، وهو أول من استنيط بالآندلس صناعة الزجاج من الحجارة ، وبرع أيضاً في الموسيقى ، وصنع آلة فلكية تعرف « بالميقاة » لتعريف الوقت ، وله مخترعات كثيرة أخرى . وروى بعضهم أنه حاول أن يخترع أداة للطيران ، فصنع لنفسه جناحين بهيئة مخصوصة ، وحاول الطيران من ناحية الرصافة ، فحلقت في الهواء ، ثم وقع في مكان طيرانه على مسافة بعيدة ، واشتهر أمره بذلك حتى قال فيه مؤمن بن سعيد الشاعر :

يطم على العنقاء في طيرانها إذا ما كسى جثمانه ريش قشعم
وذكر عبد الحميد بن بسيل الوزير ، قال : « أبدع عباس بن فرناس طول
أمدته إبداعات لطيفة واختراعات عجيبة ، وضرب بالعود ، وصاغ الألحان
الحسنة ، وكان مع ذلك مجيداً للشعر ، حسن التصرف في طريقته ، كثير المحاسن
جم الفوائد » . وأثار ابن فرناس باختراعاته المدهشة ريب الجهلاء ، فكثرت الطعن
في عقيدته ، وآتهم بالزندقة ، ولكن القضاء لم يجد سبيلاً إلى إدانته ، وعاش طويلاً
وعاصر من بعد الحكم ، ولده عبد الرحمن ، وتوفى في عهد حفيده الأمير محمد بن

(١) ابن القوطية ص ٣٨ . ويقول إن أول من تولى « القامة » هو ارطباس ابن تيزا .

(٢) مخلوط ابن حيان ص ١٢٨ و ١٢٩ . وراجع تاريخ العلماء والرواة لابن الفرضى

عبد الرحمن (١) ونظم كثيراً من مختار الشعر في العهود الثلاثة . وسوف نعود إلى ذكره .
ومن أعلام عصر الحكم أيضاً ، يحيى الغزال الحلياني ، وهو أبو زكريا يحيى
ابن الحكم البكري ، نسبة إلى بكر بن وائل ، وأصله من مدينة جيان ، ولقب
بالغزال لجماله وظرفه وتأنقه ، وكان شاعراً جزلاً مطبوعاً ، وبرع بالأخص في
الغزل ، وله في النساءيات كثير من رقيق النظم ، وكان فوق ذلك عالماً بالفلك
والفلسفة ، وله أرجوزة طويلة في أبواب العلوم لم تصل إلينا ، وكان كثير
التعريض بالفقهاء والحملة عليهم ، حتى سخطوا عليه ، ورموه بالزندقة ،
لصراحته وحر تفكيره . وهو القائل فيهم :

لست تلقى الفقيه إلا غنياً ليت شعري من أين يستغنونا
تقطع البر والبحار طلاب الـ رزق والقوم ها هنا قاعدونا
إن للقوم مضرباً غاب عنا لم يصب قصد وجهه الراكبونا
وله في ذكر النفس والروح قصيدة ، أثار حول عقيدته شهاً وريباً ،
يقول فيها :

يا ليت شعري أي شيء محصل يرى شخص من قدمات وهو دفين
أهو هو أم خلق شبيه بما رأ ي فقل للقلوب النائمات عيون
وكيف يرى والعين قدمات نورها وواقعته شبه الوقار سكون
لئن كانت الأرواح من بعد بيتها بهن إلى ما خلفهن حين
وقال يمدح الحكم في قصيدة مطلعها :

كأن الملوك الغلب عندك خضماً خواضع طير يتقى الصقر لبُبد
تقلب فيهم مفلة حكيمة فتخفص أقواماً وقوماً تُسود
واشتهر الغزال فوق ذلك بأصالة الرأي ، وحسن التدبير ، واللباقة ، والدهاء
وقد رشحته هذه الصفات فيما بعد ، في عصر عيد الرحمن بن الحكم للقيام ببعض
المهام الدبلوماسية الخطيرة ، وهو ما سوف نعود إليه في موضعه .

الفصل السادس

عبد الرحمن بن الحكم

ولاية عبد الرحمن بن عبد الحكم . الثورة في تدمير . شغب أهل الذمة . غزو ألبه والقلاع . وفاة الحاجب عبد الكريم . نكبة جديدة للفرنج . حوادث الثغر الأعلى . ثورة البربر في ماردة . مغامرات محمود بن عبد الجبار وأخته جميلة العذراء . ثورة هاشم الضراب في طليطلة . سير الجند إليها ومصراع الضراب . محاصرة طليطلة وثبات الثوار . تعاقب الحملات إليها . حصارها للمرة الثانية وخضوعها . الصوائف . غزو عبد الرحمن لنافار . خروج والى تطيلة وتحالفه مع النصارى . بنى قسى وأصلهم . سير عبد الرحمن إلى الشمال . زحفه على نافار واقتحامه لبنيبلونة . هزيمة الثوار والنصارى . وفاة ألفونسو الثاني . النورمانيون أو المجوس . بدء ظهورهم في المياه الإسبانية . غزوم لثغر أشبونة . إقصاهم للنهر حتى إشبيلية . غزوم لها وعينهم فيها . الحرب بين المسلمين والغزاة . هزيمة النورمانيين وانسحابهم . اهتمام حكومة قرطبة بأمر الأسطول . غزو جليقية . حوادث الثغر الأعلى . غزو ميورقة . الحملات البحرية الأندلسية إلى شواطئ فرنسا وكورسيكا وسردانية . الحرب بين المسلمين والبشكنس . مجتمع النصارى في قرطبة . كيف يصفه المستشرق سيمونيت . حملته على الحكومة الإسلامية . الغلاة المتصبون . بغضهم للمسلمين وتحاملهم على الإسلام . مجاهرتهم بسب النبي . عقاب المعتدين . دسائس الأبحار وتفاتهم الفتنة . أقوال العلامة أناميرا . مجتمع الأساقفة وحزم الحكومة . قصة الفتاة فلورا . وفاة عبد الرحمن . صفاته وخلاله . روعة البلاط الأموي في عهده . ترتيب الوزارة . وزاراه وكتابه وقضااته . اصطفاؤه للموالى والصقالية . الفتى نصر . نفوذ الذبيان والحوارى . منشأته . الأمن والرخاء في عهده . أدبه وشعره . حمايته للعلوم والآداب . استقدامه لزرياب فابغة الموسيقى . شغفه بجمع الكتب . سفارة قيصر قسطنطينية إليه . بواعث هذه السفارة . سفارة عبد الرحمن إلى القيصر وكتابه إليه . يحسى الغزال في بلاط بيزنطية . سفارته إلى ملك النورمانيين .

لما توفي الحكم ، خلفه عبد الرحمن أكبر أولاده بعهد منه ، وكان ينوب عنه في الحكم أثناء مرضه حسبما قدمنا ، وبويع في اليوم التالي لوفاة أبيه ، في السابع والعشرين من ذى الحجة سنة ٢٠٦ (مايو ٨٢٢ م) ، وأخذ له البيعة بالقصر الحاجب عبد الكريم ، وكان حينها ولى العرش في الحادية والثلاثين من عمره ، إذ كان مولده بطليطلة في سنة ١٧٦ هـ (٧٩٢ م) ، وأمه أم ولد تدعى « حلاوة » ، وكان أحب أبناء الحكم إليه ، وقد عنى بتربيته وتثقيفه عناية خاصة . وشغف عبد الرحمن ، منذ فتوته بالأدب والحكمة ، ودرس الحديث والفقهاء ، فكان ذهنًا مستنيرًا^(١) ، وكان فوق ذلك أميراً رفيع الخلال والكفاية ، وافر الخبرة بشئون

الحرب والإدارة ، يحسن اختيار الرجال للمناصب ، فكان يحشد حوله خيرة رجال الدولة من الوزراء والقادة والولاة والقضاة (١) .

وفى فاتحة ولايته ، عاد عبد الله البلنسى ، عم أبيه ، إلى الثورة مرة أخرى ، واحتل كورة تدمير مطالباً بإقطاعها (سنة ٢٠٧هـ) ، والتف حوله جمع كثير ، وكان يزعم الزحف إلى قرطبة بالرغم من ضعفه وشيخوخته ، ولكن المرض عاجله ، وتوفى في العام التالي (سنة ٢٠٨هـ) ، فاحتل عبد الرحمن كورة تدمير ، وتكفل بأهله وولده ، وانتهت بذلك آخر مرحلة في فتنة طالما تكرر حدوثها منذ وفاة عبد الرحمن الداخل .

ولكن تدمير لبث مع ذلك تضطرم بنار ثورة داخلية من نوع جديد . ذلك أن فتنة نشبت فيها بين المضرية واليمينية ، من جراء موت مضرى قتله يمانى ، واستفحل الشر بينهما ، وقتل كثير من الفريقين ، فبعث عبد الرحمن إليهم حملة بقيادة يحيى بن عبد الله ، وعينه والياً على تدمير ، ولكنه لم يفلح في إخضاع الولاية الثائرة . واستمرت الفتنة على أشدها ، وغلب على تدمير أبو الشماخ زعيم اليمينية ، ولبث بضعة أعوام يتحدى سلطة قرطبة ، والبعوث تتردد إليه في كل عام ، دون أن تنال منه منالا ، ولم تهدأ الفتنة إلا في سنة ٢١٣هـ ، حيث خضع أبو الشماخ وغيره من الزعماء ، وطلبوا الأمان ، وعادوا إلى الطاعة .

وحدثت في قرطبة عقب جلوس عبد الرحمن بأيام قلائل ، فتنة شعبية من نوع ما حدثت أيام الربض . ذلك أن وفوداً من أهل الذمة وغيرهم قدمت من لبيرة تطالب برفع المغارم التي فرضها عليهم ربيع الأسقف ، وانضم إليهم كثير من أهل قرطبة النصرارى ، وساروا إلى القصر في ضجة كبيرة ، فأرسل إليهم عبد الرحمن قوة من الفتيان لتهديتهم فاعتدوا عليها ، فبعث عندئذ الجند إليهم ، ففتكوا بهم وقتل منهم خلق كثير ، وفر الباقون في مختلف الأنحاء ، وكان ذلك في المحرم سية ٢٠٧هـ (٢) .

وبدأ عبد الرحمن برنامجه في الغزو والجهاد مبكراً ، فبعث في صيف سنة ٢٠٨هـ (٨٢٣ م) حملة إلى ألبة والقلاع بقيادة عبد الكريم بن عبد الواحد ابن مغيث ، وكان ألفونسو الثاني ملك جليقية (أو ليون) قد أغار على

(١) مخطوط ابن حيان ص ١٣٨ .

(٢) مخطوط ابن حيان المشار إليه ، وابن الأثير ج ٦ ص ١٣٠ .

مدينة سالم Medinaceli من أعمال الثغر الأعلى ، وحذت حذوه بغض القبائل الجبلية من أهل بسكونية ، فأغارت على أطراف الثغر وعانت فيها ، فاخترق الحاجب سائط ألبه والقلاع ، وهزم النصارى في عدة مواقع ، وعاث في ألبه وخرب مدينة ليون وأحرق حصونها ، واشترط على النصارى أن يدفعوا جزية كبيرة ، وأن يطلقوا أسرى المسلمين ، وأن يسلموا بعض زعمائهم كفالة بسكينتهم ، وعاد الحاجب إلى قرطبة مثقلاً بالغنائم والسبي . وكانت هذه آخر غزوة قام بها هذا الوزير النابه والقائد المظفر ، الذي قاد معظم الغزوات الكبرى إلى أرض العدو ، منذ عهد هشام بن عبد الرحمن ، إذ توفي عقب عودته إلى قرطبة بقليل في المحرم سنة ٢٠٩ هـ (٨٢٤ م)^(١) .

وفي هذا العام (٨٢٤ م) أصيب الفرنج بهزيمة ساحقة في أحواز بنبلونة ، في سفح جبال البرنيه ، عند باب شزروا ، حيث نكب جيش شارلمان من قبل ، ويبدو من أقوال الرواية الفرنجية أن المسلمين كان لهم دور كبير في إيقاع هذه الهزيمة . ذلك أن لويس ملك الفرنج أرسل قواته بقيادة الكونتين أرنار وإبلو لمهاجمة البشكنس وإخضاعهم ، فاستغاث البشكنس بحيرانهم المسلمين ، والظاهر أن الذي لبى نداء البشكنس هم بنو موسى أو بنو قسي أصحاب تطيلة ، وأن هذه المعاونة كانت بموافقة حكومة قرطبة . وعلى أى حال فقد أحرز المسلمون والبشكنس على الفرنج نصراً ساحقاً . وأسر القائدان أرنار وإبلو ، ثم أطلق سراح الأول وأرسل الثاني إلى قرطبة حيث اعتقل بعض الوقت . وقد أثار هذا الحادث ذكريات موقعة باب شزروا الكبرى التي نكب فيها الفرنج أيام الأمير عبد الرحمن الداخل ، قبل ذلك بستة وأربعين عاماً^(٢) .

وتولى قيادة الصائفة بعد الحاجب عبد الكريم^(٣) ، أمية بن معاوية بن هشام ، ولكنه لم يسر إلى أرض العدو ، بل سار إلى شنت برية ، ثم إلى تدمير ليعمل على تهدئة الثورة . وكانت حوادث الشمال قد عادت تتطلب اهتمام قرطبة ، وكان

(١) راجع نفتح الطيب ج ١ ص ١٦١ ؛ والبيان المغرب ج ٢ ص ٨٤ .

(٢) راجع : R.M. Pidal : ibid, Vol. I. p. 195 ، وكذلك كوندى ؛ Conde : ibid ;

Vol. I. p. 264 & 265

(٣) كانت معظم الحملات والغزوات الإسلامية الكبرى ، تنظم في الصيف باعتباره خير

الفصول للقيام بمثل هذه الغزوات ، ولهذا كانت تسمى بالصائفة والصوائف .

الفرنج في الثغر القوطي قد تحركوا ، وأغاروا على أطراف الثغر الأعلى ، بقيادة أميرهم برنهارت صاحب برشلونة ، وهو ولد جيوم دوق تولوز ، فسير عبد الرحمن إلى الشمال جيشاً كبيراً بقيادة عبيد الله بن عبد الله البلنسي ، فاخترق الثغر الأعلى إلى أراضي الفرنج (٢١٢ هـ - ٨٢٧ م) واجتاح ولاية قطلونية ، وهزم الفرنج في عدة مواقع ، وسار حتى جيرندة (جبرونة) ، ولكنه لم يحاول أن يحرز فتوحاً ثابتة ، فارتد إلى الجنوب بعد أن مزق شمل النصارى في تلك الأثناء^(١) .

وشغلت عبد الرحمن في الأعوام التالية عدة ثورات محلية خطيرة ، وكانت الفتنة تضطرم في نفس مواطنها القديمة ، في طليطلة ، وماردة ، حيث كانت عناصر الحروج والثورة تحتشد وتعمل بعيدة عن العاصمة ، ممتنعة بالوهاد والوعر ، قريبة من النصارى ، تتلقى منهم الوحي والعون في أحيان كثيرة . ففي ماردة ثار البربر بقيادة زعيمين من زعمائهم هما محمود بن عبد الجبار بن راحلة ، وهو من بني طريف من مسمودة ، وسليمان بن مرتين ، وانضم إليهم النصارى المعاهدون . وألقى لويس ملك الفرنج فرصة جديدة للدس والتحريض على حكومة قرطبة ، فبعث إلى الثوار يشجعهم ويعددهم بالمدد والعون^(٢) . وكان محمود زعيماً قوياً ومغامراً جريئاً ، فوثب بعامل ماردة وقتله ، وعاث في تلك الأثناء قتلاً ونهباً وتخريباً ، وتوالت إليه بعوث عبد الرحمن ، فكان في كل مرة يعتصم بالمدينة ، فإذا غادره الحند عاد إلى عيثة وسفكه . وفي سنة ٢١٨ هـ (٨٣٣ م) سار إليه عبد الرحمن بنفسه ، فغادر ماردة في صحبه ومعه زميله سليمان ، وخرجت مع محمود أخته جميلة العذراء ، وهي فارسة بارعة الحسن ، اشتهرت يومئذ في جميع أنحاء الأندلس برائع جمالها ، كما اشتهرت بالشجاعة والنجدة والفروسية ، ولقاء الفرسان ومبارزتهم^(٣) ، ونزل الثوار بحصن فرنكش على ضفة نهر وادي يانة . ثم غادر سليمان زميله ، واستقل محمود بالعمل ، وزحف في جموعه على بطليوس ، ثم على أكشونة^(٤) ثم سار إلى باجة ، فقاتله أهلها ، ولكنه تغلب عليهم بمعاونة أخته جميلة ، وبسط محمود سلطانه على

(١) البيان المغرب ج ٢ ص ٨٥ ؛ ومخطوط ابن حيان ص ١٨٠ .

(٢) Scott : ibid , Vol. I. p.482

(٣) جبهة أنساب العرب لابن حزم (القاهرة) ص ٤٦٦ .

(٤) بطليوس بالإسبانية Badajoz ، وأكشونة Osonoba

باجة ، وهو يقاتل خصومه من حوله ، وبعوث الأمير تتردد إليه ، حتى لحقه الإعياء واليأس ، ففر مع أخته وصحبه إلى جليقية ، واستجار بملكها ألفونسو الثاني ، فرحب به وأكرم وفادته ، وأنزله بأطراف مملكته . وبعد حين رأى الثائر أن يعود إلى الطاعة فكتب عبد الرحمن ، ووقف ألفونسو على هذه المحاولة ، فخشى إن أفلت الثائر منه أن ينقلب حرباً عليه ، فسار إليه وأحاطت به الجند من كل ناحية ، ودافع محمود عن نفسه دفاع الأبطال ، ولكنه قتل أخيراً ، وأسر أهله وصحبه ، وكانت أخته الحسنة جميلة بين الأسرى (٢٢٥ هـ - ٨٤٠ م) . ووقعت جميلة في نصيب كبير من كبراء النصارى ، فحملها على اعتناق النصرانية وتزوج منها ، وكان من ولدها فيما بعد أسقف شنت ياقب (١) .

واضطرمت طليطلة بالثورة في نفس الوقت ، ففي سنة ٢١٤ هـ (٨٢٩ م) ثار بها زعيم من العامة يدعى هاشم الضراب ، وكان هاشم في طليطلة أيام واقعة الحفرة ، ثم أخذ بين الرهائن إلى قرطبة ، فاشتغل بها حداً مدى حين وعرف بالضراب ، ثم غادرها إلى طليطلة ، وهناك اجتمع إليه عدد كبير من الأوغاد والسفلة ، فأخذ يغير بهم على الأنحاء المجاورة ، حتى اشتد بأسه وطار صيته ، وهرع إلى لوائه أهل الشر والبغى من كل صوب ، وسار إلى البربر في شنت برية ، فأغار عليهم وأوقع بهم ، فبعث عبد الرحمن الجند لقتاله بقيادة محمد بن رستم ، عامل الثغر الأدنى ، فنشبت بينه وبين الثوار عدة وقائع غير حاسمة . وفي العام التالي بعث عبد الرحمن إلى عامله بالمدد ، فزحف على الثوار والتقى بهم على مقربة من حصن سمسطا بمجاورة رورية ، ونشبت بين الفريقين موقعة عنيفة هزم فيها الثوار ، وقتل هاشم الضراب وكثير من أصحابه ، وذلك في سنة ٢١٦ هـ (٨٣١ م) .

ولكن طليطلة استمرت مع ذلك على اضطرامها ، وكان على عبد الرحمن أن يخوض معارك أخرى لإخضاعها . ففي سنة ٢١٩ هـ (٨٣٤ م) أرسل إليها جيشاً بقيادة أخيه أمية بن الحكم ، فحاصرها وانتسف ما حولها من الزروع ، ولكن المدينة الثائرة لم تهن ولم تخضع ، فرحل عنها ، وأبقى بعض قواته بقيادة

(١) وردت هذه التفاصيل الشائقة في مخطوط ابن حيان (ص ١٨٢ و ١٨٣ و ١٨٤) .

ميسرة الفتى في قلعة رباح (١) الواقعة في جنوبها استعداداً لمحاصرتها ، فخرج عندئذ أهل طليطلة لقتال ميسرة ، فظهر عليهم وقتل منهم مقتلة عظيمة ، فارتدوا إلى داخل المدينة ، وعادوا إلى الاعتصام بأسوارها المنيعة . وفي العام التالي (سنة ٢٢٠ هـ) سار إليهم عبد الرحمن بنفسه ، فثبتت في وجهه المدينة الثائرة ، فترك الحند في قلعة رباح ، وسار إلى الغرب في أحواز ماردة ، ليطارد سليمان بن مرتين زعيم البربر ، وكان بعد أن تخلف عن زميله محمود بن عبد الجبار ، يتزعم الثورة في تلك الأنحاء ، فحاصره عبد الرحمن ، وحدث أن قتل الثائر في سقطة مميتة عن جواده ، فانفضت جموعه وخبت ثورته . وسير عبد الرحمن في العام التالي حملة أخرى إلى طليطلة بقيادة أخيه الوليد بن الحكم ، فحضر حولها الحصار الصارم ، واستمر على حصارها حتى جهد أهلها ، وضاقوا بالحصار ذرعاً ، ثم هاجمها بعد ذلك واقتحم أسوارها ، وخضعت المدينة الثائرة ، بعد أعوام عديدة من من فتن وثورات مستمرة ، كان يغذيها خلالها روح التمرد المتأصل في شعبها ، ودسائس البربر والنصارى من أهلها ، وتخريض الفرنج والحلالقة ، وكان خضوعها في رجب سنة ٢٢٢ هـ (٨٣٧ م) (٢) .

واستطاع عبد الرحمن بعد إخماد الثورة في مختلف النواحي ، أن يستأنف أعمال الجهاد والغزو ، فعكف في الأعوام التالية على تسيير الصوائف أو حملات الغزو الصيفية متعاقبة في كل عام إلى الشمال ، تارة إلى أطراف الثغر الأعلى ، حيث تشتبك مع الفرنج ، وتشن في أراضيهم ، وتارة إلى ألبه والقلاع ، حيث تغير على أراضي البشكنس ، أو أطراف مملكة ليون (جليقية) ، وتولى عبد الرحمن قيادة الصائفة بنفسه إلى جليقية في سنة ٢٢٥ هـ (٨٤٠ م) . وفي سنة ٢٢٧ هـ (٨٤٢ م) سار عبد الرحمن إلى الشمال ، وكان موسى بن موسى بن قسي والى نُطيلة (٣) من أعمال الثغر الأعلى (أراجون) ، قد خرج عن طاعته وتحالف مع غرسية (٤) أمير نافار ، وأوقع الإثنان بجند الأمير في الثغر ، وعاثا في أنحائه .

(١) ومقابلها بالإسبانية Calatrava

(٢) راجع ابن الأثير ج ٦ ص ١٤١ و ١٥٠ و ١٥٣ و ١٦١ ، والبيان المغرب ج ٢

ص ٨٥ و ٨٦ و ٨٧ .

(٣) وهي بالإسبانية Tudela

(٤) وهي بالإسبانية Garcia

وتقول الرواية في سبب نقض موسى الطاعة ، أن عبد الرحمن كان قد ولي عبد الله بن كليب على مرقسطة ، وعامر بن كليب على تَطِيلَة ، فأغار عبد الله على أموال ينقة بن ونقة أخى موسى لأمه ، واعتدى عامر بن كليب على أملاك موسى وخيله ، وانتهب أمواله ، وخرّب حدائقه ، فعندئذ أعلن الخروج والعصيان ، وكان ذلك في سنة ٢٢٦ هـ^(١) . فسار عبد الرحمن إلى بلاد البشكنس (ناقار) ، وتوغل فيها حتى بذبلوثة ، وعاث فيها نسفاً ونخريباً ، وسبي من أهلها جمعاً كثيرة .

ولا بد لنا هنا من التعريف بهذا الزعيم الثائر موسى بن موسى ، إذ هو سوف يحتل منذ الآن فصاعداً ، هو وأبناؤه ، حيزاً كبيراً في تاريخ الثورة على حكومة قرطبة . فهو وفقاً لابن حيان ، وابن حزم ، موسى بن موسى بن فرتون ابن قسيّ (أو القسوي) . وكان جده الأعلى ، الكونت قسيّ Kasi من أشرف القوط ، وكان وقت الفتح «فومس» Comes الثغر الأعلى ، فلما غزا المسلمون أراضيهم إلى الشام ، واعتنق الإسلام على يدى الخليفة الوليد بن عبد الملك ، وذلك لكي يحتفظ في ظل الغزاة الحديد ، بأملاكه وسلطانه الإقطاعي ، واعتبر بإسلامه على يدى الخليفة من مواليه ، وانحاز بطريق هذا الولاء إلى جانب المضرة . وعدا أولاده وأحفاده من بعده زعماء المولدين في الثغر الأعلى . وكانوا من أنجاد الزعماء والفرسان ، يمتازون بالجرأة والإقدام والشجاعة ، ويعتزون دائماً بأصلهم القوطي النصراني ، وكانت لهم دائماً علائق مصاهرة مع جيرانهم من الأمراء النصارى ، من البشكنس وغيرهم ، وكان إسلامهم في الواقع مظهراً سطحياً لاغتنام السلطان والنفوذ ، وكانوا لا يشعرون بالولاء نحو حكومة قرطبة ، يصانعونها متى وجبت المصانعة ، احتفاظاً بمركزهم وسلطانهم في الثغر ، ولكنهم لا يحجمون عن انتهاز أية فرصة للثورة عليها ، ومخالفة أعدائها من النصارى . وسرى فيما بعد أى دور خطر قامت به هذه الأسرة المتمردة الخطرة ، في ثورة المولدين الكبرى على قرطبة^(٢) .

(١) فصوص عن الأندلس للعذري في الأوراق المنشورة من كتاب «ترصيع الأخبار» ص ٢٩

(٢) راجع المنتبس لابن حيان ، الجزء المطبوع بعناية المستشرق أنتونيا ص ١٦ و ١٧ . وكذلك بجمهرة أنساب العرب لابن حزم (القاهرة) ص ٤٦٧ و ٤٦٨ ، حيث يقدم لنا شجرة كاملة لنسبة بنى قسي ، منذ جددهم الأعلى حتى أواخر القرن الثالث الهجري .

وفي العام التالي سار عبد الرحمن إلى الشمال مرة أخرى ، ومع له ولداه المطرف ومحمد ، واستخلف ولده المنذر على قرطبة ، وبدأ عبد الرحمن بمحاصرة تطيلة حتى أخضعها ، ثم زحف على بلاد البشكنس مرة أخرى ، ولقيه غرسية وحليفه موسى بن موسى في جموع كبيرة ، فهزم البشكنس وحلفاؤهم هزيمة شديدة ، وقتل منهم عدد جم ، وفر موسى وحليفه غرسية جريحين ، وسار عبد الرحمن إلى بنبلونة فأثنخ فيها وخربها ، واضطر البشكنس إلى طلب الأمان والصلح ، وعاد عبد الرحمن إلى قرطبة ظافراً بعد أن وطد هيبة الإسلام وحكومته في تلك الأنحاء (٢٢٨ هـ - ٨٤٢ م)^(١) . ولم يكن لهذه الغزوات في الواقع نتائج مستقرة ، وكانت تقصد في الغالب إلى إيقاع الرعب في قلوب نصارى الشمال ، وتخريب بلادهم ، وإنهاك قواهم ، حتى يلزموا السكينة ، ويكفوا عن عدوانهم وعيهم في أراضي المسلمين .

وفي نفس هذا العام الذي سحقت فيه نافار وخربت (٨٤٢ م) ، توفي ألفونسو الثاني الملقب بالضعيف بعد أن حكم مملكة ليون (جليقية) إحدى وخمسين عاماً ، إذ تولى الملك في سنة ٨٩١ م ، أيام الأمير هشام بن عبد الرحمن ، وخلفه ولده راميرو الأول ، أو رذمير كما تسميه الرواية العربية . وقد اقتصرنا فيما تقدم على أن نسرده من أخباره وأخبار مملكته ، ما له صلة بسير الحوادث في اسبانيا المسلمة ، أما أخبار مملكة ليون الداخلية ، فسنبصلها عند الكلام على تاريخ المملكة النصرانية الشمالية .

* * *

وفي عهد عبد الرحمن بن الحكم ، عرفت الأندلس لأول مرة خطراً جديداً لم يسبق لها أن عرفت أو توقعت حدوثه : ذلك هو خطر الغزوات النورمانية البحرية .

كانت سيادة البحار الشمالية منذ بداية العصور الوسطى في يد « الفكينج » Vikings أو النورمانيين ، وكان أولئك النورمانيون أمة بحرية عريقة ، تهرست منذ غابر العصور في ركوب البحر ومقارعة أهواله ، ووطنهم الأصلي هو اسكندناوة ، وربما دانيماركه ، وشواطئ ألمانيا الشمالية ، ولذا عرفوا بالنورمانيين

(١) البيان المنرب ج ٣ ص ٨٨ و ٨٩ ؛ وابن الأثير ج ٦ ص ١٦٧ و ١٧٢ و ١٨٠

ومخطوط ابن حيان ص ١٨٥ .

أى أهل الشمال^(١) . واشتهر النورمانيون بجراتهم فى جوب البحار الشمالية ، وبراعتهم فى مغالبة قسوة الجليد وأهوال اللجة والطبيعة ، ولم يأت القرن الثامن الميلادى حتى كانت حملاتهم البحرية الناهبة ، تتخذ فى شواطئ الجزر البريطانية . وكان جذب الوطن ، وشطف العيش ، وروح المخاطرة ، تدفع بهم دائماً إلى عرض البحار ، وتجعلهم خطراً دائماً على الشواطئ والنغور المجاورة . وفى أوائل القرن التاسع وصلت حملاتهم الناهبة إلى شواطئ بلاد الفرنج (فرنسا) ، ثم نفذت جموع منهم إلى شمال فرنسا . وغزوا مصب اللوار ومصب الجارون ، وأنشأوا لهم عدة مراكز وقواعد فى تلك الأنحاء .

وهنا بدأ تطلع النورمانيين إلى اسبانيا . والأندلس بنوع خاص . وكانت نعماء الأندلس ، وما اشتهرت به من الحصب والغنى . تثير جشع أولئك الغزاة المغامرين ، ولم تكن الأندلس تحسب حساباً لذلك الخطر الداهم المستتر معاً ، لأنها لم تعرف النورمانيين من قبل . ولا تعرف لهم بقربها أرضاً أو مستقراً . وتطلق الرواية الإسلامية على أولئك الغزاة المجهولين إسم «الجوس» ، بيد أنها تعرفهم أيضاً «بالأردمانيين» أى النورمانيين . وقد ترجع هذه التسمية إلى أن النورمانيين كانوا فى العهد الذى عرفهم فيه عرب الأندلس لأول مرة «مجوساً» أى وثنيين لم يعتنقوا النصرانية بعد . وكان ظهور النورمانيين فى المياه الإسبانية ، لأول مرة فى سنة ٨٤٣ م . فى تلك السنة خرج أسطول نورمانى من نهر الجارون وعاث فى شواطئ مملكة جليقية ، فبعث ملكها راميرو (رذمير) إليهم جيشاً ردهم وأحرق كثيراً من سفنهم ، فانقلب النورمانيون عندئذ إلى مياه إسبانيا الغربية والجنوبية ، يجوبونها فى طلب السبي والغنيمة ، واقتحموا شواطئ المملكة الإسلامية (الأندلس) فى غزوتهم الأولى .

وتضع الرواية الإسلامية هذه الغزوة فى سنة ٢٣٠ هـ ، وتحدثنا عنها بإفاضة ، فتقول لنا إن أسطولاً مجوسياً (نورمانياً) قوامه زهاء ثمانين مركباً ، رسا فى مياه أشبونة^(٢) فى أواخر سنة ٢٢٩ هـ (يوليه أو أغسطس سنة ٨٤٣ م) ، فكتب عاملها وهب الله بن حزم إلى عبدالرحمن بن الحكم ينبئه بالخطر . فكتب عبدالرحمن

(١) وهى بالإفريقية Norsmen أو Normanen

(٢) لشبونة Lisboa عاصمة البرتغال الحديثة .

إلى عمال الثغور بالتحوط والأهبة . ولبت النورمانيون في مياه أشبونة ثلاثة عشر يوماً التحموا خلالها مع المسلمين في عدة وقائع ، ثم ساروا بأسطولهم جنوباً إلى قادس ، ثم شذونة ، ثم اخترقوا النهر الكبير (الوادي الكبير) حتى إشبيلية . وكان ظهور هذه السفن الغازية ، وأولئك الغزاة الشقر في قلب الأندلس ، مفاجأة مروعة ، ولم يكن للأندلس يومئذ أسطول قوى تدفع به شر الغزوات البحرية ، ولم تتخذ في الثغور لردّها أهبات خاصة . ونزل النورمانيون في ظاهر إشبيلية في أوائل المحرم سنة ٢٣٠ هـ (سبتمبر سنة ٨٤٣ م)^(١) وكانت يومئذ دون أسوار تحميها من العدوان المفاجيء ، وكانت مفاجأة مروعة لأهلها ، الذين لم يتخذوا أية أهبة خاصة للدفاع عن أنفسهم ، وعبثاً حاول المسلمون رد الغزاة . واقتحم النورمانيون إشبيلية وأمعنوا في أهلها سفكاً ونهباً وسيباً ، وعاثوا فيها مدى سبعة أيام أشنع عيث ، ثم غادروها وعسكروا في ظاهرها ، في قرية طلياطة الواقعة غربي إشبيلية . وفي تلك الأثناء بعث الأمير عبد الرحمن قوات من الخيل على عجل لإنجاد إشبيلية بقيادة عبد الله بن كليب ومحمد بن رستم ، وجعل على قوات قرطبة حاجبه عيسى بن شهيد ، وهرع المسلمون من كل صوب للجهاد ورد الغزاة . وقاد القوات المتحدة نصر الحصى ، وتلقى النورمانيون المدد في سفن جديدة قدمت إليهم ، ونشبت بين الفريقين في البداية بضع معارك محلية ، تفوق فيها الغزاة . وفي الخامس والعشرين من صفر سنة ٢٣٠ هـ ، نشبت بينهما معركة حاسمة تجاه قرية طلياطة ، وكان على رأس قوات المسلمين محمد بن رستم ، فهزم النورمانيون بعد قتال عنيف ، وقتل منهم نحو ألف وأسرى وأربعمائة ، وأحرق من سفنهم ثلاثون ، وكان قائدهم بين القتلى ، وارتد النورمانيون إلى سفنهم ، وتحصنوا بها ، وقتل المسلمون أسراهم أمام أعينهم ، وصلبوا على جذوع النخل ، ثم أقلعت سفن الغزاة مرتدة إلى الجنوب ، والمسلمون من ورائهم يطاردونهم ، ويفتدون أسرى المسلمين منهم بمختلف السلع ، وانتمى النورمانيون لأنفسهم أثناء ارتدادهم بالإغارة على لبلة وباجة ، ثم انتهوا ثانية إلى ثغر أشبونة حيث غادروا مياه الأندلس مع باقي سفنهم ، بعد أن لبثوا بضعة أسابيع يبتون فيها الرعب والروع .

(١) يضع ماريانا غزوة النورمانيين الأولى لإشبيلية في سنة ٨٤٧ م (راجع تاريخه العام -

الترجمة الفرنسية - ج ٢ ص ٨٤) .

واستطالت غزوة النورمانين ، منذ نزولهم بأرض إشبيلية ، إلى أن تمت هزيمتهم وإقلاعهم ، إثنين وأربعين يوماً ، عانى فيها المسلمون محناً وشدائد كثيرة ، ارتجت لها ربوع الأندلس كلها . فلما انقشعت الغمة . بادر الأمير عبد الرحمن فبعث بالكتب إلى سائر الآفاق معلنة هذا النصر على العدو المغير ، وبعث بها بالأخص إلى أمراء العدو ، ومعها طائفة من رؤوس أكابر النورمانين القتلى . وأغدق الأمير ثنائه وصلاته على نصر الحصى فتاه الأثير لديه ، وكان قائد قواته العام فى تلك المعركة الكبرى (١) .

وكان لهذه المفاجأة المروعة أثرها فى حمل حكومة الأندلس على الاهتمام بأمر الأسطول والتحصينات البحرية ، فابتنى عبد الرحمن حول إشبيلية سوراً ضخماً ، وأنشأ بها داراً عظيمة للصناعة ، واهتم بصنع السفن الحربية الكبيرة ، وحشد لها المقاتلة من شواطئ الأندلس . فكانت نواة الأسطول الأندلسى الكبير الذى بلغ فى عهد عبد الرحمن الناصر زهاء مائتى سفينة . وعلى أى حال فقد أدرك النورمانيون أن الأندلس لم تكن فريسة هينة . وتحديثنا الرواية الإسلامية بأنهم عقب هزيمتهم فى هذه الغزوة الأولى سعوا إلى الصلح مع أمير الأندلس ، وبعثوا رسلهم فى طلب السلم والمهادنة ، وأن الأمير الأندلسى عبد الرحمن بعث كاتبه يحيى الغزال إلى ملكهم ليرد السفارة ، وهى رواية سنعود إلى تفصيلها (٢) .

ولم يمض قليل على رد الغزاة النورمانين ، حتى بادر عبد الرحمن إلى استئناف الغزو ، فسير بالصائفة إلى الشمال جيشاً بقيادة ولده هشام ، ومعه الوزير عيسى ابن شهيد . فاخترق قشتالة القديمة ، وسار صوب ناغار وغزا بنبلونة ، ووافاه هناك موسى بن موسى والى تطيلة ، فقدم طاعته ، ومنح الأمان ، وأقر على ولايته . وفى العام التالى سير عبد الرحمن بالصائفة قواته مرة أخرى إلى الشمال ،

(١) راجع فى تفاصيل هذه الغزوة ، البيان المغرب ج ٢ ص ٨٩ و ٩٠ ، والمذرى فى الأوراق المنشورة من « ترصيع الأخبار » ص ٩٨ - ١٠٠ ؛ وفى النويرى : نهاية الأرب (القمم الخاص بتاريخ الأندلس) وقد نقل دوزى روايته ؛ **Recherches : II : p. 337-338** وكذلك فى الملحق **Appendice 37** ؛ وفى ابن القوطية (ص ٦٣ - ٦٧) ؛ وابن الأثير ج ٧ ص ٧ ، وابن خلدون ج ٤ ص ١٢٩ . وفى مخطوط ابن حيان عنها تفاصيل كثيرة نقلت عن محمد بن أحمد الرازى وأخيه عيسى ومعاوية بن هشام الشينسى .

(٢) راجع رواية النويرى المشار إليها فى دوزى : **Recherches : App. 37**

بقيادة ولده محمد ، فاخترق بسائط جليقية ، وحاصر عاصمتها ليون ، ولجأ
النصارى إلى الجبال ، ثم ارتد عنها بعد أن عاث فيها قتلا وتخريباً (سنة ٢٣١ هـ -
٨٤٥ م) . وعصف بالأندلس في العام التالي قحط شديد ، وهلكت الزروع
والماشية ، وقاست البلاد من ويلاته مدنى أشهر .

وفي سنة ٢٣٣ هـ (٨٤٧ م) ظهر بالثغر الفرنجى ، في شمال شرقي إسبانيا ،
زعيم يدعى جيين دى تولوز ، وهو فيما يرجح من تسميه الرواية العربية ،
غليام بن برباط بن غليام ، وكان قد أعلن الخروج والثورة على ملك الفرنج
شارل الأصلع ، ووفد في العام السابق على بلاط قرطبة ، يلتمس التأييد والعون ،
فاستقبله عبد الرحمن بترحاب ، وأمده بعونه ، فعاد إلى الثغر وعاث فيه بقواته ،
وحاصر برشلونة وخرّب حصونها ، وهاجم جرندة ، وكتب عبد الرحمن إلى
عامله على طرطوشة عبد الله بن يحيى ، وعامله على سرقسطة عبد الله بن كليب ،
في إمداده وتأييده في ثورته ضد ملك الفرنج^(١) . بيد أنه يبدو من أقوال الرواية
الفرنجية أنه وقعت على إثر ذلك مفاوضات بين عبد الرحمن وشارل الأصلع ،
انتهت بعقد الهدنة والسلم بينهما .

وفي نفس هذا العام نقض موسى بن موسى بن قسى (القسوى) العهد ، وعاد
إلى الثورة ، وعاث في أحواز تطيلة وطرسونة وبرجة من أعمال الثغر الأعلى ،
وظاهره أخوه لأمه فرتون إنيجز (ابن ونقة) أمير بنبلونة ، فبعث إليه عبد الرحمن
جند الصائفة بقيادة عباس بن الوليد المعروف بالطبلى ، فطارده حتى أرهق
وأعلن عوده إلى الطاعة ، وقدم ولده إسماعيل رهينة كفالة بولائه ، فقبل عبد الرحمن
طاعته ، وأقره على ولايته تطيلة ، ودخل معه في هذا الصلح أخوه فرتون إنيجز^(٢)
وفي سنة ٢٣٤ هـ (٨٤٨ م) بعث عبد الرحمن قوة بحرية كبيرة إلى جزيرتى
ميورقة ومنورقة وهما أكبر الجزائر الشرقية (جزائر البليار) لغزوها ، ومعاقبة

(١) وردت هذه الرواية في قطعة مخطوطة أخرى من تاريخ ابن حيان ، عثرت بها في مكتبة
القرولين بفاس ، وحصلت منها على نسخة مصورة حسبما أشرت إلى ذلك من قبل . وهى التى تبدأ
حوادثها منذ سنة ٢٣٣ هـ وتنتهى بحدوث سنة ٢٦٧ هـ ، وسوف نفتبس منها منذ الآن فصاعداً في
مختلف المواطن التى نتناول حوادثها . (لوحة ١٨٩ ب من المخطوطة المذكورة) .

(٢) لوحة ١٨٩ ب و ١٩٠ أ من المخطوط المذكور ، وهو يسمى هنا أمير بنبلونة بابن رنقة .

أهلها لتعرضهم لسفن المسلمين المجاهدين والإضرار بهم ، فأخضعهما المسلمون وأئخنوا فيهما ، وأصابوا كثيراً من السبي ، وبعث أهلها إلى الأمير يطلبون الأمان ودفع الجزية ، ويتعهدون بالولاء والطاعة ، فأجابهم إلى ما طلبوا . وكانت مياه اسبانيا الشرقية قد غدت منذ عهد هشام مركزاً للحملات البحرية المتجهة نحو الشمال والشرق ، وكان قوام هذه الحملات في الغالب جماعات من البحارة والمجاهدين ، الذين يجوبون هذه المياه طلباً للغنيمة والسبي ، ويشخنون في الثغور والجزر النصرانية القريبة . ففي سنة ٨٠٦ م (١٩١ هـ) في عهد الحكم ، غزت إحدى هذه الجماعات البحرية الأندلسية المغامرة جزيرة كورسيكا (قورسقة) ، فبعث بين ابن شارلمان ملك إيطاليا أسطولاً لقتالهم ، فهزموه واستولوا على كثيراً من الغنائم والسبي . ولم يمض عامان على ذلك ، حتى عاد البحارة المسلمون إلى غزو شواطئ كورسيكا وسردانية ، ثم توالى غزواتهم لها بعد ذلك . وفي سنة ٨٣٦ م (٢٢١ هـ) خرج أسطول أندلسي من ثغر طركونة والجزائر الشرقية ، وسار إلى مياه فرنسا الجنوبية ، وهاجم المسلمون ثغر مرسليليا وما حوله من الأراضي وأئخنوا فيها . وكان على عرش فرنسا يومئذ لويس ابن شارلمان ، وكان ملكاً ضعيفاً عاجزاً ، فلما توفى سنة ٨٤٠ م ، اضطربت أحوال المملكة ، وضعفت حماية الثغور ، فانهز البحارة المجاهدون هذه الفرصة ، وغزوا ولاية بروفانس عند مصب نهر الرون ، وهاجموا مدينة آرل وخربوها ، ثم توالى غزواتهم في تلك المياه بعد ذلك ، وكان من أثرها أن قامت مستعمرات عربية كثيرة في بروفانس وفي أنحاء أخرى في جنوب فرنسا وشمال إيطاليا ، وسوف نعود إلى حديث هذه المستعمرات العربية النائية في قلب أوروبا .

وفي سنة ٢٣٧ هـ (٨٥١ م) ، اضطرت الحرب في الشمال بين المسلمين والغسقونيين أو الجاشقين كما تسميهم الرواية الإسلامية وهم فرع من البشكنس ، وكان هؤلاء قد أغاروا على الأراضي الإسلامية المجاورة ، في قاصية الثغر الأعلى ، فنصدي لردهم موسى بن موسى والى تطيلة ، وكان يومئذ على ولائه لحكومة قرطبة ، ووقعت الحرب بين المسلمين والبشكنس ، في جنوبي بنبلونة على مقربة من بقيرة ، فهزم المسلمون أولاً ، وأئخن قائدهم موسى جراحاً ، ولكنه أستأنف المعركة في اليوم التالي ، وكر على العدو بشدة ، فهزم البشكنس شر

هزيمة ، وقتل منهم عدد جم ، وتسمى هذه الواقعة في الرواية الإسلامية بموقعة البيضاء ، وهي محلة صغيرة مجاورة لبقيرة (١) .

* * *

وفي أواخر عهد عبد الرحمن ، هبت على نصارى قرطبة ريح شديدة من التعصب ، ولاحت في الأفق بوادر فتنة دينية واجتماعية خطيرة . ولم يك في نظم الحكم الإسلامي ، ما يقصد إلى إيذاء النصارى المستظلمين بلوائه ، ولم تشذ حكومة قرطبة عن سياسة التسامح الإسلامى المأثور ، ولم تحاول تدخلها في شئون النصارى للدينية أو تعرضاً لعقائدهم أو شعائهم ، بل كان النصارى في قرطبة وغيرها ، أحراراً في عقائدهم وشعائهم ، والاحتكام إلى شرائعهم وقضائهم ، وكثيراً ما تبوأوا مناصب الثقة والمسئولية في الجيش وفي الإدارة ، وكثيراً ما حاربوا مع إخوانهم المسلمين جنباً إلى جنب ، وكانت أغلبية كثيرة منهم تشتغل بالتجارة في الثغور والمدن ، ويشغل عامتهم في ضياع المسلمين دون إكراه ولا عنت ، وكانت منهم مجتمعات زاهرة رغدة في قرطبة وغيرها ، بل كثيراً ما بهرتهم الفصاحة العربية فانطلقت بها أسننتهم ووضعوا بها كتبهم ، وكثيراً ما تخلقوا بأخلاق المسلمين وعاداتهم ، ونهجوا نهجهم في الحياة الخاصة . بيد أنه كان ثمة فريق آخر من النصارى المتعصبين الذين يرون في سادتهم المسلمين أجنب غاصبين ، معتدين على دينهم وأوطانهم ، وكان أولئك الغلاة يبغضون إخوانهم من النصارى المعتدلين ، ويرمونهم بالمروق والحيانة ، وكان رجال الدين ، وهم في الأصل مبعث التعصب ودعامته ، يبذرون بذور الشقاق ، ويضرمون نار الفتنة ، ويوغرون قلوب الغلاة والمتطرفين ، باسم الدين ، وكانوا يبغضون المسلمين أشد البغض ويسخرون من دينهم ونيبهم ، ويجاهرون بهذا التحامل والبغض للنبي العربى وتعاليمه ، ويعتمدون في معرفتهم للإسلام ونيبه ، على طائفة من الخرافات والأباطيل التى يتناقلها القسس في كل عصر ومكان . يقول دوزى : « ولم يك ثمة أيسر عليهم ، وقد كانوا يعيشون بين المسلمين من الوقوف على الحقيقة ، ولكنهم كانوا يرفضون أن يستقوا من المصادر التى كانت لديهم ، وكان يسرهم أن يعتقدوا وأن يعيدوا كل الخرافات السخيفة التى أذيعت عن نبي مكة » (٢) .

(١) ابن حيان (مخطوط القرويين) لوحة ١٩٣ أ . وبقيرة هي بالإسبانية **Viguera** .
(٢) **Dozy : Hist, I, p. 317 et suiv.** . ويخصص دوزى لهذا البحث حيزاً كبيراً ، وتحمله فزعة من التعصب في إيراد الوقائع ووصفها ، وهو يعتمد هنا بالأخص على مصادر كنيسية معاصرة .

ويقدم إلينا المستشرق سيمونت ، وهو عمدة العلماء الإسبان في الكتابة عن تاريخ « النصارى المعاهدين » Los Mozárabes التفاصيل الآتية ، عما يصفه بأنه « البطولة التي تدرعت بها النصرانية في قرطبة في مقاومة فورات الإلحاد الإسلامي » . ويرى سيمونيت أن قرطبة كانت من المعسكرات الرئيسية للحرب المدمرة التي شهرها الإسلام على النصرانية . وبالرغم عن أنه يعترف بأن الإسلام لبث مدى قرن يحتفظ بقدر من التسامح نحو المستعربين ، وقت أن كان في حاجة إلى خدماتهم ومعاونتهم ، فإنه يقول إن الإسلام لما شعر بقوته ، لم يبد تسامحاً إزاء انتعاش الروح النصراني ، الذي بدا يسيطر على فريق كبير من الشعب النصراني . ثم يتحدث سيمونيت بعد ذلك عن « المظالم وصنوف الاضطهاد التي كان النصارى يقاسونها ، ليس فقط من عامة أهل قرطبة بل من حكومة قرطبة ذاتها » . ثم يقول : « وقد كانت هذه السياسة منافية للعهود والقوانين التي منحت للوطنيين (الإسبان) أيام الفتح . وقد كان الطغيان الإسلامي شديد الوطأة على ضحايا النصارى الوطنيين وأملاكهم وكرامتهم معاً » .

ويعني سيمونيت على أمراء قرطبة ، أنهم احتفظوا بحقوق وامتيازات ضد النصارى لإخضاعهم ، وأنهم كانوا مثل القوط يدعون لأنفسهم حق تعيين الأساقفة وعزلهم ، وحق عقد المجالس الدينية التي يمثلهم فيها بعض المسلمين أو النصارى المرتدين ، ويسندون وظائف الأساقفة في أحيان كثيرة إلى رجال من طراز منحط ، يملقون الأمراء ويخدمونهم .

ولم يك استبداد الأمراء أقل وطأة على أملاك المستعربين وثوراتهم ، إذ كانوا حرصاً على سلامتهم يؤدون للخزانة مزايا عظيمة ، في شكل جزية وضرائب تنبو عن طاقتهم . وقد كان تسامح المسلمين لا يغتتم في الظروف العادية إلا بالعرف والدم . ثم جاءت الأيام التي كان يقاسى فيها النصارى كل شيء ، ليحتفظوا بحرية دينهم ، وينتزع كل يوم منهم مغارم أكبر ، هذا فضلا عن الضرائب العادية ، وقد كانت فادحة في ذاتها تفرض عليهم بمختلف الحجج والأعذار .

وقد وصلت هذه المغارم إلى ذروتها في عصر عبد الرحمن الثاني الأمير الباذخ ، ومحمد الأول الأمير القاسي ، الذي حصل من نصارى قرطبة بواسطة الكونت سواندا على مبلغ مائة ألف « سويلدو » .

ويتحدث سيمونيت بعد ذلك عن تعصب المسلمين ، ويقول إن تعصب العرب ضد الأجانب وامتيازهم لهم ، وصل إلى الذروة في النصف الأول من القرن التاسع ، وكذا وصل إلى الذروة تزلت البربر الوحشى ، وتزلت الإسبان المسلمين (المولدين) الذين اتخذوا الارتداد عن دينهم سيلا إلى بلوغ الرخاء ، وكانوا لكي يحوا ذكرى أصولهم المسيحية ، أشد تعصباً ضد النصارى من المسلمين أنفسهم . كان هؤلاء وهؤلاء يعنون في إهانة النصارى واضطهادهم بشتى المظاهر ، ولاسيما رجال الدين والقساوسة ، وكانت موجة هذا الاضطهاد تشتد كلما جاءت الأخبار بانتصار نصارى الشمال ، أو قيام المولدين في طليطة أو غيرها .

هكذا يتحدث سيمونيت عن « تعصب » المسلمين ضد رعاياهم وإخوانهم النصارى المعاهدين . ومع ذلك فإن سيمونيت يعترف بأن كثيراً من نصارى قرطبة ، كانوا يخدمون في الجيش الإسلامى جنداً أو ضباطاً ، وأن كثيراً منهم وصل إلى وظائف هامة في البلاط والقصر الملكى ، وفي قصور أكابر المسلمين . ويصف سيمونيت تأثير المجتمع الإسلامى ، وعظمته ولغته وتقاليدته ، في نفوس النصارى في قوله :

« هذا ، وقد كان يأسر الشباب النصرانى منظر العظمة المادية والحضارية ، التى تفوقت بها قرطبة المسلمة على قرطبة النصرانية ، وما كانت تقترن به هذه العظمة من المظاهر الأدبية والفنية ، التى بثها عبد الرحمن بحبه للشعر والفلسفة والموسيقى .

وكان من مظاهر تأثير الشباب النصرانى أنهم كانوا يكتبون ويتكلمون العربية ، محققين دراسة اللغة والآداب اللاتينية ، وهو أمر كان شديد الخطر على وطنيتهم ودينهم .

وفي النصف الأول من القرن التاسع ، لم تكن اللغة والآداب العربية فقط ، بل وكذلك الأفكار والتقاليد الإسلامية ، قد انتشرت بين المستعربين الإسبان . وهذا ما تشير إليه وثيقة هامة كتبها نصرانى قرطبى معاصر هو ألبرو القرطبى Alvaro Cordubense فى سنة ٨٥٤ م عنوانها Indicalo Luminoso ، وفيها يصف بقوة وبلاغة ، الذعر الذى أصاب « الأشراف الكرماء البواسل الذين كانوا يحتفظون بالعاطفة المسيحية والوطنية الإسبانية » وكيف أن شاباً من

النصارى يمثلون حياة وقوة وفصاحة ، يتقنون اللغة العربية ، ويبحثون بشغف عن الكتب العربية ويدرسونها بعناية ، ويمتدحونها بحماسة ، هذا في حين أنهم يجهلون جمال الآداب الكنسية ، ثم يبدى آله من أن النصارى يجهلون شريعتهم ولغتهم اللاتينية ، وينسون لغتهم القومية^(١) .

وهذه التفاصيل التي يقدمها إلينا العلامة سيمونيت عن أحوال المجتمع النصراني في قرطبة ، هي تفاصيل مفيدة قيمة ، ولكنها تم عن كثير من التحامل ، وتصور وجهة نظر الكنيسة بأسلوب مغرق متمت . وهي تغضى عن تلك الحقيقة الهامة ، وهي أن النصارى المستعربين وهم من رعايا الحكومة الإسلامية ، ويتمتعون تقريباً بكامل حقوق إخوانهم المسلمين ، يدينون لهذه الحكومة بالطاعة ، واحترام القانون والنظام . ولئن كانت ثمة بعض قيود لحقوقهم ، فإن سن هذه القيود لا يرجع إلى عدم التسامح ، ولكنه يرجع إلى روح العصر ذاته .

بيد أن العوامل الدينية لم تكن وحدها مبعث هذا التحامل ، الذي يضطرم به نصارى قرطبة نحو الحكومة الإسلامية ، بل كان للعوامل الاجتماعية أيضاً أثرها في إذكائه . ذلك أن القسس والمتعصبين كان يحفظهم ويثيرهم ، ما يحيط بالحكم الإسلامي من مظاهر الإعزاز والسؤدد ، وما تبديه الهيئة الحاكمة من مظاهر الأبهة والفخامة ، وما ينعم به المجتمع الإسلامي ، من حياة رغدة رفيعة . وكان يذكى هذا الحقد في نفوسهم ما يعانونه من خشونة عامة قرطبة وتعريضهم وتحاملهم . وهكذا بلغ تعصب النصارى أقصاه في عهد عبد الرحمن ، وبدا منذراً بشر العواقب . وكان في وسع أولئك المتعصبين في المدن البعيدة عن قرطبة مثل طليطلة وغيرها ، أن يرفعوا علم الثورة ، وأن يقاتلوا حكامهم وجهاً لوجه ، ولكن الثورة في قرطبة كانت أمراً عسيراً . فحاولوا عندئذ أن ييشوا بذور الفتنة الطائفية والفوضى الدينية والاجتماعية ، وأن يحاولوا الاستشهاد بطريق الاشتباك والتحدى . وعمد القسس والمتعصبون إلى تحقيق غايتهم بوسيلة بسيطة خطيرة معاً ، هي المحاربة بسب النبي العربي ودينه ، وهي جريمة شنعاء تعرض مرتكبها لعقوبة الموت ، وأخذ بعض الغلاة من القسس والمتعصبين الهائمين ينزلون عامدين إلى

(١) راجع هذا الفصل في مؤلف سيمونيت الضخم : *Historia de los Mozarabes de*

هذا المنحدر الخطر ، ويوجهون السب المثير إلى النبي العربي في الطرقات جهراً ، فإذا أخذوا أمام القضاة كرروا سبابهم بمنتهى الإصرار والجرأة . وحاول القضاة في البداية استعمال الرفق واللين ، وإقناع أولئك العابثين بالعدول عن أقوالهم ، ولكنهم ألفوا أنفسهم أمام سلسلة مدبرة من الجرائم الماثلة ، فلم يترددوا عندئذ في الحكم على القاذفين بالموت ، وهكذا أزهق بتلك الطريقة عدة من القسس والمتعصبين في فترة وجيزة من صيف سنة ٨٥١ م (٢٣٧ هـ) ، وكان الأحبار يكرمون رفات القتلى ، ويسبغون عليهم صفة الشهداء ، ويزيدون بذلك في اضطرام الفتنة . وكان في مقدمة المنظمين لهذه الحركة قس من قرطبة يدعى « أولوخيو » ، كان يعمل على تحريض أولئك « الشهداء » المزعومين ، ودفعهم إلى برائن الموت .

ويصف لنا العلامة المتزن ألتاميرا ، تلك المؤامرة المنظمة فيما يأتي : « اتبع الأمراء المسلمون سياسة التسامح الديني منذ الفتح . وكان أشرف العرب يحترمون النصراري ، ولكنهم لم يستطيعوا منع الدهماء في أوقات الحماسة المغرقة ، من إهانة القسس حينما يسيرون في الشوارع فرادى أو في مواكبهم . وكانت هذه الحوادث وأمثالها تثير سخط النصراري ، وأدى ذلك بمضى الزمن إلى حقد الوردعين ولاسيما القساوسة . وحاول النصراري عن طريق آخر ، أن يحدثوا فورات تحطم النبر الإسلامي . فطلبوا الاستشهاد بالطنع في محمد أمام الناس والسلطات ، وأعدموا لأن القانون يعاقب بالموت على ذلك . ولم يقتصر الاندفاع في ذلك الطريق على المدنيين ، بل اندفع فيه كذلك قساوسة عقلاء مسلمون ، وكان من هؤلاء أولوخيو وألبارو ، ولم يجد هؤلاء طريقة أفضل للاحتجاج على الإسلام من الطعن فيه ، وتقديم حياتهم قرباناً للدين الكاثوليكي » (١) . وأدرك عبد الرحمن دقة الموقف وخطورته ، ورأى أن يعالجه بالحزم والنهزم معاً ، فاستدعى مجلساً من الأساقفة ، عقد في قرطبة برئاسة ريكافرد مطران إشبيلية ، ومثل الأمير فيه أحد كتابة النصراري ، وهو جومث بن أنطونيان بن خوليان عامل أهل الذمة (٢) ، وشرح للأساقفة

(١) R. Altamira : Hist. de Espana , Vol. I. p. 230

(٢) ويسميه ابن القوطية قومس بن انتنيان بن يايانة وقد اعتنق الإسلام فيما بعد (ص ٨٣) . وكذلك يذكره الخشني في كتاب قضاة قرطبة ويسميه أيضاً قومس بن انتنيان . راجع كتاب قضاة قرطبة (القادرة) ص ١١١ .

ما يمكن أن يترتب على أعمال المتطرفين وسبهم للنبي من العواقب الخطيرة بالنسبة للنصارى. ولم يعترض المجلس على مبدأ الاستشهاد في ذاته ، ولكنه أصدر قراره باستهجان مسلك أولئك المتطرفين ، وتحذير النصارى المخلصين من حذو مسلكهم ، ووجوب اعتقال كل مخالف (١). ولكن قرار الأساقفة لم يكف لتسكين فورة التعصب المزبد ، وتمادى المتطرفون أنصار أولوخيو في غيهم ، وزج إلى السجن منهم كثيرون ، ومنهم أولوخيو نفسه ، وكان بين المعتقلين بضع فتيات مسلمات بمولدهن من آباء مسلمين وأمهات نصارى ، ولكن أضلهن الأمهات والقسس ، ودفعن إلى التنصر وسب النبي ، وكان منهن فتاة رائعة الحسن تدعى فلورا ، عرفها أولوخيو وهام بها حباً .

وقصة هذه الفتاة حسبما يرويها سيمونيت ، توضح لنا طريقة التحدى والاستثارة التي اتبعها المتطرفون لإحداث الشغب . فقد كانت فلورا ابنة مسلم من زوجه النصرانية ، وتوفى أبوها وهي ما تزال طفلة ، فربتها أمها على مبادئ المسيحية . وكانت بالرغم من جمالها تبدي تحفظاً ونسكاً ، وتزور الكنائس خفية لخوفها من أخيها الأكبر ، وهو مسلم شديد التعصب . ثم فرت من دار أهلها ، وتبعها أخوها في كل مكان ، فعادت إلى منزلها ، وأعلنت لأخيها تمسكها بدين النصرانية ، ولم ينجع في ردها الضرب والوعيد . فأخذها أخوها إلى القاضى ، وأبلغه بأن أخته القاصر قد ضلت واعتنقت الدين المسيحى ، وأنها تسب النبي ودينه ، واعترفت فلورا بأنها نصرانية منذ طفولتها ، وتمسكة بدينها . ومع أن هذا الاعتراف بالردة يستحق عقوبة الموت ، فإن القاضى اكتفى بتقرير ضربها ضرباً مبرحاً ، أملاً في أن تعود إلى صوابها . فاحتملت الفتاة العقوبة بجلد ، وحملت إلى دارها منهوكة القوى ، وصبرت أياماً حتى برئت من مرضها ، ثم فرت من الدار ذات ليلة ، وسارت هائمة على وجهها ، حتى لجأت إلى دار نصرانى في بلدة « مرتش » القريبة ، والظاهر أن القس أولوخيو رآها هنالك ، وأعجب بجأها وحشمتها وورعها ، وشعر نحوها بحب سماوى عميق .

ثم عادت فلورا بعد حين إلى قرطبة مواجهة كل خطر ، معززة الاستشهاد ، ولجأت إلى كنيسة سان إنيسكولو ، وكانت قد لجأت إليها أيضاً فتاة نصرانية

أخرى تدعى ماريا ، وكانت إبنة رجل نصراني من لبلبة ، وأم مسلمة تنصرت . وربيت ماريا في الدير تربية دينية خالصة ، كما ربي أخوها الأكبر فيه . ولما توفي أخوها وجدت عليه وجداً شديداً ، وسارت إلى قرطبة تبغى الاستشهاد ، ولحأت إلى نفس الكنيسة التي لحأت إليها فلورا . واعتزمت الفتاتان أمرهما وذهبتا إلى دار القضاء ، وقالت فلورا للقاضي إنها إبنة مسلم ، ولكنها اعتنقت النصرانية وأخلصت لها ، وأن المسيح هو الإله الحق ، وأن النبي محمد ، هو نبي زائف ... الخ^(١) . وكذلك قالت ماريا إنها تؤكد من كل قلبها أن يسوع هو الرب الحقيقي ، وأن الإسلام دين الشيطان . فأمر القاضي بإيداعهما السجن . وكان فيه بطريق الصدفة أولوخيو مقضياً بحبسه أيضاً ، فعكف على وعظ الفتاتين ، وحثهما على الاستشهاد في سبيل المسيح .

وحاول القاضي نصح الفتاتين ، ولكنهما أصرتا على موقفهما وعلى مطاعنهما . وأخيراً أصدر القاضي حكمه بإعدامهما ، وذلك في ٢٤ نوفمبر سنة ٨٥١ ، وأخذنا إلى ساحة الإعدام ، وهناك أبدت كلتاها إشارة الصليب ، ثم أعدمنا بقطع الرأس ، وألقيت جثتها إلى النهر ، واستطاع النصارى العثور على جثة ماريا وحدها ، فأخذوها مع رأسى الفتاتين . ونظمت فلورا فيما بعد في سلك القديسين^(٢) . هكذا بروى سيمونيت قصة فلورا وزميلتها ، ومهما كان في أسلوبه من رواء القصة المشجعة ، فإن في وقائعها ما يلقي ضوءاً على خيوط المؤامرة التي درها نصارى قرطبة ، وفي مقدمتهم القسس ، لإثارة الفتنة الطائفية والإخلال بالنظام والأمن ، وهي محاولة لا يمكن لأية حكومة منظمة أن تغضى عنها . واستمرت هذه الفتنة المضطربة مدى حين ، وتدرعت حكومة قرطبة في إخمادها بالحزم والشدة ، وزهق من المتعصبين عدة آخر ، ومن بينهم أولوخيو الذي نظمته النصارى فيما بعد في ثبث « القديسين » .

وهكذا شغل عبد الرحمن في أواخر عهده بتلك الفتنة الدينية الخطيرة ، ولكن المتعصبين لم يحققوا منها ما أملاوا ، وكانت بالعكس مثار السخط والإنكار من جانب النصارى المعتدلين ، الذين يقدرتون تسامح الحكومة الإسلامية ورفقها ورعايتها .

* * *

(١) لم نر مجالا لإيراد بقية المطاعن التي أوردها سيمونيت على لسان فلورا وهي مطاعن مقدعة .

(٢) Simonet : Hist. de los Mozarabes, Vol. I. p. 413-422

وتوفى عبد الرحمن بن الحكم في الثالث من ربيع الثاني سنة ٢٣٨ هـ (٢٣) سبتمبر ٨٥٢ م) في الثانية والستين من عمره ، بعد أن حكم إحدى وثلاثين عاماً وبضعة أشهر . وكان أسمر طويلاً ، وسيم الحيا ، أشم ، أقي ، أعين ، أسود العينين ، بهي الطلعة ، بهيج الزى ، كبير اللحية . نقش خاتمة : « عبد الرحمن بقضاء الله راض »^(١) ، ويكنى أبا المطرف ، ويعرف بعبد الرحمن الأوسط أو الثاني ، والأول هو جده عبد الرحمن الداخل ، والثالث هو عبد الرحمن الناصر . وكان مثل أبيه الحكم ، أميراً وافر البأس والعزم ، رفيع الخلال ، يسمو بمكانته ويحتجب عن العامة ، ويعشق مظاهر البذخ والفخامة . وفي عهده وصل البلاط الأموي إلى درجة لم تسبق من البهاء والروعة ، وبدأت الأرستقراطية العربية في أبداع مظاهرها ، وسطعت الفروسية الأندلسية ، وتجت خلاها الباهرة التي غدت فيما بعد مثلاً يحتذى في مجتمعات العصور الوسطى ، وعنها اقتبست فروسة النصرانية فيما تلا من العصور . ورتبت رسوم المملكة أبداع ترتيب ، ورفع من شأن الوظائف العامة ، وأحيطت بسياج من الهيبة والمسئولية ، وجعل « أحكام السوق » منصباً مستقلاً عن ولاية المدينة ، واتبعت رسوم الخلفاء في الزينة والشكل وترتيب الخدمة^(٢) ، ووضعت خطة الوزارة المنظمة .

وتنوه الرواية الإسلامية بمقدرة عبد الرحمن ، وحسن اختياره لرجال حكومته . فيقول لنا الرازي : « وانتقى الرجال للأعمال ، واستوزر الأكفاء ، من أهل الاكتفاء ، وقدوة الأبطال ذوى الغناء ، فظهر في أيامه جلة الوزراء وكبار الفقهاء » . وكان من وزرائه عدة من أعظم وألمع رجال العصر ، مثل الحاجب عبد الكريم ، والقائد عيسى بن شهيد ، ويوسف بن بخت ، وهاشم بن عبد العزيز ، وعبد الرحمن بن رستم ، وحسن بن عبد الغافر بن أبي عبده ، ومحمد بن السليم ، ومحمد بن عبد السلام بن بسيل ، وعبد الواحد بن يزيد الإسكندراني ، وغيرهم . وكان الوزراء يختلفون إلى القصر بطريقة منظمة للبحث والمداولة وإبرام الشئون في جناح خاص ، سمي « بيت الوزراء » ، وانتهت

(١) ابن الأثير ج ٧ ص ٢٢ ؛ وابن حيان عن الرازي ، المخطوطة الأولى ص ١١١ ؛ والثانية لوحة ١٩٤ ب

(٢) ابن الأبار في الحلة السيرة ص ٦١ ؛ والبيان المغرب ج ٢ ص ٩٣ .

أرزاق الوزراء يومئذ إلى ثلاثمائة وخمسين ديناراً في الشهر (١) .

وتفيض الرواية في مناقب هذه الجمهرة من الوزراء والقادة ، الذين اجتمعوا في بلاط عبد الرحمن بن الحكم ، وتصنفهم بأنهم «عصابة من سراة الوزراء ، أولى الحلوم والنهى ، لم يجتمع مثلها عند أحد من الخلفاء قبلهم ولا بعدهم» . ويتقدم هذا الثبت الحافل رجلاً ، كان لها في تنظيم حكومة عبد الرحمن وسياسته أعظم الأثر ، أولها الحاجب عبد الكريم بن عبد الواحد بن مغيث حاجب أبيه الحكم من قبل ، وهو الذى يصفه الرازى بأنه « أكمل من حمل هذا الاسم ، وأجمعهم لكل جملة حسنة» . وكان عبد الكريم ، فضلاً عن براعته الإدارية ، مثل جده مغيث فاتح قرطبة ، من أعظم قادة هذا العصر ، وقد قاد حسباً تقدم في مواضعه ، عدة من الحملات الغازية المظفرة . ولما توفى في سنة ٢٠٩ هـ (٨٢٤ م) خلفه في الحجابة سفيان بن عبد ربه وهو من البربر ، ولم تكن له نباهة سابقة ، ثم عيسى بن شهيد ، وهو ثانى الرجلين . وكان عيسى من أعيان موالى بنى أمية ، وكان أيضاً من وزراء الحكم ، أوصى به ولده عبد الرحمن ، فلما ولى الأمر قدمه على خاصته ، ثم ولاه خطة الخليل ، ثم خلع عليه رتبة الوزارة ، وعهد إليه بالنظر في المظالم ، وتنفيذ الأحكام على طبقات أهل المملكة . ثم ولاه الحجابة بعد سفيان . واشتهر عيسى بالحلم والوقار وحصافة الرأى ، والمعرفة والخزالة ، وقاد كثيراً من الصوائف المظفرة . بيد أنه استهدف لخصومة الفتى نصر الخصى المسيطر على شئون القصر ، والأثير لدى الأمير بمظاهرتة لحظيته طروب ، فلبث يدس له ويعمل على إقصائه عن الحجابة ، حتى تم له ذلك ، حينما مرض عبد الرحمن وطال احتجابه . وعين مكانه للحجابة عبد الرحمن بن رستم . فلما أبلى الأمير من مرضه أنكر ما وقع ، وأنحى باللائمة على نصر ، وأعاد عيسى بن شهيد إلى الحجابة ، فلم يزل على حجابته حتى توفى عبد الرحمن . قال ابن القوطية : « لم يختلف أحد من شيوخ الأندلس في أنه ما خدم ملوك بنى أمية فيها أحد أكرم من عيسى بن شهيد غاية ، ولا أكرم اصطناعاً ، ولا أدعى لذمته . ولقد كان الحاجب قبله عبد الكريم ابن عبد الواحد بن مغيث بهذه الصفة ، على زيادة خصاله وأدواته على عيسى ،

(١) ابن القوطية ص ٦١ ، ٦٢ ، وكذلك مخطوط ابن حيان ص ١٤٤ . ومخطوط القرويين

إلا في باب كرم الصنيعة واستتمامها ، فلم يك تفصله درجة (١) .
وتولى الكتابة للأمير عبد الرحمن عدة من الكتاب المبرزين ، في مقدمتهم الحاجب
عبد الكريم ، وقد كان أيضاً كاتباً بليغاً وشاعراً جزلاً ، وعبد الله بن محمد
ابن أمية بن أبي حوثة ، ومحمد بن أبي سليمان الزجاجي وهو من برابرة نفزة ،
وكان كاتباً بارعاً ، واشتهر بقوته في الحفظ حتى أنه سمي « بالأصمعي » ،
واشتهر أبناؤه من بعده في ميدان الكتابة .

وكان ممن كتبوا للأمير عبد الرحمن أيضاً الأسقف جومث (قومس) بن أنطونيان
عامل أهل الذمة ، وكان أديباً بارعاً ، وكاتباً مقتدرأ ، وكان عبد الرحمن يعهد
إليه بالمهام الخطيرة ، وخدم من بعده ولده الأمير محمد (٢) .

واجتمعت في عهد الأمير عبد الرحمن أيضاً جمهرة من جلة الفقهاء والقضاة ،
رحل معظمهم إلى المشرق في طلب للعلم وانتقاء الرواية ، ومن هؤلاء محمد بن
يوسف بن مطروح ، ومحمد بن حارث ، وعبد الأعلى بن وهب ، وبق بن
مخلد ، ومحمد بن وضاح ، ويحيى بن إبراهيم بن مدين ، وعيسى بن دينار ،
ويحيى بن يحيى . وقد اشتهر بعض هؤلاء من قبل في عهد أبيه الحكم . وكان يتقدم
هذه الجمهرة من الفقهاء في المكانة والنفوذ ، عبد الأعلى بن وهب ، ويحيى
ابن يحيى ، وعبد الملك بن حبيب . وكان يحيى بن يحيى عميد الفقهاء وشيخ قرطبة
الأول ، وأصله من برابرة مصمودة ، ودرس في المشرق على مالك ، والليث بن سعد
وابن وهب وغيرهم ، وتولى الفتيا بعد عيسى بن دينار ، ولبث حتى وفاته في
سنة ٢٣٤ هـ يتبواً أسمي مكانة . وكان ممن اتهموا بالتحريض على ثورة الربض
وفر عقب إخماد الثورة إلى طليطلة ، ثم استأن من الحكم فأمنه وعاد إلى قرطبة .

وخلفه في علمه ومكانته عبد الملك بن حبيب ، وغدا أثير الأمير ، لا يقدم
عليه أحداً ، ولا يعدل بمشورته أحد . وكان عبد الملك فوق براعته في الفقه
والحديث ، متقدماً في علوم اللغة ، والعلوم القديمة ، بارعاً في الأدب ، وكتب
كتاباً في إعراب القرآن وشرح الحديث وفي الأنساب وغيرها (٣) .

(١) تاريخ ابن حيان (مخطوط للقرويين) لوحة ١٩٦ أ و ب و ١٩٧ أو ١٩٨ أ .

(٢) راجع قضاة قرطبة للخشني ص ١١١ .

(٣) تاريخ ابن حيان (مخطوط القرويين) لوحة ٢٠١ ب و ٢٠٢ أ .

وَيُخَصِّصُ ابْنَ حِيَانَ لِذِكْرِ قِضَاةِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ ، وَأَخْبَارِهِمْ ، وَنَوَادِرِهِمْ وَالتَّعْرِيفِ بِهِمْ ، نَبْذاً طَوِيلَةً رَأَيْنَا أَنْ نَكْتَفِي بِالِإِشَارَةِ إِلَيْهَا^(١).

وَحَذَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ حَذُوَ أَبِيهِ أَيْضاً ، فِي اصْطِفَاءِ الْمَوَالِي وَالصَّفَالِبَةِ ، وَابْتِنَاعِ أَنْصِبَةِ أَخُوْتِهِ مِنْ مَمَالِيكِ أَبِيهِ « الْعَجْمِ » ، وَكَانُوا خَمْسَةَ آلَافٍ مَمْلُوكٍ ، ثَلَاثَةَ آلَافٍ فَارِسٍ يَرَابِطُونَ لِإِزَاءِ بَابِ الْقَصْرِ ، فَوْقَ الرَّصِيفِ ، وَالْفَارِجِ عَلَى أَبْوَابِ الْقَصْرِ وَكَانُوا يُسَمَّوْنَ « الْخُرُصَ » لِعَجْمَتِهِمْ^(٢) . وَسَمَا نَفُوذَ الْفَتِيَانِ يَوْمَئِذٍ فِي الْبِلَاطِ ، وَكَانَ زَعِيمُهُمُ الْفَتَى نَصْرَ الْمُتَصَرِّفِ فِي شَتُونِ الْقَصْرِ الْخَاصِ ، وَكَانَ يَتَمَتَّعُ بِأَعْظَمِ نَفُوذٍ فِي الْقَصْرِ وَالدَّوْلَةِ ، بِمُوَازَرَةِ طُرُوبِ جَارِيَةِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ .

وَكَانَ نَصْرَ هَذَا وَيَكْنَى أَبُو الْفَتْوَحِ ، مِنْ الْفَتِيَانِ الْمُخْتَارِينَ الَّذِينَ اشْتَهَرُوا بِالْحِمَالِ وَالظَّرْفِ ، وَأَمْرَ الْحَكْمِ بِخَصِيمِهِمْ ، وَأَصْلَهُ مِنْ أَبْنَاءِ الْأَحْرَارِ الَّذِينَ حَشَدُوا لِلْخِدْمَةِ دَاخِلَ الْقَصْرِ ، وَكَانَ أَبُوهُ مِنْ أَسْمَالَةِ أَهْلِ الذِّمَّةِ (الْمَوْلِدِينَ) مِنْ أَهْلِ قَرْمُونَةَ^(٣) . وَلَمَّا وُلِيَ عَبْدِ الرَّحْمَنِ ، قَدَّمَهُ عَلَى سَائِرِ خَاصَّتِهِ ، وَغَدَا مَدِيرَ أَمْرِ دَارِهِ ، وَمَشَارِكاً لِأَكْبَارِ وَزَرَائِهِ فِي تَصْرِيفِ الشُّتُونِ . وَتَضَاعَفَ نَفُوذُهُ وَمَكَانَتُهُ بِمُحَالَفَتِهِ لِجَارِيَةِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ الْأَثِيرَةِ طُرُوبِ ، صَاحِبَةِ النُّفُوذِ الْقَوِيِّ . وَكَانَ مِنْ أَشْهَرِ أَعْمَالِ نَصْرِ قِيَادَتِهِ لِحَيُوشِ الْأَنْدَلُسِ الَّتِي حَشَدَتْ لِمُقَاتَلَةِ النُّورْمَانِيِّينَ فِي أَرْضِي إِشْبِيلِيَّةِ ، وَانْتِصَارِهِ عَلَيْهِمْ . وَاسْتَمَرَ نَجْمُ نَصْرِ فِي صُعُودِ ، وَنَفُوذِهِ فِي تَمَكُّنِ ، حَتَّى غَدَا أَعْظَمَ رِجَالِ الدَّوْلَةِ ، وَأَمْضَاهُمْ أَمْرًا ؛ وَكَانَ مَرْهُوبِ الْجَانِبِ ، بِخِشَاءِ الْأَكْبَارِ وَالْخَاصَّةِ . تَوَفَّى فِجَاءَةً فِي أَوَاخِرِ سَنَةِ ٢٣٣ هـ (٨٤٨ م) ، « أَرْتَقَى مَا كَانَ فِي غُلُوثِهِ ، وَأَطْمَعُ مَا هُوَ بِالِاحْتِوَاءِ عَلَى أَمْرِ سُلْطَانِهِ ، أَرْهَبُ مَا كَانَ النَّاسُ لَهُ ، وَأَخُوفُهُمْ لِعُدْوَانِهِ ، إِذْ نَالَ مِنْ أَثَرَةِ مَوْلَاهِ الْأَمِيرِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ وَاصْطَفَاةِ ، فَوْقَ مَا نَالَ خَادِمِ خَاصِ ، مَعَ أَمِيرِ رَشِيدٍ » . فَتَنَفَسَ النَّاسُ الصَّعْدَاءُ ، وَسَرُّوا لُوفَاتِهِ ، وَالتَّخْلَصَ مِنْ طَغْيَانِهِ^(٤).

(١) مَخْطُوطِ الْقُرُوبِيِّينَ الْاَلْوَحَاتِ ٢٠٢ أ حَتَّى ٢١١ أ .

(٢) نَطُوطِ ابْنِ حِيَانَ ص ١٤٥ .

(٣) ابْنُ حَزْمٍ فِي رِسَالَةِ نَقْطِ الْعُرُوسِ ص ٧٣ . وَيَقُولُ ابْنُ حَزْمٍ إِنْ نَصْرًا هَذَا هُوَ الَّذِي تَنْسَبُ إِلَيْهِ « مَنِيَّةُ فَصْرِ » وَهِيَ ضَاحِيَةٌ بَهِيمَةٌ كَانَتْ تَقَعُ عَلَى النَّهْرِ ، عَلَى مَسَافَةٍ قَصِيرَةٍ مِنْ شَرْقِ قَرْمُونَةَ .

(٤) تَارِيخُ ابْنِ حَيَّانَ (مَخْطُوطِ الْقُرُوبِيِّينَ) لَوْحَةٌ ١٩١ ب .

واستكثر عبد الرحمن أيضاً من اقتناء الجوارى الحسان ، وكان كلفاً شديداً الشغف بهن ، وكان يعنى باختيارهن من أطيب العناصر والأصول ، واجتمعت لديه منهن نخبة بارعة في الحسن والحلال ، مثل طروب أم ولده عبد الله ، وموئمة أم ولده المنذر ، وشفاء أم ولده المطرف ، وفخر ومتمعة وغيرهن ، وأنجب عبد الرحمن من الولد عدداً ضخماً بلغ وفقاً لابن حزم مائة ، خمسين من الذكور ، ومثلهم من الإناث ، وذكر الرازي أن عدد أولاده من الذكور أربعون ، وسماهم واحداً واحداً ، وأن عدد بناته ثلاثة وأربعون ، ذكر أسماءهن جميعاً (١) . وبلغ الجوارى كالفتيان من النفوذ مبلغاً عظيماً . واشتهرت من بينهن طروب حظية عبد الرحمن الأثيرة لديه ، وقد اشتد نفوذها في أواخر أيامه ، وظهرت نصراً الفتى ، فكانت لها الكلمة النافذة في معظم الشئون ، وكان عبد الرحمن يشغف بها أعظم شغف ، وهو القائل فيها :

إذا ما بدت لي شمس النهار طالعة ذكرتنى طروباً
وعنى عبد الرحمن بالمنشآت العامة أعظم عناية ، فزاد في مسجد قرطبة الجامع بهوين جديدتين من جانب القبلة ، وقام على عمارته الفتى نصر . وما زال هذا الجامع الشهير قائماً إلى اليوم بسائر عقوده الإسلامية ، وأروقته ومحاريبه . ولكنه حول منذ القرن السادس عشر إلى كنيسة قرطبة العظمى (كندراية) ، وبالرغم من أن الهياكل قد أقيمت في سائر عقوده الجائنية ، وأقيم في وسطه مصلى عظيم على شكل صليب ، فإنه ما زال يحمل بالإسبانية اسمه الإسلامي القديم « المسجد الجامع » La Mezquita Aljama ، وقد أزيلت قبابه ومعظم زخارفه الإسلامية ، لتحل مكانها الزخارف النصرانية . ولكن محاريبه الفخمة ، مازالت تحتفظ بنقوشها الإسلامية ، وآياتها القرآنية .

ويقع جامع قرطبة في طرف المدينة الجنوبي وسط شبكة من الدروب الأندلسية القديمة ، على مقربة من القنطرة الرومانية العربية القائمة على نهر الوادي الكبير . ويبلغ طوله ١٨٥ متراً وعرضه ١٣٥ متراً . وله عدة أبواب كبيرة فخمة ، مازالت تحتفظ بكثير من نقوشها الإسلامية . ويعرف بابه الرئيسي المقابل لصحنه

(١) راجع جبهة أنساب العرب لابن حزم (القاهرة) ، ص ٩٠ ، وابن حيان (مخطوط القرويين) لوحة ١٩٤ ب و ١٩٥ أ .

« باب النخيل » *Puerta de las Palmas* ، ويقع صحنه في ناحيته الشمالية ويعرف بفناء النارنج *Patio de los Naranjos* ، وهو صحن مستطيل شاسع يزدان بعدد من أشجار البرتقال (أو النارنج) ، وهو الآن صحن الكنيسة . وقد هدمت منارة الجامع ، وهي التي أقامها عبد الرحمن الناصر بجوار الصحن ، وأقيم مكانها برج الأجراس الحالي^(١) .

وأنشأ عبد الرحمن أيضاً مسجد إشبيلية الجامع ، كما ابنتى سورها الكبير عقب غزو النورمانين لها ، ووضع نظاماً جديداً للسكة وجعلها أندلسية مستقلة ، بقيم وأوزان جديدة . وكان أهل الأندلس يتعاملون من قبل بما يحمل إليهم من نقد المشرق ، أو بنقود تسك على نظامه ، في دار السكة التي أنشأها عبد الرحمن الداخل . وأنشأ أجنحة ومشارف جديدة للقصر ، وجلب إليه الماء العذب من قن الجبال ، وأنشأ على النهر الأعظم مما يلي سور القصر والمدينة رصيفاً عظيماً^(٢) . كما أنشأ بقرطبة عدة من الحدائق الغناء . وحذت جواريه حذوه ، فأنشأ في قرطبة عدة مساجد سميت بأسمائهن .

ويشير سيمونيت إلى عظمة قرطبة في عصر عبد الرحمن ويقول « إن عبد الرحمن كان يعشق البذخ الطائل ، وفي عهده حفلت قرطبة بطائفة من المساجد والقصور والقناطر والمنشآت المختلفة . وقد وصف قرطبة وعظمتها في عهده نصراني معاصر شهير وهو سان أولوخيو ، إذ يقول إن عبد الرحمن أسبغ على عاصمة مملكته لوناً خارقاً من العظمة ، ورفع من ذكرها ، وأفاض عليها حلال المجد ، وأغدق عليها الثروات ، وملاها بجميع مظاهر المتعة الدنيوية إلى حدود لا تصدق »^(٣) .

وكانت أيام عبد الرحمن أيام سكينه وأمن ورخاء ، وفيها ازدهرت الزراعة والصناعة والتجارة ، وورد على الأندلس كثير من الأمتعة والسلع الفاخرة ، وزخرت الأسواق بالبضائع . وزاد الدخل زيادة عظيمة ، وبلغت الحباية وحدها

(١) راجع وصفاً سهياً لجامع قرطبة وتاريخه، وخواصه الأثرية في كتابي : « الآثار الأندلسية الباقية في اسبانيا والبرتغال » (الطبعة الثانية) ص ٢٠ - ٣٤ .

(٢) كان القصر الأموي القديم يقع على ضفة النهر على مقربة من الجامع ، ويحثل موقعه اليوم القصر الأسقني والسجن الحلي ، والحدائق المجاورة التي ما زالت إلى اليوم ، تسمى حدائق القصر *Huertas del Alcazar* ، والمرجح أنها تقوم مكان حدائق القصر القديمة .

Simonet : *ibid* , Vol. I : p. 366 (٢)

زهاء ألف ألف دينار في السنة ، واستطاع الأمير أن ينفق بسخاء على تسيير الحملات الغازية ، وإقامة المنشآت المختلفة (١) .

وكان عبد الرحمن بن الحكم أديباً حسن التثقيف ، وكاتباً بليغاً مشرق البيان ، عالماً بالشريعة والحكمة (الفلسفة) ، مجيداً للنظم ، نصيراً للعلوم والآداب ، يحنثد حوله جمهرة من أكابر العلماء والأدباء والشعراء ، مثل العلامة الرياضى والفلكى عباس بن فرناس ، ويحيى الغزال ، وشاعره الخاص عبد الله بن الشمر بن نيمر ، وكان صديقه مذ كان ولياً للعهد ، وكان بارعاً فى الأدب والشعر والمنطق والتنجم ، وكان يكشف لعبد الرحمن نجمة وطالعه (٢) ، وعباس بن ناصح الجزيرى شاعر أبيه الحكم ، وعبيد الله بن قرلمان بن بدر مولى الداخل ، وكان من جلسائه وخاصته وكان أديباً بارعاً ، وشاعراً مجيداً . وغيرهم . ومن نظمه قوله :

ولقد تعارض أوجه لأوامر فيقودها التوفيق نحو صوابها
والشيخ أن يحو النهى بتجارب فشاب رأى القوم عند شبابها
وقوله وقد خرج غازياً إلى جليقية :

فكم قد تخطيت من سبب ولاقيت بعد دروب دروبا
الأتى بوجهى سموم الهجـ بر إذ كاد منه الحصى أن ينوبا
تدارك بي الله دين الهدى فأحييته وأمت الصليبا
وسرت إلى الشرك فى جفضل ملأت الحزون بها والسهوبا
ومن قوله فى الغزل :

قتلتنى هواكا وما أحب سواكا
من لى بسحر جفون تديره عينابكا
وحرة فى يياض تكسى به وجتناكا
أعطف على قليلا واحينى برضاكا
فقد قنعت وحسى أن أرى من رآكا

(١) راجع ابن القوطية ص ٦٧ ، وابن الأبار ص ٦١ ، والبيان المغرب ج ٢ ص ٩٣ و ٩٤ ،
وأخبار مجموعة ص ١٣٦ ، ونفح الطيب ج ١ ص ١٦٢ و ١٦٣ ، وابن الأثير ج ٧ ص ٢٢ ،
وفى مخطوط ابن حيان عما تقدم نبذ وتفصيل حسنة (ص ١٣٨ و ١٤٢ و ١٤٤) .
(٢) مخطوط ابن حيان ص ١٥٦ و ١٥٧ .

واشتهر عبد الرحمن بجنوه الجم على قرابته وذوى رحمه بدرجة لم يجاره فيها أحد من أهل بيته ، فكان يوليهم وافر عطفه ، ويجرى عليهم الصلوات السخية . وفي أيامه وفد من المشرق على الأندلس عدد من قرابته المروانية (بنى أمية) ، فاستقبلهم جميعاً أجمل استقبال ، وأنزلهم أكرم منزل ، وأجرى عليهم الأرزاق والإقطاعات الواسعة .

وكان عبد الرحمن يعشق الفلك والتنجم ، ويشغف بدراسته ، وكان العلامة للرياضي ابن فرناس ، وعبيد الله بن الشمر ، وعبد الواحد بن إسحاق الضبي من أساتذته في ذلك الفن ، وكان يقربهم ويجرى عليهم الأرزاق الواسعة ، وله معهم قصص ونوادير كثيرة . وكان أيضاً يعشق الغناء والموسيقى ، ويجمع حوله عدداً من أكابر الفنانين يجرى عليهم الأرزاق الواسعة . ووفد عليه من المشرق أبو الحسن علي بن نافع الملقب بزرياب نابغة الغناء والموسيقى ، وكان زرياب من تلاميذ الفنان الشهير إسحاق الموصلي مغنى الرشيد ، فلما ظهر نبوغه وشعر أبو إسحاق بخطورة منافسته ، تحيل في صرفه وإبعاده ، فغادر بغداد إلى المغرب ، وكتب إلى الحكم أمير الأندلس يستأذنه في الوفود عليه . فأذن له واستدعاه ، ولكن زرياب ما كاد يصل إلى المغرب حتى علم بوفاة الحكم ، وكاد ينثني عن عزمه في العبور إلى الأندلس ، لولا أن جاءه كتاب عبد الرحمن بدعوته والترحيب به ، فسار إلى قرطبة واستقبله عبد الرحمن بمنتهى الإكرام والحفاوة ، وأجرى عليه الأرزاق الواسعة ، وجعله من خاصة بطانته . وهر زرياب أهل الأندلس ببراعته في الغناء والموسيقى ، وطار صيته في كل مكان ، وأضحى قطب للفن الذي لا يجارى ، وأخذ عنه أهل الأندلس فنونه وإبداعه ، وتشبهوا به في مظاهر زيه وإناقته وطرائق معيشته . وتوفي في ربيع الأول سنة ٢٣٨ هـ (أغسطس ٨٥٢ م) قبيل وفاة عبد الرحمن بأسابيع قلائل . وكان لزرياب وفته أعظم الأثر في تكوين الفن الأندلسي في ظل الدولة الأموية ، ثم في ظل دول الطوائف^(١).

وشغف عبد الرحمن أيضاً بجمع الكتب ، وأوفد شاعره عباس بن ناصح إلى المشرق للبحث عن الكتب القيمة واستنساخها ، فجمع له منها طائفة كبيرة ،

(١) راجع نفح الطيب ج ٢ ص ١٠٩ وما بعدها ، وابن خلدون في المقدمة ص ٢٥٧ .

وكان أول من عنى بجمعها من أمراء الأندلس، وكانت جهوده في هذا السبيل فواة لإنشاء مكتبة قرطبة العظيمة .

* * *

وفي عهد عبد الرحمن سما شأن حكومة قرطبة الإسلامية ، وأخذت تنبواً مكانتها من الهبة والنفوذ ، بين مختلف القصور والحكومات النصرانية ، وتغلب مركز التوجيه للدبلوماسية الإسلامية في الغرب . والظاهر أن الدولة البيزنطية ، خصيمة الدولة العباسية في المشرق ، كانت تعتقد أنها تستطيع أن تصل بتفاهمها مع حكومة قرطبة الإسلامية ، إلى بغض النتائج العملية في مقاومة خصيمتهما المشتركة . ففي سنة ٨٤٠ م (٢٢٥ هـ) وفد على قرطبة سفير من قبل قيصر قسطنطينية الإمبراطور تيوفيلوس (توفلس) ، يدعى قرطيوس ، ومعه كتاب وهدية فخمة ، فاستقبله عبد الرحمن بحفاوة ، وكان القيصر يتوجه في كتابه إلى أمير الأندلس ، باسم الصداقة القديمة التي كانت قائمة بين الأوائل من خلفاء بني أمية وقيصرة بيزنطية ، ويشكو من الشكوى من فعال الخليفة المأمون وأخيه المعتصم وعيئهما في أراضيه ، ويشير إليهما في كتابه بابن مراجل وابن ماردة^(١) تحقيراً وازدراء ، كما يشكو إليه من استيلاء أبي حفص البلوطي وعصيته الأندلسية على جزيرة إقريطش (كريت) وهي من أملاكه ، ويطلب إليه عقد أوامر المودة والصداقة بينهما ، ويرغبه في ملك أجداده بالمشرق ، ويستنهض همته لاستردادها ، ويتنبأ له بقرب انهيار الدولة العباسية ، وزوال سلطانها ، ويعده بنصرته في ذلك المشروع . وقد رد عبد الرحمن على سفارة تيوفيلوس بمثله ، وأوفد كاتبه وصديقه الشاعر يحيى الغزال إلى قسطنطينية ومعه يحيى بن حبيب المعروف بالمنيقلة بكتاب وهدية إلى الإمبراطور . وقد سبق أن أشرنا إلى الغزال وإلى شخصيته الممتازة وإلى بارع خلاله وظرفه ، وكان الغزال قد جاوز الستين يومئذ ولكنه كان ما يزال يحتفظ بكثير من إناقته وروائه . وسار الغزال وصاحبه يحيى ومعهما السفير البيزنطي إلى المشرق عن طريق تدمير (مرسية) ، فوصلوا إلى قسطنطينية بعد رحلة بحرية شاقة ، عايتوا فيها الأهوال من اضطراب البحر وروعة الموج . واستقبل الإمبراطور السفير الأندلسي بحفاوة ، وقدم الغزال إليه كتاب

(١) مراجل هي أم المأمون ، وماردة هي أم المعتصم ، وكلتاها جارية وأم ولد .

عبد الرحمن وهديته . ويرد عيد الرحمن في كتابه على ما جاء في كتاب الإمبراطور
تفصيلاً ، ويشير مثله إلى المأمون والمعتمد بابن مراجل وابن ماردة ، وإليك
ما يرد به عبد الرحمن على ما يدعوه إليه الإمبراطور من وجوب العمل لاسترداد
ملك أجداده بالمشرق ، وهي أهم فقرات الخطاب :

« وأما ما ذكرت من أمر الخيـث ابن ماردة ، وحضضت عليه من الخروج
إلى ما قبله ، وذكرته من تقارب انقطاع دولته ودولة أهله ، وزوال سلطانهم ،
وما حضر من وقت رجوع دولتنا ، وأزف من حين ارتجاع سلطاننا ، فإننا نرجو
في ذلك عادة الله عندنا ، ونستنجز موعوده إيانا ، ونتمتري حسن بلائنا لدينا ،
بما جمع لنا من طاعة من قبلنا ، من أهل شأمتنا وأندلسنا وأجنادنا وكورنا وثغورنا ،
وما لم نزل نسمع ونعترف أن النعمة تنزل بهم ، والدائرة تحل عليهم من أهل
المغرب بنا وعلى أيدينا ، فيقطع الله دابرهم ، ويستأصل شأفتهم إن شاء الله تعالى » (١).

وأدى الغزال سفارته خير أداء ، وعمل على إحكام الصلة والمودة بين
الإمبراطور وبين مليكه ، وسحر البلاط البيزنطي بكياسته وظرفه ، وبديع
صفاته ، وقدمه الإمبراطور إلى زوجه الإمبراطورة تيودورا وإلى ولده الأمير
ميخائيل الذي تولى العرش فيما بعد ، وكان يومئذ فتى يافعاً ، فأنست به
الإمبراطورة وسحرته برائع جمالها ، وسحره الأمير الفتى بظرفه وبارع خلاله .
وقال فيه قصيدته التي مطلعها :

وأغيد لين الأطراف رخص كحيل الطرف ذو عنق طويل
تري ماء الشباب بوجنتيه يلوح كرونق السيف الصقيل
من أبناء الغطارف قيصرى العمومة حين ينسب والحوول
وعاد الغزال إلى قرطبة بعد رحلة دامت عدة أشهر ، وقد بهرته مظاهر
الحضارة البيزنطية وروعة البلاط البيزنطي .

(١) ورد هذا الخطاب بنصه كاملاً كما وردت تفاصيل هذه السفارة مفصلة في مخطوط ابن حيان
ص ١٦١ و ١٦٢ و ١٦٣ ؛ ونشر الأستاذ ليث بروفنسال قصة هذه السفارة بالفرنسية ، ومعها نص
الخطاب بالعربية في فصل خاص ، في المجلد الثاني عشر من مجموعة Byzantion التي تصدر في بروكسل
بمنوان : **Echange d'Ambassades entre Cordoue et Byzance au IXe. Siècle.** كانشرها
أيضاً في رسالة خاصة . وراجع أيضاً نفع الطيب ج ١ ص ١٦٢ ، حيث يشير إلى هذه السفارة
إشارة موجزة .

هذا وقد أوفد الغزال بعد ذلك بقليل في سفارة أخرى أغرب وأعجب ، وذلك أنه على أر غزو النورمانيين (المجوس) لولايات الأندلس الجنوبية الغربية واقتحامهم لإشبيلية ، وردهم عنها ، ثم هزيمتهم ومطاردتهم ، بعث ملكهم رسله إلى عبد الرحمن بن الحكم في طلب المهادنة والصلح ، فأجابه عبد الرحمن إلى طلبه ، وبعث الغزال مع الرسل إلى ملكهم ليرد السفارة ، ويعلنه بقبول الصلح .

وتقدم إلينا الرواية الإسلامية عن هذه السفارة تفاصيل شائقة . وهي رواية أديب أندلسي عاش في القرن الثالث عشر الميلادي ، هو أبو الخطاب عمر ابن الحسن بن دحية البلنسي ، أوردها في كتابه «المطرب من أشعار أهل المغرب» في حديثه عن الغزال . وهو يذكر لنا أن عبد الرحمن أوفد مع الغزال ، يحيى بن حبيب لمراقبته في تلك السفارة ، وأنهما خرجا معاً إلى البحر المحيط عن طريق شلب^(١) في مركب خاص أعد لها ، وسارت مع مركب الرسل النورمانيين . ويصف لنا ما لقيه السفيران المسلمان من أهوال البحر وروعته ، وكيف أنهما جازا تلك الشدائد سالمين ووصلا إلى بلاد المجوس . ثم يصف لنا بلاد المجوس بأنها « جزيرة عظيمة في البحر المحيط » ، وعلى مقربة منها « جزائر كثيرة منها صغار وكبار ، أهلها كلهم من المجوس ، وما يليهم من البر أيضاً لهم مسيرة أيام ، وهم مجوس ، وهم اليوم على دين النصرانية » .

ويبدو من وصف طريق الرحلة ، وأوصاف تلك الجزر ، أن القطر الذي قصده الغزال ورفيقه ، هو الدانماركة ، ويؤيد ذلك أن الدانماركة كانت في ذلك الوقت مستقر ملك النورمان (المجوس) ، وكان ملكهم عندئذ يشمل الدانماركة وما حولها من الجزائر ، وقسما من إسكندناوة وألمانيا الشمالية . وكان يجلس على عرش النورمان في ذلك الوقت (نحو سنة ٨٤٤ أو ٨٤٥ م) ملك يسمى « هوريك » . وكان النورمان يومئذ أحدثاً في النصرانية ، حسبما تقول الرواية الإسلامية . ولقي السفير المسلم من ملك النورمان كل ترحاب وعطف ، وأفرد لإقامته وزملائه منزلاً حسناً . وقدم إليه الغزال كتاب الأمير عبد الرحمن وهديته من الثياب والآنية ، فوعدت لديه أحسن موقع . ولقي الغزال في البلاط النورماني كله ، كثيراً من

(١) شلب Silves هي بلدة أندلسية قديمة تقع في جنوب غربي البرتغال على مقربة من المحيط الأطلسي .

الإعجاب والعطف ، واستقبلته « نود » ملكة النورمان ، فراعها حسنها ، وشملته بعطفها ، ورآها بعد ذلك مراراً ، ونظم في حسنها شعراً رقيقاً ، بورده لنا ابن دحية ، وفيه مخاطبها بقوله :

يانود يارود الشباب التي تطلع من أزرارها الكوكبا
وعاد الغزال إلى الأندلس بعد رحلة دامت عشرين شهراً ، وكان عوده عن طريق شنت ياقب . ويقول لنا ابن دحية إنه كان يحمل من ملك النورمان كتاباً إلى صاحبها ، وهو ملك جليقية وليون . والظاهر أنه كان كتاب توصية وجواز ، لكي يستطيع السفير المسلم وزملاؤه اختراق المملكة النصرانية الشمالية ، في طريقهم إلى الأندلس . وقد اخترق الغزال بالفعل مملكة ليون ، وسار إلى طليطلة ، ومنها إلى قرطبة . والمرجح أن وصوله إلى قرطبة ، كان سنة ٢٣٢ هـ (أو آخر سنة ٨٤٦ م) .

وعاش الغزال بعد ذلك زهاء عشرين عاماً أخرى ، وتوفي في سنة ٢٥٠ هـ . وقد بلغ الرابعة والتسعين من عمره ، إذ كان مولده في سنة ١٥٦ هـ (١) ، وأدرك خمسة من أمراء بني أمية بالأندلس أولهم عبد الرحمن الداخل ، وآخرهم محمد ابن عبد الرحمن . وكان مدى نصف قرن يتبوأ الزعامة في الشعر والأدب والحكمة ، ويتبوأ في بلاط قرطبة أسمی مقام من النفوذ والثقة والتقدير (٢) .

(١) راجع جذوة المتنبس للحميدى (مصر) رقم ٨٨٧

(٢) تراجع رواية ابن دحية كاملة في كتابه « المطرب من أشعار أهل المغرب » المنشور بعناية وزارة المعارف سنة ١٩٥٤ (ص ١٣٨ - ١٤٩) . ونقلها دوزى في كتابه : **Recherches, Vol. I. App, XXXIV** ، وأشار إليها المقرئ في الفصل الذى أورده عن الغزال وأخباره (نفع الطيب ج ١ ص ٤٤١ وما بعدها) . وقد كان البحث يتجه من قبل إلى أن رواية ابن دحية عن هذه السفارة قد تكون تكراراً أو تحريفاً للرواية الخاصة بسفارة الغزال إلى قسطنطينية ، ولكن يتضح من مراجعة رواية ابن دحية كاملة في كتابه المنشور ، ودراسة المعالم الجغرافية التي أوردها عن طريق سفر الغزال وطريق عودته عن طريق شنت ياقب وملكة جليقية - وعن موقع ملكة النورمان ، يتضح من ذلك كله أنه لا توجد الآن ذرة من الريب في صحة القول بأن السفارة كانت فعلاً إلى « بلاد الجوس » أو النورمان ، أو بعبارة أخرى إلى الدانماركة .

الفضل الأول

ولاية محمد بن عبد الرحمن بن الحكم وطوالع الثورة الأولى

محمد بن عبد الرحمن . ظروف توليته والتمهيد لها . الثورة في طليطلة . مسير محمد إلى طليطلة . استعانة الثوار بملكي ليون ونافار . موقعة وادى سليط . تحريضات النصارى المتعصبين . غزوة ألبية والقلاع . هود إلى محاربة طليطلة وإخضاعها . غزوة النورمانيين . عيهم في جنوب الجزيرة . ارتدادهم من طريق الشمال . غزو المسلمين لنافار وألبية والقلاع . موسى بن موسى وسيادته في الثغر الأعلى . الحرب بينه وبين أردونيو . مصرع موسى . ولده لب ومخالفته للنصارى . أخوته الثلاثة . غزو المسلمين لألبية والقلاع . هزيمة المسلمين . هزيمة النصارى . الثورة في ماردة وإخادها . احتفاء بني قسى بملك النصارى . الثورة في قواعد الثغر الأعلى . استيلاء بني قسى على تطيلة وسرقسطة . سير محمد إلى الثغر الأعلى . استيلائه على تطيلة . غزوه لنافار . زحف المنذر إلى سرقسطة . غزوه لنافار ثانية . عوده إلى غزو الثغر الأعلى . افتتاح المنذر لحصن روطة واستيلائه على لاردة . خضوع سرقسطة . الخلاف بين بني قسى . خروج محمد بن لب في سرقسطة وتحالفه مع النصارى . سير المنذر إلى سرقسطة واستيلائه عليها . الهدنة بين المسلمين والنصارى . عود ابن مروان إلى الثورة في ماردة . سير محمد لقتاله . تحالف ابن مروان مع ملك ليون . هزيمة جيش الأندلس وأسر قائده . هيث ابن مروان بنواحي الغرب . التجاؤه إلى ملك ليون . زحف المنذر على بطليوس وإحراقها . الثورة في شنت برية وبنو ذو النون . ظهور ابن حفصون في جبل ببشتر . بواعث الفتنة في كورة ريه . غزو ابن حفصون لكورة ريه . محاربة ابن حفصون وأسرهم . فراره واستئنافه الثورة . سير المنذر لقتاله . محاصرة الحامة . وفاة محمد بن عبد الرحمن وعود المنذر إلى قرطبة . خلال محمد . عنايته بالجيش والأسطول والمنشآت الدفاعية . نظام البلاط في عهده . حجابيه ووزراؤه . أعماله الإنشائية . المسجد الجامع ومنية الرصافة . شخصه وخلالاه . أدبه وبلاغته . عطفه على العلماء والأدباء . حمايته لبني بن مخلد . تفوذ الفقهاء في عهده . تسامحه نحو النصارى .

ترك عبد الرحمن بن عبد الحكم ، مملكة زاهرة موطدة الأركان ، تنعم بالاستقرار والهدوء . ولكن هذا الاستقرار الظاهر ، كان يحجب كثيراً من التيارات الخفية ، التي تهدد أمن المملكة وسلامتها . ذلك أن الهزات العنيفة التي توالى على الأندلس في عهد عبد الرحمن ، تركت آثارها العميقة في هذا الصرح الباذخ .

وكانت الثورات المحلية المتعاقبة ، وغزوات النورمانيين ، ودسائس النصارى المتعصبين ، كلها تنذر بأن الاستقرار المؤقت الذي تنعم به المملكة ، لم يكن سوى

الكتاب الثاني

الدولة الأموية في الأندلس

القسم الثاني

عصر الإمارة

من محمد بن عبد الرحمن إلى عبد الله بن محمد
وعهد الفتنة الكبرى

٢٣٨ - ٥٣٠٠ : ٨٥٢ - ٩١٢ م

هدنة خادعة ، حققها سياسة قوية حازمة . وكانت عناصر الإضطراب والغدر تجثم هنالك في صدور المنافقين والطامعين ، وتندر حكومة قرطبة وعرش بني أمية بأعظم الأخطار .

تولى محمد بن عبد الرحمن الملك عقب وفاة أبيه ، في الرابع من ربيع الآخر سنة ٢٣٨ هـ (٢٤ سبتمبر سنة ٨٥٢ م) ، ودخل القصر وأبوه مسجى على سريريه ، فاقتعد لفوره سرير الملك ، وأخذ له البيعة الحاجب عيسى بن شهيد . وكان يومئذ قد جاوز الثلاثين بقليل . وكان مولده في شهر ذي القعدة سنة ٢٠٧ هـ (إبريل سنة ٨٢٣ م) . وأمه أم ولد تدعى بهير^(١) . وكانت ظروف ولايته ممهدة من قبل ، وكان والده عبد الرحمن قد استخلفه بقصر الإمارة ، حينما اعتزم أن ينيبه عنه في سنة ٢٢٦ هـ ، وهو يومئذ فتي في العشرين من عمره ، ثم ولاه ثغر سرقسطة ، فضبته وأحسن إدارته ، وصحب والده إلى بنبلونة في غزوته المظفرة سنة ٢٢٨ هـ ، وقاد ميمنة الجيش ، وأثنى عليه والده في كتاب الفتح ، فاشتهر اسمه بين الناس ، ثم ندبه أبوه بعد ذلك لمقابلة رسل ملك الفرنج قارله (كارل) بن بين القادمين إليه . وأخيراً كلفه بالركوب إلى البلاط بصفة منتظمة ، ليرفع إليه الكتب الواردة بعد تلخيصها بمعرفته ، وقد تم هذا الإجراء بتوصية الحاجب عيسى بن شهيد ونصحه ، وذلك لتمكين أمر محمد ومكانته ، وتوهين ما كان يحاوله نصر الحصى الأثير لدى الأمير ، وحليف حظيته طروب المتغلبة عليه ، من ترشيح ولدها عبد الله لولاية العهد ، وتمكين أمره .

ولم يكن ذلك دون اختيار وتثبيت . ذلك أن عبد الرحمن ، كان حسبا محدثنا عيسى الرازي « قد كشف عن مذاهب ولده ، ولدأ ولدأ ، وعجم أخلاقهم اختباراً ، فوجد محمداً راجحاً لهم بخلاله » . فاختره ليخلفه من بعده ، وأوعز إلى وزرائه وأكابر دولته . بأنه صاحب ولاية عهده ، والمفوض إليه الأمر من بعده ، وكلفهم جميعاً ، ومعهم القاضي وأهل الشورى ، بالركوب إليه وغشيان مجلسه أيام الجمع في المسجد الجامع ، وأبدي على الحملة بما لا يدع مجالاً لأى شك ، بإيثاره على جميع ولده ، وتفردته دونهم بخلافته في ملكه .
وفضلاً عن ذلك كله ، فقد كانت لحمد عيون من الصقالبة بالقصر يطالعونه

(١) البيان المغرب ج ٢ ص ٩٦ .

بالأخبار في وقتها . فلما توفي والده ، وافاه في مساء نفس اليوم رسول من قبل حبيب الخصى ، يستدعيه إلى القصر بسرعة ، فبادر إلى القصر متنكراً وقد أخفى سلاحه تحت ثيابه ، خوفاً من دسائس أخيه ومنافسه عبدالله ، لتمكن نفوذ أمه داخل القصر . وكان الصقالبة قد كتموا موت الأمير ، وأغلقوا أبواب القصر ، وثارَت بينهم مناقشات عنيفة حول ولاية العرش ، وانتهى الأمر بتفضيل محمد وتقرير استدعائه . وخرج محمد من غرفة أبيه المسجى إلى مجلس البيعة ، واستدعى إخوته التسعة والأربعين ، وعمومته ، وأهل بيته ، وعظماء المملكة . وأخذت له البيعة دون خلاف (يوم الجمعة الرابع من ربيع الأول ٢٣٨ هـ) ، ثم أخذت له بيعة الكافة في المسجد الجامع أياماً متوالية^(١) .

أوردنا هذه التفاصيل لنقف على نوع الإجراءات التي كانت تتخذ لتقرير ولاية العهد ، في إمارة قرطبة الأموية ، ثم لنقف على الدور الذي أخذ يضطلع به الفتيان الصقالبة منذ الآن فصاعداً في مسألة خلافة العرش ، وهو دور كان له أثره الحاسم في كثير من المواطن .

وكان محمداً أميراً ذكياً فطناً بالأمر^(٢) ، تولى والأفق الذي ظلل عصر أبيه العظيم مازال محتفظ بلمعانه ، وملوك اسبانيا النصرانية يحسبون حساباً ، ويشعرون بأنه خلف كفء لأبيه ، وملوك العدو القريين من الأندلس يخطبون وده ، وملك الفرنج يسعى إلى عقد السلم معه .

وأقر محمد حاجب أبيه عيسى بن شهيد ، ومعظم الوزراء الذين كانوا يتولون خدمة أبيه على خططهم ومراتبهم ؛ وصنع نظاماً جديداً للوزارة ، تتميز فيه الخطط الرفيعة على غيرها ، ويمتاز فيه الوزراء بنوع من التعظيم والتجلة ، وقدم الوزراء من أهل الشام على غيرهم من الأندلسيين والبربر ، وأعلاهم في الجلوس على أرائكهم بيت الوزارة . وكان بنفسه يشرف على أعمال الوزارة والكتاب ، ويدقق في أعمالهم وتصرفاتهم وحساباتهم^(٣) . ولما توفي عيسى بن شهيد ، خلفه في الحجابة عيسى بن الحسن بن أبي عبدة ، وكان بالرغم من رثائه هيئته وزيراً قوياً ،

(١) ابن حيان عن أحمد بن محمد الرازي ، وعيسى بن أحمد الرازي ، ومعاوية بن هشام الشيبيني ؛ مخطوط القرويين اللوحات ٢١٥ إلى ٢٢٠ ب .

(٢) ابن الأثير ج ٧ ص ١٤١ .

(٣) ابن حيان عن أحمد الرازي ؛ مخطوط القرويين لوحة ٢٢٣ .

وافر الفطنة والذكاء ، صائب الرأي والتقدير . وكان هاشم بن عبد العزيز من بين وزراء الأمير محمد، أشدهم خصومة ومنافسة للحاجب ابن أبي عبدة ، وكان في نفس الوقت أحب وزراء الأمير إليه ، وأكثرهم حظوة لديه ، فلم يلبث أن غلب نفوذه على سائر الوزراء . ويقول لنا ابن عبد البر إن هذه الحظوة التي استأثر بها الوزير هاشم لدى الأمير محمد ، كان لها أثر سيئ في تصرفات الأمير ، وأنه أي هاشم قد أفسد عليه أمره ، « فشرهه ، وصلفه ، وحمله على غير المنهج من محمود طرقة ، وعدل عن اختيار ثقات العمال ، من الشيوخ والكهول أولى النهي والأصول ، إلى الأحداث من أولى الشر والحيانة ودناءة الأصول . فلم يلبث الأمر أن فسد بذلك إلى أبعد حال .. فنجمت الفتنة بأكثر البلاد ، وكثرت في الأرض الفساد في المملكة» (١) .

وفي أقوال ابن عبد البر عن هذا التحول في سياسة الأمير محمد وفي أساليب حكمه مبالغة ، ينقضا ما أورده صاحب البيان المغرب وغيره عن صفاته (٢) . وعلى أي حال فسوف نرى أي دور خطير يلعبه الوزير هاشم بن عبد العزيز ، الذي تولى الحجابة فيما بعد ، في ميدان الحرب والسياسة في عهد الأمير محمد .

وقد شاء القدر أن يكون عهد محمد بداية عصر من أخطر عصور التاريخ الأندلسي ، وأشدهم خطراً على ملك بني أمية ، وعلى دولة الإسلام في الأندلس . ذلك أنه ما كاد يتبوأ العرش ، حتى بدأت تطلع تلك الثورة الحارفة ، التي قدر له أن يضطلع بكفاحها طوال حكمه ، الذي امتد خمسة وثلاثين عاماً ، والذي يصنفه ابن حيان بقوله : « والمشوب آخره بالتنكيد ، المنصرم عن فرقة الجماعة ، ونجوم النفاق بكل جهة » .

في منتصف ربيع الثاني سنة ٢٣٨ هـ ، يعني لأيام قلائل فقط من وفاة عبد الرحمن ، وولايه محمد ، تحرك أهل طليطلة التي ما فتئت تفيض بعوامل الثورة . وكان بها عندئذ سعيد بن الأمير محمد ، والعامل عليها حارث بن بزيح . وكان جماعة من المارقين وأهل الشر ، قد اجتمعوا في الهضبة القريبة من المدينة المسماة « جبل الأخوين » بزعامة مسوقة بن مطرف ، وهو أحد الزعماء الخوارج الذين فروا من قرطبة ، فلما وقفوا على وفاة الأمير عبد الرحمن ، كاتبوا أهل طليطلة وحرصوهم على الوثوب بسعيد ومن معه . فاضطربت الثورة داخل المدينة ،

(١) نقله ابن حيان ، مخطوط القرويين اللوحة ٢٢٢ أ .

(٢) راجع البيان المغرب ج ٢ ص ١١١ .

وساعدهم ابن مطرف بحشوده من الخارج ، وانتهى الأمر بهزيمة جند الأمير ، واستطاع سعيد أن يغادر المدينة ، ولكن الثوار أسروا عاملها حارثاً ، ورفضوا إطلاق سراحه حتى أطلقت حكومة قرطبة رهائنهم المعتقلة هناك^(١). وفي صيف العام التالي (سنة ٢٣٩ هـ - ٨٥٣ م) بعث الأمير محمد أخاه الحكم في جند الصائفة إلى قلعة رباح ، وكانت قد أفقرت وخربت وغادرها معظم أهلها ، عقب مهاجمة أهل طليطلة الخوارج لها ، وقتلهم كثيراً من أهلها ، فاحتلتها جند الأمير ، وقامت بإصلاح أسوارها ، واستدعى أهلها الفارون وأمنوا ؛ وفعل الحكم مثل ذلك بحصن شندلة ، الواقع على النهر المسمى بهذا الاسم Jandula ، وهو من أفرع الوادي الكبير ؛ وجالت جند الأمير في تلك المنطقة تطهيراً من الثوار ، وخرجت منها حملة سارت جنوباً ، فلقبتها عصابات الخوارج من أهل طليطلة في فحص أندوجر ، ووقعت بين الفريقين معركة عنيفة هزم فيها جند الأمير ، وردوا بخسارة فادحة (شوال سنة ٢٣٩ هـ) . وعلى أثر ذلك خشى أهل مدينة جيان القريبة على أنفسهم من عيث الخوارج ، فغادرها كثير منهم إلى الجبال ، وابتنى الأمير محمد لهذا السبب حصن «أندة» على مقربة جيان ، وضم إليه العرب المقيمين على الطاعة ، وسمى المكان لذلك «أندة العرب»^(٢) .

وعندئذ شعر محمد بما يهدد العاصمة من الأخطار ، وأراد أن يلقى على ثوار طليطلة ، درساً عميق الأثر ، فسار إليها في المحرم سنة ٢٤٠ هـ (يونيه ٨٥٤ م) على رأس قوة كبيرة . وكانت أول حملة يقودها بنفسه بعد تبوئه الملك . وكان عماد الثورة في طليطلة جمع كبير من المولدين والنصارى ، الذين تحركهم روايات المتعصبين ، عن الاضطهاد الذي يلقاه إخوانهم في قرطبة ، وكانوا يتطلعون دائماً إلى عون ملك النصارى ؛ فلما استشعروا عزم محمد على قتالهم ، بادروا بالاستغاثة بأردونيو (أردن) ملك ليون ، وكذلك بملك ناغار ؛ وأمدهم أردونيو بقوة على رأسها الكونت غاتون^(٣) . وكان تدخل النصارى على هذا النحو لتأييد الثورة ضد حكومة قرطبة ، عاملاً في إذكاء حماسة المسلمين ، فهرعت جموع كبيرة إلى جيش الأمير ، ومنهم كثير من الفرسان الأشراف وذوى الحسب ، وسار محمد صوب

(١) ابن حيان عن الرازي في مخطوط القرويين لوحة ٢٥٩ أ .

(٢) مخطوط القرويين لوحة ٢٥٩ ب .

(٣) ابن خلدون ج ٤ ص ١٣٠ ، والبيان المغرب ج ٢ ص ٩٧ . ويقول صاحب البيان

إن الكونت غاتون هو أخ الملك ليون .

طليطلة في بعض قواته ، وترك بقية جيشه الكثيف مستتراً بالتلال التي تظلل وادي سليط ، وهو الوادي الذي يخترقه النهر المسمى بهذا الإسم **Guazalete** ، وهو أحد أفرع التاجه الجنوبية ، فلما رأى أهل طليطلة قلة الجيش المحاصر ، خرجوا لقتاله ومعهم حلفاؤهم النصارى وهم على ثقة من الظفر ، فارتد محمد بنجوده نحو وادي سليط متظاهراً بالهزيمة ، وعندئذ برزت قوات الأندلس من مكانها ، وأطبقت على الثوار وحلفائهم النصارى ، وكانت موقعة هائلة مزقت فيها جموع الطليطليين والإسبان في ساعات قلائل من الصباح إلى الضحى ، وقتل منهم مقتلة عظيمة تقدرها الرواية الإسلامية بأحد عشر ألفاً ، وقيل بل عشرين ألفاً ، وأسر منهم كذلك عدد جم ، بينهم كثير من القساوسة وقد أعدموا على الفور ، وروى رؤوس القتلى ، وأذن فوقها لصلاة الظهر . وكان نصراً عظيماً . وفي هذه الموقعة يقول شاعر العصر عباس بن فرناس :

لهوم الفلا عبل القبائل ملتف	ومؤتلف الأصوات مختلف الزحف
بروقاً تراءى في الغمام وتستخفي	إذا أومضت فيه الصوارم خلتها
قراقير في يم عجزن عن القذف	كأن ذرى الأعلام في ميلانها
على النفر العبدان والعصبة الغلف	بكي جبلا وادي سليط فأعولوا
أرى الموت قدامي وتحتي ومن خلفي	يقول ابن يوليس لموسى وقد وني
وألفاً وألفاً بعد ألف إلى ألف	قتلنا لهم ألفاً وألفاً ومثلها
فأغرق فيه أو تهدد من جرف	سوى من طواه النهر في مستلجه
وسمعت الدقات قصفاً على قصف (١)	لقد نعمت فيه غزاة نسورنا

على أن الفتنة في طليطلة لم تهدأ ولم تخمد ، فقد استمر تحريض النصارى المتعصبين فيها على أشده ، وأضححت المدينة الثائرة موثلاً لطائفة من القسس المتعصبين مثل أولوخيو وصحبه ، ببثون دعايتهم المضطربة في طليطلة وما جاورها من الأنحاء ، ويصورون مصير النصارى في ظل الحكم الإسلامي بأشنع الصور ، ويدعون إلى التحرر من الاضطهاد الديني والاجتماعي ، وكان صدى هذه

(١) ينقل إلينا ابن حيان عن موسى الرازي تفاصيل هذه الموقعة - مخطوط القرويين لوحة ٢٦٠ أوب و ٢٦١ أ . وراجع البيان المغرب ج ٢ ص ٩٧ و ١١٤ . وكذلك : **Dozy**

الدعوة يتردد قوياً في العاصمة الأندلسية ، ويبت القسس تحريضهم ودعائهم المسمومة ، مثلما كانوا يفعلون أيام عبد الرحمن بن الحكم^(١). وكان محمد يرقب هذه الفتنة حذراً من عواقبها ، وعواقب تمرد المدينة الثائرة ، ومن ثم فقد لبث متأهباً لمقارعتها ، وشحن قلعة رباح وطلبيرة على مقربة منها بالهند والعدد .

وسير الأمير محمد كذلك الصوائف والحملات الغازية إلى الثغر الأعلى . ففي سنة ٢٣٩ هـ (٨٥٣ م) سير جيشاً بقيادة موسى بن موسى بن قسى والى تطيلة إلى ألبة والقلاع . وكان موسى أيام الأمير عبد الرحمن ، من زعماء الثورة في الشمال ، وتحالف مع النصارى حسبما تقدم ، وقاتله عبد الرحمن حتى تمكن من إخضاعه . ولكنه عاد في أواخر عهده إلى سابق مكانته من زعامة الثغر الأعلى ، واستطاع أن يوطد استقلاله في تطيلة وما جاورها ، مع التظاهر في نفس الوقت بالولاء لحكومة قرطبة ، انقاء لخصومتها . فسار إلى ألبة والقلاع وعاث فيها ، وهزم النصارى في عدة مواقع ، وافتتح بعض الحصون ، ثم عاد بعد ذلك فاتحاً صوب ثغر برشلونة ، وانتزع بعض حصونه من أيدي النصارى ، وتضع بعض الروايات تاريخ هذه الغزوة في سنة ٢٤٢ هـ (٨٥٦ م) . بيد أنه يبدو من أقوال الرازي أنها وقعت قبل سنة ٢٤١ هـ^(٢) .

وفي صيف سنة ٢٤١ هـ (٨٥٥ م) سار محمد بنفسه إلى ألبة والقلاع ، وقد كتب إلى موسى بن موسى وأهل الثغور بالاحتشاد والسير في حملته ، فعاث في بسائط ألبة والقلاع ، وافتتح كثيراً من حصون النصارى . وفي العام التالي بعث موسى بن موسى إلى أحواز برشلونة ، فغزاها وخرّب برشلونة وافتتح بعض حصونها ، وأسر بعض أمرائها^(٣) .

بيد أن اهتمام الأمير لبث في الوقت نفسه بالأخص موجهاً إلى طليطلة ، فبعث ولده المنذر إلى المدينة الثائرة في قوة كبيرة فحاصرتها وعاثت في أحوازها (٢٤٢ هـ) ، ولم يجرأ الثوار هذه المرة على مغادرة مدينتهم . ولكنهم خرجوا في العام التالي إلى طلبيرة لمقاتلة الحامية الأندلسية بها ، فخرج إليهم قائدها مسعود بن عبد الله ،

(١) يفويض دوزي في شرح أدوار هذه الفتنة الأندلسية وأعمال دعائها : Dozy : Hist.;

V. I. p. 356-362

(٢) مخطوط القرويين لوحة ٢٦١ ب .

(٣) البيان المغرب ج ٢ ص ٩٨ .

وأوقع بهم وقتل منهم عدة مئآت أرسلت رؤوسهم إلى قرطبة . وسارت جند الصائفة في الوقت نفسه إلى طليطلة ، فنازلتها وعاثت في أحوازها ، وانتسفت زروعها وأقواتها .

ورأى الأمير محمد أن يتابع معاقبة أهل طليطلة . فخرج إليهم بنفسه في صيف سنة ٢٤٤هـ (٨٥٨م) ، وحاصر المدينة الثائرة ، وتأهب أهلها لقتاله بالرغم مما أصابهم من نقص في القوى ، وشح في الأقوات ، واعتمدوا على حصانة مدينتهم . ولجأ محمد إلى الحيلة فهدم مهندسوه قواعد القنطرة الكبيرة مع تركها قائمة ثم انسحب بجنوده ؛ وهنا خرج أهل طليطلة لقتاله ، فلما احتشدوا على القنطرة سقطت بهم في نهر التاجه وغرق منهم عدد جم (١) . ولم يترك محمد هذه المرة وسيلة رائعة إلا استعمالها لسحق المدينة الثائرة ، فخرّب حصونها ومعالمها ، وأوقع بأهلها قتلا وتشريداً ، حتى اضطروا إلى طلب الأمان والصلح ، وأذعنوا للخضوع والطاعة ، وهم يعزّزون النكث في قرارة أنفسهم متى سنحت الفرص (٢٤٥هـ - ٨٥٩م) .

وهكذا لبث طليطلة عصراً تضنى حكومة قرطبة بتمردّها وثوراتها المتوالية ؛ وكانت حاضرة القوط القديمة تشعر دائماً بقوتها ومنعها الطبيعية ، وكانت فوق ذلك مثوى التيارات النصرانية الخطرة حسبا بينا ، تنساب إليها من نصارى الشمال ، ومن النصارى المعاهدين بقرطبة ، ومن أهلها أنفسهم . والواقع أن طليطلة كانت بوعورة موقعها على المنحدر الصخري الممتد نحو نهر التاجه ، وإحاطة النهر بهذا المنحدر الوعر ، ثم بحصونها القوية ، وأسوارها العالية الضخمة ، من أمتع مدن العصور الوسطى . وما تزال إلى اليوم حين نتأملها ونتجول فيها ، تذكرنا بموقعها الصعب ، وطرقها الصخرية الوعرة ، وبقية أسوارها وحصونها المنيعّة ، بما كان لها من سابق الحصانة والقوة فيما خلا من العصور .

وهكذا أخذت ثورة المولدين والنصارى المعاهدين في طليطلة إلى حين ؛ وتأهب محمد في الوقت نفسه لقمع شغب النصارى المتعصبين في قرطبة وغيرها ،

(١) يقدم إلينا ابن حيان عن هدم القنطرة قصة أخرى ، فيقول إن جنود محمد حاولوا هدم للقنطرة تحت أنظار أهل المدينة ، وأنهم سخروا من هذه المحاولة ، وأيقنوا بعنتها . ثم خرجوا للقتال ، واحتشد الكثير منهم فوق القنطرة ، فانهارت تحت أقدامهم وهوت بمن فوقها إلى النهر ، وهدمت صخورها عليهم من كل ناحية (مخطوط القرويين لوحة ٢٦٢ أ) .

وإخماد نزعهم الثورية الخطيرة . وحوكم القس أولوخيو الذى أشرنا من قبل إلى دعايته وتخريضة أيام عبد الرحمن ، وكان مايزال معقد الدسائس الدينية ، وقضى بإعدامه كما قضى بإعدام صاحبه ومعاونته الفتاة ليوكريسيا (مارس سنة ٨٥٩ م) . ورأى النصارى فنتهم نهار فركنوا إلى السكينة ، وخبث جذوة تعصهم ، التى لبثت أعواماً طويلة تضطرم فى قرطبة ، ولم يبق من حماسهم سوى الذكرى^(١) .

ولم يكذب ينهى الأمير محمد من إخضاع طليطلة ، حتى دهم الأندلس خطر النورمانين مرة أخرى . فى نفس هذا العام (٥٢٤٥ - ٨٥٩ م) انحدر النورمانيون (وهم الأردمانيون أو الجوس كما تسميهم الرواية الإسلامية) فى سفنهم نحو شواطئ جليقية ، وعاثوا فى شاطئ اسبانيا الغربى . وتقدر الرواية الإسلامية أسطول النورمان فى هذه المرة باثنتين وستين مركباً ؛ وطاردتهم السفن الأندلسية ، وكانت دائماً على قدم الأهبة تجوس خلال المياه الغربية بصفة مستمرة استعداداً لرد أولئك الغزاة الخطرين ، مذ فاجأوا الأندلس بغاراتهم المخربة أيام عبد الرحمن . ووصلت بعض سفن النورمانين جنوباً حتى تجاه مدينة باجة ، وهناك استطاعت السفن الأندلسية أن تقضى على طلائع الغزاة ، وأن تنزع سفينتين من سفنهم المحملة بالغنائم والسبي ، بيد أنهم انقضوا على الشواطئ الجنوبية ، ووصلوا إلى مصب نهر الوادى الكبير ، ثم انحدروا جنوباً حتى مياه الجزيرة الخضراء .

وفى تلك الأثناء كانت القوات الأندلسية قد سارت إلى الغرب بقيادة الحاجب عيسى بن أبى الحسن بن أبى عبدة ، وهرع الناس إلى جيش الأمير من كل صوب ، وتقدم الأسطول بقيادة أميرى البحر حشاش وابن شكوح ، وقد عبيء أحسن تعبئة ، وجهاز بالأنفاط وفرق الزمارة الكثيفة ، ورد الغزاة أولاً عن إشبيلية بعد عدة معارك برية وبحرية . ثم نشبت بين الفريقين بعد ذلك معركة بحرية شديدة تجاه شاطئ شذونة ، وغنم المسلمون فى البداية مركبين آخرين ، ولكن السفن النورمانية تكاثرت على جناح الأسطول الذى يقوده حشاش ، وغلبت عليه ، وقتل أمير البحر المسلم فوق سفينته ، ثم انحدر النورمانيون صوب الجزيرة الخضراء واقتحموها ، وأحرقوا مسجدها الجامع ، وعاثوا فيها سفكاً ونهباً ، وسارت

بعض سفنهم إلى شواطئ العدو (عدوة المغرب) وعاثت فيها ، ثم نزلوا بشاطئ الأندلس الجنوبي ، وسارت سفنهم قبالتهم على ساحل تدمير حتى أوريولة ، فدخلوها ، وعاثوا في تلك الأنحاء نهياً وسيياً ، واشتبكوا مع القوات الأندلسية في عدة معارك برية وبحرية عنيفة ، حطمت فيها بعض سفنهم ، وقتل كثير من المسلمين ، واستمر عيث النورمانين على هذا النحو أشهراً حتى خبت فورتهم ، وفقدوا كثيراً من سفنهم . فارتدوا نحو الشمال على طول شواطئ اسبانيا الشرقية ، ونفذت منهم قوة خلال نهر إيره إلى نافار ، واقتحموا عاصمتها بنبلونة وأسروا ملكها غرسية ، ولم يطلقوه إلا لقاء فدية كبيرة ، وأغارت قوات أخرى منهم على الجزائر الشرقية وشواطئ پروفانس حيث عبروا مصب الرون ، وخرّبوا آرل ونيمة وفالانس .

وهكذا لم تكن الغزوة النورمانية في هذه المرة مفاجأة مثلما كانت الغزوة الأولى ، ولم يكن عيث الغزاة على نفس النطاق الواسع . وهذا ما يسجله لنا ابن حيان في ختام حديثه عنها ، إذ يقول : « فلم يكن لهم في هذه الكرّة الإنبساط في البحر ، والإضرار بأهل السواحل ما جرت به عادتهم ، ولم يجدوا في السواحل مطعماً لشدة ضبطها ، ولا قوا مع ذلك من البحر هولا عطبت له من مراكبهم أربعة عشر مركباً بناحية البحيرة من الجزيرة ، فنكبوا عن حائط الأندلس ، واعتلوا إلى جهة الفرنجة ، فلم يلقوا ظفراً ، وأسرعوا الانصراف إلى بلدتهم بالخبية ، فلم تكن لهم بعد بالأندلس إلى اليوم عودة » (١) .

وفي العام التالي أعنى سنة ٢٤٦ هـ (٨٦٠ م) بعث محمد حملة إلى الولايات الشمالية بقيادة حاكم طرطوشة . ويقول لنا ابن حيان إن الأمير محمد هو الذي غزا بالصائفة بنفسه في تلك السنة . وكان غرسية ملك ناغار ، قد تحالف عقب انطلاقه من أسر النورمان مع أردونيو ملك ليون ، وأغارت قواتهما المتحالفة على الأراضي الإسلامية . وعلى أي حال فقد زحفت القوات الأندلسية على ناغار ، ولم تكن قد

(١) تخلف الرواية الإسلامية في تاريخ هذه الغزوة النورمانية الثانية لشواطئ الأندلس ، فيضعه الرازي في سنة ٢٤٥ هـ (٨٥٩ م) . ويتابعه في ذلك ابن الأثير وابن عذاري . ويضعها هشام ابن معاوية الشيبسي في سنة ٢٤٧ هـ (٨٦١ م) ، وقد أخذنا بالرواية الأولى لأنها أرجح وأكثر اتفاقاً مع سير الحوادث . راجع في تفاصيل الغزوة ، ابن حيان في مخطوط القرويين لوحة ٢٦٣ أ و ب و ٢٦٤ أ ، والعذري في « الأوراق المنشورة من ترصيع الأخبار » ص ١١٨ و ١١٩ . وابن الأثير ج ٧ ص ٢٨ ، والبيان المغرب ج ٢ ص ٩٩ .

أفاقت بعد من ضربة النورمانيين ، وغزت بنبلونة وخربت حصونها . ولم تقو جموع غرسية على رد المسلمين ، واستمر المسلمون بضعة أسابيع يخربون بسائط نافار وينتسفون قراها وحصونها ، وكان من بين الأسرى فرتون ولد غرسية ، فأخذ إلى قرطبة حيث اعتقل زهاء عشرين عاماً^(١) .

وفي صيف سنة ٢٤٧ هـ (٨٦١ م) سارت حملة أندلسية أخرى إلى ألبه والقلاع . وكان موسى بن موسى قد طلب إلى محمد أن يكون طريق الحملات الغازية عن غير منطقته ، نظراً لما يتجشمه في مقارعة النصارى من جهد ، وما يصيب أراضيه من الدمار ، فأجابه الأمير إلى طلبه ، وسارت الحملة من طريق آخر ، وعاثت في أراضى النصارى .

وكان موسى بن موسى بن قسى يومئذ ، قد بسط نفوذه على بسائط قواعد الثغر الأعلى ، وأصبح سيداً لتطيلة ووشقة وسرقسطة وأحوازها . وكان هذا الزعيم القوى الذى يرجع حسبنا أسلفنا إلى أصل نصرانى ، وله مصاهرة وقرابة مع الأمراء النصارى ، ينهز كل فرصة لتدعيم استقلاله ، وكان يتشج بلقب الإمارة ، ولم يكن يدين لحكومة قرطبة إلا بنوع من الولاء الإسمى . وكانت علائقه مع أردونيو ملك ليون جاره من الغرب ، تتردد بين الخصومة والتحالف وفقاً للظروف . وكان أردونيو ينظر إلى اتساع ولايته من ناحية الغرب بعين القلق ، وموسى من جانبه يحرص على تحصين قواعده وحدوده ؛ ففي سنة ٢٤٨ هـ (٨٦٢ م) سار موسى فى قواته إلى الغرب لتحصين قواعده الغربية ومعه صهره غرسية أمير نافار ؛ وحاول أردونيو من جانبه أن يحبط هذه الحركة ، فهاجم بعض الحصون التابعة لموسى وفى مقدمتها حصن « البلدة » الواقع على نهر إبره على مقربة من قلهرة ، ونشبت بين الفريقين معركة جرح فيها موسى جراحاً خطيرة ، وهزمت قواته وقتل منها عدد كبير من المسلمين والنصارى ، وقتل صهره غرسية ، وهدم أردونيو حصن البلدة وغيره من الحصون التى تحمى أراضى ابن قسى ، ولم يمض سوى قليل حتى توفى موسى نفسه متأثراً بجراحه ، وكانت وفاته نذيراً بتطور الحوادث فى الثغر الأعلى .

وذلك أن موسى بن موسى كان بالرغم من استقلاله عن حكومة قرطبة ،

(١) راجع البيان المغرب ج ٢ ص ٩٩ و ١٠٠ ، ومخطوط القرويين الاوحة ٢٦٣ أ .

يقف بقواعده وقواته في الشمال الشرقي ، سدأً منيعاً في وجه النصارى . فلما توفي أعلن ولده لب خضوعه لأردونيوم ملك ليون ، وتحالف معه ضد المسلمين ، وزحف على وادي الحجارة يبغى الاستيلاء عليها ، فرده عنها حاكمها ابن سالم . وأصابته خلال المعركة جراح توفي منها وهو في طريق العودة إلى تطيلة ، وحل أخوته الثلاثة إسماعيل ومطرف وفرنون مكان أبيهم في حكم القواعد الشمالية . وهنا رأت حكومة قرطبة أن تضاعف أهباتها لرد النصارى عن الولايات الشمالية . ففي صيف سنة ٢٤٨ هـ (٨٦٣ م) سار عبد الرحمن ابن الأمير محمد على رأس حملة كبيرة إلى ألبة والقلاع ، ومعه القائد عبد الملك بن العباس القرشي ، فجاس خلالها وخرب بسائطها . واشتبك النصارى بقيادة ملكهم أردونيوم مع المسلمين في معركة عنيفة ، وهزموا على أثرها هزيمة شديدة ، وقتل عدة من قوادهم (١) . ولم يمض عامان حتى سير محمد ولده عبد الرحمن مرة أخرى ، إلى غزو ألبة والقلاع (٢٥١ هـ - ٨٦٥ م) . ويقول لنا ابن حيان إن الذي كان على رأس هذه الغزوة هو المنذر بن عبد الرحمن ، وكانت قيادة الجيش للحاجب عيسى بن الحسن بن أبي عبدة . وعلى أي حال فقد سار المسلمون بجنداء نهر إبره ، واستولوا على معظم حصون أكابر النبلاء والسادة في تلك المنطقة . وحاول أردونيوم كعادته أن يعترض سبيل المسلمين عند العودة ، وقد كمن لهم في موضع يسمى «بفج المراكور» على مقربة من نهر إبره ، أفرغ جهده في تحصينه ، فنشبت بينه وبين المسلمين على ضفاف النهر معركة شديدة ، كانت الدائرة فيها على النصارى ، فقتل وأسرف منهم عدد كبير وغرق الكثير منهم في النهر ، ومزقوا كل ممزق (٢) . وفي العام التالي سارت حملة أخرى إلى الشمال بقيادة الحكم بن محمد ، فعاث في أرض النصارى ، واستولى على بعض الحصون . وكانت هذه الغزوات المتوالية قد هدت من قوى النصارى ، ومزقت شملهم وخربت بلادهم ، فركنوا إلى السكينة ، وتوفي ملكهم أردونيوم في الوقت نفسه (٨٦٦ م) فخلفه ولده ألفونسو الثالث الذي لقب فيما بعد بألفونسو الكبير .

كان حرياً بعد أن هدأت ثائرة النصارى في الشمال ، أن تتمتع حكومة قرطبة

(١) ابن حيان في مخطوط القرويين لوحة ٢٩٥ أ

(٢) البيان المغرب ج ٢ ص ١٠٢ . ومخطوط القرويين لوحة ٢٦٥ ب .

بفترة من السلام والدعة . ولكن الخطر كان يجثم في ناحية أخرى . ذلك أن عوامل الانتقاض والثورة كانت تجتمع من جديد في شمال غربي الأندلس ، في المناطق الجبلية التي ألفت الثورة واتخذتها شعاراً لها . ولم تكن حكومة قرطبة بغافلة عن هذه النذر . وكانت ماردة وبها عدد من زعماء المولدين المتمردين ، في مقدمة القواعد التي يشك في ولائها وطاعتها . ففي سنة ٢٥٤هـ (٨٦٨ م) خرج الأمير محمد على رأس جنده من قرطبة ، متظاهراً بالسير إلى طليطلة ، ولكنه عرج في منتصف الطريق فجأة على طريق ماردة ، ودهمها قبل أن تستعد للقائه ، فتحصن بها أهلها . ثم اقتحمها محمد ، ووقع بين الفريقين قتال عنيف انتهى بسحق الثوار وإذعان المدينة ، وطلب الزعماء الثائرون الأمان وفي مقدمتهم عبد الرحمن بن مروان الجليقي ، وابن شاكر ، ومكحول ، وغيرهم ، وهم من أكابر الفرسان والسادة ، فنقلهم الأمير بأموالهم وأهلهم إلى قرطبة ، وولى على ماردة سعيداً بن عباس القرشي ، وهدم حصونها وأسوارها (١) .

وكانت الحوادث تتطور في الثغر الأعلى في نفس الوقت تطوراً خطيراً . وكان الأمير محمد قد استطاع عقب وفاة موسى بن موسى أن يسترد سلطانه في تلك الأنحاء ، وأن ينتزع القواعد الشمالية من أبنائه ، ويعين لها حكاماً من قبله . وكان بنو موسى أو بنو قسي ، نسبة إلى جدهم الأعلى الكونت قسي القوطي ، يرجعون كما أسلفنا إلى أصل نصراني ، وكانت هذه الأسرة المتمردة الشديدة المراس ، كباقي الأسر القوية المولدة ، تبغض حكومة قرطبة ، وتميل إلى مناوأتها والتحالف ضدها مع النصارى ، وكان بنو قسي أصهاراً لملك نافار النصراني ، حيث كان غرسية زوجاً لابنة موسى المسماة « أوربة » Oriá ، فلما توفي موسى وانتزعت حكومة قرطبة قواعده من يد بنيه ، لجأ هؤلاء حيناً إلى حماية ملك ليون ، حتى تسنح لهم فرصة العمل ومعاودة الجهاد . على أن حكومة قرطبة لم تلق في حكامها الذين اختارتهم للقواعد الشمالية ما كانت تؤمل من ولاء وإخلاص . ففي سنة ٢٥٥هـ (٨٦٩ م) ثار سليمان بن عبدوس في مدينة سُرْبية وهي من أعمال سرقسطة ، فسار إليه الحكم بن الأمير محمد ، وحاصر سربية وهدم أسوارها بالجنانق ، وأرغم الثائر على الخضوع والطاعة ، وبعث به إلى قرطبة . وفي العام التالي (٢٥٦ هـ)

(١) ابن الأثير ج ٧ ص ٦٢ ، والبيان المغرب ج ٢ ص ١٠٣ ، ومخطوط القرويين لوحة ٢٦٨ أ .

بسائطها ، ثم عاد إلى قرطبة وأمر بقتل الثائر مطرف وبنيه الثلاثة : ورفعت رؤوسهم على باب القصر . وفي العام التالي (٢٦٠ هـ) سير محمد إلى الشمال مع ولده المنذر جيشاً بقيادة هاشم بن عبد العزيز . فزحف المنذر إلى سرقسطة وعاث في نواحيها ، وانتسف أشجارها وزروعها ، وجعلها قاعاً صافصفاً ، ولكنه لم يستطع انتزاعها من يد المتغلب عليها اسماعيل بن موسى . وكان أخوه فرتون قد حل في تطيلة مكان أخيه مطرف ، وتحالف الثائران مع ألفونسو الثالث ملك ليون ، فسار المنذر إلى وشقة ، ثم إلى بنبلونة عاصمة نافار ، وعاث في تلك الأنحاء ، ولكن جهوده لم تسفر عن أية نتائج مستقرة^(١) .

وشغلت حوادث الشمال وثورة بني موسى حكومة قرطبة أعواماً طويلة . ففي سنة ٢٦٤ هـ (٨٧٨ م) سار المنذر مرة أخرى إلى الثغر الأعلى ، وعاث في بسائط سرقسطة وتطيلة ، ولكنه لم يظفر بالاستيلاء عليهما . ثم زحف على بنباونة ، فحرب بسائطها ، وأتلف زرعها ، وقتل كثيراً من أهلها . وفي العام التالي (٢٦٥ هـ) ، عاد المنذر إلى غزو الثغر الأعلى ، وحاصر مدينة سرقسطة وسائر بلاد بني قسي ، وعاث فيها إتلافاً وتخريباً . ومع ذلك فقد لبث الشمال بعيداً عن سلطان قرطبة بضعة أعوام أخرى . وكانت جنبات الأندلس الأخرى تضطرم في الوقت نفسه بسلسلة من الثورات المدمرة حسبما نفصل بعد ، ولكن حكومة قرطبة كانت تعلق على قواعد الثغر الأعلى أهمية خاصة ، لوقوعها على حدود الممالك النصرانية . ففي سنة ٢٦٨ هـ (٨٨٢ م) سير الأمير محمد ولده المنذر إلى الشمال على رأس جيش ضخم ، ومعه القائد هاشم بن عبد العزيز . وكان المنذر قائداً مجرباً ذا شجاعة وبأس ، وكان يعترم هذه المرة أن يسحق الثورة وزعماءها في الشمال . فزحف توأ على سرقسطة ، ولما لم ينجح في اقتحامها ، تحول إلى الحصون الواقعة حولها فحربها واستولى عليها ، وافتتح حصن روضة أمنع حصونها وأسر به عبد الواحد الروطي « أشجع أهل عصره »^(٢) ثم استولى على لاردة وما حولها من الأنحاء ، وانضم إليه محمد بن لب بن موسى ، وكان ساخطاً على عميه لاستئثارها دونه بالسلطان . ولما رأى إسماعيل بن موسى صاحب سرقسطة

(١) مخطوط القرويين لوحة ٢٧٢ أ .

(٢) ابن الأثير ج ٧ ص ١٢٢ ، والبيان المغرب ج ٢ ص ١٠٧ . وفي رواية أخرى أن هاشم بن عبد العزيز اشترى حصن روضة من صاحبه عبد الواحد ولم يفتتحه (العذري في كتاب « ترصيع الأخبار » ص ٣٥) .

عبث المقاومة ، أعلن خضوعه وطاعته للأمير وقدم رهائنه . وزحف المنذر بعد ذلك على ألبه و اخترقها إلى قشتالة (القلاع) ، وتأهب النصارى للقائه بقيادة ملكهم ألفونسو الثالث . ولكن جرت مفاوضة بين الفريقين انتهت بعقد الهدنة ، وعاد المنذر إلى قرطبة ظافراً .

وما كاد المنذر يرتد إلى قرطبة ، حتى نشب الخلاف بين إسماعيل بن موسى وابن أخيه محمد بن لب ، وكان إسماعيل يحقد عليه لتحالفه مع المنذر . وانتهى القتال بينهما إلى انتصار محمد بن لب ، واستيلائه على سرقسطة ، وأسره لعمه إسماعيل . وحكم محمد سرقسطة باسم الأمير محمد . ولكن الأمير أراد أن ينتزع ولايتها منه ، فسخط عليه وأعلن خروجه عن طاعته ، وتحالف مع ألفونسو الثالث ملك ليون . فبادر الأمير محمد بإرسال قواته مرة أخرى بقيادة ولده المنذر وهاشم بن عبد العزيز ، إلى الثغر الأعلى (٢٧٠ هـ - ٨٨٣ م) . فسار المنذر إلى سرقسطة واستولى عليها بعد قتال عنيف ، وأخرج منها محمد بن لب . وفي رواية أخرى أن محمداً بن لب سلم سرقسطة صلحاً وفقاً لاتفاق تم بينه وبين المنذر نظير قدر كبير من المال^(١) . وكان من ضباط جيش الأمير في تلك الغزوة عمر بن حفصون الزعيم الخارج الذي سيجيء ذكره فيما بعد . ثم اخترق المنذر ألبه لمقاتلة النصارى حلفاء الثامر . ولكن المفاوضات انتهت بعقد الهدنة بين الفريقين . وأرسل ألفونسو الثالث سفيراً إلى قرطبة هو القس دولثديو ليضع قواعد الصلح مع أمير الأندلس ، فنجح السفير في مهمته وعاد إلى أوبييدو عاصمة ليون ، ومعه رفات القس أولوخيو وصاحبه ليوكريسيا ، وهما اللذان أعدما بقرطبة قبل ذلك بنحو عشرين عاماً ، ونظمهما النصارى في سلك القديسين .

ولنترك الآن حوادث الثغر الأعلى لحظة لنستعرض ما حدث خلال هذه الأعوام المليئة بالفتنة في أنحاء الأندلس الأخرى . ففي ماردة وبطليوس عادت الثورة إلى الاضطراب . وذلك أن عبد الرحمن بن مروان الملقب بالجليقي - لإنتائه

(١) نقل إلينا هذه الرواية العذرى في كتابه « ترصيع الأخبار » وفيها أن محمداً بن لب تقاضى نظير تسليمه سرقسطة خمسة عشر ألف دينار . وكان ذلك في سنة ٢٦١ هـ . (الأوراق المنشورة من الكتاب المذكور ص ٣٥) . هذا وقد أورد لنا العذرى تفاصيل كثيرة عن موسى بن موسى بن قس وأولاده وأحفاده ، وثوراتهم ، وما خاضوه من الوقائع المختلفة في الثغر الأعلى زهاء نصف قرن (الأوراق المذكورة ص ٢٩ - ٤٠) .

إلى أسرة من المولدين أصلها من ولاية جليقية في شمال البرتغال - استطاع أن يفر من قرطبة مع نفر من صحبه . وكان بنو الخليقي قد استقروا بماردة منذ أمد طويل ، وتولى أبوه مروان بن يونس الخليقي حكم ماردة أيام الأمير عبدالرحمن ، فلما اضطرت الثورة بماردة قتله أهلها (سنة ٢١٣ هـ) . وكان ولده عبد الرحمن طموحاً لا يشعر بالولاء نحو حكومة قرطبة ، فانظم في سلك الخوارج ، واشترك في الثورة ضد الأمير محمد . فلما أخذت الثورة وتم إخضاع ماردة في سنة ٢٥٤ هـ (٨٦٨ م) قبض الأمير على عبد الرحمن الخليقي ونقله مع باقي الزعماء الثائرين إلى قرطبة حسبما تقدم . وكان فرار الخليقي من قرطبة في أوائل سنة ٢٦١ هـ (٨٧٥ م) على أثر مشادة وقعت بينه وبين القائد هاشم بن عبدالعزيز كبير الوزراء أهانه خلالها وصفعه ؛ فغادر قرطبة خفية مع جمع من أنصاره ، واستولى على قلعة ألانية (أو قلعة الحنش)^(١) في جنوبي ماردة وتحصن بها ؛ واستولى زميله في الخروج والعصيان مكحول ابن عمر على قلعة جلمانية^(٢) القريبة منها . واجتمع إليهما جمع غفير من المارقين والمتمردين ، واشتد عيئهما في سائر الأنحاء المجاورة . وعندئذ سار الأمير لقتال الثائرين في قوة كبيرة . فلما علما بمقدمه استغاثا بزميلهما القديم سعدون بن عامر المعروف بالسرنباقي ، وهو أيضاً من زعماء الثوار المولدين ، وكان يعيش في كنف ألفونسو الثالث ملك ليون في مدينة برتقال جنوبي حليقية ، فسار إليهما في قوة من صحبه ، وانضم إلى قوات ابن مكحول . فضرب الأمير الحصار حول القلاع الثائرة ، وقطع عنها الماء ، واشتد في ذلك ، وجنده ترهق المحصورين كلما طلبوا الحصول على الماء والمؤن خارج الأسوار . فلما ضاقوا بالحصار ذرعاً ، اضطرب عبد الرحمن الخليقي أن يستجير بعبد الله ولد الأمير ، وأن يوسطه في الشفاعة والإذعان إلى طلب الأمان . وكان عبد الله لين العريكة محباً للسلم ، فتوسط لدى والده الأمير ، وألح حتى أسعفه بما طلب ، ووافق على منح الأمان للثائر ، على أن ينزل له عن قلعة الحنش ، وينصرف وقومه إلى بطليوس ، وكانت يومئذ خالية مجردة من الحصون فينزلون بها ، ويقومون بتعميرها . فقدم ابن مروان رهائنه وهم ولده محمد وثلاثون من أكابر قومه ، وسار إلى بطليوس وصحبه ، ونزلها وأخذ في تعميرها

(١) هي بالإسبانية Alange .

(٢) هي بالإسبانية Jurumena ، وهي تقع على مقربة من غربي بطليوس .

وماكاد الأمير يرتد أدرجه إلى قرطبة ، حتى حشد ابن مروان أنصاره من كل ناحية ومعظمهم من أهل الشر والمولدين الناقمين ، وأخذ في تحصين بطليوس ، وإعدادها للدفاع والمقاومة ، وبعث جواسيسه إلى قرطبة ، يتعرفون أخبار الأمير ويرصدون حركاته ، ويبعثون بها إليه تباعاً . ثم عقد حلفاً مع ألفونسو الثالث ملك ليون . وكان يدعو أنصاره إلى مذهب ديني جديد هو خليط من تعاليم الإسلام والنصرانية . واستمر على هذا النحو زهاء عام آخر ، وهو يغير على الأنحاء المجاورة ويرهق أهلها ، ويستلب أموالهم ومتاعهم .

فلما اشتد عيظه ، وضح المسلمون في تلك الأنحاء من شره وعدوانه ، وجاهر هو من جانبه بالعصيان وخلع الطاعة ، اعتزم الأمير محمد أن يعاقبه ويقمع شره بطريقة حاسمة ، فجهز إليه حملة كبيرة برياسة ولده المنذر ، وجعل قيادتها لوزيره الأثير هاشم بن عبد العزيز . وسارت هذه الحملة صوب بطليوس في شهر شعبان سنة ٢٦٢ هـ (٨٧٦ م) ، فلما علم ابن مروان بمقدم جند الأمير ، وشعر بصعوبة الدفاع عن بطليوس لاتساعها ، غادرها مع قواته ، وانضم إليه كثير من المولدين من الأنحاء المجاورة ممن خشوا بطش قوات الأمير بهم ، ونزل بحصن كركي أو كركو القريب وامتنع به ، وبعث إلى سعدون السرنباقي في طلب النجدة . وسار المنذر وهاشم إلى بطليوس ، فألقياها خالية ، فسارا في أثره ، واحتل هاشم حصن منت سلود (منت شلوط) الواقع جنوبي بطليوس خوفاً من أن يحتله الثوار ، وضرب المنذر الحصار حول حصن كركي . وفي تلك الأثناء قدم سعدون السرنباقي في صحبه ، ومعه قوة كبيرة من النصارى أمده بها ملك ليون ، واشتبك في طريقه بمدينة قلمرية بحاميتها ، وهم قوم من البربر من بني دانس من مصمودة ، وفتك بهم ، وكانوا على الطاعة ، فبعثوا إلى هاشم بن عبد العزيز يستغيثون به . ووقف هاشم من ثلاثه على مقدم سعدون وقواته ، وما فعله بأهل قلمرية ، فخرج إلى لقائه متحمساً تواقاً إلى الانتقام ، وكان سعدون قائداً مجرباً وافر المرأة ، وكانت لديه فرق مختارة من الفرسان والرماة ، فرتب معظم قواته وراء التلال ، وتقدم للقاء قوات هاشم ، واعتقد هاشم أنه يستطيع سحق الثوار بأيسر أمر ، والتقى الفريقان في مخاضة النهر جنوبي بطليوس ، وفاجأت خيل سعدون قوات الأندلس وأرهمتها ، وكثر فيها القتل ، وتقدم هاشم بن عبد العزيز إلى المعركة ،

بعيداً عن مركز قيادته ، فأصابته جراح ، وأحاطت به فرسان العدو ، وكادت تجهز عليه ، لولا أن عرفه بعضهم ، فقبض عليه ، وحمله معه سعدون أسيراً إلى حصن منت سلود ، وكانت قوات الأمير قد غادرته . وكانت هزيمة قوات الأندلس ، وأسرفائدهم على هذا النحو ، في الثاني عشر من شهر شوال سنة ٢٦٢ هـ (يونيه سنة ٨٧٦ م) . ولما علم المنذر بن محمد بما وقع لجنده من الهزيمة وأسرهاشم ، وكان مقيماً على حصار الحلبي ، شدد في الحصار أياماً أخرى ، ثم انصرف قافلاً ببقية الجيش إلى قرطبة . وسار الحلبي وسعدون ومعهما أسيرهما القائد هاشم غرباً ، وهما يعيثان فساداً في الأرض . وحصل الحلبي أولاً على هاشم ، وكان يؤمل أن يتخذه أداة للمساومة مع الأمير ، ولكن سعدون استرده منه فيما بعد ، خوفاً من غضب سيده وحاميه ملك ليون ، وتوجه به سعدون بالفعل إلى ألفونسو الثالث ، فتسلمه وحصل في يده ، واستمر أسيراً لديه بمدينة أوبيدو زهاء عامين ، حتى تم الإفراج عنه لقاء فدية كبيرة بلغت مائة وخمسين ألف دينار^(١) .

واستمر ابن مروان أعواماً وهو يسيطر على منطقة بطليوس ، ويعيث في أنحاءها فساداً ، ويخرج منها للإغارة على ناحية الغرب حتى أشبونة ، وجنوباً حتى باجة وأطراف أكشونية ، ثم أن بعض أصحابه اختلفوا معه ، وغادروه إلى بلدهم ماردة بعد أن حصلوا على أمان من الأمير . ولما شعر بقله جمعه ، وخشى مطاردة الأمير وانتقامه ، عول على أن يخذو حذو صاحبه سعدون في الانتجاع إلى ملك جليقية ، فقبل الملك النصراني ملتصمه ، وأنزله مع صحبه في حصن بطرسة بوادي دويره على مقربة من ليون ، ولبت في كنفه أعواماً . ثم دب الخلاف بينهما بسبب غارة قام بها ملك جليقية في منطقة بطليوس ومع ابن مروان ، وفيها بالغ الملك النصراني في قتل المسلمين ، ومعظمهم من أصحاب ابن مروان ورعاياه السابقين (سنة ٢٦٦ هـ - ٨٧٩ م) . فغادره ابن مروان مغضباً ، وعاد إلى منطقة بطليوس ، ليستأنف غاراته وعيئه في أراضي النواحي المجاورة . وفي سنة ٢٧١ هـ (٨٨٥ م) سير إليه الأمير محمد ولده المنذر في قوة كبيرة ، فزحف على بطليوس ، ففر منها

(١) نخصنا ما تقدم من رواية عيسى بن أحمد الرازي المسمية التي نقلها إلينا ابن حيان ؛ وقد وردت في مخطوط القرويين في اللوحات ٢٦٧ أ وب و ٢٧٣ أ وب و ٢٧٤ أ وب ، و ٢٧٦ ب و ٢٧٧ أ حتى ٢٨٠ أ . وراجع البيان المغرب ج ٢ ص ١٠٤ و ١٠٥ .

ابن مروان وتمحصن بجبل « أشرو وغيره »^(١) فأحرق المنذر بطليوس ودمر حصونها .
وفي العام التالي سارت حملة أخرى بقيادة الوزير هاشم إلى « أشرو وغيره » لقتال
ابن مروان ، فحاصره حيناً ثم ارتد عنه دون إخضاعه . ولما أعيأ الأمير أمره ،
انتهى أخيراً إلى قبول شروطه في الاستقلال بحكم بطليوس وما جاورها ،
والإعفاء من المغارم والفروض^(٢) .

ووقعت في ذلك الحين ثورات محلية أخرى ، فخرج في شنت برية^(٣) مظفر
ابن موسى بن ذى النون وزحف على طليطلة ، فلقبه جندها فهزمهم ، وقوى
أمره في تلك الجهة ، وأضاف إلى شنتبرية ما حولها من البلاد والحصون .
ويرجع ظهور بني ذى النون ، وهم سادة مملكة طليطلة أيام الطوائف ، إلى
ذلك العهد . وخالصة ما تقدمه إلينا الرواية في ذلك ، هو أن جددهم ذا النون
(أو زنون) بن سليمان الهوارى ، كان زعيماً لشنت برية من أعمال قونقة ، ومر
به الأمير محمد في بعض غزواته إلى الثغر ، وقد مرض له خصى من أكابر فتيانه ،
فتركه عند ذى النون حتى يحدث الله فيه أمره . فاعتنى به ذو النون حتى برئ من
علته ، وصحبه بنفسه إلى الأمير بقرطبة ، فكافأه الأمير بأن أقره على ناحيته .
واستقام ذو النون على الطاعة حتى توفى ، وخلفه ولده موسى ، فنبد الطاعة ،
وانتظم في سلك الخوارج ؛ ولما توفى سار ولده مظفر على خطته ، وأضحى بنو
ذو النون من زعماء الفتنة في الثغر الأوسط^(٤) . وخرج أسد بن الحرث بجبهة رندة^(٥)
وأخذ ضرام الفتنة ينساب إلى كل ناحية ، ونشط النصارى في الشمال ، يتربصون
لإذكاء الفتنة ، وانتهاز الفرصة السانحة للإغارة على الأراضي الإسلامية .

وانبعثت من هذا الضرام شرارة في الجبال الجنوبية ، قدر لها أن تستفحل
بسرعة ، وأن تغدو أخطر ما يهدد سلام الأندلس وعرش بني أمية . ففي جبل
بُبَشْتَر^(٦) ، فيما بين رندة ومالقه ، ظهر عمر بن حفصون أعظم ثوار الأندلس ،

(١) واسمه بالإسبانية *Esparragosa* . وهو يقع بين نهر وادى يانة وجبال المعدن .

(٢) البيان المغرب ج ٢ ص ١٠٥ و ١٠٦ و ١٠٨ . وراجع *Dozy : Hist. ; V. II p. 8-11*

(٣) وهي بالإسبانية *Santaver* وهي تقع جنوب شرق وادى الحجارة . وهي غير شنتبرية الشرق .

(٤) مخطوط القرويين لوحة ٢٧٢ ب .

(٥) ابن خلدون ج ٤ ص ١٣١ .

(٦) وبالإسبانية *Bobastro*

وأشدّهم مراساً ، وأخطرهم جانباً . وكانت سلسلة الجبال الواقعة بين رندة ومالقة مأوى الأشقياء والعصاة . وكان عمر سليل أسرة من المولدين ترجع إلى أصل نصراني قوطي . وقد سجلت لنا الرواية الأندلسية نسبه ، فجده عند الفتح هو ألفونسو القس ، وجده الرابع جعفر هو أول من اعتنق الإسلام من أسرته (١) . ونشأ بينهم في تاكرنا من أعمال رندة . وكان والده حفصون ذا مال ووجاهة . ونشأ ولده عمر فاسداً سيئ السيرة ، غنياً يعتدى على النفس والمال ، ولم يلبث أن هجر أسرته وأطلق العنان لأهوائه وغيه ، والتف حوله جماعة من أهل الفساد والبغى ، فألف منهم عصابة معتدية ناهبة ، ونزل بمكان منيع بجبل ببشتر الواقع شمال شرق جبال رندة ، وكان ذلك في سنة ٢٦٧ هـ (٨٨٠ م) . وقد وصف لنا ابن حيان مؤرخ الأندلس ابن حفصون عند ذكر الخوارج في تلك العبارة الجامعة : « إمامهم وقودتهم عمر بن حفصون ، أعلامهم ذكرأ في الباطل ، وأضحخمهم بصيرة في الخلاف ، وأشدّهم سلطاناً ، وأعظمهم كيداً ، وأبعدهم قوة » (٢) .

ويشرح لنا الرازي البواعث الأولى لهذه الفتنة التي اضطرت في كورة ريه والجزيرة ، فيقول لنا إن السبب في تحريكها يرجع إلى عنف يحيى بن عبد الله ابن يحيى عامل الأمير محمد في كورة ريه ، في مطالبته لأهلها ببقايا عشور تأخرت عليهم ، واشتطاطه في ذلك وإرهابهم ، فامتنعوا عليه واعتصموا بجبالهم ، وتأهبوا للدفاع عن أنفسهم ، فحشد يحيى بن عبد الله قواته لقتالهم ، واستدعى أخاه أحمد ابن عبد الله عامل كورة الجزيرة بقواته لمعاونته في حربهم ، ونشبت بين قوات الأمير وبين الخوارج معارك عنيفة قتل فيها كثير من الفريقين ، وكان ذلك في سنة ٢٦٥ هـ (٨٧٨ م) . وفي العام التالي سار بالصائفة إلى كورة ريه عبد الله ابن الأمير محمد ، وعلى قيادة الجيش الحاجب هاشم بن عبد العزيز ، وكان قد أطلق سراحه من الأسر ، وعاد إلى سابق مكانته لدى الأمير محمد ، واستأنف القيادة لأول مرة ، فاشتد في مطاردة الخوارج ، ومزق جموعهم ، وأنشأ عدة

(١) قال ابن خلدون عن ابن حيان إنه عمر بن حفصون بن عمر بن جعفر بن دميان بن فرغلوش ابن أدفونش القس (ج ٤ ص ١٣٤) . وزاد عليها صاحب البيان المغرب اسماً آخر (ج ٢ ص ١٠٨) .
(٢) ابن حيان في المقتبس ، وهو السفر الثالث المطبوع بعناية المستشرق الأب ملسيور أنتونيا (باريس ١٩٣٧) ص ٩ .

من الحصون لمدافعتهم ، ولكن الفتنة لم تقمع ، وظلت سحب الخروج والعصيان قائمة ، وعمت الفوضى كورة ريه بأسرها .

في هذا الأفق المضطرب ظهر ابن حفصون ؛ وكانت حوادث ريه مقدمة هذه الفتنة الهائلة التي تزعمها في جنوبي الأندلس ، والتي يصفها الرازي بأنها « طمحت على جميع فتن الأندلس ، بعمومها وامتداد أيامها ، ودفع أهل الشرور منهم نحوها »^(١) . وأخذ ابن حفصون ينتهز كل فرصة للإغارة على أطراف إقليم ريه ويوسعها تخريباً وسبياً ونهباً ، ثم يعتصم بأوكاره في جبل ببشتر ، فلما اشتد عينه وعدوانه ، سار إليه عامل ريه ، عامر بن عامر في بعض قواته ، فهزمه ابن حفصون وقوى بذلك أمره ، وهرع إلى لوائه كثير من أهل الشر والعصاة . وعزل الأمير عامل ريه المهزوم ، وبعث إليها بعامل جديد هو عبد العزيز بن عباس ، فسار إلى قتال ابن حفصون للمرة الثانية ، فامتنع الثائر بقلاعه ، ووقعت الهدنة بين الفريقين^(٢) . وعندئذ سير محمد وزيره هاشم بن عبد العزيز إلى كورة ريه في قوة كبيرة ، فشدد الحصار على ابن حفصون ، وجد في أثر العصاة والخوارج ، وأسر الكثير منهم ، وما زال حتى أرغم ابن حفصون على التسليم مع سائر عصابته ، وحملهم جميعاً إلى قرطبة . فعفا محمد عن الثائر وضمه إلى جيشه ، لما آتسه من براعته وقوة مراسه . ولما سار المنذر إلى الثغر الأعلى سنة ٢٧٠ هـ (٨٨٣ م) لقتال محمد بن لب ، كان ابن حفصون من ضباط جيشه . بيد أنه لم يكن راضياً كل الرضى عن منصبه ، وكانت نفسه الوثابة تنزع دائماً إلى الخروج والعمل الحر ، فلم يلبث أن فر من جيش الأمير مع نفر من صحبه ، ولم يلبث أن عاد إلى معاقله في ببشتر ، واستأنف ثورته ، ومن حوله جميع كبير من الخوارج والبغاة (٨٨٤ م) .

ولبث ابن حفصون مدى عامين يعيث في هذه المنطقة فساداً ، ويبث من حوله الذعر والروع . وفي صيف سنة ٢٧٣ هـ (٨٨٦ م) ، خرج المنذر إلى كورة ريه لقتال ابن حفصون ، وبدأ الزحف على مدينة الحامة في شمال شرقي مالقة ، وفيها الثائر ابن حمدون حليف ابن حفصون ، فسارع ابن حفصون إلى إنجاد حليفه ، واجتمع الثائران بمدينة الحامة لمقاتلة جند الأمير ، فحاصر المنذر الحامة مدى

(١) ابن حبان عن عيسى بن أحمد الرازي . مخطوط القرويين لوحة ٢٨٣ أ و ب .

(٢) البيان المغرب ج ٢ ص ١٠٧ .

شهرين ، ولما أشرفت مؤن المدينة المحصورة على النفاد ، خرج ابن حفصون وحليفه في جندهما ، واشتبكا مع جند الأمير في معركة عنيفة ، هزم فيها الثوار وجرح ابن حفصون ، وارتد مع أصحابه ثانية إلى الحامة واستعصم بها . وبينما المنذر مقيم على حصار الحامة ، إذ جاءته الأنباء من قرطبة بوفاة أبيه الأمير محمد . وكانت وفاته في ٢٩ صفر سنة ٢٧٣ هـ (أوائل أغسطس سنة ٨٨٦ م) فارتد لفوره إلى قرطبة ، تاركاً الحامة لمصيرها ، وتنفس ابن حفصون الصعداء ، وانتهر الفرصة السانحة للإغارة على معظم الحصون الواقعة في تلك المنطقة ، ولم يمتص سوى قليل حتى استطاع أن يبسط سلطانه على ريّه ورنده وإستجّة وغيرها .

كان الأمير محمد بن عبد الرحمن بن الحكم من خيرة أمراء بني أمية وأوفرهم ذكاء وفتنة^(١). وقال الرازي : « ولحمد في سلطانه الآثار الحميلة ، والآيات الجزيلة ، والفتوح العظيمة ، والعناية بمصالح المسلمين ، والتهمم بشغورهم ، والضبط لأطرافهم ، والتوجيه لمصالحهم »^(٢) ، وكان يرجو محمد أن يجرى على سنن أبيه من الإصلاح والإنشاء ، ولكن الحوادث سارت على غير ما يشتهي ، وسرت الفتنة إلى سائر أنحاء الأندلس ، واضطر أن ينفق حكمه الطويل في غزوات متعاقبة وكفاح مستمر . وكان عليه أن يصون عرش بني أمية ، وأن يحمي سلطان الدولة الإسلامية في الأندلس من الانهيار . وكانت مهمة شاقة ، ولكنه أبدى في الاضطلاع بها جلدأ وبراعة ، فكانت الصوائف لغزو أرض النصارى ، والحملات التأديبية لقمع الثوار ، تتوالى دون كلل ، وذلك بالرغم مما كانت تنتهي إليه في معظم الأحيان من النتائج السلبية . وكان الأمير محمد يعشق الجهاد والكفاح ، ويقود الجيش بنفسه كلما سنحت الفرص . وكان ولده المنذر ساعده الأيمن في تلك المهمة الخطيرة . واهتم محمد بأمر الجيش والأسطول ، وكان اهتمامه بتقوية الجيش ضرورة ، أملتها الظروف العصبية التي كانت تجوزها المملكة يومئذ . وتلقى الأرقام التي يقدمها إلينا ابن حيان نقلا عن معاوية بن هشام ، عن عدد الفرسان الذين يحشدون في مختلف الكور والمدن لغزوات الصوائف ، ضوءاً على مدى قوة الجيش الأندلسي

(١) ابن الأثير ج ٧ ص ١٤١ .

(٢) مخطوط القرويين لوحة ٢٢٢ أ .

يومئذ ، وقد كانت هذه الأرقام ، تفرض على النواحي ، ويؤخذون بها غير متقنين لها ، إلا لعذر قاهر أو لجذب بين . ومن ذلك كورة البيرة (غرناطة) ألفان وتسعمائة ، وجيآن ألفان ومئتان ، وقبرة ألف وثمانمائة ، وباغة تسعمائة ، وتاكرنا مئتان وتسعة وستون ، والحزيرة مائتان وتسعون ، وإستجة ألف ومائتان ، وقرمونة مائة وخمسة وثمانون ، وشذونة ستة آلاف وسبعمائة وتسعون ، وريثه ألفان وستمائة وسبعة ، وشريش ثلاثمائة واثنان وأربعون ، وفحص البلوط اربعمائة ، ومورور ألف وأربعمائة وثلاثة ، وتدمير مائتان ... أما قرطبة العاصمة فكانت تترك لاجتهادها وهمتها ، ويحشد أبناؤها بطريق التطوع خلافاً لأهل النواحي الأخرى . وكانت هذه الفرق تسمى بفرق الفرسان المستنفرين ويجرى « استنفارهم » أوقات الصوائف ، أو كلما بدرت من العدو حركة اعتداء على أهل الثغور . فاذا ذكرنا أن هذه الأرقام تتعلق بنواحي الأندلس فقط ، وإذا ذكرنا بعد ذلك حشود المشاة المستنفرة والمتطوعة ، استطعنا أن نقدر ضخامة الحيوش التي كانت الدولة الأندلسية تستطيع تعبئتها يومئذ^(١) . وأما الأسطول فقد عمل محمد ، على إنشائه ، لحماية الشواطئ الغربية ولغزو مملكة جليقية من ناحية البحر . وفي سنة ٨٦٦م (٢٥٢ هـ) سارت السفن الأندلسية بالفعل إلى شواطئ جليقية بقيادة أمير البحر عبد الحميد بن مغيث ، ووصلت إلى مصب نهر منبو . ولكنه لم يوفق إلى تحقيق بغيته ، إذ عصفت الرياح بالسفن فتفرقت وغرق معظمها في المياه الغربية^(٢) . وعنى محمد كذلك بتحسين أطراف الثغور ، وأقام عدة من المحلات والقلاع الدفاعية ، المنيعة فابتنى حصن شنت إشتين لحماية مدينة سالم ، وابتنى حصن ظلمنكة وحصن مجريط بمنطقة وادي الحجارة ، للدفاع عن طليطلة ، وكان شديد الاستخبار عن الثغور ، والبحث في مصالحها .

وبالرغم مما كان يقتضيه الجهاد المتواصل من النفقات الضخمة ، فقد كان الأمير محمد يذل وسعه لتخفيف الضرائب عن كاهل شعبه ، وقد رفع عن أهل قرطبة ضريبة « الحشود » ، واكتفى بدعوتهم إلى التطوع والجهاد في سبيل الله ،

(١) مخلوط القرويين لوحة ٢٥٤ ب . وراجع البيان المغرب ج ٢ ص ١١١ .

(٢) البيان المغرب ج ٢ ص ١٠٦ ، و Aachbach : Geschichte der Omajaden in

Spanien; B. I. s. 293.

فأقبلوا على تعزيده وتأيينه^(١). وأما عن العشور فقد أبدى محمد تشدداً في اقتضاها وقد نصح له وزيره عبد الرحمن بن غانم صاحب المدينة ، بأن يسقط العشور متى عدت الغلات ، لأن العشور إنما تفرض على الغلات إذا وهبها الله ، فإذا لم يزرع بذر ولم يستغل زرع وجب إسقاطها ، فلم يستمع إليه محمد في البداية وعزله ، وعين مكانه حمدون بن بسيل ، وكان فظاً ظلوماً ، فاشتط في تحصيل العشور ، حتى ضج الناس بالدعاء عليه ، ووصل صرختهم إلى الأمير ، وتوالت في نفس الوقت أعوام الجذب والقحط ، فاضطر الأمير أن يسقط عن الناس جملاً من العشور ، حتى يتنفس مخنقهم ، ويستطيعوا مواجهة أعباء الحياة ، ومواصلة نشاطهم العمراني ، وأعلن الناس عندئذ بشكره ومدحه الشعراء^(٢). وكان الأمير محمد بارعاً في الشؤون المالية ، دقيقاً في مراجعة الدخل والخرج ، وقد ساعده ذلك على ضبط شؤون الخزانة العامة^(٣). وفي عهده أصيبت الأندلس بالقحط مرتين ، الأولى بين سنتي ٢٥١ و ٢٥٥ هـ ، والثانية في سنة ٢٦٠ هـ ، وكان قحطاً شديداً استمر بضعة أعوام ، وكثر بسببه الغلاء والموت . ولكن الأندلس استطاعت أن تصمد للمحنة ، وأن تغلب عليها .

وفي عهده سار بلاط قرطبة على سنن الاعتدال ، ومجانبة البذخ الذي ساد في أيام أبيه عبد الرحمن ، وضعف نفوذ الجوارى والصقالبة في القصر ، ومع ذلك فقد استمر النظام الإداري الذي كان قائماً في عهد عبد الرحمن بتفاصيله تحت إشراف الأمير . وتولى زمام الأمور نفس الرجال الذين تولوها من قبل ، واجتمعت السلطات في أيدي أسرتي بني شهيد وبني أبي عبدة ، أعظم الأسر القرطبية يومئذ ، وتولى الحجابة لمحمد في البداية عيسى بن شهيد حاجب أبيه من قبل . وقد أشرنا من قبل إلى هذا الوزير النابه غير مرة . ثم خلفه في الحجابة عيسى بن الحسن ابن أبي عبدة ، فكان من أرجح الوزراء عقلاً وإصابة ، وكان طوال خدمته هدفاً لمنافسة هاشم بن عبد العزيز ودسائسه . وقد خلفه هاشم بالفعل في الحجابة ، ولبث يضطلع بها أعواماً طويلة حتى وفاة الأمير محمد ، وكان هاشم بن عبد العزيز ينتمي إلى أسرة من المولدين ، وكان من أعظم رجالات الحرب والسياسة في

(١) البيان المغرب ج ٢ ص ١١١ و ١١٢ ، وأخبار مجموعة ص ١٤١ و ١٤٢ .

(٢) ابن حيان - مخطوط القرويين لوحة ٢٣٩ أ و ٢٥٥ .

(٣) البيان المغرب ج ٢ ص ١١٠ .

عصره ، وقد تولى القيادة الفعلية لكثير من الغزوات والحملات حسبما فصلنا ، وكان من قبل من وزراء الأمير عبد الرحمن ، فلما صار الأمر إلى ولده محمد ، غدا من بين وزرائه أكثرهم حظوة لديه ، وغدا من خاصة جلسائه وندمائه ، وكان هاشم فوق ذلك أديباً متمكناً وكاتباً بليغاً ، وشاعراً مطبوعاً ، يقرب الأدباء والشعراء ، بيد أنه كان حاد الطبع قليل التحفظ ، لا يحسن اصطناع الرجال ، حتى أنه لما نكب في غزوة الخليقي وحمل أسيراً إلى ملك ليون (سنة ٢٦٢ هـ) لم يجد كثيراً من المدافعين عنه في محنته ، وسخط عليه الأمير محمد ، وأنحى عليه باللوم ، وكان يقول « هذا أمر جناه علينا فألحق بنا غضاضة ، واستزاد برأيه فضيع وصاتنا ، ولم يحكم تدبير ما صيرنا في يده من أمرنا » . ولم يدافع عن هاشم ، ويستدر عطف الأمير عليه سوى صديقه الوليد بن غانم صاحب المدينة أعنى حاكم قرطبة ، وقد أقنع الأمير بأن يولى وزيره المنكوب عطفه ، وأن يستخدم ولده مكانه ، حتى يتم إطلاق سراحه . وقد لبث هاشم بن عبد العزيز أسيراً في أو بييدو عاصمة ليون زهاء عامين ، حتى تم افتدائه وإطلاق سراحه لقاء فدية ضخمة حسبما أشرنا إلى ذلك من قبل (١) .

وكان من وزراء الأمير محمد ، أمية بن عيسى بن شهيد ، وكان من أجل وزرائه وآثرهم لديه ، وأخصهم بخدمته ؛ والوليد بن غانم المتقدم الذكر ، وكانا يتعاقبان في منصب ولاية المدينة ، وهو من أهم مناصب الدولة يومئذ ، لما يتطلبه من الحزم وقوة الشكيمة ، والزهافة في نفس الوقت . ومنهم تمام بن عامر الثقفي الشاعر الأديب ، وكان مؤرخاً راوية كتب أرجوزة طويلة في فتح الأندلس ، وقد اشتهر ببراعته في لعبة الشطرنج ، وكانت من أسباب حظوته لدى الأمير ، وتمكن منزلته لديه ، وقد ذاعت في أيامه ذيوعاً عظيماً . ومنهم كذلك سليمان ابن وانسوس ، وهو من أشرف البيوتات البربرية ، وكان جده رئيساً مطاعاً بماردة ، وقد ثار فيها أيام الحكم بن هشام ، وكان أديباً وافر الواجهة ، وقد تولى خطة السوق وهو اسم ولاية الحسبة يومئذ . وكان من الوزراء الكتاب عبد الملك بن عبد الله بن أمية ، وكان كاتباً بليغاً (٢) .

(١) ابن حيان في مخطوط القرويين لوحة ٢٢٨ أ و ب و ٢٣٠ أ و ٢٣٥ ب .

(٢) مخطوط الترويين لوحة ٢٣٠ ب و ٢٣٢ أ و ٢٣٣ ب و ٢٣٥ أ .

وكانت تربط الأمير محمد بأمراء المغرب المعاصرين ولا سيما بنو رستم أمراء تاهرت ، وبنو مدرار أمراء سجلماسة وغيرها ، علائق مودة وصداقة متينة العرى . فكانوا يستمدون منه العون والنصح في شئونهم ، وكان هو من جانبه شديد الاهتمام بأخبارهم وأحوالهم ، وتردد إليهم رسله وكتبه في البحث عن أخبار بني العباس بدار مملكتهم ، وأخبار ولايتهم وعملهم بالشام وإفريقية . وكان شارل الأصغر ملك فرنسا (إفرنجية) يقدر خلاله ويتودد إليه ، وربما تبادلوا المراسلة والهدايا^(١)؛ والظاهر أن ملك فرنسا كان يؤثر سياسة السلم مع حكومة قرطبة خشية أن يتكرر غزو المسلمين لسبتمانيا . وكانت تربطه في الوقت نفسه علائق مودة ببني قسي سادة الثغر الأعلى ، الذين ظهروا بمغامراتهم فيما وراء جبال البرنيه . وعلى الرغم من أن وقت الأمير محمد لم يتسع كثيراً للأعمال الإنشائية ، لما زخر به من الفتن والغزوات المتوالية ، فقد قام منها بطائفة حسنة . وكان في مقدمتها منشأته بالمسجد الجامع ، فقد عني أولاً بإتمام الزيادة التي بدأها أبوه عبد الرحمن في وسطه وأقام فيها المقصورة ، وكان أول من اتخذها هنالك من الخلفاء ، وأصلح جناحه القديم الذي أنشأه عبد الرحمن الداخل ، وجدده وأعادته إلى رونقه القديم . ولما تمت هذه الزيادات والإصلاحات ركب الأمير إلى الجامع وزاره في موكب فخيم ، وأشادت بعمله الشعراء . وأصلح محمد جامع إستجة وجامع شذونة ، ومساجد عديدة أخرى في مختلف الأنحاء ، وأنشأ زيادات كثيرة بالقصر وملحقاته امتازت بالجمال والإناقة . وعنى بتجديد منية الرصافة التي أنشأها جده الأعلى عبد الرحمن الداخل ، وجدد حدائقها ومنتزهاتها ، وزودها بالأشجار والغراس النادرة ، وجعلها منتدى نزهه وأسمازه . وفي ذلك يقول عباس بن فرناس من قصيدة :

كان قصور الأرض بعد تمامه بنواً لذرى أخفى شخوصاً من الدر
وتنتشر الأبصار منها إلى مدى التنزه بالأطيار والوحش والزهر
فأعجب من أفنانها الغرر التي يقيل بهن البرد في وعوة الحر
هم بأخفى سرها غير كاتم صمداها فأخفى السر بها من الجهر
كأن الذي يخفى الحديث بنجوها على أخفض الأصوات يشدو على وتر

(١) البيان المغرب ج ٢ ص ١١١ . ويسمى ملك فرنسا هنا خطأ بفردلند .

وأنشأ محمد له كذلك منية خاصة في مكان ضيعته المسماة « كنتش » الواقعة جنوب غربي قرطبة ، عرفت « منية كنتش » وعنى بتجميلها ، وجعلها كذلك موطناً لنزهه ومسراته . وهي التي يقول فيها ابن عبد ربه صاحب العقد الفريد :
ألما على قصر الخليفة فانظرا إلى منية شيدت لأزهارا
هي الزهرة البيضاء في الأرض ألبست لها الزهرة الحمراء في الجو مغفرا (١)
وكان الأمير محمد ربيع القوام ، أبيض مشرباً بحمرة ، أوقص (٢) ، مخضب بالحناء . وكان كثير الأناة والحلم ، عطوفاً على أخوته وآل بيته ، وقد عني منذ ولايته بشئون الأكارم من أخوته ، فأعد لهم الدور الفخمة خارج القصر ، ووهبهم الضياع المغلة ، وأجرى عليهم الأرزاق الواسعة ، واستعمل من يصلح منهم للأعمال البعيدة . وكان فوق رجاحة عقله ، أديباً ، يشغف بالبيان ، بليغاً في كتبه ، محسناً في توقيعه . بيد أنه لم يكن شاعراً مثل أبيه وجده . وكان مكرماً لأعلام الناس ، وذوى العلم والحجى منهم ، يرفع مجالسهم ، ويكثر من رعايتهم ، ويستشعر مع ذلك الحذر من منافستهم وتحاسدهم ، وبأبى الإصغاء لسعائياتهم . وكان يجمع حوله صفوة من الشعراء والعلماء (٣) مثل عباس بن فرناس ، ومؤمن ابن سعيد ، وابن عبد ربه ، وهم من أقطاب الشعر في عصره ؛ ومن العلماء عبد الله ابن حبيب أعظم علماء الأندلس في عصره ، وقد توفى في صدر ولايته ، وبقى بن مخلد وعيسى بن دينار ، ومحمد بن عمر بن لبابة ، ومحمد بن عبد السلام الحشني ، وغيرهم . وقد اشتهر في عصره بالأخص الفقيه الورع العلامة بقى بن مخلد ، وكان فقيهاً حر الذهن ، واسع الأفق ، نشأ في قرطبة ، ورحل إلى إفريقية والمشرق ، ودرس دراسة مستفيضة . ولما عاد إلى الأندلس ، حقد عليه فريق من فقهاءها ، لغزارة علمه ، وتفوقه عليهم ، ولا سيما في أساليب الحديث والرواية ، وحاولوا اتهامه بالزندقة ، والإيقاع به لدى الأمير ، فاستجار بقى بالحاجب هاشم بن عبد العزيز ، وكتب إلى الأمير يناشده الله في دمه ، ليرى رأيه فيه بعد سماع حجته ، فأسغفه هاشم وشرح للأمير قضيته ، وعقد له الأمير مجلساً لمناجزته خصومه فتناظروا بين يديه ، ودحض بقى تهم خصومه بقوة ، وألزمهم الحجة ، واستبان

(١) مخطوط القرويين في اللوحات ٢٤٣ - ٢٤٧ . وراجع أيضاً البيان المغرب ج ٢ ص ١٠٠ .

(٢) أعنى قصير المنق .

(٣) أخبار مجموعة ص ١٤٥ .

الأمير فضله وتفوقه ، وأسبغ عليه حمايته ورعايته ، وأعلى منزلته . ولبث بقى عمدة العلماء والفقهاء والمحدثين بالأندلس حتى توفى في سنة ٢٧٦ هـ ، في عهد الأمير عبد الله بن محمد^(١) .

وكان للفقهاء في عصر الأمير محمد نفوذ كبير في بلاط قرطبة ، وفي صوغ سياستها نحو النصارى . وكان محمد ينحو نحو أبيه عبد الرحمن في سياسة التسامح نحو النصارى ، وكان من أثر ذلك أن أقر الأسقف جومث قومس أهل الذمة على ولايته كما كان في عهد أبيه ، وذلك بالرغم من اعتراض الفقهاء وسخطهم ؛ وبالرغم مما كان ينقل إليه من نعي المشاركة على بنى أمية استخدام النصارى في بلاطهم وتوليتهم أسمى المناصب^(٢) .

وترك محمد من الولد ثلاثة وثلاثين من البنين وإحدى وعشرين من البنات^(٣)

(١) مخطوط القرويين اللوحة ٢٤٣ ب ، و ٢٥٣ ب . وراجع ترجمة بقى من مخطوط ابن الفرضى ، تاريخ العلماء والرواة بالأندلس ، رقم ٢٨٣ ؛ وكذلك البيان المغرب ج ٢ ص ١١٢ و ١١٣ .

(٢) أشار ابن القوطية إلى ذلك في رواية أوردها عن حديث جرى بين القائد ابن أبي عبدة وبين محمد بن الكوثر أحد كتاب الأندلس ، وصف فيه ابن الكوثر « أنه من عجائب الزمان أن يكون صاحب تلم بنى أمية الأعلى وكاتبها العظيم قومس النصراني » . وكتب إليه « أن من أعجب العجب أن يبلغ خلايف بنى العباس بالمشرق أن بنى أمية اضطروا في كتابتهم العظمى وقلمهم الأعلى أن يولوا قومساً النصراني ابن انتنيان ابن يلياته النصرانية » (واسمه بالإسبانية جومث بن أنتونيو ابن خوليان) - راجع افتتاح الأندلس ص ٨٢ و ٨٣ .

(٣) البيان المغرب ج ٢ ص ٩٦ .

الفصل الثاني

ولاية المنذر بن محمد بن عبد الرحمن

وبداية ثورة المولدين

ولاية المنذر . تأهبه لقمع الفتنة . الحاجب هاشم بن عبد العزيز . طغيانه وتوجس المنذر منه . سجنه ومصرعه . حملة إلى طليطلة والثغر الأعلى . اشتداد أمر بن حفصون وأطاعه . قضية المولدين وأثرها في ازدياد سلطانه . خروج المنذر لمحاربته . استيلاؤه على أرشدونة وباعة . محاصرته لابن حفصون في ببشتر . إذعان الثائر ثم نكته . هود المنذر إلى محاصرته . مرض المنذر ووفاته . رواية عن اغتيال المنذر . رفع الحصار عن ببشتر . صفات المنذر وخلاله .

وصل المنذر بن محمد بجيشه إلى قرطبة لأيام قلائل من وفاة أبيه ، عائداً من مقاتلة ابن حفصون . وفي الحال أعلنت بيعته في الثامن من ربيع الأول سنة ٢٧٣ هـ (أغسطس سنة ٨٨٦ م) . وكان في الرابعة والأربعين من عمره . وكان مولده في قرطبة سنة ٢٢٩ هـ (٨٤٤ م) ، وكان منذ فتوته أثيراً عند أبيه بين أبنائه الثلاثة والثلاثين ، مستأثراً بثقته وولايته عهداً . يختاره لجلال الأمور ، ويندبه لقيادة الجيش كلما جد الخطب . وقد أبلى المنذر حسبا رأينا بلاء حسناً ، في مقاتلة الثوار والخوارج ؛ وحينما تولى العرش ، كانت الفتنة قد تفاقمت ، وعمت الثورة معظم الأنحاء ؛ وكان المنذر رجل الموقف فتأهب لإتمام المهمة التي بدأها ، من العمل على سحق الثورة ، وتأييد النظام والأمن ، وحماية العرش والدولة ، من كيد الخوارج والطامعين .

وعهد المنذر بحجابته إلى القائد هاشم بن عبد العزيز حاجب أبيه وقائده ، وكان هذا الوزير القوي ، في أواخر عهد الأمير محمد ، قد استأثر بالسلطة ، وأصبح أقوى رجل في الدولة . وكان المنذر يخشاه ويتوجس من نفوذه وسلطانه ؛ وكان خصوم هاشم يكثرون من السعاية في حقه وإحفاظ المنذر عليه ، وتحذيره من أطاعه . فلما توفى الأمير محمد ، رأى المنذر أن يستمر هاشم في حجابته برأ منه بذكرى أبيه ، وأملاً في تحسن الأمور ؛ ولكن الظاهر أن الحاجب استمر في طغيانه ، ولم يكثرث للقوى المتألبة عليه ، وأذكت مساعي خصومه في نفس المنذر

نوجسه القديم منه ، وسخطه عليه ، فلم يمحض سوى قليل حتى اعتزم المنذر أمره ، وأمر بالقبض على هاشم وأولاده وصحبه ، ثم دس عليه في سجنه من قتله ، وهدم داره ، واستصنى أمواله ، وكان ذلك في جمادى الأولى سنة ٢٧٣ هـ ، أعنى لشهرين فقط من ولايته . وكانت ضربة جريئة تنبئ عن قسوته وصرامته . واستمر أولاد الحاجب القتل في السجن ، حتى أطلقوا بعد وفاة المنذر أيام أخيه الأمير عبد الله ، وردت إليهم أموالهم (١) . وفي تلك المحنة يقول هاشم بن عبد العزيز من شعر نظمته في سجنه :

سأرضى بحكم الله فيما ينوبني وما من قضاء الله للمرء مهرب
فمن يك أمسى شامتاً بي فإنه سينهل في كأسى وشيكاً ويشرب
ونذب المنذر لحجابته مكان الحاجب المقتول ، عبد الرحمن بن أمية بن شهيد ، وقد لبث بنو شهيد حسبنا رأينا عصرأ يستأثرون مناصب الحجابة والكتابة . وسير المنذر بعد ذلك بقليل حملة إلى طليطلة . وكانت قد عادت إلى الثورة ، واجتمع إلى أهلها كثير من البربر المنفيين من مدينة ترجيله أو رجاله (٢) ، الواقعة جنوبي غربي طليطلة ، فهزم الثوار وقتل منهم ألوف (٣) . وفي نفس هذا العام أيضاً ، غزا محمد بن لب زعيم الثغر الأعلى السابق ، ألبة والقلاع ، وقاتل النصراري وهزمهم ، وكان قد نزل عن سرقسطة حسبما تقدم وعاد إلى سابق ولانته (٤) . على أن أعظم ما كان يشغل المنذر ، هو القضاء على ابن حفصون عماد الثورة ومثير ضرامها في الجنوب . وكان ابن حفصون مذ بلغته وفاة الأمير محمد ورحل عنه المنذر ، قد اشتد بأسه وقويت نفسه ، وأخذ يعمل لإخضاع القواعد والحصون الجنوبية كلها ، فبسط سلطانه على كورة ريه بأسرها ، وامتد سلطانه إلى أرشدونة ومالقة وجيان وإستجة وغيرها . واجتمع إليه المغامرون والخوارج من سائر أقطار الأندلس ، وأخذ يطمح إلى الاستيلاء على الأندلس كلها ، وأظهر الدعوة لبني العباس ، وكاتب ابن الأغلب أمير إفريقية (تونس) في ذلك ، ولكن ابن الأغلب

(١) البيان المغرب ج ٢ ص ١١٨ و ١١٩ .

(٢) وهي بالإسبانية Trujillo .

(٣) البيان المغرب ج ٢ ص ١١٩ .

(٤) البيان المغرب ج ٢ ص ١١٨ .

لم يستجب إلى دعوته^(١). ولم يكن ابن حفصون ثائراً عادياً يعتمد فقط على أساليب العنف ، ولكنه كان صاحب دعوة سياسية يدعو الكافة إلى اعتناقها . وقد كان ابن حفصون حسباً قدمنا مولداً ، يمثل في ثورته ، كل ما يجيش به المولدون نحو العرب الفاتحين ونحو حكومة قرطبة من الحفيظة والبغض . وقد أشرنا من قبل في حديثنا عن عناصر الأمة الأندلسية ، إلى أولئك المولدين - وهم الإسبان الذين أسلموا منذ الفتح - وبيننا كيف كانوا يؤلفون عنصراً من أهم عناصرها ، من حيث الكثرة والمستوى الإجتماعي ، وقد كانوا بالرغم من اندماجهم في المجتمع الإسلامي يحتفظون دائماً بنزعة إستقلالية واضحة ، ويبغضون العرب والبربر معاً ، وقد ظهرت هذه النزعة الاستقلالية بالأخص في الثغر الأعلى ، حيث لبث بنو موسى ، وبنو عمرو ، وبنو الطويل ، وهم جميعاً من الأسر المولدة القوية ، عنصراً يتحدون السلطة المركزية ويقاومونها . وكانت ثورة ابن حفصون زعيم المولدين في الجنوب ، هي المرحلة الثانية لتلك النزعة الثورية التي رفع المولدون لواءها ضد حكومة قرطبة . وهكذا كان ابن حفصون يدعو المولدين ومن إليهم من عشاق الخروج والفوضى ، إلى تأييد قضية الإستقلال والحرية ، ويذكرهم بما ينالهم من عسف السلطان ، وانتزاعه لأموالهم ، وتكليفهم فوق طاقتهم ، وكيف أذلتهم العرب واستعبدتهم ، وقضت على حرياتهم واستقلالهم ؛ وأنه إنما ينهض ليأخذ بثأرهم ، ويرفع عنهم نير الطغيان والعبودية . وناهيك بما كانت تبثه هذه الدعوة المثيرة ، في نفوس سكان هذه المناطق الجبلية من الحراسة والتعلق بقضية الحرية ، وهي لا تعنى في نظرهم سوى التفاني في مقاتلة حكومة قرطبة . وهكذا كانت الجموع الغفيرة تحشد حول ابن حفصون ودعوته ، ويشدد نفوذه ويمتد سلطانه بسرعة ؛ وبالرغم من أن حكومته كانت تقوم على الخروج والثورة ، وكان معظم صحبه من أهل البغي والشر ، فقد كان الأمن يسود المناطق التي يسيطر عليها ؛ وكان صارماً في أحكامه وعقوباته ، شديداً على كل مخالف ومستهتر ، وكان فوق ذلك كله متودداً لأصحابه ، متواضعاً بكرم الشجعان ويشبههم ، فكانت هذه العوامل كلها مما يقوى نفوذه ويوطد سلطانه^(٢) .

(١) ابن حيان في المقتبس (القسم المطبوع) ص ٩٣

(٢) البيان المنرب ج ٢ ص ١١٧ و ١١٨ .

وبلغ ابن حفصون في زحفه إلى المنطقة الوسطى أحواز جيان ، وما يليها من الغرب ، واستولى على باغة « بريجو » (١) وأسرها كلها ، واستولى على قبرة ، الواقعتين في جنوبي غربي جيان ، وعلى حصن أشرس الواقع في شمال كورة ريه . وسير المنذر بعض قواته إلى تلك الأنحاء ، فاستردت حصن أشرس وبعض القرى المحاور لقبرة . وفي ربيع العام التالي (٢٧٤ هـ - ٨٨٧ م) خرج المنذر بنفسه في قواته معزماً أن يسحق الثائر ، وأن يقضي على الثورة في الجنوب ، وزحف توأ على كورة ريه ، وحاصر أرشدونة الواقعة في جنوب غربي لوشة حتى سلمت ، وقبض على عيشون حاكمها من قبل الثائر وعلى صحبه ؛ وافتتح حصون جبل باغة (بريجو) وأسرها بنى مطروح حلفاء الثائر ، وهم حرب وعون وطالوت ، وبعث بهم جميعاً إلى قرطبة حيث قتلوا صلباً ، وصلب مع عيشون خنزير وكلب ، إمعاناً في التمثيل به . وكان ابن حفصون أثناء ذلك ممتنعاً بقلاعه في ببشر ، فطوقه المنذر بقواته وشدد في حصاره ، وقطع كل علائقه مع الخارج . فلما ضاق الثائر ذرعاً بالحصار وشعر بنفاد أقواته ، لجأ إلى الخديعة وعرض التسليم والخضوع ، وطلب الصلح الأمان ، على أن يسير بأهله وولده إلى قرطبة ، فأجابه الأمير إلى طلبه ، وعقد له الأمان ، وأمدّه بالثياب والدواب والمؤن ؛ وطلب الثائر من الأمير مائة بغل لتحمل أهله ومتاعه فزوده بها ، وبعث بها ابن حفصون إلى قلاعه ، ورفع المنذر الحصار عن ببشر ، وقفل راجعاً بجيشه إلى قرطبة . ولكن ابن حفصون فر من الجيش تحت جنح الظلام ، وعاد إلى ببشر وامتنع بها ، بعد أن قويت نفسه بما حصل من الأمداد . فاستشاط المنذر حنقاً لتلك الحيانة المثيرة ، وارتد راجعاً بجنده إلى ببشر ، وضرب حولها الحصار مرة أخرى ، معزماً ألا يرحها حتى يقبض على الثائر حياً أو ميتاً ، واستمر الحصار ثلاثة وأربعين يوماً . ومريض المنذر أثناء ذلك ، واستقدم أخاه عبد الله من قرطبة لينوب عنه في متابعة الحصار ، ولم يأت منتصف صفر سنة ٢٧٥ هـ (يونيه ٨٨٨ م) حتى قضى المنذر نجه تحت أسوار ببشر ، بعد حكم لم يطل سوى عامين . وفي بعض الروايات أن المنذر توفي قتيلاً بتدبير أخيه عبد الله ، وأن عبد الله رغبة منه في التخلص من أخيه واعتلاء العرش مكانه ، حرض طبيبه (حجامه) على قتله ، فقصده الطبيب بمبضع مسموم

(١) وهي بالإسبانية Priego .

أثناء حصاره لببشتر ، فتوفى من أثر السم . ويؤيد هذه الرواية من مؤرخي الأندلس ، ابن القوطية وابن حزم ، ويرى ابن حزم بنوع خاص أنها رواية معقولة يؤيدها خلق عبد الله وسياسته الدموية . ذلك أنه قتل فيما بعد اثنين من أبنائه ، وهما محمد والد الناصر والمطرف ، ثم قتل أخوين له وهما هشام والقاسم ، فليس غريباً أن يكون هو مدبر جريمة يرتفع بها إلى العرش (١) .

وعلى أثر وفاة المنذر ، رفع الحصار عن ببشتر للمرة الثانية ، وقفل الجيش راجعاً إلى قرطبة ، وأنقذ ابن حفصون من خطر محقق ، وعاد ينظم شتونه ، ويوطد سلطانه في الأنحاء الجنوبية .

وكان المنذر أمراً وافر العزم والحزم ، ذا شجاعة وبأس ، وكان خلال الفتنة التي ثار ضرامها في أيام أبيه ، معقد آمال الحكومة والجيش ، وكان زعماء الفتنة يهابونه ويخشون جانبه ، لما عرف من حدته وصرامته ، وكان موته تحت أسوار ببشتر ضربة مؤلمة لحكومة قرطبة . ولو امتد به الأجل قليلاً لاستطاع أن يقضى على ابن حفصون وأضرابه من زعماء الفتنة ، ولأمنت الأندلس شر تفاقمها بعد ذلك . وكان المنذر فوق ذلك يعشق مجالس الشعر والأدب ، ينشده الشعراء قصائدهم ويجزل لهم العطاء . وكان من شعراء دولته ابن عبد ربه صاحب العقد الفريد والعكبي وغيرهما (٢) .

وكان المنذر أسمى طويلاً ، جعد الشعر ، كث اللحية ، بوجهه أثر جلدي (٣) ،

(١) ابن القوطية في افتتاح الأندلس ص ١٠٢ ، وابن حزم نقلاً عن ابن حبان في رسالة

«نقط العروس» ص ٧٨ و٧٩ . وينقل صاحب البيان المغرب أقوال ابن حزم ج ٢ ص ١٠٦ و١١١ .

(٢) البيان المغرب ج ٢ ص ١٢٣ ؛ وابن الأثير ج ٣ ص ١٤٥ ، وابن الأبار في الحلة

بالسيراء ص ٩٠ .

(٣) ابن الأثير ج ٧ ص ١٤٥ ؛ والبيان لمغرب ج ٢ ص ١١٦ .

الفصل الثالث

ولاية عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن

١ - ثورة المولدين والعرب

عبد الله يلى العرش فى ظروف صعبة . استفحال الثورة وامتدادها إلى زعماء العرب والبربر . ابن حفصون يحاول التفاهم مع الأمير . نكته ومسير عبد الله إلى قتاله . الثورة فى جيان . حيث ابن حفصون واشتداد غاراته . مسير عبد الله إلى قتاله . موقعة بلاى . هزيمة ابن حفصون وفراره . أهمية موقعة بلاى وأثرها الحاسم . أقوال الشعر فيها . ثورة القبائل العربية بعد المولدين . الثورة فى كورة ريه واستفحالها . سوار بن حدون القيسى . استيلاؤه على إليرة وغرناطة . مصرعه . قيام سعيد بن جردى مكانه . الحرب بين العرب والمولدين . تفاهم سعيد مع الأمير . مصرعه وشاعريته . محمد بن أضحى . تفاهم الثورة بين القبائل العربية . الثورة فى جيان وتدمير . امتداد للفتنة إلى إشبيلية . بنو عبدة وبنو حجاج وبنو خلدون . رئاسة بنى عبدة . ثورة كريب بن خلدون وعيشه فى أحواز إشبيلية . ثورة بنى حجاج . مصرع أمية والى إشبيلية . الإضطراب والفوضى . مسير المطرف بن عبد الله إلى إشبيلية وهزيمته للشوار . حكم إبراهيم بن حجاج وكريب بن خلدون للمدينة . مصرع كريب وانفراد إبراهيم بالحكم . خروجهم على الأمير وعوده إلى الطاعة . دولة بنى حجاج فى إشبيلية وقرمونة . وفاة إبراهيم وخلاله .

خلف المنذر على العرش ، أخوه عبد الله بن محمد ، وبويع فى نفس اليوم الذى توفى فيه أخوه ، فى محلة الجيش تحت أسوار بُبشتر ، فى منتصف صفر سنة ٢٧٥ هـ (يونيه ٨٨٨ م) . وكان مولده بقرطبة فى نفس العام الذى ولد فيه أخوه المنذر ، أعنى فى سنة ٢٢٩ هـ (٨٤٤) وأمه أم ولد تدعى بهار ، وكان حينما تولى الملك فى السادسة والأربعين من عمره .

وعلى أثر البيعة ارتد عبد الله مع جيشه عائداً إلى قرطبة ، ومعه جثمان أخيه المنذر ، فدفن بمقبرة القصر ، واستتم عبد الله البيعة دون أن يعارضه أحد من أخوته العديدين .

وبدأ عبد الله حكمه الطويل المضنى فى ظروف قاتمة ، والخلاف بمزق أوصال المملكة ، وعرش بنى أمية يهتز تحت ضربات الخوارج والمتغلبين . ويصف لنا ابن الأثير عهد الأمير عبد الله فى هذه العبارة الجامعة: « وفى أيامه امتلات الأندلس

بالفن ، وصار في كل جهة متغلب ، ولم تنزل كذلك طول ولايته « (١) .
والحقيقة أن الثورة كانت قد استفحلت ، واندلع لهيبها في كل ناحية ، ولم تبق
قاصرة على المناطق الحليية ، بل تجاوزتها إلى القواعد والمدن الكبيرة ، مثل إشبيلية
وبطليوس وجيان ولورقة ومرسية وغيرها ؛ ولم تبق كذلك قاصرة على زعماء
المولدين الذين تحوهم نحو حكومة قرطبة عاطفة بغض طبيعي ، ولكنها امتدت
إلى زعماء القبائل العربية أنفسهم ، إذ رأوا الفرصة سانحة لاستقلالهم ، وتدعيم
سلطانهم ؛ وظهر البربر في الوقت نفسه في الميدان ، فاستعصم كثير من زعمائهم
بالحصون-النائية ، ونشبت المعارك العنصرية القديمة بين العرب والمولدين حينما
التقت حشودهم ، كما حدث في كورة ريه وإشبيلية ؛ ونشبت مثل هذه الخصومات
بين العرب والبربر ، وفيما بين العرب أنفسهم ، واستقل زعماء العرب بإلبيرة
وجيان ومنتيشة ولورقة ومدينة سالم ، واستقل زعماء المولدين بالثغر الأعلى وبطليوس
وباجة وجيان ومرسية ، وغدت إشبيلية مسرحاً للتنافس الدموي بين العرب
والبربر ، وبسط ابن حفصون سلطانه على معظم الأنحاء الجنوبية الغربية فيما بين
البحر ووادي شنيل ؛ وهكذا عمت الثورة معظم جنبات الأندلس ، ولم يبق
لحكومة قرطبة سلطان حقيقي إلا في منطقة العاصمة وأحوازها .

- ١ -

كان عبد الله يواجه هذه الخطوب كلها . وكان يرى إخماد الفتنة مسألة حياة
أو موت بالنسبة لسلطان العرش ، وكانت هذه مهمته الشاقة التي كرس لها كل
جهوده . وكان يرى أن الثورة في الجنوب هي أخطر ما يواجه العرش ، وأن
ابن حفصون قد غدا قوة يخشى بأسها ، وأنه يجب أن تتركس الجهود لتحطيم ثورته
وصحى قواه . وكان ابن حفصون يشعر من جانبه ، بأنه يواجه قوة العرش كلها ،
ومن ثم فقد حاول عقب ارتقاء الأمير عبد الله أن يحصل على هدنة يستطيع خلالها
أن ينظم شؤونه ويوطد سلطانه ؛ فبعث إلى قرطبة ابنه حفصاً مع جماعة من أصحابه
ليعقدوا السلم باسمه مع عبد الله ، على أن يستقر في منطقة ببشر في طاعة الأمير ،
فاستجاب عبد الله إلى طلبه ، ورد ابنه وصحبه رداً جميلاً وأجزل لهم الصلات ،
وبعث معهم عبد الوهاب بن عبد الرووف والياً من قبله على كورة ريه ليكون مع

ابن حفصون شريكاً في حكمها ، ولكن لم تمض بضعة أشهر ، حتى نكث ابن حفصون العهد وطرده عامل الأمير ، وأغار على البلاد المجاورة ، واستولى على أرشدونة ، وعاث فساداً في تلك المنطقة ، فسار إليه الأمير عبد الله في سنة ٢٧٦ هـ (٨٨٩ م) واجتاح منطقة ببشتر وخرها ، ولكنه لم ينل من الثائر مأرباً ؛ ولما ارتد إلى قرطبة خرج ابن حفصون في أثره ، وتوغل حتى إستجّة واستولى عليها ، فبعث إليه عبد الله الجند فردته عنها .

ولبت الثورة على اضطرامها في الجنوب . وخرج خير بن شاكر في جيان ، وطرده منها عامل الأمير واستولى عليها ، فسارت إليه جند الأندلس بقيادة أحمد ابن محمد بن أبي عبدة ، وحاصرته وقتلت كثيراً من أصحابه ، وخربت معظم دور جيان ، ثم عادت دون إخضاعه . وهنا بعث ابن حفصون جماعة من أصحابه إلى جيان بحجة معاونته ابن شاكر ، ولكنهم فتكوا به وحملوا رأسه إلى ابن حفصون ، فبعث بها إلى الأمير عبد الله سعيماً إلى مصانعه ومطاولته^(١) . وأكّن الأمير لم يخدع بسعيه . وسار ابن حفصون إلى جيان فعاث فيها وانتهب أموالها ، وأذل أهلها ، وساد الذعر والقوضى في تلك الأنحاء .

ودفع ابن حفصون غاراته شمالاً حتى أحواز قرطبة ، وبلغ من جرأته أن حاول إحراق نخيم الأمير في ضاحية شقنّدة على مقربة من العاصمة . فعندئذ عول الأمير عبد الله على أن يخرج لقتاله مرة أخرى ، فحشد ما استطاع من قواته ، واتجه نحو الجنوب إلى ناحية قبرة Cabra حيث حشد الثائر قواته في معقل بلاي أو « بليي » (بولي)^(٢) ، وكان حصن بلاي من أمنع حصون قبرة الواقعة على مقربة من جنوب شرقي قرطبة . وقد افتن ابن حفصون في تقويته وتحصينه ، وجعله مركزاً للسيطرة على كورة قبرة كلها ، والإغارة على المدن والحصون القريبة من قرطبة ، وتهديد أطراف العاصمة ذاتها . وكانت قوات الثور تبلغ زهاء ثلاثين ألفاً ، ولا تعدو قوات الأندلس ثمانية عشر ألفاً ، بل أربعة عشر ألفاً على قول

ابن حيان في المقتبس ص ٩٢ و ٩٣ .

(٢) هي بالإسبانية Poley أو Polei ، وما يزال موقعها قائماً مروراً إلى اليوم تحتله قرية

أجيلار Aguilar الحديثة الواقعة جنوب قرطبة .

ابن حيان^(١). ووقع اللقاء بين الفريقين على ضفاف نهر الفوشكة أحد فروع نهر الوادي الكبير^(٢) على قيد مسافة قصيرة من بلاى ، فى الثانى من صفر سنة ٢٧٨ هـ (١٦ مايو سنة ٨٩١ م) . وقاد جند الأندلس القائد عبيد الله بن محمد ابن أبى عبدة . وتولى ابن حفصون قيادة جنده بنفسه . ونجح فرسان الأندلس فى هزيمة الجناح الأيمن للشوار وتمزيقه ، فدب الذعر إلى باقى القوات النائرة ، وركنت إلى الفرار ، وهرعت الخيل فى آثارهم فقتلت كثيراً منهم ، وفر ابن حفصون فى بعض قواته إلى حصن بلاى معولا على الامتناع به ، ولكن هجره معظم جنده ، مؤثرين الفرار على حصار غير مأمون العاقبة ؛ فلما رأى ابن حفصون عبث المقاومة ارتد فى نفر من صحبه إلى شعب الجبال الجنوبية ، بعد أن فقد معظم قواته ، وقتل من الثوار أثناء الموقعة وخلال المطاردة ألوف عدة ، واحتل عبدالله حصن بلاى وقتل من جنده زهاء ألف ، واستولت جند الأمير على محتوياته . وكانت موقعة بلاى موقعة فاصلة فى معنى من المعانى ، وفيها أصيب ابن حفصون بضربة أليمة لم يصب بمثلها من قبل . ولم ير الأمير مطاردة الثائر جنوباً ، ولكنه آثر أن يزحف غرباً إلى إستجة التى كانت تدين بطاعته ، فحاصرها أياماً حتى سلمت والتمس أهلها العفو والأمان^(٣) .

وسار الأمير بعد ذلك فى أثر ابن حفصون إلى ببشتر قاعدته الرئيسية ، وكان الثائر قد التجأ إليها عقب الهزيمة ، واجتمع إليه كثير من أنصاره من أهل الجزيرة . وعاث الأمير فى تلك المنطقة ، ولم يخرج ابن حفصون إلى لقاءه ، ولكنه حينما ارتد جيش الأندلس أدراجه ، حاول مطاردته ، واشتبك مع مؤخرته فى معركة هزم فيها ورد على أعقابها (ربيع الأول سنة ٢٧٨ هـ) . وعلى أثر هذه الغزوة الموقفة ،

(١) ابن حيان فى المقتبس ص ١٠٤ . ويقول ابن عبد ربه وهو معاصر للمعركة ، وربما شهدا بنفسه مع الأمير ، إن قوات الأندلس كانت ثمانية عشر ألفاً منهم أربعة عشر ألفاً من أهل قرطبة وأربعة آلاف من حشم الأمير ومواليه (راجع العقد الفريد ، طبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ج ٤ ص ٤٩٨) .

(٢) ويسمى بالإسبانية Las Carhenas (لاساس كارشينا) .

(٣) يورد لنا ابن حيان رواية ضافية وتفصيل كثيرة عن موقعة بلاى (المقتبس ص ٩٤-١٠٥) . وراجع للبيان المغرب ج ٢ ص ١٢٦ و ١٢٧ ، وابن خلدون ج ٤ ص ١٣٥ . ويضع دوزى تاريخ الموقعة فى ١٥ إبريل سنة ٨٩١ م . ولكن إبريل يوافق شهر المحرم سنة ٢٧٨ هـ . وقد حدثت الموقعة فى بداية صفر . راجع : Dozy : Hist.; V.II. p. 68-73 .

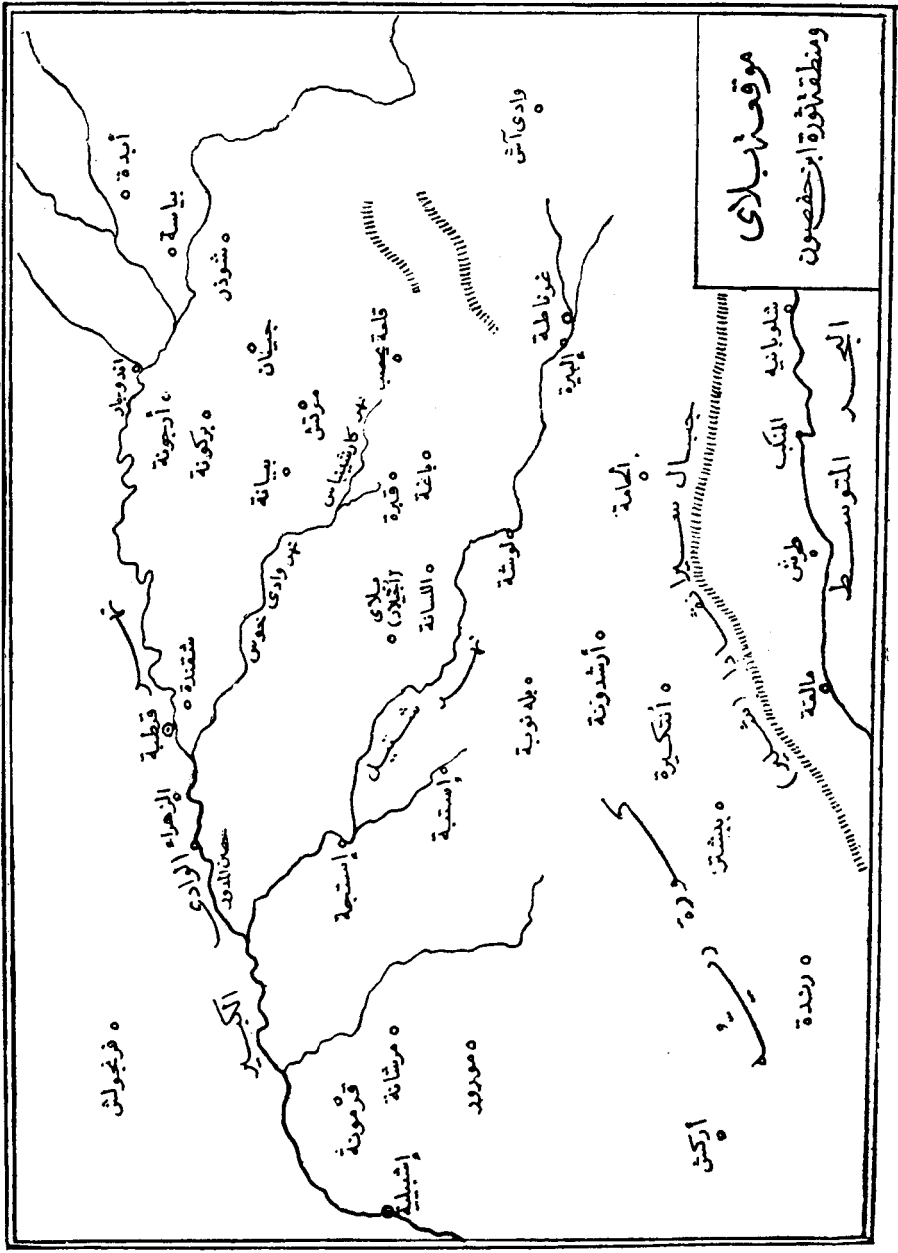
اختار الأمير عبد الله فائده البطل عبيد الله بن محمد بن أبي عبدة للوزارة ، إثابة له وتكريماً ، وعرفاناً لما أسداه إلى العرش وإلى الدولة ببرايعته وبطولته (١) .
وقد أشاد الشعراء بذكر موقعة بلاى وإستجة ، وما أحرزه الأمير فيها من النصر الباهر ، فن ذلك قصيدة طويلة لابن عبد ربه يقول فيها :

نجا مستكناً تحت جنح من الدجى وليس يودى شكرنا أنعم الجنج
يودون أن الصبح ليل عليهم ونحن نود الليل لو أنه صبح
أقادح نار كان طعم وقودها بعينك فانظر ما أضاء لك القدح
محا السيف ما زخرفت أول وهلة ودونك فانظر بعد ذلك ما يمح
فكم شارب منكم صحى بعد سكرة وما كان لولا السيف من سكره يصح
كأن « بلايا » والحنازير حولها مقطعة الأوصال أتيابها كلح
ديار الذين كذبوا رسل ربهم فلاقوا عذاباً كان موعدة الصبح
فيا وقعة أنست وقية راهط ويا عزيمة من دونها البطن والنطح
ويا ليلة أبقت لنا العز دهرنا وذلا على الأعداء صل به الترح
بدولة عبد الله ذى العز والتقى يخبر فى أدنى مقاماته المدح (٢)
ولا بن عبد ربه قصيدة أخرى يهئ فيها الأمير بفتح بلاى هذا مطلعها
الحق أبلج واضح المنهاج والبدر يشرق فى الظلام الداج
والسيف يعدل ميل كل مخالف عميت بصيرته عن المنهاج
ومنها :

لما حفلن إلى « بلاى » عشية أقوت معاهدها من الأعلاج
فكأنما جاشت خلال ديارهم أسد العرين خلت بسرب نعاج
ونحى ابن حفصون ومن يكن الردى والسيف طالبه فليس بناج
فى ليلة أسرت به فكأنما خيلت لديه ليلة المعراج
هذى الفتوحات التى أذكت لنا فى ظلمة الآفاق نور سراج

(١) راجع المقتبس ص ١٠٠ .

(٢) راجع هذه القصيدة بأكملها فى المقتبس ص ٩٧ - ٩٩ .



موقع زبلاي
ومنطقة الثورة ابراهيميون

وهنا نقف قليلا في تتبع ثورة المولدين وزعيمهم ابن حفصون ، لنعطف على أخبار الثورات التي قام بها الزعماء العرب في الوقت نفسه ، في مختلف القواعد والثغور .

كانت المناطق الجنوبية في الوقت التي تجيش فيه بثورة المولدين في الغرب ، تجيش في الشرق بثورة أخرى عمادها القبائل العربية . وكانت سياسة اصطفاء الموالى التي جرى عليها بنو أمية في الأندلس منذ بداية أمرهم ، قد أخذت تحدث أثرها في نفوس القبائل العربية ، وأضحت هذه القبائل ترى في سياسة حكومة قرطبة نوعاً من الطغيان والمهانة . ولما ثار ضرام الفتنة على يد المولدين في الثغر الأعلى وفي المناطق الجنوبية ، ألقت القبائل العربية الفرصة سانحة للقيام بدورها ، والانتصاف لعصبيتها وكرامتها . وكانت كورة لإبيرة مركز نشاطهم في الجنوب ؛ ففي سنة ٢٧٥ هـ (٨٨٩) ثار في ناحية البراجلة من كورة لإبيرة يحيى بن صقاله القيسي ، وكان ذا وجهة ومال ، والتفت حوله البيوتات العربية ، واشتد في مطاردة المولدين والنصارى^(١) ، فثاروا به ولم يلبث أن قتل في بعض المواقع التي نشبت بينه وبينهم ؛ فتصدر لزعامة العرب عندئذ سوار بن حمدون القيسي ، وكان سوار زعيماً مجرباً . وافر الشجاعة والبأس ، فهرعت العرب إلى لوائه ، وأغار على حصون المولدين والنصارى في تلك المنطقة ، فانزع معظمها ، وامتدت رياسته حتى قلعة رباح ، وجعل مركزه في حصن منت شقند^(٢) على مقربة من إبيرة ثم زحف على إبيرة وفيها جعد بن عبد الغافر واليها من قبل الأمير ، ونشبت بين الفريقين معركة هائلة ، فهزم جعد وأسر ، وقتل كثير من أصحابه (٢٧٦ هـ) ، وتعرف هذه الموقعة بواقعة المدينة^(٣) . ثم أطلق سوار جعداً فتحالف مع ابن حفصون على قتاله . وقوى أمر سوار واشتد ساعده وكثر أنصاره ، فسار إلى غرناطة واستولى عليها واتخذها قاعدة له ، ونشبت بينه وبين المولدين وزعيمهم ابن حفصون عدة معارك ، هزم فيها ابن حفصون وقتل بعض قواده . وكان سوار

(١) ابن حيان في المقتبس ص ٥٥ .

(٢) ويسمى ابن حيان منت شافر (المقتبس ص ٥٥) .

(٣) المقتبس ص ٥٥ و ٥٧ .

فوق فروسيته شاعراً جزلاً فصيحاً يأسر الجموع بذلاقتة . ولكن رياسته لم تطل سوى نحو عام ، إذ قتل في كمين دبره له خصمه القديم جعد والى إلبيرة ، وحفص بن المرة قائد ابن حفصون . فقد خرج سوار ذات يوم من غرناطة إلى بعض غاراته في نفر قليل من أصحابه ، وكان حفص قد رتب قواته في أماكن مستورة على مقربة من المدينة ، فانقضت على سوار وفتكت به وبأصحابه ومثل بجثته . فخلفه في رياسة العرب سعيد بن سليمان بن جودي السعدي زعيم قبيلة هوازن ، وكان مثل صديقه سوار بطلاً شجاعاً وفارساً مجرباً ، وشاعراً أديباً ، وخطيباً مفوهاً ، قد تفقه مع فروسيته في فنون العلم والأدب^(١) ، فالتفت حوله القبائل ، واشتدت وطأته على المولدين وزعيمهم ابن حفصون وهزمه مراراً ، وأسر ابن حفصون في بعض الوقائع ثم أطلقه لقاء فدية كبيرة . ولما رأى الأمير عبد الله غلبة العرب على كورة إلبيرة ، أقر سعيداً على ولايتها فحكماها باسم الأمير ، واستمرت زعامته بضعة أعوام حتى قتل غيلة في دار عشيقته اليهودية ، وذلك في أواخر سنة ٢٨٤ هـ (٨٩٧ م) ، ويقال إنه قتل بتدبير الأمير عبد الله ، وكان من أهم أسباب قتله أبيات من الشعر قالها في ذم بني أمية جاء فيها :

يا بني مروان جدوا في الهرب نجم الثائر من وادي القصب
يا بني مروان خلوا ملكنا إنما الملك لأبناء العرب

ولسعيد بن جودي شعر كثير ، وقد أورد لنا ابن الأبار بعض قصائده ، وهي تم عن مقدرته وقوة شاعريته^(٢) .

ولما قتل سعيد بن جودي ، قام بأمر العرب من بعده في كورة إلبيرة ، محمد ابن أضحى الهمداني صاحب حصن الحامة (الحمة) ، وأقره الأمير عبد الله على رياسته ، ونشبت بينه وبين ابن حفصون وقائع عديدة كانت سجالاً بينهما ؛ ولبت سعيد على رياسته لتلك المنطقة ، حتى قضى عليها الناصر في بداية عهده ، واستولى على الحامة وغيرها من النواحي الثائرة في تلك المنطقة^(٣) .

(١) المقتبس ص ٦٠ و ٦١ .

(٢) راجع في أخبار سوار بن حمدون وسعيد بن جودي ، ابن الأبار في « الحلة السيرة »

(ليدن) ص ٨٠ - ٨٧ ؛ والبيان المغرب ج ٢ ص ١٣٨ و ١٣٩ و ١٤١ ، والمقتبس ص ٢٩ و ٣٠ .

(٣) الحلة السيرة ص ٨٥ ، والبيان المغرب ج ٢ ص ١٣٩ .

واتسع نطاق الثورة بين القبائل والبطون العربية والمولدين ، فخرج في مدينة ابن السليم (شدونة)^(١) منذر بن ابراهيم ، واستقل برياستها إلى أن قتله بعض أتباعه ؛ وخرج آخرون من الزعماء في كورة جيان ، وكان أشدهم مراساً عبيد الله ابن أمية بن الشالية ، وهو من زعماء المولدين . وقد خرج في منطقة جبل شمندان وما يليها ، وامتد سلطانه حتى حصن قسطلونة^(٢) ، وقوى أمره وأنشأ له بلاطاً وجيشاً ، وحالف ابن حفصون وصاهره بأن زوج ابنته من جعفر ولد ابن حفصون . واستمر ابن الشالية ممتنعاً بمعاقله ، طوال أيام الأمير عبد الله ، ولم تنته ثورته إلا في أوائل عهد الناصر حيث عاد إلى الطاعة ، وعينه الناصر والياً لمنطقة شمندان . وثار سعيد بن مستنه في باغة ، وقوى أمره ، فسار إليه الأمير عبد الله في سنة ٢٧٩ هـ (٨٩٢ م) عقب موقعة بلاي ، وغزا حصن كركبوليه ، الواقع بين قرطبة وجيان ، وهو معقله وأمنع حصونه ، واشتد في حصاره حتى اضطر إلى التسليم ، وهدم الأمير جميع حصونه^(٣) . وثار بغربي الأندلس اثنان من زعماء المولدين أيضاً هما بكر بن يحيى بن بكر ، ثار بشنميرية الغرب وحصنها واستقل بها ، وبسط سلطانه على ما حولها ، وتشبه بالأمرء ، فأنشأ له بلاطاً وحكومة ، وكان جواداً يأوى أبناء السبيل ويحفظ الطرق ، وفي أواخر عهد الأمير عبد الله عاد إلى الطاعة . وعبد الملك بن أبي الجواد ، وقد ثار في باجة وميرتلة . وكان كلاهما من أتباع عبد الرحمن الحليقي وأنصاره . وثار في لبلة عثمان بن عمرو وأخرج منها عامل الأمير ، وامتدت الفتنة إلى المنطقة كلها . وغلب إسحاق بن إبراهيم العقيلي المعروف بابن عطاف على حصن متيشة من أعمال جيان وامتنع به ، مستظلاً مع ذلك بطاعة الأمير . وفي شرقي الأندلس خرج ديسم بن إسحاق في كورة تدمير وغلب على مدينتي مرسية ولورقة ، واستفحل أمره ، وكان أديباً يصل الأدباء والشعراء . وسير إليه الأمير عبد الله في سنة ٢٨٣ هـ (٨٩٦ م) حملة بقيادة عمه هشام بن عبد الرحمن بن الحكم ، فاخترقت ولاية تدمير وعانت فيها وهاجمت مرسية وأرغمها على دفع الخراج ، ونشبت بينهم وبين قوات ديسم في ظاهر لورقة ،

(١) *Medina Sidonia* . وهذه تسمية ابن الأثير (ج ٤ ص ٢١٥) .

(٢) جبل شمندان هو بالإسبانية *Somontin* ، وهو يقع شمال جيان بين مدينة ليئارس

الحديثة ونهر الوادي الكبير ؛ وحصن قسطلونة هو بالإسبانية *Castalona* .

(٣) المقتبس ص ١٠٦ .

معركة هزم فيها الثوار ، بيد أنها لم تكن معركة حاسمة^(١). وقامت ثورات محلية أخرى في بعض القواعد والحصون ، بيد أنها كانت على الأغلب ثورات قليلة الخطورة ، محدودة الأثر ، وكانت حكومة قرطبة تراها في المحل الثاني ، ولم تكن ثورة القبائل العربية تصطبغ بتلك المرارة التي كانت تطبع ثورات المولدين والبربر . ولبت كثير من أولئك الزعماء الخوارج على رياستهم واستقلالهم حتى بداية عصر الناصر^(٢) .

وكانت إشبيلية ، أعظم القواعد الأندلسية بعد قرطبة ، في أثناء ذلك ، مسرحاً لفتنة دموية استطال أمدها . وكان سكان إشبيلية مزيجاً من العرب والمولدين والنصارى ، وكانت منزل عدد كبير من البيوتات العربية العريقة التي تمتاز بالثراء والعصبية . وبالرغم مما كان يسود بين هذه العناصر في معظم الأحيان من عوامل الجفاء والشقاق ، فقد استطاعت إشبيلية أن تحافظ على سكينتها وولائها مدى حين . فلما أخذت القبائل العربية في ولاية الأمير عبد الله تجيش بعوامل الخروج والثورة ، هبت ريح الاضطراب على إشبيلية وسرت إليها عوامل الفتنة ، وظهر الزعماء المتطلعون إلى الرياسة على مسرح الحوادث . وكان بنو أبي عبدة ، وبنو حجاج ، وبنو خلدون ، يومئذ أعظم البيوتات العربية في إشبيلية . فأما بنو أبي عبدة فكان منهم كثير من رجال الدولة والقادة ، وكان زعيمهم يومئذ أمية بن عبد الغافر بن أبي عبدة ، وكان من وجوه القوم المقربين لدى حكومة قرطبة . وأما بنو حجاج فإنهم يرجعون بنسبتهم إلى لحم ، ويتصلون في الوقت نفسه من ناحية الأمومة بملوك القوط ، وذلك عن طريق سارة القوطية حفيدة وتيزا ملك القوط^(٣) ، وكان زعيم بيتهم يومئذ عبد الله بن حجاج وأخوه إبراهيم . وأما بنو خلدون فإنهم ينتسبون إلى العرب اليمانية في حضرموت ، وإليهم ينتسب المؤرخ الفيلسوف ابن خلدون ، وكان زعيم بيتهم يومئذ كريب بن عثمان بن خلدون وأخوه خالد^(٤) .

(١) المقتبس ص ١١٨ .

(٢) راجع في تفاصيل هذه الثورات ، المقتبس ص ٩ - ١١ و ١٦ ، وكذلك البيان المغرب

ج ٢ ص ١٣٩ - ١٤١ .

(٣) راجع « دولة الإسلام في الأندلس » ص ٦٠ و ٦١ .

(٤) راجع كتاب العبرج ٧ ص ٣٨٠ و ٣٨١ ، وابن الأبار في الحلة السيرة ص ٩٦ .

وكان هنالك إلى جانب هذه الأسر العربية الصميمة ، عدد من الأسر المولدة القوية الغنية . وكان التنافس بين العرب والمولدين في النفوذ والرياسة ، من أهم أسباب الاضطراب في المجتمع الأندلسي يومئذ .

وكانت الرياسة في إشبيلية قديمة في بيت أبي عبدة ، حيث كان جدهم أبو عبدة واليها من قبل عبد الرحمن الداخل ، وكان حفيده أمية بن عبد الغافر واليها في الوقت الذي نتحدث عنه ؛ وكان الأمير عبد الله قد أرسل إلى جانب أمية ولده محمداً ، ليكون عضداً أديباً له في حكم المدينة . وفي سنة ٢٧٦ هـ (٨٨٩ م) كان بنو خلدون أول من رفع لواء الثورة في إشبيلية ، وخرج زعيمهم كريب بن عثمان ابن خلدون في أنصاره وحلفائه من المولدين والبربر ، الذين رأوا أن يعملوا على إذكاء المعركة بين الأسر العربية ، وتحالف مع ابن مروان الحلقي الثائر ببطليوس . وعاش كريب وأصحابه في أحواز إشبيلية وقطعوا السبل ، ولكنه لم ينل من المدينة مأزباً . ثم ثار المولدون ضد العرب الثمانية لقتل واحد من كبارهم ، وتحرك بنو حجاج في نفس الوقت . وخشى أمية العاقبة فدرس على زعيمهم عبد الله ابن حجاج من قتله ، فحل في الحال مكانه أخوه إبراهيم ، وحمل وطيس الفتنة ، واشتد بنو حجاج وأنصارهم من العرب في قتال أمية ، وقتل أمية في النهاية مدافعاً عن نفسه . فأرسل الأمير عبد الله إلى إشبيلية حاكماً جديداً من قبله ، هو عمه هشام ابن عبد الرحمن ، ولكنه لم ينجح في تهدئة المدينة الثائرة ، وقتل الثوار ولده ، وسادت الفوضى ، واضطرب جبل الأمن في إشبيلية وما جاورها ؛ فعندئذ أرسل عبد الله ولده المطرف ، ومعه الوزير عبد الملك بن عبد الله بن أمية على رأس حملة قوية إلى إشبيلية (٢٨٢ هـ - ٨٩٥ م) . فلما أشرف المطرف على إشبيلية وثب بالقائد عبد الملك فقتله ، وندب للقيادة مكانه أحمد بن هاشم بن عبد العزيز ، وأرسل إلى والده الأمير عبد الله محضراً يبرر فيه تصرفه ، ونشبت الموقعة بين المطرف وبين الثوار خارج المدينة ، فهزمهم وردهم إلى سور المدينة ، وقتل منهم عدد كبير ، وأسر إبراهيم بن حجاج وخالد بن خلدون وغيرهما من زعماء الفتنة ، ولم يطلق سراحهم حتى أذعنّت المدينة الثائرة لمطالبه ، وسلمت الخراج المطلوب ، وقدم زعماء الفتنة رهائن من الولد والأهل ، واتفق على أن يشترك

في حكم المدينة إبراهيم بن حجاج وكريب بن خلدون باسم الأمير وفي طاعته (١) . وكان كريب طاغية شديد الوطأة فنفر منه الشعب . أما إبراهيم فكان رقيقاً دمث الخلق فكثرت أنصاره ، ورجحت كفته ، واستطاع في الوقت نفسه أن يحصل من الأمير عبد الله سرّاً على عهد بولاية المدينة . ثم اعتزم أمره ودبر مقتل كريب ابن خلدون وأخيه خالد ، وانفرد بحكم إشبيلية (٢٨٢ هـ) (٢) ، وأقره عبد الله على ولاية إشبيلية وقرمونة . وسطح نجم بني الحجاج وقوى أمرهم ، وطالب إبراهيم الأمير بالإفراج عن ولده عبد الرحمن ، المعتقل رهينة في قرطبة ، فلما تباطأ الأمير في إجابته خلع الطاعة وتحالف مع ابن حفصون (٣) ، وسار معه في قواته لمقاتلة قوات الأندلس (٢٨٩ هـ) حسبما تفصل بعد . وقدر الأمير عبد الله خطورة هذا التحالف وتوجس من عواقبه ، وعاد فأحاط رغبة إبراهيم ، وأفرج عن ولده عبد الرحمن وورده إليه مكرماً (٢٨٩ هـ) ، فجنح إبراهيم إلى الطاعة مرة أخرى ، وارتضى أداء الخزية للأمير ، ونبذ حلف ابن حفصون ، وقنع الأمير من جانبه بهذا المظهر من الخضوع والطاعة ، واستقرت الأمور في إشبيلية (٤) .

وأبدى إبراهيم بن حجاج في إدارة ولايته همة وبراعة ، واتخذ سمة الملوك وأنشأ له بلاطاً ، وحرساً خاصاً قوامه خمسمائة فارس غير المشاة ، وحصن مدينة قرمونة ، وجعلها مرابط خيله (٥) ، وفرض الضرائب وأصلح نظم الحكم والقضاء ، وعمل على توثيق أواصر المودة بينه وبين حكومة قرطبة . وكان يبعث بالأموال والهدايا إلى الأمير عبد الله ، ويمدّه بجنده في بعض غزواته . وكان إبراهيم فوق ذلك رضى الخلق ، محبوباً من الشعب ، جواداً يقصده الشعراء وينشدونه مدائحهم

(١) يقول ابن خلدون إن كريباً انفرد أولاً بحكم إشبيلية ، وسمى ابن حجاج إلى انتزاعها منه ، فتحالف مع ابن حفصون ، ثم جنح إلى مصانعة كريب فأشركه معه في حكم المدينة (كتاب العبر ج ٧ ص ٣٨١) . وراجع المقتبس ص ١١١ .

(٢) أو في أوائل سنة ٢٨٦ هـ ، على رواية ابن حيان (المقتبس ص ٨٤) .

(٣) البيان المغرب ج ٢ ص ١٢٩ .

(٤) المقتبس ص ١٣١ .

(٥) وما تزال مدينة قرمونة تحتفظ حتى اليوم ببعض الأبواب والأطلال الأندلسية القديمة التي تدل على حصانتها أيام المسلمين ، وما زالت بالأخص تحتفظ بباب « إشبيلية » الشهير كاملاً بعمقه العظيم وشرفته العربية الرائعة .

فيجزل صلاحهم ؛ وكان ممن مدحه شاعر العصر أبو عمر بن عبد ربه صاحب
العقد الفريد ، ومما قاله في مدحه :

ألا أن إبراهيم لجة ساحل من الجود أرسى فوق لجة ساحل
فإشبيلية الزهراء تزهو بوجهه وقرمونة الغراء ذات الفضائل
إذا ما تحلت تلك من نور وجهه غدت هذه للناس في زى عاطل
واستمر إبراهيم بن حجاج في حكم إشبيلية وقرمونة ، حتى توفي سنة ٢٩٨ هـ
(٩١٠ م)^(١) في سن الثالثة والستين ، فخلفه في حكم إشبيلية ولده عبد الرحمن ،
وفي حكم قرمونة ولده محمد حتى انتهت دولتهم في بداية عهد الناصر^(٢).

(١) ابن الأبار في الحلة السيرة ص ٩٧ . ويضع ابن عذارى وفاته في سنة ٢٨٨ هـ (البيان
المغرب ج ٢ ص ١٣٢) والرواية الأولى أرجح . وراجع أخبار ابن حجاج في المقتبس
ص ١١ - ١٤ .

(٢) راجع في تفاصيل ثورة بني حجاج ، ابن خلدون في كتاب العبرج ٤ ص ١٣٥
وج ٧ ص ٣٨٠ ، ٣٨١ ؛ والبيان المغرب ج ٢ ص ١٢٨ - ١٣٥ ؛ وابن الأبار في الحلة
السيرة ص ٩٦ و ٩٧ .

الفيض الزاج

ولاية عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن

٢ - ذروه الفتنة الكبرى

عود إلى ثورة المولدين . ابن حفصون يعود إلى الميدان . عود الصوائف إلى غزوه . إستيلاؤه على إستجة . مسير أبان بن عبد الله لقتاله . المعارك في الجزيرة الخضراء . تحالف ابن حفصون ومحمد ابن لب . ابن حفصون يعلن اعتناقه للنصرانية . تفرق أنصاه . التحالف بين ابن حجاج وابن حفصون . الحرب بين جند الأندلس وابن حفصون . هزيمة الثائر وانتهاء حلفه مع ابن حجاج . توالى الحملات والصوائف لقتال ابن حفصون . استقلال ابن مروان ببطليوس . ثورة ابن تاكيت في الثغر الأدنى . محاصرة جند قرطبة لماردة . الخلاف بين ابن مروان وابن تاكيت . وفاة ابن مروان واستمرار بنيه في حكم بطليوس . بنو ذو النون في طليطلة . استيلاء بنى قسى عليها وحكمهم لها . سقوطها في يد ابن الطربيشة . بنو ذو النون في شرق طليطلة . استيلاء ابن يحيى الأنقر على مرسطة . بنو قسى في تطيلة وطرسونة . غزوات لب في ليون ونافار . وفاة لب وولاية أخيه عبد الله . ظهور محمد بن عبد الله الطويل في الثغر الأعلى . القتال بينه وبين بنى قسى . أفول نجم بنى قسى . غزوات الطويل في أراضي النصرارى . مصرعه وذهاب دولته . الأمير عبد الله ومقارعتة للثورة . انتهاز ملك ليون لمشاغل حكومة قرطبة . استيلاؤه على سمرة . ظهور ابن القط في أحواز طليطلة . زعمه بأن هو المهدي . القتال بينه وبين ملك ليون . مصرع ابن القط وتفرق شمله . تفاهم ملك ليون مع الثوار . افتتاح الجزائر الشرقية . وفاة الأمير عبد الله . خلاله وصفاته . صرامته وعدله وتقشفه . حجابته وقواده . اصطفاه للموالى . أولاده . مأساة ولديه محمد والمطرف . اغتيال المطرف لأخيه محمد . حكم عبد الله بإعدام المطرف . بطشه بأخوته . أقوال ابن حزم في صرامته وسفكه للدماء . صفة الأمير عبد الله وخلاله . أدبه وشاعريته . اصطفاه للعلماء والشعراء . شعراء العصر وأدباؤه وفقهاؤه .

لم تشغل ثورة القبائل العربية في إشبيلية وباجة وإلبيرة وتدمير وغيرها ، حكومة قرطبة عن متابعة الجهاد لإخاد ثورة المولدين . وقد كانت ثورة المولدين في الواقع أخطر وأشد رسوخاً ، وأبعد أثراً . وقد استطاع زعيم ثورة المولدين في الجنوب عمر بن حفصون ، أن يستغرق معظم جهود حكومة قرطبة منذ أواخر عهد الأمير محمد ، ولكن هزيمة الزعيم الثائر في موقعة بلاى (بولى) سنة ٢٧٨ هـ (٨٩١ م) وما ترتب عليها من تضييع قواته ، فلت من عزمته ووضعت حداً مؤقتاً لطغيانه . بيد أن حكومة قرطبة لم تركز إلى هذه الهدنة المؤقتة ، فقد كانت تعرف

ابن حفصون وتعرف مبلغ خطره ، ومقدرته على العدوان والبغي ، وكان ابن حفصون من جانبه ، يعمل جاهداً لتنظيم قواه واستكمال أهفته ، لاستئناف صراعه المرير مرة أخرى .

ومن ثم فإنه لم يمض عامان على موقعة بلاى ، حتى عادت الصوائف تتردد لغزو ابن حفصون ومطاردته . ففي سنة ٢٨١ هـ (٨٩٤ م) سار المطرف بن الأمير عبدالله في جند الأندلس إلى كورة ريه ، وحاصر ابن حفصون في بيشر معقله ، وعاش في بسائطه . وآثر ابن حفصون في البداية أن يستعصم بمعقله ، ثم خرج إلى لقاء المطرف فهزم ، وقتل في هذه الموقعة حفص بن المرة أشجع قواد ابن حفصون وأشدهم مراساً^(١) . فلما عادت جند الأمير إلى قرطبة ، عاد ابن حفصون يدبر خطط العدوان ، ثم جمع جموعه وزحف على إستجة ، واستولى عليها للمرة الثانية ، وذلك في سنة ٢٨٤ هـ (٨٩٧ م)^(٢) . وإستجة تقع جنوب غربي العاصمة على مسافة غير بعيدة عنها ، فبادر الأمير عبدالله باستقدام الجند من النواحي ، وفي العام التالي (٢٨٥ هـ) سير ولده أبان لقتال ابن حفصون ومعه القائد أحمد بن أبي عبدة . واخترت الحملة الجزيرة الخضراء ، وعكفت على مهاجمة الحصون الخارجية حتى وصلت إلى طريف ، ثم ارتدت إلى بيشر ثم إلى أرشونة ثم إلى البيرة وحصن شلوبانية ؛ ونشبت بينها وبين قوات ابن حفصون عدة معارك محلية ، ثم عادت إلى قرطبة عن طريق وادي آش^(٣) . ولكن هذه المعارك لم تسفر عن أية نتيجة حاسمة ، واقتنعت حكومة قرطبة بأنه لا بد من مضاعفة الأبهة لكي تستطيع أن تضع حداً لعدوان الزعيم الثائر .

وفي سنة ٢٨٥ هـ (٨٩٨ م) عقد ابن حفصون ومحمد بن لب زعيم بني قسي حلفاً متبادلاً ، وأرسل محمد ولده لباً في بعض قواته إلى ابن حفصون ليوثق هذا التحالف ؛ ولكن لباً لم يلبث أن تلقى نبأ موت أبيه أمام أسوار طليطلة ، فغادر ابن حفصون دون أن يرم أمراً ، وهكذا فشل هذا التحالف قبل نضجه^(٤) ، وفي سنة ٢٨٦ هـ (٨٩٩ م) أعلن عمر بن حفصون اعتناقه للنصرانية هو وسائر

(١) البيان المغرب ج ٢ ص ١٤٢ . وراجع Dozy : Hist. ; V. II, p. 84

(٢) المقتبس ص ١٠٨ .

(٣) المقتبس ص ١٢٢ .

(٤) المقتبس ص ١٢٧ .

أفراد أسرته ، واتخذ له إسماً نصرانياً هو صمويل ، وكان أبوه قد فعل ذلك منذ أعوام ، ولم يخلص عمر بن حفصون للإسلام قط ، وكان يسر النصرانية دائماً ، ولم يمنعه من إعلانها سوى خوفه من تفرق أنصاره ؛ وقد تحقق ما كان يخشاه إذ هجره كثير من أنصاره ، وتبرأوا من فعلته ، وخرج عليه بعض قواده المسلمين ، وامتنعوا بحصونهم ، وبعثوا بطاعتهم إلى الأمير ، واشتد السخط عليه في سائر جنبات الأندلس ، ورأى المسلمون في قتاله نوعاً من الجهاد^(١) . وحاول ابن حفصون من جانبه ، أن يقوى مركزه بعقد محادثات جديدة ، ففاوض ألفونسو الثالث ملك ليون وبني قسي ، كما فاض بعض أمراء المغرب ، ولكن العون الحقيقي جاء من ناحية أخرى . ذلك أن إبراهيم بن حجاج سيد إشبيلية وقرمونة ، لما ساءت العلاقات بينه وبين الأمير عبد الله بسبب رفضه إطلاق سراح ولده ، قطع الحزبية ، وأعلن استقلاله ، وتحالف مع ابن حفصون (٢٨٨ هـ - ٩٠٠ م) ، وغدا الإثنان قوة يحسب حسابها^(٢) .

وتوجست حكومة قرطبة شراً من هذا التحالف ، فبعث الأمير إلى ابن حفصون يعرض عليه شروطاً مغرية للصلح ، فقبل الثائر هذا العرض ، وبعث إلى قرطبة أربع رهائن من أصحابه ، منهم خازنه وحليفه سعيد بن مستنة الثائر من قبل في باعة Priego^(٣) . بيد أنه لم يمض قليل على ذلك ، حتى حدث خلاف في تنفيذ الشروط بين الفريقين ، وعاد ابن حفصون فأعلن الخلاف وتأهب للحرب ، وعاونه حليفه ابن حجاج بقوة من الفرسان ، وسارت جند الأندلس بقيادة أحمد ابن أبي عبدة ، وخرج ابن حفصون من إستجة التي اتخذها قاعدة لملاقاته . واشتبك الفريقان في «إستجة» الواقعة جنوبي إستجة ، على مقربة من نهر شنيل ، فهزم جند الأندلس في البداية ، وقتل منهم بضع مئات ، ولكنهم عادوا ففكروا على قوات ابن حفصون بعنف ، وأوقعوا بها هزيمة شديدة (٢٨٩ هـ - ٩٠٢ م) ، وعلى أثر ذلك أمر الأمير عبد الله بقتل رهائن ابن حفصون ، ما عدا ابن مستنة ، إذ افتدى حياته بالخضوع والطاعة . وخشى إبراهيم بن حجاج على

(١) راجع البيان للمغرب ج ٢ ص ١٤٣ ، والمقتبس ص ١٢٨ . وراجع دوزي : Hist. ; V. II .

p. 84 & 85 . وكان ابن حفصون أيضاً يتكلم « الأجمية » ، وهي الإسبانية القديمة أو الرومانش .

(٢) المقتبس ص ١٢٩ .

(٣) البيان للمغرب ج ٢ ص ١٤٤ ، ودوزي : Hist. , V. II. p. 86 .

ولده ، ففاوض الأمير في الصلح ، فأجابه إلى طلبه ، وأطلق سراح ولده عبد الرحمن وعاد إلى سابق ولائه^(١) .

وتوالى حملات الأمير بعد ذلك على ابن حفصون . ففي سنة ٢٩١ هـ (٩٠٤ م) سار أبان بن الأمير عبد الله ، ومعه القائد أحمد بن أبي عبدة إلى ربه ، فعاث في تلك الناحية وهزم ابن حفصون في عدة مواقع . وفي العام التالي (٩٠٥ م) خرجت الصائفة لقتال ابن حفصون فاستولت على بعض حصونه ، وأوقعت بواته هزيمة شديدة في وادي بلون على مقربة من جيان ، وقتل كثير من جنده^(٢) . وفي سنة ٢٩٥ هـ (٩٠٨ م) سارت جند الأندلس إلى ببشتر معقل الثائر ، وعاثت في تلك المنطقة . وفي سنة ٢٩٧ هـ (٩١٠ م) سارت حملة قوية بقيادة أحمد بن أبي عبدة إلى كورة ربه ، واشتبكت مع قوات ابن حفصون في عدة معارك شديدة ، ثم سارت شمالا إلى حصون إلبيرة وجيان وحاصرت متلون حيناً ، وحاول ابن حفصون من جانبه أن يهاجم حصن جيان ، فردته جند الأندلس وطاردته . وفي العام التالي غزت جند الأندلس منطقة ببشتر مرة أخرى . ورد ابن حفصون بأن أغار وحليفه ابن مستنة ، الذي خلع الطاعة مرة أخرى ، على بسائط قبرة وبعض قرى قرطبة ، فلقيته جند الأندلس وهزمته . وسارت في العام التالي (سنة ٢٩٩ هـ) حملة أخرى إلى ببشتر فعاثت في بسائطها^(٣) ؛ وهكذا استمرت حملات الأندلس متوالية متلاحقة على ابن حفصون زهاء ثلاثين عاماً . وبالرغم من أن حكومة قرطبة استطاعت أن تعمل باستمرار على مناهضته وإحباط خططه وإنهاك قواه ، فلأنها لم تفلح في القضاء عليه ، وإخماد الحركة الثورية المضطربة ، التي استطاع أن يحمل لواءها بقوة وجاد وعزم لا مثيل لها .

- ٢ -

وقد أشرنا من قبل ، إلى خروج عبد الرحمن بن مروان الحلبي بمدينة بطليوس منذ أيام الأمير محمد ، وكيف أن حكومة قرطبة فشلت في إخضاعه ، وانتهى الأمر باستقلاله ببطليوس وما جاورها . ولما تولى الأمير عبد الله ، لم ير مناصاً من

(١) راجع دوز : Hist., V. II, p. 86-88

(٢) البيان المغرب ج ٢ ص ١٥٤ .

(٣) راجع البيان المغرب ج ٢ ص ١٤٨ - ١٥٣ .

إقراره على استقلاله بتلك القاعدة المنيعة ؛ وهكذا لبث ابن مروان سيد بطليوس بلا منازع . فحصنها وحملها ؛ وبسط حكمه على الأتحاء المجاورة ، وكان من حلفائه في تلك المنطقة حسبا قدمنا يحيى بن يحيى بن بكر الثائر بمدينة شنتمرية الغرب^(١) بولاية أكشونبة ، وعبد الملك بن أنى الجواد الثائر بمدينة باجة Beja . وكان يحيى زعيما مقداما ، فحصن شنتمرية ، وأقام بها حكومة منظمة ، وضبط الأمور وقمع أهل الشر^(٢) . وفي سنة ٢٧٦ هـ (٨٨٩ م) نكث ابن مروان بعهدده ، وعاون كريب بن خلدون الثائر باشيبيلية ، على مهاجمة المدينة ونهب أحوازها . ولم يمض قليل على ذلك حتى ثار البربر في الثغر الأدنى^(٣) بزعامة محمد بن تاكيت المصمودي وزحف على ماردة في شرقي بطليوس ، واستولى عليها ، فسارت إليه الجند من قرطبة ، فقدم لإنجاده ابن مروان ، ولبث الحصار مدة ارتحلت بعدها جند الأمير خائبة . وكان بماردة جموع من العرب والبربر من قبائل كتامة ومصمودة ، فسعى ابن تاكيت في إخراج العرب وكتامة منها ، واستقل بها مع شيعته . ولم يلبث أن ثار الخلاف بينه وبين جاره ابن مروان ، ونشبت بينهما الحرب ، فهزمه ابن مروان وظهر عليه . ثم توفي عبد الرحمن بن مروان بعد قليل ، فخلفه في حكم بطليوس ابنه مروان ، واشتد في مطاردة البربر ، ولكن ولايته لم تدم سوى شهرين ، فخلفه على بطليوس حفيد لابن مروان يدعى عبد الله ، واستمر بنو مروان سادة بطليوس حتى انتزعها منهم عبد الرحمن الناصر سنة ٣١٧ هـ (٩٢٩ م) ، وقضى على دولتهم^(٤) .

وكانت طليطلة قاعدة الثغر الأوسط ، قد سقطت في يد بني ذى النون أيام المنذر . وكان بنو ذى النون من أكابر زعماء البربر في تلك المنطقة ، وينتمون إلى قبيلة هوازة ، وكان زعيمهم موسى بن ذى النون قد ظهر في عهد الأمير محمد ،

(١) Santa Maria de Algarve ، وهذا بخلاف شنتمرية الشرق أو شنتمرية ابن رزين التي اشتهرت أيام الطوائف وتعرف في الإسبانية باسم Albarracin .

(٢) البيان المغرب ج ٢ ص ١٤١ .

(٣) هو في جغرافية الأندلس عبارة عن المنطقة الغربية الواقعة بين نهر دويرة ونهر التاجه ومن مدنها قورية وقلمرية وشترين وغيرها ، وأد الثغر الأعلى فهو عبارة عن سرقسطة وأعمالها من المدن الشمالية المتاخمة لحدود ناقار وليون وقطلونية . ويشمل الثغر الأوسط طليطلة وأعمالها .

(٤) البيان المغرب ج ٢ ص ١٤٠ ، وابن خلدون ج ٤ ص ١٣٣ و ١٣٤ .

واستقل بشت برية حسبنا ذكرنا من قبل . ثم زحف على طليطلة في قوة كبيرة من البربر ، واستطاع بمألة بعض زعمائها أن يستولى عليها ، وذلك في سنة ٢٧٤هـ (٨٨٨م) . وحكم بنو ذى النون طليطلة بضعة أعوام ، ثم غلبهم عليها محمد بن لب بن موسى كبير بني قسي وزعيم الثغر الأعلى ، وكان بنو قسي قد فقدوا زعامتهم يومئذ في الثغر الأعلى بخروج سرقسطة من أيديهم ووقوعها في يد أبي يحيى التجيبي حسبنا نذكر بعد ، فتحولوا إلى الثغر الأوسط واستولوا على طليطلة سنة ٢٨٣هـ (٨٩٧م) . وبعث محمد بن لب ولده لباً إلى أحواز جيان ، فهاجم حصن قسطلونة واستولى عليه . والظاهر أن كانت ثمة لتلك الحملة علاقة بمشروع التحالف بين بني قسي وابن حفصون حسبنا قدمنا ، ولكن محمداً بن لب لم يلبث أن قتل بعد ذلك بعامين تحت أسوار سرقسطة ، وهو يحاول انتزاعها من التجيبيين (١) ، ولم يستطع ولده لب أن يستمر في حكم طليطلة فأبعد عنها حيناً . ولكن أهل طليطلة عادوا فدعوه إلى حكمها ، فبعث إليهم أخاه المطرف فتولى حكمها . ثم خرج عليه محمد بن إسماعيل بن موسى من أبناء عمومته ، فحكمها حتى مصرعه في سنة ٢٩٣هـ (٩٠٦) قتيلاً بيد أهلها . وعندئذ تولى حكم طليطلة زعيم من البربر المحليين هو ابن الطريشة ، وهو حليف ابن ذى النون ، واستمر في حكمها حتى انتزاعها منه عبد الرحمن الناصر في أوائل حكمه . واستمر بنو ذى النون أبناء موسى وهم الفتح ويحيى ومطرف بعد وفاة أبيهم ، في حكم المناطق الواقعة في شرق طليطلة ، مثل إقليش وبوذة ثم قلعة رباح (٢) وغيرها ، إلى نهاية عهد الأمير عبد الله وأوائل عهد الناصر . وكان مطرف أشهرهم وأنجبهم ، وقد استمر معتصماً بووذة حتى استنزله الناصر منها ، ثم ولاه عليها واستقام بها شأنه ، وحضر مع الناصر واقعة الخندق (٣) . وكان لبني ذى النون هؤلاء فيما بعد شأن ، وكانت لهم أيام الطوائف في طليطلة دولة سطعت مدى حين .

أما لبُّ بن محمد فاستقر في تطيلة ، وكان النزاع يضطرم في الثغر الأعلى منذ أعوام طويلة بين التجيبيين وبني قسي .

(١) البيان المغرب ج ٢ ص ١٤٣ .

(٢) وهي بالإسبانية على التوالى : Uclés, Huete, Calatrava .

(٣) ابن حيان في المقتبس ص ١٩ .

وتذكر لنا الرواية في أصل نباهة بنى تجيب ، أنه لما ثار بنوقسى في الثغر الأعلى ، واحتلوا قواعده ، نُوه للأمير محمد بن عبد الرحمن ، بأولاد عبد العزيز ابن عبد الرحمن بن عبد الله بن المهاجر التجيبي ، فاستدعاهم ، وبنى لهم قلعة أيوب على مقربة من سرقسطة ، وعين لضبطها عبد الرحمن بن عبد العزيز التجيبي ، وبنى لهم قلاعاً حصينة في شميظ ودرّوْفه ، وفُرتش ، ونصبهم لمحاربة بنى قسى ، وعقد لهم على قومهم ، وأجرى عليهم أرزاق الغزو . ولما انتزع الأمير المنذر سرقسطة من محمد بن لب بن موسى في سنة ٢٧٠ هـ ، توالى عليها عمال الأمير ؛ وكان عليها في بداية عهد الأمير عبد الله واليها أحمد ابن البراء ، فتظاهر محمد بن عبد الرحمن بن عبد العزيز (وهو المعروف بأبي يحيى وبالأنقر) بمهاجمة والده عبد الرحمن والخروج عليه ، والتجأ إلى سرقسطة تحت كنف ابن البراء وحمايته ، وفي ذات يوم وثب بحاميه ابن البراء وقتله غيلة ، واستولى على سرقسطة ، وكان ذلك في رمضان سنة ٢٧٦ هـ (٨٨٩ م) وفقاً لرواية العذرى ، أو في سنة ٢٨٢ هـ (٨٩٥ م) وفقاً لرواية ابن حيان . وكان وثوب أبي يحيى الأنقر باين البراء على هذا النحو ، فيما يبدو بتفاهم مع الأمير عبد الله ، إذ كان يشك في ولاء حاكمه . ومن ثم فقد أقره الأمير عبد الله على حكم سرقسطة وأعمالها (١) .

وحاول محمد بن لب أن ينتزع سرقسطة من أبي يحيى ، فهاجمها وحاصرها غير مرة ، حتى قتل تحت أسوارها سنة ٢٨٥ هـ (٨٩٨ م) حسبنا أسلفنا . قال ابن حيان : « وهوى نجم القسوين (بنى قسى) بعد مهلك محمد واعتورهم الإدبار ، وغشيتهم دولة الجماعة ، وجمع الثغر كله لأبي يحيى » (٢) . ولبث أبو يحيى على استقلاله بسرقسطة ، حتى وفاته في عهد الناصر سنة ٣١٢ هـ (٩٢٤ م) .

ولما توفي محمد بن لب ، خلفه ولده لب في تطيلة وما جاورها . والظاهر أنه آثر يومئذ مهادنة الأمير والانضواء تحت لوائه ، وأقره عبد الله على حكم تطيلة وطرسونة وما جاورها . وشغل لب في الأعوام التالية بغزو أراضي النصارى

(١) « نصوص عن الأندلس » . من كتاب ترصيع الأخبار وتنويع الآثار للعذرى ص ٤١ . وابن حيان في المقتبس ص ٨٥ و ٨٦ .
(٢) المقتبس ص ٨٧ .

المجاورة ، فغزا في سنة ٢٩٠ هـ (٩٠٣ م) أرض ليون واستولى على بعض حصونها ، وهزم ألفونسو الثالث في معركة نشبت بينهما ، ثم غزا ناحية بليارش Pallars ، واستولى على حصون إيلاس وموله وقشتيل ، وقتل بها كثيراً من النصارى . وفي العام التالي خرج لب محاصرة سرقسطة ، وخرب ما حولها من القرى ولكنه لم ينل منها مأرباً . وفي سنة ٢٩٤ هـ (٩٠٦ م) ، غزا لب نافار وزحف على طريق بنبلونة ، فحشد سانشو (سانجه) ملك نافار كل قواته ، ونشبت بين الفريقين معركة شديدة ، هزم فيها لب وقتل كثير من جنده . وكان لب زعيماً مقداماً وافر الجرأة والشجاعة ، وتوفي شاباً في الثانية والثلاثين من عمره ، فكانت وفاته ضربة شديدة لسلطان بني قسي . وخلفه في تغطية أخوه عبد الله بن محمد بن لب^(١) ، وسار على أثره من الانضواء تحت لواء الأمير ، ومتابعة الإغارة على أرض النصارى . وهنا ظهر على مسرح الحوادث في الثغر الأعلى زعيم جديد هو محمد بن عبد الملك بن شريط المعروف بالطويل ، وسمى بذلك لطوله الفائق . وكان بنو شريط أو بنو شراط من أكبر أسر المولدين بالثغر . وكان منزلهم بوشقة وبربشتر^(٢) وكان عميدهم شريط قد ظهر في أواخر المائة الثانية في عصر الحكم بن هشام ، وتغلب حيناً على وشقة . ولكن بنى قسي غلبوا على تلك الأنحاء دهرأ ، وحججوا بنى شريط وغيرهم من أعيان المولدين عن الظهور . فلما اضمحل شأن بنى قسي ، عاد بنو شريط إلى الظهور ، واستطاع الطويل أن يستقر في وشقة تراث أسرته ، وذلك منذ بداية عهد الأمير عبد الله ، ثم حاول أن يتوسع بالإغارة على بعض أملاك جيرانه بنى قسي ، فاستولى على لاردة ، ولكنه اضطر إلى إعادتها إلى محمد بن لب بإشارة الأمير عبد الله ، ثم وقع الخلاف بينه وبين لب بن محمد على بعض الحصون المجاورة ، ونشب بينهما قتال هزم فيه الطويل . ومضت بعد ذلك عدة أعوام ، شغل فيها الطويل على ما يظهر بمحاربة جيرانه النصارى في منطقة البرنيه ، في أحواز نافار وچاقة ، وسوبراني وبليارش وغيرها . ولما توفي لب بن محمد ، رأى الطويل الفرصة سانحة لتنفيذ خطته ومشاريعه ، فزحف على أراضي بنى قسي مرة أخرى ، واستولى على لاردة وبربشتر وحصن منتشون^(٣)

(١) البيان المغرب ج ٢ ص ١٤٣ و ١٤٥ ؛ وراجع دوزي Hist.; V. II., p. 93

(٢) ابن حزم في جمهرة أنساب العرب ص ٤٦٤ .

(٣) راجع ابن حيان في المقتبس ص ٨٧ ، والبيان المغرب ج ٢ ص ١٤٨ و ١٤٩ .

(٢٩٥ هـ - ٩٠٧ م) وركد أمر بني قسي في الثغر من ذلك الحين . بيد أنهم استمروا في بعض القواعد والحصون حتى قضى الناصر على دولتهم في سنة ٣١٢ هـ (٩٢٤م) . أما الطويل فقد قوى أمره واشتد بأسه ، وكان قد تزوج من دونيا سانشا الحسنة ابنة الكونت أسنار أحد سادة أراجون ، وحفيدة غرسية إنيجيز ملك نافار . وتعرف الروايات النصرانية ، من جراء هذه المصاهرة ، محمداً الطويل معرفة حسنة ، وتذكره بإفاضة وتسميه « الملك الطويل »^(١) . وعكف الطويل بعد ذلك على الإغارة على الأراضى النصرانية المحاورة ، فخرج في سنة ٢٩٦ هـ (٩٠٨ م) إلى منطقة بليارش ، وعاث فيها وقتل كثيراً من النصارى ، واستولى على حصن روطه وهلمه ، ثم استولى على حصن منت بطروش . وفي العام التالي خرج الطويل إلى منطقة بليارش مرة أخرى ، وعاد مثقلاً بالغنائم والسبي^(٢) . ولما رأى عبد الله بن لب قوة الطويل واشتداد بأسه ، آثر مهادنته ، وفي أواخر سنة ٢٩٨ هـ (٩١١م) تحالف الإثنان على غزو نافار والزحف إلى عاصمتها بنبلونة ، وسار كل منهما في طريق مستقل ، وأغار الطويل على بعض الحصون ، وهدم الكنائس ، ولكنه ارتد حينما علم بأن سانشو ملك نافار يسير لقتاله . وغزا عبد الله في طريقه حصوناً أخرى ، وقتل وسبي كثيراً من النصارى . وفي العام التالي (٩١٢ م) غزا الطويل أراضى برشلونة ونشبت بينه وبين صاحبها الكونت سنير Sunier معركة هزم فيها الكونت وقتل كثير من أصحابه^(٣) ، ولكن الطويل لم يلبث أن قتل في العام التالي (٣٠١ هـ - ٩١٣ م) . والظاهر أنه قتل خلال غزوة أخرى قام بها في قطلونية^(٤) ، فخلفه أولاده في حكم أراضيه^(٥) .

(١) نشر العلامة المستشرق ف . كوديرا بحثاً ضمنه سيرة الطويل حسبما تعرضها المصادر اللاتينية والعربية ، وذكر فيه تفاصيل كثيرة شائقة . راجع البحث المذكور في مجلة أكاديمية التاريخ بمدريد : **Mohamed Ataul, rey moro de Huesca (B.R.A.H.) T. XXXVI (1900)** p.316-24.

(٢) البيان المغرب ج ٢ ص ١٤٩ و ١٥٠ .
(٣) البيان المغرب ج ٢ ص ١٥٢ و ١٥٣ و ١٥٤ .
(٤) يذكر لنا ابن عذارى تاريخ وفاة الطويل في حوادث سنة ٣٠١ هـ . ولكنه لا يقول لنا أين قتل ومن الذى قتله (ج ٢ ص ١٧٠) .
(٥) يذكر لنا الأستاذ كوديرا في بحثه السالف الذكر أسماء أبناء الطويل وهم أربعة من المذكور هم عبد الملك ، وعمروس ، وفورتونيو ، وموسى ، وابنة تسمى دونيا بلاسكيتا .

وكان عهد الأمير عبد الله يدنو عندئذ من نهايته ، ولم تشهد الأندلس منذ عهد عبد الرحمن الداخل فترة كهذه ، عمت فيها الفتنة وسرى ضرامها إلى كل ولاية وقاعدة ، ولم ينكمش سلطان الدولة الأموية بالأندلس قدر انكماشه في تلك الفترة . وكان على الأمير عبد الله أن يكافح دون هواده لإنقاذ الدولة والعرش من خطر الانهيار ، ففضى حكمه الذى استطال خمسة وعشرين عاماً في سلسلة لا نهاية لها من الفتن والغزوات والمعارك المستمرة ، مزقت خلالها أوصال المملكة ، واهتزت أسس الدولة إلى الأعماق ، ونضبت قواها ومواردها . وبالرغم من أن الأمير عبد الله لم يوفق إلى القضاء على الثورة في سائر النواحي ، فإنه استطاع أن يقضى على الخطر الدايم ، وأن يمزق شمل الثوار ، وأن يستميل نفعاً من أخطر زعمائهم ، وأن ييسط سلطان العرش من الناحية الإسمية على الأقل ، على بعض القواعد الهامة مثل إشبيلية وسرقسطة . وكان لهذه النتائج الأولى أثرها فيما بعد في عهد خلفه عبد الرحمن الناصر ، في التمهيد للقضاء على عناصر الثورة ، وتوطيد سلطان الدولة والعرش .

ويحاول الوزير المؤرخ ابن الخطيب أن يلقي ضوءاً على أسباب ذبوع الثورة في الأندلس في هذا العصر في قوله : « والسبب في كثرة الثوار بالأندلس يومئذ ثلاثة وجوه : الأول ، منعة البلاد وحصانة المعامل ، وبأس أهلها بمقاربتهم عدو الدين ، فهم شوكة وحدٌ بخلاف سواهم . والثاني ، علو الهمم ، وشموخ الأنوف ، وقلة الاحتمال لثقل الطاعة ، إذ كان من يحصل بالأندلس من العرب والبرابرة ، أشرفاً بأنف بعضهم من الإذعان لبعض . والثالث ، الاستناد عند الضيقة والاضطرار إلى الجبل الأشم ، والمعقل الأعظم من ملك النصارى ، الحريص على ضرب المسلمين بعضهم ببعض . فكان الأمراء من بني أمية يرون أن اللجاج في أمورهم ، يودى إلى الأضلولة ، وفيها فساد الأموال ، وتعذر الجباية ، وتعريض الحيوش إلى الانتكاب ، وأولياء الدولة إلى القتل . ولا يقوم السرور بغلبة الثائر ، بما يوازنه من ترحة هذه الأمور » (١) .

ولم تترك مقارعة الثورة لعبدالله فرصة للقيام بغزوات في أراضي النصارى .

(١) أعمال الأعلام (طبع بيروت) ص ٣٦ .

وشغلت البعوث والصوائف كلها أعواماً متوالية ، بمحاربة الخوارج والثوار في مختلف الأنحاء . ولم يتم النصارى من جانبهم بغزوات ذات شأن في الأراضى الإسلامية : وشغل ألفونسو الثالث ملك ليون (جلىقية) الذى خلف أباه أردونيو على العرش فى سنة ٨٦٦م بتنظيم مملكته وتوطيد حدودها ، منتهزاً فرصة الاضطراب الذى ساد المملكة الإسلامية . وكان من أعظم أعماله استيلاؤه على مدينة سمورة وهى من أمنع مدن الحدود الشمالية الغربية ، وذلك فى سنة ٢٨٠ هـ (٨٩٣م)^(١) . وحصن ألفونسو سمورة وأسكنها النصارى ، واتخذها قاعدة للإغارة على الأراضى الإسلامية المجاورة ومعظم سكانها من البربر^(٢) . ولما اشتدت الفتنة وعمت سائر النواحي ، ظهر فى أحواز طليطلة وطليبرة ، أحمد بن معاوية المعروف بابن القط ، وهو من ولد هشام بن عبد الرحمن ، ودعا لنفسه بين البربر فى تلك الأنحاء ، وزعم أنه المهدي ، وكان عالماً ومشعوذاً وافر الذكاء والعزم ، فالتفت حوله جموع غفيرة من البربر ، وأعلن الجهاد وقصد إلى سمورة لافتتاحها ، وكتب إلى ألفونسو رسالة عنيفة يدعو فيه إلى الإسلام وينذره بالويل إذا أبى . وكان ألفونسو يومئذ فى قواته على مقربة من سمورة ، فسار إلى لقاء المهدي وقواته ، ودارت الموقعة فى مخاض نهر دويرة أمام سمورة ، فهزم النصارى أولاً وارتدوا ، وحاصر المهدي سمورة . ولكن حدث عندئذ أن انسحب زعماء البربر فى قواتهم خشية من تفوقه عليهم وغدره بهم . وصمد ابن القط فيمن بقى معه ، ثم نشبت بينه وبين النصارى موقعة ثانية قاتل فيها ببسالة حتى قتل ومزقت قواته ، واحتز رأسه وسمر فوق أحد أبواب سمورة . وكان ذلك فى شهر رجب سنة ٢٨٨ هـ (يوليه سنة ٩٠١م) وبذا انهارت حركته ووطد ألفونسو سيادته فى تلك الأنحاء^(٣) .

وكان ألفونسو الثالث يعمل على انتهاز كل فرصة لإذكاء الفتنة والاضطراب فى المملكة الإسلامية ، وكان يقصده الثوار وفى مقدمتهم عميدهم ابن حفصون ، لتحالف معه ضد حكومة قرطبة ؛ واستدعاه أهل طليطلة فى أواخر عهد الأمير

(١) البيان المغرب ج ٢ ص ١٢٧ .

(٢) المقتبس ص ١٠٩ .

(٣) راجع تفاصيل حركة ابن القط وموقعة سمورة ، فى المقتبس ص ١٣٣ - ١٣٩ ،

وكنك فى ابن الأبار ، الحلة السيرة ص ٩١ - ٩٢ ؛ والبيان المغرب ج ٢ ص ١٤٤ ، ودوزى :

عبد الله ودفعوا إليه الجزية ، واستولى في عودته على بعض الحصون . وكانت هذه أول غزوة للنصارى على ضفاف نهر التاجه ، بيد أنها كانت غزوة عابرة ولم تخلف أثراً ثابتاً . وأما النغر الأعلى فقد كان بنوقسي ، وفي مقدمتهم لب بن محمد بن لب ، يحاربون ألفونسو ويحاربهم من وقت إلى آخر .

وكان من الحوادث البارزة في عهد الأمير عبد الله افتتاح الجزائر الشرقية (جزائر البليار) . وقد رأينا فيما تقدم كيف أرسل عبد الرحمن بن الحكم في سنة ٢٣٤ هـ (٨٤٨ م) حملة بحرية إلى ميورقة لغزوها ، ومعاقبة أهلها على تعرضهم لسفن المسلمين وكيف تعهد أهلها بالجزية والولاء . وفي أواخر عهد الأمير عبد الله في سنة ١٩٠ هـ (٩٠٣ م) سار عصام الخولاني إلى ميورقة في قوة بحرية من المجاهدين ، فحاصرها تباعاً ، وكان عصام قد حملته الرياح قبل ذلك وهو في طريقه إلى الحج إلى ميورقة فعرفها ، واختبر أحوال هذه الجزائر الغنية ، وأدرك سهولة فتحها وعرض مشروعه على الأمير عبد الله ، فأقره وأمدّه بالسفن والقطائع . ولما وفق إلى فتحها أقره الأمير على ولايتها . ومن ذلك الحين تدخل الجزائر الشرقية في حظيرة المملكة الإسلامية^(١) .

وكان أيضاً من الحوادث البارزة في هذا العهد الحافل بالخطوب والمحن ، المجاعة الشديدة التي وقعت في سنة ٢٨٥ هـ (٨٩٨ م) والتي قاست الأندلس منها الشدائد والأهوال .

وتوفي الأمير عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن في مستهل ربيع الأول سنة ٣٠٠ هـ (أكتوبر سنة ٩١٢ م) في الثانية والسبعين من عمره ، بعد أن حكم خمسة وعشرين عاماً ملؤها الاضطراب والفتن . وكان أميراً ورعاً جم التقيف والتواضع ، جواداً محباً للخير ، كثير البر بالفقراء وذوى الحاجات ، يفرز لهم سهماً من مال الجبايات^(٢) ، عالماً أديباً فصيحاً رفيع البيان ، ينظم الجيد من الشعر . وكان بالرغم مما شغله دلوال حكمه من الفتن والخطوب ، شديد العناية بشئون الحكم وتوطيد أركانه ، وتعرف أحوال الشعب ورغباته ، وكان من أشد الناس حرصاً على

(١) ابن خلدون ج ٤ ص ١٦٤ .

(٢) المقتبس ص ٣٣ و ٣٤ .

إقامة العدل ، وقمع الظلم والبغى ، وسحق الظلمة . وكان يجلس للفقراء يوماً في كل أسبوع بباب أنشأه عند ركن القصر خصيصاً لذلك وسماه باب العدل ، ليقتضى في مظالم الناس بنفسه ، وليستمع إلى كل ذى حاجة ومظلمة ، وأنشأ باباً حديدياً يتمكن الناس بواسطته من تقديم شكاويهم وظلاماتهم حتى لا يحرم بذلك ضعيف من مخاطبته^(١) . وكان لصرامته وشدة وطأته على الطغاة وأهل السلطان ، أثر كبير في شيوع العدل في عهده ، والحد من بغى ذوى الجور والظلم ، كما كان لبالغ تقواه وتواضعه ، واحتشامه وتقشفه في حياته الخاصة ، وفي مظاهره وحياته الملوكية ، أثر كبير في تقويم الأخلاق ودعم الفضيلة ، والاقتصاد في اللهو والملاذ ، في عصر كثرت فيه الخطوب والحزن .

وتولى الحجابة في بداية عهد عبدالله ، عبد الرحمن بن أمية بن شهيد حاجب أخيه المنذر ، ثم تولاها من بعده سعيد بن محمد بن السليم حيناً ، ثم عزله عبد الله في أواخر عهده ، ولم يول أحداً من بعده لحجابه ، واقتصر في تدبير شئون الدولة على الوزراء والكتاب ، وبالأخص على بدر الحصى الصقلبي وكان يوثره ويوليه ثقته^(٢) . وكان من حسن الطالع أن استطاع الأمير عبدالله ، أن يعتمد في مواجهة الفتنة الغامرة التي أحقت بعرشه وملك أسرته ، على عون نفر من أكابر رجال الحرب والسياسة ، الذين أبدوا في معالجة الخطوب مقدررة فائقة . وكان في مقدمة أولئك الرجال بنو عبدة وهم من صميم موالى بنى أمية . وقد تولى عدة منهم الوزارة والقيادة للأمير عبد الله ، ومنهم عبيد الله محمد بن أبي عبدة ، الظافر في موقعة بلاى ، وأحمد بن محمد بن عيسى بن أبي عبدة ، وسلمة بن علي بن أبي عبدة ، وقد اضطلع كلاهما بقيادة كثير من الصوائف . وينسب أعظم الفضل إلى هؤلاء القادة في مقارعة الفتنة ، وإنقاذ العرش والدولة^(٣) . وتولى القيادة والوزارة منهم أيضاً عبد الرحمن بن حمدون بن أبي عبدة ، وعبد الله بن محمد بن أبي عبدة ولد القائد الشهير^(٤) . وكان من وزراء الأمير عبد الله أيضاً ، عبد الملك بن عبد الله

(١) راجع المقتبس ص ٣٤ ، والبيان المغرب ج ٢ ص ١٥٨ . وقد استعملت هذه الوسيلة في

كثير من العصور لإيقاف الأمير على مظالم رعاياه بطريقة مباشرة .

(٢) ابن حيان في المقتبس ص ٤ .

(٣) المقتبس ص ٢٩ .

(٤) راجع البيان المغرب ج ٢ ص ١٥٦ ، و ١٥٧ ، وأخبار مجموعة ص ١٥١ . وكذلك

المقتبس ص ٦ .

ابن أمية ، وقد قتله ولده المطرف أثناء حملة إشبيلية حسبنا أسلفنا . والزعيم البربري سليمان بن وانسوس وزير أبيه من قبل ، وكان من أقدر وزرائه وأعقلهم ، عزله عن الوزارة ثم اضطر لإعادته للاستعانة بخبرته ونصحه^(١) .

وكان الأمير عبد الله ، إلى جانب هؤلاء الوزراء والقادة ، الذين يمثلون العصبية العربية أو البربرية ، يعتمد على ولاء الموالى والفتيان ، ويقدم الموالى الشاميين على البلديين ، أسوة بما رتبه أبوه الأمير محمد ، وكان من زعماء الفتيان في بلاطه ريان صاحب الطراز ، وبدر الوصيف وزميله أفلح . وسرى فيما بعد كيف نما نفوذ أولئك الفتيان في بلاط قرطبة ، واستفحل في عهد الناصر حتى غلب على كل نفوذ آخر^(٢) .

ورزق الأمير عبد الله من الولد إثنا عشر ابناً وثلاثة عشر بنتاً^(٣) . ووقعت داخل الأسرة الملكية في عهده عدة حوادث محزنة أسبغت على اسمه وخلالها سبياً قائمة . من ذلك مصرع ولديه محمد والمطرف . وكان محمد أكبر أبنائه وولى عهده ، وكان أخوه الأصغر مطرف يحقد عليه ، ويرى أنه أحق بولاية العهد لما كان والده يحبوه به من ثقته ، ويعهد إليه به من جلائل الأمور والغزوات ، فما زال يدس في حق أخيه ويغري أباه عليه ويتهمة بممالة الثوار ، والاتصال بابن حفصون ، حتى توجس منه أبوه الأمير شراً ، وأمر باعتقاله في جناح من القصر . ولما تواترت الأدلة بعد ذلك على براءته ، واعتزم عبد الله إطلاق سراحه ، بادر مطرف إليه في معتقله ، وأثنى طعاناً حتى أجهز عليه . وهنا تختلف الرواية فيقال إن الأمير عبد الله حزن أشد الحزن لمصرع ولده الأكبر ، وهم بقتل أخيه وقاتله مطرف ، لولا أن ثناه عن ذلك رجال دولته ، ويقال من جهة أخرى إن مطرفاً لم يرتكب جريمته إلا بوحى أبيه وموافقته^(٤) . وكان مصرع محمد في شوال سنة ٢٧٧ هـ

(١) راجع ابن الأبار في الحلة السيرة ص ٦٦ و ٦٧ .

(٢) راجع الحلة السيرة ص ٦٥ ، والبيان المغرب ج ٢ ص ١٥٣ .

(٣) يذكر لنا صاحب البيان المغرب أسماء أبناء الأمير عبد الله وبناته (ج ٢ ص ١٥٦) .

(٤) راجع ابن خلدون ج ٤ ص ١٣٧ ، والبيان المغرب ج ٢ ص ١٥٦ و ١٥٧ و ١٦٠

و ١٦١ . ويقول صاحب البيان إن محمداً خرج بالفعل على أبيه ، وفر إلى ابن حفصون ، ثم عفا عنه أبوه وعاد إليه ، حتى انتهت وشاية أخيه باعتقاله (ص ١٥٤ و ١٥٥) . وذكر ابن الأثير

أن الأمير عبد الله قتل ولده محمداً في حد من الحدود (ج ٨ ص ٢٤) .

(٨٩١ م) وهو في السابعة والعشرين من عمره ، فتولى أبوه عبد الله كفالة ولده الرضيع عبد الرحمن ، وكان قد مضى على مولده ثلاثة أسابيع فقط ، وأسكنه معه في قصره ، ولما بلغ أشده وظهرت نجابته ، غنى بتعليمه وتربيته ، وقربه إليه وأولاه ثقته ثم جعله كاتب سره^(١). وقد شاء القدر أن يخلف الطفل اليتيم فيما بعد جده على العرش ، وأن يغدو أعظم خلفاء الأندلس .

ولم تذهب جريمة المطرف دون عقاب . ذلك أنه لم تخلص بضعة أعوام حتى ساءت العلاقات بين مطرف وبين أبيه ، ولما سار المطرف على رأس الصائفة إلى إشبيلية في سنة ٢٨٢ هـ (٨٩٥ م) ، ومعه الوزير عبد الملك بن أمية ، وثب المطرف بالوزير لعداوة بينهما وقتله ، وأثر سعى خصوم المطرف هذه المرة ، وصور لأبيه كما صور أخوه من قبل ، في صورة الخارج عليه المتربص به ، ففضى بإعدامه ، وقطع رأسه وبذا كفر عن دم أخيه ودم الوزير^(٢) .

واستراب عبد الله أيضاً بإخوته ، وقد أشرنا فيما تقدم إلى ما قيل من أن أخاه المنذر توفي قتيلاً ، وأنه هو الذي أوحى إلى طبيبه بتدبير قتله . وبطش عبد الله بأخوين آخرين له هما هشام والقاسم ابنا محمد بن عبد الرحمن . فأما هشام فاتهم بالتآمر على أخيه ، فقبض عليه وقضى بإعدامه (٢٨٤ هـ) . وأما القاسم فقبض عليه وزج إلى السجن ، ثم دس عليه عبد الله من قتله بالسم . واعتقل كذلك عدة من أمراء بني أمية وأكابر رجال الدولة ، وقتل بعضهم . وقد أسبغت هذه الوقائع الدموية سحابة قائمة على خلال الأمير عبد الله وسيرته ، ولم ينجح في محوها ورعه وزهده وحبه للخبر . وقد نعى عليه الفيلسوف ابن حزم هذا الإسراف في البطش في أقوال استشهد بها ابن حيان وغيره من مؤرخي الأندلس ، وجاء فيها أن الأمير عبد الله « كان قتالاً تهون عليه الدماء ، مع الذي كان يظهره من عفته ، فإنه احتال على أخيه المنذر على إيثاره إياه ، وأوطأ عليه حجامه بأن سم له المبضع الذي فصد به وهو نازل بعسكره على ابن حفصون ، فكانت فيه منيته وتطوق دمه . ثم قتل ولديه معاً بالسيف واحداً بعد آخر ، محمداً والد الخليفة الناصر لدين الله ،

(١) المقتبس ص ٤٠ .

(٢) ابن خلدون ج ٤ ص ١٣٧ .

وأخاه عدوه المطرف ؛ ثم قتل أخوين له معاً أيضاً ، قتل هشاماً بالسيف ، والقاسم أخاه بالسم ، إلى من قتله غيرهم»^(١) .

وتجمل الرواية خلال الأمير عبدالله وصفاته في العبارات الآتية : « وكانوا يعدونه من أصلح خلفاء بني أمية بالأندلس ، وأمثلهم طريقة ، وأتمهم معرفة ، وأمتهم ديانة ، لكنه كان منغص الحال بدوام الفتنة ، وتضيق نطاق الحطة ، ونقصان مقدار التزكية ، حتى كان يتخلله الرياء تحت قناع تقواه ، والبخل يطوقه طبيعة ليست له تحط من قدره»^(٢) . وي زيد ابن حيان على ذلك قوله : « ونعمصوا دينه بما كان من هون الدماء عليه ، وإسراعه إلى سفكها ، حتى من ولديه وإخوته ومن خلفهما من صحابته ورعيته ، أخذوا لأكثرهم بالظنة ، مقويماً في إيثامهم بالشبهة»^(٣) .

وكان للأمير عبدالله بالرغم من هذا الجانب المظلم ، خلال مشرقه ، منها أدبه وفصاحته وشاعريته . وتنوّه الرواية بهذه الموهبة فيقول لنا صاحب أخبار مجموعة ، إن الأمير عبدالله كانت له توقيعات بليغة ، وأشعار بديعة في الغزل والزهد ، لا يكاد أن يقع مثلها أو تنسب إلى من تقدمه نظيرها^(٤) . ويقول ابن حيان « كان متصرفاً في فنون ، متحققاً منها بلسان العرب ، بصيراً بلغاتها وأيامها ، حافظاً للغريب من الأخبار ، أخذاً من الشعر بحظ وافر»^(٥) . ويقول صاحب البيان المغرب إنه كان شاعراً مطبوعاً له أشعار حسان^(٦) ، ومن شعره في الغزل قوله :

يا مهجة المشتاق ما أوجعك ويا أسير الحب ما أخشعك
ويا رسول العين من لحظها بالرد والتبليغ ما أسرعك
تذهب بالسرفاتني به في مجلس يخني على من معك

(١) راجع نطق العروس لابن حزم ص ٨٧ و ٧٩ ، والمقتبس ص ٤١ ، وكذلك ص ١٢٢ ، وابن الأبار في الحلة السيرة ص ٦٩ ، والبيان المغرب ج ٢ ص ١٦٠ و ١٦١ .

(٢) ابن حيان ، فقلا من عيسى بن أحمد الرازي ، في المقتبس ص ٣٣ ، والبيان المغرب

ج ٢ ص ١٦٠ .

(٣) المقتبس ص ٣٩ .

(٤) أخبار مجموعة ص ١٥٢ .

(٥) المقتبس ص ٣٤ .

(٦) البيان المغرب ج ٢ ص ١٥٩ .

كم حاجة أنجزت إبرازها تبارك الرحمن ما أطوعك
وقوله :

ويحي على شادن كحيل كأنما وجتاه ورد
قضيّب بان إذا تثنى فصفو ودى عليه وقف
ومن قوله في الزهد :

يا من يراوغه الأجل حتى م يلهيك الأمل
حتى م لا تخشى الردى وكأنه بك قد نزل
أغفلت عن طلب النجاة ولا نجاة لمن غفل
هيات يشغلك المنى ولا يدوم لك الشغل
فكأن يومك لم يكن وكأن نعيمك قد نزل

وكان يؤثر مجالس العلماء والشعراء ، ويعظمهم ويقربهم ويستدعيهم ، ويرتاح
لمديحهم . قال ابن حيان : « وكان مجلس الأمير عبد الله قبل الخلافة وبعدها ،
أعمر مجالس للفضائل ، وأنزهها من الرذائل ، وأجمعها لطبقات أهل الآداب
والتعاليم » . وكان في مقدمة أصدقائه وجلسائه زعيم شعراء العصر ، أبو عمر أحمد
ابن عبد ربه صاحب العقد الفريد ؛ وكان شاعر الدولة الأموية ، ومادح أمراءها
منذ الأمير محمد حتى الناصر ؛ وموسى بن محمد بن حنيدير المعروف بالزهد ؛
وسعيد بن عمرو العكبي ؛ وعبيد الله بن يحيى بن إدريس الخالدي ، وسعيد
ابن عبد ربه ابن أخي صاحب العقد ؛ وكلهم من أكابر الشعراء والكتاب .
وكان من أخص وزرائه في تلك المجالس العلمية ، الوزيران العالمان الأديبان
عبد الملك بن جهور ، وعبد الملك بن شهيد . وكان من عادته أن يلجأ إلى العلماء
وأهل الرأي في المشورة ، ويستعين بأرائهم وأحكامهم فيما يواجهه من أحداث
وخطوب ؛ وكان تقي بن مخلد فقيه العصر وأعظم علمائه أكثرهم حظوة لديه ،
وكان يبجله ويزوره في داره ، ويقتبس منه ، ويستمع لنصحه (١) .

(١) المقتبس ص ٣٤ و ٣٨ و ٤١ و ٤٢ .

ولم يتسع عهد الأمير عبد الله الفياض بالثورات والفتن للأعمال الإنشائية ، بيد أنه يمكن أن نذكر من منشآته القليلة «السباط» الموصل بين القصر والمسجد الجامع ، وهو عبارة عن ممر مسقوف مبني فوق عقد كبير يفضي من القصر إلى الجامع ، ويتصل به على مقربة من المحراب .

وكان الأمير عبد الله بن محمد ، أبيض ، أصهب ، مشرباً بحمرة ، أزرق العينين ، ألقى الأنف ، يخضب بالسواد ، إلى الطول أميل^(١) . ووصفه ابن حيان بقوله : « كان جميل الطلعة ، ضخماً ، مهيباً ، نبيلاً »^(٢) .

(١) ابن الأثير ج ٨ ص ٣٤ ، والبيان المغرب ج ٢ ص ١٥٥ .

(٢) المقتبس ص ٣٦ .

الفصل الخامس

المملكة الإسبانية النصرانية

خلال القرن التاسع الميلادي

ألفونسو الثاني ملك جليقية . النضال بين الأندلس وبين المملكة النصرانية . موقعة الصخرة . غزو ألفونسو للأراضي الإسلامية . غزو الحكم جليقية . غزو المسلمين لألبه والقلاع . راميرو الأول . الحرب الأهلية في جليقية . غزو محمد بن عبد الرحمن جليقية . وفاة راميرو وولاية ولده أردونيو . تحالف أردونيو مع الثوار المسلمين . غزو الأمير محمد لألبه والقلاع . التحالف بين موسى بن موسى وملك نافار . الحرب بين أردونيو وبنى قسى . هزيمة موسى ومصرعه . تحالف لب بن موسى مع أردونيو . غزو أردونيو لأراضي المسلمين . غزوة المنذر بن محمد لنافار . غزوات أخرى لألبه والقلاع . وفاة أردونيو وولاية ولده ألفونسو الثالث . الحرب الأهلية في جليقية . اتساع المملكة النصرانية في عهد ألفونسو الثالث . توغله في أراضي المسلمين . عقد السلم بينه وبين محمد بن عبد الرحمن . أحوال المملكة النصرانية . نفوذ الكنيسة في توجيه العرش الإسباني . معارك بين المسلمين والنصارى . الثورة ضد ألفونسو . نزوله عن العرش . وفاته وخلاله . ملكة نافار . أصلها ونشأتها . مدافعة البشكنس عن استقلالهم . تحالف نافار مع بنى قسى . المصاهرة بين الأسرتين . التناحر بين نافار وليون . سانشو ملك نافار . الحرب بين سانشو وبنى قسى .

- ١ -

تحدثنا فيما تقدم عن نشأة المملكة الإسبانية النصرانية عقب افتتاح المسلمين لاسبانيا ، وكيف نمت هذه المملكة الوليدة المحتجة فيما وراء الجبال الشمالية ، بخطوات بطيئة ولكن ثابتة ، وكيف شغل عنها ولاة الأندلس فلم ينهضوا لسحقها ، انتقاصاً لشأنها وخطرها ، حتى غدت في أواخر القرن الثامن عاملاً يحسب حسابه ، وبدأت حكومة قرطبة تنظر إلى هذه القوة الجديدة التي توالى غزواتها للأراضي الإسلامية بعين الاهتمام والتوجس ، وتخصص لمقارعتها شطراً كبيراً من جهودها ومواردها .

وقد انتهينا في أخبار هذه الحقبة من تاريخ المملكة الإسبانية النصرانية ، إلى عصر ألفونسو الثاني الملقب بالضعيف ، الذي تولى الملك سنة ٧٩١ م (١٧٥ هـ) .

وكان ألفونسو الثاني ملكاً حازماً مقداماً ، فضبط المملكة ونهض بها نهضة شاملة ، وحصن ثغورها وقواعدها ، وعمل على تحسين شئونها الاجتماعية ، وجعل عاصمتها مدينة «أوبييدو» Oviedo . وكانت مملكة جليقية أو مملكة أستوريش (أستورياس) كما كانت تسمى يومئذ ، تمتد من ولاية بسكونية شرقاً إلى المحيط غرباً ، ومن خليج بسكونية شمالاً حتى نهر دويرة جنوباً ، ولكنها لم تكن عندئذ كما كانت أيام ألفونسو الكاثوليكي تشمل ولاية ناغار أو بلاد البشكنس ، التي استطاعت أن تستقل بنفسها ، وقامت بها غير بعيد مملكة نصرانية مستقلة أخرى .

واستطال حكم ألفونسو الثاني زهاء نصف قرن . عاصر فيه ثلاثة من أمراء الأندلس ، هم هشام بن عبد الرحمن ، وولده الحكم ، وحفيده عبد الرحمن ، وتوالت فيه مراحل النضال بين الأندلس والمملكة النصرانية ، فنشبت الحرب بينهما مراراً عدة ، وتبادلا الغزوكل للأراضي الآخر مراراً ؛ وكانت أهم الأحداث البارزة في حلقات هذا النضال ، هزيمة الخلافة والبشكنس بقيادة ألفونسو الثاني على يد المسلمين في موقعة الصخرة في قاصية جليقية في سنة ٧٩٥ م (١٧٩ هـ) . وفي سنة ٨١٠ م (١٩٣ هـ) في عهد الحكم بن هشام عبر ألفونسو الثاني بقواته نهر دويرة ، وغزا الأراضي الإسلامية ، وتوغل في سيره حتى قلسمرية وأشبونة ، وعاث في تلك الأنحاء أليماً عيث ، ورد الحكم على ذلك بنفسه في صيف العام التالي غازياً إلى جليقية ، وتوغل في منطقة وادي الحجارة ، وأثنى في تلك الأنحاء عقاباً للنصارى وزجرأ لهم على عدوانهم .

وفي عهد عبد الرحمن بن الحكم سارت الجيوش الأندلسية ، بقيادة الحاجب عبد الكريم بن عبد الواحد بن مغيث في سنة ٨٢٣ م (٢٠٨ هـ) ، غازية إلى ألبة والقلاع ، على أثر غزو ألفونسو الثاني للثغر الأعلى ، وإغارته على مدينة سالم ، وهزم المسلمون النصارى في عدة مواقع ، وعاثوا في أراضي جليقية ، وخربوا مدينة ليون ، وأملوا على النصارى صلحاً شديداً قاسياً^(١) .

ولما توفي ألفونسو الثاني في سنة ٨٤٢ م ، خلفه على العرش ولده رامير الأول أو رذمير كما تسميه الرواية الإسلامية . على أنه لم يخلفه دون نضال . ذلك أن

(١) راجع في تفاصيل الحروب والغزوات المتقدمة « دولة الإسلام في الأندلس » الفصل السابع من القسم الأول من الكتاب الثاني ص ٢٠٨ وما بعدها ، وكذلك المراجع .

راميرو حينما توفي أبوه كان في ولاية بردوليا الشرقية ، التي عرفت فيما بعد بقشتالة (كاستيليا) Castilla نظراً لكثرة قلاعها ، يقرب حركات المسلمين . وكان عبد الرحمن بن الحكم يقوم عندئذ بغزواته الكبرى في الثغر الأعلى ، ويشخن في بلاد البشكنس ، وكان ألفونسو يخشى أن يتدفق هذا السيل المخرب إلى أحواز جليقية ، ولكن عبد الرحمن ارتد إلى قرطبة بعد أن غزا بنبلونة ، وخربها ، وسحق البشكنس وحلفاءهم ثوار الثغر الأعلى . وتوفي ألفونسو بعد ذلك بقليل ؛ فوثب في أوبيدو زعيم من الأشراف يدعى الكونت ريوتيانوس واستولى على العرش ؛ وعلم راميرو بذلك وهو في بردوليا فهرع إلى جليقية ، وجمع جيشاً في مدينة « لك » وسار إلى أشتوريش ليقاتل المغتصب . ولقيه ريوتيانوس في قواته على ضفاف نهر نارسيا ، وما كادت المعركة تضطرم بين الفريقين ، حتى هجر ريوتيانوس معظم جنده ، وهزم هزيمة شديدة ، وقبض عليه ، وسملت عيناه ، واعتقل بقية حياته في أحد الأديار ؛ واسترد راميرو عرشه ، وأطاعته سائر جليقية وأشتوريش .

ولكن علاقة العرش بالأشراف لبثت على توترها ، ولم تمض أعوام قلائل حتى در الأشراف ثورة جديدة ضد راميرو (٨٤٥ م) . ثم تلتها في سنة ٨٤٨م ثورة أخرى ، واستطاع راميرو في كل مرة أن يخذم الثورة ، وقبض على معظم الزعماء والحوارج وأعدم الكثير منهم .

ومما تجدر ملاحظته هذه المناسبة أن حكومة قرطبة كانت في معاملتها للزعماء والحوارج عليها ، تبدو أكثر اعتدالاً وتسامحاً . فقد كانت تغفو أحياناً عن الثوار ، وكانت تؤثر اصطناع القادرين والأكفاء منهم ، وكانت في عقابهم أقل قسوة ونكالا . وقد يرجع ذلك إلى ظروف الأحوال في الأندلس ، فقد كانت الثورات شعبية أو قبلية على الأغلب . أما في جليقية فكان زعماء الثورة من الأشراف والزعماء الإقطاعيين الأقوياء ، وكان خطرهم على العرش أشد وأدعى إلى التوجس والحذر^(١) .

وشغلت المملكة النصرانية في بداية عهد راميرو ، كما شغلت المملكة الإسلامية ، برد خطر النورمانين الذين فاجأوا الأندلس بغارتهم المخربة في سنة ٨٤٢ م حسباً

أسلفنا . وشغلت حكومة قرطبة بالأخص حيناً بتحسين أطراف المملكة، وإصلاح ما تخرب من أعمالها . وما كاد أمير الأندلس عبد الرحمن بن الحكم ينتهي من ذلك ، حتى نشط إلى استئناف غزو المملكة النصرانية ورد غارات النصارى ، فسير ولده محمداً في سنة ٨٤٧م إلى جليقية فاخترق بسائطها ، وحاصر مدينة ليون ، وعاث في تلك المنطقة . وتقول بعض الروايات النصرانية ، إن المسلمين التقوا براميرو على مقربة من مدينة سالم ، وهزموه هزيمة شديدة ، واستولوا على عدد من الحصون ، وعلى كثير من الغنائم والأسرى . وفي رواية أخرى أن راميرو التقى بالمسلمين على مقربة من كلاينجو بجوار قلهرة ، وأنه هزمهم بالرغم من قلة جنده ، وتنسب هذا النصر إلى خرافة خلاصتها أن راميرو رأى القديس ياقب في نومه ليلة المعركة ووعده بالنصر^(١) . على أن الروايات الإسلامية لا تذكر شيئاً عن هذه الواقعة وهذا النصر المزعوم .

وأنفق راميرو ببقية عهده القصير في العمل على تنظيم شئون مملكته وتوطيد الأمن فيها ، وأنشأ عدداً من الكنائس والأديار ، ثم توفي في ديسمبر سنة ٨٥٠ م بعد حكم دام نحو ثمانية أعوام ، تاركاً عرش أستوريش وبردوليا لولده أردونيو .

- ٢ -

وتولى أردونيو عرش المملكة النصرانية عقب وفاة أبيه بقليل ، وبدأ أعماله بتحسين المدن المتاخمة لحدود المسلمين ، مثل تودة وليون وأستركة ، وأصلح باقي القلاع والحصون تاهباً للدفاع ، وأخذ الثورة في ولاية بسكونية ، وفرض عليها سلطانه . ولما ظهرت أعراض ثورة المولدين في الأندلس في بداية عهد الأمير محمد بن عبد الرحمن ، وقامت طليطلة بثورتها على حكومة قرطبة ، أرسل أردونيو مدداً إلى الثوار ، ولكن جيش الأندلس هزم الثوار وحلفاءهم النصارى في موقعة وادي سليط شر هزيمة (٨٥٤ م) . وفي العام التالي غزا الأمير محمد ألبه والقلاع وعاث فيها ، ولكن الأندلس شغلت بعد ذلك بظهور النورمانيين وغزوهم لثغور الأندلس وبسائطها القريبة ، فوقف سير الصوائف إلى الشمال بضعة أعوام . ولكن أردونيو كان يواجه عندئذ خطر قوة جديدة ، أخذت تنمو وتشتد في الولايات الشمالية . ذلك أن موسى بن موسى بن قسي ، استطاع أن يبسط سلطانه

Aschbach : ibid , B. I. s. 259. (١)

على الثغر الأعلى ؛ وأن ينشئ فيه إمارة مستقلة قوية ، واقترن غرسية أمير نافار بابنة موسى وتحالف معه ، ليستعين به على مقاومة المسلمين ، ومقاومة جيرانه النصرارى من الغرب . وفى أوائل عهد الأمير محمد ، عبر موسى جبال البرنيه بقواته ، وغزا جنوبي فرنسا ، واضطر ملكها شارل الأصلاح إلى مهادنته ومسالمته ، وأغدق عليه الهدايا والتحف . ولما رأى أردونيوهوض قوة موسى وخطرها عليه ، اضطر أن يسعى إلى محالفته ، ولكنه ما لبث أن تركه مغضباً إذ كان موسى يؤازر البشكنس الثأرين عليه بتحريض صهره أمير نافار ، ولم ير أردونيو فى النهاية بدأ من محاصمة موسى ومحاربتة ، وهاجم أردونيو بعض الحصون الغربية التابعة لموسى ، فسار موسى لقتاله ومعه صهره غرسية ملك نافار فى قواته ، ونشبت بين الفريقين معركة شديدة هزم فيها موسى وجرح وقتل صهره غرسية . ثم توفى موسى متأثراً بجراحه (٨٦٢ م) . وكانت ضربة شديدة أصابت سلطان بنى قسى فى الشمال . ولما شعر لب بن موسى عقب وفاة أبيه بقوة المملكة النصرانية ، وخطرها ، على سلطان أسرته ، سعى إلى مهادنة أردونيو ومحالفته على قتال المسلمين ، وردهم عن الولايات الشمالية .

وانتهز أردونيو فرصة اشتغال حكومة قرطبة بأمر النواحي الثائرة ، فعبهزهر ديرة بقواته ، وغزا مدينة قورية وأسر واليها ، ثم غزا شلمنقة ، وهزم المسلمين ، وعاث فى تلك الأنحاء^(١) . فسير محمد جيشاً إلى الشمال بقيادة ولده المنذر ، فاخترق ألبة والقلاع ، وهزم النصرارى فى كل موطن ، ووصل إلى نبلونة ، وعاث فى نواحيها . وتوالت حملات الأندلس بعد ذلك على ألبة والقلاع ، ونشبت بين المسلمين وأردونيو معارك متعاقبة ، هزم فيها النصرارى جميعاً حسبما فصلنا ذلك فى موضعه^(٢) . وأراد محمد أن يقضى نهائياً على مملكة جليقية فسير السفن إلى المياه الغربية لتغزوها من البحر ، ووصل الأسطول الأندلسى بالفعل إلى مصب نهر منهو ، ولكن العواصف ثارت وحطمت السفن ، وفشل المشروع فى المهده (٨٦٦ م) .

ولزم أردونيو عقب هزائمه المتوالية السكينة بقية عهده ، ثم توفى فى شهر مايو

(١) Crónica General (Ed. Pidal) Vol. II. p. 366.

(٢) راجع تفاصيل هذه المعارك فى أخبار أمير الأندلس محمد بن عبد الرحمن (ص ٢٩٤ -

٢٩٩ و ص ٣١١) .

سنة ٨٦٦ م ، واختار قبيل وفاته ولده البكر ألفونسو لولاية عهده ، فخلفه على العرش باسم ألفونسو الثالث ولما يبلغ الرابعة عشر من عمره .

— ٣ —

وما كاد الملك الفتى يجلس على العرش ، حتى ثار عليه الكونت فرويلا حاكم ولاية جليقية وولد الملك برمند ، مطالباً بالعرش ، وسار في قواته إلى أوبييدو ، ففر ألفونسو إلى ولاية ألبة ، واستولى فرويلا على القصر ، وأعلن نفسه ملكاً . ولكن الأشراف القوط الذين يرون في العرش رمزهم وملاذهم ، لم يرقهم هذا الاغتصاب ، فثاروا على فرويلا وقتلوه حتى قتل ، وعاد ألفونسو إلى أوبييدو ظافراً واسترد عرشه .

ولم يمض قليل على ذلك حتى دبر أخوة ألفونسو ، وهم فرويلا ونونيو وبرمند وأدقاريوس مؤامرة لعزله وانتزاع العرش منه ، ولكن المؤامرة افضحت قبل نضجها ، وقبض ألفونسو على أخوته وعاقبهم بسمل أعينهم واعتقالهم ، ولم ينبج من بطشه سوى برمند إذ فر إلى أسترقه واستولى عليها ، واستطاع بمؤازرة المسلمين أن يستقل بحكمها بضعة أعوام^(١) .

وكان حكم ألفونسو الثالث الذي استطال أربعة وأربعين عاماً ، فاتحة عهد جديد من القوة والنهوض بالنسبة للمملكة النصرانية ، وكان ألفونسو أميراً وافر العزم والكفاية ، فاستطاع خلال حكمه الطويل بالحروب والزواج أن يدفع حدود مملكته حتى جبال البرنيه شرقاً ؛ وعبر نهر دويرة إلى أراضي المسلمين مراراً ، ووصل في غزواته إلى ضفاف التاجه ، وغزا عدة من المدن الإسلامية المتاخمة مثل ماردة وقلمرية وبازو وقورية وشلمنقة ؛ ومع أنه لم يستطع أن يضم هذا البسيط إلى مملكته ، فانه استطاع أن يشدد الضغط على الأندلس من هذه الناحية ، وأن يرد تيار الغزوات الإسلامية . وفي سنة ٨٧٨ م حاول المسلمين غزو ليون وأسترقه ، فبادر ألفونسو إلى لقاءهم ، وهزمهم في موقعتين على مقربة من سمورة ، وأرغم أخاه برمند على الفرار من أسترقه ، والالتجاء إلى المسلمين . وفي سنة ٨٨١ م غزا ألفونسو أراضي المسلمين وعبر دويرة والتاجه ، ووصل في زحفه حتى أحواز ماردة ووادي أنة ، وهو مدى لم يبلغه أحد من أسلافه . وتقول الرواية النصرانية

أنه التقى بالمسلمين عند سفح جبل أريفير من جبال سيراً مورينا (جبل الشارات) وهزمهم وقتل منهم عدة آلاف وهي موقعة لم تشر إليها الروايات الإسلامية^(١). وكانت ربيع الثورة تهب يومئذ على معظم جنبات الأندلس، وتشغل حكومة قرطبة بمقارعة بني قسي في الثغر الأعلى. وتحالف محمد بن لب زعيم الأسرة الثائرة مع ألفونسو الثالث، ليستعين به على قتال المسلمين، ولكن المسلمين نجحوا في انتزاع سرقسطة معقل ابن لب، وزحفوا على ألبه لمقاتلة النصارى، وعندئذ آثر ألفونسو أن يعقد السلم مع المسلمين، وعقدت بالفعل بينه وبين الأمير محمد بن عبد الرحمن حسبا فصلنا من قبل، معاهدة صلح استمرت ردها طويلا.

ذلك أن ملك النصارى رأى بالرغم مما كان يشغل حكومة قرطبة من ثورات متعاقبة، أن يقنع بتأمين حدوده وأراضيه من خطر الغزو الإسلامي، وأن يتفرغ لشئون مملكته الداخلية، وكانت هذه الشئون تستغرق جل اهتمامه، وكانت الأزمات والقلقل السياسية والاجتماعية تتعاقب، لأسباب وبواعث تتعلق بنظم المجتمع النصراني وظروفه. وقد وقعت في عهد ألفونسو عدة ثورات محلية ترجع بالأخص إلى المبالغة في فرض الضرائب على الضياع، وثار أصحاب الضياع لهذا الحور غير مرة في أنحاء مختلفة، وطالبوا بالحد من تغريمهم على هذا النحو لصالح الكنيسة ورجال الدين، ولكن هذه الثورات الإقطاعية أخذت تباعاً، وصودرت معظم الضياع لصالح الكنيسة، واستمر العرش في الإغداق على الأديار ورجال الدين.

ومما تجدر ملاحظته أن الملوكية الإسبانية، كانت تدين منذ نشأتها بمنتهى الولاء والطاعة للكنيسة والكرسى الرسولى. وكانت البابوية تتمتع في توجيهها بأعظم نفوذ. وكان العرش الإسباني يشعر دائماً بأنه يستمد سلطانه من الكنيسة، ويرجع إلى البابوية في كل أمر يمس شئون السلطة الروحية. ومن ذلك أن ألفونسو الثالث كتب إلى البابا يوحنا الثامن يستأذنه في عقد المؤتمر الكهنوتي وتعيين الأساقفة، فأذن له، وطلب إليه أن يبعث بفرقة من الفرسان للمعاونة في محاربة المسلمين في صقلية وجنوبي إيطاليا. وعقد المؤتمر الكهنوتي بالفعل في أوبيدو سنة ٨٧١ م ونظمت فيه شئون الكنيسة الإسبانية. وكان ألفونسو الثالث ملكاً تقياً ورعاً، وكانت

الكنيسة ورجال الدين يحظون منه بأوفر قسط من الرعاية والإغداق ، وكان هذا الجود المغرق يحمله على الإسراف في فرض الضرائب على الطوائف المدنية ، وبذا ييئس إليها بذور السخط والانتفاض (١) .

وفي أواخر عهد ألفونسو نشبت الحرب بينه وبين بنى قسى سادة الثغر الأعلى ، وأغار زعيمهم محمد بن لب غير مرة على أراضي المملكة النصرانية وناقار . وكذلك نشبت الحرب بين ألفونسو وبين ابن القط المعروف بالمهدى الذى تزعم البربر في منطقة سمورة حسبنا فصلنا ذلك في موضعه . ولكن هذه المعارك التى وقعت يومئذ بين المسلمين والنصارى لم تتسم بالطابع الرسمى ، وكان يضطلع بها الزعماء الخوارج على حكومة قرطبة ، ومن ثم فقد استمر التهادن بين حكومة قرطبة وبين المملكة النصرانية طوال عهد الأمير محمد ، فإنه الأمير المنذر ، ثم أخيه الأمير عبد الله . وبالرغم من أن ألفونسو لم يكن يترك فرصة لإذكاء الفتنة في المملكة الإسلامية وتعضيد الخوارج عليها ، فإنه التزم عهده المعقود معها ، ولم يقم بغزوات ذات شأن في الأراضى الخاضعة لها .

ودبرت عدة مؤامرات لخلع ألفونسو وانزاع العرش منه . وكان المتآمرون من خاصة أسرته . وحاول المتآمرون لأول مرة تمكين أولاده وزوجه خمينا من الحكم ، ولكن ألفونسو استطاع أن يقف على المؤامرة وأن يقضى عليها . وقبض على ولده غرسية واعتقله في قلعة أوبييدو . ولكن هذا الفشل لم يفت في عضد المتآمرين ، فدبروا مؤامرة جديدة برياسة الملكة خمينا ، وهى امرأة ذات أطباع تهم بالسلطان ، واشترك في تدبيرها الكونت نونيو صاحب برغش وأولاد الملك الثلاثة وهم : أردونيو وفرويل وجند سالفوس ، وانضم إليهم قسم من الجيش وفريق كبير من الشعب ، وسيطروا على كثير من المعقل . وخشى ألفونسو عاقبة الحرب الأهلية فقبل شروط الثوار ، ونزل عن العرش لولده الأكبر غرسية ، وعين أردونيو حاكماً لحليقية ، وفرويل حاكماً لأشتوريش ، ووقع ذلك في سنة ٩١٠ م ، وبذا اختتم ألفونسو عهده الذى استطال أربعة وأربعين عاماً . ولم يمض قليل على ذلك حتى توفى في شهر أكتوبر من نفس العام وقد جاوز الثامنة والخمسين من عمره (٢) .

(١) Aschbach : ibid, B. I. s. 346 & 352

(٢) Crónica General: ibid, Vol. II. p. 382

وتشيد الرواية لخلال ألفونسو الثالث ، وتصفه بالحزم والشجاعة ، وتقول لنا إنه كان خصماً عنيداً للمسلمين شديد الوطأة في محاربتهم ، ولكنه حينما عقد السلم مع حكومة قرطبة احترم عهده والتزم الوفاء به . وكان ألفونسو في الوقت نفسه نصيراً للآداب والعلوم يجزل صلاته لأهل العلم ، وكان من سعة أفقه أن عهد بتربية ولده أوردونيوا إلى بعض العلماء المسلمين (١) ، وكان حسبنا أسلفنا تقياً ورعاً يخلص الكنيسة بأوفر رعايته وعطائه ، وقد أنشأ كثيراً من الكنائس والأديار ، وأبني كنيسة شنت ياقب الشهيرة . وقد رأينا كيف حمله إسرافه في الإغداق على الكنيسة ورجال الدين ، على المبالغة في فرض الضرائب على الضياع ، فكان ذلك من عوامل الإنتقاص والثورة على سياسته ؛ وبذل ألفونسو جهوداً كبيرة في تحصين مدن الحدود ، وفي مقدمتها برغش وسمورة وسيانقة (شنت منكش) ، وزودها بالسكان والحند ، لكي تغدو سداً منيعاً ضد غزوات المسلمين .

ومنذ وفاة ألفونسو تسمى المملكة الإسبانية النصرانية مملكة ليون ، بعد أن كانت تسمى مملكة أشتوريش وجليقية ؛ وقد نقل ابنه وخلفه غرسية قاعدة المملكة من أوبييدو إلى مدينة ليون لتوسط موقعها بين جليقية وأشتوريش ؛ وتسبغ الرواية النصرانية على ألفونسو الثالث لقب (ألفونسو الكبير) El magno ، لما امتازت به المملكة النصرانية في عهده من القوة والنهوض والانتعاش ، وما تمتعت به خلال عهده الطويل من السلم والرخاء .

- ٤ -

إلى جانب مملكة أشتوريش أو مملكة ليون الإسبانية الشمالية ، كانت تقوم في غربي البرنيه في بلاد البشكنس الجبلية ، إمارة أو مملكة نصرانية أخرى هي مملكة ناغار (نبرة) . ويحيط الغموض بأصل هذه المملكة الصغيرة ونشأتها . وكل ما نعرفه من ذلك هو أن قبائل البشكنس ، كانت حتى أواخر القرن الثامن الميلادي تخضع لبعض السادة الإقطاعيين التابعين لمملكة الفرنج ، وربما حكمها دوقات كانتاريا أو أمراء أشتوريش . وكانت قاعدتهم مدينة بنبلونة الحصينة ، التي حكمها المسلمون ردحاً من الزمن ، ثم فقدوها في أواخر القرن الثامن أيام غزوات الفرنج لاسبانيا الشمالية . وكانت بلاد البشكنس أو ناغار منذ الفتح ميداناً للغزوات

الإسلامية والفرنجية . وقد حاول أمراء جليقية غزوها غير مرة ، وضمها إلى المملكة النصرانية . ولكن قبائل البشكنس كانت تتفانى دائماً في الذود عن استقلالها . ولما شغلت المملكة النصرانية بمنازعاتها الداخلية ، لبثت نافار مدى حين مقصد الصوائف الإسلامية ، واجتاحها المسلمون مراراً .

وفي نهاية القرن الثامن الميلادي في نحو سنة ٧٩٩ م ، ظهر في نافار زعيم من السادة يدعى أزوار وجعل نفسه أميراً مستقلاً . ولما توفي سنة ٨٣٦ م خلفه أخوه سانشو . ولكن أميراً آخر من الزعماء البشكنس هو غرسية إنيجيز بن إنيجو أريستا تغلب عليه وانتزع منه الإمارة . وتعرف الرواية الإسلامية إنيجو أريستا هذا وتسميه « ونقه بن شاخه ملك البشاكسة »^(١) . وهنا تبدو نافار لأول مرة في صورة المملكة المستقلة ، ويبدأ ثبت ملوكها المتعاقبين . ومما يجدر ذكره أن مملكة نافار الناشئة ، رأت أن ترتبط برباط التحالف والمصاهرة مع إمارة إسلامية مجاورة هي إمارة بنى قسى سادة الثغر الأعلى ، وهم حسبنا قدمنا يرجعون إلى أصل نصراني أوقوطى . وقد تزوج إنيجو أريستا رأس الأسرة النافارية بأرملة موسى بن فرتون ابن قسى ، وتزوج موسى بن موسى من ابنة غرسية إنيجز ، وتزوج غرسية وإخوته من بنات لب بن موسى بن فرتون ، وتزوج بعض إخوة موسى وأبنائه من بنات أمراء نافار^(٢) .

وهكذا كانت وشائج التحالف والمصاهرة تربط بين الأسرتين المسلمة والنصرانية ، وتوثقت هذه الوشائج واستطالت دهوراً . وكذلك رأى غرسية إنيجيز أن يتحالف مع عمر بن حفصون زعيم الفتنة في الأندلس . وكانت علائق نافار بجارتها المملكة النصرانية الكبيرة أو مملكة ليون يشوبها الكدر . ذلك أن مملكة نافار الصغيرة كانت دائماً تخشى مطامع ليون وغدرها ، وقد حارب غرسية إنيجيز أردونيو ملك ليون ، إلى جانب صهره موسى بن موسى ، في موقعة البلدة وقتل سنة ٨٦٢ م حسبنا أسلفنا .

وخلف غرسية ولده فرتون الذى لبث أسيراً في قرطبة ردحاً طويلاً . ثم خلفه ولده سانشو غرسية . وفي رواية أن سانشو هذا لم يكن ولداً لفرتون أو لغرسية

(١) راجع جبهة أنساب العرب لابن حزم ص ٤٦٨ .

(٢) جبهة أنساب العرب ص ٤٦٨ .

ولم يكن من أمراء البيت المالك ، ولكنه متغلب من نوع آخر انتزع الملك لنفسه . وعلى أى حال فقد استقر سانشو غرسية ملكاً على نافار . وهو أول من تلقب من أمراء نافار بألقاب الملك ، وبه تبدأ مملكة نافار الحقيقية . وقد حكم سانشو حتى سنة ٩٢٦ م ، وخاض مع المسلمين أيام الأمير عبد الله عدة حروب ووقائع ، وشغل حيناً بقتال بنى قسى الذين تصرمت علائقهم مع مملكة نافار ، وهاجم لب ابن محمد بن لب زعيم بنى قسى نافار غير مرة ، ونشبت بينه وبين سانشو على مقربة من بنبلونة وقائع متوالية انتهت بهزيمة لب ومقتله في سنة ٩٠٧ م ، فخلفه أخوه عبد الله في رياسة تطيلة وما جاورها ، واستمر في محاربة نافار وهزم سانشو في سنة ٩١١ م ، وتقول الرواية الإسلامية إن شانجه بن غرسية البشكنسى صاحب بنبلونه أعنى سانشو غرسية ، غزا مدينة تطيلة في سنة ٣٠٣ هـ (٩١٤ م) ، فقتل كثيراً من المسلمين ، وأسر أميرها عبد الله بن محمد بن لب بن موسى القسوى . فدخلها أخوه مطرف بن محمد في اليوم التالى ، وقام مكان أخيه . وقد كان عبد الله وأخوه مطرف من أبطال الثغر الأعلى ، وكانت لهما غزوات عديدة مظفرة في أراضي النصارى^(١) . وشغل سانشو أيضاً بقتال الطويل وغيره من زعماء الثغر الأعلى حسبنا فصلنا ذلك في موضعه . وسنعرض في فصل قادم إلى حروبه مع عبد الرحمن الناصر .

(١) المقتبس لابن حيان - السفر الخامس - مخطوط الخزانة الملكية بالرباط لوحة ١٦١ ، وهو الذى أشرنا في مقدمة الكتاب إلى اكتشافه بين محفوظات الخزانة الملكية .

فهرست الموضوعات^(١)

صفحة

٥ مقدمة

الكتاب الأول

فتوح العرب في إفريقية والأندلس وغاليس

وعصر الولاة في الأندلس

١٤	الفصل الأول : فتوح العرب في إفريقية.
٢٧	الفصل الثاني : إسبانيا قبل الفتح الإسلامي .
٣٨	الفصل الثالث : فتح إسبانيا
٦٣	الفصل الرابع : إسبانيا بعد الفتح الإسلامي
٧٧	الفصل الخامس : غاليس بين العرب والفرنج
٩٢	الفصل السادس : بلاط الشهداء.....
١١٢	الفصل السابع : الأندلس بين المد والجزر ..
١٢٢	الفصل الثامن : الحرب الأهلية ..
١٢٩	الفصل التاسع : خاتمة عصر الولاة

الكتاب الثاني

الدولة الأموية في الأندلس

القسم الأول - عصر الإمارة

من عبد الرحمن الداخل إلى عبد الرحمن بن عبد الحكم

(١) رأينا أن نكتفي بأن نثبت هنا فهرس الموضوعات والخرائط لهذا القسم الأول من الكتاب .
أما ما عدا ذلك من الملاحق والفهارس المختلفة الأخرى ، فسوف نشيها في نهاية القسم الثاني من الكتاب .

صفحة

- ١٤٠ : مصرع الدولة الأموية وقيام الدولة العباسية
- ١٤٧ : بعث الدولة الأموية في الأندلس .
- ١٥٧ : ولاية عبد الرحمن الداخل - ١
- ١٦٨ : موقعة رونسفال أو باب شزوا ..
- ١٨٥ : ولاية عبد الرحمن الداخل - ٢
- ١٩٢ : خلال عبد الرحمن ومآثره .
- الفصل السابع : مكة النصرانية الشمالية منذ قيامها إلى ولاية
- ٢٠٧ ألفونسو الثاني
- ٢٢٣ : هشام بن عبد الرحمن والحكم بن هشام .
- ٢٥٤ : عبد الرحمن بن الحكم .

الكتاب الثاني

الدولة الأموية في الأندلس

المقسم الثاني - عصر الإمارة

من محمد بن عبد الرحمن إلى عبد الله بن محمد

وعهد الفتنة الكبرى

- ٢٨٨ : ولاية محمد بن عبد الرحمن بن الحكم ، وطوالع الثورة الأولى
- ٣١٧ : ولاية المنذر بن محمد بن عبد الرحمن ، وبداية ثورة المولدين
- الفصل الثالث : ولاية عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن
- ٣٢٢ ١ - ثورة المولدين والعرب
- الفصل الرابع : ولاية عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن
- ٣٣٥ ٢ - ذروة الفتنة الكبرى

صفحة

٠٠٠	الفصل الخامس : المملكة الإسبانية النصرانية.
٣٥٣	خلال القرن التاسع الميلادي

* * *

فهرست الخرائط

...	...	١ - خريطة عامة لإسبانية المسلمة (موضوعة في فاتحة الكتاب)
٤٣	٢ - موقعة وادي لكة وخط سير طارق .
١٧٩	٣ - مواقع غزوة شارلمان لسرقسطة ومعركة باب الشزرى
٢١٧	٤ - المملكة الإسبانية النصرانية
٣٢٧	٥ - موقعة بلاى ومنطقة ثورة ابن حفصون

دولة الإسلام في الأندلس

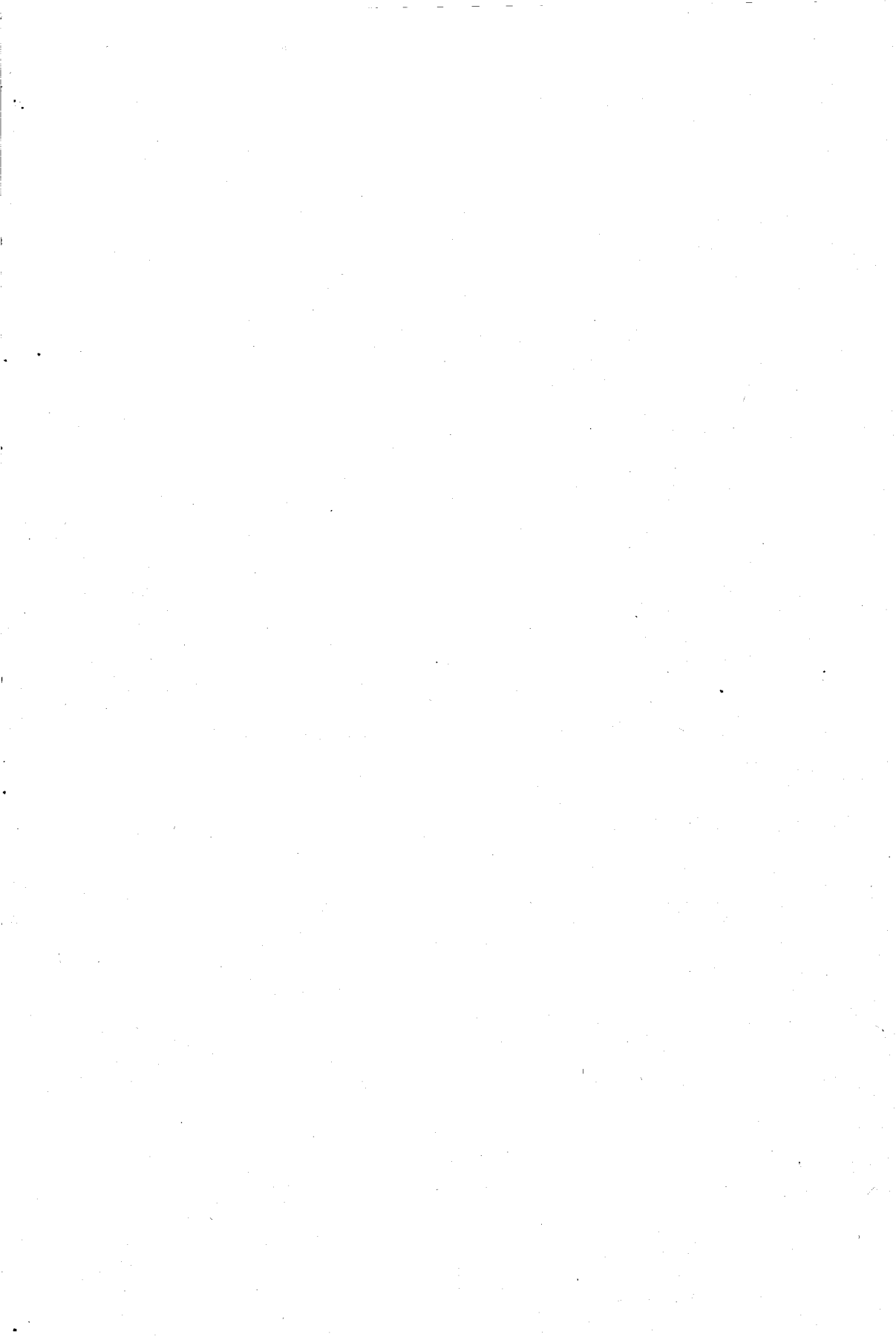
الخلافة الأموية والدولة العاقبة

تأليف

محمد عبد الله غنيان

العصر الأول - القسم الثاني

الناشر مكتبة النخعي بالقاهرة



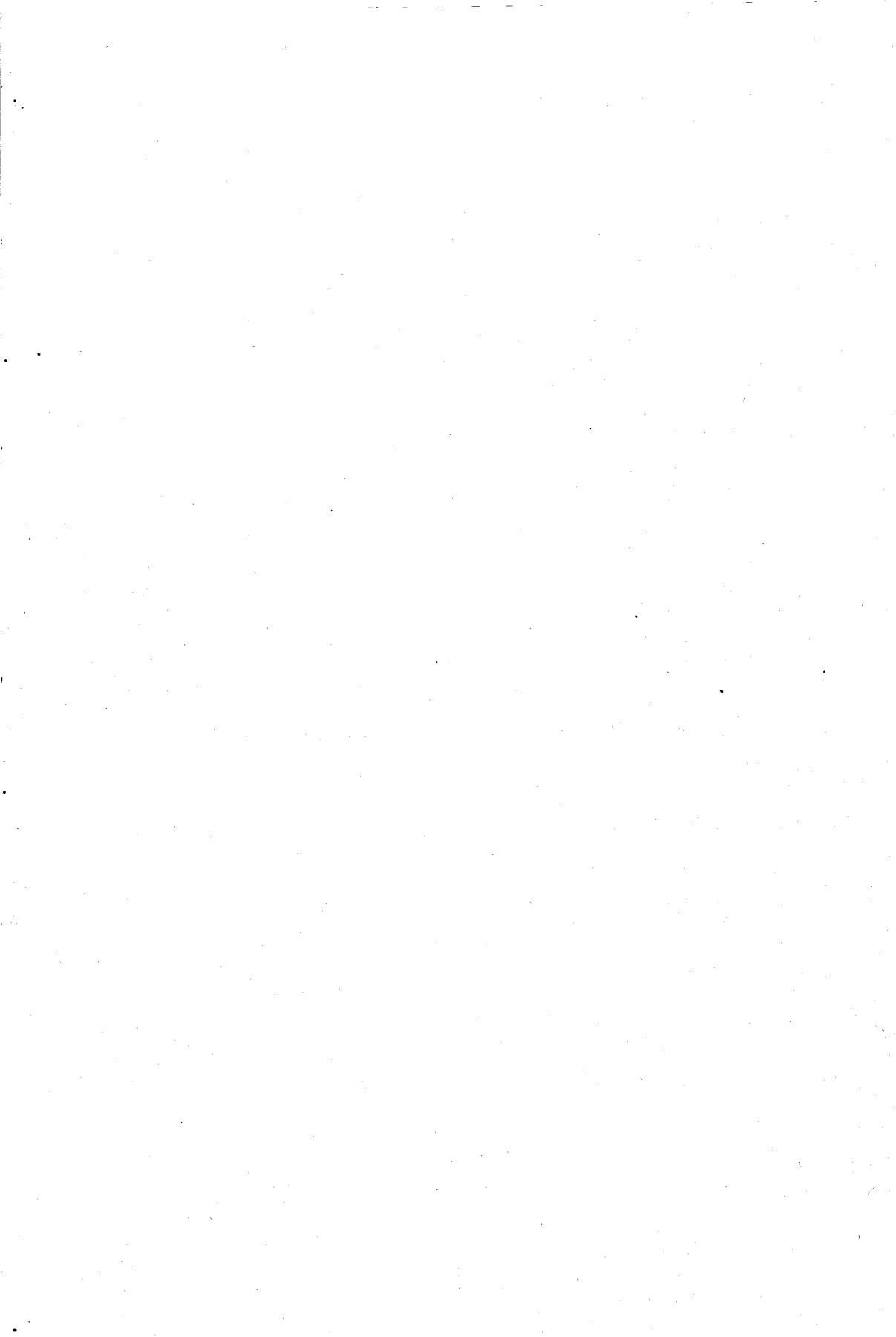
حقوق الطبع محفوظة للناشر

الطبعة الرابعة

١٤١٧ هـ = ١٩٩٧ م

رقم الإيداع : 90/8988

الترقيم الدولي : 4-082-505-977



الكتاب الثاني

الدولة الأموية في الأندلس

القسم الثالث

عبد الرحمن الناصر

وقيام الخلافة الأموية بالأندلس

٣٠٠ - ٣٥٠ هـ - ٩١٢ - ٩٦١ م

الفضل الأول

ولاية عبد الرحمن الناصر وقيام الخلافة الأندلسية

ولاية عبد الرحمن حفيد الأمير عبد الله . نشأته وحداثته . أخذ البيعة له . حزمه في معالجة الثورة . غزو قلعة رباح وإخضاعها . خروج عبد الرحمن لغزو الثوار . غزوة المنتلون . غزوه لمعاقل ابن حفصون في ريه وإلبيرة . سحق الثورة في إشبيلية . عودته لغزو كورة ريه . محاصرته لقرمونة وإخضاعها . مولد ولي للمهد الحكم . القحط بالأندلس . أقوال ابن حيان . إخضاع أوريوالة ولبللة . ابن حفصون يطلب الصلح ويحاج إليه . عهد الناصر له . وفاة عمر بن حفصون . مبالغة النقد الغربي في تصوير شخصيته . أبنائه يخلفونه في معاقله . مطاردتهم وإخضاع ببشتر آخر معاقلمهم . استخراج جثة الثائر وصلبها . إعدام ابنته أرختنا . كتاب الناصر عن فتح ببشتر . محاصرة طليطلة وإخضاعها . إخضاع بطليوس ونهاية بني الحليقي . إخضاع بني ذى النون . تمزيق الثوار في شرقي الأندلس . إسبانيا النصرانية وتربصها بالأندلس . عيث النصارى في أراضي المسلمين . غزو أردونيو ليابرة وماردة وبتليوس . غزو المسلمين لأراضى ليون . موقعة شنت إشتين وهزيمة المسلمين . عود المسلمين إلى غزو ليون . موقعة مطانية وهزيمة النصارى . مسير عبد الرحمن إلى ليون . استيلاؤه على أوسمة وشتت إشتين . توغله في أراضى نافار . موقعة جونكير وهزيمة النصارى . إستيلاء النصارى على بقيرة وفتحهم بالمسلمين . مسير عبد الرحمن إلى الثغر الأعلى . غزوه لنافار واستيلاؤه على بنبلونة . هزيمة النصارى . وفاة أردونيو وولاية ولده راميرو . راميرو يشجع ثوار طليطلة . محاصرة الناصر لطليلة . محاولة راميرو لإنجادها . سقوطها في يد الناصر . غزو الناصر لقتشالة . مسيره إلى أوسمة . التماس طوطة للصلح . غزو ألبة والقلاع . غزوة بحرية إسلامية للثغر الفرنجى . الصلح بين الناصر وراميرو . تحالف بني هاشم أصحاب الثغر الأعلى مع النصارى . مسير عبد الرحمن إلى مقاتلة الثوار . محاصرته لسر قسطة . خروج أمية بن إسحاق والتجاؤه للنصارى . سقوط سر قسطة وخضوع محمد بن هاشم . عهد الناصر له بالأمان . غزو عبد الرحمن لنافار وخضوع ملكتها طوطه . تأهب عبد الرحمن لمحاربة راميرو . نفوذ الصقلية في القصر والجيش . مسير عبد الرحمن إلى ليون . تحالف ليون ونافار . زحف عبد الرحمن على سمورة . موقعة الخندق وهزيمة المسلمين . أقوال الروايات العربية . رواية المسعودى . رواية ابن حيان . كتاب الناصر عن الغزوة . رواية ابن الخطيب . الروايات النصرانية . رواية ألفونسو الحكيم . الروايات الأخرى . آثار الموقعة . عود المسلمين لغزو ليون . وفاة راميرو وجلوس أردونيو . الصلح بين الأندلس وليون . بعض الحوادث الداخلية . حريق ترطبة . المحل والقحط . الدعوة الفاطمية واجتياحها للمغرب . جزع حكومة قرعبة . استيلاء عبد الرحمن على سبتة . خضوع المغرب الأقصى لعبد الرحمن . خطر الفاطميين على الأندلس . السفن الفاطمية تغزو ألمرية . غزوات عبد الرحمن لشواطئ المغرب . أثر الدعوة الفاطمية في بعث فكرة الخلافة الأندلسية . عبد الرحمن يتخذ سمة الخلافة . الوثيقة الخاصة بذلك . ابن مسرة . حركته وحقيقة أمرها . أقوال ابن حيان عنها . مطاردة متحليها . كتاب الناصر في شأنها .

مضى زهاء قرن منذ استقر ملك بني أمية بالأندلس ، وتوطدت أسس الدولة الجديدة ، وأخذت تزدهر وتزدهر في عهد عبد الرحمن بن الحكم . ولكن عوامل الإنتقاص والتفكك ، سرت فجأة إلى هذا الصرح القوي ، ولبثت الأندلس مدى النصف الأخير من القرن الثالث الهجري (أواخر القرن التاسع الميلادي) تضطرم بسلسلة لا نهاية لها من الثورات والفتن ، حتى لاح مدى لحظة أن ملك بني أمية أضحى على وشك الانهيار .

توفي الأمير عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن أمير الأندلس في مستهل ربيع الأول سنة ٣٠٠ هـ (١٥ أكتوبر سنة ٩١٢ م) بعد حكم طويل عاصف ، مزقت فيه أوصال المملكة ونضبت مواردها ، فخلفه في نفس اليوم على العرش حفيده عبد الرحمن ابن ابنه محمد ، غير متجاوز الثالثة والعشرين من عمره ، وذلك بالرغم من وجود أعمامه وأعمام أبيه . وكان الأمير عبدالله قد اختار محمداً أكبر أولاده لولاية عهده ، فوجد عليه أخوه المطرف وقتله حسبما تقدم . وولد عبد الرحمن قبيل مقتل أبيه بأسابيع قلائل في ٢٢ رمضان سنة ٢٧٧ هـ (ديسمبر سنة ٨٩٠ م) وأمه جارية إسبانية نصرانية تدعى ماريّا أو مزنة حسبما تسميها الرواية العربية ، فنشأ الطفل اليتيم في كفالة جده مرموقاً بعين العطف والرعاية ، وأسكنه جده معه بالقصر دون ولده . وما كاد يبلغ أشده حتى ظهرت نجابته ، وأبدى بالرغم من حدائته تفوقاً في العلوم والمعارف إلى درجة تسمو على سنه ؛ ودرس القرآن والسنة وهو طفل لم يجاوز العاشرة ، وبرع في النحو والشعر والتاريخ ، ومهر بالأخص في فنون الحرب والفروسية ، وأقبل عليه جده الأمير بخصه بحبه وثقته ، ويرشحه لختلف المهام ، ويندبه للجلوس مكانه في بعض الأيام والأعياد لتسليم الحند عليه ؛ وهكذا تعلقت آمال أهل الدولة بهذا الفتى النابه ، وأضحى ترشيحه لولاية العهد أمراً واضحاً مقضياً ، بل يقال إن جده قد رشحه بالفعل لولاية عهده وذلك بأن برئ بخاتمته إليه ، حينما اشتد عليه المرض إشارة منه باستخلافه (١)

(١) وردت هذه التفاصيل الأخيرة في أوراق مخطوطة عن بداية عهد الناصر ، نشرت بعناية الأستاذ ليث بروقتسال بعنوان : *Una Crónica Anónima de Abd Al-Rahman III* ،

وما كاد الأمير عبدالله يسلم أنفاسه الأخيرة حتى بويع حفيده عد الرحمن بالملك . وجلس عبد الرحمن للبيعة ، يوم الخميس غرة شهر ربيع الأول في قاعة « المجلس الكامل » بقصر قرطبة ، فكان أول من بايعه أعمامه ، وأعمام أبيه ، وتلامه أخوة جده ، وقد مثلوا أمامه وعليهم الأردية والظهائر البيض عنوان الحزن على الأمير الراحل ، وتكلم بلسانهم عمه أحمد بن عبدالله فقال : « والله لقد اختارك الله على علم للخاص منا والعام ، ولقد كنت أنتظر هذا من نعمة الله علينا ، فأسال الله إيزاع الشكر ، وتمام النعمة ، وإلهام الحمد » . وتتابع للبيعة بعد ذلك وجوه الدولة والموالي ، ثم أهل قرطبة من الفقهاء والأعيان ، وروساء البيوتات ، واستمرت بيعة الخاصة على هذا النحو حتى الظهر ؛ وعندئذ نهض الأمير الجديد فصلى على جثمان جده ، ثم وراه في مدفنه بالروضة ، ومعه الوزراء ورجال الدولة . وجلس لتلقى البيعة في المسجد الجامع صاحب المدينة الوزير موسى بن محمد بن حدير ، والقاضي أحمد بن زياد اللخمي ، وصاحب الشرطة العليا ابن وليد الكلبي ، وصاحب الشرطة الصغرى ، أحمد بن محمد بن محمد بن حدير ، وصاحب أحكام السوق محمد بن محمد بن أبي زيد ، فاستمرت بضعة أيام . وكذلك أنفذت الكتب بأخذ البيعة إلى العمال في سائر الكور ، وأخرج الأمناء إلى البلاد لأخذها ، وتتابعت الردود بإنجازها من جميع النواحي^(١) . وساد البشر يوم البيعة في القصر والمدينة ، وتوسم الجميع في الأمير الفتى آيات العظمة واليمن ، وعلقوا على ولايته أكبر الآمال . وفي ذلك يقول معلمه شاعر العصر ابن عبد ربه صاحب العقد الفريد ، يوم أن تولى عبد الرحمن الملك في مستهل ربيع الأول سنة ٣٠٠ هـ :

بدا الهلال جديداً	والملك غض جديد
يا نعمة الله زيدي	ما كان فيك مزيد
إن كان للصوم فطر	فأنت للدهر عيد
إمام عدل عليه	تاجان : بأس وجود
يوم الخميس تبدى	لنا الهلال السعيد
فكل يوم خميس	يكون للناس عيد

وكانت الأندلس عندئذ أشد ما تكون حاجة إلى السكينة بعد أن هزتها الثورة

(١) الأوراق المخطوطة الخاصة بمهد الناصر ص ٣١ .

إلى الأعماق ، وتجاذبتها الأعاصير من كل صوب ، وكان الأمير الفتي يرى أن خطة التردد والرفق التي اتبعها أجداده نحو الزعماء الخوارج كانت سياسة خطيرة ، ولم تكن ناجحة ، وأنه لا بد لاستتباب الأمن واستقرار السكينة ، من سحق الثورة وزعمائها بأى الوسائل . ومن ثم فإنه لم تمض على جلوسه أسابيع قلائل حتى بعث حملته الأولى إلى المناطق الثائرة بقيادة الوزير عباس بن عبدالعزيز القرشي ، فقصدت إلى منطقة قلعة رباح وكان قد ثار بها الفتح بن موسى بن ذى النون من زعماء البربر ، ومعه حليفه الرياحي المعروف بأرذبلش ، ف وقعت بين جند الأمير وبين العصاة معارك شديدة ، هزم فيها الفتح بن موسى ، وارتد مغلولاً إلى معاقله ، وقتل أرذبلش ، وبعث رأسه إلى قرطبة ، فرفعت فوق باب السدة ، وطهرت قلعة رباح وأحوازها من الثورة ، وذلك في شهر ربيع الآخر^(١) . وسارت حملة أخرى نحو الغرب ، واستردت مدينة إستجة من أيدي العصاة أتباع ابن حفصون (جمادى الأولى) ، وهدمت أسوارها وقنطرتها الواقعة على نهر شنيل ، حتى تغزل وتغدو بذلك عاجزة عن التمرد والخروج .

وفي شعبان سنة ٣٠٠ هـ (مارس سنة ٩١٣ م) خرج عبد الرحمن للغزو وتولى القيادة بنفسه ، فأثار ظهور الأمير الفتي في الصفوف حماسة الجند وأكبروا شجاعته وإقدامه . وسار عبد الرحمن أولاً إلى الجنوب الشرقى ، ومعه جند كورة البيرة وزعمائها ، وكان ابن حفصون قد نزعهم حصونهم ومعاقلمهم ، فالتجأوا إلى الأمير ، وألقوا بطاعتهم إليه ، واتجه صوب كورة جيان في وسط الأندلس ، حيث كانت الثورة على أشدها ، وحيث كان ابن حفصون أخطر الزعماء الخوارج يبسط سلطانه على طائفة من الحصون القوية ؛ فاستولى على حصن مرتشس الواقع في طريق جيان ، وسير في نفس الوقت بعض قواته إلى مالقة لإنجادها ، وكان يهددها الزعيم الثائر ، فاحتلتها وأمنها . وقصد عبد الرحمن بعد استيلائه على مرتشس ، إلى حصن مونت ليون (حصن المتلون) القريب منها ، وكان يتمتع به زعيم من المولدين هو سعيد بن هذيل ، فضربه بشدة ، وهاجمه حتى اقتحمه ، وأذعن الزعيم الثائر إلى التسليم والطاعة ومنح الأمان (رمضان سنة ٣٠٠ هـ) . وتعتبر هذه الغزوة أول غزوات عبد الرحمن ، وتسمى عادة بغزوة المتلون .

(١) الأوراق المخطوطة للسالفة الذكر ص ٣٣ .

وانجى عبد الرحمن بعد ذلك إلى حصن شمتان ، الواقع على مقربة من بياسة ، وبه عبد الله بن الشالية ، فاستسلم الثائر دون مقاومة ، وطلب الأمان ، ونزل عن جميع حصونه ومعاقله . وأستولى عبد الرحمن بعد ذلك على حصن منتيشة من يد صاحبه ابن عطاف . وافتتح سائر الحصون التي كانت بيد ابن حفصون من كورة جيان ، وظهرها من آثار الخروج والعصيان . وقدم إليه سائر الزعماء الخوارج طاعتهم ، فقبلها وعفا عنهم .

وسار عبد الرحمن بعد ذلك جنوباً إلى كورة ريثه ، فاحتل منها سائر الحصون التي تدين بالطاعة لابن حفصون ، واقتحم أمتع هذه الحصون ، وهو حصن شبليس بعد قتال عنيف ، وقتل من كان به من أصحاب الثائر ، وفر أمامه جعفر ابن حفصون ليلاً ولحق بأبيه ، ثم استولى عبد الرحمن على حصن إشتين على مقربة من إلبيرة . وانجى بعد ذلك إلى وادي آش فاحتل حصونها ، ثم توغل في شعب جبل الثلج (سيراً نقاداً) وافتتح ما هنالك من المعامل والحصون . وحاول ابن حفصون أن يزحف على غرناطة ، فخرج إليه أهل إلبيرة ومعهم مدد من جيش عبد الرحمن فردوه على عقبه . وما زال عبد الرحمن يجول في تلك الأنحاء يخضع حصونها وينتسف أراضيها ، حتى قضى على كل عناصر الثورة والخروج فيها ، وبلغ ما استولى عليه في تلك الغزوة من الحصون زهاء سبعين حصناً من أمهات المعامل الثائرة ، ثم ارتد عائداً إلى قرطبة فوصلها في يوم عيد الأضحى بعد أن قضى في غزوته زهاء ثلاثة أشهر (١) .

على أن هذه الجولة الأولى لم تكن إلا بداية الصراع المرير ، الذي كان على عبد الرحمن أن يضطلع به . ذلك أنه لم تمض بضعة أشهر أخرى حتى عادت عناصر الثورة تجتمع ، وتتحفز ، وعاد ابن حفصون ينظم خططه وقواته . وكانت إشبيلية في مقدمة القواعد التي رفعت لواء الثورة ، وقام بها منذ أيام الأمير عبد الله ، بنو حجاج حسباً تقدم ، وأنشأوا بها إمارة مستقلة . وقد كانوا بالرغم من انحذارهم من أصل عربي ينتمون إلى المولدين من ناحية الأم ، ويشاطرونهم شعور الحفيظة ضد حكومة قرطبة . وكان عبد الرحمن يتوق إلى تحطيم سلطان أولئك المولدين ومن يمالئهم ، وقد أبدوا دائماً أنهم لا يدينون بالولاء للحكومة الإسلامية التي

(١) وردت تفاصيل هذه الغزوة في الأوراق المخطوطة الخاصة بعهده الناصر ص ٣٥ - ٣٨ .

لم تلخر وسعاً في الرفق بهم ومعاملتهم دون تمييز أو إجحاف أو تحامل . وكان زعيم إشبيلية إبراهيم بن حجاج قد توفى ، وخلفه في حكمها ولده عبد الرحمن ، وخلفه في حكم قرمونة ولده محمد . ولما توفى عبد الرحمن في المحرم سنة ٣٠١ هـ ، تطلع أخوه محمد إلى أن يحكم إشبيلية من بعده ، ولكن أهل إشبيلية اجتمعوا حول زعيم قوى آخر هو أحمد بن مسلمة وهو أيضاً من بني حجاج وقدموه لحكمها ، وسبق محمداً إلى الاستيلاء عليها . فسار محمد إلى قرطبة ، وقدم طاعته إلى عبد الرحمن ، فقبلها وأوفد معه الخند بقيادة الحاجب بدر ، فحاصر إشبيلية ثم استولى عليها في جمادى الأولى سنة ٣٠١ هـ وهدم أسوارها ، وندب لها عبد الرحمن والياً من قبله ، وانتهت بذلك ثورة العرب والمولدين في إشبيلية .

وفي شوال سنة ٣٠١ هـ (مايو سنة ٩١٤ م) خرج عبد الرحمن في غزوته الثانية ، وقصد إلى كورة ريه والجزيرة . وكان ابن حفصون زعيم ثورة المولدين قد عاد فبسط حكمه على تلك الأنحاء ، وعادت الثورة تضطرم فيها . وبدأ عبد الرحمن بحصار قلعة « طرش » في شرقي مالقة ، ثم سار إلى حصون ريه ومعاقلها يفتتحها تباعاً ، وهنا قدم ابن حفصون على رأس قواته والتي بعبد الرحمن أمام قلعة طرش ، ونشبت بين الفريقين معركة شديدة قتل فيها كثير من جند ابن حفصون وحلفائه النصراني ، وارتد الثائر بفلوله صوب الغرب ، واستطاع أسطول عبد الرحمن أن يضبط عدة سفن محملة بالموثون كانت قادمة من عدوة المغرب لإمداد ابن حفصون وأن يحرقها . وزحف عبد الرحمن على منطقة الجزيرة الخضراء ، واقتحم حصن لورة الواقع بجوار الجزيرة ، ثم دخل الجزيرة الخضراء في أوائل شهر ذي القعدة سنة ٣٠١ (يونيه ٩١٤ م) . وسار عبد الرحمن بعد ذلك إلى شنونة ثم إلى قرمونة ، وكان حاكمها حبيب بن سودة قد ثار بها ، فحاصرها حتى سلم الثائر واستأمن ، ففتح الأمان ، وانتقل بأهله إلى قرطبة . بيد أنه نكث بعهدة فيما بعد . ودخلت في طاعته سائر المعامل والحصون التي مر بها ، ثم عاد إلى قرطبة في شهر ذي الحجة بعد أن أصاب جهة الثورة في تلك المرة بضرية شديدة وإن لم تكن قاضية . ومع أن عبد الرحمن كان يتوق إلى سحق الثورة بكل الوسائل ، فإنه لم يلجأ إلى قسوة لا مبرر لها ، بل آثر منذ البداية أن يتبع سياسة الرفق والتسامح نحو الزعماء والثوار الذين قدموا خضوعهم

وطاعتهم ، فسمح للكثير منهم بالانتقال إلى قرطبة مع الأهل والولد ، وأجرى عليهم الأرزاق والأعطية ، وأبدى بالأخص نحو النصارى الذين أذعنوا إلى الطاعة منتهى الكرم والتسامح^(١) :

وفي سنة ٣٠٢ هـ (٩١٥ م) ، وقع حادث سعيد في البلاط القرطبي ، هو مولد ولي العهد الحكم بن عبد الرحمن الناصر . وقد اختلف في تاريخ مولده ، فيقول الرازي إنه وقع في يوم الجمعة غرة رجب من هذه السنة . ويقول محمد ابن مسعود إنه وقع في يوم الجمعة ٢٤ من جمادى الأولى ، وأمه مرجان الرومية ، أم الولد الأثرية ، وقد سر عبد الرحمن بولادته أما سرور ، ونوه بها ، وأوسع الإناعام ، وتقدمت طبقات الناس إليه بالتهنئة . وأنشد الشعراء تهانيمهم ، فن ذلك قول الفقيه أحمد بن محمد بن عبد ربه :

هلال نماه البدر واختاره الفجر	تلقت به شمس وأنجمه زهر
على وجهه سيم المكارم والعلی	فضاءت به الآمال وابتهج الشعر
سلالة أفراس وبيت خلايف	أكفهم بحر ونایلهم غمر
بدا لصلاة الظهر نجم مكارم	تحف به العليا ويكنفه الفخر
نماه إلى العلياء خير خليفة	تتبه به الدنيا ويزهى به العصر ^(٢)

وفي أواخر سنة ٣٠٢ هـ (٩١٥ م) حل بالأندلس قحط شديد ، فعزت الأقوات وارتفعت الأسعار ، وأمر عبد الرحمن وزيره أحمد بن محمد بن زياد بالبروز بالناس للاستسقاء ، فبرز بهم يوم الإثنين ١٣ شوال (أول مايو) فنزل فيه رذاذ مملح وندى مبلل لم يكن له كبير أثر^(٣) ، وعمت المحنة سائر القواعد والثغور ، واستمرت خلال العام التالي (سنة ٣٠٣ هـ) ، وبلغت الشدة بالناس مبلغاً عظيماً ، وانتشر الوباء مع القحط ، وكثر الموت ، وهلك كثير من الرؤساء والوجهاء ، وكانت محنة قاسية شديدة الوطأة . ولم يدخر عبد الرحمن خلال تلك الآونة العصبية ، وسعاً في بذل المعونة والغوث لشعبه بتوزيع المؤن والصدقات الوفيرة . وحذا حذوه كثير من الكبراء وأهل الدولة ، فكان

(١) ابن حيان في السفر الخامس (مخطوط الخزانة الملكية بالرباط) لوحة ٣٢ أ ،

Dozy : Hist., Vol. II. p. 103 و

(٢) ابن حيان في السفر الخامس (مخطوط الخزانة الملكية) لوحة ٥٣ .

(٣) ابن حيان في السفر الخامس (مخطوط الخزانة الملكية) لوحة ٥٣ .

لمجهودهم أثر كبير في التلطيف من آثار المحنة . وكان لهذا الظرف أثره في تهدئة الثورة ، والقت في عضد الثوار ، ولكن عبد الرحمن لبث مع ذلك متيقظاً يربح حركاتهم بجدر وأهبة .

ومحدثنا ابن حبان عن هذه المحنة في حوادث سنة ٣٠٣ هـ ، ويقدم إلينا عنها الصورة التالية :

« فيها كانت المجاعة بالأندلس التي شبت بمجاعة سنة ستين ، فاشتد الغلاء ، وبلغت الحاجة والفاقة بالناس مبلغاً لم يكن لهم عهد بمثلها ، وبلغ قفيز القمح بكل سوق قرطبة ثلاثة دنانير ، ووقع الوباء في الناس ، فكثر الموتان في أهل الفاقة والحاجة ، حتى عجز عن دفنهم ، وكثرت صدقات الناصر لدين الله في هذه الأزمة على المساكين وأهل الفاقة ، وعلى المتعفين عن المسئلة ، وصدقات أهل الحسبة من رجاله الموتسين فيه ، فنفع الله بهم كثيراً من خلقه . وكان حاجبه بلربن أحمد ، مدير دولته ، أفشاهم صدقة ، وأعظمهم مواساة ، فنعش الله به أمة . وعدا أصر هذه المجاعة وضيق الأحوال ، السلطان عن تجريد صايفة وإعداد جيش ، لما بالناس من الجهد . فأخذ الناصر لدين الله في شأنه بالوثيقة ، وعول على ضبط أطراف وتحصين بيضته ، والإرصاد لأهل الخلاف والخلعان خلال معاقلهم ، ومجال مسارهم ، إذ كانوا مع استيلاء المجاعة عليهم ، لا يفترون عن اللعدوان ، على من مر بهم من رفاق المسلمين ، وطالبي المعيشة ، وجالبي الميرة ، فلم يجدوا منفذاً إلى ما طمعوا فيه من إشاعة ، ونفع الله بذلك . وعاث الموتان في هذه الأزمة ، فأودى بخلق من وجوه أهل قرطبة وعلمائهم وخيارهم » (١) .

وما كادت تنقش هذه الغمة حتى عاد عبد الرحمن إلى استئناف الغزو ، فسير قائده أحمد بن محمد بن أبي عبدة غازياً إلى أرض النصارى . وسوف نتبع غزوات عبد الرحمن لاسبانيا النصرانية مجتمعة فيما بعد . وسير وزيره إسحق بن محمد القرشي إلى كورتى تدمير وبلنسية ، فطارد فيهما أهل الخلاف ، وافتتح حصن أوريوالة المنيع ، قاعدة تدمير التالد من يد الثوار ، ثم أخضع الثوار في مدينة الحامة . وغزا الحاجب بلربن مدينة بلبة ، وكان صاحبها الثائر عثمان بن نصر ممتنعاً بها .

فبعث إليه الحاجب بلاطفه ويبدل الأمان له ولأصحابه ، ويعده بكل ما يجب ،
ولكن الثائر رفض كل عرض ، وأصر على العصيان ، فطوق بدر المدينة ،
وبرز له كثير من أهل الطاعة فأمّنهم ، وأبقاهم لديه ، وجد في مهاجمة عثمان
وأصحابه إلى أن اقتحم عليه المدينة يوم ٢٠ رمضان سنة ٣٠٣ هـ (فبراير ٩١٦ م) ،
وقبض على عثمان وصحبه وأرسلهم في الأصفاد إلى قرطبة ، وأمن أهل المدينة ،
ونظر في مصالحتهم . وقد نظم ابن عبد ربه في فتح مدينة لبلة وفي مديح الناصر
والحاجب بدر قصيدة يقول فيها :

خليفة الله وابن عم رسول الله والمصطفى على رسله
منتك نعمى نمت سوابغها كما استتم الهلال في كمله
وجه ربيع أذاك باكره يرفل في حليه وفي حلاله
وأقبل العيد لاهياً جذلاً يختال في لهوه وفي جذله
نصر من الله تضمنه ينهض في ريثه وفي عجله
يجرى بشأو الأمام منصلتا يسبق حضر الجياد في مهله
قد وقف النكث والخلاف بها وقوف صب يبكى على طله (١)

وفي هذا العام ، سنة ٣٠٣ هـ ، وقع حادث داخلى هام ، هو جنوح
عمر بن حفصون ، أكبر ثوار الأندلس إلى الصلح والطاعة ، فبعث إلى الناصر
يخطب وده ، ويلتمس الصلح ، مستشفعاً بما كان منه في إيواء الأمير محمد
والد عبد الرحمن وحمائته ، حينما فر من أبيه الأمير عبد الله . وقام بالوساطة
في ذلك يحيى بن إسحق طيب عبد الرحمن ، وكان صديقاً لعمر بن حفصون ،
فبدل في سبيل ذلك جهده ، وعاونه الحاجب بدر لدى الناصر ، فاستجاب
الناصر لعقد الصلح مع عمر ، مع الحذر من غدره ومكره ، واتصل يحيى في
ذلك مع جعفر بن مقسم أسقف بيشتر ، وعبد الله بن أصبغ بن نبيل ، وودنا
ابن عطاق ، وهم أكابر رجال ابن حفصون وخاصته ، وكانوا يميلون إلى عقد
الصلح والدخول في كنف الطاعة . وسار يحيى نفسه لمقابلة ابن حفصون ،
ووضع معه شروط الصلح ، وعاد إلى قرطبة ، وأقر الناصر تلك الشروط ،

(١) ابن حيان في السفر الخامس (مخطوط الخزانة الملكية) لوحة ٦١ ب و ٦٢ أ .

وعقد لابن حفصون على ذلك كتابة المشهور ، الذى خط في أسفله بيده الأسطر الآتية :

« يا لله الذى لا إله إلا هو الطالب الغالب ، وجميع إيمان البيعة لازمتى من العهود المشددة ، والأيمان المؤكدة ، والمواثيق المغلظة ، لانقضت شيئاً مما جمعه هذا الكتاب تبديله ، ولا نقصان شيء منه ، ولا رضيت ذلك فى سر ولا جهر ، وأن كل ما فيه من الشروط والعهود والمواثيق لازمتى ، والله شهيد علينا ، وخططنا هذه الأحرف بيدنا ، وأشهدنا الله عز وجل على أنفسنا ، وكفانا بالله شهيداً ، ما وفى عمر بن حفصون بما نص فى هذا العهد وصحح فيه إنشاء الله ، والله المستعان . »

ويقول لنا الرازى الذى يورد لنا نص هذه الوثيقة ، إن الحصون التى دخلت فى أمان عمر بن حفصون بمقتضى هذا الصلح ، وسميت فى كتاب العهد ، مائة واثنين وستين حصناً . واغتنب عمر بن حفصون بعقد هذا العهد مع الناصر أيما غبطة ، وبذل جهده وفى المحافظة على شروطه وأوضاعه ، وسر الناصر من جانبه بما أبداه ابن حفصون فى ذلك من دقة وإخلاص ؛ وقدم ابن حفصون بهذه المناسبة إلى الناصر هدية فخمة ، فتقبلها الناصر ، وحسن موقعها لديه ، وكافأ ابن حفصون عنها بأضعافها ؛ وعظم سرور ابن حفصون بها ، واستحكمت طاعته طول حياته . وكان هذا من أعظم العوامل فى تهديته اضطراب الثورة ، وجنوحها إلى التبدد والانهدام^(١).

وكان حبيب بن سودة الثائر بقرمونة قد نكث بعهده ، وعاد إلى قرمونة ، وأظهر الامتناع بها ، فسير إليه عبد الرحمن الحاجب بدرأ فى حملة قوية ، فحاصر بدر قرمونة وضرها بالمجانيق بشدة ، ثم دخلها عنوة ، وقبض على حبيب وولده وأرسلهما فى الأصفاد إلى قرطبة (ربيع الأول ٣٠٥ هـ)^(٢).

وفى شهر ربيع الأول من العام التالى ، فى سنة ٣٠٦ هـ (سبتمبر ٩١٨ م)^(٣)

(١) ابن حيان فى السفر الخامس من المقتبس - مخطوط الخزانة الملكية - لوحة ٥٦ ب و ٥٧ أ و ب .

(٢) الأوراق المخطوطة الخاصة بعهد الناصر ص ٥٥ و ٥٦ .

(٣) وفى رواية الرازى التى نقلها إلينا ابن حيان ، أن وفاة ابن حفصون كانت فى شهر شعبان سنة ٣٠٥ هـ - السفر الخامس - مخطوط الخزانة الملكية - لوحة ٦٥ أ .

وقع حادث كان له أكبر الأثر في تفكك عرى الثورة وانحلالها . ذلك هو وفاة عمر بن حفصون زعيم الثورة الكبرى ، ومثير ضرامها في غربي الأندلس ، توفي بعد مرض طويل ، في الثانية والسبعين من عمره . وكان ابن حفصون في الواقع أخطر نأثر عرفته الأندلس منذ الفتح ، وكانت ثورته تمثل أخطر العناصر التي لاتدين بالولاء لحكومة قرطبة ، وفي مقدمتها طائفة المولدين الذين ينتمى إليهم ، وهم هلاله القوط والنصارى الإسبان الذين أسلموا منذ الفتح ، وغدوا جزءاً من الأمة الأندلسية . وكان أولئك المولدون بالرغم مما تسبغه عليهم حكومة قرطبة الإسلامية من ضروب الرعاية والتسامح ، يضمرون لها الخصومة والكيد ، وينتظرون كل فرصة للخروج عليها . وكانوا يلقون العون دائماً من زملائهم النصارى المعاهدين رعايا الحكومة الإسلامية . وقد رأينا كيف دبر ابن حفصون حركته ونظم ثورته في المناطق الجنوبية الغربية ، فيما بين رندة ومالقة ، وقد كانت فضلاً عن وعورتها ومناعتها الطبيعية ، تضم كثرة من المولدين والنصارى ، وكان من هؤلاء معظم أنصاره وجنده . ولم ير ابن حفصون نفسه وهو يرجع إلى أصل نصراني ، بأساً من أن ينبذ الإسلام ويرتد إلى النصرانية لكي يذكي حماسة أنصاره . وهكذا كانت وفاة هذا النأثر الخطر ضربة شديدة للثورة ، وتنفست حكومة قرطبة لوفاته الصعداء ، بعد أن شغلها زهاء ثلاثين عاماً .

قال الرازى : « وكان أول قيامه بالفتنة ، وصدعه عصي الجماعة ، وامتناعه بقلعة ببشتر منبر المعصية ، من ثلاثين سنة ، ركب فيها من العيث في الخلق ، والفساد في الأرض بغير الحق ، ما لم يركبه مارق بالأندلس ، منذ دانت للمسلمين ، فعد مهلكة فاتحة الإقبال ، وطالعة السعد ، واجتثاث الفتنة » (١) . وقد بالغت التواريخ النصرانية في تصوير ثورة عمر بن حفصون الطويلة المدى ، واعتبارها ثورة قومية تهدف إلى غاية وطنية سامية ، وهي تحرير وطنه - إسبانيا - من نير المتغلبين عليه ، وأنه كان في مناوآته لحكومة قرطبة الإسلامية يجيش بهذه النزعة ، ويهدف إلى هذه الغاية . وعمل النقد الحديث على إبراز هذه الصورة ، وعلى اعتبار ابن حفصون بطلا قومياً ، جديراً بالتقدير والاحترام .

(١) ابن حيان في المقتبس - السفر الخامس - لوحة ٦٥ ب .

وهذا ما نقرأه في تعليقات بعض أكابر النقدة المحدثين أمثال دوزى وسيمونيت ، وذلك بالرغم من كونهم لم ينسوا أن يذكروا في نفس الوقت أن ابن حفصون قد نشأ سفاحاً وقاطعاً للطرق ، لا تحدوه أية نزعة وطنية أو غاية مثلى . بيد أن سيمونيت ، وهو مؤرخ النصراني المستعربين ، يحاول أن يبرر حسن تقديره وتصويره لحركة ابن حفصون ، بأن قيامه اتخذ فيما بعد « شكلاً أكثر نبلاً ، وتحول من زعيم عصابة إلى زعيم حزب وأمة »^(١) . ويصفه دوزى بأنه « البطل الإسباني الذي لبث أكثر من ثلاثين عاماً يتحدى المتغلبين على وطنه ، والذي استطاع مراراً أن يجعل الأمويين يرتجفون فوق عرشهم » وأنه « كان بطلاً خارقاً لم تنجب إسبانيا مثله منذ أيام الرومان »^(٢) . أما نحن فنرى في مثل هذه الآراء مبالغة وإغراقاً ، وأنها ليست إلا ثمرة نزعة من التعصب الديني والجنسي ، الذي يطبع النقد الغربي ، في كثير من المواطن ، وأن ابن حفصون بالرغم من صلابته وقوة عزمه ، وبراعة خططه ، لم يكن سوى قاطع طريق ، وثائر من طراز قوى عنيف . أجل إن ابن حفصون ، كان يدعو منذ اشتد ساعده ، إلى ما يسميه قضية الاستقلال والحرية ، وتحرير مواطنيه من نير المسلمين ، بيد أنه لم يكن في هذا الزعم سوى مخادع سياسي ، يسعى إلى كسب الصحب والأنصار لتقوية مركزه ، ودعم سلطانه ، ولم يكن يصدر في مغامراته وحروبته أو في أعماله خلال ثورته الطويلة ، عن أية نزعة نبيلة ، أو تصرف تطبعه الشهامة ، والعزة القومية ، بل كانت أعماله وتصرفاته كلها ، بغى صراح ، وإجرام في إجرام . وامتنان لكل المبادئ الأخلاقية ، وكل مقتضيات الشرف والمرورة والشهامة . ومن كان هذا شأنه ، فإنه من التعسف أن تُسبغ عليه صفات البطولة ، وثوب التحرير والوطنية .

وترك ابن حفصون أربعة بنين ، هم سليمان وعبد الرحمن وجعفر وحفص ، ولابنة هي « أرختتا » ؛ وكان له ولد آخر هو أيوب أمهم أبوه عندما اعتل ذات مرة ، بمحاولة الفتك به وقتله^(٣) . فقام سليمان في أبيه ، وقام جعفر مكان أبيه في ببشر بعهد منه ، وكان أبوه قد قلده عهده في حياته ، وأخذ له البيعة في

(١) راجع : J. Simonet : *Histoire de los Mozarabes de Espana* (Madrid : 1897) p. 516

(٢) Dozy : *Histoire* ; V. II. p. 106

(٣) أعمال الأعلام لابن الخطيب ص ٣٢ ؛ ونقط العروس لابن حزم ص ٧٩ .

وأخر أيامه ، فأظهر جعفر يوم موت أبيه لجميع نصارى بيشر أنه يعتقد دينهم ،
ويدين بالنصرانية معهم ، وزعم أن أباه كان يعتقد ذلك ولا يظهره ، وجمع
إلى نفسه ثقافته منهم ، مع القسيسين والرهبان دون سائر الناس ، فتولوا تجهيز
والده معه ، ودفنه على سنة النصارى ، بعد أن أمر بسد باب القصة ، وحجاب
باقي الناس من نصارى وغيرهم ، ولاطف جعفر لإخوته ، ووعدهم بالحميل حتى
سلموا له ، قال الرازي : « وكان جعفر في ذاته متهوراً خفيفاً ، جباناً ضعيف
السيا ، ذميماً ، جسوراً حقوداً ، منافساً لمن يعمل عنده ، كئوداً لمن استرسل
إليه ، موافقاً للسفال ، مستصحباً للأرذال ، لم تسم همته إلى مروءة ، ولا انطوت
نيته على جميل ، ولا عرف قدر ما مهده له والده مع السلطان من فراش الصلح ،
وبسط من ظلال الأمن ، بالتسجيل له على أعماله ، وإمضاء ذلك بعده لعقبه ،
بل غمط النعمة عليه ، ورفض الساعين فيه لأبيه ، وعقد شهادات جماعة من
السفلة والطغام ، على ابن مقسم الأسقف وابن نبيل وابن عطاق حاجبيه ،
فإنهم سعوا في الغدر بوالده عند السلطان ، وأرادوا إراحة سلطانه عن ولده
بعده » (١) .

بيد أنه لم تمض أشهر قلائل حتى سير عبد الرحمن قواته إلى أبدة فاقتحمها
وأمر سليمان ، وأخذ إلى قرطبة حيث عفا عنه عبد الرحمن وضمه إلى
جيشه ؛ وكذا استسلم عبد الرحمن بن حفصون ، وكان ممتنعاً بمحصن طرُش ، وكان
أخوه جعفر صاحب بيشر ، قد ضايقه ، وحاول أن ينتزع منه طرش ، فالتجأ
عندئذ إلى الأمير ، وأذعن للطاعة ، على أن يسلم حصنه ويمنح الأمان لنفسه وأهله ،
فأجابه الأمير إلى ما طلب ، وتسلم منه الحصن ، واستقدمه إلى قرطبة وأجرى
عليه الصلات ، وكان أديباً شاعراً . واستبد جعفر بحكم بيشر وما حولها ، وأثر
عبد الرحمن أن يهادنه مدى حين ، وأن يقره على أعماله . وفي سنة ٣٠٨ هـ (٩٢٠ م)
قتل جعفر في بيشر ضحية مؤامرة قيل لأنها من تدبير أخيه سليمان ، وقيل من جهة
أخرى إنه رأى أن يعود إلى الإسلام اكتساباً لمودة السكان والخذ المسلمين ، فاغتاله
نفر من جنده النصارى (٢) . فقام أخوه سليمان مكانه في بيشر ، وأقره عبد الرحمن

(١) ابن حيان في المقتبس - السفر الخامس - مخطوط الخزانة الملكية - لوحة ٦٥ ب

(٢) ابن خلدون ج ٤ ص ١٣٥ ، والبيان المغرب ج ٢ ص ١٨٩ ، وراجع : Dozy : Hist.

على ولايته ، ولكنه نكث عهد الطاعة ، فسار عبد الرحمن لقتاله وحاصره مدى حين ، وكان أصحاب سليمان بحصن طرُش ، قد نبذوا الطاعة مثله ، فسار عبد الرحمن إلى طرُش ، ونازلهم ، ثم ترك قوة استمرت في حصارهم ، حتى أذعنوا إلى الطاعة ، وسلموا الحصن بالأمان ، وأمر عبد الرحمن بتخريبه وتسويته بالأرض . ثم سار عبد الرحمن لحصار سليمان مرة أخرى في سنة ٣١١ هـ (٩٢٣ م) ، وخرب سائر المناطق التي يسيطر عليها الثائر ، وأخضع معظم حصونها ، واعتم على سليمان بجبل ببيشتر ، فنازله عبد الرحمن ، واشتد في محاصرته ، حتى ضاق الثائر وصحبه بالحصار ذرعاً ، وخرج عليه معظم أنصاره ، ونكل بالكثير منهم . ونازل عبد الرحمن بالأخص حصن الشط ، وكان من أمنع الحصون الثائرة ، حتى تغلب عليه وعلى ما حوله من الحصون . وأخيراً عرض عليه سليمان أن يعود إلى الطاعة ، وأن يسلم بعض حصونه ، فاستجاب عبد الرحمن إلى رغبته ، وتسلم حصن الشط ، وحصن منت ميور وغيرهما من الحصون كفالة بحسن الطاعة ، وانصرف عائداً إلى قرطبة ، وهو يتحين الفرصة الملائمة للقضاء على الثائر بصورة نهائية . وفي سنة ٣١٣ هـ ، صُلب على الرصيف بباب قرطبة ، رجل من أصحاب ابن حفصون هو الراي النصراني المعروف بأبي نصر ، وكان من أحذق الرماة في عصره ، وطار صيته أيام عمر بالخذق في الرماية وإصابة الأغراض البعيدة ، قلما تخفى رميته ، وقد أودى بحياة كثير من المسلمين من الخند وغيرهم ، وساد الذعر منه ، وانتهى الأمر بأسره ، وإحضاره إلى الحضرة ، فجيء به إلى باب السدة وأمر عبد الرحمن بصلبه وشكه بالسهم ، فرفع فوق جذع في مشهد حافل من الناس ، وتعاورته الرماة بالسهم حتى مزق بدنه ، وترك دامياً فوق جذعه ؛ ثم أخذت جثته بعد أيام وأُحرقت (١) .

وفي أواخر سنة ٣١٤ هـ ، سير عبد الرحمن وزيره عبد الحميد بن بسيل إلى بيشتر ، وخرج سليمان في قواته إلى لقاثة فهزم وقتل ، واحتز رأسه وقطعت أشلاؤه ، وأرسلت إلى قرطبة فرفعت على باب السدة (يونيه سنة ٩٢٧ م) . وقام أخوه حفص مكانه في بيشتر ، واستمر على المقاومة حيناً . وفي ربيع الأول سنة ٣١٥ هـ ، سار عبد الرحمن بنفسه إلى بيشتر ومعه ولي عهده الحكم ،

(١) ابن حيان في المقتبس - السفر الخامس - مخطوط الخزانة الملكية ، لوحة ٨٤ ب .

وكان يومئذ صيباً في الثانية عشرة من عمره ، ونزل على مدينة ببشتر ذاتها ،
وبها حفص ، وشدد عليها الحصار ، وابتنى إزاءها حصناً للتضييق عليها ،
وفرق قواته لمنازلة بقية الحصون النائرة ، ثم ترك قوة لمتابعة الحصار . واستمر
الحصار بضعة أشهر ، حتى اضطر حفص أن يدعن أخيراً إلى التسليم ؛ فسلم
المدينة بالأمان إلى القائد سعيد بن المنذر ، وذلك في أواخر شهر ذي القعدة
سنة ٣١٥ هـ (يناير سنة ٩٢٨ م) وأخذ حفص بن عمر وأهله وأصحابه ،
أسرى إلى قرطبة ، فعفا عبد الرحمن عنهم ، وأحسن مثواهم ، وضم حفصاً
إلى جيشه .

وفي العام التالي سنة ٣١٦ هـ ، سار عبد الرحمن إلى ببشتر لتنظيم شئونها ،
فخرج من قرطبة في منتصف شهر المحرم منها (مارس سنة ٩٢٨ م) ورافقه
ولده الحكم ، ووزيره أحمد بن محمد بن حُدِير ، واستخلف على المدينة أحمد
ابن عيسى بن أبي عبدة . وقصد إلى ببشتر بطريق أشونة ، فوصلها في العشرين
من المحرم ، ودخلها وجال في أرجائها ، وألفاها منقطعة النظر من حيث
الحصانة والمنعة . فعين لها والياً من قبله ، وعمد إلى تطهيرها من آثار ابن حفصون ،
فصلى في مسجدها الجامع ، وأمر أن تقام به الصلاة . وكان ابن حفصون في
أواخر أيامه ، قد أثار حول موقفه من تذبذبه حول إظهار الإسلام ، وجنوحه
إلى النصرانية ، ريباً حول حقيقة الدين الذي كان يعتقد . فأمر الناصر ببش
قبره ، وإخراج جثته وفحصها . فتبين من هيئتها ، وكونه ملق على الظهر ،
مشبوك الذراعين على الصدر ، ومستقبلاً المشرق ، أنه دفن على دين النصرانية ،
وعاين ذلك الناس من العسكر وغيرهم ، وشهد بذلك الفقهاء المرافقون ،
واتفق الجميع على أنه هلك على دين النصرانية . فأمر عبد الرحمن بحمل الجثة ،
إلى قرطبة ، حيث علقت في أعلى الجذوع على باب السدة يكتبها أشلاء
ولديه المصلوبين قبله ، وهما حكم وسليمان . واستمرت أشلاؤهم معلقة على جذوعها
عبرة للناظرين حتى سنة ٣٣١ هـ ، حيث حملها مد النهر الطامى في تلك السنة
ولأحمد بن محمد الرازي في صلب أوصال ابن حفصون قصيدة يقول فيها

تبدى لمراى العين مجسماً وقام من الأجدات خلقاً متمماً
فما كان لإممثل من نام نومة فأنبه عنها حين أغفى وهو موماً

ثوى في الثرى حتى إذا صار رمة أعيد إليه جسمه فتلاماً
رقى فوق جذع بالهواء معلق يحاول منه بالنجوم تحوُّماً
تبارك من أبداه للخلق سامعاً وبوأ منه النفس قعر جهنماً (١)
وأمر عبد الرحمن ، فعمرت سائر مساجد ببشتر المهجورة ، وهدمت سائر
الكنائس والأديار ، التي ابتناها الثائر في تلك المنطقة ، واستولى عبد الرحمن
على سائر معاقليها وحصونها ، وطهرها من آثار الثورة الأخيرة (٢) . ثم أمر
بعد ذلك بالقبض على « أرختنا » ابنة عمر بن حفصون وإعدامها ، لارتدادها
عن الإسلام ، وتمسكها باعتناق النصرانية ، فأعدمت في سنة ٩٣١ م ، أو في
سنة ٩٣٧ وفقاً لرواية أخرى ، ونظمتها الروايات والأساطير النصرانية في سلك
القديسين والشهداء (٣) :

هذا ، وقد أصدر الناصر عقب فتح ببشتر واستئمان حفص ، كتاباً طويلاً
ينوه فيه بهدى الإسلام وفضله ، وما خصه الله به من خلافته وأمانة عبادته ،
ويشير إلى خروج المارقين ، وميل نفوسهم المريضة إلى الشرك ، وكيف أنه أصدر
أمانة لأهل ببشتر ، ثم يقول في خطابه ما يأتي :

« وعهدنا إلى الوزير أحمد بن محمد حدير ، بالتقدم إليهم لحضور خروجهم ،
ومباشرة نزولهم ، وإكمال الأمان لهم ، وقبض الأيدي عنهم ، فنهض إلى ذلك
وقصد له ، فلما صار بمدينة طليجير ، المبتناة على مدينة ببشتر ، هبت بالطاغين عنها ،
فتساربوا خارجين ، وتهافتوا ذاهبين ، وتعرفوا الذي سبأ إلى جوانب شتى ،
فقصده كل واحد إلى منزعه ، وأم مكان طماعيته ، ولحق بمدابن الطاعة ،
فصاروا في نعمار الرعية ، وتمكث خلفهم عميدهم حفص بن عمر طائر القواد ،

(١) ابن حيان - السفر الخامس - لوحة ٨٩ أ و ب و ٩١ أ . هذا ولم نجد ذكراً للحكم
من أبناء عمر بن حفصون إلا في هذه المناسبة ، وفي رواية ابن حيان ، وفي الأوراق المخطوطة
(ص ٧٧) .

(٢) تراجع تفاصيل الممارك الأخيرة بين عبد الرحمن وأبناء ابن حفصون ، وخاتمة هذه
الممارك في الأوراق المخطوطة الخاصة بمصر الناصر ص ٦٢ و ٦٥ و ٦٩ و ٧٣ و ٧٤ و ٧٥ و ٧٦
و ٧٧ و ٧٨ . وكذلك في البيان المغرب ج ٢ ص ١٩١ و ١٩٣ و ١٩٤ و ٢٠٤ و ٢٠٨ و ٢٠٩ .
وابن خلدون ج ٤ ص ١٣٥ .

(٣) R.M. Pidal: *Origines del Espanol*, وكذلك Dozy: *Hist.*, Vol. II. p. 109

خافق القلب ، لم تطب نفسه على الخروج خوارجاً ، ولا سكن منه الأمان نفاراً ، يخشى كل يد أن تضبط عليه ، وكل شجرة أن تتعلق به ، قد خامره من الرعب ما كاد أن يرنى على العطب ، فطمأن الوزير أحمد محمد بن حدير من جزعه ، وسكن من جأشه ، ووفاه من آمالنا المبسوطة لينا وثق به واطمأن إليه ، فخرج آخر الخارجين ، ولحق بالآمنين ، فأصبحت مدينته بقعة الضلالة ، ومنبر الخلاف ، ومعدن الغواية ، بما أحاط بها من أسوارها وأبنيتها وقصباها ، وداخلها من جناتها ومصانعها ، مغوية من قطينها ، خاوية على عروشها ، كأن لم يغن بها ساكن ، ولا استوطنها قافل .

ثم يقول إنه أمر بعد ذلك بتخريب يبشتر ، وحط أسوارها ، وإنزال جدرانها ، وهدم كل قائم فيها من قصرها ودورها ومخازنها ، وإعادتها جبلا أجرد ، على ما كانت عليه لأول خلقها . « ثم استقدمنا حصصاً اللائد بالتوبة إلى ما تفضلنا عليه من التأمين والتكين ، وعدنا عليه من العفو والتطين ، وأخذنا فيه بالفضل المبين ، الذي جعلنا الله أهله ، وغلب على مذهبنا إيثاره ، وجمعنا له من ذلك ما اغتبط به ، وسكن إليه ، وقرر نفسه عليه ، فاعلم ذلك ، وقف عليه ، واستشعر حمد الله ، ومر بقراءة كتابنا هذا إليك على المسلمين قبلك في جامع موضعك ، ليحمدوا الله عز وجهه ، على عظيم ما اصطنعه إليهم ، ووهبه لهم ، وليحدثوا من شكره تعالى على ما درأ عنهم ، والتقرب بنوافل الحمد إليه ، ما يستدام له رضاه عز وجهه ، ويستجلب به المزيد من نعمه ، إن شاء الله وهو المستعان ، وكتب يوم الخميس لحمس من ذى الحجة سنة خمس عشرة وثلث مائة . »

ويقول لنا الرازي ، إن الناصر لما خرج إلى يبشتر ، وأمر بهدمها ، أمر بالإبقاء على القصور والقصاب ، التي أبقاها لعالمه وحشمه الذين ندمهم للقيام بها ، فهدمت أسوارها ، وحطت أعلامها ، وإنه أى الناصر أصدر كتاباً بحوادث يبشتر ، والأمر بهدمها ، وهدم مسجدها الذى أقامه ابن حفصون ، لأنه كان ستاراً لفسقة المسلمين ، والأمر بإحراق منبره « الذى دعى فيه للخزير الضال ، ومن خلفه من نسله الخبيث ، وأعلن عليه بدعوة الشيعة » (١) .

(١) ابن حيان فى المقتبس - السفر الخامس - مخطوط الخزانة الملكية لوائح ٩٤

ولم يغفل عبد الرحمن في الوقت الذي كانت فيه ثورة ابن حفصون وأبنائه في جنوب الأندلس ، تشغل معظم عنايته ، عن مطاردة الثورة في الأثناء الأخرى . وكانت طليطلة من أمنع معاقل الثورة ، فسير عبد الرحمن جنده لحصارها ، وفيها لُبَّ بن الطرييشة وهو من زعماء المولدين ، واستمر الحصار زهاء عامين حتى نضبت موارد المدينة ، وخبث عزائم أهلها واضطرت في النهاية إلى التسليم والإذعان . وسار لب مع الأمير بقواته إلى الغزوة في أرض النصارى (سنة ٣٠٨ هـ) . وكانت بطليوس وأحوازها منذ أكثر من أربعين عاماً ، معقلاً من معاقل ثورة المولدين . وكان بنو مروان الخليقي مايزالون يسيطرون على تلك المنطقة ، وكانوا من أخطر الخوارج وأشدهم مراساً ، يمالئون الأمراء النصارى ويحالفونهم على حكومة قرطبة . ففي سنة ٣١١ هـ (٩٢٣ م) ، هلك عبد الله بن محمد بن مروان الخليقي صاحب بطليوس قتيلاً بيد بعض المخالفين من أصحابه ، فقام مكانه ولده عبد الرحمن ، واستبد بمدينة بطليوس وما حولها ، واستمر بضعة أعوام على خروجه وتحديه لحكومة قرطبة .

وفي ربيع الأول سنة ٣١٧ هـ (إبريل ٩٢٩ م) خرج الناصر من قرطبة متجهاً نحو الغرب ، ومعه ولداه الحكم والمندر وعدة من الوزراء ، واستخلف على القصر ولده عبد العزيز . وبعث الناصر ينذر المتخلفين عن الطاعة ، بوجوب الدخول في طاعته ، والتخلي عن العصيان ، وفي مقدمتهم صاحب بطليوس عبد الرحمن بن عبد الله الخليقي . ووصل الناصر بجيشه إلى بطليوس في أواخر ربيع الآخر من هذه السنة وحاصر بطليوس ، وقاتل المتصددين للمقاومة حتى هزموا واقتحم أرباضهم ، وأحرقت ديارهم ، فامتنعوا داخل المدينة ، فعهد الناصر بقتالهم إلى القائد أحمد بن إسحق القرشي في قوة كثيفة ، فشدد في حصار المدينة ، واقتحم ما حولها من الحصون ، ثم ضربها بالبخانيق بشدة ، وقطع عنها كل مورد ، واشتد بأهلها الضيق ، واضطر الخليقي إلى الإذعان وطلب الأمان ، فأجابه الناصر إليه ، وأسكنه هو وأهله وأكابر رجاله بحضرة قرطبة ، وعين لبطليوس والياً جديداً هو عثمان بن عبد الله ، وكان خضوع بطليوس في سنة ٣١٨ هـ (٩٣٠ م) .

ولما غادر الناصر بطليوس سار إلى مدينة باجة ، أقصى قواعد الغرب ،

وفيها الثائر عبد الرحمن بن سعيد بن مالك ، فنزل عليها ، وأندر صاحبها بالدخول في الطاعة ، فلم يقبل النصح ، فطوقها وحاصرها بشدة ، حتى أجهد أهلها الجوع والعطش ، وتساقطوا من الإعياء ، وعندئذ اضطر صاحبها إلى الإذعان ، ففتحهم عبد الرحمن الأمان ، وأمن صاحبها وآله ، وخرجوا إليه تائبين مستسلمين ، فبعثهم إلى قرطبة . وكان افتتاح باجة في منتصف جمادى الآخر سنة ٣١٧ هـ . ونظر الناصر في مصالح المدينة ، ثم عين لها والياً من قبله ، هو عبد الله بن عمرو ابن مسلمة ، وزوده بحامية كافية .

وتحول عبد الرحمن بعد ذلك إلى مدينة أكشونيه على مقربة من ساحل المحيط الجنوبي ، وبها الثائر خلف بن بكر ، فبادر إلى الطاعة معتذراً ، وأقره الناصر على ولايته ، على أن يلزم بأداء الجباية وبحسن السيرة .

وقضى الناصر في هذه الغزوة زهاء ثلاثة أشهر ، طهر خلالها أنحاء ولاية الغرب من آثار الخروج والثورة ، ثم قفل إلى قرطبة فوصل إلى القصر في منتصف رجب (١) . وكان الناصر قد سار بنفسه إلى تدمر وبلنسية ، وذلك في سنة ٣١٢ هـ (٩٢٤ م) أثناء مسيره إلى غزوة بنبلونة الكبرى ، حسبما تفصل بعد . فطارد الخوارج والعصاة في شرقي الأندلس ، واستولى على معاقلمهم ومزق شملهم . وفي سنة ٣١٤ هـ (٩٢٦ م) سير الناصر وزيره القائد عبد الحميد ابن بسيل إلى الثغر الأعلى لمقاتلة بني ذى النون ، وكانوا قد عادوا إلى الخلاف والعصيان ، وأكثروا من الفساد والعدوان على من جاورهم من المسلمين وأهل الذمة ، فقصده إلى معقلهم شنت برية واقتمحها ، وقتل كبيرهم محمد بن محمد ابن ذى النون ، وعدة آخر من رجالهم ، وافتتح مدينة سُريرة من مدنهم ، وولى عليها عاملاً للسلطان . وخضعت شنت برية وما والاها للطاعة ، ودرت جبايتها من ذلك الحين (٢) . وفي سنة ٣١٧ هـ ، افتتحت مدينة شاطبة ، واستنزل عنها صاحبها عامر بن أبي جوشن الثائر بها ، بعد أن ترددت الحملات عليه ، مدى خمسة أعوام ، وكان خضوعه على يد صاحب الشرطة العليا دري بن

(١) ابن حيان في المقتبس - السفر الخامس - لوحات ١٠٠ و ١٠١ و ١٠٩ ، والأوراق المخطوطة الخاصة بمعهد الناصر ص ٨١ .

(٢) ابن حيان في المقتبس - السفر الخامس - لوحة ٨٥ أ .

عبد الرحمن ؛ واشترط عامر عند استسلامه أن يمنح الإقامة مدة في حصن «سنت مريّة» من حصونه ، حتى ينظم شئونهم ويسير في أهلهم إلى قرطبة ، فأجيب إلى طلبه^(١) . وهكذا أخذت الثورة في سائر النواحي ، بعد أن لبثت زهاء نصف قرن تستنفد قوى الأندلس ومواردها ، وتفت في عضدها ، وتقعدها عن الكفاح ضد عدوها الحقيقي المرصوص بها ، ونغني إسبانيا النصرانية .

- ٢ -

كانت إسبانيا النصرانية في خلال تلك الفترة التي اضطرت فيها الأندلس بالفتن ، وشغلت حكومة قرطبة بأمر الثورة في النواحي ، تسير قدماً في سبيل القوة والتوطد ، وتعمل جاهدة لانتهاز كل فرصة للكيد للأندلس ، وممالأة ثوارها والعيث في أراضيها . وكانت تنقسم عندئذ إلى إمارتين أو مملكتين متحالفتين ، هما مملكة ليون (أو مملكة جليقية) ، ومملكة نافار (نبرة أو بلاد البشكنس) . وكانت ليون وهي الواقعة في الشمال الغربي بين المحيط ونهر دويرة ، أكبر المملكتين وأوفرهما قوة ومنعة ، وكانت بذلك تتولى قيادة إسبانيا النصرانية ، في ميدان الكفاح الخالد بينها وبين إسبانيا المسلمة . وكانت قواعد الأندلس الشمالية التي تناخم مملكة ليون ، مثل أسترقه وسمورة وشلمنقة وشقوبية وميراندة ، قد خلت منذ أواخر القرن الثامن من معظم سكانها المسلمين ، واستوحش العرب والبربر ، لقلتهم في تلك الأنحاء ، وكثرة اعتداء النصارى عليهم ، وتوالى القحط في تلك الربوع ، فهاجروا إلى الجنوب ، وجاء ملك ليون ألفونسو الثالث (أواخر القرن التاسع) ، فعاث في تلك المنطقة ، وقتل بمن فيها من المسلمين ، ثم ارتد إلى جباله . ولبثت هذه المنطقة فقراً خالية تقريباً ، يتبادلها المسلمون والنصارى من وقت إلى آخر ، وشغلت حكومة قرطبة بأمر الثورة فلم تستطع رد الاعتداء ، وانتهر ألفونسو الثالث تلك الفرصة ، فدفع حدود مملكته جنوباً حتى نهر دويرة . واحتط هنالك عدة قلاع منيعة ، كان يتخذها النصارى قواعد للإغارة على الحدود الإسلامية ، واجتياح المسلمين الغزل بالنار والسيف ، وقتل النساء والأطفال والشيوخ ، ونهب الأموال والمتاع . وجرى ولده غرسية على هذه السياسة الدموية للغاشمة . وكانت إسبانيا النصرانية تنظر من خلال هضابها القفرة ، ومواردها

(١) ابن حيان في المنتخب - السفر الخامس ، لوحة ١٠١ ب .

الضئيلة ، وفقرها المدقع ، إلى وديان الأندلس النضرة ، وإلى نعمائها الوافرة ، وحضارتها الزاهرة ، بعين المقت والحسد ، وتعمل جاهدة لبث الدمار والويل إلى هاتيك الربوع السعيدة . وكان على حكومة قرطبة أن تعمل على حماية الأندلس وحماية تراثها وحضارتها ، من هذا العدوان المخرب الذى أخذ يشتد يوماً عن يوم . وكان عبد الرحمن حينما ولى الملك ، يؤثر الإغضاء حيناً عن محاربة النصارى ، لكى يكرس جهوده وقواه لقمع الثورة ، وتطهير الأندلس من عناصر الفتنة ؛ ولكن النصارى رأوا بالعكس أن يعملوا على انتهاز الفرصة ، وإذكاء نار الفتنة والفضى فى الأندلس . فما كاد عبدالرحمن يلى الملك ، حتى بادر أردونيو الثانى (أردون) ملك ليون بالإغارة على الأراضى ، الإسلامية واتجه أولاً نحو منطقة الغرب لتأيها وضعف وسائل الدفاع عنها ، وقصد إلى مدينة يابرة ، الواقعة غربى بطليوس . ويقول لنا الرازى إن أردونيو نزل على يابرة فى يوم ١٣ من المحرم سنة ٣٠١ هـ (أغسطس ٩١٣ م) وأنه كان فى جيش يقدر بثلاثين ألفاً من الخيل والرجل والرماة ، وكان على يابرة يومئذ عاملها مروان عبد الملك بن ، فبذل جهده لمدافة الغزاة ؛ وطوق أردونيو المدينة من سائر نواحيها ، وهاجمتها قواته من كل صوب ، ودافع المسلمون عن مدينتهم من فوق الأسوار ، حتى أرغموا بفعل السهام على النزول عنها وتسلق النصارى الأسوار ، ودخلوا المدينة ، واضطربت بينهم وبين المسلمين داخلها معارك شديدة ، وفى المسلمين شيئاً فشيئاً حتى قتلوا جميعاً ، ولم تنج منهم سوى شردمة قليلة ، فرت تحت جناح الظلام إلى مدينة باجة . وسبى النصارى سائر النساء والذرية ، وقتل مروان بن عبد الملك عامل المدينة مدافعاً عنها ، وبلغ السبى أكثر من أربعة آلاف من النساء والولدان . وترك أردونيو المدينة خراباً يبابا ، وعاد فى قواته إلى جليقية . وبث هذا الحادث الروع والفرع فى سائر قواعد الغرب ، فأخذ أهلها فى إصلاح أسوارهم ، وقام أهل بطليوس بالأخص فى ذلك بمجهود ضخم ، ودعموا أسوارهم ، وزادوا فى عرضها وارتفاعها ، بقيادة عاملهم عبد الله بن محمد الحليق^(١) . وفى سنة ٣٠٣ هـ (٩١٥ م) ، سار أردونيو فى قواته مرة أخرى إلى منطقة الغرب ، فى جيش تقدره الرواية الإسلامية بستين ألفاً ،

(١) ابن حيان عن الرازى - السفر الخامس - مخطوط الخزافة الملكية - لوحة ٥١ أ وب

فعبّر نهر التاجه ، واشترك في إرشاده إثنان من الأدلاء المسلمين ، من بربر مصمودة من البرانس ، ولكنهما كانا يضمران عكس ما طلب إليهما ؛ واتجه أردونيو جنوباً صوب حصن مدلين ، وقاده الدليلان المسلمان من طريق صعبة وعرة ، فلم يخرج منها إلا وقد هك جيشه ، فأمر بالدليلين فأعدما ، وسار حتى وصل إلى الحصن ، فاستولى عليه دون مقاومة وأصاب فيه بعض الغنائم ، ثم سار إلى قلعة الحنش (الأنية) ، الواقعة جنوبي ماردة ، وكان يسكنها يومئذ برانس كتامة ، وكانوا في عدد وافر وعلى أتم استعداد للمقاومة ، وكان المقدم عليهم يسمى بابن راشد ؛ فهاجم النصارى الحصن ، ودافع المسلمون عن أنفسهم أشد دفاع ، ولكنهم هزموا في النهاية وقتل معظمهم ، وقتل ابن راشد فيمن قتل ، ودخل النصارى الحصن فقتلوا كل من وجدوه ، وسبوا النساء والذرية ، وهدموا الحصن . ثم سار أردونيو في اليوم التالي إلى ماردة ، ولكنه وقف أمامها ذاهلاً من حصانتها ، واعتزم الكف عن قتالها ، وبعث إليه قائد المدينة محمد بن تاجيت رسولا يستلطفه ، وأهدوا إليه فرساً رائعاً من عتاق الخيل بسرجه وعدته ، فقبله وأعجب به ، وتركهم ورحل عنهم . ولكنه عاث حين قفوله في تلك المنطقة ، وقتل وسبي كثيراً من سكانها ، واستولى على بعض قلاعها ؛ ثم قصد إلى مدينة بطليوس ، فارتاع أهلها واسترضوه بالمال والحلى ، وعبر النصارى نهر دويرة قافلين إلى ديارهم مثقلين بالغنائم والسبي دون أن يعترض سبيلهم معترض (١) .

وبقيت يابرة خراباً نحو عام ، حتى بعث عبد الله بن محمد الحلبي ، صاحب بطليوس حليفه مسعود بن سعدون المعروف بالسرنباقي ، ومن معه من قومه الشاردين عن الجماعة إلى مدينة يابرة ، فنزلها مسعود بأهله وولده وصحبه ومن معهم ، وكان منهم كثير ممن لجأ من قبل من أهل يابرة إلى باجة وأكشونيه ؛ وابتنى لهم الحلبي أسوار المدينة ، وأمدهم بالأطعمة والدواب والكسي ؛ وعلى أثر ذلك قصد الناس إلى يابرة فاستوطنوها ، وعمرت بسكانها مرة أخرى (٢) .

(١) ابن حيان في السفر الخامس من المقتبس - مخطوط الخزانة الملكية ، لوحة ٦٠ أ وب

وابن خلدون ج ٤ ص ١٤١ .

(٢) المقتبس - السفر الخامس ، لوحة ٥٣ و ٥٤ .

وكانت هذه المنطقة التي غزاها النصارى وهي منطقة ماردة ، من المناطق الثائرة . ولكن عبد الرحمن كان أبعد نظراً من أن يغضى عن عدوان يقع في صميم الأراضي الإسلامية . هذا إلى أنه رأى أن بأسر قلوب الثوار ، بإنجادهم والانتقام لهم ، وأن يرد عدوان النصارى بمثله . ففي فاتحة سنة ٣٠٤ هـ (٩١٦ م) سير عبد الرحمن وزيره وقائده أحمد بن محمد بن أبي عبدة في جيش قوى ، غازياً إلى أراضي مملكة ليون ، فالتقى بالنصارى وهزمهم في عدة وقائع محلية ، وعاث في أراضيهم وسبي وغنم غنائم كثيرة^(١) . وفي العام التالي أراد أردونيو الثاني الانتقام لهزائمهم ، فعاث في منطقة طليطلة^(٢) ، وأحرق مدينتها وانتسف ضياعها ، فضج المسلمون لهذا البلاء ، وتضرعوا إلى مليكهم أن يتقدم من هذا العدوان الصارخ .

سير عبد الرحمن قائده أحمد بن أبي عبدة ثانية إلى أرض النصارى في جيش ضخيم من المدونين ، والمتطوعة ، وانضم إليه حين دخوله إلى الثغر (الحدود) خلق كثير ، واخترق المسلمون أراضي قشتالة ، وزحفوا إلى قلعة شنت إشتين الواقعة على نهر التاجه ، وكانت تسمى أيضاً قلعة قاشترو مورش^(٣) ، وهي من أمنع قلاع النصارى على الحدود ، وضربوا حولها الحصار الصارم ، ثم نازلوها بشدة ، وكادت تسقط في أيديهم ، لولا أن هرع إلى إنجادها أردونيو في جموع ضخمة من النصارى ؛ وكان الجيش الإسلامي بالرغم من تفوقه في الكثرة مختل النظام ، مفكك العرى ، يتألف سواده من البربر والمرترقة الذين لا يعتمد على ولائهم وشجاعتهم ، وكانوا يحرصون على غنائمهم أكثر من حرصهم على مقاتلة العدو ، فلما انقض أردونيو بقواته على المسلمين ، تسلفت منهم وحدات كثيرة ، وارتدت أمام المهاجمين ، ودب الهرج إلى صفوف المسلمين . ولكن قائدهم الشجاع أحمد بن أبي عبدة فضل الموت على الارتداد ، فصمد في مكانه في نفر من أشجع ضباطه وجنده ، فقتلوا جميعاً ، وهلك معهم عدة من أكابر الفقهاء والمجاهدين . وكانت هزيمة مروعة . وكان ذلك في الرابع عشر من ربيع الأول سنة ٣٠٥ هـ (٤ سبتمبر سنة ٩١٧ م) . وتقول

(١) البيان المغرب ج ٢ ص ١٧٦ .

(٢) وهي بالإسبانية Talavera ، وهي تقع على نهر التاجه غربي طليطلة .

(٣) San Esteban أو Castro Moros

الرواية الإسلامية إن فلول الجيش الإسلامي ، استطاعت أن ترتد بعنادها ومتاعها سالمة إلى الأراضى الإسلامية^(١) . ولكن الرواية الإسبانية تقول بالعكس إن هزيمة المسلمين كانت ساحقة ، وبلغ من روعتها أن غصت سائر التلال والسهول والغابات الممتدة جنوباً من دويرة إلى أنتيسة^(٢) ، بقتلاهم وأشلأهم^(٣) . وكان لذلك الخطب وقع عميق في بلاط قرطبة . وكان عبد الرحمن يعتزم المبادرة إلى غزو ليون بنفسه ، لولأن شغلته عندئذ حوادث إفريقية ، على أنه اضطر غير بعيد أن ينهض لرد اعتداء النصارى . ذلك أنه لم تمض بضعة أشهر حتى عاد أردونيو الثانى وحليفه سانشو (شأنجُه) ملك ناغار ، إلى غزو الأراضى الإسلامية في منطقة الثغر الأعلى ، وذلك في ربيع سنة ٩١٨ م . وكانت موقعة شنت إشتين قد ضاعفت من جراءة النصارى واستهتارهم ، فعاثوا في أحواز ناجرة وتطيلة . واستولى سانشو على بلدة بلبيرة^(٤) وأحرق مسجدها الجامع ونكل بأهلها . يقول ابن حيان : « وانقلب الكفرة لعنهم الله إلى بلادهم أعزة ، فكان هذا مما أحفظ الناصر لدين الله وحرّكه لمجاهدة أعداء الله ، ورغبه في الانتقام منهم بمن الله تعالى »^(٥) . وكان عبد الرحمن في الواقع يتوق إلى الانتقام لهزيمته الفادحة في شنت إشتين ومقتل قائده الشهم ، ولم ينس أن أردونيو سمر رأسه في جدران شنت إشتين ، فحشد جيشاً ضخماً لمقاتلة النصارى بإمرة حاجبه بدر بن أحمد ، وبعث الأوامر والكتب إلى أهل الثغور بالنهوض لتأييده ، ومعاونته على معاينة النصارى ورد عدوانهم والإيقاع بهم . وخرج بدر في جيشه الضخم من قرطبة في المحرم سنة ٣٠٦ هـ (أوائل يوليه سنة ٩١٨ م) ، وهرع إليه أهل الثغور (الأطراف) من كل ناحية ، ظمئين إلى الجهاد والانتقام . وكذلك احتشد النصارى من سائر الأنحاء لرد الغزاة . ونفذ المسلمون كالسيل

(١) هذا قول ابن حيان في السفر الخامس من المقتبس - مخطوط الخزائن الملكية ، لوحة ٦٤ أ ، وكذلك البيان المغرب ج ٢ ص ١٧٨ .

(٢) هي بالإسبانية **Atienza**

(٣) **Dozy : Hist , Vol. II. p. 117**

(٤) ناجرة هي بالإسبانية **Najera** ، ولبلبيرة هي **Valterra** ، وكلتاها تقع في أحواز تطيلة .

(٥) السفر الخامس من المقتبس - لوحة ٦٦ ب .

إلى حدود ليون ، فاعتصم النصارى بالجبال لما رأوا من كثرة العدو وأهبطه ، ولكن المسلمين هاجمهم في مواقعهم ، ونشبت بين الفريقين موقعتين دمويتين على مقربة من مكان يسمى « مطونية » . فهزم النصارى هزيمة ساحقة ، وأمعن المسلمين فيهم قتلاً وأسراً ، ولم تنج منهم سوى فلول يسيرة ، وكان ذلك في الثالث والخامس من ربيع الأول سنة ٣٠٦ هـ (١٣ و ١٥ أغسطس سنة ٩١٨ م) (١) .

على أن هذه الهزيمة الساحقة لم تفت في عضد النصارى ، فلم يمحس سوى قليل حتى عادوا إلى الاحتشاد والإغارة على الأراضى الإسلامية ، واستمر القتال سجالات بين المسلمين والنصارى مدى أشهر ، وكثر العيث والسبي في مناطق الحدود . فاعتزم عبد الرحمن أن يسير إلى مقاتلة النصارى بنفسه ، فخرج من قرطبة في الثالث عشر من المحرم سنة ٣٠٨ هـ (أوائل يونيه ٩٢٠ م) في جيش ضخم ، وانضم إليه أثناء سيره كثير من أهل الثغور . واخترق أراضى الثغر الأوسط من طليطلة شمالاً ، حتى مدينة الفرج أو وادى الحجارة ومدينة سالم ، فوصل إليها في الرابع والعشرين من المحرم . وفي ذلك اليوم ولى خطة الوزارة لسعيد بن منذر القرشى ، وعينه والياً لوادى الحجارة ، واتجه إلى طريق ألبه والقلاع (قشتالة) ثم عبر نهر دوبرة وزحف على مدينة أوسمة (وخشمة) وأحرقها ، وفر منها النصارى ولاذوا بالجبال . ثم سار إلى قلعة شنت إشتين (قاشتر و مورش) ، وهى التى كانت مسرحاً لهزيمة المسلمين المروعة ، ففرت حاميتها النصرانية ، واستولى عليها وخربها ، وغنم ما فيها . وخرب في تلك المنطقة كثيراً من المعامل والأبراج والكنائس والديارات . ثم سار إلى مدينة قلونية وهى مدينة قديمة لم تبق منها اليوم سوى أطلال دارسة ، وكان أهلها قد فروا إلى الجبال ، فاجتاح تلك المنطقة كلها ، وانتسف أراضيا وخرب قلاعها ، وهدم قلونية وخرب دورها وكنائسها ، ولم يعترض سبيله أحد من النصارى . وكان أردونيو ملك ليون وسانشو (شانجه) ملك نافار قد حشدا حشودهما ، واجتمعت لهما قوات كثيرة . ولكنهما بقيا في الشمال انتظاراً لمقدم المسلمين ، وعرج عبد الرحمن بعد ذلك على مدينة تطيلة إستجابة لصريخ أهلها ، حيث أزعجها النصارى

(١) البيان المغرب ج ٢ ص ١٧٩ و ١٨٠ .

باعتدائهم المتكرر ، وبعث بعض قواته بقيادة محمد بن لب بن قسى صاحب تطيلة لاحتلال قلعة قلقرة^(١) التى كان سانشو يتخذها قاعدة للإغارة عليها ، فألفوها خالية ، وزحف عبد الرحمن فى الوقت نفسه على حصن قلهرة وكان به سانشو فى قواته ، ففر عند اقترابه ، واحتله المسلمون وغنموا كل ما فيه ثم دمروه ، وانتسفوا الأراضى المحيطة به ، ولجأ سانشو إلى حصن أرنيط (أورنيديو) الواقع جنوب غربى قلهرة . والظاهر أن النصارى اعتموا ألا يعترضوا سبيل المسلمين فى تلك المنطقة كلها ، وفقاً لخطة وضعوها لاستدراج المسلمين . فلما عبر عبد الرحمن بقواته نهر إييرو (إيبرة) فاجأه سانشو فى قواته ، وهاجم مقدمة المسلمين ، ولكن عبد الرحمن كان يقظاً متأهباً ، فتعاون الفرسان والرماة المسلمون على النصارى ، وأثخنوا فيهم ، فارتدوا إلى شعب الجبال واعتصموا بها . ولجأ سانشو إلى حليفه أردونيو ملك ليون ، وجمع الملكان قواتهما من سائر النواحي وتربصا للقاء المسلمين فى مواقع منيعة ، وعلم عبد الرحمن باجتماع القوات النصرانية على هذا النحو ، فأمر بإحكام التعبئة ، ومضاعفة الاستعداد ، فلما نفذ الجيش الإسلامى إلى شعب الجبال ، انحدر النصارى لمهاجمته واشتبكوا بمؤخرته وأحدثوا بها اضطراباً وخسائر ، فشعر عبد الرحمن بنخطر المأزق ، وبادر بالخروج من الشعب الضيقة إلى السهل المنبسط . وهناك عسكر بجيشه فى مكان يسمى «خونكيرا» Junquera على مقربة من غربى بنبلونة ، واستعد للقاء النصارى . وهنا طمع النصارى فى محاربة المسلمين فانحدروا إلى السهل بعد أن كانوا فى حى الجبال ، ولكنهم دفعوا ثمن جرأتهم هزيمة فادحة ، وأمعن المسلمون فيهم قتلاً وأسرًا ، ولم ينقذهم من الفناء الشامل سوى دخول الليل ، وقتل وأسر كثير من أكابر فرسانهم وزعمائهم ، ومن بينهم أسقفان هما دولثديو أسقف شلمنقة وأرنخيو أسقف توى ، وقد كانا يحاربان كجنديين ، ولجأ نحو ألف من النصارى ، أو أزيد من خمسمائة على قول آخر ، إلى قلعة مويش القريبة ، فاقتحمها المسلمون ، واستخرج جميع النصارى الذين بها ، ومنهم عدد من القوامس ووجوه الفرسان ، فأمر عبد الرحمن بإعدامهم جميعاً ، ومزق النصارى كل ممزق ، وانهارت كل مقاومة ،

(١) وهى بالإسبانية Carcar وهى تقع على مقربة من شمالى قلهرة .

وقضى عبد الرحمن أربعة أيام يجمع الأسلاب والنعم، ويهدم الديار ويقطع الأشجار: وأصاب المسلمون كثيراً من الأسلاب والغنائم . وحدثت هذه الواقعة الساحقة على النصارى ، في اليوم السادس من شهر ربيع الأول سنة ٣٠٨ هـ (٢٦ يولييه ٩٢٠ م) . وهدم عبد الرحمن حصون العدو ، وأصلح حصون المسلمين ، وفي مقدمتها حصن بقيرة *Viguera* المشرف على حدود نافار ، وزودها بالعتاد والمؤن .

وفي اليوم السابع والعشرين من ربيع الأول ، قفل عبد الرحمن عائداً إلى قرطبة ، وتوقف في طريقه يوماً بمدينة أنتيسة على مقربة من مدينة سالم ، وفرق الأموال والكسي في أهل الثغر ، وأذن لهم بالعودة إلى ديارهم ، ووصل إلى قصر قرطبة في يوم الخميس الثالث عشر من ربيع الآخر سنة ٣٠٨ هـ (أواخر سبتمبر سنة ٩٢٠ م) بعد أن قطع في غزوته هذه ثلاثة أشهر ، وكانت غزوته الأولى في مقاتلة النصارى ، وكان ممن شهدها معه سليمان بن عمر بن حفصون المستأمن إليه ، فأبلى فيها بلاء حسناً ، وبها ارتفع شأوه ، وتوطدت سمعته (١) .

وكان عبد الرحمن يرجو أن يكون هذا الدرس بعيد الأثر في ردع النصارى ووقف عدوانهم . ولكنه أخطأ الظن . ذلك أنه لم يمض سوى عامين حتى أغار أردونيو على ناجرة واستولى عليها ، وسار حليفه سانشو إلى بقيرة ، وكان يتولى الدفاع عنها عبد الله بن محمد بن لب ، ومعه نفر من زعماء بني لب وبني ذى النون وغيرهم من الوجوه الأكابر ، فحاصرها سانشو واستولى عليها ، وأسر من فيها من الزعماء وحملهم إلى بنبلونه ثم قتلهم ، ولم ينج منهم سوى مطرف بن موسى ابن ذى النون حيث استطاع الفرار من بيته . فضجت الأندلس من أقصاها إلى أقصاها لتلك الفعلة البشعة ، ووجهت سهام اللوم إلى عبد الرحمن لقصوره أو تقصيره ، في حماية الثغور وحماية الزعماء والقادة ، ولم يك ثمة مناص من العمل على تهديئة الخواطر ، والانتقام لذلك الاجترار . وسير عبد الرحمن مولاه ووزيره

(١) ابن حيان في السفر الخامس من المقتبس - مخطوط الخزانة الملكية - لوحة ٧١ ب - ٧٤ أ وب، والأوراق المخطوطة الخاصة بمصر الناصر ص ٦٣ و ٦٤ ، والبيان المغرب ج ٢ ص ١٨٧ - ١٨٩ ، وكذلك *Dozy : Hist., V. II. p. 114 & 143, Crónica General ; ibid. Vol. II.*

عبد الحميد بن بسيل إلى الثغر الأعلى في جيش قوى ، ريثما يتم هو أهفته (ربيع سنة ٣١١ هـ - ٩٢٣ م) ، فقصده إلى تطيلة وجاز منها إلى أراضي نبرة (نافار) ، وعاث فيها ، وقاتل سانشو وهزمه في عدة وقائع . ولم تمض بضعة أشهر أخرى ، حتى أتم عبد الرحمن أهفته ، ولم يصبر على انتظار الربيع وهو موعد الصوائف ، بل غادر قرطبة في السادس عشر من المحرم سنة ٣١٢ هـ (١٧ إبريل سنة ٩٢٤ م) في قوى جرارة ، وهو يعتزم التنكيل بالنصارى ، والانتقام الذريع لحناية بقيرة ، وترك في القصر ابنه الأكبر وولى عهده الحكم ، وهو صبي في نحو العاشرة من عمره ، وإلى جانبه الوزير أحمد بن محمد بن حدير ، وسلك الناصر إلى الثغر طريق المشرق ، مخترقاً كورة تدمير ، فكورة بلنسية ، ونازل في طريقه مدينة لورقة ، وكان يمتنع بها زعيمها الثائر عبد الرحمن بن وضاح ، فأخضعه بالأمان ، وبعثه مع أهله إلى قرطبة . ثم تقدم منها إلى مدينة مرسية ، فاستنزل بها يعقوب بن أبي خالد التوزري وزملاءه العصاة ، وأخضع بعض حصون أخرى في قطاع بلنسية ، ثم سار إلى طرطوشة ونظر في شئونها ، وتقدم بعد ذلك صوب سرقسطة ، وهناك انضم إليه التجبييون وحلفاؤهم . ولما وصل إلى تطيلة هرع إليه زعماء الثغرى بقواتهم ، وهم في جموع وافرة وتعبية محكمة ، ودخل أراضي نافار في أوائل ربيع الآخر (يوليه) . فساد الذعر بين النصارى ، وترك العدو معظم قلاعهم وحصونهم دون دفاع ، وكان أول ما استولى عليه المسلمون حصن قلهرة وكان سانشو قد أخلاه ، فأمر عبد الرحمن بهدمه وإحراق ما فيه ، ثم استولى عبد الرحمن على حصن قلقررة ، ومحلة بيطرالله (بيرالتا)^(١) الواقعة شمال شرق قلهرة وما حولها من الحصون ، وقتل وسبي كل من وجد بها من النصارى ؛ ثم سار إلى حصن بالجش القريب منها وأحرقه ، وخرّب ما حوله من الضياع والزروع ، واستولى بعد ذلك على حصن قرقشتال (كاركاستيلو) في وادي أراجون شرق بيرالله ، وشمال شرق تطيلة ، وهدم سائر القلاع في تلك المنطقة أو أحرقها . ثم نفذ عبد الرحمن إلى قاب نافار وزحف على عاصمتها بنبلونة ، وحاول ملكها سانشو غير مرة أن يعترض طريقه في شعب الجبال ، فكان يرد في كل مرة بخسارة فادحة . ودخل

(١) يبدو أن بيطرالله هو المكان الذى يسميه ابن حيان « قنطرة ألبه » .

عبد الرحمن بذبونة ، وقد فرسكانها رعباً ، فدمرها وأحرق قصورها وكنائسها ، وجد سانشو في جمع قواته ووافته الأمداد من قشتالة ، وحاول لقاء المسلمين في مناوز نافار الورة مرتين ، الأولى على مقربة من شنت إشتين ، والثانية على مقربة من قلهرة ، ولكن عبد الرحمن كان على حذر ، وكان يعرف تلك المفاجآت الخطرة ، فهزم النصارى في كلتا الموقعتين ومزقوا شر ممزق ، وانهارت كل مقاومة ، وبذلك تم إخضاع نافار وسحق قواتها (ربيع الثاني ٣١٢ هـ - أغسطس ٩٢٤ م) .

ثم سار عبد الرحمن جنوباً إلى حصن مسرة ، وهو أول حصون المسلمين على حدود نبرة ، فعهده إلى من فيه بادخار الأطمعة ، وفرق فيهم الأموال . ورحل بعد ذلك إلى مدينة تطيلة ، فوصلها في اليوم السابع والعشرين من ربيع الثاني ، ثم قفل منها راجعاً إلى الحضرة ، وتوقف خلال الطريق بمدينة شنت برية مقر بني ذى النون ، وكان زعيمهم يحيى بن موسى بن ذى النون قد خلع الطاعة ، والتزم العصيان مستقلاً بسططانه ، فلما أشرف الناصر على معقله ، خرج إليه نادماً مستغفراً منضوياً في ظل طاعته ، فتقبل الناصر توبته ، ودخل الناصر قصر قرطبة في يوم الخميس الثاني والعشرين من جمادى الأولى سنة ٣١٢ هـ ، وقد أنفق في غزوته أربعة أشهر ، وهى تعرف في الرواية الإسلامية « بجزوة بذبونة » (١) .

ولم يمض سوى قليل حتى توفي أردونيو الثاني ملك ليون (سنة ٩٢٥ م) ، فخلفه في الملك أخوه «فرويلا» ، فلم يحكم سوى عام ثم توفي ؛ فتنازع العرش سانشو وألفونسو ولدا أردونيو ، وشغلت ليون بحرب أهلية استمرت بضعة أعوام ، وانتهى طورها الأول بوفاة سانشو . ثم نشبت ثانية بين ألفونسو وأخيه راميرو ، وانتهت بفوز راميرو ، وجلوسه على عرش ليون باسم راميرو الثاني ، وذلك سنة ٩٣٢ م .

ولم يتدخل عبد الرحمن في تلك الحرب الأهلية ، فترك النصارى ممزق بعضهم بعضاً ، وانتهز الفرصة ليتم سحق الثورة ، وتوطيد السكينة داخل مملكته ، حسبما

(١) ابن حيان في المقتبس - السفر الخامس - مخطوط الخزانة الملكية - لوحة ٨٠ - ٨٣

والبيان المغرب ج ٢ ص ١٩٥ - ٢٠١ ؛ وكذلك Dozy : Hist, V. II. p. 144-145 .

فصلنا في موضعه ، وليقضى على دعوة الفاطميين في المغرب الأقصى :
وكان رامير والثاني أو رذمير كما تسميه الرواية الإسلامية ، ملكاً مقداماً شديد
البأس . فما كاد يلي العرش حتى نشط إلى استئناف الصراع القديم ضد المسلمين ،
وكان يرى أن العمل على إذكاء عوامل الفتنة في المملكة الإسلامية هو خير السبل
إلى تبيد قوى المسلمين ؛ وكانت مدينة طليطلة قد عادت تضطرم بعوامل الفتنة
والثورة ، وشجع رامير وبدسائسه ووعوده ، زعماءها على التمادى في غيهم ،
فأرسل إليهم عبد الرحمن وفداً من العلماء يخطب ودهم ويحثهم على الخضوع والطاعة ،
فرفضوا نصحه بكبرياء وصلف ، معتمدين على موازرة ملك ليون . فبادر الناصر (١)
بالسير إلى طليطلة في قوات ضخمة ، وذلك في ربيع الثاني سنة ٣١٨ هـ (مايو سنة
٩٣٠ م) وضرب حولها الحصار وانتسف ما حولها من المروج ، ثم غادرها بعد
بضعة أسابيع ، وترك لحصارها بعض قواته ، ثم عاد فسار إليها بعد ذلك بعامين
في صيف سنة ٣٢٠ هـ (يونيو سنة ٩٣٢ م) معتماً في هذه المرة أن ينزل بها
الضربة القاضية . وهنا حاول رامير أن يسعى إلى إنقاذ المدينة المحصورة ، استجابة
لنداء أهلها ، فسار لإنجادها في بعض قواته ، واستولى في طريقه على حصن
مجريط (٢) . ولكن القوات الإسلامية استطاعت أن ترده قبل أن يصل إلى طليطلة ،
فاضطر أن يترك المدينة الثائرة لمصيرها ، وفقد الثوار بذلك كل أمل في المقاومة ،
وأضنتهم مصائب الحصار ، فاضطروا في النهاية إلى الإذعان والتسليم ، ودخل الناصر
طليطلة ظافراً (رجب سنة ٣٢٠ هـ) ، وشهد مبلغ منعها وكثافة أسوارها ، وأمر
بهدم حصونها ، وفقدت الثورة في الأندلس بسقوط طليطلة أمنع معاقلاً .

وفي العام التالي ، سنة ٣٢١ هـ (٩٣٣ م) ، سار ملك ليون إلى مدينة
أوسمة (وخشمة) التي كان يهددها المسلمون ، فردهم عنها واحتلها ، وكانت
أوسمة ، وهي تقع شرقي شنت إشتين على مقربة من دويرة ، وعلى خط
الحصون الفاصل بين الأراضي الإسلامية وقشتالة القديمة ، من القواعد الدفاعية
الهامية ، ومن ثم فقد اعتزم الناصر أن يسير لاستردادها بنفسه ، فخرج بالصائفة

(١) كان عبد الرحمن قد اتخذ سمة الخلافة وتلقب بالناصر لدين الله منذ سنة ٣١٧ هـ حسبما نين بعد .

(٢) هو حصن ومحلة منيعة أنشأها الأمير محمد بن عبد الرحمن سنة ٢٤٦ هـ (٨٦٠ م) على ضفة نهر

مشتارس ضمن منطقة الحصون الدفاعية بين الأندلس ومملكة ليون . وقد استمرت تؤدي دورها الدفاعي حتى
سقطت أخيراً في يد القشتاليين سنة ٤٧٦ هـ (١٠٨٣ م) ، وعلى موقعها أقيمت مدينة مدريد الحديثة .

من قرطبة في منتصف جمادى الأولى سنة ٣٢٢ هـ (مايو ٩٣٤ م) ، في جيش كثيف حسن الأهبة ، وكانت قواته في هذه المرة ترفع أعلام العقاب المصورة ، التي كان أول من استعملها ، وكان معه ولده الأكبر وولى عهده الحكم ، واستخلف في القصر ولده عبيد الله . وقصد الناصر إلى دار الحرب (أراضى النصارى) من طريق مدينة الفرّج أو وادى الحجارة ، وذلك لكي يضع حداً لما أبداه محمد بن هاشم التجيبي صاحب سرقسطة ، من أعراض الخلاف ، والتوقف عن اللحاق به حسبما أوعز إليه ، فتحول نحو أراضيه مما يلي غرب الثغر الأعلى ، واحتل حصن ماومده من حصونه ، بعد أن بادر أهله بالطاعة ، ثم تقدم إلى حصن روضة اليهود على مقربة من سرقسطة ، وكان به أخوه يحيى بن هاشم ، وافتتحه قسراً . ثم سار إلى سرقسطة ، وطوقها ببعض قواته ، وبعث قوات أخرى إلى تطيلة وطرسونة . ولكنه رأى بعد ذلك أن يتحول بقواته إلى غزو أراضى النصارى ، وكان أقربها إليه أراضى نبرة (نافار) . وهنا وفدت عليه رسل تيودا (طوطة) ابنة شنير ملكة نافار ، التي قامت بالأمر بعد وفاة زوجها سانشو ملك نافار وصية على ولدها غرسية ، ترجو عقد الصداقة ، والسلام . فرحب الناصر بطلبها ، ووفدت عليه في وجوه مملكتها وقواميسها وأساقفتها ، وهو بمحلة قلهرة ، فاستقبلها الناصر ومن حوله جيوشه الكثيفة ، العظيمة الأهبة ، وأكرم منزلتها ، وتعهدت لديه بالطاعة ، والابتعاد عن مخالفة أى ملك أو أمير نصراني ، وكف الأذى عن المسلمين ، ومعاونة قواد الثغر الأعلى في محاربة كل من خرج على الطاعة ، وأخيراً أن تخلى سبيل وجوه بنى ذى النون الذين في اعتقالها . وسجل الناصر ذلك وأشهد عليه ، وأقر الناصر من جانبه ولدها غرسية ، ملكاً على بنبلونة وأعمالها (بلاد البشكنس) ، وانصرفت مع رجالها مزودة بالهدايا والكسي الفاخرة ، وفي وفود طوطة على الناصر يقول الشاعر إسماعيل بن بدر :

وقيدت زعيمهم إليه	كبلقيس تحف به الجنود
تلفت لا ترى إلا شهاباً	به يرمى وتختطف العديد
فبادرت السجود لنور وجهه	له ربح التواضع والسجود
فأوسعها بفضل العفو أمناً	وقد كادت بمهجتها تجود

فدام يسوسنا ما دام شـبـه له في الأرض طالعه السعود

وسار الناصر بعد ذلك إلى أراضي ألبة والقلاع ، وتوغل فيها ، ففر النصارى من السهول ، واعتصموا بالجبال ، وكان أول ما استولى عليه من حصون العدو ، حصن المنار ، وهو من أعظم حصون ألبة ، فدمره المسلمون ، ودمروا حدائقه ، ولم تبق منها قائمة . وتردد المسلمون بعد ذلك في مختلف الأنحاء ، وهم يدمرون في طريقهم كل شيء ، حتى وصلوا إلى حصن أنة ، فهدموه ، وأتلفوا حدائقه ومصانعه ، وكان ضمن أبنيته كنيسة فخمة ، وضمن سكانه ثلاثمائة راهب . واجتاح الناصر سائر بقاع ألبة . ثم نزل على قلونية في شهر رمضان ؛ وكان الناصر يود أن يلتقي راميرو ملك ليون في موقعة ما ، ولكنه حاول عبثاً أن يحمله على مغادرة قلاعه ، والاشتباك مع المسلمين في معركة فاصلة ، وكان راميرو يرى ما ينزله المسلمون تباعاً بأراضي مملكته من صنوف التدمير والتخريب ، وهو عاجز عن أن يقوم بأية حركة لوقف هذا السيل المخرب . وأخيراً اجتمع النصارى ، ومعهم ملكهم راميرو في قلعة مزورته الواقعة فوق ربوة وافرة الحصانة ، على مقربة من قلونية ، واستعدوا للقاء المسلمين ؛ فعبأ المسلمون صفوفهم ، واشتبكوا مع النصارى في معركة حامية ، قتل فيها عدة من أكابر الفرسان النصارى ، واستشهد عدد من المسلمين ، وحاول المسلمون بعد ذلك استدراج النصارى إلى السهل . فلما عبروا وادى أوسمة حاول النصارى الهجوم ، فردهم المسلمون وقتلوا منهم جملة ؛ ثم رحل المسلمون بعد ذلك إلى حصن غرماج (Gormaz) على مقربة من ليون . ورأى الناصر أن التقدم بعد ذلك في السهول القفرة يعرض جيشه لمتاعب شديدة ، فارتد بقواته شرقاً ، وهو يعيث في أراضي قشتالة . ثم زحف على مدينة برغش عاصمة قشتالة وخربها ، وقتل على مقربتها عدداً كبيراً من أحبار الأديار المجاورة (سنة ٩٣٤ م) ثم قفل راجعاً بجيشه إلى قرطبة ، وقد قطع في غزوته هذه زهاء أربعة أشهر . وذكر الناصر في كتاب الفتح الصادر عن هذه الغزوة ، الجهات والمدن التي غزاها من بلاد ألبة والقلاع ، فكان منها مدينة أوسمة ، وحصن القصر ، وحصن أنة والدير المنسوب إليه ، ومدينة برغش وقصبتها المنيعه وبسيطها ، وحصن بلنسية وبسيطه ، وحصن اشكفيرش وبسيطه والأديار المتصلة به ، ومدينة لزمة

العظيمة الشأن وبسيطها ، ونظم الشعراء قصائدهم في تهنئة الناصر بما أصابه في هذه الغزوة من الظفر^(١) .

وتقص علينا الرواية الإسلامية خبر غزوة بحرية قام بها أسطول الناصر في تلك السنة (٣٢٣ هـ) . وخلاصة ذلك أن أسطولا بقيادة أمير البحر عبد الملك ابن سعيد بن أبي حمادة ، قوامه أربعون مركباً منها عشرون من الجرافات التي تحمل النفط والآلات البحرية ، وعشرون تحمل الرجال المقاتلة ، وعدة ركابه من الجند ألف رجل ومن البحريين ألفين ، خرج من ثغر ألمرية في شهر رجب (مايو ٩٣٥ م) فسار أولاً إلى جزيرة ميورقة الإسلامية ، ثم خرج منها متجهاً نحو شاطئ الثغر الفرنجي ، وقصد أولاً إلى مدينة بالش وهاجمها ، ووقعت بينه وبين أهلها معركة عنيفة هزم فيها الفرنج ، وقتل منهم ثلاثمائة رجل ؛ ثم سار الأسطول إلى مدينة إينش ، وأحرق بها المسلمون برأً وبحراً وأحرقوا المراكب في مرساها وقتلوا من أهلها نحو أربعائة رجل ؛ وبعث ابن حمادة من سفنه خمسة عشر سارت شمالاً إلى بلدة مسنيط ثم سار خلفها ببقية الأسطول ، وغزا الأسطول قرى كثيرة على الشاطئ ، وحقق غنائم كثيرة ، وخرج الافرنج لقتاله ، فهزموا وقتل قائدهم . ثم تقدم الأسطول بعد ذلك من مدينة برشلونة ، عاصمة الثغر الفرنجي ، فاجتمع الفرنج لمقاومته بقيادة زعيمهم بليط ، فهزموا وقتل قائدهم ، وأغلقت المدينة أبوابها ودافع أهلها من فوق الأسوار ، فتحول الأسطول إلى الساحل الجنوبي ، ودارت بينه وبين الفرنج المجتمعين على الشاطئ معركة شديدة هزم فيها الفرنج . ثم قفل الأسطول الإسلامي بعد ذلك عائداً إلى ثغر طرطوشة الإسلامي ، مثقلاً بالسبي والغنائم ، وهناك تلقى قائده أبا حمادة كتاب الناصر ، بالهوص إلى سبتة وطنجة لمحاربة من انتقض هنالك من أهلها فصدع القائد بالأمر ، وسار بسفنه نحو الجنوب ، وليث متردداً بين مراسي العدو حتى شتاء العام التالي ، ثم عاد إلى مراسيه في ألمرية في صفر سنة ٣٢٤ هـ^(٢) .

(١) ابن حيان في المقتبس - السفر الخامس - مخطوط الخزانة الملكية ، لوحات ١٣١ - ١٣٥

ابن خلدون ج ٤ ص ١٤٢ ؛ وكذلك : Dozy : Hist. - Vol. II. p. 148

(٢) ابن حيان في المقتبس - السفر الخامس - لوحة ١٤٤ ب و ١٤٥ أ .

وفي هذه السنة أيضاً (٣٢٣ هـ) ، عقد السلم بين الناصر لدين الله وراميرو ملك ليون . وكان راميرو ، على أثر الغزوة المخربة التي قام بها المسلمون في أراضيه ، قد بعث رسله إلى الناصر في التماس الصلح ، فبعث إليه الناصر وزيره يحيى بن يحيى بن إسحاق سفيراً ، فاجتمع في ليون مع راميرو ، وعقد معه شروط الصلح . ووقع الناصر هذه المعاهدة في منتصف ربيع الثاني من هذه السنة (مارس ٩٣٥ م) ، في يوم مشهود . وكان الناصر يرمي بعقد هذا الصلح إلى أبعاد ملك ليون عن التفاهم مع محمد بن هاشم صاحب سرقسطة ومعاوانته . بيد أن هذا الصلح لم يدم طويلاً ، لما كان يجيش به راميرو من رغبة ملحة في النكث والتفاهم مع الخارجين على حكومة قرطبة^(١) .

ذلك أن بذور الثورة كانت تختمر في الثغر الأعلى ، وكان النصراني إلى جانب ذلك يتحينون الفرصة للنهوض والانتقام . وكانت طوطة ملكة نيرة الوصية على ولدها غرسية ، قد لزمت السكينة حيناً وفقاً لمعاهدة السلم التي عقدها مع الناصر ، ثم تحرك البشكنس بعد ذلك وأغاروا على بعض الحصون الإسلامية (٩٣٧ م) . وظهرت في الوقت نفسه في الولايات الشمالية أعراض فتنة خطيرة . ذلك أن بني هاشم التجيبين سادة سرقسطة ، لم يكونوا دائماً على وفاق مع حكومة قرطبة ، وكانت تحدهم أطماع كثيرة . وكانوا يخشون عواقب السياسة التي يتبعها الناصر في إخضاع الولاة المحليين ، وسحق سلطان الأسر القديمة ، وكان وجودهم في الشمال بين الممالك النصرانية يفسح لهم مجال التآمر والخروج . وكان أبو يحيى محمد بن عبد الرحمن التجيبي ، حينما توفي في سنة ٣١٢ هـ ، قد خلفه ولده هاشم بمصادقة الناصر ، وحكم سرقسطة ، وضبط الثغر ، واشترك في الغزو مع الناصر ، وتوفي في سنة ٣١٨ هـ . فطلب ولده محمد بن هاشم التجيبي إلى الناصر أن يقره على ولاية سرقسطة ، فلم يجبه إلى ذلك ، فسار محمد إلى قرطبة مؤكداً لولائه ، فصدر الأمر بتوليته في رجب سنة ٣١٩ هـ ، والتزم بأن يورد قسماً من الحباية . ولما سار الناصر في سنة ٣٢٢ هـ إلى الغزو بعث إلى أهل الثغور لموافاته ، فقدم إليه التجيبيون ، في رجالهم ، وتحلف محمد بن هاشم عنهم ، وسار الناصر لقتاله ، ولكنه تحول

(١) ابن حيان - السفر الخامس - لوحة ١٤٣ أ

عنه إلى قتال النصارى حسبما تقدم (١) . ومن ثم فإنه لما اضطرت نار الحرب بين ملك ليون وبين الناصر ، رأى التجيبيون الفرصة سانحة لتنفيذ مشاريعهم ، وكان راميرو ملك ليون بالرغم من ارتباطه بعهد السلم مع الناصر ، يرقب الفرصة للنكث واستئناف الحرب ضد المسلمين ، فلما استجاش به محمد بن هاشم ، رأى الفرصة سانحة ، فنكث عن السلم وعقد الحلف المنشود مع محمد بن هاشم التجيبى صاحب سرقسطة ، وقريه مطرف بن منذر التجيبى صاحب قلعة أيوب (٢) ، وتعهد محمد لراميرو أن يعترف بطاعته ، نظير معاونته إياه في الخروج على عبد الرحمن الناصر ومحاربتة ، بل يقال إن هذا الحلف كان قد عقد قبل ذلك سراً ، وإن آثاره ظهرت منذ سنة ٣٢٤ هـ (٩٣٤ م) ، حينما كان الناصر يغزو أراضي ليون ، ولم يتقدم بنوهشام لمعاونته ، بل بالعكس جاهر محمد بالخروج عليه وخلع طاعته ، ثم اعترف بسيادة ليون على سرقسطة وأحوازها ، ولما أبى بعض قواد الحصون مجاراته في خيانتة ، سار إليهم راميرو وأخضعهم ، وسلم قلاعهم إلى الزعيم التأثر ، ثم عقد محمد وراميرو محالفة مع طوطة ملكة ناغار ، وغزا البشكنس الأراضي الإسلامية حسبما قدمنا ، وبذا تحالف الشمال كله ضد عبد الرحمن .

وتقدم إلينا الرواية الإسلامية ، خبر معركة ، نشبت في ذلك الوقت في الثغر الأعلى بين المسلمين والنصارى . وذلك أن الفرنج في برشلونة وحلفاءهم في الثغر ، حاولوا انتهاز الفرصة ، وغزوا الأراضي الإسلامية ، فخرج إليهم أحمد بن محمد بن إلياس قائد القوات السلطانية المرابطة في الثغر على مقربة من سرقسطة ، ونشبت بين المسلمين والنصارى معركة شديدة على ضفاف نهر إبره ، فهزم النصارى هزيمة شديدة وقتل وغرق منهم عدد جم . وتضع الرواية الإسلامية تاريخ هذه الموقعة في آخر شوال سنة ٣٢٤ هـ (سبتمبر ٩٣٦ م) (٣) .

وبعث الناصر في نفس الوقت جيشاً كثيفاً إلى الثغر الأعلى بقيادة الوزير عبد الحميد بن بسيل ، ليقوم بالتضييق على سرقسطة وبنى هاشم ، ولیدعم

(١) العذرى في كتاب ترصيع الأخبار ص ٤٣ و ٤٤ .

(٢) Calatayud وهى تقع جنوب غربى سرقسطة في منتصف الطريق بينها وبين مدينة سالم .

(٣) المقتبس - السفر الخامس - لوحة ١٤٨ ب و ١٤٩ أ

للقوى السلطانية المرابطة على مقربة منها ، وذلك ريثما يستطيع السير بنفسه إلى الشمال . ثم أتبعه بجيش آخر ، بعثه إلى الثغر أيضاً بقيادة الوزير سعيد بن المنذر القرشي ، ليقوم بالمعاونة في التضييق على سرقسطة .

وفي نفس هذا العام (٣٢٤ هـ) حاول نصارى ليون مرة أخرى الاستيلاء على قلعة مجريط أهم قلاع الثغر الأدنى ، فهاجمتها قوة كبيرة ، ولكن الحامية الإسلامية بقيادة أبي عمر بن أبي عمر استطاعت أن تصد هذا الهجوم ، وأن تنقذ القلعة (١) .

وكان عبد الرحمن أثناء ذلك يتأهب إلى الغزوة المرتقبة إلى الشمال . ففي منتصف شهر رجب سنة ٣٢٥ هـ (مايو سنة ٩٣٧ م) ، خرج من قرطبة إلى مقاتلة أعدائه في جيش ضخم ، وكان بروزه يوماً مشهوداً ، تبدت فيه روعة أهباته ، وفي ذلك يقول الفقيه أحمد بن محمد بن عبد ربه :

يوم من العز مجموع له الناس يختال في عقوته الجود والباس
وعلم عبد الرحمن أثناء سيره ، أن النصارى في الوقت الذى يحتشدون فيه بأطراف الثغر الأعلى ، لمناصرة حليفهم الخارج محمد بن هاشم التجيبي صاحب سرقسطة ، يحاولون في نفس الوقت أن يزحفوا صوب طليطلة لإثارة الثورة فيها . فسار بجيشه إلى طليطلة كيما يؤمن أهلها ، ويرهب النصارى ، ونزل عليها ، فلما علم النصارى بمقدمه ارتدوا مذعورين إلى الشمال . وفي خلال ذلك وافاه كتاب من أحمد بن محمد بن إلياس قائد الثغر بظفره بالعصاة في مدينة وشقة ، وكتاب آخر بإخماد ثورة أهل طليطلة غربى طليطلة .

وسار عبد الرحمن بعد ذلك إلى الثغر الأعلى من طريق وادى الحجارة ، وأبقى قوة من جيشه في منطقة طليطلة بقيادة مولاة درى ، للسهر على النظام في تلك المنطقة ؛ ورأى أن يبدأ بقلعة أيوب ، وكان قد امتنع بها مطرف بن منذر التجيبي المعروف بأبي شويرب ، وكان راميرو قد بعث لإنجاده فرقة من فرسان ألبه والقلاع . فحاصر عبد الرحمن القلعة ، وبعث يدعو إلى الطاعة ، ويؤكد له الأمان بخطه ، فرفض مطرف أن يستجيب إلى هذه الدعوة ، فهاجم عبد الرحمن القلعة ، وبرز إليه مطرف وحلفاؤه ، ونشبت بين الطرفين معركة

(١) المقتبس - السفر الخامس - لوحة ١٤٩ ب .

شديدة ، هزم على أثرها مطرف ، وقتل ، ولجأ أخوه حكم بن منذر في فلوله ومن معه من فرسان ألبة إلى القصبية ، وامتنعوا بها ، فاستمر الهجوم عليهم ، وكثر القتل في المدافعين ، حتى اضطر حكم أن يطلب الأمان لنفسه ولحلفائه النصارى ، ليعودوا إلى بلادهم ، ويلحق هو وأهله بالحضرة ، فقبل الناصر ونزل حكم ومن معه من القصبية ، وأعنى عن النصارى المستأمنين وقتل الباقر . ووقع فتح قلعة أيوب على هذا النحو في التاسع عشر من شهر رمضان من هذه السنة . وكان فتح قلعة أيوب أول صدع خطير في ثورة بني تميم ، وكان بها ، فضلا عن مناعتها الطبيعية ، عدة كبيرة من فرسان سرقسطة الأكارب ، وخمسةائة من الفرسان النصارى لم ينج منهم سوى الخمسين الذين أمنوا ، وقد أفاضت الشعراء في تهنئة الناصر بهذا الفتح ، ومن ذلك قصيدة لابن عبد ربه هذا مطلعها :

يا ابن الخلايف والصيد الصناديد ألقى إليك الرعايا بالمقاليد
ورأى الناصر ، قبل أن يسير إلى سرقسطة ، أن يقوم بجولة في أرض النصارى . فاتجه إلى أراضي ألبة والقلاع ، فافتتح عدة كبيرة من حصونها تبلغ السبعة والثلاثين حصناً . واعترزم بعد ذلك أن يعاقب البشكنس على عدوانهم ، فسار إلى بسيط بنبلونة ، وخرّب معاهدها وحصونها ، ومزق جموع البشكنس وسحق كل مقاومة ، وبعث فرقاً من جيشه إلى مختلف الأنحاء المجاورة فعاثت فيها وأصاب المسلمون غنائم كثيرة . وساد الرعب على البشكنس ؛ وهرعت إليه طوطة ، ملكة نبرة تقدم إليه خضوعها وتوبتها ، فقبل الناصر اعتذارها وأقر ولدها غرسية ملكاً على نبرة في طاعته وتحت حمايته ؛ وكان ذلك في أواخر رمضان وأوائل شوال من سنة ٣٢٥ هـ (أغسطس ٩٣٧ م) (١).

وسار الناصر بعد ذلك إلى تطيلة ، ثم سار منها إلى سرقسطة ، فنزل عليها في الثاني عشر من شهر شوال ، وابتنى حولها المنازل والدور بمحلته ، وعهد بحصارها إلى أحمد بن إسحاق القرشي قائد الفرسان ، وهو من قرابته ، وعينه حاكماً للثغر . ولكنه تهاون في الحصار وتوانى لمرض في قلبه ، ولأطاع كانت تجيش بها نفسه ، فأنبه عبد الرحمن وعزله ، فاتفق مع أخيه أمية على التأمّر

(١) ابن حبان في المقتبس - السفر الخامس - لوحات ١٥٣ و ١٥٥ و ١٥٦ أ .

والخروج ، فوقف عبد الرحمن على أمرهما واكتفى بنفيهما من الأندلس . فسار أمية إلى مدينة شنترين^(١) في ناحية الغرب ، واستولى عليها ورفع بها علم الثورة ، وتحالف مع ملك ليون . فأمر الناصر القائد أحمد بن محمد بن إلياس ، وكان مقبياً في بطليوس ليرصد حركات أمية بن إسحاق ، أن يغزو أرض العدو ، فسار إلى أراضي ليون واشتبك مع الجلائقه في معركة ، هزم فيها الجلائقه ، وقتل منهم عدد جم ، ولا سيما من أهل سمورة (جمادى الأولى سنة ٣٢٦ هـ) ، ثم أمر الناصر بعد ذلك القائد عبد الحميد بن بسيل ، أن ينضم في قواته إلى أحمد ابن محمد بن إلياس ، وأن يسيرا معاً إلى غزو ليون ، فصدعا بالأمر ، ووصلا بقواتهما إلى أرض النصرارى وعائا في جنباها ، وفي نفس الوقت تحركت بعض السفن من نهر الوادى الكبير وسارت نحو الغرب لغزو أهل شنترين الذين يناصرون أمية بن إسحاق . وانتهى الأمر بأن قام أحد الزعماء المحليين الذين يدينون بطاعة الأمير ، واستطاع أن ينتزع شنترين من أمية ، فالتجأ أمية إلى راميرو . أما أخوه أحمد فحاول أن يتصل بعمال الفاطميين في عدوة المغرب ، وأن ياتمهم على حكومة قرطبة ، فسعى عبد الرحمن إلى القبض عليه ثم أمر بإعدامه^(٢) ، ولكن سزى أن مغامرات بنى إسحاق لم تنته عند هذا الحد . واستمر حصار سرقسطة مدى أشهر ، والناصر يشدد عليها الخناق شيئاً فشيئاً . وأخيراً اضطر محمد بن هاشم أن يبعث رسله في طلب الأمان والصلح ، على أن يقره الناصر على حاله ، فأبدى الناصر قبوله وتسامحه ، وطلب أن يخرج إليه إخوة محمد ووجوه أهل سرقسطة لعقد الصلح . فخرج إليه ووجوه سرقسطة ، ومن بينهم إخوة محمد ، يحيى وعبد الرحمن وهذيل ، وعدة من ذوى الشوكة . وهنا ثابت للناصر فكرة في انتهاز الفرصة ، والقبض على تلك الصفوة المختارة من أهل سرقسطة ، ليسدد إلى المدينة الثائرة ضربة مميتة ، فأمر بالقبض عليهم جميعاً واعتقالهم داخل سراقده ، فلما علم محمد بن هاشم بما تم سقط في يده ، وشعر بوقوع هذه الضربة التى حرمته من كبار معاونيه ، ولكنه استمر صامداً ممتنعاً ، ورسل الناصر تتردد إليه بالإعذار والإنذار دون جدوى . وأخيراً بعث

(١) وهى بالإفرنجية Santarem .

(٢) ابن خلدون ج ٤ ص ١٤٠ ؛ وابن الأثير ج ٨ ص ١١٥ .

إليه الناصر بوزيره ومولاه محمد بن عبد الملك بن أبي عبدة ، فاطمأن الناثر إليه ، وأذعن إلى التوبة والإنابة وطلب الأمان والصلح ، وكان ذلك خلال عيد الأضحى سنة ٣٢٥ هـ .

فاستجاب الناصر إلى طلب محمد بن هاشم ، وعقد له الأمان بأوثق عقد ، وشهد الملأ من أهل العسكر وأهل الثغور ، وشهدت نسخته في الناس عامة ، وذلك في شهر المحرم سنة ٣٢٦ هـ (نوفبر ٩٣٧ م) . وكان مضمونه « أن يمنح الأمان لمحمد بن هاشم وإخوته وجميع أهله وأصحابه من مدينة سرقسطة ، وجميع من يتصل بهم من أهلها ، للمدة التي يرضاها الناصر ، وأن يملكه سرقسطة تملكاً يدخل فيها من يشاء ، وإلى العدد الذي يرضاه من رجاله ، ويكون أهل مدينة سرقسطة ومن يقيه محمد بن هاشم منهم من أهله وأتباعه آمنين بأمان الله ، محفوظين بعهد الملة . مستمسكين بمثل أمان محمد بن هاشم ، غير معتقبن في أنفسهم ، ولا مأخوذبن بذنب سلف ، وأن يخرج محمد بن هاشم من سرقسطة بنفسه ، ومن أحب إخراجه معه من خواص أهله وولده ، إلى مدينة تطيلة أو غيرها من مدن الثغر ، وحصوله مسجلاً على الموضع الذي يتخيره ، ويبقى بسرقسطة من أحب منهم ، ويختلف عليهم . وعلى المولى بسرقسطة بعده ، إحسان صحبتهم ، وعاليه أن يباعد منزله عنهم ، لا يقربه شيء من دور محمد ابن هاشم ، أو ينزل القصر القديم بعد خروج محمد بن هاشم عنه بجميع ماله فيه . وعلى أن يسجل الناصر لدين الله ، لأخيه يحيى بن هاشم على ما كان بيده من مدينة لاردة وأحوازها . فإن انقضت المدة التي يضرها الناصر لمحمد ، توجه إلى الحضرة ، وأقام فيها ثلثين يوماً أو نحوها ، مظهرراً لصدق طاعته ، ماحياً لكل ما انتثر في أقطار الأرض من معصيته ، وهو في توجهه إليه آمن في طريقه ، ومدة مقامه ومنصرفه ، غير مقطوع ولا معترض دون الانصراف ، إذ انقضت المدة التي وضعت له . وله على السلطان إذا وفي بما عقد عليه من الشخوص إلى باب سُدَّتْه أن يكتب له عهداً على مدينة سرقسطة ، ويصرفه إليها عاملاً وقائداً ، ويعزل عنها عامله وقائده ، بعد أن يناله من كرامته ، ويظهر عليه من آثار نعمته ، ما يعود معه إلى أحسن الأحوال التي كان عليها قبل هفوته . »

وقد اشترط عهد الأمان أيضاً أن يقدم محمد بن هاشم إلى الناصر رهائن من

ولده وإخوته وصحبه وكتابه ، وأن يكون جماعتهم لدى الناصر بحال حفظ وتكرمة ، وأمان في المسير والمقام ، يدلهم ستة أشهر ، باكفائهم ونظرائهم من إخوانهم خاصة ، إلى أن يظهر لأمر المؤمنين براءة محمد بن هاشم من ممالأة المشركين ، وتصحيحه طاعة أمير المؤمنين ، وعلى أن يقطع محمد بن هاشم من المشركين في ظاهره وباطنه ، من حد بلاد برشلونة إلى شرطانية إلى بنبلونة إلى ألبه والقلاع وإلى جليقية ، ولا يكاتبهم ولا يداخلهم ، ولا يصالحهم على طرف من أطراف الثغر إلا عن إذن أمير المؤمنين ، وأن يورد جباية بلده لمحلها ، بعد أن يسقط عنه جباية عام ، وألا يتقبل حرأ نازعاً ، ولا عبداً أبقاً لأمر المؤمنين ، ولا لأحد من رعيتهم ، وأن يوثق من ظفر به من هذه الطبقة ويصرفه إلى مكانه ، وألا يتعقب أحداً ممن سجل له عليه ، أو يسجل بعد ، ممن حاربه مع أمير المؤمنين وفارقه إليه أيام الطاعة ، وأن يحدد البيعة لأمر المؤمنين ويلتزم شروطها ، وأن يغزو مع أمير المؤمنين ، ويعادى من عاداه ويحارب من حاربه ، ويسالم من سألته من أهل الملوك وغيرهم ، ويقطع نصيبه من كل من أخرج يده عن طاعته ، وإن كان ابنه أو أخاه ، يلتزم كل ما ألزمه أمير المؤمنين من ظاهر القول وباطن الإرادة ، لا ينقص تناول البغية ، ولا يحرف عن التصحيح بالعلة ، فقد التزم أمير المؤمنين في عقده ، مثل ما سألته محمد في ذلك وأوجه على نفسه مع دركه لهذه المن ، إن صدق الطاعة ، أن يوليه مدينة سرقسطة ، وما وقع في سجنه معها ولاية مستمرة ، ولا يعزله طول أيامه عنها ، ثم لا يواخذة بذنب ، ولا يعدد عليه اقتراف خطأ ولا عمد ، ولا تقبل فيه مقالة كاشح ولا طعن حاسد ، ويصير ذلك له وصية فيمن بعده ، يلزمهم الوقوف عندها على سبيل الخلفاء في خالدهم عهدهم إن شاء الله ، ووقعت الأمان في هذا الأمان من الناصر لدين الله مستوفاة مغلظة ، أخذ على محمد بن هاشم أشد منها ، فحلف في مقطع الحق بمسجد سرقسطة الجامع خمسين يميناً منسوقة بمحضر قاضي الجماعة بقرطبة والفقهاء وأعلام العسكر ، والملا من أهل بيت محمد بن هاشم ، ووجوه أهل الثغر ، على التزام ما عقد على نفسه منه واعتداده إياه ديانتته . ثم أشهد الناصر لدين الله على نفسه فيه جميع أهل عسكره ، فكان أول من شهد عليه أولاده الحاضرون ، ثم أعمامهم ثم الوزراء وأصحاب الخطط ، ثم الفقهاء ، ثم

وجوه أهل سرقسطة ومن حضر من أهل الثغر^(١).

سقطت سرقسطة وسائر الحصون المحاورة لها في يد الناصر ، وكذلك سقط في يده حصن روطة أمنع حصونها في الغرب ، وبدا انهارت ثورة التجيبين في الشمال ، وكانت من أخطر الثورات التي واجهها الناصر ، لأنها كانت مركزاً لتجمع القوى المعادية لخلافة قرطبة ، من الخوارج والأمراء النصاري . أما عفو الناصر عن محمد بن هشام ، ومنحه الأمان له ، واستصناعه بالرغم من فداحة جرمه ، فيرجع إلى ما كان يتمتع به محمد من مقدرة إدارية فائقة ، ولما كان لبني هاشم في الشمال من مركز قوى موثقل ، ولما كان لهم من العصبة والأنصار . وقد رأينا الناصر في غير موطن ، يعفو عن الثوار العتاة ، ويحسن إليهم ، وينظمهم في جيشه . وقد كانت هذه سياسة مستتيرة من الخليفة القادر ، للاستفادة من هذه العناصر المنحرفة القوية معاً ، متى استقرت توبتها ، وحسن ولاؤها .

ودخل الناصر بجيشه مدينة سرقسطة وفقاً للسلم المعقود في يوم الخميس ١٤ من المحرم سنة ٣٢٦ هـ (٢٢ نوفمبر ٩٣٧ م) ، وشهد منعها وحصانة أسوارها ، فأمر بهدم الأسوار حتى لا تعود منعها فتشجع الخوارج على الثورة ، وشحنها برجاله ، ونظر في مصالحها ، فساد بها الهدوء والأمن ، وبعث الناصر أثناء مقامه بسرقسطة ، قوة من جيشه بقيادة نجدة بن حسين الصقلبي لتقوم ببعض الغزوات في أرض العدو ، وأمر محمد بن هاشم أن يرافقه في أصحابه امتحاناً لوفائه ، فصعد بالأمر . وسار المسلمون بالرغم من اشتداد البرد وانهمار الثلوج صوب ناحية شنت إشتين ، وتفرقوا إلى ثلاث فرق ، أخذت كل فرقة منها بشن الغارات في قطاع معين ، ثم اجتمعت عند حصن شنت إشتين ، وهنا حاول النصاري اعتراض المسلمين ، ونشبت بين الفريقين معركة هزم فيها النصاري . وتوغل المسلمون بعد ذلك في أراضي ألبية ، وانتسفوا الزروع

(١) أورد لنا ابن حيان حوادث فتح سرقسطة ، وعهد الأمان الذي أصدره الناصر لمحمد ابن هاشم نقلاً عن عيسى بن أحمد للرازي . وقد أورد لنا أيضاً أسماء الثمود الذين وقعوا هذا الأمان من الأمراء والوزراء وأصحاب الخطط والموالي والفقهاء وغيرهم ، وشغل ذلك أكثر من صفحة . المقتبس في السفر الخامس - مخطوط الخزانة الملكية لوحات ١٥٦ ب إلى ١٥٩ أ .

وخرّبوا الكنائس والديارات ، ثم عادوا مثقلين بالغنائم إلى سرقسطة . وكان الناصر قد استتم خلال ذلك النظر في شئون الثغر ، وحفظ أطرافه ، وتزويده بالحياة والمقاتلة ، وكل ما يضمن سلامته ، ثم خرج بجيشه من سرقسطة قافلاً إلى الحضرة في الرابع عشر من صفر ، فوصل إلى قصر الخلافة في الثامن عشر من ربيع الأول سنة ٣٢٦ هـ (أواخر يناير ٩٣٧ م) ، وذلك بعد أن قضى في غزوته زهاء ثمانية أشهر^(١) .

ووفد محمد بن هاشم التجيبي بعد ذلك على قرطبة ، فأكرم الناصر وفادته ، وأقام في كنفه مدة في رغد وإيثار ، وهو يحضر مجالس الخليفة ، ثم غادر قرطبة في رجب بعد أن ولاه الناصر سرقسطة ، وعقد له عليها وعلى الجهات التابعة لها ، وولاه القيادة في نفس الوقت ، وبذا رد إلى سابق مناصبه ومكانته .

* * *

وهكذا استطاع عبد الرحمن أن يمزق شمل هذا التحالف الخطر ، وأن يخضع الشمال الشرقي من شبه الجزيرة كله لسلطانه وصولته ؛ ولم يبق عليه إلا أن يحطم خصمه القوي العنيد راميرو الثاني ملك ليون ، وهو محور النضال الحقيقي . فلم يمض سوى عامين حتى تأهب للقيام بأعظم غزواته ضد مملكة ليون ، فحشد جيشاً ضخماً يبلغ زهاء مائة ألف ، وعهد بقيادته إلى نجدة بن حسين الصقلبي . وكان الأجانب والصقالية قد تبوأوا يومئذ ذروة القوة والنفوذ في بلاط قرطبة ، وسيطروا على معظم المناصب الكبيرة في القصر والحيش . وكان لهذه السياسة التي أسرف الناصر في اتباعها ، أسوأ الأثر في نفوس الزعماء العرب ، وفي انحلال قوى الحيش المعنوية . وفي صيف سنة ٩٣٩ م (٣٢٧ هـ) سار الناصر إلى ليون على رأس جيشه الضخم ، وعبر نهر التاجه من عند طليطلة ، ثم عبر نهر دويرة متجهاً نحو قلعة شنت منكش ، أو شنت مانك (سيانقة) دون أن يفتن إلى ما يفت في عضد هذه القوة العظيمة من العوامل الخفية ؛ وكان راميرو الثاني يربط على مقربة منها في حشود عظيمة ، متأهباً لقتال المسلمين بكل ما وسع ، وزوده حليفه الخائن أمية بن إسحاق بنصائح ومعلومات ثمينة ،

(١) المقتبس في السفر الخامس - لوحة ١٦٣ أ و ب .

وانضمت إليه طوطة ملكة نافار ناكثة لعهدا ، وبذا اتحدت قوى اسبانيا النصرانية لمقاتلة المسلمين مرة أخرى .

وهنا تختلف الرواية العربية والفرنجية اختلافاً بيناً في شأن الواقعة التي نسبت بين المسلمين والنصارى ؛ وبينما تقدم إلينا الرواية الفرنجية كثيراً من التفاصيل الواضحة المعروفة أحياناً ، إذا بالرواية العربية يغلب عليها الإيجاز والغموض والتحفظ ؛ وبالرغم من أن الرواية الأندلسية تشير إليها في غير موضع وتصفها « بغزاة القدرة » تنوياً بأهميتها ، وما كان يعلق عليها من رغبة في سحق المملكة النصرانية ، وتسميها بموقعة « الخندق » وهو نفس الاسم الذي تقدمه الرواية الفرنجية ، فإنها لا تقدم إلينا أى تفصيل شاف عن مكانها وظروفها^(١) . وسوف نستعرض أقوال الرواية الإسلامية أولاً ، ثم نتلوها بأقوال الرواية النصرانية ، حتى نستطيع بالتحخيص والمقارنة ، أن نخرج بفكرة واضحة عن حقائق هذه الواقعة التي تعتبر من كوارث التاريخ الأندلسي .

ويقدم إلينا المسعودي عن الواقعة رواية يطبعها لون القصة . فيقول لنا إن عبد الرحمن اقتحم بجيشه حدود ليون وزحف على مدينة سمورة عاصمتها ، وكانت في غاية المناعة ، يحيط بها سبعة أسوار شاهقة البنيان ، قد أحكمتها الملوك السابقة ، وبين الأسوار خنادق متسعة تفيض بالماء ، فافتتح المسلمون منها سورين ، واحتتمى النصارى بداخل المدينة ، ثم لحق المسلمين الإعياء من امتناع المكان وحصانته ، فكر عليهم النصارى بشدة وحماسة ، فساد الاختلال بين المسلمين وهزموا هزيمة شديدة ، وقتل منهم زهاء أربعين ألفاً وقيل خمسين ألفاً ، وكان ذلك في شوال سنة ٣٢٧ هـ (يولييه ٩٣٩ م) . وسميت الواقعة بموقعة الخندق لنشوبها على خنادق سمورة^(٢) .

على أن الرواية الأندلسية أكثر وضوحاً ودقة ، في شرح تفاصيل هذه

(١) أخبار مجموعة ص ١٣٦ ؛ ويشير ابن خلدون إلى الواقعة بإشارات عابرة (ج ٤ ص ١٣٧ و ١٤٠) . وكذا ابن الأبار في الحلة السيرة ص ١٥٠ . ولم يذكرها ابن عذارى في البيان المغرب .

(٢) مروج الذهب (بولاق) ج ١ ص ٧٨ ؛ ونقلها المقرئ في نفع الطيب ج ١ ص ٦٦٥ وابن الأثير ج ٨ ص ١١٥ .

الكارثة . ولدينا من ذلك روايتان ، تمتاز كلتاهما بنوع من الوضوح في تحديد مكان الواقعة وظروفها ، هما رواية مؤرخ الأندلس الكبير ابن حيان ، ورواية الوزير ابن الخطيب .

أما رواية ابن حيان ، وهي التي ينقلها في المقتبس عن عيسى بن أحمد الرازى ، فخلاصتها ، هو أن الناصر لما عزم على غزو أهل جليقية (مملكة ليون) ، جد في الاستعداد والحشد ، وبعث كتبه إلى الثغور ، واستكثّر من الآلات والسلاح ، وخرج في حشوده إلى الغزو في يوم الجمعة ٢٢ شعبان سنة ٣٢٧ هـ الموافق لأول شهر يونيه العجمي (سنة ٩٢٩ م) . وكان الناصر قد سير قبل خروجه الوزير القائد أحمد بن محمد بن أبي عبدة في بعض قواته إلى جهة الغرب احتياطاً على أهله ، وحماية لهم أثناء قيامه بالغزو .

ووصل الناصر في قواته إلى طليطلة في يوم ٢٣ رمضان ، ثم خرج منها إلى أرض العدو (قشتالة) في الخامس من شوال ، فعاث فيها أياماً ، وألقى النصارى قد أدخلوا معظم بلاد هذه المنطقة ، وكانت غاصة بالنعم والأقوت ، فاستولى المسلمون عليها ، ثم تقدموا إلى حصن أشكر ، وخرّبوه وانتسفوا ما حوله . ثم ساروا إلى حصن أطلّة ، فحصن برتيل ، وذلك في يوم ١٣ شوال .

وكان محمد بن هاشم التجيبي صاحب سرقسطة قد تقدم في قواته ، في الوقت نفسه ، فعبر نهر شنت مانكش (سيانقا) ، فارتد العدو بقواته وراء النهر ، ونشبت بين الفريقين معركة هزم فيها النصارى أولاً ، ولكنهم عادوا فاجتمعوا وتكاثروا على المسلمين ، وسقط محمد بن هاشم عن فرسه خلال القتال فأسر ، وهزم المسلمون على باب شنت مانكش هزيمة شديدة ، وقتل منهم كثيرون وارتدوا في تراجعهم إلى خندق عميق ، وهو الذي تنسب إليه الواقعة ، فتردى فيه منهم خلق كثير ، فتقدم الناصر مضطراً بقواته ، وترك محلته ، فلكها العدو في الحال ، واحتل الناصر أعلى النهر بقواته ، وقد عجز النصارى عن اتباعه ، فلبث هناك يومه ، وقد ساد الخلل في الجيش ، وأيقن الناصر بتمحيص الله للمسلمين ، ثم رحل قافلاً حتى وصل إلى مدينة وادى الحجارة ، ثم سار منها إلى قرطبة .

هذا ملخص ما نقله ابن حيان عن عيسى بن أحمد عن موقعة الخندق ، ويزيد ابن حيان على ذلك ، أن هذه الواقعة التي اشتهر حديثها بالأندلس قد نالت

السلطان (الخليفة) والمسلمين فيها محنة عظيمة ، وقتل وأسر فيها خلق كثير . واستولى العدو على محلة السلطان وسراجه وآلاته السلطانية ، وفيها مصحفه الخاص ودرعه الأثير لديه . وشملت الهزيمة سائر الكافة ، فلم ينج من نجا منها إلا على متون الدواب . وأصاب القتل والأسر بالأخص أهل البلاد المطوعة . وأما الجند فقد نجا معظمهم ، وفشا القتل فيمن سواهم من المستنفرين والحشودة . ويقول لنا ابن حيان ، إنه كان بين ضحايا المعركة جده أبوسعبد مروان بن حيان بن محمد بن حيان . ومن الحقائق المؤلمة التي ينقلها إلينا ابن حيان ، أنه قد بدا في هذا اليوم ، من قوم من وجوه الجند « النفاق لأضعفان احتملوا على السلطان فقبعوا للصفوف ، وسارعوا في الهرب ، وجروا على المسلمين الهزيمة وأوبقوهم . وكان أسبقهم إلى ذلك وأكشفهم لما في نفسه الخاين « ابن فرتون بن محمد الطويل » وقد بعث الناصر خلفه برسول استطاع القبض عليه ، فتقف وحمل إلى قرطبة ، وهناك صلب على باب السدة يوم وصول الناصر من غزاته ، وألحق به نفر من أشكاله ممن عملوا عمله ، ولحقهم وزره .

ويصف لنا عيسى بن أحمد ، طريق العودة الذي سلكه الناصر بجيشه عقب الموقعة ، فيقول إن الناصر ، قصد أولا إلى مدينة الفرج (وادي الحجارة) ، ثم غادرها في يوم الخميس الحادي عشر من ذي العقدة ، وسار إلى جريرة ، ومنها إلى شبطران ، ومنها إلى محارس ، ومنها إلى مدينة طليطلة ، فلبث بها أربعة أيام ، ورحل منها يوم الخميس إلى فج سراج ، ومنها إلى ملقون ، ثم احتل بالبركة ، ومنها إلى منزل رند ، ثم إلى قنالش على وادي أريش ، ومنها إلى طير برتطة ، ومنها إلى قليانة ، فأرملاط ، ومنها إلى منية نصر على باب قرطبة بعدوة النهر بالربض . وهناك قضى الليل . ثم سار إلى قصر قرطبة في الغد ، وقد نفذ أمره بصلب فرتون بن محمد الطويل ، على باب السدة الأكبر من أبواب القصر .

هذا ، وقد نقل إلينا ابن حيان نص الكتاب الذي صدر باسم الناصر عن الموقعة ، وهو من إنشاء الوزير الكاتب عيسى بن فطيس . وهو كتاب طويل ، يحاول فيه كاتبه أن يصف أدوار الموقعة ، وروعة القتال الذي نشب بين المسلمين والنصارى ؛ ويستخلص منه أن المعركة بدأت في صالح المسلمين ، وأنهم استطاعوا في البداية أن يردوا النصارى ، وأن يفضوا جموعهم ، حتى سقط محمد بن هاشم التجيبي

قائد الطليعة عن فرسه ، وأسره النصارى ، فعندئذ ارتد المسلمون إلى خطوطهم ، وذلك بعد أن قتلوا عدداً كبيراً من أعلام النصارى ، وقوامسهم وفرسانهم . ثم استؤنف القتال في اليوم الثالث ، وقد تضخمت حشود النصارى بما ورد إليهم من الأمداد « من أقصى بنبلوثة وألبه والقلاع ، وأهل قشتيلة إلى مشركى قلمرية ، وكل صنف من أصناف العجم معهم » ، واضطرت المعركة بين الفريقين ، وانتهت هذه المعركة الثانية بهزيمة النصارى وقتل عدد من أعلامهم ، وارتد المسلمون إلى خطوطهم ظافرين . وفي اليوم التالى بادر النصارى بالهجوم ، فلقبهم المسلمون بعنف وشدة ، واحتدم القتال ، وسقط « عظيم من عظماء النصارى » فاستداروا حوله ، وقد لحقتهم الهزيمة ، وهنا يقول الكتاب « وبلغ أمير المؤمنين أقصى أمله من إذلال جميع المشركين ، والاحتلال بساحتهم ، وأنحياز طاغيتهم فى أعلى شاهق ، برجو النجاة بنفسه ، فأمر بالرحيل ، وقد ضاعف النظر ، والعدو فى ضبط ساقه جيشه ، لما توقع خروج الكفرة فى أثره . وأصبح منتقلا ، فما أقدم أعداء الله أن ينظروا من الجيش إلا من بعد على رأس جبل » .

وسار الناصر ، حسبما يثبتنا الكتاب ، بعد ذلك صوب نهر دويرة ، فى اتجاه حصن شنت منكش ، وهو يهدم الحصون ، وينتسف الزروع فى طريقه . وكان الناصر ، يزعم السير شرقاً بجذاء دويرة ، حتى حصن شنت إشتين ، ولكنه عدل عن ذلك ، وأزعم السير إلى حصن أنتيشة . وهنا يجذبنا الكتاب عن المرحلة الحاسمة من الموقعة . ذلك أن الناصر ، أشرف فى سيره على « خنادق ومهاو تتقاذفه ، وأجراف منقطعة قد عرفها المشركون ، وقدموا إليها ، وألقوا إلى ساقه الجيش فرسانهم ، فدارت عليهم الحرب ، وصرع فيها من جلة فرسانهم ، ومتقدمى رجالهم جملة ، لو أصيبت بحيث يترأى الجمعان لكانت سبب هزيمتهم ، ولكنهم وثقوا بالوعد ، وانتظروا تقدم الحماة ، وترادف الأتقال ؛ فحامى أمير المؤمنين برجاله وخاصته عن المسلمين ، ساعات من النهار ، حتى تقدم أكثرهم ، وجازت الخندق لقتالهم ، إلا من ضعفت دابته ، أو ضعفت تعبئته عن استنفارها . فلما رأوا الخلل تصاحبوا من قنن الجبال ، وانخطوا من أعاليها انحطاط الأوعال ، فأصابوا من الأمتعة والدواب المثقلة ، ما لو أصابوا مثله فى مجال حرب أو سهل

٢٧ - أندلس

من الأرض ، لما أنكر مثله مثله . عند مقارعة الرجال ، وتصرف الأحوال .
وحامى صاحب العسكر عن كل من أجاز الخندق ، وخلص من مضايقه ، حتى
أسهلوا ، وأصبح لأمير المؤمنين جيوشه ، وانتظمت جموعه ، وسلم الله رجاله ،
فلم يصب منهم أحد . وفي ذلك دليل للسامع عن الموقعة أنها لم تدر بغلبة ،
ولا ظفر المشركون ، اظفروا به فيها عن مساواة أو كثرة ، ولكن ضيق المسالك ،
ووعر الطريق ، وسوء فهم الدليل ، خلى لما جلبه إلى أقدار الله تعالى التي
لا تصرف ، ومحنة التي لم يزل يمتحن بها أوليائه ليعظهم ، ويبتلى عبده ليرهبهم ،
وأمر المؤمنين شاكر لله تعالى عظيم نعمه ، وواقف على تصرف محنته ، مستسهل
ما اختص به في حب طاعته ، ضارع إلى الله تعالى في التقبل لقوله وفعله .

وقد أرخ هذا الكتاب في اليوم الثامن من ذي القعدة سنة ٣٢٧ هـ ، أعني
عقب الموقعة بأربعة أسابيع ، وحينما وصل الناصر في ارتداده إلى وادي الحجارة ،
وذلك ليكون أيضاً للناس ومعدرة من الخليفة ، عما أصابه من هزيمة . على أن
هذه العبارات الرفيقة التي صيغ فيها الخطاب ، وهذه التأكيدات الجريئة ، بأن
أمير المؤمنين ، عقب جواز الخندق ، قد انتظمت جيوشه ، وسلم الله رجاله ،
ولم يصب منهم أحد ، لا يمكن أن تنفي شيئاً من الحقائق المؤلمة ، التي تشهد كلها
بفداحة النكبة التي نزلت بجيش الناصر على خندق شنت منكش ، والتي يفصل
لنا ابن حيان بعض نتائجها وآثارها فيما تقدم .

ونقل إلينا ابن حيان كذلك رواية موجزة عن الموقعة عن عريب بن مسعود
جاء فيها : « غزا الناصر لدين الله سنة سبع وعشرين وثلاثمائة بالصوائف إلى
مدينة شنت مانكش بلد ألبه ، وبارز الكفرة ، فوقعت حرب عظيمة أنهزم
المسلمون عنها ، واستمسك الناصر لدين الله في رجال الحقيقة بعد أن هلك في
[الموقعة] عالم من المسلمين ، وقتل منهم كثير ، وأسو كثير ، وكان ممن أسر
محمد بن هاشم التجيبي صاحب سر قسطة . وذلك في شهر رمضان منها » .

وكان القائد الباسل محمد بن هاشم التجيبي ، قد لبث في أسر راميرو
(رذمير) ملك ليون ، مدة استطالت أكثر من عامين ، والناصر يسعى إلى
افتكاكه ، ويضاعف له الفدية ، حتى أفرج عنه أخيراً ، وحضر إلى قرطبة في

شهر صفر سنة ٣٣٠ هـ ، بعد عامين وثلاثة أشهر من أسره (١) .
وأما رواية ابن الخطيب ، فهي بالرغم من إيجازها أقرب الروايات الإسلامية إلى الدقة والحقائق التاريخية ؛ فهو يحدد تاريخ الموقعة ، ومكانها بدقة ، ويصفها « بالوقعة الشهيرة التي ابتلى الله بها عبد الرحمن ومحصه ، والتي أوقعه بها عدو الله رذير ابن أردون » . فأما تاريخ الموقعة فهو يوم الجمعة ١١ شوال سنة ٣٢٧ هـ (أول أغسطس سنة ٩٣٩ م) ، وقد وقعت على باب شانت منكش (٢) ، بعد قتال استمر أياماً ، تراوحت فيه المغالبة بين الفريقين بأشد ما يكون وأصعبه . ثم كانت للعدو الكرة ، فانكشف المسلمون انكشافاً لم يسمع بمثله ، وألجأ العدو المسلمين إلى التراجع إلى خندق عميق ، هو الذي تنسب إليه الموقعة (فهي تسمى موقعة الخندق) (٣) . فتساقط فيه المسلمون حتى ساووا بين ضفتيه ، وانكشف الناصر ، واستولى العدو على محلاته ، وما فيها من عدة ومتاع ، وضاع فيها مصحفه ودرعه (٤) .

ولدينا من الرواية النصرانية أولاً رواية ألفونسو الحكيم في تاريخه العام ، وهي رواية موجزة مغرقة معاً ، وخلاصتها أن عبد الرحمن ملك قرطبة وابن يحيى ملك سرقسطة ، قدما في جيش ضخّم إلى أرض الملك راميرو ، ووصلوا في جيشهما حتى بلدة سيت مانكاس . فلما علم بذلك الملك راميرو خرج لقتالهم وقتلهم حتى هزم المسلمون ، وقتل منهم ثمانون ألفاً ، وكان هذا اليوم يوم القديس يوستى والقديس باستور . ويقول لوقا التوجي إنه كان يوم الإثنين . وأسر ابن يحيى . وهرع المسلمون الآخرون إلى حصن يسمى « الخندق » *Alfondiga* وتركوا كثيراً من قتلاهم في الميدان . وحاصرهم الملك راميرو في هذا الحصن ، وفر منه

(١) نقلنا رواية ابن حيان عن موقعة الخندق والكتاب الذي صدر عن الناصر عقب وقوعها من السفر الخامس من المقتبس (مخطوط الخزانة الملكية) لوحات ١٦٧ إلى ١٧٢ أ . هذا وقد نشرنا نص كتاب الناصر كاملاً في نهاية الكتاب .

(٢) شنت مانكش هي بالإسبانية *Simancas* (سيمانقة) . وهي تقع على مقربة من نهر دويرة شرق مدينة سمورة وجنوب غربي بلد الوليد . وما تزال هذه القلعة قائمة حتى اليوم بصورتها النصرانية المجددة . وهي اليوم مقر دار المحفوظات الإسبانية .

(٣) وتعرف الموقعة بالإسبانية *Albandega* محرفة عن كلمة « الخندق » .

(٤) أعمال الأعلام ص ٣٦ و ٣٧ .

عبد الرحمن ناجياً بنفسه في نفر من صحبه ، وعاد الملك راميرو في جيشه ومعهم غنائم كثيرة من الذهب والفضة والأحجار النفيسة وأشياء كثيرة أخرى ، وأخذ معه ابن يحيى أسيراً (١) .

بيد أن هنالك روايات نصرانية أخرى أكثر دقة ووضوحاً . وخلاصة هذه الروايات هو أن عبد الرحمن سار بجيشه في اتجاه سيانقة الواقعة على مقربة من نهر دويرة شرق مدينة سمورة ، فلقبه راميرو وحليفته طوطة في قواتهما ، ونشبت بين الفريقين موقعة في ٥ أغسطس سنة ٩٣٩ م ، فأبدى رؤساء العشائر العربية في القتال فتوراً وتراجعوا أمام النصارى . ولكن حدث ما لم يتوقعه المسلمون ، ذلك أن النصارى طاردوهم وألحوا في قتالهم ، فارتد المسلمون أمامهم نحو الجنوب الغربي ، حتى محلة صغيرة في جنوبي مدينة شملنقة تسمى ألانديجا (الخنديق) ، ثم وقفوا وكروا على النصارى بفتور وتحاذل ، وهجم النصارى عليهم بجرأة وشدة ، فهزم المسلمون هزيمة شديدة ، وأمعن النصارى فيهم قتلاً وأسراً . فساد الخلل في الجيش الإسلامي ، ومزقت منه فرق برمتها ، وقتل قائده نجدة الصقلي ، وأسر محمد بن هاشم حاكم سرقسطة ومزق جيشه ، وكان يحارب إلى جانب عبد الرحمن في هذه الغزوة ، وحمل مصفداً إلى ليون . وأثنى عبد الرحمن نفسه جراحاً ، ولم ينج من الموت والأسر إلا بأعجوبة ، فولى شطر قرطبة في نفر من الفرسان (٢) . ولم يحاول راميرو أن يستغل نصره بمطاردة المسلمين . ويقال إن الذي منعه من مطاردتهم هو أمية بن اسحاق إذ حذره من الكمين ورغبه فيما خلفوه من الأسلاب والغنائم الضخمة . ولولا ذلك لفنى الجيش الإسلامي بأسره (٣) . وكان لانتصار راميرو وقع عظيم في أوروبا وفي العالم الإسلامي ، بيد أن الموقعة على روعتها لم تكن بعيدة الأثر في قوة الأندلس ومنعتها ، ولم يدخر عبد الرحمن منذ عوده إلى قرطبة جهداً في تنظيم الجيش وإصلاحه ، وتطهيره من العوامل الخطيرة التي أدت إلى هذه الكارثة . ويحاول ابن الخطيب أن يوضح لنا أسباب هذه الكارثة في قوله : « وجرت الهزيمة على المسلمين طائفة من جند الناصر

(١) Crónica General, ibid, Vol. II. p. 396

(٢) Aschbach : Geschichte der Dozy : Hist.; Vol. II. p. 155—156 وكذلك

Omajaden in Spanien. B. II. p. 50 حيث يورد الروايات النصرانية .

(٣) نفع الطيب ج ١ ص ١٦٥ ، وابن الأثير ج ٨ ص ١١٥ .

لدين الله حسدته ما هياً الله من الصنع ، ولم تناصحه في الحرب حق النصح ، فجالت ثانية للأعنة ، واختل مصاف القتال . ثم يقول لنا إن الناصر ، قرر أن يبطش بأولئك الخونة المتهاونين ، فأمر قبيل وصوله إلى قرطبة ، أن تقام المصالب على ضفة نهرها ، وما كاد يصل إلى قرطبة ، حتى قبض على نحو ثلاثمائة من الفرسان ، فصلبهم وأمر بالنداء عليهم : « هذا جزاء من غش الإسلام ، وكاد أهله ، وأهل بمصاف الجهاد »^(١). بيد أن موقعة الخندق كانت خاتمة أعمال الناصر الحربية فلم يفر من بعدها بنفسه .

وفي ذلك يقول ابن حيان : « إنه قد اشتدت على الناصر نكبته في غزوته هذه ، فاتهم سعده ، واعتكر بكره ، حتى خاف على نفسه ، فأشير عليه بعكس همه . فالتفت إلى البنيان يعالج به همه وأساه ، فأنشأ مدينة الزهراء ، وأقصر من ذلك الوقت عن الغزو بنفسه ، ووكل إلى حزمة قواده وشجعانهم ، يجردهم بالصوائف كل عام » . ومن جهة أخرى فقد رأى عبد الرحمن أن يتبع نحو أمراء الثغر الأعلى سياسة جديدة . وذلك أنه ، وفقاً لقول ابن حيان قد « اقتصر في تقليد شؤون الثغر الأعلى المانعة للدروب على أكابر ساكنيها ورآئها عن الأجداد والآباء صلابة البأس ، آل تيجيب ، وآل ذى النون ، وآل زروال ، وآل غزوان ، وآل الطويل ، وآل رزين ، وأسبابهم المؤمرين قدماً بثغورهم ، الذابين عن حريمهم ، فضم بلادهم بينهم حصصاً ، وجدد لهم ولأعقابهم بعدهم على أقسامهم منها كل عام ، ثم لا يغبنيهم بالصلوات إذا وفدوا وطلبوا ، وبالهدايا إن بعدوا » ، وقد ترتب على ذلك أن كان هؤلاء الزعماء يقومون بدفاع النصارى ، وكان الناصر يزودهم كل عام بالعدد والسلاح ، والمستنقرة والمطوعة إلى الثغر تعصيلاً لجهودهم^(٢) .

واستأن أمية بن إسحاق بعد ذلك عبد الرحمن ، فلم ير بأساً من تأمينه والعفو عنه . وكانت سياسة عبد الرحمن ترمى دائماً إلى اصطناع خصومه الأقوياء بالعفو والإغضاء . وسعى عبد الرحمن حسبما تقدم إلى افتداء محمد بن هشام ، فأفرج عنه النصارى بعد أن لبث في سجون ليون زهاء ثلاثة أعوام ، وغمره الناصر بعطفه

(١) أعمال الأعلام ص ٣٧ .

(٢) ابن حيان في السفر الخامس لوحة ١٦٨ ب .

فأسبغ عليه لقب الوزارة ، وجعله قائداً للثغر ، وعاد إلى سرقسطة ، وكان يزور قرطبة من آن لآخر ، واستمر والياً لسرقسطة حتى توفي في سنة ٣٣٨ هـ . فعين الناصر ولده يحيى مكانه في الولاية والقيادة . وشغل النصارى مدى حين بعد موقعة الخندق بطائفة جديدة من الحروب الأهلية ، واستطاع عبد الرحمن خلال ذلك أن يعنى بإصلاح شئون المملكة وتقويتها .

وجنح راميرو ملك ليون إلى السلم مرة أخرى ، وبعث إلى الناصر يطلب عقد الصلح ، فأجابه الناصر عن كتابه بالقبول ، وبعث إليه سفيراً ليعقد معه شروط السلم . ولكنه كان كالعادة سلماً قصيراً الأمد .

وعقد الناصر من جهة أخرى السلم مع صاحب برشلونة الإفرنجي شنير بن منفريد ، وبعث إليه كتابه حسداى بن إسحاق الإسرائيلي ، لينظم معه عقد السلم وفقاً للشروط التي ارتضاها الناصر ، وخلاصتها أن يتخلى شنير عن إمداد جميع النصارى الذين ليسوا في سلم الناصر ، وأن يلتزم طاعته ، وأن يحل المصاهرة التي بينه وبين غرسية بن شانجه صاحب بنبلونة (نبرة) ، وكان شنير قد زوجه ابنته فألغى زواجها وفقاً لرغبة الناصر . وأصدر الناصر أوامره إلى قادة الأسطول وعمال السواحل بتحمي أعماله ومسألة أهل بلاده . ودعا حسداى أمراء الثغر الفرنجي إلى طاعة الناصر ، فأجابه منهم ، إلى جانب شنير ، إنجه صاحب جيرنده ، وبعث إلى قرطبة سفارة يطلب تأمين تجار أراضيه الذين يجوبون ربوع الأندلس ، فأجيب إلى طلبه ، وصدرت الأوامر إلى جميع عمال الجزائر الشرقية والمراسى الساحلية ، بتأمين سائر رعايا إنجه على أنفسهم وأموالهم^(١) .

ولم يحترم ملك ليون عهد السلم طويلاً ، وعادت ببعوثه تعيث في الأراضى الإسلامية . ومن ثم فإن غزوات المسلمين لإسبانيا النصرانية لم تنقطع في الأعوام التالية . ففي سنة ٣٢٩ هـ (٩٤١ م) غزا المسلمون أراضى ليون وعاثوا فيها ؛ وفي سنة ٣٣٥ هـ (٩٤٦ م) عنى الناصر بتجديد مدينة سالم^(٢) وهي أقصى مدن الأندلس الشمالية الغربية على حدود ليون ، وحصنها وشحنها بالرجال والعدد ،

(١) الممتنيس - السفر الخامس - لوحات ١٧٣ - ١٧٥ .

(٢) هي بالإسبانية **Medinaceli** وترجع تسميتها بذلك الاسم إلى أنها كانت منزل بنى سالم ، وهم بطن من بطون قبيلة مصمودة البربرية (راجع جبهة أنساب العرب لابن حزم - القاهرة - ص ٤٦١) .

وكانت قد خربت من جراء غزوات العدو المتكررة . وتوالت غزوات المسلمين لأراضي ليون في الأعوام التالية . وفي أواخر سنة ٣٣٩ هـ (يناير ٩٥٠ م) ، توفي راميرو الثاني ملك ليون ، فثارت الحرب الأهلية بين ولديه أردونيو وسانشو ، وانتهز المسلمون هذه الفرصة فعاثوا في أراضي ليون غير مرة ، وانتهى الأمر بفوز أردونيو وجلسه على العرش . ورأى أردونيو أن يعقد الصلح مع الناصر ، فأرسل إليه سفيراً يخطب وده ، فاستجاب الناصر إلى دعوته ، وعقد معه معاهدة صلح تعهد فيها أردونيو بأن يصلح بعض القلاع الواقعة على الحدود ، وأن يهدم البعض الآخر (سنة ٩٥٥ م) ، ولكن أخاه سانشو رفض هذه المعاهدة وحال دون تنفيذها . فاضطر الناصر إلى استئناف الحرب ، وسير قائده أحمد ابن يعلى في جيش إلى ليون ، فهزم النصارى وعقد الصلح بين الفريقين مرة أخرى ، واستقرت بينهما علائق السلم مدى حين .

* * *

ونعود الآن قليلاً إلى الوراء لنستعرض بعض الحوادث الداخلية ، ومنها بالأخص ما حدث من محن المحل والمجاعة بالأندلس . ففي سنة ٣١٧ هـ (٩٢٩ م) ، وقع المحل بالأندلس واحتبس الغيث ، واضمحلت الزروع ، وعزت الأقوات ، وغلت الأسعار على نحو ما حدث في سنة ٣٠٣ هـ ، فأمر الناصر خطيب المسجد الجامع بالحضرة ، بالاستسقاء ، فبدأ بذلك في خطبة الجمعة التالية ، ثم برز بالناس إلى مصلى الربض يوم الإثنين الثامن من شهر صفر (٢٣ مارس) ، فلم يسقط الغيث ، واستمر المحل والقحط ، وجهدت الناس . وخرجت كتب الناصر إلى جميع العمال على الكور بالأمر بالاستسقاء ، وكان الكتاب إلى جميع العمال بنفس النص على النحو الآتي :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، أما بعد فإن الله عز وجل ، إذا بسط رزقه وأغدق نعمته ، وأجزل بركاته ، أحب أن يشكر عليها ، وإذا رواها وقبضها ، أحب أن يستلها ، ويضرع إليه فيها ، وهو الرزاق ، ذو القوة المتين ، والتواب الرحيم ، الذى يقبل التوبة من عباده ، ويعفو عن السيئات ، ويعلم ما تفعلون ، وهو الذى ينزل الغيث من بعد ما قنطوا ، وينشر رحمته ، وهو الولي الحميد ، فأوجبت به الرغبة ، عز وجهه فيه ، والخشوع لعزته ، والاستكانة له ، والإلحاح في المسئلة

فما احتبس به ، والتوبة من الأعمال المنكرة التي توجب سحقه منه ، وتبذل
نقمته ، وتستروحه رضاه ، تعالى جده . وقد أمرنا الخطيب فيما قبلنا بالاستسقاء
في المسجد الجامع يوم الجمعة ، والجمعة الثانية التي تليه ، إن أبطأت السقيا ،
والبروز يوم الإثنين بعدها لجماعة المسلمين عندنا إلى مصلاتهم ، أو يأتي الله قبل
ذلك بغيثه المعنى عنه ، ورحمته المنتظرة منه ، المرجوة عنده ، فر الخطيب بموضعك
أن يحتمل على مثل ذلك ، ويأخذ به من قبله من المسلمين ، وليحملهم بذلك
المحمل ، ولتكن ضراعتهم إلى الله تعالى ، ضراعة من قد اعترف بذنبه ،
ورجا رحمة الله ، والله غفور رحيم ، وهو المستعان لا شريك له إن شاء الله^(١).

وفي سنة ٣٢٤ هـ ، وقع بالأندلس محل جديد لم يعهد فيها بمثله من قبل ،
فاحتبس المطر ، وجفت الزروع . ومع ذلك فلم يترك هذا المحل وراءه كثيراً
من الآثار المخربة ، ويقول لنا ابن حيان ، إن البركات والخيرات استمرت
ذائعة بين الناس في سائر الجهات . وبذل الناصر لمعونة الناس ما جبر النقص
في المحل . وانهمل الغيث في العام التالي ، وقد نظم الشاعر عبد الله بن يحيى بن
إدريس في ذلك قصيدة في مديح الناصر هذا مطلعها :

نعم الشفيق إلى الرحمن في المطر مستنزل الغيث بالأعذار والنذر^(٢)

وعاد المحل والقحط يعصف بالأندلس في سنة ٣٢٩ هـ (٩٤١ م) ، وتوقف
المطر ، وعم الجفاف ، وشرع قاضي الجماعة ، وصاحب الصلاة محمد بن أبي
عبد الله بن عيسى في إقامة صلاة الاستسقاء في يوم الجمعة الثاني من ربيع الآخر .
ولكن المحل تمادى ، وبرز الناس إلى مصلى الربض مراراً وتكراراً . وفي الثاني
عشر من جمادى الأولى (أول فبراير) ، بدا نوء غليظ وسحاب كثيف ونزل
الثلج طوال اليوم وغطى الأرض ، ثم نزل المطر والثلج ، وانقطع دون أن يروى
الأرض . فعاد القاضي إلى الاستسقاء حتى استجاب الله لعباده بعد أيام قلائل ،
وبدأ الناس في الزرع ، وتوالى نزول الغيث ، وامستقى الناس سقيا وافياً ،
ورويت الأراضي والمزارع ، وهبطت الأسعار وعاد الرخاء^(٣) .

(١) ابن حيان في السفر الخامس - لوحة ١٠٢ أ و ب .

(٢) ابن حيان - السفر الخامس - لوحة ١٥٠ أ .

(٣) ابن حيان السفر الخامس - لوحة ١٨١ .

هذا ، ومما ذكره لنا ابن حيان من الحوادث الداخلية في سنة ٣٢٤ هـ (٩٣٦ م) ، وقوع الحريق العظيم بمدينة قرطبة . ففي أوائل شهر شعبان من هذه السنة ، شبت النار بسوق قرطبة ، فأحرقت جميع مجالس الحصاد ، واتصل الحريق بحى الصرافين ، وما جاور مسجد أبي هرون ، فأحرق وتداعى المسجد . ثم اتصلت النار بسوق العطارين ، وما جاوره من الأسواق والأحياء ، واتسع نطاقها بصورة مرعبة . وكان حريقاً شديداً مروع الآثار . وقد أمر الناصر بعد انتهائه ، وانجلاء آثاره ، أن يعاد بناء مسجد أبي هرون ، فأعيد على أحسن حال . وأمر الناصر كذلك بإعادة بناء ما تهدم من الدور والصروح العامة^(١).

- ٣ -

لم ينس عبد الرحمن خلال توفره على محاربة الثوار والنصارى داخل شبه الجزيرة ، أن يعنى بمقاومة الدعوة الفاطمية التي اجتاحت شمالي إفريقيا ، وامتدت بسرعة إلى علوة المغرب وإلى سبتة ، وأخذت تهدد شواطئ الأندلس . وكانت الدعوة الفاطمية تنطوى بالنسبة للأندلس على خطر مزدوج ديني وسياسي معاً . وكانت في قوتها وعنفوانها تهدد طرفي إفريقيا أعني مصر والمغرب . فنذ عبيد الله المهدي أول الخلفاء الفاطميين ، تردد جيوش الخلافة الفتية من قواعدها في تونس نحو مصر والمغرب ، غازية . وكان اجتياحها السريع للمغرب يثير بحق جزع حكومة قرطبة ؛ ولا غرو فقد كانت عدوة المغرب تعتبر دائماً ، قاعدة لغزو الأندلس وخط دفاعها الأول . وكان ثوار الأندلس يتجهون بأبصارهم إلى العدو ، ويفاضون الفاطميين ، ويأتمرون معهم على حكومة الأندلس ، فكان على عبد الرحمن أن يقالب هذا الخطر الجديد قبل استفحاله . ففي سنة ٣١٩ هـ (٩٣١ م) سير عبد الرحمن إلى ثغر سبتة أسطولاً قوياً يتكون من مائة وعشرين سفينة ، ما بين حربية وناقلة ، وسبعة آلاف رجل منهم خمسة آلاف من البحارة وألف من الحشم ، وانضم إليه عدة من وجوه ألمرية وبجاجة تطوعوا في مراكبهم ، وكان تحت قيادة أمرى البحر أحمد بن محمد بن إلياس وسعيد بن يونس بن سعديل . فخرج هذا الأسطول من الجزيرة آخر جمادى الأولى من هذه السنة ، واستولى على سبتة من يد ولاتها البربر بنى عصام حلفاء الفاطميين ، وطلب الناصر إلى صاحب طنجة

(١) ابن حيان السفر الخامس - لوحة ١٥٠ أ .

أبى العيش الحسنى أن ينزل له عنها لتكمل له بذلك السيطرة على رأس العدو ، فأبى ، فحاصره الأسطول وضيق عليه حتى أذعن ، وأجاب الناصر إلى ما طلب ، وانتقل مع إخوته وبنى عمه من الأدارسة إلى مدينة البصرة وثرغ أصيلا تحت طاعة الناصر (١) .

وبادر زعماء البربر من الأدارسة وزنانة إلى طاعة الناصر ومهادنته ، وامتدت دعوته إلى فاس . وبعث إليه موسى بن أبى العافية أمير مكناسة يطلب محالفته والدخول فى طاعته ، فأجابه عبد الرحمن إلى رغبته ، وأمده بالأموال والهدايا ، وقوى أمره فى المغرب . وفى سنة ٣٢١ هـ (٩٣٣ م) استطاع موسى أن يهزم جيشاً أرسله عبيد الله الفاطمى لغزو المغرب ، والقضاء على دعوة الناصر ، بقيادة قائده ابن يصل عامل تاهرت . ثم توفى عبيد الله فى العام التالى . وفى سنة ٣٢٣ هـ سير ولده الخليفة القائم إلى المغرب حملة أخرى ، بقيادة ميسور الصقلبى ، فضيق على موسى وطارده حتى الصحراء ، واستولى الأدارسة حلفاء الفاطميين على مملكته .

وبعث الناصر لإنجاده إلى شواطئ العدو أسطولا قوامه أربعون سفينة بقيادة أمير البحر عبد الملك بن أبى حماسة ، سار إلى سبتة ، ثم تقدم إلى مليلة فافتتحها ، ثم افتتح نكور وجراوة ، فقويت نفس موسى ، واستقل نوعاً من عثرته ، وانسحب الفاطميون إلى الداخل ، وقضى الأسطول فى غزواته هذه ستة أشهر ، ثم عاد إلى قواعده فى المرية .

وجازت جيوش عبد الرحمن وأساطيله بعد ذلك مراراً إلى المغرب ، لمحاربة الفاطميين وحلفائهم من الأدارسة وغيرهم من أمراء البربر ، واضطر الأدارسة فى النهاية إلى طلب الصلح من عبد الرحمن والاعتراف بطاعته (٣٣٢ هـ) ، ودعى لعبد الرحمن على منابر المغرب ، واستقرت دعوته هناك مدى حين ، ولكن سلطانه فيما وراء البحر لم يكن ثابت الدعائم ، وكان رهيناً بقيام دولة الأمراء المخالفين له .

ولما تولى المعز لدين الله رابع الخلفاء الفاطميين الملك ، وبدأت الدولة الفاطمية فى أوج قوتها فى إفريقيا ، وأخذت أساطيلها القوية تزعج الدولة البيزنطية ، بغزو

(١) ابن حيان - السفر الخامس - لوحة ١٢٥ أ و ب ، والاستقصاء ج ١ ص ٨٥ .

شواطئ قلورية^(١) في جنوبي إيطاليا ، كان خطر غزو الفاطميين للأندلس يلوح قوياً في الأفق . والظاهر أن هذه الفكرة لم تكن بعيدة عن ذهن المعز ، بل يبدو فوق ذلك أن حكومة قرطبة وقفت على بعض وثائق تؤيد هذه النية . وفي سنة ٣٤٤ هـ (٩٥٥ م) سارت بعض السفن الفاطمية وهاجمت ثغر المرية ، وأحرقت ما فيه من السفن ، وعاشت في المرية . فرد عبد الرحمن بأن أرسل قوة بحرية بقيادة أمير البحر غالب ، إلى شواطئ إفريقية (تونس) ، فعاشت فيها ، وأمر عبد الرحمن في الوقت نفسه بلعن الشيعة والفاطميين على منابر الأندلس . ثم عاد بعد ذلك بثلاثة أعوام ، فسير أسطوله ثانية إلى إفريقية بقيادة أحمد بن يعلى ، تهديداً للقوات الفاطمية ، التي زحفت بقيادة جوهر الصقلي حذاء الشاطئ إلى عدوة المغرب ، وكان المعز قد سير قائده جوهرراً في سنة ٣٤٧ هـ ، في جيش عظيم إلى المغرب الأقصى ، ومعه زعيم صنهاجة زيري بن مناد في قواته ، فاجتاح شمالي المغرب كله حتى المحيط ، ونازل فاس واقتحمها عنوة . وكان الناصر يرقب تقدم الفاطميين على هذا النحو في أراضي العدو بجزع ، ويجعل أساطيله على أهبة دائمة . وعبرت في نفس الوقت حملة أندلسية أخرى من طريق سبتة إلى المغرب ، ولبثت هنالك حتى ارتد الفاطميون أدار جهم^(٢) .

ويقدم إلينا ابن حيان بقلمه البليغ تلك الصورة عن تقدير الناصر لأهمية عدوة المغرب في الدفاع عن الأندلس ، ومقاومة الدعوة الفاطمية :

« لم تزل نفس الخليفة الناصر لدين الله ، منذ استولى على أمر الملك ، وابعن النصر ، وسلط على أهل الخلاف ، دروباً على ما سخر له من ذلك ، ظموا إلى درك اقصاره ، متخطياً موسطته إلى نهايته ، معملاً فيه رويته ، موقظاً له فكرته ، تأمل هذا الفرج في ساحل البحر الرومي . . . مجاورة جبل البرابر الحالتين بلاد المغرب للملكهم لعدوتهم الراكبة لعدوة بلد الأندلس ، تكاد عدوتهما تتراعى لضيق بحر الزقاق الحاجز بينهما ، وسهولة مرامه أى أوقات الزمان رؤى

(١) وهى بإفريقية Calabria .

(٢) ابن خلدون ج ٤ ص ١٣٨ و ١٤١ ؛ وابن الأثير ج ٨ ص ١١٩ ؛ ونفح الطيب ج ١ ص ١٦٩ ؛ والبيان المغرب ج ٢ ص ٢١٩ و ٢٢٠ و ٢٢٥ و ٢٣٧ ، ٢٣٨ ؛ وراجع

ركوبه . فنه طرقت الأندلس في الزمان الخالية ، واكتسب أهلها المخافة ، فدعته
همته العلية ، وفكرته المصيبة ، إلى التوقل إلى تلك الباغية المرهوبة ، والسمو لتلك
العورة المكشوفة ، وذلك عند ما كشف عند يكتف ذلك الساحل الغربي من
طنجة الفتنة ، وضع ما كان أوهته من صدع الفرقة ، وملك مفتاح الجزيرة
الخضراء فرضة الأندلس الدنيا ، الراكبة فتح ذلك البحر المرهوب ، المحاضبة
لضرتها مدينة سبته فرضة الحجاز من بلد العدوة . فأذكى نظر عينه ما كان منبئاً
بخطره من الرهبة ، فأرهب العزم ، وألطف الحيلة ، وابتدئ ففتح ذلك بمخاضة
من تقدمت له بأسلافه ملوك بني أمية من أمراء تلك البلاد وصلة أو سلفت بينهم
أصرة ، يستير وصايلهم ، ويصل أحبلهم ، ويستدعي ولايتهم ، ويسبب ذلك
ما شاء مهاداتهم ، واكرام أسبابهم ، وقضاء حوائجهم ، فلم يلبث أن هويت
إليه أفئدة كثير منهم ، وزعمائهم بين مصحح في ولايته ، مستجيب لدعوته ،
مغتم لعطيته . مستعين بقوته على مدافعة من قد هد ركنه من بني عبيد الله إمام
الشيعة المقتحم أرضه عليه ودونه ، وبين منافق مقيم لسوقه بينه وبين تلك الشيعة ،
منذ بدت بينها العداوة ، مايل مع الدولة ، مجتلب لعاجل ما استمسك به من
الرشوة .

« استوى للناصر لدين الله من الطائفتين أولياء قاموا بدعوته ، ورفعوا فوق
أعلامه ، وعاطوا مضطهدا ، عبيد الله الشيعي صاحب إفريقية بدعوته ، وقلبوا
مجانهم إليه ، ونصبوا الحرب لرجاله ، فكفكفوه عن الإيغال في بلدتهم من قاصية
المغرب ، يهطونهم بالكيد والمكر ، فتمكنت بذلك قدم الناصر لدين الله ،
فيما حازه من مدينة سبته والقطعة التي استضمها إليها من أرض العدوة ، واجتذب
من أجله كثيراً من فرسان البربر وحماة رجالهم إلى حضرته ، استعان بهم في
حروبه ، وتمكن من ذلك من ارتياد عتاق الخيل بوادي البربر ، واستنتاجهم
الفاضل لبراذين الأندلس ، فتنت بذلك أسباب ملكه ، وجل مقداره ،
وبعد صيته ، وهابته ملوك الأمم حوله ، وظهرت نتيجة ما عاتاه من مواصلة
أمراء البربر ، وسعى لهم سعيه لصدر دولته الفاضلة ، سنة سبع عشرة وثلث مايه
وما يليها ، إذ ترددت فيها عليه كتب محمد بن خزر عظيم أمراء زنانة في وقته ،
وأفقرهم عن عبيد الله الشيعي ، وأدناهم من داره ، وأول من تناوله الناصر

لمدين الله من جماعتهم بمكاتبتهم ، واجتذبه بوصلته (١) .

- ٤ -

هذا وربما كان قيام الخلافة الفاطمية في الضفة الأخرى من البحر ، وانسياب دعوتها إلى المغرب الأقصى ، على مقربة من شواطئ الأندلس ، في مقدمة البواعث التي حدثت بعبد الرحمن إلى العمل على إحياء تراث الخلافة الأموية الروحي ، بعد أن توطدت دعائم دولتها السياسية بالأندلس ، وكان مؤسسها عبدالرحمن الداخل قد أمر بمنع الدعاء لبني العباس ، ولكنه لم يتخذ سمة الخلافة واكتفى بلقب الإمارة . وسار بنوه على أثره . وبالرغم من أن الدولة الأموية قد استطاعت غير مرة ، أن تستعيد مجدها السالف ، في عهد الحكم بن هشام وولده عبدالرحمن الأوسط ، فإن أمراء بني أمية لم يفكروا في الإقدام على منافسة بني العباس في ألقاب الخلافة . وقيل في تعليل ذلك إنهم كانوا يرون الخلافة تراثاً لآل البيت ، ويدركون قصورهم عن ذلك « بالقصور عن ملك الجحاز أصل العرب والملة ، والبعد عن دار الخلافة التي هي مركز العصيبة » وأنهم بعبارة أخرى كانوا يرون أن الخلافة تكون لمن يملك الحرمين (٢) . بيد أننا نعتقد أن هذا الإحجام يرجع بالأخص إلى بواعث الحكمة والسياسة ، والتحوط من إثارة الفتنة والخلافات الدينية والمذهبية . فلما ظهرت الدعوة الفاطمية في إفريقية ، ونمت بسرعة في أوائل القرن الرابع الهجري ، ولما تواترت الأنباء من جهة أخرى ، عما انتهت إليه الدولة العباسية في المشرق من الإضطراب والفوضى ، وما حدث من استبداد موالى الترك بالأمر وحجرهم على الخلفاء ، رأى عبد الرحمن أن يتسم بسمة الخلافة ، وأن يسترد بذلك تراث أسرته الروحي ، وأنه بما وفق إليه من النهوض بالدولة الإسلامية وتوطيد أركانها ، أحق بألقاب الخلافة من دولة منحلّة وأخرى طارئة . ونفذ الأمر بذلك في يوم الجمعة مستهل ذي الحجة سنة ٣١٦ هـ ، حيث قام صاحب الصلاة القاضي أحمد بن أحمد بن بقر بن مخلد بالدعاء له بالخلافة ، على منبر المسجد الجامع بقرطبة (٣) . وإليك نص الوثيقة الرسمية التي صدرت بذلك وهو :

(١) ابن حبان في المقتبس - السفر الخامس لوحة ١٠٣ ب و ١٠٤ أ

(٢) ابن خلدون ج ١ (المقدمة) ص ١٩٠ ؛ والمسعودي في مروج الذهب (بولاق)

ج ١ ص ٧٨ ؛ وابن الأبار في الحلة السبراء ص ٩٩ .

(٣) ابن حبان في المقتبس - السفر الخامس - لوحة ٩٩ أ .

« بسم الله الرحمن الرحيم ، وصلى الله على نبيه محمد الكريم . أما بعد فإننا أحق من استوفى حقه ، وأجدر من استكمل حظه ، ولبس من كرامة الله تعالى ما ألبسه ، فنحن للذي فضلنا الله به ، وأظهر أثرنا فيه ، ورفع سلطتنا إليه ، ويسر على أيدينا دركه ، وسهل يدولتنا مرامه ، وللذي أشاد في الآفاق من ذكرنا ، وأعلى في البلاد من أمرنا ، وأعلن من رجاء العالمين بنا ، وأعاد من انحرافهم إلينا ، واستبشارهم بما أظلمهم من دولتنا إنشاء الله ، فالحمد لله ولي الإنعام بما أنعم به ، وأهل الفضل بما تفضل علينا فيه . وقد رأينا أن تكون الدعوة لنا بأمر المؤمنين ، وخروج الكتب عنا وورودها علينا بذلك — إذ كل مدعو بهذا الاسم غيرنا ، منتحل له ، ودخيل فيه ، ومتسم بما لا يستحقه منه ، وعلمنا التمدادى على ترك الواجب لنا من ذلك حق أضعناه ، واسم ثابت أسقطناه ، فمر الخطيب بموضعك ، أن يقول به ، وأجر مخاطبتك لنا عليه إن شاء الله . والله المستعان . وكتب يوم الخميس لليلتين خلتا من ذى الحجة سنة ٣١٦هـ » (١) .

وهكذا اتخذ عبد الرحمن سمة الخلافة عن يقين بأفضليته ، وأولوية حقه وحق أسرته ، وتسمى بأمر المؤمنين الناصر لدين الله ، وذلك في الثاني من شهر ذى الحجة سنة ٣١٦ هـ (يناير سنة ٩٢٩ م) فكان أول أمير من بني أمية بالأندلس ينعت بأمر المؤمنين . وبدأت الدعوة من ذلك الحين لبني أمية بألقاب الخلافة في الأندلس والمغرب الأقصى ، ونقشت ألقاب الخلافة على السكة ، ويضع بعض المؤرخين اتخاذ لقب الناصر لسمة الخلافة في سنة (٣٢٧ هـ) أى بعد وقوعه بنحو عشرة أعوام ، وهو تحريف واضح تنقضه وثيقة الدعوة الرسمية (٢) .

— ٥ —

وكان من أبرز الحوادث الداخلية في عصر الناصر ، حركة الفيلسوف المتصوف ابن مسرّة الجبلي ، واهتمام الناصر بمقاومتها وقمعها ، وذلك حتى بعد أن توفى زعيمها بأعوام طويلة ، وإصدار كتابه الشهير في شأنها .

(١) يضع ابن حبان اتخاذ الناصر لسمة الخلافة في حوادث سنة ٣١٦ هـ والدعاء له بها ، حسبما تقدم في مسهل ذى الحجة من هذه ، السنة ويلخص في كلامه نص الوثيقة (السفر الخامس - لوحة ٩٩ أ) . وقد اعتمدنا في نقل الوثيقة الخلافية على ما ورد في الأوراق المخطوطة الخاصة بعهد

الناصر ، ص ٧٨ و ٧٩ ، والبيان المغرب ج ٢ ص ٢١٢ .

(٢) هذه رواية ابن الأثير (ج ٨ ص ١٧٨) وكذلك ابن خلدون (ج ٤ ص ١٣٧) .

والظاهر أن أصحاب هذه الرواية لم يطلعوا على وثيقة الدعوة التي أثبتنا نصها .

وهو أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن مسرّة من أهل قرطبة ، وبها ولد سنة ٢٦٩ هـ (٨٨٢ م) ، ودرس على أبيه وعلى ابن وضاح والحشني وغيرهم ، ولكنه جاهر ببعض الآراء الدينية المغرقة في التأويل والقدر وإنفاذ الوعيد وغيرها ، فاتهم بالزندقة ، فغادر الأندلس فآراً إلى المشرق ، وأنفق هنالك بضعة أعوام ، وتفقّه على يد المعتزلة والكلاميين وأهل الجدل . ثم عاد إلى الأندلس ، وهو يخفي آراءه ونحلته الحقيقية تحت ستار من النسك والورع ، وكان ذلك في بداية عهد الناصر ، فاختلف إليه الطلاب من كل صوب ، وكان يستهويهم بغزير علمه ، وسحر بيانه ، ومنطقه الخلاب ، حتى التف حوله جمهرة كبيرة من الصحب والأتباع ، أضحت تكون مدرسة خاصة من الآراء الدينية والكلامية المتطرفة . واختلف الناس في أمر ابن مسرّة ، ففهم من كان يرتفع به إلى مرتبة الإمامة في العلم والزهد والورع ، ومنهم من كان يرميه بالزندقة وترويج البدع ، والانحراف عن مبادئ الدين الصحيحة . وتوفى ابن مسرّة بقرطبة في شوال سنة ٣١٩ هـ (٩٣١ م)^(١) . ولكن آراءه وتعاليمه بقيت من بعده ذائعة بين تلاميذه وأتباعه ، وتكونت من حولها فرقة سرية ، أهتمت بالمروق والإلحاد ، تتابع دعائيه ، وتعمل على بث تعاليمه ، حتى برم بهم المتزمتون من أهل السنة ، وأخذوا يسعون لدى السلطات المختصة ، لتعمل على قمع هذه الجماعة ، والقضاء على تعاليمها .

وإليك كيف يصور لنا ابن حيان بقلمه البارع خطة ابن مسرّة في بث تعاليمه ، واستهواء أتباعه . قال :

« كان مذهب الظنين ، المرتب المرأى بالعبادة ، المنظوى على دخل السريرة ، محمد بن عبد الله بن مسرّة ، الرابض للفتنة ، دب في الناس صدر دولة الخليفة الناصر لدين الله ، واستهواهم بفضل ما أظهره من الزهد ، وأبدى من الورع . » وكان يستهوى العقول ، ويصور الأفتدة . وكان من شأنه أن يلقي أول من يأتيه ، مقتبساً من أهل السلامة ، بالمساهلة ، إلى أن يحيله عن رأيه بالمفاضلة ، فإذا أصغى إلى عنوبة منطقته ، وعلق في شرك حجاجه ، غره رقفاً بباطله من

(١) ابن الفرضي في « تاريخ العلماء والرواة بالأندلس » (القاهرة) ج ٢ رقم ١٢٠٤ . وكذلك الحميدى في « جذوة المقتبس » (القاهرة) ص ٥٨ و ٥٩ . والتكلمة لابن الأبار (القاهرة) رقم ٧٦٥ و ٩٩١ .

الطائر فرخه ، فلا يعد أن يلفته عن رأيه ، ويشككه في اعتقاده ويحصله في أتباعه ، فاستهوى خلقاً من الناس ، صدّهم عن سبيل الله ، وأوحشهم من الجماعة ، واتخذ من رأى غيهم في مذهبه وائمة دخل في عرضهم رجال من ذوى الفهم . ولم يزل يستظهر عليهم بالمواثيق في الكتمان إلا من الثقات الوثاق العقدة ، فاکتم بذلك شأنه ، إلى أن عاقصته منيته ، صدر دولة الناصر لدين الله ، أيام شغله بحروب أهل الخلاف المتصلة . فرفع الله بموته عن الناس فتنة ، ولم يلبث دعواته مع انتشارهم في البلاد أن تلبسوا بعده بما أودعه من مكنون علمه ، فكثرت القول في شأنه ، وشيم أهل الخلاف من تلقاياه ، فدعوله أهل السنة من أهل قرطبة ، وتوقعوا منه البلية ، ففزع فقهاؤهم وكبرائهم بها إلى أصحاب الخليفة الناصر لدين الله فنبهوا . . . » (١) .

ومضت أعوام طويلة ، قبل أن تصل أصوات أهل السنة المعارضين لتعاليم ابن مسرة إلى المسئولين ، ولم يصدر قرار السلطة العليا في شأنه وشأن تعاليمه ، إلا بعد أن مضى أكثر من عشرين عاماً على وفاته ، مما يدل على أن دعوته وتعاليمه لبثت حية ذائعة . قال ابن حيان :

« وفي يوم الجمعة لتسع خلون من ذى الحجة سنة أربعين وثلاث مائة ، قرئ على الناس بالمسجدين الجامعين بالحضرتين ، قرطبة والزهراء ، كتاب أمير المؤمنين الناصر لدين الله إلى الوزير صاحب المدينة عبد الله بن بدر ، بإنكاره لما ابتدعه المبتدعون ، وشذ فيه الخارجون ، من رأى الجماعة المنتمون إلى صحبة محمد بن عبد الله بن مسرة ، وانتحلوه في الديانة ، فافتتن العوام بما أظهره من التقشف والشظف في المعيشة ، واستتروا لبدعهم بسكنى الأطراف البعيدة ، حتى استمالوا بفعلتهم عصابة . . . وفرقة ، فتنت بمذاهبهم ، وأن ذلك بلغ أمير المؤمنين ، ففحص عليه ، وعلم صحته ، فتعاضمه ، واستوحش من اجترأ تلك الطائفة الخبيثة عليه ، فأوعز إلى وزيره ومتولى أحكامه ومدينته ، تتبع هذه الطائفة ، وإخافتها والبسط عليها ، والقبض على من عثر عليه منها ، وإنهاء خبره إلى أمير المؤمنين » .

وأورد لنا ابن حيان بعد ذلك ، نص الكتاب الذى صدر باسم الخليفة

(١) مخطوط ابن حيان (السفر الخامس من المقتبس) المحفوظ بالخرزانة الملكية . وقد حالت خروم المخطوط دون ظهور بعض الكلمات .

فناصر لدين الله ، في الحملة على تلك الطائفة ، والتبرؤ منها ، وهو من إنشاء كاتبه ووزيره عبد الرحمن بن عبد الله الزجالي .

ويبدأ الكتاب بالتنويه بشأن الإسلام ، وأفضليته على سائر الأديان ، ورسالة محمد خاتم النبيين ، الذي اصطفاه الله ، وأرسله إلى الناس ، وكرم به أمته على سائر الأمم ، وما نبه به الإسلام من إقامة الدين ، وعدم افتراق الكلمة . وانه لما شملت النعمة ، وعم الأقطار بعدل أمير المؤمنين السكون والدعة ، طلعت فرقة لا تبتغي خيراً ، ولا تأتمر رشداً ، من طغام السواد ، « وأبدت كتباً لم يعرفوها ، ضلّت فيها حلومهم ، وقصرت عنها عقولهم » واستولى عليهم الشيطان بخيله ورجله ، فقالوا بخلق القرآن ، واستئسوا ، وآيسوا من روح الله ، وأكثروا الجدل في آيات الله ، وحرّموا التأويل في حديث رسول الله ، فبريت منهم الذمة ، ووعدهم الله ببالغ نكاله ، لما انطوت عليه قلوبهم من الزيف ، ولما كذبوا من التوبة ، وأبطلوا من الشفاعة ، ونالوا محكم التنزيل ، والقدح في الحديث ، والقول بمكروه في السلف الصالح ، فشدوا عن مذهب الجماعة ، حتى تركوا رد السلام على المسلمين ، وهى التحية التى نسخت تحية الجاهلين ، وقالوا بالاعتزال عن العامة . ولما فشى غيهم ، وشاع جهلهم ، واتصل بأمر المؤمنين ، من قدحهم في الديانة ، وخروجهم عن الحادة ، أغلظ في الأخذ فوق أيديهم ، وأنذرهم إنذاراً فظيماً ، واعتزم أن يوقع بهم العقاب الشديد ، وأمر بقراءة كتابه هذا على المنبر الأعظم بحضرة قرطبة ، ليفزع قلب الجاهل ، ويضطر الغواة إلى الآثار الصحيحة التى يتقبلها الله منهم ، وأن يقرأ هذا الكتاب فى سائر الأقطار والكور ، وفى البدو والحضر ، وأن ينفذ عهده بذلك إلى سائر قواده ، وجميع عماله . لكى يقوموا بمطاردة هذه « الطغمة الخبيثة ، التى اجترأت على تبديل السنة ، والاعتداء على القرآن العظيم ، وأحاديث الرسول الأمين » . ويختتم الكتاب بمطالبة العمال ببث العيون ، وتتبع أولئك المارقين ، وإخطار أمير المؤمنين بأسمائهم ومواقعهم ، وأسماء الشهود عليهم ، حتى يحملوا إلى باب سدته ، وينكلوا بحضرتة (١) .

(١) ورد نص هذا الكتاب فى الاورحات ١٧ و ١٨ و ١٩ من مخطوط المقتبس السالف الذكر . وسوف ننشر نص الكتاب كاملاً فى نهاية الكتاب .

قال ابن حيان : « وتمادى الطلب لهذه الفرقة المسرّية ، والإخافة لهم ، وتخويف الناس من فتنهم بقية أيام الناصر لدين الله » .
وهنا ولأول مرة نجد شرحاً وافياً ، بقلم ابن حيان القوي الناقد ، لتلك الحركة الدينية الخطيرة ، حركة ابن مسرّة وتلاميذه ، وهي التي استحوّلت أيام الناصر لدين الله إلى جمعية سرية واسعة الانتشار . فهل كانت حقاً ، كما يصورها ابن حيان ، وكما تصورها لنا الوثيقة الخلافية ، التي ينقلها إلينا ، جمعية مارقة ملحدة ، تهدد العقائد والنظام والأمن ؟ أم هل كانت حركة تفكير فلسفي حر ، لم يتسع لها أفق التفكير المعاصر ، وكانت كمعظم الحركات الماثلة ضحية لنقمة المتزمتين الرجعيين من الفقهاء والحكام ، يدافعون بسحقها عن نفوذهم وسلطانهم المطلق ؟ .

الفضل الثاني

خلال الناصر وما أثره

عصر الناصر أعظم عصور الإسلام بالأندلس . منشآت الناصر . مشروع بناء الزهراء . البدء في إنشائها . قصر الزهراء وفخامته وروعه . منشآت الزهراء الأخرى . بعض أوصاف وأرقام عن الزهراء . نهاية الزهراء كقاعدة ملوكية . تخريبها أيام الثورة . بعض ما قيل في رثائها . أطلال الزهراء واختفاؤها . جهود العلماء الإسبان للكشف عن مواقعها . وصف لما ظهر من آثارها ومعالمها . منشآت الناصر بالمسجد الجامع . تنظيم الناصر للجيش والأسطول . الأحوال المالية في عهد الناصر . غنى الدولة الأموية وبنائها . إنشاء دار السكة بقرطبة . قرطبة وعظمتها . اصطفاؤه الدولة الأموية للموالى والصقالبة . حرص الناصر على السلطان المطلق . الصقالبة ونفوذهم . أثر هذا الاصطفاء . قرطبة مركز الجاذبية الدبلوماسية . تقدم الصلات للدبلوماسية بين الإسلام والنصرانية . سفارة قيصر قسطنطينية إلى الناصر . حفل استقبال السفراء وروعه . هدايا قيصر إلى الناصر . خطاب القاضي منذر بن سعيد . سفارات ملوك النصرانية . سفارة إمبراطور ألمانيا . سفارة الناصر إلى الإمبراطور . موضوع المفاوضات بين العاهلين . رأى الناصر في نظام الحكم . سفارات نصرانية أخرى إلى الناصر . مرض الناصر ووفاته . خلاله وصفاته . حجابيه ووزراؤه وقواده . الوزراء وأصحاب الخلط . تنويه الشعر بعظمة عصره . صفة الناصر . أبنائه . إشادة النقد الحديث بمناقبه .

نتقل الآن إلى ناحية أخرى من نواحي عصر الناصر .

كان عصر عبد الرحمن الناصر بالرغم مما شغله من فتن وحروب مستمرة ، عصر عظمة ورياء ومجد ، بل كان في الواقع أعظم عصور الإسلام بالأندلس ، ولاسيما من نواحيه المعنوية والحضارية . وإذا كانت الأندلس قد بلغت فيما بعد في عصر المنصور بن أبي عامر ، ذروة تفوقها السياسي والحربي في شبه الجزيرة الإسبانية ، فإن الدولة الأموية بالأندلس بلغت في عهد الناصر ذروة القوة والبهاء ، وكان هذا العهد حد الفصل بين مراحل تقدمها وازدهارها ، ومرحلة انحلالها وسقوطها .

ولم تخل مهام الحرب والسياسة دون قيام الناصر بأعمال الإنشاء العظيمة ، وكان في مقدمتها إنشاء مدينة الزهراء أعظم قواعد الأندلس الملوكية . وكانت قرطبة عاصمة الأندلس قد بلغت يومئذ أوج العظمة والازدهار ، وأضحت تفوق بغداد منافستها في المشرق بهاء وفخامه . وكان الناصر قد ابتنى إلى جانب القصر الزاهر

وهو مقام الملك ، قصرآ جديداً سماه دار الروضة ، جلب إليه الماء من فوق الجبل ، واستدعى المهندسين والبنائين من كل فج ، وأنشأ في ظاهر قرطبة متزهات عظيمة ساق إليها الماء من أعلى الجبل فوق قناطر بديعة . ومع ذلك فقد كانت قرطبة بمعاهدها ودورها وطرقها الزاخرة ، وسكانها الخمسمائة ألف ، تضيق بما يتطلبه ملك عظيم كملك الناصر ، من امتكالم الفخامة الملوكية ، والقصور والميادين والرياض للشاسعة ، بل كانت تضيق بهذه المرافق الملوكية منذ عهد عبد الرحمن الداخل ، حيث أنشأ الرصافة في ظاهرها لتكون له منزلاً ومنزهاً ملكياً . وقد كان بناء القواعد الملوكية دائماً سنة العروش للقوية الممتازة . فلما بلغ الناصر لدين الله ما أراد من توطيد ملكه ، وصحى أعدائه في الداخل والخارج ، عنى بأن يعرض آيات من ملكه الباذخ ، وثاب له رأى في أن يقيم بجوار قرطبة ضاحية ملوكية عظيمة ، فأنشأ مدينة الزهراء . ولإنشاء للزهراء قصة ، وربما كانت أسطورة على مثل الأساطير التي تربط بقيام المدن والمنشآت العظيمة . ولم تقل لنا الرواية إن الناصر رأى حلماً كالذي رآه قسطنطين ، وأوحى إليه بإنشاء قسطنطينية ، ولكنها تقول لنا إن الذي أوحى إلى الناصر ببناء هذه الضاحية الملوكية هي جاريته وحظيته «الزهراء» وأنه ورث من إحدى جواريه مالا كثيراً ، فأمر أن يخصص لافتداء الأسرى المسلمين ، ولكنه لم يجد من الأسرى من يفتدى ، فأوحت إليه «الزهراء» بأن ينشئ بهذا المال ، مدينة تسمى باسمها وتخصص لسكانها^(١) . بيد إنا نفضل أن نرجع مشروع الناصر إلى بواعث الملك والسياسة ، وإلى عرض فخامة الملك ، والترفع بمظاهرة وخصائصه ، عن المظاهر العامة ، لعاصمة مكتظة زاخرة .

والظاهر أيضاً أن شغفاً خاصاً بالعمارة والبناء ، كان يحفز الناصر ويذكره رغبته في إقامة هذه الضاحية الملوكية ، وقد كانت المنشآت والهياكل العظيمة على كثر العصور مظهر الملك الباذخ ، والسلطان المؤتلف ، وقد نسبت إلى الناصر في ذلك أبيات قالها في هذا المعنى :

من بعدهم فبالسن البنيان	هم الملوك إذا أرادوا ذكرها
مُلْكٌ محاه حوادث الأزمان	أو ما ترى الهرمين قد بقيا وكم
أضحى يدل على عظيم الشأن	إن البناء إذا تعاضم شأنه

(١) نفع الطيب ج ١ ص ٢٤٥ .

وهكذا اختطت الزهراء في ساحة تقع شمال غربي قرطبة ، على قيد خمسة أميال أو ستة منها ، في سفح جبل يسمى جبل العروس^(١) . وكان البدء في بنائها في فاتحة المحرم سنة خمس وعشرين وثلثمائة (نوفبر سنة ٩٣٦ م) . وعهد الناصر إلى ولده وولى عهده الحكم ، بالإشراف على بناء العاصمة الجديدة^(٢) ، وحشد لها أمهر المهندسين والصناع والفنانين من سائر الأنحاء ، ولا سيما من بغداد وقسطنطينية^(٣) . وجلب إليها أصناف الرخام الأبيض والأخضر والوردي من ألمرية وريته ، ومن قرطاجنة لإفريقية وتونس ، ومن الشام وقسطنطينية ، وجلب إليها من سوازي الرخام أربعة آلاف وثلثمائة أربعة وعشرين سارية^(٤) . وكان يشتغل في بنائها كل يوم من العمال والفعلة عشرة آلاف رجل ، ومن الدواب ألف وخمسمائة ، ويعد لها من الصخر المنحوت نحو ست آلاف صخرة في اليوم ؛ وقدرت النفقة على بنائها بثلثمائة ألف دينار كل عام طوال عهد الناصر ، أعنى مدى خمسة وعشرين عاماً ، هذا عدا ما أنفق عليها في عهد ولده الحكم^(٥) . وابنتي الناصر في حاضرته الحديدية قصر آ منيف الدرى ، لم يدخر وسعاً في تنميته وزخرفته ، حتى غدا تحفة رائعة من الفخامة والحلال ، تحف به رياض وجنان ساحرة ، وأنشأ فيه مجلساً ملكياً جليلاً سمي بقصر الخلافة ، صنعت جدرانه من الرخام المزين بالذهب ، وفي كل جانب من جوانبه ثمانية أبواب ، قد انعقدت على حنايا من العاج والأبنوس المرصع بالذهب والجوهر ، وزينت جوانبه بالتماثيل والصور البديعة ، وفي وسطه صهريج عظيم مملوء بالزئبق ، وكانت الشمس إذا أشرقت على ذلك المجلس سطعت جوانبه بأضواء ساحرة^(٦) . وزود الناصر مقامه في قصر الزهراء ، وهو الجناح الشرقي المعروف بالمونس بأنفس التحف والدخائر ، ونصب فيه الحوض الشهير المنقوش بالذهب ، الذي أهدي إليه من قيصر

(١) مختصر نزهة المشتاق للادريسي (طبع رومة) ص ١٩٣ ؛ والمسالك والممالك لابن حوقل

ص ٧٨ . ويسمى ابن حوقل هذا الجبل بجبل بطلش .

(٢) البيان المغرب ج ١ ص ٢٤٧ ؛ ونفع الطيب ج ١ ص ٢٦٦ .

(٣) ابن خلدون ج ٤ ص ١٤٤ .

(٤) البيان المغرب ج ٢ ص ٢٤٦ ، ونفع الطيب ج ١ ص ٢٤٦ ، وأعمال الأعلام ص ٣٨

(٥) نفع الطيب ج ١ ص ٢٦٥ .

(٦) نفع الطيب ج ١ ص ٢٤٦ و ٢٤٧ .

قسطنطينية ، والذي جلبه من هنالك إلى قرطبة ، ربيع الأسقف . وجلب إليه الوزير أحمد بن حزم من الشام حوضاً ثانياً رائعاً ، يقوم عليه اثنا عشر تمثالا من الذهب الأحمر المرصع بالجواهر ، وهي تمثل بعض الطيور والحيوانات وتقذف الماء من أفواهها إلى الحوض^(١) . وقد دون هذه الروايات والأوصاف العجيبة ، التي تشبه أوصاف قصور ألف ليلة وليلة المسحورة ، عن قصر الزهراء ، أكثر من مؤرخ معاصر وشاهد عيان ، وأجمعت الروايات على أنه لم يكن في أم الإسلام مثله في الروعة والإناقة والبهاء^(٢) .

وأنشأ الناصر في الزهراء أيضاً مسجداً عظيماً ، تم بناؤه في ثمانية وأربعين يوماً . وكان يعمل فيه كل يوم ألف من العمال والصناع والفنانين ، وزوده بعمد وقباب فخمة ، ومنبر رائع الصنع والزخرف ، فجاء آية في الفخامة والجمال^(٣) . وأنشئت بها مجالات فسيحة للوحوش متباعدة الساح ، ومسارح للطير مظلة بالشباك ، ودار عظيمة لصنع السلاح ، وأخرى لصنع الزخارف والحلي^(٤) . والخلاصة أن الناصر أراد أن يجعل من الزهراء قاعدة ملوكية حقة ، تجمع بين فخامة الملك الباذخ ، وصوله السلطان المؤثر ، وعناصر الإدارة القوية المدنية والعسكرية .

واستمر العمل في منشآت الزهراء طوال عهد الناصر ، أعنى حتى وفاته في سنة خمسين وثلثمائة ، واستمر معظم عهد ابنه الحكم المستنصر ، واستغرق بذلك من عهد الخليفين زهاء أربعين سنة^(٥) ، ولكنها غدت منزل الملك والخلافة مذ تم بناء القصر والمسجد في سنة تسع وعشرين وثلثمائة ، وبذا كانت (إلى جانب قرطبة) أول منزل للخلافة الإسلامية بالأندلس .

وقد انتهت إلينا عن هذه الضاحية الملوكية الشهيرة أوصاف وأرقام مدهشة ، تنبئ عما كانت عليه من الضخامة . فقد ذكر ابن حيان مؤرخ الأندلس أن الزهراء كانت تشغل مسطحاً قدره تسعمائة وتسعون ألف ذراع ، وأن مبانيها اشتملت على أربعة آلاف سارية ما بين صغيرة وكبيرة ، منها ما جلب من مدينة

(١) نفع الطيب ج ١ ص ٢٦٦ ٤ وأعمال الأعلام ص ٣٨ .

(٢) نفع الطيب ج ١ ص ٢٧٤ ، ٢٦٥ .

(٣) نفع الطيب ج ١ ص ٢٦٤ .

(٤) ابن خلدون ج ٤ ص ١٤٤ .

(٥) نفع الطيب ج ١ ص ٢٦٤ .

رومة ، ومنها ما أهدها قيصر قسطنطينية ، وأن مصاريع أبوابها كانت تبلغ زهاء خمسة عشر ألفاً ، وكلها ملبسة بالحديد والنحاس المموه . وذكر مؤرخ آخر أن عدد الفتيان بالزهراء ثلاثة عشر ألفاً وسبعائة وخمسين فتى ، وعدد النساء والحشم بالقصر ستة آلاف وثلثمائة ، يصرف لهم في اليوم ثلاثة عشر ألف رطل من اللحم ، سوى الدجاج والحجل وغيرها^(١) . وقد لا نجد في المنشآت الملوكية الحديثة ما يذكرنا بهذه الأرقام المدهشة ، سوى القصر البابوي أو قصر الفاتيكان الشهير برومة ، وما انتهى إليه خلال العصور المتعاقبة من الضخامة والفخامة والجلال ، فإن هذا المقام الكنسي الملوكي الفخم ، يحتوى على أربعة آلاف غرفة ، وعلى مئات الأبهاء والساحات والأروقة ، ويضم عدة أجنحة ومجالس رائعة ، أسبغ عليها أبداع ما عرف الفن الرفيع من آيات الزخرف والنقش والتصوير .

ويحدثنا الرحالة البغدادي ابن حوقل عن الزهراء - وقد زارها أيام الحكم ولد الناصر - فيصف موقعها ، ويقول «إن العبارة اتصلت بينها وبين قرطبة ، وإن لها مسجداً جامعاً دون جامع البلدة (قرطبة) في المحل والقلتر ، وعلى سورها سبعة أبواب حديد ، وليس لها نظير بالمغرب فخامة حال وسعة تملك ، وابتدال لحيد الثياب والكسي ، وفراشة الكراع وكثرة التحلى ، وإن لم يكن لها في عيون كثير من الناس حسن بارع»^(٢) .

ولكن الزهراء لم تعمر طويلاً كقاعدة ملوكية ، فقد لبثت قاعدة الملك والخلافة زهاء أربعين عاماً فقط ، منذ نزل بها الناصر سنة ٣٢٩ هـ حتى نهاية عهد ابنه الحكم المستنصر سنة ٣٦٦ هـ ، ولم يكن ذلك لأن الزهراء قد عفت كقاعدة ملوكية ، ولكن لأن تحولا خطيراً قد وقع في سلطان بني أمية عقب وفاة الحكم ، إذ استطاع الوزير محمد بن أبي عامر (الحاجب المنصور) أن يتغلب على الدولة وأن يحجر على الخليفة هشام المؤيد ولد الحكم حسباً انفصل بعد ؛ ثم رأى أن يتقل قاعدة الحكم إلى ضاحية ملوكية جديدة أنشأها لنفسه بجوار قرطبة (سنة ٣٦٨ هـ) على نهر الوادي الكبير وسماها الزاهرة ، ونقل إليها خزائن الأموال والأسلحة ودور الحكومة ، واتخذ لنفسه سمة الملك ، وتسمى بالحاجب المنصور .

(١) نفع الطيب ج ١ ص ٢٦٥ .

(٢) المسالك والممالك ص ٧٨ .

وهكذا فقدت الزهراء صفتها كقاعدة رسمية ، وشاءت الأقدار ألا تكون منزل الملك والخلافة إلا في عهد مؤسسها ، وعهد خلفه الذى أكل بناءها ، وكان قيام الحاجب المنصور فى الواقع خاتمة لسلطان بنى أمية ، ولم يبق بعد ذلك من دولتهم سوى الإسم . وقد بقيت الزهراء حيناً مقاماً ملوكياً للخليفة المحجور عليه — هشام المؤيد — ولكنها فقدت من ذلك الحين أهميتها السياسية وهبتها الملوكية .

ثم كانت الحنة الكبرى، بانهار هذا الصرح البديع الذى شاده بنو أمية بالأندلس ، وانهار الخلافة الأموية والدولة العامرية معاً ، وسقوط الأندلس صرعى الحرب الأهلية . فى ربيع الأول سنة ٤٠١ هـ (نوفمبر سنة ١٠١٠ م) زحمت قوات البربر ومعها سليمان المستعين زعيم الثورة الأموية على قرطبة لينتزعها من الخليفة هشام المؤيد ، والفتى واضح الحاجب المتغلب عليه ، واقتحموا فى طريقهم مدينة الزهراء ، وفتكوا بحاميتها وسكانها ، وعاثوا فى معاهدها ورياضها ، وأحرقوا المسجد والقصر ، ولبثوا بها بضعة أشهر . والظاهر أن الضربة كانت قاضية فلم يبق من الضاحية الملوكية الباهرة بعد أن غادروها سوى أطلال دارسة . ولا يكاد اسم الزهراء ، يذكر بعد ذلك فى التاريخ الأندلسي ، إلا كأثر عصفت به صروف الدهر ، وقد كانت الزهراء أيام روعتها وازدهارها ، وحى الشعر الرائع والخيال الرفيع ، وقد أشاد بجهاها وفخامتها ، جمهرة من أكابر شعراء الأندلس وأمرأه البيان ، ثم رثوها بعد ذلك فى مقطوعات مؤثرة . ومما قاله ابن زيدون وهو من أعظم شعراء عصر الطوائف ، يشيد بالزهراء ، ورائع ذكرياتها :

خليلي لا فطر يسر ولا أضحي	فما حال من أمسى مشوقاً كما أضحي
لئن شاقني شرق العقاب فلم أزل	أخص بمخصوص الهوى ذلك السفحا
معاهد لذات وأوطان صبوة	أجلت المعلى فى الأمانى بها قدحا
أهل إلى الزهراء أوبة نازح	تقضت مبانها مدامعه نزحا
مقاصير ملك أشرفت جنباتها	فخلنا العشاء الجون أثناءها صبحا
يمثل قرطبيها لى الوهم جهرة	فقببها فالكوكب الرحب فالسطحا
محل ارتياح يذكر الخلد طيبه	إذا عز أن يصدى الفتى فيه أو يضحا

هناك الحمام الزرق تندى خفافها ظلال عهدت الدهر فيها فتي سمحا
تعوضت من شدو القيان خلالها صدى فلوات قد أطار الكرى صباحاً^(١)
ونقل لإينا الشيخ محيي الدين بن عربي^(٢) أبياتاً ، قال إنه قرأها على بعض
جدران الزهراء بعد خرابها ، رثاء في المدينة الشهيرة وهي :

ديار بأكتاف الملاعب تلمع وما إن بها من ساكن وهي بلقع
ينوح عليها الطير من كل جانب فيصمت أحياناً وحيناً يرجع
فخاطبت منها طائراً منغرداً له شجن في القلب وهو مروع
فقلت على ماذا تنسوح وتشتكى فقال على دهر مضى ليس يرجع

ويرثي الفتح بن خاقان معاهد الزهراء خلال رواية نقلها عن جولة لبعض
الكبراء في تلك الأطلال : « وآثار الديار قد أشرفت عليهم كئسالى ينحن على
خرابها ، وانقراض أطرابها ، والوهي بمشيدها لآعب ، وعلى كل جدار غراب
ناعب ، وقد محت الحوادث ضياءها ، وقلصت ظلالها وأفياءها ، وطالما أشرفت
بالخلائف وابتهجت ، وفاحت من شذاهم وأرجت ، أيام نزلوا خلالها ، وتفيأوا
ظلالها ، وعمروا حدائقها وجناتها ، ونهوا الآمال من سناتها ، وراعوا اللبوث
في آجامها ، وأخجلوا الغيوث عند انسجامها ، فأضحت ولها بالتداعي تلعع
واعتجار ، ولم يبق من آثارها إلا نوئى وأحجار ، وقد هوت قبابها ، وهرم
شبابها ؛ وقد يلين الحديد ، ويبللى على طيه الحديد ... »^(٣) .

وكانت أطلال الزهراء ما تزال قائمة حتى القرن السابع الهجرى (القرن الثالث
عشر) . وقد ذكرها الشريف الإدريسي في معجمه الجغرافى الذى وضعه فى
منتصف القرن السادس الهجرى (منتصف القرن الثانى عشر) ، وذكر أن بينها وبين
قرطبة خمسة أميال^(٤) ؛ وذكرها أيضاً ياقوت الحموى فى معجمه الجغرافى الذى

(١) اجمع قصيدة ابن زيدون برمتها فى ترجمته فى « قلائد العقيان » للفتح بن خاقان ص ٧٢ .

(٢) هو من أكابر متصوفة الأندلس وعلمائها فى أواخر القرن السادس وأوائل القرن السابع

الهجرى ، وقد نقل لإينا هذه الرواية والأبيات فى كتابه الشهير « محاضرة الأبرار ومسامرة الأخيار » .

(٣) راجع قلائد العقيان فى ترجمة المعتمد بن عباد ص ١٠ .

(٤) راجع نزهة المشتاق (المختصر) طبع رومة - ص ١٩٣ .

وضعه في أوائل القرن السابع الهجري^(١) . وفي شوال سنة ٦٣٣ هـ (١٢٣٦ م) كانت نكبة الأندلس ونكبة الإسلام ، بسقوط قرطبة في أيدي الإسبان ، فطويت بذلك أسطح صحف الإسلام وصحف الخلافة في الأندلس . وكانت قرطبة قد فقدت أهميتها السياسية منذ الثورة وسقوط الدولة الأموية ، ولكنها لبثت بعد ذلك عصراً تحتفظ بهيبتها الخلافية القديمة . ومن المرجح أن أطلال الزهراء بقيت بعد سقوط قرطبة في أيدي الإسبان عصراً يصعب تحديده ، غير أن قرطبة فقدت في ظل سادتها الحدد صبغتها ومعالمها الإسلامية بسرعة ، ولم يبق اليوم من آثارها وصورها الإسلامية سوى مسجدها الجامع ، الذي ما يزال بالرغم من تحويله إلى كنيسة جامعة ، يحتفظ إلى اليوم بكثير من روعته الإسلامية السالفة .

* * *

هذا وما زالت سيرة مدينة الزهراء وذكريات فخامتها الذاهبة ، تحتل المقام الأول في تاريخ إسبانيا المسلمة الأثرى والفنى . وقد اهتم العلماء الإسبان منذ نحو قرن بالكشف عن معالمها وأطلالها ، لما يلقى ذلك الكشف من أضواء هامة على أحوال الخلافة الأندلسية ونظمها الإدارية والاجتماعية ، وعلى تطور الفن الأندلسي في أزهى عصوره . وعينت الحكومة الإسبانية منذ بداية القرن الحالى ، بإجراء الحفريات الأثرية للكشف عن صروح المدينة الخلافية . وبالرغم من أن جهود اللجان الأثرية المتعاقبة التي اضطلعت بهذا العمل ، لم تكن متواصلة أو ذات نطاق واسع ، فقد استطاع الأثريون الإسبان أن يكشفوا عن كثير من معالم الزهراء ، ومواقع صروحها ، وأبناؤها الملوكية .

وقد أتيج لنا أن نزور معالم الزهراء وأطلالها غير مرة ، خلال زيارتنا لعاصمة الخلافة القديمة^(٢) . وتقع هذه الأطلال الضخمة غربى قرطبة على بعد نحو سبعة أميال منها ، وشمالى نهر الوادى الكبير على قيد ميلين ، وتحتل منحدرأً صخرياً وعراً يقع أسفل الأكمة التي يحتلها دير سان خيرنمو San Jeronimo الشهر ، الذى يقال إنه بنى بأنقاض قصر الزهراء . وتسمى هذه المنطقة التي تحتلها أطلال الزهراء « قرطبة القديمة » Córdoba la vieja .

(١) راجع معجم البلدان تحت كلمة الزهراء (مصر) ج ٤ ص ٤٢١ .

(٢) قمنا بزيارة أطلال الزهراء لآخر مرة في مايو سنة ١٩٦٣ .

وتشمل الحفريات الأثرية التي يقوم بها العلماء الإسبان منذ سنة ١٩١٠ منطقة واسعة ، تمتد ١٥١٨ متراً من الشرق إلى الغرب و ٧٤٥ متراً من الشمال إلى الجنوب . ومع أن هذه المنطقة لم تكشف كلها فإن ما كشف حتى الآن من الأطلال الضخمة ، ومن نقوشها وزخارفها التي مازال بعضها قائماً في بعض الجدران ، والتي تتمثل بالأخص في مئات القطع الرخامية الزخرفية التي وجدت ، يكنى لتكوين فكرة عامة ، عن هندسة المدينة الملوكية ومنعتها وفخامة صروحها الذاهبة .

وتنقسم أطلال الزهراء بصفة عامة إلى مجموعات ثلاث ، مدرجة من أعلى إلى أسفل . وتشمل المجموعة الأولى مواقع القصر الخليلي والمقام الخاص . وتشمل الثانية فيما يبدو مساكن الحاشية والحرس . وتشمل المجموعة الثالثة ، وهي الواقعة أسفل الربوة ، في بسط معتدل من الأرض ، أربعة أفنية كبيرة عالية ، هي التي يجرى اليوم ضمها وإعادة تشكيلها ، فيما يظن أنه البهو العظيم الذي كان مخصصاً لاستقبال الملوك وأكابر السفراء .

وقد تم الكشف عن هذا البهو الذي يعتبر أعظم ما كشف حتى اليوم من آثار الزهراء في سنة ١٩٤٤ ، ووجدت سائر حطامه وزخارفه مدفونة تحت الأنقاض . ويعكف الأثريون الإسبان منذ أعوام على إقامة الصرح وتنسيقه ، مما وجد من أنقاضه وأعمدته وزخارفه . وقد أقيم حتى اليوم في وسطه ما اصطلاح على تسميته « بهو السفراء » أو باسمه التاريخي « المجلس المونس » ، وهو عبارة عن أربعة أفنية متلاصقة تبلغ واجهتها نحو أربعين متراً ، وقد قسمت من الداخل إلى ثلاث أروقة مستطيلة ، يتوسطها رواق رابع ذو عقود من الجانبين . ويقوم كل فناء منها على خمسة عقود ، وقد ركب على هذه العقود ما وجد بين الأطلال من رؤوس وقواعد رخامية مزخرفة ، وفي وسط الرواق الثالث عقد جميل عال يفضي إلى بهو داخلي ، زين جانباها بالزخارف الرخامية . ويبلغ طول كل رواق من الأروقة المذكورة نحو عشرين متراً ، وعرضه نحو ثمانية أمتار . وقد صنعت العقود كلها على نمط واحد ، وزينت من أعلاها بما أمكن جمعه من قطع الزخارف الرخامية التي وجدت . وقد شيدت هذه الأروقة على ارتفاع يبلغ نحو عشرة أمتار .

وقد كشفت الحفريات الأخيرة عن مجموعة جديدة من الأطلال تقع أعلى هذه الأبناء من اليسار ، وهي عبارة عن مجموعة من الغرف السكنية وهو مستطيل ،

وهي لا تفرق كثيراً عن غيرها من المجموعات الأخرى المماثلة من حيث التخطيط ، ولكنها تكشف لنا عن حقائق معمارية وفنية هامة ، فهي المجموعة الوحيدة التي وجد بها أثر الدهان واضحاً . وقد تبين أن لون الدهان الذي كان مستعملاً في هذه المجموعات من المساكن (مساكن الحاشية) هو اللون الأحمر ، يحف به على ارتفاع نحو متر ونصف خط أبيض ، يعلوه خط أحمر ، وتبين كذلك أن البلاط المستعمل في تغطية أرض الغرف هو أيضاً أحمر اللون ، وهو قطع مربعة يبلغ ضلع الواحد منها أربعين سنتيمتراً . وتبين أخيراً أن الأحجار المستعملة في أسفل البناء ، هي أحجار كبيرة بعضها يبلغ طوله نحو ٨٠ سنتيمتراً وعرضه ٤٠ سنتيمتراً .

وإلى جانب هذه المجموعات الحديدية من أطلال الزهراء ، توجد المجموعات القديمة ، وهي تشمل موقع القصر الخليلي والحدار الشمالي ، والفناءين التوأمين المتصلين بالمنحدر ، والفناء الصغير المتصل بقصر الخلفاء ، ومجموعة من مساكن الحرس . وترجع منطقة الحدار الشمالي إلى عصر الناصر ذاته ، وهي من منشأته في المرحلة الأولى من بناء الزهراء ، وقد أصلحت على امتداد سبعين متراً . وهذا الجزء من الحدار أمتن وأحكم صنعاً ، من قسمه الذي بنى فيما بعد في عهد الحكم المستنصر .

أما عن الفناءين المماثلين أو الفناءين التوأمين ، فيقع أولهما على بعد ثمانية أمتار أسفل القصر الخليلي ، ويشتمل كل منهما على هوكامل ، وهناك ما يدل على أن كلا منهما كان يحتوي على مجموعة من المساكن المماثلة المخصصة لسكنى طائفة هامة من البطانة أو الحند . ويشغل الفناء الغربي رقعة ضخمة مربعة تقريباً تبلغ مساحتها نحو خمسمائة متر ، وبه أيضاً بقايا أبنية سكنية . بيد أنه لم يكتشف في هذه المنطقة أبواب أو مداخل تكشف عن حقيقة نوع هذه الأبنية ، والظاهر أن الفناء الشرقي كان موقع مسكن « للحریم » ، أو بعبارة أخرى كان جناحاً للقصر الذي تسكنه النساء والأولاد حسبما تدل على ذلك آثار أبنيته ومراقفه .

وعثر المكتشفون إلى جانب هذه المجموعات الضخمة من أطلال المدينة الخليفية ، بطائفة كبيرة من القطع الزخرفية والعقود والأعمدة والألواح والأحواض الرخامية ، ومئات من القطع والأواني الزخرفية والبللورية ، وقد جمعت كلها في متحف خاص أقيم عند مدخل « مدينة الزهراء » ، وعرضت فيه بعض القطع

والأحواض الرخامية البديعة الزخرف والنقوش ، وبعض الأواني الخزفية والبللورية المصححة ، وهذا إلى ما يوجد من تحف الزهراء ونقوشها الزخرفية بمتحف قرطبة الأثرى ، وفي مقدمتها الوعل البرونزي الشهير الذي يعتبر من أروع القطع الفنية .
نقول ، ولعل حفائر الزهراء المستقبلية تكشف لنا عن معالم كثيرة أخرى من ضروب الفخامة والجلال ، التي كانت تتسم بها المدينة الخلافة ، والتي تحدثنا عنها الروايات المعاصرة^(١) .

هذا ولم ينس الناصر أن يشمل المسجد الجامع بعنائه ، أسوة بسائر أسلافه من بني أمية ، فجدد واجهته ، وزاد فيه زيادات كبيرة (٣٤٦ هـ - ٩٥٧ م) . وكان قبل ذلك قد هدم منارته القديمة ، وأنشأ مكانها المنارة العظمى ، وذلك في سنة ٣٤٠ هـ (٩٥١ م) . وكانت منارة الناصر تمتاز بفخامتها وارتفاعها الشاهق ، وكانت مربعة الواجهات ، ولها أربعة عشرة شباكاً ذات عقود ، وتحتوي على سلمين أحدهما لل صعود ، والآخر للنزول ، وقد ركب في قممها ثلاث تراسات كبيرة ، إثنان منها من الذهب ، والثالثة من الفضة^(٢) ، وكانت إذا أرسلت الشمس أشعتها عليها ، تكاد تحطف الأبصار ببريقها . وقد أزال الإسبان فيما بعد ، تلك المنارة العظيمة ، تنمة لبرنامجهم في تشويه المسجد الجامع ، وأقاموا مكانها برج الأجراس الحالي .

وما زالت اللوحة التي تنوه بما قام به الناصر من تجديد واجهة الجامع قائمة إلى اليوم ، في مكانها في الجانب الأيمن من بابه الرئيسي المسمى «باب النخيل»^(٣) وقد كتب بها ما يأتي بخط كوفي جميل :

« بسم الله الرحمن الرحيم . أمر عبد الله عبد الرحمن أمير المؤمنين الناصر لدين الله أطال الله بقاءه ، بينان هذا الوجه ، وإحكام إتقانه ، تعظيماً لشعائر الله ،

(١) رجعتنا في هذا الاستعراض لأطلال الزهراء إلى مشاهداتنا الخاصة . وكذلك إلى البحوث الأثرية الآتية :

Medina Azzahra y Almiriya, por D.R. Velazquez Bosco (Madrid 1912)
Excavaciones del Plan nacional en Medina Azzahra (Córdoba), Campana de 1943. por R. Castéjon y Martínez de Arizala (Madrid 1945)
Nuevas Excavaciones en Medinat Al-Zahra : El Salon de Abd Al-Rahman III por R. Castéjon (Al-Andalus, Vol. X (1945) Fsc. I.

(٢) أعمال الأعلام ص ٣٨ .

(٣) وبالإسبانية Puerta de las Palmas .

ومحافظة على حرمة بيوته ، التي أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه ، ولما دعاه على ذلك من تقبل عظيم الأجر ، وجزيل الذخر ، مع بقاء شرف الأثر ، وحسن الذكر ، فتم ذلك بعون الله ، في شهر ذي الحجة سنة ست وأربعين وثلث مائة على يد مولاه ووزيره وصاحب مبانیه عبد الله بن بدر ، عمل سعيد بن أيوب» (١) .

- ٢ -

تولى عبد الرحمن الناصر عرش مملكة تفاقمت من حولها الخطوب ، واستنفدت مواردها الثورة ، فتداركها بعزمه وقوة نفسه ، واستطاع أن يسحق خصومها في الداخل والخارج ، في سلسلة طاحنة من الحروب والغزوات المستمرة ، وأن يوطد دعائمها وأن يخضع الجزيرة لصولتها ، وأن يكفل لها الأمن والسكينة والرخاء . ولم يفت الناصر منذ البداية أن الجيش عماد الدولة وسياج الملك ، فعكف على إصلاح الجيش الذي أضناه الكفاح ضد الثورة ، وحشد له الخند من سائر أنحاء الأندلس والمغرب ، واستكثر من الأسلحة والذخائر ، وصقلت الحروب والغزوات المستمرة كفاية الجيش ودربته ، وأمدته بطائفة من أمهر القادة وأشدهم بأساً ، ورفعت القوة المعنوية بين الصفوف . وكان إقدام الأمير على تولى القيادة بنفسه مجدداً لعهد الحماسة الحربية والانتصارات الباهرة . وعنى عبد الرحمن في الوقت نفسه بأمر الأسطول وإصلاحه ، فأنشأ له وحدات جديدة قوية . وكانت ألمرية عندئذ مركز الأسطول الأندلسي الرئيسي ، وجهاً أكبر دار للصناعة . وبلغ الأسطول في عهد الناصر زهاء مائتي سفينة مختلفة الأنواع والأحجام ، وهذا عدا الأسطول المخصص لشئون المغرب البحرية ، وقد كان يضم كذلك عدداً كبيراً من السفن . وهكذا كان أسطول الأندلس في ذلك العهد من أقوى الأساطيل يومئذ ، وكان بضخامته وأهباته ، يسيطر على مياه إسبانيا الجنوبية والشرقية ، وينازع الفاطميين سيادة الشق الغربي من البحر المتوسط .

وكان عهد الناصر بالرغم من استمرار الحروب والغزوات ، كما قدمنا عهد رخاء ويسر ، توطدت فيه مالية الدولة وامتلأت خزائنها بالأموال الوفيرة ، وزاد الخراج والدخل زيادة عظيمة باستتباب السكينة والأمن ، وازدهار الزراعة والتجارة والصناعة ، وكثرة الأخماس والغنائم . وإن فيما احتوته الزهراء من القصور

(١) راجع الآثار الأندلسية الباقية لمحمد عبد الله عنان (الطبعة الثانية) ص ٢٠ و ٢١ و ٣٠

والمنشآت الباذخة ، وما بذل لإقامتها من النفقات مدى أعوام طويلة ، لما يستوقف النظر ، ويحمل على تأمل ذلك المدى المدهش الذى بلغته الدولة الأموية بالأندلس فى عهد الناصر من القوة والضحامة والغنى . وقد انتهت إلينا فى ذلك أرقام مدهشة ، منها أن جباية الأندلس بلغت فى عهد الناصر من الكور والقرى خمسة آلاف ألف وأربعمائة ألف وثمانين ألف دينار ، ومن السوق والمستخلص سبعمائة ألف وخمسة وستين ألف دينار ، هذا عدا أخماس الغنائم التى لا تحصى . وقيل إن الناصر خلف عند وفاته فى بيوت الأموال ما تبلغ قيمته خمسة آلاف ألف ألف (خمسة آلاف مليون) دينار . وكان يقسم الجباية من أجل النفقة إلى ثلاثة أثلاث : ثلث لنفقة الجيش ، وثلث للبناء والمنشآت العامة ، وثلث يدخر للطوارئ^(١) . ولم يتردد المؤرخ الحديث فى قبول هذه الأرقام حتى أن العلامة دوزى يتقلها ، ويقدر أن الناصر ترك عند وفاته فى بيت المال عشرين مليوناً من الذهب^(٢) . ويقول لنا ابن حوقل الرحالة البغدادي الذى زار قرطبة فى هذا العهد ، إن الناصر كان أغنى ملوك عصره ، وإنه وبني حمدان ملوك حلب والجزيرة أغنى ملوك العالم فى ذلك العصر^(٣) . وهذه أرقام وروايات تشهد بضحامة الدولة الأموية وغناها الطائل فى عصر الناصر ، وتفسر لنا كيف استطاع الناصر إلى جانب جروبه غزواته ، أن يضطلع بكثير من المنشآت العظيمة .

هذا ، وقد كان مما عنى به الناصر تنظيم العملة ، وتثبيتها ، فأمر فى سنة ٥٣١٦هـ ، باتخاذ دار السكة داخل مدينة قرطبة لضرب العين من الدنانير والدرهم ، فاتخذت هناك على رسمه ، وولى خطتها أحمد بن محمد بن حدير ، وذلك فى ١٧ من شهر رمضان من هذه السنة ، فقام بالضرب فيها من هذا التاريخ ، من خالص الذهب والفضة ، وبذل جهده فى الاحتراس من المدلسين ، فأصبحت دنانيره ودراهمه عياراً محضاً . وقد كان ضرب النقد معطلاً قبل الناصر ، وكان لهذا الإجراء أثره فى تثبيت العملة واستقرار التعامل^(٤) .

(١) نفع الطيب ج ١ ص ١٧٧ ، والبيان المغرب ج ٢ ص ٢٤٧ ، وأعمال الأعلام ص ٣٨ .

(٢) Dozy : Hist. Vol. II. p. 178

(٣) ابن حوقل ، المسالك والممالك ص ٧٧ .

(٤) ابن حيان - السفر الخامس - مخطوط الخزانة الملكية لوحة ٩٩ ب .

وبلغت الأندلس في عهد الناصر ذروة الرخاء والنعاء والأمن وللغزة ،
وازدهرت الزراعة والتجارة والصناعة والعلوم والآداب والفنون ، وشمل الأمن
سائر أطراف المملكة ، ورخصت كلفة العيش . ونمت قرطبة نمواً عظيماً حتى بلغ
سكانها أكثر من خمسمائة ألف ، وبلغت مساجدها ثلاثة آلاف ، ومنازلها أكثر
من مائة ألف ، وحماماتها العامة ثلاثمائة ، وبلغت أرباضها أو ضواحيها ثمانية
وعشرين ، هذا عدا المدينة الوسطى ، وكان لقرطبة يومئذ سبعة أبواب : باب
القفنطرة ، وباب اليهود ، وباب عامر ، وباب العطارين ، وباب طلبيلة ،
وباب عبد الجبار ، وباب الجوند . وكان للقصر الأموي ستة أبواب : باب
السُّدة ، وباب الجنان ، وباب العدل ، وباب الصناعة ، وباب الملك ، وباب
الساباط ، وهو في المسجد الجامع . وازدانت قرطبة بعدد كبير من القصور
والمتنزهات الفخمة ، ودوت شهرتها في الآفاق ، ووصلت إلى قاصية
الشمال ، حتى أن الراهبة السكسونية هروسوفيتا التي اشتهرت بنظمها في
أواخر القرن العاشر ، أشادت في قصائدها اللاتينية بمحاسن قرطبة ووصفتها
بأنها « زينة الدنيا » (١) .

- ٣ -

كانت سياسة الدولة الأموية بالأندلس تقوم منذ البداية على اصطناع الموالى
والصقالية واتخاذهم أداة وبطانة ، وكان مؤسسها عبد الرحمن الداخل قد عمد بتأثير
الظروف العصبية التي أحاطت بقيام ملكه ، والخطوب والثورات الجمة التي أثارها
خصومه ومنافسوه من زعماء القبائل العربية ، إلى الاسترابة بالعرب ، واصطناع
البربر والموالى الذين آزره وقت المحنة ، ومكنوه من توطيد زعامته وإمارته .
وقد حافظ خلفاء الداخل على هذه السياسة في جوهرها . ومنذ عهد الحكم المنتصر
(١٨٨ - ٢٠٦ هـ) نرى نفوذ الموالى والصقالية يشتد في البلاط وفي الدولة .
وكان الحكم يعشق مظاهر الفخامة والملك والباذخ ، فغص البلاط الأموي في
عهده بالخدم والحشم ، من المالك والصقالية ، بيد أن نفوذهم لبث مدى حين
بعيداً عن شئون الدولة العليا ، قاصراً على شئون القصر والخاص .
واقفني عبد الرحمن الناصر أثر سياسة جده الداخل ، في الاسترابة بالقبائل

(١) البيان المغرب ج ٢ ص ٢٤٧ . وكذلك Dozy : Hist. Vol. II. p. 174

العربية ذات البأس والعصبية ، وفي إقصاء زعمائها عن مناصب النفوذ والثقة ، واستأثر بكل سلطة حقيقية في الدولة ، وجمع مقاليد الحكم كلها في يده ، فلم يبق سلطة فعلية لحاجب أو وزير . وكان الناصر حريصاً على سلطانه المطلق ، لا يني عن سحق كل من حدثته نفسه بالوقوف في مسيله ، ولو كان أقرب الناس إليه . ولما نعى إليه أن ولده عبد الله يأتمر به مع بعض فتيان القصر ورجال الدولة ، لأنه آثر أخاه الحكم بولاية العهد وتصريف الشئون ، وأن جماعة من أهل قرطبة بايعوه بالخلافة ، لم يحجم عن أن يقضى بإعدامه ، وإعدام جميع من اتجهت إليهم شبهة الاشتراك معه ، وكان ذلك في سنة ٣٣٨ هـ (٩٤٩ م) . وكان عبد الله من أفضل أبناء الناصر علماً وعقلاً وبصراً بالأمر ؛ وكذلك قضى الناصر بإعدام بعض أبناء عمومته وأخيه القاضي ابن محمد حين قامت الأدلة على اتهمهم به (١) .

وعهد الناصر بالمناصب الكبيرة إلى رجال وضيعي المنبت من الصقالبة والموالي المعتقين أو الأرقاء ، وهم رجال لا إرادة لهم بوجههم كيفما شاء ، وكان يثق بالصقالبة بنوع خاص ، ويوليهم من السلطان والنفوذ ما لا يوليه سواهم (٢) .

وقد كانت كلمة « الصقالبة » تطلق في الأندلس على الأسرى والخصيان من الأجناس الصقلية (السلافية) الحقيقية ، ثم غدت تطلق بمضى الزمن على جميع الأجانب الذين يعملون في البطانة وفي القصر . وكان أولئك الصقالبة مزيجاً من الخليقين (النصارى الإسبان) والألمان والفرنسيين واللونبارد والإيطاليين (٣) ، وكان معظمهم يؤتى بهم أطفالاً بواسطة خوارج البحر (القراصنة) وتجار الرقيق ، وكانوا يختارون من الحسنين ، ويربون منذ الحداثة تربية عربية حسنة ، ويلقنون مبادئ الإسلام ، وقد نبغ بعضهم في النثر والنظم وصنفوا الكتب والقصائد . ومنذ عهد الناصر يشتد نفوذ الصقالبة في شئون الإدارة والحكم ، فضلاً عن القصر والخاص ، ويعهد إليهم بالمناصب الكبرى في القصر والإدارة والحيش ، وما لبث أن سما شأنهم وتوطد سلطانهم ، وأحرزوا الضياع والأموال الوفيرة ، وفاق عددهم في عهد الناصر أى عهد آخر ، حتى قدر بعض المؤرخين عددهم

(١) ابن خلدون ج ٤ ص ١٤٣ ، والبيان المغرب ج ٢ ص ٢٤٤ ، وأعمال الأعلام ص ٣٩ .

(٢) ابن خلدون ج ٤ ص ١٣٨ .

(٣) ابن حوقل في المسالك والممالك ص ٧٥ ؛ وكذلك Dozy : Hist. Vol. II. p. 158

يومئذ في القصر والبطانة ، بثلاثة عشر ألفاً وسبعمئة وخمسين ، وبلغوا في رواية أخرى سبعة آلاف وثمانين . ويقول لنا ابن الخطيب إن عدد الفتيان الصقالبة بمدينة الزهراء كان عند وفاة الناصر ثلاثة آلاف وسبعمئة وخمسين ، وعدد النساء بالقصر ستة آلاف وسبعمئة وخمسين ، تجرى عليهم جميعاً رواتب الطعام بسائر صنوفه^(١) . وعلى أي حال فقد كان من أولئك الصقالبة الحرس الخليقي ، ورجال الخاص والحشم ، وكان الناصر يمد لهم في السلطان والنفوذ ، ويرغم أشرف العرب وزعماء القبائل على الخضوع لهم ، لئذ بذلك أنوفهم ويسحق هيبتهم^(٢) . بل كان منهم في عهد الناصر قائد الجيش الأعلى نجدة ، ومعظم أكابر القادة والضباط ، وكان منهم أفصح صاحب الخيل ، ودرى صاحب الشرطة ، ومنهم ياسر وتمام صاحباً النظر على الخاص^(٣) . وكان لهذه السياسة غير بعيد ، أسوأ الأثر في انحلال الجيش وفتور قواه المعنوية ، لما جاشت به صدور الضباط والحند العرب ، من الحفيظة والسخط على هذه السياسة المهينة ، وكانت هزيمة الناصر في موقعة الخندق الشهيرة (الأنديجا) (٣٢٧ هـ) ، ترجع من وجوه كثيرة إلى هذا الانحلال المعنوي ، الذي سرى إلى الجيش من جراء الأحقاد القومية والطائفية^(٤) .

— ٤ —

كانت الأندلس بما اجتمع لها في عهد الناصر من أسباب القوة والسلطان ، قد تبوأَت مركز الصدارة بين الدول الإسلامية ، وكانت الدولة العباسية قد دخلت يومئذ في دور انحلالها ، ولم تكن الدولة الفاطمية الفتنية منافستها في المشرق ، قد بلغت يومئذ ذروة قوتها ونفوذها ، فكانت الأندلس تستأثر يومئذ بزعامة الإسلام . وكانت قرطبة مركز الحاذبية الدبلوماسية في العالم الإسلامي ، تتجه إليها أبصار الدول النصرانية في طلب المودة ، وعقد العلاقات الدبلوماسية ؛ وكانت قسطنطينية مركز هذه الحاذبية الدبلوماسية بين أمم النصرانية حتى القرن الثامن . ثم نافستها في ذلك مملكة الفرنج القوية مدى حين ، فلما اضمحل شأن المملكة

(١) أعمال الأعلام ص ٤٠ و ٤١ .

(٢) Dozy : Hist. Vol. II. p. 153 . وراجع نفع الطيب ج ١ ص ٢٦٥ .

(٣) البيان المغرب ج ٢ ص ١٢٣ ؛ ونفع الطيب ج ١ ص ١٧١ .

(٤) Dozy : Hist. V. II. p. 153

الفرنجية ، استردت قسطنطينية زعامتها الدبلوماسية في النصرانية . ولما قامت الإمبراطورية الجرمانية في القرن العاشر ، استطاعت أن تبسط زعامتها السياسية على أواسط أوروبا وغربها ، وهكذا كانت زعامة النصرانية تتردد في هذه الحقبة بين شرقي أوروبا وغربها . هذا بينما لبثت قرطبة تستأثر وحدها بزعامة الإسلام في الغرب حتى نهاية القرن العاشر .

وقد كان هذا العصر الذي اجتمعت فيه تلك الزعامات الدينية والسياسية القوية ، أحفل العصور بصلات الإسلام والنصرانية . فكانت ثمة معاهدات وسفارات ومراسلات وعلاقات دبلوماسية ، بين قرطبة وبين معظم الأمم النصرانية ، وقد بلغت هذه الصلات ذروتها في عصر الناصر لدين الله ، وتوالت وفود الأمم النصرانية يومئذ على بلاط قرطبة ، تنشُد الحالف وأصدقاء والمهادنة ، من زعيم الإسلام في الغرب .

وكان بلاط قسطنطينية بالرغم من نأيه عن مقر الخلافة الأندلسية ، وعدم اتصاله بها ، بأية حدود أو صلات جغرافية مشتركة ، في مقدمة الساعين إلى توثيق الروابط الودية مع بلاط قرطبة . ففي سنة ٣٣٦ هـ (٩٤٨ م) (١) ، وفدت على الناصر رسل قسطنطين السابع قيصر قسطنطينية المعروف «بيورفير وچتوس» (٢) ومعهم طائفة من الهدايا النفيسة . وتقدم إلينا الرواية الأندلسية عن هذه السفارة تفاصيل شائقة ، تأتي ضوءاً على نظم الرسوم الدبلوماسية في هذا العصر ، فتقول لنا إن الناصر بعث رسله للقاء السفراء البيزنطيين حين وصولهم إلى الشاطئ لإرشادهم وخدمتهم ، ولما وصل الركب إلى مقرية من قرطبة ، بعث بعض قواته للاحتفاء بهم ، ثم بعث الفتيين يأسراً وتاماً فصحباهم إلى دار الضيافة ، بقصر ولي العهد الحكم ، في ريبض قرطبة ، ومنعوا من لقاء الخاصة والعامة ، ورتب لخدمتهم طائفة من الموالي والحشم . وفي اليوم الحادي عشر من

(١) هذه هي رواية ابن خلدون (ج ٤ ص ١٤٢) . وفي رواية أخرى أنها وقعت سنة ٣٣٨ هـ (نفتح الطيب ج ١ ص ١٧١) . وذكر الطيب الأندلسي ابن جلجل وقد عاش قريباً من عصر الناصر ، أنها وقعت في سنة ٣٣٧ هـ (راجع طبقات الأطباء لابن أبي أصيبعة - طبعة ميللر - ج ٢ ص ٤٤٧) . وذكر صاحب البيان المغرب أنها وقعت في سنة ٣٣٤ هـ (ج ٢ ص ٢٢٩) . ولم نثر في تواريخ الدولة البيزنطية على تفاصيل هذه السفارة ، ولكن الرواية الإسلامية واضحة جلية . (٢) ومعناها الأرجواني .

ربيع الأول من السنة المذكورة ، خرج الناصر من قصر الزهراء إلى قصر قرطبة لاستقبالهم ، وجلس في بهو المجلس الزاهر ، وكان يوماً مشهوداً من أيام الأندلس . فركبت الجند بالسلاح في أكمل شكل ، وزين القصر الخلابي بأنواع الزينة وأصناف الستور ، وحفل السيرير الخلابي بمقاعد الأبناء والإخوة والأعمام والقرابة ، وجلس عن يمين الخليفة ولده وولى عهده الحكم ، وجلس باقى أولاده يميناً وشمالاً ، ورتب الوزراء فى مراتبهم ، وغص المجلس برجال الدولة والقادة والعظماء والزعماء من كل ضرب . ودخل سفراء ملك الروم ، فبهرهم ما رأوا من روعة الملك وفخامة السلطان ، وقدموا الهدايا التى يحملونها . وذكر لنا الطيب الأندلسى أبو داود سليمان بن حسان المعروف «بابن جملجل» الذى عاش فى عصر هشام المؤيد حفيد الناصر ، أنه كان فى مقدمة هدايا أرمانىوس ملك الروم إلى الناصر سفران جليلان من كتب الأقدمين ، أحدهما نسخة مصورة أبدع تصوير من كتاب ديسقوريدس^(١) عن الحشائش ، مكتوبة بلغة مؤلفها أى باليونانية ؛ والثانى نسخة من تاريخ أورسيوس (هروسيوس)^(٢) مكتوبة باللاتينية ، وهو المتضمن لتاريخ العالم القديم ، وأقاصيص الملوك السابقين^(٣) . وقدم الرسل كتاب القيصر قسطنطين السابع ، وقد كتب فى رق ذى لون سماوى باللغة اليونانية ، وداخل الكتاب مدرجة مصبوغة ومكتوبة بنفس اللغة ، فيها وصف هدايا الإمبراطور ، وعلى الكتاب طابع ذهبى ، على إحدى وجهيه صورة للمسيح ، وعلى الوجه الآخر صورة الإمبراطور قسطنطين ، مصنوعة من الزجاج الملون البديع . وكان فى ترجمة عنوان الكتاب فى سطر منه : « قسطنطين ورومانين

(١) ديسقوريدس **Dioscorides** طبيب وكيمائى يونانى . أصله من كاليكية آسيا الصغرى . وقد عاش فى القرن الأول للميلاد ، واشتهر بكتابه عن مركبات الأدوية . وهو ما يزال يعتبر ذا قيمة علمية حتى عصرنا ، وكان يعتبر حتى القرن السابع عشر أئمن مرشد لخواص الأعشاب العبية .

(٢) باولوس أورسيوس **Paulus Orosius** حبر ومؤرخ إسباني (قوطى) عاش فى القرن الخامس الميلادى ووضع باللاتينية تاريخاً للخليفة فى عصره . وقد اشتهر تاريخه بالرغم من ركاكته وكثرة خرافاته ، وانتفع به كثير من المؤرخين اللاحقين . وعرفه المؤرخون المسلمون وفتاوا عنه . وأشار إليه ابن خلدون فى مواضع عديدة من تاريخه ، وتمرعه الرواية الإسلامية بهرويس أو هرشيوش .

(٣) راجع رواية ابن جملجل منصلة فى كتاب طبقات الأطباء ، فى ترجمة ابن جملجل (ج ٢

المؤمنان بالمسيح الملكان العظيمان ملكا الروم»^(١)، وفي سطر آخر صيغة التوجيه : «العظيم الإستحقاق للفخر ، الشريف النسب عبد الرحمن الخليفة ، الحاكم على العرب بالأندلس ، أطال الله بقاءه» . وذكر لنا ابن جُلجل أن ملك الروم كتب إلى الناصر في شأن كتاب ديسقوريدس أنه لا تجنى فائدته إلا بواسطة شخص يجيد اليونانية ، وأنه لم يكن في قرطبة يومئذ من يحسن هذه اللغة ، وأن الناصر كتب في خطابه إلى «أرمانوس» فيما بعد ، أن يرسل إليه رجل يتكلم اليونانية واللاتينية ، فبعث إليه راهب يدعى نيقولا ، فحظي عند الناصر ، وتوفر على تفسير كتاب ديسقوريدس وشرح محتوياته لأطباء قرطبة . وأما كتاب أورسيوس المكتوب باللاتينية فقد كان في بلاط قرطبة من يجيدها^(٢) . وكان الناصر قد أمر أن يُخطب الأعلام في ذلك الحفل ، وأن يعظموا من شأن الإسلام والخلافة ، وأن يشكروا نعمة الله على ظهور دينه ، وإعزاز كلمته ، وذلة أعدائه ، واستعد بعض الخطباء لذلك ، ولكن بهرهم هول المجلس فوجوا وأرتج عليهم القول ، وكان منهم اللغوى الكبير أبو علي القالى وافد العراق وضيف الخليفة — وكان قد وفد على الأندلس في سنة ٣٣٠ هـ — ، ندبه الناصر لذلك تكريماً له وتقديراً لبلاغته ، ولكنه ما كاد يبدأ خطابه ، حتى بهت وتلعثم ثم صمت ؛ فعندئذ نهض الفقيه منذر بن سعيد البلوطى دون استعداد ولا سابق توقع ، وارتنج خطاباً بليغاً ضافياً يشيد فيه بعهد الناصر ومآثره ، ثم أعقبه بقصيدة في نفس المعنى^(٣) ، فأثار بذلاقته وثبت

(١) رومانين هو رومانوس الثانى ابن قسطنطين السابع ، وقد حكم بعد أبيه من سنة ٩٥٩ إلى سنة ٩٦٣ م . وتسميه الرواية الإسلامية «أرمانوس» .

(٢) راجع رواية ابن جُلجل المشار إليها في طبقات الأطباء ج ٢ ص ٤٤٧ .

(٣) نقل المقرئ عن ابن حيان وغيره ، نص الخطاب الذى ألقاه منذر بن سعيد في ذلك الحفل . وإنه ليصعب علينا متى تأملنا عباراته المنمقة ، وسجعائه المرتبة ، وما يتخلله من ضروب البيان والبدع ، أن نصدق أنه خطاب مرتجل ألتي عفوا الساعة . ولعله صورة منمقة لمنمقة للخطاب الأصيل . وقد رأينا أن ننقل فقرات من ذلك الخطاب تتناول عهد الناصر بشيء من الوصف والتحليل .
جاء في الخطاب بعد الديباجة ما يأتى :

« وإني أذكركم بأيام الله عندكم ، وتلافية لكم بخلافة أمير المؤمنين ، التي لمت شعركم ، وأمنت ربكم ورفعت قوتكم ، بعد أن كنتم قليلاً فكثركم ، ومستضعفين فنصركم ، ولاء الله رعايتكم وأسند إليه إمامتكم ، أيام ضربت الفتنة سرادقها على الآفاق ، وأحاطت بكم شعل النفاق ، حتى صرتم ، في مثل حدقة البعير من ضيق الحال ، ونكد العيش والتقتير ، فاستبدلتم بخلافته من الشدة بالرخاء ، وانتقلتم بين سياسته إلى تمهيد كنف العافية ، بعد استيطان البلاء . أناشدكم بالله معشر الملأ =

جنانه ، أيما إعجاب ، وأكبر الناصر همته وعلمه ، وكان هذا الخطاب المرتجل فاتحة مجده ، فأغدق عليه الناصر عطفه ، وولاه القضاء ، وأصبح من رجال الدولة المشهورين .

ومن شعر منذر بن سعيد في وصف ذلك الحفل المشهود قوله :

مقالى كحد السيف وسط المحافل	فرقت به ما بين حق وباطل
بقلب ذكى ترتى جمراته	كبارق رعد عند رعرع الأنامل
فما دحضت رجلى ولازل مقولى	ولا طاش عقلى يوم تلك الزلازل
وقد حدقت حولى عيون أخالها	كمثل سهام أثبتت فى المقاتل
لخبر إمام كان أو هو كائن	لمقتبل أو فى العصور الأوائل
ترى الناس أفواجاً يؤمون بابه	وكلهم ما بين راج وآمل
وفود ملوك الروم وسط فنائه	مخافة بأس أو رجاء لنائل
فعمش سالماً أقصى حياة مؤملاً	فأنت رجاء الكل حاف وناعل
ستملكها ما بين شرق ومغرب	إلى درب قسطنطين أو أرض بابل (١)

= ألم تكن الدماء مسفة فحقها ، والسبل مخوفة فأمنها ، والأموال منتبهة فأحرزها وحصنها ، ألم تكن البلاد خراباً فعمرها ، وثغور المسلمين مهتزمة فحماها ونصرها .

ثم قال : « فأصبحتم بنعمة الله إخواناً ، وبلغ أمير المؤمنين لشعثكم على أعدائه أعواناً ، حتى تواترت لديكم الفتوحات ، وفتح الله عليكم بخلافته أبواب الخير والبركات ، وصارت وفود الروم وافدة عليكم ، وآمال الأقبصين والأذنين مستخدمة إليه وإليكم ، يأتون من كل فج عميق وبلد سحيق »
ثم قال : « فاستعينوا على صلاح أحوالكم بالمناصحة لإمامكم ، والتزام الطاعة لخليفتم ، فإن من نزع يداً من الطاعة ، وسعى في تفريق الجماعة ، ومرق من الدين ، فقد خسر الدنيا والآخرة ، وذلك هو الخسران المبين . وقد علمتم أن فى التعلق بمصمتها والتمسك بعروتها ، حفظ الأموال وحقق الدماء وصلاح الخاصة والدعاه ، وأن بقوام الطاعة تقام الحدود وتوفى للمهود ... فاعتصموا بما أمركم الله بالاعتصام به ، فإنه تبارك وتعالى يقول (أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم) ، وقد علمتم ما أحاط بكم ، فى جزيرتكم هذه من ضروب الشركين وصفوف الملحدين ، الساعين فى شق عصاكم ، وتفريق ملاكم الأخذيين فى مخالفة دينكم وتوهين دعوة نبيكم ... الخ .

راجع خطاب ابن سعيد بأكله فى فتح الطيب ج ١ ص ١٧٢ - ١٧٣ .

(١) وقد نقل إلينا المقرئ عن المغرب لابن سعيد وغيره فبذة فى ترجمة القاضي منذر بن سعيد للبلوطى ، وفيها أنه ولد سنة ٢٦٥ هـ ، وبرع فى علوم القرآن والسنة ، وظهر بفصاحته وذلاتته وجزالة شعره ، وكان الخطاب الذى ارتجله فى مجلس الناصر لمناسبة استقباله لرسول ملك الروم بدأ ظهوره وشهرته ، فولاه الناصر الصلاة والخطابة فى مسجد الزهراء ، ثم ولاه قضاء الجماعة بقرطبة . وتوفى سنة ٣٥٥ هـ . (راجع فتح الطيب ج ١ ص ١٧٤ و ١٧٥ وكذلك قضاة قرطبة للخشى ص ١٧٥ و ١٧٦) .

ولما انصرف رسل قسطنطين ، بعث الناصر معهم سفيراً هو هشام بن هذيل بهدية حافلة ، ليؤكد المودة ويوثق عرى التحالف بين قرطبة و قسطنطينية ، فعاد بعد سنتين وقد أدى سفارته خير أداء ، وعادت معه رسل قسطنطين^(١) .
وتفيض الرواية الإسلامية في تفاصيل هذه السفارة إفاضة واضحة ، ولكنها لا تلتقي كبير ضوء على موضوعها وغايتها الحقيقية ، وأكبر الظن أنها لم تكن إلا تجديداً لعلائق الدولة البيزنطية مع دولة الإسلام بالأندلس ، وتوطيداً للصدقة القديمة التي رأى بلاط قسطنطينية أن يعقدها مع بلاط قرطبة منذ عهد عبد الرحمن ابن الحكم^(٢) لتكون شبه تحالف ضد الدولة العباسية خصيمتهما المشتركة . وربما كانت ترمى في الوقت نفسه إلى تنظيم الخطط المشتركة بين الدولتين ، لمقاومة الدولة الفاطمية الفتية ، التي بدأت تزعج البيزنطيين في أواسط البحر المتوسط ، وتزعج حكومة قرطبة بتوغلها في المغرب الأقصى .

ثم توالى سفارات ملوك النصرانية بعدئذ على الناصر فوفدت عليه رسل ملك الصقالبة وهو يومئذ الملك بيتر أو بطرس^(٣) ، فاحتفل بقدمهم كذلك وبعث معهم ربيعاً (ريفاً) الأسقف سفيراً إلى ملكهم ؛ ثم وفدت رسل ملك فرنسا وهو يومئذ لويس الرابع في طلب الصداقة والمودة ، فأجابهم إلى ما طلبوا .

على أن أهم سفارة تلقاها الناصر يومئذ ، هي سفارة أوتو الأكبر إمبراطور ألمانيا ، وقد كان أوتو يومئذ زعيم النصرانية ، كما كان عبد الرحمن الناصر زعيم الإسلام . وتشير الرواية الإسلامية إلى تلك السفارة في غموض وإيجاز ، وتصف أوتو بملك الصقالبة أو ملك « اللهان » وتسميه « هوتوا » أو « هوتو »^(٤) ، ولكنها تتفق مع الرواية الفرنجية في تاريخ هذه السفارة وهو سنة ١٠٤٤ هـ الموافقة سنة ١٠٥٦ م . ففي ذلك العام وفد على قرطبة سفير ، وهو جبر يدعى يوحنا الجورزيني نسبة إلى الدبر الذي ينتمي إليه في جورزني على مقربة من منز ، وكان يوحنا من أكابر

(١) راجع في أخبار هذه السفارة للبيزنطية : ابن خلدون ج ٤ ص ١٤٢ و ١٤٣ ، ونجح الطيب ج ١ ص ١٧٠ - ١٧٤ ؛ والبيان المغرب ج ٢ ص ٢٣٩ . وراجع : *Aschbach : ibid.* B. I. p. 95-100

(٢) راجع « دولة الإسلام في الأندلس » القسم الأول ص ٢٨٢ - ٢٨٣ .

(٣) هو بطرس بن سيون الكبير ملك بلغاريا وقد كان يومئذ يعرف بملك الصقالبة .

(٤) راجع ابن خلدون ج ٤ ص ١٤٣ ؛ والبيان المغرب ج ٢ ص ٢٣٤ .

العلماء وأقطاب البحث والمناظرة . والظاهر أنه قد وقعت فعلا قبل ذلك مراسلات كلامية بين الناصر وأوتو عن الإسلام والنصرانية ، وأن الناصر قد عرض في بعض رسائله بالنصرانية وتعاليمها ، فألقى أوتو الفرصة سانحة لأن يدافع سفيره العلامة الدلق عن قضية النصرانية لدى خليفة قرطبة^(١). بيد أنه يبدو من أقوال الروايات الكنسية أن هذه المهمة الحدلوية، لم تكن إلا مهمة ثانوية إلى جانب موضوع سفارته الأصلية ، وأن مهمته الحقيقية كانت تتعلق بشأن توغل المستعمرات العربية المغامرة ، في جنوبي فرنسا وفي ليجوريا وسويسرة ، وغيثها في تلك الأنحاء ، بصورة تبتث الرعب والروع إلى كثير من المدن والجماعات النصرانية ، والاستعانة بنفوذ خليفة الأندلس الذي تنتمي إليه هذه المستعمرات من الناحية الأدبية ، لوقف عدوانها وتوغلها^(٢). وقدم يوحنا إلى قرطبة عن طريق الرون وقطلونية برفقة راهب آخر ، ومعه طائفة نفيسة من الهدايا برسم الخليفة ، فاستقبل بحفاوة ، وأنزل في إحدى الدور الرسمية . ولكن الناصر لم يبادر باستقباله حين وقف على موضوع رسالته ، ولم يقبل بالأخص أن تكون المسائل الدينية موضوع جدل بينهما . ولما ألح يوحنا في طلب المقابلة والمحادثة ، أجاب الناصر بأنه سبق أن أرسل رسولا أسقفاً إلى أوتو فاعتقله مدى ثلاثة أعوام، وأنه سيعتقله أي يوحنا ، أضعاف هذه المدة ، لأنه أرفع مقاماً من ملك النصرانية . وأخيراً تقرر أن يرسل الناصر إلى ملك الألمان رسولا آخر يستوثق من عواطفه ونياته نحوه، وأن يبقى يوحنا معتقلاً حتى يعود السفير . واختبر لهذه السفارة كالعادة قس من رعايا الخليفة هو ربيع أو ريفا الأسقف ، وكان عالماً متمكناً يشغل في البلاط منصباً هاماً ، ويحبه الناصر بعطفه وتقديره ، لعلمه وجليل خدماته^(٣) ، فاخترق فرنسا إلى ألمانيا ، ومثل لدى الإمبراطور أوتو في تورنجن ، حيث كان ينفق معظم أوقاته . وكان أوتو يجوز يومئذ بعض المتاعب للداخلية من جراء ثورة ولده عليه ، فأبدى تساهلاً في قبول وجهات نظر الخليفة ، وأكرم مثوى سفيره ، وعاد ربيع الأسقف إلى قرطبة ، بعد سنتين من سفره (٣٤٧ هـ - ٩٥٨ م) . فارتاح الناصر لنتائج سفارته ، وأذن بروية يوحنا سفير

Reinaud : Invasions des Sarrazins en France p. 187 (١)

(٢) تناولنا قصة هذه المستعمرات في الفصل التالي .

(٣) ابن خلدون ج ٤ ص ١٤٣ . وهو ربيع بن زيد من زعماء التصاري المعاهدين ، وكان

يحمي للمريية واللاتينية .

الإمبراطور ، واستقبله بقصر قرطبة في احتفال فخم ، ظهرت فيه روعة البلاط الأموي ، وأفضى إلى الخليفة بموضوع سفارته . ولسنا نعرف ماذا كانت نتائج هذه السفارة ، لأن الرواية العربية لا تحدثنا عن موضوعها ، ولا تحدثنا الرواية الكنسية عن نتائجها . ولكن المرجح أن وجهة النظر التي أبدتها حكومة قرطبة لسفير الإمبراطور ، فيما يتعلق بأمر المستعمرات العربية المغامرة ، وغزواتها في غاليس وشمال إيطاليا وسويسرة ، أنها ليست لها علاقة بتلك المستعمرات ، وأنها لاتحمل تبعه أعمالها ، ولاتستطيع أن تتدخل في شأنها ، أو تبذل نصحتها لأولئك المغامرين الخارجين عن طاعتها ، وهو استنتاج يؤيده صمت الرواية العربية عن ذكر أخبار هذه المستعمرات ، مما يدل على أن حكومة الأندلس ، لم تكن ذات علائق رسمية بها ، ولم تكن تعنى بأمرها ، وإن كانت بلاريب تنظر إلى غزواتها وتوغلها في الأراضي النصرانية ، بعين العطف والرضى . ولكن لوتبراند وهو مؤرخ كنسى معاصر ، يؤكد لنا أن الخليفة كان يحمي هذه المستعمرات ، ويمدها بالتشجيع والعون^(١) .

بيد أن الرواية الكنسية تقدم إلينا بهذه المناسبة حديثاً طريفاً عن آراء الناصر في نظم الحكم ، فقد وقف الناصر من مستشاريه أو من يوحنا نفسه على طرق نظام الحكم الإقطاعي السائد في ألمانيا ، وما يتمتع به بعض الأمراء المحليين في ظل هذا النظام ، من الاستقلال الداخلي ، وأبدى ليوحنا اعتراضه على هذا النظام ، قائلاً إن ملككم أمير حكيم ماهر ، ولكن في سياسته شيئاً لا أستسيغه ، وهو أنه بدلا من أن يقبض بيديه على جميع السلطات ، ينزل عن بعضها لأتباعه ، ويترك لهم بعض ولاياته ، معتقداً أنه يكسب بذلك ، وهذا خطأ فادح ، فإن مداراة العظاء لا يمكن إلا أن تزيد في كبريائهم ، وتذكي رغبتهم في الثورة^(٢) . وفي ذلك ما يوضح لنا فكرة الناصر في الحكم المطلق ، وسياسته في سحق أولى الشأن والعصبية من زعماء القبائل العربية ، واعتماده على بطانة ذليلة من الفتيان الصقالبة والمولدين . تلك تفاصيل المراسلات والسفارة الشهيرة التي تبادلها أوتو الأكبر وعبد الرحمن الناصر ، زعما النصرانية والإسلام في عصرهما ، بيد أنها لم تكن خاتمة الصلات

Reinaud : Ibid, p. 193 (١)

Dozy : Hist. V. II. p. 153 (٢)

الدبلوماسية بين الناصر وملوك النصرانية . فقد تلقى الناصر كذلك في سنة ٣٤٤ هـ (٩٥٥ م) سفارة من أردونيو الرابع ملك ليون يرجو عقد السلام والمودة ، فأجابه إلى طلبه ؛ وأرسل في السنة التالية سفيره محمد بن الحسين إلى ليون ، فعقد مع أردونيو معاهدة صادقة عليها ، ولكن حال دون تنفيذها منافسة سانشو لأخيه أردونيو . وفي سنة ٣٤٧ هـ (٩٥٨ م) وفدت طوطة ملكة ناغار بنفسها إلى قرطبة ، ومعها ولدها غرسية وسانشو أمير ليون ، وطائفة من الأبحار والعطاء النصارى ، فاستقبلهم الناصر في قصره بالزهراء استقبالا حافلا ، وعقد السلم مع طوطة ، وأقر ولدها ملكاً على ناغار ، ووعد سانشو بالعون على استرداد عرشه . ثم وفدت على الناصر رسل البابا يوحنا الثاني عشر في طلب السلم والمودة بين الإسلام والنصرانية فأجابهم إلى ما طلبوا^(١) ، وكانت سفارة ذات مغزى واضح في الاعتراف بزعامة الناصر للعالم الإسلامي . وفي أخبار هذه السفارات المتبادلة بين زعيم الإسلام وملوك النصرانية ، وفي تفاصيلها الشائقة ، ما يلقي كبير ضوء على طبيعة التقاليد والرسوم الدبلوماسية في العصور الوسطى .

- ٥ -

في أوائل سنة ٣٤٩ هـ مرض الناصر من برد شديد أصابه ، واحتجب حيناً ، وأكب الأطباء على معالجته حتى تحسنت حالته نوعاً ، وعاد إلى الجلوس في القصر ، ولكنه أصيب بنكسة ، وعاد إلى احتجابه ، ولبث أشهراً تشتد به العلة حيناً ، وتخف حيناً ، حتى وافاه القدر المحتوم ، في الثاني من شهر رمضان سنة ٣٥٠ هـ (١٥ أكتوبر سنة ٩٦١ م) . وكانت وفاته بقصر الزهراء في الحادية والسبعين من عمره ، واستطال حكمه زهاء خمسين عاماً ، وهي أطول مدة حكمها خليفة من خلفاء الإسلام ، إذا استثنينا عهد المستنصر بالله الفاطمي بمصر .

وكان عبد الرحمن الناصر أعظم أمراء الإسلام في عصره ، بل ربما كان أعظم أمراء عصره قاطبة . ولم تصل الدولة الإسلامية في الغرب ، إلى ما وصلت إليه في عصر الناصر ، من القوة والسؤدد والهيبة والنفوذ . وكان يتمتع بخلال باهرة قلما تجتمع في شخصية واحدة ، سياسية وعسكرية وإدارية . وكان يشبه في

(١) ابن خلدون ج ٤ ص ١٤٣ .

حزمه وصرامته وبعد نظره ، بجده الأكبر عبد الرحمن الداخل^(١) . ويحمل ابن الأبار خواصه وخواص عصره في تلك العبارة : « وظهر لأول ولايته من يمن طأثره ، وسعادة جده ، واتساع ملكه ، وقوة سلطانه ، وإقبال دولته ، وخمود نار الفتنة على اضطرامها بكل جهة ، وانقياد العصاة لطاعته ، مما تعجز عن تصوره الأوهام »^(٢) . وتولى حجابته لأول ولايته مولاه بدر بن أحمد ، وما لبث أن اصطفاه وأولاه كل ثقته ، وفوض إليه الأمر والنهي ، وجعله على حد قول المؤرخ « شمساً لملكه وبدرأ »^(٣) . وولى أبناءه الثلاثة عبد الرحمن وعبد الله وإسماعيل مناصب في القصر والخاص . ولما توفى بدر بن أحمد في شهر رجب سنة ٣٠٩ هـ ، ولى الناصر مكانه في الحجابة موسى بن محمد بن حُدَيْر . وتولى وزارته عدة من أبنه رجال العصر ، منهم أحمد بن محمد بن حُدَيْر ، وجهّور بن عبد الملك ، وعبد الله بن محمد الزرجالي . وتولى إدارة الشؤون المالية عبد الملك بن جهور ، وأحمد بن عبد الملك بن شهيد^(٤) . وأهدى ابن شهيد إلى الناصر هديته المشهورة ، التي أفاض في وصفها مؤرخو الأندلس ، وكان منها خمسمائة ألف مثقال من الذهب ، ومائتا أوقية من المسك والعنبر ، وثلاثون شقة من الحرير المرقوم بالذهب ، ومائة فرس مسرجة ، وعشرون بغلاً عالية الركاب ، وأربعون وصيفاً ، وعشرون جارية بكسوتين وزينتين ، وأصناف عديدة أخرى . قال ابن خلدون « وهى مما يدل على ضخامة الدولة الأموية واتساع أحوالها » . ويجمع مؤرخو الأندلس على أنه لم تقدم هدية في قدرها ونفاسها إلى ملك من ملوك الأندلس . قدمها ابن شهيد إلى الناصر في سنة ٣٢٧ هـ ، ومعها خطاب رقيق يشيد فيه بعظمة الناصر ومآثره ، فوقعت لديه أحسن موقع ، وزاده حظوة واختصاصاً ، وأسمى منزلته على سائر الوزراء ، وأسبغ عليه لقب ذى الوزارتين ، فكان أول من حظى بهذا اللقب من وزراء الأندلس ، وضاعف له رزق الوزارة ، وجعله ثمانين ألف دينار في العام^(٥) . وولى قيادة الجيش لأول عهد الناصر أحمد بن محمد

(١) البيان المغرب ج ٢ ص ١٦٣ .

(٢) الحلة السیراء (لیدن) ص ٩٩ - ١٠٠ .

(٣) البيان المغرب ج ٢ ص ٢٤٠ .

(٤) البيان المغرب ج ص ١٦٤ .

(٥) راجع ابن خلدون ج ٤ ص ١٣٨ ؛ ونفع الطيب ج ١ ص ١٦٦ و ١٦٧ و ٦٧٧

نقلا عن ابن حيان وابن للفرضى وغيرهما .

ابن أبي عبدة ، سليل الأسرة الشهيرة ، التي تولى زعمائها قيادة الجيوش الأندلسية خلال الفتنة الكبرى . وكذلك ولها الحاجب بلدر غير مرة ، وولياها الفتيان الصقالبة مثل نجدة وميسور وغيرهما . وقد رأينا كيف انتهت سياسة عبد الرحمن في إثارة الصقالبة بالقيادة إلى كارثة الخندق . وعمن ولى القضاء في عهد الناصر أحمد بن محمد بن زياد ، وأسلم بن عبد العزيز بن هشام ، ومنذر بن سعيد البلوطي (١) .

وقد أورد لنا ابن حبان ثبناً طويلاً من الوزراء وأصحاب الخطط والموالي الذين تولوا المناصب الكبرى في عهد الناصر .

فمن الوزراء : محمد بن سليمان بن وانسوس . سعيد بن المنذر القرشي ؛ عبد الحميد بن بسيل ، خالد بن أمية بن شهيد . عيسى بن أحمد بن أبي عبدة ؛ جهور بن عبد الملك البختي ، أحمد بن محمد بن إلياس .
ومن أصحاب الخطط : محمد بن سعيد بن المنذر القايد . عيسى بن فطيس الكاتب . عبد الله بن بلدر بن أحمد صاحب الشرطة . محمد بن قاسم بن طملس صاحب المظالم . محمد بن عبد الله بن موسى الخازن ؛ إسماعيل بن بلدر بن إسماعيل العارض .

ومن الموالي : جهور بن عبيد الله بن محمد بن أبي عبدة . أحمد بن خالد ابن أمية بن عيسى بن شهيد . محمد بن جهور بن عبد الملك البختي . مروان بن جهور بن عبد الملك البختي ، أحمد بن سهل بن محمد . عبد الله بن أحمد بن محمد ابن عيسى . محمد بن عباس بن محمد بن أبي عبدة . عبيد الله بن عباس بن أحمد ابن أبي عبدة ، عبد الله بن يحيى بن أدريس . عبد الوهاب بن محمد بن بسيل . محمد بن مروان بن عبد الله بن بسيل . عبد الرحمن بن أحمد بن زكريا بن عاصم . محمد بن أحمد بن قابوس . أحمد بن محمد بن عيسى . محمد بن عبد السلام بن كليب بن ثعلبة (٢) .

(١) البيان المغرب ج ٢ ص ١٦١ .

(٢) نقلنا هذا الثبوت عن ابن حبان أورده في المقتبس - السفر الخامس - مخطوط الخزائنة الملكية التي سبقت الإشارة إليه غير مرة . وأورد لنا ابن حبان أيضاً ثبناً طويلاً بأسماء عمال الكور في عهد الناصر استغرق صفحة كاملة (لوحه ١٥٣ أ) . ولكننا لم نجد محلاً لإيراده .

وذكر لنا ابن حبان ، في حوادث سنة ٣٢٤ هـ ، أن الوزراء في هذه السنة كانوا عشرة ، وهم : سعيد بن المنذر القرشي المرواني . أحمد بن محمد بن حدير . عبد الحميد بن بسيل . أحمد بن عبد الوهاب بن عبد الرووف . خالد بن أمية ابن شهيد . عيسى بن أحمد بن أبي عبدة . عبد الملك بن جهور . فطيس بن أصبغ بن فطيس . أحمد بن محمد بن إلياس . يحيى بن إسحق .

وذكر لنا في حوادث سنة ٣٢٥ هـ ، أنه قد عزل عن الوزارة يحيى بن إسحق ، ووليها أحمد بن عبد الملك بن شهيد ، وعبد الرحمن بن عبد الله الزجالي ، وأن الوزراء بلغ عددهم في هذه السنة واحداً وعشرين وزيراً ، منهم تسعة من العشرة الذين سبق ذكرهم عدا يحيى بن إسحق (١) .

وكان عبد الرحمن الناصر عالماً أديباً ، يهوى الشعر وينظمه ، ويقرب الأدباء والشعراء ؛ وكان في مقدمة دولته وأكثرهم حظوة لديه ، الفقيه ابن عبد ربه صاحب العقد الفريد ، وشاعر الدولة المروانية منذ محمد بن عبد الرحمن . ويفيض ابن عبد ربه في مناقب الناصر ، ويستعرض غزواته منذ ولايته حتى سنة ٣٢٢ هـ ، في أرجوزة طويلة رتبت وفق السنين (٢) . ومن شعره في وصف عصر الناصر ، واعتزاز الإسلام بدولته قوله :

قد أوضح الله للإسلام منهاجا	والناس قد دخلوا في الدين أفواجا
وقد تزينت الدنيا لساكنها	كأنها ألبست وشياً ودياجا
يا ابن الخلائف إن المزن لو علمت	نداك ما كان منها الماء ثجاجا
والحرب لو علمت بأساً تصول به	ما هيجت من حياك الذي اهتاجا
مات النفاق وأعطى الكفر رتمته	وذلت الخيل إلحاماً وإسراجا
وأصبح النصر معقوداً بألوية	تطوى المراحل تهجيراً وإدلاجا
أدخلت في قبة الإسلام بارقة	أخرجتها من ديار الشرك إخراجا
بجحفل تشرق الأرض الفضاء به	كالبحر يقذف بالأموج أمواجا
يقوده البدر يسرى في كواكبه	عمرماً كسواد الليل رجراجا

(١) وردت الفقرة الأولى في النقبس - السفر الخامس - لوحة ١٥٣ أ ، ووردت الفقرة الثانية في لوحة ١٦٢ أ .

(٢) راجع هذه الأرجوزة في كتاب العقد الفريد (طبعة المطبعة الأزهرية) ج ٣ ص ٢٠٩ إلى ٢٢٧ .

إن الخلافة لن ترضى ولا رضيت حتى عقدت لها في رأسك التاج (١)
 ومما ينسب إلى الناصر من النظم ، قوله :
 لا يضر الصغير حدثان سن إنما الشأن في سعود الصغير
 كم مقننم فازت يدها بغنم لم تنله بالركض كف مغير (٢)
 وكان الناصر سمحاً وافر الخود : ويصفه ابن الأثير بأنه كان ، أبيض ،
 أشهل ، حسن الوجه ، عظيم الجسم ، قصير الساقين (٣) وترك الناصر من
 البنين أحد عشر ولدأ منهم ولي عهده وخلفه الحكم المستنصر بالله .
 وقال الوزير جعفر بن عثمان المصحفي في رثاء الناصر :

إلا إن أياماً هفت بإمامها لحائرة مشتطة في احتكامها
 فلم يؤلم الدنيا عظام خطوبها وأحداثها إلا قلوب عظامها
 تأمل فهل من طالع غير آفل هن وهل من قاعد لقيامها
 وعاین فهل من عائش برضاعها من الناس إلا ميت بظامها
 كأن نفوس الناس كانت بنفسه فلما توارى أيقنت بحمامها
 فطار بها يأس الأسي وتقاصرت يد الصبر عن أعوالها واحتدامها

ويشيد النقد الحديث بمناقب عبد الرحمن الناصر وعصره أعظم إشادة : وربما
 كان أبلغ ما قيل في ذلك تلك العبارات القوية التي يختم بها العلامة دوزي حديثه عن
 عصر عبد الرحمن الناصر : « لقد كانت هذه نتائج باهرة ، ولكننا نجد إذا ما درسنا
 ذلك العصر الزاهر ، أن الصانع يثير الإعجاب والدهشة ، بأكثر مما يثيرها
 المصنوع : تثيرهما تلك العبقريّة الشاملة التي لم يفلت شيء منها ، والتي كانت
 تدعو إلى الإعجاب في تصرفها نحو الصغار ، كما تدعو إليه في أسمى الأمور . إن
 ذلك الرجل الحكيم النابه ، الذي استأثر بمقاليد الحكم ، وأسس وحدة الأمة ،
 ووحدة السلطة معا ، وشاد بواسطة معاهداته نوعاً من التوازن السياسي ، والذي
 اتسع تسامحه الفياض لأن يدعو إلى نصحه رجالا من غير المسلمين ، لأجلد بأن
 يعتبر قريباً للملوك العصر الحديث ، لا خليفة من خلفاء العصور الوسطى » (٤).

(١) وقيل إن هذه القصيدة وجهت إلى الناصر بمناسبة عوده ظافراً من أول غزوة قام بها ضد
 الثوار في مستهل حكمه .

(٢) ففتح الطيب ج ١ ص ١٦٦ .

(٣) ابن الأثير ج ٨ ص ١٧٧ .

(٤) Dozy : Hist, V. II. p. 175

الفصل الثالث

غزوات المسلمين

في غاليس وشمال إيطاليا وسويسرة

توقف الغزو الإسلامي عقب بلاط الشهداء . استثناف للغزو في عهد هشام . غزو الفرنج لشمال الأندلس . الغزوات الإسلامية المغامرة . صمت الرواية الإسلامية عن ذكرها . غزو قورسقة وشواطئ فرنسا الجنوبية . غزو مرسيليا وبروفانس . غزو موسى بن موسى لسبتمانيا . غزو جزيرة كاماراج . اضطراب الأحوال في جنوبي فرنسا . غزو المسلمين لشواطئ سان تروبيه . معاقلم في تلك الأنحاء . تدخلهم بين النصارى . اختراق الغزاة لدوفينه . عبورهم مون سني . احتلالهم لممرات الألب . جوازهم إلى سهول بيمون . عودهم إلى غزو بروفانس . غزوهم لمرسيليا وليكس . خلقهم لممرات الألب . تقدمهم إلى ليجوريا . غزوهم لمنطقة فالايه وساقوا . وصولهم إلى قلب سويسرة وشرقها . غزوهم لنتز فريجوس . اتحاد الأمراء النصارى على مقاومتهم . استنجادهم بقصر قسطنطينية . مهاجمة المسلمين وتمزيقهم . الصلح بينهم وبين ملك بروفانس . احتلالهم لممر سان برنار . استيلاؤهم على جرينوبل . غاراتهم في بيمون . الحرب بينهم وبين الحجر . وصولهم إلى سان جان . قتالهم وهزيمتهم . صدى الغزوات الإسلامية في جنوبي أوروبا . سعى البابوية وإمبراطور ألمانيا لوقفها . محاربة الغزاة في دوفينه وبروفانس . هزيمتهم وارتدادهم إلى الجنوب . سقوط حصن فراكسنيه . سقوط المستعمرات الإسلامية في الألب . غزوات بحرية إسلامية لشواطئ فرنسا . غزو قورسقة ومردانية . ظروف هذه الغزوات الإسلامية . خواصها وبواعثها . آثارها المادية والأدبية . أثر العرب في تقدم الزراعة في الأنحاء المفتوحة . نقلهم لكثير من المحاصيل والفراس . أثرهم في تحمين سلالة الخيل . الآثار الاجتماعية . أقوال النقد الحديث .

— ١ —

تحدثنا فيما تقدم عن غزوات العرب في غاليس (جنوبي فرنسا) منذ الفتح ، ورأينا كيف وضع ارتداد العرب في موقعة بلاط الشهداء في سنة ١١٤ هـ (٧٣٢ م) حداً لغزواتهم في غاليس ، وكيف فقدوا تبعاً قواعدهم في لانجدوك وسبتمانيا ، حتى انتهت رياستهم فيما وراء البرنيه بسقوط ثغر أربونة ، آخر قواعدهم في سبتمانيا ، في يد الفرنج في سنة ١٤٢ هـ (٧٥٩ م) (١) .

وكانت الأندلس خلال هذه الفترة تضطرم بالفتن الداخلية والحرب الأهلية . ولما استطاع عبد الرحمن الأموي أن يبتزع الرياسة لنفسه من عمر الفتنة ، وأن يعيد

(١) راجع « دولة الإسلام في الأندلس » القسم الأول ص ١٢٧ .

ملك الدولة الأموية بالأندلس ، لبث بقية عهده يعمل على توطيد ملكه الفتي ، وحمايته من الثوار والخوارج ، ولم تتح له فرصة للتفكير في الغزوات الخارجية . بل لقد اضطر أن يقف موقف المدافع من مملكة الفرنج ومن عاهلها شارلمان ، الذي حاول أن يغزو الولايات الإسلامية ، بموازرة الزعماء الخوارج في الثغر الأعلى ، واضطر أن يقضي مدى حين عن غزوات المملكة النصرانية الناشئة ، لأراضي الأندلس وقواعدها الشمالية .

فلما تولى ولده هشام الملك ، واستطاع أن يقضي على ثورة أخويه سليمان وعبد الله ، وجه عنايته إلى مقارعة المملكة الفرنجية ، ورد خطرهما عن الأندلس ، وبعث إلى الشمال في سنة ١٧٦ هـ (٧٩٢ م) بجيش كثيف بقيادة حاجبه عبد الملك ابن عبد الواحد بن مغيث ، فعبر جبال البرنيه ، ونشبت بين المسلمين والفرنج في سائط سبانيا عدة معارك كانت سجالا ، ووجد بذلك عهد الغزو والجهاد فيما وراء البرنيه :

وعاد الفرنج في عهد الحكم بن هشام ، فعبروا جبال البرنيه في سنة ١٨٥ هـ (٨٠١ م) وغزوا الثغر الأعلى وافتتحوا ثغر برشلونة ، واقتطعوا بذلك جزءاً من الأندلس الشمالية : ولم تمض بضعة أعوام أخرى ، حتى عبر الفرنج البرنيه للمرة الثانية (١٩٣ هـ - ٨٠٩ م) وحاولوا الاستيلاء على مدينة طرطوشة ، ولكن المسلمين استطاعوا إنقاذها .

وفي عهد عبدالرحمن بن الحكم سارت حملة بحرية أندلسية لغزو الجزائر الشرقية ، وقد رأينا فيما تقدم كيف غدت مياه الأندلس الشرقية مركزاً لحملة البحارة المسلمين ، يسرون منها نحو الشمال والشرق إلى الشواطئ والجزائر القريبة ، ينقضون عليها طلباً للغنيمه والسبي ، وكيف بدأت من ذلك الحين محاولات المجاهدين المسلمين ، لغزو شواطئ فرنسا الجنوبية وأحواز مصب الرون .

وقد فصلنا فيما تقدم من كتابنا أخبار الغزوات الأندلسية الرسمية فيما وراء البرنيه ، وأشرنا بإيجاز إلى بداية عهد الحملات البحرية الأندلسية الخاصة (١) . سنحاول في هذا الفصل أن نستعرض لمحة من أخبار هذه الحملات والغزوات الإسلامية غير الرسمية البحرية والبرية ، إلى شواطئ فرنسا الجنوبية ، وما يجاورها

(١) راجع « دولة الإسلام في الأندلس » ص ٢٦٥ و ٢٦٦ .

من سهول ليجوريا وهضاب سويسرة ، ومما يجدر ذكره أن الرواية الإسلامية قلما تشير إلى هذه الغزوات بكلمة ؛ وربما كان ذلك راجعاً إلى طبيعة هذه الغزوات والمغامرات غير الرسمية ، التي كانت تنظمها جماعات خاصة من المجاهدين لا تربطها بحكومة قرطبة صلة رسمية ، ولا تعتمد إلا على جهودها ومواردها الخاصة .

بدأت هذه الغزوات الأندلسية للشواطئ والثغور الفرنجية منذ أوائل القرن التاسع . وكان معظمها حملات بحرية ، قوامها جماعات من المجاهدين والزعماء المغامرين . ففي سنة ٨٠٦ م غزت إحدى هذه الجماعات البحرية المجاهدة جزيرة كورسيكا (قورسقة) ، وهزمت الأسطول الفرنجي الذي بعثه بين ابن شارلمان ملك إيطاليا لقتالهم ، وعادت بكثير من الغنائم والسبي . وتوالت بعد ذلك غزوات البحارة الأندلسيين لشواطئ كورسيكا وسردانية ، وهما يومئذ أغنى جزر البحر المتوسط . وكذلك توالت غارات البحارة المسلمين على شواطئ فرنسا الجنوبية . وتعنى الرواية الكنسية والفرنجية المعاصرة بتدوين هذه الغزوات الإسلامية ، وتصف عصفها وعيها ، وما كانت تحدثه من الرعب بين السكان النصارى ، وتقول لنا إن البحارة المسلمين ، ذهبوا في الجراة إلى حد التجول في مياه الأطلنطيق ، والإغارة على شواطئ فرنسا الغربية ، وإن سفينة عربية كبيرة اجتازت في ذلك الحين مياه الأطلنطيق حتى مصب نهر اللوار (١) .

وفي سنة ٨٣٨ م سار أسطول أندلسي من مياه طرطكونة ومياه الجزائر الشرقية إلى مياه بروقانس ، وغزا ثغر مرسيليا وما حوله من الأراضي ، وأثنى فيها ، وحمل الغزاة كثيراً من الغنائم والسبي . ولم يستطع ملك فرنسا الضعيف لويس ابن شارلمان مقاتلة الغزاة . ثم عاد البحارة المسلمون وغزوا شواطئ بروقانس مرة أخرى ، ونفذوا إلى مصب نهر الرون ، واقتحموا مدينة آرل وخربوا كنائسها . وتوالت بعد ذلك غزواتهم لهذه المنطقة . وفي سنة ٨٥٠ م في أواخر عهد عبد الرحمن ابن الحكم ، عبر موسى بن موسى بن قسي صاحب سرقسطة وزعم الثغر الأعلى ، جبال البرنيه ، وغزا سبانيا وأثنى في نواحيها ، واضطر شارل الأصلع ملك فرنسا أن يهادنه ، وأن يعقد الصلح معه ، وأن يسترضيه بالهدايا والتحف . ومن

(١) جمعت أقوال الروايات الكنسية والفرنجية المعاصرة ، عن هذه الغزوات الإسلامية ، في موسوعة Bouquet التي سبقت الإشارة إليها غير مرة ، بنصوصها اللاتينية أو الفرنسية القديمة ، وقد عتمدنا عليها في كثير من حوادث هذا الفصل .

المرجح أن هذه الغزوة لم تكن ذات طابع رسمي ، ولم تكن لها صلة بحكومة قرطبة . ذلك أن بنى قسيّ زعماء الثغر الأعلى في ذلك الحين ، كانوا يتمتعون باستقلال محلي ، ولا يدينون بالولاء لحكومة قرطبة ، وكانوا بالعكس ينزعون إلى مقاومتها والخروج عليها . وفي سنة ٨٦٩م هاجمت جماعة من البحارة والمجاهدين المسلمين شواطئ بروفانس مرة أخرى ، واستولت على جزيرة كاماراج الواقعة في مصب الرون ، وأسرت أسقف آرل الذي كان يقيم بها ، وعادت مثقلة بالغنائم والأسرى .

— ٢ —

وأذكى نجاح هذه الغزوات المتوالية ، في نفوس المغامرين والمجاهدين من مسلمي الأندلس وإفريقية ، حب التوغل في هاتيك الأنحاء ، ورغبة في استعمارها والاستقرار فيها . وكانت أحوال غاليس (جنوبي فرنسا) قد اضطرت يومئذ ، وغلب سيد من سادة هذه الأنحاء يدعى بوسون على ولايتي دوفينه وبروفانس ، وتلقب بملك آرل . وقام يناوئه بعض منافسيه ، ونشبت بينه وبينهم حرب أهلية (نحو سنة ٨٩٠ م) . ففي تلك الآونة رست سفينة عربية صغيرة عليها عشرون بحاراً من المسلمين ، في خليج جريمو أو خليج سان تروبيه ، ونزلوا إلى الشاطئ ولجأوا إلى غابة كثيفة ، تظللها الجبال ، ثم هاجموا بعض الضياع القريبة وفتكوا بسكانها . ولما رأوا منعة معقلهم من البر والبحر ، عولوا على الاستقرار فيه ، ودعوا لإخوانهم من الثغور الإسلامية القريبة إلى القدوم ، وأرسلوا في طلب العون والتأييد من حكومات الأندلس والمغرب ، فوفد عليهم كثير من المغامرين البواسل . ولم تمض أعوام قلائل ، حتى استقروا في ذلك المكان ، وأنشأوا لهم سلسلة من المعقل والحصون ، أمنعها وأشهرها حصن تطلق عليه الرواية الفرنجية المعاصرة ، اسم (فراكسنتم) Fraxinetum . والمظنون أنه هو المكان الذي تقوم عليه اليوم قرية (جارد فرينيه) Garde-Frinet الواقعة في سفح جبال الألب^(١) . وما زالت ثمة آثار تدل على قيام معقل قديمة في ذلك المكان . ولما كثر جمعهم ، واشتد ساعدتهم ، اخذوا في الإغارة على الأنحاء المجاورة ، وأصبحوا قوة يخشى بأسها . وسعى إليهم بعض الأمراء والسادة المتنافسين يستظهرون بهم ، بعضهم على بعض ، فلبوا الدعوة ،

وانزعوا من بعض السادة أراضيهم ، وأعلنوا أنفسهم سادة في الأنحاء المغلوبة ، وبثوا الذعر والروع في جنوب بروفانس ، حتى وصفهم كاتب معاصر « بأن واحداً منهم يهزم ألفاً ، واثنين يهزمان ألفين » (١) .

وكانت هذه أول خطوة في استعمار المسلمين لجنوبي فرنسا . وفي خاتمة القرن التاسع اتخذ المستعمرون المسلمون خطوة أخرى ، فتقدموا نحو جبال الألب غرباً وشمالاً . وكانت مملكة آرل قد ضعفت وضمحت ، وخلف بوسون ولده لويس ، ولكنه ذهب إلى إيطاليا ليحارب إلى جانب حلفائه فهزم هنالك وأسر ، وتركت مملكته بلا دفاع ، وساد الإخلال والفوضى غاليس كلها . فانهز المسلمون تلك الفرصة واخترقوا مفاوز دوفينه ، وعبروا « مون سني » أهم ممرات الألب الفرنسية ، واستولوا على دير نوفاليس الشهير الواقع في وادي «سيس» على حدود بيمون ، وفر الأحبار إلى مختلف الأنحاء (سنة ٩٠٦ م) . وأغار المسلمون على القرى والضياع المحاورة ونهبوها ، وفتكوا بأهلها ، وأسر بعضهم وأخذوا إلى تورينو بإيطاليا وسجنوا في ديرها ، ولكنهم استطاعوا أن يحطموا أغلالهم ، وأضرموا النار في الدير وفي المدينة ، وفروا عائدين إلى زملائهم . واشتد بأس المسلمين في تلك الأنحاء ، واحتلوا معظم ممرات الألب ، فسيطروا بذلك على طرق المواصلة بين فرنسا وإيطاليا ، ثم انحدروا من آكام الألب إلى سهول بيمون ، وأغاروا على بعض مناطقها .

وفي سنة ٩٠٨ م نزلت سرية قوية من البحارة المسلمين في شاطيء بروفانس على مقربة من « إيج مورت » ونهبت دير بالمودي ، وكانت الأديار والكنائس يومئذ مطمح أنظار الغزاة ، لما كانت تغص به من الذخائر والأموال . وانتشر المسلمون بعد ذلك في جميع الأنحاء المحاورة ، واجتاحوا كل ما في طريقهم من البسائط ، وهاجموا مرسيليا ، وهدموا كنيستها ، وغزوا إيكس ، وسبوا النساء وتزوجوا بهن ليكثر نسلهم ويقووا به ، وانضم إليهم كثير من النصارى المغامرين من أهل هذه الأنحاء ، وهجر السادة والأغنياء حصونهم وقصورهم ، والتجأوا إلى الداخل خشية القتل والأسر ، وأغلق المسلمون طريق الألب إلى إيطاليا ، وكان عمرها كل عام ألوغ من الحجاج الذين يقصدون إلى رومة ، واقتضوا منهم الضرائب الفادحة ليسمحوا لهم بالمرور •

ثم اتخذ المسلمون خطوة جديدة في سبيل التقدم إلى أواسط أوروبا ، فدفعوا غزواتهم إلى پييمون ومونفراتو . وتقول لنا الرواية الكنسية المعاصرة إنهم وصلوا في أوائل القرن العاشر إلى حدود ليجوريا على شاطئ خليج جنوة . و يروى لوتبراند ، وهو كاتب معاصر ، أن العرب غزوا سنة ٩٠٦ ، مدينة « آكي » من أعمال مونفراتو الشهيرة بحماماتها (وهي على مقربة من تورينو) ، ثم غزوها ثانية سنة ٩٣٥ بقيادة زعيم يدعى (ساجيتوس) ولكنهم هزموا ومزقوا . وفي هذا الوقت أيضاً نزلت جماعة قوية من البحارة الإفريقيين بساحل جنوة ، وقتلت عدداً كبيراً من أهلها ، وأسرت جموعاً كثيرة من النساء والأطفال .

وفي سنة ٩٣٩ م غزا المسلمون منطقة « قاليه » في جنوب سويسرة ، ونهبوا دير « أجون » الشهير ، وغزوا في الوقت نفسه منطقة « تاراتيز » من أعمال سافوا الوسطى ، ثم اتخذوا منطقة « قاليه » قاعدة للإغارة على الأراضي المجاورة في سويسرة وإيطاليا ، ونفذوا منها إلى أواسط سويسرة ، ثم إلى « جريزون » في شرق سويسرة ، ونهبوا دير ديزنتي أشهر وأغنى الأديار السويسرية ، ونهبوا طائفة أخرى من الأديار والكنائس الغنية . وفي بعض الروايات أيضاً أن المسلمين وصلوا في غزواتهم إلى بحيرة جنيف ، وجاوزوا إلى مفاوز جورا الواقعة في شمالها ، وكانت سويسرة يومئذ من أقاليم بوجونية وملكتها يومئذ الملكة « برت » الوصية على ولدها الطفل كونراد ، فارتدت حين اقترب العرب إلى حصن ناء في جهة نيو شاتل .

وفي سنة ٩٣٠ م غزا العرب فريجوس وكانت يومئذ من أكبر وأمنع ثغور فرنسا الجنوبية ، وغزوا أيضاً ثغر طولون ، ففر السكان إلى الجبال ، وعاث المسلمون في تلك الأنحاء ، وخرّبوا المدن والحصون ، وأحرقوا الأديار والكنائس . ولما اشتدت وطأة المسلمين في جنوبي فرنسا ، وبلغ السخط من غزواتهم وعيهم ذروته ، اعتزم سادة الجنوب ، وعلى رأسهم هوج ملك بروفانس أن يبذلوا كل ما في وسعهم لسحق ذلك العدو المزعج . ورأى هوج أن يبدأ بافتتاح حصن فراكسنيه (فراكسنتم) الذي يمتنع به المسلمون ، ويتخذونه قاعدة لتأمين مواصلاتهم مع اسبانيا وإفريقية ، وقاعدة للإغارة على الداخل ، وكتب إلى صهره إمبراطور

قسطنطينية ، يطلب منه أسطولاً من قاذفات النار اليونانية ، حتى يستطيع مهاجمة المسلمين من البر والبحر معاً . فلبى نداءه . وفي سنة ٩٤٣ م رسا أسطول بيزنطي في مياه سان تروبيه ، وزحف هوج في نفس الوقت بجيشه على فراكسيه ، وهوج المسلمون من البر والبحر بمنتهى الشدة ، وأحرقت سفنهم ، ونفذ هوج إلى الحصن بعد قتال رائع ، وفر المسلمون إلى الآكام والرني ، وكاد يسحق سلطانهم في تلك الأنحاء . ولكن حدث بعد ذلك أن علم هوج أن خصمه ومنافسه بيرانجيه ، قد عاد إلى إيطاليا لينازعه في انتزاع عرشها فصرف هوج الأسطول ، واضطر أن يعقد الصلح مع المسلمين ، بشرط أن يبقوا في رؤوس الألب وممراتها ، وأن يغلقوا الطريق إلى إيطاليا في وجه خصمه ، وبذلك استعاد المسلمون قلاعهم وسيادتهم في جنوبي بروفانس .

واحتل المسلمون آكام الألب وممراتها ، وفرضوا الضرائب الفادحة على المسافرين ، واستطاعوا بسيطرته على ممر سان برنار الكبير ، الموصل بين سويسرة وإيطاليا ، وغيره من الممرات والمعازل الجبلية ، أن يجتاحوا الأنحاء المجاورة ، وأن يثبوا فيها الذعر والروع ، واستقرت منهم جموع في السهول والضياع القرية من معاقلمهم ، وتزوجوا النساء الأسيرات ، وزرعوا الأرض ، واكتفى أمراء هذه النواحي بأن يحصلوا منهم بعض الضرائب . ونفذ المسلمون أيضاً إلى منطقة نيس ذاتها ، وما يزال في نيس إلى اليوم حي يعرف بحي العرب *Canton des Sarrazins* وأخيراً نفذ المسلمون إلى قلب ولاية دوفينه ، وغزوا جرينوبل واحتلوها مدى حين ، واحتلوا واديها الحصب «جريزيقودان» الذي يجري فيه نهر الإيزر فرع الرون ، وفر أسقف جرينوبل وزملاؤه إلى الشمال حاملين رفات قديسيهم^(١) .

وهكذا انتشرت المستعمرات والمعازل الإسلامية خلال القرن العاشر الميلادي في بروفانس وسافوا وبييمون وسويسرة ، وبسط المسلمون سيادتهم على ممرات جبال الألب وعلى الحدود بين غاليس وبلاد اللونبارد (شمال إيطاليا) وبينها وبين سويسرة ، وبلغوا في تقدمهم في غاليس مدينة جرينوبل ، واحتلوا في سويسرة ولاية فاليه ومفاوز جورا المتاخمة لبرجونية ، واحتلوا في إيطاليا الشمالية ، ولاية

ليجوريا ، وكانت معاقلمهم في بروفانس ولاسيا حصن «فراكسنيه» ، قواعد غزواتهم وملاذ قوتهم وسيادتهم . والظاهر أنهم اتبعوا نفس هذه الخطة في سهول بيمون ، فأنشأوا بها سلسلة من الحصون والقلاع القوية ، لتكون مركز غزواتهم في بلاد اللونبارد وفي سويسرة ، فإن الرواية الكنسية التي كتبها حبر معاصر من دير نوفاليس ، تذكر لنا اسم حصن إسلامي في تلك الأنحاء وتسميه «فراشنديلوم» Frascendellum ، والمظنون أنه هو المكان الذي تعرفه الجغرافية الحديثة باسم «فراسنتو» ، وهو الواقع في لومبارديا على مقربة من نهر «بو» . وتقص علينا نفس هذه الرواية الكنسية أيضاً أن سيداً نصرانيا من سادة تلك الأنحاء يدعو إيمون دفعه شغف المغامرة والكسب ، إلى مخالفة المسلمين فانضم إليهم ، واشترك في غاراتهم الناهية ؛ وفي ذات يوم وقعت بين السبايا امرأة رائعة الحسن ، فاستبقاها إيمون لنفسه ، ولكن زعيماً مسلماً استحسبها وانزعها منه قسراً ، فغضب إيمون والتجأ إلى كونت روتبالدرس حاكم بروفانس العليا ، وفاوضه سرّاً في محاربة المسلمين ، وإنقاذ البلاد منهم ، فرحب الكونت بهذا المشروع ، ودعا السادة إلى معاونته ، واستطاع أن يحدد قوات كبيرة ، وهوجم المسلمون في بيمون من كل صوب ومزقوا ، وسقطت قلاعهم في أيدي النصارى ، وذهب سلطانهم في تلك الأنحاء . وتقص الرواية الكنسية أيضاً قصة مؤامرة دبرها كونراد ملك بروجونية لإهلاك المسلمين النازلين في أملاكه في چورا وعلى حدود بروجونية ، والمجر الذين كانوا يشاطرونهم يومئذ الإغارة والعيث في تلك الأنحاء . وذلك أنه كتب إلى المسلمين يستحثهم على قتال منافسيهم المجر ، وانزاع ما بيدهم من الأراضي والضياح الحصبة ، وكتب مثل ذلك إلى المجر يستحثهم لقتال المسلمين والمعاونة على إجلائهم ، وعين مكاناً للقاء الفريقين ، فالتقت الجموع المتنافسة من المسلمين والمجر ، ونشب بينهما قتال هلك فيه كثير من الفريقين ، ثم أشرف كونراد بمجموعه ، ومزق البقية الباقية من الفريقين قتلاً وأسراً ، ونضع الرواية تاريخ هذه الواقعة في سنة ٩٥٢ م ، ولكنها لا تعين لنا مكان حدوثها^(١) .

ومنذ منتصف القرن العاشر يأخذ نجم أولئك المسلمين المستعمرين المغامرين في الأفول ، وتضع حل سيادتهم في تلك الأنحاء . بيد أنهم لبثوا مدى حين بعد ذلك

يحتلون كثيراً من مواقع سافوا ، ويجوبون أنحاء سويسرة كلها في طلب الغنيمة والسبي ، وقد اعتادوا على حرب الجبال وخذقوا أساليبها ، وبلغوا في توغلهم في سويسرة مدينة سان جالن على مقربة من بحيرة كونستانس ، وأنشأوا ثمة كثيراً من القلاع والأبراج ، التي مازالت تقوم منها إلى اليوم بعض الأطلال والبقايا ، ولبثوا حيناً في سان جالن حتى حشد رئيس ديرها حوله جمعاً من المقاتلين الأشداء ، وفاجأوا المسلمين في جوف الليل ، ومزقوهم قتلاً وأسراً ، وبذلك خفت وطأة الغزوات الإسلامية في شمال سويسرة .

واستمرت المستعمرات والمعازل الإسلامية في دوفينه وبروفانس ، وبعض جهات الألب ، وكان قربها من «فراكسنيه» أمنع المعازل الإسلامية بمدّها بأسباب الحرّة والعون ، ومدّها قربها من البحر دائماً بأمداد جديدة من المتطوعين والمغامرين من ثغور الأندلس وإفريقية .

وكان لاستقرار هذه المستعمرات الإسلامية في جنوبي أوروبا ، وعينها المستمر في الأندلس والسهول المجاورة ، وقع عميق في الحكومات الأوربية ، وكان صريخ البابوية يتردد لدى أمراء أوروبا ، بالسعي إلى مكافحة هذا الخطر الداهم ، وكان أوتو الأكبر إمبراطور ألمانيا وأعظم أمراء النصرانية يومئذ ، أشد هولاء الأمراء اهتماماً بالقضاء على خطر المستعمرات الإسلامية ، لأنه يدنو من أملاكه ويصيبها بشره . ولهذا رأى أن يبذل في هذا السبيل سعيه ، لدى عبد الرحمن الناصر عاهل الأندلس وزعيم الإسلام الروحي والزمني ، وأوفد إليه في سنة ٩٥٦ م سفارته الشهيرة التي أتينا على ذكرها . وبحث سفيره يوحنا الجوززيني مع الخليفة مسألة اعتداء المستعمرات الإسلامية على الأراضي النصرانية ، والتمس إليه أن يعاون بنصحه ونفوذه على قمع هذا العدوان . ولكن هذا المسعى لم يسفر عن أية نتائج عملية ، إذ اعتذر الخليفة حسبما فضلنا من قبل ، بأن هذه المستعمرات الإسلامية لا تخضع له ولا تآتمر بأوامره ، وأنها تعمل مستقلة بعيدة عن حكومة قرطبة . على أن لوتبراند ، وهو مؤرخ كنسي معاصر ، يؤكد أن الخليفة كان يحمي هذه المستعمرات ويمدّها بالتشجيع والعون^(١) .

ولم يمض قليل على ذلك حتى أخرج المسلمون من معاقلم في آكام سان برنار

(في نحو سنة ٩٦٩ م) : ولسنا نعرف تفاصيل ذلك الحادث ، ولكن المحقق أن المسلمين أبدوا كعادتهم منتهى البسالة في الدفاع عن مواقعهم : والظاهر أيضاً أن القديس برنار (سان برنار) الذي سميت هذه الآكام باسمه ، كان من أبطال الموقعة التي نشبت وانتهت بجلاء المسلمين :

واستمر المسلمون في دوفينه وپروفانس ، وكثيراً ما دعوا إلى التدخل بين سادة هذه الأنحاء . ولما غزا الإمبراطور أوتو بلاد اللونبارد ، وأخرج منها ملكها پيرانجيه ، التجأ ولده أدلبرت إلى عرب «فراكسنيه» ، ليعاونوه في استعادة ملكه ، وكان هذا التحالف بين السادة والمسلمين ، يقوى سيادة الغزاة ويدعمها كلما أذنت بالانهيار . بيد أن هذه السيادة قد أخذت في الاضمحلال ، مذ فقد العرب معاقلمهم في جبال الألب . وفي سنة ٩٦٥ م أخرج المسلمون من مدينة جرينوبل ومن وادها الخصب (جريزيفودان) وطوردوا في تلك النواحي ، وساءت أحوالهم ، وأعلن الإمبراطور أوتو بعد ذلك بعامين أو ثلاثة وهو يومئذ في إيطاليا ، أنه سيتولى طرد المسلمين من الأراضى النصرانية ، ولكنه توفي دون القيام بمشروعه .

ثم دنت بوادر المعركة الحاسمة : وحدث في ذلك الحين أن حبراً كبيراً ذائع الصيت ، وهو سان ماييل أسقف دير كلوني من أعمال برجونية ، حج إلى رومة ، ولما عاد من طريق دوفينه أسره المسلمون المرابطون في الجبال مع جماعة كبيرة من الحجاج ، واشترطوا عليهم فدى فادحة ، فدفعت بعد عناء ، وأطلق سراح سان مييل وزملاؤه ، وأذكى الحادث حماسهم ونخظهم ، وذاعت قصة أسرهم ، وما يعانیه الحجاج من شر المسلمين وعدوانهم . فهض سيد من سادة تلك الأنحاء يدعى بويون ، (أو بيغون) ، وانتهاز فرصة الحماسة العامة وجمع حوله كثيراً من المقاتلة ، وبنى حصناً في سترون على مقربة من حصن كان يملكه المسلمون ، ولبت يتحين الفرصة لمفاجأة العرب والاستيلاء على حصنهم ، حتى استطاع ذات يوم أن يحمل بعض الحراس على فتح الأبواب ، فتمت الخيانة ، وباغت النصارى المسلمين في حصنهم ، وقضوا عليهم قتلاً وأسراً (سنة ٩٧٢ م) .

وفي الوقت نفسه التف النصارى في دوفينه حول زعيم يدعى جيوم ، وهاجموا المسلمين في جميع مراكزهم وقلاعهم ومزقوهم في كل ناحية ، وبدا انهارت سيادتهم في دوفينه ، ولم تبق إلا في پروفانس : ولما قوى جيوم وكثر جمعه ، بسط نفوذه

على پروفانس وتلقب بألقاب الإمارة ، واعتزم أن يخرج المسلمين نهائياً من تلك الأرض . فدعا السادة لمعاونته ومنهم كونت نيس ، ورأى المسلمون أن العاصفة تنذر باجتياحهم من كل ناحية ، فاستجمعوا كل أهبتهم وقواهم ، ونزلوا من الآكام إلى البسيط في صفوف مترابطة ، ووقعت بينهم وبين النصارى معركة هائلة في «تورتور» فهزم المسلمون وارتدوا إلى قلاعهم ، ولاسيما «فراكسنيه» التي غدت ملاذهم الأخير ، فطاردهم النصارى أشد مطاردة ، وضحيقوا الحصار عليهم ، فحاولوا الفرار تحت جناح الليل إلى الغابات المجاورة ، ولكن النصارى لحقوا بهم وأمعنوا فيهم قتلاً وأسراً ، وأبقى على من استسلم وعلى المسلمين الذين كانوا يحترفون الزرع في الضياع المجاورة ، وفر كثيرون من طريق البحر ، وتنصر كثير منهم ، وبقي نسلهم في تلك الأرض زمناً طويلاً .

وهكذا سقط حصن فراكسنتم أو فراكسنيه سنة ٩٧٥ م ، بعد أن لبث زهاء ثمانين سنة مركزاً قوياً للغزوات العربية في غاليس ، وقسمت أسلاب العرب وأراضيهم بين السادة والهند ، الذين اشتركوا في هذه الحرب الصليبية ، وانهارت سلطة العرب في تلك الأنحاء .

أما المستعمرات الإسلامية التي كانت مبعثرة في آكام الألب ، فيقال إنها طوردت ومزقت في نفس الوقت ، واعتنق الذين أسروا النصرانية . ولكن توجد رواية أخرى خلاصتها أن هذه المستعمرات لبثت في معاقلها نحو جيل آخر حتى تولى مطاردتها زعيم يدعى جيروللدوس . وعلى أي حال فلم تأت أواخر القرن العاشر حتى ذهبت سيادة المسلمين في غاليس وسويسرة ، ولم ينجب أحد في إفريقية والأندلس صريخ الغوث ، الذي وجهه أولئك المستعمرون البواسل إلى إخوانهم ، لأن الحوادث الداخلية لم تكن تسمح يومئذ ببذل هذا العون .

على أن ذلك لم يكن خاتمة الغزوات الإسلامية في تلك المياه . ففي سنة ١٠٠٣ م سارت حملة بحرية من مسلمي الأندلس ، ونزلت بجوار أنتيب في جنوب فرنسا ، واجتاحت الأراضي المجاورة . وفي سنة ١٠١٩ م نزلت حملة مسلمة أخرى في ظاهر أربونة وحاولت أن تستولى عليها ، ولكنها هزمت ومزقت . وفي سنة ١٠٤٧ م هاجمت حملة أخرى جزيرة ليران الواقعة إلى الغرب من مرسيليا وأسرت عدداً من الرهبان . وظهر في ذلك الحين زعيم أندلسي جرىء هو مجاهد العامري

أحد أمراء الطوائف ، وصاحب ثغر دانية والجزائر الشرقية (جزائر البليار) ،
واهتم بأمر الغزوات البحرية ، فسار في أسطوله إلى مياه قورسقة وسردانية ،
وغزا سردانية واحتل بعض أنحاءها (سنة ٤٠٦ هـ - ١٠١٥ م) ، ولكن النصراري
استردوها بعد قليل^(١) . ولبت مجاهد العامري الذي تسميه الرواية النصرانية
«موسيتو» أو موجيتوس «مدى حين سيد هذه المياه ، يث فيها بحملاته الرب
والروع .

تلك هي قصة الغزوات الإسلامية في غاليس وبلاد اللنبارد وسويسرة ؛ وهي
قصة تغفل الرواية الإسلامية كثيراً من أدوارها ووقائعها ، ولكنها تشغل فراغاً
كبيراً في الروايات الكنسية والفرنجية المعاصرة . وهذه الروايات هي عمدتنا فيما نقل
من سير هذه الغزوات الشهيرة . ومن المحقق أنها مشبعة بروح التحامل والخصومة
في كثير من المواطن ، ولكننا نستطيع مع ذلك أن ندين منها ، أهمية الدور الذي قام
به أولئك المجاهدون والمغامرون المسلمون ، في تلك الوهاد والآكام النائية ،
وما كان لهم بين هاتيك الأمم من السيادة والنفوذ مدى عصور .

- ٥ -

والآن فلنحاول أن نستعرض طرفاً من العوامل والظروف التي أحاطت بتلك
الغزوات الإسلامية النائية ، وطرفاً من الآثار التي خلفتها في البلاد والأمم التي
كانت ميداناً لها .

ينكر بعض مؤرخي الغرب على تلك الفتوحات والغزوات العربية والإسلامية
بوجه عام ، خاصة الاستقرار والإنشاء ، ويقولون إنها كانت في الغالب حملات
ناهبة ، تقوم على رغبة الكسب وتحصيل الغنائم . ولا ريب أن ظمناً المغنم وشغف
المغامرة ، وما إليها من لذة الاستكشاف والسيادة ، كانت من أهم العوامل التي
قامت عليها هذه الغزوات ، وتلك هي العوامل الخالدة التي تقوم عليها فتوحات
الأمم منذ أقدم العصور . ولكن من الحق أيضاً أن نقول إن نزعة الجهاد لم تكن
بعيدة عن تلك الغزوات ، وإن كثيراً من أولئك المغامرين البواسل ، كانت تحفزهم
الحماسة الدينية ، وفكرة الجهاد في سبيل الله . وقد كانت هذه العصابات الغازية
المستعمرة تعمل في الغالب لحساب نفسها ، ولكنها كانت تعمل ملحوظة بعطف

(١) ابن خلدون ؛ المقدمة ص ٢١٢ .

الحكومات والأمم الإسلامية التي تنتمي إليها . وكانت تؤدي إلى تلك الحكومات خدمات حليلة ، بما كانت تقوم به من إزعاج الحكومات والأمم النصرانية ، وإضعاف جيوشها ومواردها . ومن المحقق أيضاً أن نزعة الاستقرار والإنشاء لم تكن بعيدة عن أذهان الغزاة ، بل كان يحفزهم مثل ذلك الروح الاستعماري القوي الذي دفع الأمم الغربية في العصر الحديث إلى افتتاح الأمم المتأخرة واستعمارها^(١) . وقد استقروا بالفعل واستعمروا ، حيث مهدت لهم الكثرة والقوة سبيل البقاء ، كما فعلوا في إقريطش (كريت) ، حيث استقروا بها بعد افتتاحها زهاء قرن وثلث قرن (٨٢٧ - ٩٦١ م) ، ونشروا بها الإسلام والحضارة الإسلامية . وكذلك استقروا مدى حين في باري وفي تارنت من ثغور إيطاليا الجنوبية وفي راجوزا (رغوس) من ثغور الأدرياتيك الشرقية ؛ وكان لهم على شواطئ قلورية (جنوبي إيطاليا) مستعمرة زاهرة لبثت تستطع في هذه المياه عصراً :

ويبالغ المؤرخون الغربيون أيضاً ، في تصوير الآثار الخربة لتلك الغزوات الإسلامية ، وما كانت تترن به من ضروب العنف والسفك . ولكن العنف والقسوة والسفك والتخريب ، لم تكن خاصة بالغزوات الإسلامية ، وإنما كانت من خواص العصر ذاته ، ولم تكن الغزوات النصرانية للأراضي الإسلامية أقل عنفاً وسفكاً . ويكفي أن نشير هنا إلى الحملات الصليبية التي لبثت مدى عصور تحمل إلى الأمم الإسلامية أروع صنوف الدمار والسفك ، بل يكفي أن نشير إلى ما كانت ترتكبه البعث الاستعمارية الحديثة ، الإسبانية والإنجليزية والفرنسية ، في الدنيا الجديدة من صنوف القسوة والسفك ، وما ترتكبه اليوم بعض الأمم الأوروبية « المتتمدنة » من الجرائم المروعة في إفريقيا وآسيا باسم المدنية والاستعمار .

* * *

والآن لير ماذا خلفته الغزوات الإسلامية في هذه الأنحاء من الآثار المادية والاجتماعية . ومن المحقق أن هذه الآثار لا تكاد ترى اليوم ، ولا يشعر بها إلا الباحث المنقب . ويلاحظ أولاً أن الفتوحات العربية الأولى في غاليس وأكوتين لم يطل أمدها أكثر من نصف قرن ، ولم تكن الحضارة الإسلامية في اسبانيا قد تكونت وتفتحت بعد . ثم كانت الغزوات اللاحقة التي فصلنا أخبارها ، والتي كانت

أقرب إلى المغامرة الموقته ، منها إلى الفتوح المستقرة ، فلم تتح للغزاة فرص الإستقرار والعمل السلمى ، لأنهم كانوا فى مراكزهم النائية متفرقين ، يشتغلون قبل كل شىء بالدفاع عن مراكزهم وأنفسهم . بيد أن هذه الغزوات الحلية المتقطعة وهذه المستعمرات الإسلامية النائية ، خلفت وراءها فى الأراضى المفتوحة بعض الآثار المادية والمعنوية . ومن ذلك ما كشفته المباحث الأثرية منذ القرن الماضى على شواطىء خليج سان تروبيه من أطلال الحصون العربية القديمة التى كانت قائمة فى تلك الأراضى ، والتى ما تزال قائمة فى بعض آكام الألب الفرنسية والسويسرية ، وهى تدل على ما كان للغزاة من الخدق والبراعة فى فن التحصينات والمنشآت الحربية . وهناك فى جنوب فرنسا وفى بعض أنحاء إيطاليا الشمالية والجنوبية ، عدد كبير من الأبراج القائمة فوق الآكام والربي ، يدل ظاهرها على أنها كانت تستعمل لأغراض حربية . ويرى البعض أن هذه الأبراج هى آثار عربية من مخلفات الغزاة كانت تبني لعقد حلقات الاتصال ، وتسهيل حركات الدفاع فيما بينهم : ومن المعروف أن العرب منذ فتوحاتهم الأولى فى سببانيا أعنى منذ أوائل القرن الثامن ، كانوا ينشئون فى الأراضى المفتوحة حصوناً وأبراجاً تسمى «بالرباط» . بيد أن فريقاً آخر من الباحثين يرى بالعكس أن هذه الأبراج إنما كانت من إنشاء أبناء الأراضى المفتوحة ، أقاموها أيام اشتداد خطر الغزوات العربية ، ليستعينوا بها على رد الغزاة .

وقد ظفرت المباحث الأثرية أيضاً بالعثور على كثير من القطع الذهبية والفضية (المدايات) فى أنحاء كثيرة من لانجدوك وپروفانس ، وثبت أنها من مخلفات العرب والمسلمين ، وأما كانت تستعمل للتعامل مكان النقود ، ولكنها لا تحمل اسماً ولا تاريخاً ولا يمكن تعيين عهد سكها ، وإن كانت بذلك تدل على أنها ترجع إلى عصر الغزوات الأولى . ووجدت أيضاً فى العهد الأخير فى منطقة تورا سيوف ودروغ قبل إنها عربية ، من مخلفات الموقعة الشهيرة التى نشبت فى تلك السهول بين العرب والفرنج فى سنة ٧٣٢ م (موقعة بلاط الشهداء) .

ومن الحقائق التى لاشك فيها أثر المسلمين فى الزراعة ؛ فقد رأينا أن كثيراً من الغزاة تخلفوا عن إخوانهم ، واستقروا فى تلك الأراضى وزرعوها ، ومن المعروف أن العرب حولوا وديان اسبانيا المجذبة ، إلى حدائق وغياض زاهرة ، ونقلوا

إليها مختلف الغراس من المشرق ، وأنشأوا بها القناطر العظيمة . وقد حمل هؤلاء الغزاة المغامرون إلى جنوب فرنسا كثيراً من خبرتهم الزراعية ، ولقنوها لسكان تلك الأنحاء . ويقال إن « القمح الأسمر » الذي هو الآن من أهم محاصيل فرنسا إنما هو من مخلفات العرب ، وهم الذين حملوا بذوره ، وكانوا أول من زرعه بفرنسا ، والمرجح أيضاً أنهم هم الذين حملوا فساتل النخيل من اسبانيا وإفريقية إلى شواطئ الريفييرا . ومن آثارهم الصناعية ، استخراج «القطران» الذي تطلّى به قاع السفن ويحميها من العطب ، فهم الذين علموه لأهل بروفانس ، وما زال عندهم من الصناعات الذائعة ، وما زال اسمه الفرنسي *Quitran* ينم عن أصله العربي .

ومن الحقائق الثابتة أيضاً ، فضل العرب في تحسين نسل الخيول في تلك الأنحاء ، وما يزال في جنوب فرنسا تشتهر بجبال خيولها ونبل أرومتها ، ولا سيما في «كاماراج» في مقاطعة «لاند» من أعمال غسقونية ، ومن المحقق أن هذه الخيول الأصيلة الحميلة ، إنما هي من سلالة الخيول العربية ، التي أحضرها الفرسان المسلمون معهم إلى تلك الأنحاء .

ولا ننسى ما للدم العربي من أثر في بعض أنحاء جنوب فرنسا . فقد رأينا أن المسلمين أنشأوا بعض المستعمرات الزراعية ، وتزوجوا من نساء تلك الأراضي وتناسلوا فيها . ولما تغلب عليهم النصارى وأخرجوا نهائياً من تلك الأراضي تنصر كثير منهم ممن أسروا ، وأرغموا على افتداء حياتهم وأسرههم بالتنصر ، وقد لبث أبناء أولئك المسلمين المنتصرين عصوراً في تلك البلاد ، يشتغلون بالزراعة والتجارة حتى جرفهم تيار التطور واندمجوا في المجتمع النصراني ، واختفت كل آثارهم وخواصمهم العربية والإسلامية .

هذا ، وأما عن الآثار الاجتماعية ، فإنه يلاحظ في بعض جهات بروفانس التي استقر فيها المسلمون مدى حين ، أن لسكانها بعض التقاليد الخاصة ، ومن ذلك أنواع معينة من الرقص يظن أنها ترجع إلى أصل عربي . على أن أعظم آثار العرب الاجتماعية في جنوب فرنسا ، يبدو في تطور الحركة الفكرية في العصور الوسطى ، فقد كان للعرب أثر عظيم في تكوين النزعة الشعرية في الجنوب ، وظهر أثر هذه النزعة واضحاً في الحركة الأدبية التي تعرف بحركة «التروبادور» *Troubadour* التي ظهرت في جنوبي فرنسا ، وفي شمال إسبانيا وشمال إيطاليا ، منذ القرن الحادي عشر

الميلادى ، وقوامها القريض الحربى والغنائى ، وزعمائها فرسان شعراء وفنانون .
أضف إلى ذلك أن تأثير الحضارة الإسلامية في سير الحضارة الأوروبية ، لم يقف عند
هذا العصر ولا عند هذه الحدود ، فقد استمرت العلائق بعد ذلك طويلا بين
مسلمى الأندلس والأمم النصرانية المجاورة ، وكان للحضارة الأندلسية في تطورها
العقلى والاجتماعى أعظم الآثار .

وقد لبثت ذكرى العرب وذكرى الغزوات العربية في فرنسا ، تثير مدى
القرون الثامن في نفوس النصارى أعظم ضروب السخط والروع ، وتقدمها الرواية
الكنسية المعاصرة في أشنع الصور ؛ فلما ظهرت عصابات النورمان والجر وغزت
فرنسا من الشرق والغرب ، رأى النصارى من عيهم وسفكهم أهوالا لا تذكر
بجانبا أهوال الغزوات الإسلامية ، وارتفعت ذكرى العرب وأضححت تقترن
بكل ما هو عظيم ضخم^(١) ، وفي ذلك يقول المستشرق رينو : « إن ذكرى الغزوات
النورمانية والجرية لا توجد إلا في الكتب . ولكن ما السر في أن ذكرى العرب
ما زالت ماثلة في جميع الأذهان . لقد ظهر العرب في فرنسا قبل النورمان والجر ،
واستطالت إقامتهم بعد الغزوات النورمانية والجرية ، وإن غزوات العرب الأولى
ليطبعها طابع من العظمة ، حتى أننا لا نستطيع أن نتلو أخبارها دون تأثر . ذلك
لأن العرب^(٢) دون النورمانين والجر ، ساروا مدى آمام في طليعة الحضارة ،
ثم إنهم لبثوا بعد أن غادروا أرضنا موضع الروع في شواطئنا ، وأخيراً لأن المعارك
التي اضطلعوا بها أيام الصليبيين في اسبانيا وإفريقية وآسيا ، أسبغت على اسمهم
بهاء جديداً ، بيد أن هذه العوامل كلها قد لا تكفى لتعليل المكانة العظيمة التي
يتبوأها الاسم العربى في أوربا وفي أذهان المجتمع الأوروبى . أما السبب الحقيقى لهذه
الظاهرة المدهشة ، فهو الأثر الذى بثه قصص الفروسية في العصور الوسطى ،
وهو أثر لا يزال ملموساً إلى يومنا »^(٣) .

(١) Reinaud : ibid , p. 310

(٢) يلاحظ أن كلمة « العرب » هنا يجب أن تفهم بأوسع معانيها ، فالمقصود بها هنا « الغزاة
المسلمون » . ومنذ أواخر القرن الثامن الميلادى قضيض الصبغة العربية عن هذه الفتوحات ، وتغدو
فتوحات إسلامية ، ينضوى تحت لوائها العرب وغيرهم من أبناء المجتمعات الإسلامية ، التي قامت
في إفريقية واسبانيا .

(٣) Reinaud : ibid ; p. 311 — 312 . وقد اعتمدنا على مؤلف هذا الدلالة في كثير من
هذه الملاحظات الخاصة بآثار العرب (المسلمين) في جنوب فرنسا .

الكتاب الثاني

الدولة الأموية في الأندلس

القسم الرابع

ربيع الخلافة الأندلسية

٣٥٠ - ٥٣٧٠ : ٩٦١ - ٩٨٠ م

الفضل الأول

الحكم المستنصر بالله

خلافة الحكم المستنصر . تنظيم البيعة له . عنايته بوسع المسجد الجامع . تحرك أمير قشتالة . وفود أردونيو الرابع على الحكم . وصف حفل استقباله . سفارة سانشو . وفاة أردونيو . تحالف الملوك النصارى ، خروج الحكم إلى النزو . استيلاء المسلمين على شنت إشتين . إفتتاح قلهرة . استرداد حصن غرماج . عناية الحكم بتعزيز الأسطول . ظهور النورمان في المياه الغربية . مقاومة المسلمين وارتداد النورمان . عود النورمان إلى المياه الغربية ثم انسحابهم . قرطبة تندو مركز التوجيه في شبه الجزيرة . وفود الملوك النصارى وسفاراتهم على قرطبة . حوادث المغرب . انحلال دولة الأدارسة . أميرهم الحسن بن كنون . طاعته للناصر والحكم . مسير بلكين نائب المهز الفاطمي إلى قتال زفانة . ولاء زفانة لبني أمية . غزو بلكين لأراضيهم . هزيمة زفانة . نكث الحسن بن كنون . الحكم يرسل جيوشه إلى المغرب . هزيمة الحسن وفراره . عوده إلى القتال . هزيمة جند الأندلس . الحسن يطلب الصلح . الحكم يرسل كبير قواده غالباً في جيش ضخم . غالب يطارد الحسن ويرغمه على التسليم . اتجاه الحسن إلى قرطبة . وصف لموكب القائد غالب . وصف لصفات الحسن . مغادرته قرطبة إلى مصر . اعتداء صاحب قشتالة على الأراضى الإسلامية . نكبة جعفر ويحيى بنى على بن حمدون . اصطناع الحكم للبربر . مولد ولي العهد هشام . الحكم العالم . شغفه باقتناء الكتب . المكتبة الأموية الكبرى ودور الحكم في إنشائها . ذبوع الشغف باقتناء الكتب . جامعة قرطبة . تشجيع الحكم العلماء . تقدير النقد الحديث لهذه النزعة العلمية . المكتبات العامة بالأندلس . أخذ البيعة لولى العهد الفضل . تعلق ابن حيان على ذلك . وفاة الحكم . ورعه وخلاله . الحاجب جعفر بن عثمان المصحف . هديته إلى الحكم . للقائد غالب الناصرى . الحكم الشاعر . أبهة بلاط قرطبة في عهد الحكم . تكوين المجتمع الأندلسى في هذا العصر . الأرستقراطية الأندلسية . المولدون . طبقة الرقيق . النصارى المعاهدون . لليهود . نفوذهم وازدهارهم العلمى .

طويت بوفاة عبد الرحمن الناصر ، ألمع صفحة في تاريخ اسبانيا المسلمة ، وتاريخ الخلافة الأندلسية .

استقرت الخلافة الأندلسية في عهد الناصر ، على أسس ثابتة ، وصحقت ثورة المولدين والعرب ، بعد أن كادت تقضى على ملك بنى أمية ، وعلى صرح الدولة الأندلسية كلها ، ورد النصارى الإسبان إلى عقر دارهم ، فسكنوا وجلين منتظرين ، وتمتعت الأندلس بعهد من السلم والاستقرار والرخاء ، لم تعرفه من قبل ، ووصلت رقعة الوطن الأندلسى إلى أعظم ما وصلت إليه ، إذا استثنينا عهد الفتحة الأول . وهكذا كان عصر الناصر بالنسبة للأندلس ، ذروة عصورها ، قوة وعظمة ومجداً .

وخلف الناصر أكبر ولده الحكم المستنصر بالله بعهد منه ، وكان الناصر قد آثره منذ حدثته على سائر إخوته وولاه عهده^(١). وقيل إنه أخذ له بيعة العهد وهو طفل لم يجاوز الثامنة . وبويج الحكم في اليوم التالي لوفاة أبيه ، في الثالث من رمضان سنة ٣٥٠هـ (١٦ أكتوبر ٩٦١م) ، وكان الحكم يومئذ في نحو الثامنة والأربعين من عمره ، إذ كان مولده حسبما تقدم بقرطبة في ٢٤ من جمادى الأولى وقيل في غرة رجب سنة ٣٠٢ هـ (٩١٥م)^(٢) وأمه أم ولد تدعى مرجان . وأخذت البيعة للخليفة الجديد في قصر الزهراء . وجلس الحكم على سرير الملك في البهو الأوسط الذهبي ، واجتمع لإخوته ، وسائر للوزراء ورجال الدولة ، وأكابر القبايل الصقالية ، ومن دونهم من رجال الخاص ، وأهل الخدمة ، وأكابر الحند ، انتظموا جميعاً وفق مراتبهم في المجلسين الشرقي والغربي ، وفي مختلف الأروقة ، وانتظم الحرس وفرسان الحشم وطبقات الحند ، فيما وراء باب السدة ، صفوفاً متصلة حتى باب المدينة . ولما تمت البيعة ، أذن للناس في الانصراف ، إلا الإخوة والوزراء ورجال الخاصة ، فلزم لبثوا بالقصر ، حتى احتمل جسد الخليفة الذهاب (الناصر) إلى قصر قرطبة ليُدفن هناك في مقبرة القصر^(٣) .

ولم يكن الحكم حين ولايته ، محدثاً في شئون الملك ، بل لقد مارسها في حياة أبيه ، وكثيراً ما ندبه أبوه لمباشرة المهام والشئون الخطيرة ، فكان عند جلوسه أميراً مكتمل النضج والخبرة .

واستهل الحكم عهده بالنظر في توسيع المسجد الجامع ، وأصدر بذلك مرسومه في اليوم التالي لجلوسه . وكان المسجد الجامع قد ضاقت جنباته بمجموع المصلين ، فقرر توسيعه من الناحية الشرقية على طول الجامع من الجنوب إلى الشمال حتى صحنه . وبلغت الزيادة نحو مساحة الجامع ، فتضاعف بذلك حجمه . وابتنى الحكم محرابه الثالث ، واستغرق بناؤه أربعة أعوام ، وعملت له قبة فخمة زخرفت

(١) البيان المغرب ج ٢ ص ٢٤٤ ، وأعمال الأعلام لابن الخطيب (المطبع بيروت سنة ١٩٥٦) ص ٤١ .

(٢) الإحاطة في أخبار غرناطة لابن الخطيب (لقاهرة سنة ١٩٥٦) ج ١ ص ٤٨٧ ، والحلة السيرة لابن الأبار ص ١٠٢ . وراجع ص ٣٧٨ من هذا الكتاب .

(٣) نفع الطيب ج ١ ص ١٨١ .

بالفيساء البديعة . وأرسل قيصر قسطنطينية رومانوس الثاني إلى الحكم منها قدراً كبيراً ، كما أرسل إليه أستاذاً خبيراً بأعمال الفيساء . وأنشأ الحكم أيضاً مقصورة جديدة لها قبة على الطراز البيزنطى . وابتنى إلى جانب المسجد داراً للصدقة ، وأخرى للوعاظ وعمال المسجد . وتشغل زيادة الحكم فى الجامع اليوم قسمه الأوسط ، الواقع بين الجناح القديم ، الذى أنشأه عبد الرحمن الداخل وزاد فيه عبد الرحمن الأوسط - والجناح الذى أنشأه الحاجب المنصور ، وهو يشغل نحو ثلث المسجد من الناحية الشرقية (١) .

ولم يمض سوى قليل ، حتى بدت من الأمراء النصارى نزعة إلى العدوان . وكان الناصر قبيل وفاته قد عاون سانشو الأول (سانجيه) ملك ليون ابن أردونيو الثالث بالمال والجند على استرداد عرشه ، وفر ابن عمه ومنافسه أردونيو الرابع مهزوماً إلى برغش (سنة ٩٦٠ م) ، واشترط الخليفة ثمناً لهذا العون ، أن يهدم النصارى بعض حصون الحدود ، وأن يسلموا عدداً آخر منها إلى المسلمين . فلما توفى الناصر بعد ذلك بقليل ، نكث سانشو بالعهد ، وأبى تنفيذ ما وعد . ومن جهة أخرى فقد ظهر عامل جديد فى عدوان النصارى . وذلك أن قشتالة ، وقد كانت يومئذ ولاية من ولايات ليون ، كانت تنزع إلى الاستقلال ، وكان زعيمها الكونت (القومس) فرنان كونثال (٢) رجلاً مقداماً يلتف حوله مواطنوه ، فتار على سانشو ، وأعلن استقلال قشتالة ، ونصب نفسه أميراً عليها ، وأخذ يغير على أراضي المسلمين المحاورة ، وهى مما يلي غرب الثغر الأعلى ، وشمال الثغر الأوسط ، وانضم إليه كثير من النصارى المتعصبين . فما بذلك جيشه واشتد بأسه . وكان الكونت يطمح إلى توسيع أملاكه ، ويعتمد على مناعة قلاع الواقعة على الحدود . وقد أغضى الحكم فى البداية عن هذا العدوان موثقراً الاعتصام بالسلم ، ولكنه لما رأى تهادى النصارى فى بغيهم ، أخذ فى التأهب للحرب ، وأنفذ الكتب إلى سائر الولاة والقواد ، بوجوب الأهبة والاستعداد للجهاد فى سبيل الله .

وكان أردونيو الرابع الملك المخلوع ، قد لجأ إلى الحكم ليعاونه على استرداد

(١) البيان المغرب ج ٢ ص ٢٤٩ ، وأعمال الأعلام ص ٤٨ .

(٢) ويسميه ابن خلدون « فردلند القومس » (ج ٤ ص ١٤٤) وفى مكان آخر فرلند بن غند شلب (ج ٤ ص ١٨٠) وورد اسمه فى أعمال الأعلام « فران غنصالص » وهو أكثر مطابقة لاسم القشتالى (ص ٣٧٥) .

عرشه . وتفيض الرواية الإسلامية في وصف مقدمه على قرطبة ، ومثوله بين
يدى الخليفة ، فتقول لنا إن أردونيو وفد على قرطبة في عشرين رجلا من وجوه
أصحابه ، ومعهم غالب الناصري مولى الحكم وصاحب مدينة سالم ، وذلك في آخر
صفر سنة ٥٣٥١ (٣٠ مارس ٩٦٢ م) . وتلقاهم الوزير هشام المصحفي في قوات
كثيفة من الجند . فلما دخلوا قصر قرطبة ، ووصل أردونيو إلى ما بين باب السدة
وباب الحنان ، سأل عن مكان مدفن الناصر ، فأشير إليه في الروضة بداخل
القصر ، فسار إليه وخلع قلنسوته وانحنى أمامه خاشعاً . وأنزل أردونيو وصحبه
في دار الناعورة الفخمة ، وبولغ في إكرامهم . وبعد يومين استدعاهم الحكم
إلى قصر الزهراء ، وقد حشدت قوات عظيمة من الجند ، وبولغ في الاحتفال
بالزيينات ، وإظهار الأسلحة والعدد . وجلس الحكم فوق سرير الملك في المجلس
الشرقي ، ومن حوله الإخوة والوزراء والأكابر ، وجيء بأردونيو وأصحابه ،
ومعهم جماعة من وجوه نصارى الأندلس . فدخلوا بين الصفوف الفخمة المزركشة
وقد بهروا بما رأوا ، وجازوا أبواب القصر المتعاقبة ، وأجلسوا برهة في بهو
الانتظار ، ثم استدعوا للمثول بين يدي الخليفة ، فسار أردونيو ومن ورائه أصحابه ،
فلما وصل إلى المجلس الخلافي كشف رأسه وخلع برنسه . ولما دنا من سرير الحكم
سجد أمامه ثم قبل يده . ثم ارتد راجعاً إلى كرسي من الديداج المثقل بالذهب .
وتولى الترجمة بين أردونيو والخليفة ، وليد بن خيزون قاضي الذمة بقرطبة ،
وأعرب الحكم عن سروره وترحيبه بمقدم أردونيو ، ووعد برعايته . وبسط
أردونيو قضيته ، وشكاهما أنزله به خصمه سانشو ، مع أن الشعب كان قد آثره
باختياره ، ولكن خصمه لجأ إلى الخليفة الراحل واستجار به ، فأغاثه ونصره
عليه ، ومع ذلك فقد قصر في الوفاء بعهوده ، وأنه يضع نفسه وبلاده وشعبه ،
تحت رعاية الخليفة ، وأنه يتعهد بمخالفة الإسلام ، ومقاطعة صهره فردلند القومس
أمير قشتالة ، ويقدم ولده غرسيه رهينة بصدق وفائه^(١) . وهنا وعده الخليفة
بعونه ونصرته في تملكه ما كان له . وانصرف أردونيو بعد الشكر والتحية ،
وخرج من المجلس ، وقد بهره وأذهله ما رأى من آيات الفخامة والسلطان . وقدم
إليه الحاجب جعفر الهدايا التي أمر بها الخليفة له ولأصحابه . وألقى الخطباء والشعراء

(١) ابن خلدون ج ٤ ص ١٤٥ .

خطبهم وقصائدهم ، منوهين بروعة هذا اليوم المشهود . فمن ذلك قول عبد الملك ابن سعيد المرادى من قصيدة :

ملك الخليفة آية الإقبال وسعوده موصولة بنوال
والمسلمون بعزة وبرفة والمشركون بذلة وسفال
أقلت بأيديها الأعاجم نحوه متوقعين لصولة المرثبال
هذا أمرهم أتاه آخذاً منه أوأصر ذمة وحبال
متواضعاً لجلاله متخشعاً متبرعاً لما يرع بقتال^(١)

فلما نمتى إلى سانشو ما وعد به الخليفة خصمه ومنافسه ، خشى عاقبة هذا المنسعى ، فبعث إلى الحكم وفدأ من الأكابر والأحبار ، يعرض عليه أن يعترف بطاعته ، وأن يقوم بتنفيذ ماتعهد به للناصر من تسليم بعض الحصون الواقعة على الحدود وهدم البعض الآخر^(٢). ولكن أردونيوما لبث أن توفى ، وعاد سانشو إلى نكته بعد أن أمن شر منافسه . وهنا شعر الأمراء النصارى بخطورة أهبة المسلمين العسكرية ، وأدركوا أن لا بد لهم من الاتحاد جميعاً ، لكي يستطيعوا مواجهتهم . وهكذا عقد التحالف بين سانشو ملك ليون ، وخصمه الكونت فرنان أمير قشتالة ، وغرسية سانشيز ملك ناغار ، وكونت برشلونة ، وتأهب الجميع لمداغة المسلمين .

وفي صيف سنة ٣٥٢ هـ (٩٦٣ م) خرج الحكم إلى الغزو ، معلناً الجهاد ، واجتمعت إليه الجيوش في طليطلة ، فسار مخترقاً جبال وادى الرملة إلى أراضي قشتالة ، وأشرف على قلعة شنت إشتين المنيعة^(٣) فحاصرها المسلمون ، واستولوا عليها . وعبثاً حاول الكونت فرنان كونثال ، أن يقف في سبيل المسلمين ، واجتاح المسلمون أراضيهم ، ومزقوا قواته ، حتى أذعن إلى طلب الصلح ، ولكنه فكث عهده ، فهاجمه المسلمون كرة أخرى ، واستولوا على بلدة أنتيسة الحصينة^(٤).

(١) أورد لنا المقرئ (عن ابن حيان) عن هذه الزيارة تفاصيل مسهبة (راجع نفع الطيب ج ١ ص ١٨١ - ١٨٤) . ولخصها ابن خلدون (ج ٤ ص ١٤٥) . وكذلك للبيان المغرب ج ٢ ص ٢٥١ .

(٢) ابن خلدون ج ٤ ص ١٤٥ .

(٣) للبيان المغرب ج ٢ ص ٢٥١ .

(٤) ابن خلدون ج ٤ ص ١٤٤ . وأنتيسة هي Atienza .

وأرسل الحكم جيشاً آخر بقيادة يحيى بن محمد التجيبي حاكم سرقسطة في اتجاه نافار . وكان ملكها غرسية سانشيز ، قد أغار على الأراضي الإسلامية ناكثاً لعهد ، وهرع حليفه سانشو ملك ليون في قواته لإنجاده ، ونشبت بين الفريقين موقعة هزم فيها النصرارى وامتنعوا بالجبال . وفي نفس الوقت سار القائد غالب مولى الحكم في جيش قوى إلى مدينة قلهرّة ، من قواعد نافار الغربية ، فافتتحها ، وحصنها وشحنها بالرجال والعدة ، وكان فتحاً عظيماً . وسار حاكم مدينة وشقة في قواته شمالاً نحو أراضي نافار مما يلي جبال البرنيه ، واستولى على حصن يه^(١) واجتاح تلك المنطقة ، وغنم ما فيها من السلاح والأقوات والماشية^(٢) . واستغرقت هذه الفتوح والغزوات العظيمة ، الصائفة في سنتي ٣٥٢ و ٣٥٣ هـ (٩٦٣ — ٩٦٤) .

ويروى لنا ابن خلدون قصة غزوة إسلامية أخرى في أراضي قشتالة — فيقول لنا إن غالباً سار إلى بلاد ألبّة ، ومعه يحيى بن محمد التجيبي ، وقاسم بن مطرف بن ذى النون ، فاستولى على حصن غرماج Gormaz . ويضع ابن خلدون تاريخ هذه الغزوة في سنة ٣٥٤ هـ (٩٦٥ م) . وتقع قاعدة « غرماج » الحصينة على نهر دويرة على مقربة من شنت لإشتين . وكان الناصر قد انتزعها من النصرارى في سنة ٩٤٠ م . والظاهر أن القشتاليين بقيادة فرنان كونثال ، كانوا قد استولوا عليها فيما استولوا عليه من قواعد الحدود ، قبل أن يخرج الحكم إلى الغزو ، فاستردها المسلمون في صائفة سنة ٣٥٣ هـ ، أو في الصائفة التالية ، وقاموا بتحصينها للدفاع القشتاليين في هذه المنطقة^(٣) .

وتشير الرواية الإسلامية فوق ذلك إلى غزوات ناجحة أخرى ، قام بها المسلمون في أراضي قشتالة في سنتي ٣٥٥ و ٣٥٦ هـ ، بيد أنها لا تقدم إلينا شيئاً عن تفاصيل تلك الغزوات^(٤) .

وفي سنة ٣٥٣ هـ وقعت بالعاصمة الخلافية مجاعة عظيمة ، فبذل الحكم للفقراء والمعوزين في سائر أرباض قرطبة والزهراء ، من النفقة ما يكفل أقواتهم ويسد عوزهم .

(١) وبالإسبانية Yerba .

(٢) ابن خلدون ج ٤ ص ١٤٥ .

(٣) ابن خلدون ج ٤ ص ١٤٥ .

(٤) راجع البيان المغرب ج ٢ ص ٢٥٥ .

وكانت حوادث المغرب الأقصى (وسوف نتحدث عنها بعد) ، وما يهدد الأندلس من جراء مشاريع الفاطميين وأشياعهم في تلك المنطقة ، مما يشغل حكومة قرطبة ، ويحفزها دائماً إلى اليقظة والتأهب ، وكان من أثر ذلك أن قصد الحكم في شهر رجب سنة ٣٥٣ إلى ثغر ألمرية (سبتمبر سنة ٩٦٤) في جماعة كبيرة من الرؤساء والقادة ، ليشرف بنفسه على أعمال التحصين الحارية فيها ، وليتخذ ما يجب لتجديد الأسطول وتعزيزه . وكانت ألمرية أعظم قواعد الأسطول الأندلسي ، وكانت سفنه الراسية بها يومئذ تبلغ ثلاثمائة قطعة^(١) .

بيد أنه لم يمض قليل ، حتى جاء الخطر يهدد الأندلس من ناحية أخرى : ففي أواخر سنة ٣٥٥ هـ^(٢) (أو أواخر سنة ٩٦٧ م) ظهرت سفن النورمان أو المحجوس في مياه الشاطئ الغربي قبالة ولاية الغرب .

وكان النورمان قد ظهوروا في مياه الأندلس لأول مرة في سنة ٢٢٩ هـ (٨٤٣ م) أيام عبد الرحمن بن الحكم ، وبدأت حكومة قرطبة تعنى بشأن الأسطول ومضاعفة أهبتها البحرية من ذلك الحين . وكان أولئك الغزاة النورمان في هذه المرة من أهل دانماركة المحجوس ، ويقودهم رتشارد الأول دوق نورماندى ، وحفيد زعيمهم الكبير رولو . وكانت عدة أسطولهم ثمانية وعشرين مركباً . ونزل الغزاة على مقربة من بلدة قصر أبى دانس^(٣) ، وعاثوا في تلك المنطقة ، ثم زحفوا شمالاً إلى بسائط أشبونة الغنية بالبانعة ، وعاثوا فيها تخريباً ونهباً ، واجتمع المسلمون في تلك المنطقة لقتالهم . ونشبت بينهم وبين الغزاة موقعة دامية قتل فيها كثير من الفريقين . وفي تلك الأثناء خرج أسطول إشبيلية من نهر الوادى الكبير بقيادة أمير البحر عبد الرحمن بن رماحس ، وسار على عجل إلى شاطئ البرتغال الجنوبي ، وكان الغزاة قد انحدروا عندئذ جنوباً ثم شرقاً بمحاذاة الشاطئ ، ووقع اللقاء بين سفنهم وبين سفن المسلمين عند مصب نهر شلب . فحطم المسلمون عدة من سفن الغزاة ، وأنقذوا من كان بها من أسرى المسلمين ، وقتل كثير من النورمان ، وارتدوا منهزمين عن تلك المياه ، بيد أن سفنهم لبثت تجوس خلال المياه الغربية ، والمسلمون لهم بالمرصاد أينما ظهوروا . وأمر الحكم زيادة في التحوط أن تحشد بعض

(١) البيان المغرب ج ٢ ص ٢٥٢ ، والإحاطة (١٩٥٦) ج ١ ص ٤٨٦ .

(٢) ويذكر ابن خلدون أنها كانت سنة ٣٥٤ هـ (ج ٤ ص ١٤٥) .

(٣) وهي بالإنجليزية Alcacer do Sal ، وهي ثغر برتغالى صغير يقع جنوب شرق أشبونة .

سفن الأسطول الصغرى فى نهر الوادى الكبير تجاه قرطبة ، وترتيبها على هيئة
مراكب النورمان^(١) ، وذلك خشية أن يتسرب الغزاة بطريق النهر إلى العاصمة ،
كما فعلوا حينما هاجموا إشبيلية فى غزوتهم الأولى .

ولم تمض بضعة أعوام على ذلك ، حتى عادت مراكب النورمان تجوس خلال
المياه الغربية (٣٦٠ هـ - ٩٧١ م) مرة أخرى ، وتهدد شواطئ ولاية الغرب
الغنية .

ويقدم إلينا ابن حيان عن هذه الغزوة الثانية للنورمان لشواطئ الأندلس
بعض تفاصيل ملخصها أن الحكم عهد إلى أمير البحر عبد الرحمن بن رماحس
بتسيير الأسطول من ألمرية وإشبيلية ، واجتماع قوى الأندلس البحرية كلها
لمواجهة الغزاة ، كما عهد إلى الوزير القائد غالب بن عبد الرحمن بأن يشرف على
القوات البرية والبحرية التى أعدت لمداغنة أولئك الغزاة ، وأمر صاحب الخيل
والحشم زياد بن أفلح بإخراج السلاح والعدة ، وحشد قوة مختارة من الخند .

بيد أنه لم تقع فيما يبدو ، أية معارك هامة بين المسلمين والغزاة ، ولم يحدثنا
ابن حيان عن وقوع مثل هذه المعارك . والظاهر أنهم ارتدوا من تلقاء أنفسهم
لما رأوا من تفوق قوى المسلمين^(٢) .

وفى خلال ذلك كانت قرطبة تغدو شيئاً فشيئاً ، مركز التوجيه فى شبه الجزيرة
الإسبانية كلها ، وتغدو كعبة للملوك اسبانيا النصرانية ، يفدون إليها تباعاً ، يقدمون
إليها عهود الطاعة ، ويلتمسون منها الصداقة والعون . وقد بدأ تقاطر هذه الوفود
والسفارات من سنة ٣٥٥ هـ (٩٦٦ م) واستمر عدة أعوام . ويجدر بنا قبل
التحدث عنها ، أن نشير إلى ما وقع من تغييرات فى الإمارات والممالك النصرانية .
فقد توفى سانشو ملك ليون مسجوماً فى سنة ٩٦٦ م . وخلفه ولده الطفل راميرو
الثالث ، تحت وصاية عمته الراهبة إلبيرة ، وكان من أثر ذلك أن وقع التفكك .
فى مملكة ليون ، وأعلن عدة من الزعماء المحليين استقلالهم . وتوفى الكونت

(١) البيان المغرب ج ٢ ص ٢٥٥ .

(٢) البيان المغرب ج ٢ ص ٢٥٧ . وابن حيان فى المتن - مخطوط أكاديمية التاريخ
بمدرسة (مجموعة كوديرا) المنشور بتحقيق الأستاذ عبد الرحمن على الحجبى (بيروت ١٩٦٥)
ص ٢٣ - ٢٦ وبه بيانات وتفاصيل هامة عن حوادث الأعوام الخمسة من سنة ٣٦٠ إلى سنة ٣٦٤ هـ .
وسوف نرجع إليه بكثرة فيما يتعلق بأحداث هذه الأعوام وأحوالها .

فرنان كونثال أمير قشتالة في سنة ٩٧٠ م ، وخلفه ولده غرسيه فرناندز . وتولى عرش نافار سانشو غرسيه الثاني ، بعد وفاة أبيه غرسيه سانشيز .

وكان أول الوافدين على قرطبة من أمراء النصراري أمير جليقية ، وأمير أستوريش ، (الأسترياس) . ثم وفدت رمل سانشو غرسيه ملك نافار ، وهم جماعة من القوامس والأساقفة يسألون الصلح ، فأجابهم الحكم إلى ما طلبوا .

ووفدت في شعبان سنة ٣٦٠ هـ (يونيه ٩٧١ م) سفارة من أمير برشلونة الكونت بوريل ابن شونير Saunier على رأسها مبعوثه القومس بون فلي لتجديد المودة والصدقة ، ومعهم ثلاثون أسيراً من المسلمين الذين كانوا محجوزين بالإمارة ، تقريباً من الخليفة . فاستقبلهم الحكم بالجلس الشرقي من قصر الزهراء مرتين ، الأولى في الرابع من رمضان سنة ٣٦٠ هـ ، والثانية في الثاني من شوال ، واستمع إلى رسالتهم بالقبول والرضى ، وصرفهم بجزيل الصلات وفاخر الكسى^(١) . وفي السادس من ذى الحجة سنة ٣٦٠ هـ (أكتوبر ٩٧١ م) وفدت الراهبة لبيرة عمه ملك ليون رامرو الثالث والوصية عليه - ويسميا ابن حيان حلوية وأحياناً حلورية^(٢) - ، فقبولت في قرطبة بمظاهر الترحاب والتكريم ، واحتفل الحكم باستقبالها بقصر الزهراء في يوم مشهود ، وعقد السلم للملك ليون تحقيقاً لرغبتها ، وأغدق عليها الهدايا والصلوات « وحملت على بغلة فارهة بسرج ولحام مثقلين بالذهب وملحفة ديباج »^(٣) . ومما هو جدير بالذكر أنه قام بالترجمة يومئذ بين الخليفة الحكم ، وبين سفراء أولئك الأمراء والملوك النصراري ، قاضي النصراري وأسقفهم بقرطبة ، عيسى بن منصور ، وقومس أهل الزمة ، معاوية بن لب ، ومطران إشبيلية عبيد الله بن قاسم . وكانت لغة النصراري

(١) ابن حيان في المقتبس - قطعة أكاديمية التاريخ السالفة الذكر ص ٢١ و ٢٢ .

(٢) راجع ابن حيان في المقتبس - القطعة السالفة الذكر ص ٦٣ و ١٤٦ و ٢٣٥ و ٢٤١ . ويلاحظ أن ابن حيان لم يتحدث عن قدومها بنفسها إلى قرطبة وإنما يتحدث عن قدوم رمل من قبلها . بيد أننا أخذنا هنا برواية ابن خلدون بالرغم من كونها تنصرف إلى اسم سيده نصرانية أخرى . والرواية الإسبانية تؤيد هذا التفضيل .

(٣) ابن خلدون ج ٤ ص ١٤٦ . وراجع المقتبس لابن حيان (قطعة أكاديمية التاريخ السالفة الذكر) ص ٦٤ .

الإسبان يومئذ هي اللغة الرومانية (الرومانشي) Romance أو « اللاتينية » ، وهي التي تطورت فيما بعد إلى اللغة القشتالية^(١) .

ووفدت سفارات أخرى من غرسية فرناندز أمير قشتالة ، وفرنان لينيز كونت شلمنقة وغيرهما . وفي سنة ٩٧٣ م (٣٦٢ هـ) وفدت سفارة جديدة من سانشو غرسية ملك نافار ، ومن الراهبة لبيرة الوصية على ملك ليون . وكان جل هذه الزيارات والسفارات من أمراء اسبانيا النصرانية ، يقصد إلى عقد السلم والمودة مع خليفة الأندلس ، وأحياناً إلى تقديم الطاعة وطلب العون .

هذا وقد وردت إلى الخليفة رسالة ودية من يوحنا زيمسكي (الدمستق) قيصر قسطنطينية على يد رسوله قسطنطين الملقى ، وذلك في جمادى الأولى سنة ٣٦١ هـ (٩٧٢ م)^(٢) ، ورسالة أخرى في أواخر سنة ٣٦٣ هـ (٩٧٤ م) من إمبراطور ألمانيا أوتو الثاني الذي خلف أباه أوتو الأول ، وفيها يجدد علائق المودة التي كانت بين أبيه وبين الناصر . ووردت في نفس العام سفارة جديدة من الكونت بوريل أمير برشلونة يطلب تجديد المودة والصداقة .

ويعلق العلامة المؤرخ الأستاذ بيدال على ذلك بقوله : « وصلت الخلافة الأندلسية في ذلك العصر إلى أوج روعتها ، وبسطت سيادتها السلمية على سائر اسبانيا ، وكفلت بذلك السكينة العامة » .

وفي هذا العام ، سنة ٣٦١ هـ ، في الخامس والعشرين من جمادى الأولى ، أمر الخليفة الحكم صاحب مدينة الزهراء ، محمد بن أفلح ، بمطاردة الشعراء المجائئين والقبض عليهم ، صوناً لأعراض الناس من لاذع ألسنتهم ومقدع هجأهم وكان منهم عيسى بن قرلمان الملقب بالزبرائة ، ومونس الكاتب ، وأحمد بن الأسعد ، ويوسف بن هارون البظليوسي وغيرهم . فظفر صاحب المدينة بمعظمهم وأودعهم السجن ، واختفى البظليوسي حيناً ، ولكنه لما شعر بوطأة المطاردة ،

(٢) R. M. Pidal : Origenes del Espanol p. 421

(٣) راجع المقتبس قطعة أكاديمية التاريخ ص ٧١ و ٧٢ . وكان يوحنا زيمسكي . وهو كبير الجيش البيزنطي قد ائتمر بعمه القيصر نيقفور الثاني مع زوجه الحسناء ثيوفانو وانتهى بقتله وذلك في العاشر من ديسمبر سنة ٩٦٩ م ، واعتلى العرش في الحال مكانه ، وحكم حتى وفاته في العاشر من يناير سنة ٩٧٩ م .

قدم نفسه لصاحب المدينة ، فزج إلى السجن . ورفع أمره إلى الخليفة ، فرق
لخنتهم ، وأمر بالإفراج عنهم ، فأطلق سراحهم في أواخر شعبان من هذه السنة^(١)
وفي هذا الإجراء ما يشهد برفيع خلال الحكم . ورقة شعوره ، وموفور
احتشامه .

* * *

وفي ذلك الحين حدثت بعدوة المغرب ، في الضفة الأخرى من البحر ، حوادث
هامة ، شغلت الحكم ، وكلدت صفو السلام السائد في مملكته . وقد سبق أن
أشرنا إلى غزو الناصر لدين الله لثغر سبتة ، وعبور جيوشه إلى المغرب لمقاومة
جهود الفاطميين في السيطرة عليه . ومحاربة الأدارسة أمراء المغرب وحلفاء
الفاطميين ، ومطاردتهم . حتى أذعنوا في النهاية إلى طلب الصلح ، والاعتراف
بطاعة الناصر (سنة ٣٣٢ هـ - ٩٤٣ م) ، وقيام الدعوة المروانية بالمغرب منذ
ذلك الحين .

وكانت دولة الأدارسة ، قد تقلصت في ذلك الحين ، عن معظم أنحاء المغرب
الجنوبية والوسطى ، وارتدت إلى منطقة الريف الشمالية ، ما بين غربي بحر
الزقاق والمحيط ، وجعلت قاعدتها بعد انقراض أمرهم في فاس ، في قلعة حجر
النمر المتينة ، الواقعة في جنوبي تطوان . ولم تكن مع ذلك دولة مستقلة بمعنى
الكلمة ، إذ كانت تنضوي تحت لواء المتغلب على المغرب ، سواء من العبيديين
(الفاطميين) أصحاب إفريقية ، أو الأمويين أصحاب الأندلس . وكان أمير الأدارسة
في أواخر عهد الناصر ، الحسن بن كتون (أو قنون) ، وهو القاسم بن محمد
ابن القاسم بن إدريس ، الذي قدر أن تنقضى على يده دولة الأدارسة بالمغرب ،
وكان قد بايع العبيديين ، ودعا لهم حينما تغلب جوهر الصقلي على المغرب ، ناكثاً
بذلك عهده للناصر . فلما انصرف جوهر إلى إفريقية في أواخر سنة ٤٤٩ هـ (٩٦٠ م)
عاد الحسن إلى طاعته لبني أمية . ولما توفي الناصر أعلن الحسن طاعته لولده الحكم
المستنصر . ولم يكن ذلك سوى مصانعة ورياء ، إذ كان الأدارسة يبغضون
بني أمية ، ويترقبون فرص الخروج عليهم ، ولم تكن طاعتهم لهم إلا خوفاً من
بطشهم ، لوقوع مملكتهم في شمال العدو على مقربة من الأندلس .

(١) راجع المقتبس - قطعة أكاديمية التاريخ المشار إليها - ص ٧٣ - ٧٥ .

وفي أوائل سنة ٣٦١ هـ (٩٧١ م) سار بُلُكَيْن بن زيرى بن مناد الصنهاجى ، قائد الخليفة الفاطمى المعز لدين الله ، من إفريقية غازياً إلى المغرب ، ليعيد هنالك سلطان الشيعة ، ولينتقم من قبيلة زناته لمقتل أبيه زيرى بن مناد . وكان زيرى عامل الخليفة المعز وقائده على المغرب ، وكانت زناته من القبائل المغربية القوية المخالفة للشيعة ، والمنضوية تحت لواء الأمويين . وكان من أشد خصوم الشيعة أيضاً ، جعفر ويحيى ابنا على بن حمدون المعروف بالأندلسى (١) ، وكان الأندلسى هذا قد استقر في «المسيلة» في المغرب الأوسط ، وبسط حكمه على تلك الناحية ، وخلفه ولده جعفر في إقطاعه ، ولكنه خشي سطوة الشيعة ، وسطوة عاملهم زيرى ، ففر وأخوه يحيى مع الأهل والمال إلى المغرب الأقصى ، ولجأ إلى بنى خزر أمراء زناته الأقوياء ، وألد خصوم الشيعة وصنهاجة . وكان رسل الحكم يروجون الدعوة في زناته وحلفائهم لمحاربة الشيعة ، ويمدونهم بالمال لحشد الرجال والعدة ، فاجتمعت قوات بنى خزر وجعفر ويحيى على قتال زيرى ، ودارت بينهما الحرب في وادى ملوية عند مشارف المغرب الأقصى ، وانهمز الشيعة ، وقتل زيرى ومعظم رجاله بعد معركة طاحنة ، واحتوى الزناتيون على معسكره ، وانهار بذلك سلطان الشيعة في المغرب ، وكان ذلك في العاشر من رمضان سنة ٣٦٠ هـ (يوليه ٩٧١ م) . واحتز الظافرون رأس زيرى وروثوس عدة من أكابر صحبه . وحملها جعفر ويحيى وأصحابهما إلى الأندلس ، وقدموها إلى الحكم ، فحظوا لديه وغمرهم بعطفه وصلاته (٢) .

(١) ذكر ابن حيان نقلا عن محمد بن يوسف بن عبد الله الوراق أن جعفرأ وأخاهما من أصل أندلسى ، وهما ابنا على بن حمدون بن سملك بن سعيد بن إبراهيم . وكان منزلهم بالأندلس بكورة البيرة على مقربة من قلعة يصب . وانتقل جدما حمدون إلى إفريقية وتزوج من كرامة ، ثم سافر إلى الحج ، وتعرف هناك بأبي عبد الله الشيبى ودخل في مذهبه . ولما ظهر الشيبى بإفريقية واحتوى على ملك بنى الأغلب حظى لديه ، وحظى أبناؤه لدى الخلفاء الفاطميين ، واستقروا مدى حين حكماً للمسيلة . ثم أتهم زعيمهم جعفر بالاتصال ببنى خزر ، وتوعدوه الخليفة المعز بشر النكال ففر وأخوه في الأهل والمال إلى بنى خزر أمراء زناته (راجع المقتبس - قطعة أكاديمية التاريخ - ص ٣٣ - ٣٦)

(٢) يقدم إلينا ابن حيان تفاصيل ضافية عن استقبال جعفر وأخيه يحيى حين مقدمهما إلى الأندلس برؤوس زيرى وأصحابه ، ودخولها قرطبة في ركب فخم برفقة احب السكة والموارث وقاضى إشبيلية محمد بن أبي عامر ، ثم استقبال الخليفة لها ومن معها من أعيان بنى خزر ، وذلك بالجلس القبل من قصر الزهراء ، في حفل فخم رتبت فيه صفوف الخند وأهل الخدمة بأنواهم =

وكان لهذه النكبة التي حلت بجيش الشيعة وصنهاجة ، وقع عميق في الخلافة الفاطمية . فأمر الخليفة المعز قائده يوسف بن زيري بن مناد ، المسمى بـ **بُلْكَيْن** (بلقين) أن يسير في الجيوش إلى المغرب جسماً تقدم . فسار بلكين ، وهو ينزل ضرباته المتوالية باتباع زناتة حيناً وجدوا في طريقه ، وكانت منهم جموع غفيرة في المغرب الأوسط في بجاية ، والمسيلة ، وبسكرة ، وتاهرت وغيرها ، فزقهم شر ممزق . ووصل بلكين في قواته ، إلى المغرب الأقصى ، في ربيع الثاني سنة ٣٦١ هـ ، واستعد بنو خزر وسائر أمراء زناتة للقائه ، ووقعت الحرب بين الفريقين ، فهزمت زناتة شر هزيمة ، وانتحر أميرها محمد بن الخير بن خزر وذلك بأن اتكأ على سيفه فذبح نفسه ، حتى لا يقع في يد عدوه ، ومزق بلكين زناتة كل ممزق ، وهدم مدينة البصرة ، وبسط سلطانه على معظم أنحاء المغرب ، وقطع دعوة الأمويين ، وحقق انتقامه لمقتل أبيه كاملاً (١) .

ومارح الحسن بن كنون ، القلب مع كل تطور جديد ، إلى بيعة بلكين ، والانضواء تحت لوائه ، أو بعبارة أخرى ، تحت لواء مادته الشيعة . ولكن بلكين لم يكتف طويلاً بالمغرب . إذ سرعان ما استدعاه سيده المعز - وكان يتخذ يومئذ أهبة للسفر إلى مصر ، مقر ملكه الحديد - فارتد عائداً بقواته إلى إفريقية . ووقف الحكم على تطور الحوادث بالمغرب ، فأزعجه ذلك وأهمه ، وبادر

= الزاهية ، وقد رفعت رؤوس القتلى وعددها مائة وفي مقدمتها رأس زيري على القنوات . وكان دخولهم على الخليفة ، في أواخر ذي القعدة سنة ٣٦٠ هـ . واستقبلهم الخليفة بالبشر والرضى ، وامتنح موقفهم وانصرافهم عن حزب الشيعة إلى موازنة حزبه . وعلى أثر انتهاء المقابلة ، انزلوا في الدور التي خصصت لهم بقرطبة ، ورتب الخليفة لكل من جعفر وأخيه يحيى ففحة شهرية قدرها ألف دينار ، ورتب لمرافقيهم من بني خزر ، كل ما يكفيه من النفقة والطعام . يقول ابن حبان بعد أن أورد لنا هذه التفاصيل الشائقة بإسهاب لا مزيد عليه : « فكأن يوم جعفر بن علي ومن ورد معه من أحد الأيام للمقيم بقرطبة ، في اكتمال حسنه وجماله قدره ، خلد حديثه زماناً في أهلها ، قاضياً من حجب الحلالة ، وكل شيء فألى انقضاءه ، إلا إله الأرض والسماء ، تعالى جده » (المقتبس - قطعة أكاديمية إماريخ ص ٤٤ - ٥٣ - وص ٥٧) .

(١) راجع مجموعة « نبد تاريخية في أخبار البربر في القرون الوسطى » المنتخبه من كتاب « مفاخر البربر » مؤلف مجهول ، والمنشور بعنوان الأستاذ لوي بروفتسال (الرباط سنة ١٩٣٤) ص ٦-٨ ، ويرجع الكتاب هذه الموقمة إلى سنة ٣٦٠ هـ . وراجع أيضاً المقتبس - قطعة أكاديمية التاريخ ص ٣٦ و ٣٨ .

باعداد جيش ضخيم ، حسن الأهبة ، لغزو المغرب ، ومقاتلة الحسن بن كنون ، تحت إمرة قائده محمد بن القاسم بن طملس ، كما أمر قائد البحر عبد الرحمن بن رماحس بمحشد الأسطول . وعبر محمد بن القاسم في قواته من الجزيرة الخضراء إلى سبتة ، في شوال سنة ٣٦١ هـ (يولييه ٩٧٢ م) ، وكان الحسن بن كنون عندئذ في طنجة ، فخرج في جموع البربر لقتال جيش الحكم ، فوعدت عليه الهزيمة وقتل كثير من أصحابه ، وفر هارباً تاركاً أمواله وعتاده بطنجة ، واستسلم أهل طنجة إلى محمد بن القاسم ، وأعلنوا طاعتهم للحكم ؛ ودخل محمد بن كنون جنوباً حتى احتلها ، وبعث إلى الحكم بفتحها . ثم طارد فلول الحسن بن كنون جنوباً حتى ثغر أصيلا ، ودخلها .

وفي تلك الأثناء كان الحسن قد جمع فلوله ، وأعاد تنظيم قواته ، وسار إلى لقاء جيش الحكم مرة أخرى ، فالتقى الجمعان في مكان يعرف بفحص مهران ؛ وهنا حالف الحسن حسن الطالع ، فدارت الدائرة على جند الأندلس ، وقتل منهم عدة كبيرة فرساناً ومشاة ، وفي مقدمتهم قائدهم محمد بن القاسم ، وبلغ القتلى من الفرسان وفق تقدير الرازي خمسمائة ومن الرجال ألفاً ، وكان ذلك في الثالث والعشرين من ربيع الأول سنة ٣٦٢ هـ ، وفرت فلول الأندلسيين إلى سبتة فامتنعوا بها ، وبعثوا إلى الحكم يطلبون الإنقاذ والغوث (١) .

وأراد الحسن في نفس الوقت أن يستغل نصره بطلب الصلح ، وتقديم الطاعة وتبادل الرهائن ، وبعث أمير البحر عبد الرحمن بن رماحس بذلك إلى الحكم ، فكتب الحكم إليه ومن معه من القادة يوصيهم بالاستمرار في مجاهدة الملحد ، ومجاهدة من معه ، حتى يفتح الله عز وجل فيه وفيهم . وكان مما قاله في كتابه : « أن أفضل ما احتمال عليه ، وعمل به ، استشعار الخزم ، وادراع التحفظ ، واستنصاح الاتهام ، وإذكاء العيون ، وبث الجواسيس ، والامسكتار منهم ، ومن حملة الأخبار حتى لا يخفى لحسن - أهلكه الله - حركة ، ولا يتوارى له مذهب » .

ومما كتبه الحكم إلى عبد الرحمن بن يوسف بن أر مطيل قائد ثغر أصيلا ،

(١) راجع مجموعة « بُد تاريخية في أخبار البربر » التي سبق ذكرها ص ٨ . وابن حبان في المقتبس - قطعة أكاديمية للتاريخ ص ٩٦ .

رداً على ما أبداه الحسن من رغبة في الإنابة والصلح : « وكيف يذهب الآن هذا المذهب وهو في طغيانه مستمر ، وفي دينه مستبصر ، ولكم في كل أيامه محارب ، هذا هو الضلال ، والمحال عين المحال ، وسبب الخبال ، وقد رأى أمير المؤمنين تأمين جميع الناس لديه غيره ، وغير من أصر إصراره ، وتمادى تماديه ، إلى أن يحكم الله عليه ، ويفتح فيه » (١) .

وبادر الحكم في نفس الوقت بحشد جيش جديد ، ندب لقيادته مولاة ووزيره وكبير قواده غالباً بن عبد الرحمن « البعيد الصيت المعروف بالشهامة » . وأمه عدا الحند الكثيف ، والعتاد الضخم ، بأموال جليلة لاستمالة القبائل ، وأمره أن يشتد في قتال الأدارسة ، وأن يستأصل شأفتهم ، وأن يطهر المغرب من كل القوى المناوئة لبني أمية . وقال له : « سر يا غالب مسير من لا إذن له في الرجوع إلا حياً منصوراً ، أو ميتاً معذوراً ، وابطسط يدك في الإنفاق ، فان أردت نظمت للطريق بيننا قطار مال » (٢) . فخرج غالب في قواته الحرارة من قرطبة ، وعبر البحر من الجزيرة الخضراء إلى قصر مصمودة (أو القصر الصغير) وذلك في الحادى عشر من رمضان سنة ٣٦٢ هـ . وعلم الحسن بمقدمه ، وعظيم أهيته ، فغادر مدينة البصرة ، الواقعة في الجنوب حيث كان يقيم ، ولجأ بأهله وأمواله وذخائره إلى قلعة حजर النسر ، الواقعة شمالها . ثم جمع قواته وخرج لقتال جيش الحكم ، ونشب القتال بين الفريقين أياماً ، وبث غالب في رؤساء البربر من نغارة وغيرهم من جند الحسن ، الأموال والهدايا ، فانفصلوا عنه ، واضطر الحسن أن يمتنع بمن بقي معه في قلعة حजर النسر ، فطارده غالب وضرب الحصار حول القلعة . وفي أوائل شوال بعث الحكم ثقته محمد بن أبي عامر إلى العدو بأحمال من المال والحلى والخلع لتوزيعها على أكابر البربر الذين يمكن استمالتهم إلى جانب الخلافة . وأصدر الحكم في نفس الوقت مرسومه بتعيين ابن أبي عامر

(١) ابن حيان - قطعة أكاديمية التاريخ ص ٩٧ و ٩٨ .

(٢) ابن خلدون ج ٦ ص ٢١٨ ، وكذلك « فبذ تاريخية في تاريخ البربر » ص ٩ . وقد وردت هذه العبارة بصورة أخرى في كتاب نقله إلينا ابن حيان ، وأرسله الحكم إلى غالب وهو بالدوة ردا على كتاب منه وجاء ، في خاتمه هذه العبارة : « فاستقبل نظرك استقبال من استشعر مذهب أمير المؤمنين ووطن فيه على أن لا مرجع إلا بما يجب أو يموت فيعذر » . راجع المقتبس - قطعة أكاديمية التاريخ - ١٣١ .

قاضياً لقضاة العدو ، إلى ما يتقلده من خطى الشرطة الوسطى والعليا والمواريث وقضاء إشبيلية^(١) . ووصلت إلى غالب من الأندلس بعد ذلك أمداد جديدة ، بقيادة الوزير يحيى بن محمد التجيبي وإخوته ، يوسف ومحمد وهاشم وهذيل ، ومعه حملة من المال (المحرم سنة ٣٦٣ هـ) ونزل يحيى وجنده بطنجة ، وانضموا إلى قوات القائد الأعلى غالب . وشدد غالب الحصار على الحسن ، وقطع سائر علائقه وموارده ، وبث قواته في سائر الأنحاء لمطاردة الأدارسة ، واستئصال شأفهم . ونشبت بين جند الحكم وبينهم معارك عديدة ، قتل فيها الكثير منهم . وفي صفر سنة ٣٦٣ هـ استولى غالب على مدينة البصرة ، وسلمها إليه أهلها ، بعد أن قتلوا نائبها الحسيني . وكان ضمن حاشية غالب الشاعر محمد بن حسين التيمي المعروف بالطبني ، بعثه إليه الحكم تحقيقاً لرغبته لكي يساعده بنظمه على اكتساب ولاء المنشقين على الحسن^(٢) . وفي تلك الأثناء ، كان الحسن قد أجهده الحصار ، وأشرف على الهلاك ، ومن معه من أهله ورجاله ، فاضطر في النهاية إلى طلب الأمان والتسليم ، وأعلن طاعته للحكم (جمادى الآخرة سنة ٣٦٣ هـ) ، ودخل غالب قلعة حجر النسر ، ودعى في مسجدها للحكم . ووصلت هذه الأنباء السارة إلى الحكم ، وأعلنها الحكم في جامع قرطبة ، بعد ذلك بأيام قلائل ، وتبع غالب سائر من بقي من الأدارسة ببلاد الريف حتى استأصل شأفهم ، وقضى على دولتهم . وسار إلى مدينة فاس ودخلها ، وعين لها حاكماً من قبله ، وتم بذلك إخضاع المغرب للدعوة الأموية .

وكان قد وصل من العدو قبل هزيمة الحسن ، عدد كبير من القبائل والبطون البربرية الخارجة عليه ، الجانحة إلى طاعة الحكم . وكان بين هؤلاء عدد كبير من فرسان قبائل كتامة يبلغون زهاء ثلاثة آلاف وخمسمائة فارس ، ورئيسهم أبو العيش بن أيوب ، وقد عقد له الحكم على قومه ، وأصدر له بذلك سجلاً من إنشاء صاحب المواريث جعفر بن عثمان ، يبين فيه واجباته وسلطاته ولا سيما في شئون الحباية ، وأصدر الحكم سجلاً مماثلة لزعماء القبائل والبطون البربرية الأخرى ، وقد ذكرها لنا ابن حيان ، وذكر أسماء زعمائها^(٣) .

(١) ابن حيان - قطعة أكاديمية التاريخ ص ١٢٣ .

(٢) ابن حيان في المقتبس - قطعة أكاديمية التاريخ ص ١٠٩ .

(٣) ابن حيان في المقتبس - قطعة أكاديمية التاريخ ص ١١٠ - ١١٥ .

وفي أواخر ذى الحجة سنة ٣٦٣ هـ ، عبر القائد الأعلى غالب البحر إلى الجزيرة الخضراء ، تاركاً شئون العدو للقائد يحيى بن محمد بن هاشم التجيبي تحقيقاً لرغبة الحكم ؛ وكان في ركب القائد الأعلى المظفر ، الحسن بن كنون وسائر أهله وشيعته من زعماء الأدارسة ومعهم الأهل والولد . وصدر قبيل ذلك في قرطبة ، عن أمر الخليفة الحكم ، كتاب طويل من إنشاء الوزير جعفر ابن عثمان قرئ على سائر منابر الأندلس ، وفيه ينوه بما من الله على خليفته من كفالة أمر المسلمين ، وقمع عدوان النصارى بالأندلس ، ثم مطاردة الشيعة أهل البلد بالعدوة ، وما منحه الله من النصر على المخالفين « حتى استوسقت الطاعة في جميع بلاد المغرب وقامت الدعوة بمنابر قواعده »^(١) . وأشرف غالب في ركب الحافل على قرطبة في أوائل المحرم سنة ٣٦٤ هـ ، وأنزل الأشراف الحسينيون المرافقون له في الدور التي أعدت لهم بقرطبة وأرباضها . وخرج الجند من مدينة الزهراء في صبيحة يوم الخميس الخامس من محرم لتلقى القائد المظفر ، والمسير بين يديه ، وعلى رأسهم عدة من الفتيان ورؤساء الخدمة ، ودخل غالب قرطبة في عسكره ، وفي ركب الأشراف الأدارسة ، ونزل بفحص الناعورة ؛ ويصف لنا ابن حيان في تفصيل شاف موكب القائد غالب ، وركبه المظفر الفخم ، ومن كان يحف به أو يتبعه من الفرسان المدرعين وأهل الخدمة والصقالبة ، والعبيد الرماة وغيرهم من أصحاب الطبول والقرون والبنود والرايات . ودخل غالب في موكبه الفخم مدينة الزهراء من باب السدة ، ونفذ إلى القصر ، وأنزل الأدارسة الذين معه في المجالس القبلية بدار الجند . وكان الخليفة الحكم قد جلس لاستقباله في المجلس الشرقي المشرف على الرياض ، وقد حف به الإخوة ، وجلس من بعدهم الوزراء والحجاب وأصحاب الشرطة والمدينة والقضاة وسائر أهل الخدمة ، كل في مكانه المعهود . واستقبل الخليفة زعماء الأدارسة ، وشيخهم حنون بن أحمد بن عيسى ، وشكر طاعتهم ، وعفا عن الحسن ، ووعدهم بالإحسان ، وأجزل لهم الأرزاق والصلوات^(٢) . وعين من حاشيتهم في ديوانه ، سبعمائة من أنجادهم . واستمر الحسن وذووه على ذلك زهاء عامين . ثم وقعت

(١) راجع الكتاب المذكور في المقتبس - قطعة أكاديمية التاريخ ص ١٧٨ - ١٨٢ .

(٢) ابن حيان في المقتبس - قطعة أكاديمية التاريخ ص ١٩٤ - ٢٠٠ .

النفرة بينه وبين الحكم لأسباب منها ، « سوء خلق الحسن ولجأته » . قال المؤرخ : « وكان الحسن بن قنون هذا جاهلاً متهوراً فظاً ، شديد الحرارة ، قاسى القلب » . ولم ينس الحكم ما كان من قسوته وفضاعته نحو جنده أيام الحرب بينهما ، حيث كان الحسن يلتقى بالأسرى من جند الأندلس من أعلى قلعته الشاخنة فيصلون إلى الأرض إرباً^(١) . وهكذا ثقل وجوده وذووه في قرطبة . ومن جهة أخرى فقد كان الحاجب جعفر بن عثمان المصحفي يتوجس شراً من وجود الحسن وصحبه ، ويستثقل نفقاتهم ، وينصح بإخراجهم من الأندلس . فرأى الحكم أن يقصيمهم عن مملكته ، وأن يتخلص من نفقاتهم الباهظة ، وأن يعث بهم إلى المشرق . وهكذا أخرج الحسن وعشيرته من قرطبة ، وركبوا البحر من ألمرية إلى تونس سنة ٣٦٥ هـ (٩٧٥ م) ، ثم ساروا إلى مصر ، حيث نزلوا في كنف خليفتها الفاطمي العزيز بالله ، فأكرم وفادتهم ، ووعدهم بنصرة قضيتهم . واستقر الحسن بمصر بضعة أعوام ، حتى سنة ٣٧٣ هـ ، وعندئذ بعثه العزيز بعهد منه ، إلى بلكين بن زبرى بن مناد بالقيروان ، يطلب إليه إمداده وعونه ، على تنفيذ مشاريعه ، إلى أن كان من أمره ما يسجيء^(٢) .

وكان غرسية فرناندز ، ولد فرنان كثنالث ، صاحب قشتالة وألبه ، قد خلف أباه في الحكم ، منذ وفاته في سنة ٩٧٠ م . وكان مثله يتبع سياسة النفاق والمصانعة ، في إظهار رغبته في السلم ، ثم يقوم في الوقت نفسه بالإغارة على الأراضي الإسلامية ، كلما سنحت الفرص . فلما شغل الحكم بحوادث المغرب ، وعبرت الجيوش الأندلسية وقوادها الأكارب ، إلى العدو ، بعث غرسية قواته ، فأغارت على أراضي المسلمين ، واقتحمت حصن دسة الواقع شمال شرقي مدينة سالم ، والذي يتوسط أراضي بني عمريل بن تيملت الثغرى . ووقع هذا الاعتداء في شهر ذى الحجة سنة ٣٦٣ هـ (صيف سنة ٩٧٤ م) ، وأحرق النصارى الزروع واستاقوا الماشية ، فخرج في أثرهم زروال ومضاء ، ولدا عمريل ، واليا هذه

(١) « نبت تاريخية في أخبار البربر » ص ١٠ و ١٤ .

(٢) راجع في سرد هذه الحوادث المغربية : البيان المغرب ج ٢ ص ٢٦١ - ٢٦٥ ، وابن خلدون ج ٦ ص ٢١٦ - ٢١٩ ، والاستقصاء ج ١ ص ٨٦ - ٨٨ . و « نبت تاريخية في أخبار البربر » ص ٦ - ١٢ .

المنطقة ، في أصحابهما ، واستنقذوا الماشية ، وقتلوا عدداً من النصارى ؛ ولكن النصارى تكاثروا عليهم بعد ذلك ، ووقعت بين الفريقين معركة قتل فيها زروال . ومن الغريب أن غرسية فرناندز ، كان قبل هذا الاعتداء بقليل ، قد بعث رسله إلى قرطبة ، في طلب السلم والمهادنة ، فأجابهم الحكم إلى ما طلبوا ؛ وما كادوا ينصرفون من قرطبة ، حتى جاءت الأنباء بما حدث من اعتداء القشتاليين ، فبعث الحكم لفقوره أفلح صاحب الخيل ، في سرية من وجوه الجند ، للقبض على السفراء القشتاليين ، فهرعت في أثرهم واستطاعت أن تظفر بهم ، وأعيدوا إلى قرطبة حيث زجوا إلى السجن .

ووفد على الحكم في العام التالي ، أبناء عمريل الخمسة بعد وفاة أبيهم ، وشهد القائد الأعلى غالب بن عبد الرحمن ، بجزمهم وحسن طاعتهم ، وأوصى بتقليدهم عمل والدهم ، فقسمت بينهم الأراضي والحصون ، على رضا منهم ، وغمرهم الحكم بالخلع والصلوات (١) .

وكان من الأحداث البارزة في أواخر سنة ٣٦٣ هـ ، ما وقع من نكبة جعفر ويحيى ابني علي بن حمدون الأندلسي . وكانا قد استقرا في قرطبة ، في كنف الحكم وتحت سايغ رعايته . وكان الحكم قد ابتاع منهما عبيدهما الذين استعفوا من خدمتهما ، ودفع الثمن إليهما ، وتم فصل العبيد عنهما ، وضمهم الحكم إلى جنده لما كانوا يتصفون به من الشجاعة والبأس ، وكان لذلك فيما يبدو أثر سيئ في نفسيهما ، فقبل إنهما تكلما في حق الخليفة بما لا يحمد ، وجاهرا بامتداح خلفاء الشيعة ، سادتهم الأوائل ، ونمى ذلك إلى الحكم ، فأمر في الحال بالقبض عليهما ، وزجا مكبولين إلى سجن الزهراء . وكان ذلك في شوال سنة ٣٦٣ هـ ، ولبثا في المطبق بضعة أشهر ، حتى عاد الخليفة فعفا عنهما ، وأمر بإطلاق سراحهما ، وذلك في رجب من العام التالي ، فأقرا بالذنب وطلبوا الإنابة والصفح ، فأسعنهما الخليفة بما طلبنا ، وغمرهما بصلاته (٢) .

(١) راجع ابن حيان في «المقتبس» قطعة مكتبة أكاديمية التاريخ (ص ٧٣ و١٨٨ و١٨٩) .
وراجع بحثاً في ذلك الموضوع للعلامة كوديرا عنوانه :

Embajadores de Castilla encarcelados en Córdoba de los últimos años de Alhakam II (B. R. A. H. Tom. XIV, 1889).

(٢) ابن حيان في المقتبس - قطعة أكاديمية التاريخ ص ١٧١ - ١٧٤ .

وعمد الحكم في نفس الوقت إلى اصطناع البربر وفرنسانهم ، لما لقيه منهم في حربه ضد الحسينين الأدارسة ، من المجالدة ووفرة البأس والشجاعة ، فأكرم وفادتهم ، وألحقهم بجنده ، وأجزل لهم العطاء . وكان في مقدمة هؤلاء بنو برزال الذين أبلوا من قبل في محاربة زيري بن مناد الصنهاجي ، وكانوا قد عبروا إلى الأندلس ، وأغضى الحكم عن انخيازهم إلى مبادئ الخوارج الإباضية . وهكذا اجتمعت للحكم من عبيد جعفر ويحيى ومن داخلهم من أحرار البربر الوافدين ، قوة عسكرية بربرية تضم نحو سبعمائة فارس من خيرة الشجعان (١) .

وفي شهر جمادى الآخرة سنة ٣٦٤ هـ أصدر الحكم أوامره بإسقاط سدس المغموم (الضرائب) الواجب أدائه على سائر الرعايا عن هذه السنة ، وأنفذ بذلك مرسومه إلى سائر القواد والعمال بمختلف الكور ، وقرر أن يكون هذا السدس شائعاً في الناس يستوى في معرفته العالم منهم والجاهل ، وذلك ترفيهاً لهم وتحقيقاً لمصالحهم (٢) .

وفي شهر رجب من هذه السنة ، بعث الحكم ، نظراً لما بدا من تحركات النصارى في مختلف الأنحاء ، عدداً من أكابر رجال المملكة إلى كور الأندلس لحث أهلها على ارتباط الخيل ، والاستعداد لموازرة جيش الصائفة ، وكان ممن بعث من رجاله صاحب الشرطة العليا ، يحيى بن عبيد الله بن يحيى ، بعثه إلى كور الجوف ، وبعث قائد البحر عبد الرحمن بن رماحس إلى كور الشرق ، وبعث أحمد بن محمد بن سعد الجعفرى إلى الغرب ، نحو شتيرين وما إليها ، وبعث آخرين لنفس الغرض (٣) .

وفي أوائل شعبان سنة ٣٦٤ هـ (أبريل ٩٧٥ م) هاجم جيش مشترك من الحلالفة والقشتاليين والبشكنس ، حصن غرماج الواقع على نهر دويرة على مقربة

(١) ابن حيان - قطعة أكاديمية التاريخ ص ١٩١ و ١٩٢ .

(٢) المقتبس - قطعة أكاديمية التاريخ ص ٢٠٨ . وقد أورد لنا ابن حيان نص هذا المرسوم كاملاً (ص ٢٠٧ و ٢٠٨) وفيه يقرر الحكم أنه أصدر مرسومه المذكور « لما تظاهرت آلاء الله تعالى عليه ، وحسن بلائه عنده » وأنه « رأى أن يجدد له الشكر » ويمتري منه المزيد بإسقاط سدس جميع مغموم الحشود الواجب تقاضيا منهم لسنة أربع وستين وثلاثمائة ، تخفيفاً عن رعيته وإحساناً إلى أهل مملكته .

(٣) المقتبس - قطعة أكاديمية التاريخ ص ٢١٦ .

من مدينة سالم ، ونشب بينه وبين حاميته الإسلامية قتال عنيف . وشجع النصارى على انتهاك السلم المعقود بينهم وبين الخليفة ، اعتقادهم بأن قوى الأندلس كلها ما تزال مشغولة بحروب العدو . وانقلب النصارى إزاء بسالة الحامية الإسلامية إلى محاصرة الحصن ، ووافقهم أمداد أخرى جاءت لتشد أزرهم . وما كاد الحكم يقف على هذه الأنباء حتى بعث كبير قواده غالباً بن عبد الرحمن فى قوة مختارة غادرت قرطبة على عجل . وبعث الحكم فى أثرها أجمال المال للإنفاق على الصائفة . واستمر حصار النصارى لغرماج حتى شوال من تلك السنة . وجاءت للنصارى أمداد جديدة من جند ليون ، سيرتها الراهبة للبيرة الوصية على ملك ليون ، ناكثة بذلك عهدا فى التهادن والسلم . وفى منتصف شوال ، هاجم النصارى الحصن ، وهم فى أكثر من ستين ألفاً ، محاولين اقتحامه ، ونشبت بينهم وبين الحامية الإسلامية معركة طاحنة انتهت بهزيمة النصارى وتبديد شملهم ، فبادرت صفوفهم بالارتداد عن الحصن بعد أن فقدوا كثيراً من جندهم وعتادهم ، وطاردهم المسلمون ، فقتلوا منهم جموعاً أخرى ، وأحرزوا غنائم جمة . وبعث المسلمون إلى الوزير غالب ، وهو مقرب منهم لنصرتهم ، نبأ هذا الظفر ، فأنفذه من فورهِ إلى الخليفة ، وسار إلى الحصن ونزل به ، ثم خرج فى قواته ، فعاث حيناً فى أراضى قشتالة ، وانتسف الزروع ، وخرّب القرى . وتقدمت قوة بعث بها غرسية فرنانديز صاحب قشتالة لمداغمة المسلمين ، فهزمت وردت إلى أعقابها (١) .

* * *

تولى الحكم المستنصر الملك ، حسبما أسلفنا ، وهو كهل فى الثامنة والأربعين من عمره ، ولم يكن إلى ذلك الحين قد أنجب ولداً ، وكان ذلك مما يثير قلقه وجزعه ، إذ كان يتوق أن يكون له وريث فى الملك . ومن ثم فقد سرّأماً سرور حينما ولدت له حظيته « جعفر » أو صبح الناقدارية ، ولداً سباه عبد الرحمن (سنة ٣٥١ هـ - ٩٦٢ م) ، وكان مولده حادثاً خطيراً ، نوهت به الشعراء والأدباء . ولكن هذا الولد توفى طفلاً ، فحزن الحكم لفقدهِ أيما حزن . على أن القدر لم يلبث

(١) المقتبس - قطعة أكاديمية للتاريخ ص ٢١٨ و ٢١٩ و ٢٢٤ - ٢٢٧ .

أن حباه مرة أخرى ، إذ ولدت «جعفر» ولدأ آخر سماه أبوه هشاماً وكنيته أبو الوليد ، فكان ولي عهده الملقب بالمؤيد . « فعظم استبشاره به وسروره بموهبة الله فيه »^(١) . وحضر الحاجب جعفر بن عثمان المصحفي وقت البشارة بولادته ، وأنشد هذه الأبيات :

أطلع البدر في صحابه وأطرف السيف من قرابه
وجاءنا وارث المعالي ليثبت الملك في نصابه
بشرنا سيد البرايا بنعمة الله في كتابه

وكان مولد هشام المؤيد سنة ٣٥٤هـ (٩٦٥م) ، وكان مؤدبه مذ بلغ الثامنة من عمره الفقيه أحمد بن محمد بن يوسف القسطلي ، وقد أمر الحكم بأن تعد لتعليمه الدار المعروفة بدار الملك بقصر الزهراء ، وأن تزود بجميع ما يحتاج إليه لذلك . وكان قعود هشام مع مؤدبه في المجلس الشرقي منها في رمضان سنة ٣٦١هـ . وندب الحكم وصيفه الفتي ذكاء ناظراً للأمر متكفلاً بشئونه^(٢) . وفي أواخر سنة ٣٦٣هـ ندب الخليفة العلامة النجوى أبا بكر الزبيدي الإشيلي ليقوم بتدريس العربية وعلومها لولى العهد . وفي العام التالي ندب الفقيه المحدث يحيى بن عبد الله ابن يحيى ليقوم بإسماعه الحديث . وكان يومئذ عمدة المحدثين بقرطبة^(٣) . وسنرى أى دور عظيم تلعبه فيما بعد ، أم هشام جعفر أو صبح الناظرية ، على مسرح الحوادث .

وأما عن شخص الحكم ، فقد كان حسباً تصفه الرواية ، أبيض مشرباً بحمرة ، أعين ، أفقى ، جهير الصوت ، قصير الساقين ، ضخم الجسم ، غليظ العنق ، عظيم السواعد ، أفقم^(٤) .

* * *

يمتاز عصر الحكم المستنصر بظاهرة ، من ألمع الظواهر في تاريخ الدولة

- (١) البيان المغرب ج ٢ ص ٢٥٢ و ٢٥٣ ، وأعمال الأعلام لابن الخطيب ص ٤٣ .
- (٢) ابن حبان في المقتبس - قطعة أكاديمية التاريخ ص ٧٦ و ٧٧ .
- (٣) المقتبس - قطعة أكاديمية التاريخ ص ١٣٣ و ٢١٦ .
- (٤) البيان المغرب ج ٢ ص ٢٤٩ . والأعين هو ذو العينين السوداوين النجلوين ، والأفقى ذو الأنف المرتفع الأعلى والمحدود الوسط ، والأفقم أى الأعرج .

الأندلسية ، هي ازدهار العلوم والآداب أعظم ازدهار ، وإنشاء المكتبة الأموية العظيمة ، التي كانت بضخامتها ، وتنوع محتوياتها ، من أعظم مكتبات العصور الوسطى .

ويرجع ذلك قبل كل شيء إلى شخصية الحكم نفسه ، وإلى صفاته العلمية الممتازة ، التي نوه بها أكثر من مؤرخ أندلسي ، وإلى شغفه العظيم بجمع الكتب ، وهو شغف كان له أكبر الأثر في مليء خزائن الأندلس بنفائس الكتب ، من كل فن ومن كل قطر ، من أقطار العالم الإسلامي .

وقد أشاد ابن حيان مؤرخ الأندلس - وقد عاش قريباً من عصر الحكم - بصفات الحكم العلمية ، وتقدمه في العلوم الشرعية ، وعنايته بتحقيق الأنساب وتأليف قبائل العرب ، واستدعاء رواة الحديث من جميع الآفاق ، وإثارة مجالس العلماء ، وشغفه بجمع الكتب بصورة لم يسمع بها^(١) . ويشاطره معاصره الفيلسوف ابن حزم ، هذا الإعجاب بصفات الحكم العلمية ، ويذكر لنا في أكثر من موضع من مؤلفه الجامع في الأنساب ، أنه ينقل من خط الحكم^(٢) . ويجمل ابن الخطيب هذه الصفات في قوله : « وكان رحمه الله (أى الحكم) عالماً فقيهاً بالمذاهب ، إماماً في معرفة الأنساب ، حافظاً للتاريخ ، جامعاً للكتب ، مميّزاً للرجال من كل عالم وجيل ، وفي كل مصر وأوان ، تجرد لذلك ، وتهتم به ، فكان حجة وقدوة ، وأصلاً يوقف عنده »^(٣) .

وقد انتهت إلينا تفاصيل مدهشة عن الدور العظيم الذي قام به الحكم في إنشاء المكتبة الأموية الكبرى . وكانت هذه النزعة الأموية ، إلى تشجيع العلوم والآداب وجمع الكتب ، قد بدت منذ عصر عبد الرحمن الداخل . وفي عهد الأمير محمد ابن عبد الرحمن كانت المكتبة الأموية بالقصر ، أعظم مكتبات قرطبة . وكان عبد الرحمن الناصر يشغف بجمع نفائس الكتب من سائر الآفاق ، حتى أن قبصر

(١) الحلة للسيرة ، نقلا عن ابن حيان ص ١٠١ و ١٠٢ .

(٢) جمهرة أنساب العرب لابن حزم (القاهرة) ص ٢٨١ و ٢٨٢ و ٢٩٢ و ٣٧٤ و ٣٧٥ و ٣٨٤ ، ٣٩٨ . وقد وضع الحكم بالفعل كتاباً في « أنساب الطالبيين والعلويين القادمين إلى المغرب » (نفع الطيب ج ٢ ص ٧٩) .

(٣) أعمال الأعلام ص ٤١ .

قسطنطينية حينما أرسل إليه سفارته الشهيرة ، حرص على أن يهديه كتابين من ذخائر الأقدمين هما كتاب ديسقوريدس عن الأعشاب الطبية وتاريخ أورسيوس . ولما توفي الناصر ، عني ولده الحكم بجمع مكتبات القصر وتنظيمها ، لتكون بداية طبية للمكتبة الأموية العظيمة ، التي أنفق بقية عمره في جمعها وتنسيقها^(١) . ويقول لنا ابن حيان في دهشة وإعجاب إنه « لم يسمع في الإسلام بخليفة ، بلغ مبلغ الحكم في اقتناء الكتب والدواوين ، وإيثارها والتهمم بها . أفاد على العلم ، ونوه بأهله ، ورغب الناس في طلبه ، ووصلت عطاياه ووصلاته إلى فقهاء الأمصار النائية » . وكان الحكم يبعث إلى أكابر العلماء المسلمين من كل قطر ، بالصلوات الجزيلة ، للحصول على النسخ الأولى من مؤلفاتهم . ومن ذلك أنه بعث إلى أبي الفرج الأصفهاني ألف دينار من الذهب العين ، ليحصل منه على نسخة من كتابه « الأغاني » . فأرسل إليه منه نسخة حسنة منقحة ، قبل أن يحصل عليه أحد في العراق أو ينسخه أحد منهم ، وأرسل إليه أبو الفرج أيضاً - وهو ممن ينتمون إلى المروانية بنى أمية - كتاباً ألفه في أنساب قومه بنى أمية ، يشيد فيه بمجدهم وما آثرهم ، فجدد له الحكم الصلة الجزيلة^(٢) . وفعل الحكم مثله ذلك مع القاضي أبي بكر الأبهري المالكي ، إذ بعث إليه بمبلغ جليل ليحصل على النسخة الأولى من شرحه مختصر ابن عبد الحكم . وأسبغ الحكم رعايته على اللغوى الكبير أبي علي القالي ، الذي وفد من العراق على أبيه الناصر ، وقربه إليه ، وألف كتبه تحت كنفه ، وأورث أهل الأندلس علمه^(٣) . وأهدى إليه أبو عبد الله الحشني بعض كتبه ومنها كتاب « القضاة » أو « قضاة قرطبة »^(٤) ؛ وأهدى إليه مطرف ابن عيسى الغساني ، كتابه المسمى بالمعارف في « أخبار كورة إلبيرة » ، كما أهدى إليه كثير من علماء العصر مؤلفاتهم ، تيمناً برعايته للعلم والعلماء . وكان للحكم طائفة من مهرة الوراقين بسائر البلاد ، ولاسيما في بغداد والقاهرة ودمشق ، يتقبون له عن الكتب ، ويحصلون منها على النفيس والنادر ، كما كانت له في بلاطه طائفة

J. Ribera : *Disertaciones y Opusculos* (Madrid 1938) p. 191 & 192 (١)

(٢) الخلة السبراء - عن ابن حيان ص ١٠٢ .

(٣) ابن خلدون ج ٤ ص ١٤٦ .

(٤) راجع كتاب قضاة قرطبة للحشني (المقدمة) .

أخرى ، من البارعين في نسخ الكتب ، وتحقيقها ، وتجليدها ، وتصنيفها . وبذل في هذا السبيل من الجهود والأموال ما لم يسمع به ، واجتمع لديه من نفائس الكتب في مختلف العلوم ، ما لم يجتمع لأحد قبله . ولما ضاقت أمهات القصر الخليلي ، عن استيعاب العدد العظيم ، من الكتب الواردة إليها باستمرار ، أنشأ الحكم على مقربة من القصر صرحاً عظيماً خاصاً بالمكتبة ، افتن المهندسون في ترتيبه وتنسيقه ، وإنارة أمهاته . قال ابن حزم « ملأ الأندلس بجميع كتب العلوم » وذكر لنا أن تليداً الفتي - وكان على خزانة العلوم بقصر بني أمية بالأندلس - أخبره أن عدد الفهارس التي كانت فيها تسمية الكتب أربع وأربعون فهرسة ، في كل فهرسة خمسون ورقة ، ليس فيها إلا ذكر أسماء الدواوين فقط (١) .

وعهد الحكم بإدارة المكتبة الأموية العظيمة إلى أخيه عبد العزيز . وعهد بالإشراف على جامعة قرطبة وأساتذتها إلى أخيه المنذر . وكان يقضى معظم أوقاته بمدينة الزهراء ، في أمهاتها المنيفة وظلالها الهادئة ، معتكفاً على القراءة والدرس برفقة صفيه محمد بن يوسف الحجاري ، الذي كتب له تاريخ الأندلس والمغرب ، وتواريخ أخرى لبعض المدن . وكان من أصفياه في تلك المحاليس أيضاً ، الفتي سابور الفارسي ، الذي قدم بدعوته إلى قرطبة ، واختاره ليكون وصيفاً خاصاً له ، وكان من أعلم أهل عصره (٢) .

ولم يكن هذا الشغف بجمع الكتب ، في عصر الحكم ، قاصراً على الأمير ، فقد غنى كثير من كبراء العصر وعلمائه ، بإنشاء مكتبات خاصة زاخرة بنفائس الكتب . وشغف النساء المثقفات كذلك بجمع الكتب ، وإنشاء المكتبات ، ومن أشهر هؤلاء عائشة بنت أحمد بن قادم ، وكانت من أروع نساء عصرها ، علماً وأدباً وشعراً ، وكانت خزانة كتبها من أغنى وأقيم المكتبات الخاصة . وكانت سوق الكتب في قرطبة ، من أشهر الأسواق وأحفلها بالحركة . بل لقد سرى هذا الشغف باقتناء الكتب إلى النصارى واليهود أنفسهم ، وكان الكثير منهم يجيدون اللغة العربية ، ويتذوقون ثمرات التفكير العربي من أدب وشعر وفلسفة وغيرها . وكان من أشهر هؤلاء الطيب اليهودي حسداي ، طيب الحكم الخاص ، وفي

(١) جبهة أنساب العرب ص ٩٢ . ونقلها ابن الأبار في الحلة السراء ص ١٠٢ .

(٢) Modesto Lafuente : Historia General de Espana ; T. III, p. 337.

ظله وتحت رعايته كتب يهود قرطبة باللغة العربية ، وألفوا بها مختلف الكتب ، وكان من أشهر المكتبات الأندلسية الخاصة فيما بعد ، مكتبة يوسف بن إسماعيل ابن نغالة اليهودي ، وزير باديس أمير غرناطة (١) .

ولم بجانب هذا الشغف بالكتب والثقافة العالية ، كان التعليم العام في عهد الحكم يجوز نهضة عظيمة ، وكان أبناء الشعب جميعاً يعرفون القراءة والكتابة ، هذا بينما كان أرفع الناس مكانة في أوروبا - خلا رجال الدين - لا يعرفون . وأسس الحكم عدداً كبيراً من المدارس يتعلم فيها الفقراء مجاناً . أما جامعة قرطبة ، فقد كانت يومئذ من أشهر جامعات العالم ، وكان مركزها في المسجد الجامع ، وتدرس في حلقاتها مختلف العلوم ، وكان يدرس الحديث أبو بكر ابن معاوية القرشي ، ويعلم أبو علي القالي ضيف الأندلس دروسه عن العرب قبل الإسلام ، وعن لغتهم وشعرهم وأمثالهم ، وكان ابن القوطية يدرس النحو ، وكان يدرس باقي العلوم أساتذة من أعلام العصر ، وكان الطلبة يعدون بالآلاف (٢) .

وكان الحكم يسبغ رعايته على سائر العلماء من مختلف الملل والنحل ، مسلمين كانوا أو غير مسلمين . ومن شواهد هذه الرعاية أن الأسقف العالم ريشوندو الإلبيري ، المسمى باسمه العربي ، ربيع بن زيد ، كان أثيراً لديه متمتعاً برعايته ، لتبحره في علم الفلك ، والعلوم الفلسفية ، وهي من الدراسات التي كان يعنى بها الحكم . وكان هذا الجبر القرطبي عالماً مبرزاً ، متمكناً من الآداب العربية واللاتينية ، وكان الناصر والد الحكم يقدر علمه ومواهبه ، ويحبه بعطفه ورعايته بالرغم من نصرانيته ، وكان يشغل مكانة هامة في القصر (٣) .

يقول العلامة دوزي : « وعلى العموم فإن إغداق الحكم على العلماء الإيبان والأجانب لم يعرف حداً ، وقد كانوا يهرعون إلى بلاطه . وكان المليك يشجعهم ويوليهم رعايته ، حتى الفلاسفة استطاعوا في ظله أن ينصرفوا إلى بحوثهم دون

(١) كتاب الصلة لابن بشكوال (القاهرة) ج ٢ ص ٦٥٤ ، وكذلك ، J. Ribera : *ibid.*

p. 199-202

(٢) Dozy : *Histoire des Musulmans d'Espagne*, Vol. II, p. 184 & 185

(٣) F. J. Simonet : *Historia de los Mozarabes de Espana* (Madrid 1897),

p. 607 & 612.

خوف من أن يقتلهم الأتقياء الورعون»^(١)..

ويبدى النقد الحديث تقديره وإعجابه بتلك النزعة العلمية التي امتاز بها الحكم ، والتي سادت كل عصره . فمثلا يقول لنا المؤرخ الإسباني موديستولا فونتي : « كانت دولة الحكم الثاني دولة الآداب والحضارة ، كما كانت دولة أبيه دولة العظمة والبهاء . وإن الرواية العربية لتحبو الحكم بكثير من جميل الذكر ، فهل نغضى نحن عن تسجيل إعجابنا بما لهذا الأموي المستنير من الصفات الباهرة ، لأنه كان مسلماً ولم يكن نصرانياً؟ إن ذلك يعني أننا ننكر فضائل أمثال أوغسطوس وتراچان وأدريان وماركوس أوريلوس ، لأن أولئك القياصرة العظام لم يكونوا نصارى . إن السلم الذي وطده أكتافوس في اسبانيا الرومانية ، قد وطده الحكم في اسبانيا العربية ؛ وقد قدم الحكم ، كما قدم أكتافوس من قبل ، الأدلة على أن الرغبة في السلم ، لم تكن لأنه لا يعرف الحرب ولا النصر ، ولكن لأنه كان يؤثر إلهام القريض ، ويؤثر الكتب على خزائن السلاح ، وإكليل الجامعات الحقيقي على إكليل الحروب الدموي .

لقد أعيد عصر أوغسطوس في اسبانيا بعد ألف عام في صورة جديدة ، وقد تحول بلاط قرطبة إلى نوع من الأكاديمية العظيمة ، وأغدق على ثمرات العبقريّة فيض الإغداق والكرم الرائع ، ونستطيع أن نقدر مدى التضحيات العظيمة ، ومدى الصبر ، والمثابرة ، والنفقات التي أمكن أن يتحقق بها إنشاء تلك المجموعة المدهشة ، من أربعائة ألف إلى ستمائة ألف مخطوط ، هي محتويات مكتبة قصر بني مروان » .

ثم يشير موديستولا فونتي بعد ذلك إلى أن هذا المستودع الزاخر من ثمرات العقل ، وتلك الحضارة التي وصل إليها العرب في عصر الحكم ، كانت قد وضعت بذورها من قبل ، وتعاقب أمراء بني أمية منذ عبد الرحمن الداخل في تعهدتها بالغرَس والنماء ، وقد كانوا جميعاً من أهل العلم والآداب ، ومن حماة العلوم والآداب . ثم يختتم تعليقه على عصر الحكم بقوله :

« لقد جاء هذا الخليفة الشهير الذي يعشق الآداب في عهد سعيد من السلم ، ولما كانت بذور التمدن موجودة من قبل ، فقد تفتحت في ظل رعايته ، وازدهر

الغرس ازدهاراً عظيماً ، حتى أنه بعد الحرث الكثير ، والمطر الغزير ، بدت شمس وضاعة رائعة منعشة» (١) .

وقد اختلف في تقدير محتويات المكتبة الأموية العظيمة ، التي أنشأها الحكم المستنصر ، فقدرها بعض المؤرخين بأربعمائة ألف مجلد ، وقدرها البعض الآخر بسمائة ألف (٢) . وكانت توجد في قواعد الأندلس الأخرى ، عدا مكتبة قرطبة العظيمة زهاء سبعين مكتبة أخرى (٣) . وهذا وحده يكفي للدلالة على مدى التقدم العظيم ، الذي بلغت الحركة الفكرية والأدبية في الأندلس ، في هذا العصر الزاهر . ولبت المكتبة الأموية العظيمة قائمة بقصر قرطبة ، حتى وقعت الفتنة الكبرى في سنة ٤٠٠ هـ ، وحاصر البربر قرطبة ، فأخرجت معظم الكتب من خرائنها خلال الحصار ، وبيعت بأمر الفتى واضح مولى المنصور بن أبي عامر ، ثم نهب ما تبقى منها عند اقتحام البربر لقرطبة ، حسبما نذكر بعد (٤) .

* * *

وشعر الحكم في أواخر عهده ، بأعراض الضعف والمرض تدب إليه ، فانتقل من قصر الزهراء وفقاً لنصح أطبائه ، لغلبة برد الجبل عليه ، وقضى حيناً في منية ناصح ، ومنية الناعورة ، ثم انتقل إلى قصر قرطبة . وعقد العزم على تأمين ولاية العهد لولده الطفل هشام . وتم ذلك في شهر جمادى الثانية سنة ٣٦٥ هـ (٥ فبراير سنة ٩٧٦ م) حيث جلس الحكم بقصر قرطبة ، وأعلن عزمه في تقليد ولده عهد الخلافة من بعده ، وأخذت البيعة بالفعل من الحاضرين ، وأخرجت كتبها لسائر الخاصة والعامة . وتولى أخذها على الناس وفق مراتبهم ، محمد بن أبي عامر ، وهو يومئذ صاحب الشرطة والمواريث ، وكان من قبل كافلاً لهشام ، وميسور الفتى الكاتب مولى صبيح ، ثم دعى لهشام في الخطبة بالأندلس والمغرب ، ونقش اسمه في السكة .

Modesto Lafuente : Historia General de España (Barcelona 1889), (١)

Tom. II ; p. 364 - 367.

(٢) نصح الطيب ج ١ ص ١٨٤ .

Prescott : Ferdinand and Isabella of Spain, p. 187. (٣)

(٤) ابن خلدون ج ٤ ص ١٤٦ .

وينعى ابن حيان على الحكم هذه السياسة في اختيار ولده الطفل لولاية العهد ، فيقول إنه أى الحكم على ما وصف من رجاحة « كان ممن استهواهم حب الولد ، وأفرط فيه ، وخالف الحزم في توريثه الملك بعده ، في سن الصبا دون مشيخة الأخوة ، وفتيان العشرة ، ومن يكمل للإمامة بلا محاباة ، فرط هوى ، ووهلة انتقدها الناس على الحكم ، وعدوها الحانية على دولته . وقد كان يعيها على ولد العباس قبله ، فأتاها هو مختاراً ولا مرد لأمر الله » .

وأصيب الحكم بعد ذلك بقليل ، بشلل أقعده عن الخروج والحركة ، ويقول لنا ابن حيان إن الحكم كان يعاني من هذه « العلة الفالجية » ولا يكاد يستفيق منها^(١) فلزم فراشه ، وتولى تدبير الشئون خلال مرضه ، وزيره جعفر بن عثمان المصحفي . ثم توفي بعد ذلك بأشهر قلائل ، في اليوم الثاني من صفر سنة ٣٦٦ هـ (٣٠ سبتمبر سنة ٩٧٦ م)^(٢) .

* * *

وكان الحكم المستنصر من خيرة أمراء بني أمية خلقاً وعلماً وعدلاً . وتنوه الرواية الإسلامية في غير موطن بجميل خلاله وصفاته . فيقول لنا ابن الأبار : « وكان حسن السيرة ، فاضلاً عادلاً ، مشغولاً بالعلوم »^(٣) . ويقول لنا ابن الخطيب : « وإليه انتهت الأمه والجلالة ، والعلم والأصالة ، والآثار الباقية ، والحسنات الراقية »^(٤) . وكان الحكم من ذوى الورع والتقوى ، تشهد بذلك عنايته الفائقة بأمر المسجد الجامع ، وتوسعته وإنشاء منبره الحديد ، وتزويده بالماء بطريقة هندسية بديعة ، وما بذله في سبيل ذلك من المنفقات الطائلة ، ويشهد بذلك أيضاً تشدده في محاربة الخمر وإراقها^(٥) . وكان محباً للعدل معنياً بإقامته ، شديداً في محاسبة الطغاة من العمال والحكام ، يؤيد ذلك ما رواه صاحب

(١) المتنبس - قطعة مكتبة أكاديمية التاريخ ص ٢١١ .

(٢) تضع معظم الروايات وفاة الحكم في هذا التاريخ (الحلة السيرة ص ١٠١ ، وفتح الطيب ج ١ ص ١٨٥ ، وابن الخطيب عن ابن حيان ، في أعمال الأعلام ص ٥٦) . ولكن صاحب البيان المغرب ينفرد بالقول بأن وفاته كانت في الثالث من رمضان سنة ٣٦٦ هـ .

(٣) الحلة السيرة ص ١٠١ .

(٤) أعمال الأعلام ص ٤٩ .

(٥) الحلة السيرة ص ١٠٣ .

البيان المغرب من أنه أرسل غير مرة إلى الحكام الظلمة ، يحذرهم من سطوته ، وإلى القواد والعمال ، يحذرهم من سفك الدم بلا موجب^(١) .
وكان من أعمال الحكم الإنشائية أيضاً إصلاح قنطرة قرطبة العظيمة على نهر الوادى الكبير ، وتقوية دعائمها التى وهنت بمضى الزمن (سنة ٣٦١ هـ) ، وإشرافه على ذلك بنفسه^(٢) .

وكان الحكم عارفاً بأقدار الرجال ، مميزاً للناهين منهم ، وقد جمع فى حكومته وبلاطه جمهرة من أعظم رجال العصر والمعهم . وكان فى مقدمة هؤلاء ، كبيرهم وزعيمهم الحاجب جعفر بن عثمان بن نصر المصحفى . وكان جعفر ينتمى إلى بطن من بطون البربر من بلنسية ، وتولى أبوه عثمان أيام الناصر تأديب ولده الحكم ، وهكذا نشأت بين الحكم وبين ولد أستاذه ومؤدبه جعفر مودة عميقة ، فلما أسندت إليه ولاية العهد ، قدم جعفر فى الأعمال واستخدمه فى الكتابة ، ثم ولاه الناصر بعد ذلك حكم جزيرة ميورقة . ولما ولى الحكم الخلافة استوزره وأمضاه على كتابة الخاصة ، وضم إليه بعد ذلك ولاية الشرطة ، ثم تولى بعد ذلك منصب الحجابة أى رياسة الوزارة ، خلفاً للحاجب جعفر بن عبد الرحمن الصقلبي ، وأصبح أول رجل فى الدولة ، واجتمعت لديه سائر السلطات ، ولما رزق الحكم بولده هشام اختار جعفر كافلاً له ، واستمر جعفر هو القائم بدولة الحكم حتى وفاته . وكان المصحفى من أساطين الكتابة والشعر وله شعر حسن ، أورد لنا منه ابن الأبار مختارات رقيقة مشرفة تدل على تمكنه^(٣) .

وكان من أشهر أعمال المصحفى فى بداية عهد الحكم أن قدم إليه هديته الباذخة ، التى حاول أن يبز فيها هدية الوزير ابن شهيد إلى الناصر . وقد أورد لنا ابن حيان فى المقتبس وصفاً لمحتويات هذه الهدية الشهيرة وهى : مائة مملوك من الفرنج ناشئة على خيول صافنة كاملو العدة والسلاح ، وثلاثمائة وعشرون درعاً مختلفة الأجناس ، وثلاثمائة خوذة كذلك ، ومائة بيضة هندية ، وخمسون خوذة

(١) البيان المغرب ج ٢ ص ٢٥٥ ، ٢٥٦ .

(٢) ابن حيان فى المقتبس - قطعة مكتبة أكاديمية التاريخ السابق الإشارة إليها

ص ٦٤ و ٦٥ .

(٣) راجع ترجمة جعفر المصحفى ومختارات من شعره ، فى « الحلة السيرة » ص ١٤١-١٤٧ .

حبشية من حبشيات الإفرنجية ، وثلثمائة حربة إفرنجية ، ومائة ترس سلطانية ، وعشرة جواشن مذهبة ، وخمسة وعشرون قرناً مذهبة من قرون الجاموس^(١) . وكانت هدية المصحفي للحكم ، من أشهر الحوادث الاجتماعية في هذا العصر .

وكان من أكابر دولة الحكم أيضاً ، القائد غالب بن عبد الرحمن الناصري صاحب مدينة سالم ، وكان مولى لأبيه الناصر . وكان غالب ، فضلاعن كونه من نصحاء الحكم ، ومستشاريه المقربين ، من أعظم قادة الأندلس ورجالاتها في هذا العصر ، وكان الحكم ، عرفاناً منه بقدر هذا القائد المظفر ، قد أسند إليه القيادة العليا ، وأصدر مرسومه بذلك إليه في سنة ٣٦١ هـ ، وذلك « لغناؤه وجميل مقامه » . ثم عاد على أثر انتصاره في موقعة حصن غرماج في سنة ٣٦٤ هـ ، فقلده سيفين مذهبين من ذخائر سيوفه ، وسماه « ذا السيفين » ،^(٢) وكان منهم أيضاً الوزير يحيى بن محمد التجيبي ، والقائد سعيد بن الحكم الجعفري ، وكلاهما من أعظم الوزراء والقادة ، وقد برز كلاهما في غزوات الصوائف ، وحوادث المغرب الأقصى .

وكان من كتاب الحكم عيسى بن فطيس ، ومن قضاته منذر بن سعيد البلوطي كبير القضاة في عهد أبيه الناصر ، ثم أبو بكر محمد بن السليم .

وكان الحكم ، بالرغم مما كان يسود الممالك الإسبانية النصرانية في عهده من جنوح إلى المهادنة والسلام ، يرقب حركاتها وتصرفاتها بعناية ، وقد رتب لذلك بعض عماله المهرة المخلصين المعروفين بصدق الخدمة ، وفي مقدمتهم ابن أبي عمرو العريف ، وصاحبه سعيد ، للسفارة بينه وبين ملوك جليقية ، ولقاء قواميسها ، والتردد عليهم « للتعرف على أخبارهم ، والتجسس لأنبأهم » وحمل الكتب إليهم في كل وقت ، وصرفها عنهم ، وهو ما يفصح عن بعض الوسائل التي كان يلجأ إليها بلاط قرطبة للإحاطة بأخبار الممالك النصرانية ونياتها^(٣) .

وكان الحكم شاعراً مطبوعاً ينظم القريض الرقيق ؛ ومما ينسب إليه قوله :
إلى الله أشكو من شمائل مسرف
على ظلوم لا يدين بما دنت

(١) ابن خلدون في كتاب العبرج ٤ ص ١٤٤ .

(٢) راجع المقتبس - قطعة أكاديمية التاريخ ص ٦٩ و ٢٢٠ .

(٣) المقتبس - قطعة أكاديمية التاريخ ص ٧٦ .

نأت عنه داري فاستزاد صلوده ولاني على وجدى القديم كما كنت
ولو كنت أدري أن شوقى بالغ من الوجد ما بلغته لم أكن بنت
وقوله :
عجبت وقد دعيتها كيف لم أمت وكيف انثنت بعد الوداع بدي معي
فيامقلتي العبرا عليها اسكبي دماً ويا كبدي الحراً عليها تقطعي

* * *

ونلاحظ أخيراً أن بلاط قرطبة ، كان في أيام الحكم المستنصر ، يبدو في
بهى أثوابه الملوكية والخلافية ، وكان جلوس الحكم في أيام الأعياد أو لاستقبال
الوافدين والسفراء من أيام قرطبة المشهودة . وقد أفاض ابن حيان في وصف
هذه الأيام والحفلات الباذخة . ويبدو مما كتبه أن الخليفة الحكم ، كان يؤثر
الجلوس في هذه الأيام بالجلس الشرقي من قصر الزهراء ، ويجلس عن يمينه
ويساره إخوته بترتيب السن ؛ ثم يليهم في ترتيب الجلوس ، الوزراء ، يجلسون
بعد فرجتين ، إلى اليمين وإلى اليسار ، ويلى ذلك صاحب المدينة بقرطبة ، ويجلس
إلى اليمين ، وإلى جانبه صاحب المدينة بالزهراء ، ثم يجلس من بعدهم صاحب
الحشم ، فصاحب الخيل ، فأصحاب الشرطة العليا والوسطى ، وسائر طبقات أهل
الخدمة وفق مراتبهم ، وقاضى الجماعة ، والحكام وأصحاب الشرطة الصغرى ،
وأسياب الخلاف ، وجلة قريش ، ثم وجوه الموالي ، ثم قضاة الكور والفقهاء
المشاورون والعدول ، وأعيان قرطبة . ويصطف الحند في أثوابهم الزاهية ،
منذ مداخل القصر حتى الممر المفضى إلى مجلس الخليفة ، وقد أورد لنا ابن حيان
وصف هذا النظام في مختلف المناسبات الرسمية ، مما يدل على أنه هو نظام البروتوكول
(المراسيم) الثابت الذى كان يتبعه بلاط قرطبة في هذا العهد عند جلوس الخليفة
للمناسبات الرسمية الكبرى (١) .

ويجب أن نلاحظ من ذلك الوقت التطور العظيم ، الذى حدث في تكوين
الاجتمع الأندلسى . فقبل عهد الناصر كانت الرياسة والأرستقراطية ، تنحصر في
القبائل العربية . وكان البربر يحتلون مقاماً أدنى . وكانت المعارك يضطرم لظاها

(١) ابن حيان في المقتبس - قطعة أكاديمية التاريخ ص ٢٩ و ٤٩ و ٥٠ و ٥٧ و ٨١

باستمرار بين السلطة المركزية أعنى بين الإمامة وبين العصبية العربية ، التي تحاول دائماً أن تقيم رياستها في الثغور والمدن على أساس الاستقلال الحلى . وقد استمرت هذه المعارك عصوراً ، منذ عبد الرحمن الداخل ، حتى جاء الناصر ، فشدد في مطاردة العصبية العربية وتحطيمها ، وآثر أن يعهد بالرياسة والسلطات المحلية إلى طوائف الصقالبة حسبما شرحنا ذلك من قبل . وفي عهد الحكم المستنصر كانت الأرسقراطية العربية ، قد اضمحلت ، وغاض نفوذها ، واختفت كقوة سياسية واجتماعية تحشاها السلطة المركزية ، وإن كانت قد بقيت كطبقة من الطبقات ، وحات محلها أرسقراطية من نوع جديد ، قوامها القادة والرؤساء العسكريون ، من الموالى والصقالبة ، فكانت بذلك أرسقراطية سيف ، وليست أرسقراطية قبيل أو عصبية ، وبلغ الفتيان الصقالبة أيام الحكم ، ذروة القوة والنفوذ والثراء ، مثلما كانوا أيام أبيه الناصر . ويكفى أن نذكر هنا دليلاً على ضخامة ثراء هؤلاء القوم ، أن أحدهم وهو الفتى الكبير درى الخازن ، قام بإهداء مولاه الخليفة الحكم ، منيته الغراء بوادى الرمان من ضواحي قرطبة ، وكان قد أنشأها مغنى ومنتزهاً ، وأفاض عليها أروع صنوف البذخ والبهاء ، وجعلها رياضها ومنشأتها جنة حقة . وقد قبل الحكم هدية فتاه ، وقام بزيارة هذه المنية مع ولى عهده هشام وحاشيته ، وأنفق فيها يوم استجمام ومسرة . وقد أجمع الخليفة ومرافقوه على أنهم « لم يشاهدوا فى المنزهات السلطانية أكمل ولا أعذب ولا أعم من صنيع درى هذا »^(١) . هذا وأما الطبقة الوسطى فقد انحصرت فى التجار ورجال الصناعة وغيرهم ممن استطاعوا أن يحرزوا بالتجارة والفنون فى مختلف القواعد ثروات عظيمة . ويأتى بعد الطبقة الوسطى ، طبقات الشعب الكادحة ، وكانت على نحو ما يحدث فى كل زمان ومكان ، تبغض الطوائف الميسورة ، وتنقم عليها نعماء العيش .

وكانت ثمة طبقة أخرى ، ذات مميزات خاصة ، هى طبقة المولدين أو بعبارة أخرى مسلمو الإسبان ، وكانت تحتل مكانها بين الطبقات المتوسطة والميسورة . وكان بينها الكثيرون ممن أحرزوا الحياه والنفوذ والثراء . بيد أن المولدين بالرغم من إسلامهم ، كانوا يعتبرون أقل مكانة من المسلمين الأصليين . وكان المعروف

(١) ابن حيان فى المقتبس - قطعة أكاديمية التاريخ ص ١٠٧ .

من أصولهم دائماً ، أنهم كانوا على الأغلب عبيداً أو مسترقين من القوط ، دخلوا في الإسلام اجتناء للحرية . وقد زاد عدد المولدين زيادة كبيرة ، منذ عهد عبدالرحمن ابن الحكم ، حيث دخل كثير من النصارى المعاهدين في الإسلام ، حينما اشتدت وطأة حكومة قرطبة عليهم ، أيام الفتن التي حاولوا إثارتها لإشاعة الإضطراب والفوضى ، حسبما فصلنا ذلك في موضعه . وبذلك ازداد عدد المولدين زيادة كبيرة ، منذ أوائل القرن التاسع الميلادى ، وغدوا في ظل الخلافة أيام الناصر وولده الحكم ، يمثلون أقلية كبيرة بين الأمة الأندلسية .

وأما الطبقة المسترقة أو طبقة العبيد ، فكانت في تلك العصور تتألف من العمال العبيد ، الذين يلحقون في الغالب بالضياح . وكان هذا النظام موجوداً منذ أيام القوط ، ولكنه طبق أيام المسلمين ، بصورة أفضل بكثير مما كان عليه ، ومنح هؤلاء العمال حقوقاً إجتماعية وإنسانية ، رفعت عنهم كثيراً من صور العبودية القديمة ، التي كانت تعطى للسيد عليهم حق الحياة والموت ، والبيع والشراء . ويلحق بغير الأحرار أيضاً طبقة الصقالبة والخصيان . بيد أن هذه الطبقة كانت تحتل مكانة ملحوظة في المجتمع ، وكان لها في الحكومة والقصر ، إيما نفوذ ، وقد ظهر منها زعماء وقادة وصلوا إلى مراكز عظيمة ، وكان لهم فيما بعد شأن يذكر ، في تطور الحوادث التي أعقبت انهيار الخلافة الأندلسية .

ولإى جانب هذه الطبقات المختلفة ، التي تتألف منها الأمة الأندلسية ، كانت توجد دائماً طبقة النصارى المعاهدين ، الذين يعيشون في ظل الحكم الإسلامى ، وكانت تجتمع في القواعد الأندلسية في أقليات كبيرة . وكانت تحتل في العاصمة ، وفي بعض المدن الأخرى مكانة خاصة ، ويشغل كثير من أفرادها مراكز هامة في الحكومة والجيش ، وقد تحدثنا من قبل عن بعض أحوال هذه الطبقة وظروفها . ويجب أخيراً ألا ننسى الأقلية اليهودية . فقد عومل اليهود منذ الفتح بمتبى الرفق والرعاية ، وازدهرت أعمالهم التجارية والصناعية ، في ظل ذلك التسامح الإسلامى المأثور ، ووصلوا في قرطبة في ظل الخلافة ، إلى ذروة النفوذ والرخاء . وفي أيام الناصر تولى أحدهم ، وهو العلامة حسداى بن شبروت ، الإشراف على الخزانة العامة ، وكان قبل ذلك قد حظى برعاية الناصر بخدماته الدبلوماسية ، وترجمته لكتاب ديسقوريدس عن الأعشاب الطبية ، من اليونانية إلى العربية .

وهو الكتاب الذي الهدى قيصر منه نسخة إلى الناصر . وفي ظل هذه الرعاية ،
وفد كثير من العلماء والأدباء اليهود إلى قرطبة ، أيام الناصر وولده الحكم ، وقامت
في ظل نشاطهم مدرسة قرطبة التلمودية ، ومؤسساتها الراي موسى بن حنوش ،
وازدهرت في ظلها البحوث التلمودية ، وغدت مركز الرياسة والتوجيه لهذه
البحوث . واستمرت الخلافة الأموية ، ومن بعدها حكومات الطوائف على
رعاية الأقلية اليهودية وتشجيعها ، وكان يهود قرطبة يرتدون الزي العربي ،
ويتخلقون بالتقاليد والعادات العربية ، ويمتازون بثرأهم ومظاهرهم الفخمة (١) ،

الفصل الثاني

هشام المؤيد بالله

مؤامرة الفتيان الصقالبة لإبعاد هشام وترشيح المغيرة بن الناصر. الحاجب جعفر يناهض مشرعوهم . محمد بن أبي عامر يتولى قتل المغيرة . معسكر الصقالبة ومعسكر الأحرار . أخذ البيعة لهشام . وصف ابن الخطيب لأحوال الخلافة الأندلسية يومئذ . اجتماع السلطة في يدي الحاجب جعفر وابن أبي عامر . صبح البشكنسية أم المؤيد . ظهورها في بلاط قرطبة وتمكن نفوذها من الحكم . حظوة الحاجب جعفر لديها . محمد بن أبي عامر . أصله ونشأته . خلاله وطموحه . حظوته لدى صبح . إطمينة العلائق بينهما . مصانعة الحاجب جعفر . نفوذه لدى صبح . جعفر المصحفي يتولى الحجابة وابن أبي عامر الوزارة . الصراع الخفي بين الرجلين . الخليفة للصبي هشام . شغفه بالهجو والعب . حجبته والحجر عليه . دور ابن أبي عامر في ذلك . طموحه في الاستئثار بالسلطة . الفتيان الصقالبة . تفاهم الحاجب وابن أبي عامر على سحقهم . ابن أبي عامر يتولى قيادة الجيش ويغزو أرض التصارى . الخلاف بين الحاجب والقائد غالب . مسير ابن أبي عامر وغالب إلى الغزو . ذبوع شهرة ابن أبي عامر . الصراع بينه وبين المصحفي . محاولة المصحفي التفاهم مع غالب . ابن أبي عامر يحبط خطته . مسير ابن أبي عامر وغالب ثانية إلى الغزو . زواج ابن أبي عامر من أسماء ابنة القائد . تولية غالب منصب الحجابة . تضاد مكانة المصحفي . إقالته والقبض عليه وعلى أهله . اشتداد ابن أبي عامر في مطاردته . وفاة المصحفي أو قتله في سجنه . شعر له في محتته . ابن أبي عامر يسحق خصومه ومنافسيه . اهتمامه بتنظيم الجيش . اصطناعه للبربر واضطهاده للعرب .

لما توفي الحكم المستنصر بالله ، في اليوم الثاني من صفر سنة ٣٦٦ هـ ، حرص خادماه الحصيان ، الفتيان فائق وجوذر ، على كتمان خبر موته ، وقاما بضبط القصر ، واتخاذ التدابير اللازمة ، لتسيير الأمور وفق الخطة التي وضعها . وكانت هذه الخطة ، تنحصر في تنحية ولي العهد الصبي هشام عن العرش ، واختيار عمه أخي المستنصر ، المغيرة بن عبد الرحمن الناصر ، لولاية العرش ، وكان الفتيان الصقالبة داخل القصر ، زهاء ألف ، ولهم نفوذ عظيم ، وفي يدهم الحرس الخلفي ومعظمه من الصقالبة والمرزقة . فكانوا بذلك قوة تحشى بأسها .

استدعى فائق وجوذر ، الحاجب جعفر بن عثمان المصحفي ، ونباة بموت الخليفة وعرضا عليه مشروعهما ، في تولية المغيرة ، فتظاهر الحاجب بالاستحسان والموافقة ، ووعدهما بالعمل وفق خطتهما ، وتنفيذ ما يشران به . ثم خرج ،

فبادر إلى ضبط أبواب القصر ، واستدعى أصحابه من خاصة الحكم ، مثل زياد بن أفلح مولى الحكم ، وقاسم بن محمد ، ومحمد بن أنى عامر ، وهشام بن محمد بن عثمان وغيرهم . واستدعى في نفس الوقت عصبته وأشياعه من زعماء البربر ، مثل بنى برزال ، كما استدعى سائر القادة الأحرار ، فاجتمع له منهم ومن أجنادهم طوائف ضخمة . فعنى لهم الخليفة ، وعرض عليهم مشروع الفتیان الصقالبة ، في تنحية هشام وتولية المغيرة ، وأوضح لهم أن هذا المشروع خطر داهم عليهم ، وأنه إذا ولي المغيرة ، وأستبد الصقالبة بالأمر ، قضى عليهم وعلى دولتهم ونفوذهم ، ونكل بهم المغيرة والصقالبة . والأمر بالعكس إذا ولي هشام ولي العهد الشرعى ، فإنهم يستبقون سلطانهم ونفوذهم ، وتغدو الدولة دولتهم ، ويأمنون على أنفسهم وأموالهم . فاقترح بعض أصحابه أن يقتل المغيرة ، فيؤمن بذلك شره في الحال والاستقبال ، وتطوع محمد بن أنى عامر لتنفيذ هذه المهمة الدموية ، حفظاً للوثام والوحدة ؛ فبعث جعفر معه سرية من الخند الأحرار الموثوق فيهم ، وسار معه بدر القائد مولى الحكم ، في سرية من غلمان الخليفة . وأحاط الخند بدار المغيرة ، ثم نفذ محمد بن أنى عامر في نفر من أصحابه ، ونباه بموت الخليفة وجلس ابنه هشام ، وأنه أتى ليتبين حقيقة موقفه ، فذعر المغيرة وأكد لا بن أنى عامر ، أنه مطيع مخلص لكل ما تقرر ، وتضرع إليه أن يحقن دمه ، وأن يراجع القوم في أمره . ولكن الرد كان قاطعاً في وجوب التخلص من المغيرة ، فدفع إليه ابن أبى عامر عدة من رجاله ، فقتلوه خنقاً أمام زوجته ، ثم أشاعوا أنه قتل نفسه ، ودفن في نفس مجلسه ، وكان سنه يوم قتل سبعاً وعشرين سنة . ووقع ذلك كله في يوم واحد فقط .

ولما وقف الفتیان فائق وجوذر على ما وقع ، تملكهما السخط والروع ، وبادرا إلى الحاجب جعفر ، وتظاهرا بالرضا والاستبشار بما وقع ، واعتذرا له عما سبق أن اقترحا عليه ، وأخذ الفريقان من ذلك الحين ، يتوجس كل من صاحبه ويتربص به ، وانقسم أهل القصر إلى معسكرين ، معسكر الصقالبة يتزعمه فائق وجوذر ، ومعسكر الأحرار يتزعمه الحاجب جعفر ومحمد بن أبى عامر^(١)

(١) نقل إلينا ابن بسام في الذخيرة هذه التفاصيل عن ابن حيان (الذخيرة - القسم الرابع المجلد الأول ص ٤٠ و ٤١) . ونقلها أيضاً صاحب البيان المغرب ج ٢ ص ٢٧٨ - ٢٨٠ .

وسرى فيما بعد ، كيف تطورت هذه المعركة الخفية بين المعسكرين ٥

* * *

وهكذا وقع الاتفاق على تولية هشام ، وأخذت له البيعة في صبيحة اليوم التالي لوفاة أبيه الحكم ، وهو يوم الإثنين الثالث من صفر سنة ٣٦٦ هـ (أول أكتوبر سنة ٩٧٦ م) . فأجلس الخليفة الصبي هشام ، في كرسي الخلافة ، ولما تجاوز الثانية عشرة من عمره . وتولى أخذ البيعة له الحاجب جعفر ومحمد ابن أبي عامر ، ولم يعترض أحد على توليته . واستمر أخذ البيعة أياماً ، وكتب بها إلى الأقطار ، فلم يردها أحد . وينقل إلينا ابن الخطيب ، عن ابن حيان ، مئات من أسماء الوزراء والعلماء والقضاة والأكابر ، من مختلف الطبقات ، الذين أخذوا البيعة لهشام ، ومنهم كثيرون ، ممن اشتركوا في أخذ البيعة له بولاية العهد ، في حياة أبيه^(١) .

ويصف لنا ابن الخطيب حالة الخلافة الأندلسية ، وأحوال الأندلس ، عند ولاية هشام ، فيما يأتي : « بويغ ولي عهده (أى الحكم) هشام الملقب بالمؤيد بالله والخلافة قد بلغت المنتهى ، وأدركت الجنى ، وبلغ طورها ، وانتهى دورها ، فكانت كمامة ثم زهرة بسامة ، ثم ثمرة بهية ، ثم فاكهة شهية ؛ وكان بكرسى العامرية مجلاها ، ثم تلاها ما تلاها ، وأرخص الخطوط من أعلاها ، فكان المال قد ضاقت عنه خزائنه ، والمصر قد عظمت مزايها ومزايته ، والمملك تعوذ بالله ، أن لا يصيبه عاثته الذى يعاينه ، والمباني قد باغت السماء سمواً ، وزاحمت الكواكب علواً ، والبلاد وقد بلغ فيها إلى أقاصى الاهتمام ، وفرغت بناتها من لبنات التمام ، والآثار الصالحة قد تخلدت ، والمآثر الواضحة قد تعددت ، والأذهان في بسطة الإسلام قد تبلدت ، ورسم الخلاف قد أمحى ، والدولة المرآونية قد بركت وسط المرعى ، والدعوة قد انتشرت في المغرب الأقصى»^(٢) ٥

* * *

وهكذا تمت البيعة لهشام المؤيد ، بين يوم وليلة ، وقضى على كل معارضة ، وتوارى الأعمام وبنو العم ، واجتمعت مقاليد السلطة في أيدي رجلين ، هما الحاجب

(١) أعمال الأعلام ص ٤٨ . وقد شملت أسماء الذين أخذوا البيعة لهشام تسع صفحات كاملة . (٤٨ - ٥٧) .

(٢) أعمال الأعلام ص ٤٣ و ٤٤ .

جعفر بن عثمان المصحفي ، ومحمد بن أبي عامر ، وهو يومئذ مدير الشرطة ، ومتولى خطة المواريث ، وناظر الحشم . بيد أنه من الخطأ أن يقال إن السلطة ، قد خلصت لهذين الرجلين وحدهما ؛ فقد كان ثمة شخصية ثالثة تشاطرهما السلطان من وراء ستار . تلك هي « صبح » البشكنسية حظية الحكم وأم ولده هشام الخليفة الصبي ، وكانت قد منحت الوصاية على ولدها ، واكتسبت بذلك صفة شرعية في الاشتراك في الحكم وتدبير الشؤون .

فإن ذلك كانت تلك المرأة ، التي لبثت ردياً طويلاً من الزمن ، تسيطر بسحرها ونفوذها ، على خلافة قرطبة ، وتشترك في تدبير شؤونها ، في السلام والحرب ، مع أعظم رجالات الأندلس ؟ لسنا نعرف الكثير عن نشأتها وحياتها الأولى . وكل ماتقدمه إلينا الرواية الإسلامية في ذلك ، هو أن « صبحاً » كانت جارية بشكنسية أي نافارية . ولا تذكر الرواية إن كانت قد استقرت بالأسر في بعض المواقع ، أم كانت رقيقاً بالملك والتداول ، ولكنها تصفها بالجارية والحظية ؛ وصبح أو صبيحة ترجمه لكلمة *Aurora* الفرنجية ، ومعناها الفجر أو الصباح الباكر ، وهو الاسم النصراني الذي كانت تحمله صبح فيما يظهر^(١) . وظهرت صبح في بلاط قرطبة في أوائل عهد الحكم المستنصر ، وكانت فتاة رائعة الحسن والخلال ، فشغف بها الحكم ، وأغدق عليها حبه وعطفه ، وسماها « بجعفر »^(٢) ولم تلبث أن استأثرت لديه بكل نفوذ ورأى . ثم ازداد هذا النفوذ توطداً وتمكناً ، حينما رزق منها الحكم بولده عبد الرحمن ثم بولده هشام حسباً تقدم . ولم تك صبح يومئذ جارية أو حظية فقط ، بل كانت ملكة حقيقية ، ولا تشير الرواية الإسلامية إلى أنها غدت زوجة حرة للحكم المستنصر ، بعد أن كانت جارية وحظية . ولكن هنالك مايدل ، على أن صبحاً ، كانت تتمتع في البلاط والحكومة بما يشبه مركز الملكة الشرعية . فالرواية الإسلامية تنعتها بالسيدة صبح أم المؤيد^(٣) أو السيدة أم هشام . وتصفها التواريخ الإفرنجية « بالسلطانة صبح »^(٤) . بيد أن

(١) البيان المغرب ج ٢ ص ٢٦٨ و ٢٦٩ . وكذلك Dozy : Hist. Vol. II. p. 100

(٢) البيان المغرب ج ٢ ص ٢٥١ و ٢٥٢ .

(٣) راجع الذخيرة القسم الرابع المجلد الأول ص ٤٣ ؛ والبيان المغرب ج ٢ ص ٢٦٧ و ٢٨٢ .

(٤) Conde : Dominacion, V I. p. 480 & 493 ; Dozy : Hist. Vol. II. p. (٤)

هناك ما يقطع مع ذلك بأنها بقيت من الوجهة الشرعية جارية (وأم ولد) فقط ، وأن الحكم توفى عنها دون تغيير في مركزها الشرعى^(١) .

استمرت صبح أيام الحكم ، تتمتع في البلاط والحكومة ، بنفوذ لا حد له . وكان الحكم يثق بإخلاصها وحزمها ، ويستمع لرأيها في معظم الشئون . وكانت كلمتها هي العليا ، في تعيين الوزراء ورجال البطانة ، وكان الحاجب جعفر بن عثمان المصحفي ، يجتهد في خدمتها وإرضائها ، ويستأثر لديها ولدى الحكم بنفوذ كبير . واستمرت الحال حيناً على ذلك ، حتى دخلت في الميدان شخصية جديدة قدر لها أن تظطلع فيما بعد بأعظم قسط في توجيه مصائر الأندلس . تلك هي شخصية محمد بن أبي عامر الذي تقدم ذكره غير مرة ، والذي رأيناه في أواخر عهد الحكم يشغل منصب مدير الشرطة وناظر الخالص .

كان محمد بن عبد الله بن محمد بن عبد الله بن أبي عامر المعافري ، يرجع إلى أصل من أعرق الأصول العربية . وكان جده عبد الملك بن عامر المعافري ، أول من دخل الأندلس مع الفاتحين موسى وطارق ، وظهر في الفتح بشجاعته وحسن بلائه . ونزلت أسرة بني عامر بالجزيرة الخضراء ، وأقطعت حصن طرُش الواقع على نهر وادي يارُه ، الذي يصب على مقربة من جبل طارق ، وظهرت بالعلم والوجاهة ، وتولى كثير من أبنائها مناصب القضاء والإدارة ؛ وولد محمد بن أبي عامر بحصن طرُش وأنفق فيه أحداثته . وكان أبوه عبد الله ، المكنى بأبي حفص من أهل العلم والتقى ، عالماً بالحديث والشريعة ، وكانت أمه بريهة بنت يحيى تنتمي إلى بني تميم . ونشأ محمد على تقاليد أسرته ، مؤثراً حياة الدرس ، ووفد على قرطبة حدثاً ، ودرس في معاهدها درساً مستفيضاً ، وبرع في الأدب والشريعة ، وكان من أساتذته العلامة اللغوي أبو علي القالي البغدادي ، وأبو بكر بن القوطية ، والمحدث أبو بكر بن معاوية القرشي ؛ وكان طموحاً مضطرب النفس والعزم ، رفيع المواهب والخلال . وتوه بهذا الطموح المدهش معظم الروايات المعاصرة واللاحقة^(٢) : وكان محمد بن أبي عامر في نحو

(١) البيان المغرب ج ٢ ص ٢٦٩ . والمعجب للمراكشي ص ٧٤ .

(٢) الحلة السيرة ص ١٤٨ ، والبيان المغرب ج ٢ ص ٢٧٤ ، والذخيرة القسم الرابع المجلد

الأول ص ٢٤٣ . والإحاطة في أخبار غرناطة (القاهرة ١٩٥٦) ص ٤٧٤ .

السابعة والعشرين من عمره ، حينما أراد الخليفة الحكم أن يعين مشرفاً لإدارة أملاك ولده عبد الرحمن ، ورشحه الحاجب جعفر فيمن رشح لتولى هذا المنصب ، وأعجبت صبح بذلك وحسن رواه ، وظرف شمائله ، فاخترته دون غيره ، وعين بمرتب قدره خمسة عشر ديناراً في الشهر ، وذلك في أوائل سنة ٣٥٦ هـ (٩٦٧ م)^(١) : ولما توفى عبد الرحمن طفلاً ، عين مشرفاً لإدارة أملاك أخيه هشام : وتقدم في وظائف الدولة بسرعة . فأضيف إليه النظر على الخزانة العامة . وعلى أمانة دارالسكة ، ثم عين للنظر على خطة المواريث (٣٥٨ هـ) ، فقاضياً لكورة إشبيلية ولبلة . ثم عينه الحكم مديراً للشرطة الوسطى (٣٦١ هـ) : وفي أواخر أيامه عينه ناظراً على الحشم (الخاص) . ويقدم إلينا ابن حيان وظائف ابن أبي عامر في أواخر أيام الحكم على النحو الآتي : صاحب الشرطة الوسطى ، والمواريث ، وقاضي إشبيلية ، ووكيل الأمير أبي الوليد هشام ، وكان عندئذ يلقب « بفتى الدولة »^(٢) :

وهكذا وصل محمد بن أبي عامر إلى أرفع وظائف الدولة والقصر في أعوام قلائل . ويرجع الفضل في تقدمه بتلك السرعة ، أولاً إلى مواهبه وكفائاته الباهرة ، ثم يرجع بالأخص إلى عطف صبح وحماتها له . وقد انتهى هذا العطف غير بعيد إلى النتيجة الطبيعية : كانت صبح امرأة حسناء ، لا تزال في زهرة العمر ، وما زال قلبها يضطرم حباً وجوى ، وكان سيدها الحكم قد أشرف على الستين ، وهدمه الإعياء والمرض ؛ أما ابن أبي عامر فقد كان فتى في نضرة الشباب ، وسيم الحيا ، حسن القد والتكوين ، ساحر الخلال ، وكان من جهة أخرى يفتن في خدمة صبح وإرضائها ، ولا ينفك يغمرها بنفيس الهدايا والتحف ، حتى لقد أهداها ذات مرة نموذج قصر من الفضة ، بديع الصنع والزخرف ، أنفق عليه مالا عظيماً ، ولم ير مثله من قبل بين تحف القصر وذخائره ، وشهده أهل قرطبة حين حمل من دار ابن أبي عامر إلى القصر ، فكان منظره يحلب اللب ، ولبثوا

(١) البيان المغرب ج ٢ ص ٢٦٧ . وينقل إلينا المقري رواية أخرى عن اتصال ابن أبي عامر بصبح ، خلاصتها أنه كان يجلس في دكان عند باب القصر ، ليكتب للخدم والمترافين للسلطان ، إلى أن طلبت صبح من يكتب عنها ، فمررها به بمض من كان يأنس الجلوس إليه من فتیان القصر : فأستحسن كتابته ، وعينه أميناً لبعض شئونها (نفع الطيب ج ١ ص ١٨٧) .

(٢) المقتبس - قطعة أكاديمية التاريخ - ص ١٠٦ .

يتحدثون بشأنه حيناً ؛ فكانت هذه العناية تقع من قلب صبح أحسن موقع ،
وتزیده اعطفاً على ابن أبي عامر وشغفاً به . وكان الحكم يشهد هذا السحر الذي ينفته
ابن أبي عامر إلى حظيته ، وإلى نساء القصر جميعاً ، ويعجب له . وروى أنه قال
يوماً لبعض ثقاته : « ما الذي استلطف به هذا الفتى حرماً حتى ملك قلوبهن ،
مع اجتماع زخرف الدنيا عندهن ، حتى صرن لا يصفن إلا هداياه ، ولا يرضين
إلا ما أتاه ، إنه لساحر عظيم أو خادم لبيب ، وإني خائف على ما بيده » (١) .
ولم تلبث علائق صبح وابن أبي عامر أن ذاعت ، وغدت حديث أهل قرطبة ،
ولم يك ثمة ريب في أنها استحالت غير بعيد إلى علائق غرامية . وربما ارتاب
الحكم في طبيعة هذه العلائق ، وثاب له رأى في نكبة ابن أبي عامر ، وسعى
لديه بعض خصومه ، واتهمه بأنه يبدد الأموال العامة ، التي عين للنظر عليها ،
في شراء التحف والإنفاق على أصدقائه ، فأمره الحكم أن يقدم حساب الخزانة
العامة ، ليتحقق من سلامتها ، وقد كان بالخزانة في الواقع عجز كبير ، فهرع
ابن أبي عامر إلى صديقه الوزير ابن حدير ، وكان وافر الوجاهة والثراء ، فأغاثه
وأعانه بماله على تدارك هذا العجز ، وتقدم إلى الحكم سليم العهدة برىء الذمة ،
فزالت شكوكه ، وتوطدت ثقته فيه .

واستمر ابن أبي عامر متمتعاً بنفوذه وسلطانه ، يندبه الحكم لعظام المهام
والشئون ، وكان آخرها ما عهد إليه من تنظيم البيعة بولاية العهد لولده هشام
حسباً تقدم ؛ وابن أبي عامر خلال ذلك كله ، يحرص على عطف صبح ، ويستزیده
ويصانع الحاجب جعفر ، ويجهد في إرضائه وكسب ثقته ؛ وكان بين الرجلين
تباين يفيد منه ابن أبي عامر ، فقد كان الحاجب جعفر على ما يديه من التواضع
والبشر والترفق بالناس ، قليل الجود ، موثراً لجمع المال . وكان ابن أبي عامر
على نقيضه في ذلك ، فكان واسع البذل والجود ، حريصاً على اصطناع الرجال ،
وكانت داره الفخمة بضاحية الرصافة ، مقصد الناس من كل صوب ، وكانت
مائثته معدة دائماً ، وكان بذلك كله يخلق جواً من الحب والإعجاب ، ويجتذب
الصحب والأنصار ، بسحر خلاله ، ووافز بذله ومروءته ، وبارع وسائله
وأساليبه (٢) .

(١) البيان المغرب ج ٢ ص ٢٦٨ .

(٢) الذخيرة - القسم الرابع المجلد الأول ص ٤٢ . والبيان المغرب ج ٢ ص ٢٧٥ .

فلما توفي الحكم المستنصر ، وأسندت الخلافة إلى ولده الطفل هشام ، اتخذت الأمور وضعاً جديداً ، ينذر بتطورات جديدة . وقد رأينا أى دور قام به ابن أبي عامر عندئذ ، من الانضمام إلى الحاجب جعفر في معارضة الفتيان الصقالبة ، ومقتل مرشحهم للخلافة ، المغيرة بن عبد الرحمن الناصر .

* * *

وهكذا تحقق مشروع الحكم بجلوس ولده هشام ، وتحقيق مشروع الثلاثة ذوى السلطان من بعده ؛ وكان طبيعياً أن تحرص صبيح على تولية ولدها لتحكم باسمه ، وكان طبيعياً كذلك أن يوازى ابن أبي عامر صاحبته المحسنة إليه ، ليستمر بواسطتها محتفظاً بسلطانه ونفوذه . أما الحاجب جعفر فقد كان له مثل ذلك الباعث في تولية هشام ، إذ كان يخشى من تولية المغيرة ، وأوليائه الصقالبة ، على نفسه وعلى سلطانه . وهكذا جمعت البواعث والغايات المشتركة بين أولئك الثلاثة ، الذين قدر لهم أن يسيطروا على تراث الخلافة الأموية . ولكن هذا التحالف الذى أملتة الضرورة الموقته ، لم يكن طبيعياً ولا سيما بين الحاجب جعفر ، ومنافسه القوى محمد بن أبي عامر . وكانت العلاقات بين صبيح وابن أبي عامر ، تزداد كل يوم توثقاً ، ولا سيما منذ وفاة الحكم . وكان ابن أبي عامر ، يرى في تلك المرأة ، التى تجتمع في يدها السلطة الشرعية ، بوصايتها على ولدها الطفل ، أداة صالحة هينة ، يستطيع أن يخضعها لإرادته ، ويسخرها لمعاونته ، على تحقيق مشاريعه البعيدة المدى . وكانت صبيح من جانبها تغدق كل عطفها وثقتها ، على هذا الرجل القوى الذى سخرها بخلاله ، وقوة نفسه ، وباهر كفاياته ، وتضع فيه كل أملها لحماية العرش الذى يشغله ولدها الفتى ، فلم تمض أيام قلائل على تولية هشام ، حتى عين حاجب أبيه جعفر المصحفي حاجباً له ، وورق في نفس الوقت ابن أبي عامر من خطة الشرطة إلى مرتبة الوزارة ، وجعله معاوناً للمصحفي في تدبير دولته (١) . وبذلك أشرك ابن أبي عامر ، في تولى السلطة المباشرة مع المصحفي ، ولم يعترض أحد من رجال القصر أو الدولة على ذلك الاختيار ، سوى الحاجب جعفر ، فقد كان يرى في هذا التعيين انتقاصاً لسلطته ، ونكراناً لجميله ، بعد أن حمل أعباء السلطة كلها دهرأ . وكان يرى في ابن أبي عامر بالأخص منافساً يخشى

(١) البيان المغرب ج ٢ ص ٢٧٠ .

بأسه ، ويرتاب في نيته وأطاعه . ومن ذلك اليوم يضطرم بين الرجلين صراع عنيف صامت لم يك ثمة شك في نتيجته . وكان ابن أبي عامر هو الأقوى بلا ريب ، سواء بمواهبه وقوة نفسه ، أو بموازرة صبح له . ولم تكن هذه الموازرة ترجع فقط إلى ذلك الحب القديم ، الذي تضطرم به جوانح صبح نحو ذلك الرجل القوي ، ولكنها كانت أيضاً ترجع إلى ثقة صبح في مقدرته وبراعته ، وفي أنه هو الرجل الوحيد الذي يستطيع أن يحمي ملك ولدها الفتى ، وأن يوطد الأمن والسلام في المملكة . كان ابن أبي عامر في الواقع هو السيد المطلق ، وكانت صبح تفوض إليه كل سلطة وكل أمر ، فكان يدير الشئون كلها بمهارة ، تثير إعجاب خصومه وأصدقائه على السواء .

وكان الخليفة الفتى هشام المؤيد بالله ، ميالا بطبيعته وسنه إلى اللهو والدعة ، ولم يكن له شيء من تلك الخلال الرفيعة ، التي تهيء الأمراء للاضطلاع بمهام الملك ، فكان يلزم القصر والحدايق ، ويقضى كل أوقاته في اللهو واللعب ، بين الخصيان وآلات الطرب ؛ وكان ابن أبي عامر وصبح يشجعان هذه الميول السيئة في نفس الأمير ، ويريانها ملائمة لمقاصدهما^(١) . ومد ولى هشام ، حجر عليه ابن أبي عامر ، ولم يسمح لأحد غيره برويته أو مخاطبته ، وكان يحمل صبحاً بدهائه وقوة عزمه ، على أن تخلق الأعذار للحجب ولدها ، حتى غدا هشام شبه معتقل أو سجين . وفي ذلك يقول لنا مؤرخ أندلسي : « حجر المنصور ابن أبي عامر على هشام المؤيد ، بحيث لم يره أحد منذ ولى الحجابة ، وربما أركبه بعض سنين ، وجعل عليه برنساً فلا يعرف ، وإذا سافر وكل من يفعل به ذلك »^(٢) . ويقدم إلينا ابن الخطيب تلك الصورة عن الخليفة هشام : « ولما كان هشام مندرجاً في طي كافله الحاجب المنصور ، بحيث لا ينسب إليه تدبير ، ولا يرجع إليه من الأمور قليل ولا كثير ، إذ كان في نفسه وأصل تركيبه مضجعاً مهيناً مشغولاً بالنزهات ، ولعب الصبيان والبنات ، وفي الكبر بمجالسة النساء ومحادثة الإماء ، يحرص بزعمه على اكتساب البركات والآلات المنسوبات »^(٣) . وفي الفرص النادرة ، التي كان يسمح فيها للأمير بالخروج ، كان ابن أبي عامر يتخذ أشد

Dozy : Hist. Vol. II. p. 227 (١)

(٢) راجع نفع الطيب ج ١ ص ٢٧٦ .

(٣) أعمال الأعلام ص ٥٨ .

التحولات ، فيحيط موكب الأمير حين يخرق شوارع قرطبة ، بصفوف كثيفة من الجند ، تمنع الشعب من رؤيته أو الاقتراب منه . وكان حجب هشام على هذا النحو ، عماد ذلك الانقلاب العظيم الذي اعتمز ابن أبي عامر ، أن يحدثه في نظم الدولة ، لتمكين سلطانه وجمع سلطات الخلافة كلها في يده .

وكان لا بد لتحقيق هذه الغاية الكبرى ، أن يسحق ابن أبي عامر كل سلطة أخرى تعترض سبيله . وكان الصقالبة وعددهم نحو ألف ، لا يزالون قوة يحسب حسابها ، وكذا كان الحاجب جعفر بن عثمان المصخفي ، ما يزال بحكم منصبه وتأيد عصبته ، مسيطراً على السلطة العليا . وكانت الوحشة ماتزال قائمة بين الحاجب وبين الصقالبة ، مذ تسبب في فشل مشروعهم لتولية المغيرة بن عبد الرحمن ، وحصد شوكتهم بتوليته هشام . وكان الحاجب يخشى غدرهم ودسائسهم . وبلغه أن فريقاً من زعمائهم ، وعلى رأسهم الفتيان جوذر وفائق ، يدبرون مؤامرة لقلب نظام الحكم ، فاتخذ بعض التحولات ، ووضع الفتيان تحت الرقابة ، وأغلق باب الحديد ، الذي كان مخصصاً بدخولهم ودخول أصحابهم إلى القصر ، وقصر دخولهم مع بقية الناس على باب السدة ، وفصل الغلمان من أصحاب جوذر وفائق ، وتفاهم مع ابن أبي عامر على إلحاقهم بحاشيته ، وكانوا زهاء خمسمائة ، فقبل ابن أبي عامر خدمتهم وفخم بهم شأنه ، ثم انحاز إليه بنو برزال ، وكانوا قبلاً من أصحاب الحاجب جعفر ، فقوى بهم أمره ، ولم يمتض سوى قليل حتى استقال زعيم الصقالبة الفتي جوذر ، وشعر الصقالبة بأن نجمهم قد أفل ، وسلطانهم قد انهار ، فسرى بينهم التذمر ، واجتمع المتمردون حول فتي من زعمائهم يدعى درى . فتفاهم الحاجب وابن أبي عامر على إزالته ، فدعى إلى بيت الوزارة لسؤاله عن أمور نسبت إليه وإلى عماله من رعيته في بياسة ، ولما قدم درى ورأى كثرة الجند ، شعر بالشر ، وأراد العودة ففنه ابن أبي عامر ، فهاجم عليه وأراد أن يبطش به ، فصاح ابن أبي عامر بالجند ، فهرع إليه بنو برزال وانهالوا عليه ضرباً ، ثم حمل إلى داره وقتل في نفس المساء . ورأى ابن أبي عامر الفرصة سانحة لسحق الصقالبة ، فأمر كبيرهم فائقاً وباقي زعمائهم بالتزام دورهم ، وفرق بذلك شملهم . ثم جد في مطاردتهم واستصفاء أموالهم ، وقضى فيهم القتل والنفي ، حتى هلك الكثير منهم ، وأبعد الفتي فائق في النهاية إلى

ميورقة فمات هناك ، وانهار بذلك سلطان الصقالبة ، وأمن الحاجب وزميله ابن
أبي عامر شرهم ، وتقلد الحاجب جعفر أمر القصر والحرم بدلا منهم .
ويبدى ابن حيان ارتياحه لسحق الصقالبة واستئصال شأقتهم على هذا النحو .
وقد كان الصقالبة في البداية زينة للدولة والبلاط ، وكان ظهورهم بمجموعهم المتألقة
وأزيائهم الفخمة ، يسبغ على القصر ، وعلى مواكب الخلافة ، طابعا من الأبهة
والعظمة . ولكنهم منذ استأثروا بثقة الخليفة ، وبسطوا سلطانهم على القصر والدولة ،
اشتد طغيانهم ، وثقلت وطأتهم على أهل الدولة ، وعلى الشعب قاطبة (١) .
وسنحت بعد ذلك بقليل فرصة أخرى ، لكي يوطد ابن أبي عامر قدمه
في السلطة ، وييسط نفوذه على الجيش عصب كل سلطان حقيقي . وذلك أن
القسثاليين ، كانوا قد انتهزوا فرصة مرض الحكم ، وانشغال المسلمين عقب وفاته ،
فدفعوا غاراتهم جنوباً ، ووصلوا إلى مقربة من العاصمة ذاتها ، ولم يبد الحاجب
في ذلك ، ما كان واجبا من الهمة والنجدة ، فاهتم ابن أبي عامر ، وأشار إلى
الحاجب جعفر بتجهيز الجيش واستئناف الجهاد ؛ ولكن الحاجب لم يجد من
القادة من يعهد إليه بتلك المهمة ، فتقدم ابن أبي عامر للاضطلاع بها ، وجهاز المال
والجند ، وأشراف بنفسه على اختيار الجند . وخرج من قرطبة في رجب سنة ٣٦٦هـ
(فبراير ٩٧٧ م) ، وسار شمالا إلى أراضي قشتالة ، ثم عطف غرباً حتى أحواز
شلمنقة ، وحاصر حصن الحامة ، ومكانه اليوم محلة تسمى بالإسبانية « لوس
بانيوس » Los Baños (الحمامات) ، وتقع في جنوب بلدة (بخار) في السفح الغربي
لجبال جريديوس ، ثم استولى على الحصن وربضه ، وقتل راجعاً إلى قرطبة ،
مثقلاً بالأسرى والغنائم ، وذلك لثلاثة وخمسين يوماً من خروجه إلى الغزو (٢) .
وكان لهذا الظفر الحربي الأول ، الذي حقق على يد ابن أبي عامر ، أكبر
الأثر في نفوس الجند ، ونفوس الشعوب قاطبة ، فقد رأى الجند فيه قائدهم
المظفر ، وقد استولى على قلوبهم ببذله ووفرة عطائه ، ورأى فيه الشعب حامى
المملكة والمدافع عنها ، وكان لهذه البداية نتائج بعيدة المدى .
ولم تمض أسابيع قلائل على ذلك حتى تاهب ابن أبي عامر لالسير إلى غزوته

(١) البيان المغرب ج ٢ ص ٢٨٠ و ٢٨١ . والذخيرة القسم الرابع المجلد الأول ص ٤٤ .

(٢) الذخيرة القسم الرابع المجلد الأول ص ٤٥ . والبيان المغرب ج ٢ ص ٣٨٢ . وكذلك

الثانية ؛ وكانت قد وقعت ثمة ظروف جديدة زادت في توطيد مركزه ، وفي إضعاف مركز الحاجب جعفر . وكان بين الحاجب ، وبين القائد غالب بن عبد الرحمن صاحب مدينة سالم ، وأعظم فرسان الأندلس ، عداء مستحکم ، زاده ما تقول به الحاجب على غالب ، من تقصيره في الدفاع عن الحدود الشمالية ، وعجزه عن رد النصارى ، فانهز ابن أبى عامر هذه الفرصة ليضم غالباً إلى جانبه ، وسعى إلى خدمته والدفاع عنه لدى صبح ، ولدئى الخليفة ، حتى خرج المرسوم برفعه إلى خطة «ذى الوزارتين» ، وبأن يندب لقيادة جيش الثغر ، وأن يندب ابن أبى عامر لقيادة جيش الحضرة . وخرج ابن أبى عامر على أثر ذلك بالحيش إلى غزوته الثانية ، وذلك في يوم عيد الفطرسنة ٣٦٦ هـ (مايو ٩٧٧ م) ، فالتقى بغالب وجيشه في محلة مجريط^(١) على طريق وادى الحجارة ، واخترق الحيشان معاً أراضي قشتالة القديمة ، واستولى المسلمون على حصن مولة ، وأصابوا كثيراً من الغنائم والسبي . وكان لحيش غالب التفوق في الأعمال الحربية في تلك المنطقة ، ولكن غالباً تنحى عن ذلك لابن أبى عامر ، وارتد بجيشه إلى الثغر ، بعد أن توثق بينهما التحالف ، والتفاهم على سحق الحاجب جعفر عدوهما المشترك ؛ وقفل ابن أبى عامر إلى قرطبة بالغنائم والسبي ، وقد نسب إليه فخر الظفر على الأعداء ، فزاد صيته ، وارتفعت هيئته ، وتمكنت منزلته لدى الخليفة ، وازداد الشعب حوله التفافاً وله حباً^(٢) .

وهنا بدت طلائع المعركة الحاسمة بين ابن أبى عامر وجعفر المصحفى . فكااد ابن أبى عامر يصل إلى قرطبة ، حتى خرج أمر الخليفة بعزل محمد بن جعفر ولد الحاجب عن حكمها ، وتقليده لابن أبى عامر ، وبذلك تم لابن أبى عامر السيطرة على المدينة والحيش معاً . وكانت قرطبة تعاني قبل توليه حكمها من اضطراب الأمور ، واختلال الأمن ، وذبوع الفساد والفسق ، فضبط أمرها وقمع أهل الشر والدعارة ، فساد بها الهدوء والأمن . ثم استخلف ابن أبى عامر على حكم المدينة ابن عمه عمرو بن عبد الله بن أبى عامر . فسار على طريقته ، في

(١) هي محلة وقلة حصينة أنشأها الأمير محمد بن عبد الرحمن فوق سفح جبال وادى الرملة على مقربة من طليطلة لصد غارات النصارى . ولبيت تؤدي مهمتها الدفاعية ، حتى سقطت في أيدي النصارى في سنة ٤٧٦ هـ (١٠٨٣ م) . وعلى موقعها القديم أنشئت مدينة مدريد الحديثة .

(٢) النذخيرة - القسم الرابع ج ١ ص ٤٦ و ٤٧ ، والبيان المغرب ج ٢ ص ٢٨٣ .

انتهاج الحزم والشدّة في ضبط الأمور ، ومطاردة أهل البغي والعدوان . كل ذلك والحاجب جعفر ، يشهد سلطانه يغيض شيئاً فشيئاً ، وسلطان ابن أبي عامر في صعود وتمكّن مستمر ، ويشهد انصراف الخليفة والشعب عنه ، ويشعر في قرارة نفسه بدنو الخاتمة المحتومة .

وخطر للحاجب جعفر أن يقف هذا التحول الخطر ، باستمالة القائد غالب ومصالحته ، فطلب يد ابنته أسماء زوجاً لابنه محمد ، فاستجاب غالب إلى طلبه ، وكادت تمّ المصاهرة ، ولكن سرعان ما علم ابن أبي عامر بذلك المشروع ، فنارت نفسه ، وكتب إلى غالب يناشده الولاء ، ويخطب ابنته لنفسه ، وعضده في ذلك أهل القصر ، فزل غالب على تلك الرغبة ، وعدل إلى مصاهرة ابن أبي عامر ، وتمّ العقد في أوائل المحرم سنة ٣٦٧ هـ (٩٧٧ م) . ولم يمض قليل على ذلك حتى خرج ابن أبي عامر إلى غزوته الثالثة ، فسار إلى طليطلة في أوائل صفر ، حيث التقى مع صهره غالب . وسار الإثنين في قواتهما شمالاً ، وافتتحا في طريقهما بعض الحصون ، ثم قصدا إلى مدينة شلمنقة الواقعة جنوب غربى مملكة ليون فاقتحماها ، وعائنا في أرباضها ، واستوليا على كثير من الغنائم والسبي ؛ وعاد ابن أبي عامر إلى قرطبة لأربعة وثلاثين يوماً فقط من خروجه ، ومعه عدد عظيم من رؤوس النصارى . فاغتبط الخليفة بصنعه ، ورفع إلى خطة الوزارتين أسوة بصهره غالب ، ورفع راتبه إلى ثمانين ديناراً في الشهر ، وهو راتب الحجابة في ذلك العصر .

وما كاد ابن أبي عامر يستقر في قرطبة ، حتى اتخذت الأهبة لإتمام زفافه . فأحضرت أسماء إلى العاصمة في موكب فخم ، وكانت من أجمل نساء عصرها وأوفرهن ثقافة وسحراً ، وكانت قد تزوجت لأول مرة بالوزير ابن حدير أيام الحكم ، ثم طلقت منه . وزفت أسماء إلى ابن أبي عامر ، في حفلات كانت مضرب الأمثال في البذخ والبهاء ، ونظم الاحتفال في قصر الخليفة ، ويأشرف أمه صبح ، وأعدت صبح على العروس أروع الهدايا والتحف . وكان زواجاً سعيداً موفقاً لبث مدى الحياة^(١) ، وإن كان غالب قد خرج بعد ذلك بأعوام قلائل على صهره حسبما تفصل بعد .

(١) الذخيرة القسم الرابع المجلد الأول ص ٤٦ و ٤٧ ، والبيان المغرب ج ٢ ص ٢٨٤

و ٢٨٥ ، ونفح الطيب ج ١ ص ١٨٧ . وراجع أيضاً Dozy : Hist. Vol. II. p. 214 & 215 .

واستقدم الخليفة غالباً من الثغر ، وقلده خطة الحجابة إلى جانب جعفر ، فكانت ضربة جديدة للحاجب . ولكن جعفر لم يسعه إلا الإذعان والسكوت ، وقد أضحى يشعر شعوراً قوياً بالخطر المحدق به ، وبأنه لم يبق له من الحجابة سوى الاسم ، ولم ينخدع بما كان يبيده نحوه ابن أبي عامر من التلطف والمصانعة ، وهو يقبض دونه على كل شيء في القصر والدولة .

وأخيراً وقعت النكبة المرتقبة ، ففي الثالث عشر من شعبان سنة ٣٦٧ هـ ، أصدر الخليفة أمره بإقالة الحاجب جعفر بن عثمان المصحفي ، والقبض عليه وعلى ولده وآله ، والتحفظ على أموالهم . وبادر ابن أبي عامر إلى محاسبتهم واستصفاء أموالهم ، وشدد في مطاردتهم ، حتى مزقهم كل ممزق ، وعوجل هشام ابن أخي الحاجب فقتل في مطبقة ، وكان من أشد الناس عداوة لابن أبي عامر ، وزج جعفر إلى ظلام السجن ، يعتقل فيه حيناً ، ثم يعتقل حيناً في داره ، واضطر إزاء التشدد في مطالبته أن يبيع داره الفخمة بالرصافة ، وكانت من أعظم دور قرطبة ، وأمعن ابن أبي عامر في نكايته ، واستجوابه بمحضر من زملائه القدماء ؛ واستطالت محنة المصحفي أعواماً ، عانى خلالها أروع آلام المهانة والذلة ، وهو يستعطف ابن أبي عامر فلا يرحمه ؛ واستمر سجيناً في مطبق الزهراء حتى توفي سنة ٣٧٢ هـ (٩٨٢ م) . وقيل إنه قتل خنقاً في مطبقة ، وقيل إنه دست إليه شربة مسمومة كانت سبب وفاته .

وكان المصحفي حسبا تقدم شاعراً جزلا ، وقد أذكت المحنة شاعريته ، وصدر عنه في مطبقة كثير من القصائد المؤثرة . ومن ذلك قوله :

صبرت على الأيام لما تولت	والزمت نفسي صبرها فاستمرت
فيا عجباً للقلب كيف اصطباره	وللنفس بعد العز كيف استدلّت
وما النفس إلا حيث يجعلها الفتي	فإن طمعت تاقت وإلا تسلت
وكانت على الأيام نفسي عزيزة	فلما رأّت صبري على الذل ذلت
وقلت لها يا نفس موتي كريمة	فقد كانت الدنيا لنا ثم ولت

ويعلق ابن حيان على محنة المصحفي بقوله : « وكانت لله عند جعفر ، في إثارة هشاماً بخلافته ، واتباع شهوة نفسه وحظ دنياه ، وتسرعه إلى قتل المغيرة لأول وهلة ، دون قصاص جريرة استدركته دون إملاء ، فسلط

عليه من كان قدر أن يتسلط على الناس باسمه» (١) و
وهكذا سار ابن عامر إلى غايته بسرعة مذهشة ، ولحاً في تحقيقها إلى
أذكى الوسائل وأشدّها ، واستطاع بعزمه وصرامته وبارع خططه ، أن يسحق
كل عقبة ، وأن يروع كل منافس ومناوئ . ويجمل ابن خلدون معركة ابن
أبي عامر مع خصومه في تلك العبارة القوية : « ثم تجرد لروساء الدولة من عانده
وزاحمه ، فمال عليهم ، وحطهم عن مراتبهم ، وقتل بعضهم ببعض ، كل ذلك
عن أمر هشام وتوقيعه ، حتى استأصل شأفتهم ، ومزق جمعهم» (٢) . ولم
يكن مهلك المصحفي ، بعد سحق الصقالبة ، سوى حلقة جديدة في سلسلة المطاردة
الشاملة التي نظمها ابن أبي عامر لاستئصال شأفة خصومه ومنافسيه . ذلك أنه
جد في نفس الوقت ، في مطاردة كل من يخشى بأسه من بني أمية أو غيرهم
من زعماء القبائل ، حتى سحق كل من يصلح منهم للولاية والرياسة ، ومزقهم
في البلاد شر ممزق ، كل ذلك تحت شعار حمايته للمؤيد وللعرش ، وفي ذلك
يقول شاعر من شعراء العصر :

أبني أمية أين أقمار الدجي منكم وأين نجومها والكوكب
غابت أسود منكم عن غابها فلذلك حاز الملك هذا الثعلب

ولما خلا الجو لابن أبي عامر من أولياء الخلافة ، والمرشحين للرياسة ، اهتم
بتنظيم الجيش . فأنشأ صفوفاً جديدة من المرتزقة من زنانة وصنهاجه وغيرهما من
قبائل البربر ، ومن الحند النصارى من ليون وقشتالة ونافار ، وبذل لهم الأجور
السخية ، واجتذب قلوبهم بعدله ورفقه وجوده . وغير أنظمة الجيش القديمة ،
فقدم رجال البربر ، وآخر زعماء العرب ، وأقصاهم عن مناصبهم ، وفرق جنود
القبيلة الواحدة في صفوف مختلفة ، وكانوا من قبل ينتظمون في صف واحد .
وكان العرب يتمسكون منذ أيام الفتح بوحدة القبيلة ، لأن العصبية كانت في قبائلهم
حتى أيام الناصر ، ما تزال فتية قوية ، ولكن الناصر عمل على سحق القبائل
العربية ، وإضعاف هيبتها ، وجاء ابن أبي عامر فألقى الميدان ممهّداً لخططه ، فلم
تلق سياسته الجديدة كبير معارضة (٣) .

(١) راجع في حمة المصحفي ، الذخيرة القسم الرابع المجلد الأول ص ٤٨ و ٤٩ ، والبيان
المغرب ج ٢ ص ٢٨٥ - ٢٨٨ ، والحلة السيرة ص ١٤٢ .

(٢) ابن خلدون ج ٤ ص ١٤٧ .

(٣) البيان المغرب ج ٢ ص ٣١٦ ، وابن خلدون ج ٤ ص ١٤٨ ، ونفع الطيب ج

الكتاب الثالث
الدولة العامرية

٣٦٨ - ٣٩٩ هـ : ٩٧٨ - ١٠٠٩ م

الفضل الأول

الحاجب المنصور

ابن أبي عامر يطمح إلى حلال الملك . إنشاؤه لمدينة الزاهرة وانتقاله إليها . يؤلف حرسه من الصقالبة والبربر . تشده في الحجر على هشام . موقف صبح من ذلك . ذبوع علاقتها مع ابن أبي عامر . تحولها إلى خصومته ولتشهير به . تفاهمها مع القائد غالب . التفاف المعارضين حوله . جعفر بن حدون الأندلسي يتولى الوزارة . تقاطر البربر من العدو . الوحشة بين ابن أبي عامر وغالب . نهوض غالب لمحاربه . استعانته بملك ليون . القتال بين غالب وابن أبي عامر . مصرع غالب وهزيمة قواته . الموقعة حسبما يصفها ابن حزم . غزوات ابن أبي عامر . غايته من القيام بها . مسيره إلى ليون ومحاصرته لسمورة . هزيمته للنصارى في شنت مكنش . توغله في ليون ثم عوده إلى قرطبة . إتخاذ لسة الملك وتسديه بالحاجب المنصور . غدره بجعفر الأندلسي . الحرب الأهلية في ليون . اعتراف برمودة بطاعة المنصور . مسير المنصور إلى الغزو . يخرق شرق الأندلس ويغزو قطلونية . اقتحامه لبرشلونة وتدميرها . حم ادث المغرب . مسير الحسن بن كنون إلى غزو المغرب . المنصور يرسل جيشاً لقتاله . مطاردة الحسن وإرغامه على طلب الأمان . مسيره إلى قرطبة واغتياله . نذب الوزير الصلبي لحكم المغرب . إجتماع قبائل البربر حوله . مسير زيرى زعيم مغراوة إلى قرطبة . القتال بين الصلبي وبين يفرن . مقتله وولاية زيرى حكم المغرب . مسير زيرى ثانية إلى قرطبة . عوده وخيبة أمله . فز بن يفرن لفاس واحتلالها . القتال بين مغراوة وبين يفرن . اشتداد ساعد زيرى . إنشاؤه لمدينة وجدة . غزو المنصور لليون واستيلائه على قلمرية . غزوه لنافار . ما تزعمه الرواية النصرانية . عود المنصور إلى غزو ليون . اقتحامه لمدينة ليون وتدميرها . استيلائه على سمورة . حوادث الثغر الأعلى . عبد الله ولد المنصور . تأمره مع عبد الرحمن التجيبسى والى سرقسطة وآخرين . وقوف المنصور على المؤامرة في خروجه إلى الغزو . اعتقاله لعبد الرحمن التجيبسى . فرار هبدالله والتجاؤه إلى غرسية أمير قشتالة . هزو المنصور لقشتالة وهزيمة أميرها . غرسية يرسل هبدالله استجابة لطلب المنصور . إعدامه . تأملات عن هذا الحادث . سانشوا ابن غرسية يخرج عليه بتحرير المنصور . المنصور يغزو قشتالة ويستولى على شنت إشتين وكلونية . قصة الأيل الذي أهداه صاعد إلى المنصور . مسير المنصور إلى غزو ليون . إذعان برمودة وتمهده بأداء الجزية . المنصور يرشح ولده عبد الملك للولاية من بعده ويؤليه الحجابة . اقتصاره على التسمى « بالمنصور » . اختصاصه بألقاب السيادة . إحجامه عن المساس بالخلافة . عوامل هذا الإحجام . موقف صبح أم المؤيد . اتصالها بزيرى حاكم المغرب . تحوطات المنصور . تفاهمه مع هشام وموكبهما المشترك . يأس صبح ووفاتها . الوحشة بين المنصور وزيرى . مسير عبد الملك إلى العدو لمحاربة زيرى . هزيمة البربر وسقوط فاس . عبد الملك يولى حكم المغرب . الصلح بين زيرى والمنصور . المنصور يغزو جليقية . اختراقه لأراضى البرتغال . استيلائه على بازو وقلمرية . توغله في جليقية ومسيره إلى شنت ياقب . يهدم أسوارها وكنيستها العظمى . مسيره شمالا حتى ثغر لأكروفيه . عوده من طريق لايبجو إلى قرطبة . ملك ليون يطلب

الصلح . غزوة أخرى لغشالة . موقعة صحرة جريرة . اقتحام المنصور لمدينة برغش . غزوه لنافار . آخر غزوات المنصور . ما تقوله الرواية الإسلامية . موقعة قلعة النور . ما تقوله عنها الرواية النمرانية . آراء البحث الحديث في شأنها . مرض المنصور ووفاته . قبره بمدينة سالم .

أضحى ابن أبي عامر ، بعد أن قضى على كل خصومه ومناقسيه ، وحده ، سيد الميدان ، وأضحى بعد أن وضع يده على الجيش ، صاحب السلطة العليا دون منازع ولا مدافع . ولم يكن الخليفة هشام المؤيد ، بعد ذلك ، سوى أداة لينة في يد المتغاب القوى ، يوجهها كيف يشاء .

على أن ابن أبي عامر لم يقنع بما حققه لنفسه من الاستئثار بالسلطة الفعلية . وعلى الرغم من أنه لم يفكر يومئذ في الافتتاح على شيء من رسوم الخلافة الشرعية ، فإنه اتجه إلى أن يتشج بحلل الملك في صورة من صورته ، فتكون له ثوباً خلافاً ، يتوج سلطانه الفعلي ، بمظاهر العظمة والأبهة الملوكية .

ولم يكن اتجاه ابن أبي عامر يقف عند تحقيق المظهر دون غيره ، ولكن كانت لديه أسباب عملية قوية ، تدعو إلى التحوط من أخطار التآمر والغيلة ، وقد أصبح يخشى على نفسه من الوجود في قصر الزهراء ، ومما قد يضمه بعض الحاقدين المتربصين^(١) ، ورأى أن يتخذ له مركزاً مستقلاً للإدارة والحكم ، يجمع بين السلامة ومظاهر السلطان والعظمة . فوضع أسس مدينة ملوكية جديدة أسماها الزاهرة (٣٦٨ هـ - ٩٧٨ م) . وقد اختلف في الموقع الذي كانت تحتله الزاهرة لأن البحوث الأثرية الحديثة لم تكشف شيئاً من معالمها ، مثلما فعلت بالنسبة لمدينة الزهراء . ويقول البعض إنها كانت تحتل بسيطاً يقع جنوب شرقي قرطبة في منحى نهر الوادي الكبير ، وعلى قيد أميال قليلة منها . ويقول البعض الآخر إنها كانت تحتل بقعة على مقربة من شرقي قرطبة على الضفة الجنوبية لنهر الوادي الكبير^(٢) . وأنشأ المنصور بالزاهرة قصرأ ملوكياً فخماً ، ومسجداً ، ودواوين للإدارة والحكم ، ومسكن للبطانة والحرس ، وأقام حولها سوراً ضخماً ، ونقل إليها خزائن المال والسلاح ، وإدارات الحكم ؛ وتم بناء المدينة الجديدة في نحو عامين ، وأقطع ما حولها للوزراء والقادة ، وأكابر رجال الدولة ، فابتنوا الدور العظيمة ، وأنشئت الشوارع والأسواق النسيحة ، واتصلت أرباضها بأرباض قرطبة ،

(١) البيان المغرب ج ٢ ص ٢٩٤ ، وأعمال الأعلام ٦٢ .

(٢) وهذا يستفاد من أقوال ابن حزم في « طوق الحمامة » ص ١١٠ .

وأضحيت تنافس المدينة الخليفة في الضخامة والرونق .

وفي أوائل سنة ٣٧٠هـ (٩٨٠م) ، انتقل محمد بن أبي عامر إلى مدينة الزاهرة ، واتخذ له حرساً خاصاً من الصقالبة والبربر ، وأحاط قصره الحديد بالحراس والحاشية ، يرقبون كل حركة وسكنة في الداخل والخارج ، وأقفرت بذلك مدينة الزهراء الخليفة ، وهجر الوزراء والكبراء قصر الخليفة ، وساد الصمت حول مركز الخلافة الشرعي ؛ وأنشأ ابن أبي عامر في نفس الوقت حول القصر الخلفي سوراً وخندقاً ، وأحكم غلق أبوابه ، ووكل بها من يمنع دخول أي شخص أو نبأ إلى الخليفة دون علمه وإذنه . وبث عيون على هشام وحاشيته ، وأشاع أنه قد فوض إليه النظر في سائر شئون المملكة ، لكي يتفرغ لشئون العبادة . وهكذا أهمل شأن الخليفة الفتي ، وقطعت سائر علاقته مع الخارج ، ولبث محجوباً في أعماق قصره ، يغمره الخمول والنسيان^(١) .

ماذا كان موقف صبح إزاء هذا الانقلاب الحاسم في مركز ولدها ومركز الخلافة ؟ لا ريب أنها كانت بموقفها وتصرفها ، أكبر معين لابن أبي عامر على إحداثه ، وكان حبا المضطرم لذلك الرجل الذي ملك عليها كل مشاعرها وعقلها ، يدفعها دائماً إلى موازرتة والإذعان لرأيه ، وكان إعجابها الشديد بمقدرته وتوفيقه يضاعف ثقها به ، ويعمها دائماً عن إدراك الغاية الخطيرة التي يسعى إلى تحقيقها ، هذا إذا لم نفترض أن تلك البشكنسية المضطربة الجوانح ، كانت تذهب في حبا إلى حد الإثمار بولدها وتضحية حقوقه ومصالحه . والظاهر أن علائقها بابن أبي عامر قد انتهت بالخروج عن كل تحفظ ، وغدت فضيحة قصر ذائعة ، شهر بها مجتمع قرطبة ، وتناولها بلاذع التعليق والهجو ، وظهرت بهذه المناسبة قصائد وأناشيد شعبية كثيرة ، في التشهير بحجر ابن أبي عامر على هشام وعلائقه بصبح ، فمن ذلك ما قيل على لسان هشام في الشكوى من الحجر عليه :

أليس من العجائب أن مثلي يرى ما قل ممتنعاً عليه
وتملك باسمه الدنيا جميعاً وما من ذلك شيء في يديه^(٢)
ومن ذلك ما قيل في هشام وأمه صبح ، وقاضيه ابن السليم :

(١) البيان المغرب ج ٢ ص ٢٩٥ و ٢٩٦ و ٢٩٧ و ٢٩٨ ، وابن خلدون ج ٤ ص ١٤٨ والحلة السيرة ص ١٤٩ ، وفتح الطيب ج ١ ص ٢٧٢ .
(٢) هذان البيتان ينسبان أيضاً إلى المقتدر العباسي .

اقرب الوعد وحان الهلاك وكل ما تحذره قد أتاك
خليفة يلعب في مكتب أمه حبلى وقاض . . . (١)
وهذه الأناشيد اللاذعة وأمثالها تعبر عن روح العصر ، وتدل على ما كان
يشهه موقف صبح وسمعتها ، من الحملات المرة . وتتفق الرواية الإسلامية في
الإشارة إلى هذه العلاقة الغرامية التي استطال أمدها ، بين صبح وابن أبي عامر ،
وإن كانت تؤثر التحفظ والاحتشام ، ولم نجد ما يعارضها سوى كلمة أوردها
المقرئ لكاتب مغربي يدافع فيها عن ابن أبي عامر ، ويدفع عن صبح تهمة
شغفها به ، ويرى أولئك الشعراء بالتحامل والكذب (٢).

على أنه يبدو أن الحوادث قد بدأت تتطور من ذلك الحين ، وأن موقف
صبح قد بدأ يتخذ وجهة أخرى . فقد أدركت صبح أخيراً ما يرمى إليه ابن أبي عامر ،
وأدركت خطورته على مستقبل ولدها ، ومستقبل الأسرة والخلافة ، فثارت
نفسها سخطاً . وكانت صبح قد تجاوزت الأربعين يومئذ ، وقد تصرم ذلك الحب
القديم ، الذي شغفها بابن أبي عامر دهرأ ، وأضححت تبغض ذلك الرجل الذي
سلب ولدها ، وسلبها كل نفوذ وسلطة ، ومن ذلك الحين تنقلب صبح إلى خصومة
ابن أبي عامر ومقاومته . وقد كان من الصعب ، إزاء عزم ابن أبي عامر ويقظته ،
وسلطانه الشامل ، ان تستطيع صبح القيام بأية عمل مباشر ، فلجأت عندئذ إلى
العمل المستتر ، وأخذت تبت في نفس ولدها هشام ، بغض ابن أبي عامر والسعي
إلى مناورته واسترداد سلطانه منه ، وتولى مقاليد الحكم بنفسه ، وشهرت بواسطة
أعوانها من الناقمين ، على ابن أبي عامر ، دعاية شديدة ، واتهمته بأنه يسجن
الخليفة الشرعي ويحكم رغم إرادته ويغتصب سلطته . والظاهر أن صبحاً لم تقف
عند هذا الحد من المقاومة الأدبية ، وأنها حاولت في نفس الوقت ، أن تقوم
بمحاولة عملية لمقاومة ابن أبي عامر وإسقاطه .

وربما كان لتدبير صبح وتحريضها ، أثر فيما وقع يومئذ بين ابن أبي عامر
وصهره القائد غالب ، صاحب مدينة سالم . وكان غالب بالرغم من تقلده خطة
الوزارة ، يقيم بالثغر بعيداً عن قوطبة . وكان يتمتع في قوطبة وسائر مدن الأندلس

(١) البيان المغرب عن ابن حيان ج ٢ ص ٣٠٠ ، ونفح الطوب ج ١ ص ٢٨١ .

(٢) راجع نفح الطوب ج ١ ص ٢٨٢ .

بسمعة عالية في ميدان الفروسية والقيادة ، وهو ما كان ينقمة ابن أبي عامر على صهره . وكان المعارضون يرون فيه الرجل الوحيد ، الذي يستطيع أن يقارع ابن أبي عامر ويقاومه . فرأى ابن أبي عامر أن يرفع إلى مرتبة الوزارة جعفر بن علي ابن حمدون المعروف بالأندلسي ، وكان من مشاهير الفرسان والقادة البربر من زناته ، وكان مقبياً بالعدوة ، فعبّر البحر إلى الأندلس ، واستقر في الوزارة ، يكنفه ابن أبي عامر بحبه وثقته ، ويستعين به على تأليف البربر وكسب محبتهم ، ولاسيما بعد أن غدوا يؤلفون معظم حرسه وحاشيته . وتقاطر البربر من العدوة ، وابن أبي عامر يستقبلهم بأوفر ضروب البذل والإحسان ، ويقوى بهم صفوفه وبطانته . وكان غالب يستشعر الوحشة والريبة من تصرفات صهره ، ويتوقع منها سوء العاقبة . ولم يمض قليل حتى ساء التفاهم بين غالب وصهره ، فعمد غالب إلى مصانعة ابن أبي عامر ، ودعاه أثناء غزوه بالصائفة في أراضي قشتالة ، إلى وليمة أقامها بمدينة أنتيسة^(١) ، إحدى مدن الثغر التي تحت ولايته ، وجاء ابن أبي عامر إلى القلعة حيث أقيمت الوليمة ، في بعض أصحابه ، فانفرد به غالب وشرع في عتابه . ثم اشتد بينهما النقاش ، فشهر غالب سيفه على صهره فجأة ، فأصابه في بعض أنامله وصدغه ، واستطاع ابن أبي عامر أن يفر ناجياً بنفسه ، من مأزق بالغ الخطورة . وامتنع غالب بالقلعة ، بينما سار ابن أبي عامر لفوره إلى مدينة سالم ، حيث دار غالب وأهله ، فاستولى عليها وعلى سائر أمواله ومتاعه ، وفرقها في الجيش ، وعاد إلى الحضرة ، وهو يضمّر لغالب أسوأ النيات .

وكان غالب أعظم قادة الأندلس وأبرعهم في ذلك العصر ، وكانت لديه في الثغر قوات يعتد بها ، فنهض لقتال قوات ابن أبي عامر ، وغلب عليها ، في البداية غير مرة . ثم رأى أن يستعين براميرو الثالث ملك ليون ، فأمدّه ببعض قواته . وسار ابن أبي عامر لمقارعة خصمه في معركة حاسمة . ووقع اللقاء بين الفريقين أمام حصن شنت بجنث San Vicente على مقربة من أنتيسة ، ونشبت بينهما معركة شديدة ، أبلى فيها غالب وقواته بلاء حسناً وكاد يحرز النصر في البداية ، ولكنه ما لبث أن سقط ميتاً عن جواده خلال المعركة ، ولم يعرف سبب مصرعه لأنه لم يقتل بيد أحد ، وحملت رأسه في الحال إلى ابن أبي عامر ، فدب الوهن

(١) وهي بالإسبانية Atienza . وهي تقع شمال وادي الحجارة ، على مقربة من غربي

والذعر إلى قوائمه ، وطاردتها قوات الأندلس ، وأمعت فيها قتلا وأسراً ، وهلك من الحند النصراني الذين كانوا يقاتلون إلى جانب غالب عدد جم . وكان بين القتلى أمير نصراني هو راميرو ابن سانشو أباركا من أمراء البشكنس (١) . وقتل كذلك في المعركة عدة من الكبراء والقادة المسلمين ، الذين كانوا مثل غالب يعارضون سياسة ابن أبي عامر . وكان ذلك في الرابع من محرم سنة ٣٧١ هـ (أغسطس سنة ٩٨١ م) (٢) .

وقد روى الفيلسوف ابن حزم عن أبيه الوزير ابن حزم ، وزير ابن أبي عامر ، وكان ممن صحبه في تلك الموقعة ، تفاصيل الموقعة حسبما شهدها . وهو يصف لنا هيئة القائد غالب خلال الموقعة في قوله : « وهو شيخ كبير قد قارب الثمانين عاماً وهو على فرسه ، وفي رأسه طرطورعال ، وقد عصب حاجبيه بعصابة » قال : وكان قد جمع جمعاً عظيماً من المسلمين والنصارى ، فبدأ بالمهجوم على اليمين ، وفيها جعفر بن علي وأخوه يحيى والبربر ، وحمل عليهم حملة ، أزاحتهم عن مواقعهم ، ومزقت صفوفهم ؛ ثم حمل على الميسرة ، وكان فيها الوزير ابن حزم مع غيره من الرؤساء ، ففعل بها كما فعل بالأولى . ثم أخذ يتأهب لمهاجمة القلب ، وهو تحت قيادة ابن أبي عامر نفسه ، وهو يقول : « اللهم إن كنت أصلح للمسلمين من ابن أبي عامر فانصرني ، وإن كان هو الأصلح لهم فانصره » . ثم يصف لنا ابن حزم مصرع غالب على النحو الآتي ، قال : « ثم هز فرسه ، وترك جهة القتال وأخذ ناحية إلى خندق كان في جانب عسكره ، فظن أصحابه أنه يريد الخلاء ، فلما أبطأ عليهم ركبت طائفة منهم نحوه ، فوجدوه قد سقط إلى الأرض ميتاً ، وقد فارق الدنيا بلا ضربة ولا رمية ولا أثر ، وفرسه واقف بجانبه يعلك لحامه ، ولا يعلم أحد سبب موته . فلما أدرك أصحابه سقط في أيديهم ، وطلبوا حظ أنفسهم ، فبادر مبادر منهم بالبشرى إلى ابن أبي عامر ، فلم يصدق حتى وافى مواف بخاتمه ، ووافاه آخر بيده ، ووافاه آخر برأسه » .

هذا وقد بلغت القسوة بابن أبي عامر ، أن أمر بالتمثيل بجثمان خصمه الصريع

(١) وهو الذي تسميه الرواية العربية برذمبر بن شانجه ويعرف « براهى قرجة » .

(٢) البيان المغرب ج ٢ ص ٢٩٨ و ٢٩٩ ، وأعمال الأعلام ص ٦٢ و ٦٣ . وكذلك

الباسل ، فحشى جلده بالقطن ، وصلب على باب القصر بقرطبة ، وصلب رأسه على باب الزاهرة ، ولبث كذلك دهرأ ، حتى أدركه الفيلسوف ابن حزم نفسه ، وهو قتي ، وذلك عند إنزاله يوم هدم الزاهرة في سنة ٣٩٩ هـ (١٠٠٨ م) (١).

* * *

وهنا تبدأ سلسلة هذه الغزوات الشهيرة العديدة ، التي شهرها ابن أبي عامر على الممالك الإسبانية النصرانية ، واستمر يضطلع بها باستمرار ودون هوادة ، والتي خرج منها جميعاً متوجاً بغار الظفر ، ولم يهزم في أية واحدة منها .
وتحدث معظم الروايات الإسلامية عن حروب ابن أبي عامر وغزواته بإفاضة ، وتعددها بأكثر من خمسين غزوة . ولكنها لا تقدم إلينا عنها تفاصيل واضحة ، ولا سيما عن الزمان والمكان (٢) ، ويجمل ابن خلدون ذكرها في قوله : « وردد الغزو بنفسه إلى دار الحرب ، فغرا اثنين وخمسين غزوة في سائر أيام ملكه ، لم ينكسر له فيها راية ولا فل له جيش ، ولا أصيب له بعث ولا هلكت سرية » (٣) .

وتجمل الرواية الإسلامية بواعث هذه الغزوات المستمرة في نزعة الجهاد . ولكن الحقيقة هي أن ابن أبي عامر ، كان باضطلاعها بتلك الغزوات المتعاقبة يرمى إلى غاية سياسية بعيدة المدى ، لم يفكر فيها أحد قبله من أمراء الأندلس ، أو لم يجد لديه وسيلة أو مقدرة لتنفيذها . ذلك أنه فكر في أن يسحق الممالك الإسبانية النصرانية سحقاً تاماً ، وأن يقضى على استقلالها القومي ، وأن يخضعها جميعاً إلى سلطة الخلافة . وقد خالف ابن أبي عامر في غزواته ، سنن أسلافه من الأمراء والقادة ، فقد كان هؤلاء يحاربون في معظم الأحيان للدفاع ورد غارات النصارى ، ولكن ابن أبي عامر كان هو البادئ بالحرب دائماً ، ولم يقبل من أعدائه قط صلحاً أو مهادنة ، ولم يقنع إلا بالنصر الكامل .

(١) راجع رواية ابن حزم في رسالة « نقط العروس » (المنشورة في مجلة كلية الآداب بالقاهرة في عدد ديسمبر سنة ١٩٥١) ص ٨١ و ٨٢ .

(٢) ذكر ابن الأبار في الحلة السيرة أن المؤرخ الكبير أبو مروان ابن حيان قد استوعب هذه الغزوات وفصاها في كتابه الكبير الذي ألفه في أخبار الدولة العامية . ولكن هذا المؤلف لم يصل بعد إلينا (ص ١٤٩) .

(٣) ابن خلدون ج ٤ ص ١٤٨ . وكذلك ابن الأثير ج ٨ ص ٢٢٤ و ج ٩ ص ١٢ .

ولكن سوف نرى أن غزوات المنصور ، بالرغم من تحرى هذه الغاية البعيدة المدى ، وبالرغم مما كان يحالفها من الظفر المستمر ، لم تخرج في مجموعها عن أساليب الصوائف والغزوات الإسلامية المأثورة ، ولم تتجه بالفعل إلى تحرى هذه الغاية الكبرى .

سار ابن أبي عامر عقب الفراغ من أمر صهره غالب ، إلى مملكة ليون ، ليعاقب ملكها راميرو الثالث على معاونته لخصمه غالب ، وتدخله على هذا النحو في شئون الأندلس ، وقصد إلى مدينة سمورة الحصينة الواقعة شمالى شلمنقة ، وضرب حولها الحصار (أوائل سنة ٣٧١ هـ الموافقة ٩٨١ م) ولكنه لم يستطع الاستيلاء على قلعتها المنيعة بسرعة ، فتركها وعاث فيها حولها من السهول ، وأمعنت قواته في التخريب والقتل ، وأحرقت مئات القرى والضياع ، وهام النصارى على وجوههم في الجبال والوديان ألوفاً مؤلفة . وهرع راميرو الثالث إلى غرسية فرنانديز كونت قشتالة ، وسانشو ملك نافار ، وعقد الثلاثة تحالفاً لمحاربة ابن أبي عامر ، وسارت قواتهم المشتركة للقائه . ونشب القتال بين الفريقين في ظاهر بلدة « روضة » في جنوب غربى « شنت منكش »^(١) ، فهزم النصارى وقتل منهم عدد كبير ، واستولى المسلمون على قلعة شنت منكس الشهيرة ؛ ثم زحف ابن أبي عامر بعد ذلك شمالاً إلى مدينة ليون عاصمة المملكة ، وهناك وقف راميرو في قواته محاولاً اعتراضه ، وحاول المسلمون اقتحام المدينة ، ووصلوا في هجومهم بالفعل إلى أبوابها ، ولكن الشتاء كان قد دخل ، وغمرهم البرد والثلوج ، فاضطروا إلى وقف القتال ، وعاد ابن أبي عامر إلى قرطبة بعد غزوات دامت بضعة أشهر^(٢) .

وعلى أثر هذا النصر ، وفي أواسط سنة ٣٧١ هـ (أواخر ٩٨١ م) اتخذ ابن أبي عامر سمة الملك ، فتسمى بالحاجب المنصور ، وأمر بالدعاء له على المنابر ، ونفذت الكتب والأوامر باسمه عن « الحاجب المنصور أبي عامر محمد بن أبي عامر » ونقش اسمه في السكة ، وجرى الوزراء ورجال الدولة على تقبيل يده ، عند المثول لديه ، واجتمعت حول شخصه ، وحول داره ، مظاهر الجلالة الملكية ، وتم بذلك استئثاره بجميع السلطات والرسوم ، ولم يبق من الخلافة الأموية سوى

(١) روضة هي بالإسبانية Rueda ، وشنت منكش هي Simancas .

(٢) Dozy : Hist. Vol. II. p. 234—235 ; Recherches (3ème ed.) Vol. I. p. (٢)

الاسم (١). هذا وسوف نجرى منذ الآن فصاعداً على تسمية ابن أبي عامر باسمه الملكي : المنصور .

وكان المنصور حين استقدم جعفرأ بن علي الأندلسي ، ورفعته إلى خطة الوزارة ليعارض به نفوذ القائد غالب ، وليوثق بوجوده مودة البربر وتأييدهم ، يتوجس مع ذلك من وجوده وسلطانه ، ويخشى أطاعه ومشاريعه ، في الناحية الأخرى من البحر ، ففكاد ينتهي من أمر غالب ، ومن ترتيب رسومه الملكية ، حتى قرر أمره ، فدعاه ذات مساء إلى مأدبة حافلة ، وأغرى به السقاة حتى فقد وعيه ، ثم دس عليه في طريقه إلى منزله من قتله ، وحمل إليه رأسه سرأ (٣٧٢ هـ) . فتظاهر المنصور بالحزن على ضحيته ، وكانت هذه الجريمة المثيرة ، عنواناً لبعض النواحي القائمة ، في خلاله وفي وسائله السياسية (٢) .

وفي ذلك الحين كانت الأحوال قد اضطربت في ليون ، وفقد راميرو الثالث من جراء هزائمه المتوالية كل عطف وتأييد ، وزاد الشعب نقمة عليه ، ومحاولاته في توسيع سلطانه ، وتمكين حكمه المطلق . وما لبثت جليقية أهم ولاياته ، أن اضطرمت بالثورة ، وقرر أشرافها خلع راميرو ، وتولية ابن عمه برمودو (أو برمند) ملكاً مكانه . وفي أكتوبر سنة ٩٨٢ م ، توج هذا الأمير ملكاً على ليون في مدينة شنت ياقب . فسار راميرو إلى محاربتة ونشبت بينهما موقعة شديدة غير حاسمة ، في بلدة بورتليا دي أريناس ، على حدود ليون وجليقية ، ثم عاد برمودو إلى جمع قواته ، وسار لمحاربة خصمه مرة أخرى ، فهزمه واستولى على مدينة ليون في مارس سنة ٩٨٤ . فالتجأ راميرو إلى مدينة أسترقة ، والتمس مساعدة المنصور ، على أن يعترف بطاعته ؛ ولكنه توفي بعد ذلك بأشهر قلائل ؛ وحاولت أمه أن تحكم مكانه بمعاونة المنصور ، فأبى المنصور أن يستمع إليها وأدرك برمودو من جهة أخرى أنه لن يستطيع مقاومة الأشراف المعارضين لحكمه إلا بمعاونة المسلمين ، فقدم إلى المنصور ، وعرض أن يعترف بطاعته ، فقبل المنصور وأمدته بجيش ، استطاع ان يخضع به سائر المملكة ، وأن يوطد حكمه . وبقيت بعد ذلك في مدينة ليون حامية كبيرة من المسلمين :

(١) ابن خلدون ج ٤ ص ١٤٨ ، والبيان المغرب ج ٢ ص ٢٩٩ ، و ٣٠٠ .

(٢) البيان المغرب ج ٢ ص ٣٠١ ، وأعمال الأعلام ص ٦٥ .

وهكذا غدت مملكة ليون الإسبانية النصرانية لأول مرة ، ولاية تابعة لحكومة قرطبة ، تؤدى لها الجزية ، وتأتى بأوامرها ، وكانت هذه أول ثمرة لسياسة الغزو المنظم ، التى سار عليها المنصور .

وتحول اهتمام المنصور بعد ذلك إلى شمال شرقى الأندلس ، فحشد جيشاً ضخماً استعداداً لغزوة هامة ، لم تخطر من قبل لأحد من أمراء الأندلس . وخرج فى قواته من قرطبة فى ذى الحجة سنة ٣٧٤ هـ (مايو ٩٨٥ م) ، ومعه عدة من الكتاب والشعراء ، يجتمعون فى مجلسه خلال السر . وتوصف غزوة المنصور هذه بأنها الثالثة والعشرون . وسار المنصور جنوباً صوب البيرة (غرناطة) ، ثم اتجه شرقاً إلى بسطة ، فلورقة ، فندمير ، فرسية ، وأقام فى مرسية ثلاثة وعشرين يوماً فى ضيافة أحمد بن عبد الرحمن المعروف بدجيم بن مروان بن خطاب وولده أبى الأصبح موسى . وكان ابن خطاب من أعظم رجالات الأندلس وجاهة و ثراء وجوداً ؛ ومن المدهش حقاً ، ما تنقله إلينا الرواية ، من أنه استضاف المنصور وسائر حاشيته وجيشه خلال هذه المدة ، وتكفل بسائر النفقات ، وأبدى من ضروب الجود والبذخ ما يفوق قصص ألف ليلة وليلة ، وغداً بذلك من أعظم أصدقاء المنصور وأكثرهم حظوة لديه (١) .

وسار المنصور فى جيشه بعد ذلك شمالاً . وكان يقصد ثغر برشلونة العظم . وقد لبثت برشلونة منذ الفتح فى أيدي المسلمين نحو قرن من الزمان ، وكانت أعظم ثغور الأندلس الشمالية الشرقية ، ثم افتتحها عاهل الفرنج شارلمان أو كارل الأكبر فى سنة ٨٠١ م (١٨٥ هـ) أيام الحكم بن هشام ، بعد حصار طويل ، وبعد أن دافع المسلمون عنها أروع دفاع . واتخذ الفرنج من برشلونة قاعدة لولاية « الثغر القوطى » ، الذى نما فيما بعد ، واستطاع حكامه الكونتات القوط مع الزمن ، أن ينتزعه من يد الفرنج ، وأن يجعلوا منه إمارة مستقلة ، هى إمارة قطلونية ، التى

(١) الحلة السيرة عن ابن حيان وابن الفياض ص ٢٥١ و ٢٥٢ و ٢٥٣ . هذا ويقدم إلينا العذرى نسبة ابن خطاب كاملة ، فهو أحمد بن عبد الرحمن المعروف بدجيم بن مروان بن خطاب بن محمد بن مروان بن خطاب بن عبد الجبار الداخل . ويقول لنا إنه استضاف المنصور وجميع عسكره أياماً ، وصنع له فيما صنع حماماً كان ماء الحمام من ماء الورد الطيب الغاية وأهدى له قناطر من الفضة الخالصة . (العذرى فى كتاب ترصيع الأخبار السابق ذكره ص ١٥) .

حافظت عصراً على استقلالها ، ثم اندمجت بعد ذلك في مملكة أراجون القوية (١) .
واخترق المنصور بجيشه قطلونية ، وهزم قوات أميرها الكونت بوريل ، في أواخر
شهر يونيه ، وأشرف على ظاهر برشلونة في اليوم الأول من يولييه ، ولم تمض
أيام قلائل حتى اقتحم المسلمون المدينة ، ودخلوها في يوم الاثنين منتصف صفر ،
سنة ٣٧٥ هـ ، الموافق سادس يولييه سنة ٩٨٥ م (٢) . ودمر المسلمون المدينة
وأحرقوها ، وقتلوا معظم أهلها ، وتركوها قاعاً صافصفاً ، وكان بين الأسرى
أودلرادو نائب كونت برشلونة ، فاقنيد إلى قرطبة ، حيث قضى في الأسر أعواماً
طويلة . والظاهر أن المنصور لم يحاول الاحتفاظ ببرشلونة ، ولم تكن لديه نية
افتتاحها بصورة دائمة ، ولكنه قصد أن يدمر قوى النصارى في هذا الطرف النائي
من شبه الجزيرة الإسبانية .

* * *

وما كاد المنصور يرتد بجيشه إلى قرطبة ، حتى استغرقت حوادث المغرب
جل اهتمامه . وقد فصلنا فيما تقدم عند الكلام على عهد عبد الرحمن الناصر ، ثم
عهد ولده الحكم المستنصر ، أدوار الصراع الذي نشب في المغرب الأقصى ،
بين الفاطميين مذ قامت دولتهم في إفريقية ، وبين بني أمية ، ورأينا كيف استطاع
الحكم المستنصر ، بعد سلسلة من الأحداث المثيرة ، والمعارك الطاحنة ، بينه وبين
الفاطميين وحلفائهم الأدارسة بالمغرب ، أن يقضى على قوى الشيعة والأدارسة ،
وكيف استسلم إليه الأدارسة وكبير زعمائهم الحسن بن كنون في سنة ٣٦٣ هـ ،
واستقروا حيناً في كنفه في قرطبة ، ثم خرجوا منها بعد ذلك بعامين ، وساروا
إلى مصر حيث استقروا بها في كنف خليفتها الفاطمي العزيز بالله .
وكان العزيز قد شغل في أوائل ولايته ، برد خطر القرامطة عن مصر والشام ؛
فلما تمت هزيمة القرامطة ، وزال خطرهم (٣٦٨ هـ) ، عاد إلى الاهتمام بشئون
المغرب ، وثاب له رأى في العمل على استعادة سلطان الدعوة الفاطمية ، وصح

(١) راجع تفاصيل ذلك في القسم الأول من العصر الأول من « دولة الإسلام في الأندلس »
ص ٢٣٤ - ٢٣٦ .

(٢) تتفق الروايات النصرانية مع الرواية الإسلامية في تحديد تاريخ دخول المسلمين لبرشلونة
على هذا النحو . راجع الإحاطة لابن الخطيب (القاهرة) ج ٢ ص ٧١ . وكذلك Dozy : Hist. Vol. II. p. 239 والمراجع .

الدعوة المروانية في المغرب الأقصى ، فأوعز إلى نائبه على إفريقية (تونس) بلُكَّين بن زيري بن مناد الصنهاجي ، أن يسير في قواته إلى المغرب ؛ فبدأ بلُكَّين زحفه على المغرب سنة ٣٦٩ هـ ، فاستولى على مدينة فاس ، وهزم سائر الأمراء الذين تصدوا لمقاومته من زناتة وغيرهم ، وفر أولئك الأمراء المعارضون جميعاً إلى الشمال ، واعتصموا بسبته ، وبعثوا إلى المنصور يستغيثون به . فعهد المنصور يومئذ ، إلى جعفر بن علي بن حمدون المعروف بالأندلسي ، وهو من زعماء زناتة بمحاربة بلُكَّين ، وأمدّه بالخذ والمال ، والتف حوله باقي الزعماء . ولكن بلُكَّين استمر في تقدمه ، رغم كل معارضة ، حتى استولى على المغرب كله ، ولم يبق منه بيد خصوم الشيعة سوى القطا الشمالي .

وفي سنة ٣٧٣ هـ (٩٨٣ م) بعث العزيز بالله، الحسن بن كُنُون زعيم الأدارسة، من مصر إلى المغرب تحقيقاً للمتمسه ، ليسعى إلى استرجاع ملكه ، وقلده عهده ، وأمر نائبه على المغرب بلُكَّين أن يمدّه بالقوات اللازمة ؛ وكان العزيز ، ووزيره ابن كلَّس تخالجهما أيضاً رغبة في التخلص من الحسن وصحبه ، والتخفف من مؤنتهم^(١) . فسار الحسن إلى المغرب ، في جيش صغير أمدّه به بلُكَّين ، ودعا لنفسه ، فالتف حوله كثير من البربر ، ولاسيما بنو يفرن ، وجاهروا بطاعته ؛ وعلم المنصور بخبره ، فبعث ابن عمه الوزير أبا الحكم عمرو بن عبد الله بن عامر المعروف بعسكلاجة ، في جيش كثيف ، إلى المغرب ، لقتاله والقضاء على دعوته ، فعبّر البحر إلى سبته لقتال الحسن ، وانضم إليه زعماء مغراوة في قواتهم ، وفي مقدمتهم كبيرهم زيري بن عطية بن خزر ، ثم بعث المنصور لإمداده جيشاً آخر إلى المغرب بقيادة ولده عبد الملك . وطارد عسكلاجة الحسن ، ثم أحاطه بقواته ، وحاصره حتى أرهقه الحصار ، ولم يربداً من طلب الأمان والتسليم ، على أن يسير إلى الأندلس كسابق عهده ، فأجيب إلى طلبه ، وأرسل على عجل إلى قرطبة تحقيقاً لرغبة المنصور . ولما علم المنصور بمقدم الحسن ، آثر أن ينقض الأمان الذي منحه ابن عمه ، وأن يقضى على حياة ذلك الخصم العنيد ، الذي تكرر خروجه على حكومة قرطبة ، فأنفذ إليه من قتله في الطريق وأتاه برأسه ، وذلك في جمادى الأولى سنة ٣٧٥ هـ (أواخر سنة ٩٨٥ م) وانهارت بذلك دعوة الأدارسة

(١) « نبد تاريخية في أخبار البربر » ص ١٩ .

بالمغرب الأقصى ، وتفرق أنصارهم ، وركدت ريجهم .

وعلى أثر ذلك نذب المنصور لحكم المغرب الوزير الحسن بن أحمد بن عبد الودود السلمى ، ومنحه السلطان المطلق ، وأمره أن يعمل على استمالة البربر فى تلك الأقطار ، إذ يجب أن لا ننسى أن البربر كانوا للمنصور ظهيراً ، وعوناً على إخضاع القبائل العربية بالأندلس ، ومهم اتخذ المنصور حاشيته وجنده ، وكثيراً من رجالات حكومته وجيشه . فسار الوزير إلى المغرب (٣٧٦ هـ) ونزل بفاس ، وضبط شئون البلاد ، واجتمعت إليه أمراء زناته ومغراوة ، واتخذ من زعيم مغراوة زيرى بن عطية عوناً وحليفاً ، لما أبداه من إخلاص للدعوة المروانية وتأيدها . واستدعى المنصور زيرى للوفود عليه ، فسار إلى قرطبة ، واحتفى المنصور بمقدمه ، وأسبغ عليه كثيراً من مظاهر العطف والتكريم ، وأوعز إليه بمقاتلة بنى يفرن أولياء الفاطميين ؛ فلما عاد زيرى إلى المغرب سار مع الوزير الحسن إلى قتال بنى يفرن وزعيمهم يدو بن يعلى ، ولكنه هزم ، وجرح الوزير الحسن ، ثم توفى متأثراً بجراحه (سنة ٣٨١ هـ) . فلما علم المنصور بذلك عقد لزيرى على المغرب ، وندبه لحكمه ، وأمره بضبط الأمور ، والتعاون مع جيش الخلافة ، وأصحاب الحسن ، فاضطلع زيرى بمهام الحكم بمقدرة وكفاية ، وكان حازماً ، قوى النفس والعزم ، فقوى أمره وتوطد سلطانه ، ولكنه لبث مشغولاً بأمر خصومه من بنى يفرن وغيرهم ، وليث الحرب سجالاً بينهم مدى حين (١) .

وفى سنة ٣٨٢ هـ (٩٩٢ م) استدعى المنصور زيرى بن عطية ، للقدم عليه للمرة الثانية ، فاستخلف زيرى على المغرب ولده المعز ، وسار إلى قرطبة ، وقدم إلى المنصور هدية عظيمة منها طيور نادرة ، وحيوانات غريبة ، وأسود ؛ فأكرم المنصور وفادته ، وأنزله بقصر المصحفى ، ونغمه بالمال والصلوات ، ومنحه لقب الوزارة ، وجدد له عهده على المغرب ، وعلى جميع ما غلب عليه ؛ ولكن زيرى لم يتهج بلقب الوزارة ، بل بالعكس ساءه ذلك ، إذ كان يعتبر نفسه فى مرتبة الإمارة ، فعبّر البحر إلى العدو وفى نفسه مرارة وخيبة أمل . وما كاد يصل إلى طنجة حتى نعى إليه أن خصومه الألداء بنى يفرن وأميرهم يدو

(١) راجع فى حوادث المغرب الأقصى ، ابن خلدون ج ٧ ص ٢٨ - ٣٠ ، والاستقصاء

ج ١ ص ٨٨ - ٩٢ ، و « نبد تاريخية فى أخبار البربر » ص ١٧ - ٢١ .

ابن يعلى ، قد انتهزوا فرصة غيبته ، فزحفوا إلى فاس واستولوا عليها ، وقتلوا بها كثيراً من رجال مغراوة . فأسرع بالسير إلى فاس ، وهناك جمع قواته ، ونشبت بين مغراوة وبنى يفرن معارك عديدة متوالية ، قتل فيها كثير من الطائفتين وانتهت بهزيمة بنى يفرن ومقتل أميرهم يدو ، وبعث زيرى برأسه إلى المنصور (٣٨٣ هـ) .

وأصبح زيرى بعد هزيمة بنى يفرن وركود أمرهم ، أعظم أمراء الغرب قوة وبأساً ، واستقر سلطانه في سائر أنحاء المغرب ، واستمر في الظاهر على ولائه للمنصور ، وللدعوة الأموية . ولكن نمسه كانت تجيش بمشاريع أخرى . ولما كانت فاس بموقعها في الطرف الغربي للمغرب ، وعلى مقربة من مواطن القبائل الخصيمة ، أصبحت لا تصلح لمشاريعه ، فقد اعتزم أن ينشئ لنفسه قاعدة جديدة ، فأنشأ مدينة وجدة الواقعة جنوبي شرقي مليلة ، وعلى مقربة من جنوب غربي تلمسان ، وابتنى بها قسبة منيعة وقصرآ ، وأحاطها بأسوار ضخمة ، ونقل إليها أمواله وذخائره ، وسكنها بأهله وحشمه ، واتخذها قاعدة الحكم (سنة ٣٨٦ هـ - ٩٩٦ م) لموقعها المتوسط بين المغربين الأوسط والأقصى (١) .

* * *

ولتقف الآن قليلاً في تتبع حواث المغرب ، لنعود إلى تتبع حوادث الأندلس ، ذلك أن المنصور سار على سنته من المضى في غزو الممالك النصرانية . وكانت الأحوال في ليون ما تزال بعيدة عن الاستقرار ، نظراً لما كان يضطرم بين حامية ليون المسلمة ، وبين النصارى من الشعب المستمر . وكان برمودو ملك ليون ، بعد أن استتب له الأمر ، يرقب الفرص لإخراج المسلمين من مملكته ، فجد في جمع قواته ، وانقض ذات يوم على المسلمين ، وطاردهم إلى خارج حدوده ، فاضطر المنصور أن يرد بغزو ليون ، فسار في قواته نحو الشمال محترقاً أراضي ليون ، ثم سار غرباً إلى مدينة قلُمرية ، الواقعة في شمال البرتغال على مقربة من المحيط ، واستولى عليها في يونيو سنة ٩٨٧ م (٣٧٨ هـ) ، وأمعن في تخريبها حتى لبثت قاعاً صفصفاً مدى سبعة أعوام . وفي خلال ذلك كان البشكنس أو الناغار يون قد أغاروا بقيادة ملكهم سانشو على أراضي الثغر الشمالى ، فسار المنصور إلى

قتانهم وطاردتهم حتى مدينة بنبلونة عاصمة نافار ؛ وهنا تقول الرواية النصرانية إن البشكنس انقلبوا إلى المهجوم ، وهزموا المسلمين (أواخر ٩٨٧ م) . ثم تزيد على ذلك أن جيشاً من الفرنسيين ، قد سار في نفس الوقت إلى برشلونة ، تعاونه سفن من البحر ، فاستولى عليها ، ولم تلبث طويلاً في يد المسلمين . وقد رأينا فيما تقدم أن المسايين حين غزوا برشلونة ، لم يقصدوا إلى الاحتفاظ بها ، بل اكتفوا بتخريبها وإحراقها .

على أن الرواية الإسلامية تحدثنا عن غزوة نافار هذه ، دون أن تشير أية إشارة إلى هزيمة المسلمين ، وهي تسميها بغزاة البياض ، وتضع تاريخها في سنة ٣٧٩ هـ (٩٨٩ م) ، وتقول لنا إن المنصور عاد بجيشه إلى سرقسطة ، حيث التقى هناك بولده عبد الملك أثر عوده من حروب المغرب (١) .

وما كادت تمضي أشهر قلائل ، حتى عاد المنصور لاستئناف الغزو ؛ فخرج في ربيع سنة ٣٧٨ هـ (٩٨٨ م) في جيش ضخم ، وعبر نهر دويرة ، واخترق أراضي ليون شمالاً ، فربط برمودو في معظم قواته بمدينة سمورة ، اعتقاداً منه أن المنصور سيبدأ بمهاجمتها ، ولكن المنصور سار توالاً إلى مدينة ليون ، فقاومه حيناً لمناعة قلاعها ، ولكنه اقتحم أسوارها ، بعد قتال رائع ، قتل فيه قائدها الكونت جونزالفو كونثال ، ودخلها المسلمون فخربوا صروحها ، وأبادوا سكانها ، وغادروها أطلالا دارسة . وسار المنصور بعد ذلك جنوباً إلى سمورة ، وأحرق في طريقه عدداً من الأديار ومنها ديرى إسلونزا وسهاجون العظيمين ، وضرب الحصار حول المدينة ، فغادرها برمودو سراً ، واضطر السكان إلى تسليمها إلى المنصور ، فأمر بنهبها ، واضطر معظم نبلاء المملكة (الكونتات) إلى الاعتراف بطاعته ، ولم يبق بيد برمودو من مملكته ، سوى الرقعة الحبلية الشمالية الغربية من جليقية (٢) .

وفي العام التالي وقعت بالثغر الأعلى حوادث هامة . وكان الثغر الأعلى وقاعدته سرقسطة ، لوقوعه في أقصى الشمال بعيداً عن قرطبة ، يغدو في فرص

(١) البيان المغرب ج ٢ ص ٣٠٢ و ٣٠٣ .

(٢) ابن خلدون ج ٤ ص ١٨١ . وكذلك Crónica General ; ibid ; Vol. II. p. 446

و Dozy : Hist. Vol. II. p. 244 & 245

كثيرة مهدداً للقلقل والثورات المتعاقبة . وكان حكامه بنو هشام التجيبون الذين غلبوا على بني قسي ، وانزعوا سرقسطة لأنفسهم ، منذ أيام الأمير عبد الله ، يتمتعون بنوع من الإستقلال المحلي ، ويحرصون على سلطانهم ، بالرغم من اعترافهم الإسمي بسلطان الحكومة المركزية . وكان حاكم الثغر الأعلى وهو يومئذ عبد الرحمن بن مطرف التجيبى ، يرقب سياسة المنصور ، فى القضاء على سلطان الحكام المحليين ، بتوجس وحذر ، ويلتمس السبل لحماية سلطانه ، ولم يكن بعيداً عن التفكير فى التحالف مع جيرانه من النصارى ، فى نافر ، وقشتالة ، كما فعل أسلافه أيام الناصر ؛ ولكن تطور الحوادث جعله يتجه اتجاهاً آخر . ذلك أن عبد الله ابن المنصور بن أبي عامر ، كان ناقماً على أبيه لأنه يؤثر أخاه عبد الملك عليه ويصطفيه دونه ، ويوليه كل عطفه وثقته . وكان عبد الله يومئذ فى فى الحادية والعشرين من عمره ، وكان يشعر أنه يتفوق فى الشجاعة والخلال على أخيه الأكبر ، ولكن المنصور كان يشك فى بنوة ولده عبد الله ، ويضن عليه بحبه وثقته ، ويخشى نياته ومشاريعه^(١) . وكان عبد الله قد ذهب إلى سرقسطة ، ونزل عند صاحبها عبد الرحمن ، وهو متغير النفس على أبيه . فانتهاز التجيبى الفرصة ، واستمال عبدالله إليه ، وأذكى حقداه على أبيه ، واثمر الإثنان على الوثوب بالمنصور فى أول فرصة والقضاء عليه ، على أن يقتسما ملك الأندلس ، فيستولى عبدالله على قرطبة وما والاها ، ويستولى عبد الرحمن على الثغر وأحوازه ، وانضم إليهما فى تلك المؤامرة بعض أكابر الحند ورجال الدولة ، من المعارضين للمنصور والناقمين عليه ، وفى مقدمتهم الوزير عبد الله بن عبد العزيز المروانى حاكم طليطلة المعروف بالربضى .

وترامت أخبار هذه المؤامرة الخطيرة إلى المنصور قبل نضجها ، فأعمل الحيلة فى استدعاء ولده عبد الله من سرقسطة ، وأبدى له كثيراً من الرفق والعطف ، وصرف الوزير المروانى عن حكم طليطلة صرفاً حميلاً ، ثم أقاله بعد ذلك من الوزارة ، واعتقله بداره . ثم خرج بالصائفة غازياً إلى أراضى قشتالة ، واستدعى أمداد الثغور ، فتوافدت إلى لقائه ، وفيهم عبد الرحمن بن مطرف ورجاله . واجتمعت الحشود بقوات قرطبة فى مدينة وادى الحجارة . وهناك أجمع أهل

(١) البيان المغرب ج ٢ ص ٣٠٥ و ٣٠٦ .

الثغور بوحي المنصور ، على الشكوى من عبد الرحمن بدعوى احتباسه لأرزاقهم ، فقرر المنصور إقالته ، ولكنه رأى استمالة لبني هاشم ، أن يعين مكانه في حكم سرقسطة ، ولده يحيى الملقب «بساحة» (نهاية صفر ٣٧٩ هـ) . ولم تمض على ذلك أيام قلائل ، حتى أمر المنصور بالقبض على عبد الرحمن ، ومحاسبته ، ثم أعدم بأمره فيما بعد إثر عودته إلى الزاهرة (١) .

واستدعى المنصور في نفس الوقت ولده عبد الله إلى معسكره خشية مما قد يقع منه . ثم سار في قواته شمالاً إلى شنت إشتين ، وبينما هو مشغول بحصارها ، إذ فر ولده عبد الله في نفر من غلمانه ، ولحق بغرسية فرنانديز كونت قشتالة ، فوعده بحمايته وتأييده . فطالب المنصور غرسية بتسليم ولده ، وأقسم ألا يكف عن قتاله ، حتى ينزل على رغبته ، فأبى غرسية ، واضطرم القتال بين الفريقين ، وسار المنصور شرقاً ، واستولى على أوسمة (وخشمة) ووضع بها حامية إسلامية ، ثم استولى على «القبعة» بعد ذلك بقليل ، وتوالت الهزائم على غرسية ، حتى اضطر أخيراً إلى أن يتضرع إلى المنصور أن يكف عنه ، وتعهد بإجابهته إلى سائر مطالبه ؛ فقبل المنصور ضراعتة ، وبعث غرسية عبد الله ، في جماعة من القشتاليين ، فاستقباه سعد الخادم ، مع جماعة من الفرسان ، وقبل يده ولاطفه ، ثم تركه مع بعضهم ، فأنزله عن بغله ، وأخطروه أن يتأهب للموت ، فترجل عبد الله ، وقدم نفسه للموت هادئاً ، ثبت الجنان رائع الشجاعة ، فضرب عنقه عند غروب الشمس من يوم الأربعاء ١٤ جمادى الآخرة سنة ٣٨٠ هـ (٩ سبتمبر ٩٩٠ م) وأنفذ برأسه في الحال إلى والده المنصور ، فبعث به المنصور مع كتاب الفتح إلى الخليفة ، ودفن شلوه في مكان مصرعه ، وكان عمره يوم إعدامه ثلاثة وعشرين عاماً . وكانت غزوة المنصور التي وقعت خلالها تلك الحوادث هي غزوته الخامسة والأربعون (٢) .

وقد يبدو لنا المنصور ، بإقدامه على إزهاق ولده ، في أشنع الصور وأروعها . ولكن يجب علينا أن نذكر الظروف التي اضطرت فيها المنصور ، إلى اتخاذ تلك الخطوة المؤلمة ؛ فقد كان ائثار عبد الله بأبيه ، وتحالفه أولاً مع التجيبين سادة الثغر ، وخصوم الحكومة المركزية منذ بعيد ، ثم التجاؤء بعد ذلك إلى أمير قشتالة

(١) البيان المغرب ج ٢ ص ٢٠٤ .

(٢) البيان المغرب ج ٢ ص ٢٠٤ و ٢٠٥ . وكذلك Dozy Hist.: Vol. II. p. 247 & 248

من أقطع الدلائل على مرض نفسه ، وخطورة مقصده ؛ ولو نجحت المؤامرة ،
لقضى على سلطان المنصور ، وانهارت دعائم الدولة الإسلامية العظيمة ، التي نجح
المنصور في إقامتها وتوطيدها ، ولكان المنصور نفسه حسبا كان يعتقد ، من أول
ضحايها^(١) ، فما كان عبدالله ليتردد عندئذ في إزهاق أبيه ليفسح المجال لنفسه ،
ولقد كان تصرف المنصور قبل كل شيء تصرفاً سياسياً صارماً ، خلواً من كل
عاطفة ، إلا عاطفة الاحتفاظ بالنفس والسلطان ، وكان للمنصور في تصرفه المثير
أسوة في كل عصر ، وفي كل قطر ، بل كانت له أسوة في بني أمية أنفسهم من
أمرأ وخلفاء ، فقد قام عبد الرحمن الداخل بإزهاق ابن أخيه وأبناء عمومته ،
وأقدم الأمير عبدالله على إزهاق إخوته الثلاثة ، وإزهاق ولديه ، ثم جاء الناصر
لدين الله ، فأقدم على إزهاق ولده وأبناء عمومته ، كل ذلك بتهمة التآمر ، وحرصاً
على السلطان . وقد كان القتل ، وما زال على كر العصور ، سلاح الطغاة الأقوياء ،
يجعلونه سياجاً لطغيانهم ودولتهم ؛ وهكذا جعل المنصور مقتل ولده سياجاً لطغيانه
فاهتز له الناس ، وملثوا وحشة وروعاً^(٢) .

هذا وأما عبدالله بن عبد العزيز المرواني ، أحد أركان المؤامرة ، فقد استطاع
الفرار في الوقت المناسب ، والتجأ إلى حماية برمودو ملك ليون .

وكان من ذبول المؤامرة أن قرر المنصور أن يعاقب غرسية فرنانديز كونت
قشتالة ، على ما ارتكبه في حقه ، باغراء ولده عبد الله وحمايته ، فحرض ولده
سانشو على الثورة عليه ، وأيده عدد كبير من الأشراف ، وانتهى سانشو بأن أعلن
الحرب على أبيه ، وجاهر المنصور بتأييده ، ثم انتهز فرصة اضطراب هذه الحرب
الأهلية ، وسار لمحاربة الكونت ، واستولى على شنت إشتين وكلونية . ثم ترك
جزءاً من قواته لمتابعة الصائفة وعاد إلى قرطبة .

وهنا تقدم الرواية الإسلامية إلينا قصة حادث مدهش ، يعتبر من أغرب
موافقات القدر ، وهو أن شاعر المنصور أبا العلاء صاعداً بن الحسن البغدادي ،
أهدى إليه أيتلاً في عنقه جبل ، وسماه غرسية باسم كونت قشتالة ، وبعث به إلى
القصر يوم السبت منتصف ربيع الثاني سنة ٣٨٥ هـ ، ومعه أبيات جاء فيها :

(١) البيان المغرب ج ٢ ص ٣٠٦ .

(٢) البيان المغرب ج ٢ ص ٣٠٥ .

يا حرز كل مخوف وأمان كل مشرد ومعز كل مذل
عبد جذبت بضعه ورفعت من مقداره أهدي إليك بأيل
سميته غرسية وبعثته في جبهه ليتاح فيه تفاؤلي

فكان من عجائب القدر ، أن تحققت نبوءة الشاعر . ففي نفس اليوم الذي قدم فيه الأيل والقصيدة إلى المنصور ، تمت الخزيمة على الكونت غرسية فرنانديز ، وجرح وأسر على ضفاف نهر دويرة ، على مقربة من بلدة «القصر» ، وذلك في يوم ٢٥ مايو سنة ٩٩٥ (منتصف ربيع الثاني ٣٨٥ هـ) . ثم توفي الكونت بعد أيام قلائل متأثراً بجراحه ، وتم الأمر لولده سانشو ، ولكنه اضطر أن يؤدي الخزية للمسلمين^(١) .

وفي خريف هذا العام سار المنصور إلى غزو ليون ومعاينة ملكها برمودو على حمايته لعبد الله بن عبد العزيز الرواني . وكانت الأحوال قد ساءت في ليون ، واستولى الأشراف الإقطاعيون على سائر أراضيها وضياعها ، ولم يبق للملكها سوى الاسم ، واضطر برمودو أن يغادر مدينة ليون عاصمة ملكه ، وأن يتخذ أسترقة عاصمة مكانها . فلما أرهاقه المنصور بالحرب غادر أسترقة ، واتمس الصلح من المنصور ، وسلمه المتآمر عبد الله ، وتعهد بدفع الخزية ، فأجابه المنصور إلى ما طلب . واستولى فيما بعد على مدينة سمورة ، وأسكن بها المسامين ، وولى عليها عاملاً من قبله هو أبو الأحوص معن بن عبد العزيز التجيبي . وهكذا عادت قشتالة وليون إلى دفع الخزية لحكومة قرطبة^(٢) . وأما عبد الله الرواني ، فقد ألقى به المنصور إلى السجن مصفداً ، وتركه يرزح في أصفاده ، بالرغم مما رفعه إليه من القصاصد المؤثرة في طلب العفو والمغفرة^(٣) .

* * *

وقد تقدم أن ابن أبي عامر اتخذ سمة الملك منذ سنة ٣٧١ هـ (٩٨١ م) ، وتسمى بالحاجب المنصور ، وأمر بالدعاء له على المنابر ، وكانت هذه أول خطوة في اتخاذ ألقاب الملك بصفة رسمية ، بعد أن استأثر بكل سلطة فعلية .

(١) الذخيرة المجلد الرابع القسم الأول ص ٢٢ و ٢٣ ، وأعمال الأعلام ص ٦٨ و ٦٩ ، والمعجب لعبد الواحد (القاهرة ١٩١٤) ص ٢٠ ، وابن خلدون ج ٤ ص ١٨١ .

(٢) ابن خلدون ج ٤ ص ١٨١ . وراجع Dozy : Hist. Vol. II. p. 249

(٣) راجع الحلة السيرة ص ١١٣ و ١١٤ .

وفي سنة ٣٨١ هـ (٩٩١ م) أى بعد ذلك بعشرة أعوام ، اتخذ المنصور خطوة أخرى في سبيل تدعيم صفته الملوكية . فرشح ولده عبد الملك للولاية من بعده ، وهو فتي لم يجاوز الثامنة عشرة ، ونزل له عن خطة الحجابة والقيادة العليا ، وسأثر الخطط الأخرى التي كان يتقلدها ، واقتصر على التسمي بالمنصور ، وأن تنفذ الكتب عنه « باسم المنصور أبي عامر وفقه الله » كما قلده ولده عبد الرحمن خطة الوزارة . ثم كانت الخطوة الثالثة بعد ذلك بخمسة أعوام ، حينما أصدر المنصور في سنة ٣٨٦ هـ (٩٩٦ م) أمره ، بأن يخص بألقاب السيادة من بين سائر الناس في الخطابات ، وأن يرفع ذلك عن سائر أهل الدولة ، ونفذت الكتب بذلك ، وخطوب المنصور من ذلك الوقت « بالملك الكريم » ، وبولغ في تكريمه وتعظيمه في سائر الخطابات ، واستمر ذلك بقية حياته (١) .

ولم يك ثمة شك فيما يرمى إليه ابن أبي عامر ، من وراء هذه الخطوات المتعاقبة في سبيل الاتساح بألقاب الملك والسيادة . فهو قد حقق من الناحية العملية أمنيته الجوهرية ، بالاستيلاء على الدولة والاستئثار بكل سلطة فعلية . ولكنه كان يرمى إلى أبعد من ذلك . فهو قد أصبح أعظم وأقوى رجل في الدولة ، وقد جمع بين يديه سائر السلطات السياسية والعسكرية . وكان الجيش وهو عماد السلطان والدولة ، يتكون معظمه من البربر والنصارى المرتزقة ، ويدين للمنصور بمنتهى الولاء والإخلاص ، وهو الذى عنى بإنشائه وتنظيمه ، وقاده إلى ميادين النصر عشرين عاماً . وإذا فقد كان يبدو من هذه الظروف كلها ، أنه لم يك ثمة ما يحول دون أن يحقق المنصور غايته الأخيرة ، فيتوج حكمه بالصفة الشرعية ، وينزع لنفسه ما بقى من رسوم الملك والخلافة ، ويؤسس بذلك لنفسه ولعقبه دولة جديدة ، تحل مكان الدولة الأموية المحتضرة .

وهناك ما يدل على أن المنصور ، كان يعزم بالفعل أن يتخذ سمة الخلافة ؛ وهذا ما يقرره الفيلسوف ابن حزم ، ويروى تفاصيله نقلا عن أبيه الوزير ابن حزم وزير المنصور . وملخص روايته أن المنصور جمع للمشورة في ذلك الأمر قوماً من خواصه منهم ابن حزم ، وابن عياش ، وابن فطيس من الوزراء ، وبعض الفقهاء ؛ وقد صوب رأيه ابن عياش وابن فطيس ، ولكن ابن حزم

(١) البيان المغرب ج ٢ ص ٣١٥ و ٣١٦ .

عارض فيه ، وأعرب عن خوفه من أن يحرك ذلك ساكن الأحوال ، وأن المنصور ليس في حاجة إلى مثله ، وببده سائر الأمور ؛ وتردد رأى الفقهاء بين الاعتراض والموافقة^(١) .

على أنه يبدو من جهة أخرى ، من تريث المنصور وتمهله في اتخاذ الخطوات المذكورة ، أنه كان يخشى نتائج العنف والتسرع . فما الذى كان يخشاه المنصور إذاً ، وقد اجتمعت في يده كل السلطات ، وأضحى يسيطر على سائر القوى ؟ لقد كان نهوض المنصور وتقدمه في سبيل السلطان ، مقترناً بظروف لا تساعد على اكتساب محبة الشعب وتأييده الخالص . فقد وقع عن طريق اتصاله بصبح ، بالمرأة التي كانت تسيطر على الدولة ، والتي كانت علائقه بها تثير كثيراً من الهمس والتعليق اللاذع ، وقد وقع على حساب الخليفة الطفل هشام المؤيد ، الذى استلب ابن أبي عامر سلطانه وحقوقه تباعاً ، ثم حجر عليه بطريقة قاسية تشبه الموت المدنى ، وقطع علائقه مع العالم ، ولم يكن يسمح له بمقابلة أحد ، أو بالخروج من القصر ؛ وفي الفرص النادرة التي كان يسمح بخروجه فيها ، كان يسير في موكبه وعليه برنس يخفى شخصه ، ومن حوله صفوف كثيفة من الخند ، فلا يستطيع أحد أن يراه أو يقترب منه^(٢) . وكان الشعب القرطبي يشهد أطوار هذه المأساة المؤلمة وإجمالاً ناقماً ، ويعتبر الخليفة الشرعى ضحية وشهيداً ، يستحق كل عطفه وورثائه . ولم يكف كل ما حققه المنصور من مظاهر السلطان والمجد ، وما أحرزه من الظفر المتوالى ، وما أسبغه حكمه على الأندلس من أسباب السكينة والعزة والأمن والرخاء ، لم يكف ذلك كله لحمل الشعب على نسيان قضية خايفته الشرعى . أضف إلى ذلك كله ، تلك الوسائل الدموية المثيرة ، التي لجأ إليها ابن أبي عامر للتخلص من خصومه ومنافسيه ، فقد كانت تباعد بينه وبين الشعب ؛ ولم يكن الشعب ، إزاء هذه الظروف والعوامل كلها ، لينح ابن أبي عامر حبه وولائه ، وإن كان من جهة أخرى يخشاه ويرهبه ، بل ويعجب بحزمه وعزمه وعبقريته في تسيير الأمور ، وفي تأمين البلاد ، وإذلال العدو .

ومن ثم كان تريث ابن أبي عامر وتحوطه . فإنه لم يكن واثقاً من إخضاع

(١) راجع فقط العروس لابن حزم ص ٧٧ .

(٢) البيان المغرب ج ٣ ص ٤١ ، ونفع الطيب ج ١ ص ٢٧٦ .

الشعب ، عن انقلاب حاسم يقضى به على آخر مظاهر الخلافة الشرعية ، وينزع به تراث بنى أمية . ومن جهة أخرى ، فقد كانت هناك صبح أم الخليفة المعتقل ، المحروم من كل حقوقه وسلطانه ؛ وكانت صبح قد غدت بمضى الزمن ألد خصوم ابن أبي عامر وأخطرهم . وقد رأينا كيف بدأت تعمل لمقاومته ، مذ شعرت بخطورة مشاريعه ، على مركز ولدها ، وتحاول أن تجمع من حولها كلمة الناقلين والمعارضين لابن أبي عامر ، باسم حماية الخليفة الشرعى ، وإنقاذه من نير المتغلب ، وكيف وقعت أول محاولة حقيقية لمقاومة ابن أبي عامر ، فى انقلاب صهره القائد غالب عليه ومحاربتة إياه ، ولم تبذل من ذلك الحين أية محاولة أخرى فى هذا السبيل . هذا وسلطان المنصور على كر الأعوام يتوطد ، ومركز هشام المؤيد يزداد سوءاً وانحلالاً ، وتغيب ذكريات الخلافة ورسومها شيئاً فشيئاً .

فلما عمد المنصور أخيراً إلى اتخاذ ألقاب السيادة والملك ، شعرت صبح بأن الضربة القاضية أضحت على وشك الوقوع ، واعتزمت ان تضاعف العمل فى سبيل حماية ولدها ، وتحريره من قبضة المتغلب . فكررت ضد المنصور دعايتها القديمة ، واتهمته على يد دعائها وأعوانها ، باغتصاب سلطان الخلافة ، ومقاومة رغبة الخليفة فى تولى الحكم بنفسه ؛ وخطر لها فى نفس الوقت أن تتصل بزيرى ابن عطية حاكم المغرب ، وأن تدفعه إلى مناوأة المنصور ، فبعثت إليه رسلها ، وأنفذت إليه الأموال سرّاً ، ليحشد الجند ويتأهب للعبور إلى الأندلس . وكان زيرى من أولياء بنى أمية ومن أشد المخلصين لقضيتهم ، وكان ينقم على المنصور سياسته فى الحجر على هشام ؛ وفوق ذلك فقد كان غاضباً على المنصور ، لما أساء به فى حقه حين زيارته إلى قرطبة ؛ وإذاً فقد لبي زيرى دعوة صبح ، وأخذ يشهر بالمنصور وسياسته ، وحجره على الخليفة ، ويدعو إلى مقاومته ، ورد الأمر إلى الخليفة الشرعى (١) .

وكان المنصور يقظاً ، فلم يفته شيء من خطط صبح وأعوانها . وكان أول همه أن يرفع يدها عن الأموال ، التى أخذت تفتن فى تهريبها بواسطة فتيان القصر ، وكان المنصور مريضاً ، فبعث ولده عبد الملك فى قوة من الجيش إلى قصر الخلافة بقرطبة ، ومعه جمهرة من الفقهاء والوزراء ، ثم دخل بهم إلى مجلس الخليفة ،

(١) البيان المغرب ج ٢ ص ٣٠٢ ، و « نبد تاريخية فى أخبار البربر » ص ٢٧ .

وخاطبه في الأمر ، فأنكر هشام ذلك ، وتبرأ من خصومة المنصور ، ووافق على نقل المال ، فنقل فوراً إلى الزاهرة ، ولم يبق منه في خزائن القصر شيء ، ولم تجد توسلات صبح ، ولا وعيدها ، وتطاولها على عبد الملك شيئاً ، ويقال إن ما حمله المنصور يومئذ من المال بلغ عدة ملايين (١) .

ولما أبل المنصور من مرضه بعد ذلك بقليل ، سار إلى قصر قرطبة مع ابنه عبد الملك وسائر عطاء الدولة ، وانفرد بالخليفة في مجلسه ، فاعترف له هشام بالفضل ، وحمد اضطلاعه بشئون الدولة ، وأقره على سياسته . ثم عمد المنصور إلى اتخاذ خطوة جريئة أخرى ، فأخرج هشاماً من القصر ، وأركبه في زى الخلافة في موكب عظيم ، وركب إلى جانبه ، وأمامه ولده عبد الملك ، وسار الجيش أمام الموكب ومن خلفه ، وتبع الموكب جموع عظيمة من طوائف الحند والفتيان الصقالبة . وشق هذا الموكب الخليفي شوارع قرطبة ، بين جموع حاشدة مستبشرة من الشعب ، وكان يوماً عظيماً مشهوداً ، وكان آية الظفر للمنصور وسياسته (٢) .

وهكذا فشلت صبح في محاولتها ، ولم يسفر ذلك الصراع المتأخر إلا عن توطيد سلطان المنصور ، وسمخ البقية الباقية من خصومه ومعارضيه . ولم تك صبح في الواقع أهلاً لمقاومة ذلك الرجل القوى ، خصوصاً بعد أن مكن له في كل شيء ، ولم يبق للخليفة الأموي من السلطان سوى الاسم . ولما أيقنت صبح أن المقاومة عبث ، وأنه لا منقذ لولدها من ذلك النير الحديدي ، لحأت إلى السكينة والعزلة ، فلا نسمع عنها بعد ذلك في سير الحوادث ، ولا نعرف تاريخ وفاتها بالتحقيق ، ولا نعرف إن كانت وفاتها قبل وفاة المنصور أو بعدها ؛ وكل ما تقوله الرواية الإسلامية في ذلك ، هو أن وفاتها كانت أيام ولدها هشام . والظاهر أنها توفيت بعد ذلك بقليل قبل وفاة المنصور ، حوالي سنة ٣٩٠ هـ (١٠٠٠ م) ، لأننا لانعثر باسمها بعد ذلك في حوادث الأندلس . وقد نظم شاعر العصر أبو عمر محمد ابن دراج القسطلي ، قصيدة مؤثرة يرثي فيها صبحاً « أم هشام المؤيد بالله » ، ومما جاء فيها :

(١) الذخيرة (عن ابن حيان) المجلد الرابع القسم الأول ص ٥٢ - ٥٤ ، ونفح الطيب

ج ٢ ص ٩٥ .

(٢) الذخيرة المجلد الرابع القسم الأول ص ٥٤ .

هل الملك يملك ريب المنو
ألم نر كيف استباح يدا
هو الرزء أودى بعزم الماو
لييض أياديك في الصالحا
فتلك مآثرها في التقى
جزاك بأعمالك الزاكيا
ولقيت من ضنك ذاك الضريح
نسيم النعيم وطيب الثواء (١)

هذا وأما عن موقف زيرى بن عطية ، وتطاوله على المنصور ، فقد رد المنصور بأن قطع عنه رزق الوزارة ، وبما اسمه من ديوانه ، واعتبره خارجاً عاصياً ؛ ورد زيرى على ذلك بأن قطع ذكر المنصور من الخطبة ، وطرده عماله بالمغرب ، وأعلن الخروج والثورة . فجهز المنصور لقتاله جيشاً عظيماً بإمرة مولاه الفتى واضح ، وأمدته بالأموال والذخائر ؛ وعبر واضح البحر في قواته إلى طنجة ، وهناك انضمت إليه جموع غفيرة من بربر غمارة وصنهاجة ، وحالفته على قتال زيرى . وخرج زيرى في قواته والتقى الجمعان بوادي زارات جنوبي طنجة ، ونشبت بينهما معارك شديدة متصلة مدى ثلاثة أشهر ، ثم انتهت بهزيمة واضح وتمزيق جيشه ، ففر في فله إلى طنجة ، وكتب إلى المنصور يستصرخ به .

فخرج المنصور من قرطبة إلى الجزيرة الخضراء ، وتوافدت إليه الجيوش ، ثم أجاز ابنه عبد الملك بمعظم قوات الأندلس وقوادها ، وأمره بالتشدد في محاربة زيرى والقضاء عليه ؛ فعبر عبد الملك البحر في قواته إلى سبتة ، واتصل خبره بزيرى فتأهب للقائه ، وبعث إلى جميع بطون زناتة يستصرخهم لنصرته ، فهرعت إليه الوفود والقوات من سائر النواحي ، وسار لقتال عبد الملك في جموع عظيمة . وزحف عبد الملك من طنجة ، ومعه الفتى واضح في قوات لا تحصى ، والتقى الفريقان بوادي منى من أحواز طنجة ، ونشبت بينهما معارك هائلة هزم البربر في نهايتها شر هزيمة ، وقتل منهم عدد ضخم ، وجرح زيرى واستولى عبد الملك على معسكره ، ثم طارده حتى مكناسة ، ففر إلى الصحراء مع نفر من أصحابه .

(١) وردت هذه القصيدة بأكملها في ديوان ابن دراج المنشور بمناية الدكتور محمود على مكى (ص ١١٩-١٢٣) ووردت كذلك في يتيمة الدهر (القاهرة ١٩٤٧) ج ٢ ص ١٠٩ و ١١٠ .

وقد أشاد شاعر العصر ابن دراج القسطلى بعبقرية المنصور وأهباته العسكرية ضد زيرى بن عطية فى قصيدة طويلة هذا مطلعها :

لك الله بالنصر العزيز كفيل
هو الفتح أما يومه فمعجل
وآيات نصر ما تزال ولم تزل
سيوف تثير الحق أنى انتضيتها
ومنهما :

لئن صديت الباب قوم ببيغهم
فإن يحبي فيهم بغى جالوت جدهم
هدى وتبى يؤدى الظلام لديهما
يجمع له منه قائد النصر عاجل
تحمل منه البحر بحراً من القنا
بكل معالاة الشراع كأنها
فسيف الهدى فى راحتك صقيل
فأحجار داود لديك مشول
وحق بدفع المبطلين كفيل
إليه ومن حسن اليقين دليل
يروع بها أمواجه ويهول
وقد حملت أسد الحقائق غيل^(١)

ودخل عبد الملك مدينة فاس ظافراً ، فى نهاية شوال سنة ٣٨٧ هـ (نوفبر ٩٩٧ م) وكتب إلى أبيه المنصور بالفتح ، فكتب إليه بعهدده على المغرب ، وعاد واضح بالخيى إلى قرطبة . ولبث عبد الملك والياً للمغرب ستة أشهر فقط ، نظم خلالها شئونه ، ووطد أمره ، ثم عاد إلى الأندلس ، وخلفه على المغرب عيسى ابن سعيد صاحب الشرطة ، فلبث فى ولايته حتى وائل سنة ٣٨٩ هـ . ثم أقيى وخلفه الفتى واضح .

وفى تلك الأثناء كان زيرى بن عطية قد جمع فلوله من قوات زناتة ، ووافته جموع كثيرة من مغراوة ، وكانت صنهاجة قد اختلفت على أمرها ، فانهز زيرى هذه الفرصة وزحف شرقاً على بلاد صنهاجة ، وأوغل فيها ، واستولى على تاهرت وتلمسان وبعض بلاد الزاب ، وأقام بها الدعوة لهشام المؤيد وللمنصور ، ثم كتب إلى المنصور يتقرب إليه ويسترضيه ، ويؤكد حسن طاعته من جديد ، فعفا عنه المنصور ، وأعاد له لولاية المغرب ، بيد أنه لم يعيش طويلاً فتوفى فى سنة ٣٩١ هـ (١٠٠١ م) ، متأثراً بجراحه التى أصابته فى موقعة وادى منى . وخلفه فى

(١) وردت هذه القصيدة فى ديوان ابن دراج المشار إليه (ص ٣ - ٩) .

الولاية ولده المعز : فأقره المنصور ، ولبث المعز والياً للمنصور ، مقبلاً على دعوة بنى أمية ، يعمل على توطيدها بالمغرب ، إلى أن اضطرب حبل الخلافة بالأندلس (١).

* * *

وبينما كان عبد الملك المنصور بالمغرب يتم إخضاع زيرى وشيعته ، كان المنصور يتخذ الأهبة لأعظم غزاته . وكانت منطقة جليقية في قاصية اسبانيا الغربية ، تعتبر لنأيها ووعورتها ، أمنع مناطق اسبانيا النصرانية ، وأبعدها عن متناول الفاتحين . ولم يفكر أحد من الغزاة المسلمين ، منذ أيام طارق أن يقصد إلى تلك المنطقة الجبلية الوعرة ، لما يعترض الوصول إليها من الصعاب الهائلة . ولكن المنصور اعتزم أن يسير إلى جليقية لسببين : الأول أنها كانت ملاذاً وملجأً للملوك ليون ، يمتنعون به كلما أرهقتهم الغزوات الإسلامية ، والثاني أنها كانت مستقراً لمدينة شنتياقب (أو شنت ياقب) الدينية ، كعبة إسبانيا النصرانية ومزارها المقدس ، ورمز زعامتها الروحية . وقد سبق أن عرضنا إلى نشأة هذه المدينة المقدسة ، وإلى أسطورة القديس ياقب (أو يعقوب الحواري) التي اتخذت أساساً لإنشائها ، وكيف زعمت الأسطورة أن قبر القديس يعقوب ، قد اكتشف بمعجزة وقعت في هذه المنطقة ، فأنشئت فوقه كنيسة ، وأنشئت حول الكنيسة مدينة مقدسة ، سميت باسم القديس ، وغدت عاصمة اسبانيا الدينية ، ومزاراً شهيراً يقصده النصراني من سائر الأندلس (٢). وقد شاء المنصور أن يضرب اسبانيا النصرانية في صميم معقلها القاصي ، وفي صميم زعامتها الروحية ، بغزو جليقية ، واقتحام مدينتها المقدسة . فخرج من قرطبة في الثالث والعشرين من جمادى الآخرة سنة ٣٨٧ هـ (٣ يولييه ٩٩٧ م) على رأس قوى الفرسان ، وفي الوقت نفسه تحرك الأسطول الأندلسي ، الذي أعده المنصور لهذه الغزوة الكبرى ، من مرساه أمام قصر أبي دانس Alcacer do Sal في مياه البرتغال الغربية ، شمالاً بجذاء الشاطئ البرتغالي ، يحمل المشاة والأقوات والذخيرة ، واخترق المنصور اسبانيا الغربية شمالاً ، وهو يعبر الجبال والأنهار العظيمة تباعاً ، حتى وصل إلى مدينة

(١) راجع حوادث المغرب في البيان المغرب ج ٢ ص ٣٠٢ ، وابن خلدون ج ٧ ص ٢٣ ، والإستقصاء ج ١ ص ٩٣ و ٩٤ ، و « نبد تاريخية في أخبار البربر » ص ٣٠ - ٣٥ .

(٢) راجع تفاصيل ذلك في القمم الأول من العصر الأول من « دولة الإسلام في الأندلس »

قورية ؛ ثم زحف نحو الشمال الغربي ، واستولى في طريقه على مدينتي بازو
وقلمرية^(١). وهنا وفد على المنصور ، عدد كبير من القوامس (الكونتات)
النصارى المعترفین بطاعته ، وهم الواقعة أملاكهم في أراضي البرتغال ما بين
نهرى دويرة ومنيو ، وانضموا مع قواتهم إلى جيشه . ثم سار المنصور شمالاً حتى
وصل إلى نهر دويرة ، وهناك وافاه الأسطول ، مخترقاً النهر من مصبه عند ثغر
بورتو ، فجعل منه جسراً مريحاً لعبور جيشه وعدده وأقواته ، واتجه الجيش
الإسلامي بعد ذلك صوب جليقية ، وهو يقتحم السهل والوعر في شعب الجبال ،
ثم عبر نهر منيو (منيو) ، وسار بجذاء شاطئ المحيط ، واستولى في طريقه على
بعض الحصون ، وخرب عدداً من الأديرة التاريخية في تلك المنطقة . وكانت
جموع كبيرة من النصارى ، قد فرت إلى الجزائر المقابلة للشاطئ ، فعبر المسلمون
إليهم من بعض المخاض وأسروا معظمهم ، واخترقوا مفاوز الجبال المجاورة
للمحيط ، واستخرجوا من لجأ إليها من النصارى ، واستصفوا غنائمها ؛ ثم
اقتحموا الجبال إلى السهل ، وخربوا بلدة إيليا (إيريا) ونهبوها ، وهى أيضاً
من المزارات الدينية الشهيرة . وأشرف المسلمون على مدينة شنت ياقب في يوم
الأربعاء الثاني من شعبان (١١ اغسطس) ، فوجدوها خالية من أهلها ، وكانوا
قد غادروها حين اقتراب الغزاة ، فدخلها المسلمون ، وهدموا أسوارها وصروحها
التاريخية ، وكنيستها العظمى ، واستولوا على سائر ما فيها من الذخائر والتحف ،
وأمر المنصور بصون قبر القديس ياقب القائم وسط الكنيسة العظمى ، والحفاظة
عليه . ولم يجد المنصور بالكنيسة إلا شيخاً من الرهبان يجلس على القبر فسأله عن
مقامه ، فقال أوآنس يعقوب ، فتركه وأمر بالكف عنه . وأخذ المسلمون أبواب
المدينة ، ونواقيس الكنيسة العظمى ، وحملها الأسرى النصارى على كواهلهم
حتى قرطبة ، فوضعت الأبواب فيما بعد ، في سقف الزيادة التي أنشأها المنصور
بالمسجد الجامع ، وعلقت به النواقيس رؤوساً للثريات الكبرى^(٢).

وسار المنصور بعد ذلك مخترقاً أراضي برمودو التي امتنع بها وعاث فيها .

(١) هما بالإنجليزية على التوالي *Coimbra* و *Viseu*

(٢) تتبعنا حوادث هذه الغزوة حسبما أوردها ابن عذارى في البيان المغرب ج ٢ ص ٣١٦

- ٣١٩ . وراجع ابن خلدون ج ٤ ص ١٨١ ، وأعمال الأعلام ص ٦٧ و ٦٨ ، ونفع الطيب
ج ١ ص ١٩٣ - ١٩٥ . وكذلك *Crónica General ; ibid; Vol. II. p. 448 & 449*

ولم يستطع أحد أن يقف في سبيله ، ووصل إلى شاطئ المحيط على مقربة من بلدة كرونية (قرجيطة) . ثم انحدر جنوباً حتى وصل إلى أراضي الزعماء النصارى (القوامس) الموالين له ، والذين صحبوه في غزوته ، فأمر بالكف عنها ، وتابع سيره حتى وصل إلى مدينة لاميجو في شمال البرتغال الحديثة (وتسميها الرواية الإسلامية لميقة) ، وهناك وزع الهدايا والكسبي الفاخرة على الزعماء النصارى ، وصرفهم إلى بلادهم ، وكتب بالفتح إلى دار الخلافة ، ثم عبر نهر دويرة على النحو الذي تقدم وصفه ، وقفل راجعاً إلى قرطبة ، وفي ركبه عدد كبير من الأسرى ، ومقادير عظيمة من الغنائم . وكانت غزوة عظيمة ، استبشر بها المسلمون ، وقرت نفوسهم ، واهتز لها اسبانيا النصرانية من أقصاها إلى أقصاها ، ولبت أثرها العميق أعواماً بعيدة ، وكانت غزوة المنصور الثامنة والأربعون .

ونظم ابن دراج القسطلي في تهنئة المنصور بغزوة « شنتياقه » (شنت ياقب) قصيدة طويلة هذا مطامها :

مُبْرَءاً سَبَبُ الغاوِينِ من سببِهِ	اليوم أنكص إبليس على عقبه
في الشرق والغرب أن الشرك من كذبه	واستيقنت شيع الكفار حيث نأت
بالبيض كالبلدر يسرى في سنا شبهه	بشنتياقه لما أن دلفت له
عليك كالفلك الحارى على قُطْبِهِ (١)	وجلة الدين والإسلام عاطفة

وعلى أثر غزوة شنت ياقب اضطر برمودو ملك ليون ، بعد الذي أصاب بلاده من الهزائم والحن ، أن يسعى إلى طلب الصلح ، فبعث ولده بلايو صحبة معن بن عبد العزيز حاكم ستمورة المسلم ، إلى قرطبة طالباً عقد الصلح ، فأجابه المنصور إلى ما طلب ، وانصرف راجعاً إلى أبيه (٢) . ولم يعيش برمودو طويلاً بعد ذلك ، فتوفى سنة ٩٩٩ م : وخلفه في الملك ولده الطفل ألفونسو الخامس ، تحت وصاية أحد الأشراف ، ولزم مكانه في قاصية جليقية .

وقام المنصور بعد ذلك بعدة غزوات أخرى في أراضي النصارى ، بيد أننا لا نظفر في شأنها بتفاصيل دقيقة واضحة . والظاهر من إشارة أوردها صاحب

(١) وردت هذه القصيدة في ديوان ابن دراج المتقدم ذكره (ص ٤٤٠ - ٤٤٣) .

ويلاحظ أنه قد ورد بها اسم « شنت ياقب » ، « شنتياقه » وهو أقرب إلى رسمه الإسباني Santiago

(٢) ابن خلدون ج ٤ ص ١٨١ .

البيان المغرب ، أن المنصور قام بغزوة إلى نافار في سنة ٣٨٩ هـ (٩٩٩ م) (١) .
وفي العام التالي أعنى في سنة ٣٩٠ هـ (١٠٠٠ م) سار المنصور إلى أراضي قشتالة
في جيش ضخم : وذلك أن الملوك والأمراء والنصارى « من حيز بنبلونة إلى
أسترقه » ، اتفقوا جميعاً بزعامة سانشو غرسية كونت قشتالة ، على مقاومة
المنصور والتفاني في قتاله ، وحشد سائر أمراء البشكنس وقشتالة وليون قواتهم ،
وجمع سانشو غرسية سائر قواته في وسط قشتالة ، في وادي دويرة الأدنى خلف
الحاجز الجبلي الوعر المسمى « صخرة جرييرة » Peña Cervera ، وتعاهد الملوك
والأمراء النصارى على الثبات وعدم الفرار . ورأى المنصور كعاداته أن يبادر
أعداءه بالقتال ، فسار في قواته توأ إلى مدينة سالم ، ونفذ شهالا إلى أراضي
قشتالة حيث يربط أعداؤه ، فلما أشرف على صخرة جرييرة ، هاله ما رأى من
وعورتها ، وحصانة المراكز التي يحتلها العدو ، ووفرة جموعه وعدده . ورأى
سانشو أن يعجل بمهاجمة المسلمين ، قبل أن يوطدوا مراكزهم ، فاندفع
النصارى في هجوم عنيف خاطف على المسلمين ، فاضطربت ميمنة المسلمين
وميسرتهم ، ودب الخلل إليهم ، وعمد إلى الفرار كثير منهم ، وكادت تدور
عليهم الدائرة . ولكن القلب ، وكان يقوده ابنا المنصور عبد الملك وعبد الرحمن ،
ويتألف معظمه من فرق البربر القوية الباسلة ، صمد أمام الموجة الهائلة ، وهرع
المنصور إلى رابية مشرفة على الموقعة ، ومن ورائه خاصته وحاشيته ، وهو يحث
رجالهم وقادته على الثبات ، فلم يمض سوى قليل حتى انقلبت الآية ، وارتد ،
العدو في غير نظام ، وتمكن أحد الزعماء البربر من قتل أحد كونتات بني غومس (٢)
وجاء برأسه ؛ فضاغف المسلمون جهودهم ، وشددوا الوطأة على النصارى ،
وأمعنوا فيهم قتلا وأسراً ، وطاردهم إلى عدة مراحل حتى مزقوهم شرمزق .
وكانت هذه الواقعة في اليوم الرابع والعشرين من شهر شعبان سنة ٣٩٠ هـ (٣٠
يوليه سنة ١٠٠٠ م) . وخسر المسلمون في الموقعة أكثر من سبعمائة قتيل .
وتابع المنصور زحفه في أراضي قشتالة ، وهو يدمر كل شيء في طريقه ،

(١) البيان المغرب ج ٢ ص ٣٢١ .

(٢) بني غومس يسمون كذلك في الرواية العربية ، وهم أبناء غومس دياث Gomez Diaz
أحد زعماء ليون . وقد تزوج ابنة كونت قشتالة فرنان كونتالث ، وأصبحوا خلفاء له ، وكانت
أملاكهم في سالدانيا وكريون وصورة .

حتى اقتحم عاصمتها « برغش » وذلك في يوم عيد الفطر (٤ سبتمبر) ، ثم واصل سيره إلى سرقسطة ، وقام من هنالك بغزوة في أراضي ناغار ، حتى أشرف على عاصمتها بنبلونة . وكل ذلك دون أن يجراً أحد من النصارى على الوقوف في سبيله . ثم عاد إلى قرطبة وقد أنفق في هذه الغزوات مائة يوم وتسعة أيام . ووجه على أثر عوده إلى قواده ، كتاباً ليقرأوه في الجيش . وفيه ينحى المنصور باللائمة على جنده ، لما بدا منهم من التخاذل والنكوص ، ويذكرهم بأنه لولا شجاعة فئة قليلة ، منهم ، عاوتت بشباتها على إحرار النصر ومحو العار ، لانتهى بإقالتهم جميعاً (١) . وكان لهذه الغزوة ، وما لابسها من الظروف الدقيقة ، أعظم وقع في الأندلس . وكان لنصر جريرة مغزى أعمق من أى نصر أحرزه المنصور . وفيه يقول صاعد شاعر المنصور مهنتاً ، من قصيدة تعتبر من غرر قصائده :

جددت شكرى للهوى المتجدد	وعهدت عندك منه ما لم يعهد
اليوم عاش الدين وابتدأ الهدى	غضاً وعاد الملك عذب المورد
ووقفت في ثانی حنين وقفة	فرايت صنع الله يُوخذ باليد
من فاته بلر وأدرك عمره	جربير فهو من الرحيل الأسعد
خملت ميامنهم عليك نشيجه	كالسيل يحطم جلمداً عن جلمد
ما ناجزوك وفي الجوانح موضع	لتصبر ومكانة لتجلد
طال الشقاء عليهم وتبرموا	بالجيش في الذل المقيم المقعد
فتحالفوا لمحت وتجمعوا	لمفرق وتألفوا لمبدد

وفي ربيع سنة ٣٩٢ هـ (١٠٠٢ م) خرج المنصور إلى الغزو لآخر مرة ، فاخترق أراضي قشتالة شمالاً ، ووصل في زحفه حتى بلدة قناليش الواقعة جنوبي ناجرة ، ثم صار غرباً في اتجاه برغش وعاث في تلك المنطقة (٢) . ولا تقدم الرواية الإسلامية عن هذه الغزوة تفاصيل أخرى ، ولا تحدثنا بالأخص عن أية موقعة حاسمة ، وقعت بين المسلمين والنصارى . ولكن بعض الروايات النصرانية الإسبانية القديمة ، تذكر لنا في هذا الموطن ، أن القوات النصرانية المتحدة ، المكونة من جيوش برمودو ملك ليون ، وغرسي فرناندز كونت قشتالة ،

(١) راجع في تفاصيل هذه الموقعة للشهيرة : أعمال الأعلام ص ٦٩ - ٧٢ .

(٢) راجع الإحاطة في أخبار فرناطة لابن الخطيب (طبعة القاهرة القديمة) ج ٢ ص ٧٢ .

وغرسية سانشيز ملك نافار ، وقفت في وجه المنصور في ظاهر بلدة صغيرة تسمى « قلعة النور »^(١) ، وتقع في غربي مدينة سرية ، وأنه وقعت بين المسلمين والنصارى ، موقعة هزم فيها المسلمون ، وقتل منهم عدة آلاف ، وأن المنصور انسحب في قواته تحت جناح الظلام ، ثم توفى بعد ذلك بقليل حزناً ونحماً ، أو من الجراح التي أصابته في الموقعة^(٢) .

ولا بأس من أن نقدم هنا خلاصة لما تذكره الرواية النصرانية من تفاصيل الموقعة ، وإليك ما يقوله في ذلك المؤرخ لافونتي . ومما هو جدير بالذكر أنه يرجع بداية حوادثها إلى سنة ١٠٠١ م ، وفي هذا الوقت كان ملك ليون ألفونسو الخامس الطفل ولد برمودو الثاني ، وكان تحت وصاية منندو كوثالث كونت جليقية وزوجته دونيا مايور ، وكان يحكم قشتالة الكونت سانشو غرسييس ولد غرسي فرناندز ، ويحكم نافار الملك سانشو غرسييس الكبير .

يقول لافونتي : إنه في هذه السنة أعنى سنة ١٠٠١ م ، بدت في قلب اسبانيا المسلمة طلائع استعدادات عظيمة ، وجمع ولاية شترين وبطليوس وماردة كل قواتهم ، وعبرت حشود عظيمة من الجند البربر إلى الجزيرة ، وكانت هي الأمداد التي وعد بإرسالها المعز بن زيري من المغرب إلى المنصور ، واجتمعت جيوش إفريقية والأندلس والبرتغال المسامة في طليطلة ، فهل كان المنصور يزمع أن يضرب قشتالة التي أتعبت مقاومتها الضربة الأخيرة ؟ لقد تفاهم سانشو أمير قشتالة مع قريبيه ملكي ليون ونافار على التعاون على مقاومة الجيش الإسلامي العظيم ، وأدرك الجميع ضرورة الاتحاد والتحالف . واجتمعت الجيوش النصرانية المتحدة في السهل الواقع جنوب مدينة سرية عند منابع دويرة ، قريباً من مدينة نوماثيا Numacia القديمة ؛ وكان يقود جيوش ليون وجليقية والأسترياس الكونت منندو وصي الملك الطفل ألفونسو الخامس ، ويقود قوات قشتالة ونافار ، كل ملكها .

وقدم المسلمون ، وقد انقسمت قواتهم إلى شطرين ، قوات الأندلس وقوات البربر ؛ وساروا تواءم نحو ضفاف نهر دويرة ، حتى التقوا بالنصارى في

(١) وهي بالإسبانية Calatanazor

(٢) Crónica General ; ibid ; Vol. II. p. 449

مكان يسمى « قلعة النور » . ثم وقعت بين الفريقين مناوشات ختمها مقدم الليل ، وفي فجر اليوم التالي تاهب كل فريق ، وحشد قواته ، واختلط ضجيج المسلمين بصيحات النصارى ، وأصوات الزمار بدوى الطبول . واشتبك الفريقان بعنف ، وأخذ زعماء كل فريق يحث رجاله ويشجعهم . وكان المنصور يشب هنا وهناك كأنه نمر ، وقد شقت فرسانه صفوف القشتاليين ، وساء ما لقي من مقاومة ، فاندفعت قواته إلى الهجوم بعنف ، واستمر القتال تحت جو قائم من الغبار المتصاعد ، حتى دخل الليل ، فانفصل الجيشان دون أن يكتب النصر لأحدهما .

وأصيب المنصور خلال القتال بجراح عديدة ، فأوى إلى خيمته ، وقد علم أن كثيراً من قادته قتلوا ، وأدرك مبلغ الحسارة الفادحة التي حاقت بجيشه ؛ فأصدر أوامره قبل الصبح بالارتداد . وعبر نهر دويرة ، وهو على أهبة الحرب حتى لا يفكر النصارى في مطاردته . ثم شعر المنصور خلال السير بالإعياء والخور ، ولم يستطع أن يستمر فوق صهوة جواده لخطورة جراحه ، فحمل في محفة إلى مدينة سالم .

ثم يقول لافونتي : إن بعض مؤرخينا ومنهم ماريانا يحاول أن يرد هذه الموقعة إلى ما قبل ذلك بثلاثة أعوام ، وأنه يوجد منهم من يقرنها بأخطاء ومغامرات خرافية بل مضحكة .

تلك هي خلاصة التفاصيل التي تسبغها الرواية النصرانية على موقعة قلعة النور . ويلاحظ أن هذه الرواية ترجع الموقعة إلى سنة ١٠٠١ م ، وأن المؤرخ يتحدث هنا عن طبقة جديدة من الملوك النصارى ، وهم خلفاء أولئك الذين تزعم الروايات النصرانية الأخرى تحالفهم على قتال المنصور (١) .

وقد حاول بعض الباحثين الإسبان المحدثين ، مثل ساقدرا وكوديرا التذليل على صحة هذه الرواية وقبولها . ولكن فريقاً آخر من أقطاب البحث الحديث وفي مقدمتهم دوزى ، يرون بطلان هذه الرواية ، ومخالفها للحقائق التاريخية الثابتة . ذلك أن برمودو ملك ليون كان قد توفى في سنة ٩٩٩ م ، وتوفى غرسية فرناندز كونت قشتالة في سنة ٩٩٥ م ، وتوفى غرسية سانشيز ملك نافار في سنة ١٠٠٠ م ،

فكيف تتحدث الرواية هنا عن تحالف الملوك الثلاثة ، وقد ماتوا جميعاً قبل الموقعة المزعومة ؟ هذا ومن جهة أخرى فإن الرواية الإسلامية لا تذكر شيئاً عن هذه الموقعة ، وهي لا ترض علينا في مواطن كثيرة بالتحدث عن هزائم المسلمين ، وصمتها في هذا الموطن قرينة ، على أنه لم يك ثمة موقعة ولا هزيمة^(١) . ويعلل مؤرخ إسباني معاصر هو الأستاذ مننديث بيدال ، أصل هذه الأسطورة بكونه إنما يرجع إلى ما أحرزه سانشو غرسية كونت قشتالة ، من نجاح جزئي في بعض الوقائع ، وقد حرصت الأساطير القشتالية على تسجيل هذا النجاح ، وعمدت إلى المبالغة فيه شيئاً فشيئاً^(٢) .

وعلى أثر اختتام الغزوة ، ارتد المنصور بجيشه جنوباً ، وقد لحقه الإعياء ، واشتد به المرض ، فترك جواده ، وسار نحو أسبوعين محمولا على محفة ، حتى وصل إلى مدينة سالم ، وهي معقل الثغر المنيع ، وكان من أعز أماني المنصور أن تدركه منيته خلال الغزو ، مجاهداً في سبيل الله ، وكان دائماً يحمل معه أكفانه حيناً سار إلى الغزو ، وهي أكفان صنعت من غزل بناته ، واشترت من خالص ماله الموروث . وقد استجاب الله دعاءه ، فما كاد يحل بمدينة سالم ، حتى شعر بدنو أجله ، فاستدعى ولده عبد الملك ، وألقى إليه نصائح الأخيرة . وفي ليلة الإثنين ٢٧ رمضان سنة ٣٩٢ ، الموافق ١١ أغسطس سنة ١٠٠٢ ، توفي المنصور محمد بن أبي عامر ، ودفن كرجبته في صحن قصر مدينة سالم ، وذلك لسبعة وعشرين عاماً من حكمه ، وعمره أربعة وستون عاماً ، إذ كان مولده في سنة ٣٢٨ هـ ، ونقش على شاهد قبره هذان البيتان :

آثاره تنبيك عن أخباره حتى كأنك بالعيان تراه
تالله لا يأتي الزمان بمثله أبداً ولا يحمي الثغور سواه^(٣)
ولبث قبر المنصور بمدينة سالم عصوراً ، مزاراً معروفاً ، وذلك بالرغم من

(١) راجع : Dozy : Recherches : Vol. I, p. 198-202 ; Hist. V. II. p. 263

وقد نخص العلامة المستشرق كونثال بالانثيا آراء الفريقين في كتابه :

Historia de la Espana Musulmana (4a Ed.) p. 57 & 58.

R.M. Pidal : Historia y Epopya p. 21 (٢)

(٣) الحلة السيرة ص ١٥١ .

استيلاء النصارى على المدينة ، منذ أواخر القرن الحادى عشر . و يروى لنا ابن الخطيب ، أنه عهد إلى بعض رسله ممن وجههم إلى قشتالة ، لتأكيد عقد الصلح مع ملكها ، بأن يزور فى طريقه مدينة سالم ، وأن يشاهد قبر المنصور ، وأن هذا الرسول قد أخبره عند عوده ، أن القبر ما يزال قائماً فى مكانه إلا أن رسومه من شعر منقوش ، وتاريخ مثبت ، قد غفت ومحيت آثارها ، وقد كان ذلك فيما يبلو فى وزارة ابن الخطيب الثانية فيما بين سنتى ١٣٦١ و ١٣٧٠ م (١).

الفصل الثاني

خلال المنصور وماثره

الناصر والمنصور . المنصور يشق طريقه إلى السلطان . وسائله في ذلك . جيش المنصور وأهاليه . شغفه بالجهاد . نتائج غزواته . الصوائف الإسلامية . عقمها وأثرها في إنهاء الجيوش الإسلامية . عبقرية المنصور الإدارية . استقرار الأمن والرخاء في عهده . وزراء المنصور وكتابه . أعماله الإنشائية . توسيعه للمسجد الجامع . تجديده لقنطرة قرطبة وإنشاؤه لقنطرة إستجة . جوده وبذله . مفاخرته بنشأته المتواضعة . صرامته في إقامة العدل . شغفه بالشراب . براعته العلمية والأدبية . رعايته للعلماء والأدباء . صاعد البغدادى شاعر المنصور . ديوان الندماء . مجالس المنصور الأدبية . شغفه بجمع الكتب . مقته للفلسفة والتنجيم . شعره ونثره . وصيته لابنه عبد الملك . وصيته لعلمانه . علائقه الدبلوماسية . مصاهرته لسانشو غرسية ملك فائار . وفود سانشو إلى الزاهرة . عبد الرحمن ولد المنصور وحفيد سانشو . إشادة الروايات الإسلامية بمظمة المنصور وخلالله . إشادة التقد العربي بعبقريته السياسية والعسكرية .

كان المنصور بن أبي عامر عبقرية فذة ، تمثل ذروة النبوغ الشعبي ، والطموح الفردي ؛ فقد خرج المنصور من صفوف الطبقة الوسطى ، وشق طريقه بساعده وهمته إلى السلطان والرياسة ، ولم تسعفه في ذلك نشأة ملوكية ، أو انقلاب عنيف ، ولم يكن عزمه في بلوغ ذلك أقل شأنًا من تألق طالعه ، وقد وصل المنصور إلى مرتبة من السلطان والقوة ، لم يصل إليها أحد قبله من أعظم أمراء الأندلس حتى ولا عبد الرحمن الناصر نفسه . ويمكننا أن نقول إنه إذا كان عهد الناصر ألمع صفحة في تاريخ اسبانيا المسلمة ، من النواحي السياسية والحضارية ، فإن عهد المنصور لا يقل عنه لمعاناً وتألقاً ، بل ربما امتاز على عهد الناصر ، بما أحرزته اسبانيا المسلمة خلاله ، من تفوق عظيم في السلطان والقوى العسكرية ، في شبه الجزيرة الإسبانية . فقد استطاعت إسبانيا النصرانية في عهد الناصر ، أن تنهز فرصة الفتن الداخلية بالأندلس ، وأن توطد قواها العسكرية ، وأن تغزو الأندلس غير مرة غزوات مخربة ، وقد لقي الناصر على يد النصارى غير هزيمة فادحة ؛ أما في عهد المنصور ، فقد انتهت اسبانيا النصرانية إلى حالة برقي لها من التفكك والضعف ، واستمرت زهاء ثلث قرن تتلقى ضربات المسلمين الساحقة

التواليه . وقد وصل المنصور في غزواته في شبه الجزيرة الإسبانية ، إلى مواطن لم يبلغها فاتح مسلم من قبل .

بدأ المنصور حياته في حلبة العلم والدرس ، ولكن سرعان ما تفتحت مواهبه الإدارية والسياسية ، فجاز مراتب المناصب السلطانية بسرعة ، وظهر في كل منها بفائق كفايته وحزمه . وما كاد يختفي الحكم المستنصر من الميدان ويقوم ولده الطفل هشام في الخلافة ، حتى تبلورت مطامع المنصور ، واتجهت توأ إلى غايتها البعيدة ، فكان الصراع مع الفتيان الصقالبة ، ثم مع الحاجب جعفر ، ولم يتح بعد ذلك لأية قوة معارضة أن تقف في سبيله . ولما اجتمعت سائر السلطات في يده ، اتشح بثوب الحاكم المطلق ، الذي لا يطبق أية مشاركة في سلطانه أو أى اعتراض لرأيه ، ولم يدخر وسعاً في أن يخذم أية نزعة للخروج أو الثورة على حكمه . وهنا تبرز النواحي القائمة في عبقرية المنصور ، فنراه يلجأ في تدعيم سلطانه وحمايته إلى نفس الوسائل المكيفيلية التي يلجأ إليها الطغاة دائماً في كل قطر ، وفي كل عصر : إلى القتل ، والغيلة ، والخديعة ، وكل ضروب العنف المثير ، ونراه يسير إلى تحقيق الغاية بأى الوسائل ، ولا يعف في ذلك السبيل عن ظلم يقع ، أو دم يسفك ، حتى ولو كان دم ولده بالذات .

على أن هذه الوسائل المثيرة التي كانت سباجاً لسلطان المنصور ، ودعامة لدولته ، والتي هي دائماً من لوازم الحكم المطلق ، يجب ألا تحول أنظارنا عن حقيقة ناصعة أخرى ، وهي أن المنصور لم يستخدم هذا السلطان إلا لخير دينه ، وخير الأمة التي نصب نفسه حاكماً عليها ، ومشرفاً على مصابرها ؛ ولعل الإسلام في شبه الجزيرة الإسبانية ، لم يظفر قط بمجاهد في بطولة المنصور ، وتفانيه في النود عن دينه ، وإعلاء كلمته ، ولعل الأندلس لم تر قط مثل المنصور ، زعيماً أخلص في خدمتها ، وكرس جهوده ومواهبه في بناء قوتها وعظمتها ، وسحق عدوها ، وتحقيق أمنها ورخائها .

وقد أدرك المنصور منذ البداية ، أنه يجب لتحقيق سلام الأندلس وأمنها ، وردع المالك النصرانية عن عدوانها المستمر ، أن يكون للأندلس قوة عسكرية عظيمة ، تكفي لإرهاب عدوها ، وإعزاز دينها ، ومن ثم فقد بذل جهده لإصلاح الجيش الأندلسي ، وتقويته ، وتزويده بأفضل العناصر المحاربة . وقد رأى

المنصور أن يعتمد على البربر بالأخص ، لما كانوا يتصفون به من البداوة والشجاعة ، فاستقدمهم من العداوة ، ورغبهم بوفرة البذل والعطاء^(١) . وكذلك استخدم المرتزقة من النصارى الإسبان ، ومنحهم الأجور والجرايات السخية ؛ وكان يجمع في جيشه الكثير منهم ، ومعظمهم من المستعربين ، وكان يحرص على رضائهم بتوسيع النفقة عليهم ، ومعاملتهم بالمساواة والرفق^(٢) . واستطاع المنصور بما وضعه للجيش من أنظمة محكمة ، وما أفاض عليه من وافر النفقة والعدد ، أن ينشئ للأندلس قوة عسكرية عظيمة ، لم تعرفها في أية عهد آخر . وكانت هذه القوة فضلاً عن كونها دعامة سلطانه وحكمه ، دعامة الأندلس وأداتها للدفاع والغزو . ونستطيع أن نقدر أهمية الجيش الأندلسي وكفايته أيام المنصور ، متى ذكرنا أن المنصور لبث زهاء ربع قرن ، يقود قواته إلى الغزو المستمر ، في أراضي الممالك النصرانية ، كل ربيع وكل صيف ، وأنه في نفس الوقت كان يبعث الحملات العسكرية العظيمة إلى المغرب ، لتخوض سلسلة من الحروب الطاحنة . وقد بلغ من كثرة قوى الجيش النظامية وكفايتها ، أن أصدر المنصور في سنة ٥٣٨٨ (٩٩٨ م) أمره بإعفاء الناس من إجبارهم على الغزو ، اكتفاء بعدد الجيش المرابط ، وقرأ الخطباء ذلك المرسوم على الناس ، إثر قراءة كتب الفتح ، وعرفوا فيه « بأن من تطوع خيراً ، فهو خير ، ومن خف إليه ، فمبور ومأجور ، ومن تناقل فعذور »^(٣) .

وقد أورد لنا ابن الخطيب (عن التيجاني) بعض الإحصاءات الهامة عن جيش المنصور ، فذكر لنا أن الجيش المرابط (الثابت) بلغ في عهده من الفرسان اثني عشر ألف ومائة فارس من سائر الطبقات ، جميعهم مرتزقون في الديوان ، يصرف لهم السلاح والنفقة والعلوفة . وكان عدد الحرس الخاص ستمائة فارس غير الأتباع . وانتهى عدد الرجال في الجيش المرابط إلى ستة وعشرين ألف راجل . وكان عدد الجيش المرابط يتضاعف وقت الصوائف بما ينضم إليه من صفوف المتطوعة . وقد بلغ عدد الفرسان في بعض الصوائف ستة وأربعين ألفاً ، وكان عدد المشاة يتضاعف كذلك ، وقد يبلغ المائة ألف أو تزيد .

(١) البيان المغرب ج ٢ ص ٧٩٩ و ٧١٥ و ٢١٦ .

(٢) Simonet : Historia de los Mozarabes de Espana (Madrid 1897) p. 630

(٣) أعمال الأعلام ص ٦٨ .

وأورد لنا ابن الخطيب أيضاً بيانات مفصلة عما كان يقتنيه المنصور من عتاق الخيل برسم الجهاد ، ومطايا الركوب ، ودواب الحمل ، وقد بلغت وحدها أربعة آلاف جمل خصصت لحمل الأثقال .

وأما عن عُدّة الحرب ، فقد كان المنصور يحتفظ بكميات عظيمة من الخيام والسهام والدروع ، والتراس ، وعدد من المخانيق وغيرها من آلات الحصار^(١) . وكان المنصور يضطرم شغفاً بالجهاد في سبيل الله ، وكانت غزواته التي زادت على الخمسين ، فضلاً عن كونها عنوان هذا الجهاد المستمر ، ترمي إلى غاية عسكرية وسياسية فطنة ، هي تحطيم قوى اسبانيا النصرانية ، وردعها بذلك عن العدوان على أراضي المسلمين . وقد تحققت هذه الغاية في أواخر عهد المنصور على أكمل وجه . وقد عني مؤرخ الأندلس الكبير ابن حيان - وقد عاش قريباً من ذلك العصر - بتفصيل هذه الغزوات في مؤلف ضخّم سماه « بالمآثر العامرية » واستخرجه من تاريخه الكبير « المقتبس »^(٢) . وكان من نتائج هذه الغزوات أن امتلأت الأندلس في عصر المنصور بالغنائم والسبي من بنات الإسبان وأولادهم ونسأهم ، وتغالى الناس في تجهيز بناتهم بالثياب والحلي والمال ، وذلك لرخص بنات الإفرنج وركود سوق الزواج^(٣) .

وبلغ من شغف المنصور بالجهاد ، أنه كان يتولى القيادة بنفسه في سائر غزواته الصائفة والشتائية ، ولم يقعه شيء عن القيادة ، والإشتراك الفعلي في كثير من المعارك ، حتى أننا نراه في آخر غزواته يتولى القيادة بالرغم من مرضه ، ويسير محمولاً على محفة ، ثم يقضى نحبه عقب الغزو ، بين يدي جنده وفي معقل الثغر ، بعيداً عن قصوره ، ومهاد راحته ونعمائه . وكان يحرص في سائر غزواته ، على أن يستخلص ما يعلق بوجهه أو ثيابه من الغبار ، أثناء المعارك التي يخوضها ، فكان يمسحه بمناديل اجتمعت له منها رزمة كبيرة ، كان يحملها معه دائماً ، حتى

(١) أعمال الأعلام ص ٩٩ و ١٠١ و ١٠٢ .

(٢) جذوة المقتبس للحميدى (للقاهرة ١٩٥٢) ص ٧٤ ، والحلة السيرة ص ١٤٩ ، والمعجب لعبد الواحد المراكشي ص ٢١ . وذكر لنا ابن الخطيب اسم هذا المؤلف كاملاً وهو : « أخبار للدولة العامرية المنسوخة بالفتنة البربرية وما جرى فيها من الأحداث الشنيعة » كما ذكر لنا أنه يحتوي على أكثر من مائة سفر (أعمال الأعلام ص ٩٨) .

(٣) المعجب ص ٢١ .

إذا وافته المنية ضمت إلى أكفانه^١، ودفنت معه تنفيذاً لوصيته^(١).
ومما يؤثر عن علائق المنصور بجيشه ، أنه كان لقوة ذاكرته ، يعرف كثيراً
من جنده بالإسم ، أو يعرف على الأقل كثيراً ممن امتاز منهم خلال المعارك
بالإقدام والشجاعة ، ويدعوهم إلى مائدته في المآدب الكبيرة ، التي اعتاد أن يقيمها
لجنده عقب كل انتصار .

بيد أننا نستطيع أن نلاحظ بعد كل ذلك ، أن سياسة المنصور العسكرية
وغزواته المتوالية المظفرة ، وإن كانت في الأصل تنطوي على غاية عسكرية وسياسية
بعيدة المدى ، هي سحق اسبانيا النصرانية ، لم تؤت ثمارها إلا في حيز ضيق ، هو
ردع اسبانيا النصرانية ، وكف عدوانها عن الأراضي الإسلامية ، ولم تقصد بالفعل
إلى الغاية الحاسمة ، وهي القضاء على قوة اسبانيا النصرانية وسحقها بصورة نهائية ،
وهي غاية قصرت سياسة اسبانيا المسلمة عن العمل لها منذ البداية ، ومن ثم فقد
استطاعت الممالك الإسبانية النصرانية ، أن تعيش ، وأن تنمو قواها تبعاً ، وأن
تغدو بمضي الزمن ، مناوئاً خطراً لاسبانيا المسلمة ، يستغرق قواها باستمرار ،
ويشغلها في كفاح مدمر مستمر .

وهنا ، وعلى ضوء هذا الكفاح العقيم الذي استمر أجيالاً بين اسبانيا المسلمة
واسبانيا النصرانية ، لارى مندوحة ، من أن نحكم على سياسة الصوائف أو
الغزوات الإسلامية العارضة ، التي كانت تقليدياً عسكرياً إسلامياً ، في معظم
الدول الإسلامية المتاخمة للدول النصرانية ، فنقول إنها كانت من الناحية العسكرية
تقوم على أسلوب خاطئ ، وقد كانت تنهك الجيوش الإسلامية بقلد ما تنهك
جيوش العدو ، ولم يكن لها غاية محدودة مستقرة . وليس أدل على ذلك من
تاريخ الصوائف أو الغزوات الإسلامية الموسمية أيام الدولة العباسية في أراضي
الدولة البيزنطية ، فقد كان معظمها حملات غازية تقصد إلى العيث في أرض
العدو ، وإلى إحراز الغنائم المؤقتة الإقليمية وغيرها ، ولم تنجح في تحطيم قوى
الدولة البيزنطية أو سحقها . وقد كان عقم هذه الغزوات العارضة أشد وأوضح في
الأندلس ، حيث لبثت الدولة الأندلسية ، إبان قوتها وتفوقها ، عصوراً ، تقتصر
على الصوائف وما إليها من الغزوات الموسمية برسم الجهاد أو الانتقام من العدو ،

(١) البيان المغرب ج ٢ ص ٣١٠ ، والمعجب ص ٢١ .

وتنهك بذلك قوى الحيوش الإسلامية ومواردها بصورة مستمرة ، وذلك دون أن تحقق غاية ثابتة مستقرة ، أو توفق إلى القضاء على القوى الخصيمة بصورة حاسمة . ولقد اجتمعت لاسبانيا المسلمة في عصر المنصور أعظم القوى والموارد العسكرية التي اجتمعت لها في أى عصر سابق أو لاحق ، وكانت هذه القوى الزاخرة ، التي كان رائدها المنصور ، وهو أعظم شخصية سياسية وعسكرية ، أتيح لها أن تقود الأندلس ، وأن تسهر على مصابرها - كانت هذه القوى كفيلاً بسحق الممالك الإسبانية النصرانية لو أنها وجهت نحو هذه الغاية توجيهاً صائباً . ويقدر النقد الإسباني الحديث نفسه هذه الحقيقة ، فيقول لنا إن غزوات المنصور ، ودفعه حدود النصراني إلى ما وراء نهر دوبرة ، وافتتاحه لقلمرية وسمورة وليون وشتياق وكويانسا وشتيا منكش وأوسمة وبرشلونة ، دفع اسبانيا النصرانية إلى حافة الخراب تقريباً ، وقضى هذا البعث لقوة الإسلام على كل أمل في « الإسترداد » .^(١) La Reconquista .

ولكن غزوات المنصور على كثرتها ، وعلى ما أسبغ عليها من طابع النصر المستمر ، لم تخرج كثيراً عن حيز الصوائف والغزوات الإسلامية العارضة ، التي تحقق أية غاية مستقرة ثابتة .

وأما عن مقدرة المنصور في الإدارة والحكم ، فإن الكلام فيها - حرى بأن يطول ، فقد أبدى المنصور طوال حياته كفاية إدارية مدهشة ، وظهر في سائر المناصب التي أسندت إليه ، مذ تولى وكالة هشام ولى العهد ، فأمانة دارالسكة والخزانة ، ثم خطة الموارث ، فخطة القضاء ، ثم الشرطة ، فالإشراف على الحشم والخاص ؛ ظهر فيها جميعاً براعته وحصافته ، وحسن تصرفه ؛ ثم ظهرت هذه المقدرة على أتمها مذ ولى الحجابة ، واستأثر بسائر السلطات ، واحتمل فوق كاهله سائر المسؤوليات الكبرى . فقد غدا المنصور زعيم الأندلس ، وحاكمها الأوحد ، والمشرف على مصابرها في الحرب والسلام ؛ وقد أبدى المنصور في اضطلاع به بتلك المهمة العظيمة ، مقدرة فائقة ، لم ييدها أحد من أسلافه . فلم تر الأندلس من قبل استقراراً كالذي رأته في عهد المنصور ، ولم تتمتع قط بمثل ما تمتعت به في عهد المنصور ، من الأمن والطمأنينة والدعة . وكانت أيام المنصور بالأندلس كلها

أيام فخار وظفر ورخاء ورغد ، لم تعان خلالها من غزوات العدو المخربة ، ولم تصب فيها بأية هزيمة ذات شأن، ولم تضطرم فيها أية ثورة أو فتنة؛ وفيها ازدهرت الزراعة والتجارة والصناعة ، وزهت العلوم والآداب ، وعم الخصب والرخاء في جنبات الأندلس ، وفاضت خزائن قرطبة بالإموال ، ووصل محصل الجباية يومئذ إلى أربعة آلاف ألف دينار (أربعة ملايين) سوى رسوم الموارث ، وسوى مال السبي والغنائم ، وما ينتج من المصادرات وأمثالها مما لا يرجع إلى قانون . وكانت النفقات السلطانية تبلغ في الشهر نحو مائتي ألف دينار ، فاذا دخل شهر يونيه ، وحلت الصائفة ، تضاعفت النفقة بسبب الاستعداد للغزو ، ووصلت إلى خمسمائة ألف في الشهر أو أكثر (١).

وكانت حكومة المنصور تضم عدة من أقدر رجالات الأندلس في هذا العصر ما بين وزراء وكتاب . وكان من وزرائه ، أبو مروان عبد الملك بن شهيد ، ومحمد بن جهور ، وعيسى بن فطيس وأبو ، عبدالله بن عياش ، وأحمد بن محمد ابن حدير ، ومحمد بن حفص بن جابر ، وأحمد بن سعيد بن حزم والد الفيلسوف الشهير ، وكان من أقدر وزراء المنصور وآثرهم لديه ، وكان المنصور قد استوزره قبل سائر أصحابه في سنة ٣٨١ هـ ، وبلغ من ثقته به أن كان يستخلفه على المملكة في أوقات معينة ، ويعهد إليه بخاتمته ؛ والظاهر أنه لما بلغ ذروة النفوذ والسلطان ، شمخ بأنفه ، وبدرت منه بوادر الدالة والاعتداد ، فتغير عليه المنصور ، وأقصاه عن خدمة الوزارة ، وبعثه إلى كورة الغرب لينظر في شئونها ، ثم عاد بعد قليل فأعاده إلى حسن رأيه ، وردده إلى منصبه في الوزارة ، وكان ابن حزم من أكابر أهل العلم والبلاغة (٢) . وكان من كتاب المنصور عيسى بن سعيد القطاع ، وهو من أقدم كتابه ، وكان من أنصاره ومعاونيه منذ أيام الحكم ، فبلغ في ظله وتحت كنفه أرفع مكانة ، وكان فوق ذلك من أخصائه ورفاقه في مجالس أنسه ترتفع بينهما الكلفة ؛ وكان منهم ، أبو مروان عبد الملك بن إدريس الخولاني ، وخلف ابن حسين بن حيان والد المؤرخ ، وغيرهم . وكانت هذه الصفوة من الوزراء والكتاب ، الذين ينتمى معظمهم إلى أمر عريقة تعاقب أبتاؤها في الوزارة ، مثل آل شهيد ، وآل عبدة ، وآل جهور ، وآل فطيس ، وآل حدير وغيرهم ،

(١) أعمال الأعلام ص ١٩ .

(٢) كتاب «إتصاب الكتاب» لابن الأهار - مخطوط الإسكوريال - لوحة ٥٢ و ٥٤ .

من حلوا عهد الدولة الأموية ، وعملوا على توطيد دعائمها ، تعمل مع المنصور على تسيير دفة الحكم بمقدرة فائقة . وكان من هؤلاء الوزراء من يتصل بالمنصور برباط المودة الشخصية الوثيقة ، ويشاطره شغفه بالشعر والأدب ، ويغشى مجالس أنسه وشرابه ، مثل عبد الملك بن شهيد ، وأبي عبد الله بن عياش ، وعيسى ابن سعيد . هذا وكان ممن اشترك مع المنصور في الحجابة في بداية عهده ، بعد المصحفي ، جعفر بن علي بن حمدون الأندلسي ، والقائد غالب بن عبد الرحمن ، الذي جمع بين القيادة والحجابة حيناً ، وقد رأينا كيف لقي كل منهما مصرعه بعد ذلك على النحو الذي تقدم ذكره (١) .

• • •

ولم يخل انشغال المنصور طوال عهده بالغزو المستمر ، عن القيام بأعمال الإنشاء العظيمة . فقد أنشأ مدينة الزاهرة ، وقصورها المنيفة ، وحدائقها الغناء ، واتخذها كما تقدم مركزاً للإدارة والحكم . ثم ابتنى إلى جانبها منية جميلة ذات قصر وحدائق رائعة ، يرتادها للاستجمام والتنزه ، وسماها «بالعامرية» . وقد كان جمال هاتين الضاحيتين العامريتين ، مستقى للأوصاف الشعرية والنثرية الرائعة . ومما قيل في العامرية أبيات لعمر بن أبي الحباب أنشدها ، وقد دخل يوماً على المنصور بقصر المنية ، والروض قد تفتحت أزهاره :

لا يوم كالיום من أيامك الأول	بالعامرية ذات الماء والظلل
هاوؤها في جميع الدهر معتدل	طيباً وأن حل فصل غير معتدل
ما إن يبالي الذي يحتمل ساحتها	بالسعد ألا تحل الشمس بالحمل
كأنما غرست في ساعة وبدا الس	وسان من حينه فيها على عجل (٢)

وكان من أعظم وأجل أعمال المنصور زيادة المسجد الجامع . وكانت قرطبة قد اتسعت رقعتها اتساعاً عظيماً منذ أيام الناصر ، واضطرد هذا الاتساع في أيام المنصور حتى بلغت مبلغاً عظيماً ، وبلغت أرباض المدينة أعنى أحيائها يومئذ

(١) راجع في ذكر وزراء المنصور : البيان المغرب ج ٢ ص ٢٨٦ و ٢٨٧ و ٢٩٠ و ٢٩٩ ، وأعمال الأعلام ص ٧٠ و ٧٥ و ٨٠ ، ونفح الطيب ج ١ ص ٢٧٤ ، والذخيرة ، القسم الرابع ، المجلد الأول ص ١٧ و ٥٦ .

(٢) راجع بعض هذه القصائد والأوصاف في البيان المغرب ج ٢ ص ٢٩٦ و ٢٩٧ ، ونفح الطيب ج ١ ص ٢٧٢ و ٢٧٣ .

إحدى وعشرين ربيعاً « كل ربيع فيها يعد أكبر مدينة من مدائن الأندلس » .
وقد ذكر ابن الخطيب لنا أسماءها ومواقعها تفصيلاً ، وبلغ خندقها المحيط بها
ما عدا ناحية النهر سبعة وأربعين ألف وخمسمائة ذراع أى ستة عشر ميلاً (١) ،
وزاد سكانها فى نفس الوقت زيادة كبيرة ، ولاسيما منذ مقدم طوائف البربر
الكثيرة عليها ، فى بداية عهد المنصور ، وضافت رحبات المسجد الجامع برواده ،
ولا سيما فى أيام الجمع . فرأى المنصور أن يقيم للجامع من ناحيته الشرقية جناحاً
جديداً ، لأن ناحيته الغربية كانت متصلة بالقصور الملكية . وشرع فى إنشاء هذا
الجناح فى سنة ٣٨٧ هـ (٩٨٧ م) ، فأقيم بجذاء الجامع من شماله إلى جنوبه ، على
رقعة شاسعة تكاد تعدل مساحته الأصلية ، وروعت فى إنشائه البساطة والمتانة
قبل الزخرفة ، كما روعى التماثل والمطابقة للصرح القديم ؛ ونزعت من أجل
ذلك ملكية عدد كبير من الأماكن واللور ، حرص المنصور على أن ينصف
أصحابها فيها يستحقونه من ثمن أو معاوضة . وتضاعف حجم المسجد الجامع بهذه
الزيادة ، وأضحى يحتل رقعة عظيمة شاسعة تبلغ فى الطول مائة وثمانين متراً ،
وفى العرض مائة وخمسة وثلاثين متراً . وكان يشتغل فيه عدد كبير من الأسرى
النصارى ، الذين أخذوا فى مختلف المعارك . وكان المنصور يشترك بنفسه أحياناً
فى أعمال البناء . وبلغ عدد سواريه ما بين كبيرة وصغيرة ، ألف وأربعمائة وسبعة
عشرة ، وبنغت ثرياته ما بين صغيرة وكبيرة مائتان وثمانون ، وبلغ عدد المكلفين
بالخدمة به فى عهد المنصور ، ما بين أئمة ومقرئين وأمناء ومؤذنين وسدنة وغيرهم
مائة وخمسون شخصاً ، وكان الجامع وما حوله يعتبر وحده ربيعاً مستقلاً يتولاه
عريفه وحراسه على حدة (٢) . وما زال جناح المنصور بمسجد قرطبة الجامع حتى
اليوم ، قائماً بسائر رحابه وعقوده وسواريه ، وذلك بالرغم من تحويل عقوده
الجانبية إلى كنائس وهياكل ، ويعرفه الأثريون « بمسجد المنصور » (٣) .
وجدد المنصور قنطرة قرطبة القائمة على نهر الوادى الكبير ، وراء المسجد

(١) أعمال الأعلام ص ١٠٣ .

(٢) أعمال الأعلام ص ١٠٣ .

(٣) راجع فى زيادة المنصور للمسجد الجامع ، البيان المغرب ج ٢ ص ٣٠٦ - ٣٠٨ .

ونفح أنطيب ج ١ ص ٢٥٧ . وراجع كتابي « الآثار الأندلسية الباقية » حيث يوصف جامع قرطبة
بمجالته الحاضرة تفصيلاً الطبعة الثانية (ص ٢٠ - ٣١) .

الجامع ، وكانت في الأصل قنطرة رومانية ، فجددها السمع بن مالك أمير الأندلس ثم جاء المنصور فجددها ، وأعاد بناءها ، وذلك في سنة ٥٣٧٨ (٩٨٨ م) ، وتم بناؤها في سنة ونصف ، وبلغت النفقة عليها مائة وأربعين ألف دينار ، وعظم بها نفع القرطبيين .

وابتني المنصور كذلك قنطرة إستجة على نهر شنيل ، فرع الوادي الكبير ، واقتضى إنشاؤها كثيراً من الجهد والنفقة ، ولكنها حققت تسهيلات عظيمة ، في مواصلات قرطبة بالقواعد والولايات الغربية والجنوبية^(١) .

• • •

وكان المنصور ، على الرغم من صرامته ، وما لحق إليه لتوطيد حكمه من الوسائل المثيرة ، يتسم بصفات عديدة مؤثرة ؛ فقد كان جواداً وافر الجود والبذل ، يغدق صلته على من يستحقها من العاملين معه والمتصلين به ، وعلى الفقراء وذوي الحاجات ، وله في ذلك حكايات كثيرة .

وكان يفاخر بنشأته المتواضعة ، ويقلل من شأن نفسه . وذكر المؤرخ ابن حبان في كتابه في «أخبار الدولة العامية» عن والده خلف بن حبان كاتب المنصور ، أن المنصور لامه ذات يوم لأمر من الأمور ، فبدأ عليه الفزع ، فأشفق عليه المنصور وهدأ من روعه ، ثم خلا به بعد أيام وقال له : « رأيت من ذعرك ما استنكرت ، ومن وثق بالله برئ من الحول ، والقوة لله ، وإنما أنا آلة من آلاته أسطو بقدرته ، وأعمل عن إذنه ، ولا أملك لنفسي إلا ما أملك ، ... فطامن جأشك ، فإنما أنا ابن امرأة من تميم طالما تقوت بثمر غزلها ، أغدوبه إلى السوق ، وأنا أفرح الناس بمكانه ، ثم جاء من أمر الله ما تراه ، ومن أنا عند الله لولا عطى على المستضعف المظلوم ، وسيري لجهاد الطاغية»^(٢) .

وكان ورعاً ، شديد الإيمان واليقين ، يخشى ربه ، ويزدجر إذا ذكر الله وعقابه . وكانت هذه أعجب الخلال في رجل كالمنصور ، لم يعف عن سفك الدماء في سبيل تحقيق أطعاه . ولكنها حقيقة تنوه بها الرواية الإسلامية وتؤكددها ، ومن دلائلها أن المنصور ، كان يحمل معه في سائر غزواته وأسفاره مصحفاً

(١) البيان المغرب ج ٢ ص ٣٠٩ ، ونفح الطيب ج ١ ص ١٩١ ، وأعمال الأعلام ص ٧٦

(٢) إعتاب الكتاب لابن الأبار - مخطوط الإسكوريال - لوحة ٥٦ .

خطه بيده ، يقرأ فيه ويتبرك به في كل مناسبة^(١). وكذلك تنوه الرواية بعدالة المنصور ، وصرامته في إحقاق الحق ، والانتصاف لذوى المظالم . وقد أورد لنا صاحب البيان المغرب عدة أمثلة رفعت فيها الظلمات إلى المنصور ضد بعض أكابر خدمه وحاشيته ، ممن كانوا يظنون أن مراكزهم تحميهم من إجراء العدالة ، فأمر المنصور بالانتصاف منهم لذوى الظلمات . وكان يقرن بهذه الصفة ، خلة محمودة أخرى ، هي تذرعه بالحلم والصبر ، وضبط النفس في أمور كثيرة ، وذلك بالرغم مما كان عليه من الهيبة والرهبة والسلطان^(٢)؛ ولكن الرواية تنعى على المنصور خلة سيئة ، هي شغفه بمعاقرة الخمر ، وقد لازمته هذه الرذيلة طوال حياته ، ولم يقلع عنها إلا قبل وفاته بعامين . ويصف لنا ابن الخطيب كيف كان المنصور يصل في العمل يومه وليله ، وهو عاكف على الشراب ، في تلك الفقرة البليغة : « وكانت الجزالة والرجولة ثوبه الذي لم تخلعه ، إلى أن وصل إلى ربه ، والحزم والحذر شعاره الذي لم يفارقه طول حياته ، والنصب والسهو شأنه في يومه وليله ، لا يفضل لذة على تديره ، وحلاوة نبيه وأمره ، فينفذ الأمور ، والكأس تدور ، والجبال للطرب تمور »^(٣).

* * *

بقيت من خلال المنصور ناحية ربما كانت ألمع خلاله جميعاً ، وتلك هي الناحية العلمية .

نشأ المنصور حسياً رأياً في بيت علم وأدب ، ودرس وفقاً لتقاليد أسرته دراسة حسنة ، وبرع في الشريعة والأدب ، وكان حرياً به أن يتبوأ مكانه بين علماء عصره ، لولا أن شاءت الأقدار أن تدفع به إلى معترك السياسة والسلطان . على أن المنصور لبث بالرغم من مشاغل هذا المعترك السياسى الخضم ، يحتفظ طول حياته بشغفه بالعلم والأدب ، ويوثق صلاته بالعلماء والأدباء والشعراء ويؤثرهم بحبه وعطفه ، ويجمعهم حوله في أوقات فراغه وسويغات لهوة وأنسه ، ويساجلهم البحث والمناظرة ، ويطارحهم قرض الشعر ، ذلك لأن المنصور كان شاعراً أيضاً ، وله نظم حسن سوف نورد شيئاً منه .

(١) البيان المغرب ج ٢ ص ٣٠٩ و ٣١٠ ، وابن خلدون ج ٤ ص ١٤٧ .

(٢) البيان المغرب ج ٢ ص ٣١٠ - ٣١٢ ، والحلة السيرة ص ١٥١ .

(٣) البيان المغرب ج ٢ ص ٣١٠ ، وأعمال الأعلام ص ٧٥ .

وكان من أخص جلسائه الأدباء ، الكاتب البغدادي ، أبو العلا صاعد ابن الحسن . وكان قد وفد من المشرق على الأندلس سنة ٣٨٠ هـ ، والمنصور في أوج سلطانه ، فأراد المنصور أن يجعل منه قريناً لأبي على القالي ، الوafd من قبل على الناصر والحكم ، فقربه وأذن له أن يجلس بجامع مدينة الزاهرة ، يملى كتابه المسمى « بالفصوص » على أدباء قرطبة ، وهو كتاب في الآداب والأخبار والأشعار ، ولكن أدباء قرطبة أنكروا ما ورد فيه ، وكذبوه في كثير مما يلقيه ، وفضحوا كثيراً من سرقاته الأدبية والشعرية (١) . ومع ذلك فقد كان صاعد أديباً بارعاً ، خفيف الروح ، متوقد الذهن ، حاضر البديهة ، وكان يأتي بكثير من غريب الشعر بداهة ، فأعجب به المنصور ، وأولاه رعايته ، وألحقه بديوان الندماء ، وأجرى عليه راتباً حسناً ؛ وكان بهذا الديوان بعض أدباء العصر مثل زيادة الله بن مضر الطنبلي ، وابن العريف ، وابن التياني ، وغيرهم . وغدا صاعد شاعر المنصور ينظم له المدائح والظرف ، ويصطحبه المنصور في نزياته رياض الزاهرة ، وينظمه في مجالس أدبه وأنسه . وقد أورد لنا ابن بسام وصفاً مسهباً لهذه المجالس الأدبية ، التي يجتمع فيها المنصور بخلائه وندمائه ومنهم صاعد ، وأورد لنا كثيراً مما قيل فيها من النظم . وقد كان بعض الفتيان الصقالبة من بطانة المنصور ، يأخذ بقسط حسن من الشعر والأدب ، ويغشى مجالس المنصور الأدبية ويشترك في المطارحات الشعرية ، وكان من أشهرهم الفتي فاذن ، وكان من أبرع العارفين منهم باللغة والأدب . وقد كان للفتيان الصقالبة في الواقع تراث من الشعر والأدب ، واشتهروا بذلك أيام المنصور خاصة ، وأصدر أحدهم في ذلك كتاباً سماه « الإستظهار والمغالبة على من أنكروا فضل الصقالبة » ، ضمنه كثيراً من أشعارهم ونوادر أخبارهم (٢) .

ولبت صاعد على مكانته حتى وفاة المنصور ، ومن بعده حتى نهاية الدولة العامرية ، ثم أفل نجمه بعد ذلك ، وساءت أحواله عند ظهور الفتنة ، فغادر الأندلس متخفياً في سنة ٤٠٣ هـ ، وجاز البحر إلى صقلية ، واتصل بأبيها فأولاه رعايته ، وحسنت حاله ، وكانت وفاته بها في سنة ٤١٠ هـ .

(١) الصلة لابن بشكوال (طبعة القاهرة) رقم ٤٠ .

(٢) راجع للخيرة . القسم الرابع المجلد الأول ص ٧ - ٢٢ ، والمعجب ص ١٦ و ١٧ .

وكان للمنصور ، فضلاً عن مجالس الأدب والأنس العابرة ، مجلس أسبوعي يعقده للبحث والمناظرة ، ويشهده كثير من العلماء والأدباء^(١) . وكان في غزواته يستصحب بعض العلماء والأدباء من أصدقائه ، إذ كان شغف البحث والمناظرة ، يلازمه دائماً حتى في ميدان الحرب ؛ وإلى جانب هذا الشغف الشخصي بالحياة العقلية ، كان المنصور مولعاً بالعمل على نشر العلم والمعرفة بين طبقات الشعب ، فأنشأ كثيراً من دور العلم بقرطبة ، وبالغ في الإنفاق عليها ، وكان يزور المدارس والمساجد ، ويجالس الطلاب أحياناً ، ويمنح المكافآت النفيسة لمن يستحقها .

وإلى جانب هذا الشغف بالآداب والعلوم ونشر الحياة العقلية ، كان المنصور يشغف أيضاً بجمع الكتب ، وكان أكابر المؤلفين يهدون إليه كتبهم ، على نحو ما كان متبعاً أيام الحكم ، ومن ذلك أن صاعداً البغدادي أهدى إليه كتاب « الفصوص » المتقدم ذكره ، فأثابه عنه بمخمسة مائة دينار^(٢) .

وكان المنصور يمتق الفلسفة وما إليها ، ويرى أنها مخالفة للدين ، ويكره التنجيم والمنجمين ، وقد أمر بأن يستخرج من المكتبة الأموية العظيمة (مكتبة الحكم المستنصر) سائر كتب الفلاسفة والدهريين ، وأن تحرق بمحض من كبار العلماء ، وفي مقدمتهم أبو العباس بن ذكوان ، وأبو بكر الزبيدي ، والأصيلي وغيرهم ، وكان ذلك بلا ريب عملاً غير موفق ، وكان خسارة علمية فادحة . وينعى المستشرق سيمونيت على المنصور هذا التصرف ، فيقول : إنه إذا كان الحكم الثاني قد استطاع لنزعته العلمية والأدبية أن يحمي الفلاسفة ، فقد جاء المنصور من بعده فقام بحرق كتب الفلسفة التي كانت بمكتبة الحكم ، وذلك لكي يرضى الفقهاء واللاهية^(٣) . واشتد المنصور أيضاً في مطاردة المنجمين ، وبلغه أن أحدهم وهو محمد بن أبي جمعة ، يهجس في تنبؤاته بانقراض دولته ، فأمر بقطع لسانه وقتله ، فخرست ألسن المنجمين جميعاً^(٤) .

(١) راجع جذوة الاقتبس للحميدى ص ٧٣ ، والمعجب ص ٢٠ .

(٢) الصلة لابن بشكوال رقم ٤٠ .

(٣) Simonet : Historia de los Mozarabes de Espana ; p. 351

(٤) البيان المغرب ج ٣ ص ٣١٥ ، وأعمال الأعلام ص ٧٧ .

والمنصور شعر جيد ، نظمه في مختلف مناسبات حياته ، ومن ذلك قوله
في الفخر :

وخاطرت والحر الكريم يخاطر	رميت بنفسى هول كل عظيمة
وأسمر خطى وأبيض باتر	وما صاحبي إلا جنان مشيع
أسود تلاقيها أسود خوادر	وإني لزجاء الحيوش إلى الوغى
وفاخرت حتى لم أجد من أفاخر	فسدت بنفسى أهل كل سيادة
على ما بنى عبد المليك وعامر	وما شدت بنياناً ولكن زيادة
وأورثناها في القديم معافر	رفعنا العوالى بالعوالى مثلها
نفسه بفتح مصر والشام :	وقوله يتهدد الفاطميين بمصر ، ويمنى
حبا أن ترى الصفاء والمقامة	منع العين أن تنوق المناما
قد أدخلوا بالمشعرين الحراما	لى ديون بالشرق عند أناس
جعلوا دونها رقاباً وهاما	إن قضوها نالوا الأمانى وإلا
يبلغ النيل خطوها والشاما	عن قريب ترى خيول هشام

وأما عن نثر المنصور ، فقد رأينا أن نورد نموذجاً له ، وصيته لولده عبد الملك
حينما حضرته الوفاة ، وقد نقلها إلينا ابن حيان عن أبيه خلف بن حسين ،
وهذا نصها :

« يا بني : لست تجرد أنصح لك ، ولا أشفق عليك منى ، فلا تعدد بين وصيتي ،
فقد جردت لك رأى ورويتى ، على حين اجتماع من ذهنى ، فاجعلها مثالا بين
عينيك . وقد وطأت لك مهاد الدولة ، وعدلت لك طبقات أوليائها ، وغايرت
لك بين دخل المملكة وخرجها ، واستكثرت لك من أطعمتها وعددها ، وخلفت
لك جباية تزيد على ما ينوبك لحيشك ونفقتك ، فلا تطلق يدك فى الإنفاق ،
ولا تقيض لظلمة العمال ، فيختل أمرك سريعاً ، فكل سرف راجع إلى اختلال
لا محالة ، فاقصد فى أمرك جهدك ، واستثبت فيما يرفع أهل السعاية إليك ،
والرعية قد استقصيت لك تقويمها ، وأعظم منها أن تأمن البادرة ، وتسكن إلى
لبن الخنية . وصاحب القصر قد علمت مذهبه ، وأنه لا يأتيك من قبله شيء
تكرهه ، والآفة ممن يتولاه ويلتمس الوثوب باسمه ، فلا تم عن هذه الطائفة
جملة ، ولا ترفع عنها سوء ظن وتهمة ، وعاجل بها من خفته على أقل بادرة ، مع

قيامك بأسباب صاحب القصر على أتم وجه . فليس لك ولا لأصحابك شيء يقيكم الحنث في ميثم البيعة ، إلا ما تقيمه لوليها من هذه النفقة ، فأما الانفراد بالتدبير دونه ، مع ما بلوته من جهله وعجزه عنه ، فإنني أرجو أني وإياك منه في سعة ما تمسكنا بالكتاب والسنة . والمال المخزون عند والدتك ، هو ذخيرة مملكتك وعدة لحاجة تنزل بك ، فأقمه مقام الجارحة من جوارحك التي لا تبذلها إلا عند الشدة ، تخاف منها على سائر جسدك . ومادة الخراج غير منقطعة عنك بالحالة المعتدلة . وأخوك عبد الرحمن قد صيرت إليه في حياتي ما رجوت أني قد خرجت له فيه عن حقه من ميراثي ، وأخرجته عن ولاية الثغر ، لئلا يجد العدو مساعاً بينكما في خلاف وصيتي ، فيسرع ذلك في نقض أمري ، ويجلب الفاقة على دولتي . وقد كفتيك الحيرة فيه ، فأكفه الحيف منك عليه ، وكذلك سائر أهلك فيما صنعت فيهم ، بحسب مما قدرت به خلاصي من مال الله الذي في يدي . وخلافتك بعدى عليهم مما صرفته ، فلا تضع أمر جميعهم ، والحظهم بعيني فإنك أبوهم بعدى . فان انتقادت لك الأمور بالحضرة فهذا وجه العمل ، وسبيل السيرة ، وإن اعتاصت عليك ، فلا تلقين بيدك لإلقاء الأمة ، ولا تبطر بك وأصحابك السلامة ، فتنسوا مالكم في نفوس بني أمية وشيعتهم بقرطبة . فإن قاومت من توثب عليك منهم ، فلا تذهل عن الحزم فيهم ، وإن خفت الضعف فانتبذ بخاصتك وغلماك ، إلى بعض الأطراف التي حصنها لك ، واختبر غلك إن أنكرت يومك . وإياك أن تضع يدك في يد مرواني ما طاوعتك بنانك ، فإنني أعرف ذنبي إليهم .»

وهذه وصيته لغلمايه نقلها إلينا أيضاً ابن حيان عن أبيه :

«تنبهوا لأمركم واحفظوا نعمة الله عليكم ، في طاعة عبد الملك أخيكم ومولاكم ولا تغرنكم بوارق بني أمية ومواعيد من يطلب منهم شتاتكم ، وقلدروا ما في قلوبهم وقلوب شيعتهم بقرطبة من الحقد عليكم ، فليس يرأسكم بعدى أشفق عليكم من ولدي . وملاك أمركم أن تنسوا الأحقاد ، وأن تكون جماعتكم كرجل واحد ، فإنه لا يقل فيكم» (١) .

(١) نقل إلينا ابن بسام (عن ابن حيان) هذين النصين في الذخيرة . القسم الرابع المجلد الأول ص ٥٦ - ٥٨ . ونقلهما ابن الخطيب أيضاً في أعمال الأعلام ص ٨١ و ٨٢ .

وفي وصية المنصور لولده وغللانه ، برسم برنامج سياسته كلها ، وتبلو بالأخص نواحي توجسه وتخوفه ، فهو لم يكن يأمن جانب بني أمية قط ، وقد لبث يتوقع الشر منهم حتى وفاته . ثم توفي وهو يتوقع الشر منهم لبنيه ودولته ، وقد كان المنصور في ذلك صائب التقدير ، بعيد النظر .

* * *

هذا وأما علائق المنصور الدبلوماسية فإنه لم يتح له عقد الكثير منها ، ولم تقد إليه سفارات من ملوك النصارى على نحو ما حدث أيام الناصر والحكم المستنصر . ذلك لأن عهد المنصور كان كله عهد حروب مستمرة ، بين الأندلس وبين اسبانيا النصرانية ، ولم يقع بين الفريقين تهادن أو سلم طويل الأمد . وكل ما نستطيع أن نسجله من ذلك حادثان متشابهان ، أولهما قدوم برمودو الثاني ملك ليون إلى قرطبة في سنة ٩٨٥ م ، مستجيراً بالمنصور ليعاونه على مقاومة الأشراف الخارجين عليه وتوطيد عرشه . وقد أجابه المنصور إلى طلبه وبادر بمعونته . ومما هو جدير بالذكر أن برمودو قدم ابنته تريسا Teresa بعد ذلك إلى المنصور عروساً له ، فقبلها المنصور وتزوجها أو اتخذها سرية له (١) .

والثاني ، وهو من أشهر الحوادث الشائقة التي وقعت أيام المنصور ، هو مقدم سانشو غرسية ملك نافار على المنصور ، معتزلاً إليه ، لائثاً بعفوه ومهادنته ، والوجه الشائق في ذلك هو أن سانشو غرسية هذا كان صهراً للمنصور ، وكان تقريباً من المنصور ، واكتساباً لمودته قد قدم ابنته عروساً إليه (٩٨١ م) فتزوجها المنصور ، واعتنقت الإسلام ، وسميت باسم « عبدة » ، وكانت من أحظى نسائه لديه ، ورزق منها بولده عبد الرحمن الذي سمي أيضاً « شنجول » أو « سانشول » أي شانجه (سانشو) الصغير نسبة لجدده ملك نافار . ثم ساءت العلائق بين المنصور وصهره ، وتابع المنصور غزو نافار مرة بعد مرة ، حتى اضطر سانشو إلى طلب الصلح ، وسار إلى قرطبة مستصرخاً بالمنصور ولائثاً بعفوه . ووصل سانشو إلى قرطبة في الثالث من رجب سنة ٣٨٢ هـ (٤ سبتمبر سنة ٩٩٢ م) فسر المنصور بمقدمه سروراً عظيماً ، وبعث القواد والكبراء وطوائف الحند في موكب فخيم ، وعلى رأسهم ولده عبد الرحمن وهو طفل في مهده ، لاستقباله ومرافقته

إلى قصر الزاهرة ، فلما وقعت عين سانشو على حفيده ، ترجل وقبل يده ورجله ، ثم رافق الركب إلى الزاهرة ، وقد اصطف الحند على طول الطريق في صفوف كثيفة زاوية كاملة السلاح والعدة ، واصطف الوصفاء والصقالبة من باب القصر إلى الداخل صفيين . وسار سانشو ، وقد بهره كل ما رأى ، حتى وصل إلى مجلس المنصور في عصر ذلك اليوم ، وقد جلس المنصور في هيئة فخمة ، ومن حوله الوزراء وأعظم رجال الدولة ؛ فلما أبصره سانشو هوى إلى الأرض فقبلها مرات متوالية ، ثم قبل يدي المنصور ورجليه ، فأمره بالجلوس على كرسي مذهب خصص له ، ثم انصرف الناس واختلى الملك النصراني بالمنصور ، وأفضى كل إلى صاحبه بما أراد ، ثم خرج سانشو وفي أثره الخلع السلطانية ، وما انفص المجلس إلا عند دخول الليل .

وكان مقدم سانشو غرسية إلى قرطبة ، واستقباله بها ، من أيام الأندلس المشهودة ، وقد أعاد بروعته وما اقترن به من مغزى عميق بظفر الإسلام على أعدائه ، ذكرى أيام الناصر في وفود الملوك النصارى عليه ، ملتسين منه الصلح والمودة^(١) .

* * *

وقد أجمعت الرواية الإسلامية ، الأندلسية والمشرقية ، على الإشادة بخلال المنصور وبأبهر صفاته . وهي جميعاً سواء أوجزت القول أو أفاضت ، ثم عن عميق التقدير والإعجاب : ثم هي مع ذلك لم تغفل التنويه بالجوانب القائمة في تلك العبقرية الفذة ، على أنها على العموم أكثر ميلاً إلى إبراز محاسن المنصور ومواهبه ، والإشادة بما أسبغته على الأمة الأندلسية من ضروب العظمة والبهاء .

قال ابن الأثير يصف المنصور : « وكان شجاعاً ، قوى النفس ، حسن التدبير ، وكان عالماً محباً للعلماء ، يكثر مجالستهم وينظرهم ، وقد أكثر العلماء ذكر مناقبه ، وصفنوا لها تصانيف كثيرة »^(٢) . وقال ابن خلدون : « وكان ذا عقل ورأى وشجاعة ، وبصر بالحروب ، ودين متين »^(٣) . ويصفه الفتح ابن خاقان في «المطمح» في تلك العبارات الشعرية : « وكان أمضاهم (يعنى من

(١) أورد لنا ابن الخطيب في «أعمال الأعلام» وصفاً شائقاً لهذا الحادث . ص ٧٦٣ و٧٦٤ .

(٢) ابن الأثير ج ٩ ص ٦١ .

(٣) ابن خلدون - ٤ ص ١٤٧ .

تقدمه) وأذكارهم جنائناً ، وأتمهم جلالاً ، وأعظمهم استقلالاً . قام بتدبير الخلافة ، وأقعد من كان له فيها إنافة . وساس الأمور أحسن سياسة ، وداس الخطوب بأخشن دياسة ، فانتظمت له الممالك ، واتضحت به المسالك ، وانتشر الأمن في كل طريق ، واستشعر اليمن كل فريق . وملك الأندلس بضعاً وعشرين حجة ، لم تدحض لسعادتها حجة ، ولم تزخر لمكروه بها لجة ، وكانت أيامه أحمد أيام ، وسهام بأسه أشد سهام^(١) .

ويجمل ابن حيان حياة المنصور في تلك الفقرة : « وامثل رسم المتغلبين على سلطان ولد العباس بالمشرق من أمراء الديلم في عصره . فنال بغيته ، وهنأ معيشته ، وأورثه عقبه بعده ، عن غير اقتدار عليه ، بجند خاص ، ولا صيال بعشيرة ، ولا مكابرة بمال وعدة ، بل رمى الدولة من كنانها ، وعدا عليها بأعضادها ، وانتضلها بمشاقصها ، وأنفق على ضبطها أموالها وعددها ، حتى حولها إليه وسبكها في قلبه ، وسلخ رجالها برجاله ، وعنى رسومها بما أوضح من رسومه^(٢) . »

هذا ، وقد أشاد ابن الخطيب بخلال المنصور في مواطن وفقرات عديدة نقتطف منها ما يلي :

قال مشيراً إلى ولاية هشام : « فاستقر الأمر لهشام ، يكتفه الحاجب المنصور أسعد أهل الأندلس مولداً ، وأشهرهم بأساً ونداً ، وأبعدهم في حسن الذكر مداً ، الحازم العازم ، العظيم السياسة ، الشديد الصلابة ، القوى المنة ، الثبت الموقف ، معود الإقبال ، ومبلغ الآمال ، الذي صحبته أطفاف الله الحفوية في الأزمان ، واضطرده النصر العزيز في نحو سبع وخمسين من الغزوات ، ولم تفارقه السعادة حالي الحيا والممات . »

وقال : « فقد أجمع الشيخة أنه نهض بجهد لا كفاء له ، وأحسب سعداً لا نحس بخالطه ، وأعطى إقبالا لا إدبار معه ، قد وثق بذلك فلم يلتفت إلى غيره ... » وكان مهيباً وقوراً ، فإذا خلا كان أحسن الناس مجلساً ، وأبرهم بمن يحضر منادماً وموانساً ، وكان شديد القلق من التبسط عليه ، والدالة ، والامتنان ،

(١) نقله البيان المغرب ج ٢ ص ٢٩٢ ، والمقري في نفع الطيب ج ١ ص ١٨٩ .

(٢) نقله صاحب الذخيرة . القم الرابع المجلد الأول ص ٤٣ .

لا يغفرها زلة ، ولا يحلم عنها جريرة ، ولم يكن يسامح في نقصان الهيبة ، وحفظ الطاعة أحداً ، من ولد ولا ذى خاصة ، دعاه ذلك إلى قتل ولده عبد الله صبراً بالسيف بما هو معروف .

« وكانت الجزالة والرجولة ، ثوبه الذى لم يخلعه ، إلى أن وصل إلى ربه ، والحزم والحذر شعاره ، الذى لم يفارقه طول حياته ، والنصب والسهر شأنه في يومه وليله ، لا يفضل لذة على لذة تدبيره ، وحلاوة نهيته وأمره » (١) .

ولم يكن النقد الغربى أقل تقديرًا لعظمة المنصور ، وقد أشاد بعقريته ومواهبه كثير من المؤرخين والنقده الغربيين ، وهذه نماذج من أقوالهم :

قال المؤرخ الإسبانى اليسوعى ماسديه مشيراً إلى المنصور : « وكان سياسياً كبيراً ، وقائداً عظيماً ، فقد أخذ نار الثورات التى كانت تعصف بالمملكة ، واكتسب حب الشعب بجميع طبقاته ، وتفوق في شهرته وهيبته على أكبر القواد ، بما اجتمع في أحكامه من الصرامة واللين والقصاص والعفو ، وكان يهدم المدن التى تقاوم جيوشه ويبيدها ، ولكنه لم يسمح قط لجنده بأن تسيء معاملة مدينة سلمت طوعاً » (٢) .

ويقول المؤرخ الإسبانى المعاصر الأستاذ منديث بيدال معلقاً على عصر المنصور : « عاش الإسلام في اسبانيا أروع أيامه وأسطعها ، وانتهى نصارى الشمال إلى حالة دفاع كانت دائماً مقرونة بالحنن ، ولاح كأنهم لم يعيشوا إلا لتأدية الجزية والسلاح والأسرى والمجد للخلافة الأموية » (٣) .

ويلاحظ الأستاذ بيدال في نفس الوقت أن عقريته المنصور العسكرية والسياسية كانت من عوامل القضاء على الروح القومية النصرانية المستعربة ، وذلك لما أغدقه المنصور من عطفه ورعايته على كثير من النصارى والمستعربين (٤) .

ويختتم العلامة دوزى كلامه عن المنصور بالفقرة الآتية : « وعلى الحملة ، فإذا وجب أن نستنكر الوسائل التى لجأ إليها المنصور في اغتصاب السلطة ، فن

(١) راجع أعمال الأعلام ص ٥٨ و ٧٤ و ٧٥ .

J. F. Masdeu : Historia critica de Espana y de la Cultura Espanola (٢)

R. M. Pidal : La Espana del Cid, p. 72 (٣)

R. M. Pidal : Origenes del Espanol, p, 423 (٤) .

الواجب أيضاً أن نعتزف بأنه استخدمها بطريقة شريفة . وما كنا لنسرف في لومه لو أن القدر خلقه على أريكة العرش ، ولعله كان يعتبر عندئذ من أعظم الملوك الذين عرفهم التاريخ . ولكنه خلق في القرية ، واضطر لتحقيق أطماعه ، أن يشق لنفسه طريقاً تكتنفه آلاف الصعاب . ومن الأسف أنه من أجل تذليلها ، قلما راعى شرعية الوسطة . لقد كان المنصور رجلاً عظيماً من وجوه كثيرة ، ولكن يستحيل علينا ، متى رجعنا إلى مبادئ الأخلاق الخالدة أن نحبه ، ومن الصعب أن نعجب به « (١) .

الفصل الثالث

الممالك النصرانية الإسبانية خلال القرن العاشر الميلادي

نهوض اسبانيا النصرانية في عهد الفتنة الأندلسية . وفاة أردونيو الثاني . الحرب الأهلية في ليون . استقرار راميرو في الملك . ولاية قشتالة . جهادها في سبيل الاستقلال . الكونت فرنان كوثالث . ثورته ضد راميرو الثاني . هزيمته وأسرته . ثورة قشتالة . الإفراج عن الكونت . طاعته للملك ليون . استمراره في العمل لاستقلال قشتالة . وفاة راميرو . الحرب الأهلية بين ولديه أردونيو وسانشو . معارضة فرنان كوثالث لسانشو . انتصار أردونيو وفوزه بالملك . يعقد الصلح مع الناصر . وفاته وجلس سانشو . موقف فرنان كوثالث . اضطراب الأحوال في ليون . فرار سانشو وجلس أردونيو الرابع . التجاء سانشو وجدته طوطة إلى الناصر . سانشو يسترد العرش بمعونة الناصر . فكته لمهوده . فرنان كوثالث يعلن استقلال قشتالة . التجاء أردونيو إلى الحكم . اتحاد الأمراء النصرانية . غزو الحكم لقشتالة ونافار . اضطرابها لعقد الصلح . بداية الكفاح بين قشتالة والمملكة الإسلامية . الحكم يأذن بنقل رفات القديس بلايو . الثورة في جليقية . مصرع سانشو وجلس ولده راميرو . وفاة فرنان كوثالث وصفاته . وفود الأمراء النصرانية وسفاراتهم على قرطبة . عدوان النصرانية على أراضي المسلمين وردهم . النزاع بين راميرو وبرمودو على العرش . تدخل المنصور في ذلك . غزو المنصور لثفت ياقب . برمودو يلتمس الصلح . وفاته وجلس ولده ألفونسو . ملكة نافار . غرسية سانشيز وأمه طوطة . ولده سانشو غرسية . غزو المنصور لنافار . وفاة سانشو وجلس ولده غرسية سانشيز . ولده سانشو الكبير . عناصر المجتمع في اسبانيا النصرانية . طبقة الأشراف والفرسان والملوك والزراع الأحرار . طبقة الأرقاء . رقيق الضياع . التنظيم السياسي للمملكة النصرانية . السلطة الملكية . الأشراف . القضاء واشترك الأشراف في مزاولة . رجال الدين وسلطانهم الإقطاعي . مقارنة بين هذا النظام ونظام المملكة الإسلامية .

لما بلغت الثورات والفتن الداخلية بالأندلس ، ذروتها في النصف الأخير ، من القرن الثالث الهجري (التاسع الميلادي) ، فيما اصطلاح على تسميته بالفتنة الكبرى ، وبددت قوى الأندلس ومواردها في ذلك الصراع الداخلي المدمر ، أخذت اسبانيا النصرانية ، وقد أمنت شر الغزوات الإسلامية طوال هذه الفترة ، تنفس الصعداء ، فاشتد ساعدها ، ونمت مواردها ، وتوطدت حكوماتها . ولم تأت فاتحة القرن العاشر الميلادي ، حتى كانت مملكة ليون ، التي خلفت مملكة جليقية ، وبسطت سلطانها على ولاية قشتالة ، في أواسط اسبانيا الشمالية ، قد

بلغت مستوى من القوة والبأس ، يتيح لها أن تخوض مع المملكة الإسلامية صراعاً عنيفاً .

وقد رأينا كيف بلغ هذا الصراع ذروته في عهد الناصر ، وكيف أنه بالرغم مما حققه الناصر من إخماد الفتنة ، وإحياء قوة الأندلس ، استطاع النصارى بقيادة ملكهم أردونيو الثاني ، أن يحرزوا على المسلمين نصرهم الخطير ، في موقعة شنت إشتين في سنة ٩١٧ م .

وكانت موقعة شنت إشتين ، وما تلاها من تكرار غزو النصارى للأراضي الإسلامية ، نذراً خطيراً لحكومة قرطبة . ولكن وفاة أردونيو الثاني في سنة ٩٢٥ م وضع حداً مؤقتاً لتلك الفورة القومية ، التي جاشت بها إسبانيا النصرانية . ذلك أن أخاه وخلفه فرويلا ، لم يحكم سوى عام واحد ، ثم توفي ، فاضطرم النزاع على العرش بين سانشو وألفونسو ولدى أردونيو ، وانتهى بأن فاز ألفونسو بالعرش بمعاونة صهره وحبيه سانشو ملك نافار . ولكن سانشو لم ييأس ، فجمع جيشاً جديداً ، وتوج نفسه ملكاً في شنت ياقب في أقاصى جاليقية ، ثم زحف على ليون فحاصرها واستولى عليها ، وارتقى العرش مكان أخيه . فعاد ملك نافار إلى مؤازرة ألفونسو ومعاونته ، حتى استطاع أن يهزم أخاه ، وأن يستولى على مدينة ليون مرة أخرى . بيد أن أخاه سانشو لبث محتفظاً بجاليقية ، مصرأ على دعواه في الملك .

واستمرت الحرب الأهلية بين النصارى أعواماً ، وانتهى طورها الأول ، حينما توفي سانشو ابن أردونيو في سنة ٩٢٩ م ، واستقر الملك لأخيه ألفونسو الرابع دون منازع . ثم بدأ طورها الثاني في سنة ٩٣١ م ، ففي تلك السنة توفيت زوجة ألفونسو ، فحزن لفتقدها أيما حزن ، وغلب عليه اليأس والزهدي ، فتنازل عن العرش لأخيه راميرو ثاني ملوك ليون بهذا الإسم ، ولجأ إلى دير ساهاجون واعتنق الرهبانية ، ولكنه عافها بعد قليل ، فترك عزلة الدير ، ونادى بنفسه ملكاً في حصن شنت منكش **Simancas** ، وكان عمله في نظر الرهبان عاراً كبيراً ، فأثاروا عليه دعاية شديدة ، حتى اضطروا أن يعود إلى الرهبانية . وقد كان ألفونسو في الواقع « أميراً أصلح لقلنسوة الراهب منه لتاج الملك ، وأشد شغفاً بالقدس منه بميدان الحرب » ، ولكنه ما لبث أن انتهز فرصة مسير أخيه راميرو إلى نجدة

ثوار طليطلة ، فغادر الدبر ، وزحف في بعض أنصاره على مدينة ليون واستولى عليها ، فعاد راميرو مسرعاً ، وحاصر أخاه في ليون واستولى عليها ببلوره . ثم أراد أن يضع حداً لمساعي ألفونسو ومحاولته فسمّل عينيه ، وسمّل كذلك أعين أبناء عمه الثلاثة ، وهم أولاد فرويلا الذين اشتركوا في الثورة عليه .

ويعلق النقد الإسباني الحديث على تلك القسوة بقوله : « وإنه ليروعنا ذكرى العقوبة التي أنزلها راميرو الثاني بأخيه ألفونسو ، وبأبناء عمه الثلاثة ، وإنه لن يكنى مر القرون لهجو ذكرى عقوبة سمل العينين التي ورثت عن التشريع القوطي ، قبل أن نراها تطبق بكثرة من جانب ملوكنا نحو ذوى قرباهم » (١) .

وهكذا استقر الملك لراميرو بعد صراع عائلي عنيف . وكان راميرو الثاني أو رذمير كما تسميه الرواية الإسلامية ، ملكاً شجاعاً مقداماً ، نذر نفسه للكفاح ضد المسلمين ، ومقارعتهم بكل الوسائل ، فتارة يغير على الأراضي الإسلامية ، وتارة يحرّض الثوار على حكومة قرطبة ، أو يسير إلى إيجادهم بالفعل ، كما حدث حينما سار لمعاونة طليطلة على مقاومة الناصر (٩٣٠ م) ، وتارة يشتبك مع المسلمين في معارك طاحنة . وقد سبق أن فصلنا أدوار ذلك الصراع العنيف ، الذي اضطرم بين راميرو وبين الناصر ، والذي بلغ ذروته في موقعة الخندق المشثومة ، التي دارت فيها الدائرة على المسلمين ، تحت أسوار مدينة سمورة في سنة ٣٢٧ هـ (٩٣٩ م) .

١ - نشأة مملكة قشتالة

لم يكن اضطراب الأمور في مملكة ليون ، قاصراً على قسمها الغربي في جليقية ، حيث كان الزعماء (الكونتات) الحلالقة ، يثورون على العرش من آن لآخر ، بغية توطيد سلطانهم المحلي ، بل كان يشمل أيضاً قسمها الشرقي ، في منطقة قشتالة ، التي كانت تسمى يومئذ « بردوليا » ثم سميت فيما بعد « قشتالة Castilla » (٢) ، وذلك لكثرة الحصون التي كانت تقام بها . وكانت هذه المنطقة ، التي استحالت فيما بعد إلى مملكة قشتالة ، تمتد شرقاً حتى هضاب نافار ، ومن

١- M. Latuente : Historia general de Espana (Barcelona 1889) T. II.p.360

٢) كلمة Castillo الإسبانية معناها الحصن . وقد كانت تسمى في الجغرافية العربية القلاع قبل

أن تنتظم إلى مملكة قشتالة . وتسمى بالإضافة إلى ولاية « ألبه » Alava « ألبه والقلاع » .

ولاية ريوخا جنوباً ، حتى الأراضي التي سميت فيما بعد أراجون وسورابي ، وكان سكانها الأصليون من البشكنس وأهل ألبه . وكان ملوك الحلالقة أو ملوك أوبييلو قد غزوها وأضافوها إلى أملاكهم ، وكانت عاصمتها يومئذ مدينة برغش . وأبدى زعماء قشتالة منذ البداية ، مقاومة عنيفة للملوك الحلالقة ، وبدلوا جهدهم للمحافظة على استقلالهم المحلي ، وثاروا بالفعل في عهد أردونيو الثاني في أوائل القرن العاشر . فحاربهم أردونيو وأخضعهم ، وقبض على كثير منهم وأعدمهم ، واضطر الباقون إلى الالتزام بطاعته ، وكانوا يتمتعون بسلطات محدودة تحت سلطان زعيم محلي ، مقره في « برغش » . وهو يخضع بدوره لملك ليون . ولكن هذا النظام المهين ، لم يرق لكونتات قشتالة ، فلبثوا يتحينون الفرص للثورة ، وتحقيق استقلالهم المنشود .

وعرضت هذه الفرصة ، وألفت قشتالة بطل ثورتها التحريرية ، في شخص زعيمها الكونت فرنان كونثال (وفي الرواية الإسلامية قرآن غنصالس) ، الذي غدت حياته مستقى للملاحم الشعرية ، والقصاص الإسباني في العصور الوسطى ، فحشد الكونت أنصاره وقواته ، وأعلن الحرب على راميرو الثاني ملك ليون ، وولد أردونيو ؛ وكان راميرو يومئذ في أوج قوته ، بعد انتصاره على المسلمين في موقعة الخندق ، فلم يلق مشقة في هزيمة الكونت وسحق قواته ، وأسر فرنان كونثال ، وزجه راميرو إلى ظلام السجن في مدينة ليون ، وعين لحكم قشتالة أسور فرناندز كونت موزون ، ثم عين بعد ذلك لحكمها ولده سانشو ، وأمره أن يعامل القشتاليين بالرفق والحسنى ؛ ولكن ذلك لم يخدم جذوة الوطنية القشتالية . ولبت القشتاليون مخلصين لأمرهم المأسور ، واستمروا في الثورة والقتال ، وزحفت جموعهم بالفعل على ليون ، فخشى راميرو العاقبة ، وأطلق سراح فرنان كونثال ، ولكن بشروط فادحة ، هي أن يقسم بين الطاعة لملك ليون ، وأن يتنازل عن كل أملاكه ، وأن يزوج ابنته أوراكا لأردونيو ولد راميرو الأكبر . وقبل فرنان كونثال هذه الشروط مرغماً . وظل أهل قشتالة على بغضهم لملك ليون ، وولائهم لأمرهم . وفقد راميرو بذلك عون الزعماء القشتاليين ومساهماتهم المخلصة في الدفاع عن البلاد ، واستطاع المسلمون خلال ذلك الإغارة مرراً على أراضي ليون والعيث فيها ، وقام الناصر بتجديد مدينة سالم ، نغر

الجلود بين أراضي قشتالة والأراضي الإسلامية ، وتحصينها (سنة ٩٤٦ م) .
واضطر راميرو أن يلتزم خطة الدفاع ، إزاء الغزوات الإسلامية المتوالية .
وكان فرنان كوثالث ، يعمل أثناء ذلك ، على توطيد مركزه ، وضم كونتيات
قشتالة كلها تحت لوائه ، ليجعل منها وحدة سياسية ، أو بالحري إمارة مستقلة ،
يغلو عرشها من بعده وراثياً في أسرته . وقد استطاع غير بعيد أن يحقق هذه
الغاية (١) .

٢ - مملكة ليون

وفي أوائل سنة ٩٥٠ م توفي راميرو الثاني ملك ليون ، فنشبت الحرب الأهلية
مرة أخرى بسبب وراثة العرش . وذلك أن راميرو ترك ولدين أولهم أردونيو ،
وهو ولد زوجه الأولى تاراسيا ، وسانشو وهو ولد زوجه الثانية أورাকা أخت
غرسية ملك نافار . فادعى أردونيو أنه أحق بالعرش باعتباره أكبر الأخوين ،
ولكن سانشونازعه في ذلك ، معتمداً على عون أخواله النافارين ، وجدته طوطة
ملكة نافار ، وكذلك على عون الكونت فرنان كوثالث وأهل قشتالة . وكان
الكونت غير ميال إلى معاونة أردونيو ، بالرغم من كونه زوج ابنته ، إذ كان قد
أرغم على تلك المصاهرة كما تقدم ، وقد آثر أن يقف إلى جانب سانشو ، إذ وعده
بأن يرد إليه أملاكه ، وأن يحقق أمانيه في الاستقلال ، ومن ثم فقد كان من
الطبيعي أن يعمل على إضعاف مملكة ليون لكي يدعم بذلك استقلاله . وهكذا
نشبت الحرب بين أردونيو وبين جيش متحد من قوات سانشو ، ونافار ،
وقشتالة . ولكن أردونيو هزم أعداءه ، وأخضع سائر الخارجين عليه واستقر
في العرش ، ورأى انتقاماً لخيانة فرنان كوثالث أن يطلق زوجه الملكة ابنة
الكونت ، وبذلك كفرت هذه الأميرة عن خصومة أبيها لمملكة ليون .

وانتهز المسلمون فرصة الحرب الأهلية ، فتوالت غزواتهم لأراضي ليون ؛
ومن جهة أخرى فقد كان أشرف ليون في تمرد مستمر على ملكهم ؛ وخشى
أردونيو العاقبة ، فبعث سفيراً إلى قرطبة في أوائل سنة ٩٥٥ م يطلب عقد الصلح مع
الناصر ، فأجابته الناصر إلى طلبه ، وبعث إليه سفيره محمد بن الحسين ، فعقد معه

R. M. Pidal : La Espana del Cid p. 70 ; Altamira : Hisroria de (١)

معاهدة صلح ، تعهد فيها أردونيو بأن يصلح بعض القلاع الواقعة على الحدود ، وأن يهدم البعض الآخر . ثم توفي أردونيو بعد ذلك بقليل ، وخلفه أخوه سانشو في الملك ؛ وكان أول ما عمل أن رفض تنفيذ المعاهدة التي عقدها أخوه مع الناصر ، فاضطر الناصر إلى إعلان الحرب ، وبعث حاكم طليطلة أحمد بن يعلى في الجيش إلى ليون ، فغزاها ، وتوغل في أراضيها ، واضطر سانشو أن يعقد الصلح ، وأن يقر ما سبق أن تعهد به أخوه . وبذلك استقرت علائق السلم بين الفريقين .

ومن جهة أخرى فإن فرنان كوثالث لم يتحول عن سياسة العداء نحو ليون ؛ وقد كان قبل أن يرتقي سانشو العرش ، يؤازره ويناصره ضد أخيه أردونيو ، فلما تولى أردونيو عرش ليون ، انقلب إلى خصومه وفقاً لسياسته الماثورة ضد ليون ، وكان يبغى في الوقت نفسه أن تعود ابنته أورাকা مطلقة أردونيو الثالث إلى العرش ، بعد أن تزوجت من ابن عمه الأمير أردونيو ، وقد عاونه القدر غير بعيد على تحقيق بغيته .

ذلك أن الأحوال ما لبثت أن ساءت في مملكة ليون ، فقد ثار الأشراف سانشو ونزعوه عن العرش ، واحتجوا لخلعه بهزيمته أمام المسلمين في بعض المعارك التي خاضها ، وبأن بدائته الفائقة تمنعه من ركوب الخيل ، ومن تولى القيادة ، ففر سانشو إلى بنبلونة ، إلى جانب جدته طوطة ملكة نافار ، وقام الأشراف في ليون وقتالة ، باختيار ملك جديد هو أردونيو الرابع ، وهو ابن ألفونسو الرابع ، عم الملك المخلوع وصهر الكونت فرنان كوثالث ، وكان أحداً ديماسي الخلال ، حتى لقب بالردىء *El Malo* . ولجأ سانشو إلى عون الناصر ، فأرسل إليه طبيباً يهودياً من قرطبة ، يتولى علاجه من بدائته ؛ وفي سنة ٩٥٨ م (٣٤٧ هـ) قصدت طوطة إلى قرطبة ، ومعها ولدها الفتى غرسية سانشيز ، الذي كانت تحكم نافار باسمه ، وسانشو ملك ليون المخلوع ، فاستقبلهم الناصر استقبالا حافلا ، وعقد السلم مع طوطة ، وأقر ولدها ملكاً على نافار ، ووعد سانشو بالعون على استرداد عرشه ، وذلك مقابل تعهده بأن يسلم للمسلمين ، بعض الحصون الواقعة على الحدود ، وأن يهدم البعض الآخر ؛ ثم أمده الناصر بالمال والحند ، فغزا ليون ، وغزا النافاريون في الوقت نفسه ولاية قشتالة من ناحية الشرق ، وانتهت هذه الحرب الأهلية الحديدية ، بانتصار سانشو وجلوسه على العرش مرة أخرى ، وفر أردونيو إلى برغش ٥

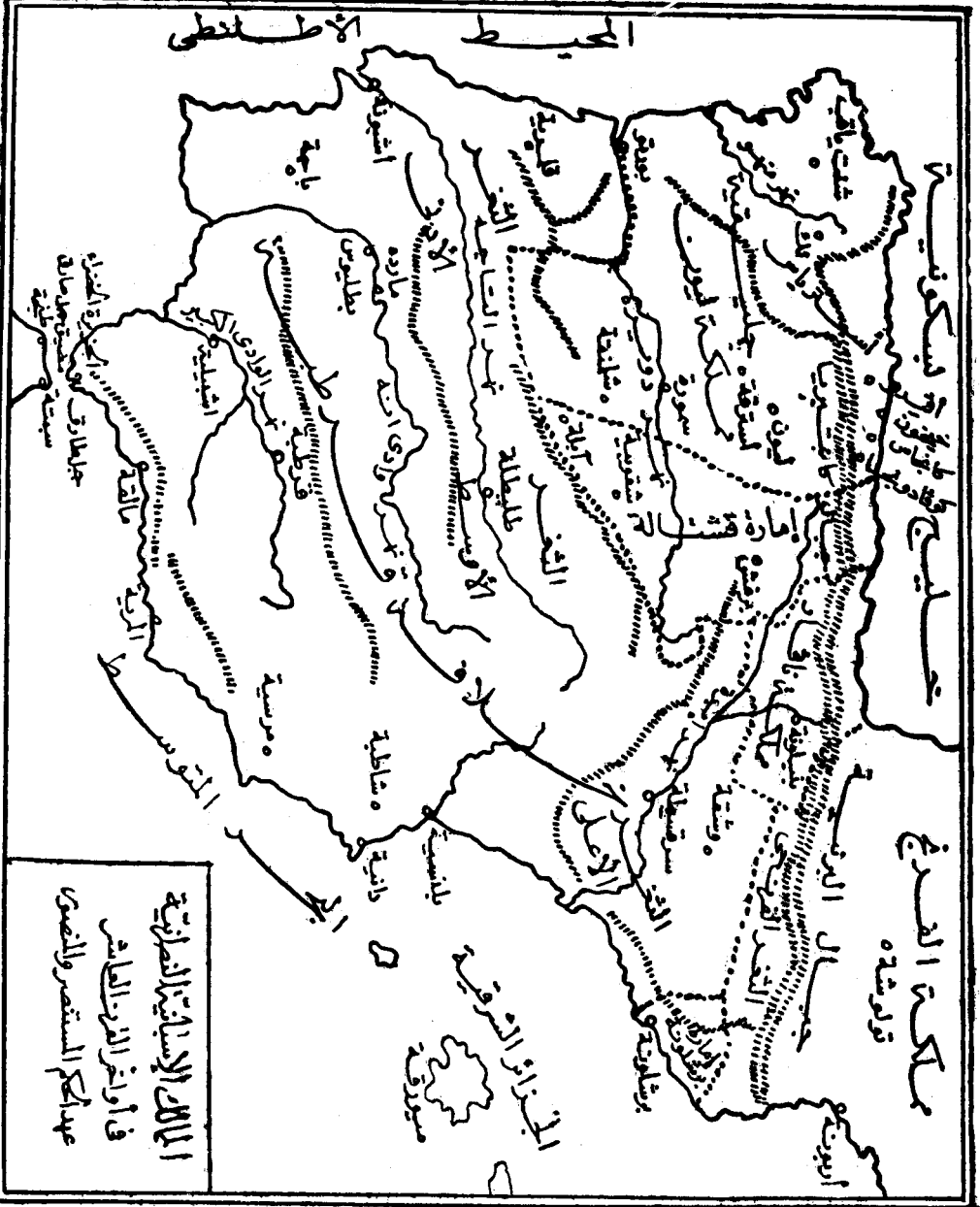
ولكن سانشو نكث بعهده للمسلمين ، وأبى تنفيذ ما تعهد به ، ثم توفي الناصر بعد ذلك بقليل ، ولزمت ليون ونافار السكينة حيناً . ولكن فرنان كونثال اتجه وجهة أخرى . وكان قد انتهز فرصة الحرب الأهلية ، وأعلن استقلال قشتالة ، ونصب نفسه أميراً مستقلاً عليها ، وأخذ يسعى إلى توسيع أملاكه بالإغارة على الأراضي الإسلامية . وكان يرى في نزول ميدان الكفاح ضد المسلمين ، وسيلة لتدعيم هيئته في نفوس النصارى المتعصبين ، فأخذ يغير على الأراضي الإسلامية مرة بعد أخرى .

وكان فرنان كونثال ، على قول المؤرخ الإسباني « ذا عبقرية تمازجها الغطرسة ، وروح تمازجها العجرفة ، معتداً بنفسه ، وعالملاً بما يمكن أن يجنيه من قلبه وساعده ، محباً للاستقلال ، تملؤه فكرة تحرير بلاده قشتالة من نير ليون ، وأن يقيم لها سيادة خاصة » (١) .

وقد رأينا فيما تقدم ، كيف لجأ أردونيو الرابع ملك ليون، المخلوع إلى الحكم ، وكيف استقبله الخليفة بقصر الزهراء في حفل مشهود ، ووعدته بأن يعاونه على استرداد عرشه ، لقاء عهود قطعها على نفسه ، وكيف خشى سانشو عاقبة هذا المنعى ، فبعث إلى الحكم يعرض عليه أن يعترف بطاعته ، وأن ينفذ ما تعهد به للناصر ، وكيف عاد بعد ذلك إلى نكته السابق حينما توفي خصمه أردونيو .

وعندئذ لم يجد الحكم بدأ من الحرب ، ولم يجد الأمراء النصارى بدأ من الاتحاد . وقد فصلنا فيما تقدم كيف اجتاحت الجيوش الإسلامية ، أراضي قشتالة ، ومزقت جيوش أميرها فرنان كونثال ، في موقعة شنت لإشتين ، وأرغمته هو وحليفه سانشو ملك ليون على طلب الصلح ، وكيف اجتاحت غربي نافار عقاباً لأميرها غرسية سانشير على نكته ، وإغارته على أراضي المسلمين ، وكيف توالى غزوات المسلمين لأراضي قشتالة ، ما بين سنتي ٩٦٣ ، و ٩٦٧ م .

وهنا نقف قليلاً أمام تلك الحقيقة التاريخية الهامة ، وهي أننا نجد قشتالة إحدى ولايات مملكة ليون القديمة ، تحارب المسلمين لأول مرة كإمارة مستقلة . ومن ذلك التاريخ تحتل قشتالة مكانتها في تاريخ الكفاح ، بين إسبانيا النصرانية



واسبانيا المسلمة ، وتغلبوا بالرغم من نشأتها المتواضعة شيئاً فشيئاً ، أعظم الممالك النصرانية رقعة ، وأوفرها قوة ومنعة ، وأشدّها مراساً في محاربة المسلمين ، وإنهاك قوى المملكة الإسلامية .

واستمر سانشو حيناً يحكم في ظروف صعبة من جراء ثورات الزعماء والأشراف الخارجين عليه ، وكان بعد أن عقد الصلح مع الحكم ، قد أرسل إليه تحقيقاً لرغبة زوجته تريسا ، وأخته الراهبة البيرة ، سفارة يطلب إليه الإذن بنقل رفات القديس بلايو إلى ليون . وكان نصارى قرطبة قد عنوا بنقل رفات هذا القديس من الوادى الكبير ، فأجاب الخليفة سؤله ، ونقلت الرفات في العام التالى في حفل فخم ، وأودعت ليون بكنيسة خاصة أقامها الملك ، وسماها دير سان بلايو . ولم يحضر سانشو هذا الحفل لانشغاله بمقاومة الخوارج عليه . وكان من أشد خصومه والمحرضين عليه الحبر سسانلو أسقف شنت ياقب ؛ وكان هذا الأسقف قد حصن مدينته وقصره الأسقفى ، بحجة حمايتها وحماية مزار القديس ياقب من غارات النورمان ، ولكنه أعلن العصيان ، وعبثاً حاول سانشو استرضاءه ، بيد أنه اضطر أخيراً أن يفتح مدينته للملك حينما رأى فشل الزعماء الخارجين في مقاومته .

وكان بين الزعماء الخارجين عليه من الأشراف وأشدّهم مراساً ، الكونت جونديسالفو (غندشلب) سانشيز حاكم جليقية ، وكان قد استطاع أن يوطد استقلاله في المنطقة الواقعة بين نهري منيو ودويرة ، وأن يبسط حكمه على لاميجو وبازو وقلمرية ، الواقعة فيما وراء دويرة شمالي ولاية البرتغال ، فسار سانشو لقتاله ، ولكنه حينما عبر نهر منيو بقواته ، ألقى رسل الزعيم الثائر يعرضون عليه التسليم والطاعة ، مع رجاء واحد فقط هو أن يأذن الملك بمقابلة الكونت ، فقبل سانشو . وكان الكونت قد دبر مشروعاً دنيئاً لاغتياله . فدعاها إلى مأدبة أقامها وقدم إليه فاكهة مسمومة تناولها سانشو دون أن يخامرهم الريب ، وسرعان ما شعر يديب الموت يسرى إلى أحشائه ، فحمل في الحال إلى ليون وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة ، ودفن بها تحقيقاً لرغبته . وكان ذلك في سنة ٩٦٦ م (١) .

وهكذا توفي سانشو ملك ليون مسموماً ، بعد أن حكم اثنتى عشرة سنة ، فخلفه والده راميرو الثالث ، طفلاً في الخامسة من عمره تحت وصاية عمته الراهبة

البيرة . ولكن معظم الأشراف أبوا الاعتراف بسلطانه . ونشبت في ليون طائفة من الثورات المحلية ، ولاسيما في ولايات جليقية ، وحاول كثير من الزعماء الأقوياء الانفصال عن العرش ، وتوطيد سلطانهم المحلي . وكان مثل فرنان كونثال في الاستقلال بولاية قشتالة ، أقوى مشجع لهم ، ولبتت أخطر حركة من ذلك النوع ، هي ثورة جوندسالغو سانشير (قاتل مليكه) حيث استمر على استقلاله بحكم المنطقة الواقعة بين نهري منيو ودويرة ، وحكم القواعد الثلاثة الهامة لاميغو وبازو وقليرية ، الواقعة فيما وراء نهر دويرة .

وفي خلال ذلك ، توفي الكونت فرنان كونثال أمير قشتالة في سنة ٩٧٠ م وخلفه في الإمارة ولده غرسية فرناندز ، كما توفي غرسية سانشير ملك ناغار وخلفه ولده سانشو غرسية الثاني .

ويعلق المؤرخ لافونتي على عمل فرنان كونثال مؤسس استقلال قشتالة وسياسته بقوله : « إن جميع الوسائل التي تدرع بها الكونت لتحقيق غايته لا تبدو مستحسنة في نظرنا ، فإن معاملته للملك ليون راميرو الثاني ، وأردونيو الثالث ، وسانشو الأول ، وأردونيو الرديء ، وكذلك معاملته لغرسية ملك ناغار ، حليفاً وخصماً بالتوالي لهؤلاء وهؤلاء ، وساعياً في تولية وعزل هؤلاء وهؤلاء ، ومقسماً للولاء وناقضاً له ، ولقد كانت مقتضيات السياسة وملاساتها في صالحه ، وإن كان ذلك لا يطابق حكم الأخلاق الصارم . بيد أننا نلاحظ أنه من مفاخر الكونت أنه لم يحالف المسلمين قط ، ولم يتهاون قط مع أعداء وطنه أو دينه . أما عن بدء عهد استقلال قشتالة ، فيمكن أن نضعه في منتصف القرن العاشر (الميلادي) ، وهو الوقت الذي رأينا فيه الكونت يعمل لحسابه دون خضوع للملك ليون » (١).

وأدركت الممالك النصرانية يومئذ ، وفي مقدمتها مملكة ليون ، التي شغلت محوادثها الداخلية ، أنه لا مجال للعدوان على أراضي الساميين ، ولزمت السكينة حيناً .

واتجه الملوك والأمراء النصراني إلى تحسين علاقتهم مع بلاط قرطبة ، فتوالت زيارتهم وسفاراتهم على الحكم ، يسألون الصلح والمهادنة . وكان من الوافدين بأنفسهم على قرطبة أمير جليقية ، والراهبة إلبيرة الوصية على عرش ليون . وقد فصلنا من قبل قصة هذه الزيارات والسفارات في موضعها .

ولما توفى الحكم المستنصر ، وشغل المسلمون بعض الوقت بشؤونهم الداخلية ، اعتقد النصارى أن الفرصة قد عرضت مرة أخرى لغزو أراضي المسلمين ، فأغار القشتاليون على الأراضي الإسلامية ، وتوغلوا فيها جنوباً وعاثوا فيها ؛ وهنا نهض محمد بن أبي عامر لرد عدوانهم ، فغزا أراضي قشتالة في أوائل سنة ٩٧٧ م (٣٦٦ هـ) ثم غزاها ثانية ، واقتحم مدينة شلمنقة في العام التالي . وبدأت بذلك سلسلة الغزوات الشهيرة المتوالية ، التي شهرها المنصور بن أبي عامر ، على الممالك الإسبانية النصرانية ، واستغرقت طيلة حياته ، والتي فصلنا أخبارها فيما تقدم .

ونستطيع أن نشير هنا فيما يتعلق بمملكة ليون ، إلى ما وقع من إقدام راميرو الثالث ملك ليون ، على معاونة القائد غالب الناصري ببعض قواته ، في حربه مع المنصور ، فلما سار المنصور بعد ذلك لمحاربة راميرو ومعاقبته على هذا التحدي ، استغاث راميرو بغرسية فرناندز أمير قشتالة ، وسانشو غرسية ملك نافار ، فسار المنصور ، لمقاتلة القوات النصرانية المتحدة ، وهزمها في موقعة شنت منكش في سنة ٩٨١ م (٣٧١ هـ) .

وعلى أثر ذلك ، رأى أشراف ليون ، أن راميرو لم يعد صالحاً لحكم المملكة ، فقررُوا خلعهُ ، وتولية ابن عمه برمودو ملكاً عليهم (٩٨٢ م) . ولكن راميرو لم يذعن لهذا القرار ، فجمع أنصاره واستعد للحرب ، واضطرت بين برمودو وراميرو حرب أهلية ، انتهت بهزيمة راميرو ، وفراره إلى مدينة أستورقة ، وامتناعه بها . وحاول راميرو بعد ذلك ، أن يلجأ إلى المنصور ، وأن يستمد عونه لاسترداد عرشه . ولكنه توفى بعد ذلك بقليل ، وتخلص برمودو بذلك من منافسته .

بيد أن برمودو ، لم يشعر مع ذلك بالطمأنينة . فقد لبث فريق كبير من الأشراف على معارضتهم لحكمه ، ولبث النضال الداخلي مؤذناً بالخطر . وعندئذ قرر برمودو أن يلجأ إلى المنصور ، فالتمس منه التأييد والعون ، على أن يعترف بطاعته ، فأجابه المنصور إلى طلبه ، وبعث إليه بقوة من جنده ، حلت بمدينة ليون عاصمة المماكة ، وبذلك أصبحت ليون مملكة تابعة تؤدى الجزية ، ولكن برمودو حينما شعر بتوطد مركزه ، واشتداد ساعده ، قرر أن يتخلص

من نير المنصور ، فهاجم الحامية الإسلامية ، واستخلص مدينة ليون من يدها ٥
فهبض المنصور محاربتة ، وسار إلى مدينة ليون فاقتحمها وخرّبها ، ومزق قوى
النصارى ، ثم استمر يغزو أراضي ليون تباعاً ، ويوقع الهزائم المتوالية برمودو ،
حتى اضطر برمودو إلى طلب الصلح ، والعودة إلى الاعتراف بالطاعة (٩٩٥ م) ،
وقد رأينا كيف سار المنصور بعد ذلك ، إلى غزو مدينة شنت ياقب عاصمة
إسبانيا النصرانية الروحية (٩٩٧ م) ، وكيف انضم إليه في تلك الغزوة معظم
أشراف جليقية . وعندئذ لم ير برمودو مناصباً في النهاية ، من العود إلى التماس
الصلح ، والاعتراف بالطاعة ، ونبذ كل مقاومة . فأجابه المنصور إلى طلبه .
وعاش برمودو بعد ذلك عامين آخرين ، قضاهما في إصلاح الكنائس والأديار
والقلاع ، التي هدمت خلال الحرب . ثم توفي سنة ٩٩٩ م ، فخلفه ولده ألفونسو
الخامس طفلاً . وقام بالوصاية عايه الكونت منديث كونثالث أحد أشراف
المملكة (١) .

٣ - مملكة نافار

أشرنا فيما تقدم إلى نشأة مملكة نافار المستقلة ، في أواخر القرن التاسع الميلادي ،
وكيف تولى عرشها سانشو غرسية (الأول) ، عقب اعتزال أخيه فرتون الملك في
سنة ٩٠٥ م . وقد عمل سانشو على توسيع أطراف مملكته الصغيرة ، واستطاع
أن يدفع حدودها جنوباً حتى ناجرة ، وخاض مع المسلمين حروباً عديدة ، أيام
الأمير عبد الله ، وفي أوائل عهد الناصر . وقد غزا الناصر نافار سنة ٩٢٠ م ،
ثم بعد ذلك في صائفة ٩٢٤ م ، ودخل عاصمتها بنبلونة وخرّبها ، وسحق قوى
نافار ، وقضى على كل مقاومة من جانبها وكل نزعة للعدوان .

ولما توفي سانشو في سنة ٩١٦ م ، خلفه ولده غرسية سانشيز طفلاً ، وحكم
أولاً تحت وصاية عمه خمينو غرسيس ، ثم بعد ذلك تحت وصاية أمه الملكة طوطة ،
التي لبثت تحكم باسمه طويلاً ، حتى بعد أن بلغ سن الفتوة والنضج . وكانت نافار
خلال ذلك ترتبط برباط المصاهرة ، مع المملكتين النصرانيتين الآخرين . فقد
كان أردونيو الثالث ملك ليون متزوجاً من أورাকা ابنة الملكة طوطة وأخت
غرسية . وكان فرنان كونثالث كونت قشتالة متزوجاً من ابنة أخرى لطوطة هي

(١) ابن خلدون ، ج ٤ ص ١٨١ ؛ وكذلك Altamira : ibid, Vol. I. p. 246

صانها : وكانت طوطة تحتل بذلك مقاماً ملحوظاً في الممالك الثلاث . ولما توفي
واميرو الثاني ملك ليون في سنة ٩٥٠ م ، واضطرت الحرب الأهلية حول وراثته
العرش بين ولديه أردونيو وسانشو ، وقفت نافار إلى جانب سانشو ، ولد الملكة
أوراكا النافارية ، ثم وقفت بعد ذلك إلى جانبه مرة أخرى ، بعد أن تولى العرش
عقب وفاة أخيه ، وقام أشرف ليون بخلعه ، ولجأت الملكة طوطة في معاونته
إلى الناصر حسباً تقدم .

ثم اضطربت العلاقات بين نافار وبين جارتها قشتالة ، ونشبت الحرب بينهما ،
فهزم الكونت فرنان كونثالث أمير قشتالة ، وأسرى في موقعة نشبت بين الفريقين
على مقربة من ناجرة ، واعتقل في نافار مدة طويلة ضعفت فيها شوكة قشتالة
ولزمت السكينة حيناً :

ولما توفي الناصر ، وتولى مكانه ولده الحكم المستنصر ، طالب ملك ليون
بتسليم الحصون التي تعهد بتسليمها إلى أبيه ، وطالب ملك نافار بأن يسلمه أسيره
فرنان كونثالث أمير قشتالة ، فرفض الملكان مطالب الحكم ، وأطلق غرسية
أسيره فرنان كونثالث ، فهرع إلى برغش عاصمته ، وقبض على صهره أردونيو
الرابع ، وأرسله مخفوراً إلى الحدود الإسلامية ، وهناك التجأ إلى القائد غالب
حاكم الثغر ، ثم سار معه إلى الحكم مستجيراً به ، واستقبله الحكم كما تقدم في
احتفال مشهود .

واستطال حكم غرسية سانثيز حتى سنة ٩٧٠ م ، واستمرت أمه الملكة
العجوز طوطة ، محتفظة بإشرافها عليه ، ومشاركتها الفعلية في الحكم ، حتى وفاتها
في سنة ٩٦٠ م .

ولما توفي غرسية سانثيز ، خلفه في عرش نافار ولده سانشو غرسية الثاني ،
وكانت مملكة نافار قد اتسعت رقعتها عندئذ ، وأصبحت تشمل عدا ولاية نافار
الأصلية ، ولايات كانتبريا ، وسوبرابي ، ورياجورسا ، ونمت مواردها وقواها
حتى أن سانشو لم يحجم عن الإغارة على الأراضي الإسلامية ، ورد المنصور على
هذه الجرأة ، فغزا نافار ، وتوغل فيها حتى اقتحم عاصمتها بنبلونة ، وذلك في
سنة ٩٨٧ م :

وخلف سانشو في الحكم ولده غرسية سانثيز الثالث ، فلم يدم حكمه سوى

خمسة أعوام ، وفي عهده غزا المنصور نفا مرة أخرى (٩٩٩ م) . ثم توفي غرسمية في العام التالي ، فخلفه ولده سانشو الثالث الملقب بالكبير .

٤ - عناصر المجتمع في اسبانيا النصرانية

سبق أن تحدثنا فيما تقدم عن عناصر المجتمع في اسبانيا المسلمة ، ويجدر بنا أن نتحدث هنا عن عناصر المجتمع في اسبانيا النصرانية .

لم يكن في اسبانيا النصرانية بعد الفتح الإسلامي ، ما يمكن أن يسمى بالحياة القومية العامة . وكانت كل ولاية أو مملكة ، تعيش وفق ظروفها ونظمها الخاصة ، وكان هذا التباين ذاته ، يقوم في الداخل ، ويتفاقم أحياناً بما يحدث إلى جانبه من خلافات أخرى ، تصيب النظم والحياة الإجتماعية .

وقد بقي تكوين المجتمع النصراني الإسباني عقب الفتح ، على ما كان عليه أيام القوط ، فكان يتكون من عنصرين رئيسيين ، هما الأحرار ، والعبيد ؛ وكان الأحرار وهم الذين يستطيعون التصرف في أشخاصهم ، والتنقل بحرية من مكان إلى آخر ، ينقسمون بدورهم إلى أشرف وعامة .

وكانت طبقة الأشراف ، تتكون أولاً من الحكام ومن خاصة الملك ، وتتوقف في تكوينها على الملك ، يمنحها الألقاب والأراضي والوظائف . ويلحق بهذه الطائفة كبار الملاك ، الذين يحصلون على أملاكهم سواء بالمرث أو الهبة . وكان للأشراف امتيازات كثيرة ، سواء بالنسبة لأشخاصهم أو أملاكهم ، فكانوا داخل أراضيهم سادة بكل معنى الكلمة ، لهم مطلق الحرية والتصرف ، بل كان لهم أن يتركوا خدمة الملك ، وأن ينتقلوا إلى مملكة أخرى ، إذا غضبوا منه لسبب من الأسباب . وكان من جراء ذلك ، أن كثيراً من الأشراف النصراني ، كانوا ينتقلون إلى الأراضي الإسلامية ، وينضوون تحت لواء الأمراء والخلفاء ، ويحاربون معهم ضد مواطنيهم وأبناء دينهم .

وكان هؤلاء الأشراف يعفون من الضرائب ، خلافاً لما كان عليه الأمراء في عهد القوط ، وكانوا ملزمين فقط بمساعدة الملك وقت الحرب ، فينتظمون مع أتباعهم في الجيش المحارب على نفقة الملك .

وكان يلحق بهذه الطبقة من الأشراف ، بعض طوائف أخرى أقل أهمية من الناحية الاجتماعية ، مثل الفرسان والمحاربين ، وهم الأشخاص الذين يستطيعون

أن يقتنوا لأنفسهم خيلاً وسلاحاً ، ليشتركوا في الحرب ، ثم يمنحون نظير هذا الاشتراك بعض الإمتيازات . وقد نمت هذه الطبقة فيما بعد . وكذلك كان ينتمى إلى الأشراف ، وينضوى تحت حمايتهم ، بعض الطوائف الميسورة ، مثل صغار الملاك ، وأصحاب الصناعات . ولم تكن هذه الحماية تقف عند الأشخاص أو الأسر المعينة فقط ، ولكنها كانت تشمل أحياناً بعض القرى والضيايع ، فينضوى أهل القرية أو الضيعة ، تحت حماية الشريف بشروط معينة ، وكان هؤلاء يقدمون جزءاً من أملاكهم إلى السيد المتولى حمايتهم ، ويؤدون إليه إتاوات معينة ، وأعطية شخصية . بيد أنهم كانوا في حل من تركه إذا قصر في حمايتهم ، والانضواء تحت حماية سيد آخر .

ويلحق أخيراً بهذه الطبقة الشعبية الزراع الأحرار ، وهم الأشخاص الأحرار الذين لا يملكون أرضاً ، ولكن يتلقون من الملاك أرضاً لزراعتها . وكذلك الأحرار الذين كانوا من قبل رقيقاً ، ثم وفقوا إلى تحقيق حرياتهم ، وكان هؤلاء عليهم أن يؤدوا إلى السيد أو المالك ضرائب وإتاوات عينية فادحة ، بيد أنه كان في وسعهم أن يتركوه متى شاءوا .

إلى جانب هذه الطبقات الحرة من المجتمع النصراني ، كانت توجد الطبقة المستعبدة أو طبقة الأرقاء ، وقد بقيت أحوالها على ما كانت عليه أيام القوط تقريباً . وكانت تتكون من عناصر عدة ، فهم عبيد الدولة ، وعبيد الملك ، وعبيد الكنيسة والأديار (عبيد رجال الدين) ، ثم عبيد الأفراد وعبيد الأرض المملحقين بها . وكان عبيد الأفراد على الأغلب من أسرى الحرب ، ومنهم الأسرى المسلمون . وقد استمرت هذه الطوائف من الرقيق ، قائمة حتى القرن الثاني عشر ، ثم اندمجت بعد ذلك في طائفة واحدة من الأرقاء ، هم رقيق الضيايع .

وكان رقيق الضيايع يعتبرون من مرافق الأرض ، وينتقلون معها بانتقال الملكية . وكانوا يزرعون الأرض على نفقتهم ، ويؤدون إلى السيد ، سواء أكان هو الملك ، أو الأشراف أو الكنيسة ، جزءاً من المحصول ، وإتاوات أخرى ، ويقدمون إلى جانب ذلك خدمات شخصية كثيرة ، مثل القيام بحرث أرض السيد ، أو ضم محاصيله وعصر نبيذه وزيته ، أو المعاونة في بناء داره ، وتنحصر حقوقهم في التمتع بالسكن ، والعيش في الضيعة . وكان بيع الضيعة يغدو في معظم

الأحيان بالنسبة لهم محنة أليمة ، إذ يفرق أحياناً بين الرجل وزوجه ، أو بينه وبين أولاده .

وكانت هذه الطبقة من الأرقاء تتكون من أبناء العبيد ، ومن المحكوم عليهم بالرق ، في قضية مدنية أو جنائية ، ومن أسرى الحرب ، وقد كانوا أسوأ طوائف الرقيق حظاً .

وكان تحرير الرقيق ، يقع إما بالعتق أو بالفرار أو الثورة . على أن ثورات العبيد كانت قليلة ، وكان الأغلب أن يظفر العبيد بحرياتهم ، في أعقاب الثورات التي يشتركون فيها . أما العتق فكان يجري وفقاً لتعاليم الكنيسة . على أن هذه الطائفة من المتحررين ، لم تكن تتمتع بكامل حقوق الطوائف الحرة الأخرى ، فكان السيد يحتفظ لنفسه أحياناً قبل المتوقين ببعض الخدمات أو الإتاوات .

وقد استمرت الطبقة الوسطى ، تنمو على كره الزمن ، بزيادة عدد المتوقين أو الأحرار الأصائل ، حتى إذا كان القرن العاشر ، كانت هذه الطبقة ، تكون الجزء الأعظم من السكان ، وتتمتع بظروف وأحوال أفضل بكثير مما كانت عليه من قبل (١) .

٥ - تنظيم السلطات السياسية

أما من حيث التنظيم الأساسي ، وتوزيع السلطات السياسية ، في الممالك الإسبانية النصرانية ، فقد كانت هذه السلطات موزعة ، بين ثلاث جهات رئيسية ، هي الملك ، والأشراف ، ورجال الدين .

وقد كان المفروض أن تكون السلطة الملكية ، هي أعلى السلطات وأشملها ، وقد كانت كذلك من الوجهة النظرية . فقد كان الملك ، هو رئيس الدولة الأعلى ، وله الولاية على كل فرد تضمه أرض المملكة . وكان الملك مصدر التشريع ، ومنه وباسمه تصدر القوانين العامة ، وكذا كان له حق الموافقة على القوانين المحلية ، التي يصدرها الأشراف بالنسبة للمتتمين إليهم ، وله أن يدعو رعاياه إلى الحرب ، وأن يرغمهم على الخدمة فيها ، وأن يصدر السكّة ، وأن يباشر العدالة . وهو الذي يعين الأساقفة ويقبلهم ، ويؤسس الكنائس والأديار ، وهو الذي يقود الجيش ، وعلى الحملة فهو الذي يتولى سائر الوظائف السياسية والعسكرية والدينية والمدنية .

على أن هذه السلطات لم تكن متساوية في جميع الأحوال والعصور ، وقد تعدلت بمضى الزمن ، وانتصت أطرافها ، أحياناً بطريق النزاع من جانب الملوك ، وبخاصة لأن الملك لم يكن يزاول هذه السلطات بطريق مباشر .

وكان الأشراف يتمتعون داخل أملاكهم ، بقدر كبير من الاستقلال ، ويسيطون حكمهم على طائفة كبيرة من الأراضي والقرى والضياح والحصون ، وكان السيد يعيش في حصنه ، وهو يقع عادة في موقع إستراتيجي حصين ، ويحيط به عدد من المساكن المحصنة ، ويخضع لسلطته ساكن المنطقة ، بعضهم كعبيد ، والبعض الآخر من المشمولين بحمايته . وكان يجبي منهم الضرائب ، والإتاوات العينية ، ويدعوهم للخدمة العسكرية متى دعاه الملك إلى الحرب ، ويأمر بالقضاء بينهم ، وله أن يوقع عليهم بعض الأحكام الجنائية التي تتصل بالقانون العام . وعلى الحملة فقد كان للشريف على سكان منطقته ، السيادة المطلقة ، وهو الذي يوزع بينهم مختلف المناصب والأعمال .

وأما القضاء قبل الأشراف أنفسهم ، فقد كان يزاوله بالنسبة للسيد ، أشراف من طبقته ، ولا يزاوله قضاء الملك ، لأنهم لم يكونوا من الأشراف . وكان للشريف أن يشهر الحرب على زملائه الأشراف ، إذا أصابه منهم حيف أو إهانة ، وله أن يترك خدمة الملك دون أن يخسر شيئاً من أملاكه ، بل كان له أن يشهر الثورة ضد الملك . ولم يكن يحسد من هذه السلطة ، التي يمنحها الملك إياه سوى أمرين ، الأول الحيانة ، وفي هذه الحالة مجرد الشريف من أملاكه وامتيازاته ، والثاني متى ضمت لأملاكه أراض جديدة ، فإنه لا يستطيع أن يبسط عليها سلطته وامتيازاته إلا بموافقة الملك .

وكان الأشراف يشاركون في مزاوله القضاء مشاركة فعلية ؛ فقد كانوا يؤلفون جزءاً من المحاكم العادية ، ويشتركون في تشكيل المحاكم الملكية كلما اجتمعت ، ويحتلون كذلك بعض المناصب الإدارية الهامة ؛ وكان لهذه المساهمة الخطيرة ، أثرها في إذكاء شهوتهم إلى الاستئثار بالسلطة ، وتوطيد استقلالهم المحلي ، وكثيراً ما كانوا يلجأون إلى الثورة ، لفرض إرادتهم على العرش ، أو يتدخلون في وراثة العرش بالقوة القاهرة .

ومع ذلك فقد كان الملوك ، يعمدون إلى الإغضاء في أحيان كثيرة ، ولو كان

فى ذلك إضرار بالسلطة الملكية . ذلك أن ضعف الملوكية ، وضرورات الحرب ، ثم الحاجة إلى معاونة الأشراف أيام الحرب الأهلية حول وراثة العرش ، كانت ترغم الملوك على التسامح ، بل وأحياناً على زيادة المنح والامتيازات للأشراف ، وذلك حرصاً على استتباب الأمن والسكينة ، إذ كان الأشراف فى تلك العصور قوة يخشى بأسها .

وقد كانت طائفة الأشراف هذه ، بالرغم من مركزها الاجتماعى الممتاز ، تنطوى على عيوب ومثالب كثيرة ، فقد كانت تجنح إلى استغلال الرعايا ، وانتزاع ما فى أيديهم ، بل وقد كانت ترتكب الجرائم جهاراً ، فتعمد إلى نهب التجار والمسافرين ، وكان الأشراف يقتتلون فيما بينهم للفوز بثمار هذه الجرائم . وقد استمر هذا النظام الإجرامى الحائر عصوراً ، بالرغم من تدخل الملك . والأساقفة ، لحفظ الأمن فى كثير من الأحيان .

وإلى جانب الأشراف ، كان رجال الدين من الأساقفة والرهبان ومن إليهم ، يتمتعون كذلك فى أراضيهم بسطان مستقل . وكان للكنايس والأديار أراض شاسعة خاصة ، ترجع إلى الهبات والندور وغيرها ، وفيها تزاول السلطة بطريق مطلق ، وفقاً لروح هذا العصر الإقطاعى . وكان لها أيضاً كثير من العبيد والزرايع تتمتع قبلهم كالأشراف ، بالحق فى تحصيل الحباية والمحاصيل وغيرها . وكان للملوك فى أحيان كثيرة يهبون بدافع الورع والحماسة الدينية ، إلى الكنايس والأديار ، رقاعاً شاسعة من الأرض ، فتبسط سلطانها على سكان المنطقة ، وتحصل منهم الإتاوات ، وتزاول بينهم القضاء . وكانت الكنايس والأديار ، تدفع هذه السلطات أحياناً إلى حدود مرهقة ، اجتناباً لافتتات الأشراف المجاورين . وكان رجال الدين ، على مثل الأشراف ، يلبون دعوة الملك إلى الحرب هم ورجالهم ، ويحشدون الصفوف من بين رعاياهم من الأحرار والزرايع والأرقاء ، أو يعهدون بذلك إلى رئيس من غير رجال الدين . والخلاصة أن الأساقفة والرهبان كانوا كالأشراف ، سادة بكل معانى الكلمة ، وكانوا يمتازون فى ذلك على الأشراف ، بأن كان الملك يصدر الوثائق والمراسيم المكتوبة بامتيازاتهم ، وكان يتبع الكنيسة أحياناً مناطق كثيفة من السكان ، كما كان الشأن فى شنت ياقب ، حيث قامت حول الكنيسة مدينة عظيمة ، صارت تابعة لها هى وما حولها من الأراضى الشاسعة .

وكانت سلطة الأسقف تتخذ في أحيان كثيرة صورة مطلقة في المدينة وفي الحقل ،
يزاولها على يد كوناتات وموظفين وغيرهم . وكان له جيشه أو جنده الخاص ،
يحمون أراضيه من الأجانب أو الأشراف المغيرين^(١) .
ونلاحظ أن هذا التنظيم السياسي ، الذي تطبعه روح إقطاعية عميقة ، والذي
ينطوى على توزيع السلطة بين مختلف الطوائف والعصبيات ، بصورة تجعل دولا
عديدة داخل الدولة ، يتنافى في جملته وتفصيله مع التنظيم السياسي للدولة الأندلسية
الإسلامية . فقد رأينا فيما تقدم ، كيف كان العرش يحرص منذ البداية على سلامة
السلطة المركزية ، وكيف بذل أمراء بني أمية ، منذ عبد الرحمن الداخل جهودهم ،
لإخماد النزعة القبلية ، وتحطيم رياستها ؛ ثم جاء الناصر فحطم العصبية العربية ،
وقضى على رياسة القبائل العربية بصورة نهائية ، واستخلص السلطة كلها للعرش ،
ولم يكن العرش يتسامح بعد ذلك ، مع أية رياسة محلية تنزع إلى الاستقلال ،
إلا ما كان بالنسبة لبعض الثغور النائية ، مثل طليطلة وسرقسطة ، وذلك لأسباب
عملية واستراتيجية .

الفضل الرابع

عبد الملك المظفر بالله

عبد الملك بن المنصور يتولى الحجابة وتديير المملكة . إشادة الرواية الإسلامية بعمده وبخلاله .
يحلوهلوا أبيه في سياسته نحو المغرب . يتابع سنته في الغزو . خروجه إلى الغزو ومسيره إلى الشفر
الأهل . صبه في أراضي برشلونة . عوده إلى قرطبة واستقبال هشام له . جلوسه في الزاهرة . سفارة
أمير برشلونة . إحتكام أميرى قشتالة وجليقية إليه . غضب سانشو غرسية وعدوانه . مسير عبد الملك
لغزو قشتالة . غزوه لمملكة ليون . غزوة بنبلونة . استقباله لسفير الفيصر في مدينة سالم . غزوة
قلونية أو غزاة النصر . إتحاذ عبد الملك لقب المظفر بالله . قصة هذا اللقب ومرسومه . استثنائه للغزو
واختراقه لقشتالة . الغزوة السابعة أو غزاة العلة . مرضه وتفرق جيشه . وفاته . ما قيل عن اغتياله
بالمم . موقفه من الخليفة هشام . إنهماكه في الشرب واعتماده على الغلمان والوزراء . الوزير عيسى
ابن القطاع . المنافسة بينه وبين الفتيان . تغلب الفتى طرفه واستنثاره بالسلطة . تدير عبد الملك عليه .
القبض عليه وإعدامه . ابن للقطاع يسترد نفوذه وسلطانه . كبرياؤه وتعصفه . الوقعة في حقه .
استظهار عبد الملك بالصقالبة والبربر . سخط الأسر العربية لذلك . تأمر ابن القطاع على إزالة بنى عامر .
وقوف عبد الملك على المؤامرة . بطشه بالوزير وأصحابه . استرداده لسائر
السلطات . صفات عبد الملك وخلاله .

لما توفي المنصور بن أبي عامر بمدينة سالم ، في السابع والعشرين من رمضان
سنة ٣٩٢ هـ ، بعد أن أتى إلى ولده عبد الملك ، وصيته ونصائحه الأخيرة ، بادر
عبد الملك بالعودة إلى قرطبة ، تاركاً لأخيه الأصغر عبد الرحمن ، أمر العناية بمواراة
أبيه ، والعودة بالجيش . وما كاد يصل إلى العاصمة ، حتى بادر بروية الخليفة
هشام المؤيد ، واستصدر منه المرسوم بتوليته الحجابة ، وجلس في الحكم مكان أبيه
بالزاهرة . وتلى نص المرسوم بالمسجد الجامع ، وأنفذ الكتب إلى الجهات ،
وإلى عدوة المغرب ، معرفة بوفاة المنصور وتولية ابنه عبد الملك تدير
المملكة مكانه . وكان لوفاة المنصور وقع عظيم بقرطبة ، فحزن الناس
لفقده أيا حزن ، وأدرك العقلاء أن رزءاً فادحاً نزل بالإسلام وبالأندلس .
واعتمد فريق من الفتيان الروانيين بالقصر ، وبعض الناقمين من العناصر الأخرى ،
أن الفرصة قد سنحت ، للتحرر من نير الحكم القائم ، والعود إلى النظام الخلافي ،
ولكن السلطات العامرية كانت ساهرة . فقبض في الحال على عدد من المحرضين ،

وأبعثوا إلى العلوة ، واستتب الأمر لعبد الملك ، دون ما جهد أو اضطراب ، واستقبل الناس حكمه بالاستبشار والرضى .

وكان عبد الملك ، حينما خلف أباه المنصور في الحكم ، في الثامنة والعشرين من عمره ، إذ كان مولده بقرطبة في سنة ٣٦٤ هـ ، ويكنى أبا مروان ويلقب بسيف الدولة وبالمظفر بالله ، وأمه حرة تدعى الذلفاء ؛ وقد رأينا كيف تمرس عبد الملك في شئون الحكم أيام أبيه ، وكيف تولى القيادة ، واشترك معه في كثير من غزواته ، ومن ثم فقد قبض عبد الملك على زمام الأمور بحزم وكفاية ، واعترم أن يسير على خطى أبيه ، سواء في تدبير الشئون الداخلية ، أو الاستمرار في غزو الممالك النصرانية .

وتشيد الرواية الإسلامية بعهد عبد الملك على قصره ، وما بلغته الأندلس فيه من الرخاء والنعماء ، وتقدمه إلينا في صور طيبة لامعة . فيقول لنا ابن حيان في قوة وحماة : « انصب منه الإقبال والتأييد على دولته انصباباً ، ما عهد مثله في دولة . وسكن الناس منه إلى عفاف ، ونزاهة ، ونقى سريرة ، ووثوق في بعد همته ، اطمأنوا بها إلى جنبه ، في السر والعلانية ، فباحوا بالنعم ، واستثاروا الكنوز ، وتناهوا في الأحوال ، وتناغوا في المكاسب ، وتحاسلوا في اقتناء الأصول ، وابتناء القصور ، وغالوا في الفرش والأمتعة ، واستفروها المراكب والغلمان ، وغالوا في الجوارى والقيان ، فسمت أثمان ذلك في تلك المدة ، وبلغت الأندلس فيها الحد الذي فاق الكمال ؛ فهد تلك الدولة في احتشاد النعم عندها ، وارتفاع حوادث الغير عنها ... في كنف ملك مقتبل السعد ، ميمون الطائر ، غافل عن الأيام ، مسرور بما تتنافس فيه رعيته من زخرف دنياها . فاجتمع الناس على حبه . ولم يدهنوا في طاعته ، ورضى بالعافية منهم ، وآتوه إياها فصنى عيشه ، وانشرح قلبه ، وخلصه الله من الفتنة . »

ويشيد ابن حيان بعد ذلك ، بعفة عبد الملك ، وورعه وتواضعه وشجاعته وحيائه ، وتورعه عما يشين الملك من الجون والاستهتار ، وبره بوالديه ، ووثباته على عهد أبيه . كل ذلك في عبارات تم عن عميق تأثره وإعجابه^(١) .
يبد أن هذه الصور المشرقة التي تقدم إلينا عن خلال عبد الملك ، تعشاه

(١) نقله أعمال الأعلام ص ٨٤ و ٨٥ ، والبيان المغرب ج ٣ ص ٣ .

من الناحية الأخرى خلة قائمة ، هي شغفه بمعاقرة الشراب وانهماكه في لذاته^(١).
افتتح عبد الملك المنصور عهده ، بإجراء كان له في نفوس الناس أطيب وقع ؛
وذلك أنه أسقط سدس الحباية عن سائر الناس ، في سائر بلاد الأندلس . فكان
لذلك أثره في التخفيف عن الناس ، والرفق بهم ، وبث شعور الرضى والاستبشار
بالعهد الجديد .

وحذا عبد الملك حذو أبيه المنصور نحو المغرب ، في تأييد زناتة ومغراوة ،
والإبقاء على ولائهم . وكان المنصور حينما توفي زيرى بن عطية زعيم مغراوة ،
في سنة ٣٩١ هـ ، قد أقر ولده المعز حاكماً على المغرب حسباً قدمنا . فلما تولى
عبد الملك الحباية ، أعلن المعز طاعته له ، ودعى له على منابر المغرب ، فكتب
إليه عبد الملك بعهدده ، على سائر ما يملكه من أقطار المغرب (سنة ٣٩٣ هـ) على
أن يؤدي إلى حكومة قرطبة ، مقادير معينة من المال والحيل والدرق . واستمر
المعز على الوفاء بعهوده ، أيام عبد الملك وأخيه عبد الرحمن من بعده^(٢).

واعترم عبد الملك أن يسير على سنن أبيه في متابعة غزو الممالك النصرانية ،
وألّا يترك لها فرصة لتذوق السلم والدعة . وكان الملوك النصارى قد تنفسوا الصعداء
عند وفاة المنصور ، واعتقدوا أن الظروف قد تتغير ، وأن أخطار الغزوات
الإسلامية قد تنجو ، ولكن سرعان ما تبدد هذا الأمل . ذلك أنه لم تمض أشهر
قلائل على تولية عبد الملك ، حتى اتخذ الأبهة لغزوته الأولى ، واستعد لها استعداداً
خاصاً ، ووفدت على قرطبة طوائف كبيرة ، من الزعماء والمتطوعة من العدة ،
للاشتراك فيها ، وأجزل لهم عبد الملك الصلات والأرزاق ، ووزع فيهم ما كان
مخزوناً من السلاح .

وخرج عبد الملك بالجيش من مدينة الزاهرة ، في شعبان سنة ٣٩٣ هـ (يونيه
١٠٠٣ م) . وتصف لنا الرواية مشهد خروجه فتقول لنا إنه « خرج على الناس
شاكى السلاح ، في درع جديد سابعة ، وعلى رأسه بيضة جديدة مثمثة الشكل
مذهبة ، شديدة الشعاع ، وقد اصطفت القواد والموالي والغلمان الخاصة ، في
أحسن تعبئة ، فساروا أمامه ، وقد تكنفه الوزراء الغازون معه^(٣) . وسار عبد الملك

(١) البيان المغرب ج ٣ ص ٣ .

(٢) ففتح الطيب ج ٢ ص ١٩٨ ، والاستبصار ج ١ ص ٩٥ .

(٣) البيان المغرب ج ٣ ص ٥ .

أولاً إلى مدينة طليطلة ، ثم ارتد منها إلى مدينة سالم ، وهناك انضم إليه الفتي واضح في قواته ، ووفد عليه في نفس الوقت قوة من النصارى ، أرسلها الكونت سانشو غرسية أمير قشتالة ، وفقاً لمعاهدته مع المنصور .

وتابع الحاجب عبد الملك سره بعد ذلك نحو الثغر الأعلى ، واستراح أياماً في سرقسطة ، ثم غادرها قاصداً إلى الثغر الإسباني أو بعبارة أخرى إلى إمارة برشلونة التي بدت من أمورها منذ أيام المنصور نزعة إلى العدوان ؛ وأشرف على سلسلة من الحصون القوية الواقعة جنوبي جبال مونسيش ، واستولت قوات الفتي واضح على حصن مديش^(١) ، وحاصر الحاجب بقواته حصن ممقصر أو ممقصره^(٢) ، واستولى عليه بعد قتال عنيف ، وأباد حاميته ، وعاث المسلمون بعد ذلك في بسائط برشلونة ، وخربوا كثيراً من حصون العدو ، واستولوا على كثير من الغنائم والسبي .

وقضى الحاجب وجيشه عيد الفطر في بسائط برشلونة ، واحتفل بالعيد احتفالاً فخماً ، واستقبل طبقات الأجناد مهنتين ومسلمين . وبعث من معسكره رسالتين إلى قرطبة من إنشاء كاتبه أحمد بن برد يصف فيهما الفتح ، إحداهما برسم الخليفة هشام المؤيد ، والثانية لتقرأ على الكافة في جامع قرطبة .

ثم قفل عبد الملك بجيشه عن طريق مدينة لاردة . واخترق الثغر الأعلى جنوباً إلى قرطبة ، فدخلها في الخامس من ذي القعدة . وهناك تلقاه الأكابر والعلماء مهنتين مستبشرين ؛ وقصد الحاجب من فوره إلى الخليفة هشام ، فاستقبله أحسن استقبال ، وأكرم منزله ، وخلع عليه من ثيابه وسلاحه ، فشكره الحاجب وقبل يده . وفي اليوم التالي جلس بقصر الزاهرة ، واستقبل مختلف الوفود ، وكان يوماً مشهوداً^(٣) .

وقد نظم ابن دراج القسطلي في التهنئة بهذه الغزوة قصيدة هذا مطلعها :

بدا ريح السعد واستقبل النجح فبالله فاستفتح فقد جاءك الفتح

(١) هو باسمه الإسباني حصن *Meya* .

(٢) هو باسمه الإسباني حصن *Monmagastre* ؛ ويسميه ابن الخطيب حصن منصر (أعمال

الأعلام ص ٨٧) .

(٣) راجع في أخبار هذه الغزوة : البيان المغرب ، ج ٣ ص ٥ - ٩ ، وأعمال الأعلام

وقد قدّم النصر العزيز لواءه وقبل طلوع الشمس ينبلج الصبح
فقد في سبيل الله جيشاً كأنه من الليل قطع طبق الأرض أوجنح
كتائب في أقدامها النجح والهدى وأوية في عقدها اليمن والنجح^(١)

ولم يمض قليل على ذلك ، حتى أرسل أمير برشلونة الكونت رامون بوريل الثالث ، سفارة إلى قرطبة يطلب عقد الصالح والمهادنة ، فاستقبل السفراء الفرنج استقبالاً حافلاً ، على نمط أسلافهم من السفراء النصارى . وكانت هذه آخر فرصة من نوعها أبدت فيها أمة الخلافة وفخامتها^(٢) .

وكان من أثر هيبة عبد الملك في نفوس الملوك النصارى ، أن احتكم إليه أمير قشتالة الكونت سانشو غرسية ، ومننديث كونثالث زعيم جليقية ، والوصى على ملك ليون الطفل . وكان ملك ليون وهو ألفونسو الخامس ، يومئذ ما يزال حدثاً في العاشرة من عمره ، وكانت أمه إلبيرة أختاً لسانشو غرسية ، وكان سانشو يرى بذلك أنه أحق بالوصاية على ابن أخته الملك الطفل ، من مننديث كونثالث . فلما احتكم الطرفان إلى عبد الملك ، ندب قاضى النصارى أصبغ بن سلمة ، لبحث النزاع والفصل فيه ، ففضى لمننديث كونثالث بأحقية لوصاية ، واستمر بالفعل وصياً على ملك ليون حتى قتل غيلة في سنة ٣٩٨ هـ (١٠٠٨ م)^(٣) .

والظاهر أن سانشو غرسية لم يرضه هذا الحكم ، فبدت منه أعراض العدوان على أرض المسلمين ، أو هو قد اعتدى عليها بالفعل . ومن ثم فإننا نجد عبد الملك يخرج بقوته في صيف سنة ٣٩٤ هـ (١٠٠٤ م) ويقصد إلى أراضي قشتالة ويعيث فيها ، ولم يبد سانشو أية مقاومة ، فقتل عبد الملك إلى قرطبة ، واضطر سانشو إلى طلب الصلح ، وقصد بنفسه إلى قرطبة ، فاستقبله عبد الملك أحسن استقبال ، وأعيد عقد الصلح والتهادن بين الفريقين ، وتعهد سانشو أن يعاون عبد الملك في غزواته ضد مملكة ليون ، وضد خصومه من بنى غومس وغيرهم .
وفي العام التالى (٣٩٥ هـ - ١٠٠٥ م) خرج عبد الملك في قواته وسار

(١) تراجع هذه القصيدة بأكملها في ديوان ابن دراج القسطلى الذى سبقت الإشارة إليه ص ٤٦٦ و ٤٦٧ .

(٢) الذخيرة . القسم الرابع ، المجلد الأول ، ص ٦٤ .

(٣) ابن خلدون ج ٤ ص ١٨١ ، والبيان المغرب ج ٣ ص ١٠ .

صوب طليطلة ؛ وهناك لحق به الفتي واضح وسانشو غرسية في بعض قواته ، ثم سار شمالاً نحو أراضي ليون ، وبعث واضحاً في قواته إلى مدينة سمورة ، وكانت قد خربت منذ أيام المنصور ، وليس بها سوى قليل من النصارى يقيمون في بعض أراجها ، فقتل الرجال ، وسبى النساء . وعاش عبد الملك بعد ذلك في أراضي ليون ، وإلى جانبه سانشو غرسية ، واقتحم أملاك بني غومس ، ووصل في زحفه في جليقية ، إلى بلدة لونة الحصينة ، واستولى في هذه الغزوات على كثير من الغنائم والسبي . ولكنه لم يحقق خلالها نتائج حربية ذات شأن (١) .

وفي أواخر سنة ٣٩٦ هـ (صيف سنة ١٠٠٦ م) خرج عبد الملك إلى غزوته الرابعة . وتصف الرواية الإسلامية هذه الغزوة بأنها غزوة « بنبلونة » ، وبعبارة أخرى « بنبلونة » عاصمة ناغار . وتقول لنا إن عبد الملك سار بجيشه إلى سرقسطة ثم إلى وشقة ، ثم إلى بربشتر ، ومنها نفذ إلى أرض العدو . ولكن هذا الإتجاه الذي اتخذته الجيش الإسلامي ، لا يحمل على الاعتقاد بأنه كان يقصد إلى ناغار أو بلاد البشكنس ، وإنما يبدو بالعكس أنه اتجه شمالاً إلى أراضي ولاية « ريباجرسا » الصغيرة الواقعة شمال شرق بربشتر ، وهي إحدى ولايات البرنيه الفرنجية . وتقول الرواية الإسلامية إن المسلمين اقتحموا في هذه الغزوة بسبب أبنيونش وشدت يوانش ، (سان خوان) وعاثوا في أرض العدو قتلاً وسبياً وحرقة ، ثم تقول لنا إن الجيش الإسلامي قد انقضت عليه يومئذ عاصفة مروعة من رعد وبرق ومطر غزير . تخللها قصف مفزع وبرد قارس ، وخشى أن تكون سيباً في نكته . ولكن تداركه لطف الله . وقفل عبد الملك راجعاً بجيشه إلى قرطبة . ولكن الشعب لم يبد في استقباله شيئاً من الحفاصة ، لضعف النتائج التي ترتبت على هذه الغزوة ، ولكونها لم تسفر عن شيء من الغنائم والسبي ، التي كانت تملأ أسواق قرطبة أيام أبيه المنصور (٢) .

ومما يتصل بأخبار هذه الغزوة ، أن عبد الملك عرج في طريق العودة على مدينة سالم ، وقضى بها عيد الأضحى ، وهناك وافاه سفير من قبل قيصر

(١) راجع أخبار هذه الغزوة في الذخيرة . القسم الرابع ، المجلد الأول ص ٦٥ ؛ والبيان

المغرب ج ٣ ص ١١ و ١٢ .

(٢) البيان المغرب ج ٣ ص ١٢ و ١٣ ؛ وأعمال الأعلام ص ٨٧ .

قسطنطينية ، الإمبراطور بسيل الثاني ، ومعه كتاب مكتوب بالذهب يطاب فيه قيصر استئناف المودة والصداقة ، التي كانت قائمة بين ملوك بني أمية ، وبين القيصرية ، ومعه كذلك هدية وعدد من الأسرى المسلمين الذين أسروا في أطراف الجزائر التابعة لقيصر ، فسر عبد الملك لذلك ، وصرف السفير أجمل صرف (١) . ونحى إلى عبد الملك في تلك الأثناء ، ما كان يجيش به أمير قشتالة سانشو غرسية من قصد إلى العدوان ، فرأى أن يعالجه بالغزو . فخرج من قرطبة في صيف سنة ٣٩٧ هـ (١٠٠٧ م) في غزوته الخامسة ، وهي المعروفة بغزوة قلونية ، أو غزوة النصر ، وسار مخترقاً أراضي قشتالة . ويبدو من أقوال الرواية الإسلامية أن عبد الملك لم يكن يواجه يومئذ أمير قشتالة فحسب ، ولكنه كان يواجه جبهة متحالفة من الماوك النصراري ، يشترك فيها سانشو غرسية ، وألفونسو الخامس ملك ليون ، وسانشو الثالث ملك ناغار ، وعدد من الزعماء النصراري في مقدمتهم بنوغومس (٢) . ويشير صاحب البيان المغرب إلى هذه الغزوة بقوله « غزاة النصر التي لتي فيها (أي عبد الملك) شانجه بجميع النصرانية على اختلافها » (٣) . ولا تقدم إلينا الرواية الإسلامية بعد ذلك شيئاً من التفاصيل ، سوى قولها إن الحاجب عبد الملك ، قد هزم النصراري في تلك الموقعة هزيمة عظيمة في ظاهر مدينة قلونية (كلونية) ، الواقعة شمال نهر دويرة على مقربة من شنت إشتين ، وأحرز عليهم نصراً ميبئاً ، وافتتح الحصن صلحاً . ووصل كتاب الفتح إلى قرطبة ، وقرئ على الكافة كالعادة ، فكان له وقع عظيم ، وكان أهل قرطبة يحشون سوء العاقبة من اجتماع الجيوش النصرانية لقتال المسلمين . وقتل عبد الملك بالخييش إلى قرطبة ، فوصل إليها في أواخر ذى الحجة من تلك السنة ، واتخذ على أثر ذلك لقبه « المظفر بالله » تنويهاً بما أحرزه من النصر العظيم (٤) .

وقد ساق لنا المؤرخ الفقيه أبو المطرف ابن عون الله ، وهو من معاصري هذه الحوادث ، قصة هذا اللقب ، فذكر أن عبد الملك كان مثل أبيه يسمو إلى

(١) الذخيرة ، القسم الرابع ، المجلد الأول ، ص ٦٥ و ٦٦ .

(٢) راجع ابن خلدون ج ٤ ص ١٨٢ .

(٣) البيان المغرب ج ٣ ص ١٤ .

(٤) ابن خلدون ج ٤ ص ١٨٢ ؛ والبيان المغرب ج ٣ ص ١٤ ؛ والذخيرة ، القسم

الرابع ، المجلد الأول ص ٦٦ .

الألقاب السلطانية ، فتقدم إلى الخليفة هشام ، على أثر عودته من غزوة قلوونية ،
والتمس إليه إخراج الأمر له ، بأن يتسمى « بالمظفر » وهو اللقب الذى اختاره
وآثره ، وأن يكنى فى سائر ما يذكر عنه « بأبى مراون » ، وأن ينعم على ابنه الغلام
محمد ، الذى منح لقب الوزارة ، بالقب « ذى الوزارتين » ، ويعلى بذلك مرتبته
على سائر الوزراء ، وأن يكنى بأبى عامر ، كنية جده ، وكان الخليفة يقيم يومئذ
عند الحاجب بتمصر الزاهرة ، فى الجناح الفخم الذى أنشئ وقتها . فى منتصف
الحرم سنة ٣٩٨ هـ ، تحرك الخليفة خفية إلى قصر ناصح من قصور الزاهرة ،
واستدعى حاجبه ، وفاوضه فيما أراد . ولما انصرف من لدنه ، اتبعه فى الحال
بمرسوم التكريم الذى التمس ، فأذاع عبد الملك نص المرسوم ، وبعث بالكتب
للعمل به ، وإليك نص هذا المرسوم ، وقد زعم البعض أنه كان بخط الخليفة
هشام نفسه :

« بسم الله الرحمن الرحيم . من الخليفة هشام بن الحكم المؤيد بالله ، أتم الله
عليك نعمه ، وألبسك عفوه وعافيته ، إنا أريناك ... من صنع الله الجسيم ،
وفضله العظيم ، لنا عليك ما شفى الصدور ، وأقر العيون ، فاستخرنا الله سبحانه
فى أن سميناك المظفر ؛ فنسأل الله تعالى سؤالا إلحاف وضراعة وابتهاال ، أن يعرفنا
وإياك بركة هذا الاسم ، ويحليك معناه ، ويعطينا وإياك وكافة المسلمين ، فضل
ما خملت منه ، وأن يخبر لنا ولهم فى جميع أقضيتهم ، ويقرنه بيمينه وسعادته ، بمنه
وخفى لطفه ، وكذلك أحننا التكنى فى مجالسنا ومحافلنا ، وفى الكتب الحاربية
منك وإليك ، فى أعمال سلطاننا ، وسائر ما يجرى فيه اسمك معنا ودوننا ، إنافه
بمحللك لدينا ، ودلالة على مكانك منا ، وكذلك ما شرفنا به فتاك أبا عامر ، محمد
ابن المظفر تلامذنا ، أسعده الله ، بالإنهاض إلى خطة الوزارتين ، وجمعناه بها فى
التكنى على المشيخة والترتيب ، وآثرك فى الدولة ، وأنت الحقيق منا بذلك كله ،
وبجميل الزيد عليه ، لأنك تربيتنا ، وسيف دولتنا ، وولى دعوتنا ، ونشئ
نعمتنا ، وخريج أدبنا ، فأظهر ما حددناه لك فى الموالى ، وأهل الخدمة ، واكتب
بها إلى أقطار المملكة ، وتصدقته بشكر النعمة ، أحسن الله توفيقك ، وأمتعننا طويلا
بمعافاتك ، وآنسنا ملياً بدوام سلامتك ، إنه ولى قادر عزيز قاهر » .

وكانت الكتب تخرج من قبل عبد الملك على النحو الآتى : « من الحاجب

المظفر سيف الدولة أبي مروان عبد الملك بن المنصور». فكان بذلك أول من اجتمع له لقبان ملوكيان من حكام الأندلس^(١). وكان صدور هذا المرسوم حادثاً مشهوداً ، أطلق عبد الملك على أثره الصلوات والكسي ، وكثرت تهنأى الشعراء ومدائحهم .

والظاهر أن عبد الملك لم يجن من هذا النصر ما كان يؤمل من إرغام أمير قشتالة على التزام السلم والهدوء ، وأن سانشو غرسية بالعكس استمر فى عدوانه . ومن ثم فإنه لم يمحس سوى قايل ، حتى تأهب عبد الملك لاستئناف الغزو ، فخرج من قرطبة فى أوائل شهر صفر سنة ٣٩٨ هـ (أكتوبر ١٠٠٧ م) واخترق قشتالة الوسطى ، حتى ضفاف نهر دويرة ، وقصد إلى حصن شنت مرتين المنيع ، الواقع على مقربة من غربى قلونية على الضفة اليمنى من النهر ، فحاول النصارى فى البداية أن يردوا المسلمين فى ظاهر الحصن ، ولكن المسلمين صدوهم بعنف ، فالتجأوا إلى الحصن ، وحاووا الدفاع من وراء الأسوار ، فهاجم المسلمون الحصن بشدة وثلموا أسواره بالمخانيق والنار ، واضطر النصارى إلى التسليم ، فأمر عبد الملك بقتل الجند وسبى النساء والذرية ، وإصلاح ما تهدم من الحصن ، وقفل راجعاً إلى قرطبة فوصلها فى أوائل شهر ربيع الآخر .

وفى شوال من نفس العام (صيف ١٠٠٨ م) ، خرج عبد الملك بالجيش ، وكانت غزوته السابعة والأخيرة ، وتعرف «بغزاة العلة». ذلك أنه ما كاد يصل إلى مدينة سالم حتى اشتد به المرض ، فاستقر بها حيناً رقب البرء . وفى أثناء ذلك دب الخلل إلى الجيش ، وتفرق عنه أكثر المتطوعة ، وأخفق مشروع الغزو ، واضطر عبد الملك أن يعود أدراجه إلى قرطبة ، عليلًا ضعيفاً ، وذلك فى منتصف المحرم سنة ٣٩٩ هـ . ومع ذلك فما كاد عبد الملك يشعر بتقليل من التحسن ، حتى عقد العزم على التأهب لاستئناف الغزو ، وخرج بالفعل من قرطبة فى منتصف شهر صفر ، ولكن أصابته عندئذ نكسة شديدة ، صحبها نوبة سعال عنيف ، فحمل إلى قصر الزاهرة فى محفة ، ومن حوله خاصة غلمانه ، وتوفى على الأثر ، وكان أخوه عبد الرحمن حاضرًا مع أكابر رجال الدولة ، وقيل إنه توفى مسموماً من شربة دست له بتحريض أخيه عبد الرحمن . وكانت وفاته فى ١٦ صفر سنة ٣٩٩ هـ

(١) البيان المغرب ج ٣ ص ١٥ - ١٧ ؛ وأعمال الأعلام ص ٨٨ و ٨٩ .

(٢١ أكتوبر سنة ١٠٠٨ م)^(١)، ولم يكن قد جاوز الرابعة والثلاثين من عمره .

• • •

حكم عبد الملك المظفر ستة أعوام وبضعة أشهر ، قضى معظمها في متابعة الغزو ، ولم يكن لديه سعة من الوقت ليتناول تدبير الأمور بنفسه . وكانت الدولة قد توطدت منذ أيام أبيه المنصور ، ولم يقع تبدل في طرق الحكم ، فكان الخليفة هشام ، كعهده أيام المنصور محجوباً في قصره ، وكان عبد الملك يحرص على حجبه وإخفائه بين صفوف الحند ، كلما سنحت فرصة خروجه في موكبه ، بيد أنه يبدو أن عبد الملك كان أكثر تودداً للخليفة ، ورفقاً به من أبيه ، فقد كان يدعو إلى قصوره بالزاهرة للتريض والاستجمام ، وكان هشام ينفق أوقاتاً في ضيافته^(٢) . وكان عبد الملك لانهماكه في الشراب واللهو ، قد اعتمد في تدبير شئون الدولة ، على خاصته من أكابر الفتيان العامرين أمثال طرفة ، وواضح ، وزهير ، وخيران ، ومجاهد ، وعلى عيسى بن سعيد اليحصبي المعروف بابن القطاع ، وزيره ووزير أبيه من قبل . وكان عبد الملك لأول ولايته ، قد فوض أمره إليه ومنحه سائر السلطات العليا ، ثقة منه بإخلاصه ، واعتماداً على كفايته . ووطد حسن ظنه فيه ، ما أبداه عيسى من البراعة والحزم في تدبير الأمور ، وتوطيد النظام والأمن . وكان الفتيان الصقالبة ، ولاسيما زعيمهم طرفة ، خدام عبد الملك الأكبر ، ينقمون على عيسى ، حظوته واستثنائه بالسلطة ، ويعملون ما وسعوا للنيل من مكانته . واضطرت المنافسة بالأخص بينه وبين طرفة ، وبندل طرفة جهوداً عنيفة لإفساد الجو بينه وبين الحاجب ، واستطاع مع استمرار الوقعة والدس أن يززع ثقة عبد الملك فيه ، وأن يصرفه عن الاعتماد عليه ، وانتهى الأمر بأن تغلب طرفة على الوزير ، وحل محله في تدبير الأمور ، واجتمعت السلطة في يده شيئاً فثشياً ، حتى غدا كل شيء في القصر وفي الدولة ، وسما شأن الفتيان

(١) البيان المغرب ج ٣ ص ٣٧ ، والنخيرة القسم الرابع المجلد الأول ص ٦٦ ، وأعمال الأعلام ص ٨٩ - وذكر المعري أن وفاة عبد الملك كانت في المحرم سنة ٣٩٩ (ج ١ ص ١٩٨) . ويؤيد ابن الأثير رواية وفاة عبد الملك بالدم ويقول لنا إن أخاه عبد الرحمن سمه في تفاحة قطعها بسكين كان قدمه أحد جانبيها فتناول أخاه مما يلى الجانب المسموم ، وأخذ مما يلى الجانب الصحيح فأكله بمحضرتة ، فاطمان المظفر وأكس ما بيده منها فذات (ج ٨ ص ٢٢٥) .

(٢) البيان المغرب ج ٣ ص ١٦ .

الصقالية ، وغلبوا على من عداهم من الكبراء وأصحاب المناصب. ومرض الحاجب في أوائل سنة ٣٩٦ هـ ، واستبد طرفة بالأمر ، وأمضى كثيراً من الأمور دون علم الحاجب أو موافقته ، وأبدى كثيراً من الاستهتار والتبذل والطيش ، فلما أبل الحاجب من مرضه ، كانت نفسه قد تغيرت على طرفة ، ولما خرج إلى الغزو في شهر رمضان من هذا العام ، خرج معه الوزير عيسى ، واستطاع خلال الطريق أن يقنع عبد الملك بسوء مسلك طرفة وخطر مشاريعه ، وكان من المقرر أن يلتقي طرفة بسيدته في سرقسطة ، فقدم إليها في بعض القوات في نفس اليوم الذي وصل فيه الحاجب مع جيشه ؛ وما كاد يدخل إلى عبد الملك في قصره ، حتى قبض عليه ، وصُفد بالأغلال ، وحمل إلى إحدى جزر الشاطيء ، واعتقل حتى انتهى عبد الملك من غزوته ، فأمر بقتله ، وهو في طريق العودة ، وأمر الحاجب في نفس الوقت بقتل عبد الملك بن إدريس الحزيري الكاتب البليغ أمين البلاط ، وكان من خاصة طرفة ، وكان الوزير عيسى قد حذر عبد الملك من ممالأته لطرفة ومعاونته على إفساد أمور الدولة^(١).

وأضحى عيسى بن سعيد ، بعد قتل طرفة ، رجل الدولة الأول ، واسترد كامل حظوته وسلطانه ، على أنه لم ينعم طويلاً بظفره . وكان هذا الوزير قد تقلب في مناصب الدولة منذ أيام المنصور ، وحظى لديه ، وسما شأنه ، حسباً رأينا ، ثم تضايف شأنه ، واستأثر بتدبير الأمور منذ بداية عهد عبد الملك ، وجمع الأموال الطائلة ، وزاد في توطد سلطانه ونفوذه مصاهرته للحاجب ، حيث تزوج ابنه عبد الملك المكنى أبا عامر ، أخت عبد الملك الصغرى ، إحدى بنات المنصور ، وهكذا بلغ الوزير أقصى مراتب النفوذ والثقة ، وكثر بذلك حساده والوشاة في حقه . وكان عيسى يذكى من حوله عواطف الخصومة والتقمه . بما كان ينجح إليه من الصلف والخشونة والكبرياء ، والنكول عن قضاء حاجات الناس ، والنظر في مظالمهم ، والتعالى عليهم ، وكان حجابيه وعماله ، على شاكلته من الغلظة والتعسف في معاملة الناس . فكان ذلك كله سبباً في تسمم الجو حول الوزير ، وحول تصرفاته . أضف إلى ذلك أن الوزير ، لم يكن يشارك الحاجب في مجالس شرابه وأنسه إلا في القليل النادر ، لأنه كان مقلاً للشراب ، فكان تخلفه يمهّد

لخصومه المقربين من الحاجب ، سبل الدس والوقية في حقه . وقد كانت الذلفاء والدة الحاجب في الوقت نفسه تبغض الوزير ، لأنه أيد ولدها عبد الملك في الزواج من قينة حسناء من جواريه هام بها ، وكانت تعارضه في ذلك . والخلاصة أن عبد الملك أخذ يفقد ثقته في وزيره بسرعة ، وقد كان فيما يبدو كثير التأثر بالوشاية ، سريع القلب والغدر ، وأخذ الوزير من جانبه يشعر بهذا النقص في حظوته ويتوجس من عواقبه .

والظاهر أن عيسى بن سعيد ، كانت تحدوه في نفس الوقت أطماع ومشاريع أخرى . فقد كان يشعر أنه غدا باجتماع سائر السلطات في يده ، ومشايعة رؤساء الخند له ، أقوى رجل في الدولة ، وأنه يستطيع أن يقف في وجه بني عامر ، وأن يغدو بطل المناهضة لحكمهم . والواقع أن حكم العامرين كانت تشتد وطأته على الناس يوماً بعد يوم . وكان عبد الملك جرياً على سنة أبيه المنصور ، قد مضى في الاستظهار بالفتيان الصقالبة والبربر ، وبلغ الفتیان في عهده نحو ألفي غلام ، ووفد عليه كثير من البربر ؛ وكان أهم من وفد إليه من زعمائهم زاوى بن زبيري بن مناد الصنهاجي ، عم أبي المعز بن باديس صاحب إفريقية ، وزعيم الفرقة الخارجة عليه ، وفد عليه مع إخوته ، فاستقبلهم عبد الملك ، وغمرهم بصلاته ، واستمروا بقرطبة حتى وقعت الفتنة ، وكان لهم في حوادثها شأن يذكر (١) . وفي رواية أخرى أن وفود زاوى وقومه على الأندلس ، كان في أواخر أيام المنصور ، وأنه هو الذي أذن لهم في الجواز (٢) . وكانت الأرسطراطية العربية تمتت هذا الإيثار للصقالبة والبربر ، والاستظهار بهم ، وترى فيه افتئاتاً على حقوقها ومكانتها ، وكان كثير من الأسر العربية الكبيرة مثل آل حدير ، وآل فطيس ، وآل شهيد ، وغيرهم ، يتوقون إلى انتهاء حكم العامرين ، ورد الأمر إلى بني أمية ، وكان عيسى بن سعيد ، وهو أيضاً من البطون العربية ، يعتقد فكرتهم ، ويعتقد أنه يستطيع أن يعمل على تحقيقها .

واعترم عيسى بالفعل أن يعمل في هذا السبيل ، واتجه ببصره إلى سليل من

(١) الذخيرة عن ابن حبان القم الرابع المجلد الأول ص ٦١ .

(٢) كتاب التبيين أو مذكرات الأمير عبد الله بن بلقين (القاهرة ١٩٥٥) ص ١٧ ، وابن

خلدون ج ٦ ص ١٥٧ و ١٥٨ .

المروانية هو هشام بن عبد الجبار بن عبد الرحمن الناصر ، وكان بينهما مودة وصداقة . وكاشف عيسى هشاماً بمشروعه ، في إزالة بني عامر ، وإزالة الخليفة هشام المؤيد لعجزه وعقمه ، وإقامته مكانه في الخلافة ، ورد الأمر بذلك إلى بني أمية . فاستجاب هشام إلى دعوته ، وجرت بينهما المفاوضة بمنتهى التكرم والحنو . وكانت خطة عيسى ، تلخص في أن يدعو عبد الملك وأخاه عبد الرحمن وصحبه ، إلى حفل عظيم يقيمه بالمنية التي وهبه عبد الملك إياها بقرب قصر الزاهرة ، وذلك تيمناً بمولود رزق به ولده عبد الملك بن عيسى ، وأن يحيط المنية بطوائف من رجاله المسلمين ، فإذا حضر عبد الملك وأخوه وصحبه ، انتقض عليهم أولئك الرجال وقضوا عليهم جميعاً ، وعندئذ يسير عيسى بصاحبه هشام إلى قصر الزاهرة فيجلسه فيه ، ويأخذ له البيعة بالخلافة ، وقد تقدم عيسى بالفعل بدعوته إلى عبد الملك فقبل الدعوة ، وحدد بالفعل يوم الحفل .

ولكن سرعان ما اتصل خبر المؤامرة بعبد الملك ، نقله رجل من ثقات عيسى إلى نظيف الفتى الصقلي ، فأبلغه فوراً إلى سيده . وفي رواية أن عبد الملك بادر في الحال فقتل عيسى . ولكن الرواية الراجحة هي أن عبد الملك وأخاه عبد الرحمن اتفقا على تدبير قتله ، في مجلس شراب ينظم لهذا الغرض ، ونظم المجلس بالفعل في هو القصر الكبير المشرف على النهر ، وذلك في ٢٠ ربيع الأول سنة ٣٩٧ هـ . واستدعى الحاجب وزيره عيسى إليه ؛ ومن غرائب القدر أن كان الوزير أيضاً يجلس مع بعض خاصته على الشراب ، ومنهم الكاتب أبو حفص ابن برد ، فبادر عيسى بالركوب إلى عبد الملك ، ومعه بعض خاصته ، فاستقبله عبد الملك بظاهر من الحفاوة . ثم أخذ بعد قليل في عتابه ومحاسبته على ما عزي إليه ، ثم أغلظ له القول ، وعيسى يعتذر ويحتج بطلان ما نسب إليه ، ويشدد القسم على ذلك ، ويناشد حقن دمه . وفجأة جذب عبد الملك سيفه من جانب الفراش وشهره على عيسى ، وطعنه في وجهه ، فسقط على الأرض ، فانهاه عليه الجماعة طعناً بسيوهم ، ثم احتز رأسه ووضع جانباً ؛ وقتل الجماعة أيضاً صاحبيه خلف ابن خليفة ، وحسن بن فتح ، وألقيت جثث الثلاثة في النهر ، بعد أن وضعت في زناجيل مثقلة بالحجارة ، وأمر عبد الملك بأن ينصب رأس عيسى على باب مدينة الزاهرة ، عبرة للناس . وتركت معلقة في مكانها حتى انتقضت الدولة العامرية ،

ونفذ الخند في الحال إلى منازل عيسى وأصحابه ، وصودر ما فيها ، وقبض على أبناء عيسى وزجوا إلى السجن ، وأرغم ولده عبد الملك على طلاق زوجته أخت الحاجب ؛ وجدت الشرطة في أثر هشام بن عبد الجبار ، حتى قبض عليه ، ثم حمل إلى الزاهرة فأمر الحاجب باعتقاله في سجن أعد له ، وهناك قتل خفية ، ولم يسع له خبر بعد ذلك قط .

وكان لمقتل الوزير عيسى بن سعيد أعمق وقع في قرطبة ، لما كان له من رفيع المنزلة والسلطان ، ولبتت الوفود أياماً تحضر إلى الزاهرة لمشاهدة رأسه (١) .

وثاب المظفر بعد مقتل وزيره إلى نفسه ، وعمل على جمع السلطة في يده ، والحد من سلطة الوزراء والكتاب ، ومراقبتهم ومحاسبتهم ، وواظب على الجلوس بنفسه ، وهجر اللهو والراحة ؛ وكانت الأحوال المالية قد ساءت ، مما أسرف فيه من النفقة والصلوات ، وبما أسقطه للناس من سدس الحباية ، فاقصد في النفقة ، واجتهد في توفير المال ، وتنمية الموارد ، فنجحت المحاولة ، وتحسنت الأحوال المالية في أواخر عهده (٢) .

وقد أشرنا من قبل إلى طرف من اخلاق عبد الملك ، وما جمعت من الصفات المشرقة والقائمة معاً . ونزيد هنا ما رواه صاحب الذخيرة عن ابن حبان ، من أن عبد الملك كان عربياً عن العلم والمعرفة والأدب ، ولم يكن يجتمع في مجالسه سوى الأعاجم من الخلالقة والبربر ومن إليهم ، ولم يكن يوماً أحد من أهل المعرفة ، من الأدباء والعلماء . بيد أنه مع ذلك لبث يسبغ رعايته على من كان يتصل منهم بأبيه من العلماء والأدباء والندماء وغيرهم ، وأبقى لهم أرزاقهم ورواتبهم كما كانت أيام أبيه (٣) . وكان يستمع إلى الشعر ، ويصل الشعراء ، وقد أبقى بالأخص على شاعر أبيه صاعد البغدادي ، وجعله شاعراً وندماً له . وكان من خواص شعرائه أيضاً أبو عمر بن دراج القسطلي ، والكااتب الشاعر أبو حفص ابن برد . وقد أورد لنا صاحب البيان المغرب نبذاً من الشعر ، نظمها صاعد وابن دراج تحقيقاً لرغبة

(١) راجع تفاصيل هذه المؤامرة وذيولها في الذخيرة ، القسم الأول المجلد الأول ص ١٠٣ -

١٠٧ ، والبيان المغرب ج ١ ص ٢٧ - ٣٥ .

(٢) البياك المغرب ج ٣ ص ٣٦ ، وأعمال الأعلام ص ٨٩ .

(٣) الذخيرة - للقسم الأول المجلد الأول ص ٦٠ .

المظفر ، في وصف مختلف صنوف الزهر ، من الآس ، والرجس ، والبنفسج ،
والورد والسوسن . ومما جاء في قصيدة ابن دراج في وصف السوسن ومديح
الحاجب عبد الملك تلك الأبيات (١) :

إن كان وجه الربيع مبتسماً فالسوسن المختلى ثناياه
ياحسنه بين ضاحك عبق يطيب ريح الخبيب رياه
ياحاجباً مذ يراه خالقه توجه بالعلي وحلاه
إذا رآه الزمان مبتهجاً فقد رأى كل ما تمناه
وإن رآه الهلال مطلقاً يقول ربى وربك الله

ونظم بعضهم في وصف عهد عبد الملك الأبيات الآتية :

زمان جديد وصنع جديد ودينا تروق ونعمى تزيد
وغيث يصوب وعيش يطيب وعز يدوم وعيد يعود
ودهر ينير بعبد الملوك كشمس الضحى ساعدتها السعود

(١) البيان المغرب ج ٣ ص ١٨ - ٢١ . وكذلك الروض المعطار ص ١٦٠ .

الفصل الخامس

عبد الرحمن بن المنصور

وسقوط الدولة العامرية

نظام الطغيان العامري . كيف كانت تطلقه بقرية المنصور . ظهور مثالبه في عهد عبد الملك . عبد الرحمن المنصور يخلف أخاه . يتقاد الحجابة . تلقيبه بشنجول أو شانجه الصغير . إغراقه وسوء خلافه . تودده للخليفة هشام . تلقيبه بالمأمون وناصر الدولة . شروعه في اغتصاب ولاية العهد . ضغطه على هشام لتحريق ذلك . مرسوم ولاية العهد ونصه . جلوس عبد الرحمن في الزاهرة . عكوفه على الشراب واللهو . إرغامه الكبراء على لبس العمامة . خروجهم إلى الغزو . يخرق أراضي ليون . إعتصام النصارى بالجبال . إرتداد عبد الرحمن . أنباء الانقلاب في قرطبة . الاضطراب في الجيش . سيره إلى قلعة رباح . سحق أهل قرطبة على بني عامر . المؤامرة وعناصرها . الذلغاء والدة عبد الملك ودورها . ترشيح محمد بن هشام للخلافة . نضج المؤامرة وتبرق الظروف لتنفيذها . مهاجمة المتآمرين للقصر . مصرع عبد الله بن أبي عامر . موقف الخليفة هشام وتصرفه . إقتحام العامة للقصر . الزاهرة وتسليمها . إقتحام الجموع لها ونهبها . إستيلاء المهدي على أموالها ونفائسها ثم تدبيرها . نبوءة المنصور بخراب الزاهرة . وقوف شنجول على خبر الانقلاب وحيرته . يناشد أهل الشرف تأييد هشام . نخل زعماء الجند عن نصرته . شنجول وصديقه ابن غومس . مسيره صوب قرطبة . فرار البربر تحت جنح الظلام . مسيره إلى أرملاط . التجاؤه وابن غومس إلى الندير . وقوعهما في يد فرسان المهدي . القبض على حشم شنجول ونسائه . مقتل شنجول وابن غومس . ما يقوله شاهد عيان من هذه الحوادث . تأملات عن انهيار الدولة العامرية .

كانت وفاة عبد الملك المظفر ، فاتحة لفترة من أعجب فترات التاريخ الأندلسي وأشدها غموضاً واضطراباً ، وكانت نذيراً بانقلاب من أعنف ما عرفت الأندلس وأشدها تقويضاً لبنائها وسلامها ورخائها .

مضت خمسة وثلاثون عاماً على حكم الطغيان المطبق ، الذي فرضه المنصور ابن أبي عامر على الشعب الأندلسي ، وقضى في ظله على سلطان الخليفة الشرعي ، ومحيت رسوم الخلافة ، وسحقت العصبية العربية ، وطوقت أعناق الشعب بأغلال خانقة . وبالرغم مما نعمت به الأندلس أيام المنصور من الاستقرار والعزة والرخاء ، فإن الشعب لم يكن يرى في المنصور ، سوى معتصب للسلطة الشرعية ، وكان يتوق إلى التحرر من هذا الطغيان الذريع ، والتخلص من وطأة الصقالبة والبربر ، والعود

إلى الأوضاع الطبيعية المألوفة. وكانت شخصية المنصور العظيمة ، وعزمه الصارم ، وهمته البعيدة ، وخلاله الرفيعة ، وتفانيه في الجهاد ، والعمل على إعزاز الأندلس وإسعادها : كانت تفرض نفسها على الناس ، وتخفف نوعاً من وطأة النظام وحدته ، وتثبت في نفوس الشعب نوعاً من الإعجاب المقرون بالإغضاء والتسامح . فلما توفي المنصور ، ونهض ولده عبد الملك بأعباء الحكم ، بدأ يتقشع هذا الشعور اللطيف ، وبدأت مثالب الحكم المطلق على أشدها ، وزاد إحساس الشعب بما يعانيه من ضروب الإرهاق والضغط ، وظهرت شخصية عبد الملك ضئيلة باهتة بالنسبة لشخصية أبيه العظيم ، وبدأت بالرغم مما اضطلع به من الغزوات ، وما تمتعت به البلاد في ظله من السلام والرخاء ، لا تحمل سوى الأوزار الظاهرة ، من عكوف على الشراب ، وانهماك في الملاذ ، والمضي في اغتصاب السلطة الشرعية ، وتمكين لنبر الصقالبة والبربر ، والتطلع إلى ألقاب الملك ، بصورة تكشف عما وراءها من الأطماع الخطرة .

وجاء عبد الرحمن ابن المنصور إثر أخيه عبد الملك ، وقد كان أضعف منه شخصية ، وأسوأ حالاً ، ليتابع حكم الإرهاب والطفغان ، وجلس غداة وفاة أخيه بقصر الزاهرة ، كما يجلس خليفة العرش مكان سلفه ، في السابع عشر من صفر سنة ٣٩٩ هـ (٢٢ أكتوبر سنة ١٠٠٨ م) . ومثل في نفس اليوم لدى الخليفة هشام ، فخلع عليه الخلع السلطانية ، وقلده الحجابة ، ثم أقبل إليه الأكابر والأعيان بتقصر الزاهرة ، مهئين مبايعين .

وكان عبد الرحمن وكنيته أبو المطرف ، حينما تولى الحكم ، فتي في الخامسة والعشرين من عمره . وكان يلقب منذ حداثة « بشنجول » (سانشول) أو شانجيه الصغير ، وذلك لأنه حسباً تقدم كان حفيداً لسانشو غرسية ملك نافار ، وكانت أمه الأميرة النافارية ، حينما تزوجت المنصور ، قد اعتنقت الإسلام ، وتسمت باسم « عبدة » ، وكان ولدها عبد الرحمن « أشبه الناس بجده » . وكان لهذه الأرومة الفرنجية الواضحة ، أثرها في انصراف الناس عن محبته والعطف عليه ، وكان يزيد في هذه الوحشة بين عبد الرحمن وبين الشعب ، لإنحرافه وخلاله السيئة ، فقد كان فاجراً كبير الإستهتار والمجون ، يقضى معظم وقته في الشراب واللهو « يخرج من منية إلى منية ، ومن منزله إلى منزله ، مع الخياليين والمغنين

والمضحكين ، مجاهرآ بالفتك ، وشرب الخمر ،^(١) .
وجرى عبد الرحمن على سنة أبيه وأخيه ، فى الحجر على الخليفة هشام وحجبه ،
وفى الاستبداد بالرأى والحكم^(٢) ، ولكنه نهج فى معاملة الخليفة نهجاً جديداً ،
فأكثر من الإتصال به ، والتقرب إليه ، وبالغ فى إرضائه وإرضاء حاشيته ،
وتحقيق رغباتهم ؛ هذا فى حين أن المنصور كان يقتصر فى الاتصال بالخليفة على
المواقف الضرورية ، ويقتصد فى رويته ، ويؤثر التظاهر بتوقيره مع البعد عنه ،
ويحرص على عدم تدليله ، وكبح جماح حاشيته ؛ وجرى ولده المظفر على هذه
السياسة . ولكن عبد الرحمن بالغ فى التودد لهشام ومخالطته ؛ ومن ذلك أنه استأذنه
فى أن يقوم بالتنزه مع أهله فى قصور الملك بقرطبة ، ويكون الخليفة هنالك مع
خاصته وجواريه . فأذن هشام بذلك ، وخرج مع الحاجب فى موكبه مستخفياً ،
وقد ارتدى برنساً كالذى يرتديه الجوارى ، حتى لا يعرفه أحد ، واخترق الموكب
شوارع قرطبة المقفرة ومن حوله الحند ، ونزل بقصر ناصح . وهناك عرض
عليه الحاجب شئون المملكة ، والتمس إليه أن يأذن له فى التلقب بالمأمون ، وأن
يضاف إلى اسمه ناصر الدولة ، فخرجت رقعة الخليفة بذلك إلى الوزير الكاتب
جهنور بن محمد ، وتسمية عنوانها « الحاجب المأمون ناصر الدولة أبو المطرف
حفظه الله » وأبلغت بعد ذلك إلى الجهات والكافة . وكان ذلك لعشرة أيام فقط
من ولاية عبد الرحمن . فعجب الناس لهذه الجرأة ، وأنكر الناس على الحاجب
هذا التسمى بألقاب الملك والخلافة ، واعتبروها افتئاتاً وغروراً ، ممن لا تؤهله
خلاله لمثل هذا التكريم . ولكن سوف نرى أنها لم تكن سوى مقدمة لما هو أخطر
وأبعد أثرآ^(٣) .

ذلك أنه لم تمض على هذا الإجراء فترة يسيرة ، حتى غادر الخليفة هشام
قصر ناصح بقرطبة ، إلى القصر الخليلي بمدينة الزهراء مستخفياً كعادته ، يتقدم
موكبه الحاجب عبد الرحمن ، ونزل عبد الرحمن بمدينة الزاهرة . وأقام الخليفة
بإلزهراء يومين . وفى اليوم الثالث الموافق ١٤ ربيع الأول سنة ٣٩٩ هـ ، غادر
القصر الخليلي فى أهله ، إلى منية جعفر المحاورة ، ومعه الحاجب . وكان عبد الرحمن

(١) البيان المغرب ج ٣ ص ٣٩ .

(٢) ابن خلدون ج ٦ ص ١٤٨ .

(٣) البيان المغرب ج ٣ ص ٤٠ - ٤٢ ؛ وأعمال الأعلام ص ٩٠ .

يعد أن حصل على ألقاب الملك ، يجيش بمشروع ضخم ، هو أن ينتزع ولاية العهد من الخليفة الضعيف الساذج ، وأن يقضى بذلك نهائياً على تراث بني أمية ، وينقل رسوم الخلافة جملة إلى أسرة بني عامر ، فتخلف أسرة بني أمية في ملك الأندلس . وقد رأينا فيما تقدم كيف أن أباه المنصور ، بالرغم من قوة نفسه ، وعريض سلطانه ، كان ينأى عن المغامرة بمثل هذه المشاريع الدقيقة ، لأنه كان يدرك بذكائه ، وبعد نظره ، أنها تنطوى على أخطر العواقب ، وأنه لم يقدم على اتخاذ ألقاب الملك إلا بعد طول روية وأناة ، وأنه كان أبدأ حريصاً على الإبقاء على رسوم الخلافة وأوضاعها . وقد حذا ولده عبد الملك المظفر حذوه في حرصه وتعلقه . ولكن عبد الرحمن لم يكن إلا فتى طائشاً ، متعجلاً ، كثير الغرور ، قصير النظر . وقد وصف لنا ابن حيان موقفه من المشروع في تلك العبارات القوية : « وقد تقدم القول في سبب تعلق هذا الجاهل بدعوى الخلافة ، عجزية من غير تأويل ولا عقيدة ، وكيف استهواه كيد الشيطان ، وغرته قوة السلطان إلى أن ركبها عمياء مظلمة ، لم يشاور فيها نصيحاً ، ولا فكر في عاقبة ، بل جبرها بالعجلة » (١) .

وخلا عبد الرحمن بالخليفة ، وأطال التقرب منه ، وعرض عليه مشروعه ، ويقال إنه أقنعه بأنهما على صلة رحم من ناحية الخوولة ، إذ ولد كلاهما من أم يشكنسية (ناقارية) (٢) . ويقال من جهة أخرى ، إن عبد الرحمن دس إلى الخليفة من هدهد بالويل ، وأنذره بأن عبد الرحمن قد اعتزم الفتك به ، إذا لم يمنحه ولاية عهده (٣) . ويقال أيضاً إن هشاماً استفتى في ذلك فقهاء قرطبة وعلماؤها ، فأقروه على ما طلب . وكان أشد الساعين لتأييد عبد الرحمن ، قاضي الجماعة أبو العباس ابن ذكوان ، وكتاب الإنشاء أبو حفص بن برد (٤) . وعلى أي حال فقد استجاب هشام المؤيد إلى طلب عبد الرحمن . وخرج أصحابه عشية ذلك اليوم ، يذيعون الخبر على الملأ ، وبقولون إن الخليفة قد اختاره وائياً لعهد ، إذ ليس له ولد يؤمل خلافته ، وكثر الإرجاف لذلك .

(١) أعمال الأعلام ص ٩١ ؛ والبيان المغرب ج ٣ ص ٤٣ .

(٢) البيان المغرب ج ٣ ص ٤٢ .

(٣) البيان المغرب ج ٣ ص ٣٩ .

(٤) ابن الأبار في الحلة السيرة ص ١٥٠ .

وفي صباح اليوم التالي ، وهو اليوم الخامس عشر من ربيع الأول سنة ٣٩٩ هـ (نوفمبر ١٠٠٨ م) ، أحيط قصر الخليفة بصفوف كثيفة من الخند ، وأخرج عبد الرحمن هشاماً ، وأجلسه في الساحة الكبرى ، وجلس من حوله الوزراء والقضاة والقادة وأكابر رجال الدولة ، فكان يوماً مشهوداً ، وصدر مرسوم ولاية العهد وهو من إنشاء كاتب الرسائل أبي حفص أحمد بن برد ، وذيل بشهادة قاضي الجماعة أحمد بن عبد الله بن ذكوان ، وشهادة الوزراء وهم تسعة وعشرون وزيراً ، ويليهم شهادة مائة وثمانين رجلاً ، من أكابر أهل الدولة والحكام ، والفقهاء ، وغيرهم . وإليك نص هذا المرسوم الشهير :

« هذا ما عهد به أمير المؤمنين هشام المؤيد بالله - أطال الله بقاءه - إلى الناس عامة ، وعاهد الله عليه من نفسه خاصة ، وأعطى عليه صفقة يمينه ببيعة تامة ، بعد أن أمعن النظر وأطال الاستخارة ، وأهمه ما جعله الله إليه من إمامة المسلمين ، وخصه به من إمرة المؤمنين ، واتقى حلول القدر بما لا يؤمن ، وخاف نزول القضاء ، بما لا يصرف ، وخشى أن هجم محتوم ذلك عليه ، ونزل مقدور ذلك به ، ولم يرفع لهذه الأمة علماً تأوى إليه ، ولم يوردها ملجأ تعطف عليه ، أن يكون يلقي الله مفراً فيها ، ساهياً عن أداء الحق إليها . ونفض عند ذلك طبقات الرجال من أحياء قريش وغيرهم ، ممن يستحق أن يسند الأمر إليه ، ويعول في القيام به عليه ، ممن يستوجه بدينه وأمانته وهديه وورعه ، يعد أطراح الهوادة ، والتبرئ من الهوى ، والتحرى للحق ، والزلفى إلى الله عز وجل بما يرضيه . وبعد أن قطع الأواصر ، وأسخط الأقارب ، عالماً بأن لا شفاعة عنده أعلى من العمل الصالح ، وموقناً أن لا وسيلة إليه أرضى من الدين الخالص ، فلم يجد أحداً أجدر أن يوليه عهده ، ويفوض إليه النظر في أمر الخلافة بعده ، لفضل نفسه ، وكرم خيمه ، وشرف همته ، وعلو منصبه ، مع تقواه وعفافه ومعرفته وحزمه ، من المأمون الغيب ، الناصح الحبيب ، النازح عن كل عيب ، ناصر الدولة أبي المطرف عبد الرحمن بن المنصور أبي عامر محمد بن أبي عامر وفقه الله ، إذ كان أمير المؤمنين قد ابتلاه واختبره ، ونظر في شأنه واعتبره ، فرآه مسارعاً في الخيرات ، مستولياً على الغايات ، جامعاً للمأثرات ، وارثاً للمكرمات ، يجذب بضعية إلى أرفع منازل الطاعة ، وينمو بعينه إلى أعلا درج النصيحة ،

أب منقطع القرين ، وصنو معدوم الغريم ، ومن كان المنصور أباه ، والمظفر أخاه ، فلا غرو أن يبلغ في سبيل الخير مداه ، ويحوى من حلال المجد ما حواه ، مع أن أمير المؤمنين أكرمه الله بما طالعه من مكنون العلم ، ووعاه من مخزون الأثر ، أمل أن يكون ولي عهده القحطاني ، الذي حدث عنه عبد الله بن عمرو ابن العاص ، وأن يتحقق به ما أسنده أبوهريرة إلى النبي - صلى الله عليه وسلم - ألا تقوم الساعة حتى يخرج رجل من قحطان يسوق الناس بعصاه . فلما استوى له الاختبار ، وتقابلت عنده فيه الآثار ، ولم يجد عنه مذنباً ، ولا إلى غيره معدلاً ، خرج إليه من تدبير الأمر في حياته ، وفوض إليه النظر في الخلافة بعد مماته ، طائعاً راضياً ، ومجتهداً متخيراً ، غير محاب له ، ولا مائل له بهواه ، ولا مترك نصح الإسلام وأهله فيه . وجعل إليه الاختيار لهذه الأمة بولاية عهده فيها ، وأمضى أمير المؤمنين أعزه الله ، عهده هذا ، وأنفذه ، وأجازه ، وبتله ، لم يشترط فيه مشنوية ولا خياراً ، وأعطى على الوفاء بذلك في سره وجهره ، وقوله وفعله ، عهد الله وميثاقه وذمة نبيه - صلى الله عليه وسلم - وذمة الخلفاء الراشدين من آلِه وآبائه ، وذمة نفسه ، بأن لا يبدل ولا يغير ، ولا يحول ولا يتأول . وأشهد على ذلك الله وملائكته ، وكفى بالله شهيداً . وأشهد عليه من أوقع اسمه في هذا الكتاب . وهو - أعزه الله - جائر الأمر ، ماضى القول والفعل ، بمحضر من ولي عهده المأمون ناصر الدولة أبي المطرف عبد الرحمن بن المنصور - وفقه الله - وقبوله لما قلده ، والتزامه ما أزمه ، وذلك في شهر ربيع الأول سنة ٣٩٩ هـ (١)

• • •

وعلى أثر صدور هذا المرسوم الفذ في تاريخ الخلافة الإسلامية ، خرج عبد الرحمن في موكب عظيم من الوزراء والقادة وأكابر أهل الدولة ، إلى قصر الزاهرة وهو «مختال في ثوب الخلافة ، يحسب أنها له نحلة ، وأنه مستحق لها ، وخليق بها» (٢) . وأقبل عليه المهثون من الوزراء ورجال الدولة ، يتكلفون البشر ، والدعاء له بما أكرمه الله به ، وقلوبهم تفيض إنكاراً وسخطاً ، وأنفذت

(١) ورد نص هذا المرسوم في أعمال الأعلام ص ٩١ - ٩٣ ؛ ونفح الطيب ج ١ ص ١٩٨ و١٩٩ ؛ وابن خلدون ج ٤ ص ١٤٩ ؛ والبيان المغرب ج ٣ ص ٤٤ - ٤٦ ؛ وقد اتبعنا نحن بالأخص النص الوارد في أعمال الأعلام لأنه أوفاهما وأصحها .

(٢) البيان المغرب عن ابن حون الله ج ٣ ص ٤٦ .

الكتب في الحال إلى سائر نواحي الأندلس والعدوة ، بوجوب إذاعة المرسوم ، والدعاء لولى العهد على المنابر بعد الخليفة .

وفي اليوم التالى جلس عبد الرحمن بتمصر الزاهرة فى هيئة الملك ، واصطف من حوله رجال الدولة وفق مراتبهم ، وأقبل وجوه قرطبة لتبتهته ، وفى مقدمتهم طائفة من المروانية المبعدين عن الخلافة ، وغيرهم من بطون قریش . يقول المؤرخ : « وخرجوا من عنده ، وقلوبهم ذؤوبة عليه ، موقدة ببغضه » . وبادر الشعراء وفى مقدمتهم أبو العلاء صاعد البغدادى ، برفع قصائد التهاني . وقد أورد لنا ابن حيان طرفاً مما قاله الشعراء فى ذلك (١) .

بيد أن شاعراً آخر ، هو ابن أبى يزيد المصرى ، نظم فى ذم ابن ذكوان وابن برد وهما المسئولان عن تحرير مرسوم البيعة هذين البيتين :

إن ابن ذكوان وابن برد قد ناقضا الدين عين عهد
وعاندا الحق إذ أقاما حفيد شنجهُ ولى عهد (٢)

وذهب عبد الرحمن فى غروره واختياله إلى أبعد مدى ، فعين ابنه الطفل عبد العزيز فى خطة الحجابة ، وأسبغ عليه لقب سيف الدولة ، وهو لقب عمه المظفر . واعتقد عبد الرحمن أنه حقق بذلك مشروعه العظيم ، فى تخليد ملك الدولة العامرية ، وأن الأمور قد دانت كلها له ، فأطلق العنان لأهوائه ، وانكب على طهوه وشرايه ، يحيط به نفر من البطانة السيئة ، والندماء الأسافل ، يصورون له الأحوال فى أبداع الصور وأحبها إلى نفسه .

وكان من الحوادث البارزة فى تلك الآونة ، حادث ظاهر البساطة فى ذاته ، ولكنه أذكى موجة جديدة من السخط . وذلك أن عبد الرحمن أصدر أمره إلى رجال الدولة وأكابر أهل الخدمة ، بأن يتركوا قلائسهم الطويلة ، المبرقشة الملونة ، التى كانوا يضعونها على رؤوسهم ، ويمتازون بها على باقى الطوائف ، وأن يستبدلوها فوراً بالعمائم . وقد كانت العمائم هى غطاء الرأس عند البربر . فأنف الكبراء لذلك ، ولكنهم رضخوا للأمر كارهين ، وحضروا إلى قصر الزاهرة بالعمائم لأول مرة فى يوم ١٤ جمادى الأولى ، وعلق جمهور الشعب على ذلك بمختلف الأقوال والتأويلات .

(١) راجع البيان المغرب ج ٣ ص ٤٦ و ٤٧ ؛ وأعمال الأعلام ص ٩٤ - ٩٦ .

(٢) ابن الأبار فى الحلة السبراء ص ١٥٠ .

وكان عبد الرحمن أثناء ذلك قد فكر في أن يشغل الناس بحدث الغزو أسوة بأبيه وأخيه ، وكان سانشو غرسية أمير قشتالة من جهة أخرى قد أبدى أنه لايزمع احترام السلم المعقود ، وأخذ بالفعل يغير على الحدود الإسلامية . ولم تكن أخبار قرطبة ، وما يسودها من اضطراب الأحوال ، خافية على الملوك النصارى . واعتزم عبد الرحمن أن يسير إلى الغزو ، وأن يقصد إلى جليقية ، فاعترضه كبير الفتبان الصقالبة ، وحذره من مغادرة قرطبة في هذا الوقت ، وأوضح له أن المروانية (بنى أمية) ياتمرون به ، ويدبرون انقلاباً ينتزعون به الحكم ، وأن كثيراً من الحند يميلون إليهم ، فلم يصغ إلى قوله ، وأمر بالخروج إلى الغزو^(١) ، وعهد بإدارة الحكومة في غيبته إلى ابن عم أبيه عبد الله بن أبي عامر المعروف بعسكلاجة . وكان خروجه من قرطبة في ١٦ جمادى الأولى سنة ٣٩٩ هـ (يناير سنة ١٠٠٩ م) أعنى في أعماق الشتاء ، وسار بالجيش صوب طابلية في طريقه إلى جليقية والأمطار تنهمر والبرد يهراً الأجسام ، وهو على سجيته من اللهو والشراب . ثم اخترق حدود مملكة ليون ، ودخل جليقية . ولكن ملك ليون ألفونسو الخامس تحصن بقواته في روؤوس الجبال ، ولم يتقدم لقتال المسلمين ، ولم يجد عبد الرحمن سبيلاً لقتاله لفيضان الأنهار وكثرة الثلوج ، فقرر العودة بجيشه ، فارتد راجعاً أدراجه . وبالرغم من أنه لم يحقق في غزوته هذه أية نتائج ذات شأن ، فقد نظم ابن دراج القسطلي ، على سجيته ، في تلك الغزوة قصيدة طويلة ، يشيد فيها بعبد الرحمن ، وهذا مطلعها :

هو البدر في فلك الحمد دارا فما غسق الخطب إلا أنارا
نجلى لنا فأرتنا السعود غيوب المنى في سناه جهارا
وأوفى فكادت صوادي القلوب تقوت العيون إليه بدارا
وحل فحلت جسام الفتو ح تبأى اختيالا وتزهى افتخارا^(٢)
وما كاد عبد الرحمن يصل إلى طليطلة ، حتى وافته الأنباء بأن انقلاباً حدث في قرطبة ، وأن الثوار قد استولوا على مدينة الزاهرة ، ونهبوا ذخائرهما ، وأضرموا النار في صروحها . وتسربت الأنباء إلى الحند ، فوقع الاضطراب في الجيش ،

(١) أعمال الأعلام ص ٩٦ .

(٢) وردت هذه القصيدة ماملة في ديوان ابن دراج (ص ٤٥٩ - ٤٦٣) .

واضطرب عبد الرحمن أن يسير لفوره بالحيش إلى قلعة رباح ، في طريقه إلى قرطبة .

لم يكن ذلك الهدوء الظاهر ، الذى ساد قرطبة خلال هذه الأشهر القلائل التى اضطلع فيها عبد الرحمن بالأمر ، سوى الهدوء الذى يسبق العاصفة . وكان حكم الطغيان الذى فرضه بنو عامر على الأندلس قد أخذ منذ أيام عبد الملك ، يحدث آثاره المادية والأدبية ، فى نفوس الشعب ، ويبدو لهم بغيضاً مرهقاً . ولم يكن يستر هذه الآثار سوى سجاج خفيف من الحذر والترقب . ذلك أن سلطان بنى عامر كان يستند دائماً إلى قوة عسكرية يخشى بأسها ، قوامها البربر والصقالبة ؛ فلما جاء عبد الرحمن ، وكشف عن نيته فى الاستئثار برسوم الملك ، واغتصاب ولاية العهد ، ألفت العناصر الناقمة ، وفى مقدمتها بنو أمية أصحاب الولاية الشرعية ، فى ذلك مادة جديدة ، للتنديد بحكم بنى عامر وطغيانهم واجترائهم ، وفى تلمس الوسائل الكفيلة بسحق دولتهم ؛ وكانت شخصية عبد الرحمن الهزيلة ، وأرومته الأجنبية ، وما أبداه من ضروب الاستهتار والمجون ، تذكى عاطفة السخط عليه ، سواء بين الخاصة أو الكافة ، وتمهد السبيل إلى الانقلاب المنشود .

وكانت خيوط المؤامرة التى اجتمعت حولها العناصر الناقمة ، تنوثق شيئاً فشيئاً ، وكان أهم مدبريها شخصيتين ، الأولى الذلفاء والدة عبد الملك المصور ، وقد كانت تعتقد اعتقاداً جازماً بأن ولدها قد توفى غيلة بالسهم ، وأن قاتله هو أخوه عبد الرحمن ، وكانت لذلك تتوق إلى الانتقام ، والثانية هى شخصية فتى من بنى أمية هو محمد بن هشام بن عبد الجبار بن عبد الرحمن الناصر ، وكان عبد الملك قد أمر بإعدام أبيه هشام بتهمة التآمر مع الوزير عيسى بن سعيد كما تقدم .

وكانت الذلفاء امرأة ذكية قوية العزم ، كثيرة المال والوجهة ، وكانت بالرغم مما أسبغه عبد الرحمن عليها وعلى أسرة ولدها وأخيه عبد الملك ، من ضروب الرعاية والإكرام ، تسعى دائبة للإيقاع به . فلما شعرت بأن الحوقد تهباً للسعى ، بما ثار حول تصرفات عبد الرحمن من ضروب الإنكار والسخط ، اتصلت بوجوه بنى أمية ، وأخذت تحثهم على التحرك والقيام لاسترجاع دولتهم ، والانتقام من بنى عامر ، وكان صلة الوصل بينها وبينهم فتى من صقالبة العامرين يدعى بشرى

وكان من قبل من فتیان المرأونة ، ثم انتقل إلى العامرين فيمن انتقل من فتیان القصر ، ولكنه بقي على ولائه لسادته الأقدمين . وتعهدت الذلفاء بأن تعاون المتآمرين بالمال والتدبير ؛ وسرعان ما استجاب بنو أمية للدعوة واختاروا من بينهم زعيماً هو محمد بن هشام بن عبد الجبار . وكان فتي جريئاً مغامراً في الثالثة والثلاثين من عمره إذ كان مولده في سنة ٣٦٦ هـ ، وأمه أم ولد تدعى مزنة^(١) ، وكان مذ قتل أبوه هشام ، يتحرز على نفسه ، ويختفي في أحواز قرطبة وكهوفها ، ويجتمع حوله الصحب من المغامرين . فلما أجمع بنو أمية أمرهم على اختياره ، بايعوه سرّاً بالولاية والخلافة ، وكان له ولأبيه من قبل دعاة من أهل قرطبة من الروانية وغيرهم ، يدعون له ؛ واشتدت هذه الدعاية مذ أجمع المتآمرون رأيهم على اختياره . وكان خروج عبد الرحمن المنصور أو شنجول إلى الغزو فرصة سانحة للعمل ، فأخذ محمد بن هشام يحشد أنصاره ، ويجتمع بهم سرّاً في كهوف جبل قرطبة . وكثر إرجاف دعائه في المدينة أن دولة بني عامر قد قضى عليها ، وأن الأمر سيعود إلى الروانية ، وكثر تشهرهم بعبد الرحمن وقبيح تصرفاته . وكانت هذه الدعاية تجدد لدى جمهور الكافة أذناً صاغية ، لما وقر في نفوسهم من بغض عبد الرحمن وازدرائه . وإليك كيف يصف لنا ابن الخطيب موقف الشعب القرطبي ، وحالته النفسية إزاء العامرين ، وإزاء عبد الرحمن :

« وقد جبل الله أهل قرطبة على ملل ملوكها ، والقلق بذوى أمرها ، والإرجاف بما يتوقع لها . وكان سفهاؤهم بالأسواق والجامع غير المحتشمة ، تؤثر عنهم في العامرين نواذر حارة ، واستراحات عنهم ؛ كان المنصور وولده المظفر يستحضر لذلك مشيختهم ، ويأمرهم بإنهاء وعيده ، ويشافههم بإنكاره ، ولا يزال حكامه يبلغون في تغيير ذلك وإنكاره أقصى المبالغ ضرباً للظهور ، وقطعاً للألسنة . فلما ذهب عبد الرحمن هذا المذهب ، وأطاع هذا الخرق ، كثر الحمل وشهرت البغضة^(٢) »

ولم يكن الروانية ، وحدهم في هذا التدبير الذي قصد به إلى سحق نير العامرين ودولتهم ، فقد كان إلى جانبهم سائر العناصر الناقمة من قریش ، ومن المضربة

(١) جذوة المقتبس ص ١٩ .

(٢) أعمال الأعلام ص ٩٠ .

والعينية ، أو بعبارة أخرى من البيوت العربية ، التي عمل المنصور وآله على سحق رياستها ومكانتها الاجتماعية ، وإخضاعها لنفوذ البربر والصقالبة . وقد رأينا فيما تقدم أن هذه لم تكن أول مؤامرة أو محاولة من نوعها لتحطيم نير بني عامر ، وأن المنصور وولده عبد الملك ، استطاعا أن يقضيا على بعض المؤامرات الخطيرة ، التي دبرت لتحقيق هذه الغاية .

كانت الظروف قد تهيأت إذاً أمام المتآمرين للعمل . فقد خرجت معظم وحدات الجيش مع عبد الرحمن إلى الغزو ، ولم يبق منه سوى فرق قليلة ترابط في قرطبة والزاهرة ، وجهور الشعب متأهب بعواطفه ونفسيته الضجيرة المتدمرة لتأييد أى انقلاب .

ولما نضجت المؤامرة ، واتسع نطاق الدعوة لمحمد بن هشام ، وكثر الإرجاف بالانقلاب المنشود ، شعر الوزراء العامريون بالخطر ، وضاعفوا الأبهة والحرس حول قصور الزاهرة . وكان محمد بن هشام وأعوانه خلال ذلك يجتمعون سرا وينظمون خطتهم الأخيرة . وكان محمد هذا الذي اختاره بنو أمية زعيماً لهم ، قد فطر منذ نشأته على الشر والمغامرة ، لا يخاط سوى الزعانف والأشرار . وقد وصفه ابن الخطيب في قوله : « جرار جسور ، نأثر مخاطر ، خليع ، مداخل للصقورة والفتاك ، لا يدري في أى واد يهلك » (١) .

وفي يوم ١٦ جمادى الأولى سنة ٣٩٩ هـ (١٥ فبراير ١٠٠٩ م) جاءت الأنباء إلى قصر الزاهرة بأن عبد الرحمن قد عبر بجيشه إلى أرض النصارى ، فأدرك المتآمرون في الحال أن الفرصة قد سنحت للعمل ، واعتزم محمد بن هشام لفوره أن ينزل الضربة المنشودة . وكان قد بث نفراً من رجاله حول قصر قرطبة ، وقد تسلحوا تحت ثيابهم خفية . ففي عصر هذا اليوم ، كان محمد يكمن في الضفة الأخرى من النهر (نهر الوادي الكبير) قبالة القصر . وكانت خطة المتآمرين أن يسددوا الضربة الأولى لقصر قرطبة ، وهو يومئذ المقام الشتوي للخليفة هشام المؤيد ، وحوله قلة من الحرس ، ولأن ظروف العمل في قرطبة ، كانت أدعى إلى النجاح نظراً لعطف الكافة والدهماء وتأييدهم . وفي الوقت المحدد عبر محمد النهر ، والتف حوله من أصحابه اثنا عشر فتي ، منهم طرسوس الجوسى ، وهو أشدهم

(١) أعمال الأعلام ص ١٠٩ ؛ وراجع البيان المغرب ج ٣ ص ٥٢ .

جرأة وفتكاً ؛ فساروا حذرین حتى باب القصر ، ثم شهر طرسوس سيفه ، وهجم في الحال على صاحب المدينة عبدالله بن أبي عامر (عسكلاجة) وانزعه من مجلسه ، وكان محتسب الحمر مع قينتين من جواریه ، وجيء به مخموراً إلى محمد بن هشام ، فأمر بضرب عنقه ، ورفع رأسه على رمح ، فلما أبصرت العامة رأسه مرفوعاً ، هرعت إلى محمد بن هشام ، والتف حوله منهم جمهرة كبيرة من السفلة والغوغاء ، فقويت بذلك عصبته ، ثم بادر باقتحام سجن العامرية ، وأفرج عن فيه من القتلة واللصوص ، وتلاحق عليه أقاربه المروانية من كل صوب ، واستنهبوا الناس لنصرته ، حتى اجتمع حوله منهم طوائف غفيرة .

ونعى الخبر إلى الخليفة هشام المؤيد ، فأمر بإغلاق أبواب القصر ، وصعد إلى السطح ، ومن حوله خادمان يحمل كل منهما مصحفاً ، وحاول مخاطبة العامة ، فأسكتوه وأغلظوا له القول ، فأنصرف عنهم إلى داخل القصر ، وأمر الخدم بالكف عن كل مقاومة حتى يقضى الله أمره . فأمر محمد بن هشام العامة بنقب أسوار القصر ، واقتحام أبوابه ، وبذل العامة في ذلك جهوداً فادحة ، وأتوا بالسلاسل ، وصعدوا إلى أعلا الأسوار ، وسيطروا على عدة نواح من سطح القصر ، وارتد الخدم أمامهم ، ووصلوا إلى خزائن السلاح فنبوها واشتد ساعدهم . ولما سمع الخليفة بذلك ، خشي البادرة على نفسه وأهله ، فبعث إلى محمد بن هشام يعرض عليه أن يقضى بني عامر عن الحكم ، وأن يشركه في أمره ، فرفض محمد ذلك ، وطلب إلى فاتن محافظ القصر أن يفتح الأبواب ، فأذعن ودخل محمد القصر ، واحتل مجلسه ، ومن حوله خاصة أصحابه ، واعتزم أن يقضى ليله بين الشموع المضئية . ثم قام بطرد العامة عن القصر وأجلاهم عن سطحه ، وكفهم عن انتهاك حرمة ، وعين ابن عمه محمداً بن المغيرة في كرسي الشرطة ، وابن عمه الآخر عبد الجبار بن المغيرة في خطة الحجابة ، ودعا سليمان بن هشام من قرابته فسماه ولي عهده ، وبعث إلى الخليفة هشام يعاتبه على إثثار بني عامر ، ويدعوه إلى خلع نفسه ، منذراً مهدداً ، فارتاع هشام وبادر بالقبول ، واستدعى محمد في الحال بني عومته ، وأكابر بيته ، ونفراً من الأعيان والوزراء والقضاة في جوف الليل ، وأعلن هشام خلع نفسه بمحضر من بعضهم ، وقدم إلى محمد بعض حله الخلافية الفاخرة ، فم الخلع ، وذلك بعد أن مكث هشام في الخلافة ثلاثة وثلاثين عاماً

وبضعة أشهر ، وآلت الخلافة في تلك الليلة إلى محمد بن هشام بن عبد الجبار ابن عبد الرحمن الناصر ، وتلقب بالمهدى . وكان ذلك صبيحة يوم الأربعاء ١٧ جمادى الآخرة سنة ٣٩٩ هـ (١٦ فبراير سنة ١٠٠٩ م) .

وهرعت الجموع من سائر أنحاء قرطبة إلى محمد بن هشام ، ملتفة حوله ، مؤيدة لبيعته ، واعتبروه بطلاً متقدماً ، إذ كان أول من استطاع أن يثور في وجه بني عامر ، وأن يعمل لإزالة ملكهم ، وشعروا أن كابوس الإرهاب العامري قد تقلص ، وأن عهداً جديداً سوف يبدأ ، ولم يخطر ببالهم قط ، أن هذا التحول كان نذير المحنة الغامرة ، التي سوف تطيح بكل مانعوا به في ظل الدولة العامرية من السكينة والأمن والرخاء .

وفي الوقت نفسه كانت مدينة الزاهرة ، معقل بني عامر ، عرضة لهجوم مماثل . وكان القائمون على أمرها قد نعى إليهم ما وقع بقرطبة ، وبادر محافظ الزاهرة عبد الله بن مسامة إلى ضبط أسوارها وأبوابها ، وحشد ما لديه من الجند ، فبلغوا سبعائة ، وتأهب للدفاع وبعث محمد بن هشام إلى الزاهرة جمهوراً غفيراً من العامة مع طائفة من أصحابه . فأحاطوا بها وحاولوا اقتحامها ، ولكن نظيفاً الخادم ، ونصراً المظفرى ، وهما من الفتيان العامريين ، استطاعوا في قوة من الغلمان إجلاء العامة عن الأسوار ، ثم دخل الليل فحال بين الفريقين .

وفي صباح اليوم التالي ، ١٨ جمادى الأولى ، ندب محمد بن هشام أوالخليفة المهدي ، ابن عمه عبد الجبار بن المغيرة لمهاجمة الزاهرة ، فسار إليها على رأس قوة كبيرة من العامة ، الذين أقبلوا على التطوع فرساناً ومشاة ، ووزعت عليهم الأسلحة ، وأمامهم رأس عبد الله بن أبي عامر مرفوعاً فوق رمح ، وهاجموا قصر عبد الملك المظفر ، وكان خارج الأسوار ، وكان فيه أهله وأمه الذلفاء ، فنهبوه وتحافظوا متاعه وذخائره ، وذلك بالرغم من أن الذلفاء هي التي أمدت محمداً بن هشام بعونها ومالها . فلما شعر أهل الزاهرة ، بأنه من العيب مقاومة هذه الجموع الهائلة ، عرضوا التسليم على أن يصدر لهم المهدي الأمان ، فبعث إليهم المهدي الأمان المنشود مكتوباً بخطه ، وكان ذلك وقت الظهر ، ففتحو أبواب المدينة وسلموها ، ودخل عبد الجبار لقوره قصر الزاهرة ، واقتحمته الجموع ، ونهبت منه من المتاع والثفائس ما لا يقدر ولا يوصف ، واستأثر عبد الجبار

وصحبه المقربين من ذلك بأعظم نصيب ، واستولت العامة على خزائن الكسوة والمتاع والسلاح والحلى ، ولم يكف النهب إلا في مساء اليوم التالى . وحرص عبد الجبار على أن يحيط بقواته بيوت الحُرْم والمال وخاص المتاع والجوهر ، وأن يبعد العامة عنها ، وقد استولى المهدي على جميع محتوياتها ونقلها إلى قصر الخلافة بقرطبة . ويقال إنه حصل من أموال الزاهرة المنهوبة خمسة آلاف وخمسةائة ألف دينار من النقود ، ومن الذهب ما قيمته ألف ألف وخمسةائة ألف ، وأطلق المهدي الحرائر من بنى عامر ، واصطفى الحوارى لنفسه ، ووهب منهن لوزرائه وأصحابه ، وأذن للذلفاء أن تنتقل وأسرة ولدها عبد الملك وولده الصغير محمد ، مطلقة السراح إلى دورها بالمدينة ، وكانت لحرصها قد نقلت إليها معظم خزائن المال والمتاع .

ولم يكف المهدي بذلك كله ، بل عمد بعد أن استصفى سائر ما فى الزاهرة من الخزائن والأموال الطائلة ، إلى هدم صروحها وأسوارها ، واستطالت الأيدي إلى كل نفيس من مرمم قصورها وطرائفها وأنقاضها وأبوابها ، فلم تمض أيام قلائل على ذلك السيل المدمر ، حتى اختفت صروح الزاهرة ومعالمها الضاحكة ، وغدت أطلالا دارسة ، وخرائب موحشة . وكان المهدي يتعجل لإزالة رسوم بنى عامر بكل ما وسع ، خشية أن يعود عبد الرحمن المنصور ، قبل أن يتم إحكام ضربته وتوطيد مركزه .

وقد ذكرت لنا الرواية أن المنصور بن أبى عامر ، كان يتوقع ذهاب دولته وخراب الزاهرة ، وكان هذا الخاطر ينتابه من آن لآخر ، ويفضى به إلى خاصته ، وقد نقل إلينا الوزير أحمد بن حزم ، والد الفيلسوف الشهير ، أن المنصور كان يقول : « ويحآ لك يا زاهرة الحسن ، لقد حسن مرآك ، وعقب ثراك ، وراق منظرك ، وفاق مخبرك ، وطاب تربك ، وعذب شربك ، فيا ليت شعرى من الذى يهدمك ، ويوهن جسمك ويعدمك » ، وأنه كان يؤكد لأصحابه صحة هذه النبوءة فى مناسبات كثيرة (١) .

لما وصلت أبناء هذا الانقلاب الخطير الذى وقع فى قرطبة ، إلى عبد الرحمن

(١) البيان المغرب ج ٢ ص ٦٥ .

المنصور أو شنجول ، وهو في طليطلة ، بادر بالسير في قواته إلى قلعة رباح ،
والحيرة تغلب عليه ، والاضطراب يسود صفوف الجنود ، وهناك تمهل قليلا ،
وأعلن في الحال أنه ينزل عن ولاية العهد ، ويقتصر على الحجابة ، وبعث كتبه
بذلك إلى طليطلة وأعمالها ، وفيها يناشد الناس أن يهرعوا إلى نصره الخليفة المظلوم
هشام ، وإلى التمسك بطاعته ، ويصف لهم ما ارتكبه محمد المهدي ودهماء قرطبة
من العيث والسفك . فلم يعبأ أحد بدعوته ، وكان أول الخارجين عليه الفتي واضح
مولى أبيه ، وهو يومئذ والى طليطلة . وحاول شنجول في الوقت نفسه ، أن يأخذ
العهد على زعماء الجند بنصرته والقتال معه ، ولا سيما زعماء البربر الذين يؤلفون
سواد الجيش ، فظاهروا بموافقته ، ولكنهم تعاهدوا فيما بينهم ، وعلى رأسهم
كبيرهم محمد بن يعلى الزناتي زعيم زناته ، أن يتخلوا عن شنجول وألا يغامروا
بمحاربة أهل قرطبة ، وفيها أسرهم وأموالهم ، وخصوصاً بعد الذي ترمى إليهم
عن التفاف الناس حول محمد بن هشام ، وتفانيهم في نصرته ؛ وقوى هذا العزم
لديهم ما أفضى إليهم القاضي أبو العباس بن ذكوان - وكان قد صحب شنجول
في غزاته - من أنه يترأ من شنجول ويقضى بفسقه ، وينكر عليه ما يدعو إليه من
قتال المسلمين بقرطبة ، وفيهم العلماء والصلحون ، والنسوة والأطفال . ومما تجدر
ملاحظته أن القاضي ابن ذكوان هذا ، كان من قبل من أخص رجال الدولة
العامة ، وكان من أشد المعاونين لعبد الرحمن المنصور على انتزاع ولاية العهد
من هشام .

وكان إلى جانب شنجول في معسكره ، زعيم من زعماء بني غومس سادة
مقاطعة كريون في جليقية ، وكان قد صحبه يرجو عونه على بعض خصومه من
الزعماء المجاورين ، فلما رأى اضطراب أحوال الجند ، نصح شنجول بأن يعدل
عن السير إلى قرطبة ، وأن يعود في أصحابه إلى طليطلة فيتفق مع واضح ، فأبى
شنجول نصحه ، وزعم أنه متى اقترب من قرطبة ، سارع الناس إلى نصرته .
وقد بقي هذا الزعيم النصراني إلى جانب شنجول حتى النهاية (١).

وعلى أي حال فقد سار شنجول في قواته صوب قرطبة ، حتى انتهى إلى
«منزل هاني» ، وهي أقرب محلاته إلى المدينة . وما كاد الليل يرخي سدوله ،

حتى غادر معظم الحند البربر أمكنتهم تحت جناح الظلام ، وأسفر الصباح وهو صبح نهاية شهر جمادى الآخرة سنة ٣٩٩ هـ (نهاية فبراير سنة ١٠٩٩ م) فلم يبق إلى جانب عبد الرحمن سوى خاصته وحرمة وحشمه وجمع يسير من غلمانته ، وابن غومس في نفر من أصحابه ، وغادر المعسكر تباعاً زعماء البربر ، والفتيان الصقالبة ووجوه الأندلسيين ، وهنا نصحه ابن غومس مرة أخرى بأن ينجو بنفسه وصحبه ، فأبى .

وسار شنجول في أهله حتى وصل إلى أرملاط من مشارف قرطبة ، وقد تركه النفر القليل الذي بقي معه ، فاستولى عليه اليأس ، وأدخل حرمة قصر أرملاط ، ثم خرج مودعاً والضراخ يتبعه ، وسار ومعه ابن غومس ، وقد عول على الفرار ، فالتجأ ليلاً إلى الدير القريب . وكان محمد بن هشام في تلك الأثناء يتتبع أخباره وحركاته ، فلما نعى إليه أنه يزعم الفرار ، بعث في الحال الحاجب ابن ذرى في طائفة من الفرسان ، فصار مسرعاً إلى أرملاط ودهم الدير ، وقبض على شنجول وابن غومس . وأخذ نساء شنجول من القصر ، وهن سبعون جارية ، فبعث بهن إلى قرطبة . ولما شعر شنجول بأنه هالك أعلن أمام معتقله أنه يعترف بطاعة المهدي ، فاستاقه ابن ذرى هو وابن غومس ، ثم أمر بتوثيق يديه بالرغم من احتجاجه ، وفي خلال الطريق طلب شنجول أن يفك وثاق يديه قليلاً ليستريح ، فأجيب إلى طلبه ، وعندئذ أخرج من خفه سكيناً بسرعة البرق ، وحاول أن يغمده في صدره ، فتداركه الحند ، وأوثقوا يديه ، وأمر الحاجب يقتله ، فذبح في الحال ، وفصل رأسه عن جسمه ، وقتل ابن غومس ، وحمل رأس شنجول إلى المهدي في نفس المساء ، وحمل جسده معروضاً على بغل ، وأمر المهدي فحنطت الحثة ، وركب عليها الرأس ، وألبست كسوتها ، ونصبت على خشبة طويلة على باب السدة ، ونصبت رأس ابن غومس على سارية إلى جانبها . وكان مقتل عبد الرحمن المنصور في اليوم الثالث من رجب سنة ٣٩٩ هـ (٣ مارس سنة ١٠٠٩ م) .

وقد انتهت إلينا من تعليقات المعاصرين على تلك الحوادث المتوالية المدهشة تعليق شاهد عيان يقول فيه :

« ومن أعجب ما رأيت من عبر الدنيا ، أنه تم من نصف نهار يوم الثلاثاء

لأربع عشرة ليلة بقيت من جمادى الآخرة المؤرخ إلى نصف نهار يوم الأربعاء ثمة الشهر ، وفي مثل ساعته فتح مدينة قرطبة ، وهدم مدينة الزاهرة ، وخلع خليفة قديم الولاية وهو هشام بن الحكم ، ونصب خليفة جديد لم يتقدم له عهد ، ولا وقع عليه اختيار ، وهو محمد بن هشام بن عبد الجبار ، وزوال دولة آل عامر ، وكرور دولة بني أمية ، وإقامة جنود من العامة المحشودة عورض بها أجناد السلطان أهل الدربة والتجربة ، ونكوب وزراء جلة ، ونصب ضدادهم ، تقتحمهم العين هجئة وقبالة . وجرى هذا كله على يدي بضعة عشر رجلا من أراذل العامة ، حجامين وخرازين ، وكنافين ، وزبالين ، تجاسروا عليه ، وقد تكفل المقذور بوقوعه ، فم منه ما لم يكن في حساب مخلوق تمامه (١) .

• • •

وهكذا انهارت الدولة العامرية بسرعة مذهشة لم يكن يتوقعها أحد ؛ فقد تولى عبد الرحمن المنصور الحكم عقب وفاة أخيه عبد الملك في ١٧ صفر سنة ٣٩٩ هـ ، والدولة محكمة النظام موطدة الدعائم ، والحيش على ولائه للدولة العامرية ، فلم تمض سوى ثلاثة أشهر حتى انهار ذلك الصرح الشامخ ، الذي شاده المنصور ابن أبي عامر ، والذي لبث خمسة وثلاثين عاماً معقد النظام والسلامة والأمن والرخاء للأندلس ، واستطاعت جموع يسيرة من الدهماء ، أن تحقق بسرعة البرق ما لم يجرؤ على تصوره أو محاولته من قبل ، أحد من أكابر خصوم الدولة العامرية والمتربصين بها . ومن الواضح أن الأسباب الجوهرية لمثل هذا الانقلاب الصاعق ، ترجع قبل كل شيء إلى العوامل الأدبية والنفسية ، فقد كان نظام الطغيان المطبق الذي فرضه المنصور على الأمة الأندلسية ، بالرغم من كل ما حققه للأندلس من السؤدد والرخاء ، يبدو كالكابوس المرهق ، وكان الشعب يتوق إلى التخلص من هذا النير ، الذي سلبه كل مظاهر الحرية . فلما تولى عبد الرحمن المنصور ، كانت النفوس قد أشبعت ببغض هذا النظام والرغبة في زواله ، وكان سلوك عبد الرحمن وتصرفاته ومجونه واستهتاره ، عاملاً جديداً في إذكاء هذا البغض وهذه الرغبة . وكان لاجترائه على اغتصاب ولاية العهد ، أسوأ وقع في نفوس قوم جبلوا على تقديس شعائر الخلافة وحقوقها الشرعية . فلما خرج عبد الرحمن إلى الغزو ، كان

الشعب يضطرم سخطاً وبغضاً وازدراء ، وكان يرقب أول بادرة للانفجار . فلما وقعت هذه البادرة بوثوب محمد بن هشام ، لبى الشعب لفوره دعوة الخروج والثورة ، ولم يفكر في شيء من العواقب ، ولم يفكر إلا في تحطيم هذا النير البغيض - نير بني عامر - بأية وسيلة . وكان له ما أراد ، وقد حقق رغبته بأيسر أمر .

على أن الأمة الأندلسية لم تجن خيراً من هذا الانقلاب ، الذي حققه الشعب القرطبي دون تدبر ودون تحوط . ذلك لأنه لم يقف عند القضاء على دولة بني عامر ، بل بالعكس كان نذيراً بانهيار دعائم النظام والأمن ، اللذين تمتعت بهما الأندلس في ظل الدولة المنقضية ، ودفع الأمة الأندلسية إلى معترك مروع من الفتن المضطربة ، والفوضى الشاملة ، التي انتهت بانهيار حكومتها المركزية ، وتمزيق وحدتها ، وواجهتها لأخطر مصير عرفته منذ قيامها في شبه الجزيرة .

الكتاب الرابع

سقوط الخلافة الأندلسية
ودولة بني حمود

٣٩٩-٤٢٢ هـ : ١٠٠٩-١٠٣١ م

الفصل الأول

الخلافة في معترك الفتنة والفوضى

غداة الانقلاب . اقتسام السلطان . الشعب القرطبي . شخصية المهدي . اضطهاده للبربر . تحامل العامة عليهم . نفي المهدي للفتيان الامريين . إخفاؤه للخليفة هشام وادعاؤه بوفاته . عيته وطغيانه . هشام بن سليمان . سميته إلى خلع المهدي . القتال بين الفريقين . هزيمة هشام ومصرعه . تحريض المهدي على البربر والفتك بهم . سيرهم إلى قلعة رباح . يرشحون سليمان بن الحكم للخلافة . استنصارهم بسانشو غرسية أمير قشتالة . الحرب بينهم وبين الفتي واضح . هزيمته وفراره . تأمب المهدي للدفاع . سير البربر وحلفائهم النصارى إلى قرطبة . موقعة قنتش . هزيمة القرطبيين وتمزيق جوعهم . المهدي يظهر الخليفة هشام . فشل محاولته وفراره . مبايعة سليمان بن الحكم . المهدي وواضح يدبران محاولة جديدة . استنصارها بأميري برشلونة وأورقلة . سير المهدي وحلفائه الفرينج إلى قرطبة . اللقاء بينهم وبين البربر . هزيمة البربر وفرار سليمان . تجديد البيعة للمهدي . سيره لمطاردة البربر . هزيمته وارتداده إلى قرطبة . استعداده للدفاع . الوحشة بينه وبين واضح . ائثار الفتیان به ومقتله . حود هشام المؤيد إلى الخلافة . واضح يتولى الحجابة . تمسك البربر بولاية سليمان . سير البربر إلى الزهراء واحتلالها . عيهم بأرض قرطبة . هشام يقدم الحصون الامامية لأمير قشتالة . حصار البربر لقرطبة . واضح يحاول الفرار . ضبطه ومقتله . ابن وداة وابن مناو . هشام يحاول استرضاء البربر وسليمان . فشل المحاولة . اشتداد الحصار على قرطبة . مقتل حباسة بن ماكنن . هياج البربر . القتال بينهم وبين أهل قرطبة . هزيمة القرطبيين . اقتحام البربر للمدينة والفتك بأهلها . سليمان المستعين يسترد الخلافة . مصير هشام المؤيد . سليمان يتلقب بالظافر . تفكك عرى الالة . توزيع الكور بين زعماء البربر . خلال سليمان وشمه .

تربيع محمد بن هشام الملقب بالمهدي على كرسی الخلافة ، مكان الخليفة هشام المؤيد ، في ١٧ جمادى الآخرة سنة ٣٩٩ هـ (١٦ فبراير سنة ١٠٠٩ م) ، وانقضى عهد السلطة الثنائية - سلطة الخليفة الشرعى الإمامية ، وسلطة حاجبه والمتغلب عليه الفعلية - ليفسح مجالا لعود السلطة الموحدة . ولكن الظروف التى وقع فيها هذا الانقلاب الحاسم ، الذى أودى بين عشية وضحاها ، بسلطان دولة من أعظم الدول الأندلسية ، لم تكن تسمح لأية سلطة نظامية أن تثبت وأن تستقر ؛ فقد كان الخليفة الحديد ، شخصية مغامرة رخوة ، تحركها النزعات الوضيعة ، ولا تحمدها أية غاية مثلى ، وقد أطلقت سائر الأهواء المتوثبة من عقالمها ، وأخذ كل حزب وكل فريق وكل طائفة ، تحاول أن تحصل نصيبها من

أسلاب الدولة المنهارة . فقد كان هناك المروانية أو بنو أمية ، يرون أنهم أصحاب السلطة الشرعية ، وأصحاب التراث المتخلف عن مغتصبها ، بنى عامر ؛ وكان هناك الفتيان العامريون ، وأنصارهم من الصقالبة ، ومن إليهم من الجند المرتزقة ، وقد كانوا أولياء الدولة العامرية ، وكانوا من حيث العدد والعصبية قوة يعتد بها ؛ وكان هناك البربر ، وقد كانوا عماد الجيش العامري ، وكان عددهم قد تضاعف في أواخر أيام المنصور وبنيه ، وتوافد كثير من زعمائهم إلى شبه الجزيرة ؛ ثم كان هناك أخيراً الشعب القرطبي ، أو بعبارة أخرى كتلة العامة والدهماء الذين أزرروا الخليفة الحديد والتفوا حوله ، وقد كانوا قوة خطيرة متقلبة ، كثيرة الأهواء والنزعات ، لا تؤمن عواقيها .

استقبل الشعب القرطبي ، ولاية الخليفة الحديد ، بمظاهر السرور والرضى ، وأقاموا الحفلات والولائم ، وظنوا أنهم قد أفلتوا من أغلال النظام العامري المرهق ، ليستقبلوا عهداً أكثر تسامحاً ، وأوسع آفاقاً ، وما دوراً أن القدر يتربص بهم ، وأن الأندلس سوف تجوز من تلك الساعة ، عهداً مليئاً بالحن والأحداث المؤلمة .

والواقع أن الخليفة الحديد لم يكن رجل الموقف ، ولم تكن جرأته التي تدرع بها لانتراع السلطة من هشام المؤيد ، والقضاء على سلطان بنى عامر ، جرأة زعيم مقدم يقدر المسؤوليات التي أخذها على عاتقه ، ولكن جرأة مغامر متهور ، وزعيم عصابة غير مسئولة ، التفت حوله جموع الدهماء الصاخبة ، دون وعى ولا تدبر ، شأنها دائماً في كل انقلاب وكل حدث جديد . ومن ثم فإنه ما كاد يشعر باستقرار أمره ، وتمكن سلطانه ، حتى أطلق العنان لطغيانه وأهوائه ، وجمع حوله بطانة سوء ، أخذت تنكر للناس ، وتضطهدهم ، وتسومهم سوء الحسف ؛ وأبدى الموكلون بالقصر من رجاله نحو البربر بنوع خاص منتهى الشدة والفظاظة ، وكان المهدي ورجاله يخصون البربر بالبغض والزراية ، لأنهم كانوا عضد المنصور ، وسند نظامه الحديدى ، وكان أهل قرطبة ينساقون مع المهدي في هذه العاطفة ضد البربر ، وينظرون إليهم شزراً .

وبدا سخط المهدي نحو البربر في سوء معاملتهم ، والتشدد في دخولهم القصر ، فكانوا يمنعون من الركوب عند الدخول ، وينزع سلاحهم ، ويوجه إليهم قارص

الكلام ، ولم يفرق في ذلك بين أصاغرهم وزعمائهم ، حتى أن كبيرهم زعيم قبيلة
صنهاجة ، زاوى بن زيرى بن مناد ، عند مقدمه إلى القصر ، مع جماعة من
رجالها ، ردوا عند الباب بفظاظة ، وأهينوا ، فانصرفوا وقلوبهم تضطرم سخطاً .
وسرت إلى العامة عندئذ ، موجة من التحامل ضد البربر ، فهاجت بعض
جموعهم دور البربر في ضاحية الرصافة ، ونهبوا بعضها ، وبادر صاحب المدينة
يضبط الحال ورد الغوغاء ، وقتل ثلاثة منهم . وأسرع زاوى بن زيرى ،
وجوس بن ماكسن ، وأبو الفتوح بن ناصر ، وغيرهم من زعماء البربر
بالدخول على محمد بن هشام ، وأخبروه بما وقع ، فاعتذر لهم ، ووعدهم برد
ما نهب ، وقتل عدد من الغوغاء ، ولكن البربر لم تهدأ ثأرتهم ، وبقيت نفوسهم
على اضطرامها .

وكان من أعمال العنف التي قام بها محمد بن هشام ، أن نفي عدداً من الفتيان
الصقالبة العامرين . فغادروا قرطبة ، ولجأوا إلى أطراف الأندلس الشرقية ، وكان
من تملكهم لبعض نواحيها ومدنها ما سنذكر في موضعه . ولم يقبل منهم على مسالمة
محمد بن هشام ومصادقته ، سوى الفتي واضح صاحب مدينة سالم والثغر الأوسط ،
فإنه بعث إليه كتاباً يؤكد فيه طاعته ، ويبدى ابتهاجه بمصرع عبد الرحمن المنصور ،
فرد عليه المهدي بالشكر ، وبعث إليه أموالاً ومتاعاً ، ومرسوماً بولاية
الثغر كله .

وعمد محمد بن هشام بعد ذلك إلى مطاردة الخليفة هشام المؤيد ، فحبسه
في القصر أولاً ، وأخرج جواريه وفتيانه ، ودوابه المحبوبة ؛ ثم أخرجه بعد
ذلك من القصر ، وأخفاه في بعض منازل قرطبة . وتوفي في ذلك الوقت رجل
نصراني أو يهودي ، قيل إنه كان يشبه هشاماً شهاً قوياً ، فأعلن محمد بن هشام ،
وفاة الخليفة ، وأحضر الوزراء والفتهاء فشهدوا بأنه هو الخليفة هشام المؤيد حتماً .
ودفن هذا الخليفة المزعوم في اليوم السابع والعشرين من شعبان سنة ٣٩٩ هـ (١) .
ولما شعر محمد بن هشام أن الأمر قد استتب له ، أطلق العنان لأهوائه ،
وشهواته الوضيعة ، وانكب على معاقرة الخمر ، وبالغ في الاستهتار والمجون ،
والجاهرة بالفسق والفجور ، بصورة مثيرة أفقدته عطف الكثيرين واحترامهم ،

(١) البيان المنبرج ج ٣ ص ٧٧ ؛ وابن الأثير ج ٨ ص ٢٥٢ .

وبطش بكثير من الناس ، وفي مقدمتهم ولي عهده سليمان بن هشام ، فقد سجنه وسجن معه جماعة من قريش ، وأخرج من الجيش نحو سبعة آلاف جندي ، أقيلوا وقطعت أرزاقهم ، وأضحوا عنصراً من عناصر التوترو والشغب ؛ وزاد في التحامل على البربر ، والتعريض بهم والطعن فيهم ، في كل فرصة وموطن ، حتى أصبح يتفضه لهم ، وتربصه بهم ، من الأمور الذائعة ، وأخذ كل فريق يحترز من صاحبه ، ويتوقع منه الشر والغدر .

وكان هشام بن سليمان بن الناصر ، وهو والد سليمان ولي العهد المعتقل ، قد وجد على محمد بن هشام من جراء انحرافه وطغيانه ومجونه ، وخشيت سوء العاقبة على بني أمية ، وانهيار أمرهم ، فأخذ يسعى في خلع محمد بن هشام ، وانضم إليه جماعة من الناقمين عليه ، وفي مقدمتهم جماعة العبيد العامرين ، وطوائف البربر ، ومن تغيرت نفوسهم على محمد بن هشام ، وحاصر الثوار محمد بن هشام في قصره ، فبعث إلى هشام القاضي ابن ذكوان ، وأبا عمر بن حزم ، يعاتبانه على تصرفه ، وأمر بالإفراج عن سليمان بن هشام ، ووقع بين الرسولين وبين هشام حوار شديد ، أعلن فيه أنه أحق من محمد بالعرش ، فانصرفا عنه . والتفت العامة من الربيض الغربي حول محمد ؛ وخرج محمد المهدي في جموعه لمقاتلة خصومه ، ودار القتال بينهما يومين متواليين ، ثم أسفرت المعركة عن هزيمة هشام وجوعه من البربر والعامرين ، وأسره هشام وابنه وأخوه أبو بكر ونفر من الزعماء ، قتلهم المهدي جميعاً (١) . واثالث الدهماء على دور البربر ، فأعملت فيها التدمير والنهب حتى دخل الليل ، وكان ذلك في أواخر شوال سنة ٣٩٩ هـ (يونيه سنة ١٠٠٩ م) .

ودافع البربر عن أنفسهم ، ثم انسحب معظمهم إلى أرملاط (٢) ضاحية قرطبة ، ووقع القتال بقرطبة بين من تبقى منهم وبين العامة ، وحرص المهدي على قتلهم ، وجعل لرووسهم أثماناً ، فقتل العامة بكثير منهم ، ومن بينهم عدة من الزعماء ، ونهبوا دورهم ، واغتصبوا النساء وسبوهن ، كل ذلك في مناظر مثيرة من السفك والاعتداء الغاشم ؛ واختفى كثير من زعمائهم . وتوجس المهدي من العواقب ، فأصدر للبربر أماناً ، ونادى الكف عنهم ، ونصحهم بتغيير زيهم اتقاء

(١) البيان المغرب عن ابن حبان ج ٣ ص ٨٤ .

(٢) وهي بالإسبانية Quadimellato

الأذى ، وكتب إلى البربر في أرملاط أماناً ، فلم يلتفتوا إليه ، وغادروا أرملاط وساروا شمالاً إلى قلعة رباح ، وهناك أخذوا ينظمون أنفسهم ويتدبرون أمرهم . وكان ممن فر من بنى أمية عقب هزيمة هشام بن سليمان ومصرعه ، ولد أخيه سليمان بن الحكم بن عبد الرحمن الناصر ، وكان إماماً للبربر ، فسار معهم ، ورشحوه منذ البداية لتولى الأمر مكان المهدي ، ولقبوه بالمستعين . وكان سانشو غرسية أمير قشتالة رقب تطور الحوادث في قرطبة باهتمام ، متأهباً لمظاهرة الفريق الخارج على الآخر ، ففاوضه سليمان وزعماء البربر في طليطلة على أن يمدهم بالهند ، وتعملوا إليه بتسليم بعض الحصون الواقعة على الحدود ، فقبل معاونتهم ؛ وفي أثناء ذلك حاول الفتى واضح صاحب مدينة سالم أن يعرقل مسير البربر ، فأمر مدن الثغر أن تمنع المؤن عن البربر ، ولقوا من جراء ذلك شدة وإرهاقاً . وأمدّه المهدي ببعض قواته بصحبة غلامه بليق ، فجمع جموعه وسار لقتال البربر ، ولجأ البربر من جانبهم إلى حليفهم سانشو ، فأمدهم بالهند والمؤن الوفيرة . والتقى البربر وجيش واضح في مكان يسمى شرنبة على مقربة من قلعة النهر أو قلعة هنارس الحالية Alcalá de Henares فهزم واضح هزيمة شنيعة ، واستولى البربر على محلته وسلاحه ، وفرت فلوله صوب قرطبة . وكان ذلك في شهر ذى الحجة سنة ٣٩٩ هـ (١) .

وارتاع المهدي لتلك الهزيمة ، وأخذ في تحصين قرطبة ، وحفر حول فحص السرادق ، وهو محلة البربر خندقاً ، ورتب الرجال على الأبواب والأسوار ، وأخذ ينظم قواته النظامية ومن العامة . وكان واضح قد أتاه منهزماً في أربعمئة فارس من الثغر ، انضمت إلى قواته . وسار سليمان بن الحكم من جهة أخرى في جموع البربر ، ومعها القوات القشتالية بتميادة سانشو غرسية ، صوب قرطبة ، وعسكروا بشرقها في سفح جبل يعرف بجبل قنتج أو قنتش وذلك في يوم ١١ ربيع الأول سنة ٤٠٠ هـ . وبرز واضح في جموعه من أهل قرطبة والثغر ، واشتبك الفريقان في القتال يوم السبت ١٣ ربيع الأول (٥ نوفمبر ١٠٠٩ م) ، واضطربت بينهما معركة شديدة ، وسرعان ما دب الخلل إلى جيش قرطبة ، فارتد منهزماً إلى الوادي ، وتبعه البربر بعنف . فضاقت بهم المسالك . وقتل منهم عدد جم

يقدره البعض بعشرة آلاف ، بينهم عدد كبير من العلاء والأئمة ، وقتل النصارى وحدهم نيفاً وثلاثة آلاف رجل ، وثبت واضح في رجاله حتى دخل الليل ، فانسل تحت جنح الظلام وفر هارباً إلى الثغر (١) .

ولما رأى المهدي هزيمة جنده ، سقط في يده ، وحاول أن ينقذ نفسه بحيلة سخيفة ، يدفع بها دعوى سليمان ، فأظهر الخليفة هشاماً المؤيد ، وكان قد أخفاه حسياً تقدم ، وزعم أنه مات ، وأجلسه في مكان بارز في شرفة القصر ، وبعث القاضي ابن ذكوان إلى البربر ، يخبرهم أن الخليفة هشاماً ما زال على قيد الحياة ، وأنه الإمام الشرعى ، وليس المهدي سوى نائبه وصاحبه ، فرده البربر بحفاء وسخرية ، وأبدوا تمسكهم بولاية سليمان . ولم ير المهدي أمامه سوى الفرار والنجاة بحياته ، فغادر القصر سراً ، واخترق قرطبة متنكراً ، ولحق بطليطلة . ودخل زاوى بن زيرى زعيم البربر القصر ، ودخل سليمان بن الحكم في أثره في يوم الإثنين الخامس عشر من ربيع الأول سنة أربعائة ، وبايعه الناس بالخلافة ، وتلقب بالمستعين بالله ، واستقبله الشعب القرطبي القُلب بحماسة ، شأنه مع كل متغلب وظافر (٢) . ووكل سليمان بعض الفتيان الصقالبة بالمحافظة على هشام المؤيد في بعض أجنحة القصر ، ونزل البربر في الزهراء اتقاء للاحتكاك مع العامة . ومع ذلك فقد كانت حوادث الاعتداء تتوالى عليهم في دروب قرطبة وأزقتها . وكان من أول أعمال سليمان أن أمر بإنزال جثة عبد الرحمن بن المنصور عن خشبتها ، فغسلت ودفن في دار أبيه ؛ ووفد سانشو غرسية إلى القصر ، فاستقبل بحفاوة وخلع عليه وعلى أصحابه ، ثم عاد إلى معسكره ، ووعد البربر بتسليم الحصون التي تعهدوا بتسليمها متى استقر سلطانهم ، ثم غادر قرطبة بعد أن ترك من جنده مائة أنزلوا في ريبض منية العقاب .

أما محمد المهدي فما كاد يصل إلى طليطلة ، حتى أخذ يدبر أمره من جديد ، وكانت الثغور ما تزال باقية على طاعته ودعوته ، وانضم إليه واضح وأخذ الأمر بيده . ولما علم سليمان بما يدبره المهدي وواضح ، خرج في قواته من قرطبة ،

(١) البيان المغرب ج ٣ ص ٩٠ ؛ ويقول ابن الخطيب إن النصارى قتلوا من أهل قرطبة ثلاثين ألفاً ، وهو رقم يحمل طابع المبالغة (أعمال الأعلام ص ١١٣) .

(٢) الذخيرة لابن بسام . المجلد الأول القسم الأول ، ص ٣٠ و ٣١ ؛ والبيان المغرب ج ٣

وصار صوب طليطلة ، ثم دعا أهلها إلى طاعته ، فأبوا . وانصرف سليمان بقواته إلى مدينة سالم ، فلقى نفس الفشل في أسئلة أهلها ، فارتد عندئذ إلى قرطبة اتقاء لأهوال الشتاء (أواخر شعبان سنة ٤٠٠ هـ) . وفي خلال ذلك كله كان القتي واضح قد سار إلى طرطوشة من ثغور الثغر الأعلى ، واتصل بأمر برشلونة الكونت رامون بوريل وزميله أمير أورقلة الكونت أرمنجو ، واتفق معهما على أن يمدها بجيش لمقاتلة البربر في قرطبة ، فقبلا معاونته بشروط باهظة ، من تقديم الطعام والشراب ، وأن يتناول كل منهما في اليوم مائة دينار ، وأن يتناول كل جندي دينارين في اليوم ، وأن يستولى الجند النصارى على ما يغنونه من سلاح البربر وأموالهم ، وأخيراً أن يستواوا على مدينة سالم ، وقد احتلوها بالفعل في طريقهم إلى طليطلة ، بعد أن أخلاها واضح من المسلمين (١) .

وسار الجيش الفرنجي برفقة واضح إلى طليطلة ، حيث انضم إليه المهدي في قواته ، وسارت القوات المتحدة صوب قرطبة . وكان سليمان المستعين قد وقف على أهبة خصومه ، ووفرة القوات الزاحفة عليه ، فاستنفر الناس لنصرته ، فلقى دعوته فتوراً ، فحشد ما استطاع من جموعه ، وخرج مع البربر للملاقاة خصومه . وكان اللقاء على قيد نحو عشرين كيلومتراً من شمالي قرطبة في مكان يعرف « بعقبة البقر » ، وذلك في منتصف شوال سنة ٤٠٠ هـ (أواخر مايو سنة ١٠١٠ م) ، واحتل البربر بقيادة زعيمهم زاوى بن زيرى المقدمة ، ورابط سليمان بقواته في المؤخرة . واقتتل البربر مع الفرنج قتالاً شديداً ، قتل فيه كثير منهم ، وفي مقدمتهم الكونت أرمنجو (وتسميه الرواية العربية أرمنقد) ، ولكن جانباً من فرسان الفرنج اخترقوا صفوف البربر ، فظن سليمان أن الهزيمة وقعت بهم فارتد منهزماً وكشف بذلك مؤخرة البربر ، فلما رأى البربر فرار سليمان بقواته ، ارتدوا لفورهم نحو الزهراء ، فأخذوا أهلهم وأموالهم وغادروها إلى الجنوب مسرعين ، وفر سليمان في بقية من صحبه شرقاً صوب شاطبة . وفي اليوم التالي دخل واضح ومحمد المهدي قرطبة ، وجدد المهدي البيعة لنفسه وعين واضحاً لحجابهته (٢) .

واعترم المهدي أن يقضى على البربر قبل أن يعودوا لمقارعته . فجمع الأموال

(١) البيان المغرب ج ٣ ص ٩٤ .

(٢) البيان المغرب ج ٣ ص ٩٤ و ٩٥ ؛ والذخيرة القسم الأول المجلد الأول ص ٣٢ .

من أهل قرطبة ، وأعطى الفرنج أعطيآتهم ، وحشد كل ما استطاع من قواته ، وخرج لمطاردة البربر . وكان البربر قد وصلوا عندئذ إلى « وادي آره » أو وادي يارو^(١) . على مقربة من مربلة في طريقهم إلى الجزيرة الخضراء . وكان جيش المهدي يتكون من نحو ثلاثين ألف من المسلمين ، وتسعة آلاف من الفرنج . وهناك التقى الجمعان ، واشتبكا في معركة طاحنة ، دارت فيها الهزيمة على المهدي وحلفائه ، وقتل من الفرنج نحو ثلاثة آلاف ، وغرق منهم عدد جم ، واستولى البربر على كثير من أسلحتهم وخيلهم ومتاعهم^(٢) ، ووقعت هذه الموقعة ، في شهر ذي القعدة سنة ٤٠٠ هـ (يونيه ١٠١٠ م) ، وعلى أثرها ارتد المهدي إلى قرطبة ، وهناك غادره حلفاؤه النصارى عائدين إلى بلادهم . وسار البربر جنوباً إلى ناحية ريث ، وهناك لحق بهم سليمان المستعين بمن معه . وأخذ الفريقان يدبران معاً استئناف الصراع للاستيلاء على قرطبة .

وعكف المهدي على تحصين قرطبة ، وحفر حولها خندقاً ، أقيم وراءه سور ، وأخذ يستعد للدفاع ، ويحشد الجند توقعاً لمعاودة البربر الكرة . وكانت جموع من البربر في أثناء ذلك تغير على نواحي قرطبة من آن لآخر . وفي أثناء ذلك كان واضح قد ضاق ذرعاً بتصرفات المهدي وحماقته ، وسوء خلقه من عكوف على الشراب والمجون . وكان الفتيان العامريون وفي مقدمتهم واضح جميعاً ينقمون على المهدي ما فعله بهشام المؤيد ، وبني عامر ؛ وكان قد وصل إلى قرطبة جملة منهم من شاطبة ، وفيهم بعض الفتيان البارزين مثل خيران وعنبر ، فأتمروا على الغدر بالمهدي ، وأخرجوا هشاماً من محبسه بالقصر ، وأجلسوه للخلافة ونادوا بولايته ، وأتوا بالمهدي بين يديه ، فضرب عنقه ، واحتز رأسه ، وألقى بجسده من أعلى السطح ، ورفعوا رأسه على قناة طيف بها في الشوارع ، ووقعت هذه الجريمة في الثامن من ذي الحجة سنة ٤٠٠ هـ (٢٣ يوليه ١٠١٠ م)^(٣) .

وهكذا استرد هشام المؤيد الخلافة ، بعد سلسلة من الخطوب والأحداث المثيرة ، وكان يومئذ كهلاً في نحو السابعة والأربعين من عمره ، وكان قد مضى

(١) وبالإسبانية Quadriaro

(٢) البيان المغرب ج ٣ ص ٩٦ ؛ وأعمال الأعلام ص ١١٣ .

(٣) ابن خلدون ج ٤ ص ١٥٠ ؛ وابن الأثير ج ٨ ص ٢٢٦ ؛ والذخيرة القسم الأول ،

المجلد الأول ص ٣٢ ؛ والبيان المغرب ج ٣ ص ٩٦ و ٩٩ و ١٠٠ .

عليه مذولى الخلافة صبيها لأول مرة أربعة وثلاثون عاماً ، وفي تلك الفترة شهدت الأندلس طائفة من الأحداث الجسام ، لم تشهد مثلها من قبل : شهدت قيام الحاجب المنصور ودولته العامرية ، واختفاء سلطة الخلافة ، في ظل نظام الطغيان المرهق الذى فرضه بنو عامر ، ثم شهدت الثورة الغامرة التى أطاحت بالدولة العامرية وعود الخلافة الأموية فى ثوبها الباهت المهلهل ، على يد مغامرين مثل محمد بن هشام المهدي ، وسليمان المستعين ، وشهدت وفاة هشام المزعومة ، ثم بعثه ، وعوده إلى تولى الخلافة ، شجعاً من أشباح الماضى ، وألوية فى يد واضح وزملائه الفتيان العامريين ، أصحاب الحول والسلطان ، بعد ابتعاد البربر ومصرع المهدي .

وتولى واضح بالطبع منصب الحجابة للخليفة الذى اصطنعه ، وسكنت الفتنة ، وهدأت الخواطر نوعاً ، وبعث الخليفة برأس المهدي إلى سليمان المستعين وحلفائه البربر ، وكتب إليهم يدعوهم إلى طاعته ، وأخذ يظهر فى شوارع قرطبة خلافاً لما كان عليه فيما مضى ، إظهاراً لهيبة الخلافة وسلطانها . ولكن البربر لم يقبلوا دعوته ، وأبدوا تمسكهم بولاية سليمان ، وكان البربر فى الواقع يضطرمون حقداً على أهل قرطبة لما أصابهم منهم من أنواع النكال ، ويزمعون الانتقام منهم بكل وسيلة . وحاول سليمان والبربر أن يحصلوا مرة أخرى على معاونة سانشو غرسيه أمير قشتالة ، وعرضوا أن يسلموه سائر الحصون الأمامية التى افتتحها الحكم والمنصور ، إذا ارتضى محالقتهم ومعاونتهم على استعادة قرطبة ، وخلع المؤيد ، ولكن سانشو لم يصنع إليهم فى تلك المرة ، معترفاً أن يوجه مطالبه إلى الخليفة القائم . وعندئذ عول البربر على السير إلى قرطبة ، فسارت جموعهم حتى وصلت إلى الزهراء غربى قرطبة ، فهاجموا وقتلوا معظم الحند الذين بها ، واحتلوها وذلك فى شهر ربيع الأول سنة ٤٠١ هـ (نوفبر سنة ١٠١٠ م) ، واستمروا بها بضعة أشهر حتى أواخر شعبان من تلك السنة ، ثم زحفت جموعهم على أرباض قرطبة ، يعيشون فيها تحريماً ونهباً وقتلاً ، ويجتنبون الاشتباك مع جند واضح ، وضع أهل قرطبة لهذا الاعتداء ، وزادت نفوسهم حقداً على البربر ، وتحرقاً للانتقام منهم ، وانتشرت جموع البربر فى نفس الوقت جنوباً ، حتى وصلت إلى أحواز غرناطة ومالقة وهى تنشر الخراب والدمار أينما حلت .

وفي تلك الأثناء وصل سفراء سانشو غرسية أمير قشتالة إلى قرطبة ، يطالبون بالحصون الواقعة على الحدود ، والتي افتتحها المسلمون منذ أيام الحكم حتى نهاية عهد بني عامر . ولم ير هشام وواضح بدأ من إجابة سانشو إلى طلبه ، اتقاء لعدوانه من جهة ، واتقاء لتحالفه مع البربر من جهة أخرى . وعقد مجلس من الفقهاء والقضاة ، وكتب محضر رسمي بتسليم عدد كبير من الحصون إلى النصارى ، يقال إنها أربت على المائتين (١) ، ومنها معاقل هامة ، كانت قواعد أمامية للمسلمين ، مثل شنت إشتين ، وقلونية ، وأوسمة ، وغرماج وغيرها ، وخسرت الأندلس بذلك خط دفاعها الأول ، وتركت حدودها الشمالية مفتوحة لغزوات النصارى . واستمر البربر على حصارهم لقرطبة ، وعيَّثهم في أرباضها الخارجية ، وكانت الحالة تسوء من يوم إلى يوم ، وكان الناس في قرطبة ، جيشاً وشعباً ، يزعجون مقارعة البربر ، والقضاء عليهم بكل ما وسعوا ، ويرفضون كل رأى أو مسعى يتجه إلى مسألتهم أو التفاهم معهم ، ولم يجد المؤيد وواضح بدأ من الانسياق مع التيار العام ، واتخاذ كل وسيلة ممكنة للدفاع عن المدينة ، ولكن الموارد كانت تقل يوماً عن يوم ، حتى اضطر المؤيد إلى إخراج سائر نفائس القصر وتحفه ورياشه ، ليقتنى بشمها الخيل والسلاح ، وفضلاً عن ذلك فقد أرق القرطبيون بالمطالب والمغارم حتى ضاقوا ذرعاً ؛ وأخيراً شعر واضح بأنه يواجه حالة مستحيلة ، واعتزم أن يغادر قرطبة سراً ، إلى بعض نواحي الثغر ، ولكن بعض أكابر الجند وقفوا على مشروعه ، فنهض أحدهم ، وهو على بن وداعة مع نفر من زملائه ، فعاتبوه على ما بدد من الأموال ، وما أساء من تصرف ، ثم قتلوه واحتزوا رأسه ، وطيف بها في الشوارع ، ونهبت دوره ودور أصحابه ، فوجد بها مال كثير معبأ كان يعتزم الفرار به . وهكذا كفر واضح بدمه عن جريمته في اغتيال المهدي ، وهكذا أضحت الجريمة وسيلة ذائعة في بلاط قرطبة ، لاقتناص السلطان أو التخلص من صاحبه (٢) .

وعلى أثر ذلك ولى المؤيد ابن وداعة شرطة المدينة ، فاستعمل الحزم والشدة ، في قمع الشغب وصون النظام والأمن ، فهابته العامة ، وقلت حوادث الشغب ، وتولى تدبير الأمور للمؤيد رجل من موالى العامريين يسمى ابن مناو ؛ ثم جاءت

(١) أعمال الأعلام ص ١١٧ .

(٢) البيان المغرب ج ٣ ص ١٠٣ و ١٠٤ ؛ وأعمال الأعلام ص ١١٧ و ١١٨ .

إلى قرطبة كتب من أهل الثغور يعتذرون فيها عن عجزهم عن إرسال الأمداد ،
وينصحون المؤيد إما بمصالحة البربر ، أو التفاوض مع أمير قشتالة ؛ فكتب
هشام إلى زاوى بن زيرى يحثه على عقد الصلح ، ويعدّه بما شاء من مال أو ولاية ،
فرد زاوى بأنه لا يستطيع مخالفة أصحابه ، وأنه مع ذلك لا يدخر وسعاً في العمل
لتأليف كلمة المسلمين وحقن الدماء^(١) .

ثم بذلت محاولة مماثلة لدى سليمان بن الحكم والبربر ، إذ كتب أهل قرطبة
على لسان هشام وابن مناو كتابين ، وجه أحدهما من هشام إلى سليمان ، وفيه
يرجو العمل على إخماد الفتنة ، وتسليم الأمر إليه ، وعلى أن يغدو سليمان ولى
عهده والقائم بأعباء الخلافة عنه ، ووجه الثانى من وزراء قرطبة إلى وزراء البربر ،
فلم يحفل سليمان بكتاب هشام ، وقال للرسل بل إنه هو أمير المؤمنين والخليفة ،
وأنه لا يعترف لهشام بصفة ما .

كل ذلك والأمر يشتد على أهل قرطبة . ودخل الوزراء ووجوه الحند والفتيان
على هشام ، وكشفوا له خطورة الحالة ، واشتداد ضغط البربر على المدينة
وأرباضها ، وتفاقم الضيق والغلاء ، وقصور الثغور عن إنجاد المدينة ، وكون
الشعب منقسم على نفسه ما بين راغب فى الكفاح ، وراغب فى الصلح ، فبكى
هشام فيما قيل ، واعتذر لعجزه وقصوره ، وقال لهم افعلوا ما ترون .

وعجل باضطرام النار حادث وقع فى آخر ذى الحجة سنة ٤٠٢ هـ ، إذ تقدم
جماعه من وجوه البربر وفى مقدمتهم حباسة بن ماكسن ابن أخى زاوى ، وكان
من أشجع قادة البربر ، ومعه جماعة قليلة من الفرسان ، ونزلوا فى بقعه قريبة من
الأسوار ، فراهم أهل قرطبة من وراء الخندق ، فاجتمع منهم عدد عظيم ،
وانقضوا على حباسة وصحبه ، فدافعوا عن أنفسهم دفاعاً عظيماً ، ولكنهم غلبوا
فى النهاية على أمرهم ، وأسر حباسة ، فلما عرفه القوم قتلوه بوحشية ، وقطعوا
جسده إرباً لعظيم حقدهم عليه ، ولما قاسوه من شدة قتاله ونكايته ، فلما وقف
أخوه جوس وعمه زاوى على الخبر ، اضطرب البربر ، واستعدوا للقتال ،
وفى اليوم التالى اشتبكوا مع أهل قرطبة فى عدة معارك ، وفتكوا بكثير منهم ،

(١) البيان المغرب ج ٣ ص ١٠٧ و ١٠٨ .

واستمرت المعارك من ذلك الحين بين الفريقين بحالا ، وأهل قرطبة يخرجون من المدينة مرة بعد أخرى ، ويقاثلون البربر محاولين تحطيم الحصار المرهق ، والبربر من جانبهم ينزلون بهم أشد الضربات . وفي ٢٦ شوال سنة ٤٠٣ هـ (مايو سنة ١٠١٣ م) نشبت بين الفريقين معركة عامة ، وقاتل أهل قرطبة قتالا شديداً ، ولكنهم هزموا بعد معارك طاحنة ، وقتل منهم عدد جهم ، وساد الاضطراب أرجاء المدينة ، وفتحت أبوابها ، وخرج القاضي ابن ذكوان مع جماعة من الفقهاء وساروا إلى معسكر البربر ، وطلبوا الأمان من سليمان وزعماء القبائل البربرية ، ففتح الأمان لقاء مبالغ عظيمة فرضت على المدينة ، ودخل البربر المدينة دخول الوحوش المفترسة ، فقتلوا كثيراً من سكانها ، ولم يفروا الأطفال والشيوخ ، وأوقعوا بها السلب والنهب ، وأحرقوا الدور ، واغتصبوا النساء والبنات ، وارتكبوا أشنع ضروب السفك والإثم ، وكانت محنة من أروع ما قاسته عاصمة الخلافة . وفي اليوم التالي دخل سليمان المستعين قصر قرطبة ، واستدعى هشاماً المؤيد وعنفه على موقفه ، فاعتذر بأنه مغلوب على أمره . وهنا تختلف الرواية في مصير هشام ، فالبعض يقول إن سليمان أخفاه حيناً ، ثم قتله ولده محمد بن سليمان ، والبعض الآخر بأنه فر من محبسه ، وقصد إلى ألمرية حيث عاش حيناً في خمول وبؤس حتى توفي . بيد أننا نرجح الرواية الأولى ، وإن كان اسم هشام سوف يظهر بعد ذلك على مسرح الحوادث .

ولما استتب الأمر لسليمان ، وهدأت الخواطر نوعاً ، تلقب بالظافر بجول الله مضافاً إلى المستعين ، وانتقل إلى مدينة الزهراء بحاشيته وقواد البربر وجندهم ، فاحتلوها وما حولها ، ونزل على والقاسم ابنا حمود قائدا فرقة العلوية بشقنذة صاحبة قرطبة ، وأخذ سليمان ينظم شئون الحكومة المضطربة . وكانت الفوضى قد سرت إلى جميع النواحي ، وتفككت عرى الدولة ، وقصر نفوذ الحكومة إلا عن قرطبة وما يجاورها ، وقبض البربر الذين رفعوا سليمان إلى العرش ، على السلطة الحقيقية ، فتولوا مناصب الحجابة والوزارة ، وسأثر المناصب الهامة ، ورأى سليمان لإرضاء لهم من جهة ، لهم وإبعاداً عن قرطبة من جهة أخرى ، أن

(١) راجع في سقوط قرطبة ومصير هشام ، ابن خلدون ج ٤ ص ١٥١ ؛ رابن الأثير ، ج ٩ ص ٧٥ والمراكشي ص ٢٢ - ٢٥ ؛ وأبو الفدا ج ٢ ص ١٣٩ ؛ والبيان المغرب ج ٣ ص ١١٢ و ١١٣ ؛ وأعمال الأعلام ص ١١٨ - ١٢٠ .

يقطعهم كور الأندلس ، وكانوا ست قبائل رئيسية ، فأعطى قبيلة صنهاجة وزعمائها بنى زيري ، ولاية ليرة (غرناطة) ، وأعطى مغراوة جوفى البلاد ، وبنى برزال وبنى يفرن ولاية جيان ومتعلقاتها ، وبنى دُمرّ وازداجة منطقة شدونة ومورور ؛ وأقر المنذر بن يحيى التجيبي على ولاية سرقسطة والثغر الأعلى ، وكان قد انضم إلى سليمان ، وحارب مع البربر من أجل قضيته ، وولى بنى حمود الأدارسة ثغور المغرب ، فولى علياً بن حمود على ثغرسبته ، وأخاه القاسم بن حمود على ثغور الجزيرة الخضراء ، وطنجة وأصيلا ، وهكذا سيطر البربر على ولايات الأندلس الجنوبية والوسطى ، وأخذوا يحتلون في شتونها مكانة لها خطرها^(١) .

وكان الفتيان العامريون لما رأوا غلبة البربر على حكومة قرطبة الحديدية ، قد توجسوا من غدرهم ، وفر معظمهم إلى شرقى الأندلس ، بعيداً عن سلطان الحكومة المركزية ، وأنشأوا هنالك في القواعد الشرقية ، حكومات محلية حسباً نذكر بعد . وقضى سليمان المستعين في الحكم للمرة الثانية نحو ثلاثة أعوام ، استمرت خلالها حال الاضطراب والفوضى في قرطبة وسائر أنحاء الأندلس . ولم تهدأ الخواطر ولم تطمئن النفوس . وغلب سلطان البربر ، واشتد طغيانهم وتحكمهم ، ولبت الأهواء المتوثبة تجيش في صدور الطامعين من زعمائهم ، حتى تمخضت غير بعيد عن انقلاب جديد في مصابير الخلافة .

وكان من أبرز صفات سليمان ، مواهبه الأدبية الرفيعة ، فقد كان أديباً متمكناً ، وشاعراً مطبوعاً ، قال فيه ابن بسام إنه «أحد من شرف الشعر باسمه ، وتصرف على حكمه» وأورد له القصيدة الآتية ، وهي الوحيدة التي عثر بها من نظمه ، وفيها يعارض قطعة الرشيد «ملك الثلاث الآنسات عناني» وفيها تبدو براعته ورقة خياله :

عجياً يهاب الليث حدّ سناني	وأهاب لحظ فواتر الأجنان
فأقارع الأهوال لا متهيباً	منها سوى الإعراض والهجران
وتملك نفسي ثلاث كالدمي	زهر الوجوه نواعم الأبدان
ككواكب الظلماء لُحن لناظري	من فوق أغصان على كئيبان
هذى لللال ، وتلك بنت المشتري	حسناً وهذى أخت غصن البان

(١) البيان المغرب ج ٣ ص ١١٣ - ١١٥ ؛ وأعمال الأعلام ص ١١٩ .

حاكمت فيهن السلو إلى الصبا
فأبجن من قلبي الحمى وتركني
لا تعذلوا ملكاً تذلل للهوى
ما ضر أنى عبدهن صباية
إن لم أصع فيهن سلطان الهوى
وإذا الكريم أحب أمن إلفه
وإذا تجارى في الهوى أهل الهوى
فقضى بسطان على سلطانى
فى عز ملكى كالأسير العانى
ذل الهوى عزٌ وملك ثانى
وبنو الزمان وهن من عبدانى
كلفاً بهن فلست من مروان
خطب القلى وحوادث السلوان
عاش الهوى فى غبطة وأمان^(١)

(١) ابن بسام فى الذخيرة . المجلد الأول القمم الأول ص ٣٣ و ٣٤ ؛ والمراكشى ص ٢٥ -

الفضل الثاني

دولة بني حمود

ظهور البربر في الميدان . على والقاسم ابنا حمود . بنو حمود ونسبتهم . ولاية الثغور بين البربر والفتيان العامريين . استيلاء البربر على قرطبة باسم سليمان . خير ان العامري ينتزع ألمرية ويدعو للمؤيد . على بن حمود يزعم أنه تلقى ولاية العهد من هشام . تحالفه مع خيران وعبوره إلى الجزيرة . سير القوات المتحالفة إلى قرطبة . القتال بينها وبين البربر . هزيمة البربر وسليمان . على بن حمود يدخل القصر . اشتداده في معاملة البربر . خيران يخرج عليه ويدعو لعبد الرحمن المرتضى . انضمام الثغور الشرقية وسرقة هذه الدعوة . القتال بين المرتضى وصنهاجة . انتصار البربر ومقتل المرتضى . اضطهاد على لأهل قرطبة . مصرعه . أخوه القاسم يخلفه . جنوحه إلى سياسة اللين والتفاهم . غلبة البربر عليه . خروج يحيى بن على واستيلاؤه على الخلافة . التجاه القاسم إلى إشبيلية . خلع المعتل وعود القاسم . اصطفاؤه للبربر . سحق أهل قرطبة . محاربتهم وهزيمتهم للبربر . سير القاسم إلى إشبيلية ثم إلى شريش . يحيى المعتل يطارده ويأسره . إستقرار المعتل في الثغور الجنوبية . رد الأمر لبني أمية . خلافة عبد الرحمن المستظهر . وصف ابن حيان لبلاطه . عطفه على البربر . قتل القرطبيين بهم . فرار المستظهر ومصرعه . خلافة المستكني . اضطهاده للزعماء . تخلمه وفراره . يحيى بن حمود يحتل قرطبة . قتل القرطبيين بالحامية البربرية . رد الأمر لبني أمية . بيعة هشام المعتد بالله . وزيره حكيم بن سعيد . سوء مسلكه ومصرعه . خلع هشام ومصيره . الإجماع على إبطال الخلافة والتخلص من بني أمية . استيلاء يحيى المعتل على قرمونة . الحرب بينه وبين ابن عباد . هزيمة يحيى ومصرعه . خلافة إدريس المتأيد بالله . غزو إدريس وحلفائه لأحواز إشبيلية . الحرب بين زهير العامري وباديس أمير غرناطة . مصرع زهير . الحرب بين ابن عباد والبربر . هزيمة ابن عباد ومقتل ولده إسماعيل . وفاة إدريس وخلافة ولده يحيى . خروج حسن بن يحيى ومبايعته بالخلافة . مقتل الوزير ابن بقره . مصرع حسن . محاولة الحاجب نجا ومصرعه . خلافة إدريس العالى . الثورة عليه وخلعه . خلافة محمد بن إدريس المهدي . طغيانه والسخط عليه . مصرعه . خلافة إدريس السامى . عودة إدريس العالى . خلافة المستعمل . إستيلاء باديس على مالقة . حكومة بني القاسم بن حمود بالجزيرة . إستيلاء ابن عباد على الجزيرة . إنقراض دولة بني حمود . تفكك الأندلس وانقسامها .

لما قضى على دولة الأدرسة بالمغرب الأقصى أيام الحكم المستنصر ، ثم بعد ذلك أيام المنصور بن أبي عامر ، وأصبح المغرب ولاية أندلسية تخضع للحكومة قرطبة ، تفرق كثير من زعمائه في مختلف الجهات ، ولاذوا بالاختفاء ، بعيداً عن بطش السلطة الجديدة ، وأخذوا يرقبون الفرص لاستعادة سلطانهم ؛ وهاجر

عدد كبير منهم إلى الأندلس ، من البربر والمغاربة ، وانضووا تحت لواء الدولة العامرية في أواخر عهدها ، وعاونوا في توطيد سلطانها وتدعيم جيشها .
ولما انهارت الدولة العامرية ، وعم الاضطراب والفوضى في قرطبة ، ظهر البربر طرفاً بارزاً من أطراف المعركة ، التي اضطرت حول السلطان والخلافة ؛ ولما نجح بنو أمية في تحقيق ضربتهم الأولى على يد محمد بن هشام المهدي ، انحاز البربر للفريق المعارض ، لما نالهم من مطاردته واضطهاده ، وكانت الخصومة تضطرم في الواقع منذ بعيد بين الأمويين والبربر ، لاعتقاد الأمويين أن البربر كانوا أكبر عضد للمنصور ، في اغتصاب السلطة والقضاء على سلطان بنو أمية . ولما فشل البربر في محاولتهم الأولى للقضاء على رياسة المهدي ، التفوا حول خصيمه سليمان المستعين ، ليكون مرشحهم الشرعي ، ووسيلتهم إلى انتزاع السلطة ، وانتهى الصراع بين الفريقين ، آخر الأمر بانتصار البربر ، واستيلاء مرشحهم سليمان على الخلافة ، وحصولهم على نصيبهم من أسلاب السلطة ، بتولى رياسة الولايات والثغور الجنوبية .
وكان من بين الزعماء المغاربة ، الذين قادوا جموع البربر في معركة قرطبة المظفرة ، رجلان من عقب الأدارسة ، هما علي والقاسم ابنا حمود بن ميمون ابن حمود . ونحن نعرف أن الأدارسة يرجعون نسبتهم إلى الحسن بن علي بن أبي طالب ؛ وإذاً ، فقد كان علي والقاسم ، وفقاً لهذا القول ، علويين من سلالة آل البيت . وهذا ما يقوله العلامة النسابة ابن حزم ، إذ يرجع نسبة علي والقاسم ، إلى إدريس بن عبدالله بن الحسن بن الحسن بن علي^(١) ، ويقول أيضاً عبد الواحد المراكشي وابن عذارى ، وابن الخطيب^(٢) .

بيد أنه بالرغم من هذه النسبة العلوية ، وهذه الأرومة العربية العريقة ، التي ينتحلها بنو حمود ، فإنهم ، إذا تركنا مسألة النسبة والسلالة جانباً ، كانوا ينتمون في الواقع من حيث النشأة والعصبية والمصير ، إلى البربر ، وكان الطابع البربري غالباً عليهم ، حتى أنهم لم يكونوا يتكلمون العربية ، وإنما كانوا يتكلمون باللجة البربرية ، وقد أشار ابن الخطيب إلى ذلك في حديثه عن علي بن حمود^(٣) .

(١) راجع جبهة أنساب العرب (القاهرة) ص ٤٣ و ٤٤ .

(٢) المراكشي في المعجب ص ٢٤ ؛ وابن عذارى في البيان المغرب ج ٣ ص ١١٩ ؛ وابن

الخطيب في أعمال الأعلام ص ١٢٨ .

(٣) أعمال الأعلام ص ١٢١ .

وقد رأينا أن سليمان المستعين حينما استرد الخلافة ، عقب انتصار البربر على أهل قرطبة ، خص علياً والقاسم ، بولاية الثغور المغربية ، وندب علياً لحكم سبتة ، وندب القاسم لحكم الجزيرة الخضراء وطنجة وأصيلا ، وذلك في أوائل سنة ٤٠٤ هـ (١٠١٣ م) .

وفي الوقت الذي استولى فيه البربر ، على الولايات والثغور الجنوبية ، كان الفتيان العامريون ، منذ اضطرام الفتنة ، قد استقروا بشرقي الأندلس ، واستولى كثير منهم على الثغور الشرقية ، وفي مقدمتهم مجاهد الذي استولى على دانية والجزائر الشرقية فيما بعد ، وخيران ، الذي استولى على ألمرية ومرسية . وكان خيران حينما استولى محمد بن هشام المهدي على الخلافة للمرة الثانية ، بموازرة واضح والحند النصاري ، وتولى واضح منصب حجابته ، قد عاد إلى قرطبة مع نفر من الفتيان العامريين ، وانضدوا إلى واضح ثم اشتركوا معه في تدبير اغتيال المهدي ، وإعادة هشام المؤيد إلى كرسي الخلافة حسبا تقدم . وكان أولئك الفتيان يعتبرون هشاماً إمام دولتهم بعد ذهاب المنصور . فلما قتل واضح واستولى البربر على قرطبة ، وانزع سليمان المستعين الخلافة من هشام المؤيد ، غادر خيران ومعه عدة كبيرة من الفتيان قرطبة ، اتقاء بطش البربر ، وسار إلى شرقي الأندلس ، وانضم إليه حال سيره كثير من الناقدين من بني أمية وغيرهم ، ثم زحف على ألمرية ، وكانت بيد أفلح الصقلبي ، فانزعها منه ، واستولى على كثير من الأماكن المجاورة ، واشتد بأسه في تلك الناحية ، ودعا لهشام المؤيد .

وكان تمزق الأندلس على تلك الصورة ، وانتثار السلطة بين الأمويين والبربر ، والفتيان العامريين ، مما يفسح المجال لأطباع الطامعين والمتغلبين ، وكانت تلك الأطباع تجيش في الواقع ، في صدور أولئك الذين رأوا في ضعف السلطة المركزية ، وذبوع الخلاف والفوضى ، فرصة يمكن انتهازها . وكان على ابن حمود الحسني ، قد ولي حكم سبتة ، وولي أخوه الأكبر القاسم ، حكم الجزيرة الخضراء ، لا يفصلهما سوى مضيق جبل طارق . وكان على يطمح إلى أكثر من حكم مدينة ، ويتطلع إلى الوثوب بحكومة قرطبة المضطربة المتداعية . وكان يرى في الفتيان العامريين خصوم سليمان المستعين حلفاءه الطبيعيين ، فكاتب كبيرهم خيران صاحب ألمرية ، وأظهر كتاباً زعم أنه تلقاه من الخليفة هشام المؤيد يوليه

فيه ولاية عهده ، ويطلب إليه أن ينقذه من أسر البربر وسليمان ؛ ويقول لنا ابن حيان ، إن هشاماً المؤيد لما رأى اضطراب أمره وتصرم دولته ، قد منح على ابن حمود ولاية عهده ، وأوصى إليه بالخلافة من بعده ، وأرسل إليه ذلك بسبته سرّاً ، وولاه طلب دمه ، واستكتمه السرحتي يحيى الأوان لذلك (١) .

فذاغت دعوة على ، ولباها بعض حكام الثغور الجنوبية مثل ، عامر بن فتوح الفائقى مولى الحكم المستنصر ووزير ولده المؤيد ، وكان يومئذ حاكماً لمالقة .

وكتب إليه خيران أن يعبر إليهم . فعبر على من سبته إلى الجزيرة الخضراء فى أواخر سنة ٤٠٦هـ (١٠١٦ م) وسار فى أشباعه من البربر إلى مالقة ، فسلمها إليه عامر ابن فتوح ، ودعا له بولاية عهد المؤيد حالة ظهوره حياً ، وسار خيران فى قواته والتقى بعلى فى ثغر المنكب الصغير ، ما بين مالقة وألمرية ، فجمع الزعيمان قواتهما ونظما خطتهما للزحف على قرطبة ، وبويج على بن حمود على طاعة المؤيد . ثم سارت القوات المتحدة صوب قرطبة ، وانضم إليها خلال السير زاوى بن زبرى وجوس الصنهاجى فى قوة من بربر غرناطة . وكان سليمان المستعين ، قد ترامت إليه أبناء أولئك الخوارج عليه ، وزحفهم لقتاله ، فخرج من قرطبة للقائهم فى جند البربر ، والتقى الفريقان فى ظاهر قرطبة على قيد عشرة فراسخ منها ، ونشبت بينهما معركة شديدة ، انتهت بهزيمة سليمان ، وقتل عدد جم من أنصاره ، وكان سليمان وأبوه الحكم ، وأخوه عبد الرحمن ، بين الأسرى .

ودخل على بن حمود قصر قرطبة فى الثامن والعشرين من محرم سنة ٤٠٧هـ (أول يوليه سنة ١٠١٦ م) وبحث عن هشام المؤيد فلم يجده ، وكان الاعتقاد سائداً بأن سليمان أخفاه ولم يقتله ، فلما علم بأنه قُتِل ، أتى بسليمان وأبيه وأخيه وقتلهم بنفسه انتقاماً للمؤيد . ثم أعلن وفاة المؤيد ، ودعا إلى البيعة لنفسه ، فبويج بالخلافة وتلقب بالناصر لدين الله ، وكانت مدة خلافة سليمان الثانية مذ دخل قرطبة إلى أن قتل ثلاثة أعوام وبضعة أشهر ، وكانت أمه أوم لد تدعى ظبية ومولده فى سنة ٣٥٤هـ (٢) .

(١) البيان المغرب ج ٣ ص ١١٤ و ١١٦ .

(٢) البيان المغرب ج ٣ ص ١١٦ و ١١٧ و ١١٩ و ١٢٠ ، وابن خلدون ج ٦ ص ٢٢١

وج ٤ ص ١٥٣ ، والمراكشى ص ٢٤ ؛ وأعمال الأعلام ص ١٢٩ ؛ وفتح الطيب ج ٩ ص ٢٢٤ ، وجذوة المقتبس ص ٢٠ .

وهكذا اختتمت الدولة الأموية حياتها بالأندلس بعد أن عاشت منذ عصر الإمارة حتى نهاية عصر الخلافة مائتين وثمانية وستين عاماً ، وانهارت دعائم الخلافة الأموية نهائياً ، بعد أن لبثت منذ عصر هشام المؤيد أربعين عاماً ، ستاراً للمتغلبين من بني عامر ، ثم شعباً هزيباً يضطرب في غمر الفتنة والقوضى .

ولما قبض على بن حمود على زمام الحكم ، اشتد في معاملة البربر ، وإخاد تمردهم وشغبهم ، وحماية السلطة المركزية من عدوانهم ، فهابوه ولزموا السكينة ، وقضى بمنتهى الشدة على كل نزعة إلى الخروج والعصيان ، وفك بالمعارضين له ، سواء في ذلك العرب أو البربر ، وأذل الزعماء واستأثر بالسلطة . وحاول من جهة أخرى أن يحسن معاملة القرطبيين ، وأن يقيم العدل ، ويقمع القوضى ، وكان من معاونيه في الحكم ، جماعة من أولياء الخلافة السابقين مثل أبي الخزم بن جهور ، وأحمد بن برد وغيرهما .

على أن الحوادث ما لبثت أن تطورت بسرعة . ذلك أن خيران العامري ، لما دخل قرطبة مع علي بن حمود ولم يجد الخليفة هشاماً المؤيد على قيد الحياة ، خشي سطوة الناصر وغدره ، فغادر قرطبة ، معلناً الخلاف ، وسار إلى شرقي الأندلس حيث يجتشد معظم الزعماء العامريين وأنصارهم ، وأعاد الدعوة لبني أمية في شخص مرشح جديد منهم ، هو عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله ابن عبد الرحمن الناصر ، باعتباره أصلح من بقي منهم ، وكان قد فر خفية من قرطبة إلى جيان ، فاستدعاه خيران وبايعه وجمع كبير من أصحابه بالخلافة ، ولقبوه بالمرتضى ، وانضم إليهم في تلك الحركة المنذر بن يحيى التجيبي والى سرقسطة والشعر الأعلى ومعه قوة من المرتزقة النصارى ، وكذلك ولاية شاطبة وبلنسية وطرطوشة وألبونت وغيرها . وأعلن المرتضى الخلاف على الناصر ، وسار في جموعه أولاً إلى غرناطة ليحارب جيش صنهاجة القوى ، فلقبه أميرها زاوي بن زبرى في قواته ونشبت بينهما معركة طاحنة استمرت أياماً ، وانتهت بهزيمة أهل الأندلس ، ومقتل المرتضى ، وتمزق جموعه ، وسقوط معسكره في أيدي البربر . وفي رواية أخرى أن المرتضى استطاع الفرار ناجياً بحياته ، فبعث خيران في أثره بعض أعوانه فقتلوه على مقربة من وادي آش ، وحملوا رأسه إلى خيران . وكان خيران والمنذر قد حقدوا عليه لما رأيا من حدته وصرامة نفسه ، وخشياً من غدره^(١) .

وسار خيران وللمنذر فيمن بقي من أصحابهما ولحقا بالمرية . وسار الإفرنج المرتزقة حلفاء المنذر إلى الشمال . قال ابن حيان « فحل هذه الواقعة على جماعة الأندلس مصيبة أنست ما قبلها ، ولم يجتمع لهم جمع بعد ، وأقروا بالإدبار ، وباؤا بالصغار » واستطاع أخ للمرتضى ، وهو أبو بكر هشام بن محمد ، أن ينجو من الواقعة ، في بعض أصحابه إلى البوننت ، حيث دعا لنفسه بالخلافة ، وأقام بها يرقب الحوادث (١) .

وتغفل معظم الروايات الإسلامية تاريخ هذه الواقعة ، ولكن الظاهر من سياق الحوادث ، وما ذكره صاحب البيان المغرب ، أن سير المرتضى من شرقي الأندلس صوب قرطبة ، كان في سنة ٤٠٩ هـ (٢) ، وأن الواقعة حدثت في أواسط هذا العام ، وفي خلافة القاسم بن حمود ، بعد مقتل أخيه على حساب يحيى . وكان على بن حمود ، حينما ترامت إليه أنباء خروج المرتضى ومسيره لقتاله ، قد انقلب على أهل قرطبة خشية من غدرهم ، ولما آنسه من ميلهم إلى المرتضى ، وعاد فأطلق يد البربر ، واشتد على أهل قرطبة ، ونزع سلاحهم ، واعتقل كثيراً من أعيانهم ، وفي مقدمتهم وزيره أبو الحزم بن جهور ، وصادر أموالهم ، وهبت على القرطبيين ريح من الإرهاب والروع فلزموا السكينة حيناً (٣) .

ولكن القدر كان يربص بعلي بن حمود ؛ ذلك أنه بينما كان يتأهب لقتال خصومه ، المحتجمين يومئذ في منطقة جيان حول راية المرتضى ، إذ ائتمر به نفر من فتيان القصر الصقلية من موالى بني أمية ، وتسلل ثلاثة منهم إليه وهو في الحمام وقتلوه ، وذلك في الثاني من ذي القعدة سنة ٤٠٨ هـ (٢٣ مارس سنة ١٠١٨ م) ، وكان سنه وقت مقتله خمس وخمسون سنة ، ولم يمكث في الخلافة سوى عام وتسعة أشهر .

فبعث زعماء زناتة إلى أخيه القاسم بنياً موته ، وكان يكبره ببضعة أعوام ، وكان يومئذ والياً لإشبيلية ، فحضر مسرعاً ، وبويع بالخلافة في الثامن من ذي القعدة ، أعنى لسته أيام من مقتل أخيه ، وتلقب بالمأمون ، وقبض على الفتيان

(١) البيان المغرب ج ٣ ص ١٢٥ و ١٢٦ و ١٢٧ .

(٢) البيان المغرب ج ٣ ص ١٢٥ . وذكر ابن الخطيب وحده أن الواقعة حدثت بالفعل في

سنة ٤٠٩ هـ (أعمال الأعلام ص ١٣١) .

(٣) البيان المغرب ج ٣ ص ١٢٣ ؛ وأعمال الأعلام ص ١٢٩ .

الثلاثة الذين قتلوا أخاه وأعدمهم لوقته . وكان يحيى بن علي ، ولد الخليفة القتيل والياً على سبته ، وولده الآخر إدريس والياً على مالقة ، فاختلف البربر في البداية على مسألة الخلافة ، ولكن أكثرهم انضم إلى جانب القاسم لأنه غن غن أولاً ، وقدم عليه أخوه الأصغر .

وهكذا استتب الأمر للقاسم ، فعدل عن سياسة الشدة إلى سياسة اللين والمسألة ، وأحسن إلى الناس ونادى بالأمان وبراعة الذمة ممن تسور على أحد ، وأسقط كثيراً من المكوس . فهدأت الخواطر ، واطمأن الناس نوعاً ، وكانت حركة المرتضى قد وصلت خلال ذلك إلى ذروتها ، ووقعت الحرب بين جموع المرتضى وحليفه خيران والمنذر بن يحيى التجيبي ، وبين قوى صنهاجة على مقربة من غرناطة ، وانهمز أهل الأندلس وقتل المرتضى ، وبعث زاوي بن زيري إلى القاسم بما وقع مع سهمه من الغنائم ، ومنها سراق المرتضى ، فسر القاسم لذلك ، وعرض سراق المرتضى على نهر قرطبة ليراه الناس^(١) . وعمد القاسم إلى استمالة خيران واستعطافه ، ولكنه بقي معتصماً بالمرية ، وأقطع زميله زهيراً العامري ولاية جيان وقلعة رباح ، محاولاً بذلك أن يعقد السلم مع الفتيان العامريين ، وأن يأمن خصومتهم وكيدهم .

واتخذ القاسم بطانة من السود ، وأسند إليهم مناصب الرياسة والقيادة ، ولكنه لم يتخلص من قبضة البربر وسيطرتهم عليه ، فضعف أمره وتكاثرت الصعاب من حوله . وكان ابن أخيه يحيى بن علي والي سبته ، يقرب الفرصة للخروج عليه ، فاتفق مع أخيه إدريس والي مالقة ، على أن يتركها له ، لتكون قاعدة للعمل ، وأن يستقر إدريس مكانه في سبته . وأخذ يحيى يحشد أنصاره تبعاً في مالقة حتى اجتمع له جيش قوى . وفي أثناء ذلك كان عمه القاسم يشكو أمره إلى زعماء البربر ، ولكنهم عجزوا عن التوفيق بينهما ؛ وزحف يحيى في قواته على قرطبة ، وخشى القاسم العاقبة فأثر الانسحاب على الحرب ، وغادر قرطبة إلى إشبيلية في ٢٣ ربيع الثاني سنة ٤١٢ هـ (أغسطس سنة ١٠٢٢ م) ، وضبط البربر القصر حتى مقدم أخيه يحيى .

ودخل يحيى بن علي بن حمود قرطبة بعد ذلك بأيام قلائل ، في مستهل جمادى

(١) أعمال الإعلام ص ١٣١ .

الأولى سنة ٤١٢ هـ . وبوع بالخلافة ، وتلقب بالمعتلى بالله ، وكان في الثانية والأربعين من عمره . واستقبل البربر والأندلسيون معاً رياسته بالاستبشار والرضى . وكان المعتلى فارساً بارعاً يتحلى بخلال الفروسية ، وبجانب العصبية ، ويؤثر العدل ، ويجزل العطاء لمن وفد عليه ، أو مدحه بشعره ، فأحبه الناس ؛ وكان من وزرائه أبو العباس أحمد بن برد ، والكاتب محمد بن الفرضي ، ولكنه وقع مثل عمه القاسم تحت نفوذ البربر وإمرتهم ، فاستبدوا به ، وضيقوا عليه . وكان القاسم بن حمود أثناء ذلك قد استقر في إشبيلية ، وتسمى بالخلافة ، وتلقب بالمستعلی ، وأخذ يرقب سير الحوادث . ومن الغريب أن القاسم وابن أخيه يحيى ، تهادنا وانفقا على أن يعترف كلاهما بصفة صاحبه . ويعلق الفيلسوف ابن حزم على ذلك بأنه لم يسمع بخليفتين تصالحا « وهو أمر ، لم يسمع في الدنيا بأشنع منه ، ولا أدل على إدبار الأمور » (١) .

على أن هذا الوضع الشاذ لم يدم طويلاً . ذلك أن البربر أعلنوا خلع يحيى المعتلى في الثاني عشر من ذي القعدة سنة ٤١٣ هـ ، ولم يكن قد مضى على خلافته سوى عام ونصف ، فبادر يحيى بمغادرة قرطبة إلى مالقة . وفي الحال تحرك عمه القاسم من إشبيلية تلبية لدعوة البربر ، ودخل قرطبة في الثامن عشر من ذي القعدة المذكور ، وجددت له البيعة وتسمى بأمر المؤمنين ،

ولكن القاسم لم يوفق في سياسته أيضاً في تلك المرة . ذلك أنه اصطفى البربر ، ومكنهم من أهل قرطبة ، فاشتدوا في معاملتهم ومطاردتهم ، وضاق أهل قرطبة في النهاية ذرعاً بتلك الحالة ، فثاروا بالبربر ، واستعدوا لقتالهم ، وأعلنوا خلع القاسم ، واستمرت المعارك حيناً حتى استطاع القرطبيون إرغام القاسم على مغادرة القصر ، وذلك في جمادى الثانية سنة ٤١٤ هـ (سبتمبر سنة ١٠٢٣ م) . فانقلب البربر إلى محاصرة المدينة بعد أن أغلق القرطبيون أبوابها . واستمر الحصار خمسين يوماً ، والمعارك في كل يوم تتجدد ، وأخيراً خرج القرطبيون واشتبكوا مع البربر في معركة كبيرة حاسمة ، وقاتلوا قتال اليائسين ، حتى هزموا البربر ومزقوا جموعهم ، وتفرقت بقايا البربر وانفضت عن القاسم ، فسار القاسم في نفر من صحبه إلى إشبيلية ، وكان بها إبنه محمد والحسن ، فأغلقت المدينة أبوابها دونه ،

(١) راجع نقط العروس ص ٨٠ ، والبيان المغرب ج ٣ ص ١٣٢ و ١٣٣ .

وأخرج منها إبنائه ومن معهم من البربر ، وقام أعيان المدينة ، وعلى رأسهم قاضيها محمد بن إسماعيل بن عباد ، بضبط الأمور فيها ، وسار القاسم وصحبه إلى بلدة شريش (١) . وفي تلك الأثناء كان يحيى المعتلى ، قد سار من مالقة إلى الجزيرة الخضراء ، وكانت بها أموال عمه القاسم وأسرته فاستولى عليها ، واستولى أخوه إدريس وإلى سبته ، على ثغر طنجة ، وكانت أيضاً من أعمال القاسم ، وكان يعدها ملجأ له وملاذأ يحمى به إذا ما ذهب سلطانه بقرطبة ؛ ولما انقلب القاسم في فلوله إلى شريش سار يحيى المعتلى لقتاله ، وحاصر شريش حتى سلمت ، وقبض على عمه وبنيه ، وحملهم في الأصفاد إلى مالقة ، وهناك أودعهم السجن ، وانفرد يحيى برياسة البربر ، وبسط سيادته على شريش ومالقة ، وسبته وطنجة من ثغور المغرب ، وبايعه البربر بالخلافة ، وسموه المعتلى بالله ، وبقي القاسم يرسف في سجنه رداً طويلاً من الزمن ، حتى قتل خنقاً في سنة ٤٣١ هـ ، وهو في نحو الثمانين من عمره (٢) . وكان أهل قرطبة قد سثموا عندئذ حكم البربر وأشياهم ، وأجمعوا على رد الأمر إلى بني أمية . وكان ثمة ثلاثة من المرشحين الذين اعتبروا أصلح من بقي من بني أمية لتولى الخلافة ، هم سليمان بن المرتضى ، ومحمد بن العراقى ، وعبد الرحمن ابن هشام بن عبد الجبار بن الناصر لدين الله ، فقرر القرطبيون أن يختاروا أحدهم بطريق الشورى ، وعقدت لذلك جلسة كبرى بالمسجد الجامع ، حضرها الوزراء والأكابر والخاصة والعامّة . وحضر سليمان المرتضى ومحمد العراقى في البداية ، وكاد الاختيار يقع على أولهما ، وبدئاً بالفعل في تحرير مرسوم البيعة ، لولا أن حضر عندئذ عبد الرحمن بن هشام في كبكة عظيمة ، ومن حوله طائفة كبيرة من الحند شاهرة السلاح ، فدخل المقصورة ، وعقدت له البيعة في الحال ، بين دهشة الحضور واضطرابهم ، وذلك في السادس عشر من رمضان سنة ٤١٤ هـ (ديسمبر سنة ١٠٢٣ م) . ثم خرج من المسجد إلى القصر وقد اصطحب معه ابني عمه سليمان والعراقى ، فاعتقلهما لديه . ويصف لنا ابن حيان هذا الحفل الشهير ، وكان من شهوده ، بإفاضة ممتعة (٣) .

(١) البيان المغرب ج ٣ ص ١٣٤ و ١٣٥ ؛ وأعمال الأعلام ص ١٣٣ .

(٢) راجع البيان المغرب ج ٣ ص ١٣٥ و ١٤٤ ؛ والمراكشي ص ٢٩ .

(٣) راجع الذخيرة ، القسم الأول المجلد الأول ص ٣٥ و ٣٦ . ويقول لنا ابن حيان

إن الحفل عقد في الرابع من رمضان ، والظاهر أن هناك تحريفاً ، لأنه يقول لنا بعد ذلك عند مقتل =

واتخذ عبد الرحمن لقب المستظهر بالله، وكان يوم جلوسه قتي في الثالثة والعشرين من عمره ، وندب لوزارة بعض القدامى من وزراء بني أمية السابقين مثل أحمد ابن برد ، وجماعة من الفتيان الطامحين الأعمار ، مثل أبي عامر بن شهيد ، وأبي محمد ابن حزم (وهو الفياسوف المستقبل) ، وابن عمه عبد الوهاب بن حزم ، وقد كانا على قول ابن حيان « من أكمل فتيان الزمان فهماً ومعرفة ، ونفاذاً في العلوم الرفيعة » . فقدمهم على سائر رجاله ، وأولاهم منتهى النفوذ والثقة ؛ ويورد لنا ابن حيان ثبت المناصب الوزارية والرئيسية يومئذ على النحو الآتي :

خدمة المدينتين ، الزهراء والزاهرة ، وخدمة كتابة التعقب والمحاسبة ، وخدمة الحشم ، وخدمة القطع بالناض والطعام ، وخدمة موارد الخزانة الخاصة ، وخدمة الطراز . وخدمة المباني ، وخدمة الأسلحة وما يجري مجراها ، وخدمة الخزانة القبض والنفقة . وخدمة الوثائق ورفع كتب المظالم ، وخدمة خزانة الطب والحكمة . وخدمة الأنزال والنزائل ، وخدمة أحكام السوق .

ثم يعلق ابن حيان على ذلك بقوله : « وهذا زخرف من التسطير وضع على غير حاصل ، ومراتب نصبت لغير طائل ، تنافسها طالبوها يومئذ بالأمل ، فلم يتحلوا منها بنائل ، ولا قبضوا منها مرتزقاً ، ولا نالوا بها مرتفقاً ، وغرهم بارق الطمع وسط بلد محصور ، وعمل معصوب ، وخراب مستول ، ومع سلطان فقير ، لا يقع بيده درهم إلا من صباية ، مستغل جوف المدينة ، أو نهب مغلول ممن تقلقل عنها ، يقيم منها رمة ، ويفرق حملته على من تكفنه من جنده ودائره ، ويتطرق إلى ما يقبح من ظلم رعيته ، فلم يلبث الأمر أن تفرّى به فسُكِّد دمه ، وانحسم الأمل من دولته » (١) .

تلك هي الصورة القوية التي يقدمها إلينا المؤرخ الأندلسي المعاصر عن بلاط المستظهر ، وظروف ولايته . والواقع أن هذا الخليفة الفتي كان يتمتع بخلال باهرة ، وكان ممكناً أن يكون معقد الآمال ، لو أتيح له من السلطان وحرية التصرف ما طالب ، واكن الظروف عاجلته وغلبته على أمره ؛ وكان قد بدأ ولايته بأن أرسل إلى المدن والثغور يدعو إلى تأييد بيعته ، فلم تثمر دعوته أو لم يتسع

= المستظهر إن خلافته كانت سبعة وأربعين يوماً ، ومقتله في الثالث من ذي القعدة . وهو ما يرد تاريخ البيعة إلى السادس عشر من رمضان (راجع البيان المغرب ج ٣ ص ١٣٥) .
(١) نقله في الذخيرة . القسم الأول المجلد الأول ص ٣٦ و ٣٧ .

الوقت لذلك ، وقبض على عدد من الوزراء والأكابر وصادر أموالهم ، وكان يرجو بإزالتهم تمكين نفوذه وسلطانه ، ثم قبض على عدد من أبناء عمه المروانية ، واعتقلهم بالقصر مع ابني عمه سليمان والعراقي ، وكانت هذه البوادر المكبرة تقضى على هيئته بسرعة ، وتذكى السخط عليه في صدور الخاصة والعامة معاً . ثم وقع حادث كان نذير الاضطرام . وذلك أنه استقبل عدة من الفرسان البربر فأكرم وفادتهم وأنزلهم بالقصر ، فغضب لذلك الكبراء ، وأوغروا صدور العامة قائلين لهم : إننا حاربنا البربر وقهرناهم ، وهذا الرجل يسعى في ردهم إلينا ، وتمكينهم من أمرنا . فهاجت العامة ، وزحفت جموعهم على القصر ، واقتحموه على غرة ، وقتلوا البربر حيث وجدوا ، وفتحوا المطبق وأخرجوا من كان به من المعتقلين ، ووثبوا إلى جناح الحرم ، وأدرك عبدالرحمن المستظهر أنه هالك ، فاختم في أتون الحمام ، واعتدى الثوار على آل عبد الرحمن وحريمه ، وسبوا أكثرهن ، وكانت مناظر شنيعة مروعة (١) .

ولما اختفى المستظهر بالله ، ظهر ابن عمه محمد بن عبد الرحمن بن عبيد الله ابن الناصر ، وكان مختفياً خشية البطش به ، فأخذ إلى القصر ، وأجلس في مجلس الملك ، وبويع بالخلافة في اليوم الثالث من ذي القعدة سنة ٤١٤ هـ (١٧ يناير ١٠٢٤ م) ، وتلقب بالمستكفي بالله . وبحث عن المستظهر حتى عثر به في أتون الحمام في حالة مزرية ، فأخذ إلى حضرة الخليفة الجديد ، وأعدم أمامه ، وكانت إمارته مذولى حتى قتل سبعة وأربعين يوماً ، لم يحدث فيها حدث هام ، ولم يجاوز سلطانه مدينة قرطبة .

وكان عبد الرحمن المستظهر أديباً شاعراً من الطراز الأول ، وقد نوه ابن بسام بمواهبه الأدبية الرفيعة ، وأورد له طائفة من القصائد الحيدة (٢) . ومن شعره من قصيدة طويلة قالها في ذكر ابنة عمه أم الحكم بنت المستعين أيام خطبته لها :

حمامة بنت العبشميين رفرفت فطرت إليها من سراهم صقرا
تقل الثريا أن تكون لها يدا ويرجو الصباح أن يكون لها نحرا

(١) الذخيرة القسم الأول المجلد الأول ص ٣٨ و ٣٩ ، والبيان المغرب ج ٣ ص ١٤٨ و ١٣٩ .

(٢) راجع الذخيرة . القسم الأول المجلد الأول ص ٤٠ - ٤٣ .

وإني لطعان إذا الخيل أقبلت جوانها حتى ترى جونها شقرا
ومكرم ضيفي حين ينزل ساحتي وجاعل وفدى عند سائله وفرا
وكان المستكني يوم ولايته في الثانية والأربعين من عمره إذ كان مولده في
سنة ٣٦٦ هـ ، وأمه أم ولد تسمى حوراء . وكان عاطلا من الخلال الحسنة ،
ميالا إلى البطالة ، شغوفاً بالمجون والشراب ، عاجزاً سيئ الرأي ، وقد شبهه
أبن حزم ، في سوء خلاله ، وفي مجونه وفسقه ، وفي خضوعه لغانية خبيثة ،
بسميه المستكني العباسي ، وقد كان كلاهما في نفس السن ، وحكم كل منهما
نحو سنة وخمسة أشهر (١) .

ولم تقع خلال ولاية المستكني القصيرة ، أحداث ذات شأن . وكان مما عمله
أن أمر بنحيق ابن عمه محمد العراقي ، ونعاه للناس ، وندب لولاية عهده ابن عمه
سليمان بن هشام بن عبيد الله بن الناصر . وفي أيامه هدمت القصور الناصرية ،
وخربت قصور المنصور بالزاهرة ، فسادتها الوحشة والحراب .

واضطهد المستكني معظم الرجال البارزين من الساسة القدماء ، ومن المفكرين ،
وغادر كثير منهم قرطبة ، ولجأوا إلى بلاط يحيى بن حمود بمالقة ، وكان من
هؤلاء الوزير السابق والشاعر اللاحق أبو عامر بن شهيد ؛ ووصف هؤلاء ليحيى
ابن حمود سوء الأحوال في قرطبة . ومع أن يحيى لم يكن متحمساً لفكرة السير
إلى قرطبة ، فإن الأنباء ترامت إلى القرطبيين بأنه يتخذ أهباته لاسترداد عاصمة
الخلافة ؛ وعلى أي حال فقد سئم القرطبيون ولاية المستكني العاطلة الماجنة الفاسدة
ونادوا بخلعه . فدخل عليه الوزراء والكبراء ، وأغلظوا له في القول ، وطلبوا
إليه التخلي ، فاستعطفهم بلين القول ، ثم غادر قرطبة في نفس اليوم متنكراً في
زي امرأة . وكان ذلك في اليوم الخامس والعشرين من ربيع الأول سنة ٤١٦ هـ
(مايو سنة ١٠٢٥ م) . وسار المستكني صوب الثغر في نفر من صحبه ، ووصل
إلى إقليج من أحواز قرطبة ، وهناك اغتاله بعض مرافقيه ، لاعتمادهم أنه يحمل
مالاً . وكان مقتله لسبعة عشر يوماً فقط من خلعه (٢) .

(١) البيان المغرب ج ٣ ص ١٤١ ، وأعمال الأعلام ص ١٣٦ .

(٢) البيان المغرب ج ٣ ص ١٤٢ و ١٤٣ ؛ وأعمال الأعلام ص ١٣٦ .

ومما هو جدير بالذكر أن محمد بن عبد الرحمن المستكني هو والد الأديبة والشاعرة الأندلسية
الكبيرة « ولادة » التي اشتهرت بروعة أدبها وشعرها ، والتي أوحى إلى الوزير الشاعر ابن زيدون =

ومضت بضعة أشهر ؛ والحكومة في قرطبة فوضى لا ضابط لها . وأخيراً قرر يحيى بن حمود أن يسير إلى العاصمة ، فقصده إليها في قواته ودخل القصر في الخامس عشر من رمضان من نفس العام (٩ نوفمبر سنة ١٠٢٥ م) ، وبقي بها إلى نهاية هذا العام ، ثم غادرها في أوائل المحرم سنة ٤١٧ هـ قاصداً إلى مالقة ، وترك بها وزيره أحمد بن موسى ، ودوناس بن أبي روح ، يدبران شئونها ، ومعهما حامية صغيرة من البربر ، بيد أنه لم يمض زهاء شهرين حتى تجمعت الحوادث ككرة أخرى .

ذلك أن خيران وزهير الفتيين العامرين ، قصدا إلى قرطبة ، وأوعزا إلى القرطبيين بالتخلص من البربر ، فثار القرطبيون فجأة ، وفتكوا بالحامية البربرية ، وكانت زهاء ألف رجل ، وفر أحمد بن موسى وزميله دوناس إلى مالقة ، وكان ذلك في العشرين من ربيع الأول من سنة ٤١٧ هـ .

وأجمع القرطبيون على أن ذلك على رد الأمر لبني أمية ، وكان عميدهم في ذلك الوزير أبو الحزم جهـوـر بن محمد بن محمد بن جهور ، وانفقوا على مبايعة هشام بن محمد ابن عبد الله بن عبد الرحمن الناصر ، أخى عبد الرحمن المرتضى . وكان عند مقتل أخيه في سنة ٤٠٩ هـ ، قد فر من قرطبة في نفر من صحبه ، ولجأ إلى مدينة ألبونت في شمال شرقي الأندلس ، واستظل من ذلك الحين بحماية واليها عبد الله بن قاسم الفهرى . وبعث إليه أهل قرطبة بالبيعة ، وهو بمقره بمحصن ألبونت ، فتاقاها في ٢٥ ربيع الآخر سنة ٤١٨ هـ ، وتلقب بالمعتد بالله ، وبقي بمقره بألبونت مدة سنتين وسبعة أشهر ، وهو يحطب له بقرطبة ، ثم قدم إليها في شهر ذى الحجة سنة ٤٢٠ هـ^(١) فجددت له البيعة ، واستمر في كرسي الخلافة عامين آخرين . وسر القرطبيون لمقدمه في البداية ، ولكنه ألقى زمام الأمور إلى رجل من الموالي يسمى حكم بن سعيد القزاز ، فاستأثر بكل سلطة ، وأطلقت يده في الأموال ، وكان أخرق عسوفاً ، فجمع حوله نفراً من السفهاء العاطلين عن كل إخلاص وحزم ، وأطلق العنان لغوايته وأهوائه ، فاضطربت الشئون وامتعض العقلاء ،

=المتيم بها طائفة من غرر قصائده . وقد لبثت ولادة عصره تخلب بجمالها وأدبها وشعرها ألباب المجتمع للقرطبي الرفيع . وتوفيت في سنة ٤٨٤ هـ (١٠٩١ م) (راجع الصلة لابن بشكوال رقم ١٥٤٠ ؛ وقلائد العقيان ص ٧٠ ، ونقح الطيب ج ٢ ص ٤٤٧ - ٤٤٩) .

(١) جنوة المقيس ص ٢٦ و ٢٧ .

وزعماء البيوتات الكبيرة ، وشعروا بما نالهم على يده من ضروب الإهانة والذيل ؛ وأحاط هذا الوزير المستبد الماجن الخليفة برجاله ، وأبعد عنه الصحب وذوى الحجى ، ودفعه بالرغم من شيخوخته ، إلى تيار الشراب والمجون ، حتى ساءت الأمور إلى الذرورة ، وفقدت الخلافة والحكومة ، كل عطف وهيبة ، وتهامس الناس في وجوب إزالة هذه الحالة ، والتخلص من أوزارها وعواقبها . والتفت جماعة الناقلين حول فتى من أبناء عمومة هشام ، هو أمية بن عبد الرحمن العراقي ، من أحفاد الناصر ، وكان فتى شديد التهور والجهالة ، ولكن بعيد الأطماع ؛ وفي ذات يوم تربصت تلك الجماعة الناقمة بالوزير حكيم بن سعيد وفتكت به ، وطافت برأسه في المدينة ، وتركوا جثته في العراء (ذو القعدة سنة ٤٢٢ هـ - نوفمبر سنة ١٠٣١ م) . ثم سار أمية في جموعه إلى القصر ، والخليفة هشام عاكف على شرايه ونسائه ، فهبت العامة بعض أجنحة القصر ، ولولا أن زجرهم الوزير الشيخ ابن جهور ونصحهم بالكف عنه ، لما أبقوا على شئ . وخشى هشام المعتد على نفسه ، فبادر إلى الخروج من القصر مع ولده ونسائه ، وهو يناشد الجماعة أن يحضوا دمه ، ولجأ إلى ساباط الجامع واجتمع رأى الناس جميعاً كباراً وصغاراً على خاعه ، والتخلص حملة من بنى أمية ، وإبطال رسم الخلافة ، وعلى نقي بنى أمية وإجلالهم جميعاً عن المدينة ، وكان رائد الجماعة وناصحهم في ذلك أبو الحزم ابن جهور ، وكان هذا الوزير النابه يستأثر نظراً لماضيه التالد ، وأسرته العريقة ، ورأيه الناضج ، محبة الشعب وثمته وتأيينه ، وسرى فيما بعد أى دور خطير يلعبه ابن جهور في مصار قرطبة .

وانتهى القوم إلى خلع هشام المعتد ، وإبعاده وأهله إلى أحد الحصون القريبة ، ثم غادره بعد أيام قلائل ، وسار إلى الثغر ، حيث التجأ إلى سليمان بن هود صاحب لاردة من أعمال الثغر الأعلى ، وقضى هنالك بقمية أيامه حتى توفى في سنة ٤٢٨ هـ دون عقب ؛ وأبعد أمية بن عبد الرحمن عن القصر ، وكان يهجنس بتولى كرسى الخلافة مكان المعتد ، فلما رأى وعيد القوم ، اختفى وغادر قرطبة إلى حيث لا يعلم أحد . ونودى في سائر أحياء قرطبة وأرباضها بأن لا يبقى بها أحد من بنى أمية ، ولا يأويهم أحد ، وتولى ابن جهور تنفيذ هذا الأمر بمنتهى الحزم ، حتى أجلاهم عن المدينة ومحا رسومهم (١) .

(١) راجع البيان المغرب ج ٣ ص ١٤٥ - ١٥٢ ؛ وأعمال الأعلام ص ١٣٨ - ١٤٠ .

وبخلع هشام المعتد ، تنتهي رسوم الدعوة الأموية بصورة نهائية ، وينقطع ذكرها إلى الأبد من منابر الأندلس والمغرب الأقصى .

• • •

ولنعد الآن قليلاً إلى الوراثة لنتتبع مصاير دولة بني حوّد في جنوبي الأندلس ، وقد رأينا أن يحيى بن علي بن حوّد الملقب بيحيى المعتلى ، بعد أن خلع عمه القاسم من الخلافة ، وأرغم على مغادرة قرطبة في سنة ٤١٤ هـ ، سار إلى بلدة شريش ، فسار يحيى في أثره ، وما زال به حتى هزمه وقبض عليه ، ثم قتل في سجنه فيما بعد ، واستولى يحيى على سائر ما كان بيده من البلاد والثغور ، وانفرد برياسة البربر في الأندلس . ثم عاد فدخل قرطبة مرة أخرى على أثر خلع المستكنى في سنة ٤١٦ هـ . ولكنه غادرها بعد ذلك إلى مالقة ، التي غدت من ذلك الحين معقله وعاصمة ملكه ، في أوائل سنة ٤١٧ هـ ، واستمر بها مدى حين .

وكان يحيى المعتلى يحثى بالأخص على مملكته الفتية ، من مطامع القاضي محمد بن إسماعيل بن عباد ، الذي استقل برياسة إشبيلية ، حسباً تقدم . فسار بقواته إلى قرمونة حصن إشبيلية من الشمال الشرقي ، وانزعه من يد حاكمها محمد ابن عبد الله البرزالي كبير بني برزال ، واستقر بها يرقب الفرصة لوثوب بابن عباد وتحطيمه ، فسار البرزالي إلى ابن عباد وتحالف معه على قتال يحيى . وكان يحيى قد استسلم إلى لهوه وملاذه ، وعكف على معاورة الشراب والخجون المستمر ، وجنوده تغير على إشبيلية من آن لآخر . ورأى القاضي ابن عباد أن يدحض دعوى المعتلى في الخلافة أولاً ، فأظهر في أواخر سنة ٤٢٦ هـ شخصاً زعم أنه هشام المؤيد ، وأنه كان مخفياً ولم يمت ، وبايعه بالخلافة ، ودعا الناس إلى الدخول في طاعته . ثم سير ابن عباد إلى قرمونة بعض قواته مع ابنه إسماعيل ، ومعها طائفة من قوات البربر المتحالفة معه ، فطوقت المدينة ليلاً ، وكمن معظمها في أماكن مستورة ، ووقف يحيى على الخبر فخرج في قواته وهو ثمل ، واشتبك مع الهاجمين في معركة حامية وكاد يوقع بهم الهزيمة ، لولا أن ظهرت قوات ابن عباد من كمينها ، وأطبقت عليه ، فانهزم أصحابه ، وقتل في المعركة واحتز رأسه ، وحمل سريعاً إلى ابن عباد في إشبيلية (المحرم سنة ٤٢٧ هـ - نوفمبر سنة ١٠٣٥ م) ، واستمر فتلك جند ابن عباد بالبربر أمام أسوار قرمونة ، ولم يقف إلا حينما تدخل محمد بن عبد الله

البرزالى ، وقد ساءه هذا الفتك الذريع بقومه ، فكف ابن عباد مرغماً ،
ودخل البرزالى قرمونة ، واستولى على ما فيها من مال ومتاع ، وسبى نساء يحيى
وجواريه (١) .

ولما قتل يحيى المعتلى على هذا النحو ، سارع وزيراه أبو الفوز نجا الصقلبي ،
وأبو جعفر أحمد بن موسى بن بقتة البربرى ، باستدعاء أخيه إدريس لتولى الملك
مكانه ، وكان واليا لسبته . وكان ليحيى ولدان حدثان هما إدريس وحسن ؛
وفي رواية أنه كان قد أوصى بولاية عهده أولده حسن ، ولكن حداثة سنه حالت
دون ولايته . وهكذا بويج إدريس بالخلافة فى مألقة ، قاعدة المملكة الحمودية
وتلقب بالمتأيد بالله ، وعين ابن أخيه حسناً لحكم سبته وأعمالها ، وندب لمعاونته
الحاجب نجا ، واحترت بولايتيه رندة والحزيرة ، وكان من حلفائه المعترفين
ببيعتة الفتى زهير العامرى صاحب أمرية ، وجوس بن ماكسن زعيم صنهاجة
وصاحب غرناطة ؛ وقد سارا فى قواتهما لمعاونة إدريس على محاربة ابن عباد ،
وانضم إليهما البرزالى صاحب قرمونة . وفى شهر ذى القعدة سنة ٤٢٧هـ (١٠٣٦م)
سارت القوات المتحالفة إلى أحواز إشبيلية وعانت فيها ، واحتلوا قرية طشانة ،
ثم احتلوا «القلعة» ، الواقعة شرق إشبيلية ، وأحرقوا طر يانة الواقعة فى جنوبها ،
ثم احتلوا حصن القصر ، وانصرف زهير بعد ذلك إلى أمرية .

وفى العام التالى توفى جوس بن ماكسن ، وخلفه فى حكم غرناطة ولده باديس ،
وبعث باديس وأخوه بلقّين إلى زهير يطلبان تجديد التحالف الذى كان بينه وبين
أبيهما ، ولكن زهير أسار فى قواته إلى غرناطة ، والتقى بباديس وأخيه فى قرية من
أحواز غرناطة تسمى «ألفت» (٢) . والظاهر أنه وقع بين الفريقين نوع من سوء التفاهم ،
واعتبر باديس أن زهيراً توغل فى أرضه بقواته أكثر مما يجب ؛ أو أن باديس
وأخاه بلقّين ، قد وضعوا خطة للغدر بزهير . وعلى أى حال فقد عمل باديس على قطع
طريق الرجعة على زهير ، ووضع له الكمائن فى المضائق . ووقع القتال بين زهير
والبربر ، فهزم زهير وقتل ، ولم يعثر على جثته ، واحتوى باديس على معسكره ،
واستولى على غنائم هائلة من الخيل والسلاح والمتاع ، وقبض باديس على كاتب

(١) البيان المغرب ج ٢ ص ١٨٨ و ١٨٩ و ١٩٠ ؛ وأعمال الأعلام ص ١٣٧ .

(٢) وهى بالإسبانية Daifontes ، وهى تقع على قيد نحو خمسة كيلومترات من شمالى غرناطة .

زهير أحمد بن عباس ثم قتله بعد ذلك . وحدثت هذه الواقعة في أواخر سنة ٤٢٩ هـ (١٠٣٨ م) (١) .

وكان القاضي ابن عباد ، المتغلب على إشبيلية ، بعد قتل منافسه يحيى المعتلى قد خلا له الجو ، واشتد بأسه ، وأخذ يطمح إلى التغلب على ما يجاور إشبيلية من المدن والمقاطعات . فبدأ بأن سير ولده إسماعيل في جيش زحف على قرمونة حصن إشبيلية ، من الشمال الشرقي ، وكان بها محمد بن عبد الله البرزالي ، فاستولى عليها ، واستولى كذلك على إستجة الواقعة في شرقها . فاستغاث البرزالي بإدريس المتأيد ، وباديس أمير غرناطة ، وهرعت الجند البربر من مالقة وغرناطة استجابة لدعوته . ونشبت بين البربر وبين جند ابن عباد الأندلسيين وقائع عديدة ، انتهت بهزيمة الأندلسيين ومقتل إسماعيل بن عباد ، وذلك في أوائل المحرم سنة ٤٣١ هـ (أواخر سنة ١٠٣٩ م) (٢) .

ولم تمض على ذلك أيام قلائل حتى توفي إدريس المتأيد في قلعة ببشر ، وكان قد نقل إليها مريضاً من مالقة . وكانت وفاته في السادس عشر من محرم سنة ٤٣١ هـ .

وعلى أثر وفاته بويع ولده يحيى بالخلافة في مالقة ، وذلك بترتيب وزيره أبي جعفر ابن بقتة وسعيه . وتلقب يحيى بالقاسم بأمر الله ، وكان فتي حداثاً قليل الخبرة والحزم ، ولكن ابن بقتة سارع برفعه إلى العرش استبقاء لسultanه الذي تأثل في ظل أبيه . بيد أن الحوادث ما لبثت أن تطورت بسرعة . ذلك أن نجما الحاجب الصقلبي ، وكان يومئذ بسبته ، لم يرقه هذا الاختيار ، فبادر بالدعوة إلى حسن بن يحيى المعتلى (ابن أخي إدريس) . وكان إدريس قد اختاره لولاية عهده ، وكان وقت وفاة عمه حاكماً لسبته والثغور المغربية ، فبويع حسن بالخلافة ، وجهاز الحاجب جيشاً ، وسار بقواته مع حسن في أسطول يمم شطر مالقة ، ونزلت القوات إلى البر ، وحاصرت مالقة من البر والبحر ، ولم تمض أسابيع قلائل حتى اضطر يحيى إلى التسليم والتنازل عن الخلافة ، ثم سار إلى قارش ، وأقام بها .

(١) راجع في تفصيل هذه الحوادث : البيان المغرب ج ٣ ص ١٩٠ و ١٩١ و ٢٩٣ ، والإحاطة في أخبار غرناطة لابن الخطيب (القاهرة ١٩٥٦) ج ١ ص ٢٦٩ و ٥٢٧ و ٥٢٨ .
(٢) البيان المغرب ج ٣ ص ١٩٩ .

وبويح حسن بن يحيى بالخلافة في مالقة في جمادى الثانية سنة ٥٤٣١ هـ ، وتلقب بالمستنصر بالله ، واعترفت بطاعته غرناطة وغيرها ، وعهد بتدبير الأمور إلى الوزير أبي جعفر بن بقنة ، وعهد إلى الحاجب نجا بحكم الثغور المغربية . وكان حسن أميراً حازماً ، قوى النفس ، فنظم الإدارة ، واستكثر من الجند ، وجبى الأموال . واستراب بوزيره أبي جعفر ، وكان يسرله نصرته ليحيى ، فدبر مقتله ، وذلك في يوم عيد الفطر سنة ٥٤٣٣ هـ (١) ، ثم أمر بقتل يحيى القاسم ، فقتل في ربيع الثاني سنة ٥٤٣٤ هـ . وكانت أخته زوجة للمستنصر ، فما لبثت أن دبرت مقتله انتقاماً لأخيها ، وهلك حسن بالسهم في جمادى الأولى سنة ٥٤٣٤ هـ (ديسمبر سنة ١٠٤٢ م) .

والروايات بعد ذلك متضاربة ، ففيها ما يقول بأن الحسن لم يعقب ذرية (٢) ومنها ما يقول إنه ترك ولداً صغيراً بسبته . وعلى أى فقد نهض الحاجب نجا على أثر وفاة المستنصر ، وعبر البحر في قواته من سبته إلى الجزيرة ؛ وهنا يقال إنه نهض ليؤيد دعوة ولد الخليفة المتوفى ، ويقال من جهة أخرى إنه نهض ليستخلص تراث الحموديين لنفسه ، بعد أن اضطربت شئونهم . وسار نجا إلى الجزيرة وفيها ابنا القاسم بن حمود ، فخرجت إليه أمهما سبيعة ، وعنتته على مسلكه وعدم ولائه لسادته ، فاستحى منها ، وغادر الجزيرة ميمماً شطر مالقة . وكان معظم جنده من قبيلة برغواطة البربرية ، أخوال حسن بن يحيى ، فاسترابوا منه ومن مقاصده واثمروا به ، وقتلوه في الطريق . ثم ساروا إلى مالقة ، وكان حسن بن يحيى أيام خلافته قد قبض على أخيه إدريس ، وزجه إلى السجن ليأمن منافسته . فأخرجه الجند من سجنه وبويح بالخلافة . وتلقب بالعالى ، وذلك في جمادى الثانية سنة ٥٤٣٤ هـ (يناير سنة ١٠٤٣ م) ، وأطاعته البربر في غرناطة وقرمونة وجيان وغيرها . وهو المدوح بالقصيدة المشهورة ، التى نظمها عبد الرحمن بن ميمانا القبدائى الأشبونى فى مدححه ومطلعها :

البرقي لائح من أندرين ذرفت عيناك بالماء المعين
لعبت أسيافه عارية كهخارين بأيدى اللاعبين

(١) البيان المغرب ج ٣ ص ٢٩٠ ؛ والمراكشى ص ٢٦ .

(٢) المراكشى ص ٢٧ .

والصوت الرعد زجر وحنين
وأناجي في الدجي عاذلتى
وبقلبي زفرات وأنين
ويك لا أسمع قول العاذلين^(١)
ومنها :

عيرتني بسقام وضنى
قد بدا لي وضح الصبح المبين
إن هذين لدين العاشقين
فاسقنيها قبل تكبير الأذنين
إسقنيها مرة مشمولة
لبثت في دنها بضع سنين
مع فتیان كرام نجب
يتهادون رياحين المحجون^(١)
وكان العالی أميراً رقيق الخلال ، جواداً كثير الصلوات ، أديباً ينظم الشعر ،
ومع ذلك فقد كان يجمع حوله بطانة سيئة ، وصحابةً من أراذل القوم . وكان ضعيف
الرأى ، متهاوناً في شؤون الحكم ، فسرى التفكك إلى سلطانه ، وفي أواخر
سنة ٥٤٣٨ هـ (١٠٤٦ م) ، ثار عليه ابن عمه محمد بن إدريس بن علي بن حمود ،
فخرج إدريس في صحبه من مالقة إلى حصن ببشتر ، وعاونه باديس بن حبوس
أمير غرناطة بجنده ليسترده سلطانه . فغزا مالقة ولكنه لم يفز بطائل ، فارتد مع
أهله وصحبه إلى سبتة .

وبويع محمد بن إدريس في شعبان سنة ٥٤٣٨ هـ . وتلقب بالمهدى ، وتوطد
أمره بمالقة ؛ ولكن بعض النواحي نكلت عن تأييده ، ولا سيما غرناطة ؛ وكان
أميرها باديس من أشد معارضييه . وكان يشعر أنه أحق من غيره بزعامه البربر ؛
وأبدى المهدي عزمًا في تنظيم الحكومة وإصلاح الأمور ، ولكنه كان طاغية
سفاكاً للدماء يسرف في قتل مواطنيه البربر ، حتى كرهه معظمهم ، واجتمع
رأى معارضييه من الزعماء وعلى رأسهم باديس على وجوب خلعهم ، والاعتراف
بطاعة محمد بن القاسم بن حمود صاحب الجزيرة الخضراء ، واتفق رأى البعض
الآخر ومنهم أبونور بن أنى قررة البفر في صاحب رندة ، على الاعتراف بطاعة
إدريس بن يحيى العالی . وهكذا ادعى الخلافة ثلاثة من أمراء بني حمود في وقت
واحد ، وفي مناطق صغيرة متقاربة ، وهذا إلى الخليفة المزعوم الذى أقامه
ابن عباد صاحب إشبيلية باسم هشام المؤيد ؛ ويستعرض الفيلسوف ابن حزم هذه
الحالة وهو معاصر لها في مرارة وتهكم ، ويصفها بأنها « فضيحة لم يقع في العالم

(١) راجع هذه القصيدة بأكملها في نفع الطيب ج ١ ص ٢٠٢ و ٢٠٣ .

إلى يومنا مثلها: أربعة رجال في مسافة ثلاثة أيام في مثلها ، كلهم يتسمى بأمر المؤمنين ، ويخطب لهم في زمن واحد» (١) .

واستمر محمد بن إدريس المهدي في كرسي الخلافة زهاء ستة أعوام . ولما لم يرضه وسيلة للتغلب عليه ، لجأوا إلى الغيلة ، فدسوا عليه من قتله بالسم ، وذلك في أواخر سنة ٤٤٤ هـ (أوائل سنة ١٠٥٣ م) .

فبويغ من بعده ولد أخيه وهو إدريس بن يحيى بن إدريس بن علي بن حمود ، وتلقب بالسامي ، وأقام حيناً بمالقة ، ثم أصابته فيما يظهر لوثة ، فغادر مالقة ، وهام على وجهه في صفة تاجر ، وغادر البحر إلى شاطئ العدو ، فأخذ إلى سبتة ، حيث قتله حاكمها سواجات البرغواطي (٢) .

وكان إدريس بن يحيى العالی ، قد لجأ على أثر خلعها إلى سبتة ، فأقام بها في كنف سواجات ، وأقام كذلك حيناً في رندة ، في كنف حاكمها أبي نور بن أبي قرة ، فلما هلك السامي ، سار إلى مالقة واستقبله أهلها بحماسة ، ودعى له بالخلافة مرة أخرى ، واستمر في الحكم حتى توفي سنة ٤٤٦ هـ (١٠٥٤ م) بعد أن عهد بالخلافة لابنه محمد .

فخلفه ولده محمد ، وتلقب بالمستعلي ، وأقرت بيعته ألمرية ورندة ، ولكن معظم الزعماء البربر ، وفي مقدمتهم باديس صاحب غرناطة نكلوا عن طاعته . وفي سنة ٤٤٩ هـ (١٠٥٧ م) ، سار باديس في قواته إلى مالقة ، واستولى عليها وضمها إلى إمارته ، وغادرها المستعلي ، وسار إلى ألمرية ، ثم عبر منها البحر إلى مليلة فقبله أهلها حاكماً عليهم ، واستمر بها حتى توفي سنة ٤٥٦ هـ (١٠٦٤ م) والمستعلي هو آخر من حكم في مالقة من أمراء بني حمود .

وفي أثناء ذلك كان رأى الزعماء البربر ، وفي مقدمتهم باديس صاحب غرناطة وإسحاق بن محمد بن عبد الله البرزالي صاحب قرمونة ، ومحمد بن نوح صاحب مورور ، وعبدون بن خزون صاحب أركش ، قد اجتمع على البيعة لبني محمد بن القاسم بن حمود صاحب الجزيرة الخضراء . وكان يحيى المعتلي حينما خلع

(١) ابن حزم في رسالته «نقط العروس» ص ٨٣ . وراجع البيان المغرب ج ٣ ص ٢١٧

و ٢٤٤ ؛ وأعمال الأعلام ص ١٤١ .

(٢) البيان المغرب ج ٢ ص ٢١٧ ؛ وأعمال الأعلام ص ١٤٢ .

عنه القاسم بن حمود، قد قبض على ولديه محمد وحسن، واعتقلهما بالجزيرة، فلما توفي يحيى، أفرج عنهما. وتولى محمد حكم الجزيرة، وذلك في الوقت الذى قامت فيه دولة المهدي في مالقة. ثم حاول محمد أن ينتزع الخلافة لنفسه، فسار في أنصاره إلى مالقة محاولاً انتزاعها من يد المهدي، ولكنه أخفق في محاولته، فارتد إلى الجزيرة، وتوفي بها في سنة ٤٤٠ هـ.

فخلفه محمد والده وحكم الجزيرة فترة قصيرة؛ ثم خلفه والده القاسم، وتلقب بالواثق، وكانت خلافته هزيلة ضيقة الرقعة والموارد، ولم يتح لها من البقاء سوى فترة يسيرة. ذلك أن ابن عباد صاحب إشبيلية اعترم أن يقضى على خلافة الحموديين بصفة نهائية، فبعث قواته إلى الجزيرة الخضراء فطوقها من البر والبحر واضطر القاسم سراعاً إلى التسليم، وغادر الجزيرة بالأمان مع أهله وصحبه (٥٤٤٦ هـ - ١٠٥٥ م) وسار إلى ألمرية حيث التجأ إلى حماية صاحبها المعتصم ابن صمادح، ولبت لها حتى توفي سنة ٤٥٠ هـ (١٠٥٨ م).

وفي نفس الوقت كان باديس أمير غرناطة قد استولى على مالقة من يد المستعلي (٥٤٤٩ هـ)، وانهار بها سلطان الحموديين، وهكذا انقرضت دولة بني حمود من مالقة والجزيرة معاً، وانتهى بذلك سلطانهم بالأندلس بعد أن حكموا المثلث الإسباني الجنوبي، وثلغور العدو الشمالية، زهاء نصف قرن^(١).

* * *

وهكذا انحدرت إسبانيا المسلمة، في النصف الأول من القرن الخامس الهجري (الحادى عشر الميلادى) عقب انهيار دعائم الخلافة الأموية والدولة العامرية، إلى معترك مروع من التمزيق والفوضى، واستحالت الأندلس بعد أن كانت كتلة موحدة، تمتد من ضفاف دويرة شمالاً إلى مضيق جبل طارق جنوباً، ومن شاطئ البحر المتوسط منذ طركونة شرقاً حتى شاطئ المحيط الأطلنطى غرباً، إلى أشلاء ممزقة، ورقاع متناثرة، وولايات ومدن متباعدة متخاصمة، يسيطر على كل منها حاكم سابق استطاع أن يحافظ على سلطته المحلية خلال الانهيار،

(١) راجع في تفاصيل الحوادث المتقدمة، البيان المغرب ج ٣ ص ٢٨٨ و ٢٩١ و ٢٩٢؛ وابن خلدون ج ٤ ص ١٥٤ و ١٥٥؛ وابن الأثير ج ٩ ص ٩٦ و ٩٧؛ والمراكشى ص ٣٧ - ٣٩، وأعمال الأعلام ص ١٤٢ و ١٤٣. وراجع بحثاً بالإسبانية للأستاذ المستشرق الفرناطى سيكودى لوئينا عن دولة بني حمود عنوانه: **Los Hammudles, Senores de Málaga y Algeciras, p. 47-53**

أو متغلب من الفتيان الصقالبة أو القادة ذوى السلطان السابق، أو زعيم أسرة محلى من ذوى الجاه والعصبية . وسيطر البربر من جانبهم على أراضي المثلث الإسباني الجنوبي، وما كان منه بيد الدولة الحمودية، وأنشأوا هنالك إمارات عدة، ما لبثت أن نزلت إلى ميدان الصراع العام، الذى شمل هذه المنطقة. وهكذا قامت على أنقاض الدولة الأندلسية الكبرى دول عديدة هي دول «الطوائف»، وذلك منذ أوائل الربع الأول من القرن الخامس، حتى الفتح المرابطى، زهاء سبعين عاماً، قضتها جميعاً فى سلسلة لا نهاية لها من المنازعات الصغيرة، والخصومات والحروب الأهلية الانتحارية، وكادت بتنايذها وتفرقتها ومنافساتها، تمهد لسقوط الأندلس النهائى. وقد كان من رحمة القدر، أن اسبانيا النصرانية، كانت فى نفس الوقت الذى انتشرت فيه وحدة الأندلس على هذا النحو الخطر، تعاني من انقسام الكلمة، وتعصف بها رياح الخلاف والتفرق، فلم تتح لها فرصة للوثوب بالأندلس الممزقة، إلى أن كان الوقت الذى بلغ فيه تنايذ الطوائف ذروته، واشتد ساعد اسبانيا النصرانية كرهة أخرى، واستطاعت أن تضرب ضربتها القوية بانتزاع طليطلة، أول قاعدة إسلامية كبيرة (٤٧٨هـ - ١٠٨٥ م)؛ وعندئذ تطورت الحوادث بسرعة واتجهت الأندلس الجريح، فى توجسها وانزعاجها، إلى إخوانها المسلمين فيما وراء البحر، بعدوة المغرب، تستدعيهم لنصرتها. وكان أن تدفقت الحيوش المرابطية من المغرب على شبه الجزيرة الإسبانية، وكان أن أنقذت دولة الإسلام فى الأندلس.

الكتاب الخميني

النظم الإداريّة والحركة الفكرية
في عصرى الإمارة والخلافة

الفضل الأول

نظم الحكم

والأوضاع السياسية والإدارية والعسكرية والاقتصادية

في عصرى الإمارة والخلافة

- ١ -

تعاقبت خلال هذه الفترة الطويلة التي سردناها من تاريخ الأندلس ، على الأمة الأندلسية ، أنواع من نظم الحكم ، ومن الأوضاع السياسية والإدارية ، كانت تسير طوراً بعد طور مع مختلف الحوادث ، والحروب والانقلابات المتوالية . وبالرغم من أنه لم يفتنا أن نشير في مختلف المواطن إلى تلك التغييرات المتوالية ، التي شهدتها الأمة الأندلسية ، فإنه يجدر بنا أن نتحدث عنها حديثاً خاصاً ، وأن نقدم منها إلى القارئ صورة مجمعة ميسرة .

كانت الأندلس عقب الفتح ولاية تتبع إفريقية ، ويقوم باختيار حاكمها والى إفريقية . وقد استمر هذا الوضع نحو ثمانية أعوام فقط ، تعاقب فيها على ولاية الأندلس ثلاثة من الولاة هم عبد العزيز بن موسى ، وأيوب بن حبيب اللخمي ، ثم الحر بن عبد الرحمن الثقفي . غير أنه كان من الواضح أن هذا النظام لم يكن يلائم قطراً ضخماً كالقطر الأندلسي ، وخصوصاً بعد ما بدأت الغزوات الإسلامية لغاليس (جنوب فرنسا) ، وبدأت الأندلس تخوض الصراع مع مملكة الفرنج فيها، وراء البرنيه ، ومع نصارى الشمال . ومن ثم فقد رأت خلافة دمشق أن تكون الأندلس ولاية مستقلة تتبع الخلافة مباشرة ، ويقوم الخليفة بتعيين واليها . وكان الخليفة عمر بن عبد العزيز هو الذى أصدر هذا القرار شعوراً منه بأهمية الأندلس السياسية والعسكرية والاجتماعية .

وكان أول ولاية الأندلس من قبل الخلافة ، هو السمح بن مالك الخولاني ، وقد ندبه عمر بن عبد العزيز لولايتها في سنة مائة من الهجرة (٧١٩م) . بيد أنه

لما توفي عمر بن عبد العزيز (١٠١ هـ) عاد الأمر في تعيين ولاية الأندلس إلى ولاية إفريقية ، ولكن بمصادقة الخليفة . وكان الولى عادة هو قائد الجيش العام ، وإليه يرجع أمر الغزو في الشمال . ولما وقعت نكبة بلاط الشهداء في سنة ١١٤ هـ (٧٣٢ م) ، أخذت الخلافة مرة أخرى بيدها تعيين والى الأندلس ، واختار الخليفة هشام بن عبد الملك لولايتها عبد الملك بن قطن . واستمر الأمر بعد ذلك حيناً يرجع إلى والى إفريقية ، وأحياناً إلى اختيار الجماعة ، أعنى جماعة الزعماء والقادة في شبه الجزيرة ، وكان ذلك يحدث بالأخص حين تضطرب الأمور ، ويقع الخلاف بين مختلف القبائل والزعامات . ولما اضطرت الفتنة بين الشاميين والبلديين ، وأخذ الفريقان يتبادلان الرياسة ، ضعف أمر السلطة المركزية ، ولم تهدأ الأمور حتى عين أبو الخطار الكلبي والياً للأندلس (١٢٥ هـ) . ولكن أبا الخطار كان يمينياً فمال إلى اليمينية ، واضطرت الفتنة بين اليمينية والمضرية ، ولما تفاقم الأمر ، وخشى الزعماء عاقبة الفتنة والحرب الأهلية ، اتفقوا على تعيين يوسف بن عبد الرحمن الفهري من المضرية للولاية ، وذلك دون موافقة أو مصادقة لامن والى إفريقية ، ولا من الخلافة ، وكان ذلك في سنة ١٢٩ هـ (٧٤٧ م) . واستمر يوسف بن عبد الرحمن الفهري والياً للأندلس زهاء عشرة أعوام ، وهو يزاول سلطة شبه مطلقة . وقد استطاع بعزمه وحزمه ، أن يعيد إلى الأندلس نوعاً من الاستقرار والسكينة . ولكن القدر كان يدخر للأندلس مصيراً آخر ، في ظل سلطة أخرى ، لم تكن تخطر ليوسف أو غيره من الزعماء المتطلعين إلى الرياسة . وذلك أن عبد الرحمن الأموي عبر إلى الأندلس في ربيع الآخر سنة ١٣٨ هـ (سبتمبر سنة ٧٥٥ م) ، وهرع في الحال إلى لوائه جمع من الصحب والأنصار ، ووقع الحدث الحسم في موقعة المسارة في العاشر من ذى الحجة سنة ١٣٨ هـ (١٣ مايو سنة ٧٥٦ م) فهزم يوسف الفهري وصحبه ، وأنتهت رياسته للسلطة ، وكتب النصر لسلي بنى أمية ، فبويع عبد الرحمن الأموي في الحال بالإمارة ، وبعثت من ذلك التاريخ دولة بني أمية بالأندلس ، بعد أن سقطت بالمشرق قبل ذلك ببضعة أعوام .

ومن ذلك التاريخ تقوم الدولة الأموية في الأندلس ، وتستقر قواعدها تبعاً ، بعد معارك طويلة متعددة ، بينها وبين الزعامات المحلية والعناصر الثائرة . وقد

بقيت الدولة الأموية عصرأ تنشع يشوب الإمارة ، وذلك وفقاً لما قرره مؤسسها عبد الرحمن الداخل . وبالرغم من أن بلاط قرطبة ، بلغ في عصر أمراء مثل الحكم ابن هشام ، وولده عبد الرحمن ، مبلغاً عظيماً من القوة والهاء ، وأضحى ينافس بلاط بني العباس في الأخذ بزعامة الإسلام ، فإن أمراء بني أمية لبثوا على مبدئهم من الاكتفاء بلقب الإمارة ، إلى أن كان عهد عبد الرحمن الثالث (الناصر) فعندئذ تغيرت أوضاع الغرب الإسلامي بتيام الخلافة الفاطمية في الضفة الأخرى من البحر ، على مقربة من الأندلس . وكان هذا الحدث الخطير في ذاته أول حافز للناصر على اتخاذ سمة الخلافة ، وصدر مرسومه بذلك في اليوم الثاني من شهر ذى الحجة سنة ٣١٦ هـ (يناير ٩٢٩ م) وبذا تحولت الدولة الأموية من إمارة إلى خلافة ، وكان عبد الرحمن الناصر أول من تلقب من أمراءها «بأمير المؤمنين» .

وقد تميزت الخلافة الأموية بعدة خصائص ، أولها الاعتماد في توطيد سلطانها على الموالى والصقالبة ، وهي سياسة بدأت في عهد الإمارة منذ عبد الرحمن الداخل ، ووصلت إلى ذروتها في عهد الناصر ، وذلك حسبما فصلنا في موضعه ، وثانيها الاسترابة بالقبائل والزعامات العربية ، والعمل المستمر على إخضاعها ، والقضاء على سلطانها ونفوذها ، وذلك لما لقيه بنو أمية منذ البداية من معارضة هذه القبائل والزعامات ، وانتفاضها المتوالى ، وثوراتها المتعددة ، وثالثاً عطفها الواضح على أهل الذمة وهم النصارى واليهود ، وكفالة حرباتهم الدينية والاجتماعية ، وهذه السياسة أيضاً ترجع إلى عصر الإمارة ، حيث أنشئ منذ عهد الحكم بن هشام أو قبله بقرطبة ، منصب خاص لإدارة شئون أهل الذمة يعرف صاحبه «بالقومس» ، وقد كان للنصارى المعاهدين ، فوق ذلك قاض خاص ، وقد يكون أستمئهم في نفس الوقت ؛ وعين بعد ذلك للنصارى مطران خاص ، مركزه بمدينة إشبيلية . وقد استمر هذا التسامح نحو النصارى المعاهدين عصوراً ، وذلك بالرغم مما كانوا يدبرونه في بعض الأحيان ضد الحكومة المسلمة من الدسائس والمؤامرات ويعقدون من الصلات المريية مع نصارى الشمال .

وبلغت الخلافة الأموية بالأندلس ذروة قوتها ونفوذها السياسى والأدبى في عهد الناصر وولده الحكم المستنصر . بيد أنه بوفاة المستنصر (٣٦٦ - ٩٧٦ م) وولاية ولده الحدث الضعيف هشام المؤيد ، تبدو طلائع ذلك الانقلاب الحاسم

الذي كان يدخره القدر لمصير الخلافة الأموية . ذلك أن محمد بن أبي عامر ، الذي أخذ يبزغ نجمه منذ أواخر أيام الحكم ، ما كاد يلي منصب الوزارة ، حتى أخذ يستجمع أزمة السلطة في يده تباعاً ، ويحطم كل معارضة لسultanه ، وانتهى الأمر بأن فرض ابن أبي عامر نفسه حاكماً مطلقاً للأندلس ، وأنشأ مدينة الزاهرة ، لتكون له قاعدة جديدة للحكم ، واتخذ سمة الملك ، وتسمى بالحاجب المنصور (٥٣٧١ - ٩٨١ م) ، وبالرغم من أنه لم يتعرض بشيء للخلافة الأموية أورسومها ، فإن الخلافة لم تكن في ظل حكمه سوى شيخ باهت ، واسم بلا مسمى . وهكذا قامت الدولة العامرية واستمرت في ظل المنصور ، ثم ولده عبد الملك المظفر ، فأخيه عبد الرحمن زهاء ثلاثين عاماً ، ثم انتهت بمصرع عبد الرحمن المنصور في رجب سنة ٣٩٩ هـ (١٠٠٩ م) .

وهنا استعادت الخلافة الأموية سلطانها بتميم محمد بن هشام الملقب بالمهدي ، وتربعه في كرسى الخلافة مكان الخليفة هشام المؤيد ، وانتهى بذلك عهد السلطة الثنائية ، سلطة الخلافة الأموية الإسمية ، وسلطة بني عامر الفعلية ، ولكن عودة الخلافة الأموية على هذا النحو لم يكن سوى بداية مأساة مروعة ، استمرت زهاء أربعين عاماً ، اضطرت الأندلس فيها بالفتن المدمرة ، وغدت الخلافة الإسمية ، والسلطة الفعلية ، غنماً متداولاً بين بني أمية ، والفتيان العامريين ، والبربر ، وبني حمود ؛ وانتحل بنو حمود ألقاب الخلافة ، وقامت في وقت واحد بالأندلس أكثر من خلافة في قرطبة ، ومالقة ، وإشبيلية ، وغدت قرطبة والأندلس كلها مسرحاً لمعارك وحروب أهلية متوالية ، ودمرت خلال ذلك مدينة الزهراء الخلافة ، وعدة من أحياء قرطبة ، وسادت الفوضى كل جنات ، الأندلس ، واستمرت هذه المحنة زهاء أربعين عاماً ، ثم تمخضت في النهاية عن مأساة جديدة . وهي تمزق الأندلس إلى ولايات ومدن عديدة مستقلة ، يحكم كل منها زعيم أو أمير مستقل ، وبدأ بذلك عهد الطوائف .

تلك خلاصة وجيزة للأوضاع النظامية ، وأنواع الحكم المتوالية ، التي عاشت في ظلها الأمة الأندلسية زهاء ثلاثة قرون منذ فتح الأندلس في سنة ٩٢ هـ (٧١١ م) حتى قيام دول الطوائف ، في الربع الثاني من القرن الرابع الهجري .

الحجابه والوزارة

كانت حكومة الأندلس في عصر الولاة ، هيئة إدارية محلية قوامها الحاكم (الوالى) وقادة الجيش . ولم تكن ثمة مناصب وزارية بالمعنى المعروف ، إذ لم يكن الوالى سوى رئيس مؤقت لإدارة الإقليم ، وقد كان الوالى في معظم الأحيان هو قائد الجيش العام . ولم تظهر المناصب الوزارية إلا في بداية عصر الإمارة مذ قامت الدولة الأموية بالأندلس ، على يد مؤسسها عبد الرحمن الداخل . وقد اقتبس الداخل لنظام حكومته ، من أنظمة الحكومة الأموية بالمشرق ، وأنشأ منصب الحجابه ، ولكنه لم ينشئ مناصب الوزارة ، بل اكتفى بتعيين نفر من أخلص أنصاره كعاونين ومستشارين ، يعاونونه في القيام بأعباء الحكم ، ويبدأون له النصيح في مهام الأمور . وعين للجيش أيضا قائده العام . بيد أنه كان يقود الجيش بنفسه في مواطن كثيرة . وقد امتازت حكومة الداخل بالاعتماد على الموالى والاسترابة بالعرب ، لما لقيه الداخل من خصومتهم ومناوأتهم . وقد غدت هذه الظاهرة فيما بعد ، ظاهرة الاسترابة بالعرب ، من مميزات الحكومة الأموية بالأندلس ، سواء في عهد الإمارة أو عهد الخلافة ، واتخذت أسطح مظاهرها في عهد عبد الرحمن الناصر .

واتجهت الحكومة الأموية ، إلى جانب الاعتماد على الموالى ، إلى اصطناع الصقالبة ، واتخذ هذا الاتجاه طابعه القوى منذ عهد الحكم بن هشام ، وظهر الصقالبة لأول مرة بكثرة في البلاط الأموى ، واحتلوا معظم مناصب القصر والخاص . غير أن الاعتماد على الصقالبة لم يمنع قيام الحجابه والوزارات القوية . فكان منصب الحجابه في الواقع هو أهم المناصب التنفيذية ، وكان يليه في معظم الأحيان رجال من الطراز الأول ، أحيانا من رجال السيف ، مثل عبد الكريم ابن عبد الواحد بن مغيث وعبد العزيز بن أبي عبدة حاجبا الحكم ، وأحيانا من رجال القلم مثل عيسى بن شهيد حاجب عبد الرحمن بن الحكم ، والحاجب جعفر المصحفى ، حاجب الحكم المستنصر ، وأحيانا يجمع الحاجب بين السيف والقلم مثل الحاجب عبد الكريم ، وهاشم بن عبد العزيز حاجب الأمير محمد بن عبد الرحمن .

وكان يعاون الحاجب، وهو بمثابة رئيس الوزارة، عدة من الوزراء، يتولون مختلف المناصب الوزارية. وقد بلغت الوزارة في ظل الحكومة الأموية الأندلسية شأواً بعيداً، وتعاقب في ولايتها جمهرة من أعظم الرجال، والمعهم خلافاً، وكانت تضم عدة من أخطر مناصب الدولة، مثل منصب كبير الخالص. وكان يشغله على الأغلب فتیان الصقالبة. وخطة الخيل. وخطة الكتابة أو الكتابة العليا، وكان يتولاها وزير من الكتاب الناهين. وخطة صاحب المدينة أو حاكم قرطبة، وصاحب المدينة بالزهران، وكانتا من أهم المناصب الوزارية. وخطة المظالم، وكانت قبل عهد الناصر خطة مفردة تتضمن العرض والمظالم، ولكنها في عهد الناصر، قسمت إلى خطتين (٥٣٢٥هـ)، وجعل العرض خطة مستقلة بذاتها، وكذلك المظالم أضحت خطة مستقلة، وكان أول من ولها مستقلة محمد بن قلعم بن طلمس، وكان يتولى المظالم وزير، وقد ولها قبله أيام الناصر جماعة من الوزراء الناهين مثل أحمد بن حدير، وعبد الملك بن جهور. وخطة الشئون المالية. وخطة الشرطة، وكانت من أهم المناصب الإدارية المتعلقة بضبط النظام والأمن، وكانت قبل عهد الناصر تنقسم إلى مرتبتين: الشرطة العليا، والشرطة الصغرى، ولكنها منذ سنة ٣١٧هـ في عهد الناصر لدين الله، قسمت بحسب أهميتها إلى ثلاث مراتب: الشرطة العليا، والشرطة الوسطى، والشرطة الصغرى؛ وقد رتب رزق الشرطة الوسطى، وسطاً بين رزق العليا والصغرى، وكان أول من تقلدها سعيد بن سعيد بن حدير. وخطة القضاء، وتتبعها خطة الموارث، وكذلك خطة السوق أو الحسبة. وخطة الشورى، وكانت من الخطط العارضة، ومن المناصب ذات النفوذ العلمى والأدبى قبل كل شىء، وتسند عادة إلى من يعتبر في وقته عميد العلماء وشيوخهم، وكان أشهر من ولها رجال مثل بقی بن مخلد. وفي أيام المنصور بن أبى عامر، كان ثمة ديوان يسمى ديوان الندماء، كان يلحق به كل أديب وشاعر ممن يوثرهم الأمير بصحبته ومجالسته. وفي أواخر الدولة العامرية، غلب الصقالبة في تولي الخطط الكبرى من حجابة ووزارة، وبدأ ذلك بنوع خاص في عهد عبد الملك المنصور. ولما انهارت الدولة العامرية استمرت هذه الظاهرة حيناً، وتولى أولئك الفتیان الحجابة للخلفاء الأخيرين من بنى أمية، وغلبوهم على أمرهم، ثم استبدوا فيما

بعد ، عند انهيار الدولة ، برياسة طائفة من المدن والولايات ، وكان من هؤلاء أمراء للطوائف ، مثل مجاهد العامري صاحب دانية ، وخيران العامري صاحب ألمرية . وظهرت في الدولة العامرية بدعة أخرى ، هي إسناد منصب الحجابة إلى الأطفال . فقد استصدر عبد الملك المنصور من الخليفة المحجور هشام المؤيد ، مرسوماً بتعيين ولده الطفل محمد في منصب الحجابة ، ولقب بذي الوزارتين ، وعين عبد الرحمن المنصور ولده الطفل عبد العزيز في منصب الحجابة ، وأسبغ عليه لقب سيف الدولة . وكانت هذه المهازل وأمثالها دليلاً على تصدع ذلك الصرح الإداري المحكم الذي شاده الأمراء والخلفاء من بني أمية ، خلال قرنين من الجهود المتوالية . وفي أيام الخليفة المستظهر العاربة (رمضان - ذو القعدة ٥٤١٤ هـ) استحدثت بالوزارة عدة خطط جديدة مثل : خطة خدمة المدينتين الزهراء والزاهرة ، وخدمة كتابة التعقب والمحاسبة ، وخدمة الحشم ، وخدمة موارد الخاصة ، وخدمة الطراز ، وخدمة المعالي ، وخدمة الأسلحة ، وخدمة الخزانة ، وخدمة الوثائق ، ورفع كتب المظالم ، وخدمة خزانة الطب والحكمة ، وخدمة أحكام السوق ، وهي خطط يصفها ابن حيان بأنها عبث وزخرف من التسطير وضع على غير حاصل ، ومراتب نصبت لغير طائل .

الجيش ، نظامه وتكوينه

كان أول جيش إسلامي عبر إلى شبه الجزيرة لفتح الأندلس ، مكوناً من العرب والبربر ، وكان قائد الجيش الفاتح ، طارق بن زياد ، فيما يرجح بربرياً من قبيلة نفزة . وقد لعب البربر منذ البداية في تكوين قوى الأندلس الغازية والدفاعية أعظم دور ، وكان تدفقهم من الضفة الأخرى من البحر - من المغرب على شبه الجزيرة أسرع وأغزر من تدفق المتطوعة العرب ، وكانوا يؤلفون الكثرة في جيش الغزو . ولما نظم عبد الرحمن العافقي جيشه الضخم لغزو بلاد الفرنج ، كان البربر من عناصره المختارة الغالبة ، وكانت القيادة دائماً بيد الضباط العرب ، وكان الخلاف الذي اضطرم منذ بداية الفتح بين العرب والبربر ، يعمل عمله المقوض بين صفوف الجيش ، وقد بدأ تكوين الجيوش الغازية الضخمة ، منذ عهد السمع بن مالك الخولاني وإلى الأندلس ، وكان أعظم هذه

الجيش الضخم الذى حشده عبدالرحمن الغافقى لغزو مملكة الفرنج . وبالرغم من أن البربر كان لهم فى إنجاح معظم الغزوات الشمالية أثر فعال ، فإنهم كانوا أيضاً فى بعض الأحيان عنصراً خطراً على سلامة الجيش ، لما كان يسودهم فى بعض الأحيان من البغض وعدم التعاون لقادتهم العرب . وكان أسطع مثل لذلك الخلاف المدمر ، ما حدث فى موقعة بلاط الشهداء (١١٤ هـ - ٧٣٢ م) من تحاذل البربر وتحلفهم عن القتال أمام الفرنج ، وإرغامهم هيئة الجيش على الانسحاب بعد مقتل قائده البطل عبد الرحمن الغافقى . ولما قامت ثورة البربر فى المغرب ، وهزم العرب فى منطقة طنجة ، وعبرت فلول الجيش المهزوم وهم من الشاميين بقيادة بلج بن بشر القشبرى إلى الأندلس ، وذلك بدعوة الوالى ابن قطن ، ليستعين بهم على مغالبة البربر فى الأندلس ، رجحت كفة العناصر العربية فى الجيش مدى حين . ولكن جيش الأندلس ما لبث أن انقسم إلى قسمين ، معسكر الشاميين وهم أنصار بلج ، ومعسكر العرب والبربر المحليين . ولبثت الحرب الأهلية اضطرم حيناً ، حتى قام يوسف بن عبد الرحمن الفهرى فاستقر فى ولاية الأندلس ، وقام بإصلاح الجيش وتنظيمه ، ليعود كما كان جيشاً أندلسياً ، يضطلع بالغزو ورد هجمات نصارى الشمال .

وعنى عبد الرحمن الداخلى بتنظيم الجيش أشد عناية ، وحشد له المتطوعة والمرتزة من سائر الطوائف . وبلغت قواته يومئذ نحو مائة ألف مقاتل . وهذا عدا الحرس الخاص ، الذى يتكون من الموالى والبربر والرقائق ، وقد بلغت قواته نحو أربعين ألفاً . ووضع عبد الرحمن الداخلى أيضاً نواة الأسطول الأندلسى بما أنشأ من قواعد لبناء السفن فى بعض الثغور النهرية والبحرية . واكن بداية قيام الأسطول الأندلسى الفعلية ترجع إلى ما بعد ذلك بنحو نصف قرن ، حينما فاجأ النورمانيون الأندلس بغزو الثغور الغربية ، ثم بغزو إشبيلية ، والفنك بأهلها . وكان ذلك فى سنة ٢٣٠ هـ (٨٤٣ م) فى عهد عبد الرحمن بن الحكم ، فعندئذ أدركت الحكومة الأندلسية وجوب العناية بأمر الأسطول والتحصينات البحرية وبدئ بإنشاء السفن الحربية . وكانت أكبر دور الصناعة لإنشاء السفن فى مياه الوادى الكبير تجاه إشبيلية . ومن ذلك الحين يقوم الأسطول الأندلسى بدوره فى شئون

الغزو والدفاع ، وقد بلغت وحداته في عهد عبد الرحمن الناصر زهاء مائتي سفينة .

ومما تجدر ملاحظته أن الجيش الأندلسي ، فد تلى خلال عهد الفتنة الكبرى التي شملت سائر نواحي الأندلس ، ولاسيما المنطقة الجنوبية ، واستمرت تضطرم زهاء ستين عاما ، منذ عهد الأمير محمد بن عبد الرحمن (٢٣٨-٥٢٧٣هـ) كثيراً من الدربة والتجارب المريرة في معاركه المستمرة مع جيوش الثوار ، وأضحى في أواخر هذه الحقبة في عهد عبد الرحمن الناصر ، من حيث العدد والكفاية قوة لها خطر ها . وقد بذل الناصر جهوداً عظيمة لإصلاح الجيش وتقويته ، ومدته بالأسلحة والعتاد الوفير . وعنى في الوقت نفسه بأمر الأسطول ، فأنشأ له وحدات جديدة ، وجعل مركزه الرئيسي ثغر ألمرية ، وأنشأ بها أعظم دار للصناعة ، وبلغ الأسطول الأندلسي في عهد الناصر ، حسباً تقدم ، زهاء مائتي سفينة مختلفة الأنواع والأحجام ، وهذا عدا أسطول آخر خصص لشئون المغرب البحرية ، وكان الأسطول الأندلسي يومئذ من أقوى الأساطيل ، وكان يسيطر على مياه إسبانيا الشرقية والجنوبية .

وفي عهد المنصور بن أبي عامر ، بلغ الجيش الأندلسي المرابط ذروة القوة والضخامة ، وقد رأى المنصور أن يعتمد بالأخص في تكوين الجيش على حشود البربر ، فاستقدمهم من العدو ، وبذل لهم الأغطية السخية ، وكذلك حشد في جيشه كثيراً من المرتزقة النصارى ، ومعظمهم من المستعربين رعايا الحكومة الأندلسية ، واستطاع المنصور ، بما بذله من جهود عنيفة متوالية ، ومن أموال وفيرة ، أن ينشئ للأندلس قوة عسكرية هائلة لم تعرفها الأندلس في أي عصر سابق ، أو لاحق . وقد نقلت إلينا الرواية بعض أرقام عن الجيش الأندلسي المرابط في عهد المنصور ، من ذلك أن الفرسان بلغ عددهم إثني عشر ألف ومائة فارس من سائر الطبقات ، تصرف لهم النفقة والسلاح والعلاقة ، وبلغ عدد الرجال (المشاة) في الجيش المرابط ستة وعشرين ألف مقاتل . وكان عدد الجيش المرابط ، يتضاعف وقت الصوائف مراراً بما ينضم إليه من صنفوف المنطوعة ، وقد بلغ عدد الفرسان في بعض الصوائف ، ستة وأربعين ألفاً ، وكان عدد المشاة يتضاعف أيضاً ، وقد يعدو المائة ألف أو تزيد .

الموارد الاقتصادية

وصنوف الحياية

لما افتتح المسلمون الأندلس ، كان الشعب الإسباني المغلوب ، ما يزال يعيش في ظل بقايا النظم الرومانية ، التي اتخذها القوط أساساً لتشريعاتهم ونظمهم الإدارية . وكان عبء الضرائب يقع معظمه على طبقات الشعب الدنيا ، ولا يكاد يقع شيء منه على عاتق الأشراف ورجال الدين ، ومن إليهم من الطبقات الممتازة . فلما افتتح المسلمون شبه الجزيرة ، فرضت الضرائب على قاعدة المساواة دون تمييز بين طبقة وأخرى ، وفرضت الجزية على من لم يعتنق الإسلام من أبناء الشعب المغلوب . وفي خلال الحقبة الأولى ، التي تميزت باستمرار الغزوات الإسلامية ، وما تقتضيه من حشد الجيوش المستمرة ، لم تكن موارد القطر المفتوح قد حققت كلها واستغلت . وقد كان من الواضح منذ البداية أن القطر المفتوح قطر زراعى قبل كل شيء . وكان خراج الأرض الزراعية ، والجزية ، وأخماس الغنائم ، هى المصادر الرئيسية للدخل ، وقد ازدهرت الزراعة بالأخص عقب الفتح لما حدث من توزيع أفضل للأرض ، وتحسين أحوال العاملين فيها . وكان يوسف الفهرى آخر الولاة ، أول من عدل نظام الضرائب القديم ، ففرض على كل ولاية ، أن تقدم ثلث الدخل ، ورفع الجزية عن توفوا من النصارى ، وقسم الأندلس من الناحية الإدارية إلى خمس ولايات حسبما أسلفنا ذلك فى موضعه . وكانت حكومة قرطبة الإسلامية تسيطر على أخصب وأغنى وديان شبه الجزيرة الإسبانية ، وكان أهم المحاصيل الزراعية هى القمح والزيتون والفاكهة وغابات الأشجار الخشبية ، وما تزال هذه المحاصيل إلى اليوم هى أهم موارد اسبانيا الزراعية . وكذا كان تربية الماشية مورداً من أهم موارد الدخل القومى ، ولما استقرت الأمور ، واستطاع الفاتحون أن يضعوا أيديهم على موارد البلاد وثرواتها الطبيعية ، وأن يستغلوها بمقدرة وذكاء ، لم تبق الزراعة هى المورد الوحيد ، وإن لبثت دائماً هى المورد الرئيسى . ذلك أن شبه الجزيرة الإسبانية ، تضم ثروات متنوعة من المعادن ، كانت تستغل منذ أيام الرومان ، فكان يستخرج

بها الفضة والرصاص والحديد والذهب والزئبق ، والقصدير من أنحاء مختلفة ، في الشمال والجنوب ، فكانت الفضة والنحاس تستخرج في الشمال ، وفي جهة قرطبة ، وكورة تدمير ، وكان الزئبق يستخرج من جبال البرانس ، والقصدير بجهة أكشونية من ولاية الغرب ، وكان البلاور يستخرج في منطقة لورقة ، والرخام من جبل قرطبة وباجة ومن جبال سيراً مورينا . وكانت تقوم إلى جانب الزراعة صناعات هامة ، مثل صناعة النسيج والملابس والأثاث والفخار والزجاج والورق^(١) ، وكانت التجارة تزدهر في نفس الوقت داخل شبه الجزيرة ، وخلال موانئها الشرقية والجنوبية ولاسيا مالقة وألمرية ، وتجي الدولة من المكوس التجارية ، سواء على التجارة الداخلية أو الخارجية أو على السفن الصادرة والواردة بمقادير عظيمة . ولم تأت أوائل القرن الثالث الهجري (التاسع الميلادي) ، في عصر عبد الرحمن ابن الحكم ، حتى كانت إسبانيا المسلمة ، قد بلغت مبلغاً عظيماً من الرخاء ، وتضاعفت مواردها من الدخل القومي ، وبلغت حصيلة الجباية من المكوس وحدها زهاء ألف ألف دينار في السنة ، وبلغت في عهد عبد الرحمن الناصر من الكور والقرى خمسة آلاف وأربعمائة ألف وثمانين ألف دينار . وبلغت من المستخلص (وهي الأملاك السلطانية) سبعمائة ألف وخمسة وستين ألف دينار ، وقد ذكرنا فيما تقدم ، في موضعه ، أن الناصر خلف عند وفاته في بيت المال عشرين مليوناً من الذهب ، هذا عدا ما أنفقه من الأموال الطائلة في مختلف الغزوات ، وفي مختلف المنشآت الباذخة التي أقامها ، وفي مقدمتها مدينة الزهراء الملوكية ، وهي مما يدل على ضخامة الموارد المالية للأندلس في عصر الخلافة . وفي أيام المنصور بن أبي عامر ، في أواخر عصر الخلافة ، حققت موارد الدخل زيادة عظيمة ، ووصل محصل الجباية وحده إلى أربعة آلاف ألف دينار (أربعة ملايين) ، سوى رسوم المواريث وسوى مال السبي والغنائم ، واستمرت هذه الزيادة في عهد ولده عبد الملك . ثم كان انهيار الدولة العامرية ، وانهايار الخلافة الأموية ، واضطرام الفتنة في كل مكان ، فتحطمت موارد الدخل ، وكسدت التجارة والصناعة ، وغاضت أسباب الرخاء .

(١) راجع كتاب الأستاذ ليثي برودنسال ; L'Espagne Musulmane aux xème Siècle;

p. 176, 183 & 184 ، وكذلك نفح الطيب ج ١ ص ٧٨ و ٩٣ .

الفضل الثاني

الحركة الفكرية الأندلسية

في عصرى الإمارة والخلافة

- ١ -

لبت الأندلس عقب الفتح ، ردها من الزمن ، بعيدة عن أن تكون مهداً لنشوء الحركة الفكرية . ذلك أنه خلال عصر الولاية ، لم تكن الأمور قد استقرت بعد ، ولم تترك مشاغل الغزو ، والخلافات الحزبية ، والانقلابات المتوالية في الرياسة ، كبير مجال لاتجاه الأذهان إلى التفكير والأدب ، ومن ثم فإننا لا نجد في هذا العصر كتاباً أو شعراً أو مفكرين ذوى خطر ، وإن كنا نجد بعض الآثار الشعرية القليلة ، التي ترد على ألسنة بعض الولاة أو الزعماء .

ويمكننا أن نرجع الحركة الفكرية الأندلسية ، إلى عصر عبد الرحمن الداخل المتوفى سنة ١٧٢ هـ . ذلك أن هذا الأمير القوى اللامع ، منشىء الدولة الأموية بالأندلس ، كان أول شخصية بارزة ظهرت في ميدان التفكير والأدب والشعر ، ويمكن أن نعتبره بحق رائد النهضة الأدبية النثرية والشعرية ، التي تفتحت فيما بعد ، وازدهرت في عهد خلفائه ، ولنا فيما أوردناه من نماذج قليلة ، من نثره ، ومن نظمه ، ما يدل على براعته وتفوقه في هذا الميدان .

ومن بين أمراء بني أمية بالأندلس ، كان الرواد الأوائل في الحديث والفقهاء ، فقد كان الداخل ، فوق براعته الأدبية عالماً بالشريعة ، وكان ولده هشام بن عبد الرحمن المتوفى سنة ١٨٠ هـ (٧٩٦ م) مبرزاً في الحديث والفقهاء . وفي عصر هذا الأمير ظهرت طلائع النهضة الأولى في ميدان التفكير والأدب ، وكان يغلب على هذه النهضة في البداية ، الطابع الدينى قبل كل شيء ، وكان قد رحل في عصر الداخل جماعة من فقهاء الأندلس إلى المشرق ، ودرسوا بالمدينة على الإمام مالك وغيره من أقطاب المشرق ، واستقوا من علم مالك واجتهاده ، ونقلوا عنه كتابه (الموطأ) ، وكان في مقدمة هؤلاء فقهاء مبرزون ، مثل زياد بن عبد الرحمن ،

وعيسى بن دينار ، ويحيى بن يحيى الليثي ، وكان زياد بن عبد الرحمن عميد فقهاء الأندلس في وقته ، وكان الأمير هشام بن عبد الرحمن يوقره ويحمله لعلمه وورعه وزهده ، وتوفي في سنة ٢٠٤ هـ (١) . وكذا كان عيسى بن دينار ، وأصله من طليطلة ، وسكن قرطبة ، عالماً راسخاً ، وكان أستاذ الفتيا في وقته لا يتقدمه فيها أحد ، وكان ممن اتجهت إليهم الريبة في ثورة الربض فهرب واستخفى حيناً ، ثم عفا عنه الأمير الحكم وأمنه ، فعاد إلى قرطبة وتوفي سنة ٢١٢ هـ (٢) . وأما يحيى بن يحيى الليثي فقد رحل كزميله إلى المشرق ، وسمع من مالك ، والليث ابن سعد ، وعبد الله بن وهب وغيرهم ، وعاد إلى الأندلس ليشغل بين فقهاءها مركز الصدارة ، وكان ذهنًا حرًا يعزز بحريته واستقلاله ، فلم يل قضاءً ، ورفض كل دعوة إلى توليه ، وتوفي في سنة ٢٣٤ هـ (٣) . وعلى يد أولئك الفقهاء والرواد ، ذاع مذهب مالك بالأندلس منذ عصر هشام . وكان هشام نفسه كثير الإجلال لمالك ومذهبه ، فزاد ذلك في ذبوع المذهب ، وفي تمكين مكانته بالأندلس . وكان هذا بداية لنفوذ الفقهاء في شئون الدولة ، وهو نفوذ اشتد فيما بعد ، وكان له أثر عميق في تحريك القوى المعارضة ، التي انتهت باضطرام ثورة الربض ضد الحكم بن هشام ، في سنة ٢٠٢ هـ (٨١٨ م) ، وذلك حسبما أوضحنا في موضعه . وفي عصر الحكم بالذات ، تتخذ الحركة الفكرية طابعاً أوسع أفقاً ، وتظهر طوال الزعرة الأدبية إلى جانب العلوم الدينية ، ويظهر الأدباء والشعراء إلى جانب الفقهاء والمحدثين . وكان في مقدمة من ظهوروا في تلك الفترة عبد الملك ابن حبيب بن سليمان السلمى ، وأصله من إلبيرة وسكن قرطبة ، ثم رحل إلى المشرق وسمع الكثير من علمائه . ولما عاد إلى الأندلس عمل مشاوراً مع يحيى ابن يحيى ، وسعيد بن حسان ، وكان حافظاً للفقهاء على مذهب المدنيين ، بيد أنه كان إلى جانب الفقه ، بارعاً في النحو والعروض والشعر ، حافظاً للأخبار والأنساب والأشعار ، متصرفاً في عدة فنون . وكتب عدة مؤلفات في الفقه والتاريخ منها « الواضحة » و « الجوامع » وكتاب في « فضائل الصحابة » ، وكتاب في « غريب الحديث » ، وكتاب « حروب الإسلام » ، وكتاب « طبقات

(١) راجع علماء الأندلس لابن الفرضي (مصر) رقم ٤٥٨ .

(٢) راجع علماء الأندلس رقم ٩٧٥ .

(٣) جذوة المقتبس للحميدى (مصر) رقم ٩٠٨ .

الفقهاء والتابعين» و «مصاييح الهدى» وغيرها ، وكان محمد بن عمر بن لُبابة يقول فيه : عبد الملك بن حبيب عالم الأندلس ، ويحيى بن يحيى عاقلها ، وعيسى ابن دينار فقيها . وتوفى عبد الملك بن حبيب في سنة ٢٣٨ هـ (١) .

وفي عصر الحكم بن هشام تتخذ الحركة الفكرية ، التي غلب عليها الطابع الديني ، حتى ذلك الوقت ، طابعاً أدبياً واضحاً ، ويبدأ ظهور الكتاب والشعراء المرزبن ، وكان الحكم نفسه في مقدمة شعراء عصره وأدبائه ، وكان له نظم بارع أوردنا فيما تقدم طرفاً منه . ومن شعراء هذا العصر ، عباس بن ناصح الجزيري المصمودي ، وهو من أهل الجزيرة ، وقد رحل إلى مصر والحجاز والعراق ، وتلقى على علمائها ، ودرس الفقه ، ولقى الأصمعي وغيره ببغداد ، ثم عاد إلى الأندلس ، ومدح الأمير الحكم فندبه لقضاء الجزيرة ، وكان بارعاً في اللغة وشاعراً جزلاً ، يسلك في شعره مسلك العرب القديمة ، وكان له أيضاً حظ من الفقه (٢) . وكان ولده عبد الوهاب بن عباس بن ناصح أيضاً ، فقيهاً وشاعراً محسناً (٣) ، وكان من الكتاب والشعراء أيضاً حاجب الحكم وقائده عبد الكريم ابن عبد الواحد بن مغيث ، ومؤمن بن سعيد . وكان مؤمناً شاعراً مبرزاً كثير الشعر . وكان حاد النكتة والنادرة ، ومن شعره قوله :

حرمتك ما عدا نظراً مضرأ بقلب بين أضلاعي مقسيم
فيعني منك في جنات عدن مخلدة وقلبي في الجحيم (٤)

وبلغ الشعر في عصر الحكم ذروته ، على يد شاعرين كبيرين ، هما العلامة عباس بن فرناس ويحيى الغزال الحياتي . وكان أولهما عالماً بالفلسفة والفلك والكيمياء الصناعية والموسيقى . وقد أشرنا فيما تقدم إلى مخترعاته العلمية ، وإلى محاولته اختراع طريقة لطيران الإنسان . وكان ثانيهما كذلك عالماً بالفلسفة والفلك ، وقد عاش كلاهما طويلاً بعد عصر الحكم ، وفيما أوردناه فيما تقدم من شعرهما دليل على براعتهما في هذا الميدان .

(١) راجع ابن الفرضي ، علماء الأندلس ، رقم ٨١٦ .

(٢) راجع ابن القرضي رقم ٨٨١ .

(٣) ابن الفرضي رقم ٨٨١ .

(٤) راجع جذوة المقتبس للحميدى رقم ٨٢٦ ، وقضاة قرطبة للخشي (مصر)

وفي عصر عبد الرحمن بن الحكم، بلغت الحركة الفكرية الأندلسية الأولى ذروتها، ففي ميدان الكتابة احتشد في بلاط الحكم عدة من أكارب الكتاب المبرزين، وفي مقدمتهم الحاجب عبد الكريم بن عبد الواحد بن مغيث، ومحمد ابن سليمان الزجالي، وفي ميدان العلوم الدينية ظهر في عهد عبد الرحمن، جمهرة من أكارب الفقهاء، مثل محمد بن يوسف بن مطروح، ومحمد بن حارث، وعبد الأعلى بن وهب، وبقى بن مخلد، ومحمد بن وضاح، وغيرهم، وكان عميد هذه الجمهرة من الفقهاء بقى بن مخلد، وهو من أهل قرطبة، ودرس على علماء الأندلس وإفريقية، وبرع في الحديث والرواية، وبمكنتنا أن نعتبره رائد علم الحديث في الأندلس. وقد أنكر عليه بعض خصومه ما أدخله من كتب الاختلاف وغريب الحديث بالأندلس، ووشوا به للأمير محمد بن عبد الرحمن. وقد أشرنا فيما تقدم إلى ما كان من مناظرتة لخصومه، وإلزامهم الحجة، وإلى ما حباه به الأمير من عطفه وحمائته، وقد كان ذلك من أسباب انتشار الحديث بالأندلس. ولبقى بن مخلد عدة مؤلفات فقهية. وله تفسير للقرآن ومسند للنبي، وينوه العلامة ابن حزم في رسالته بعلم بقى وأهمية كتبه، ويقول لنا إن تفسيره للقرآن لم يؤلف في الإسلام مثله^(١). وسمع علي بقى جمهرة من فقهاء الأندلس، وكان ورعاً زاهداً، وتوفي سنة ٢٧٦ هـ^(٢).

وكان من أعلام الفقهاء في هذا العصر، محمد بن عبد السلام الحشني وهو من أهل قرطبة، ورحل إلى المشرق وسمع، في البصرة وبغداد ومصر، وكان فصيحاً جزل البيان، بارعاً في اللغة، ورواية الحديث، وكان أنوفاً منقبضاً عن السلطان، وقد رفض أن يتولى القضاء الأمير محمد بن عبد الرحمن، وتوفي في سنة ٢٨٦ هـ^(٣).

وقد سبق أن أشرنا إلى ما كان يتمتع به الأمير عبد الرحمن بن الحكم من المواهب الأدبية والشعرية، وأوردنا فيما تقدم طرفاً من شعره. وكان من ألمع شعراء عصره، صديقه وشاعره عبد الله بن الشمر بن نمير، وهو من أهل وشقة، وكان

(١) راجع رسالة ابن حزم عن علماء الأندلس في فتح الطيب ج ٢ ص ١٣١.

(٢) راجع ابن الفرضي رقم ٢٨٣.

(٣) ترجمته في ابن الفرضي رقم ١١٣٤. وهو غير محمد بن حارث الحشني صاحب «قضاة

قرطبة» المتوفى سنة ٣٦١ هـ.

عالماً متمكناً وشاعراً محسناً . وله شعر جيد كثير وقد أخذ الناس من شعره (١) . وكان من أبرز الظواهر الأدبية في هذا العصر ، انتشار اللغة العربية وآدابها بين طائفة المستعربين أو النصرارى المعاهدين ، ونبوغ الكثير منهم فيها ، وبلوغهم مرتبة البراعة في كتابتها ، ويمكننا أن نذكر من كتابهم المبرزين في هذا العصر ، الأسقف جومث بن أنتنيان ، قومس أهل الذمة ، وكان أديباً بارعاً ، وكاتباً مقتدرأ ، ومن كتاب الأمير عبد الرحمن .

وكانت الفتنة الكبرى في عهد الأمير محمد بن عبد الرحمن (٢٢٨ - ٢٧٣ هـ) وولده الأمير عبد الله (٢٧٥ - ٣٠٠ هـ) عاملاً هاماً في اضطراب النهضة الأدبية ، والشعرية بنوع خاص . وكان من أبرز شعراء عهد الفتنة الأول عباس ابن فرناس ، وقد أوردنا قصيدته في موقعة طليطلة ، التي سحق فيها الثوار . وفي أواسط عهد الفتنة ظهر شاعر من أعظم شعراء الأندلس ، وأديب من أعظم أدبائها ، هو الفقيه أبو عمر أحمد بن عبد ربه (٢٤٦ - ٣٢٨ هـ) صاحب كتاب « العقد الفريد » الذي يعتبر من أعظم آثار الأدب الأندلسي . ويمكننا أن نعتبر ابن عبد ربه شاعر الدولة الروانية ، منذ عهد الأمير محمد بن عبد الرحمن حتى عهد عبد الرحمن الناصر ، وقد ظهر بشعره في موقعة إستجة التي سحق فيها الناصر عمر بن حفصون ، وذلك في سنة ٢٧٨ هـ (٨٩١ م) ، وظهر بمدائح للأمير عبد الله ، ثم حفيده عبد الرحمن الناصر ، وقد كان معلمه في صباه ، وبأرجوزته في غزوات الناصر ومآثره . وقد أوردنا من نظمه فيما تقدم عدة من قصائده . وأما كتابه « العقد الفريد » فإنه يعتبر بمحتوياته وتنوعه ، بمن أمتع الكتب في الأدب العربي ، وبالرغم من أن موضوعاته ، يغلب عليها طابع الأدب المشرقي ، فإنه يعتبر عنواناً بارزاً للأدب الأندلسي في مرحلته الأولى . وقد انتقد بعضهم العقد الفريد لأنه « لم يجعل فضائل بلده ، واسطة عقده ، ومناقب ملوكه يتيمة ملكه » (٢) ويعتبر العقد الفريد بطابعه المشرقي ، على التقيض من كتاب « الذخيرة » لابن إسحاق الشنتريني ، المتوفى سنة ٥٤٢ هـ ، والذي يعتبر بمحتوياته وروحه ، مثلاً ساطعاً للأدب الأندلسي .

(١) ابن الفرضي رقم ٦٩١ .

(٢) راجع نفع الطيب ج ٣ ص ١٢٦ .

ومن شعراء عهد الفتنة وأدبائها البارزين سوار بن حمدون القيسي ، وسعيد ابن سليمان بن جودي ، وهما من زعماء الفتنة العرب ، وكان كلاهما إلى جانب فروسيته من أعلام البيان والنظم في وقته، وقد نقل إلينا ابن الأبار نماذج من نظمهما^(١) .

وكان من أعلام الأدب في تلك الفترة أيضاً محمد بن أضحى الهمداني ، وهو من زعماء العرب بكورة لبيرة . وكان بارعاً في الأدب ، خطيباً مفوهاً ، يخطب بين يدي الأمراء في المحافل ، وكان خلال الفتنة قد انضوى تحت لواء الأمير عبد الله ، ثم انضوى بعد ذلك تحت طاعة الناصر فيمن خضع من ثوار النواحي^(٢) .

وكان الأمير عبد الله نفسه من ألمع شعراء عصره . وكان بارعاً في العربية ، حافظاً للغريب من الأخبار ، وقد نوه المؤرخ ابن حيان بشاعريته ، ورفيع أدبه ، وأوردنا نحن فيما تقدم نماذج رقيقة من شعره .

- ٢ -

وكان عصر عبد الرحمن الناصر ، من ألمع عصور الدولة الأموية بالأندلس ، وفيه زهت العلوم والآداب ، وظهرت جمهرة من أكابر الشعراء والعلماء . وكان من أعلام تلك الفترة ، إلى جانب عميدهم ابن عبد ربه ، صاحب العقد الفريد ، محمد بن عمر بن ثبابة ، وهو من أهل قرطبة . وكان إماماً في الفقه ، متمكناً من حفظ الرأى ، والبصر بالفتيا ، وكان مشاوراً أيام الأمير عبد الله ، ثم انفرد بالفتيا أيام الناصر ، فلم يكن يشاركه أحد في الرياسة والقيام بالشورى ، وكان حافظاً لأخبار الأندلس ، وله حظ من النحو والشعر . وقد ولى الصلاة بالمسجد الجامع ، وتوفى في سنة ٥٣١٤ هـ . ومن مؤلفاته كتاب المنتخب في روايات مذهب مالك^(٣) .

وقد حدثنا ابن حيان في المقتبس عن شعراء عصر الناصر الذين التفوا حول بلاطه ، وأشادوا بمدحهم ، فقال : إن « في مقدمتهم معلّمه في الصبا أبو عمر أحمد بن محمد بن عبد ربه ، ويليّه من نمطه عبيد الله بن يحيى بن إدريس ، وعبد الملك بن سعيد المرادى ، وإسماعيل بن بدر ، وأغلب بن شعيب ، وحسان بن

(١) راجع الحلة السيرة (طبعة دوزى) ص ٨٠ - ٨٧ .

(٢) الحلة السيرة ص ٩٨ .

(٣) ابن الفرضى رقم ١١٨٩ .

حسان [السناط] وغيره ، ومن كبار الطائرين عليه من المشرق ، طاهر بن محمد
المهند البغدادي ، ومحمد بن حسين الطنبى الإفريقي ، وغيرهما ، أسلفوا فى الناصر
لدين الله إحساناً كثيراً .

فمن قول أبى عثمان عبيد الله يحيى بن إدريس فى الناصر لدين الله ، وقد غزا
الروم فى شهر رمضان ، وأدركه الفطر فى بلاد العدو ، فلم يتورع ، وصمد إلى
لقايمهم ، وقد اجتمعوا :

يهنى الخلافة سعى خير إمام لله مسعاه وللإسلام
ملك تمكن فى المكارم والعلى كتمكن الأرواح فى الأجسام
عزم الرحيل مصمماً فى عيده لشفاء غلة سيفه الصمصام
يصل الترحل بالترحل دائماً فى الحل يحكمه وفى الإبرام
ليعز دين الله فى كنف العلى ويذب عن حرم الهدى ويحام
مستنجزاً وعد الإله بنصره فى شيعه الإشراك والإحرام
وقوله حينما نزل الناصر بجيوشه طابطة ، وارتياح الخلافة لمقدمه ، من
قصيدة :

على أى فتح تقدا أتت لك فتوح الثغر فذاً وتووما
تباشير ترى من فتوح توات رت كما تابع النثر الجمان المنظما
ومن نظم أبى الحسن جعفر بن عثمان المعروف بالمصحفى كاتب ولى العهد
الحكم بن الناصر لدين الله ، السامى المحل فى الاشتمال على متن البلاغة ، من النثر
والنظم بالتبريز ، ما نظمه وقت انتقال الناصر لدين الله عن سرقسطة :

على أيمن الأوقات كان ارتحالك وفى أيمن الساعات كان احتلالك
تنقلت عن دار الشقاق مظفراً وقد صال بالخذول فيها صيالكا
وحاربت ذا السيف العريض بميتة أرت مستجيش الشرك كيف اغتيالكا
وأفقلت عنهم والمنايا صوايب تسيل بها فى ساحتهم سجالكا
إذا ما القرى رام اغتلاق جفونهم فخطفه بالخوف عنها خيالكا
وإن ذهبوا لاسير فى الأرض مذهباً تراءى لهم فى كل أفق مثالكا
هل الأجل المرهوب إلا صيالكا أم الأمل المرغوب إلا نوالكا
بقيت أمير المؤمنين مملكاً فما الروضة الزهراء إلا جلالكا

وقال إسماعيل بن بلر في مديح الناصر وذكر غزوته للجزيرة الخضراء :
تطوى المراحل إدلاجاً وتنحيراً مشمراً في رضى الرحمن شميراً
بدر الملوك الذى إشراق سنته تجلو عن الدين والدنيا الدياجيراً
من قد قضى الله فى ماضى شبيبته لا يزال على الأعداء منصوراً
قال ابن حيان : « والشعر فى الناصر لدين الله رحمة الله عليه ، كثير جداً ،
محمول عن فحول يقدمهم ابن عبدربه ، وابن إدريس ، ومهند والطنبى ونمطهم ...
فى تجويد صناعتهم بفضل ما ألفوا لديه من التوسعة عليهم ، والإحسان إليهم ،
فكل منهم كمل فيما صاغه فيه ديواناً بذاته ، عفى رسومها ، وغمض معينها من
الليالى وانصرام الدولة ، وتسلط الفن البربرية ، والمطاوله على التواريخ الملوكية ،
التي كانت له قاصمة وجامعة ، حتى مزقت كل ممزق بأيدى الجهال ، فهل من
باقية » (١) .

وكان بين وزراء الناصر وحجابه ، عدة من أكابر الكتاب والأدباء ، مثل
الحاجب موسى بن محمد بن حدير ، وقد كان من أهل الأدب والشعر ، فضلاً
عن كونه من بيت رياسة وجلالة (٢) وعبد الملك بن جهور ، وقد كان وزيراً
جليلاً ، وأديباً وشاعراً محسناً ، ومن شعره :

إن كانت الأبدان نائمة فنفوس أهل الظرف تأتلف
يارب مفترقين قد جمعت قلبهما الأقسام والصحف (٣)
وكان من أعلام تلك الفترة أيضاً القاضى منذر بن سعيد البلوطى (٢٦٥ -
٥٣٥هـ) ، وكان بارعاً فى علوم القرآن والسنة ، وظهر فوق ذلك بفصاحته
وجرالة شعره . وقد أشرنا فيما تقدم إلى موقفه الخطابى الرائع ، فى حفل استقبال
سفارة قيصر الروم ، وما حياه به الناصر من أجل ذلك ، من عطف ،
وتقدير ، وتوليه للخطابة والقضاء . ومن مؤلفاته « كتاب الإبانة عن حقائق
أصول الديانة » .

وفى عصر الناصر ظهرت حركة دينية ، على رأسها أبى عبد الله محمد بن
عبد الله بن مسرة الجبلى من أهل قرطبة . وكان مولده بها فى سنة ٢٦٩ هـ . وقد

(١) ابن حيان فى المقتبس - السفر الخامس - مخطوط الخزانة الملكية - لرحات ٢٧ و ٣١ هـ .

(٢) جذوة المقتبس رقم ٧٨٧ هـ .

(٣) جذوة المقتبس رقم ٦٢٦ هـ .

برع ابن مسرة في العلوم الدينية ، ولكنه جاهر ببعض الآراء المغرقة ، في التأويل والقدر وغيرها ، فاتهم بالزندقة وغادر الأندلس . فأرأى إلى المشرق وذلك في سنة ٢٩٨ هـ ، ودرس هنالك على أيدي المعتزلة ، والكلاميين وأهل الجدل . ثم عاد إلى الأندلس وهو يخفى نخلته وآراءه الحقيقية ، تحت ستار من النسك والزهد . وكان يتخذ لنفسه غاراً يتعبد فيه على مقربة من جبل قرطبة ، حتى سمي بالجبلي . واختلف إليه الطلاب من كل صوب . وكان يستهويهم بتغزير علمه وجزالة بيانه ، حتى ذاعت شهرته ، وتبعه الكثيرون من الصحب والتلاميذ . وقد اختلف في أمر ابن مسرة ، فبعضهم يسمو به إلى مرتبة الإمامة في العلم والزهد والورع ، ومنهم من كان يرميه بالزندقة وترويج البدع . وتوفي ابن مسرة بقرطبة سنة ٣١٩ هـ (٩٣١ م) (١) . على أن تعاليم ابن مسرة لبثت بعد ذلك حية ذائعة ، طوال عهد الناصر ، وقام جمهرة من أهل السنة ، بمعارضة تعاليمه وإنكارها ، ووصل صوتهم في ذلك إلى الخلافة ، واضطر الناصر إلى أن يصدر باسمه بياناً في سنة ٣٤٠ هـ ، يستنكر فيه تعاليم ابن مسرة وتلاميذه ، ويرميهم بالمروق ، والخروج عن تعاليم السنة الحقيقية ، وقد أورد لنا ابن حيان هذا البيان الفريد في المقتبس (٢) ، وقد تحدثنا فيما تقدم عن ابن مسرة وحركته ، ولخصنا كتاب الناصر في شأنها .

وفي عصر الناصر بالذات ظهر شاعر من أعظم شعراء الأندلس ، هو أبو القاسم محمد بن هانيء الأزدي الإشبيلي ، وقد ولد بإشبيلية في سنة ٣٢٦ هـ ، وظهر منذ حداثة براءة شعره وروعة افتنانه ، ولكنه اتهم بالكفر والزندقة . فعادر الأندلس ، ولحق بالبلاط الفاطمي بالمهدية ، والخليفة المعز لدين الله يتأهب عندئذ لفتح مصر ، فأغدق عليه المعز عطفه ورعايته . ولما سار المعز إلى مصر ، سار ابن هانيء للحاق به ، ولكنه توفي في طريقه في سنة ٣٦٢ هـ . وقد شُبه ابن هانيء بالمثنبي في رصانة شعره ، وروعة افتنانه ، ومن أشهر قصائده قصيدته التي يصف فيها جيش المعز الذهاب إلى فتح مصر ، بتميادة جوهر الصقلي ، والتي يقول فيها :

(١) ابن الفرضي رقم ٦٤٢ .

(٢) وذلك في النسخة الخطية من السفر الخامس من المقتبس المحفوظة بخزانة القصر الملكي

بالرباط بالمغرب وقد نقلناه منه ، ونشرناه في آخر الكتاب .

وأيت بعيني فوق ما كنت أسمع
غداة كان الأفق سد مثله
فلم أدر إذ ودعت كيف أودع
ألا إن هذا حشد من لم يذق له
إذا حل في أرض بناها مدائننا
تحل بيوت المال حيث محله
رحلت إلى القسطنطين أول رحلة
فإن يك في مصر ظمأ لمورد
ويعلمهم من لا بغار بنعمة

وكان من أعلام الشعر في عصر الناصر أيضاً الوزير جعفر بن عثمان المصحفي،
الذي تولى الحجابة فيما بعد لولده الحكم المستنصر، وتوفي في سنة ٥٣٧٢ هـ في سجن
الزهراء، ضحية لمنافسه القوى محمد بن أبي عامر المنصور. وقد أوردنا من شعره
فيما تقدم في غير موطن.

وظهر في عصر الناصر عدد من أكابر الكتاب البلغاء، في مقدمتهم كاتب
الناصر الأثير عبد الله بن محمد الزجالي، وهو الذي أنشأ عن لسانه البيان الخاص
بمروق ابن مسرة الذي سبقت الإشارة إليه.

وكان الناصر نفسه عالماً أديباً، يهوى الشعر وينظمه، ويقرب الأدباء
والشعراء. وكان في مقدمة شعراء دولته وآثرهم لديه الفقيه ابن عبد ربه صاحب
العقد الفريد، وذلك حسبما أشرنا في موضعه.

وظهر في عهد الناصر عدة من أعلام المؤرخين الذين وضعوا أسس الرواية
الأندلسية. أولهم أحمد بن محمد بن موسى الرازي، وقد ولد الرازي سنة ٢٧٤ هـ
وتوفي سنة ٥٣٤٤ هـ. ومن تصانيفه « أخبار ملوك الأندلس وخدمتهم وغزواتهم
ونكباتهم»، وكتاب « الإستيعاب في أنساب أهل الأندلس»، وكتاب في « صفة
قرطبة وخطتها ومنازل الأعيان بها ». وقد كانت رواية الرازي مستقى خصباً
لمؤرخي الأندلس، وفي مقدمتهم عميدهم ابن حيان.

وظهر قرينه ومعاصره ابن القوطية، وهو أبو بكر محمد بن عمر بن عبد
العزیز بن عيسى بن مزاحم؛ ويعرف بابن القوطية لانتسابه بطريق النسب إلى

سارة القوطية ابنة وتزنا ملك القوط . وقد ولد بقرطبة وتوفي بها سنة ٣٦٧ هـ (٩٧٧م) ، وكان راوية متمكناً حافظاً لأخبار الأندلس . وسير أمراثها وأخبار علمائها وفقهاؤها وشعراتها . وقد كتب تاريخه المسمى « تاريخ افتتاح الأندلس » . وكان فوق ذلك من أئمة عصره في اللغة والنحو ، وله في ذلك مؤلفات قيمة ، وكانت كتب اللغة أكثر ما تقرأ عليه ، وتؤخذ عنه .

ومن أعلام المؤرخين في ذلك العصر أيضاً أحمد بن موسى العروى المتوفى سنة ٣٨٨ هـ ، وقد ألف كتاباً عنوانه « تاريخ الأندلس » .

واستمرت النهضة الفكرية ، التي ازدهرت في عصر الناصر ، وفي عهد ولده الحكم المستنصر (٣٥٠ - ٣٦٦ هـ) وازدادت قوة وازدهاراً . وكان الحكم ، وهو الخليفة الأديب العالم ، رائد هذه الحركة الفكرية العظيمة . وكان من ظواهرها قيام جامعة قرطبة العظيمة ، واحتشاد أكار الأستاتذة بين عقودها ، وإنشاء المكتبة الأموية الكبرى ، التي بذل الحكم في إنشائها من الجهود العظيمة والأموال الزاخرة ما لم يسمع بمثله ، حتى بلغت محتويات هذه المكتبة الفريدة زهاء أربعائة ألف مجلد ، من مختلف أصناف العلوم والفنون . وكثرت المكتبات العامة والخاصة ، وبلغ شغف اقتناء الكتب أشده في ذلك العصر ، واحتشد حول بلاط الحكم ، جمهرة من أكار العلماء ، في مقدمتهم الحافظ أبو بكر بن معاوية القرشي ، وأبو علي القالي ضيف الأندلس يومئذ ، والأديب المؤرخ محمد بن يوسف الحجاري ، وإمام النحو والرواية ابن القوطية ، وربيع بن زيد الفيلسوف والعلامة الفلكي النصراني ، وغيرهم . وظهر في تلك الفترة جمهرة من الشعراء المبرزين ، وكان في مقدمتهم طاهر ابن محمد البغدادي ، الوافد من المشرق إلى الأندلس ، وكان يعرف بالمهند . وكان شاعراً محسناً ، مدح الحكم المستنصر ، ثم مدح المنصور بن أبي عامر بعد ذلك ، وحظي لديه ، وقد أتهم بالغلو في بعض الآراء الدينية . ومن شعره قوله :

متى أشكر النعمى التي هي جنتي ففي ظلها أمسى وفي ضوئها أضحى
إذا قلت قد جازيت بالشكر نعمة شفعت بأخرى منك دائماً السفح
فحمدى لا ينأى وفضلك لا ينبي وأرضى لاتصدى وأفقدك لا يضحى^(١)
ومنهم محمد بن مطرف بن شخيص ، وكان من أهل الأدب البارع ، ومن

(١) راجع جذوة المقتبس للحميدى (مصر) رقم ٥١٥ ، وبغية الملتبس رقم ٨٥٩ .

أعيان الشعراء المحيدين ، كان متصرفاً في القول ، متقناً لأساليب الحد والمزل ، وكان من أخص شعراء بلاط الحكم ، وله شعر كثير ، ومن شعره في تهنئة الحكم بوفود جعفر ويحيى ابني حمدون ، وتقديم طاعتهم إليه ، قصيدة طوبلة ، هذا مطلعها :

بأيمن لإقبال وأسعد طائر تباشير محتوم من الأمر واقع
توافت بملك من معد مقوض لملك إلى مهدي مروان راجع
فيا لك من بشرى سرور تضمنت بلوغ الأمانى عن سعود الطوالع
ومن قوله في الغزل :

فهل من شفيح عند ليلى إلى الكرى لعل إذا ما نمت أتى خيالها
يقولون لي صبراً على مظل وعدها وما عدت ليلى فأشكو مطالها
وما كان ذنبي غير حفظ عهدها وطى هواها واحتمالى دلالها^(١)

ومنهم محمد بن الحسين التيمي الطنبلي ، أصله من طنبنة ، بلد بأرض الزاب بالمغرب ، وكان شاعراً محسناً ، وأديباً بارعاً من بيت أدب وجلالة ورياسة ، وكان من شعراء الحكم الأثريين . ومن شعره ينبيء الحكم بحلول عيد الأضحى :

نحلت بجزوه لفظها أن يلقطها لما رأته من الجواهر أبسطا
يا أيها الملك المتوج بالهدى نوراً على غسق الظلام مسلطاً
صل عيدك البهيج السنأ في غبطة وازدد من الأعياد ألفاً مغبطاً^(٢)
ومنهم يحيى بن هذيل ، وكان من أهل العلم والأدب والشعر الجيد ؛ وتوفي سنة ٣٨٦ هـ ، ومن شعره :

لم يرحلوا إلا وفوق رحالمهم غيم حكى غيش الظلام المقبل
وعلت مطارفهم بمجاجات الندى فكأنما مطرت بدر مرسل
لما تحركت الحمول تناثرت من فوقهم في الأرض تحت الأرجل
فبكيت أو عرفوا دموعى بينها لكنها اختلطت بشكل مشكل^(٣)

ومنهم ، ومن أشهرهم يوسف بن هارون الرمادى القرطبي المعروف بأبي جنيش ، كان من أشهر شعراء الأندلس في وقته ، واشتهر بالأخص بشعره

(١) جذوة المقتبس رقم ١٤٤ . وبنية الملتبس رقم ٢٧٦ ، والمقتبس ، قطعة أكاديمية التاريخ

ص ٥٤ و ٦٠ .

(٢) جذوة المقتبس رقم ٣٨ ، والمقتبس - قطعة أكاديمية التاريخ ص ٩٤ .

(٣) جذوة المقتبس رقم ٩٠٧ ، وبنية الملتبس رقم ١٤٩٤ .

المجائى ، وكان سريع البديهة مشهوراً عند العامة والخاصة ، لسلوكه فى فنون مختلفة من المنظوم . ومدح الرمادى الحكم المستنصر ، ولكنه وقع تحت طائلة غضبه لما صدر منه من شعر قاذف فى حقه ، وأمر باعتقاله مع باقى الشعراء المجائين ، حماية للناس من ألسنتهم ، وزج الرمادى إلى السجن مدة ، وكتب خلال اعتقاله كتاباً سماه « كتاب الطير » وصف فيه كل طائر معروف . ثم عفا عنه الحكم وأطلقه مع باقى إخوانه . وتوفى الرمادى فقيراً معدماً أيام الفتنة فى سنة ٤٠٣ هـ . ومن شعره قوله :

لا تتكروا غرر الدموع فكل ما ينحل من جسمى يصير دموعا
والعبد قد يعصى وأحلف، أنى ما كنت إلا سامعاً ومطيعاً
قولوا لمن أخذ الفؤاد مسلماً بمن على برده مصلوعاً^(١)
ونبغ فى تلك الفترة عالم من أعظم علماء اللغة بالأندلس ، هو أبو بكر محمد ابن الحسن الزبيدى النحوى الإشبلى . وقد وضع فى اللغة والنحو عدة كتب مشهورة منها « الواضح » و « لحن العامة » « وأخبار النحويين » ، كما وضع مختصراً لكتاب « العين » ، إلى غير ذلك . وكان فى نفس الوقت أديباً بارعاً ، وشاعراً محسناً ، وقد أورد لنا الحميدى شيئاً من نظمه ، وندبه الخليفة الحكم ، حسبما أسلفنا فى موضعه لتدريس اللغة لولده هشام ، وألزمه بالبقاء فى قرطبة ، ولم يأذن له بالرجوع إلى وطنه إشبيلية . وتوفى الزبيدى قرابة سنة ٣٨٠ هـ .^(٢)
وكان الخليفة الحكم المستنصر نفسه ، فوق تمكنه من العلوم الشرعية وتحقيق الأنساب ، أديباً ينظم الشعر الرائق . وقد أوردنا من قبل فى موضعه شيئاً من نظمه . ثم كان الانقلاب العظيم ، فى مصابىر الخلافة الأموية ، وتغلب محمد بن أبى عامر أو الحاجب المنصور على الدولة ، وكان من حسن الطالع أن المنصور بنشأته وخلالها العلمية اللامعة ، كان من أعظم رواد الحركة الفكرية ، وكان المنصور عالماً متمكناً من الشريعة والأدب ، بارعاً فى النثر والنظم ، وقد ذكرنا فيما تقدم شيئاً من نثره ونظمه . وكان يعشق مجالس العلماء والأدباء ، حتى أنه كان خلال الغزو ، يصطحب معه طائفة من الكتاب والشعراء ، ينتظمون فى مجلسه خلال

(١) الصلة لابن بشكوال رقم ١٤٩١ ، وجذوة المقتبس رقم ٨٧٨ .

(٢) جذوة المقتبس رقم ٣٤ .

السير ، وكان شاعره الأثر أبو العلاء صاعد بن حسن البغدادي المتوفى سنة ٥٤١٧ هـ ، وكان قد وفد من المشرق على الأندلس ، في أوائل عهد المنصور ، وكان عالماً باللغة والأدب والتواريخ ، فقربه المنصور ، وأغدق عليه عطفه ، وجمع له صاعد كتاباً سماه « بالفصوص في الآداب والأشعار والأخبار » فأثابه عنه المنصور بخمسة آلاف دينار ، وأمر أن يقرأه على الناس بمسجد الزاهرة (١) .

بيد أن المنصور ، بالرغم من شغفه بالعلم والأدب ، لم يبد تسامحاً إزاء الفلسفة والفلاسفة ، أو بعبارة أخرى إزاء الأفكار الحرة . وقد كانت هذه النزعة الضيقة الأفق ، تمثل نفس التيار الذي يندفع فيه كل حاكم مطابق . وقد رأينا فيما تقدم كيف طورد عباس بن فرناس ، في عهد عبد الرحمن بن الحكم ، وأتهم بالزندقة لما أبداه من براعة علمية وفنية خارقة ، وكيف طورد تلاميذ ابن مسرة وطوردت تعاليمه في عهد الناصر ، وأصدر الناصر منشوره بتكفيره وتكفير تلاميذه ، وقد استمر هذا التيار الرجعي فيما بعد في عهد الطوائف ، حيث أحرقت كتب ابن حزم ، وفيما تلا بعد ذلك من عهود ، وذلك حسبما نذكره في موضعه .

وكان من أعظم شعراء الأندلس في عصر المنصور أبو عمر أحمد بن محمد ابن دراج القسطلي . وكان كاتباً بليغاً من كتاب ديوان الإنشاء ، وشاعراً لامعاً في نفس الوقت . وقد نبغ في ميدان الشعر نبوغاً جعله عمدة شعراء عصره . وكان من شعراء المنصور المقربين ، وله فيه مدائح رائعة ، نقلنا بعضها فيما تقدم ، ولما توفي المنصور في سنة ٣٩٢ هـ ، تجول ابن دراج في أنحاء الأندلس ، ومدح بعض أمراء الطوائف ، مثل خيران العامري صاحب ألمرية ، ومبارك ومظفر صاحباً بلنسية ، والمنذر بن هود صاحب سرقسطة . وقد قال العلامة ابن حزم في حقه ، إنه لم يكن بالأندلس أشعر من ابن دراج ، وتوفي ابن دراج في سنة ٤٢٠ هـ (١٠٢٩ م) (٢) .

وكان من أكارر الفقهاء والحفاظ في عصر المنصور ، عبد الرحمن بن فطيس قاضي الجماعة بقرطبة ، وكان من أئمة المحدثين وكبار العلماء ، حافظاً متمكناً من الحديث ، عارفاً بأسماء الرجال ، وله مشاركة في مختلف العلوم ، وتقدم في

(١) كتاب الصلة لابن بشكوال (مصر) رقم ٥٤٠ .

(٢) راجع جذوة المقربين للحميدي رقم ١٨٦ ، وبغية الملتمس للضبي رقم ٣٤٢ .

معرفة الآثار والسير والأخبار ، وكان جماعة للكتب ، وقد جمع منها ما لم يجمعه أحد من أهل عصره بالأندلس . تقلد قضاء الجماعة بقرطبة سنة ٣٩٤ هـ ، ومقرناً بولاية الصلاة والخطبة ، وذلك إلى جانب عمله في الوزارة ، وذلك أيام المظفر عبد الملك المنصور ، وكان مشهوراً في أحكامه بالزاهة والصلابة في الحق ، ونصرة المظلوم ، وله مؤلفات كثيرة منها كتاب « أسباب نزول القرآن » و « كتاب في فضائل الصحابة » و « أعلام النبوة ودلالات الرسالة » و « مسند حديث محمد بن فطيس » وغيرها ، وتوفي ابن فطيس أثناء الفتنة البربرية في سنة ٤٠٢ هـ (١) .

* * *

ولما انقضى عهد الدولة العامرية ، وانهارت الخلافة الأموية ، واضطربت الفتنة بالأندلس ، انكشفت الحركة الفكرية ، وشغلت الأمة الأندلسية بما دهاها من أمر الفن المتوالي ، وتعاقب الرياسات ، ومع ذلك ففي غضون الفتنة ، نجد من الخلفاء من يتذوق الشعر وينظمه . فقد كان الخليفة سليمان المستعين ، أديباً متمكناً ، وشاعراً مطبوعاً ، أشاد ابن بسام بأدبه وشاعريته . وقد أوردنا له فيما تقدم قصيدته الرائعة التي يعارض فيها شعر الخليفة الرشيد . وكذلك كان الخليفة المستظهر أديباً شاعراً من الطراز الأول ، وقد نوه ابن بسام بمواهبه الأدبية ، وأورد له طائفة من القصائد الجيدة .

وحتى في ظل الخلافة الحمدوية البربرية ، كان للأدب والشعر دولة ومكانة ، وكان الخليفة العالى خليفة مألقة أديباً ينظم الشعر . وكان من شعراء دولته الشاعر الكبير ، عبد الرحمن بن مقانا الأشبوني ، وكان أديباً بارعاً ، وشاعراً متقناً ، وهو الذى مدح العالى بقصيدته الشهيرة التى مطلعها :

السبرق لائح من أندرين ذرفت عيناك بالماء المعين

ونكتفى بتلك الصورة الموجزة ، عن سير الحركة الفكرية الأندلسية ، في عهد الإمارة ، وعهد الخلافة . وقد ذكرنا فيما تقدم أثناء استعراضنا لتاريخ هذين العهدين كثيراً من تفاصيلها ، وأشرنا إلى كثير من أعلام الفكر والأدب ، ممن لم نر أن نعود إلى ذكره في هذا الفصل .

الوثائق والملحقات

وثائق تاريخية

- ١ -

كتاب الخليفة الناصر لدين الله

بشأن حركة ابن مسرة

(منقول عن السفر الخامس من كتاب « المقتبس » لابن حيان ، وهو المخطوط المحفوظ بالخزانة الملكية بالرباط لוחات ١٣ و ١٤ و ١٥) .

« وأنفذ الخليفة الناصر لدين الله إلى آفاق مملكته بشأن هؤلاء المبتدعة (يعنى تلاميذ ابن مسرة) كتاباً طويلاً قرئ عليهم بأمصارهم ، من إنشاء الوزير الكاتب عبد الرحمن بن عبد الله الزجالي ، نسخته :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، أما بعد ، فإن الله تعالى جده ، وعز ذكره ، جعل دين الإسلام أفضل الأديان ، فأظهره وأعلاه ، ولم يقبل من عباده غيره ، ولا رضى منهم سواه ، فقال فى محكم تنزيله : « ومن يتبع غير الإسلام ديناً ، فلن يقبل منه ... » الآية ، وقضى فى محتوم أمره ، ونفاذ حكمه ، أن تنسخ به الديانات ، وتختتم رسالته الرسالات ، فبعث محمداً خاتم النبيين ، وأكرم الأكرمين ، وأعز الخلائق على رب العالمين ، بأن كتب الصلاة والسلام عليه فى عرشه قبل أن يخلقه ، واصطفاه لأمانته قبل أن يكونه ، وأرسله بأفضل دين سماه حنيفاً إلى خير أمة اختارها ... كما قال عز من قائل ، إذ عرفنا فضل ما هدانا إليه من الدين ، وكرمنا به على سائر الأمم : « كنتم خير أمة أخرجت للناس ، تأمرون بالمعروف ، وتنهون عن المنكر ... الآية » . فله جل جلاله ، وتقدست أسماؤه ، الشكر على خصائص هذه الفضيلة ، والحمد بالمنة الجليلة ، فقد استنقذ من الغواية وهدى ، فأحسن الهداية ، وأبان الحجة ، وكفانا بواضح المناهج مؤنة الفكرة ، ونظم زمام الأمة ، وجمع وجوه السعادة العاجلة ، وانجاة الآجلة فى تأليف الجماعة ، واجتبا فيهم رعاية الفرقة ، حيث يقول عز وجهه ، لنبيه صلى الله عليه وسلم .. به وبعباده المخصوص بهداه ، ورأفة بسطها على خير .. وإعلامهم ... بتواصل الدين من قبله لأنبيائه ... وكرامته لاختلافهم بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم : « شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً ، والذي أوحينا

إليك ، وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى ، أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه ... الآية . فخوف وحذر ، ونهى عن افتراق الكلمة ، ونبه على البعد ، ونفى الله الخبيث عنها ، وفضلها على ساير البلدان ، واستقر فيها الدين ، كهيبته يوم أكله الله لعباده . ولما استوسقت الطاعة ، وشملت النعمة ، وعم الأقطار ، بعدل أمير المؤمنين ، السكون والدعة ، طلعت فرقة لا تبتغي خيراً ، ولا تأتمر برشداً ، من طعام السواد ، ومن ضعف آراهم ، ومن خشونة الأوغاد ، كتباً لم يعرفوها ، ضلت فيها حلومهم ، وقصرت عنها عقولهم ، وظنوا أنهم فهموا ما جهلوا ، وتفقهوا فيما لم يدركوا ، واستولى عليهم الخذلان ، وأحال عليهم بخيله ورجله الشيطان ، فزينوا لمن لا تحصيل لهم ، ولقوم آمنين لا علم عندهم ، فقالوا بخلق القرآن ، واستيئسوا ، وآيسوا من روح الله ، ولا يبأس من روح الله إلا القوم الكافرون ، وأكثروا الجدل في آيات الله ، وحرّموا التأويل في حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فريت منهم الذمة بقوله تقدست أسماؤه : « ألم تر إلى الذين يجادلون في آيات الله أنى يصرفون ، الذين كذبوا بالكتاب ، وما أرسلنا به رسلاً فسوف يعلمون ، إذ الأغلال في أعناقهم والسلاسل يسحبون . في الحميم ثم في النار يُسجرون . فهذا أبلغ الوعيد ، وأفظع النكال ، لمن جادل في الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير ثانياً عطفه : ليضل عن سبيل الله له في الدنيا خزي ، ونذيقه يوم القيامة عذاب الحريق ... » ثم تجاوزوا في الهتان ، وسلدوا على أنفسهم ألوان الغفران ، فأكذبوا التوبة ، وأبطلوا الشفاعة ، ونالوا محكم التنزيل ، وغامض متن التأويل ، بتقدير عقولهم : فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة ، وابتغاء تأويله ، وما يعلم تأويله إلا الله ، والراسخون في العلم ، يقولون آمنا به ، كل من عند ربنا ، وما يذكر إلا أولو الأبواب . فصاروا بجهل الآثار ، وسوء حمل الأخبار إلى القدح في الحديث ، وترك نبح السبيل ، فأساءوا الفهم عن العوام ، وأقدموا بمكروه القول في السلف الصالح ، واستبدلوا على نقلة الحديث ، ووضعوا من الكتب لوضعها ، وتابعوا شهواتهم فيها ، وتتابعوا فيما... وورطهم ، ورأوا لتخضع وحشة بحثها لازم الضلالة ، وداعية الملكة ، والشنوذ عن مذهب الجماعة ، من غير نظر نافذ في دين ، ولا رسوخ في علم ، حتى تركوا رد السلام على المسلمين ، وهى التحية التى نسخت تحية الجاهلين . خلافاً على أدب الله تعالى ، وقوله جل جلاله : وإذا حييتم

بتحية ، فحيوا بأحسن منها أوردوها ، وقالوا بالاعتزال عن العامة وشدوا ...
وكشفوا بتكرارهم الذين يستمعون القول ، فيتبعون أحسنه ، فلجوا في جهاتهم ،
وتأهوا في غيهم ، ونكسوا على رؤوسهم ، حقداً على الأمة الحنيفة ، واعتقاداً
لبغضتها ، واستحلالاً لدمائها ، وزرعاً إلى انتهاك حرمتها ، وسبي ذراريتها ، قد
بدت البغضاء من أفواههم وما تخفى صدورهم أكبر ، لولا أن سيف أمير المؤمنين
من ورأيهم ، ونظره محيط . ولما صار غيهم فاشياً ، وجهلهم شايعاً ، واتصل
بأمر المؤمنين من قدحهم في الديانة ، وخروجهم عن الحادة ، فأشغل نفسه ،
وأقضى مضجعه ، وأسهد ليله ، أغلظ أمير المؤمنين في الأخذ فوق أيديهم ،
وأوعز بإعازاً شديداً ، وأنذر إنذاراً فظيماً ، وعهد عهداً مؤكداً شافياً كافياً ،
نظر به لوجهه تبارك اسمه ، وقدم فيه بين يدي العقاب الشديد ، وأمر بقراءة
كتابه هذا على المنبر الأعظم بحضرته ، ليفزع قلب الجاهل ، ويفت كبد المستهتر
الحار ، وينقض عزم العائد المعاجل ، ويضطر الغواة إلى الإجابة الصحيحة ،
التي يتقبلها الله منهم ، أو يكشف عن الأذهان سراريهم فيكون عليهم شهيداً ،
ويأتهم عذاب غير مردود . ورأى أمير المؤمنين أن يشمل بنظره أقطار كوره ،
ويرسله في بلوه وحضره ، وأن ينفذ عهوده إليك ، وإلى ساير قواده ، وجميع
عماله بها ، يقرأ على منابر المسلمين ، ولا يحرم القاصي ما عم الداني من تطهير
هذا الرجز وتمحيصه ، وكفاية المسلمين شبهته وفتنته ، فلم يحل الديار ، ولا تعقب
الآثار ، ولا استحقق البلا على قوم ، ولا أهلك الله أمة من الأمم ، إلا بمثل ما
تكشف هذه الطغمة الخبيثة ، من التبديل للسنة ، والاعتداء في القرآن العظيم ،
وأحاديث الرسول الأمين ، صلوات الله عليه وسلم ، هذا عند وروده عليك في
قبلك ، ونشره في سماع رعيتك ، وتتبع هذه الطائفة بجميع أعمالك ، وابتث
فيهم عيونك ، وطالب فيهم غورهم جهدك ، فمن تحلى منهم بما انتسب إليهم ،
وقامت عليه البيئات بذلك عندك ، فاكتب إلى أمير المؤمنين بأسمائهم ومواضعهم ،
وأسماء الشهود عليهم ، ونصوص شهاداتهم ، لتعهد باستجلابهم إلى باب سدته ،
لينكلوا بحضرته ، فيذهب غيظ نفسه ، ويشفي حنين صدره ، وإياك أن تهون من
أهل الريبة ، وتتخطاهم إلى ذوى السلامة والأحوال الصالحة ، فإن فرطت في
أحد الأمرين أو كليهما . فقد برى الله منك ، وأحل دمك ، ومالك ، فاعلمه ،
واعتد به لإنشاء الله تعالى .

كتاب الخليفة الناصر لدين الله

عن غزوة الخندق

(منقول من السفر الخامس من كتاب «المقتبس» لابن حيان ، وهو المخطوط المحفوظ بالخزانة الملكية بالرباط ، في حوادث سنة ٣٢٧ هـ) .

قال ابن حيان : وأما لفظ كتاب الفتح الوارد من قبل الناصر لدين الله إلى الحضرة بخبر هذه الغزوة من إنشاء عيسى بن فطيس الكاتب ، فإن الفصل الذي رفع فيه خبر هذه الواقعة ، وقع كما أثبتته هاهنا :

« واستعزم الله أمير المؤمنين ليلته ، واستخاره عن رحمته في النهوض إلى مدينة شنت مانكش دار الكفرة ومجمع النصرانية ، إلى إلبها استركن عدو الله ، وضائق الحيل عليهم ، ووثقوا بحصانته ، ليعلمهم أن كلمة الله هي إظهار دينه ، ونصر أوليائه ، وإعزاز خلقايه ، في مشارق الأرض ومغاربها ، ولو كره المشركون ، فضم صاحب المقدمة عمال الثغور عندهم وفرسانهم وخيلهم ، واكتنف الجمع في مجنتبي العسكر مع من والاهم ، وجرد الرجالة من الخيول بأسلحتهم ، وصمد لجمع المشركين ، فاستقبلهم بنية صادقة ، ونفس صابرة ، وجموع كثيفة ، وكتائب تملأ القضا ، ومغائب تضيق عنها الشعاب ، وبصير في سهل الأرض كالأكام ، تتألق عليهم سوايغ الدروع ، فإذا تداعوا ، قلت موج تراكم ، وإذا وقفوا فكأتما النقع عليهم ليل مظلم . فلما قربت العساكر من محل الخنازير ، ثابوا فيما بينهم ، وثاروا إلى خيولهم ، وعلوا الشرايين ، ينظرون إلى كتائب دين الله ، بقلوب قد خلعتها الذعر ، وقبضهم عن التقدم الوجل ، وجعلوا بينهم وبين المسلمين وادى بشررقه ، ثقة بوعورته ، وقلة مخاوضه ، فلم ترعهم إلا مقدمة الجيش وراعه ، قد سهل الله عليهم جوازه ، وتبعهم الأتقال ، وتحيز أمير المؤمنين كدية سامية ، يتطلع منها على عسكر المسلمين ، فأمر بالاضطراب فيها للعسكر ، وتقدمت الخيول بين يديه ، وقد تلاحقت جموع الكفرة ، وقدموا صلبانهم ، ووثقوا بشيطانهم الذي غرهم . وكان المسلمون على نشطة إلى لقاءهم ، فلم ينتظر أولهم إلى أن توافى آخرهم ، ولا فارسهم أن يمتعد براجلهم ، وتخطوا

الرماح إلى السيوف ، والطعن إلى الضرب ، وكروا في حومة المنايا ، كرم من يحمى حليله ، ويخشى بعد ساعة أن تسبي ذريته ، فلم ير المسلمون حرباً مثلها ، ولا شهدوا يوم وغى أطول من يومهم ذلك . ونصر الله تعالى يهون عليهم ما هم فيه ، حتى فضوا جموع المشركين (لوحة ١٤٣ أ) ، وزلزلوا ردوهم التي كانت أكاليل الجبال ، وردم الشعاب ، وضمهم إلى معسكرهم ، وأثارت سنابك الخيل من القتام ، ما غيب من كان في القلب عن يليه من يمين الحرب ويسارها . وكان محمد بن هاشم في وقتها حائناً سعيره قد طال به مدامها ، واستدارت حوله رحامها ، فكبا به فرسه ، ولم يعلم أحد بمصرعه ، فصار في أيدي الخنازير أسيراً ، فاستشفوا به الحياة بعد اليأس منها ، فجالدوا بنفوس قد عاودتها رمقها ، وانحاز المسلمون إلى معسكرهم ، قد قتلوا من أعلام المشركين وقوامسهم وأهل البأس من فرسان الحرب ، ومن صبر لوقع السيف ، فكانت مصيبتهم بمن قتل منهم عظيمة ، فلما أصبح أمير المؤمنين لخلته ، أمر بحمل من عقر فرسه ، وصلة من أغنى في حربته ، وتعرض المشركون للحرب تعرض من قد تنخل لعدو قد أصابهم ، ونكايته قد فلقت قلوبهم . فلما كان في اليوم الثالث من احتلاله ، عهد أمير المؤمنين إلى صاحب العسكر بمصاحبتهم بالحرب ، وقد تلاحقت بهم الملوود من أقصى بنبلونة وألبه والقلاع ، وأهل قشتيلة ، إلى مشركى قلمرية ، وكل صنف من أصناف العجم معهم ، وهتف على المسلمين بالخروج تحت راياتهم ، والتأهب للقاء عدوهم ، وأغدوا في نهوضهم ، ونزل صاحب العسكر ، فرتب تعيينهم ، فكثف الردء ، وضم إليها الرجال ، وألزم القلب بنفسه ، وميز فيه خيل الميمنة والميسرة ، وقدم إليهم المقاتلة ، وأقام بين يديه حملة الخيل عدة ، فإذا رأى في جهة من جهات الحرب خللا سده واستدركه ، أو فتقا رتقه ، حتى كانت أيدي المسلمين في الماقت عالية ، فنلظت الحرب واحتدمت ، وكان المنايا إنما قصدت فيها أعلام الكفرة وقوامسهم ، فصرع قومس غرماج ، وابن أخى الخنزير ابن فردلند ، وشيخ النصرانية وعميدها ابن دخبر ، إلى العدد الجم من فرسانهم ، وأهل الصبر منهم ، وانجملت الحرب عن هزيمتهم ، وانكشاف أجبل قد كانوا علوها ، وسدوا بالخييل والرجال ما بينها ، وظنوا أن لا غالب لهم ، فزلزلوا زلزالا شديداً ، وانصرف المسلمون بعد الظفر والسلامة في المنقلب ،

فباتوا بأنعم بال ، وأسكن حال . فلما ظن أعداء الله أن قد ملوا حربهم ، وتجددت لهم مدودهم ، رفعوا معسكرهم ، وقدموا صلبانهم ، وخرجوا بفارسهم وراجلهم فألقوا إلى ما يلي منهم العسكر ، سراع خيولهم ، فبادر المسلمون إليهم تبادل الأسود الضارة ، فغادروا موقفهم ، وجالدوا بسيوفهم ، حتى انفرج الموقف عن قتل عظيم من عظمائهم ، أعولوا عليه ، واستداروا حواليه ، وانصرفوا قد أذلم الله ، ووهنهم ، وهون عليهم جمعهم ، ووفور مددهم ، في ضبط المعيشة ، وقلة التبسط ، ومصابحة الحرب ومماساتها ، حتى كأنهم أهل حصن حوصروا فيه ، أو فل جيش لا يستطيعون الرجوع إليه . وأقام أمير المؤمنين ومن معه من جيوشه وحشده ، وأهل البصائر والحفايظ ، وبلغ أمير المؤمنين أقصى أمله من إذلال جميع المشركين ، والاحتلال بساحتهم ، وانحياز طاغيتهم في أعلى شاهق ، يرجو النجاة بنفسه ، فأمر بالرحيل وقد ضاعف النظر ، والعدو في ضبط ساقه جيشه لما توقع خروج الكفرة في أثره . وأصبح منتقلا ، فما أقدم أعداء الله أن ينظروا من الجيش إلا من بعد على رأس جبل ، ونهض يبطأ بلادهم وطأة مثاقل ، حتى انصرف إلى نهر دويرة ، واستقبل عمارته من حصن مانكش التي اتصلت بنكاية أهله ، فلم يدع في جليقية حصناً إلا هدمه ، ولا معاشاً إلا انتسفه ، حتى انتهى إلى مدينة روضة ، وهي خالية على عروشها ، فأقام على هدمها ، وهدم حصن دبيلش معها ، يومين كانا أطول على أعداء الله من عامين ، لما غير فيهما من نعمهم ، وهدم من مساكنهم ، وقطع من شجرهم . وكان أمير المؤمنين يترّ التقدّم على نهر دويرة إلى شنت لإشتين وغرماج لنقص الزروع لديه وضيق (١٤٣ ب) العلف بإفساده . فرفع إليه من حضره من أهل مدينة الفرج وحصونها ، يشكون ما يلقونه من مشركى وادى أبيته ، ومعاقلمها ، وترددوا عليه ضارعين إليه ، أن يجعل ممر الجيش المؤبد على حصونهم وعمارتهم ، وذكروا أن ذلك أنفع لهم ولأهل الثغور معهم ، من الإيغال في بلاد المشركين ، ونكاية من لا ينالهم بغارة ، ولا ينهض إليهم بقوة ، فصرف الجيوش عند ذلك إلى وادى أبيته ، فلم يدع فيها حصناً إلا هدم ، ولا قرية إلا هدمت ، ولا معاشاً إلا استقصى جميعه . فلما صار في آخره ولم يبق موضع يقوم الجيش بالتردد عليه ، أمر الأدلاء بالكشف عن أفضل الطرق إلى حصن أنتيشه ، وأرفقها بالمسلمين في منصرفهم برازح ظهرهم ، وأحوط عليهم في

طريقهم ، وأجمعوا على قصد حصن قشرب ، وأياسوا من الخروج على غيره ، فلما استقبل أمير المؤمنين لأمه ، وقطع بعض محلته ، استقبل شعراء لا يتخللها المتفرد بحمده ، ولا يتخلص منها الخف ، لو لم يكن أحد يعترضه . ثم أشرف على خنادق قفرة ومهاو تتقاذفه ، وأجراف منقطعة قد عرفها المشركون وقدموا إليها ، وألقوا إلى ساقه الجيش فرسانهم ، فدارت عليهم الحرب ، وصرع فيها من جلة فرسانهم ، ومتقدمى رجالهم جملة ، لو أصيبت بحيث يترأى الجمعان لكانت سبب هزيمتهم ، ولا كنهم وثقوا بالوعد ، وانتظروا تقدم الحماة وترادف الأثقال ، فحامي أمير المؤمنين برجاله وخاصته عن المسلمين ساعات من النهار ، حتى تقدم أكثرهم ، وجازت الخندق لقتالهم ، لإلّا من ضعفت دابته ، أو ضعفت تعبته عن استنفارها . فلما رأوا الخلل تصاحبوا من قن الجبال ، وانخطوا من أعاليها انخطاط الأوعال ، فأصابوا من الأمتعة والدواب المثقلة ، ما لو أصابوا مثله في مجال حرب أو سهل من الأرض ، لما أنكر مثله عند مقارعة الرجال ، وتصرف الأحوال . وحامى صاحب العسكر عن كل من أجاز الخندق وخلص من مضايقة ، حتى أسهلوا ، واجتمع الأمير المؤمنين جيوشه وانتظمت جموعه ، وسلم الله رجاله ، فلم يصب منهم أحد . وفي ذلك دليل للسامع عن الوقعة أنها لم تدر بغلبة ، ولا ظفر المشركون أظفروا به فيها عن مساواة ولا كثرة ، ولكن ضيق المسالك ، ووعر الطريق ، وسوء فهم الدليل ، خلى لما جلبه إلى أقدار الله تعالى التي لا تصرف ، ومحنة التي لم يزل يمتحن بها أوليائه ، ليعظهم ، ويبتلى عبيده ليرهبهم ، وأمير المؤمنين ، شاكر لله تعالى على عظيم نعمه ، وواقف على تصرف محنته ، مستسهل ما اختص به في حب طاعته ، ضارع إلى الله في التقبل لقوله وفعله . وكتابه إليك ، وهو قافل بالمسلمين على أحسن أحوالهم ، وأسهل طريقهم ، وأجمعه بمعايشهم ، إن شاء الله . فأمر بقراءة كتاب أمير المؤمنين على الناس قبلك أثر صلاة الجمعة لبشكروا الله على ما أنعم به من نصر إمامهم ، وسلامة إخوانهم ، والصنيع الذى عمهم ، فإنه يجب الشاكرين ، ويزيد الحامدين . واعهد نسخته إلى عمال الكور حولك إنشاء الله تعالى ، والله المستعان . وكتب يوم الإثنين لثمان خلون من ذى القعدة سنة سبع وعشرين وثلاث مائة .

ثبت المراجع

١ - مراجع أندلسية وإسلامية عامة

- تاريخ ابن خلدون المسمى « كتاب العبر » (بولاق) .
تاريخ الكامل لابن الأثير (الطبعة الأهلية ١٣٠٣ هـ) .
تاريخ الطبرى المسمى « تاريخ الأمم والملوك » (الطبعة الأهلية) .
تاريخ أبى الفدا المسمى « المختصر فى أخبار البشر » (الطبعة الأهلية) .
فتوح البلدان للبلاذرى (القاهرة ١٩٣٢) .
مروج الذهب للمسعودى (بولاق) .
نهاية الأرب للنويرى (القسم التاريخى ومعظمه ما زال مخطوطاً) .
وفيات الأعيان لابن خلكان (بولاق) .
كتاب الإمامة والسياسة المنسوب لابن قتيبة (القاهرة ١٣٢٥ هـ) .
كتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار لطفى الدين المقرئى (الطبعة الأهلية ١٣٢٤ هـ) .
النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة لابن تغرى بردى (طبعة دار الكتب) .
فتوح مصر وأخبارها لابن عبد الحكم المصرى (طبع لجنة ذكرى جب) .
يتيمة الدهر فى محاسن أهل العصر للثعالبي (القاهرة ١٩٤٧) .
نفتح الطيب من غصن الأندلس الرطيب للمقرئى (القاهرة ١٣٠٢ هـ) .
أخبار مجموعة فى فتح الأندلس لمؤلف مجهول (مدريد ١٨٦٧) .
تاريخ افتتاح الأندلس لأبى بكر بن القوطية (مدريد ١٨٦٨) .
البيان المغرب فى أخبار ملوك الأندلس والمغرب لابن عذارى المراكشى
(الجزء الأول الخاص بإفريقية والثانى الخاص بالأندلس المنشوران بعناية العلامة
دوزى (ليدن ١٨٤٨ - ١٨٤٩) والثالث المنشور بعناية الأستاذ ليثى بروفنسال .
بغية الملتبس فى تاريخ رجال أهل الأندلس لابن عميرة الضبي (ضمن المكتبة
الأندلسية) .
كتاب الصلة لابن بشكوال (ضمن المكتبة الأندلسية ، والقاهرة سنة ١٩٥٥)
قضاة قرطبة لأبى عبدالله الخشنى المنشور بعناية الأستاذ ربريا (مدريد ١٩١٤) .

المقتبس في تاريخ رجال الأندلس لابن حيان ، السفر الثالث المنشور بعناية الأب ملشور أنتونيا (باريس ١٩٣٧) .

الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة لابن بسام الشنبريني (المجلدات الثلاثة المطبوعة بعناية جامعة القاهرة) .

الحلة السبراء لابن الأبار القضاعي (القسم المطبوع بعناية العلامة دوزي) ،
المعجب في تلخيص أخبار المغرب لعبد الواحد المراكشي (القاهرة ١٣٣٢هـ) ،
جنوة المقتبس للحميدى (طبع القاهرة) .

العقد الفريد لابن عبد ربه الأندلسي (طبع القاهرة ١٩٢٨ ، وكذلك طبعة لجنة التأليف والترجمة) .

المطرب من أشعار أهل المغرب لابن دحية البلنسي (المطبوع بعناية وزارة التربية المصرية) .

أعمال الأعلام لابن الخطيب (طبع بيروت ١٩٥٦) .

الإحاطة في أخبار غرناطة لابن الخطيب (القاهرة ١٩٠٤ و ١٩٥٦) .

الإستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى للسلاوي (القاهرة ١٣٠٦هـ) .

نبذ تاريخية في أخبار البربر في القرون الوسطى (الرباط ١٩٣٤) .

جمهرة أنساب العرب لابن حزم (القاهرة ١٩٤٨) .

رسالة نقط العروس لابن حزم (المنشور بمجلة كلية الآداب بالقاهرة في

عدد ديسمبر سنة ١٩٥١) .

نصوص عن الأندلس من كتاب ترصيع الأخبار وتنويع الآثار لأحمد بن

عمر العذري (منشور بعناية الدكتور عبد العزيز الأهواني - مدريد سنة ١٩٦٥) ،

طوق الحمامة لابن حزم (دمشق ١٣٤٩هـ) .

معجم البلدان لياقوت الحموي (القاهرة ١٣٢٣ - ١٣٢٥هـ) .

الروض المعطار (صفة جزيرة الأندلس) لأبي عبد الله محمد بن عبد المنعم

الحميري (القاهرة ١٩٤٨) .

مختصر نزهة المشتاق في اختراق الآفاق للشريف الإدريسي (طبع رومة ١٥٩٢) .

وصف الأندلس للإدريسي (المطبوع بعناية المستشرق سافدرا) .

المسالك والممالك لابن حوقل (المكتبة الجغرافية) .

المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب المستخرج من كتاب المسالك والممالك
للأبي عبيد البكري والمنشور بعناية المستشرق دى سلان .

مصادر مخطوطة

تاريخ ابن حيان : « المقتبس في تاريخ أهل الأندلس » ، مجموعة أوراق
مخطوطة من « السفر الأول » تشمل حوادث سنة ١٨٠ - ٢٣١ هـ ، عثر بها المرحوم
الأستاذ ليثى بروفسال ، ونقلت منها وقد ضاعت الآن .

تاريخ ابن حيان : « السفر الثاني » من المقتبس وهو يشمل حوادث سنة
٢٣٣ - ٢٦٧ هـ قطعة مخطوطة محفوظة بمكتبة جامع القرويين بفاس .

قطعة ثالثة مخطوطة من تاريخ ابن حيان محفوظة بمكتبة أكاديمية التاريخ
بملريد تتعلق بحوادث سنة ٣٦٠ - ٣٦٤ هـ . وقد نشرت أخيراً ببيروت (١٩٦٥)
بعناية الأستاذ عبد الرحمن الحجى .

السفر الخامس من « المقتبس » وهو مخطوط الخزانة الملكية بالرباط ويتعلق
بعهد عبد الرحمن الناصر ، ويسرد حوادث الأندلس من سنة ٣٠٢ إلى سنة ٣٢٩ هـ
ويحمل رقم 87 .

إعتاب الكتاب لابن الأبار (مخطوط محفوظ بمكتبة الإسكوريال رقم ١٧٣١
الغزيرى) .

كتاب تحفة الأنفس وشعار أهل الأندلس لعلى عبد الرحمن الهذيل (مخطوط
محمول بمكتبة الإسكوريال رقم ١٦٥٢ الغزيرى) .

شذور مخطوطة لابن حزم نشرها الأستاذ ميغل آسين بلاثيوس في مجلة
الأندلس (سنة ١٩٣٤) .

٢- المراجع الأوربية

- رجعنا فيما يتعلق بالروايات الإسبانية اللاتينية إلى موسوعة الأب Enrique Florez الكنسية الكبرى وهى :
- España Sagrada (Madrid 1747—1886, 51 Tomos)**
وقد تضمنت الروايات التاريخية الآتية :
- | | |
|-----------------------------------|--------------------------------|
| Isidorus Pacensis Crónicon | رواية إيزيدور الباجى |
| Chrónicon Compostellanum | رواية كومبستيللا (اشنت ياقب) |
| Annales Toledanes | الأخبار الطليطية |
| Chronicon Lusitanum | الرواية اللوسيتانية البرتغالية |
| Chronicon Adefonsi | الرواية الأدفونشية |
- Rodericus Toletanus : Historia Arabum.**
رواية رددريك الطليطلى (تاريخ العرب)
- Lucas Tudensis : Chronicon Mundi.** (رواية لوقا التطيلى (تاريخ العرب)
- Crónica General de España- (Ed. Pidal)** تاريخ أسبانيا العام لألفونسو العالم
- Padre Mariana : Historia General de Espana (Madrid 1855).**
- Conde : Historia de la Dominación de los Arabes en Espana.**
- F.J. Simonet : Historia de los Mozárabes de España (Madrid 1897).**
- Modesto Lafuente : Historia General de Espana (Barcelona 1889).**
- Julian Ribera : Disertaciones y Opúsculos (Madrid 1928).**
- R. Altamira : Historia de España y de la Civilización Espanola (Barcelona 1900).**
- R.M. Pidal : La España del Cid (Madrid 1947).**
- ” ” ” : La Chanson de Roland y el Neotradicionalismo (Madrid 1959).
- ” ” ” : Origenes del Espanol.
- ” ” ” : Historia y Epopya.
- Una Crónica anonima de Abd Al-Rahman Al-Nasir (Madrid-Granada 1950).**
- F. Codera : Embajadas de Principes cristianos en Córdoba en los ultimos anos de Al-Haquam II (B.R.A.H. XIII, 1886).**
- F. Codera : Embajadores de Castilla encarcelados en Córdoba en los ultimos anos de Al-Haquam II (B.R.A.N., XIV, 1887).**
- A.G. Palencia : Historia de la España Musulmana.**

- L.S. de Lucena : Los Hammudies Senores de Málaga y Algeciras.
(Málaga 1955).
- Cardonne : Histoire de l'Afrique et de l'Espagne sous la Domination des Arabes.
- Camille Julian : Histoire de la Gaule.
- Dom Vissette : Histoire de Languedoc.
- Reinaud : Histoire des Invasions des Sarrazins en France,
- Dozy : Histoire des Musulmans d'Espagne jusqu'à la Coquête des Almoravides (Ed. Lévy-Provençal 1932).
- Dozy : Recherches sur l'Histoire et Littérature de l'Espagne pendant le moyen-âge. (3e Ed).
- Zeller : Histoire de l'Allemagne.
- Aschbach : Geschichte der Omajaden in Spanien.
- Schlegel : Philosophie der Geschichte.
- Gibbon : Decline and Fall of the Roman Empire.
- Lane-Poole : The Moors in Spain.
- Scott : Moorish Empire in Europe.
- H. Ch. Lea : History of the Inquisition of Spain.
- Creasy : Decisive Battles of the World.
- Finlay : Byzantine Empire.
- Hodgkin : Charles the Great.
- Casiri : Bibliotheca Arabico-Hispana Escorialensis.
- [Encyclopédie de l'Islam.
- Bayle : Dictionnaire Historique et Critique.
- Bouquet : Recueil des Historiens de la Gaule et de la France.

فهرست الوثائق التاريخية

للقسمين الأول والثاني

صفحة	
٤٦	الخطبة المنسوبة لطارق بن زياد.. .. .
٥٥	معاهدة الصلح بين عبد العزيز بن موسى وتيودمير.. .. .
١٥٣	خطاب يوسف الفهرى إلى عبد الرحمن الأموى
١٩٩	الأمان الذى أصدره عبد الرحمن الداخل للنصارى... .. .
٢٤٥	كتاب الحكم بن هشام عن ثورة الربض... .. .
٢٤٨	وصية الحكم بن هشام لابنه عبد الرحمن... .. .
٢٨٣	كتاب عبد الرحمن بن الحكم إلى قيصر قسطنطينية... .. .
٣٨١	عهد الناصر لا بن حفصون... .. .
٣٨٧	كتاب الناصر عن فتح ببشتر... .. .
٤١٠	أمان الناصر لمحمد بن هاشم التجيبى
٤٣٠	كتاب الناصر عن اتخاذ سمه الخلافة
٧١١ و ٤١٦	كتاب الناصر عن موقعة الخندق
٤٢٣	كتاب الناصر إلى العمال بعمل الاستسقاء... .. .
٧٠٨ و ٤٣٣	كتاب الناصر عن فتنة ابن مسرة
٤٥٣	كتاب القيصر قسطنطين السابع إلى الناصر
٤٩٨	كتاب الحكم المستنصر عن انتصاره على الأدارسة... .. .
٥٨١	وصية المنصور بن أبى عامر لابنه عبد الملك
٥٨٢	وصية المنصور بن أبى عامر لغلثانه... .. .
٦١٤	مرسوم الخليفة هشام المؤيد لعبد الملك المنصور بتسميته بالمظفر
٦٢٦	مرسوم الخليفة هشام المؤيد بالله إلى عبد الرحمن المنصور بولاية عهده... .. .

فهرست الشعر والشعراء

صفحة

١٤٤	نصر بن سيار أرى تحت الرماد وميض نار عبد الرحمن بن أمية (الداخل)
٢٠٢	سعدى وحزمى والمهند والقنا
٢٠٢	شتان من قام ذا امتعاض
٢٠٢	أيها الركب الميمم أرضى
٢٠٣	تبدت لنا وسط الرصافة نخلة
٢٤٢	عباس بن ناصح الجزيرى نكد الزمان فأمنت أيامه
٢٤٦	الحكم بن هشام رأيت صدوع الأرض بالسيف واقعاً
٢٥٠	غناء صليل البيض أشهى إلى الأذن
٢٥٠	قضب من البان ماست فوق كئيبان
٢٤٧	غريب بن عبد الله يا أهل قرطبة الذين تواكلوا موثمن بن سعيد
٢٥٢	يطم على العنقاء فى طيراتها
٢٩٣	حرمتك ما عدا نظراً مضراً
٢٥٣	يحيى الغزال الجياني لست تلقى النغمه إلا غنيا
٢٥٣	ياليت شعرى أى شىء محصل
٢٥٣	كأن الملوك الغلب عندك خضعاً
٢٨٣	وأعيد لين الأطراف رخص
٢٨٥	يانود يارود الشباب اليتى

صفحة

- عبد الرحمن بن الحكم
٢٧٨ إذا ما بدت لى شمس النهار
٢٨٠ ولقد تعارض أوجه لأوامر
٢٨٠ فكم قد تخطيت من سبب
٢٨٠ قتلتى بهواكا
- عباس بن فرناس
٢٩٣ ومؤلف الأصوات مختلف الزحف
٣١٤ كأن قصور الأرض بعد تمامه
أبو عمر ابن عبد ربه
٣١٥ ألما على قصر الخليفة فانظرا
٣٢٦ نجما مستكناً تحت جناح من الدجى
٣٣٤ ألا إن إبراهيم لجة ساحل
٣٧٤ بدا الهلال جديداً
٣٧٨ هلال نماه البدر واختاره الفجر
٣٨٠ خليفة الله وابن عم رسول الله
٤٠٨ يا ابن الخلايف والصيد الصناديد
٤٦٢ قد أوضح الله للإسلام منهاجاً
- هاشم بن عبد العزيز
٣١٨ سأرضى بحكم الله فيما ينوبنى
سعيد بن جودى
٣٢٩ يابنى مروان جدوا فى الحرب
الأمير عبد الله بن محمد
٣٥٠ يامهجة المشتاق ما أوجعك
٣٥١ ويحى على شادن كحمل
٣٥١ يا من يراوغه الأجل

صفحة

- أحمد بن محمد الرازي
٣٨٦ تبدى لمراى العين مجسماً
إسماعيل بن بدر
٤٠٢ وقيدت زعيمتهم إليه
٦٩٨ تطوى المراحل إدلاجاً وتنحيراً
أبو عثمان عبيد الله بن يحيى بن إدريس
٤٢٤ نعم الشفيق إلى الرحمن فى المطر
٦٩٧ بهى الخلافة سعى خير إمام
٦٩٧ على أى فتح بعد فتح تقدمنا
عبد الرحمن الناصر
٤٣٦ همم الملوك إذا ما أرادوا ذكرها
أبو الوليد بن زيدون
٤٤٠ خليلي لا فطر يسر ولا أضحي
محيى الدين بن عربى (نقلا عنه)
٤٤١ ديار بأكتاف الملاعب تلمع
منذر بن سعيد البلوطى
٤٥٥ مقالى كجحد السيف وسط المخافل
عبد الملك بن سعيد المرادى
٤٨٦ ملك الخليفة آية الإقبال
جعفر بن عثمان المصحفى
٤٦٣ إلا أن أياماً هفت بإمامها
٥٠٣ أطلع البدر فى سحابه
٥٣٠ صبرت على الأيام لما تولت
٦٩٧ على أمن الأوقات كان ارتحالك
الحكم المستنصر
٥١٢ إلى الله أشكو من شمائل مسرف
٥١٣ عجبت وقد ودعتها كيف لم أمت

صفحة

٥٣١

أبني أمية أين أقمار الدجى

٥٣٦

أليس من العجائب أن مثلى

٥٣٧

اقرب الوعد وحن الهلاك

٥٥٢

أبو العلا صاعد بن حسن البغدادي

يا حرز كل مخوف وأمان كل

٥٦٣

جددت شكرى للهوى المتجدد

٥٥٧

أبو عمر بن دراج القسطلي

هل الملك يملك ريب المنون

٥٥٨

لك الله بالنصر العزيز كفيل

٥٦١

اليوم أنكص أبلّيس على عقبه

٦١٠

بدا ريح السعد واستقبل النجح

٦٢١

إن كان وجه الربيع مبتسما

٦٢٩

هو البدر في فلك الحمد دارا

٥٦٦

ما نقش على قبر المنصور

آثاره تنبيك عن أخباره

٥٧٥

عمرو بن أبي الحباب

لا يوم كاليوم من أيامك الأول

٥٨١

المنصور بن أبي عامر

رميت بنفسى هول كل عظيمة

٥٨١

منع العين أن تذوق المناما

٦٢١

زمان جديد وصنع جديد

٦٢٨

ابن أبي يزيد المصري

إن ابن ذكوان وابن برد

صفحة

- سليمان المستعين
٦٥٤ عجباً يهاب الليث حد سناني
عبد الرحمن بن مقانا
٦٧٣ اليرق لائح من أندرين
عبد الملك بن جهور
٦٩٨ إن كانت الأبدان نائمة
محمد بن هانيء الإشبيلي
٧٠٠ رأيت بعبي فوق ما كنت أسمع
طاهر بن محمد البغدادي
٧٠١ متى أشكر النعمى التي هي جنتي
محمد بن مطرف بن شخيص
٧٠٢ بأيمن إقبال وأسعد طائر
٧٠٢ فهل من شفيح عند ليلي إلى الكرى
محمد بن الحسين التميمي الطنبلي
٧٠٢ بخلت بجوهر لفظها أن يلقطا
يحيى بن هذيل
٧٠٢ لم يرحلوا إلا وفوق رحالهم
يوسف بن هارون الرمادي
٧٠٣ لا تنكروا غزر الدموع فكل ما

فهرست الأعلام الجغرافية والتاريخية الأندلسية
ومقابلها الإفرنجي

Alava	ألبّة	Aquitaine	أكوتين
	ألبّة والقلاع		بلاد أرغن . أرغن . الثغر الأعلى
Álava et Castella Vetula		Aragon	
Albacete	البسيط	Astorga	أستورقة
	شتمرية الشرق	Asturias	أشتوريش
Albarracin		Avenpace	ابن باجة
	شتمرية ابن رزين	Avignon	صخرة أبنون
Alcacer do Sal	قصر أبي دانس	Avila	آبالّة
Alcalá de Henares	قلعة النهر	Badajoz	بطليوس
Alcántra	القنطرة	Baeza	يباسة
Alcázar	القصر	Baleares	الجزائر الشرقية
Alfonso Raimundez		Barcelona	برشلونة — برشونة
	أدفنش بن رمند	Beja	باجة
Algarve	كورة الغرب	Berbastro	بربشتر
Algeciras	الجزيرة الخضراء	Bermudo	برمند
Alicante	لقنت		بسكونية — بسكونس
Almeria	ألمرية	Bicsay - Viscaya	
Almodavar	المدور	Bobastro	ببشتر
Almodavar del Rio	حصن المدور	Burgos	برغش
Almoravides	المرابطون	Cabra	قبرة
Almunecar	المنكب	Calahorra	قلهرة
Alphonso - Alfonso		Calatayud	قلعة أيوب
	أدفنش ، أدفنش ، ألفنش	Calatrava	
Alpujurras	البشرات البشرية		
Alpuxarras			

Calatanazor	قلعة النصور	Fernando · Ferdinand	فرذند
Carcassone	قرقشونة	Fernan Gonzales	فرنان غنصالص
Carmona	قرمونة	Froila	فرويلة
Carthage	قرطاجنة القديمة	La Frontera	ألفرنتره
Cartagena	قرطاجنة الأندلس	Galicia	جليقية
Castellon	قسطلونة	Garcia	غرسية
Castile— Castilla	قشتالة	Gaule	غاليس
Catalonia	قطلونية	Gerona	جيرندة
Cataluna	قطلونية	Gilbraltar	جبل طارق — جبل الفتح
Cardegna— Cerdana	شرطانية	Goths— Godos	القوط — الغوط
Ceuta	سبتة	Granada	غرناطة
Charlemagne	قارله — شارلمان	Gregorius	جرجر
Karl— Charles	قارله — شارلمان	Guadalajara	وادي الحجارة
Cintra	شنترة	Guadalete	وادي لكه
Colmbra	قلمرية — قلنبرية	Guadalquivir	الوادي الكبير — النهر الأعظم
Cordova Córdoba	قرطبة	Guadarrama	وادي الرملة
Coria	قورية	Guadiana	وادي يانة — وادي أنة
Corsica	قورسقة	Guadix	وادي آش
Cuenca	قونقة — كونكة	Huesca	وشقة
Daroça	دروقة	Ivica-Ibiza	جزيرة يابسة
Denia	دانية	Jaca	چاقا
Duero · Douro	نهر دويرة	Jaen	جيان
Ebro	نهر إبره	Jódar	شوذر
Ecija	إستجة	Lamigo	لميقة
Elvira	إلبيرة	Lausitania	الرتغال القديمة
Evora	يابة — يافورة	León	ليون (جليقية)
Favila	فاقلة		

Lerida	لاردة	Navarra	بلاد البشكنس — نبرة
Lisbon-Lisboa	أشبونة — لشبونة	Niebla	لبلة
Lombardy	بلاد اللنبرد — أنكبردية	Normans	الأردمانيون — المحوس
Lopez	لب	Ocsonoba	أكشونبة
Lorca	لورقة	Orelius	أورالى
Lugo	لوك	Oria	أوروية
Lyon	لوذون — لوطون	Orihuela	أوريولة
Madelin	حصن مادلين	Pallares	بليارش
Magerit	مجريط	Pamplona	بندلونة
Majorca-Mallorca	جزيرة ميورقة	Pedro	بيطره
Málaga	مالقة	Pelagius-Pelayo	بلاى — بلايو
Martos	مرتش	Priego	باغة
Mauretania	المغرب الأقصى	Pyrenees	جبال البرنيه أو البرت أو البرتات
Medinaceli	مدينة سالم	Pirineos	
Medina-Sidonia	شدونة	Poley	بلاى — بلى
Mérida	ماردة	Rejio	ريه (كورة)
Mertola	مارتلة — ميرتلة	Ramiro	ردمير — رذمير
Minorca	جزيرة منورقة	Ramon Berenguer	رمند
Monzon	منتشون	Rhône	نهر (وادى) رذونة
Montimayor	منتيمور	Roderic	لذريق — رذريق
Montileon	منتلون	Roncesvall es	باب شزروا — باب الشزرى
Morón	مورور	Ronda	رندة
Mozárabes	المستعربون أو النصارى المعاهدون	Rueda	حصن روطة
Mula	مولة	Salmanca	شلمنقة
Murcia	مرسية	Sancho	شانجه
Narbonne	أربونة	San Esteban	شنت إشتين
		Santa Maria de Algarve	شنت مارية الغرب

Santarein-Santarem	شنترين	Toulouse	تولوشة
Santaver	شنت برية	Trujillo	تَرَجَالُه
Santiago	شنت ياقب	Tudela	تُطِيلَة
Saragossa-Zaragoza	سرقسطة	Tudmir	تدمير
Sardegna	جزيرة سردانية	Ubeda	أبْدَة
Sicilia	صقلية	Urgel	أرقلَة
Ségovia	شقوقية	Vacasorra	بقسرة
Seville-Sevilla	إشبيلية	Valencia	بلنسية
Sierra de Almaden	جبال البرانس	Valtierra	بالتيرة
Sierra Morena	جبل الشارات	Valladolid	بلد الوليد
Sierra Nevada	جبل شلير - جبل الثلج	Viguera	بقمرة
Tagus-Tajo	نهر التاجه أو التاجو	Villanueva	بلدة نوبه
Tanger — Tangier	طنجة	Viseu	بازو
Tarifa	جزيرة طريف - طريف	Xativa-Jativa	شاطبة
Tarragona	طركونة	Xenil-Genil	نهر شنيل
Toledo	طليطلة	Xeres-Jerez	شريش
Torrox	طرش	Xecunda	شقندة
Tortosa	طارطوشة	Zamora	سمورة

فهرست الموضوعات
(للقسم الثاني من الكتاب)

الكتاب الثاني

الدولة الأموية في الأندلس

القسم الثالث - عبد الرحمن الناصر وقيام الخلافة الأندلسية

- الفصل الأول : ولاية عبد الرحمن الناصر وقيام الخلافة الأندلسية... ٣٧٢
الفصل الثاني : خلال الناصر وما أثره... ٤٣٥
الفصل الثالث : غزوات المسلمين في غاليس وشمال إيطاليا وسويسره... ٤٦٤

الكتاب الثاني

الدولة الأموية في الأندلس

القسم الرابع - ربيع الخلافة الأندلسية

- الفصل الأول : الحكم المستنصر بالله... ٤٨٢
الفصل الثاني : هشام المؤيد بالله... ٥١٧

الكتاب الثالث

الدولة العامرية

- الفصل الأول : الحاجب المنصور... ٥٣٤
الفصل الثاني : خلال المنصور وما أثره... ٥٦٨
الفصل الثالث : الممالك النصرانية الإسبانية خلال القرن العاشر الميلادي... ٥٨٨
١ - نشأة مملكة قشتالة... ٥٩٠
٢ - مملكة ليون... ٥٩٢
٣ - مملكة نافار... ٥٩٩

صفحة

- ٤ - عناصر المجتمع في اسبانيا النصرانية... .. ٦٠١
٥ - تنظيم الساطات السياسية ٦٠٣
الفصل الرابع : عبد الملك المظفر بالله. ٦٠٧
الفصل الخامس : عبد الرحمن بن المنصور وسقوط الدولة العامرية ... ٦٢٢

الكتاب الرابع

سقوط الخلافة الأندلسية ودولة بني حمود

- الفصل الأول : الخلافة في معترك الفتنة والفوضى... .. ٦٤٢
الفصل الثاني : دولة بني حمود. ٦٥٦

الكتاب الخامس

النظم الإدارية والحركة الفكرية

في عصرى الإمارة والخلافة

الفصل الأول : النظم الدستورية والعسكرية الاقتصادية في عصرى

- الإمارة والخلافة ٦٨٠
الفصل الثاني : الحركة الفكرية الأندلسية في عصرى الإمارة والخلافة... ٦٩١

وثائق تاريخية

- ١ - كتاب الناصر بشأن فتنة ابن مسرة... .. ٧٠٨
٢ - كتاب الناصر عن موقعة الخندق ٧١١
ثبت المراجع ٧١٥
فهرست الوثائق التاريخية ٧٢٠
فهرست الشعر والشعراء ٧٢١
فهرست الأعلام الجغرافية والتاريخية الأندلسية ٧٢٦

فهرست الخرائط

- ١ - خريطة قرطبة الإسلامية ٤٤٩
٢ - الممالك الإسبانية النصرانية في القرن الحادى عشر الميلادى ... ٥٩٥

فهرست الكتب

الرواية - الروايات اللاتينية - ١٦٩ ، ١٧٢ ، ١٧٤ ، ١٧٥ ، ١٧٧ ، ١٧٨ ، ١٨٠ ، ١٨٣
 صفة قرطبة وخطتها و منازل الأعيان فيها ، لأحد
 ابن موسى الرازي ؛ ٧٠٠
 العقد الفريد ، لأبي عمر بن عبد ربه ؛ ٢٢٤ ،
 ٣١٥ ، ٣٢١ ، ٣٥١ ، ٦٩٥ ، ٦٩٦ ، ٧٠٠
 كتاب الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني - ٥٠٥
 كتاب الحشائش الطبية ، لديستوريدس - ٤٢٣ ،
 ٤٥٤
 كتاب الحكم المستنصر في الأنساب - ٥٠٤
 كتاب الظير ليوسف بن هارون الرمادي ؛ ٧٠٣
 كتاب «الفصوص» في الآداب والأشعار والأخبار
 لصاعد بن الحسن البغدادي ؛ ٥٧٩ ، ٥٨٠ ،
 ٧٠٤
 كتاب في فضائل الصحابة لعبد الرحمن بن فطيس ؛
 ٧٠٥
 كتاب قصة قرطبة ، لابي عبد الله الحشني ؛ ٥٠٥
 المآثر العامية ، أو أخبار الدولة العامرية ،
 لابن حيان ؛ ٥٧١ ، ٥٧٧
 مختصر ابن عبد الحكم ، للقاضي الأبهري ؛ ٦٠٥
 لحن النامة لأبي بكر الزبيدي ؛ ٧٠٣
 مسند النبي لابي بن مخلد ؛ ٦٩٤
 مسند حديث محمد بن فطيس ؛ ٧٠٥
 المنتخب في روايات مذهب مالك لمحمد بن عمر بن
 لبابة ؛ ٦٩٦
 مطمح الأنفس للفتح بن خاقان ؛ ٥٠٤
 المقتبس في تاريخ رجال الأندلس ، لابن حيان ؛
 ٧ ، ٨ ، ٤١٥ ، ٥١١ ، ٥٧١ ، ٦٩٦ ،
 ٦٩٩
 منظومة الشاعر سوذي عن رددريك ؛ ٩٧
 موطأ مالك ؛ ٢٢٩
 نزهة المشتاق ، في اختراق الآفاق ، للإدرسي ؛
 ٤٨
 نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب - ٩ ، ١٠ ،
 الواضح لأبي بكر الزبيدي ؛ ٧٠٣

الإحاطة في أخبار غرناطة ، لابن الخطيب ؛ ٩
 أخبار كورة البيرة لمطرف بن عيسى النسائي ؛
 ٥٠٥
 أخبار ملوك الأندلس وخدماتهم و غزواتهم و نكباتهم
 لأحمد بن موسى الرازي ؛ ٧٠٠
 أخبار النحويين لأبي بكر الزبيدي ؛ ٧٠٣
 أسباب نزول القرآن لعبد الرحمن بن فطيس ؛
 ٧٠٥
 الاستظهار المغالبة ، على من أنكر فضل الصقالبة ؛
 ٥٧٩
 الإستيعاب في أنساب أهل الأندلس لأحمد بن موسى
 الرازي ؛ ٧٠٠
 أعلام النبوة ودلالات الرسالة ، لعبد الرحمن بن
 فطيس ؛ ٧٠٥
 أعمال الأعلام لابن الخطيب - ٩ ، ٤١٩
 الإمامة والسياسة لابن قتيبة الدينوري - ٢٤
 أنساب بني أمية لأبي الفرج الأصفهاني ؛ ٥٠٥
 أنشودة رولان ؛ ١٧٨ ، ١٨١ ، ١٨٢
 البيان المغرب لابن عذارى المراكشي ؛ ٩ ، ٨٥ ،
 ٥١١ ، ٥٧٨ ، ٦١٣ ، ٦٢٠ ، ٦٦١
 تاريخ افتتاح الأندلس لابن القوطية ؛ ٧٠١
 تاريخ الأندلس لأحمد بن موسى العروى ؛ ٧٠١
 تاريخ أوريوسوس ؛ ٤٥٣ ، ٤٥٤
 تاريخ ألفونسو الحكيم ؛ ٤١٩
 تاريخ الله اري المعاهدين للمستشرق سيمونيت ؛
 ٢٦٨ ، ٣٨٣
 تفسير القرآن لابي بن مخلد ؛ ٦٩٤
 جهرة أنساب العرب ، لابن حزم القرطبي ؛
 ٥٠٤
 الجوامع - حروب الإسلام - غريب الحديث -
 فضائل الصحابة - طبقات الفقهاء والمحدثين -
 مصابيح الهدى - الواضحة ؛ لعبد الله بن
 حبيب السلمي ؛ ٦٩٢
 اللخيرة في اسن أهل الجزيرة ، لابن بسام ؛
 ٩ ، ٦٢٠ ، ٦٩٥
 رواية إيزيدور الباجي ؛ ٣٤ ، ٦٣ ، ٧٦ ،
 ٨٢ ، ٢٠٩

بنو حفصون ؟ ٣٢٠
 بنو حمدان ؟ ٤٤٧
 بنو حود ؟ ٦٧٣ ، ٦٥٤ ، ٦٧٤ ، ٦٧٦ ، ٦٨٣
 بنو خزر ؟ ٤٩٤ ، ٤٩٣
 بنو خلدون ؟ ٣٣٢ ، ٣٣١
 بنو دانس ؟ ٣٠٥
 بنو دمر ؟ ٦٥٤
 بنو ذو النون ؟ ٣٠٧ ، ٣٣٩ ، ٣٤٠ ، ٣٩٠
 ٤٣٦ ، ٤٠٠ ، ٣٩٨
 بنو رزين ؟ ٤٢٦
 بنو رسم ؟ ٣١٤
 بنو زروال ؟ ٤٢٦
 بنو شويط (بنو الطويل) ؟ ٣١٩ ، ٣٤٢ ، ٤٢٦
 بنو شهيد ؟ ٢٠٥ ، ٣١٢ ، ٣١٨ ، ٥٧٤ ، ٦١٨
 بنو عامر ؟ ٦٣٠ ، ٦٣٢ ، ٦٣٤ ، ٦٣٩
 ٦٤٣ ، ٦٤٩ ، ٦٥١ ، ٦٦٠ ، ٦٨٣
 بنو العباس ؟ ١٣٠ ، ١٤٦ ، ١٤٨ ، ١٥٠
 ١٦٢ ، ١٨٥ ، ١٩٧ ، ٢٢٩ ، ٣١٤
 ٣١٨ ، ٤٢٩ ، ٦٨٣
 بنو عصام ؟ ٤٢٥
 بنو عمروس ؟ ٣٠١ ، ٣١٩
 بنو عمريث بن تيمعات ؟ ٤٩٩
 بنو غزوال ؟ ٤٢٦
 بنو غومس ؟ ٥٦٢ ، ٦١١ ، ٦١٢ ، ٦٣٦
 بنو فطيس ؟ ٥٧٤ ، ٦١٨
 بنو قسي ؟ ٢٣٨ ، ٢٥٦ ، ٣٠٠ ، ٣٠٢
 ٣١٤ ، ٣١٩ ، ٣٣٦ ، ٣٣٧ ، ٣٤٠
 ٣٤١ - ٣٤٣ ، ٣٤٦ ، ٣٥٧ ، ٣٥٩
 ٣٦٠ ، ٣٦٣ ، ٤٦٧ ، ٥٤٥
 بنو كلاب ؟ ١٣٥
 بنو كنانة ؟ ٦٨
 بنو لحم ؟ انظر لحم
 بنو مدرار ؟ ٣١٤
 بنو مطروح ؟ ٣٢٠
 بنو مغيث ؟ ٢٠٥
 بنو المنذر ؟ ٦٨
 بنو هاشم التميميون ؟ ٣٤٠ ، ٣٤١ ، ٣٩٩
 ٤٠٥ ، ٤٠٦ ، ٤٠٨ ، ٤١٢ ، ٤٢٦
 ٥٥٠ ، ٥٤٩

البريطانيون ؟ ١٠٩
 اليشكنس ؟ ٨٣ ، ١٣٣ ، ١٤٦ ، ١٧٣ ، ١٧٨
 ١٨٠ ، ١٨٢ ، ٢١٤ ، ٢١٨
 ٢٢٠ ، ٢٢٦ ، ٢٣٥ ، ٢٤٢ ، ٢٥٦
 ٢٦٠ ، ٢٦٦ ، ٢٥٤ ، ٣٥٥
 ٣٥٧ ، ٣٦١ ، ٣٦٢ ، ٤٠٥ ، ٤٠٨
 ٥٠١ ، ٥٣٩ ، ٥٤٧ ، ٥٤٨ ، ٥٩١
 البلديون ؟ ٦٧ ، ١٢٤ ، ١٢٥ ، ٢٠٤ ، ٦٨١ ، وانظر المولدون
 البيزنطيون ؟ ٢٤٥ ، ٤٥٦
 بنو أبي عبدة ؟ ٢٠٥ ، ٣١٢ ، ٣٣١ ، ٣٣٢ ، ٣٤٧ ، ٥٧٤
 بنو أسد ؟ ٦٨
 بنو إسرائيل ، انظر اليهود
 بنو أمية ؟ ٦٩ ، ١٣٠ ، ١٣٦ ، ١٤٠ ، ١٤١
 ١٤٣ - ١٤٦ ، ١٤٨ - ١٥١ ، ١٥٣
 ١٦١ ، ١٦٢ ، ١٧٠ ، ١٨٦ ، ١٨٩
 ١٩٤ ، ١٩٦ - ٢٠٠ ، ٢٠٢
 ٢٠٤ ، ٢٠٥ ، ٢٣٦ ، ٢٤٨
 ٢٧٥ ، ٢٨٢ ، ٢٨٩ ، ٢٩١ ، ٣٠٧
 ٣١٠ ، ٣٢٢ ، ٣٢٨ ، ٣٢٩ ، ٣٤٤
 ٣٤٧ ، ٣٥٠ ، ٣٧٣ ، ٣٨٣ ، ٤٢٨
 ٤٢٩ ، ٤٣٠ ، ٤٣٩ ، ٤٤٠ ، ٤٨٢
 ٤٩٢ ، ٤٩٣ ، ٤٩٤ ، ٤٩٦ ، ٥٠٥
 ٥٠٨ ، ٥٠٩ ، ٥٣١ ، ٥٤٤ ، ٥٥١
 ٥٥٥ ، ٥٨٢ ، ٥٨٣ ، ٦٠٦
 ٦١٣ ، ٦١٨ ، ٦١٩ ، ٦٢٥ ، ٦٢٨
 ٦٣٣ ، ٦٤٣ ، ٦٤٥ ، ٦٤٦ ، ٦٥٧
 ٦٥٨ ، ٦٦٠ ، ٦٦١ ، ٦٦٤ ، ٦٦٦
 ٦٦٨ ، ٦٦٩ ، ٦٨١ - ٦٨٦ ، ٦٩١
 بنو برزأل ؟ ٥٠١ ، ٥١٨ ، ٥٢٦ ، ٦٥٤ ، ٦٧٠
 بنو بسيل ؟ ٢٠٥
 بنو نجيب ؟ انظر بنو هاشم
 بنو جفنة ؟ ٦٨
 بنو الخليلق ؟ ٣٠٤ ، ٣٣٩ ، ٣٨٩
 بنو جهور ؟ ٢٠٥ ، ٥٧٤
 بنو حجاج ؟ ٣٣١ - ٣٣٣ ، ٣٧٦ ، ٣٧٧
 بنو حذير ؟ ٦١٨ ، ٥٧٤

ف - ق - ك

الفاطميون ؛ ٤٠١ ، ٤٠٩ ، ٤٢٥ - ٤٢٧ ، ٤٨٨ ، ٤٩٢ ، ٥٤٤ ، ٥٤٦

الفتيان الصقالبة (والعامريون) ؛ ٣٤٨ ، ٤٣٩ ، ٦١٦ ، ٦١٨ ، ٦٣٧ ، ٦٤٣ ، ٦٤٤ ، ٦٤٧ ، ٦٤٩ ، ٦٥٠ ، ٦٥٤ ، ٦٥٨ ، ٦٦٢ ، ٦٧٧ ، ٦٨٣ ، ٦٨٥

الفرس ؛ ٦٨ ، ٧٠

الفروسية الأندلسية ؛ ٢٧٤

الفرنج ؛ ٢٩ ، ٥٣ ، ٦٣ ، ٧٦

٨٣ ، ٨٩ ، ٩٣ - ٩٦ ، ٩٨

١٠٤ ، ١٠٦ - ١٠٨ ، ١١٠ ، ١١٣

١١٦ ، ١٣٣ ، ١٣٦ ، ١٣٧ ، ١٤٧

١٥٥ ، ١٧٠ - ١٧٦ ، ١٧٨ ، ١٨٠

١٨٢ ، ١٨٣ ، ١٨٦ ، ٢٠٥ ، ٢٠٩

٢١٢ ، ٢٢٦ ، ٢٣٢ ، ٢٣٣ ، ٢٣٥

٢٣٦ ، ٢٤٠ ، ٢٤١ ، ٢٥٦ ، ٢٥٧

٢٥٩ ، ٣٦١ ، ٤٠٤ ، ٤٠٦ ، ٤٦٤

٤٦٥ ، ٥٤٣ ، ٦٤٨ ، ٦٨٧

الفرنسيون ؛ ٤٥٠ ، ٥٤٨

الفهرية ؛ ١٥٣ ، ١٥٤ ، ١٦٢ ، ١٨٦

١٩٠ ، ١٩١

الفيكنج ؛ ٢٦١

القرامطة ؛ ٥٤٤

قريش ؛ ٦٨ ، ٦٢٦ ، ٦٢٨ ، ٦٣١ ، ٦٤٥

القتشاليون ؛ ٤٨٧ ، ٥٠٠ ، ٥٠١ ، ٥٢٧

٥٦٥ ، ٥٩٨

قضاة ؛ ٦٨

القبوط ؛ ٢١ ، ٢٦ - ٢٩ ، ٣١ ، ٣٣

٣٥ ، ٤١ ، ٤٢ ، ٤٤ - ٤٧ ، ٤٩

٥١ - ٥٣ ، ٥٤ ، ٦٥ ، ٧٥

٧٨ ، ٨١ ، ٨٢ ، ٨٣ ، ٨٩ ، ٩٤

١١٦ ، ١٢٦ ، ١٣٢ ، ١٣٣ ، ١٣٧

١٧٣ ، ٢٠٩ ، ٢٢١ ، ٢٣٧ - ٢٣٩

٢٣٩ ، ٢٦٠ ، ٢٦٨ ، ٢٩٥ ، ٥١٥

٦٠١ ، ٦٠٢ ، ٦٨٩

القميسية ؛ ١٥٣ ، ١٥٤ ، ١٩٠

كتابة ؛ ٣٣٩ ، ٤٩٧

٢٨٩ ، ٢٩٠ ، ٣١٢ ، ٤١٣ ، ٤٤٨

٤٥٠ ، ٤٥١ ، ٤٥٦ ، ٤٥٨ ، ٤٦١

٤٨٣ ، ٤٩٨ ، ٥١٤ ، ٥١٧ ، ٥١٨

٥٢٤ ، ٥٢٦ ، ٥٢٧ ، ٥٣١ ، ٥٣٦

٥٥٦ ، ٥٦٩ ، ٥٧٩ ، ٥٨٤ ، ٦١٨

٦٢٢ ، ٦٣٠ ، ٦٣٢ ، ٦٤٣ ، ٦٨٥

الصليبيون ؛ ٤٧٩

صنهاجة ؛ ٢٥ ، ٤٩٣ ، ٤٩٤ ، ٥٣١

٥٥٧ ، ٥٥٨ ، ٦٤٤ ، ٦٥٤ ، ٦٦٠

٦٦٢ ، ٦٧١

الطوائف ، ملوك ودول ؛ ٢٠٥ ، ٢٨١

٣٠٧ ، ٣٤٠ ، ٤٧٥ ، ٥١٦ ، ٦٧٧

٦٨٣ ، ٦٨٦ ، ٧٠٤

العبيديون ؛ أنظر الفاطميون

العجم ؛ ٦٨

المراقيون ؛ ٧٠

المغرب ؛ ١٤ - ١٦ ، ٢٠ - ٢٢ ، ٢٥ - ٢٧

٣٣ - ٣٨ ، ٤٠ ، ٤١ ، ٤٧ - ٤٩

٥٢ - ٥٤ ، ٦٠ ، ٦٢ ، ٦٣ - ٦٩

٧١ ، ٧٣ ، ٧٦ ، ٧٧ ، ٨١ ، ٨٧

٨٨ ، ٩١ ، ٩٢ ، ٩٤ ، ٩٥ ، ٩٦

٩٨ ، ٩٩ ، ١٠١ - ١٠٣ ، ١٠٥

١٠٩ - ١١١ ، ١١٤ ، ١١٩ - ١٢١

١٢٣ ، ١٢٥ ، ١٣٣ ، ١٣٥ ، ١٤٢

١٥٨ ، ١٦٤ ، ١٦٦ ، ١٧١ ، ١٧٢

١٧٧ ، ١٨١ ، ١٩٤ ، ١٩٨ ، ٢٠٣

٢٠٦ ، ٢٠٨ ، ٢١٢ ، ٢٢٧ ، ٢٣٠

٢٣٨ ، ٢٤٩ ، ٢٦٩ ، ٢٧١ ، ٢٩٢

٣١٩ ، ٣٢٣ ، ٣٢٨ ، ٣٢٩ ، ٣٣١

٣٣٢ ، ٣٣٥ ، ٣٤٤ ، ٣٧٦ ، ٣٨٢

٣٩١ ، ٤٢٩ ، ٤٤٨ ، ٤٥١ ، ٤٥٤

٤٦٤ ، ٤٦٩ ، ٤٧٣ ، ٤٧٤ ، ٤٧٧

٤٧٨ ، ٤٧٩ ، ٤٨٢ ، ٥٠٤ ، ٥٠٧

٥٠٨ ، ٥٣١ ، ٦٦٠ ، ٦٨٤ ، ٦٨٦

٦٩٦ ، ٦٨٧

الغاليون ؛ ٩٥ ، ١٠٩

غسان ؛ ٦٨

الغسقونيون ؛ ٢٦٦

غطفان ؛ ٦٨

غمارة ، قبيلة ؛ ٤٩٦ ، ٥٥٧

١٢٨ ، ١٣٠ ، ١٣٥ ، ١٤٤ ، ١٥٣ ،
 ١٥٧ ، ٢٠٤ ، ٢٢٥ ، ٢٥٥ ، ٢٦٠ ،
 ٦٨١ ، ٦٣١
 المعترزة ؛ ٤٣١
 منراوة ، قبيلة ؛ ٥٥٥ - ٥٤٧ ، ٥٥٨ ،
 ٦٥٤ ، ٦٠٩
 مكناسة ، قبيلة ؛ ٢٠٥
 ملكة أراجون ؛ ٢٣٦ ، ٥٤٤
 ملكة آرل ؛ ٤٦٨
 المملكة الإسبانية النصرانية ؛ ٢٠٨ ، ٨٣ ، ٥٥ ،
 ٢٠٩ ، ٢١٣ ، ٢١٥ - ٢٢٠ ، ٢٢٢ ،
 ٢٣٦ ، ٢٦١ ، ٣٥٣ - ٣٥٨ ، ٣٦٠ -
 ٤٦٥ ، ٣٦٢
 ملكة أشتوريش ؛ ٣٦١
 ملكة أكوطين ؛ ٢٠٩
 ملكة جلميقية ؛ ١٧٣ ، ٢٠٩ ، ٢١٥ ، ٢١٦ ،
 ٢١٨ ، ٣١١ ، ٣٥٤ ، ٣٥٧ ، ٣٨٨
 ملكة غرناطة البربرية ؛ ٢٠٦
 ملكة الفرنج ؛ ٥٣ ، ٥٤ ، ٥٤ ، ٧٧ ، ٧٨ ، ٨٠ ،
 ٩٣ ، ٩٥ ، ٩٦ ، ١٧١ ، ١٨٣ ، ٢٠٩ ،
 ٢٣٤ ، ٣٦١ ، ٤٥١ ، ٤٦٥ ، ٦٨٠ ،
 المملكة القوطية ؛ ٣٠ ، ٦٤ ، ٦٥ ، ٧٢ ،
 ٧٤ ، ٧٤ ، ٧٤
 ملكة ليون ؛ ٢٦١ ، ٢٨٥ ، ٣٠٣ ، ٣٦١ ،
 ٣٦٢ ، ٣٩١ ، ٣٩٤ ، ٣٩٥ ، ٤١٣ ،
 ٤٨٤ ، ٤٨٩ ، ٥٢٩ ، ٥٤١ ، ٥٤٣ ،
 ٥٤٨ ، ٥٨٨ ، ٥٩٠ ، ٥٩٢ ، ٥٩٣ ،
 ٥٩٤ ، ٥٩٦ ، ٥٩٨ ، ٦١١ ، ٦١٢ ،
 ٦٢٩
 ملكة نافار (نبره) ؛ ٣٦٢ ، ٣٦٣ ، ٣٩١ ،
 ٦٠٠ ، ٥٩٩
 الموالي ؛ ١٢١ ، ١٩٨ ، ٢٠٤ ، ٢٠٥ ،
 ٢٤٩ ، ٢٧٩ ، ٣٢٨ ، ٤٤٨ ، ٤٥٠ ،
 ٤٦١ ، ٥١٤ ، ٦٨٤ ، ٦٨٧
 المولدون ؛ ٦٧ ، ٢٠٣ ، ٢٠٦ ، ٢٣٠ ،
 ٢٣٩ ، ٢٤٣ ، ٢٦٠ ، ٢٦٩ ، ٢٩٢ ،
 ٢٩٤ ، ٣٠٠ ، ٣٠٤ ، ٣٠٥ ، ٣٠٨ ،
 ٣١٩ ، ٣٢٣ ، ٣٢٨ - ٣٢٢ ، ٣٢٢ ،
 ٣٣٥ ، ٣٤٢ ، ٣٥٦ ، ٣٧٦ ، ٣٧٧ ،

الكرسي الرسولي ؛ ٣٥٩
 الكلاميون ؛ ٤٣١

ل - ي

لحم ؛ ٢٣ ، ٢٧ ، ١٢٣ ، ٣٣١ ،
 اللومبارد ؛ ١١٦ ، ١٧٣ ، ٤٥٠ ،
 الحجر ؛ ٤٧١ ، ٤٧٩ ،
 الحجوس ؛ انظر النورمان
 مدغرة ، قبيلة ؛ ٢٠٥
 مديونة ، قبيلة ؛ ٢٠٥
 المروانية ؛ انظر بنو أمية
 المستعربون ؛ انظر النصراني المعاهدون
 المسلمون ؛ ١٦ ، ٢١ ، ٢٢ ، ٣٩ ، ٤٢ ،
 ٤٧ ، ٥٠ ، ٥١ ، ٥٢ ، ٥٤ ، ٦٢ ،
 ٦٦ ، ٦٧ ، ٧١ - ٧٥ ، ٨٠ - ٨٣ ،
 ٨٦ ، ٨٩ ، ٩٦ ، ١٠٠ ، ١٠١ ، ١٠٣ -
 ١٠٨ ، ١١٤ - ١١٦ ، ١٣٣ ، ١٣٤ ،
 ١٣٦ ، ١٣٨ ، ١٧٠ ، ١٧٣ ، ١٧٦ -
 ١٧٨ ، ١٨٠ ، ١٨٢ ، ١٨٣ ، ٢٠٥ ،
 ٢١٠ - ٢١٦ ، ٢١٨ ، ٢١٩ ، ٢٢١ ،
 ٢٢٧ ، ٢٢٩ ، ٢٣٢ ، ٢٣٣ ، ٢٤٠ -
 ٢٤٢ ، ٢٤٥ ، ٢٦٠ ، ٢٦٣ ، ٢٦٤ ،
 ٢٦٦ ، ٢٦٨ ، ٢٦٩ ، ٢٩٢ ، ٢٩٦ ،
 ٢٩٨ ، ٢٩٩ ، ٣٠٥ ، ٣٠٦ ، ٣٤٤ ،
 ٣٥٣ ، ٣٥٤ - ٣٥٧ ، ٣٥٩ ، ٣٦١ -
 ٣٦٣ ، ٣٨٣ ، ٣٨٨ ، ٣٩١ - ٤٠١ ،
 ٤٠٣ - ٤٠٦ ، ٤١٢ ، ٤١٤ ، ٤١٦ ،
 ٤١٧ ، ٤١٩ ، ٤٢٠ ، ٤٢٢ ، ٤٢٣ ،
 ٤٦٥ ، ٤٦٨ - ٤٧٤ ، ٤٧٧ ، ٤٧٨ ،
 ٤٨٤ ، ٤٨٦ - ٤٩٠ ، ٤٩٨ ، ٥٠٢ ،
 ٥١٥ ، ٥٢٧ ، ٥٣٩ ، ٥٤٣ ، ٥٤٤ ،
 ٥٤٧ ، ٥٤٨ ، ٥٥٢ ، ٥٦٠ - ٥٦٦ ،
 ٥٦٨ ، ٥٧١ ، ٥٩٠ ، ٥٩٦ ، ٥٩٨ ،
 ٥٩٩ ، ٦١٠ ، ٦١٢ ، ٦١٣ ، ٦١٦ ،
 ٦٢٩ ، ٦٤٨ ، ٦٥١ ، ٦٥٢ ، ٦٨٩
 المصريون ؛ ٧١٤
 مسودة ؛ ٣٥٧ ، ٣٧٦ ، ٣٠٥ ، ٣٣٩ ،
 ٣٩٣
 نصر ، المصرية ؛ ٦٨ ، ٨٥ ، ٤٢٦ ، ١٢٧ ،

٦٨٢ ، ٥٧٠ ، ٥١٥ ، ٣٨٣ ، ٣٨٢
٦٩٥ ، ٦٨٨
النصرانية ؛ ١٧ ، ٢٨ ، ٣١ ، ٣٢ ، ٤٤
١٠٦ ، ١٠١ ، ٩٦ ، ٩٣ ، ٩٢ ، ٦٤
١٧١ ، ١٦٩ ، ١٣٧ ، ١١١ ، ١١٠
٣٠٥ ، ٢٦٧ ، ٢٣٤ ، ٢٢١ ، ٢٠٦
٤٥٩ - ٤٥٧ ، ٤٥٢ ، ٣٨١ ، ٣٣٧
٤٧٤
نفزة ، قبيلة ؛ ١٥٠ ، ٢٠٥ ، ٢٧٦
النورمان ؛ ٢٦١ ، ٢٦٣ ، ٢٦٤ ، ٢٧٧
٢٩٨ - ٢٩٦ ، ٢٨٨ ، ٢٨٤ ، ٢٧٩
٤٨٩ ، ٤٨٨ ، ٤٧٩ ، ٣٥٦ ، ٣٥٥
٦٨٧ ، ٥٩٥
هواره ، قبيلة ؛ ٢٠٥ ، ٣٣٩
هوازن ، قبيلة ؛ ٣٢٩
الطون ؛ ٢٨
الوثنية ؛ ١٧
الوندال ؛ ١٧ ، ١٨ ، ٢٨ ، ٢٩ ، ٦٤ ، ٩٤
يُرب ؛ ٦٨
اليمينية ؛ ٦٧ ، ٦٨ ، ٨٣ ، ١٢٤ ، ١٢٦
١٤٤ ، ١٣٥ ، ١٣٠ ، ١٢٨ ، ١٢٧
١٦٥ ، ١٦٣ ، ١٦٢ ، ١٥٣ - ١٥١
٢٥٥ ، ٢٢٥ ، ٢٠٤ ، ١٩٤ ، ١٦٦
٦٨١ ، ٦٣٢ ، ٣٣١
اليهود ؛ ٣١ ، ٣٢ ، ٥٠ ، ٥١ ، ٦٥
٥١٥ ، ٥٠٦ ، ٢٤٩ ، ٢٢٩ ، ٢٠٦
٦٨٢ ، ٥١٦
اليهودية ؛ ١٧ ، ٣٢

٥١٤ ، ٤٨٢ ، ٤٥٨ ، ٣٨٩ ، ٣٨٢
٥١٥
النفاثيون ؛ ١٧٣ ، ١٧٦ ، ٥٩٣
النصاري ؛ ٢٥ ، ٣٦ ، ٥٠ ، ٥١ ، ٥٤
١٠٥ ، ٨٩ ، ٨٥ ، ٨١ ، ٦٦ ، ٦٢
١٣٦ ، ١٣٥ ، ١٣٣ ، ١٣٢ ، ١١٩
٢٢١ ، ٢١٦ - ٢١١ ، ١٩٨ ، ١٨٧
٢٤٢ ، ٢٣٤ ، ٢٢٩ ، ٢٢٨ ، ٢٢٦
- ٢٧٠ ، ٢٦٩ ، ٢٦٧ ، ٢٥٩ ، ٢٤٩
٢٩٦ ، ٢٩٤ - ٢٩٢ ، ٢٨٨ ، ٢٧٣
٣٠٦ ، ٣٠٥ ، ٣٠٣ ، ٢٩٩ ، ٢٩٨
٣٤٢ ، ٣٣٠ ، ٣٢٨ ، ٣١٦ ، ٣١٠
٣٥٧ ، ٣٥٦ ، ٣٥٤ ، ٣٤٦ ، ٣٤٤
- ٣٩١ ، ٣٨٤ - ٣٨٢ ، ٣٧٩ ، ٣٥٩
٤١٢ ، ٤٠٧ - ٤٠٥ ، ٤٠٣ ، ٤٠٠
٤٢٥ - ٤٢٠ ، ٤١٧ ، ٤١٥ ، ٤١٤
٤٨٢ ، ٤٧٩ ، ٤٧٨ ، ٤٧٤ ، ٤٦٨
- ٥٠٠ ، ٤٩٨ ، ٤٩٠ ، ٤٨٧ ، ٤٨٤
٥٤٠ ، ٥٣٩ ، ٥٢٨ ، ٥٠٦ ، ٥٠٢
٥٦٠ ، ٥٥٩ ، ٥٤٧ ، ٥٤٤ ، ٥٤١
٥٧٣ ، ٥٦٨ ، ٥٦٧ ، ٥٦٥ - ٥٦٣
٦١٦ ، ٦١٣ ، ٥٩٨ ، ٥٩٤ ، ٥٨٩
٦٩٧ ، ٦٨٩ ، ٦٨٢ ، ٦٥١ ، ٦٤٩
نصاري الشمال ؛ ١٩٩ ، ١٩٨ ، ٢٣٩ ، ٢٤١
٦٨٧ ، ٦٨٠ ، ٢٩٥ ، ٢٦١
النصاري الماعدون ؛ ٦٦ ، ١٩٨ ، ٢٠٦
٢٩٥ ، ٢٧٠ - ٢٦٨ ، ٢٣٩ ، ٢٣٨

فهرست البلدان والأماكن

٢٩١ ، ٤٤٢ ، ٤٨٣ ، ٥٦٤ ، ٥٦٨
 ٥٧٢ ، ٥٧٣ ، ٥٧٤ ، ٦٧٦ ، ٦٩٠
 إستبة ؛ ٣٣٧
 إستجة ؛ ٤٩ ، ٧٠ ، ١٣٢ ، ١٦٣ ، ٢٣٣
 ٣١٠ ، ٣١١ ، ٣١٨ ، ٣٢٤ ، ٣٣٥
 ٣٣٦ ، ٣٣٧ ، ٣٧٥
 أسترقه ؛ ٥١ ، ٧٠ ، ١٣٢ ، ١٣٨ ، ٢١٢
 ٢١٤ ، ٢٢٨ ، ٣٥٦ ، ٣٥٨ ، ٣٩١
 ٥٤٢ ، ٥٥٢ ، ٥٦٢ ، ٥٩٨
 أستورياس (أشتوريش) ؛ ٥١ ، ٧٥ ، ٨٣
 ٨٥ ، ١٣٨ ، ٢٠٨ ، ٢١٠ ، ٢١٢
 ٣٥٥ ، ٣٥٦ ، ٣٦٠ ، ٣٦١ ، ٥٦٤
 إسكتلندا ؛ ٩١
 الإسكندرية ؛ ٢٤٥
 إسكندناوة ؛ ٢٨ ، ٢٦٠ ، ٢٨٤
 آسيا الصغرى ؛ ٥٤ ، ٩٢ ، ٩٣
 أشبونة ؛ ٧٠ ، ٧١ ، ١٣٢ ، ٢٤١ ، ٢٤٢
 ٢٦٢ ، ٢٦٣ ، ٣٠٦ ، ٣٥٤ ، ٤٨٨
 إشبيلية ؛ ٣٤ ، ٥٢ ، ٥٦ ، ٧٠ ، ٧١ ، ٧٣
 ١٢٦ ، ١٢٧ ، ١٣٢ ، ١٣٤ ، ١٣٥
 ١٥٣ ، ١٥٨ ، ١٦٠ ، ١٦٦ ، ١٩٤
 ٢٠٠ ، ٢٠٤ ، ٢٠٦ ، ٢٦٣ ، ٢٦٤
 ٢٧٧ ، ٢٨٤ ، ٢٩٦ ، ٣٢٣ ، ٣٣١
 ٣٣٥ ، ٣٣٧ ، ٣٣٩ ، ٣٤٤ ، ٣٤٨
 ٣٤٩ ، ٣٧٦ ، ٣٧٧ ، ٤٨٨ ، ٤٨٩
 ٤٩٧ ، ٥٢٢ ، ٦٦١ ، ٦٦٣ ، ٦٧٠
 ٦٧٢ ، ٦٧٦ ، ٦٨٢ ، ٦٨٣ ، ٦٨٧ ، ٧٠٣
 أشروقة ؛ ٢٨٦
 أصهبان ؛ ١٤٣ ، ١٤٤
 الأصنام ؛ ١٢٠
 أصيلا ؛ ٤٢٦ ، ٤٩٥ ، ٦٥٤ ، ٦٥٨
 إفريقية ؛ ١٥ ، ٢٠ ، ٢٢ ، ٢٧ ، ٣٨
 ٣٩ ، ٥٩ ، ٦٩ ، ٧٤ ، ٨٢ ، ٨٣
 ٩٣ ، ١٠٦ ، ١٠٧ ، ١١٧ ، ١٢٣
 ١٢٦ ، ١٢٨ ، ١٣٠ ، ١٣٤ ، ١٤٠

— ١ —

أبدة ؛ ٣٨٣ ، ٣٨٤
 آيلة ؛ ٢١٥
 ابنيونش ؛ ٦١٢
 أجدة ؛ ٧٠ ، ١١٥ ، ١٣٣
 أراجون ؛ ٥٩١ ، وانظر الثغر الأعلى
 أربونة ؛ ٥٣ ، ٧٠ ، ٧٤ ، ٧٥ ، ٨٢
 ١٠٤ ، ١٠٥ ، ١١٤ ، ١١٦ ، ١٢٤
 ١٢٦ ، ١٣٣ ، ١٣٤ ، ١٣٦ ، ١٣٧
 ١٧٠ ، ١٨٧ ، ٢١٤ ، ٢١٥ ، ٢٢٧
 ٢٥٠ ، ٤٦٤ ، ٤٧٤
 الأردن ؛ ١٢٦
 أوشدونة ؛ ٣١٨ ، ٣٢٠ ، ٣٢٤ ، ٣٣٦
 أرقلة ؛ ٧٠ ، ١٣٣
 أركش ؛ ٦٧٥
 آرل ؛ ٩٠ ، ١١٤ ، ١١٦ ، ٢٩٧ ، ٤٦٦
 أرملاط ؛ ٤١٦ ، ٦٣٧ ، ٦٤٥ ، ٦٤٦
 إسبانيا ؛ ١٧ ، ٢١ ، ٢٦ ، ٣٩ ، ٤٦
 ٥١ — ٥٥ ، ٥٩ ، ٦٣ ، ٦٤ ، ٦٩
 ٧٠ ، ٧٢ ، ٨٣ ، ٩٣ ، ٩٦ ، ١٠٢
 ١٠٩ ، ١١٠ ، ١١٣ ، ١١٧ ، ١٢٣
 ١٣٢ ، ١٣٣ ، ١٣٨ ، ١٤٠ ، ١٥٥
 ١٧٠ ، ١٧٢ ، ١٧٣ ، ١٧٦ ، ١٨١
 ١٨٦ — ١٨٨ ، ١٩١ ، ١٩٤ ، ٢٠٧
 ٢٠٩ ، ٢٢٠ ، ٢٢١ ، ٢٢٧ ، ٢٣٤
 ٢٣٥ ، ٢٣٨ ، ٢٦٢ ، ٢٩٠ ، ٣٥٣
 ٣٧٩ ، ٣٨٢ ، ٣٨٣ ، ٣٩١ ، ٤١٤
 ٤٢٢ — ٤٢٤ ، ٤٣٥ ، ٤٤٦ ، ٤٦٩
 ٤٧٧ ، ٤٧٨ ، ٤٨٩ ، ٤٩١ ، ٥٠٨
 ٥٤٤ ، ٥٥٩ ، ٥٦١ ، ٥٦٨ ، ٥٧٣
 ٥٨٨ ، ٥٨٩ ، ٥٩٤ ، ٥٩٩ ، ٦٠١
 ٦٧٥ ، ٦٧٦ ، ٦٧٧ ، ٦٨٩
 إسبانيا المسلمة ؛ ١١١ ، ١٧٠ ، ١٧٢
 ١٨٣ ، ١٨٣ ، ٢٣٣ ، ٢٣٥ ، ٢٣٨ ، ٢٦١

٤٩ — ٥٢ ، ٥٥ — ٦١ ، ٦٤ ، ٦٩
 ٧٠ ، ٧٣ — ٧٥ ، ٨١ — ٨٤ ، ٨٦
 ٨٧ ، ٩٨ — ١٠٦ ، ١٠٩ ، ١١٢
 ١١٣ ، ١١٦ ، ١١٧ ، ١٢٢ — ١٢٥
 ١٢٧ — ١٣٠ ، ١٣٤ — ١٣٨ ، ١٤٠
 ١٤٢ ، ١٤٧ ، ١٤٨ ، ١٥٠ — ١٥٣
 ١٥٥ ، ١٥٦ ، ١٥٩ ، ١٦٢
 ١٦٣ ، ١٦٦ ، ١٧٠ ، ١٧١ — ١٨٣
 ١٨٥ ، ١٩٢ ، ١٩٦ ، ١٩٧ ، ١٩٩
 ٢٠١ ، ٢٠٤ ، ٢٠٥ ، ٢٠٨ ، ٢١٢
 ٢١٤ ، ٢٢٤ ، ٢٢٦ ، ٢٢٨ — ٢٣٤
 ٢٣٦ ، ٢٤١ ، ٢٤٨ ، ٢٤٩ ، ٢٥٢
 ٢٥٧ ، ٢٦١ — ٢٦٥ ، ٢٧٩ ، ٢٨١
 ٢٨٤ ، ٢٨٥ ، ٢٨٨ ، ٢٩٠ ، ٢٩١
 ٢٩٦ ، ٢٩٧ ، ٣٠٢ ، ٣٠٣ ، ٣٠٧
 ٣٠٩ — ٣١٢ ، ٣١٥ ، ٣١٦ ، ٣١٨
 ٣٢١ — ٣٢٣ ، ٣٢٨ ، ٣٣٧ ، ٣٣٨
 ٣٤٤ ، ٣٤٦ ، ٣٤٩ ، ٣٥٤ — ٣٥٩
 ٣٦٢ ، ٣٧٣ ، ٣٧٥ ، ٣٧٨ — ٣٨٠
 ٣٨٢ ، ٣٩١ ، ٣٩٢ ، ٣٩٨ ، ٤٠٤
 ٤٢٠ ، ٤٢٢ ، ٤٢٥ ، ٤٢٧ — ٤٣١
 ٤٣٥ ، ٤٤٠ ، ٤٤٢ ، ٤٤٦ — ٤٤٨
 ٤٥١ ، ٤٥٢ ، ٤٥٤ ، ٤٥٦ ، ٤٥٨
 ٤٦٠ ، ٤٦٤ ، ٤٦٥ ، ٤٦٧ ، ٤٧٤
 ٤٨٢ ، ٤٨٨ ، ٤٨٩ ، ٤٩٢ ، ٤٩٣
 ٤٩٧ — ٤٩٩ ، ٥٠١ — ٥٠٦ ، ٥٠٩
 ٥١٢ ، ٥٢١ ، ٥٢٨ ، ٥٢٨ — ٥٤٠
 ٥٤٣ ، ٥٤٥ ، ٥٤٦ ، ٥٤٧ ، ٥٤٩
 ٥٥٤ — ٥٥٩ ، ٥٦٣ ، ٥٦٤ ، ٥٦٨
 ٥٧٤ ، ٥٧٦ ، ٥٧٩ ، ٥٨٤ ، ٥٨٨
 ٥٨٩ ، ٦٠٨ ، ٦٠٩ ، ٦١٥ ، ٦١٨
 ٦٢٢ ، ٦٢٣ ، ٦٢٥ ، ٦٢٨ ، ٦٣٠
 ٦٣٨ ، ٦٣٩ ، ٦٤٣ ، ٦٥٠ ، ٦٥١
 ٦٥٤ ، ٦٥٧ ، ٦٥٨ ، ٦٦٠ ، ٦٧٠
 ٦٧٦ ، ٦٧٧ ، ٦٨٠ — ٦٨٤ ، ٦٨٦
 ٦٨٩ ، ٦٩١ — ٦٩٦ ، ٦٩٩ ، ٧٠٤

أنه ؛ ٥٥

أنيسون ؛ ١٠٥

١٤٢ ، ١٥٠ ، ١٨٥ ، ٢٠٠ ، ٢٣١
 ٢٤١ ، ٣١٤ ، ٣١٥ ، ٣١٨ ، ٣٩٥
 ٤٢٥ — ٤٢٨ ، ٤٥٩ ، ٤٧٤ ، ٤٧٨
 ٤٧٩ ، ٤٩٢ — ٤٩٤ ، ٥٤٤ ، ٥٤٥
 ٥٦٤ ، ٦١٨ ، ٦٨٠ ، ٦٨١ ، ٦٩٤
 أفنيون ؛ ١١٥ ، ١١٦
 إقريطش ؛ ٢٤٢ ، ٢٨٢ ، ٤٧٦
 إفليش ؛ ٣٤٠
 أكشونية ؛ ١٢٦ ، ٢٥٧ ، ٣٠٦ ، ٣٣٩
 ٣٩٠ ، ٣٩٣ ، ٦٩٠
 أكسفورد ؛ ٩١
 آكوتين ؛ ٧٦ ، ٧٩ — ٨١ ، ٨٦ ، ٨٨
 ٩٠ ، ٩٤ ، ٩٥ — ٩٨ ، ١١٣ ، ١١٥
 ١٣٣ ، ١٣٧ ، ١٧٣ ، ٢٠٩ ، ٢٢٧
 ٤٧٦
 آكي ؛ ٤٦٩
 ألانديجا ؛ انظر الخندق ، وموقعة الخندق
 ألبة والقلاج ؛ ٢١٦ ، ٢١٩ ، ٢٢٦ ، ٢٣١
 ٢٤١ ، ٢٥٥ ، ٢٥٦ ، ٢٥٩ ، ٢٩٤
 ٢٩٨ ، ٢٩٩ ، ٣٠٣ ، ٣٥٤ ، ٣٥٦
 ٣٥٩ ، ٣٩٦ ، ٤٠٣ ، ٤٠٨ ، ٤٠٩
 ٤١١ ، ٤١٢ ، ٤١٧ ، ٤٨٧
 ألبونت ؛ ٦٦٠ ، ٦٦١ ، ٦٦٨
 ألبيرة ، وكورة ؛ ٧٠ ، ٥٠٠ ، ١٢٦ ، ١٣٢
 ١٣٦ ، ١٥١ — ١٥٣ ، ١٥٦ ، ١٥٨
 ١٨٦ ، ١٩٤ ، ٣١١ ، ٣٢٣ ، ٣٢٨
 ٣٢٩ ، ٣٣٥ ، ٣٣٦ ، ٣٣٨ ، ٣٧٥
 ٣٧٦ ، ٣٧٧ ، ٣٥٢ ، ٣٥٤ ، ٣٥٤ ، ٣٩٢ ، ٦٩٦
 ألعامة ؛ ٣٠٩ ، ٣١٠ ، ٣٢٩ ، ٣٧٩
 ألقونت ؛ ٦٧١
 ألمانيا ؛ ٧٨ ، ٩٤ ، ٢٦١ ، ٢٨٤ ، ٤٥٦
 ٤٥٨
 ألمرية ؛ ٤٢٦ ، ٤٢٧ ، ٤٣٧ ، ٤٤٦
 ٤٨٨ ، ٤٨٩ ، ٤٩٩ ، ٦٥٣ ، ٦٥٨
 ٦٦١ ، ٦٦٢ ، ٦٧١ ، ٦٧٥ ، ٦٧٦
 ٦٨٨ ، ٦٩٠ ، ٧٠٤
 أنتيب ؛ ٤٧٤
 أنتيسة وحسن ؛ ٣٩٥ ، ٣٩٨ ، ٤١٧ ، ٤٨٦
 ٥٣٨
 الأندلس ؛ ١٧ ، ٣٨ — ٤١ ، ٤٦ ، ٤٨

باب قرطبة ؛ ٣٨٥
باب القنطرة ؛ ٤٤٨
باب الملك ؛ ٤٤٨
باب النخيل ؛ ٢٧٩ ، ٤٤٥
باب اليهود ؛ ٤٤٨
باجة ؛ ٧٠ ، ١٢٦ ، ١٢٧ ، ١٣١ ، ١٣٢ ،
١٣٤ ، ١٦٦ ، ١٦٥ ، ١٦٢ ، ١٦١ ، ١٨٦ ،
٢٥٨ ، ٢٥٧ ، ٢٤٢ ، ٢٠٩ ، ٢٦٣ ،
٢٣٠ ، ٢٢٣ ، ٣٠٦ ، ٢٩٦ ، ٢٦٣ ،
٢٩٢ ، ٢٩٠ ، ٣٨٩ ، ٣٣٩ ، ٣٣٥ ،
٣٩٣
بادربورن ؛ ١٧٤ ، ١٦٩
باري ؛ ٤٧٦
باريس ؛ ٧٨ ، ٩٠
بازو ؛ ٣٥٨ ، ٥٦٠ ، ٥٩٦ ، ٥٩٧
باطقة ؛ ١٣٢
باغة ؛ ٣١١ ، ٣٢٠ ، ٣٣٠ ، ٣٣٧ ، ٦٩٠
باقاريا ؛ ٧٨ ، ٨٠
بالش ؛ ٤٠٤
ببشتر ؛ ٣٠٩ ، ٣٢٠ ، ٣٢٥ ، ٣٣٦ ،
٣٣٨ ، ٣٨٣ ، ٣٨٨
بجاية ؛ ٤٩٤
بحر الزقاق ؛ ٤٢٧ ، ٤٩٢
البحيرة ؛ ٢٩٧
بحيرة جنيف ؛ ٤٦٩
بحيرة خندة ؛ ٤٢ ، ٤٤
بحيرة كونستانس ؛ ٤٧٢
البراجلة ؛ ٣٢٨
برافيا ؛ ٢١٩
بربشتر ؛ ٣٤٢ ، ٦١٢
البرتغال (ورثقال) ؛ ٧٠ ، ٧١ ،
٢١٥ ، ٣٠٤ ، ٤٨٨ ، ٥٤٧ ، ٥٥٩ ،
٥٦٠ ، ٥٦٤ ، ٥٩٦
برجة ؛ ٢٦٥
برجونية ؛ ٧٨ ، ٨٢ ، ٨٤ ، ٩٠ ، ٩٤ ،
٩٦ ، ١١٠ ، ١١٥ ، ٤٦٩ ، ٤٧١ ،
٤٧٣
بردال ؛ انظر بوردو
بردوليا ؛ ٣٥٥ ، ٣٥٦
برشله نة ؛ ٥٣ ، ٧٠ ، ١٣٣ ، ١٦٨ ،

أوريبدو ؛ ٢١٨ ، ٣٠٣ ، ٣٠٦ ، ٣٥٤ ،
٣٥٥ ، ٣٥٨ ، ٣٥٩ ، ٥٩١
أوتون ؛ ٨٤ ، ٨٢
أوربا ؛ ٢٨ ، ٥٣ ، ٥٩ ، ٦٤ ، ٩٣ ،
١١٠ ، ٢٦٦ ، ٤٢٠ ، ٤٥٢ ، ٤٧٢ ،
٤٧٩
أوريولة ؛ ٥٠ ، ٥٥ ، ١٣٢ ، ٢٠٤ ، ٢٩٧
أوزوفه ؛ ٢٣٥
أوستراسيا ؛ ٧٩ ، ٩٦ ، ١٠٢
أوستريا ؛ ٨٠
أوسمة ، وواى ؛ ٣٩٦ ، ٤٠١ ، ٤٠٣ ،
٥٥٠ ، ٥٧٣ ، ٦٥١
أوسيز ؛ ١١٥
إيج مورت ؛ ٤٦٨
إيريا ؛ ٢٢٠ ، ٥٦٠
إيطاليا ؛ ٢٨ ، ٥٣ ، ٧٨ ، ٩٤ ، ١١٠ ،
٢٦٦ ، ٤٢٧ ، ٤٥٨ ، ٤٦٦ ، ٤٦٨ ،
٤٧٠ ، ٤٧٣ ، ٤٧٦ ، ٤٧٩
إيكس ؛ ٤٦٨
إيكسلا شابيل ؛ ٢٣١

ب - ت - ث

باب الجنان ؛ ٤٤٨ ، ٤٨٥
باب الجوند ؛ ٤٤٨
باب الازاهرة ؛ ٥٤٠
باب السباط ؛ ٤٤٨
باب السدة ؛ ٣٧٥ ، ٣٨٥ ، ٣٨٦ ، ٤١٦ ،
٤٤٨ ، ٤٨٣ ، ٤٨٥ ، ٤٩٨ ، ٥٢٦ ،
٦٣٧
باب شيزروا (الشري) ؛ ١٧٧ ، ١٧٨ ،
٢٢٧ ، ٢٣٢ ، ٢٣٣ ، ٢٥٦
باب الشري ، موقعة ؛ ١٨٣ ، ١٨٦ ،
١٨٧ ، ٢٥٦
باب الصناعة ؛ ٤٤٨
باب طليطلة ؛ ٤٤٨
باب عامر ؛ ٤٤٨
باب عبد الجبار ؛ ٤٤٨
باب العدل ؛ ٤٤٨
باب العطارين ؛ ٤٤٨

بليتيرة ؟ ٣٩٥
 بلد الوليد ؟ ٧٠
 البلدة ، موقعة ؟ ٣٦٢
 البلقان ؟ ٢٧
 بلنتلة ؟ ٥٥
 بلنسية ، وكورة ؟ ٧٠ ، ٥٥ ، ١٣٣
 ٣٩٩ ، ٣٩٠ ، ٣٧٩ ، ٢٣٣ ، ٢٠٤
 ٧٠٤ ، ٦٦٠
 بله نويه ؟ ١٥٤
 البليار ؟ انظر الجزائر الشرقية
 بليارش ؟ ٣٤٣ ، ٣٤٢
 بنبيلونة ؟ ٩٠ ، ١٧٣ ، ١٧٤ ، ١٧٦ -
 ١٧٨ ، ١٨٠ ، ١٨٧ ، ٢٥٦ ، ٢٦٠
 ٢٦٦ ، ٢٦٤ ، ٢٦٦ ، ٢٨٩ ، ٢٩٧
 ٢٩٨ ، ٣٠٢ ، ٣٤٢ ، ٣٥٥ ، ٣٥٧
 ٣٦١ ، ٣٦٢ ، ٣٩٠ ، ٣٩٧ ، ٣٩٨
 ٣٩٩ ، ٤٠٠ ، ٤٠٢ ، ٤٠٨ ، ٤١١
 ٤١٧ ، ٤١٨ ، ٥٦٢ ، ٥٩٣ ، ٥٩٩
 ٦٠٠
 اليهو الذهبي ؟ ٤٨٣
 بواتو ؟ ٩٩
 بواتيبه ؟ ٩٩ ، ١٠٢ ، ١٠٩ ، ١١١
 بورتو ؟ ٥٦٠
 بورقيلادي آرناس ؟ ٥٤٢
 بورردو ؟ ٩٠ ، ١٠٢ ، ١٠٤ ، ١١٤ ، ١٧٣
 بوسير ؟ ١٤٦
 بولونيا ؟ ٩١
 بون : ٨٤
 بوونتومو ، موقعة ؟ ٢١٦
 بيباسة ؟ ٣٧٦ ، ٥٢٦
 البيت الحرام ؟ ١٤١
 بيت المقدس ؟ ٢٢٠
 بيزانصون ؟ ٩٠
 بيزنطية ؟ ٩٣ ، ٢٨٢
 البيضاء ، موقعة ؟ ٢٦٧
 بيطرالتة ؟ ٣٩٩
 ببيمون ؟ ٤٦٨ - ٤٧١
 تارنت ؟ ٤٧٦
 تارانثير ؟ ٤٦٩

١٦٩ ، ١٧٤ ، ١٨٦ ، ٢٢٦ ، ٢٣٥
 ٢٣٦ ، ٢٤١ ، ٢٥٧ ، ٢٦٥ ، ٢٩٤
 ٣٤٣ ، ٤٠٤ ، ٤٠٦ ، ٤١١ ، ٤٢٢
 ٤٦٥ ، ٥٤٣ ، ٥٤٤ ، ٥٤٨ ، ٦١٠
 برغش ؟ ٣٦٠ ، ٣٦١ ، ٤٠٣ ، ٤٨٤
 ٥٦٣ ، ٥٧٣ ، ٥٩١ ، ٥٩٣ ، ٦٠٠
 البرنيه ؟ انظر جبال البرنيه
 بروقانس ؟ ١١٥ ، ١٦٦ ، ٢٦٦ ، ٢٩٧
 ٤٦٦ - ٤٦٨ ، ٤٧٠ ، ٤٧٤ ، ٤٧٧
 ٤٧٨
 بريثانيا ؟ ١٧٣ ، ١٧٥
 بريجور ؟ ٩٩
 برييه ؟ ٧٠ ، ٧٤ ، ١١٥ ، ١٣٣
 بسطة ؟ ٧٠ ، ٥٤٣
 بسكرة ؟ ٤٩٤
 بسكونية ؟ انظر بلاد البشكنس
 البصرة (بالعراق) ؟ ٢٣ ، ٢٤ ، ٦٩٤
 البصرة (بالمغرب) ؟ ٤٢٦ ، ٤٩٤ ، ٤٩٦
 ٤٩٧
 بطليوس ؟ ٧١ ، ٢٥٧ ، ٣٠٣ - ٣٠٧
 ٣٢٣ ، ٣٣٨ ، ٣٣٩ ، ٣٨٩ ، ٣٩٢
 ٣٩٣ ، ٤٠٩ ، ٥٦٤
 بغداد ؟ ١٧١ ، ٢٨١ ، ٤٣٥ ، ٤٣٧ ، ٥٠٥
 ٦٩٣
 بقسرة ؟ ٥٥
 بقميرة ؟ ١٨٧ ، ٢٦٦ ، ٢٦٧ ، ٣٩٨ ، ٣٩٩
 بلاد البشكنس ؟ ٧٤ ، ١١٣ ، ١٣٣ ، ١٧٣
 ١٧٤ ، ١٧٦ ، ١٨٧ ، ٢١٠ - ٢١٣
 ٢١٦ ، ٢١٨ ، ٢١٩ ، ٢٢٢ ، ٢٣٠
 ٢٥٦ ، ٢٦٠ ، ٢٦١ ، ٣٥٤ - ٣٥٦
 بلاد الفرنج ؟ انظر فرنسا
 بلاد اللونبارد ؟ ٢٤٥ ، ٤٧٠ ، ٤٧١
 ٤٧٣ ، ٤٧٥
 بلاد المحوس ؟ ٢٨٤
 بلاط الشهداء ، موقعة ؟ ٥٩ ، ١٠٤ ، ١٠٥
 ١٠٧ ، ١٠٨ ، ١١١ - ١١٤ ، ٢١٢
 ٤٦٤ ، ٤٧٧ ، ٦٨١ ، ٦٨٧
 بلاي ، موقعة ؟ ٣٢٥ ، ٣٢٦ ، ٣٣٠
 ٣٣٥ ، ٣٣٦ ، ٣٤٧

٤٨٤ ، ٥٣٠ ، ٥٣٧ ، ٥٣٨ ، ٥٤٧ -
٥٤٩ ، ٦١٠ ، ٦٤٨ ، ٦٥٤ ، ٦٦٠ ،
٦٦٩

النهر الأوسط ؛ ٢٣٧ ، ٧١ ، ٢٤٠ ، ٢٤٠ ، ٢٣٩ ، ٢٠٧ ،
٣٩٦ ، ٤٨٤ ، ٦٤٤

النهر القوطي (الفرنجي) ؛ ٢٣٥ ، ٢٣٦ ،
٢٥٧ ، ٢٦٥ ، ٤٠٤ ، ٤٢٢ ، ٥٤٣

ج - خ

جاردي فرينيه ؛ ٤٦٧

چاقا ؛ ٣٤٢

جامع إستجة ؛ ٣٠٤

جامع إشبيلية ؛ ٢٧٩

جامع الزهراء ؛ ٤٣٢

جامع شنونة ؛ ٣١٤

جامع قرطبة ؛ ٢٠١ ، ٢٢٧ ، ٢٢٨ ، ٢٨٩ ،

٢٩٠ ، ٣١٤ ، ٣٥٢ ، ٤٢٣ ، ٤٢٩ ،

٤٣٢ ، ٤٣٨ ، ٤٤٢ ، ٤٤٥ ، ٤٤٨ ،

٤٨٣ ، ٤٨٤ ، ٤٩٧ ، ٥٠٧ ، ٥١٠ ،

٥٦٠ ، ٥٧٥ ، ٥٧٦ ، ٦٠٧ ، ٦١٠ ،

٦٦٤ ، ٦٦٩ ، ٦٩٦

جامع القيروان ؛ ٢٢

جامعة قرطبة ؛ ٥٠٦ ، ٥٠٧ ، ١٠٧

جان دي لايور ؛ ١٧٣

جبال الألب ؛ ١١٥ ، ٤٦٧ ، ٤٦٨ ، ٤٧٠ ،

٤٧٢ - ٤٧٧ ، ٤٧٧

جبال البرنيه ؛ ٣١ ، ٥٣ ، ٦٥ ، ٧٠ ، ٧٣ ،

٧٥ ، ٧٨ ، ٨١ ، ٨٢ ، ٨٤ ، ٨٦ ،

٨٨ - ٩٠ ، ٩٦ ، ٩٧ ، ١١٣ ، ١١٦ ،

١٣٣ ، ١٣٤ ، ١٣٧ ، ١٥٥ ، ١٧٠ ،

١٧١ ، ١٧٣ ، ١٧٤ ، ١٧٦ ، ١٧٧ ،

١٧٨ ، ١٨٣ ، ٢٠٥ ، ٢١٠ ، ٢١٤ ،

٢٢٦ ، ٢٣١ ، ٢٣٣ ، ٢٣٥ ، ٢٣٦ ،

٢٥٦ ، ٣١٤ ، ٣٤٢ ، ٣٥٧ ، ٣٥٨ ،

٤٦٤ - ٤٦٦ ، ٤٨٧ ، ٦١٢

جبال بلنسية ؛ ١٨٦ ، ٢٢٥

جبال چورا ؛ ٤٦٩ - ٤٧١

جبال رندة ؛ ٣٠٨

تاجرونا ؛ ٢٢٧ ، ٢٥٢ ، ٣٠٨ ، ٣١١ ،
تقادرت ؛ ٣١٤ ، ٤٢٦ ، ٤٩٤ ، ٥٥٨

تقديمير ، الأندلس ، وولاية ؛ ٥٠ ، ٧١ ،

١٢٦ ، ١٨٦ ، ٢٢٥ ، ٢٥٥ ، ٢٥٦ ،

٢٨٢ ، ٢٩٧ ، ٣١١ ، ٣٣٠ ، ٣٣٥ ،

٣٧٩ ، ٣٩٠ ، ٣٩٩ ، ٥٤٣ ، ٦٩٠ ،

تدمير الشام ؛ ١٤٩

تراقية ؛ ٢٨ ، ٢٩

ترجاله ؛ ٣١٨

تقطيلة ؛ ٢٥٦ ، ٢٥٩ - ٢٦١ ، ٢٦٥ ،

٢٦٦ ، ٢٩٤ ، ٢٩٨ ، ٢٩٩ ، ٣٠١ ،

٣٠٢ ، ٣٤٠ ، ٣٤١ ، ٣٤٢ ، ٣٦٣ ،

٣٩٥ ، ٣٩٦ ، ٣٩٩ ، ٤٠٠ ، ٤٠٨ ،

٤١٠

تخطوان ؛ ٤٩٢

تقلسان ؛ ٥٤٧ ، ٥٥٨

تقودة ؛ ٣٥٦

تور ؛ ٩٩ ، ١٠٠ ، ١٠٣ ، ١٠٤ ، ١٠٦ ،

١٠٨ ، ١١٠ ، ١١١ ، ٤٧٧

تور ، موقعة ؛ انظر موقعة بلاط الشهداء

تورتور ؛ ٤٧٤

تورنجين ؛ ٤٥٧

تورني ؛ ٧٧

تورينو ؛ ٤٦٩

تولوشة (تولوز) ؛ ٢٩ ، ٧٦ ، ٨٠ ، ٨١ ،

٨٩ ، ١٠٤ ، ٢٢٧

تولوشة ، موقعة ؛ ٨٢ ، ٩٧

تونس ؛ ١٢٦ ، ١٣٠ ، ٤٢٥ ، ٤٣٧ ،

٤٩٩

النهر الأدنى ؛ ٢٤١ ، ٢٥٨ ، ٣٣٩ ، ٤٠٧ ،

النهر الأعلى ؛ ٧١ ، ٨٩ ، ١١٣ ، ٢٣١ ،

٢٣٥ - ٢٤٠ ، ٢٥٦ ، ٢٥٧ ، ٢٥٩ ،

٢٦٠ ، ٢٦٥ ، ٢٦٦ ، ٢٩٤ ، ٢٩٨ ،

٣٠٠ ، ٣٠٢ ، ٣٠٣ ، ٣٠٩ ، ٣١٤ ،

٣١٨ ، ٣١٩ ، ٣٢٣ ، ٣٢٥ ، ٣٤٦ ، ٣٤٣ ،

٣٥٤ ، ٣٥٥ ، ٣٥٧ ، ٣٥٩ ، ٣٦٠ ،

٣٦٣ ، ٣٦٣ ، ٣٩٠ ، ٣٩٥ ، ٣٩٩ ،

٤٠٣ ، ٤٠٥ ، ٤٠٦ ، ٤٠٧ ، ٤١٢ ،

٤١٣ ، ٤٢١ ، ٤٦٥ ، ٤٦٦ ، ٤٦٧ ،

جبلية : ٢٩ ، ٥١ ، ٥٣ — ٥٥ ، ٧٠
 ٧٥ ، ٨٣ ، ٨٩ ، ١١٤ ، ١٢٣ ،
 ١٣٢ ، ١٣٦ ، ١٣٨ ، ٢٠٨ ، ٢١٠ —
 ٢١٣ ، ٢١٦ ، ٢١٩ — ٢٢١ ، ٢٢٨ ،
 ٢٤١ ، ٢٤٢ ، ٢٥٥ ، ٢٥٨ ، ٢٥٩ ،
 ٢٦٥ ، ٢٩٦ ، ٣٠٤ ، ٣٤٥ ، ٣٥٤ —
 ٣٥٦ ، ٣٥٨ ، ٣٦٠ ، ٣٦٢ — ٣٩٢ ،
 ٤٠٥ ، ٤١١ ، ٥١٢ ، ٥٤٢ ، ٥٤٨ ،
 ٥٥٩ — ٥٦١ ، ٥٦٤ ، ٥٨٩ ، ٥٩٧ ،
 ٦١٢
 جبلية الغربية : ٢١٨ ، ٢١٩
 جوة : ٤٦٩
 جورزني : ٤٥٦
 جويان : ٩٩
 جيان ، وكورة : ٧٠ ، ١٢٦ ، ١٣٢ ،
 ١٥٤ ، ١٥٧ ، ١٩٠ ، ٢٥٣ ، ٢٩٢ ،
 ٣١١ ، ٣١٨ ، ٣٢٠ ، ٣٢٣ ، ٣٢٤ ،
 ٣٣٠ ، ٣٣٨ ، ٣٤٠ ، ٣٧٥ ، ٣٧٧ ،
 ٦٥٤ ، ٦٦٠ — ٦٦٢ ، ٦٧٣
 جيرندة (جيرونه) : ١٣٣ ، ١٧٤ ، ٢٢٧ ،
 ٢٣١ ، ٢٣٥ ، ٢٣٦ ، ٢٥٧ ، ٢٦٥ ،
 ٤٢٢
 جيروند ، مقاطعة : ١٠٢
 الحيزة : ١٤٦
 الحجاز : ٢٣ ، ٥٨ ، ٦٨ ، ٤٢٩ ، ٦٩٣
 الحرة ، موقعة : ١٢٣
 الحرمين : ١٩٧ ، ٤٢٩
 حصن الأجم : ١٩
 حصن أرنيط : ٣٩٧
 حصن أشرس : ٣٢٠
 حصن أشكر : ٤١٥
 حصن أشكفيرش : ٤٠٣
 حصن أطلة : ٤١٥
 حصن أنتيسة : ١٤٧
 حصن أندة : ٢٩٢
 حصن أنة : ٤٠٣
 حصن أوريولة : ٣٧٩
 حصن إيلاس : ٣٤٢
 حصن يالحش : ٣٩٩
 حصن ييشتر : ٦٧٤

جبال كانابريا : ٢١٦
 جبال المعد : ٢٠٥
 جبال مونشيس : ٦١٠
 جبال وادي الحجارة : ١٣٢
 جبال وادي الرملة : ٤٨٦
 جبل الأخوين : ٢٩١
 جبل أشيروغرة : ٣٠٧
 جبل أوراس : ١٧ ، ٢٢
 جبل بيشتر : ٣٠٧ — ٣٠٩ ، ٣٨٥
 جبل الشارات : ٥١ ، ٣٥٩ ، ٦٩٥
 جبل شمستان : ٣٣٠
 جبل طارق والمنضيق : ٤١ ، ٠٩١ ، ٥٢١ ،
 ٦٥٨ ، ٦٧٦
 جبل العروس : ٣٧
 جبل قرطبة : ١٣٢ ، ٦٣١ ، ٦٩٠
 جبل قنتش : ٦٤٦
 جراوة : ٤٢٦
 جريبيره : ٤١٦ ، ٥٦٢ ، ٥٦٣
 جرومانيا : ١١٠
 جريزون : ٤٦٩
 جريزيفودان : ٤٧٠ ، ٤٧٣
 جريونوبل : ٤٧٠ ، ٤٧٣
 الجزائر الشرقية : ٢٥ ، ٣٩ ، ٢٦٥ ، ٢٦٦ ،
 ٢٩٧ ، ٣٤٦ ، ٤٢٢ ، ٤٦٥ ، ٤٦٦ ،
 ٤٧٥ ، ٦٥٨
 الجزائر البريطانية : ٢٦٢
 الجزيرة (العراق) : ٢٣ ، ٤٤٧ ، ٦٩٣
 الجزيرة : ٢٩٧
 الجزيرة الخضراء : ٤٠ ، ٤١ ، ٥٢ ، ٧٠ ،
 ١٢٣ ، ١٢٦ ، ١٣٥ ، ١٦٠ ، ١٨٧ ،
 ٢٥٢ ، ٢٥٦ ، ٢٩٦ ، ٣٠٨ ، ٣١١ ،
 ٣٢٥ ، ٣٣٦ ، ٣٧٧ ، ٤٢٥ ، ٤٢٨ ،
 ٤٩٥ ، ٤٩٦ ، ٤٩٧ ، ٥٢١ ، ٥٥٧ ،
 ٥٦٤ ، ٦٤٩ ، ٦٥٤ ، ٦٥٨ ، ٦٥٩ ،
 ٦٦٤ ، ٦٧١ ، ٧٧٣ — ٦٩٨ ، ٦٩٨
 جزيرة طريف : ٤٠
 الجزيرة العربية : ١٨ ، ٢٠٥
 جزيرة كاماراج : ٤٦٧
 جزيرة ليران : ٤٧٤
 جزيرة ميورقة : ٤٠٤

حصن مجروط ، وقلعة ؛ ١٦١ ، ٤٠١ ، ٤٠٧ ،
٥٢٨
حصن مدلين ؛ ٣٩٣
حصن مدنيش ؛ ٦١٠
حصن المدور ؛ ١٥٩
حصن مرتش ؛ ٢٧٢ ، ٣٧٥
حصن مسرة ؛ ٤٠٠
حصن المنار ؛ ٤٠٣
حصن منت بطروش ؛ ٣٤٣
حصن بمقصر ؛ ٦١٠
حصن منت سلود ؛ ٣٠٥ ، ٣٠٦
حصن منت شقند ؛ ٣٢٨
حصن منتشون ؛ ٣٤٢
حصن المتلون ؛ ٣٣٨ ، ٣٧٥
حصن منيشة ؛ ٣٢٣ ، ٣٣٠ ، ٣٦٧
حصن مورور ؛ ١٨٦
حصن موله ؛ ٥٥ ، ٣٤٢ ، ٥٢٨
حصن مونت ميور ؛ ٣٨٥
حصن يبة ؛ ٤٨٧
حصن موت ؛ ٣٣١
الحضرة ، موقعة ؛ ٢٤٠ ، ٢٤٢ ، ٣٠١
حلب ؛ ٤٤٧
حصن ؛ ٧٠ ، ١٢٦
الحيرة ؛ ٦٨
حي العرب ؛ ٤٧٠
خراسان ؛ ١٤٠ ، ١٤٢ ، ١٤٤ ، ١٤٥
خليج بسكوينية ؛ ٥١ ، ٢١٣
خليج سانت تروبيه ؛ ٤٦٧ ، ٤٧٠
خليج قادس ؛ ٤٢
الخدق ، موقعة ؛ ٣٤٠ ، ٤١٤ ، ٤١٥ ، ٤١٩ ؛
٤٤٢ - ٤٥١ ، ٤٦٠ ، ٥٩٠ ، ٥٩١
خدق شنت منكش ؛ ٤١٧ - ٤٢٠
خونكيرا ؛ ٣٩٧
خيخون ؛ ٥١ ، ٨٥
د - ز

دار الروضة ؛ ٤٣٦
دار السكة ؛ ٤٤٧
دار الناعورة ؛ ٤٨٥
داسيا ؛ ٢٨

حصن برتيل ؛ ٤١٥
حصن بطرس ؛ ٣٠٦
حصن بقرية ؛ ٢٩٨
حصن بلاي ؛ ٣٢٤
حصن البلدة ؛ ٢٩٢
حصن -الولا ؛ ١٩
حصن الحامة ؛ ٥٢٧
حصن دسة ؛ ٤٩٩
حصن روطه ؛ ٣٠٢ ، ٣٤٣ ، ٤٠٢ ، ٤١٢
حصن صمسطا ؛ ٢٥٨
حصن شبطران ؛ ١٦٦ ، ٤١٦
حصن الشط ؛ ٣٨٥
حصن شلوانية ؛ ٣٣٦
حصن شمستان ؛ ٣٧٦
حصن شنت إشتين ، وقلعة ؛ ٣١١ ، ٣٧٦ ،
٣٩٤ - ٣٩٦ ، ٤٠٠ - ٤٠٢ ، ٤١٧ ،
٤٨٦ ، ٤٨٧ ، ٥٥٠ ، ٥٥١ ، ٦١٣ ،
٦٥١
حصن شنت بيجنت ؛ ٥٣٨
حصن شنت بوية ؛ ٣٩١
حصن شنت مرتين ؛ ٦١٥
حصن شنت منكش ؛ ٤١٣ ، ٤١٥ ، ٤١٧ ،
٥٨٩
حصن شندلة ؛ ٣٩٢
حصن طرش ؛ ٣٨٤ ، ٣٨٥ ، ٥٢١
حصن طلمنكة ؛ ٣١١
حصن غرمانج ؛ ٤٠٣ ، ٤٨٧ ، ٥٠١ ،
٥٠٢ ، ٥١٢ ، ٦٥١
حصن فراكسيه ؛ ٤٦٧ ، ٤٦٩ - ٤٧٤
حصن فرانكش ؛ ٢٥٧
حصن قرقشال ؛ ٣٩٩
حصن قسطلونة ؛ ٣٣٠ ، ٣٤٠
حصن قشتيل ؛ ٣٤٢
حصن القصر ؛ ٤٠٣ ، ٦٧١
حصن قلعة (وقلعة) ؛ ٣٩٧ ، ٣٩٩
حصن قلهرة ؛ ٣٩٩
حصن كركوليه ؛ ٣٣٠
حصن كركي ؛ ٣٠٥
حصن لورة ؛ ٣٧٧
حصن ماومندة ؛ ٤٠٢

ريوخا ؛ ٥٩١

الزواب ، بلاد ؛ ٥٥٧

الزاهرة ؛ ٤٣٩ ، ٥٣٥ ، ٥٣٦ ، ٥٤٠

٥٥٦ ، ٥٧٥ ، ٥٧٩ ، ٥٨٤ ، ٦٠٧

٦٠٩ ، ٦١٤ ، ٦١٩ ، ٦٣٠ ، ٦٢٤

٦٢٩ ، ٦٣٢ ، ٦٣٤ ، ٦٣٥ ، ٦٣٨

٦٦٦ ، ٦٦٧ ، ٦٨٣

نزهراء ، مدينة ؛ ٤٣٥ - ٤٤٦ ، ٤٥١

٤٩٨ ، ٥٠٦ ، ٥١٣ ، ٥٣٥ ، ٥٣٦

٦٢٤ ، ٦٤٧ ، ٦٤٨ ، ٦٥٠ ، ٦٥٣

٦٨٣ ، ٦٨٥ ، ٦٩٠

زويلة ؛ ١٦

س - غ

الساباط ؛ ٣٥٢

ساقوا ؛ ٤٦٩ ، ٤٧٠ ، ٤٧٢

سان برنار ؛ ٤٧٠ ، ٤٧٢

سانتونيخ ؛ ٩٩

سان جالن ؛ ٤٧٢

سبتانيا ؛ ٥٣ ، ٧٤ ، ٧٨ - ٨٠ ، ٨٢

٨٤ ، ٨٦ ، ٩٤ ، ٩٦ ، ٩٧ ، ١٠١

١١٥ ، ١٣٣ ، ١٣٦ ، ١٣٢ ، ٢٢٥

٢٢٧ ، ٢٣٣ ، ٢١٤ ، ٢٦٤ - ٤٦٦

٤٧٧

سبته ؛ ٢٦ ، ٣٣ - ٣٥ ، ٣٨ - ٤١ ، ٤٩

٦٠ ، ١٢٠ ، ١٢٣ ، ١٣٣ ، ٤٠٤ ، ٤٢٥ -

٤٢٨ ، ٤٩٢ ، ٤٩٥ ، ٥٤٥ ، ٥٥٧

٦٥٤ ، ٦٥٨ ، ٦٥٩ ، ٦٦٢ ، ٦٦٤

٦٧١ ، ٦٧٣ - ٦٧٥

سبيطلة ؛ ١٦

سجلماسة ؛ ٣١٤

سردانية ؛ ٢٦ ، ٣٩ ، ٣١٩ ، ٣٣٠ ، ٣٦٦

٤٦٦ ، ٤٧٥

سرقطة ؛ ٥٣ ، ٧٠ ، ١٢٤ ، ١٣١ ، ١٣٦

١٥١ ، ١٥٢ ، ١٦٩ ، ١٧٤ - ١٧٦

١٧٨ ، ١٨٧ ، ١٩٨ ، ٢٠٠ ، ٢١٨

٢٢٦ ، ٢٣١ ، ٢٣٢ ، ٢٦٥ ، ٢٦٥

٢٨٩ ، ٢٩٨ ، ٣٠٠ ، ٣٠٣ ، ٣١٨

اللدائماركة ؛ ٢٨٤ ، ٤٨٨

حدانية ؛ ٧٠ ، ١٣٢ ، ٤٧٥ ، ٦٥٨ ، ٦٨٦

حدنة ؛ ٢٤

حدروقة ؛ ٣٤١

دمشق ؛ ٢١ ، ٥٤ ، ٥٦ ، ٥٧ ، ٦٠ ، ٦١

٧٠ ، ٧٢ ، ٧٣ ، ١١٢ ، ١٢٨ ، ١٤٦

٢١٠ ، ٥٠٥

حدوقينه ؛ ٤٦٧ ، ٤٦٨ ، ٤٧٠ ، ٤٧٢ ، ٤٧٣

دير أجون ؛ ٤٦٩

دير إسلونزا ؛ ٥٤٨

دير بالمودي ؛ ٤٦٨

دير ديزنتي ؛ ٤٦٩

دير خنان ؛ ١٤٩

دير سانتا روفينا ؛ ٧٢

دير سان خيرمو ؛ ٤٤٢

دير ساهاجون ؛ ٥٤٨ ، ٥٨٩

دير كلوني ؛ ٤٧٣

دير نوفاليس ؛ ٤٦٨ ، ٤٧١

ديراجورسا ؛ ٦٠٠ ، ٦١٢

ديباط الثغر ؛ ٢٣٥

الريضة ، قمة ؛ ٢٤٥ - ٢٤٧ ، ٢٥٠

٢٥١ ، ٢٥٥

ريضة قرطبة ، الريضة ؛ ١٥٨ ، ١٧٣

١٧٦ ، ١٧٧ ، ٤٥٢

الريضة ؛ ٢٠٠ ، ٢٠٣ ، ٣١٤ ، ٤٣٦

٥٢٣ ، ٥٣٠ ، ٦٤٤

رندة ؛ ٢٢٧ ، ٣٠٧ ، ٣٠٨ ، ٣١٠

٣٨٢ ، ٦٧١ ، ٦٧٥

رورية ؛ ٢٥٨

روسيون ؛ ٧٥

روضة ؛ ٥٤١

رومة ؛ ١٧ ، ٢٧ - ٢٩ ، ٣١ ، ٥٣

٩٤ - ٩٦ ، ١٠٨ ، ٤٣٩ ، ٤٦٨ ، ٤٧٣

رونشغال ؛ ١٧٣ ، ١٧٦ ، ١٧٧

الريف ، بلاد ؛ ٤٩٢ ، ٤٩٧

الريفيرا ؛ ٤٧٨

رويه ، وكورة ؛ ٧٠ ، ١٢٦ ، ١٣١ ، ١٥٢

١٥٣ ، ٢٣٨ ، ٣٠٨ - ٣١١ ، ٣١٨

٣٢٠ ، ٣٢٣ ، ٣٢٦ ، ٣٧٦ ، ٣٧٧

٤٣٠ ، ٦٤٩

شرنينة ؛ ٦٤٦
شريش ؛ ٤٣ ، ٧٠ ، ٣١١ ، ٦٦٤ ، ٦٧٠
شريش ، مرققة ؛ ٢٠٨ ، ٢١٠
شقندة ؛ ١٣١ ، ١٣٥ ، ٢٤٣ ، ٣٢٤ ، ٦٥٣
شقوبية ؛ ٧٠ ، ١٣٢ ، ٢١٥ ، ٣٩١
شلب ؛ ٢٨٤
شلمةة ؛ ٧٠ ، ١٣٢ ، ٢١٥ ، ٣٥٧
٣٥٨ ، ٣٩١ ، ٤٢٠ ، ٥٢٧ ، ٥٢٩
٥٤١ ، ٥٩٨
شميط ؛ ٣٤١
شنت إشتين ، موقعة ؛ ٣٩٥ ، ٥٨٩ ، ٥٩٤
شنت برية ؛ ١٦٤ ، ١٦٦ ، ٢٥٦ ، ٢٥٨
٣٠٧ ، ٣٤٥ ، ٣٩٠ ، ٤٠٠
شترين ؛ ٤٠٩ ، ٥٠٣ ، ٥٦٤
شتمرية الغرب ؛ ٣٣٠ ، ٣٣٩
شنت منكش ، وموقعة ؛ ٤١٨ ، ٤٢٠ -
٥٤١ ، ٥٧٣ ، ٥٩٨
شنت ياقب ؛ ٢٢٠ ، ٢٢١ ، ٢٥٨ ، ٢٨٥
٥٤٢ ، ٥٥٩ ، ٥٦٠ ، ٥٧٣ ، ٥٨٩
٥٩٩ ، ٦٠٥
شنت ياقب ، غزوة ؛ ٥٦١
شنت يوانش ؛ ٦١٢
صانص ؛ ٨٢ ، ٩٠
الصخرة ؛ ١١٤ ، ٢١٠ ، ٢١١ ، ٢٢٨
الصخرة ، موقعة ؛ ٣٥٤
صمالية ؛ ٢١ ، ٢٦ ، ٣٩ ، ١١٩ ، ١٣٠
٣٥٩
طينة ؛ ٧٠٢
طرابلس ؛ ١٥ ، ١٦ ، ١١٩ ، ١٥٠
طرسونة ؛ ٢٦٥ ، ٣٤١ ، ٤٠٢
طرش ؛ ١٥٢ ، ١٥٣ ، ٣٧٧
طرطوشة ؛ ٧٠ ، ١٣٣ ، ٢٠٠ ، ٢٢٥
٢٢٦ ، ٢٤٠ ، ٢٤١ ، ٢٦٥ ، ٣٩٩
٤٠٤ ، ٤٦٥ ، ٤٦٨ ، ٦٦٠
طرف الفار ؛ ٤٤
طركونة ؛ ٧٠ ، ١٣٣ ، ٢٠٠ ، ٢٣٥
٢٦٦ ، ٤٦٦ ، ٦٧٦
طريانة ؛ ٦٧١
طشانة ؛ ٦٧١
طليرة ؛ ١٢٣ ، ٢٣٩ ، ٢٩٤ ، ٣١٨
٣٤٥ ، ٣٩٤ ، ٤٠٧

٣٤٠ - ٣٤٢ ، ٣٤٤ ، ٣٥٩ ، ٣٩٩
٤٠٢ ، ٤٠٥ ، ٤١٣ ، ٤١٨ ، ٤٢٢
٤٦٦ ، ٥٤٨ ، ٥٤٩ ، ٥٦٣ ، ٦٠٦
٦١٠ ، ٦١٢ ، ٦١٧ ، ٦٥٤ ، ٦٦٠
٦٩٧ ، ٧٠٤
سرية ؛ ٣٠٠ ، ٣٢٨ ، ٣٩٠ ، ٥٦٤
سكسونية ؛ ٨٠ ، ١١٤ ، ١١٥ ، ١٧٣
سمرقند ؛ ١٤٥
سمورة ؛ ١٣٢ ، ٢١٥ ، ٣٤٥ ، ٣٥٨
٣٦٠ ، ٣٦١ ، ٣٩١ ، ٤١٤ ، ٤١٩
٤٢٠ ، ٤٤١ ، ٥٤٨ ، ٥٥٢ ، ٥٦١
٥٧٣ ، ٥٩٠ ، ٦١٢
السند ؛ ٩٢ ، ٩٦ ، ١٤٠ ، ١٤٣
السوس ؛ ١١٩
سوسة ؛ ١٩
سوق العطارين ؛ ٤٢٥
سولسونة ؛ ٢٣٥
السهلة ؛ ٧١ ، ٢٠٥
سوبراني ؛ ٣٤٢ ، ٥٩١ ، ٦٠٠
سويسرة ؛ ٤٥٧ ، ٤٥٨ ، ٤٦٥ ، ٤٦٩ -
٤٧٢ ، ٤٧٤ ، ٤٧٥
سيرامورينا ؛ انظر جبل الشارات
سيرانقادا ؛ ٣٧٦
شاطبة ؛ ٧١ ، ١٣٢ ، ٣٩٠ ، ٦٤٨ ، ٦٤٩
٦٦٠
شالون ، موقعة ؛ ٢٩ ، ٨٤
الشام ؛ ١٤ ، ١٥ ، ١٧ ، ١٨ ، ٢٤ ، ٥٧
٧٢ ، ٩٣ ، ١٢٣ ، ١٢٧ ، ١٣٠
١٤٦ ، ١٤٨ ، ٢٠٠ ، ٢٠٢ ، ٢٠٥
٢٣٠ ، ٢٦٠ ، ٣١٤ ، ٤٣٧ ، ٤٣٨
٥٤٤
شبه الجزيرة الإسبانية ، انظر إسبانيا
شبه الجزيرة العربية ؛ ٦٩ ، ١٤١ ، ٢٠٥
شذونة ؛ ٤٢ ، ٥٢ ، ٧٠ ، ٧١ ، ١٢٣
١٢٦ ، ١٢٧ ، ١٣٢ ، ١٥٣ ، ١٦٠
١٦٢ - ١٦٤ ، ٢٦٣ ، ٣١١ ، ٣٣٠
٣٣٧ ، ٦٥٤
شذونة ، موقعة ؛ ٤٦
شرطانية ؛ ١٨٦ ، ٤١٧
الشرق ؛ ٩٩ ، ١١١ ، ٢٣٤

٤٥٩٠ ٤٥٢٠ ٤٠٩٠ ٣٩٢٠ ٣٨٩٠ ٣٢٨
 الغرب ، ولاية ؛ ٤٨٩ ، ٤٨٨ ، ٤٨٩
 غرناطة ؛ ٥٠٠ ، ٢٠٤ ، ٢١٣ ، ٣٢٨ ،
 ٦٧٢ ، ٦٧١ ، ٦٦٢ ، ٦٦٠ ، ٣٧٦ ، ٣٢٩
 ٦٧٦ ، ٦٧٤ ، ٦٧٣

ف - ك - ق

فارس ؛ ٧٢ ، ١٤٠ ، ١٤٥
 فاس ؛ ٤٢٧ ، ٤٩٢ ، ٤٩٧ ، ٥٤٥ ، ٥٤٧ - ٥٥٨
 ٥٥٨

فولانس ؛ ١١٥ ، ٢٩٧

فاليه ؛ ٤٦٩ ، ٤٧٠

فنج سراج ؛ ٤١٦

فنج المركور ؛ ٢٩٩

فحص أندوجر ؛ ٢٩٢

فحص البلوط ؛ ٣١١

فحص سراج ؛ ٤١٦

فحص السرايق ؛ ٦٤٦

فحص مهران ؛ ٤٩٥

فحص الناعورة ؛ ٥٩٨

فراشديلوم ؛ ٤٧١

فرتش ؛ ٣٤١

فرنسا ؛ ١٧ ، ٢٨ ، ٢٩ ، ٧٨ ، ٨٢ ، ٨٥

٩٠ ، ٩١ ، ٩٤ - ١٠٤ ، ١٠٨

١١٢ ، ١٧٠ ، ١٧٢ ، ١٨٣ ، ٢٠٩

٢١٠ ، ٢٣٥ ، ٢٦٦ ، ٣١٤ ، ٣٥٧

٤٥٧ ، ٤٦٥ ، ٤٦٦ ، ٤٦٨ ، ٤٦٩

٤٧٤ ، ٤٧٧ - ٤٧٩

الفرنثيرة ؛ ٤١ ، ٤٢ ، ٧١ ، ٢٠٦

فريجوس ؛ ٤٦٩

فريزيا ؛ ٨٠ ، ١١٤

الفسطاط ؛ ٥٧

فقييه ؛ ١١٥

فولندر ؛ ٧٧

فلسطين ؛ ٧٠ ، ١٢٦ ، ١٤٦ ، ١٥٠

فناء النارنج ؛ ٢٧٩

فنجييط ؛ ٢٣٣

فيل دني ؛ ٢٢٧

قابس ؛ ٢٢ ، ١٢٠

قادس ؛ ٢٦٣

طاجير ؛ ٣٨٧

طلياطة ؛ ٢٦٣

طليطلة ؛ ٢٩ ، ٣١ ، ٣٤ ، ٣٥ ، ٤١

٥٠ - ٥٢ ، ٦٠ ، ٦٤ ، ٧٠ ، ٧١

١٢٣ ، ١٢٤ ، ١٣٦ ، ١٥١ ، ١٥٢

١٥٤ ، ١٥٧ - ١٦١ ، ١٦٣ ، ١٨٧

١٩٠ ، ٢٠٦ ، ٢٢٣ ، ٢٢٥ ، ٢٣٧ -

٢٠٢ ، ٢٤٤ ، ٢٤٥ ، ٢٥٤ ، ٢٥٦

٢٥٨ ، ٢٥٩ ، ٢٦٩ ، ٢٧١ ، ٢٨٥

٢٩١ ، ٢٩٣ - ٢٩٦ ، ٣٠١ ، ٣٠٧

٣١١ ، ٣١٨ ، ٣٢٩ ، ٣٤٥ ، ٣٥٦

٣٨٩ ، ٣٩٦ ، ٤٠١ ، ٤٠٧ ، ٤١٤

٤١٥ ، ٤١٦ ، ٤٨٦ ، ٥٢٩ ، ٥٤٩

٥٦٤ ، ٥٩٠ ، ٦٠٦ ، ٦٠٩ ، ٦١٢

٦٢٩ ، ٦٣٦ ، ٦٤٦ - ٦٤٨ ، ٦٧٦

٦٧٧ ، ٦٩٢ ، ٦٩٧

طنجة ؛ ١٦ ، ٢٥ ، ٢٦ ، ٣٨ ، ٤٠

٤١ ، ٤٩ ، ١١٩ ، ١٢٠ ، ١٢٣

٤٠٤ ، ٤٢٥ ، ٤٩٥ ، ٤٩٧ ، ٥٤٦

٥٥٧ ، ٦٥٤ ، ٦٥٨ ، ٦٦٤ ، ٦٨٧

طولون ؛ ٤٦٩

العامرية ؛ ٥٧٥

عدوة المغرب ، العدوة ؛ ٢٣١ ، ٢٤٥ ، ٢٦٤

٢٩٠ ، ٢٩٧ ، ٣٧٧ ، ٤٠٤ ، ٤٠٩

٤٢٥ ، ٤٢٦ ، ٤٢٨ ، ٤٩٢ ، ٤٩٦ -

٤٩٩ ، ٥٠٢ ، ٥٣٨ ، ٥٤٦ ، ٥٧٠

٦٠٧ ، ٦٠٩ ، ٦٢٨ ، ٦٧٥ - ٦٧٧

٦٨٨

للمراق ؛ ٢٤ ، ٦٩ ، ٧٢ ، ١١٨ ، ١٤٥

٤٥٤ ، ٥٠٥ ، ٦٩٣ ، ٦٩٤

حقبة البقر ؛ ٦٤٨

العليا ؛ ١٤٩

عين التمر ، موقعة ؛ ٢٣

غاليس (غاليا) ؛ ١٧ ، ٢٩ ، ٣٦ ، ٧٦

٧٨ ، ٨٠ ، ٨١ ، ٩٠ ، ٩٤ ، ١١٠

١١٤ ، ١٣٣ ، ١٣٧ ، ١٧٢ ، ١٧٧

٢٣٣ ، ٢٣٥ ، ٤٥٨ ، ٤٦٤ ، ٤٦٧

٤٧٠ ، ٤٧٤ - ٤٧٦ ، ٦٨٠

الغرب ؛ ٩٩ ، ١٠٩ ، ١١١ ، ١١٢ ، ١١٦

١٦١ ، ١٩٠ ، ٢٢٥ ، ٢٣٤ ، ٣٠٦

٦١٣ ، ٦١٥ ، ٦١٨ ، ٦٢٠ ، ٦٢٤ ،
٦٢٥ ، ٦٢٩ - ٦٣٢ ، ٦٣٤ ، ٦٣٦ -
٦٣٨ ، ٦٤٣ - ٦٥٤ ، ٦٥٧ - ٦٦٤ ،
٦٦٧ - ٦٧٠ ، ٦٨٢ - ٦٨٥ ، ٦٨٩ -
٦٩٤ ، ٦٩٦ - ٦٩٩ ، ٧٠١ ، ٧٠٣

قرطبة القديمة ؛ ٤٤٢

قرقشونة ؛ ٥٣ ، ٧٠ ، ٧٤ ، ٧٥ ، ٨٢ ،
١٠٤ ، ١٣٣ ، ٢٢٧

قرمونة ؛ ٥٢ ، ١١٦ ، ١٦٢ ، ٢٧٧ ،
٣١١ ، ٣٢٣ ، ٣٣٧ ، ٣٧٧ ، ٣٨١ ،
٦٧٠ - ٦٧٢ ، ٦٧٣ ، ٦٧٥

قطلونة ؛ ١٩٠

قطنينية ؛ ١٦ ، ١٧ ، ٢٨ ، ٥٤ ، ٥٧ ،
٥٩ ، ٩٣ ، ١٠٩ ، ١١١ ، ١١٢ ،
٢٨٢ ، ٤٣٦ ، ٤٣٧ ، ٤٥١ ، ٤٥٢ ،
٤٥٦ ، ٤٥٧

قشالة ؛ ٥١ ، ٢١٣ ، ٢١٥ ، ٢٦٤ ،
٣٩٤ ، ٤٠٠ ، ٤٠١ ، ٤٠٣ ، ٤١٥ ،
٤١٧ ، ٤٨٤ ، ٤٨٦ ، ٤٨٧ ، ٤٩٩ ،
٥٠٢ ، ٥٢٧ ، ٥٢٨ ، ٥٣١ ، ٥٣٨ ،
٥٤٩ ، ٥٥٢ ، ٥٦٢ - ٥٦٤ ، ٥٦٧ ،
٥٨٨ ، ٥٩٠ ، ٥٩١ ، ٥٩٢ - ٥٩٤ ،
٥٩٧ ، ٥٩٨ ، ٦٠٠ ، ٦١١ ، ٦١٣ ، ٦١٥

قصر أبي دانس ؛ ٤٨٨ ، ٥٥٩

القصر الزاهر ؛ ٤٣٥

قصر الزاهرة ؛ ٥٣٥ ، ٥٣٦ ، ٥٨٤ ، ٦١٠ ،
٦١٤ ، ٦١٥ ، ٦١٩ ، ٦٢٣ ، ٦٢٨ ، ٦٣٢

قصر الزهراء ؛ ٤٣٨ ، ٤٤٠ ، ٤٤٢ ، ٤٥٢ ،
٤٥٥ ، ٤٥٩ ، ٤٨٣ ، ٤٨٥ ، ٤٩٠ ،
٤٩٨ ، ٥٠٣ ، ٥٠٩ ، ٥٣٥ ، ٥٣٦ ،
٥٩٤

قصر الفاتيكان ؛ ٤٣٩

قصر قرطبة ؛ ١٥٤ ، ١٥٨ ، ١٦٤ ، ٢٤٤ ،
٢٤٧ ، ٢٤٩ ، ٢٥٥ ، ٢٧٥ ، ٢٧٧ ،
٢٨٩ ، ٢٩٠ ، ٣٠٢ ، ٣٢٣ ، ٣٥٢ ،
٣٧٤ ، ٣٩٠ ، ٣٩٨ ، ٤٠٠ ، ٤٠٢ ، ٤١٣ ،
٤١٦ ، ٤٣٧ ، ٤٤٨ ، ٤٥٣ ، ٤٥٨ ،
٤٨٥ ، ٥٠٦ ، ٥٠٩ ، ٥١٣ ، ٥١٧ ،
٥١٨ ، ٥٢٢ ، ٥٢٦ ، ٥٢٧ ، ٥٤٠ ،

قاسترو مورش ؛ انظر حسن شنت اشتين
القاهرة ؛ ٥٠٥

قبرس ؛ ٢٣

القبر المقدس ؛ ٢٣٤

قبر القديس ياقب ؛ ٥٦٠

قبر المنصور ؛ ٥٦٧

قبره ؛ ٣١١ ، ٣٢٠ ، ٣٢٤ ، ٣٣٨

قرجونة ؛ ٥٦١

قرطاجة القديمة ؛ ١٦ ، ٢١ ، ٢٥ ، ٤٣٧ ،
قرطاجة الأندلس ؛ ١٠ ، ١٣٢ ، ٢٠٠

قرطبة ؛ ٣٣ ، ٥٠ ، ٥٢ ، ٥٩ ، ٦٣ ،

٦٤ ، ٧٠ ، ٧٣ ، ٧٤ ، ٨٩ ، ١١٣ ،

١١٦ ، ١٢٣ - ١٢٥ ، ١٢٧ ، ١٣١ ،

١٣٢ ، ١٣٦ ، ١٥٣ ، ١٥٤ ، ١٥٧ -

١٦٧ ، ١٨١ ، ١٨٨ ، ١٨٩ ،

١٩٠ ، ١٩٤ ، ١٩٩ ، ٢٠٠ ، ٢٠٤ ،

٢٠٦ ، ٢٢٤ - ٢٢٧ ، ٢٣٠ ، ٢٣٣ ،

٢٣٥ ، ٢٣٧ ، ٢٣٨ ، ٢٤٢ - ٢٤٤ ،

٢٤٧ ، ٢٥٥ - ٢٥٧ ، ٢٦٠ ، ٢٦١ ،

٢٦٧ - ٢٧٠ ، ٢٧٣ ، ٢٧٥ ، ٢٧٩ ،

٢٨٢ ، ٢٨٣ ، ٢٨٥ ، ٢٩١ ، ٢٩٥ -

٢٩٦ ، ٢٩٨ ، ٣٠٠ ، ٣٠١ ، ٣٠٥ ،

٣٠٧ ، ٣١٠ ، ٣١٥ ، ٣١٧ ، ٣٢٠ -

٣٢٢ ، ٣٢٤ ، ٣٣٠ ، ٣٣١ ، ٣٣٦ -

٣٣٩ ، ٣٥٥ ، ٣٦٢ ، ٣٧٥ ، ٣٧٧ ،

٣٧٨ ، ٣٨٠ ، ٣٨٤ - ٣٨٦ ، ٣٨٩ -

٣٩١ ، ٣٩٥ ، ٣٩٦ ، ٣٩٨ ، ٣٩٩ ،

٤٠٢ ، ٤٠٥ ، ٤٠٧ ، ٤١٣ ، ٤١٨ ،

٤٢٠ - ٤٢٢ ، ٤٢٥ ، ٤٣١ ، ٤٣٢ ،

٤٣٥ - ٤٣٨ ، ٤٤٠ ، ٤٤٢ - ٤٤٧ ،

٤٤٨ ، ٤٥٠ ، ٤٥٤ ، ٤٥٦ ، ٤٥٧ ،

٤٥٩ ، ٤٦٦ ، ٤٦٧ ، ٤٨٠ ، ٤٨٥ ،

٤٨٧ ، ٤٨٨ - ٤٩٠ ، ٤٩٨ - ٥٠٠ ،

٥٠٢ - ٥٠٦ ، ٥٠٩ ، ٥١٣ - ٥١٦ ،

٥٢٣ ، ٥٢٤ ، ٥٢٦ ، ٥٢٩ ، ٥٣٥ -

٥٣٧ ، ٥٤٣ ، ٥٤٦ ، ٥٤٩ ، ٥٥١ ،

٥٥٢ ، ٥٥٥ - ٥٥٧ ، ٥٥٩ - ٥٦١ ،

٥٦٧ ، ٥٧٤ ، ٥٧٥ ، ٥٧٧ ، ٥٨٠ ،

٥٨٣ ، ٥٨٤ ، ٥٩٣ ، ٥٩٧ ، ٦٠٧ -

قورية ؛ ١٢٣ ، ١٣٢ ، ١٦٤ ، ١٦٦ ،
 ١٩٠ ، ٣٥٧ ، ٣٥٨ ، ٥٦٠ ،
 قوننة ؛ ٧٠ ، ٧١ ، ٣٠٧ ،
 القيروان ؛ ٢٠ - ٢٢ ، ٨٧ ، ١٢٠ ، ١٣٠ ،
 ١٦٢ ، ٤٩٩ ،
 كاماراج ؛ ٤٧٨ ،
 كانتابريا ؛ ١٣٢ ، ٢٠٨ ، ٢١٠ ، ٢١٣ ،
 ٢١٤ ، ٣٦١ ، ٧٠٠ ،
 كاتاجاس ؛ ٢١٨ ،
 كندرائية شنت ياقب ؛ ٢٢٠ ، ٢٢١ ، ٣٦١ ،
 ٥٦٠ ،
 كربلاء ؛ ١٢٧ ،
 كرونية ؛ ٥٦١ ،
 كلافينجو ؛ ٣٥٦ ،
 كلونية ؛ ٨٠ ،
 كوفادنجا ؛ ٢١٠ ، ٢١١ ،
 الكوفة ؛ ١٢٧ ، ١٤٣ - ١٤٥ ،
 كويانسا ؛ ٥٧٣ ،

ل - ي

لاردة ؛ ١٣٣ ، ٢٣٥ ، ٣٠٢ ، ٣٤٢ ،
 ٤١٠ ، ٦١٠ ، ٦٦٨ ،
 لاميجو ؛ ٥٦١ ، ٥٩٦ ، ٥٩٧ ،
 لبلبة ؛ ١٢٦ ، ١٣٢ ، ١٦٥ ، ٣٣٠ ، ٣٧٩ ،
 ٣٨٠ ، ٥٢٢ ، ٦٦٩ ،
 لزمة ؛ ٤٠٣ ،
 لقتت ؛ ٥٥ ، ٧٠ ، ٧١ ، ١٣٢ ، ١٦٠ ،
 لك ؛ ٧٠ ، ٢١٥ ، ٣٥٥ ،
 لوجدانيا ؛ ١٣٢ ،
 لوديف ؛ ٧٠ ،
 لورقة ؛ ٥٥ ، ٧٠ ، ١٣٢ ، ٣٢٣ ، ٣٣٠ ،
 ٣٩٩ ، ٥٤٣ ، ٦٩٠ ،
 لوزيتانيا ؛ ٧٠ ، وانظر البرتغال
 لوس بانبيوس ؛ ٥٢٧ ،
 لوشة ؛ ٣٣٠ ،
 لوطن (ليون فرنسا) ؛ ٥٣ ، ٨٤ ، ٩٠ ،
 ١٠٥ ، ١١٥ ،
 لونة ؛ ٦١٢ ،
 ليجوريا ؛ ٤٦٦ ، ٤٦٩ ، ٤٧١ ،
 ليون ، مدينة ؛ ٣٥٤ ، ٣٥٦ ، ٣٥٨ ،

٥٥٦ ، ٦٣٢ ، ٦٣٥ ، ٦٤٤ ، ٦٤٧ ،
 ٦٥٣ ، ٦٥٩ ، ٦٦٢ ، ٦٦٣ ، ٦٦٦ ،
 ٦٦٨ ، ٦٦٩ ،
 قصر مدينة سالم ؛ ٥٦٦ ،
 قصر مصمودة ؛ ٤٩٦ ،
 القصر المؤنس ؛ ٤٤٣ ،
 قصر ناصح ؛ ٦١٤ ، ٦٢٤ ،
 قطلونية ؛ ٢٢٦ ، ٢٤١ ، ٢٥٧ ، ٣٤٣ ،
 ٤٥٧ ، ٥٤٤ ،
 قندمة ؛ ١٦ ،
 قلعة ألانية (الخش) ؛ ٣٠٤ ، ٣٩٣ ،
 قلعة أوبيجو ؛ ٣٥٩ ،
 قلعة أيوب ؛ ٤٠٦ - ٤٠٨ ،
 قلعة بيدتر ؛ ٦٧٢ ،
 قلعة جلمانية ؛ ٣٠٤ ،
 قلعة حجر النسر ؛ ٤٩٢ ، ٤٩٦ ، ٤٩٧ ،
 قلعة رباح ؛ ١٩٠ ، ٢٥٩ ، ٢٩٢ ، ٢٩٤ ،
 ٣٢٨ ، ٣٢٩ ، ٣٧٥ ، ٦٣٠ ، ٦٣٦ ،
 ٦٤٦ ، ٦٦٢ ،
 قلعة رعواق ؛ ١٦٣ ،
 قلعة شنت منكش ؛ ٥٤١ ،
 قلعة ماردة ؛ ١٢٥ ،
 قلعة مزورنة ؛ ٤٠٣ ،
 قلعة مويش ؛ ٣٩٧ ،
 قلعة النور ، وموقة ؛ ٥٦٤ ، ٥٦٥ ،
 قلعة هنارس ؛ ٦٤٦ ،
 قلورية ؛ ٧٠ ، ٧٥ ، ٢٤١ ، ٣٠٥ ، ٣٥٤ ،
 ٣٥٨ ، ٤١٧ ، ٤٤٧ ، ٥٦٠ ، ٥٧٣ ،
 ٥٩٧ ،
 قلهرة ؛ ٢٣١ ، ٢٩٨ ، ٣٥٦ ، ٣٩٧ ،
 ٣٩٩ ، ٤٠٠ ، ٤٠٢ ، ٤٨٧ ،
 قلورية ؛ ٤٢٧ ،
 قلونية ؛ ٣٩٦ ، ٤٠٣ ، ٥٥١ ، ٦١٥ ، ٦٥١ ،
 قليانة ؛ ٤١٦ ،
 قمارش ؛ ٦٧٢ ،
 قتاليش ؛ ٥٦٣ ،
 قنسرين ؛ ٧٠ ، ١٤٩ ،
 قنطرة استجة ؛ ٥٧٧ ،
 قنطرة قرطية ؛ ٧٥ ، ٢٢٨ ، ٢٧٨ ، ٥١١ ،
 ٥٧٦ ،
 قورسنة ؛ ٢٦٦ ، ٤٦٦ ، ٤٧٥ ،

مرو ؛ ١٤٤ ، ١٤٥
المسارة ، موقعة ؛ ١٥٤ ، ١٥٥ ، ١٥٧ ، ١٦٠
١٦٤ ، ١٩٨ ، ٢٠٢ ، ٦٨١
مسجد أبي هرون ؛ ٤٢٥
مسجد بيشتر ؛ ٣٨٦
مسجد الزادرة ؛ ٥٣٥ ، ٥٧٩ ، ٧٠٤
مسجد الزهراء ؛ ٤٣٨ - ٤٤٠
مسجد سرقسطة ؛ ٤١١
منايوط ؛ ٤٠٤
المسياء ؛ ٤٩٣ ، ٤٩٤
المشرق ؛ ٥٣ ، ٥٤ ، ٥٦ ، ٧١ ، ٧٢
٩٣ ، ١٣١ ، ١٤٢ ، ١٤٦ - ١٤٨
١٦٦ ، ١٧٠ ، ١٨٧ ، ١٩٧ ، ٢٠٠
٢٣٠ ، ٢٣٦ ، ٢٧٩ ، ٢٨١ - ٢٨٣
٣١٥ ، ٤٣١ ، ٤٣٥ ، ٤٧٨ ، ٤٩٩
٥٧٩ ، ٦٨١ ، ٦٨٤ ، ٦٩٢ ، ٦٩٤
٦٩٩ ، ٧٠١ ، ٧٠٤
مصر ؛ ١٤ ، ١٥ ، ٢٠ ، ٢٣ - ٢٥
٧٢ ، ١٠٦ ، ١١٩ ، ١٢٠ ، ١٢٦
١٤٦ ، ١٥٠ ، ٢٤٥ ، ٤٩٤ ، ٤٩٩
٥٤٤ ، ٥٤٥ ، ٦٩٣ ، ٦٩٤ ، ٦٩٩
مطونية ؛ ٣٩٦
المغرب ؛ ٢٠ - ٢٢ ، ٣١ ، ٣٢ ، ٤١
٥٤ ، ٩٣ ، ٩٦ ، ١٢٢ ، ١٣١
١٤٢ ، ١٥٠ ، ١٧٠ ، ٢٤١ ، ٢٨١
٣١٤ ، ٣٣٧ ، ٤٢٥ ، ٤٢٧ ، ٤٣٨
٤٣٩ ، ٤٩٢ - ٤٩٤ ، ٤٩٦ ، ٤٩٩
٥٠٦ ، ٥٠٩ ، ٥٤٤ - ٥٤٨ ، ٥٥٥
٥٥٧ - ٥٥٩ ، ٥٧٠ ، ٦٠٩ ، ٦٥٦
٦٦٤ ، ٦٧٧ ، ٦٨٧ ، ٦٨٨ ، ٧٠٢
المغرب الأقصى ؛ ١٩ ، ٢٢ ، ٢٥ ، ٣٨
٤١ ، ٦٦ ، ١١٨ - ١٢٠ ، ١٥١
٤٠١ ، ٤٢٩ ، ٤٣٠ ، ٤٥٦ ، ٤٨٨
٤٩٣ ، ٤٩٤ ، ٥١٢ ، ٥١٩ ، ٥٤٤ -
٥٤٧ ، ٦٥٦ ، ٦٦٨ ، ٦٧٠
المغرب الأوسط ؛ ٤٩٣ ، ٤٩٤ ، ٥٤٧
المكتبة الأموية ؛ ٢٨٢ ، ٥٠٤ - ٥٠٦
٥٠٨ ، ٥٠٩ ، ٥٨٠ ، ٧٠١
مكناسة ؛ ١٦٤ ، ٥٥٧
مكة ؛ ٦٨ ، ١٤١ ، ١٤٣ ، ١٦٣
ملاقون ؛ ٤١٦

٣٦١ ، ٥٣١ ، ٥٤١ ، ٥٤٢ ، ٥٤٨
٥٥٢ ، ٥٥٩ ، ٥٦٤ ، ٥٧٣ ، ٥٨٩
٥٩٠ ، ٥٩١ ، ٥٩٦ ، ٥٩٨ ، ٥٩٩
ليون ، القطر ؛ ٥١ ، ٧٥ ، ١٦٩ ، ٢٦٥
٣٠٤ ، ٣٠٦ ، ٣٩٦ ، ٤٠٣ ، ٤٠٥
٤٠٦ ، ٤١٣ ، ٤٢٠ ، ٤٢٢ ، ٤٥٩
٥٤٢ ، ٥٤٧ ، ٥٥٢ ، ٥٩١ ، ٥٩٢
٥٩٧
ماجلون ؛ ٧٠ ، ١١٥ ، ١٣٣
ماردة ؛ ٥٢ ، ٧٠ ، ٧١ ، ١٢٣ ، ١٢٥
١٣٢ ، ١٦٥ ، ١٦٦ ، ٢٢٤ ، ٢٢٥
٢٣٣ ، ٢٣٧ ، ٢٥٧ ، ٢٥٩ ، ٢٨٢
٣٠٣ ، ٣٠٤ ، ٣٠٦ ، ٣٢٩ ، ٣٥٨
٣٩٣ ، ٥٦٤
ماسون ؛ ٨٤ ، ٨٥
مالقة ؛ ٥٠ ، ٥٥ ، ٧٠ ، ١٣٢ ، ٣٠٧
٣٠٨ ، ٣١٨ ، ٦٥٠ ، ٦٥٨ ، ٦٥٩
٦٦٢ - ٦٦٤ ، ٦٦٧ ، ٦٦٨ ، ٦٧٠
٦٧١ ، ٦٧٢ - ٦٧٦ ، ٦٨٣ ، ٦٩٠
متر ؛ ١٧١
المجلس الزاهر ؛ ٤٥٣
المجلس الشرقي ؛ ٤٨٥ ، ٤٩٠ ، ٤٩٨ ، ٥١٣
مخارس ؛ ٤١٦
مخاضة الفتح ؛ ١٩٠
مدلين ؛ ١٦٥
مدينة الباب ؛ ٨٨
المدينة ، موقعة ؛ ٣٢٨
مدينة سالم ؛ ٢٥٦ ، ٣١١ ، ٣٢٣ ، ٣٥٤
٣٥٦ ، ٣٩٦ ، ٣٩٧ ، ٤٢٢ ، ٤٨٥
٤٩٩ ، ٥٠٢ ، ٥١٢ ، ٥٢٨ ، ٥٣٧
٥٣٨ ، ٥٦٢ ، ٥٦٥ - ٥٦٧ ، ٦٠٧
٦٠٩ ، ٦١٢ ، ٦٤٤ ، ٦٤٦ ، ٦٤٨
مدينة الفرج ؛ انظر وادي الحجارة
المدينة المنورة ؛ ١٤١ ، ٢٢٩
موبلة ؛ ٦٤٩
موتش ؛ ٢٧٢
موج راهط ، موقعة ؛ ١٥٤
مرسيابا ؛ ٢٦٦ ، ٤٦٦ ، ٤٦٨ ، ٤٧٤
مرسية ؛ ٥٠ ، ٧٠ ، ١٣٢ ، ٣٢٣ ، ٣٩٩
٤٣٠ ، ٥٤٣ ، ٦٥٨

نهر دويرة ؟ ٧٠ ، ١٣٢ ، ١٣٣ ، ٢١٢ —
 ٢١٥ ، ٢٢٢ ، ٢٤١ ، ٣٠٦ ، ٣٥٤
 ٣٥٧ ، ٣٥٨ ، ٣٩١ ، ٣٩٣ ، ٣٩٦
 ٤١١ ، ٤١٧ ، ٤٢٠ ، ٤٨٧ ، ٥٠١
 ٥٤٨ ، ٥٥٢ ، ٥٦٠ ، ٥٦١ ، ٥٦٤
 ٥٦٥ ، ٥٧٣ ، ٥٩٦ ، ٥٩٧ ، ٦١٣
 ٦١٥ ، ٦٧٦
 نهر الرون ؟ ٥٣ ، ٩٠ ، ٩٣ ، ٩٦ ، ١١٤
 ١١٦ ، ١٣٣ ، ٢٩٧ ، ٤٥٧ ، ٤٦٥ ، ٤٦٧
 نهر الرين ؟ ٧٧ ، ٧٨ ، ٩١ ، ٩٥ ، ١٧١
 ١٧٦
 نهر الزاب ؟ ١٤٥
 نهر شلب ؟ ٤٨٨
 نهر شنت مانكش ؟ ٤١٥
 نهر شيل ؟ ٣٢٣ ، ٣٢٧ ، ٣٧٧
 نهر الفرات ؟ ٩١ ، ١٤٥ ، ١٥٠
 نهر الفوشكة ؟ ٣٢٥
 نهر الثمين ؟ ٩٩ ، ١٠٠
 نهر الكريز ؟ ٩٩
 نهر الكاين ؟ ٩٩ ، ١٠٠ ، ١١٥
 نهر اللوار ؟ ٢٩ ، ٧٨ ، ٨١ ، ٩٠ ، ٩٩
 ١٠٠ ، ١٠٤ ، ٢٢٢ ، ٢٦٦
 نهر الموزل ؟ ٧٧
 نهر منهو ؟ ٣١١ ، ٥٦٠ ، ٥٦٠ ، ٥٩٧
 نهر النيل ؟ ٩١
 نهر نبيي ؟ ٢٢
 نهر الوادي الكبير ؟ ٧٠ ، ٧٥ ، ١٥٤
 ١٥٩ ، ١٦٦ ، ١٩٠ ، ٢٦٣ ، ٢٧٨
 ٢٩٢ ، ٢٩٦ ، ٣٢٥ ، ٤٤٢ ، ٤٨٨
 ٤٨٩ ، ٥١١ ، ٥٣٥ ، ٥٧٦ ، ٦٣٢
 ٦٨٧
 نهر وادي لكة ؟ ٤٢ ، ٤٤ ، ١٢٧
 نهر وادي ياره ؟ ٥٢١ ، ٦٤٩
 نهر وادي يانة ؟ ٧٠ ، ١٣٢ ، ١٦٥ ، ٦٥٨
 نوستريا ؟ ٧٩ ، ٨٠ ، ٩٦
 نيس ؟ ٤٧٠
 نيسابور ؟ ١٤٥
 نومانيا ؟ ٥٦٤
 نيمة ؟ ٧٠ ، ٧٤ ، ١١٥ ، ١٣٣ ، ٦٩٧
 همدان ؟ ٤٠

مليلة ؟ ٤٢٦ ، ٥٤٧ ، ٦٧٥
 منزل هاني ؟ ٦٣٦
 المنكب ؟ ١٥٢ ، ١٥٣ ، ٦٥٩
 منورقة ، جزيرة ؟ ٢٥ ، ٢٦٢
 منية جعفر ؟ ٦٢٤
 منية العقاب ؟ ٦٤٧
 منية كنتش ؟ ٣١٥
 منية ناصح ؟ ٥٠٩
 منية الناعورة ؟ ٥٠٩
 منية نصر ؟ ٤١٦
 مورور ؟ ٣١١ ، ٦٥٤
 الموصل ؟ ١٤٥
 مون سني ؟ ٤٦٨
 مونسراتو ؟ ٤٦٩
 المهديّة : ٦٩٩
 ميرانده ؟ ٣٩١
 ميرتلة ؟ ٣٣٠
 ميزيا ؟ ٢٨
 ميورقة ، جزيرة ؟ ٢٥ ، ٢٦٥ ، ٥١١
 فاجرة ؟ ٣٩٥ ، ٣٩٨ ، ٥٦٣ ، ٥٩٩
 فاقار (نبرة) ؟ ٧٤ ، ٢١٠ ، ٣٠١ ، ٣٤٢
 ٣٤٣ ، ٣٥٤ ، ٣٦١ ، ٣٦٣ ، ٣٩٩
 ٤٠٠ ، ٤٠٢ ، ٤٨٧ ، ٤٩٠ ، ٥٣١
 ٥٤٨ ، ٥٤٩ ، ٥٦٢ ، ٥٦٣ ، ٥٦٤
 ٥٨٣ ، ٥٩٠ ، ٥٩٩ ، ٦٠٠ ، ٦٠١
 ٦١٢
 نكور ؟ ٤٢٦
 نهر ارون ؟ ٢٤٢
 نهر الايزر ؟ ٤٧٠
 نهر بارباتي ؟ ٤٢ ، ٤٤
 نهر يارسياس ؟ ٣٥٥
 نهر يو ؟ ٤٧١
 نهر التاجه ؟ ٧٠ ، ٧١ ، ١٣٢ ، ١٦٥
 ٢٤١ ، ٢٩٣ ، ٢٩٥ ، ٣٤٦ ، ٣٥٨
 ٣٩٣ ، ٤١٣
 نهر التيمز ؟ ٩١
 نهر الحارون ؟ ٢٩ ، ٧٤ ، ٩٠ ، ٩٣
 ١٠٢ ، ١٠٣ ، ٢٦٢
 نهر الدانوب ؟ ٢٨ ، ٣٠ ، ٥٣ ، ٢٤٩
 نهر دجلة ؟ ١٤٥

وادی منبیس ؟ ١٦٦	وادی الأحمر ؟ ١٩٠
وادی منی ؟ ٥٥٨ ، ٥٥٧	وادی آش ؟ ٦٦٠ ، ٣٧٦ ، ٣٣٦ ، ٣٠٤
ویژة ؟ ٣٤٠	وادی بلون ؟ ٣٣٨
وجلة ؟ ٥٤٧	وادی الحجارة ؟ ٢٩٩ ، ٢٠٦ ، ١٣٢
وشقة ؟ ٧٠ ، ١٣٣ ، ١٧٤ ، ٢٢٦ ، ٢٢٧	، ٣١١ ، ٣٥٤ ، ٣٩٦ ، ٤٠١ ، ٤٠٧
٢٣١ ، ٢٣٢ ، ٢٣٩ ، ٢٩٨ ، ٣٠٦	٤١٦ ، ٤١٨ ، ٥٢٨ ، ٥٤٩
٣٠٢ ، ٣٤٢ ، ٤٠٧ ، ٤٨٧ ، ٦١٢	وادی الرون ؟ ١٠٥ ، ٩٧ ، ٨٤ ، ٨٢
وستفاليا ؟ ١٦٩	وادی زارات ؟ ٥٥٧
یابرة ؟ ٧٠ ، ٣٩٢	وادی سبسر ؟ ١٢٠
الینن ؟ ٧٠	وادی سلف ؟ ١١٩
الیرکرین ؟ ٢٨	وادی سلیط ، وموقة ؟ ٣٥٦ ، ٢٩٣ ، ١٢٤
الیونان ؟ ٢٨	وادی قیس ؟ ١٦٠
	وادی ملویة ؟ ٤٩٣

فهرست الأعلام

— ١ —

ابن حزم ، أحمد بن سعيد الوزير ؛ ٤٣٨ ،
٥٣٩ ، ٥٥٣ ، ٥٧٤ ، ٦٣٥
ابن حزم ، الفيلسوف ؛ ١٢٩ ، ٢٥١ ،
٢٦٠ ، ٢٧٨ ، ٣٢١ ، ٣٤٩ ، ٥٠٤ ،
٥٠٦ ، ٥٣٩ ، ٥٤٠ ، ٥٥٣ ، ٦٥٧ ،
٦٦٣ ، ٦٦٥ ، ٦٦٧ ، ٦٩٤ ، ٧٠٤
ابن خلدون ؛ ٣٠٩
ابن حوقل ؛ ٤٣٩ ، ٤٤٧
ابن حيان ؛ ١٠٨ ، ١٢٩ ، ١٩٩ ، ٢٤١ ،
٢٦٠ ، ٢٩١ ، ٢٩٧ ، ٢٩٩ ، ٣٠٨ ،
٣١٠ ، ٣٢٥ ، ٣٤١ ، ٣٤٩ ، ٣٥١ ،
٣٧٨ ، ٣٩٥ ، ٤١٥ ، ٤١٦ ، ٤١٨ ،
٤٢١ ، ٤٢٤ ، ٤٢٥ ، ٤٢٧ ، ٤٣١ ،
٤٣٢ ، ٤٣٤ ، ٤٣٨ ، ٤٦١ ، ٤٦٢ ،
٤٨٩ ، ٤٩٧ ، ٤٩٨ ، ٥٠٤ ، ٥٠٥ ،
٥١٠ ، ٥١١ ، ٥١٣ ، ٥١٩ ، ٥٢٢ ،
٥٢٧ ، ٥٣٠ ، ٥٧١ ، ٥٨١ ، ٥٨٢ ،
٥٨٥ ، ٦٠٨ ، ٦٢٠ ، ٦٢٥ ، ٦٢٨ ،
٦٥٩ ، ٦٦١ ، ٦٦٤ ، ٦٦٥ ، ٦٨٦
ابن خطاب (أحمد بن عبد الرحمن) ؛ ٥٤٣
ابن خلدون ؛ ١٧ ، ٤٨ ، ٥٣ ، ٦٨٩ ،
٦٩ ، ٨٣ ، ١٠٦ ، ١١٧ ، ١٤٩ ، ١٩٧ ،
٢١٠ ، ٢١٥ ، ٣٣١ ، ٤٦١ ، ٤٨٧ ،
٥٣١ ، ٥٤٠
ابن خلكان ؛ ١٠٥ ، ١٠٧ ، ١٤٩
ابن دحية البلنسى ؛ ٢٨٤ ، ٢٨٥
ابن دراج القسطل ؛ ٥٥٦ ، ٥٥٨ ، ٥٦١ ،
٦١٠ ، ٦٢٠ ، ٦٢١ ، ٦٢٩ ، ٧٠٤
ابن ذكوان ، أبو العباس ؛ ٥٨٠ ، ٦٢٥ ،
٦٢٦ ، ٦٢٨ ، ٦٣٦ ، ٦٤٥ ، ٦٤٧ ،
٦٥٣
ابن راشد ؛ ٣٩٣
ابن ذرى الحاجب ؛ ٦٣٧
ابن زيان ؛ ٨٨
ابن زيدون ؛ ٤٤٠

أبان بن عبد الله ؛ ٣٣٦ ، ٣٣٨
أبدال ؛ ١٧٢ ، ١٧٥
إبراهيم الإمام ؛ ١٤٣ - ١٤٥
إبراهيم بن حجاج ؛ ٣٣١ - ٣٣٤ ، ٣٣٧ ،
٣٧٧
إبراهيم بن شجرة ؛ ١٨٦
إبراهيم بن عثمان بن بشار ؛ انظر أبو مسلم .
أبلو ، الكونت ؛ ٢٥٦
ابن الأبار القضاعى ؛ ٤٦٠ ، ٥١١ ، ٦٩٦
ابن أبي عمرو العريف ؛ ٥١٢
ابن أبي يزيد المصر ؛ ٦٢٨
ابن الأثير ؛ ٤٨ ، ١٠٦ ، ١٤٩ ، ٢١٥ ،
٣٢٢ ، ٤٦٣ ، ٥٨٤
ابن الأغلب ؛ ٢٣١ ، ٣١٨
ابن التياتى النديم ؛ ٥٧٩
ابن الحجاب ، عبيد الله ؛ ١٠٦ - ١٠٨ ،
١١٣ ، ١١٧ - ١١٩
ابن الخطيب ، لسان الدين ؛ ٣٤٤ ، ٤١٥ ،
٤١٩ ، ٤٢٠ ، ٤٥١ ، ٥٠٤ ، ٥١٠ ،
٥١٩ ، ٥٢٥ ، ٥٦٧ ، ٥٧٠ ، ٥٧١ ،
٥٧٦ ، ٥٧٨ ، ٥٨٥ ، ٦٣١ ، ٦٣٢ ،
٦٥٧
ابن الزبير ، عبد الله ؛ ١٩ ، ٢١ ، ١٥٤
ابن الطريشة ؛ ٣٤٠
ابن العراف النديم ؛ ٥٧٩
ابن الفرضى ؛ ١٢٩
ابن القط ، أحمد بن معاوية ؛ ٣٤٥ ، ٣٦٠
ابن القوطية ، أبو بكر ؛ ٦١ ، ١٢٩ ، ٢٤٣ ،
٢٧٥ ، ٣٢١ ، ٥٠٧ ، ٥٢١ ، ٧٠٠ ، ٧٠١
ابن بسام ؛ ٦٥٤ ، ٦٦٦ ، ٦٩٥
ابن بشكوال ؛ ١٠٨
ابن بقتة ، أبو جعفر ؛ ٦٧١ ، ٦٧٢ ، ٦٧٣
ابن جليل ، سليمان بن حسان ؛ ٤٥٣ ، ٤٥٤

أبو بكر الأبهري ؛ ٥٠٥
أبو بكر الزبيدي ؛ ٥٠٣ ، ٥٨٠
أبو بكر بن معاوية القرشي ؛ ١٤٥٧ ، ١٤٥٢ ، ٧٠١
أبو ثور بن قسي ؛ ١٧٤ ، ٢٢٧
أبو جعفر المنصور ؛ ١٣٥ ، ١٣٦ ، ١٤٦ ،
١٦١ - ١٦٣ ، ١٧١ ، ١٩٤ ، ١٩٧ ،
٢٣٤ ، ٢٥٠
أبو حفص البلوطي ؛ ٢٤٥ ، ٢٨٢
أبو صفوان ، حاكم سرقطة ؛ ٢٣٢
أبو عامر بن شهيد ؛ ٦٦٥
أبو عثمان ؛ أنظر عبيد الله بن عثمان
أبو علي القتالي ؛ ٤٥٤ ، ٥٠٥ ، ٥٠٧ ، ٥٢١ ،
٥٧٩ ، ٧٠١
أبو عمر بن أبي عمر ؛ ٤٠٧
أبو عون عبد الملك بن يزيد ؛ ١٤٥
أبو كعب بن عبد البر ؛ ٢٣٦
أبو مسلم الخراساني ؛ ١٤٣ - ١٤٦
أبو نصر الرازي ؛ ٣٨٥
أبو نور بن أبي قرعة اليفرنى ؛ ٦٧٤ ، ٦٧٥
أبو هاشم عبد الله ؛ ١٤٣
أبو يحيى التجيبى (الأنقر) ؛ ٣٤٠ ، ٣٤١
أناذاجلد بن تيودمير ؛ ١٢٦
أتيلا التتري ؛ ٢٩
أجنهارت ؛ ١٧٢ ، ١٨١
أچيكا ؛ ٣١ ، ٣٢ ، ٣٣
أحمد بن أحمد بن بقر بن محمد ؛ ٤٢٩
أحمد بن اسحاق القرشي ؛ ٣٨٩ ، ٤٠٨ ، ٤٠٩
أحمد بن الأسعد ؛ ٤٩١
أحمد بن البراء ؛ ٣٤١
أحمد بن برد (أبو حفص) ؛ ٦١٠ ، ٦١٩ ،
٦٢٠ ، ٦٢٥ ، ٦٢٦ ، ٦٢٨ ، ٦٦٠ ،
٦٦٣ ، ٦٦٥
أحمد بن خالد بن أمية بن عيسى بن شهيد ؛ ٤٦١
أحمد بن زياد اللخمي ؛ ٣٧٤
أحمد بن سهل بن محمد ؛ ٤٦١
أحمد بن عباس ؛ ٦٧٢
أحمد بن عبد الله (عم الناصر) ؛ ٣٨٤
أحمد بن عبد الله (عامل ربه) ؛ ٣٠٨

أبن سالم ؛ ٢٩٩
أبن شاكرك ؛ ٣٠٠
أبن شكوح ، أمير البحر ؛ ٢٩٦
أبن عبد البر ؛ ٢٩١
أبن عبد الحكم ؛ ٤٧ ، ٥٧ ، ٥٧٧
أبن عبد ربه ، أبو عمر ؛ ٢٢٤ ، ٣١٥ ،
٣٢١ ، ٣٢٦ ، ٣٣٤ ، ٣٥١ ، ٣٧٤ ،
٣٧٨ ، ٣٨٠ ، ٤٠٧ ، ٤٠٨ ، ٤٦٢ ،
٦٩٥ ، ٦٩٦ ، ٧٠٠
أبن عربي ، محبى الدين ؛ ٤٤١
أبن عذارى المراكشي ؛ ١٠٧ ، ٦٥٧
أبن عطف ؛ ٣٧٦
أبن عياش ، أبو عبد الله ؛ ٥٥٣ ، ٥٧٤ ،
٥٧٥
أبن غالب ؛ ٢٠٤
أبن غومس ؛ ٦٣٧
أبن محمد القاضي ؛ ٤٥٠
أبن مسرة الجليل ؛ ٤٣٠ - ٤٣٢ ، ٤٣٤ ، ٦٩٨ -
٧٠٠ ، ٧٠٠
أبن مناو ؛ ٦٥١ ، ٦٥٢
أبن ميمون ؛ ٢٠٦
أبن هبيرة ؛ ١٤٥
أبن وضاح ؛ ٤٣١
أبن وليد الكلبي ؛ ٤٧٤
أبن يحيى أمير سرقطة ؛ ٤١٩ ، ٤٢٠
أبن يصل ؛ ٤٢٦
أبو الاصغ موسى بن خطاب ؛ ٥٤٣
أبو الخطار الكلبي (حسام بن ضرار) ؛ ٦١ ،
١٢٥ - ١٢٧ ، ١٣٠ ، ١٣١ ، ٦٨١
أبو الشاخ زعيم اليمنية ؛ ٢٥٤
أبو الصباح بن يحيى اليعصبى ؛ ١٥٣ ، ١٦٤ -
١٦٦ ، ١٩٤
أبو العيش بن أيوب ؛ ٤٩٧
أبو العيش الحنسي ؛ ٤٢٦
أبو الفتوح بن ناصر ؛ ٦٤٤
أبو الفرغ الأصفهاني ؛ ٥٥٥
أبو القاسم بن يوسف الفهري ؛ ١٥٩ ، ١٦٠ ،
١٩٠
أبو المطرف بن عون الله ؛ ٦١٣
أبو المهاجر الأنصاري ؛ ٢٠

- أحمد بن عبد ربه ؛ أنظر ابن عبد ربه
أحمد بن عبد الملك بن شهيد ؛ ٤٦٢ ، ٤٦٦ ، ٤٦٢ ، ٥١١
أحمد بن عبد الوهاب بن عبد الرؤوف ؛ ٤٦٢
أحمد بن عيسى بن أبي عبدة ؛ ٣٨٦ ، ٣٤٧
أحمد بن محمد بن أبي عبدة ؛ ٣٣٦ ، ٣٢٤ -
أحمد بن محمد بن إلياس ؛ ٤٠٦ ، ٤٠٧ ، ٤٠٩ ، ٤٢٤ ، ٤٦١ ، ٤٦٢
أحمد بن محمد بن حدير ؛ ٣٧٤ ، ٣٨٦ - ٣٨٨ ، ٣٩٩ ، ٤٤٧ ، ٤٦٠ ، ٤٦٢ ، ٥٢٣ ، ٥٢٩ ، ٥٧٤ ، ٦٨٥
أحمد بن محمد الرازي ؛ ٣٨٦ ، ٣٨٨ ، ٧٠٠
أحمد بن محمد بن زياد ؛ ٣٧٨ ، ٤٦١
أحمد بن محمد بن عيسى ؛ ٤٦١
أحمد بن محمد القسطلي ؛ ٥٠٣
أحمد بن مسلمة ؛ ٣٧٧
أحمد بن موسى ؛ ٦٦٨
أحمد بن موسى العروى ؛ ٧٠١
أحمد بن هاشم بن عبد العزيز ؛ ٣٣٢ ، ٣٣٨
أحمد بن يميل ؛ ٤٢٣ ، ٤٢٧ ، ٥٩٣
أدريان ، الإمبراطور ؛ ٥٠٨
إدريس بن إدريس الحنفي ؛ ٢٤١
إدريس بن عبد الله بن الحسين ؛ ٦٥٧
إدريس بن علي بن حمود المتأيد ؛ ٦٦٢ ، ٦٦٤ ، ٦٧١ ، ٦٧٢
إدريس بن يحيى المعتلي (العالي) ؛ ٦٧١ ، ٦٧٣ ، ٦٧٥
إدريس بن يحيى بن أدريس (السامي) ؛ ٦٧٥
الإدريسي ، الشريف ؛ ٤٨ ، ٤٩ ، ٤٤١
أدلبرت ؛ ٤٧٣
إديكو ؛ ٤١
أرختنا بنت عمر بن حفصون ؛ ٣٨٣ ، ٢٨٧
أردة نيو الأزل (ملك ليون) ؛ ٢٩٢ ، ٢٩٧ -
أردونيو الثاني ؛ ٢٩٢ - ٢٩٨ ، ٤٠٠ ، ٥٨٩ ، ٥٩١
أردونيو الثالث ؛ ٤٥٩ ، ٤٨٤ - ٤٨٦ ، ٥٩٣ ، ٥٩٧ ، ٥٩٩ ، ٦٠٠
أرد نيو الرابع ؛ ٥٩٣ ، ٥٩٤ ، ٥٩٧
أردنبلس الوياحي ؛ ٣٧٥
- أرمانئوس (ومانوس) ، القيصر ؛ ٤٥٣ ، ٤٥٤
أرموزنفة ؛ ٢١٣
أرمنجو ، الكونت ؛ ٦٤٨
أرميخو الأسقف ؛ ٣٩٧
أرنولد ؛ ١١٠
أروزندا ؛ ٢١٨ ، ٢١٩
أزنا ؛ ٢٥٦
ازوار ؛ ٣٦٢
اسحاق الموصل ؛ ٢٨١
اسحاق بن إبراهيم ؛ ٣٣٠
اسحاق بن محمد البرزالي ؛ ٦٧٥
اسحاق بن محمد القرشي ؛ ٣٧٩
اسحاق بن المنذر ؛ ٢٥١
أسد بن الحرث ؛ ٣٠٧
اسكندر سيقروس ، الإمبراطور ؛ ٢٨
أسلم بن عبد العزيز بن هشام ؛ ٤٦١
أسماء بنت غالب ؛ ٥٢٩
إسماعيل بن بدر ؛ ٤٠٢ ، ٤٦٠ ، ٤٦١ ، ٦٩٦ ، ٦٩٨
إسماعيل بن الحبحاب ؛ ١١٩
إسماعيل بن عباد ؛ ٦٧٠ ، ٦٧٢
إسماعيل بن عبدة الله ؛ ١١٩
إسماعيل بن لب ؛ ٢٩٩
إسماعيل بن موسى بن ذى النون ؛ ٢٦٥ ، ٢٩٩ ، ٣٠١ - ٣٠٣
أستار ، الكونت ؛ ٣٤٣
آسورفرناندز ؛ ٥٩١
أصغ بن سلمة ؛ ٦١١
أصغ بن عبد الله بن وانوس ؛ ٢٣٧
الأصمعي ؛ ٦٩٣
الأصيلي ؛ ٥٨٠
أغلب بن شعيب ؛ ٦٩٦
أفلق الصقلبي ، الوصيف ؛ ٣٤٨
أفلق صاحب الخيل ؛ ٤٥١ ، ٥٠٠
أفلق الفتي ، حاكم ألمرية ؛ ٦٥٨
الارليك ؛ ٢٨ - ٣٠ ، ٤٤ ، ٧٨
ألبرو القرطبي ؛ ٢٦٩ ، ٢٧١
إلييرة ، الراهبة ؛ ٤٨٩ - ٤٩١ ، ٥٩٦ ، ٥٩٧

أوتو الثاني ؛ ٤٩١
 أودلرادو ؛ ٥٤٤
 أودو ، أمير أكويتين ؛ ٨٠ ، ٨١ ، ٨٦ -
 ٩٠ ، ٩٦ ، ٩٨ ، ١٠١ ، ١٠٣ ، ١٠٣ ،
 ١٠٨ ، ١١٣ - ١١٥ ، ١٣٧
 أورাকা ابنة طوطة ملكة ناغار ؛ ٥٩٢ ، ٥٩٩ ،
 ٦٠٠
 أورাকা بنت فرنان كونشالك ؛ ٥٩١ ، ٥٩٣ ،
 أورسيوس المورخ ؛ ٤٥٣ ، ٤٥٤ ، ٥٠٥ ،
 أورليوس ؛ ٢١٨ ، ٢٢٠
 أوروية بنت موسى القسوي ؛ ٣٠٠
 الاوزاعي ، الإمام ؛ ٢٢٩
 أوغسطس ، الإمبراطور ؛ ٥٠٨
 أوليفر ؛ ١٨١ ، ١٨٢
 أولونخيو ، سان ؛ ٢٧٠ ، ٢٧٢ ، ٢٧٣ ،
 ٢٧٩ ، ٢٩٣ ، ٢٩٦ ، ٣٠٣
 إيجلونا ؛ ٧١ ، ٧٢
 إيجهارد ؛ ١٨١
 إيزيدور الباجي ؛ ٣٤ ، ٣٧ ، ٤٥ ، ٦٣ ،
 ٧٦ ، ٨٢ ، ٩٠ ، ٢٠٩
 إيفا ؛ ٣٤ ، ٤٤ ، ٦٠ ، ٦١
 إيمون ؛ ٤٧١
 أيوب بن حبيب اللخمي ؛ ٧٣ ، ٦٨٠
 أيوب بن عمر بن حفصون ؛ ٢٨٣

ب - ت - ث

باديس بن حبوس ؛ ٥٠٧ ، ٦٧١ ، ٦٧٢ ،
 ٦٧٤ - ٦٧٦
 باسيه ، المستشرق ؛ ١٨٢
 بين القصير ، الملك ؛ ١٣٣ ، ١٧٠ ، ١٧١ ،
 ١٧٤ ، ٢٣٤ ، ٢٦٦
 بين دى هرشال ، محافظ القصر ؛ ٨٠
 بين بن شارلمان ؛ ٤٦٦
 بتروس ، الدوق ؛ ٢٠٨ ، ٢١٠ ، ٢١٣ ،
 بدر الصقلبي ؛ ٣٤٧
 بدو القائد ؛ ٢١٨
 بدر مولى عبد الرحمن الداخل ؛ ١٥٠ - ١٥٢ ،
 ١٦٢ ، ١٦٣ ، ١٦٥ ، ١٦٦ ، ١٨٧ ،
 ١٩٣ ، ١٩٨ ، ٢٠١ ، ٢١٦

البيرة ، والدة ألفونسو الخامس ؛ ٢١١
 ألتاميرا ، أفانيل ؛ ٦٦ ، ٧٤ ، ٢١٢ ،
 ٢٢١ ، ٢٧٠
 ألفايدة ؛ ٨٠
 ألفونسو ، أمير ليون ؛ ١٦٩
 ألفونسو الأول ، دوق كانتبريا ؛ ١٣٨ ،
 ١٦٩ ، ٢١٣ - ٢١٨ ، ٢٢٠ - ٢٢٠ ،
 ٣٥٤
 ألفونسو الثاني ، العفيف ؛ ٢١٨ ، ٢٢٠ ،
 ٢٢٦ ، ٢٢٨ ، ٢٣٥ ، ٢٤١ ، ٢٥٥ ،
 ٢٥٨ ، ٢٦١ ، ٣٥٣ - ٣٥٥
 ألفونسو الثالث الكبير ؛ ٢٩٩ ، ٣٠٢ -
 ٣٠٤ ، ٣٠٦ ، ٣٢٧ ، ٣٤٢ ، ٣٤٥ ،
 ٣٤٦ ، ٣٥٨ - ٣٦١ ، ٣٩١
 ألفونسو الرابع ؛ ٥٨٩ ، ٥٩٠ ، ٥٩٣ ،
 ألفونسو الخامس ؛ ٥٦١ ، ٥٦٤ ، ٥٩٩ ،
 ٦١١ ، ٦١٣ ، ٦٢٩
 ألفونسو العالم (العائش) ؛ ٣٤ ، ٣٧ ، ٤٩٩
 ألفونسو القس (جد ابن حفصون) ٣٠٨
 الإقطاع ؛ ١٩٤
 أم الأصغ أخت عبد الرحمن ؛ ١٥٠
 أم الحكم بنت المستعين ؛ ٦٦٦
 أمية بن اسحاق ؛ ٤٠٨ ، ٤٠٩ ، ٤١٣ ،
 ٤٢٠ ، ٤٢١
 أمية بن الحكم ؛ ٢٥٨
 أمية بن عبد الرحمن ؛ ٢٣٧
 أمية بن عبد الرحمن العراقي ؛ ٦٦٩
 أمية بن عبد الغافر بن أبي عبدة ؛ ٣٣١ ، ٣٣٢ ،
 أمية بن عبد الملك بن قطن ؛ ١٢٣ - ١٢٦ ، ١٦٢ ،
 أمية بن عيسى بن شهيد ؛ ٣١٣
 أمية بن معاوية بن هشام ؛ ٢٥٦
 آزيموند ، الكونت ؛ ١٣٣ ، ١٣٧
 أنسلم ؛ ١٨١
 أنشودة رولان ؛ ١٧٨ ، ١٨٠ - ١٨٢
 أنجه الفرنجي ؛ ٤٢١
 أنجو أريستا ؛ ٣٦٢
 أوباس ؛ ٣٤ ، ٤٥ ، ٥١ ، ٦٠ ، ٢١١
 أوتو الأكبر ؛ ٤٥٦ - ٤٥٨ ، ٤٧٢ ،
 ٤٧٣ ، ٤٩١

بوسون ؛ ٤٦٧ ، ٤٦٨ ،
 يون فيلي ؛ ٩٢ ؛
 بيدال ، المؤرخ ؛ ١٧٢ ، ١٧٥ ، ١٧٨ ،
 ١٨٤ ، ٤٩١ ، ٥٦٥ ، ٥٨٦ ؛
 بيرانجه ؛ ٤٧٠ ، ٤٧٣ ،
 تاسيتوس ؛ ٢٨ ؛
 تدفيليا بن أدفونش ؛ ٢١٥ ؛
 تراچان ، الإمبراطور ؛ ٥٠٨ ؛
 الثروبادور ؛ ٤٧٨ ؛
 تريسا بنت برمودو زوجة المنصور ؛ ٥٨٣ ؛
 تريسا زوجة سانشو ملك ليون ؛ ٥٩٦ ؛
 تليد الفتي ؛ ٥٠٦ ؛
 تمام الفتي ؛ ٤٥١ ، ٤٥٢ ؛
 تمام بن عامر المثقفي ؛ ٣١٣ ؛
 تمام بن علقمة الخمي ؛ ١٥٢ ، ١٥٨ ، ١٦٠ ،
 ١٦١ ، ١٦٣ ، ١٦٤ ، ١٦٦ ، ١٩٨ ،
 ٢١٦ ؛
 تميم بن معبد النهري ؛ ١٣٥ ؛
 تودقالد ؛ ٨٠ ؛
 التيجاني ؛ ٥٧٠ ؛
 تيودورا ، القيصرية ؛ ٢٨٣ ؛
 تيودريك الأول ؛ ٢٩ ؛
 تيودريك الثاني ؛ ٢٩ ؛
 تيودريك الرابع ؛ ٩٨ ؛
 تيودوفرد ، دوق ؛ ٣٣ ؛
 تيودمير القوطي ؛ ٣٣ ، ٤١ ، ٥٠ ، ٥٥ ،
 ١٢٦ ؛
 تيودمير ، أسقف ليريا ؛ ٢٤٠ ؛
 تيودوسيوس ، الإمبراطور ؛ ١٧ ؛
 تيوفيلوس ، القيصر ؛ ٢٨٢ ؛
 ثعلبة بن سلامة الجذائي ؛ ١٢٠ ، ١٢٤ ، ١٢٦ -
 ثعلبة بن عبيد الجذائي ؛ ١٦٨ - ١٧٠ ، ١٧٥ ،
 ١٨٣ ، ١٨٨ ، ١٩٨ ؛
 ثوابة بن سلامة الجذائي ؛ ١٢٧ ؛

ج - ح - خ

جانلون ؛ ١٨١ ، ١٨٢ ؛
 جاينجوس ، المستشرق ؛ ١٠ ، ٦٤ ؛

بدر بن أحمد الحاجب ؛ ٣٧٧ ، ٣٧٩ ، ٣٨٠ ،
 ٣٨١ ، ٣٩٥ ، ٤٦٠ ، ٤٦١ ؛
 برت ، ملكة برجونية ؛ ٤٦٥ ؛
 برمودو بن فرويلا ؛ ٢٢٠ ، ٢٢٦ ؛
 برمودو الثاني ؛ ٥٤٢ ، ٥٤٧ ، ٥٤٨ ،
 ٥٥١ ، ٥٥٢ ، ٥٦٠ ، ٥٦١ ، ٥٦٣ -
 ٥٦٥ ، ٥٨٣ ، ٥٩٨ ؛
 برنار ، القديس ؛ ٤٧٣ ؛
 برنهارت ؛ ٢٥٧ ؛
 بريهة بنت يحيى ، أم المنصور ؛ ٥٢١ ؛
 بسيل الثاني ، القيصر ؛ ٦١٣ ؛
 بشر بن صفوان الكلبي ؛ ٨٢ ، ٨٣ ؛
 بشر بن مروان ؛ ٢٣ ، ٢٤ ؛
 بشرى العامري ، الفتي ؛ ٦٣٠ ؛
 بطرس ، ملك الصقالبة ؛ ٤٥٦ ؛
 بق بن محمد ؛ ٣١٥ ، ٣١٦ ، ٣٥١ ، ٦٨٥ ، ٦٩٤ ،
 بكر بن وائل ؛ ٢٣ ؛
 بكر بن يحيى بن بكر ؛ ٣٣٠ ؛
 بكير بن ماهان ؛ ١٤٣ ؛
 بلاجيوس ، دوق كانتبريا ؛ ٣٣ ؛
 البلاذري ؛ ٤٨ ، ١٠٦ ؛
 بلايو (أو بلاجيوس) ؛ ٨٣ ، ٨٨ ، ٨٩ ،
 ١١٤ ، ١٣٨ ، ٢٠٨ - ٢١٣ ؛
 بلايو بن برمودو ؛ ٥٦١ ؛
 بلايو ، القديس ؛ ٥٩٦ ؛
 بلج بن بشر القشيري ؛ ١١٩ ، ١٢٠ ،
 ١٢٣ ، ١٢٥ ، ١٢٧ ، ١٣٠ ، ٦٨٧ ؛
 بلقين بن جيوس ؛ ٦٧١ ؛
 بلكتروود ؛ ٨٠ ؛
 بلكين بن زيري بن مناد ؛ ٤٩٣ ، ٤٩٤ ،
 ٤٩٩ ، ٥٤٥ ؛
 بليزاريوس ؛ ١٨ ؛
 بليط الفرنجي ؛ ٤٠٤ ؛
 بليق الغلام ؛ ٦٤٦ ؛
 بهار ، الحاربية ؛ ٣٢٢ ؛
 بهلول بن مروان ؛ ٢٣١ ؛
 بهير ، الحاربية ؛ ٢٨٩ ؛
 بوبون ؛ ٤٧٣ ؛
 يوريل بن سونير ، الكونت ؛ ٤٩١ ، ٤٩١ ، ٥٤٤ ؛

- جدار بن عمرو المذحجي ؛ ١٥٢ ، ١٩٨ ،
جريجورى الثاني ، البابا ؛ ١٠٨ ،
جريجورىوس (جرجير) ؛ ١٦ ،
جريمولد ؛ ٨٠ ،
الجزية ؛ ٦٣ ، ٦٥ ، ٧٥ ، ٨١ ، ٨٢ ، ٩٠ ،
جهد بن عبد الغافر ؛ ٣٢٨ ، ٣٢٩ ،
جعفر ، أم المؤيد ؛ راجع صبح أم المؤيد
جعفر بن دميان ؛ ٣٠٨ ،
جعفر بن عبد الرحمن الصقلبي ؛ ٥١١ ،
جعفر بن عثمان المصحقى ؛ ٤٦٣ ، ٤٩٧ -
٤٩٩ ، ٥٠٣ ، ٥١٠ - ٥١٢ ، ٥١٧ -
٥٢٣ ، ٥٢٦ ، ٥٣١ - ٥٦٩ ، ٦٨٤ ،
٦٩٧ ، ٧٠٠ ،
جعفر بن علي بن حمدون الأندلسي ؛ ٤٩٣ ،
٥٠٠ ، ٥٠١ ، ٥٣٨ ، ٥٣٩ ، ٥٤٢ ،
٥٥٥ ، ٥٧٥ ، ٧٠٢ ،
جعفر بن عمر بن حفصون ؛ ٣٣٠ ، ٣٨٣ ،
٣٨٤ ،
جعفر بن مقمم ؛ ٣٨٠ ،
جميلة العذراء ؛ ٢٥٧ ، ٢٥٨ ،
جند سالفوس بن ألفونسو الثالث ؛ ٣٦٠ ،
چنسرليك ؛ ١٧ ،
جهور بن عبد الله بن أبي عبدة ؛ ٤٦١ ،
جهور بن عبد الملك البختي ؛ ٤٦٠ ، ٤٦١ ،
جهور بن محمد بن جهور ، أبو الحزم ؛ ٦٦٠ ،
٦٦١ ، ٦٦٨ ، ٦١٩ ،
جوذر الفقى ؛ ٥١٧ ، ٥١٨ ، ٥٢٦ ،
جومث بن أنطونيان ؛ ٢٧٠ ، ٢٧٦ ، ٣١٦ ، ٦٩٥ ،
جوژد سالفوسانشيز ؛ ٥٩٦ ، ٥٩٧ ،
جوزالفو كونثالث ؛ ٥٤٨ ،
جوهر الصقلبي ؛ ٤٩٢ ، ٦٩٩ ،
جييون ، إدوارد ؛ ٤٤ ، ٩١ ، ١٠٩ ،
جيرولدوس ؛ ٤٧٣ ،
جيوم ؛ ٤٧٣ ،
جيوم دى تولوز ؛ ٢٢٧ ، ٢٣٥ ، ٢٥٧ ،
جيين دى تولوز ؛ ٢٦٥ ،
الحاجب المنصور ؛ أنظر محمد بن أبي عامر
حارث بن بزيف ؛ ٢٩١ ، ٢٩٢ ،
- الحباب بن رواحة الزهرى ؛ ١٣٥ ، ١٣٦ ،
١٥٢ ،
حباصة بن ماكسن ؛ ٦٥٢ ،
حبوس بن ماكسن ؛ ٦٤٤ ، ٦٥٢ ، ٦٥٩ ،
٦٧٣ ،
حبيب الخصى ؛ ٢٩٠ ،
حبيب بن أبي عبدة الفهرى ؛ ٧٢ ، ١١٨ - ١٢٠ ،
١٢٩ ،
حبيب بن سواده ؛ ٣٧٧ ، ٣٨١ ،
حبيب بن عبد الملك ، ١٦١ ، ١٨٧ ،
الحجاج الثقفى ؛ ٢٤ ،
حذيفة بن الأحوص القيسى ؛ ٨٣ ،
الحر بن عبد الرحمن الثقفى ؛ ٦٠ ، ٧٣ - ٧٥ ،
١٥٨ ، ٢١١ ، ٦٨٠ ،
حزم بن وهب ؛ ٢٤٢ ،
حسان بن حسان ؛ ٦٩٦ ،
حسان بن مالك الكلبي ؛ ١٥٢ ، ١٩٨ ،
حسان بن الزمان الغساني ؛ ٢١ - ٢٥ ،
حدادى بن اسحاق ؛ ٤٢٢ ،
حدادى بن شبروت ؛ ٥٠٦ ، ٥١٥ ،
الحسن بن أحمد بن عبد الودود السلمى ؛ ٥٤٦ ،
حسن بن عبد الغافر بن أبي عبدة ؛ ٢٧٤ ،
الحسن بن القاسم بن حمود ؛ ٦٦٣ ، ٦٧٦ ،
الحسن بن كنون ؛ ٤٩٢ ، ٤٩٤ ، ٤٩٥ -
٤٩٩ ، ٥٤٤ ، ٥٤٥ ،
الحسن بن علي بن أبي طالب ؛ ٦٥٧ ،
حسن بن فتح ؛ ٦١٩ ،
حسن بن يحيى المعتلى ؛ ٦٧١ ، ٦٧٢ ، ٦٧٣ ،
الحسين بن علي بن أبي طالب ؛ ١٢٧ ، ١٤١ ،
١٤٣ ، ١٦٤ ،
الحسين بن يحيى الأنصارى ؛ ١٧٤ - ١٧٦ ،
١٨٧ ، ١٨٨ ،
حشداش ، أمير البحر ؛ ٢٩٦ ،
الحصين العقيلى ؛ ١٣٣ ، ١٣٤ ،
الحصين بن الدخن ؛ ٢١٤ ،
حنص بن عمر بن حفصون ؛ ٢٨٥ ، ٢٨٨ - ٢٨٨ ،
حفص بن المرة ؛ ٣٢٩ ، ٣٣٦ ،
حكيم بن حفصون ؛ ٣٨٦ ،
حكيم بن سعيد القرزاز ؛ ٦٦٨ ، ٦٦٩ ،

خير بن شاكِر ؟ ٣٢٤
خيران العامري ؟ ٦١٦ ، ٦٥٩ ، ٦٥٨ -
٦٦٢ ، ٦٦٨ ، ٦٨٦ ، ٧٠٤

د - ز

داجوبيرت ؟ ٧٨ ، ٧٩
داود بن هلال ؟ ١٦٧
دحية الغساني ؟ ١٦٨
دري بن عبد الرحمن الصقلبي ؟ ٣٩٠ ، ٤٠٧ ،
٤٥١ ، ٥١٤ ، ٥٢٦

دوزي ، المستشرق ؟ ٦٣ ، ١١٨ ، ١٩٤ ،
٢٦٧ ، ٣٨٣ ، ٤٤٧ ، ٤٦٣ ، ٥٠٧ ،
٥٦٥ ، ٥٨٦

دواشديو الأسقف ؟ ٣٩٧
دوناس بن أبي روح ؟ ٦٦٨
ديبل الزعيم الشعبي ؟ ٢٣٧

ديستورينس ؟ ٤٥٣ ، ٤٥٤ ، ٥٠٥ ، ٥١٥ ،
ديسم بن إسحاق ؟ ٣٣٠
ديسيوس ، الإمبراطور ؟ ٢٨

ذكاء الفتي ؟ ٥٠٣
الذلفاء ، أم عبد الملك المنصور ؟ ٦٠٨ ، ٦١٨ ،
٦٣٠ ، ٦٣١ ، ٦٣٤ ، ٦٣٥

ذو الزون بن سليمان الهواري ؟ ٣٠٧
راتبود ، زعيم فريزيا ؟ ٧٩
راجنفرد ؟ ٨٠

الرازي ، عيسى بن أحمد ؟ ١١٧ ، ١٢٩ ،
٢٧٤ ، ٢٧٥ ، ٢٧٨ ، ٢٩٤ ، ٣١٠ ،
٣٧٨ ، ٣٨١ ، ٣٨٤ ، ٣٩٢ ، ٤١٥ ،
٤١٦

رامون بوريل الثالث ؟ ٦١١ ، ٦٤٨
راميرو الأول (رذمير) ؟ ٢٦١ ، ٢٦٢ ،
٣٥٤ - ٣٥٦

راميرو الثاني ؟ ٤٠١ ، ٤٠٣ ، ٤٠٥ - ٤٠٧ ،
٤٠٩ ، ٤١٣ ، ٤١٨ - ٤٢٠ ، ٤٢٢ ،
٤٢٣ ، ٥٨٩ ، ٥٩٠ ، ٥٩١ ، ٥٩٢ ،
٥٩٧ ، ٦٠٠

راميرو الثالث ؟ ٤٨٩ ، ٤٩٠ ، ٥٣٨ ،
٥٤١ ، ٥٤٢ ، ٥٩٦ ، ٥٩٨

راميرو أباركا ؟ ٥٣٩

الحكمه بن محمد ؟ ٢٩٩ ، ٣٠٠
الحكم بن عبد الرحمن بن الحكم ؟ ٢٩٢
الحكم المستنصر ؟ ٣٧٨ ، ٣٨٥ ، ٣٨٦ ،
٣٩٩ ، ٤٠٢ ، ٤٣٧ ، ٤٣٩ ، ٤٥٠ ،
٤٥٢ ، ٤٥٣ ، ٤٨٣ - ٤٩٠ ، ٤٩٢ -
٤٩٤ ، ٤٩٦ ، ٤٩٨ ، ٤٩٩ ، ٥٠٠ ،
٥٠٢ ، ٥٠٣ ، ٥٠٥ ، ٥٠٧ ، ٥٠٨ ،
٥١٠ ، ٥١٢ - ٥٢٤ ، ٥٢٧ ، ٥٢٩ ،
٥٤٤ ، ٥٥٨ ، ٥٧٨ ، ٥٨٣ ، ٥٩٤ ،
٥٩٧ ، ٥٩٨ ، ٦٠٠ ، ٦٥٠ ، ٦٥٦ ،
٦٨٢ - ٦٨٤ ، ٦٩٧ ، ٧٠٠ - ٧٠٣

حكيم بن منذر ؟ ٤٠٨
الحكم بن هشام ؟ ٢٣٠ - ٢٣٣ ، ٢٣٥ -
٢٣٧ ، ٢٣٩ - ٢٤٣ ، ٢٤٥ ، ٢٤٧ -
٢٥٢ ، ٢٥٤ ، ٢٧٥ ، ٢٧٦ ، ٢٨١ ،
٣١٣ ، ٣٥٤ ، ٤٢٩ ، ٤٣٨ ، ٤٤٨ ،
٤٦٥ ، ٤٦٦ ، ٤٦٨ ، ٤٦٩

حلابة ، الحاربية ؟ ٢٥٤
حلل ، الحاربية ؟ ٢٢٤
حلورية أر حلورية ؟ أنظر إلبيرة الراهبة

حمدن بن بسيل ؟ ٣١٢
الحميدي ، أبو عبد الله ؟ ١٠٧
حنظلة بن صفوان الكلبي ؟ ١٢٠ ، ١٢١ ،
١٢٥ ، ١٢٦ ، ١٣٠

حنون بن أحمد بن عيسى ؟ ٤٩٨
حيوة بن ملامس الحضرمي ؟ ١٦٠ ، ١٦١ ،
١٦٦

خالد بن أمية بن شهيد ؟ ٤٦١ ، ٤٦٢ ،
خالد بن حبيب ؟ ١١٩
خالد بن حميد الزناني ؟ ١١٩

خالد بن عثمان بن خلدون ؟ ٣٣١ - ٣٣٣
خالد بن الوليد ؟ ٢٣
الخشني ، أبو عبد الله ؟ ٣١٥ ، ٤٣١ ، ٥٠٥ ،
خلف بن بكر ؟ ٣٩٠
خلف بن حسين بن حيان ؟ ٥٧٤ ، ٥٨١

خلف بن خليفة ؟ ٦١٩
خليفة بن مروان ؟ ١٦٣
خمينا ، الملكة ؟ ٣٦٠
خمينو غريسيس ؟ ٥٩٩

خليفة بن خليفة ؟ ٦١٩
خليفة بن مروان ؟ ١٦٣
خمينا ، الملكة ؟ ٣٦٠
خمينو غريسيس ؟ ٥٩٩

خالد بن أمية بن شهيد ؟ ٤٦١ ، ٤٦٢ ،
خالد بن حبيب ؟ ١١٩
خالد بن حميد الزناني ؟ ١١٩

خالد بن عثمان بن خلدون ؟ ٣٣١ - ٣٣٣
خالد بن الوليد ؟ ٢٣
الخشني ، أبو عبد الله ؟ ٣١٥ ، ٤٣١ ، ٥٠٥ ،
خلف بن بكر ؟ ٣٩٠
خلف بن حسين بن حيان ؟ ٥٧٤ ، ٥٨١

خلف بن خليفة ؟ ٦١٩
خليفة بن مروان ؟ ١٦٣
خمينا ، الملكة ؟ ٣٦٠
خمينو غريسيس ؟ ٥٩٩

خليفة بن خليفة ؟ ٦١٩
خليفة بن مروان ؟ ١٦٣
خمينا ، الملكة ؟ ٣٦٠
خمينو غريسيس ؟ ٥٩٩

- واثكة المؤرخ ؛ ١١٠
ربيع بن تديف القومس ؛ ٢٥١
ربيع بن زيد الأسقف ؛ ٢٤٣ ، ٢٥٥ ، ٤٣٨ ،
٤٥٦ ، ٥٥٧ ، ٥٠٧
رتشارد ملك النورمان ؛ ٤٨٨
رحويك ملك القوط ؛ ٣٣ ، ٣٤ ، ٣٧ ،
٣٩ ، ٤١ ، ٤٢ ، ٤٤ ، ٤٥ ، ٧١ ،
٩٧ ، ٢٠٨ ، ٢٠٩
ردريك الطليطل ؛ ٣٣ ، ٣٥ ، ٣٧
رزق بن النعمان الفسافي ؛ ١٦
الرشيد ، هارون ؛ ١٧٤ ، ٢٣٤ ، ٢٨٩
الرماحس بن عبد العزيز الكناني ؛ ١٨٧
روتبالدس الكونت ؛ ٤٧٠
رولان ؛ ١٨١ ، ١٨٢
ووللو ملك النورمان ، ٤٨٨
وومانوس الثاني ، للتبصر ؛ ٤٨٤
ريان الفتي ؛ ٣٤٨
الرياحي (ارذبلش) ؛ ٣٧٥
ريشموندو الإلبيري ؛ أنظر ربيع بن زيد
ريكافود ؛ ٢٧١
رينو ، المستشرق ؛ ٤٧٩
ويوتيانوس ، الكونت ؛ ٣٥٥
زاو بن زيري بن مناد ؛ ٦١٨ ، ٦٤٤ ،
٦٤٧ ، ٦٤٨ ، ٦٥٢ ، ٦٥٩ ، ٦٦٠ ،
٦٦٢
زخرف ، الجارية ؛ ٢٣٠
زروال بن عمريث ؛ ٤٩٩ ، ٥٠١
زرياب (أبو الحسن علي بن نافع) ؛ ٢٨١
زكريا بن عموس ؛ ٣٠١
الزهراء (جارية الناصر) ؛ ٤٣٦
زهير العامر ؛ ٦١٦ ، ٦٦٢ ، ٦٦٨ ، ٦٧١ ،
٦٧٢
زهير بن قيس البنو ؛ ٢٠ ، ٢١
زياد بن أفلح ؛ ٤٨٩ ، ٥١٧
زياد بن عبد الرحمن ؛ ٢٢٩ ، ٦٩١ ، ٦٩٢
زيادة الله بن مضر الطيني ؛ ٥٧٩
زيري بن عطية ؛ ٥٤٥ - ٥٤٧ ، ٥٥٧ - ٥٥٩ ،
٦٠٩
- زيري بن مناد الصنهاجي ؛ ٤٩٣ ، ٥٠١
زيلير ، المؤرخ ؛ ١١٠
- س - ط
- سابور الفتي ؛ ٥٠٧
ساجيتوس ؛ ٤٦٨
سارة القوطية ؛ ٦١ ، ٣٣١ ، ٧٠٠
سأقدرا ، المستشرق ؛ ٥٦٥
سالم ، مول عبد الرحمن ؛ ١٥٠
سانشا ، دونيا ؛ ٣٤٣
سانشا ابنة طوطة ملكة نافار ؛ ٦٠٠
سانشو زعيم نفاار ؛ ٣٦٢
سانشو الأول ملك نفاار ؛ ٣٤٢ ، ٣٤٣ ،
٣٦٢ ، ٣٩٤ ، ٣٩٦ - ٤٠٠ ، ٤٠٢
سانشو الثاني ملك نفاار ؛ ٥٤١ ، ٥٤٧
سانشو الكبير ، ملك نفاار ؛ ٦٠١
سانشو الأول ملك ليون ؛ ٤٢٣ ، ٤٥٩ ،
٤٨٤ - ٤٨٧ ، ٤٨٩ ، ٥٩٣ ، ٥٩٤ ،
٥٩٦ ، ٥٩٧ ، ٦٠٠
سانشو غرسية بن فرتون ؛ ٣٦٢ ، ٣٦٣ ،
٥٩٩
سانشو غرسية ملك نفاار ؛ ٤٩٠ ، ٤٩١ ،
٥٨٣ ، ٥٨٤ ، ٥٨٩ ، ٥٩٧ ، ٥٩٨ ،
٦٠٠ ، ٦٢٣
سانشو غرسية ، أمير قشتالة ؛ ٥٥١ ، ٥٥٢ ،
٥٦٢ ، ٥٦٤ ، ٥٦٦ ، ٦١٠ - ٦١٣ ،
٥١٥ ، ٦٢٩ ، ٦٤٦ ، ٦٤٧ ، ٦٥٠ ،
٦٥١
سانشو غرسيس ملك نفاار ؛ ٥٦٤
سباجريوس ؛ ٧٧
سترايون الجغرافي ؛ ١٧٣
سبيعة ، زوجة القاسم بن حود ؛ ٦٧٣
السري بن الحكم ؛ ٢٤٥
سموند ، المؤرخ ؛ ١١٠
سناندو ، الأسقف ؛ ٥٩٦
سعد الخادم ؛ ٥٥٠
سعد بن عبادة ؛ ١٦٨
سعدون للرعيبي ؛ ٢٣٥

سعدون بن عامر السرنباقي ؛ ٣٠٤ ، ٣٠٥ ،
٣٠٦
سعيد بن أبي هند ؛ ٢٢٩
سعيد اليحصبي (المطري) ؛ ١٦٣
سعيد بن الحسين الأنصاري ؛ ١٨٧ ، ١٨٨ ،
٢٢٥
سعيد بن الحكم الجعفي ؛ ٥١٢
سعيد بن أيوب ؛ ٤٤٦
سعيد بن حسان ؛ ٦٩٢
سعيد بن سعيد بن حدير ؛ ٦٨٥
سعيد بن سليمان بن جودي ؛ ٣٢٩ ، ٦٩٦
سعيد بن عباس القرشي ؛ ٣٠٠
سعيد بن عبد ربه ؛ ٣٥١
سعيد بن عمرو العكي ؛ ٣٥١
سعيد بن الأمير محمد ؛ ٢٩١ ، ٢٩٢
سعيد بن محمد بن أبي السليم ؛ ٣٤٧
سعيد بن مستنة ؛ ٣٣٠ ، ٣٣٧ ، ٣٣٨
سعيد بن المنذر القرشي ؛ ٣٨٦ ، ٣٩٦ ، ٤٠٧ ،
٤٦١ ، ٤٦٢
سعيد بن هذيل ؛ ٣٧٥
سعيد بن يونس بن سعيد ؛ ٤٢٤
السفاح ؛ أنظر عبد الله بن محمد بن علي
سفيان بن عبد ربه ؛ ٢٧٥
سكوت ، المؤرخ ؛ ٦٤
سلمة بن علي بن أبي عبدة ؛ ٣٤٧
السلمي القائد ؛ ١٨٧
سليط بن عبد الله بن عباس ؛ ١٤٤
سليمان بن الحكم المستعين ؛ ٤٤٠ ، ٦٤٦ -
٦٥٠ ، ٦٥٢ ، ٦٥٤ - ٦٥٧ ، ٦٥٩
سليمان بن المرتضى ؛ ٦٦٤ ، ٦٦٦
سليمان بن شهاب ؛ ١٣٣ ، ١٣٤ ، ٢١٤
سليمان بن عبد الرحمن بن معاوية ؛ ٢٠٠ ،
٢٢٣ - ٢٢٥ ، ٢٣١ ، ٢٣٣ ، ٤٦٥
سليمان بن عبد الملك ؛ ٥٧ - ٥٩ ، ٧١ - ٧٣ ،
٩٣ ، ١١١ ، ١٤٠ ، ١٤٣
سليمان بن عديس ؛ ٣٠٠
سليمان بن عثمان ؛ ١٦٥
سليمان بن عمر بن حفصون ؛ ٣٨٣ - ٣٨٦ ،
٣٩٨
سليمان بن مرتين ؛ ٢٥٧ ، ٢٥٩

سليمان بن هشام ؛ ٦٣٣ ، ٦٤٥
سليمان بن هشام بن عبد الله بن الناصر ؛ ٦٦٧
سليمان بن هود ؛ ٦٦٩
سليمان بن وانوس ؛ ٣١٣ ، ٣٤٧
سليمان بن يقطان الكلبي ؛ ١٦٨ - ١٧٠ ،
١٧٢ ، ١٧٤ - ١٧٨ ، ١٨٠ ، ١٨٦ ،
١٨٧
السمح بن مالك الخولاني ؛ ٧٤ - ٧٦ ، ٨١ ،
٨٤ ، ٨٩ ، ٩٧ ، ٢٢٨ ، ٥٧٧ ، ٦٨٠ ،
٦٨٦
٦٨٦
سواجات البرغواطي ؛ ٦٧٥
سوار بن حمدون القيسي ؛ ٣٢٨ ، ٣٢٩ ، ٦٩٦
سوزي الشاعر ؛ ٥٧
سزيوت ابن وتيزا ؛ ٣١ ، ٣٤ ، ٤٤ ،
٦٠ ، ٦١
سيلو ، ملك جليقية ؛ ٢١٨
سيمونيت ، المستشرق ؛ ٦٦ ، ٧٢ ، ٢٠٨ ،
٢٣٨ ، ٢٦٧ ، ٢٦٩ ، ٢٧٠ ، ٢٧٢ ،
٢٧٩ ، ٣٨٣ ، ٥٧٠
شارل الأصم ؛ ٢٦٥ ، ٣١٤ ، ٣٥٧ ، ٤٦٦
شارلمان (كارل الأكبر) ؛ ١٧١ - ١٧٦ ،
١٧٨ ، ١٨٠ ، ١٨٤ ، ٢١٨ ، ٢١٨ ،
٢٢٧ ، ٢٣١ ، ٢٣٣ - ٢٣٥ ، ٢٤٢ ،
٢٥٦ ، ٢٥٦
شبريط ؛ ٣٤٢
شفاء ، الحاربية ؛ ٣٧٨
شقنا بن عبد الواحد (الفاطمي) ؛ ١٦٤ ،
١٦٥ ، ١٦٧ ، ١٦٨
شلدبراند ؛ ١١٥ ، ١١٦
شلدريك الثالث ؛ ١٣٣
شمر بن ذي الجوشن ؛ ١٢٧
شنجول ؛ أنظر عبد الرحمن المنصور
شبير ، الكنت ؛ ٣٤٣
شبير بن منفرد ؛ ٤٢٣
شهيد بن عيسى بن شهيد ؛ ١٩٨
صاعد بن الحسن البغدادي ؛ ٥٥١ ، ٥٥٣ ،
٥٦٣ ، ٥٧٩ ، ٥٨٠ ، ٦٢٠ ، ٦٢٨ ، ٧٠٤
صالح بن علي ؛ ١٤٦
صبح أم المؤيد ؛ ٥٠٢ ، ٥٠٣ ، ٥٢٠ - ٥٢٥

عبد الجبار بن المغيرة ؟ ٦٣٣ - ٦٣٥
عبد الحميد بن بسيل ؟ ٣٨٥ ، ٣٩٠ ، ٣٩٩ ،
٤٠٦ ، ٤٠٩ ، ٣٦١ ، ٤٦٢
عبد الحميد بن مغيث ؟ ٣١١
عبد الرحمن الناصر ؟ ١٩٧ ، ١٩٨ ، ٢٠٤ ،
٢٩٥ ، ٢٦٤ ، ٢٧٤ ، ٢٧٩ ، ٣٢٩ -
٣٣١ ، ٣٣٤ ، ٣٣٩ ، ٣٤١ ، ٣٤٣ ،
٣٤٨ ، ٣٤٩ ، ٣٥١ ، ٣٦٣ ، ٣٧٣ -
٣٨١ ، ٣٨٤ ، ٣٨٦ ، ٣٩٠ - ٣٩٢ ،
٣٩٤ ، ٣٩٦ ، ٣٩٩ - ٤٠٨ ،
٤٠٩ - ٤١٢ ، ٤١٧ - ٤٢٩ ، ٤٣١ -
٤٣٩ ، ٤٤٦ ، ٤٤٨ ، ٤٥٠ ، ٤٦٣ ،
٤٧٢ ، ٤٨٢ - ٤٨٧ ، ٤٩١ ، ٤٩٢ ،
٥٠٤ ، ٥٠٥ ، ٥١١ - ٥١٦ ، ٥٣١ ،
٥٤٤ ، ٥٤٩ ، ٥٥١ ، ٥٥٩ ، ٥٨٣ ،
٥٨٤ ، ٥٨٩ ، ٥٩٠ - ٥٩٣ ، ٥٩٩ ،
٦٠٠ ، ٦٠٦ ، ٦٦٩ ، ٦٨٢ ، ٦٨٤ ،
٦٨٥ ، ٦٨٨ ، ٦٩٠ ، ٦٩٥ - ٧٠١
عبد الرحمن بن إبراهيم بن حجاج ؟ ٣٣٤ ،
٣٣٨ ، ٣٧٧
عبد الرحمن بن أحمد بن زكريا ؟ ٤٦١
عبد الرحمن بن بدر ؟ ٤٦٠
عبد الرحمن بن الحكم ؟ ١٩٧ ، ٢٣٨ - ٢٤٠ ،
٢٤٤ ، ٢٤٧ ، ٢٥١ - ٢٥٥ ، ٢٥٧ -
٢٦٥ ، ٢٦٧ ، ٢٦٩ ، ٢٧٠ - ٢٨٤ ،
٢٨٩ ، ٢٨٩ ، ٢٩١ ، ٢٩٤ ، ٢٩٦ ،
٣٠٤ ، ٣١٢ - ٣١٤ ، ٣١٦ ، ٣٤٦ ،
٣٥٤ - ٣٥٦ ، ٣٧٣ ، ٤٢٩ ، ٤٥٦ ،
٤٦٥ ، ٤٦٦ ، ٤٨٤ ، ٤٨٨ ، ٥١٥ ،
٦٨٢ ، ٦٨٤ ، ٦٨٧ ، ٦٩٠ ، ٦٩٤ ،
٦٩٥ ، ٧٠٤
عبد الرحمن بن الحكم المستنصر (الطفل) ؟ ٥٠٢ ،
٥٢٠ ، ٥٢١
عبد الرحمن بن المنصور ؟ ٥٥٣ ، ٥٦٢ ، ٥٨٣ ،
٦٠٧ ، ٦٠٩ ، ٦١٥ ، ٦٢٣ - ٦٢٣ ،
٦٣٢ ، ٦٣٥ - ٦٣٨ ، ٦٤٤ ، ٦٤٧ ،
٦٨٣ ، ٦٨٦
عبد الرحمن بن أمية بن شهيد ؟ ٣١٨ ، ٣٤٧ ،
عبد الرحمن بن حبيب الفهر ؟ ١٢٠ ، ١٢٤ -

٥٢٩ ، ٥٣٦ ، ٥٣٧ ، ٥٥٤ - ٥٥٦
صقر قریش ؟ ١٩٥ ، ١٩٦
صمويل ، اسم ابن حفصون النصراني ؟ ٣٣٧
الصميل بن حاتم ؟ ١٢٧ ، ١٢٨ ، ١٣٠ ،
١٣١ ، ١٣٤ - ١٣٦ ، ١٥١ - ١٥٤ ،
١٥٦ - ١٦٠
الضبي ، أحمد بن يحيى ؟ ١٠٧
الضحاك بن قيس الفهر ؟ ١٥٤
طارق بن زياد الليثي ؟ ٢٥ ، ٤٠ - ٤٢ ،
٤٥ - ٥٤ ، ٥٧ ، ٥٩ ، ٦٠ ، ٨٦ ،
٢١٠ ، ٥٢١ ، ٥٥٩ ، ٦٨٦
لؤلؤ المعافري ؟ ٢٣٦ ، ٢٤٣ ، ٢٤٤
طاهر بن محمد البغدادي ؟ ٦٩٧ ، ٦٩٨
الطبري ؟ ١٠٦
طرسوس المجوسي ؟ ٦٣٣
طرفة الفتي ؟ ٦١٦ ، ٦١٧
طرفة بن لقيط ؟ ٢٥١
طروب الجارية ؟ ٢٧٥ ، ٢٧٧ ، ٢٧٨ ، ٢٨٩
طريف بن مالك ؟ ٤٠ ، ٤٨
طوطة ملكة نافع ؟ ٤٠٢ ، ٤٠٥ ، ٤٠٦ ،
٤٠٨ ، ٤١٤ ، ٤٢٠ ، ٤٥٩ ، ٥٩٢ ،
٥٩٣ ، ٥٩٩ ، ٦٠٠

ع-غ

عاصم بن مسلم الثقفی ؟ ١٩٨
عامر بن أبي جوشن ؟ ٣٩٠ ، ٣٩١
عامر بن عامر ؟ ٣٠٩
عامر بن عمرو العبادي ؟ ١٣٥ ، ١٣٦ ، ١٥٢
عامر بن فتوح الفائق ؟ ٦٥٩
عامر بن كليب ؟ ٢٦٠
عائشة بنت أحمد بن قادم ؟ ٥١٦
عباس بن الوليد ؟ ٢٦٥
عباس بن عبد العزيز القرشي ؟ ٣٧٥
العباس بن عبد الله ؟ ٢٥١
العباس بن عبد المطلب ؟ ١٤٣
عباس بن فرناس ؟ ٢٥٢ ، ٢٨٠ ، ٢٨١ ،
٢٩٣ ، ٣١٤ ، ٣١٥ ، ٦٩٣ ، ٦٩٥ ، ٧٠٤
عباس بن ناصح الجزيري ؟ ٢٤١ ، ٢٤٢ ،
٢٥٢ ، ٢٨٠ ، ٢٨١ ، ٦٩٣
عبد الأعلى بن وهب ؟ ٢٧٦ ، ٦٩٤

عبد الرحمن بن هشام (المنظهر) ؛ ٦٦٥ ، ٦٦٤ ؛
عبد الرحمن بن وضاح ؛ ٣٩٩ ؛
عبد الرحمن بن يوسف الفهري ؛ ١٣٦ ، ١٥٢ ؛
١٥٤ ، ١٥٨ ، ١٥٩ ، ٢١٣ ؛
عبد الرحمن بن يوفى بن أرمطيل ؛ ٤٩٥ ؛
عبد السلام بن بسطم الرومي ؛ ١٩٨ ؛
عبد السلام بن يزيد بن هشام ؛ ١٨٩ ، ٦٩٤ ؛
عبد العزيز بن أبي عبدة ؛ ٢٥١ ، ٦٨٤ ؛
عبد العزيز بن الناصر ؛ ٥٠٦ ؛
عبد العزيز بن عباس ؛ ٣٠٩ ؛
عبد العزيز بن عبد الرحمن التجيبي ؛ ٣٤١ ؛
عبد العزيز بن عبد الرحمن المنصور ؛ ٦٢٧ ، ٦٨٦ ؛
عبد العزيز بن مروان ؛ ٢٣ ، ٢٤ ، ٢٥ ؛
عبد العزيز بن موسى بن نصير ؛ ٥٥ ، ٥٦ ؛
٥٨ ، ٧١ - ٧٣ ، ١٢٦ ؛
عبد الغافر اليماني ؛ ١٦٠ ؛
عبد الغافر اليحصبي ؛ ١٦٦ ؛
عبد الغافر بن عبد العزيز ؛ ٣٠١ ؛
عبد القادر بن أبان ؛ ٢٢٧ ؛
عبد الكريم بن مروان الغساني ؛ ١٥٨ ؛
عبد الكريم بن عبد الواحد بن مغيث ؛ ٢٢٨ ،
٢٣١ ، ٢٣٢ ، ٢٤٢ ، ٢٤٤ ، ٢٥١ ؛
٢٥٤ - ٢٥٦ ، ٢٧٤ - ٢٧٦ ، ٣٥٤ ؛
٦٨٤ ، ٦٩٣ ، ٦٩٤ ؛
عبد الله بن أبي عامر ؛ ٥١٥ ، ٦٢٩ ، ٦٣٣ ؛
٦٣٤ ؛
عبد الله بن أحمد بن محمد بن عيسى ؛ ٤٦١ ؛
عبد الله بن أصغ ؛ ٣٨٠ ؛
عبد الله البلنسي ؛ ٢٢٤ ، ٢٢٥ ، ٢٣٢ ؛
٢٣٣ ، ٢٣٥ ، ٢٤١ ، ٢٥٥ ، ٤٦٥ ؛
عبد الله بن النضر بن خير ؛ ٢٨٠ ، ٢٨١ ، ٦٩٤ ؛
عبد الله بن بدر ؛ ٤٦٠ ، ٤٦١ ؛
عبد الله بن حبيب ؛ ٣١٥ ؛
عبد الله بن حجاج ؛ ٣٣١ ، ٣٣٢ ؛
عبد الله بن خالد ؛ ١٥١ ، ١٥٣ ، ١٦٤ ، ١٩٨ ؛
عبد الله بن سعد بن أبي سرح ؛ ١٥ ، ١٦ ؛
عبد الله بن طاهر ؛ ٢٤٥ ؛
عبد الله بن عباس بن أحمد بن أبي عبدة ؛ ٤٦١ ؛

١٢٧ ، ١٢٩ ، ١٣٠ ، ١٣٠ ، ١٥٠ ، ١٦٢ ، ١٧١ ؛
عبد الرحمن بن حبيب بن أبي عبدة ؛ ١٢٩ ؛
عبد الرحمن بن حبيب الصملي ؛ ١٨٥ ، ١٨٦ ؛
عبد الرحمن بن حفصون ؛ ٣٨٣ ، ٣٨٤ ؛
عبد الرحمن بن حمدون بن أبي عبدة ؛ ٣٤٧ ؛
عبد الرحمن بن رستم ؛ ٢٧٤ ، ٢٧٥ ؛
عبد الرحمن بن رماحس ؛ ٤٨٨ ، ٤٨٩ ،
٥٠١ ، ٥٠٥ ؛
عبد الرحمن بن سعيد بن مالك ؛ ٣٩٠ ؛
عبد الرحمن بن عبد العزيز التجيبي ؛ ٣٤١ ؛
عبد الرحمن بن عبد الله الخليلي ؛ ٣٨٩ ؛
عبد الرحمن بن عبد الله الزجالي ؛ ٤٦٢ ؛
عبد الرحمن بن عبد الله النفاق ؛ ٨١ ، ٨٤ ،
٨٥ ، ٨٨ ، ٩٠ ، ٩٦ - ١١٠ ، ١١٣ ؛
٢١٢ ، ٢٨٦ ، ٢٨٧ ؛
عبد الرحمن بن علقمة اللخمي ؛ ١١٤ ، ١١٥ ؛
١٢٤ - ١٢٦ ، ١٣٤ ، ١٣٧ ؛
عبد الرحمن بن غانم ؛ ٣١٢ ؛
عبد الرحمن بن قفليس ؛ ٧٠٤ ؛
عبد الرحمن بن كثير اللخمي ؛ ١٢٨ ؛
عبد الرحمن بن الأمير محمد ؛ ٢٩٩ ؛
عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله بن الناصر ؛
أنظر المرتضى بالله
عبد الرحمن بن مروان الخليلي ؛ ٣٠٠ ، ٣٠٣ -
٣٠٧ ، ٣١٣ ، ٣٢٠ ، ٣٣٨ ، ٣٣٩ ؛
عبد الرحمن بن مطرف التجيبي ؛ ٥٤٩ ، ٥٥٠ ؛
عبد الرحمن بن معاوية (الداخل) ؛ ١٣٦ ؛
١٤٩ - ١٧٠ ، ١٨٥ - ٢٠٥ ، ٢١٤ -
٢١٦ ، ٢١٩ ، ٢٢٣ ، ٢٢٥ ، ٢٣٠ ؛
٢٣١ ، ٢٣٣ ، ٢٣٩ ، ٢٤٩ ، ٢٥٢ ؛
٢٥٦ ، ٢٧٤ ، ٢٧٩ ، ٢٨٠ ، ٢٨٥ ؛
٣١٤ ، ٣٣٢ ، ٣٤٤ ، ٤٢٩ ، ٤٣٦ ؛
٤٤٨ ، ٤٦٠ ، ٤٦٤ ، ٤٨٤ ، ٥٠٤ ؛
٥٠٨ ، ٥١٤ ، ٥٥١ ، ٦٠٦ ، ٦٨١ ؛
٦٨٢ ، ٦٨٤ ، ٦٨٧ ، ٦٩٠ ؛
عبد الرحمن بن مغيث ؛ ١٩٨ ؛
عبد الرحمن بن مقاتا ؛ ٦٧٣ ، ٧٠٥ ؛
عبد الرحمن بن هاشم ؛ ٤٠٩ ؛

- عبد الله بن الأمير عبد الرحمن ؛ ٢٨٩ ، ٢٩٠
 عبد الله بن عبد الرحمن الناصر ؛ ٤٠٢ ، ٤٥٠
 عبد الله بن عبد العزيز مرواني ؛ ٥٥٩ ، ٥٥١ ، ٥٥٢
 عبد الله بن عبد الملك بن مروان ؛ ١٩ ، ٢٣
 عبد الله بن عمرو بن العاص ؛ ٦٢٧
 عبد الله بن عمرو بن مسلمة ؛ ٣٩٠
 عبد الله بن قادم الفهري ؛ ٦٦٨
 عبد الله بن قرقمان بن بدر ؛ ٢٨٠
 عبد الله بن كليب ؛ ٢٦٠ ، ٢٦٣ ، ٢٦٥
 عبد الله بن محمد ، الأمير ؛ ٣٠٤ ، ٣٠٨ ، ٣١٦ ، ٣١٨ ، ٣٢٠ ، ٣٢٢ ، ٣٢٤ -
 ، ٣٢٦ ، ٣٢٧ ، ٣٢٨ ، ٣٢٩ ، ٣٣٣ ، ٣٣٦ ، ٣٣٨ ، ٣٤٠ ، ٣٤٢ ، ٣٤٤ ، ٣٤٦ ، ٣٥١ ، ٣٦٠ ، ٣٦٣ ، ٣٧٣ ، ٣٧٦ ، ٣٩٢ ، ٤٥٩ ، ٥٥١ ، ٥٥٥ ، ٦٩٦ ، ٦٩٥ ، ٦٩٦
 عبد الله بن محمد بن أبي حوثة ؛ ٢٧٦
 عبد الله بن محمد بن أمية ؛ ٢٧٦
 عبد الله بن محمد الزجاجي ؛ ٤٦٠ ، ٧٠٠
 عبد الله بن محمد بن علي (السناح) ؛ ١٤٥ ، ١٤٦ ، ١٤٨ ، ١٤٩ ، ٢٠٢
 عبد الله بن محمد بن لب ؛ ٣٤٢ ، ٣٤٣ ، ٣٦٣ ، ٣٩٨
 عبد الله بن محمد بن مروان الجليقي ؛ ٣٣٩ ، ٣٨٩ ، ٣٩٢ ، ٣٩٣
 عبد الله بن مروان ؛ ١٩ ، ٢٣
 عبد الله بن مسلمة ؛ ٦٣٤
 عبد الله بن المنصور ؛ ٥٥٩ ، ٥٥٠ ، ٥٥١
 عبد الله بن موسى بن نصير ؛ ٢٥ ، ٥٦ ، ٥٨ ، ٧١ ، ٧٣
 عبد الله بن وهب ؛ ٢٧٦ ، ٦٩٢
 عبد الله بن يحيى ؛ ٢٦٥
 عبد الله بن يحيى بن إدريس الخالدي ؛ ؛ ٣٥١ ، ٤٢٤ ، ٤٦١
 عبد الملك بن أبي الجواد ؛ ٣٣٠ ، ٣٣٩
 عبد الملك بن إدريس الجزيري ؛ ٦١٧
 عبد الملك بن إدريس الحولاني ؛ ٥٧٤
 عبد الملك بن جهور ؛ ٣٥١ ، ٤٦٢ ، ٦٥٥ ، ٦٩٨
- عبد الملك بن حبيب ؛ ٢٧٦
 عبد الملك بن حبيب السلمي ؛ ٦٩٢ ، ٦٩٣
 عبد الملك بن سعيد بن أبي حمزة ؛ ٤٠٤ ، ٤٢٦
 عبد الملك بن سعيد المرادي ؛ ٤٨٦ ، ٦٩٦
 عبد الملك بن شهيد ؛ ٣٥١ ، ٥٧٤ ، ٥٧٥
 عبد الملك بن عامر المعافري ؛ ٥٢١
 عبد الملك بن العباس القرشي ؛ ٢٩٩
 عبد الملك بن عبد الله بن أمية ؛ ٣١٣ ، ٣٣٢ ، ٣٤٧ ، ٣٤٩
 عبد الملك بن عبد الواحد بن مغيث ؛ ٢٢٦ ، ٢٢٧ ، ٢٢٧ ، ٢٦٥
 عبد الملك بن عمر بن مروان (المرواني) ؛ ١٥٨ ، ١٦٣
 عبد الملك بن عيسى بن سعيد ؛ ٦١٧ ، ٦٢٠
 عبد الملك بن قطن الفهري ؛ ١١٢ ، ١١٣ ، ١١٦ ، ١١٧ ، ١٢٠ ، ١٢٢ ، ١٢٤
 ، ٦٨١ ، ٦٨٧
 عبد الملك بن مروان ؛ ٢٠ ، ٢٤ ، ١٩٦ ، ١٩٧
 عبد الملك بن المنصور (المظفر) ؛ ٥٤٥ ، ٥٤٨ ، ٥٥٣ ، ٥٥٥ ، ٥٥٩ ، ٥٦٢ ، ٥٦٦ ، ٥٨١ ، ٦٠٧ ، ٦١٢ ، ٦١٤ ، ٦١٦ ، ٦٢٢ ، ٦٢٥ ، ٦٣٠ ، ٦٣٤ ، ٦٣٥ ، ٦٣٨ ، ٦٨٣ ، ٦٨٥ ، ٦٨٦ ، ٦٩٠
 عبد الملك بن موسى بن نصير ؛ ٥٦
 عبد الملك بن هشام ؛ ٢٢٨
 عبد الملك بن يزيد الأزدي ، أنظر أبو عون
 عبد الواحد الروطي ؛ ٣٠٢
 عبد الواحد المراكشي ؛ ٦٥٧
 عبد الواحد بن اسحاق الضمبي ؛ ٢٨١
 عبد الواحد بن يزيد الإسكندراني ؛ ٢٧٤
 عبد الواحد بن يزيد الهوار ؛ ١٢٠ ، ١٢١
 عبد الوهاب بن أحمد بن مغيث ؛ ٣٠١
 عبد الوهاب بن حزم ؛ ٦٦٥
 عبد الوهاب بن عباس ؛ ٢٥٢ ، ٦٩٣
 عبد الوهاب بن عبد الرؤوف ؛ ٣٢٣
 عبد الوهاب بن محمد بن بسيل ؛ ٤٦١
 عبدون عامل الثغر ؛ ٢٤١
 عبدون بن خزرون ؛ ٦٧٥

٣٤٠ ، ٣٤٥ ، ٣٤٨ ، ٣٤٩ ، ٣٦٢ ،
٣٧٦ ، ٣٧٧ ، ٣٨٠ ، ٣٨١ ، ٣٨٣ ،
٣٨٥ ، ٣٨٦ ، ٣٨٨ ، ٣٨٩ ، ٣٩٥ ،
عمر بن الخطاب ؛ ١٤ ، ٢٣ ، ١٩٦ ،
عمر بن طالت ؛ ١٦٦ ،
عمر بن عبد العزيز ؛ ٧٤ ، ٧٥ ، ٨٢ ، ٢٢٥ ،
٦٨٠ ، ٦٨١ ،
عمر بن عبد الله ؛ ١١٩ ،
عمرو بن العاص ؛ ١٤ ، ١٥ ،
عمرو بن أبي الحباب ؛ ٥٧٥ ،
عمر بن عبد الله بن أبي عامر (عسكلاجة) ؛
٥٢٨ ، ٥٤٥ ،
عمروس بن عمرو بن عمرو ؛ ٣٠١ ،
عمروس بن يوسف ؛ ٢٣٩ ، ٢٤٠ ، ٣٠١ ،
عمريل بن تيمات ؛ ٥٠٠ ،
عنبر العامري ؛ ٦٤٩ ،
عنبدة بن سحيم الكلبي ؛ ٨٢ ، ٨٣ ،
عيسى بن أحمد بن أبي عبدة ؛ ٤٦١ ، ٤٦٢ ،
عيسى بن أحمد الرازي ؛ ٢٨٩ ،
عيسى بن الحسن بن أبي عبدة ؛ ٢٩٠ ، ٢٩١ ،
٢٩٦ ، ٢٩٩ ، ٣١٢ ،
عيسى بن دينار ؛ ٢١٩ ، ٢٣٦ ، ٢٣٧ ،
٢٧٦ ، ٣١٥ ، ٦٩٢ ، ٦٩٣ ،
عيسى بن سعيد (ابن القطاق) ؛ ٥٥٨ ، ٥٧٤ ،
٥٧٥ ، ٦١٦ ، ٦٢٠ - ٦٣٠ ،
عيسى بن شهيد ؛ ٢٦٣ ، ٢٧٤ ، ٢٧٥ ،
٢٨٩ ، ٢٩٠ ، ٣١٢ ، ٦٨٤ ،
عيسى بن فطيس ؛ ٤١٦ ، ٤٦١ ، ٥١٢ ،
٥٥٣ ، ٥٧٤ ،
عيسى بن قرلمان ؛ ٤٩١ ،
عيسى بن مزاحم ؛ ٦١ ،
عيسى بن مساور ؛ ١٥٣ ،
عيسى بن منصور ؛ ٤٩٠ ،
عيشون بن سليمان بن يقظان ؛ ١٧٦ ، ١٧٧ ،
١٨٠ ، ١٨٧ ،
عيشون حاكم أرشدونة ؛ ٣٢٠ ،
غاثون ، الكونت ؛ ٢٩٢ ،
غالب ، أمير البحر ؛ ٤٢٧ ،

عبدة النخارية ، زرجة المنصور ؛ ٥٨٣ ، ٦٢٣ ،
عبيد الله المهدي ؛ ٤٢٥ ، ٤٢٦ ،
عبيد الله بن أبان بن معاوية ؛ ١٨٩ ، ١٩٤ ،
عبيد الله بن أحد الزجالي ؛ ٤٦٠ ،
عبيد الله بن عبد الله البلنسي ؛ ٢٤٣ ، ٢٤٣ ،
٢٥٧ ،
عبيد الله بن عثمان ؛ ١٥٢ ، ١٥٣ ، ١٥٧ ،
١٥٨ ، ١٦٤ - ١٦٦ ، ١٨٩ ، ١٩٣ ،
١٩٤ ، ١٩٨ ، ٢٢٦ ،
عبيد الله بن قاسم ؛ ٤٩٠ ،
عبيد الله بن محمد بن أبي عبدة ؛ ٣٢٥ ، ٣٢٦ ،
٣٤٧ ،
عبيد الله بن يحيى بن إدريس ؛ ٦٩٦ - ٦٩٨ ،
عبيدة ، والي إفريقية ؛ ١٠٦ ،
عبيدة بن حميد ؛ ٢٣٩ ،
عبيدة بن عبد الرحمن السلمى ؛ ٨٣ ، ٨٤ ،
عثمان بن أبي نسمة الخثعمي ؛ ٨٣ ، ٨٦ ، ٨٧ ،
١٠٣ ،
عثمان بن عفان ؛ ١٥ ، ١٨ ، ١١٨ ، ١٩٦ ،
عثمان بن عمرو ؛ ٣٣٠ ،
عثمان بن نصر ؛ ٣٧٩ ، ٣٨٠ ،
عثمان بن نصر المصمقي ؛ ٥١١ ،
العنزي ، أحمد بن عمر ؛ ٣٤١ ،
عروة بن الوليد الذي ؛ ١٣٤ ، ١٣٥ ،
عزرة بن عبد الله الفهري ؛ ٨٣ ،
العزير بالله الفاطمي ؛ ٤٩٩ ، ٥٤٤ ، ٥٤٥ ،
عصام الخولاني ؛ ٣٤٦ ،
عقبة بن الحجاج السلولي ؛ ١١٣ ، ١١٤ ،
١١٦ ، ١١٧ ، ١٢٢ ، ٢١٢ ،
عمقبة بن نافع الفهري ؛ ١٥ ، ١٩ ، ٢٠ ،
عكاشة الفزاري ؛ ١٢٠ ، ١٢١ ،
العلاء بن مغيث اليحصبي ؛ ١٦١ - ١٦٣ ،
١٨٦ ، ٢١٥ ،
علي بن أبي طالب ؛ ١٨ ، ١٤١ - ١٤٣ ،
علي بن حود ؛ ٦٥٣ ، ٦٥٤ ، ٦٥٧ - ٦٦١ ،
علي بن وداعة ؛ ٦٥١ ،
عمر بن حفصون ؛ ٣٠٣ ، ٣٠٧ - ٣١٠ ،
٣١٧ - ٣١٩ ، ٣٢١ ، ٣٢٢ - ٣٢٥ ،
٣٢٨ - ٣٣٠ ، ٣٣٣ ، ٣٣٥ - ٣٣٨ ،

غالب بن تمام بن علقمة ؛ ١٩٨
 غالب بن عبد الرحمن الناصري ؛ ٤٨٧ ، ٤٨٥ ، ٤٨٩ ، ٤٩٦ ، ٤٩٨ ، ٥٠٢ ، ٥١٢ ، ٥٢٨ ، ٥٣٠ ، ٥٣٧ ، ٥٣٩ ، ٥٤١ ، ٥٤٢ ، ٥٤٣ ، ٥٥٥ ، ٥٧٥ ، ٥٩٨ ، ٦٠٠
 غرسى فرناندرز ؛ ٥٦٣
 غرسية ، أمير نافار ؛ ٢٥٩ ، ٢٦١
 غرسية لإنجيز ؛ ٣٤٣ ، ٣٦٢
 غرسية الأول ملك نافار ؛ ٢٩٧ ، ٢٩٨ ، ٣٠٠ ، ٣٠١ ، ٣٥٧
 غرسية الثاني ملك نافار ؛ ٤٠٢ ، ٤٢٢ ، ٤٥٩
 غرسية ابن ألفونسو الثالث ؛ ٣٦٠ ، ٣٦١
 غرسية ملك ليون ؛ ٣٩١
 غرسية سانشير ، ملك نافار ؛ ٤٨٦ ، ٤٨٧ ، ٤٩٠ ، ٥٦٤ ، ٥٦٥ ، ٥٩٣ ، ٥٩٤ ، ٦٠٠ ، ٥٩٩
 غرسية سانشير الثاني ، أمير قشتالة ؛ ٦٠٠
 غرسية سانشير الثالث ، أمير قشتالة ؛ ٦٠٠ ، ٦٠١
 غرسية سانشير الثالث ملك نافار ؛ ٦٠٠ ، ٦٠١
 غرسية فرنانديز ، أمير قشتالة ؛ ٤٩٠ ، ٤٩١ ، ٤٩٩ ، ٥٠٠ ، ٥٠٥ ، ٥٤١ ، ٥٥٠ ، ٥٥٢ ، ٥٩٨ ، ٥٩٧ ، ٥٦٥ ، ٥٦٧ ، ٥٩٧ ، ٥٩٨
 غريب بن عبد الله ؛ ٢٤٧
 غريب بن مسعود ؛ ٤١٨
 غزاة البيضاء ؛ ٥٤٨
 غزاة العلة ؛ ٦١٥
 غزوة بنبلونة (الناصر) ؛ ٤٠٠
 غزوة بنبلونة (عبد الملك المنه ور) ؛ ٦١٢
 غزوة شنت ياقب ؛ ٥٦١
 غزوة قلاونية (عبد الملك المنصور) ؛ ٦١٣ ، ٦١٤
 الغزيرى ، ميخائيل ؛ ٥٥
 الغمر بن يزيد بن عبد الملك ؛ ٢٠٢
 غياث بن علقمة ، اللحى ؛ ١٥٣ ، ١٦٢ ، ١٦٣
ف - ق - ك
 فاتن ، الفتى ؛ ٥٧٩ ، ٦٣٣
 فاطمة بنت الرسول ؛ ١٦٤
 الفاطمى ؛ أنظر شقنا بن عبد الواحد
 فافيلاد ابن بلايو ؛ ١٣٨ ، ٢١٣

فافيلا والد بلايو ؛ ٢٠٧
 فاليا ، ملك القوط ؛ ٢٩
 فالينس ، الإمبراطور ؛ ٢٨
 فاميا ، ملك القوط ؛ ٣٤
 فاتق الفتى ؛ ٥١٧ ، ٥١٨ ، ٥٢٦
 الفتح بن خاقان ؛ ٤٤١ ، ٥٨٤
 الفتح بن موسى بن ذى النون ؛ ٣٤٠ ، ٣٧٥
 فخر الحاربية ؛ ٢٧٨
 فرتون لإنجيز ؛ ٢٦٥
 فرتون بن لب بن موسى ؛ ٢٩٩
 فرتون بن غرسية ؛ ٢٩٨ ، ٣٦٢ ، ٥٩٩
 فرتون بن محمد الطويل ؛ ٤١٦
 فرتون بن موسى القسوى ؛ ٢٩٩ ، ٣٠٢
 فرنان كونثالث (فردلند القومس) ؛ ٤٨٤ ، ٤٨٧ ، ٤٩٠ ، ٤٩١ ، ٤٩٤ ، ٥٩٧ ، ٥٩٩ ، ٦٠٠
 فرنان لينيز ؛ ٤٩١
 فرويلا ، أمير استورية ؛ ٨٧
 فرويلا ، أمير كانتابريا ؛ ٢١٤ ، ٢١٥
 فرويلا ، الكونت ؛ ٣٥٨
 فرويلا ابن ألفونسو الثالث ؛ ٣٦٠
 فرويلا الأول ؛ ٢١٥ ، ٢١٨ ، ٢١٩
 فرويلا ، ملك ليون ، ٤٠٠
 فرويلا بن برمند ؛ ٣٥٨
 فطيس بن أصبغ بن فطيس ؛ ٤٦٢
 فلورا ، الفتاة المنتصرة ؛ ٢٧٢ ، ٢٧٣
 فلورندا القوطية ؛ ٣٥ ، ٣٦ ، ٣٧
 فنلى ، جورج ؛ ١١٠
 فون شليجل ؛ ١١٠
 فيدو كنت ؛ ١٦٩ ، ١٧٣ ، ١٨٣ ، ١٨٨
 قارله ، قلدوس ؛ أنظر كارل الأكبر
 قارله بن بين ؛ ٢٨٩
 القاسم بن حود ، المستعل ؛ ٦٥٣ ، ٦٥٤ ، ٦٥٧ ، ٦٦١ ، ٦٦٤ ، ٦٧٠ ، ٦٧٣ ، ٦٧٦
 قاسم بن حد ؛ ٥١٨
 القاسم بن محمد بن عبد الرحمن ؛ ٣٤٩ ، ٣٥٠
 القاسم بن محمد (الواثق) ؛ ٦٧٦

لب بن حد بن لب؛ ٢٠٢٤١ ، ٣٤٦ ، ٣٦٣
 لب بن موسى بن فرعون ؛ ٣٦٢
 لب بن موسى بن موسى ؛ ٢٩٩
 الليث بن سعد ؛ ١٠٦ ، ٢٧٦ ، ٦٩٢
 لوتبراند ، ملك اللومبارد ؛ ١١٦
 لوتبراند ، المؤرخ ؛ ٤٥٨ ، ٤٦٩ ، ٤٧٢
 لوقا للتطيل ؛ ٣٥
 لوقا للتوحى ؛ ٤١٩
 لويس بن شارلمان ؛ ٢٢٧ ، ٢٣١ ، ٢٤٠ ،
 ٢٥٦ ، ٢٥٧ ، ٢٦٦ ، ٤٦٦
 لويس الرابع ؛ ٤٥٦
 ليوكريسيا ؛ ٢٩٦ ، ٣٠٣
 ليون الثالث ، البابا ؛ ١١٠
 ماردة أم المعتصم ؛ ٢٨٢
 ماسدى ، المؤرخ ؛ ٣٤ ، ٣٦ ، ٥٨٦
 ماركوس أوريليوس ؛ ٥٠٨
 ماريما ، فتاة قرطبة ؛ ٢٧٣
 ماريما ، وائلة الناصر ؛ ٣٧٣
 ماريانا ، المؤرخ ؛ ٣٦ ، ٨٩ ، ٥٦٥
 مالك بن أنس ، الإمام ؛ ٢٢٩ ، ٢٧٦ ، ٦٩١ ، ٦٩٢
 مالك بن يزيد التجيبى ؛ ٢٣٦
 المأمون العباسى ؛ ٢٤٥ ، ٢٨٢ ، ٧٨٣
 ماييل ، القديس ؛ ٤٧٣
 مايور ، دونيا ؛ ٥٦٤
 متعة ، الحجرية ؛ ٢٧٨
 المتنبى ؛ ٦٩٩
 مجاهد العامرى ؛ ٤٧٤ ، ٤٧٥ ، ٦١٦ ، ٦٥٨
 محافظ القصر ؛ ٧٩ ، ٨٠ ، ٩٦
 محمد ، للنسبى العربى ؛ ٩١ ، ٩٢ ، ٩٦ ،
 ١١٠ ، ٢٧٠ - ٢٧٣
 محمد بن الحسين ؛ ٤٥٩ ، ٥٩٢
 حمد بن الحنفية ؛ ١٤٣
 محمد بن الخيزر بن خزر ؛ ٤٢٨ ، ٤٩٤
 محمد بن السليم ؛ ٢٧٤
 محمد بن السليم ، أبو بكر ؛ ٥١٢
 محمد العراقى ؛ ٦٦٤ ، ٦٦٥ ، ٦٦٧
 محمد بن القرضى ؛ ٦٦٣
 حمد بن القاسم المروانى ؛ ٢٣٦

قاسم بن مطرف من ذئب النون ؛ ٤٨٧
 القاسم بن المنذر ؛ ٢٣١
 القاسم بن يوسف الفهري ؛ ١٥٩ ، ١٦٠ ،
 ارقام الفاطمى ؛ ٤٢٦
 قسطنطين الأكبر ؛ ٢٨
 قسطنطين السابع ؛ ٤٥٢ ، ٤٥٣ ، ٤٥٦
 قسطنطين الملكى ؛ ٤٩١
 قسى ، الكونت ؛ ٢٦٠
 قطن بن عبد الملك بن قطن ؛ ١٢٣ ، ١٢٤ ، ١٢٦
 كبا ، وصيفة فلورندا ؛ ٣٦
 كاردون ، المستشرق ؛ ١٠٥
 كارديناس ، المستشرق ؛ ٦٦
 كارل مارتل ؛ ٨١ ، ٨٧ ، ٨٨ ، ٩٦ -
 ١٠٢ ، ١٠٤ ، ١٠٨ ، ١١٠ ، ١١٤ -
 ١١٦ ، ١٣٧ ، ١٧١
 كارل الأكبر ؛ أنظر شارلمان
 الكاهنة ؛ ١٧ ، ٢٢
 الكرسى الرسولى ؛ ٢٥٩
 كريب بن عثمان بن خلدون ؛ ٣٣١ - ٣٣٣ ،
 ٣٣٩
 كرىزى ، إدوارد ؛ ١١٠
 كسيلة بن لمزم ؛ ٢٠ ، ٢١ ، ٢٢
 كلثوم بن عياض القشيري ؛ ١١٩ ، ١٢٠ ،
 ١٢٣ - ١٢٦
 كاوتير الثانى ؛ ٧٨
 كلوفيس ؛ ٧٧ ، ٩٥
 كنانة بن سعيد ؛ ١٦٧
 كوديرا ، المستشرق ؛ ٥٦٥
 كوندى ، يوسف ؛ ٣٦ ، ٩٩ ، ١٠٢
 كوزراد ، ملك برخونة ؛ ٤٦٩

ل - م

لافونتي ، موديسيو ؛ ٥٠٨ ، ٥٦٤ ، ٥٦٥ ،
 ٥٩٧
 لامبجيا ؛ ٨٧ ، ٨٨
 لاين بول ؛ ٦٤
 لب بن الطريشة ، ٣٨٩
 لب بن زكريا بن عمرو ؛ ٣٠١

المطرف بن موسى بن ذى النون ؟ ٣٤٠ ، ٣٩٨
مطروح بن سليمان بن يقظان ، ١٧٦ ، ١٧٧ ،
١٨٠ ، ٢٢٦ ، ٢٢٧
مظفر بن موسى بن ذى النون ؟ ٣٠٧
معاوية بن أبي سفيان ؟ ١٨ - ٢٠ ، ٢٣ ،
٩٣ ، ١٩٣ ، ١٩٥ ، ١٩٦ ، ٢١٠
معاوية بن حديج ؟ ١٩
معاوية بن لب ؟ ٤٩٠
معاوية بن هشام ؟ ٢٢٥
معاوية بن هشام ، المؤرخ ؟ ٣١٠
المعتصم العباسي ، ٢٨٢ ، ٢٨٣
المعتصم بن صالح ؟ ٦٧٦
المعز لدين الله الفاطمي ؟ ٤٩٣ ، ٤٩٤ ، ٦٩٩
المعز بن باديس ؟ ٦١٨
المعز بن زبير بن عطية ؟ ٥٤٦ ، ٥٥٩
معن بن عبد العزيز التجيبسي ؟ ٥٥٢ ، ٥٦١ ،
٦٠٩
المغيرة بن الحكم ؟ ٢٤٨
المغيرة بن الوليد بن معاوية ؟ ١٨٩ ، ١٩٤
المغيرة بن عبد الرحمن الناصر ؟ ٥١٧ ، ٥١٨ ،
٥٢٤ ، ٥٢٦ ، ٥٣٠
مغيث الرومي ؟ ٤٩ ، ٥٩ ، ٦٠ ، ٢٧٥
المقتر ، المؤرخ ؟ ٤٨ ، ٨٥ ، ١٠٧ ، ٥٣٧
مكحول بن عمر ؟ ٣٠٠ ، ٣٠٤
المنذر بن الناصر ؟ ٥٠٦
منذر بن إبراهيم ؟ ٣٣٠
منذر بن سعيد البلوطي ؟ ٤٥٤ ، ٤٥٥ ،
٤٦١ ، ٥١٢ ، ٦٩٨
المنذر بن عبد الرحمن ؟ ٢٦١ ، ٢٧٨ ، ٢٩٩ ،
٣١٠
المنذر بن محمد بن عبد الرحمن ؟ ٣٠٢ ، ٣٠٣ ،
٣٠٥ ، ٣٠٦ ، ٣١٧ ، ٣١٨ ، ٣٢٠ ،
٣٢٢ ، ٣٢٣ ، ٣٢٤ ، ٣٢٦ ، ٣٢٧ ، ٣٢٩ ،
٣٦٠ ، ٣٥٧
المنذر بن يحيى التجيبسي ؟ ٦٥٤ ، ٦٦٠ - ٦٦٢
المنصور بن أبي عامر ؟ انظر محمد بن أبي عامر
المنصور العباسي ، انظر أبو جعفر المنصور
منصور الحصى ؟ ١٩٨

محمد بن صالح ؟ ٢٧٦
محمد بن يزيد ؟ ٧٣
محمد بن يعلى الزناتي ؟ ٦٣٦
محمد بن يوسف الحجار ؟ ٥٠٦ ، ٧٠١
محمد بن يوسف الفهر ، أبو الأسود ؟ ١٣٣ ،
١٥٨ ، ١٥٩ ، ١٩٠
محمد بن يوسف بن مطروح ؟ ٢٧٦ ، ٦٩٤
محمود بن عبد الحجار ؟ ٢٥٧ ، ٢٥٨
مراجل أم المأمون ؟ ٢٨٢
المرتضى بالله ، عبد الرحمن ؟ ٦٦٠ - ٦٦٢
مرجان الرومية ؟ ٣٧٨ ، ٣٨٣
مروان بن جهور بن عبد الملك البختي ؟ ٤٦١
مروان بن الحكم ؟ ١٥٤
مروان بن حبان ، أبو سعد ؟ ٤١٦
مروان بن عبد الرحمن الخليق ، ٣٣٩
مروان بن عبد الملك ؟ ٣٩٢
مروان بن محمد ؟ ١٣٠ ، ١٤٤ - ١٤٦
مروان بن يونس الخليق ؟ ٢٤٢ ، ٣٠٤
المستظهر بالله ؟ ٦٨٦
المستكني بالله الأموي ؟ ٦٦٦ ، ٦٦٧ ، ٦٧٠
المستكني بالله العباسي ؟ ٦٦٧
المستنصر بالله الفاطمي ؟ ٤٥٩
المسعودي ، المؤرخ ؟ ١٩٧ ، ٤١٤
مسعود بن سعدون السرنباقي ؟ ٣٩٣
مسعود بن عبد الله ؟ ٢٩٤
مسلم بن عقبة المري ؟ ١٤١
مسلمة بن عبد الرحمن الأموي ؟ ٢٣٧
مسلمة بن مخلد ؟ ٢٠
مسهقة بن مطرف ؟ ٢٩١ ، ٢٩٢
المسيح ؟ ٤٥٣ ، ٤٥٤
مضاء بن عمرييل ؟ ٤٩٩
المطرف بن عبد الرحمن ؟ ٢٦١ ، ٢٧٨
المطرف بن الأمير عبد الله ؟ ٣٢١ ، ٣٣٢ ،
٣٣٦ ، ٣٤٧ ، ٣٤٩ ، ٣٥٠ ، ٣٧٣
مطرف بن عيسى الغساني ؟ ٥٠٥
مطرف بن لب بن موسى ؟ ٢٩٩ ، ٣٤٠
المطرف بن محمد بن لب ؟ ٣٤١ ، ٣٦٣
مطرف بن مندف التجيبسي ؟ ٤٠٦ - ٤٠٨
مطرف بن موسى القسوي ؟ ٢٩٩ ، ٣٠١ ، ٣٠٢

نصر المظفرى ؛ ٦٣٤
نظيف الفقى ؛ ٦١٩ ، ٦٣٤
نود ، ملكة النورمان ؛ ٢٨٥
نونيو ، الكونت ؛ ٣٦٠
هادريان ، البابا ؛ ١٧٣
هاشم الضراب ؛ ٢٥٨
هاشم بن عبد العزيز ؛ ٢٧٤ ، ٢٩١ ، ٣٠٢ -
٣٠٩ ، ٣١٢ ، ٣١٣ ، ٣١٥ ، ٣١٧ ،
٣١٨ ، ٦٨٤
هاشم بن محمد التجيبى ؛ ٤٩٧
هذيل بن الصميل ؛ ١٨٩
هذيل بن محمد التجيبى ؛ ٤٩٧
هرودلان ، أنظر رولان
هروسوفيتا ؛ ٤٤٨
هشام الفهرى ؛ ١٦٣
هشام المصحق ؛ ٤٨٥ ، ٥٣٠
هشام ، المعتد بالله ؛ ٦٦٨ - ٦٧٠
هشام ، المؤيد بالله ؛ ٤٤٠ ، ٤٥٣ ، ٥٠٣ ،
٥٠٩ ، ٥١١ ، ٥١٤ ، ٥١٧ - ٥٢٠ ،
٥٢٢ - ٥٢٦ ، ٥٣١ ، ٥٣٥ ، ٥٣٦ ،
٥٥٤ - ٥٥٦ ، ٥٥٨ ، ٥٦٩ ، ٥٧٣ ،
٥٨٥ ، ٦٠٧ ، ٦١٠ ، ٦١٤ ، ٦١٦ ،
٦٢٣ - ٦٢٦ ، ٦٣٢ ، ٦٣٣ ، ٦٣٦ ،
٦٣٨ ، ٦٤٢ - ٦٤٤ ، ٦٤٧ ، ٦٤٩ -
٦٥٣ ، ٦٥٨ ، ٦٦٠ ، ٦٧٠ ، ٦٧٤ ،
٦٨٢ ، ٦٨٣ ، ٦٨٦ ، ٧٠٣
هشام بن الحكم ؛ ٢٤٢
هشام بن سليمان بن الناصر ؛ ٦٤٥ ، ٦٤٦
هشام بن عبد الجبار بن الناصر ؛ ؛ ٦١٩ ،
٦٢٠ ، ٦٣٠ ، ٦٣١
هشام بن عبد الرحمن الأموى ؛ ٢٢٠ ، ٢٢٣ -
٢٣١ ، ٢٥٠ ، ٢٥٦ ، ٢٦١ ، ٢٦٦ ،
٣٤٥ ، ٣٥٤ ، ٤٦٥ ، ٦٩١ ، ٦٩٢ ،
هشام بن عبد الرحمن بن الحكم ؛ ٢٦٤ ، ٣٣٠ ،
٣٣٢
هشام بن عبد الملك ؛ ٦١ ، ٨٤ ، ٨٨ ، ١١٢ ،
١١٧ ، ١١٩ ، ١٢٠ ، ١٢٥ ، ١٤٠ ،
١٤٩ ، ١٥٠ ، ٢٠٠ ، ٢٨١
هشام بن عزرة الفهرى ؛ ١٥٧ ، ٦٦١ ، ١٦٣

حنندو كونثالث ؛ ٥٦٤ ، ٥٩٩ ، ٦١٠
حنوسة ؛ ٨٥ - ٨٩ ، ٢١٢ ، ٢١٣
حنينا ؛ ٨٧
موجات ؛ ٢١٩ ، ٢٢٠
مورنتوس ، اللوق ؛ ١١٥ ، ١١٦
موسى بن أبى العافية ؛ ٣١٦
موسى بن حنوش ؛ ٥١٦
موسى بن ذى النون ؛ ٣٠٧ ، ٣٣٩
موسى بن سالم الخولانى ؛ ٢٣٦ ، ٢٤٣
موسى بن غلند ؛ ٣٠١
موسى بن فرته ن بن قسى ؛ ٣٦٢
موسى بن فرقوق ؛ ٢٢٥
موسى بن محمد بن حدير ؛ ٣٥١ ، ٣٧٤ ، ٤٦٠ ،
٦٩٨
موسى بن موسى بن قسى ؛ ٢٥٩ - ٢٦١ ،
٢٦٥ ، ٢٦٦ ، ٢٩٤ ، ٣٠٠ ، ٣٩٨ ،
٣٥٧
موسى بن نصير اللخمي ؛ ٢٣ - ٢٦ ، ٣٥ ،
٣٨ - ٤٢ ، ٤٥ ، ٥١ - ٦٠ ، ٧١ - ٧٣ ،
موسيتو ، موجيتوس ؛ أنظر مجاهد العامرى
مؤمرة الجارية ؛ ٢٧٨
مؤمن بن سعيد ؛ ٢٥٢ ، ٣١٥ ، ٦٩٣
مونتيتار ؛ ٣٦
مونس الكاتب ؛ ٤٩١
مونيا ؛ ٢١٨
ميسرة المدغرى ؛ ١١٩
ميسرة الفقى الصقلبى ؛ ٢٥٩
ميسور الصقلبى ؛ ٤٢٦ ، ٤٦١ ، ٥٠٩
ميشائيل ، القيصر ؛ ٢٨٣
ميشليه ، المؤرخ ؛ ١١٠
ن - ن
نجا الصقلبى ، أبو الفوز ؛ ٦٧١ ، ٦٧٢ ،
٦٧٣
نجدة بن حسين الصقلبى ؛ ٤١٢ ، ٤١٣ ،
٤٢٠ ، ٤٥١ ، ٤٦١
نصر الحصى ؛ ٢٥١ ، ٢٦٣ ، ٢٦٤ ، ٢٧٥ ،
٢٧٧ ، ٢٨٩
نصر بن سيار ؛ ١٤٤ ، ١٤٥ ،
نصير اللخمي ؛ ٢٣

يحيى بن محمد بن عبد الرحمن ؟ ٣٤٩
 هشام بن محمد بن عثمان ؟ ٥١٨
 هشام بن المنذر ؟ ٣٢١
 هشام بن هذيل ؟ ٤٥٦
 هلال الميديوني ؟ ١٦٥
 هوج ، ملك بروقانس ؟ ٤٦٩ ، ٤٧٠
 هوريك ، ملك النورمان ؟ ٢٨٤
 هونالد ، دوق أكويتين : ١١٤
 هونوريوس ، الإمبراطور ؟ ٢٨
 الهيثم بن عبيد الكلابي ؟ ٨٣ - ٨٥ ، ٢١١
 هيرود ؟ ٢٢٠
 واضح الفتي ؟ ٤٤٠ ، ٥٠٩ ، ٥٥٧ ، ٥٥٨
 ٦١٠ ، ٦١٢ ، ٦١٦ ، ٦٣٦ ، ٦٤٤ ، ٦٤٦
 ٦٤٧ ، ٦٤٩ - ٦٥١ ، ٦٥٨
 الواقدى ، المؤرخ ؟ ١٠٦
 وانسوس البربرى ؟ ١٥١
 وتيزا ، ملك القوط ؟ ٣٢ ، ٣٥ ، ٤٢
 ٥١ ، ٦٠ ، ٢٠٨
 ودنا بن عطاف ؟ ٣٨٠
 الوليد بن الحكم ؟ ٢٥٩
 وليد بن خيزون ؟ ٤٨٥
 الوليد بن عبد الملك ؟ ٢٣ ، ٢٤ ، ٤٧ ، ٥٠
 ٥٤ ، ٥٥ ، ٥٧ ، ١٤٠ ، ١٤٣
 وليد بن غانم ؟ ٣١٣
 وليد بن معاوية ؟ ١٨٩
 الوليد بن يزيد بن عبد الملك ؟ ١٣٠
 وفتة بن شانجه ؟ أنظر إنيجوارستا
 وهب بن عامر ؟ ١٣٦
 وهب الله بن حزم ؟ ٢٦٢
 ياسر ، الفتي ؟ ٤٥١ ، ٤٥٢
 ياقب ، القديس ؟ ٢٢٠ ، ٥٥٩ ، ٥٩٦
 ياقوت الحموى ؟ ٤٤١
 يحيى الغزال (يحيى بن الحكم) ؟ ٢٥٣
 ٢٦٤ ، ٢٨٢ - ٢٨٥ ، ٦٩٣
 يحيى بن إبراهيم بن مدين ؟ ٢٧٦
 يحيى بن إدريس المتأيد ؟ ٦٧٢ ، ٦٧٣
 يحيى بن إسحاق ؟ ٣٨٠ ، ٤٦٢

يحيى بن حبيب ؟ ٢٨٤
 يحيى بن حريث الحذاني ؟ ١٣١
 يحيى بن الحسين الأنصارى ؟ ١٨٨
 يحيى بن سلمة الكلبي ؟ ٨٣
 يحيى بن صقالة القيسي ؟ ٣٢٨
 يحيى بن عبد الرحمن التجيبى ؟ ٥٥٠
 يحيى بن عبد الله ؟ ٢٥٥
 يحيى بن عبد الله بن يحيى ؟ ٥٠٣
 يحيى بن علي بن حدون الأندلسي ؟ ٤٩٣ ،
 ٥٠٠ ، ٥٠١ ، ٥٣٩ ، ٧٠٢
 يحيى بن علي بن حود (المعتل) ؟ ٦٦٢ -
 ٦٦٤ ، ٦٦٨ ، ٦٧٠ - ٦٧٢ ، ٦٧٥
 يحيى بن محمد التجيبى ؟ ٤٨٧ ، ٤٩٧ ،
 ٤٩٨ ، ٥١٢
 يحيى بن نصر القيسي ؟ ٢٣٦
 يحيى بن موسى بن ذى النون ؟ ٣٤٠ ، ٤٠٠
 يحيى بن نصر اليحصبي ؟ ٢٤٣
 يحيى بن هاشم ؟ ٤٠٢ ، ٤١٠ ، ٤٢٢
 يحيى بن هذيل ؟ ٧٠٢
 يحيى بن يحيى بن إسحاق ؟ ٤٥٥
 يحيى بن يحيى بن بكر ؟ ٣٣٩
 يحيى بن يحيى الليثي ؟ ٢٢٩ ، ٢٣٦ ، ٢٣٧ ، ٢٧٦
 ٦٩٢ ، ٦٩٣
 يدو بن يعلى ؟ ٥٤٦ ، ٥٤٧
 يزيد بن الوليد ؟ ١٣٠
 يزيد بن عبد الملك ؟ ٨٢
 يزيد بن معاوية ؟ ٢٠ ، ١٢٣
 يزيد بن المهلب ؟ ٥٧ ، ٥٨
 يعقوب الخوارى : أنظر ياقب القديس
 يعقوب بن أبي خالد التوزرى ؟ ٣٩٩
 يعقوب بن كلس ؟ ٥٣٥
 ينفقة بن وفتة ؟ ٢٦٠
 يوحنا ، حاكم قرطاجنة ؟ ٢١
 يوحنا الجورزبى ؟ ٤٥٦ - ٤٥٨ ، ٤٧٢
 يوحنا الثامن ، البابا ؟ ٣٥٩
 يوحنا الثاقب عشر ، البابا ؟ ٤٥٩
 يوحنا زمسكى ، القيصير ؟ ٤٩١
 يوستنيان ، الإمبراطور ؟ ١٨

يوسف بن عمر الأزرق ؛ ١٣٤	يوسف العيسى ؛ ٢٢٥
يوسف بن محمد التميمي ؛ ٤٩٧	يوسف بن إسماعيل بن نغزالة ؛ ٥٠٧
يوسف بن هارون البطليوسي ؛ ٤٩١	يوسف بن نخت ؛ ٢٧٤ ، ٢٢٦ ، ١٩٨ ، ١٥٢ ؛
يوسف بن هارون الرمادي ؛ ٨٠٣ ، ٧٠٢	يوسف بن عبد الرحمن الفهري ؛ ١٣٢ - ١٢٩ ،
يوليان ، الكونت ؛ ٢٦ ، ٣٣ - ٣٥ ، ٣٧ ،	١٣٤ - ١٣٦ ، ١٤٧ ، ١٤٨ ، ١٥١ -
٣٨ ، ٤١ ، ٤٢ ، ٤٥ ، ٤٨ ، ٤٩ ،	١٦٠ ، ١٦٢ ، ١٦٩ ، ١٨٦ ، ١٩٦ ،
٥١ ، ٥٢ ، ٦٠	٢١٤ ، ٢٨١ ، ٢٨٧ ، ٢٨٩

موسوعة الأندلس

تأليف الأستاذ محمد عبد الله عنان

تشتمل على سبعة مجلدات هي الآتية :

دولة الإسلام في الأندلس المجلدان الأول والثاني (الطبعة الرابعة)

دول الطوائف منذ قيامها حتى الفتح المرابطي (الطبعة الثانية)

عصر المرابطين والموحدين في المغرب والأندلس (مجلدان)

نهاية الأندلس وتاريخ العرب المنتصرين (الطبعة الثالثة)

الآثار الأندلسية الباقية في اسبانيا والبرتغال (الطبعة الثانية)

ويلحق بهذه المجموعة كتاب :

لسان الدين بن الخطيب ، حياته وتراثه الفكري
